الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

ورود التاريخ

تصنيف

روجر أوف ويندوفر (ت١٢٣٧)

(٤٤٧ــ١٢٣٥م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء التاسع والثلاثون

دمشق ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠م

الموسوعة الشامية في
تاريخ الحروب الصليبية

ورود التاريخ

الجزء الأول

(١٠٩٩—١٢٠٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة:

كان على رأس المصاعب التي واجهتها أثناء عملي في هذه الموسوعة مسألة استيفاء المصادر والانفاق عليها، وأعترف هنا أنني لدى شروعي بالعمل في هذه الموسوعة لم أكن مقدراً تماماً مقدار النفقات التي سوف أحتاجها لاستيفاء المصادر والحصول عليها، مع تقديري الكامل لحجم العمل ومتاعبه، مع الاستمرار بالعمل الجامعي وبنشاطات ثقافية أخرى متعددة، وليس من الغلو القول بأن ماأنفقته خلال السنوات الخمس الماضية تجاوز مايعادل مائة ألف دولار أمريكي، مع مواجهة لمردود ضعيف نظراً لمايعانيه الكتاب الآن في الوطن العربي، وللأوضاع الاقتصادية المتردية لجمهور القراء العرب، ولأن الناس لايثقون كثيراً بالكتاب الموسوعي قبل أن يكتمل.

وأثناء العمل لاقيت التشجيع من قليل من الناس في موقع المسؤولية السلطوية وفوجئت بموقف بعض الوزراء الأكاديميين في دمشق، لكن لم أعبأ بذلك، فأنا حين شرعت بعملي هذا كان اتكالي على الله واعتمادي المطلق عليه جلت قدرته، وذلك من مصدر ايماني ثابت، ومعرفة مؤكدة بما ذكره محمد بن الحسن الشيباني في كتابه الكسب بأن« هذا العلم دين»، فما من دين شجع على العلم مثلما فعل الاسلام الحنيف، الذي ترافقت بدايته بالقراءة والكتاب والقلم، ولم يعرف التاريخ الانساني أمة اعتنت بالكتاب والعلم مثل أمة الاسلام.

ومادام هذا العلم دين، فقد تكفل الله بحفظه، وعلى هذا الأساس كنت كلما واجهت صعوبة في الحصول على مصدر من المصادر، كانت تنفرج بعد وقت، لكن مع زيادات كبيرة وفوائد جديدة، فلقد سعيت

للحصـول على نسخـة من تاريخ متى باريس، الذي أرخ فيـه من سنة ١٢٣٥ حتى ١٢٧٣، وكان هذا الكتاب قد طبع منذ مائة وخمسين سنة، فلم أجد في لندن مبتغاي، كما لم أقف على نسخة منه في واشنطن، حيث كنت قد بعثت بابنتي إلى الولايات المتحـدة، وقد فتشت هناك فلم تقف على ذكر لهذا الكتـاب، وفي الوقت نفسه كنت كلما زارني أحـد الباحثين من العـالم الغربي أعطيه اسـم الكتاب وأتمنى عليـه مساعـدتي للحصول على نسخة مصورة منه.

وأثناء مؤتمر أكاديمي انعقد منذ عـام في مدينة الرياض التقيت بمدير القسم الشرقي في مكتبـة جامعـة كمبردج، وطلبت مساعـدته، وبالفعل كتب لي عن وجود نسخة من الكتاب في جامعة كمبردج، وأن تصويرها ســوف يكون باهظ النفقـات، وقـال بأن هناك كتـاباً اسمـه« ورود التـاريخ»، يعدّ هو الأصل لتـاريخ متى باريس، وهنا انفتح أمـامي باب معـرفـة جـديدة مع أمل بالحصـول على نسخـة من تـاريخ متى باريس، وبالفعل زارني صـــديق قـديم مقيـم في لندن، فأعطيتـه اسـم الكتـاب، وبينت له أن معلوماتي بأنه طبع بالتصوير حديثاً وأنه متوفر في المكتبات، وناولته مايغطي ثمن نسخة مع أجور البريد وزيادة.

وســافـر الرجل إلى لندن، ومع أنـه قـدم إلى دمشق بعــد ذلك أربع مـرات، لكنه لم يجلب شيئاً معـه، وكـــان في كل مـرة يعتـذر بشكل من الأشكال، وحـــدث في تلك الآونـة أن تلقيت من ألمانيـــا طرداً بـريدياً، عندما فتحته فوجئت بوجـود نسخة مصورة من تاريخ متى باريس فيه، فسررت كثيراً، وقد أرسله صديق حلبي متـزوج من ألمانية، زارني معها، ذلك أنها كانت تعد رسـالة دكتوراه في التاريخ، وبعد مـرور عدة أشهر تسلمت صورة نسخة أخرى من تاريخ متى نفسه من مونتريال في كندا، أرسلتها سيـدة سورية من درعا تعيش هناك، وتحضر رسـالة دكتوراه في التاريخ العبـاسي، ولما يئست من وصول نسخـة من« ورود التاريخ» من

لندن، قــام ابني مصطفى الذي يختص بالطب هناك بتأمين نسخــة لي، وهكذا بات لدي نسخـة من ورود التـاريخ مع نسختين من تاريخ متى باريس، ولدى دراستي للكتـابين تبين لي أن« ورود التـاريخ» مصنف في التاريخ بدأ أخباره بالخليقـة، وهكذا حتى سنة ١٢٣٥م، وقد جرى سنة ١٨٤٨ نشر جزء منه تضمن أخباره من سنة ٤٤٧م، حتى نهاية الكتاب، وجــاء ذلك في أربعـــة مجلدات، وطبعت هذه المجلـدات في لندن سنة ١٨٤٩، ونسب هذا الكتـاب إلى روجــر أوف ويندوفـر Wendover، الذي لانعـرف شيئاً مؤكـداً عنه غير اسمـه، ونستخلص من هذا الاسم أنه كــان من أهالي بلـدة ويندوفــر في بكنهـام شير، لكـن لاندري سنة ولادته ولادرجة تعليمه ولاتاريخ أخذه بالرهبانية في دير القديس ألبان، ولقد تدرج في المناصب حتى صـار قائد جـوقة المرتلين في ديره، وترقى بعد ذلك إلى مـرتبة رئيس الرهبـان في بلفوير Belvoir ، وهو مـــركز رهبـاني ملحق بدير القـديس ألبـان، ولعلـه وصل إلى هذا المنصب أيام الملك جـون— أخو رتشارد قلـب الأسد— وقـد عزل منه بعـد ارتقاء هنري الثالـث للعرش، وذلك بحجة تبـديده لأموال بيتـه الديري، لأنه كان مبذراً.

وقد استقينـا هذه المعلومات من متى باريس، الذي ستكون لنا وقفـة معه في المستقبل، حيث يبـدو أن متى أخذ كتاب« ورود التـاريخ» وأعاد نسخـه مع تعــديلات طفيفـة وذيل عليـه، وأوصل أخبــاره حتى سنة ١٢٧٣، هذا وجـرى فيها بعـد استـدعـاء روجـر أوف ويندوفـر إلى دير القديس ألبان حيث توفي في يوم السادس من أيار سنة ١٢٣٧.

وكتـاب« ورود التاريخ» كتـاب بالغ الأهميـة، فيه مـادة مفيدة جـداً، استقـاها مصنفه من مـؤرخين أوربيين غربيين وشرقيين بيـزنطيين، ومع ذلك وقع اختيـاري على ماتعلق ببدايـة الحروب الصليبية منذ ١٠٩٥م، لدى انعقاد مـؤتمر كليرمونت برئـاسة البابا أوربـان الثاني، وجعلت هذا

الاختيار في مجلدين، ينتهي أولهما مع أخبار سنة ١٢٠٠م، وينتهي ثانيهما مع نهاية الكتاب، ذلك أنه على أهمية مواد الكتاب كلها، إن الأخبار التي عاصرها المؤلف وتشمل خمس عشرة سنة هي الأعظم أهمية وتفصيلاً.

ولم ألجأ في تعاملي مع مواد هذا الكتاب إلى أعمال الإنتقاء، لأن كل مافيه هام بشكل مباشر أو غير مباشر بالنسبة لأحداث الحروب الصليبية، لأن العرب آنذاك، وبشكل محدد منذ أن وحد نور الدين بلاد الشام مع مصر، وقفوا في وجه أوربا كلها، وشكلوا مكافئا لها حتى معركة مرج دابق واحتلال العثمانيين لأرض الشام ثم مصر.

أرجو أن تحصل الفائدة من هذا الكتاب، وأن يمنحني الله القدرة والعون على اكمال مشروع هذه الموسوعة، ولله الحمد دوماً وأبداً، فأفضاله لاتعدّ ولاتحصى، وصلى الله على نبيه المصطفى، وعلى آله وصحبه أجمعين.

دمشق:٢٣ رجب ١٤٢١هـ.

٢١ تشرين الأول٢٠٠٠م.

سهيل زكار

المجمع الذي عقده البابا أوربان بخصوص الحملة إلى أنطاكية

في السنة نفسهـا، أي في سنة ١٠٩٥م عقـد مـولانا أوربان مجمعـاً في كليرمونت وهي مدينة في أوفرين Auvergne، وأصدر الأوامر التـالية المتوجب مراعاتها من قبل الكنيسة كلها:

لايجوز لأي سقف، أو راعي دير، أو أي واحـد من رجـال الدين، تسلم أية مرتبة دينية من أيدي أمير أو أي واحد من العلمانيين.

لايجوز لأي رجل دين شغل عملين في كنيستين أو في مدينتين.

لايجوز لأي واحد أن يكون أسقفاً وراعي دير في الوقت نفسه.

لايجوز شراء أو بيع أي مرتبة لاهوتية.

لايجوز لأي واحد، مهما كـانت مرتبته في الطوائف المقدسـة استخدام التجارة الجسدية.

إن الذين حصلـوا على منافع بسبب جهلهم للقـانون سـوف يعفى عنهم.

إن الذين يحتفظون عن معـرفـة بأوقـاف كنسيـة شروها هم أنفسهم، أوشريت من قبل آبائهم سوف تنتزع منهم.

لايجوز لأي رجل علماني أكل لحم من أربعـاء الرمـاد(أول الصـوم الكبير)، كمالايجوز لأي رجل ديـن أكل لحم من أحـد الخمسين حتى الفصح.

إنه في جميع الأوقات سوف يكون الصـوم الأول للفصول الأربعة في الأسبوع الأول من الصوم الكبير.

إن الطوائف المقدسة سوف تكون في جميع الأوقات في أوضاع مهيبة،

وإما في عشية يوم السبت أو يوم الأحد، إذا ماستمر الصوم.

إنه مـــامن مكتب يكون في وضـع مهيب في سبت الفصح، إلاّ بعـــد الساعة التاسعة.

يحتفل بالصوم الثاني في اسبوع أحد العنصرة.

إن جميع الأوقات من الأحد الرابع قبل الميـلاد حتى اليوم الثامن من عيد الغطاس، وكـذلك من أحد الخمسين إلى اليـوم الثامن من الفصح، ومن اليوم الأول من أيام الإبتهـال إلى اليوم الثامن بعـد أحد العنصرة، ومن اليـوم الرابع من الاسبوع، عند غيـاب الشمس، حتى اليوم الثـاني من الاسبـــوع، عند اشراق الشمس، ســوف تكون أيام هـدنة(للرب)، ينبغي مراعاتها.

إن كل من يعتقل أسقفا، يعدّ من جميع الجوانب، خارج القانون.

إن كل من يعتقل أي رجـل دين، أو أيا من خـدمهم، ســوف يكون ملعونا.

إن كل من يسلب سلـع الأسـاقفـة أو رجـال الديـن، سـوف يكون ملعوناً.

إن كل من يتـزوج في إطار القرابة الوثيقـة حتى الجيل السابع ســوف يكون ملعوناً.

لايجوز انتخاب أي انســان إلى الأسقفية، مالم يكن كـاهنا، أو شماساً، أو معاون شماس، أو أن يكون مـن حيث الأصل محترماً بما فيـه الكفاية، وذلك مـــالم تكـن هناك ضرورات ملحـــة، ويكون ذلـك بترخيص من البابا.

ولايجوز السماح لأبناء الأساقفة، أو لأبناء خليـلاتهم بالدخول بسلك الكهنوت، مالم يكونوا قد تبنوا الحياة الرهبانية أولاً.

إن كل من فـر إلى الكنيسـة أو إلى الصليب، سـوف يكون آمناً على أعضائه، وسوف يحول إلى العدالة، أو يطلق سراحه إذا كان بريئاً.

إن لكل كنيسة عشورها الخاصة، التي لايجوز تحويلها إلى أي آخر.

لايجوز لأي علماني شراء أو بيع العشور.

لايجوز استيفاء رسم من أجل دفن الموتى.

وجـدد البـابا أوربان في هذا المجمـع أوضـاع هيلـد براند Hilde-brand [بابا روما] والحرمـان الكنسي لفيليب ملك الفرنسيين، لأنه متزوج زوجـة رجل آخر، أعني زوجة فولك كـونت أوف آنجو، مع أن الكونت وزوجته السالفة كانا معا أحياء.

موعظة البابا في المجمع حول الحملة إلى الأرض المقدسة

عندمـا شارفت أعمال المجمع— الذي عقـد في تشرين الأول— على الانتهاء، وجه البابا موعظة إلى الناس حول حمل الصليب، وفق الطريقة التـاليـة، حيث قـال:« إخـواني، وأعـز أبنائي، سـواء من الملوك، أو الأمـراء،أو الدوقـات، أو المركيـزات، أو الكونتـات، أو البـارونات، أو الفرسان، وكذلك أنتم الذين في الطوائف، وباختصار أنتم جميعاً، الذين أنقذتم بالآلام الجسـدية، وبسفك دم مولانا يسـوع المسيح، استمعوا إلى شكاوى الرب نفسـه، التي وجهت بـالخطاب إليكم جميعـاً، حـول الأخطاء، والأذى الذي لايوصف، الذي أنزل به.

فبعد سقـوط الملائكة، خلق الله العالم، وقسمـه إلى ثلاثة أجزاء هي: أوروبا، وآسيا، وأفريقيـا، ووضع الناس بهم، ليزيلوا ردة سكان السماء، ولكي يتمكنوا مـن استحـواذ الأرض وعبـادته فيهـا مع المخلوقـات الأخرى، وليتمكنوا بعد الموت من الصعود والحكم معه في السماء، لكن بعـد وقت قصير ضل الجنس البشري، بعدم الطاعـة وبالعـدوانية ضـد

الرب، ووصل الأمر إلى حد أنه لم يعد هناك بين الجنس البشري، أحد عمل خيراً، ذلك أنه ممايرعب النفس أن العالم كله بات مليئاً بغير المؤمنين، وبالكفار المجدفين، الذين عبدوا العصي والحجارة، وهكذا إنه لخزي المسيحيين القلائل الذين بقوا، استولى غير المسيحيين على سورية، وأرمينية، ومقاطعات آسيا الصغرى: بيثينيا، وفريجيا، وغلاطيا، وليديا، وكاريا Caria، وبامفيليا، وايرانيا Iraenia، وليشيا Lycia، وكليلية، واحتلوا أيضاً، وتملكوا بشكل أبدي آسيا، الجزء الثالث من العالم، والتي لاقت تقديراً عالياً من قبل أجدادنا مساوياً لامتدادها إلى الجزئين الآخرين، حيث فيها لاقى جميع الرسل— باستثناء اثنين— الشهادة من أجل الرب.

وفي هذه المناطق، يدفع المسيحيون— إذا كان قد بقي أحد منهم— الجزية إلى هؤلاء غير المسيحيين، ومع الشعور بالخزي، نقول إنهم استحوذوا الآن على أفريقيا، التي هي الشطر العظيم الثاني الآخر من أجزاء ذلك العالم وهم منذ ثلاثمائة سنة وأكثر، يتملكون ذلك العالم الذي كان من قبل الحاضن لقدرات رائعة، وموثوقة، وذلك بإعطاء بني البشر الكتابات المقدسة، وبقمع آثار الكفر، كما هو معلوم لجميع الذين يعرفون الأدب اللاتيني.

وفي الجزء الثالث من العالم الذي هو أوروبا، التي نتملك نحن المسيحيون شطراً صغيراً منها، إن ذلك الشطر مهدد بشكل متواصل من قبل الأتراك والمسلمين، هذا وإن اسبانيا وجزر البليارد خاضعة لهم منذ ثلاثمائة سنة، وهم يأملون الآن بالتهام المتبقي، فلقد استولوا على ايليريا Illyricum وعلى جميع المنطقة التي دونها وذلك حتى البحر، الذي اسمه ذراع القديس جورج(البوسفور)، وهم يدّعون ملكية ضريح ربنا، ويبيعون بالمال إلى حجاجنا إذن الدخول إلى المدينة المقدسة، التي ينبغي أن لاتكون مفتوحة لأحد غير المسيحيين لو أن في صدورهم القليل من

فضيلة الايمان.

وعلى هذا، أعدوا أنفسكم للقتال يامقاتلي الشجعان، ومن أجل حملة لاتنسى ضد أعداء الصليب، واجعلوا علامة الصليب تزين أكتافكم، كدليل على أنكم سوف تقدمون العون من أجل نشر المسيحية، ودعوا جهودكم الظاهرية تعبر عن إيمانكم الداخلي، أديروا ضد أعداء المسيح هذه الأسلحة التي حتى الآن لطختموها بالدماء في القتال والمبارزات فيما بينكم، ولتكن غيرتكم في هذه الحملة تكفيراً عن السلب، والسرقة، والقتل، والفسوق، والزنا، وأعمال الحرق المتعمد، التي بها أثرتم غضب الرب.

لتكن لديكم رحمة نحو إخوانكم الذين يسكنون القدس وفي السواحل هناك، وأوقفوا رعونة البرابرة، الذين هدفهم هو تدمير الاسم المسيحي، وبالنسبة لنا نحن، اننا سنثق برحمة الرب القدير، وبسلطان رسوليه المباركين: بطرس وبولص، وبفضائل القدرة التي منحنا الرب إياها، مع أننا غير جديرين بها، ولربط وتحليل جميع الذين سينضمون إلى هذه الحملة بأشخاصهم، وعلى نفقتهم، إنهم سوف يتلقون عفواً عاماً عن جميع ذنوبهم، التي سوف يستغفرونها في قلوبهم، مع الاعتراف بها بشفاههم، وزيادة في توزيع العدالة، نحن نعد هؤلاء أنفسهم بشطر زائد من الخلاص الدائم، وهذا الغفران سوف يشمل أيضاً جميع الذين سوف يسهمون وفقاً لقدراتهم في سبيل نجاح هذه الحملة أو سوف يقدمون نصائحهم، أو مساعدتهم من أجل تقدم نجاحها واستطراده.

وعلى هذا انطلقوا أيها الفرسان الشجعان، واضمنوا لأنفسكم الشهرة في العالم، وتخلوا عن جميع المخاوف من الموت وانفوها من عقولكم، لأن آلام هذا العالم لايمكن مقارنتها مع المجد المستقبلي الذي يتجلى لنا، وهذه هي أوامرنا لكم أيها الحضور، وهذه هي تعليماتنا حتى توصلوها إلى الغياب، ونحن نعين الربيع المقبل كموعد لبداية عمليتكم، والرب

سوف يرافقكم في زحفكم، والموسم السنوي سوف يكون موائماً في كل من وفرة الثمار وفي جودة الأنواء.

والذين سوف يموتون سوف يجلسون في قاعة الضيوف السماوية، والذين سوف يبقون أحياء سوف يرون بأعينهم ضريح ربنا، وسعداء هم المدعوون إلى هذه الحملة، لأنهم سوف يتمكنون من رؤية الأماكن المقدسة التي تحدّث فيها ربنا مع بني البشر، والذين من أجلهم قد ولد، وصلب، ومات، ودفن، وقام ثانية».

ولقد كانت هذه كلمات أوربان، حيث أمر بعدها أساقفة الكنيسة الذين كانوا حضوراً بالعودة إلى أوطانهم، وتحريض الناس الذين تحت عهدتهم باخلاص وفهم، للمشاركة في الحملة المتقدم ذكرها.

حول أسماء النبلاء الذين حملوا الصليب وحول اجماعهم

عندما سمع رجال الدين والشعب كلمات الخطبة المذكورة أعلاه، رددوا بصوت واحد الموافقة على الموعظة، وأعلنوا عن استعدادهم للذهاب والقيام بالحج، ومع هذا قام بعض النبلاء الذين كانوا في المجمع، فألقوا بأنفسهم وجثوا على ركبهم أمام البابا، وكرسوا أنفسهم وكل مايملكون لصالح المسيح، وكان الأول بين هؤلاء أدهمر أسقف بوي، الذي تلقى من يد البابا علامة الصليب، وقد جاء على الفور وليم أسقف أوراشيا Aurasia ، وحشد من الآخرين من جميع الأعمار والأوضاع، وبعد انتهاء أعمال المجمع، عادوا جميعاً إلى الوطن، وانتشرت شهرة الذي حدث خلال العالم، ولم تقتصر إثارتها على البلدان المتوسطية بل شملت أيضاً جميع الذين كانوا في الجزائر النائية، أو الذين كانوا في الشعوب البربرية، ممن سمعوا باسم المسيح.

وكان من بين الذين حملوا الصليب: هيوج الكبير، أخو فيليب ملك فرنسا، وغودفري دوق اللورين، وريموند كونت طولوز، وروبرت

دوق نورمـاندي، وبوهيموند، الذي كـان من أبوليـا من حيث المسكن، إنما كان نورمـاندياً من حيث المولد، وروبرت كونـت فلاندرز، وستيفن كونت تشارترز، وبلدوين ويوستاس، أخوا الكونت غودفري، وبلدوين ثاني هو بلدوين أوف بورغ، وغارنر كونت ديجرس Degres، وبلدوين كـونت أوف أمـانسي Amanci، وايسـوارد Isoard كـونت دييDie، ووليم كــونـت أوف فــوري Foreis ، وستيفن أيرل أوف ألبمارلAlbemarle، وروتو كونت بيرشي Perche ، وهيوج كونت أوف سينـت بول، وهنـري دي أسكـا Asca ، ورالف دي بانغنتياك Bangentiac، وهيبراندي بـوسـاك، ووليم أمـون Amauen ، وغنتـون دي بار، وغـاست دي بدري Gast De Bederi ، ووليم دي مـونـت بيســولان Pessulan ، وجـيرالد دي كيريسـياك Ceresiac ، وروجـردي بـارنيفل Barneville وغي دي بوسس Possessa ، وغي دي غارلانديا Garlandia ، وتوماس دي سبريــا Sprea ، وغالودي شومنت Chaumont، وستيفـــن كـونت أوف بلوا، وكــان هؤلاء جميعـا هم مقـدمي وقـادة الفـرسـان والآخرين من المؤمنين، الذين انتظروا الوقت المناسب للانطلاق، وكانوا مستعدين مع كتل بشرية كبيرة من الرجـال المسلحين للالتحاق بالأعمال العسكرية الصليبية، وبشكل خاص لتكريس أنفسهم لهذا الحج من أجل اسم المسيح.

حول الرؤيا التي عملت لبطرس الناسك بخصوص المغامرة المساه أعلاه

لقـد أثيرت هذه المهمـة العسكريـة كثيراً بوسـاطة أعمال التبشير التي تولاها بطرس الناسك، والحديث عن هذه الأعمال لن يكون بدون ثمار، من أجل فـائـدة الذين لم يسمعـوا بها قط، ولاسيما الـرؤيا الربانيـة التي عملت له، فقـد كـان هناك راهبـاً اسمـه بطرس، يمارس أعمال النسك،

وكـان قبل قليل من وقوع هذه الأحـداث قد ارتحل إلى خـارج فرنسـا، ذلك أنه كان مرتبطاً بعهد الحج إلى الأرض المقدسة، وكان عندما وصل إلى مقصده، دفع الرسم الذي كان مفروضـاً بموجب القانون الذي تولى تنظيم قبـول الحجاج، ودخـولهم المدينة، وقـد تسلم مقـر إقامـة في بيت أسرة مسيحية، وسمع من مضيفه رواية عن الأوضاع التعيسة للمؤمنين الحقيقيين، الذين أقاموا تحت سلطة المسلمين، وتأيد الذي سمعه هنا فيما بعد بما رآه شخصياً بأم عينيه.

وقد سمع بأن سمعان بطريرك المدينة، كـان رجلاً متديناً وكان يخاف الرب، وقـد ذهب إليـه وتحدث إليـه كثيراً، وكـان هـذا البطريرك— استخلاصـاً من كلمات بطرس— رجلاً واعياً، وقـد بين له جميع المعاناة التي يتحملهـا شعب الرب، الساكنين في تلك المدينة، وتعـاطف بطرس مع التعـاسة التي عـانى منهـا إخوانه، ولم يستطع منع نفسـه من البكاء، وقد قال للبطريرك:« كن متأكداً لو أن الكنيسـة الرومانية وأمراء الغرب، أمكن إعلامهم بهذه الأوضاع والأحـوال المأساوية من قبل من يمكنهم الاعتماد عليه، لكان من المؤكـد بذلهم الجهد لإيجاد عـلاج لماتعانون منه، وبناء عليه اكتب رسـالة إلى السيد البابا، وإلى الكنيسة الرومـانية، وأيضاً إلى ملوك وأمـراء الغرب، وأنا— ليعينني الرب، ولأجل إنقـاذ نفسي— سوف أتحدث عن ضخـامة عـذابكم، وسوف أدعـو الجميع وكل واحد للاسهـــام في سبيـل تخليصكم»، وقـــد أفـــرح هذا الكلام البطـريرك والآخـــرين الذين كـــانوا حضـوراً، ووضع في يـد بطرس، مع كثير من الشكر— الرسالة التي طلبها.

وحـدث أنه في أحـد الأيام، أن كـان رجل الرب هذا قلقـاً أكثـر من المعتاد، وراغبا بالعودة إلى بلده، حتى يتمكن من تنفيذ المهمة التي تعهد بها، وقـد وجـه تفكيره نحو نبـع الرحمة، فدخل إلى كنيسـة قيـامـة ربنا، حيث أمضى الليل في صـلاة وصـوم، وأخيراً، وقد وجـد نفسـه منهكاً

تمدد فوق البلاط ليتمتع بقليل من النوم، وماأن كاد يغمض عيناه حتى رأى ربنا يسوع المسيح، واقفاً أمامه، وهو يحثه على تنفيذ المهمة المذكورة أعلاه، ويقول له:« انهض يابطرس، وأسرع، ونفذ بدون خوف، الذي عهد به إليك، ذلك أنني سوف أكون معك، لقد آن الوقت لتطهير الأماكن المقدسة، ولنجدة عبيدي والتفريج عنهم في تعاستهم».

واستيقظ بطرس وهو مطمئن بالرؤيا الربانية، ورحب بالنصيحة الربانية، ولم يعد يشعر بالخوف والأسى بل قدم صلاتاً، ثم بادر مسرعاً نحو شاطىء البحر، وصعد هنا إلى ظهر سفينة، ووصل بعد رحلة موفقة إلى باري، وتابع من هناك إلى روما، حيث وجد البابا أوربان، فأعطاه رسالة البطريرك، وقدم له رواية متوازنة وصادقة حول التعاسات التي يعاني منها الذين في الأرض المقدسة، واستقبله البابا بلطف، ووعده أنه سوف يتعاون معه في الوقت المناسب باخلاص عظيم، وسافر بطرس خلال ايطاليا كلها، ثم قام بعد أمد بعبور الألب، وتمنى على أمراء الغرب بكل اخلاص أن لايسمحوا للأماكن المقدسة— التي عينها الرب لتتشرف بحضوره—بالبقاء مدة أطول وهي ملوثة بدنس غير المسيحيين، ثم إنه لم يرتح راضياً بهذا، بل إنه شجع الناس والذين كانوا أدنى مرتبة، على القيام بهذا الواجب المقدس نفسه، وهكذا قام بطرس مع مرور الأيام، مع حشد كبير من الناس، كان قد جمعه بعد كثير من المتاعب من فرنسا والامبراطورية، بالالتحاق بالحملة المسلحة، وسعى باخلاص في سبيل مصالح الصليب.

حول وولتر الذي كان الأول بالانطلاق إلى الحج

في سنة ١٠٩٦م، وفي شهر آذار، وفي اليوم الثامن من ذلك الشهر، انطلق وولتر الذي لقبه سان— أفوير Sans-avoir (والمعروف بالمعدم)، وكان رجلاً من أصل نبيل، انطلق مع حشد كبير من المشاة

المسلحين، وقد كان معه قليلاً من الفرسان، كما أنه كان الأول فيمن حمل الصليب، في الانطلاق بالحملة، ومن ثم عبور مملكتي ألمانيا وهنغاريا، والوصول إلى نهر ماروك Maroc ، وعبر هذا النهر، فدخل إلى بلاد بلغاريا، ووصل إلى مكان كان اسمه بلغريف Belgrave ، حيث كان بعضاً من أتباعه قد بقيوا في مالا— فيلا Mala-villa[سملين Semlin] من دون أن يعرف هو بذلك، وذلك من أجل شراء بعض المؤن، حيث ألقي القبض عليهم من قبل البلغار، وجردوا من ثيابهم، وعراهم البلغار وجلدوهم، وبعد ذلك أعادوهم إلى رفاقهم، وبناء عليه طلب وولتر إذنا من دوق بلغاريا لشراء ضروريات وحاجيات، وعندما لم يحصل على طلبه أقام معسكره أمام مدينة بلغريف، وعانى هنا من خسائر عظيمة، لأنه لم يستطع ضبط جيشه الذي كان بحاجة ماسة إلى المؤن، لأنهم عندما لم يسمح لهم بشراء أي شيء من بني البشر الأشرار هاجموا القطعان والأسراب العائدة للبلغار، وحملوها معهم إلى معسكرهم، ولدى سماع البلغار بهذا حملوا أسلحتهم لإنقاذ ماسلب منهم، وهزموا النهابين، وألقوا النار في المعسكر، الذي إليه هرب مائة وخمسون من أجل الحماية، وقد أحرقوهم جميعاً، أماباقي الرجال فهربوا.

ثم وصل وولتر بعد هذا مع جيشه إلى سترالايس Stralice التي كانت عاصمة داشيا الداخلية وقدم شكوى إلى حاكم المدينة ضد الأذى الذي اقترف بحق جيش الرب من قبل البلغار، وبعدما حصل على ترضية كاملة لما لحق به من أذى، استأنف سيره من هناك نحو المدينة الملكية(القسطنطينية) حيث مثل في حضرة الامبراطور ألكسيوس، وطلب منه السماح له مع جيشه بالبقاء قرب المدينة، حتى وصول بطرس الناسك، مع إذن عام بالبيع والشراء ووافق الامبراطور ومنحه هذا الامتياز.

حج بطرس الناسك

وكـان التـالي لوولتر بالانطلاق للقيـام بـالحج، هو بطرس الناسك، الذي ارتحل عبر اللورين، وفـرانكونيـا، وبافـاريا، والنمسـا، ووصل إلى حدود هنغاريا مع أربعين ألف رجل مسلحين ، ومن هناك تابعوا السير نحو مالا— فيلا، وهناك سمعوا بالخسـائر الكبيرة التي عانى منها أتباع وولتر هناك، فحملوا سلاحهم ونهبوا ماكـان العدو قد سلبه وعلقه على أسوار المدينة كـرموز على ماناله من الصليبيين، ذلك أن ذلك المنظر قد مـلأهم بغضب محق، ولذلك حملـوا أسلحتهم واقتحمـوا المدينة، وقتلوا بالسيف أو أغـرقـوا بالنهر جميع السكان تقـريبـاً، وبعـدما استـولوا على المدينة على هذه الصورة، مكثوا فيهـا لمدة خمسة أيام، لكن بطرس عندما سمع بأن ملك هنغاريـا كان يحشد قـواته للانتقام للمـذبحة التي نزلت برعـاياه، أعطى أوامره إلى الجيش لإعتماد كل سرعـة في عبور النهـر مع القطعان والأسلاب التي أخذوها من المدينة، وهكذا وصلوا بعد زحف استمر مـدة ثمانية أيام إلى أمـام مدينة نيش Niz الحصينة، وعبروا النهر، ونصبـوا معسكرهم هناك، وعندمـا حلّ وقت المغـادرة، زحفت الكتلة الأسـاسية من الجيش نحـو الأمـام، لكن بعضاً من الأتبـاع الحمقى من أصل ألماني انفصلوا عن البقية، وألقوا النار في سبعة أرحاء كانت قائمة على مقربة من الجسر الذي تقدم ذكره، وكـان تعداد هؤلاء حوالي المائة، وقام هؤلاء في سبيـل ارضاء جنونهم، فأضـافوا إلى تعاستهم، بـأن ألقوا النار بالطريقـة نفسهـا في بيـوت بعض الناس، التي كـانـت قـائمـة في الأرباض، ثم إنهم بادروا مسرعين للالتحـاق بالجيش الذي كـان تقـدم أمامهم، لكن سيـد تلك المنطقة، وقد أغضبه ماحـدث، استدعى شعب المدينة، وشجعهم على حمل السـلاح، وانطلـق على الفـور مع كتلة كبيرة من الناس ليتمكن من اعتقـال النهـابين، قبل التحـاقهم ببقيـة الجيش، وعنـدما وصـل إليهـم هاجمهـم بشـدة، وجعل معظمهم طعمـة

للسيف:

وكـان بطرس جاهلاً تماماً بجميع هذه الحوادث، لأنه كان مشغـولاً بقيادة الجيش الذي تقـدم نحو الأمام، لكنه عندمـا سمع بالذي حدث، عقـد اجتماعاً مع كبـار ضباطه، وبناء على نصيحـة منهم رجع إلى المكان الذي تمددت فيــه جثث الذين قتلوا، ولقــد بكى لدى رؤيتــه لجثثهم، وكـان راغبـاً في معـرفـة سبب مثل هذا العمل الدمـوي، وفي سبيل هذه الغاية بعث رسولاً إلى سادة المدينة، وعلم منهم أن مـاحدث جاء نتيجة غضب محق لسكان المدينة، وهنـا تهورت مجمـوعــة قليلة من الحجــاج بمحاولة الانتقـام فأيدتها فرقة كـاملة أثيرت بالرغبة بالانتقـام لما حدث لهم، وكـان تعــداد المتهـورين المقترفين لعمل أحمق ضــد المدينة حـوالي الألف رجل، وعندها خـرج بعض سكان المدينة للتصـدي لهم، فأعقب ذلك معركة قاسية جداً، وقد قتل خمسمائة من رجالنا على الجسر، وغرق البقيـة لأنهم كانوا يجهلون مخاضـات النهـر، ولدى وقوع هذه الهزيمـة القـاسية ومقتل رفـاقهم، غضب رجـال جيش بطرس، وبادروا إلى حمل سلاحهم ومن ثم إلى القتال، فكان أن جرى قتل حوالي عشرة آلاف من الحجاج، واستولى البلغار على أموال بطرس، وذلك مع عربته وكل شيء كان لديه.

وبعد مضي أربعـة أيام عاد جمع الذين هربوا وانهزموا، وكـانوا حوالي الثـلاثين ألفاً، فأعـاد هؤلاء تجهيـز أنفسهم لاستئناف رحلتهم، وبالفعل تابعوا سفرهم، لكن مع كثير مـن المصاعب، وبعد زحف سريع وصلوا إلى القسطنطينية، وهنا قـابل بطرس الامبراطور، وبناء على ذلك أقام مع جيشه عدة أيام، ثم إنه— بناء على أوامـر الامبراطور— عبر البوسفور، ودخل إلى بيثينيـا، التي كـانت أول المقـاطعـات الآسيـوية، ومن هناك وصلوا إلى مكان قائم على البحـر نفسه اسمـه سنتوث Cinitoth حيث نصبوا معسكرهم.

موت الثلاثين ألفاً من الصليبيين

وقام هذا المكان على حدود المملكة التركية، وكان فيه وفرة من كل شيء، خاصة بالمؤن، وعندما مكثوا هناك لقرابة شهرين، شرع قسم من هؤلاء اللاتين، وكان تعدادهم عشرة آلاف رجل، باجتياح المنطقة وسوق القطعان والأسراب والاستيلاء عليها، وقد زحفوا في صفوف عسكرية نحو مدينة نيقية، ثم عادوا إلى معسكرهم مع كثير من الأسلاب، ودون أن يفقدوا رجلاً واحداً، وعندما شاهد الشطر الألماني في الجيش كيف أن اللاتين قد نجحوا في تلك المغامرة، قرروا القيام بمحاولة مماثلة، وبناء عليه انطلق حوالي عشرة آلاف منهم بصحبة مائتي فارس نحو مدينة نيقية، ومنها إلى بلدة كانت على بعد نحو أربعة أميال منها، وقاموا بهجوم عنيف جداً عليها، وقد تغلبوا على جميع من تصدى لهم من السكان، واستولوا على البلدة، وقتلوا جميع من كان فيها من سكان، وحصلوا على أسلاب كثيرة، وشحنوا الحصن، وأعجبوا بخصب المنطقة وطبيعتها المرضية، ولذلك قرروا الإقامة هناك حتى وصول الأمراء، لكن حدث أن(قلج أرسلان بن) سليمان، الذي كان صاحب المنطقة، قد سمع بأن الجنود الألمان قد قرروا البقاء والاحتفاظ بالبلدة، فزحف إلى هناك بكل سرعة، وحاصر الحصن واستولى عليه عنوة وجعل طعمة للسيف كل من وجده فيه، وفي الوقت نفسه انتشر الخبر في المعسكر بأن العساكر الألمان قد وقعوا في أيدي(قلج أرسلان ابن) سليمان، وعندما باتت هذه الحقيقة معروفة، هب الجيش إلى السلاح على الرغم من إرادة قادته، وتوفر ساعتها خمسة وثلاثين ألفاً من الرجالة وخمسمائة فارس، فزحفوا على تعبئة قتالية نحو نيقية، وقد وجدوا(قلج أرسلان بن) سليمان مع حشد هائل من التركمان في السهل، وقد هاجموه بكامل القوات، ولكن الأتراك الذين عرفوا أنهم يقاتلون في سبيل حياتهم، قاوموا بعنف، وتمّ الضغط بشدة على

الصليبيين، حتى أنهم لم يعـودوا قـادرين على تحمل ثقل القتـال، ولذلك مزقوا صفوفهم وتخلوا عن مواقفهم، وشرعوا بالفرار، وأخذ الأتراك في الوقت نفسـه بمطاردتهم وألحقـوا بهم خسـائـر وهزمـوا الجيش، وهناك سقط في تلك المعـركـة: وولتر المعـــدم ، ورينالد دي بريس Breis ، وفولتشر أوف أورلين، وثلاثين ألفاً من الرجـالة، وخمسمائة من الفرسان الذين خرجوا من المعسكر، ولم ينج أحـد تقريباً من القتل أو من الأسر، وهكذا كانت أحداث هذه المعركة، معركـة عدم الطاعة ، التي قاتل فيها الناس بتهور عظيم، مـراغمة لأوامر قائـدهم الذي نصح جيشه الجاهل بالبقاء منتظراً عند القسطنطينية حتى وصول الأمراء الذين كانوا قادمين خلفـه على الطريق، والذين كـانـوا أكثـر حكمـة من رجـال هذا الجيش أنفسهم، وأعظم خبرة في المسائل العسكرية.

هذا ولم يقتنع[قلج أرسـلان بن] سليمان بـالنصر الذي ناله، فهـاجم المعسكر بحـــدة، وجعل الذين فيـــه طعمـــة للسيف من دون رحمة، من شيوخ وصغار، ورهبان ورجال دين، وعقيلات، وفتيات، وأطفال، علما بأن بعضهم قد توسط عمـرهم أو شكلهم لصالحهم، فأنقـذت حياتهم، ليكونوا عبيداً أرقـاء مدى الحياة، وكان على كل حال، يـوجد على مقربة من المعسكر إلى جانب شـاطىء البحر، قلعة قديمـة غير مسكونة، إليها فـرّ ثلاثة آلاف من الحجـاج للنجـاة من الموت، ، وألقى[قلج أرسـلان ابن] سليمان الحصـار فـوراً عليهـا، لكن الذين كـانوا فيهـا دافعـوا عن أنفسهم بشجـاعـــة، وتمكن بالوقت نفســه بطرس من المثـــول بحضرة الامبراطور، واقناعـه بعد كثير من التـوسلات لأن يرسل جيشـه لانقاذ الذين بقيـوا من الناس، وعندمـا عمل هذا بقي بطرس في القسطنطينيـة مع بقية الجيش، ينتظرون وصول الأمراء.

حول مقتل بعض الحجاج غدراً

ثم جـاء بعـد هؤلاء للحـج كـاهن ألماني اسمـــه غـودرشـــال -Go

derschal، امتلك أعطية الاقناع، ولذلك قاد حـوالي الخمسة عشر ألفاً من الرجـال من الممالك الألمانيـة، إلى هنغـاريا، وقـد نال هؤلاء بناء على أوامر الملك امكانية الحصول على المؤن وفق شروط مناسبة، من البلغار، لكنهم أفسـدوا هذا الامتياز، وغـرقوا بالسكر، وغضب الملك محقـاً تجاه هذه الأعمال، ودعـا قومـه إلى السلاح وإلى الانتقـام منهم، وعملوا على الانقضـاض على هؤلاء الحجاج الآثمين عند بلغـريف، وعندمـا رأوهم قد استعدوا للقيام بالمقاومـة، لأنهم كانوا رجالاً شجعاناً، ومعتادين على استخـدام السـلاح، قرروا الايقـاع بهم غـدراً وليس عن طريق القتـال، ولهذه الغاية، أرسلوا رسلاً إليهم، وخاطـب هؤلاء غودرشال مع القادة الآخـرين وفق العروض التـاليـة: « لقد وصل إلى مسـامع مـولانا الملك بأنكم قد ألحقتم أضراراً بالغة بشعبه، وجازيتموه بالنكران والشر مقابل الاحسان، هذا ويعرف ملكنا بشكل جيد بـأنه يوجد بينكم رجالاً أتقياء ويخافـون الرب، وأن هذه الأفاعيل التي بحق أثارت غضب الملك، قـد اقترفت ضـد ارادتهم، ولـذلك رغبـة منه، ولكي لاتلقـى عليكم جميعـاً جريمة قلة فقط، قد قرر عـدم ملاحقة الحجاج في الوقت الحاضر. لكنه يطلب منكم، أن تقوموا بأنفسكم بتسليم عتـادكم وسلاحكم، وتضعوه بين يديه بشكل غير مشروط، وإذا لم تفعلوا ذلـك، إنكم لن تنجـوا من الموت، بما أنكم لاتمتلكون القدرة على النجاة».

وعلق غودرشال آمـالاً كبيرة على الرحمة الملكية، فأقنع الجيش— بعد صعوبات جمة— بتسليم أنفسهم مع جميع أسلحتهم وعتادهم ووضعهم تحت سلطة الملك، وبذلك أرضى شكاويه لكـن ماأن حـدث هذا حتى واجهـوا الموت بدلاً من الرحمة، فقـد انقض هـؤلاء الناس الخونة على الجيش، الذي كان أفـراده قد جردوا من سيـوفهم، ودون أن يميزوا بين المتديـن وبين الشرير، اقترفوا مذبحـة عامـة، ولوثوا المنطقة كلهـا بالدم، وبجثث القتلى، وقلة منهم نجـوا— على كل حـال— من الخطر العـام،

وعادوا إلى الوطن، وقصوا هناك خبر مقتل رفاقهم الحجاج، ونصحوا باخلاص الحجاج الذاهبين بأن يضعوا دوماً أمام أعينهم غدر تلك الأمة الشريرة وأن يكونوا متنبهين وحذرين أثناء تنظيم خط زحفهم.

حول بعض الحجاج الذين عذبوا اليهود ثم قتلوا بعد ذلك

وفي حوالي الوقت نفسه تجمع من بلدان الغرب وخرج حوالي المائتي ألف من الرجالة مع نحو ثلاثة آلاف من الفرسان، كان بينهم من النبلاء: توماس دي فيريا Feria، وكلا من رنبولد دي فندول Vendole كونت هيرمان، ووليم الملقب بالنجار، وكان هؤلاء جميعاً مشحونين بروح الجنون، وهاجموا اليهود في البلدان والمدن، التي وقعت على طريقهم، وقتلوا عدة آلاف منهم، ووقع هذا بشكل خاص في مدن مينز، وكولون، وقد كان هناك أيضاً كونت اسمه ايميكو Emico، وكان نبيلا مشهوراً في تلك المناطق، وقد انضم بنفسه إلى تلك الجماعة، وشارك في أعمالها الشريرة وحثها على اقتراف جرائمها.

وعبر هؤلاء القوم من خلال فرانكونيا وبافاريا، ووصلوا إلى حدود هنغاريا، حيث اعتقدوا أنهم يمكنهم الدخول إلى تلك المملكة بحرية كما يريدون، وقد أرغموا على التوقف عند ميزبورغ Meezeburg، لأن مدخل الجسر كان مغلقاً في وجوههم، ذلك أن ملك البلاد قد أمر بوجوب منعهم من الدخول إلى أراضيه، صدوراً عن الخوف، أنه إذا ماسمح لهم سوف يسعون للانتقام من أفراد شعبه، لقيامهم بقتل أتباع غودرشال، وبناء على ذلك إلتمس الحجاج من الملك السماح لهم بالمرور بسلام، لكن ذلك لم يمنح لهم بكل اصرار، ولهذا تحدثوا واتفقوا على نهب وتخريب أراضي الملك الواقعة قرب الأنهار والسباخ، واحراق مناطق الضواحي ، وانزال كل مايمكنهم من اضرار به.

وعندما حدث في أحد الأيام، أن كـان هناك سبعمائة من رجال الملك كـانوا مبحرين هناك بغرض حماية المنطقـة من هجمات الحجـاج، فجأة وقع هؤلاء في أيدي الأعداء، الذين عرضوهم على السيف، فقتلوهم إلاّ قلة منهم، أنقذوا أنفسهم بالتخفي بين القصب والمستنقعـات، وتحمس الحجاج بهذا النجاح، فاقترحوا الآن القيام بحصار البلدة، بتشييد جسر، وشق طريقهم إلى داخل المملكـة بالسيـوف، وبناء عليـه، جـرى تشييـد جسور، مـدت حتى أسوار البلـدة، وكان إصرار الحجـاج كبيراً إلى حد أنهم كادوا أن يشقوا طريقاً لهم إلى البلدة، وأن البلدة صارت في أيديهم، لكن حـدث فجأة أن أصيبـوا بالرعب، وشرعـوا بالفرار، دون معـرفـة السبب، وهكذا كان نتيجة لما اقترفـوه من ذنوب أن أداروا ظهورهم إلى العـدو، الذي استقى الثقـة من رعبهـم، وطاردهم بشجـاعـة، وجعلهم طعمة للسيف، بعدما حرمهم من الأمل بالنجاة، وهرب الكونت اميكو مع عساكره بشكل فوضوي، ورجع بصعوبة إلى بلاده، كما وصل النبلاء الذين ذكـرناهم أعـلاه إلى ايطـاليـا، وحـاول بعضهم النجـاة بالطريقـة نفسها، وأخذوا طريقهم بحراً إلى ديراخيوم Dyrrachium ووصلوا إلى ساحل بلاد الاغريق.

رحلة الدوق غودفري ورفاقه في الحملة الصليبية

في السنة المتقـدم ذكـرها، أي سنة ١٠٩٦م، وفي شهـر آب، في اليـوم الخامس عشر من الشهر، قـام غودفـري، دوق اللورين المشهور، اتبـاعاً منه لبطرس الناسك، وغـوردشـال والآخريـن، باستدعـاء الذين كـانوا سيرافقـونه، وانطلق في الحملة الصليبيـة، وكـان معـه النبـلاء التـالين: بلدوين، أخوه النصفي، وبلدوين كونت أوف هاموشي Hamauci ، وهيـوج كـونت أوف سينـت بول مع ابنـه انغلران Engelran ، وغارنر كونت دي غري Gres ، ورينالد كونت أوف تول Tull ، مع أخيـه بطرس، وبلـدوين دي بـورغ، وهنري دي أوشي Auche

مع أخيـه غودفـري، ودودو كون دي Dodo de cons، وكونو دي مونتأكيوت Montacute ، وتبع هؤلاء حشد من الفريزلانديين، والسكسـون واللـورينيين، وأناس من جميع البلدان القـائمـة بين الرون وغارون Garonne ، وزحف هؤلاء جميعاً مع بعضهم خلال النمسا وهنغاريا، وأعطوا الملك رهائن، وتابعوا زحفهم إلى بلغريف، وهي بلدة في بلغـاريا، ومن هناك إلى نيش، وسترلتـز Strelitz ، ثم إنهم تابعوا زحفهم إلى داشيـا الداخليـة، وهي التي تعـرف باسم آخـر هو مـوشيـا Moesia ، ونزلوا إلى ديرة القديس باسيل، ثم وصلوا إلى مدينة فيلبه الواسعـة والفخمـة، وهنا سمعـوا بأن هيـوج الكبير، أخـو فيليب ملك فـرنسـا، مـوضـوع في السجن مع الآخـرين، مـن قبل الامبراطور ألكسيوس، فقام قائدهم غودفري اللامع، فأرسل رسلاً، وطلب اطلاق الأشخاص المتقدم ذكرهم، لأنهم حملوا الصليب.

هذا وكان هيـوج المتقدم ذكره، بين أوائـل من انطلق للحج، فقد عبر الألب، وسـار من خلال ايطاليـا إلى أبوليـا، ومن هناك عبر مع حاشيـة صغيرة إلى ديراخيـــوم Dyrrachium ، وقد مكث هناك ينتظر بقية الحجاج، وهناك جرى اعتقاله من قبل حاكم تلك المنطقة، وأرسل وهو مغلول إلى الامبراطور، الذي احتفظ به في السجن وكأنه لص أو قـاتل، وتلقى رسل الدوق غـودفـري، رفضـاً أكيـداً، ونتيجـة لذلك اجتـاح الصليبيـون المنطقـة كلها واستبـاحـوها لمدة ثمانيـة أيام مع عسـاكـرهم، وعندمـا سمع الامبراطور بهذا، أرسل إلى الدوق، وعرض عليـه اطلاق سراح السجناء النبـــلاء، على شريطـة توقـف الصليبيين عن السلـب والنهب، وبناء عليه أوقف الدوق رجاله عن متابعة النهب، وتابع سيره إلى القسطنطينية، حيث تسلم السجناء النبلاء، دونما أذى، وكانوا: هيوج الكبير، ودوغـو دي نيل، وكـلارمبـولد دي فندول Clarembald de vendole ، ووليم النجـار، وقـد شكـروه جميعـاً بامتنـان من أجل

حريتهم.

غدر الامبراطور ألكسيوس

كـان ألكسيوس الامبراطور الاغـريقي رجـلاً شريراً ومخادعاً، وكـان عندمـا خدم في قصر سلفـه نقفـور كان الجندي الأول في البـلاط، لكنه تآمـر بشكل منحط ضـد سيـده، وقبل خمس سنوات أوست كـانت قـد انقضت قبل هذه الحملة إلى الأرض المقدسة، كان قد خلع مولاه وصار امبراطوراً مكانه، ولقد استخدم باتصالاته مع الحجاج دوماً لغة مخادعة، لأنه نظر بريبـة نحو تعـداد الصليبيين وقوتهم، وإذا كان قـد تمنع في أي وقت من الأوقـات عن إلحاق الأذى بهم، فقـد كـان ذلك ليس نتيجـة شرف وأمانة بـل نتيجة خوف، لأنه عنـدما عسكر الدوق غـودفري مع جيشه أمـام مدينة القسطنطينية، قـدم رسل من لدن الامبراطور، يدعون الدوق إلى زيارة البلاط مع عـدد قليل من حاشيتـه، وقام الدوق— بناء على نصيحـة من مستشـاريه، بالاعتـذار عن الذهـاب، ولذلك غضب الامبراطور، ورفض تزويـد جيش الدوق بسـوق، وخشي الأمـراء من نقص مـؤنهم، فاجتـاحـوا مناطق الضـواحي برجال مسلحين، وجمعـوا أعـداد هائلة من الأغنام والقطعان، بحيـث صار هناك أكثـر من اللازم لتمـوين الجيش، وبهذا أرغـم الامبراطور ثانيـة على السماح للصليبيين بسوق.

كيف انطلق الأمير بوهيموند في حملة الصليب

وفي الوقت الذي كانت فيـه هذه الأحداث تقع في القسطنطينيـة، قام الأمير بوهيموند بن روبرت غويسكارد، وصاحب تارنتومTarentum، بعبور الأدرياتيك، قبل بداية الشتاء، ونزل في ديراخيوم، ومن هناك سار من خلال صحـارى بلغاريا، للالتحـاق بالذين كانوا قـادمين من بعده، وكـان هؤلاء يتبعـون رجـالاً نبـلاء، هم: تانكرد بن[إقـرأ:أخـو] وليم

المركيز، ورتشـارد دي بروفانس مع أخيـه ريموند، وروبرت دي اكس، وهيرمـان دي كـارفي، وروبـرت دي سـوردفيل sourdevaile ، وروبرت فتـز— ثورستـان Fitz-thurstan ، وهمفري فتز— رالف، ورتشارد ابن كونت رانولف Ranulph ، وكونت دي روسيلون مع أخيه بولي Boeleis أوف تشارترز، وأولبيرد دي كونان Albered de cognan ، وابنه همفـري، وقـد تبع هؤلاء جماعـة من الايطاليين مع آخرين كانوا يعيشـون بين بحري التيرنيان Tyrrhenian والأدرياتيكي، وقد سار هؤلاء جميعاً خلف راية بوهيموند حتى مدينة كاستوريا Cas- torea ، حيث أرغموا على سوق القطعان والأسراب والاستيلاء عليها بالقوة، لأن شعب المنطقـة رفض بيعهم المؤن، وبعد مغادرتهم من هناك، عسكروا في منطقة بيـلاغونيا Pelagonia ، حيث سمعوا بأن هناك بلدة في الجوار مسكونة مـن قبل الهراطقـة، فـزحفـوا مسرعين إلى هناك، فـاستـولوا على القلعـة، وألقـوا النار في البيـوت، وحملوا معهم كميات هائلة وثمينة من الأسلاب.

حول حج كونت طولوز

وتبع حج الذين تقـدم ذكـرهـم تحرك ريمـوند كـونت طولوزوأدهمر أسقف لى بوي، وكـان معهما النبلاء التالين: وليم أسقـف أوراشيا Au- rasia ، وكونت بينبولد Bainbald ، وغوستوس دي بدري Gaustus de Bediers ، وجيرارد دي روسلون Rouseillon ، ووليم دي مـونت بيسـولان Pessolan ، ووليم كونت أوف فوري Foris ، وريموند بيلز Pelez ، وغانتون دي بار، ووليم أمانن Amanen ، وقد تبعهم قـوط وغاسكون، وقـوم آخرون يسكنون فيما بين البيرنيـز والألب، وسـار هؤلاء على آثار الحجـاج المتقـدمين، فعبروا إيطاليـا، ولومبارديـا، ومنطقة فـوريولي Forioli ، ونزلوا من هناك إلى استريا ودالماشيـا، واحتاجـوا إلى مالايقل عن أربعين يومـا لعبور البـلاد

الأخيرة، ووسط خطر كبير، وتمكنوا— على كل حال— أخيراً من الوصول إلى ديراخيوم، حيث تلقى الكونت رسالة مشجعة من الامبراطور، وبعدما عبر منطقة الغابات والجبال التابعة لايبروس، عسكر جيشه في منطقة بالاغونيا، التي كانت مليئة بجميع أنواع الحاجيات، وهنا هوجم الأسقف المبجل أوف بوي وأخذ أسيراً من قبل البلغار، ذلك أنه كان قد نصب خيمته بعيداً عن بقية الجيش، وطلب واحد منهم منه مالاً، وحماه من الآخرين وحدث هياج، أثار الجيش كله، فحمل السلاح وأنقذ الأسقف من بين أيديهم.

واستأنف الحجاج زحفهم، وتابعوا سيرهم من خلال سالونيك، ومقدونية، وبعد سلسلة من الأعمال المتواصلة والمتاعب وصلوا إلى روديتوس Rodetus ، وهي مدينة قائمة على شواطىء البوسفور، وذلك على بعد أربعة أميال عن القسطنطينية، حيث تقابلوا مع رسل من الأمراء الذين ذهبوا قبلهم، يرجونهم إنهاء أعمالهم مع الامبراطور، والالتحاق بهم بالسرعة الممكنة، وبناء عليه استجاب الكونت إلى المطالب التي أتت من قبل كل من الامبراطور ومن أمراء الصليبيين، فترك الجيش تحت رعاية الأساقفة والنبلاء الذين كانوا في المعسكر، وأسرع بقدر ماأمكنه مع حاشية صغيرة إلى القسطنطينية، وحصل على لقاء مع الامبراطور، الذي استقبله بكل تشريف، وعندما حُثّ على تقديم يمين ولاء إلى الامبراطور، رفض بإصرار، وانزعج الامبراطور من ذلك، فقام باجراءات تهديدية، وضايق جيشه بكل أنواع المضايقات، وأمر عساكره بالقيام بهجوم على الصليبيين، وأن يحاولوا تدميرهم، وبناء عليه قام قادته وضباطه الذين قادوا عساكره، وكانوا مطيعين لأوامر سيدهم، بمهاجمة كشافة الكونت وهم غير منتبهين، وكان ذلك أثناء الليل، ولذلك فاجأوهم بشكل كامل، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وعندما سمع الكونت بهذا اتهم الامبراطور بالتصرف غير

الأمين، وقد أسف ألكسيوس لما اقترفه، ودعا بوهيموند إلى الاجتماع به(ذلك أنه لم يكن قد عبر البوسفور بعد) وبذل جهده بوسائطه الشخصية وبوساطة أصدقائه لمصالحته مع الكونت، ورأى الوسطاء— مع أنهم كانوا غاضبين نحو ماحدث— أنه لاتوجد امكانية للانتقام، لأنه كانت هناك أهدافاً عليا أمام أنظارهم، ولذلك صالحوا الكونت مع الامبراطور، وقام الكونت بأداء يمين الولاء وفق الطريقة نفسها التي أداها الصليبيون الذين تقدموه، وغادر حضرة الامبراطور مع كثير من الهدايا، وكل مظاهر التشريف، وكان يمين الولاء الذي أداه جميع أمراء الغرب ووافقوا عليه يقضي بأن أية مدن وقلاع وممتلكات أخرى، ظهر أنها من ممتلكات الامبراطور، وتمكن الصليبيون من استردادها، يتوجب عليهم على الفور تسليمها للامبراطور ليكون مالكاً لها، لكن يمكن للصليبيين الاحتفاظ بجميع الغنائم التي سوف يجدونها هناك، وبدا هذا الشرط شرطاً غير عادل بالنسبة لبعض الأمراء، بأن تذهب جهودهم لصالح آخر ولمنفعته، ولكي يرضي الامبراطور الحجاج، أقسم أنه سوف يقدم لهم معونات عينية ونصائح، يمكنهم بها على الفور هزيمة أعداء الإيمان المسيحي، ووصلت في الوقت نفسه عساكر الكونت إلى القسطنطينية، فقامت— بناء على أوامره— بعبور المضائق، وألحقوا أنفسهم من دون أي تأخير ببقية الجيش.

كيف انطلق روبرت دوق نورماندي وأصحابه للقيام بالحج

وحوالي الوقت نفسه، حمل روبرت دوق نورماندي علامة الصليب، وانطلق بحيث كان آخر الحجاج إلى القدس، وقام أولاً بوضع نورماندي، تحت ولاء أخيه الملك وليم، مقابل عشرة آلاف مارك من الفضة، والتحق بجيشه روبرت كونت أوف فلاندرز، ويوستاس دوق بولون، وستيفن كونت أوف بلوا وكونت تشارترز، وستيفن كونت أوف ألبمارل Albemarle، وروتروك Rotroc كونت أوف بيرشي،

وروجـــر دي بارنفيل Barneville، مع المقـــــدمين اللامعين فيراند Fergand ، وكونان أوف بريتاني Bretagne ، يتبعهما رجال من انكلترا، ونورماندي، وفلاندرز، وبريتاني، وأنجو، وغربي فرنسا، وبلدان أخـرى قائمـة بين البحـار البريطانية والألـب، وقد انطلق هؤلاء جميعـاً حـوالي بداية الشتاء، ومـروا من خلال أبوليـا، وكالبيرا، ولكي يتجنبـوا شـدة الثلج والجليـد مكثـوا في تلك المنطقـة، حتى حلـول فصل أكثـر اعتـدالاً، وفي حـوالي ذلك الوقت نفسـه تأسست كنيســة نوروك -Nor wick، وحل الرهبان هناك محل رجال الدين.

كيف حاصر الصليبيون مدينة نيقية

في سنة ١٠٩٧م، كـان الدوق غـودفري مع رجـاله في القسطنطينيـة، والدوق بوهيمـوند في كـاستروبا Castorea ، وكـــونت طولوز في بالاغـونيا، وقـد احتفلوا بعيد ميـلاد ربنا، وتشريفـاً لذلك اليوم قـرروا إيقـاف أيـديهم عن كل أعمال النهب والايذاء، وجمعـوا في بـداية الربيع أثقالهم، وتابعـوا رحلتهم مع عربات، وخيول تحميل، وتقـدموا بزحف بطيء نحـو نيقية، ومن هناك إلى نيقـوميديا التي كـانت حاضرة بيثينيـا، حيث التقـوا بالمبجل بطرس النـاسك، وذلك على رأس عسـاكـر قليلة، كان قـد أنقذهم من هزيمتهـم المتقدم ذكرها، واستقبلـه الأمراء بلطف، وشـاركوه أسـاه حول الخسـائـر التي عانى منهـا، وأعطوه بعض الهدايا الجيـــدة، وهكـذا ازداد جيش الصليبيين بالعـــدد، وتابـع زحفـــه بيسر، وبفضل من الرب وصل الصليبيون إلى نيقية، حيث عسكروا من حولها، وأحاطوا بها إنما تركوا مكانا فارغـاً من أجل الحجاج القادمين، وشرعوا بحصـار المدينة في شهر أيار، وفي اليـوم الخامس عشر من الشهـر، وهو يوم الصعـود، أكمـل كـونت طولوز الآن أعماله في البـلاط، وبإذن من الامبراطور، بادر بأقصى سرعة ممكنة نحـو نيقية، حيث التحق مع قواته بجيش الحصار الصليبي.

كيف قدم الدوق روبرت إلى حصار نيقية

وسمع الآن روبرت دوق نورماندي بأن مدينة نيقية محاصرة من قبل الصليبيين، الذين ذهبوا قبله، فدعا إليه رفاقه بالسلاح، وماأن أعدّ أثقاله، حتى توجه إلى جانب البحر، وكان متشوقاً لتعويض الوقت الذي أضاعه في أبوليا، فعبر من خلال ايليريا، ومقدونية، فتراقيا من دون معيقات، ووصل إلى القسطنطينية، وهنا استقبل من قبل الحضرة الامبراطورية، وأدى مع النبلاء الآخرين الذين قدموا معه يمين الولاء الذي عُرض عليهم، ولهذا السبب لاقوا معاملة أفضل وحظوة أعظم، وشرفوا بالهدايا، والذهب، والملابس الثمينة، والأواني من أجمل المصنوعات، وأثمن المواد، مع أثواب من الحرير الخالص، ممالم يسمع بمثل قيمته، ومما لم يشاهدوا مثيله من قبل، والذي سبب دهشة كبيرة جداً للذين تسلموهم، لأنهم تفوقوا على جميع مارأوه من قبل، وحصلوا بعد هذا على إذن الامبراطور، فعبروا البوسفور، وساروا مع قواتهم إلى نيقية، حيث جرت تحيتهم بسرور من قبل الأمراء الذين تقدموا عليهم بالوصول، ونصبوا خيامهم بالأبهة الأعظم في ذلك المكان، الذي تركه الآخرون فارغاً من أجلهم، وبهذه الصورة، تشكل للمرة الأولى جيش واحد للرب من كتل متعددة من العساكر تكونت أعدادها من ستمائة ألف من الرجالة ومائة ألف فارس دارع، وقد أقام هؤلاء جميعاً طوقاً حول أسوار المدينة المتقدمة الذكر، مع تكريس تقوي للرب جميع ثمار أعمالهم الدينية.

المعركة بين الصليبيين والأتراك، التي انهزم فيها الأتراك

كانت نيقية مدينة كبيرة في بيثينيا، وكانت فيها وفرة من جميع أنواع الثروات، وكان صاحبها زعيم تركي قوي جداً اسمه[السلطان قلج أرسلان بن] سليمان، وكان معنى اسم سلطان بالفارسية« ملك»، وقد حكم جميع المنطقة المجاورة، وكان أجداده قد كسبوا هذه المنطقة من

الامبراطور الاغريقي رومانوس، الذي حكم في الطبقة الثالثة قبل ألكسيوس، وأوصلوها إلى[قلج أرسلان بن] سليمان هذا مع جميع المقاطعات من طرسوس في كيليكية حتى البوسفور، وعلى هذا كانت سلطته قد وصلت حتى ضواحي القسطنطينية، وجمع رجاله الجزية والضرائب من جميع هذه المناطق لصالح سيدهم ولاستخداماته، وكان [قلج أرسلان بن] سليمان نفسه معسكراً مع حشد كبير من الرجال المسلمين بين الجبال المجاورة، وذلك على بعد ليس أكثر من عشرة أميال، وقد تفكر حول أفضل طريقة يمكنه بها أن يخلص مدينته من الحصار المقام حولها من قبل الصليبيين، ولكي يرفع من معنويات المحاصرين بعث برسولين تمكنا من شق طريقهما إلى المدينة بوساطة قارب من قوارب البحيرة، وبذلك أوصلا أوامره، لكن واحداً منهما أسره الصليبيون، وجرى قتل الآخر، وجرى استجواب الأسير، وأرغم على الاعتراف، ومنه عرفوا بأن[قلج أرسلان بن] سليمان سوف ينزل من الجبال في اليوم التالي، وسوف يحاول رفع الحصار، وبناء عليه، ظهر السلطان في حوالي الساعة الثالثة من اليوم التالي في السهل، كما كان الأسير الرسول قد أخبرهم، وكان على رأس خمسمائة ألف رجل.

وأرسل أولاً عشرة آلاف فارس لمهاجمة كونت طولوز، الذي كان معسكراً أمام الباب الجنوبي، وقد تلقاهم الكونت بشجاعة، وصد الهجوم، وكانوا على وشك التفرق، عندما قدم السلطان مع مزيد من العساكر العديدة، فأعاد تجميع المنهزمين، وأرغمهم ثانية على الهجوم معه، والقتال مع رجالنا، ولدى رؤية الدوق غودفري، والأمير بوهيموند، وكونت فلاندرز مع أتباعهم— وكانوا مسلحين ودارعين تماما— بأن رجال الكونت قد ضغط عليهم بشدة، حملوا على الأعداء بنشاط، وبعدما قتلوا خمسة آلاف منهم، وأخذوا عدداً قليلاً من الأسرى، أرغموهم على الفرار، وهكذا حصل رجالنا على أول نصر،

وتابعوا الحصار مع عساكرهم، وقد صفوهم حول المدينة وفق النظام التالي: كان عند الباب الشرقي الدوق غودفري مع أخويه ورجالهم، وكان عند الباب الشمالي الأمير بوهيموند، وتانكرد وأمرائهما الآخرين، أما الباب الجنوبي فقد عين للكونت ريموند وأسقف لى بوي، أما الباب الغربي فقد أوكل إلى روبرت دوق نورماندي وكونت فلاندرز مع أتباعهما، وبذلك أغلقت المدينة من كل جانب، ولم تشهد الشمس من قبل جيشاً مجيداً مثل ذلك الجيش الذي وقف من حول الأسوار، وقام رجالنا بقطع رؤوس القتلى، ورموا بهم بوساطة مناجيقهم إلى المدينة حتى ينزلوا الهلع في قلوب المحاصرين، وجرى ارسال ألف من هذه الرؤوس مع عدد منتخب من الأسرى، إلى القسطنطينية هدية إلى الامبراطور.

كيف جرى لغم أحد الأبراج واسقاطه

وقرر الأمراء بعد هذا استخدام الأساليب العملية والآلات الأخرى لتهديم أسوار المدينة، وبناء عليه بدأ الحرفيون بالقيام بأعمالهم، واهتزت المدينة بالضربات المتوالية، لمدة سبعة أيام، حيث حدث إثر ذلك في اليوم الأول، أن الهجوم كان كالمعتاد، وباصرار، ووقتها حلت كارثة برجالنا، حيث فقدوا اثنين من النبلاء هما: بلدوين كالدرون Calderon ، وبلدوين أوف غنت Ghent ، فقد أصيب الأول بصخرة، وأصيب الثاني بنشابة، وحدث ذلك عندما كانا يقاتلان بشجاعة، ويهاجمان المدينة، وفي حملة أخرى تمت الموافقة عليها من قبل مجلس الأمراء، جرى قتل كل من الكونت وليم دي فوري Foreis، وغالو دي لآيلGalo de lisle ، بنشابتين، وأصيب أيضاً غي دي بوسيس Possessa بمرض حاد، مات منه، وحدث في يوم آخر، والأمراء جميعاً يستخدمون آلاتهم بنشاط عظيم ضد الأسوار، أن قام الكونت هيرمان، وهنري دي أسكى Asche ، وكانا من النبلاء

الألمان، بتركيب آلة غـريبـة صنعـاهـا ببراعـة كبيرة، وحـوت هذه الآلة عشرين فـارساً، وقد دفعـا بها حتى الأسـوار، ولقد كان المدافعـون من الشجاعة والبراعة بمكان، حيث حطمـوا الآلة بحجرة كبيرة رموها من الأعلى، وقد هلك جميع الذين كـانوا في داخلها، وتابع الآخرون— على كل حـال— الحصار من دون توقف، وكـرروا الحملات، ولم يسمحـوا للمحاصرين بدقيقة راحة.

وكـان العائق الأكبر الذي وقـف في وجه الجيش بحيرة كبيرة كـانت متصلة بالمدينة، فبـوساطتهـا امتلك الأعداء امكانات الاتصـال من دون عـوائق، وأحضروا كثيراً من المؤن، مما أحبط كثيراً أعمال المحـاصرين، ولكي يتخلصوا من هذه المشكلة، جلبوا سفناً إلى البحيرة، ووضعوا على ظهرها رجالاً مسلحين، وبهذه الواسطة انقطعت الامدادات عن المدينة، وكان هناك أيضـاً برجاً على الجهـة الجنوبية من المدينة، أعلى وأقـوى من الأبراج الأخرى، وعندما وجد الصليبيون أن الوسائل التي استخدموها للاستيلاء عليـه قد أخفقت، قرروا ترتيب رجالاً للغمـه، وبهذه الطريقة أمكنهم بعـد جهـد كبير، سحب جميع الأحجـار من الأساسـات، وقـد وضعوا مكانهم قطعاً من الخشب، وبعد ذلك ألقوا النار بين الأخشاب، فـاحترقت، وتهاوى البرج مع صـوت هائل ومـرعب، وكأن الأرض أصيبت بـزلزال، فقـد أصيبت قلوب جميع الذيـن سمعـوه بالـرعب، ولاسيما سكان المدينة الذين ارتعـدوا رعبـاً لسقوطه، وهنا لدى صـدور هذه الإشـارة هبت عسـاكـر الصليبيين إلى السـلاح، وشجعـوا بعضهم بعضاً للاستعداد للزحف إلى داخل المدينة.

الاستيلاء على نيقية وإعطاء هذه الغنيمة إلى الامبراطور

وأصيبت زوجة السلطان بالرعب نتيجة لسقوط البرج، ولم يعد لديها أمل، ولذلـك حـاولت النجـاة بشكل سري والفـرار من المدينة عبر البحيرة، لكن رجـالنا الـذين كـانوا على ظهـر السفن يتـولـون مـراقبـة

البحيرة، استطاعوا أسرها، وقد حملوها إلى أمام الأمراء، وأسروا معها ولديها، وكانا مايزالان صغيرين، وقد وضعا الآن مع أمهما في سجن محكم، وركز الدوق اللامع غودفري اهتمامه على واحد من الأتراك، كان قد قتل عدداً كبيراً من رجالنا بسهامه، وفضلاً عن ذلك تولى شتم الأمراء من فوق الأسوار، وقد تربص فيه فرصته، وعندما توفرت رماه بسهم أصابه به في جبينه، فسقط الرجل ميتاً، ووقع من فوق السور في الخندق، ونهض الجميع الآن للقيام بالهجوم، وزحفوا للقتال ضد المدينة، وكان ذلك لدى سماعهم صوت الأبواق والنفر، وامتلأ الهواء بالضجيج، وبالنشاب، وبالحراب المتطايرة، والحجارة، وقطع الأخشاب، إنما دون أن تؤثر شيئاً على المحاصرين، ذلك أن سلاحهم وشجاعتهم ازدادت وكذلك كان نشابهم أكثف بالتساقط من ذي قبل، ومع ذلك كان عبثاً ذلك كله، ذلك أنهم أرغموا أخيراً على الاستسلام، وقد سلموا المدينة إلى تاسينوس Tacinus ، وكان ضابطاً لدى الامبراطور الاغريقي، وجاءت هذه الترتيبات متماشية مع موافقة الأمراء، الذين كانت لديهم أهدافاً عليا نحو ذلك، فذلك كان متوافقاً مع الاتفاقية التي دخلوا فيها، وتسلم الحجاج على كل حال واستردوا جميع عبيدهم، وكذلك أسراهم الذين أخذوا من قبل السكان أثناء الحصار، ومثلهم الذين كانوا من جيش بطرس الناسك، حسبما تحدثنا من قبل، ثم أرسل الأمراء رسائل إلى الامبراطور يحثونه بها على أن يبعث بعدد كاف من ضباطه لحراسة المدينة، وبسرور وفرح بعث الامبراطور بعضاً من وزرائه المعتمدين لتسلم المدينة مع جميع مقتنيات الأسرى من ذهب وفضة مع جميع الأشياء المنقولة، وأرسل مع الرسل الذين قدموا إليه هدايا كبيرة لكل واحد من الحجاج، محاولاً بوساطة كل من الرسائل وكلمات الفم الحصول على رضاهم جميعاً، وقدم لهم امتنانات وافرة على الخدمات والأعمال التي قدموها، والاضافة العظيمة التي صنعوها لممالكه. وكان قد جرى الاستيلاء على نيقية في الحادي

والعشرين من شهر حزيران، في سنة ١٠٩٧ لتجسيد ربنا.

كيف تابع الصليبيون زحفهم والنصر المفجع الذي نالوه

أما وقد انتهى الحصار، استأنف الجيش الصليبي زحفه، وجاء ذلك بناء على أوامر الأمراء، وكان ذلك في التاسع والعشرين من حزيران، وبعد عبورهم لأحد الجسور، قسموا جيشهم إلى قسمين، فقد سار على جهة اليسار: الأمير بوهيموند، وروبرت دوق أوف نورماندي، وستيفن كونت أوف بلوا، وهيوج دي سينت بول، وتانكرد، وقد وصلوا إلى واد اسمه غورغوني Gorgoni، وسار البقية على جهة اليمين، وأكملوا نهار زحف، ومع ذلك لم يكونوا على مسافة تتجاوز الميلين عن المكان الذي عسكرت فيه الكتلة الأخرى، غير أن السلطان الذي لم ينس الأذى الذي تلقاه، ظهر في اليوم التالي، في حوالي الساعة الثانية من النهار مع حشد كبير من الأتراك قيل تجاوز عدده المائتي ألف.

وجرى انذار جيشنا، ووصله خبر اقترابهم من قبل الكشافة، ولذلك وضع أثقاله وعرباته والمرضى، إلى جانب سبخة قصبية كانت قائمة بالقرب، وأعد جنودنا أنفسهم للقتال، وأرسلوا رسلاً إلى رجال الشطر الآخر، الذين بحماقة افترقوا، وشكلوا فريقاً مستقلاً، وحثوهم على القدوم بكل سرعة إلى مساعدتهم، وبدأ في الوقت نفسه الجند الصليبيون يعانون بشكل مرعب، لأن خيولهم لم تكن معتادة على الجلبة التي أحدثها الترك، فقد كانت زعقات أبواقهم وأصوات كوساتهم تمنع الخيول عن الاطاعة والتقدم، ولذلك أرغموا على التراجع، وشاهد هذا روبرت اللامع، كونت نورماندي، وكان واصلاً نحوهم، فصرخ بصوت مرتفع: « إلى أين أنت فارون ياجند؟ إن خيول الأتراك أسرع من خيولنا، ولذلك ليس مجدياً الهرب والابتعاد، ومن الأفضل الموت من أن نعيش مع العار، أقبلوا يارجالي الشجعان، وافعلوا كما أفعل، واتبعوني»، ومـاأن فرغ من كلامه حتى حمل على تركي فطعنه فخرق

ترسه ودرعه برمحه، ثم طعن ثانيا، وأتبعه بثالث بالطريقة نفسها، وذلك بدقيقة واحدة، واسترد الصليبيون شجاعتهم، وأعقب ذلك صراع مميت، وقد تم قتل اثنين من أمرائنا في هذه المعركة، فقد هاجم وليم—أخوتانكرد— أميراً تركيا، وقد طعن كل منهما الآخر برمحه، وأصيب غودفري، دورمونت Durmont بسهم قاتل، عندما كان يقطع رأس تركيا، وتم قتل الكونت روبرت أوف باريس بطريقة مماثلة، وجرى قتل ألفين من الحجاج، وصدت عساكرهم، لكن عندما كانوا في هذا الوضع اليائس، قامت المجموعة الأخرى، التي قادها غودفري، وكانت مشكلة من أربعين ألف رجل مسلح، بالانقضاض بشكل مفاجيء على الترك، الذين اعترتهم الدهشة لدى رؤيتهم قدوم جيش جديد، وارتقبوا وكأن السماء وقعت عليهم، ولذلك انهزموا مع قائدهم السلطان.

وطاردهم الصليبيون من دون توقف، ولذلك تغطت الأرض لمسافة أميال عن المعسكر بجثث قتلاهم، وقد عادوا إلى معسكرهم جالبين معهم الذين أخذهم الترك أسرى، في بداية القتال، وقد وجدوا هناك كميات وافرة من الذهب والفضة، والأمتعة، والخيول والقطعان، والأغنام، والمؤن من كل نوع، وسرادقات، وخيام، وخيول وأغنام، وقد أخذوا هذا جميعه إلى معسكرهم، ولقد قيل بأنه سقط في تلك المعركة من جانب الأعداء ثلاثة آلاف من رجاله الأشداء ومن أعيانهم، وجرت هذه المعركة في اليوم الأخير من حزيران، مع عدم تكافؤ كبير في القوى، لأن الترك كانوا مائة ألف وخمسين ألف رجل، في حين وصل تعداد جيش الصليبيين إلى خمسين ألفاً فقط.

كيف تابع الحجاج زحفهم من نيقية إلى أنطاكية خلال المناطق التي أخضعوها

وبعد استراحة ثلاثة أيام، كانت ضرورية لهم أنفسهم ولخيولهم،

اجتاز الجيش جميع منطقة بيثينيا، ثم دخل إلى بيثيديا، ونزل بعدها إلى سهل وعر جاف، حيث لم يستطيعوا الحصول على أية مياه، وعسكروا هناك، وعانى الناس كثيراً إلى حد أن أكثر من خمسمائة منهم ماتوا، وأخيراً عندما تمكنوا من تخليص أنفسهم من هذه المصيبة، دخلوا إلى منطقة خصبة على مقربة من أنطاكية الدنيا، التي هي العاصمة في بيثينيا، وهنا قسموا قواتهم ثانية، ووزعوا أنفسهم على جميع المناطق للاستطلاع، ولجلب المعلومات التي يمكنهم الحصول عليها إلى أمرائهم، وكان هؤلاء بعدما غادروا المعسكر، اجتازوا هرقلية، وهي مدينة في ليكونيا وذهبوا إلى قونية التي هي عاصمة هذه المنطقة نفسها، وقد وجدوها مهجورة كلياً من السكان، لأن الأتراك عندما سمعوا بقدوم الصليبيين تركوا مدنهم وقلاعهم، ولم يتجرأوا على الدفاع عنهم بالسلاح.

ولنعلم أن كيليكية تحد سورية المجوفة من الشرق، في حين تحدها ايزوريا من الغرب، وهناك في الشمال تحدها طرسوس، وفي الجنوب بحر قبرص، وهي لها عاصمتين هما مدينتي: عين زربة، وطرسوس، التي هي مسقط رأس بولص، معلم الأمم، وأخضع هذه المدينة بلدوين أخو الدوق غودفري، واستولى روبرت، دوق نورماندي على مدينة اسمها (بارتزرابرت؟) Azen وأعطاها إلى سيمون الذي كان واحداً من فرسانه، واستولى الأمير بوهيموند مع ايرل ريموند على مدينة أخرى أعطياها إلى بيتر دي ألبيبوس Alpibus ، ثم إنهم زحفوا إلى مدينة كوكسون التي استولوا عليها، واستولى بيتردي روسيلون على الروج مع عدة قلاع، واستولى بيرغندي اسمه غولف Guelf على مدينة أذنه، وبترحاب استقبل تانكرد عندما وصل إلى هناك، وتابع تانكرد زحفه من هناك فوصل إلى المصيصه، حيث قتل الأتراك وأخضع المدينة، ومن هناك زحف إلى الاسكندرية الصغرى، التي استولى عليها، وجعل المنطقة كلها خاضعة له.

واستأنف بلدوين— أخو غودفري— حملته، وأخضع المنطقة كلها الممتدة حتى الفرات، وانتشرت شهرته، ووصلت إلى الرها فيما وراء الفرات، ولدى سماع سكانها بوصول مثل هذا القائد اللامع من بلاد الغرب، دعوه بتواضع للقدوم ليكون بينهم، وليستولي على حكم المدينة، ومدينة الرها، وهي التي تعرف أيضاً باسم راغس Rages ، هي مدينة فخمة في الجزيرة، فإلى هذا المكان كان توبت الكبير قد أرسل ابنه توبت الأصغر، ليسترد العشرة أرطال (من الفضة) من قريبهما غابل Gabel، وبناء عليه إلى هذه المدينة ذهب بلدوين، وقد استقبل من قبل حاكمها وشعبها بتمجيد وتشريف، وذهب من هناك إلى سميساط، وعندما وجد أنه لايمكنه الاستيلاء عليها بقوة السلاح، اشتراها بمبلغ عشرة آلاف قطعة من الذهب من حاكمها، وأضافها إلى ممتلكاته، وكانت سروج المدينة التالية على طريق زحفه، فحاصرها واستولى عليها.

وبات الطريق كله مفتوحاً لكل من يرغب بالذهاب من الرها إلى أنطاكية، وفي الوقت نفسه زحف الجيش الأساسي إلى مرعش، التي أخلاها الأتراك لدى وصوله، ولم يتركوا فيها سوى الشطر المسيحي من السكان، ومن هناك أرسلوا أمامهم روبرت دوق نورماندي مع كونت فلاندرز إلى أرتاح، التي ماأن سمع سكانها بقدوم الصليبيين حتى ثاروا على الترك، الذين استبدوا بهم منذ أمد طويل، وقتلوهم جميعاً، وألقوا برؤوسهم إلى خارج أسوار المدينة، وهي تبعد خمسة عشر ميلاً عن أنطاكية، وتعرف هذه المدينة أيضاً باسم قالي— قلا(كليكية)

حول عبور أحد الجسور وحصار أنطاكية

وجرى الآن استدعاء جميع فرق الجيش المتفرقة إلى الاجتماع والاحتشاد معاً، وعندما اجتمع الجميع، صدر إعلان بمنع تفرقهم ثانية، وزحفوا في الصباح التالي نحو أنطاكية، وكان طريقهم عبر العاصي،

الذي يعـرف أيضـاً باسم فرفـر، وسمعـوا هناك أنه سـوف تكون هناك صعـوبات كبيرة في عبـور الجسر، ولذلك أرسلوا أمـامهم روبرت دوق نورمـاندي مع قـوات خفيفة، ليتقـدم وليستطلع الطريق، وليعـرف هل هناك من معيقـات يمكن أن تقـوم حتـى يتصـدوا لها، وبناء عليـه تابع الدوق المذكـور زحفـه حتى وصل إلى الجسر المذكـور، وكـان مبنيـا من الحجارة مع برجين قام واحد منهما عند أحد مدخليه، وكان فيه مائة من الرجال الشجعـان، والبارعين في استخـدام القوس العقار، قـد تمركزوا لمنع أي انسان من عبور النهر سـواء عبر الجسر، أو عبر المخاضة، فضلاً عن هذا قدم من أنطاكية سبعمائة فـارس، تمركزوا فوق الجهة المقابلة من النهر لمنع رجالنا من العبور، بقدر مالديهم من قوة، وعندما وجد الدوق روبرت أنه لن يستطيع عبور النهـر، ونتيجة لمعارضة القـوات التي تقدم ذكـرها، نشبت معـركة حـاميـة الوطيس، وقـد استمرت حتى وصـول الكتلة الأســاسيــة من الجيـش، ووقتهـا زعقـت البــوقــات، وهاجم الصليبيـون الجسر، وطردوا المدافعين، بينما بحث الآخرون عن مخاضـه، وأوقعوا الهزيمة بالأعداء، واستـولوا على الشاطىء المقابل، وعندها عبر الجيش كله، ثم توقف هناك لتمضيـة الليل، وتابعـوا في الصبـاح التـالي سيرهـم، عبر الطريق العـام، وكـان ذلك بين الجبـال والنهـر، وعسكروا أمام المدينة، على مسافة أقل من ميل عن أسوارها.

وأنطاكية مدينة واسعة الشهرة، وقد نالت اسمها من أنطوخيوس ابن الاسكندر المقدوني(كذا) وهو الذي اتخذها عاصمة لمملكته، وفيها وضع فيها بعد أمير الرسل كرسيه الأسقفي، وكان ذلك تحت رعاية ثيوفيلوس Theophilus المبجل، الذي كـان الرجل الأقــوى بين سكانها، ومنه عـرفت بعـد ذلك باسم ثيـوفيليس Theophilis، وكـان اسمهــــا في العصور القـديمة ربلة(كـذا)، فهنا جلب صدقيـا ملك يهوذا ليمثل أمام نبو خـذ نصر، ثم حرم من بصره، وهي قـائمة في سورية المجـوفة، التي

هي منطقــة في ســورية، وهي مشهــورة، لخصــوبــة أرضهــا، ولجداولها الجميلة، وينابيعهــا الرائعة، وكــان صــاحب المدينة رجلاً اسمــه يغي— سيــان، وكــان تركي الأصل، ومن أسرة السلطان الكبير لفــارس، الذي اسمـــــه بــركيــــاروق Belfecho ، وكان قد طرد جميع المسيحيين، وأخضع جميع هذه البلدان إلى سلطانه.

وبناء عليـه قــرر أمــراء الغــرب، إلقــاء الحصــار على هذه المدينة، وفي الثــامن والعشريــن من تشرين الأول نشروا جيشهم وأحــاطـوا بأســوار المدينة، وكان هنــاك خمسة أبواب للمدينة، اثنــان منهما لايمكن اغلاقهما بسبب تدفق مياه النهــر خلالهما، ولذلك ترك العدو هذين البــابين وركز اهتمامــه على الأبواب الثلاثة الأخــرى، وتولى الحملة على البــاب الأعلى بوهيمــوند والذين تبعــوا رايته منــذ البداية، ثم قــدم إليـه روبرت دوق نورماندي، وكونت فلاندرز مع رجالهما، وقد التحقا بمعسكر بوهيموند قــرب باب الكلب، وتلا هؤلاء كــونــت طولوز، وأدهمر أسقف لى بوي وذلك مع النبلاء الآخرين الذين ســاروا تحت رايتيهما، وكان بعد هذين الدوق غــودفــري مع أخيـه يوستــاس، وبلدوين مع كثير من العســاكــر الأخرى التي تبعته لأنه قائدها.

كيف قتل بوهيموند كثيراً من الترك لدى بحثه عن المؤن

وهكذا وضعــت المدينة تحت الحصــــار، ووضعــت الآلات في مختلف الأمــاكن، وضمت هذه الآلات، المجــانيق، والعــرادات، وآلات الرمي الأخرى، التي قــذفت بحجارة كبيرة إلى المدينة، مما قــذف رعباً كبيرا في قلوب السكان، كما أنهم شيــدوا قــلاعــاً خشبيــة ذوات حجم كبير، ووضعــوا في أعــلاها رمــاة قسي الزنبــورك، حيث تولوا رمــاية السهــام المحترقة، والمسمومة، وقام الأتراك من جانبهم ببناء آلات مقابلة، ورموا مقــابل كل حجرة حجــرة، وكل سهم سهم، على الحجــاج، حتى مضى بعض الوقت، وقــد جــرى قتل عـــدد كبير من على الطرفين، وبشكل

خـاص من بين الذين خرجـوا يمتـارون، ذلك أنهم بدأوا يحتاجـون إلى الطعـام، وقـام الأمير بوهيمـوند، وكـونـت فـلاندرز، وروبرت، باجماع أصوات مجلس القادة، بالانطلاق لتـأمين الميرة، وقد سمعوا بأن الأتراك يمتلكون قلعــة ومـدينـة كبيرة مليئة بجميع أنواع الثــروات، وذلك في منطقة معـادية، وقد زحفـوا إلى هناك مع رجالهم، ومع أنهم كـانوا قلة، تمكنوا بإرادة الرب، من قتل أعداد كبيرة من الأعداء، وأخذوا كثيراً من الأسـلاب لاستعمالاتهم، واكتشفـوا وقتهـا، بوسـاطة طلائعهم، وجـود حشـد كبير من الأتراك ليـس بعيـداً عنهم، وأرسل بوهيمـونـد كـونت فلاندرز مع كتلة من الرجال لمواجهة هؤلاء الأتراك، ووعده بأنه سوف يلحق به مع كتلة أكبر من الجند، وقام الكونت الذي كان رجلاً شجاعاً بمهاجمة الأعـداء بنشاط، وقتل مـائة منهم، وفيما هو عـائد إلى المعسكر، أخبره جاسوس، بوجـود قوة أعظم تزحف على الجانب الآخر، وهاجم الحجـاج على الفور هؤلاء بشـدة أعظم، وبفضل الرب هزموهم جميعـاً، وطاردوهم لمسـافة ميلين محدثين فيهم مـذبحة كبيرة، وهكذا عـادوا إلى المعسكر منتصريـن، مع خيــول، وبغــال، وجمال، وحمير، ومــواشي، وأسلاب كثيرة كانوا قد جمعوها.

وامتـلأت الحقول من حـول المعسكر، والأمـراء الذين كانوا يعـانون كثيراً من العوز، تحمسـوا الآن مع بهجة وسرور، لكن مـع أن الأسلاب كانت كبيرة، إنها لم تكن كافية لتـزويد ذلك الحشد الكبير لأكثر من أيام قليلة، وخـلال وقت قصير بدأت المجـاعـة تنتشر في المعسكر، وعـادت أعـداد هـائلة من الجنود نحــو أوطانها بشكل سري، ناسيــة تعهـداتها وإيمانها، وكــان بين هؤلاء تـاسينوس، الوزيـر البــارع والأثير عند ألكسيوس، ذلك أنه خشي أن الحجاج سوف يعملون بشكل استبدادي، وقد ترك أسرته خلفه في خيامهم، ليخفي خيانته، ذلك أنه غادر ولم يعد مطلقاً.

وفي هذه الآونة حمل سوين Swain ابن ملك الدانمارك شارة الصليب، وعندما كان على طريقه للمشاركة بحصار أنطاكية مع ألف وخمسمائة من الرجال المسلحين بشكل جيد، فوجىء بكمين تركي، ليس بعيداً عن نيقية، وقد قتل مع جميع رجاله، وبسبب مقاومتهم الشجاعة، جرى الانتقام لمقتلهم بشكل نبيل، ودفع العدو ثمناً باهظاً لانتصاره.

كيف تأثر الحجاج بالمجاعة وبالوباء وعانوا منهما

باتت في هذه الآونة المجاعة بين الصليبيين كل يوم أكثر فأكثر، وتبعها الوباء، وعين أسقف لى بوي— الذي كان نائب البابا في المعسكر— صوماً لمدة ثلاثة أيام فرض على جميع الناس الأخذ به، ومراعاته، لأن الرجال الأكثر حكمة وعلماً بين الناس، قد اتفقوا على أن ذنوبهم كانت السبب في معاناتهم، كما أنهم أمروا بإبعاد جميع المشردات من الإناث من الجيش، مع عدم التسامح مع السكر، والعربدة، أو النرد، أو الأيمان الكاذبة، وجرى تحريم جميع أعمال الغش والخديعة والتصرفات الشائنة، وجرى تقديم صلوات خاشعة، من أجل أن تتطلع الرحمة الربانية إليهم وتنزل عليهم، وهكذا بفضل نعم الرب الوافرة، عاد الناس إلى الطريق الأقوم للحياة، وخمد غضب الرب قليلاً، لأن الحجاج كانوا قد ارتعبوا إلى أبعد الحدود عندما علموا بوجود جواسيس في المعسكر، من كل الشعوب في الشرق، وهم من غير المؤمنين، وبات كل رجل في المعسكرقلقاً ليعرف كيف يمكنه الدفاع عن نفسه ضد أعداد هائلة من المقاتلين، من الممكن أن تزحف ضدهم.

هذا وكان من السهل بالنسبة للجواسيس البقاء غير مكشوفين في المعسكر، داعين أنفسهم بأنهم تجار من بلاد الاغريق، أو من سورية، أو من أرمينية، جلبوا مؤناً لبيعها للجيش، ونظراً لأن هؤلاء الجواسيس كانوا شهوداً على المجاعة والوباء اللذان انتشرا في المعسكر، خاف الحجاج بالفعل من قيام هؤلاء الجواسيس بالانتشار بين الشعوب، الأمر

الذي سوف يغريها للقدوم مع القوات لتدميرهم جميعاً، واحتار الأمراء ولم يعرفوا العلاج الذي ينبغي استخدامه ضد هذا الشر، لكن بوهيموند عرف كيف يتصرف، ذلك أنه كان رجلاً ذكياً، فعند حلول المساء من الليلة التالية، عندما كان رفاقه جميعاً منشغلون في جميع أرجاء المعسكر، بإعداد الطعام لعشائهم، أمر باحضار عدد من الأتراك، كانوا لديه في السجن، وأمر بقتلهم، ثم بشي أجسادهم فوق نار كبيرة، لإعدادهم من أجل المائدة، فضلاً عن هذا، أمر خدمه أنهم إذا ماسئلوا عما كان يحدث أن يجيبوا أن أوامر عامة قد صدرت، تقضي أنه منذ الآن فصاعداً، بتقديم جميع الأتراك الذين سوف يجلبهم الكشافة أسرى، ليكونوا طعاماً لكل من الأمراء والناس عامة.

وسمع الجيش كله أخبار هذا العمل المدهش الذي قام به الأمير بوهيموند، فركضوا جميعا ليتعرفوا على الأخبار، واعتقد الجواسيس الأتراك الذين كانوا في المعسكر، بأن هذا العمل كان عملاً جاداً، لارجعة فيه، ولذلك خافوا من أن يحدث الشيء نفسه لهم أنفسهم، ولذلك غادروا المعسكر، وعادوا إلى بلدانهم، حيث أخبروا سادتهم بأن رجال جيشنا كانوا شرسين جداً، مثلهم مثل وحوش الغابة، ولايقنعهم اخضاع المدن والقلاع، والاستيلاء على أسلاب أعدائهم، وهم لايكتفون بتعذيب أسراهم وقتلهم، بل يقومون بملىء أجوافهم من جثثهم، وهم يتغذون على دماء ضحاياهم، وانتشر هذا الخبر ووصل إلى أقصى مناطق الشرق، وأرعب البلدان النائية جداً، واضطربت أنطاكية لسماعها أخبار هذه الفعلة، وتجلت رحمة الرب نحو شعبه بفعل حماسة الأمير بوهيموند، وبهذه الوسيلة توقف إلى أبعد الحدود الخوف من الجواسيس.

شفاء الدوق غودفري من مرضه وسبب مرضه

وكان هناك سبب آخر لسرور الجيش هو شفاء الدوق غودفري،

الذي كـان في تلك الآونة قـد استرد صحتـه من مـرض شـديد، لأنهم عندما كانوا في أنطاكية الصغرى أصيب بجراحة كانت قاتلة تقريباً، وقد أصيب بها من دب، فقـد ذهب الدوق إلى الغـابة بقصـد الاستجمام، فوجد حـاجا مسكينا يحمل خشبا جافـاً، مهاجماً من قبل دب، وكان غير قـادر على الدفـاع عن نفسـه، لذلك ركـض هارباً وهو يدعـو بصـوت مرتفع للنجدة، وشـاهده الدوق، وهو يركض، ويصرخ بصوت مرتفع، والدب قريـب منه وجاهز لإلتهـامه، فاندفـع نحو الحيوان، وهو شـاهر لسيفـه، لانقـاذ الـرجل المسكين، وعندمـا شـاهده الـدب، وهو يزحف نحـوه، وسيفـه مجرد مشهــور، ترك الحاج المسكين، وانقض على عـدوه الأعظم، وخاف حصـانه خوفاً شديداً، فترجل راكبـه، وتابع القتال على قـدميــه، وبصـوت مــرتفع وفكين مفتـوحين استخـف الدب بالدوق وبسيفه، وسعى للاشتباك معه، وعندما حاول الدوق طعنه بسيفه تجنب الدب رأس السيف، وأمسك الدوق بمخـالبه الأمـامية، وحاول رميـه أرضـاً حتى يمزقـه إرباً إربا، غير أن الدوق الذي كـان قـوياً، وعسكرياً رياضيــاً، أمسك الدب بيــده اليسرى، وغـرس السيف بجســده حتى غمده، فألقاه ميتاً على الأرض، ونظراً لأنه أصيـب بجراحة بالغة، ولأنه تغطى بالدم، وللنزيف الكبير الذي عـاني منه، خارت قـواه، حتى أنه لم يعـد قادراً على العـودة إلى خيمته، ومـا أن تولى الحاج المسكين— الذي أنقــذ مـن الموت بتــدخل الدوق— نشر الخبر في المعسكـر حتى هبت العسـاكر نحـوه، ووضعته على محفـة، وحملته وسط أسف عـام من قبل جميع الجنـود في المعسكر، حيـث حظي بعنايـة الجراحين حتى شفـي من جراحته، وبما أن هذه الحادثة وقعت في الآونة التي أشرنا إليها من قبل، لذلك توفر سرور عارم بين صفوف الجيش كله.

كيف جرت سيامة سامبسون أسقفاً لوركستر

وقـام في السنة نفسهــا، أنسلم رئيس أسـاقفــة كـانتربري بسيــامـة

سامبسون أسقفاً لوركستر Worcester، وكان ذلك في لندن، في كنيسة القديس بولص، يوم الأحد ٢٥ حزيران، وكذلك عمل رتشارد دي اسي Essaie راعي دير لكنيسة سانت ألبان الشهيد في انكلترا، وقد أدارها بأمانة لمدة اثنتين وعشرين سنة، أصلح خلالها الأوضاع الدينية داخل أسوار الدير، وأثراه في الخارج بالقلايات، مع ممتلكات الأراضي، والمقتنيات من كل نوع.

حول مقتل ألفي تركي

العام ١٠٩٨م: الحجاج منشغلون في حصار أنطاكية، وقد احتفلوا بعيد ميلاد الرب بشكل فخم جداً، مع قداسات دينية، وتقديم للصدقات، وفي الوقت نفسه كان أهل أنطاكية قلقين على مدينتهم، في وضعها الحرج آنذاك، ولذلك دعوا أمراء المسلمين، من القريب والبعيد، إلى عونهم، وبناء على طلباتهم الملحة بعث أهالي مدن: دمشق، والقدس، وقيسارية، وحلب، وحماه، وحمص، وبعلبك، ثمانية وعشرين ألفاً من المحاربين، وقد تجمعوا عند حارم، التي تبعد حوالى أربعة عشر ميلاً عن أنطاكية، وكانوا عازمين على الانقضاض بشكل مفاجىء تماما على الحجاج، في الوقت الذي يكون فيه هؤلاء منصرفين نحو الهجوم على المدينة، غير أن قادتنا وقد عرفوا بهذه النية المبيتة، تركوا رجالتهم يتابعون الحصار، وجمعوا جميع الفرسان عند أول الغسق، وغادروا المعسكر بصمت، وتوقفوا خلال الليل على بعد ميل واحدعن المعسكر المعادي، بين بحيرة وبين العاصي، وقد هبوا إلى السلاح في الصباح الباكر، ووزعوا قواتهم إلى ست فرق، لكل منها جرى تعيين قائد، وعرف الأتراك الذين لم يكونوا بعيدين بأن رجالنا كانوا على مقربة منهم، وقد أرسلوا سريتين من الجند نحو الأمام، في حين لحقوا هم بهم على مهل، وكان تعداد الصليبيين سبعمائة رجل فقط، إنما من القوة التي حصلوا عليها من عليين، ظهروا بالنسبة لأنفسهم آلافاً كثيرة.

وأثناء زحف القــوات نحــو الأمـــام من على الجانبين، حمل الصف الأول من الأتراك بشـــدة متناهيـــة على الصليبيين، واثقين أنهم بعــد اطلاقهم لنشابهم عليهــم سوف يكون بإمكانهم التراجع إلى عسـاكرهم، لكن رجـالنا تحملوا، ثم حملـوا عليهم بالسيـوف مجردة، ورمـاح مثبتـة، ودفعوهـم حتى جعلوهم يتكدسون بين البحيرة من جهة وبين النهر من الجهـة الأخرى، ولذلك أعيق الأتـراك عن التحرك بحـرية هناك حسبما هي طريقتهم المعتادة، وعندمـا وجدوا أنفسهم غير قـادرين على التعامل مع الصليبيين في القتال، أخلـدوا إلى الفرار، لأنه كان الوسيلـة الوحيدة للنجـاة، وطاردهم الصليبيـون بشدة حتى معسكرهم، الـذي كان يبعـد عشرة أميال عن ميـدان القتال، ولدى رؤية سكان حارم للعساكـر وقد هزمـوا، وأن أكثـرهم صـاروا طعمـة للسيف، قـامـوا بإحـراق بلدتهم، وهربوا منهـا أيضـاً، وقـام الأرمن مع المسيحيين الآخـرين السـاكنين في تلك المناطق بالاستيـلاء على البلدة، وسلمـوها للصليبيين، وجـرى في ذلك اليوم مقتل ألفي رجل من الأعداء، وقدم رجالنا حمداً وافراً للرب من أجل نصرهم، ثم عـادوا إلى المعسكر، حـاملين معهم خمسمائـة رأس من القتلى، مع ألف من الخيول الرائعـة، وكميات هائلة من الغنائم، وفي الوقت نفسـه خرج سكان المدينة، وأغـاروا بشجاعة على رجـالنا طوال النهـــار كله، لكنهم تـراجعـوا إلى داخـل المدينة لدى اقتراب الأمـــراء، وعندما وصلت الفرقة المنتصرة إلى المعسكر، رمت بمائتي رأس تركي إلى المدينة، لإعـــلام السكان بانتصـــارهم، وثبتـــوا البقيـة على عصي أمـــام الأسوار، حتى يزيدوا بمشاهدتهم من آلام المحاصرين.

كيف جرى تدمير ثلاثمائة من الحجاج من قبل الترك

وبعدمـا عاد الأمراء إلى الحصار، قـاموا بهجوم عـام على المدينة، وقد جرت مـواجهتهم بكل شجاعة من قبل المحـاصرين، الذين قتلوا حامل علم أسقف لى بوي مع عدد كبير آخر، وأخيراً بعدما مضى على الحصار

خمسة أشهر، وصلت بعض المراكب الجنوية جالبة حجاجاً وميرة، وبعث البحارة بعدة رسل يطلبون من الأمراء قوة ترافقهم إلى المعسكر، ومنحت هذه الأخبار الرضا إلى الحجاج الذين كانوا منذ أمد يعانون من الحاجة إلى الطعام، ونزل عدد كبير منهم إلى ساحل البحر، حيث أنهوا أعمالهم واستعدوا للعودة ثانية إلى المعسكر.

وكان الأمير بوهيموند، وكونت طولوز، وايفرارد دي بوساكو Everard de Busaco وغارنر Garner كونت دي غري Gres، هم القادة الذي كلفوا بمرافقة الحجاج القادمين الجدد مع الآخرين الذين نزلوا لمقابلتهم، وعندما سمع أهل أنطاكية أخبار هذه الحملة أرسلوا أربعة آلاف من العساكر الخفيفة لإعتراضهم وتدميرهم، وبناء عليه عندما كان الحجاج الأدنى مرتبة— الذين لم يكونوا مسلحين— على طريقهم إلى المعسكر، مع المؤن على ظهور الخيول، خرج الأتراك من الكمين، وهاجموهم بفعالية، ودافع عنهم الأمراء لوقت طويل، لكن عندما رأوا أخيراً استحالة متابعة القتال ضد مثل ذلك الحشد الكبير من الأتراك، تراجعوا إلى المعسكر مع أكبر عدد أمكنه أن يلحق بهم، لكن العدد الأساسي من الحجاج، وكانوا حوالي ثلاثمئة من الجنسين، ومن جميع الأعمار، قد قتلوا في ذلك الاشتباك.

وفي الوقت نفسه وصلت أخبار إلى المعسكر بأن الحجاج الذين نزلوا لتوهم إلى اليابسة قد فوجئوا من قبل كمين نصبه الأتراك ، وأنهم جميعاً كانوا طعمة للسيف، وفي أثناء انتشار هذه الأخبار، دخل بوهيموند، يتبعه كونت طولوز إلى المعسكر، وشرحوا إلى الأمراء أخبار الحادث المشؤوم الذي حدث، وشاهد يغي سيان، حاكم المدينة، بأن رجاله قد انتصروا ولذلك أمر بفتح أبواب المدينة، حتى تتمكن القوات من الدخول بحرية لدى عودتها، لكن قادتنا كانوا تواقين للانتقام لدماء رجالهم، فحملوا السلاح، وبادروا مسرعين لمواجهة الأعداء، وانقضوا

بغضب وعنف على الأتراك، الذين تفرقوا وتبددوا خوفاً، وتصارع الفريقان في سبيل السيطرة على جسر المدينة، وتمكن الدوق غودفري دوق اللورين من مركزة رجاله على الجسر، وقام هؤلاء إما بقتل الأتراك، أو بصدهم وطردهم نحو الأمراء الذين كانوا يتولون مطاردتهم، وبذلك صاروا غير قادرين على مقاومة أي من الفريقين، ولم يستطيعوا بأية وسيلة الفرار، لهذا جرى تمزيقهم إلى إرب إرب، ورأى يغي سيان فرار عساكره، ولهذا فتح الأبواب لإدخال الذين بقيوا منهم أحياء على الأقل، ولذلك توفر هناك حشد كثيف فوق الجسر، ولذلك سقط عدد كبير جداً في النهر، وتمكن الدوق غودفري بقواه الذاتية، وبضربة واحدة، من قطع رؤوس عدة عساكر أتراك ورأى واحداً منهم وهو يحمل بشدة على رجالنا، فقطعه إلى قسمين، وهو لابس لدروعه، وهكذا سقط القسم الأعلى على الأرض، بينما بقي القسم الأسفل على ظهر الحصان الذي حمله إلى داخل المدينة، ذلك أن هذا الحصان اندفع يصهل ويشخر بين الأتراك، وكأنه مدفوع من قبل الشيطان، وقد أرعب الجميع بمنظر الجثة الفظيع فوق ظهره، وسدد روبرت دوق نورماندي ضربه مماثلة لتركي آخر، كان يتحارب معه، وكانت الضربة قوية إلى حد أنها نفذت من خلال الخوذة، والترس، والرأس، والأسنان والرقبة نزولاً حتى الصدر، وكان مثل شاة قطعت إلى قسمين من قبل الجذار، وعندما سقط إلى الأرض، صرخ الدوق بصوت مرتفع قائلاً:« إنني أوصي بروحك الدموية إلى جميع العاملين في جهنم»، فقد جرى في ذلك اليوم مقتل ألفين من الأتراك، ولولا قدوم الليل، لكانت أعمال أنطاكية قد وصلت إلى النهاية، وعلم رجالنا بشكل مؤكد من الأسرى، أن اثني عشر رجلاً من بين أعيان الأتراك قد سقطوا في هذه المناسبة، وقام سكان المدينة بدفن أجساد الذين قتلوا منهم أثناء الليل، لكن رجالنا نبشوا قبورهم وأخرجوهم ثانية، وجردوا هؤلاء الكلاب المدفونين من جميع الذهب والفضة والثياب الثمينة التي كانوا يرتدونها، وأعطوا

الجميع للاستخدام من قبل حجاجهم الذين كانوا فقراء.

كيف استولى الحجاج على ألفين من الخيول

بعد هذا النصر الذي أرسلته السماء، بنى الحجاج بعض المحطات الجديدة والآلات من أجل ازعاج المدينة، وسمعوا بأن سكان المدينة لديهم نقص بالأعلاف، لذلك أرسلوا خيولهم للرعي في مكان يبعد حوالي الأربعة أميال عن المدينة، فزحفوا مسرعين إلى هناك، وقتلوا الذين كانوا هناك مسؤولين، واقتادوا إلى المعسكر ألفين من الخيول الأصيلة، إلى جانب البغال من الجنسين، وحوالي الوقت نفسه، سمع بلدوين، أخو الدوق غودفري— الذي كان، كما روينا، قد تسلم حكم الرها— بأن الحجاج في عوز للضروريات فأرسل إليهم هدايا كثيرة، وذهباً، وفضة، وملابس حريرية، وخيولاً ثمينة، بها تحسنت أوضاع الأمراء كثيراً، وأرسل إلى أخيه غودفري أيضاً جميع موارد أراضيه قرب الفرات من حبوب وخمرة وشعير، وزيت، وذلك إلى جانب خمسين ألف قطعة من الذهب.

وفي هذا الوقت أيضاً جلب الجواسيس أخباراً إلى الأمراء، بأن سلطان فارس قام بناء على الطلبات الملحة من أهل أنطاكية، ثم بفضل تدخل رعيته، فأرسل إلى سورية جيشاً عظيماً، وأن هذا الجيش بات وشيك الوصول، وأرعبت هذه الأخبار الأمراء كثيراً إلى حد أن ستيفن كونت تشارترز، تظاهر بالمرض، فحصل على إذن من رفاقه بالمغادرة، وغادر مع أربعة آلاف رجل ولم يعد ثانية، واجتمع الأمراء الذين كانوا خائفين تمام الخوف من هذه الكارثة المقبلة، وتشاوروا حول العلاج المتوجب الأخذ به، قبل أن يقوم الآخرون باحتذاء حذو هذا المثل القاتل، ولذلك تقرر بالاجماع أن كل واحد سوف ينسحب من دون موافقة الأمراء ويترك المعسكر من دون إذنهم، سوف يعد مجرماً بتدنيس المقدسات، أو بالقتل، وهكذا حدث أنهم جميعاً، تعهدوا عن طواعية،

وأقسمـــــوا وكأنهم في الديـر، وربطوا أنفسهم على أن يكـونوا مطيعين للأمراء.

حول فيروز الذي خان أنطاكية

من المعروف أن الرحمة الربانيـة غالبـاً ماتقدم العـون إلى عبيد الرب، عندما تخفق جميع الوسائل الأخـرى، ولاتحيجهم للتعرض للمحنة فوق طاقتهم بالتحمل، فقـد كـان هناك في أنطاكيـة رجـلاً من أصل نبيل، وكـان متميزاً في ميـدان المسيحيـة، وكان اسمـه فيروز Emifer، وكان رجلاً صـاحب سلطان كبير ونفوذ لـدى يغي سيان، وكـان مسؤولاً في قصره عن ديوان الوثـائق(كـاتب بـالعـدل)، وكـان مشهـوراً لنشـاطه وحكمتـه، وكان هـذا الرجل قد سمـع بأن بوهيمونـد كان أميراً لامعـاً ومجيداً، ولذلك قام فور إلقاء الحصار على المدينة بإرسال رسل موثوقين لديه إليه لضمان صداقته وكان في كل يوم يفشي إليه بصورة الأوضاع في المدينة، وكان يبين له بشكل سري كيف عليـه أن يعمل، وقام بوهيموند من جـانبـه بإخفاء سر صـديقـه، بحيث لم يكن بإمكان الرسل من كـلا الجانبين تحصيل أية معرفة عن مراسلاتهما.

واستمـرت هذه الصـداقـة بينهما لمدة سبعـة أشهر، وكـان مـوضـوع مـداولاتهما يتعلق بكيفيـة الطريقـة التـي يمكن بها إعـادة المدينة إلى المسيحية، وغالباً ماطرح بوهيموند هذا السؤال على فيروز، الذي أرسل إليه ابنه يحمل هذه الرسـالة:« إنه إذا أمكن طرد الكلاب القذرين الذين نحن الآن تحت نيرهم من المدينة، واسترداد المدينة لحريتها القديمة، وإثر ذلك إعـادة اسكانها ثانيـة مـن قبل شعب الرب، إنني على يقين سـوف أنال جـائزة السعـادة الأبدية مع أرواح المبـاركين، وإذا لم أستطع الوفـاء بوعـدي، لاشك بأن بيتـي واسم أسرتي سـوف يمحى من الوجـود، وبذلك لن يسمع به ثانية، وإذا— على كل حـال— تمكنت من الحصول على مـوافقـة حلفـائك، بأن المدينة حينما ستسلم إليك من قبلي، سـوف

تصبح ملكاً لك، إنني من أجلك سوف أكرس نفسي لهذه المغامرة، وإنني سوف أسلم إليك هذا البرج العظيم الحصانة وأضعه بين يديك، فهو ماأن تتملكه، سوف يستطيع الأمراء لديك استحواذ ممر مفتوح إلى أي جزء من أجزاء المدينة، وكن على يقين أن هذا إذا لم يفعل في يوم الغد، فإنه لن يفعل مطلقاً، لأن هناك مائتي ألف من الفرسان قادمين من جميع ممالك الشرق لمساعدة هذه المدينة، وهم الآن معسكرون على شواطىء الفرات».

وعندما سمع بوهيموند هذه الكلمات، رجع إلى المعسكر، ودعا إليه جانبا كبار الأمراء وخاطبهم قائلاً مايلي:« إنني أرى ياأصدقائي الأعزاء واخواني أنكم قلقون تجاه اقتراب كربوغا مع جيشه الهائل، الذي بعدما أمضى أسابيع في حصار الرها، هو الآن قادم لمساعدة أهالي أنطاكية، وبناء عليه، إنه يبدو لي أن علينا السعي للاستيلاء على أنطاكية، قبل وصول هذا الحشد، وإذا ماسألتم كيف يمكن فعل ذلك، أجيبكم بأن هناك وسيلة يمكن بها تحقيق رغباتنا، إن لدي صديقاً في المدينة، إليه موكل حفظ برج قوي، وقد تعهد بتسليمي إياه، متى سألته ذلك، وبناء عليه إذا كنتم ترون أن من الحكمة تسليم المدينة إليّ، لتكون ملكاً لي، وذلك إذا ماأمكن الاستيلاء عليها، إنني على استعداد لتنفيذ حصتي من الصفقة، لكن إذا كان لدى أي منكم اقتراح مخالف، أنا جاهز لإعطائه محلي، والتخلي عن دعواي».

حول الاستيلاء على أنطاكية وحول سلبها ونهبها

وعبّر المقدمون عن رضاهم الكامل وقناعتهم بهذه الكلمات، باستثناء كونت طولوز، وقدموا تعهدات مهيبة، بأنهم لن يخبروا بهذا السر أي انسان، وحثوا في الوقت نفسه بوهيموند على صرف عنايته القصوى نحو ضمان نجاح هذا المشروع، وارفض الاجتماع، وأخبر بوهيموند صديقه بأنه حصل على الشروط المطلوبة، وطلب منه ترجمة أقواله

وأفكاره إلى أفعـال في الليلة المقبلة، وقـام فيروز من جانـب آخر، بتنبيـه بوهيمـوند إلى وجوب مغـادرة جميع الأمراء المعسكر في حـوالي الساعـة التاسعة، وكأنهم ذاهبون لمواجهـة الأعداء، وأن يعودوا بشكل سري مع أول سـاعات الليل، حتى يكونوا في منتصـف الليل جاهزين للالتحـاق بالمغامرة.

وجرى تنفيـذ هذا كله، واقترب حلول منتصف الليل، وكانت المدينة وقتهـا كلها تغط بالنوم، عندها أرسـل بوهيموند واحـداً من خدمـه إلى صديقه ليسأله عما إذا كان يمكـن لحاشية سيده اظهار أنفسهم؟ ووصل الخادم وسلم الرسالة، وعليها ردّ فيروز قائلاً:« اجلس هنا ولاتقل شيئاً حتى أعـود»، وقـد انتظر لبعض الـوقت حتى قـام رئيس الحرس الذي كان معتاداً على الطواف على الأسوار ثلاث مرات أو أربع كل ليلة، مع المصـابيح ليرى إذا كـان أحداً من الحراس نائماً، أثناء مـروره به، وبعـد ذلك بحث عن فـرصته فـوجـدها، فعـاد إلى الرسول وقـال له:« ارجع سريعاً وأخبر سيدك ليقدم إلى هنا مع عصبـة من الرجال المنتخبين بقدر مـا أوتي من سرعة»، وعـاد الرسول، فـوجد سيـده جاهزا مع الأمـراء، وكـان الجميع قد استعـدوا، وحضروا بأنفسهم كتلة واحـدة عند أسفل البرج، وكانوا بمثـابة رجل واحد، ودخل فيروز إلى البرج، فوجـد أخاه هناك نائماً، ولأنه كـان يعـرف أن عقله سـوف يكون مضـاداً لمثل هذه المغامرة، وخوفاً منه أن يقف عائقاً ضد نجاحها، طعنه حتى قلبه، وكان هذا عمـلاً صحيحاً، وفي الـوقت نفسه دمـوياً، ثم إنه ذهب ونظر نحـو الأسفل على الأمـراء، ورمى إليهم بحبل، به سحب إلى الأعلى سلماً من أجلهم من أجل الصعود عليه، وبعدمـا نصب السلم، مامن واحد منهم صعد عليـه، خوفاً من خيانة، وذلك دون الاهتمام بتحـريض بوهيموند، وعندمـا رأى بوهيمـوند ترددهم، تسلق على السلم بنفسـه مغامـراً بها، وأخذه فيروز بيده وسحبـه إلى البرج وقال له:« عاشت يمناك هذه»، ثم

اقتاده نحـو الداخل، حيث كانت جثة أخيه ممدة، وأوضح لصـديقه لماذا تولى قتله، واحتضن بوهيموند صديقه، وأطرى على ثبات موقفه ورأيه، ورجع إلى السلم، وحث رجـاله على الصعـود، لكن مامن واحـد منهم رغب بالصعود، حتى نزل بوهيموند ثانية، وأعطاهم برهاناً واضحاً على أن كل شيء كان سليماً.

وصعـد الرجـال جميعـاً بسرعـة كبيرة، وامتـلأ البرج بهم، ولم يقتصر ذلك على ذلك البرج بل امتـد إلى أبـراج مجاورة، حيث جـرى احتـلالها بسرعة، بعد قتل الحراس الذين كانوا بداخلها، وأخيراً فتحوا باباً سرياً، منه دخل جميـع الأمـراء الذيـن كـانـوا في الخارج ، وبهذه الوسيلة ازداد عددهم، فأغـاروا نحو باب الجسر، حيث فتحـوه بالقوة، وذلك بعـدما قتلوا المدافعين عنه، وأدركوا الآن أن فجر اليـوم قد دنا، ولذلك شرعوا يصـدرون أصواتـاً بالأبواق، وبالنفر لايقـاظ الذين كـانوا مـايزالون في المخيم، ورفع علم بـوهيمـوند وأخــذ يخفق من فـوق واحــد من أعلى الأبراج معلنـاً بأن المدينة قــد سقطت، واستيقـظ السكان من نـومهم، وتساءلوا عن هذه الضجة غير الاعتيادية وعن معـانيها، وعندما— بعد أمـد طويل— شـاهدوا بأن جميع الشوارع تسيل بها الـدماء، مع وجـود رجـال مسلحين في كل جهـة، قـامـوا بمغـادرة بيـوتهم والتخلي عنهـا، وحاولوا الفرار مع زوجاتهم وأطفالهم، لكنهم تواجهوا في كل مكان مع تعاسة الموت.

وتطاير المسيحيــون الذين سكنوا في أجــزاء مختلفــة من المدينة، إلى السلاح، والتحقـوا بمحرريهم، وألحقـوا خسائـر كبيرة بالأعـداء، ولقد فتحت جميع البيوت، واستبيحت بما كان فيها من سلع، وذهب، وفضة، ومـلابس ثمينة، وجـواهر، وآنيـة لاتقدر بقيمـة، وسجـاد، وثيـاب من الحرير الخالص، وهذه كلها جـرى اقتسامهـا بالتساوي بين الناس الذين كـانوا قبل قليل يعانون مـن العوز ومن الجوع، فلقـد بات هؤلاء لديهم

الآن الوفـرة من كل شيء، ولقـد قيـل بأن أكثـر من عشرة آلاف من الأتراك قد جـرى قتلهم في المدينة، وكانت جثثهم المرميـة بالشوراع من دون دفن تشكل منظراً تعيسـاً لمن ينظر إليها، وتم العثـور في المدينة على نحو خمسمائة حصان عربي، وكـانوا جميعاً نحيفين من الحاجة إلى الطعام، لأن قليـلاً مما هو مناسب للأكل من قبل الخيول أو الناس، كـان ماعثـر عليه بالمدينة لدى الاستيلاء عليها.

وفاة يغي سيان أمير أنطاكية وصاحبها

وعندما شـاهد يغي سيان، صـاحب أنطاكية، بأن المدينـة قد احتلت، خـرج منها وحيـداً من خـلال باب خلفي، وكـان مضطرباً بعقله كثيراً، وقـد حاول النجـاة، لكنه واجـه أحد الأرمن الذي عـرفـه، فرمـاه على الأرض، وقطع رأسـه بالسيف، وحمله وقـدّمه إلى الأمـراء أمـام الجيش كله، وكان بعض أعيان المدينة غير عارفين ماذا يفعلون، لذلك سعوا إلى الفـرار نحو الحصـن العالي، لكن قـابلهم بعض رجـالنا الذين كـانوا في أمـاكن أعلى منهم، وقـد اعترضـوا سبيلهم، وتضـايقـوا من منحـدرات الرابيــة، وضغط عليهـم من الأعلى من قبل رجــالنا، ومـع أنهم بذلوا جهــودهـم للدفــاع عن أنفسهم لقــد وقعــوا على طول الطـريق هم وخيولهم، وماتوا وكان تعدادهم حوالي الثلاثمائة، وحاول آخرون الفرار إلى المناطق الجبلية، لكن رجـالنا طاردوهم، وأسروا بعضاً منهم، وتمكن الآخـرون بفضل جـودة خيولهم، مـن النجاة إلى الجبـال، وهكذا جـرى الاستيـلاء على أنطاكيـة في السنة الـرابعـة عشرة بعـد استيـلاء المسلمين عليها، وكان هذا في سنة ١٠٩٨م، في اليوم الثالث من شهر حزيران.

حول شمس الدولة وتسليمه القلعة إلى كربوغا

وعندمـا خمدت الفـوضى التي تـرافقت مع الاستيـلاء على أنطاكيـة، وصار كل شيء هادئـاً، اجتمع الأمراء مع بعضهم، وقـرروا الصعود إلى

الرابيـة التي أشرفت على المدينة، والاستيلاء على الحصن واقتـلاع الذين فيـه منه، لكـن عندمـا وصلوا إلى الموضع، أدركـوا أنهم لن يستطيعـوا الاستيـلاء عليـه إلا بالتجـويع، ولذلك صرفـوا اهتمامهم نحـو هذه المسائل، وكان شحنة القلعة وحـاكمها هو شمس الدولة ابن يغي سيان المتقـدم ذكـره، وكـان معـه عـدد كبير من جند الترك، وعندمـا سمع بكربوغـا مع الجيش الفارسي بأنـه دخل إلى منطقة أنطاكيـة، وضع أمله فيه، وبـادر مسرعاً لمقابلتـه، وأخبره عن وفاة أبيـه، وعن مأساة أنطـاكية وعـزلتهـا، وأجـابه كـربوغـا:« إذا مـاأردتني أن أبذل كل جهـودي في سبيلك، سلمني حصنك، فعنـدمـا أكـون آمنا في ذلك الموقع، سـوف أهاجم أولئك الـرعـاع بجميع قـواتي»، ورضي شمس الدولة وسلمـه حصنه، وأودع الدفاع عنـه بين يديه، ومـاأن تسلم كربـوغا الحصن حتى وعد مخلصاً بمساعدة شمس الدولة.

ولدى سماع الأمراء بدخـول كربوغا إلى أراضي أنطاكية، سعـوا نحو تقوية المدينة، وشحنها بالحاجات الضرورية، وهنا فجأة ظهر ثلاثمائة من فرسان جيش كربوغا، واقتربوا مـن المدينة بتهور، وأغروا رجالنا للتقدم نحوهـم والقتال معهم، وهنا قـام روجردي برانفيل وكـان فارسـاً جيداً مـرتبطاً بروبرت دوق نورماندي، فأخـذ معه خمسـة عشر مرافقـاً وحمل بشجـاعـة عليهم للتصـدي لهم، لكن الأعـداء هـربوا بشكل مخادع، وطاردهم روجر حتى وصلوا إلى مـوقع كمين لهم، وقام الكمين بشكل مفـاجيء وحمل على رجـالنا وأرغمهم على الفـرار، ولم تستطـع قـوات روجـر القتـال مع العـدو، بسبب قلتها، ولتفـوق الأعـداء على رجـالنا بسرعة خيولهم، وقد قتل روجر، ونجا رجاله إلى داخل الأسوار، وقطع الأعداء رأسه، وعادوا دون أن يصابوا بأذى إلى معسكرهم.

الحصار الثاني لأنطاكية من قبل كربوغا

وفي اليوم الثـالث بعد الاستيلاء على انطاكية، نصب كـربوغا، الأمير

الفـارسي معسكره أمام المدينة، مع جيش عمـلاق، وطوق بشكل محكم جميع الجانب الجنوبي، وذلك امتداداً من الباب الشرقي إلى الباب الغربي، وكان إلى جـانب الباب الشرقي قلعة تولى حـراستها بوهيمـوند،فطوقوا هذه القلعـة، وقـامـوا بحمـلات متـواليـة عليهـا، واستثير بوهيمـوند بجـرأتهم، فحمل عليهم، لكنه قـوبل بقوة تركيـة متفـوقة، أرغمتـه على الانسحاب متراجعـاً إلى المدينة، ولدى احتشاد عـامة الجند عنـد الباب، قتل منهم حـوالي المائتين، من جـراء الحملة العنيفـة للأعـداء، وفي مـرة ثانيـة، هاجم الأتراك أيضاً، القلعـة التي شيدت حـديثاً، بشدة متنـاهية، ولولا أن الناس هبوا لنجدتها بسرعة، لكانـوا استولوا عليها بكل تأكيد، ولقـد كان روبرت دوق نورمـاندي هو الذي جـاء لنجدتها مع رجـاله، وقد قتل وأسر عـدداً كبيراً من الأعداء، وأرغم البـاقي على الفرار، وفي مناسبـة أخرى، طلب الأتراك مبـارزة رجالنا بالقتـال، حتى أن بعضهم ترجلوا عن ظهـور خيـولهم، وأظهـروا اخـلاصـاً غير معتـاد، ودعـوا الآخرين لحذو حذوهم، وعندمـا كانوا يتبارزون على هذه الصورة، حمل تانكرد من البـاب الشرقي، وهاجم الأعداء قبل أن يتمكنوا من معـاودة امتطاء خيولهم، وقتل ستة منهم، في حين نجا الباقون.

العذاب الذي سمح الرب بنزوله على الحجاج بسبب آثامهم

وعانت المدينـة في الوقت نفسه معانـاة هائلة من المجاعـة، وكان هذا عقاباً لآثام الحجاج، بسبب أن كثيراً منهم، نزلوا من فوق الأسوار وهم مرعوبين، وتدلوا بوساطة الحبال، أو وضعوا أنفسهم داخل سلال، وقد تخلوا عن رفـاقهم، ونجـوا إلى شـاطىء البحـر، وكـان هؤلاء الذين تشككوا بجود الرب وبرحمته، ليسوا فقط من عامة الناس ومن الفقراء، بل أيضـاً من النبلاء ومن ذوي الأنسـاب العاليـة، من أمثـال وليم دي غرانتمينيل Grantmenil، من أبوليا، مع أخيه ألبيرك Alberic، ووليم النجار مع أخيه غي، ولامبرت، وأعداد كبيرة أخرى معهم، وإلى جانب

هؤلاء، كان هناك بعضاً ممن يئسوا من العون، فالتحقوا بالعدو، وتخلوا عن الإيمان بالمسيح، وفكر آخرون بالفرار بشكل جدي، لكنهم أعيدوا إلى الثبات من قبل أسقف لى بوي، وبوهيموند، الذي جعلهم يقسمون أنهم لن يتخلوا عن قضية المسيح، حتى انتهاء المعركة، التي سوف تجرى في وقت أو آخر.

وكانت المجاعة قاسية في المدينة إلى حد أن الناس، التفتوا، بسبب قسوة المجاعة المتناهية إلى أعمال وتصرفات مخجلة: فلقد بيعت الدجاجة بمبلغ خمسة عشر شلنا، وبيعت البيضة بشلنين، والجوزة ببنس واحد، ولقد أكلوا الأشجار، والأشواك، وجلود ولحوم الخيول والحمير، والبغال، والكلاب، وباتت الأشياء القذرة جداً، لذيذة للغاية، وبات أمراً محزناً أن ترى رجالاً كانوا من قبل أقوياء، ومتميزين بنبالة مولدهم، يتكئون لضعف أجسادهم على عصي، وباتوا غير قادرين على استخدام أسلحتهم، وفي الوقت نفسه تولى وليم دي غرانتمينيل، وستيفن كونت أوف تشارترز مع الآخرين الذين انهزموا معهم، الحديث إلى الجميع عما عانى منه الصليبيون في أنطاكية، ولكي يسوغوا فرارهم، وصفوا هذه المعاناة بشكل مضخم عدة مرات بعيداً عن الحقيقة، وقد وصلوا إلى الإمبراطور، الذي كان مع أربعين ألفاً من الجنود اللاتين، إلى جانب آخرين جنّدهم من بلدان مختلفة، وكان على طريقه لمساعدة الصليبيين في أنطاكية، ونصحوه بعدم الذهاب، وقالوا له حول هذا الشأن:« أيها الامبراطور الأقوى، عندما استولى قادتك المخلصون على أنطاكية، اعتقدوا أن الحرب قد انتهت، لكن هذه الغلطة الأخيرة كانت أسوأ من الأولى، فما أن مرّ يوم واحد على الاستيلاء على المدينة، حتى قدم فجأة كربوغا الأمير الأعظم قوة من فارس، مع قوات عملاقة من الشرق، مامن انسان يمكنه تعدادها، وألقى الحصار على المدينة نفسها، وذلك في الوقت الذي كان فيه قومنا مقهورين من قبل

الجوع، والبرد، والحر، وحد السيف، إلى حد قيل فيه إنهم لايمتلكون مؤناً في المدينة كافية حتى ليوم واحد، ولذلك قمنا نحن الذين هنا، عندما شاهدنا قضية إخواننا غير ناجحة، بتقديم النصيحة إليهم مراراً، بالنظر نحو سلامتهم الشخصية، وبالتخلي عن هذه المغامرة المستحيلة، وبالاقدام على الأخذ بالفرار من دون تأخير، لكن عندما لم نتمكن من زحزحتهم عن نواياهم، شرعنا نفكر حول سلامتنا، والآن إذا كان يرضيك، وإذا كان هذا هو موقف مستشاريك، لاتتابعن التقدم، خشية أن يغرق الذين معك بالخطر نفسه، ولسوف يؤكد تاتين وزيرك الحكيم والمخلص صدق ماقلناه، لأنه شاهد ضعف رجالنا، وانسحب من بينهم شخصياً حتى يتمكن من تبيان هذه الأشياء لجلالتك».

وسمع الامبراطور هذه الكلمات، وقام بناء على نصيحتهم بتسريح فرقه، وعاد وهو يبكي إلى قصره، وعندما وصلت أخبار عودة الامبراطور إلى أنطاكية، ضاعفت نصر المسلمين وزادت من ضعف الصليبيين، وكانت المجاعة هائلة بين صفوف شعب الرب، وكذلك حدة الأعداء في كل من الداخل والخارج، حتى بدا أنه ليس هناك مخرج أو علاج وتهدئة، وكان الشيوخ والشباب غارقين في الكارثة نفسها، ولم يكن بامكان طرف تقديم المواساة إلى الطرف الآخر، وقد فكروا حول زوجاتهم وأولادهم، وأهليهم الذين تركوهم في الوطن، للقدوم والقيام بالحج من أجل المسيح، وتذمروا تجاه عدم رضا الرب القدير، الذي لم يتوفر لديه احترام نحو آلامهم، بل تركهم وكأنهم شعب غير معروف من قبله، ليقعوا في أيدي أعدائهم.

المواساة التي أضفاها الرب على الحجاج المعذبين

ونظر الرب أخيراً نحو شعبه المعذب، وبعث إليه المواساة من كرسي رحمته، فقد جاء حاج مسكين، كان كاهنا بين أفراد الجيش، إلى الحجاج والأمراء الغربيين، وخاطبهم بالكلمات التالية: « اسمعوا ياإخواني

ويا أصدقائي الأعزاء، خبر الرؤيا التي أنا رأيتها، فلقد عزمت على امضاء الليل في كنيسة أم الرب، وأن أصلي إلى الرب حتى يخفف من آلامنا، وكنت في وضع لاأدري أكنت فيه نصف نائم، أو مستيقظ، الرب وحده يعرف، فلقد رأيت ربنا يسوع المسيح، دون أن أعرفه، وكانت أمه المباركة حاضرة أيضاً، مع بطرس أمير الرسل، وعندما نظرت إليهم، قال الرب لي: ألاتعرفني؟ فأجبته: لاياسيدي، وفي الوقت نفسه، أضاء صليب فوق رأسه، وعاد ثانية فسألني السؤال نفسه، ولسؤاله أجبت: مولاي لئن فهمت بشكل صحيح من علامة الصليب فوق رأسك، فإني أرى أنك مخلصنا، وعلى هذا ردّ قائلاً: إن الأمر كما قلت، ووقتها ألقيت بنفسي على قدميه، مبللاً ركبتيه بدموعي وقلت له: مولاي، يامولاي، ارحمنا، ارحم شعبك، يامولاي ساعدنا، وعندها أجاب الرب قائلاً: لقد ساعدتكم حتى الآن، ذلك أنني سمحت لكم بالاستيلاء على نيقية، وحميتكم في كثير من المعارك، وفي ظل توجيهي تمكنتم من الاستيلاء على أنطاكية والسيطرة عليها، واستجبت لرغباتكم أثناء الحصار نفسه، لكنكم كنتم كافرين لنعمتي، وتمردتم عليّ، فظلمكم وطغيانكم الذي صدر عنكم صار شيئاً كثيراً، ولقد أثرتم غضبي بالأضرار التي ألحقها شعبكم بي، وذلك باقترافكم الزنا مع نساء غريبات، فلقد وصلت آثامكم إلى السماء ، وجعلتني أشيح بعيني عنكم، إنني سوف أجازيكم على كفرانكم للنعمة، ولن أستثني فجوركم وفسوقكم، ولن أغفل عنه»، ثم سقطت أم الرحمة وبطرس على قدمي المخلص الرحيم، وحاولا تسكين غضبه وتوسلا إليه قائلين:« مولانا، لسنين كثيرة تملكت الشعوب الكافرة ذلك البيت، الذي كان بيت الصلاة، وقد دنسوه بشكل مهين، واستحوذوا عليه، فهل أنتم، لذنوب قلة، مقبلون في غضبكم على تدمير جميع المسيحيين، الذين حرروا بيتك بدمهم؟ لتكن لديك رحمة يامولانا، رحمة يامولانا على شعبك، ولاتسلم ميراثك للدمار، ولاتدع الأمم تنتصر عليهم».

وأصغى الأعظم قداسة إلى صلوات أمه والرسول، وابتسم بلطف وقال لي هذه الكلمات: اذهب واخبر شعبي ليتولى إزالة كل فسوق ودنس من بين صفوفه، وأن يغسل عاره بدموعه، وأن يعود إليّ، وعند ذلك سوف أعود إليه، وخلال خمسة أيام سوف أقدم له مساعدة في وقتها، بسبب أنني أنا رب الرحمة، وعلى أفراد شعبي أن يغنوا في الوقت نفسه: أعداؤنا اجتمعوا، وتفاخروا بقوتهم، أزل أنت قدرتهم، يارب، وفرقهم حتى يعرفوا أنه لايوجد أحد يقاتل من أجلهم، إلاّ أنت فقط، يارب»، وعندما فرغ الكاهن انصرف الشعب كله إلى النحيب، وحث أحدهم الآخر على الاعتراف بذنوبه، وبات بإمكان كل انسان رؤية الدموع تجري على خدودهم، والناس من جميع الأعمار يحملون الرماد فوق رؤوسهم، وهم يسيرون حفاة إلى الكنائس للصلاة، وللتوبة، ولإلتماس العون من عليين، ثم قام بوهيموند— وكان رجلاً حكيما وعاقلاً— فحث كل واحد منهم على أن يربط نفسه بقسم ليتعهد فيه بعدم التخلي عن عصبة الحجاج حتى يقبلوا الضريح المقدس للرب، وفقاً للنية الأصيلة لحجهم، وجرى تلقي النصيحة من قبل الجميع، وقد أدوا جميعاً القسم، وبذلك قويت نشاطاتهم بشكل رائع.

كيف وجدوا حربة المخلص

وفي حوالي الوقت نفسه، جاء كاهن اسمه بطرس من بروفانس إلى أسقف لي بوي وكونت طولوز، وأكد لهما بأن الرسول القديس أندرو قد ظهر له في المنام، وبإخلاص أمره ثلاث مرات أو أربع، بالذهاب إلى الأمراء، بأنهم سوف يجدون في كنيسة أمير الرسل الحربة التي بها جرى طعن جنب المخلص، وقد أوضح المعطيات وبين المكان الذي يمكن أن توجد فيه وحدده، وبناء عليه قدم إلى الأمراء، كما أمر، وأخبرهم بكل شيء، وأضاف بأن الرسول استخدم تهديدات كثيرة، إذا لم يقم بالإطاعة، وأنه كان مرغماً على ايصال الرسالة، خشية منه أن يقتل،

وعندما جرى ايصال هذا الخبر إلى بقية الأمراء، اجتمعوا مع بعضهم في المكان الذي حدد إليهم في الكنيسة، وبعدما حفروا الأرض قليلاً، وجدوا الحربة كما جرى إخبارهم، وسمع الناس بهذا الاكتشاف، فتدفقوا على الكنيسة، وتعبدوا الأثر الثمين المقدس، وبدأوا يستردون أنفاسهم مما كانوا يعانون منه، وأخذوا يسيرون بجرأة أعظم في طرق الرب.

كيف حشدت العساكر وزحفت وهي على تعبئة قتالية من المدينة

وعلى هذا اجتمع الأمراء والناس مع بعضهم، وقد وجدوا أن الرب أنزل عليهم إلهاماً جديداً وفضلاً، ولذلك قرروا بالاجماع إعلام كربوغا أنهم سوف يقاتلونه في يوم الغد، وحمل هذه الرسالة إليه بطرس الناسك، وعند الفجر تدفقت جميع العساكر على الكنائس لسماع القداسات، وطلب الكهنة وقتها من الحجاج الاعتراف بذنوبهم، وبتحصين أنفسهم بالمشاركة بتناول جسد المسيح ودمه، ولذلك زحفوا بجرأة ضد أعداء الصليب، وبناء عليه طلبوا في الثامن والعشرين من حزيران العون الرباني، وعبأوا جيشهم إلى فرق، وعينوا لكل فرقة خط عملياتها.

وعينوا لقيادة الفرقة الأولى هيوج الكبير، وأنسلم ريبوغيسمونت Riburgismont مع عدد كبير آخر، نحن لانتذكر أسماءهم، واقتاد الفرقة الثانية كونت فلاندرز، وروبرت الفيرزون Frison ، مع آخرين كانوا قد تبعوا رايته منذ البداية، وقاد روبرت دوق نورماندي، وستيفن كونت أوف ألبمارل Albemarle مع نبلاء آخرين تابعين لجماعتهم، الفرقة الثالثة، وقاد الفرقة الرابعة أدهمر أسقف لى بوي، وكونت طولوز مع أتباعهما، الذين حملوا معهم حربة الرب، واقتيدت الفرقة الخامسة من قبل رينارد كونت أوف تول، وبطرس دي ستادني Stadeneis ، وغارنر دي غري وهنري دي آشي، ووولتر دي

دومدارت Domedart مع آخرين كثر، وقاد الفرقة السادسة رينبولد كونت أوف هورني Horinges ، ولويس دي ماسكون Mascons، ولامبرت بن كونون دي مونت أكيوت، وكان قائد الفرقة السابعة الدوق غودفري مع أخيه يوستاس، وكان الفارس النبيل تانكرد قائد الفرقة الثامنة، أما الفرقة التاسعة فقادها هيوج كونت أوف سانت بول مع ابنه ايغلران Egelran ، وتوماس دي فيريا Feria، وبلدوين دي بورغ، وروبرت فتز—جيرارد، ورينولد أوف بوفياس Beauvais، وغالو دي شومنت Chaumont ، وقاد الفرقة العاشرة روترو Rotrou كونت أوف بيرشي Perche ، وايفرارد دي بوساك، ودرغو دي مونسي Monci ، ورالف فتز— غودفري، وكونان أوف بريتاني، وقاد الفرقة الحادية عشرة إيسوارد Isoard كونت أوف ديي Die، وريموند بيليت Pilet ، وغاستوس أوف بايترني Bi-terne ، وجيرارد دي روسلين، ووليم دي مونت برسولان Pres-sulan ، ووليم أماني Amane ، وكانت الفرقة الثانية عشرة هي الأقوى من الفرق الأخرى، وقد قادها بوهيموند، الذي كانت وظيفته تقديم العون إلى أية واحدة من الفرق الأخرى تتعرض للضغط الشديد من قبل الأعداء.

وكان كونت طولوز في وضع صحي سيء، ولذلك ترك ليتولى حراسة المدينة، ولحماية الضعفاء والجرحى، وذلك خشية أن يقوم الأتراك الذين كانوا مايزالون في القلعة العليا بمهاجمتهم أثناء غياب الأمراء، واختلط مع مختلف الفرق، أثناء زحفها، الكهنة، والشمامسة، وكان من الممكن مشاهدتهم في أرديتهم البيضاء، وهم يحملون في أيديهم شارة الصليب، أما الذين بقيوا في المدينة، فلبسوا ثيابهم المقدسة، وصعدوا فوق أسوار المدينة، وقدموا الصلوات من أجل حماية شعب الرب، وأثناء خروج جيشنا وتجاوزه للأسوار تساقط عليه ندى لطيفاً،

وقـد نزل من عليين على رجـاله، وبدا ذلك وكـأنه أرسل من قبل الرب القدير لمبـاركة أسلحتهم، وشعـر بتأثيره ليس فقط الرجـال، بل الخيول أيضـاً، التي مع أنها لم تأكل شيئاً لأيـام كثيرة سـوى أوراق الأشجـار وأغصانها، تمكنـت في ذلك اليوم من التفـوق على فرسان العـدو في كل من السرعة والقوة.

المعركة الرهيبة والنصر الرائع التي أعقبها

وفي الوقت نفســه لدى رؤية كـربوغا الصليبيين يخرجـون من المدينة، قام بصف قواته وتعبئتها للقتال، تحت قيادة تسعة وعشرين أميراً وملكاً أسماؤهم كما يلي: الملك رضـوان، والأمير سليمان، والأمير سيف الدين، والأمير دقـاق، والأمير عين الدولة، والأمير محمـد، والأمير غيـاث، وقطب الدين، ومجد الـدولة، وطولون، وبولق، وبـرسق، والأمير باقي، ويغي سيـان، وشمس الـدولة، والأمير جناح الدولة، والأمير طغتكين، والأمير وثاب، والأمير سكمان، وبلدق، والأمير الياس، وشمس الدين، وجكرش، والأمير يونس، وأرسلان تاش، وأمير جاولي، والأمير تقاق، والأمير موسـى(١)، وحث كربوغـا هؤلاء الأمراء جميعاً، ورجـاهم إذا كـانوا يحبونه أن يبـذلوا جهـودهم ويظهـروا شجاعتهم، وأن يستخفـوا بالمقـاومة التي يبديها هـؤلاء الرعاع، الجائعين، والبلهـاء وغير المجربين، أي الجنود الصليبيين، عـلاوة على ذلك قـدم(قلج أرسـلان بن) سليمان أمير نيقية مساعدته الفعالة للقوات المعبأة، وميز بين الذين سيزحفون في المقدمة والذين سيبقون في الساقـة، واحتل أمراؤنا في الوقت نفسه جميع السهول القائمة أمام المدينة والجبـال امتداداً حتى مسافة قرابة الميلين من المدينة، وعندما زعق البوق زحفوا نحو الأمام لمواجهة الأعداء، وحملت الفـرق الثلاث الأولى عـليهم بالسيـوف والرمـاح، وقـد تــقدم عليـهم

---

١ — تشـوهت الأسماء إلى حـد استحـالة الضبط، والقـراءة المقـدمـة تقـديرية، اعتماداً على ماتوفر بالمصادر العربية.

الرجـالة، الذين كـان معهم القسي الطـويلة، والقسي الزيّارة، ثم فتحـوا الطريق أمـام الحملة الثقيلة للفرسـان الذين كانوا يتبعـونهم، وبعد مضي بعض الوقت كـانت الفـرق كلها، قـد اشتبكت بالقتـال، باستثناء فرقـة بوهيمـوند، ونتيجة لاشتبـاكهم مع الأتراك فقـدوا أعداداً من رجـالهم، وبدأوا يضطربون ويفرون، عندمـا وصل(قلج أرسلان بن) سليمان من المناطق القـريبـة من البحـر، مع ألفين من الرجـال، وقـد حمل على بوهيموند بعنف شـديد من الساقـة، وأرسل رجاله سحبـاً من النشاب، غطوا بها الصفـوف تقريبـاً، ثم وضعـوا قسيهم جـانباً، وتـابعوا القتـال بالسيـوف والدبابيس، بعنف بلغ حـداً كـان بوهيمـوند مـرغماً فيـه على التراجع أمـامهم، لولا قـدوم غـودفـري وتانكرد، حيث قـاتلا بنشـاط يستحق الثناء، وحولا تيـار الدم والقتل نحو العـدو، ثم لجأ وقتها(قلج أرسلان بن) سليمان إلى وسيلة أخـرى، حيث ألقى النار في بعض القش والأعشـاب، واستعـد لاستغـلال ذلك، وصحيح أنـه توفـر القليل من اللهب، لكن كل شيء تغطـى بدخـان كثيف، وقتل الأعـداء تحت هذا الغطاء من الدخـان عدداً مـن رجالتنا، إنما بعـد وقت قصير، غيّر الرب الذي يتحكم باتجاه الريح، اتجاه الدخـان نحو الأعداء، الـذين لم يعودوا يبصرون واختنقـوا به، ولذلك انهزمـوا، وقـد لحق بهم الجند الصليبي، وطردهم بشدة بالغة نحـو الخلف، وألقى بهم فوق صفوفهم المضطربة، وقتلهم من دون رحمة، ولاحقهم حتى خيامهم، حيث عـرفوا بأن هناك قد اجتمعت قـواهم الرئيسية، وقاومهـم الترك هناك بكل ماامتلكوا من شجاعـة، وقام قتـال رهيب، وصدرت الأصـوات عن الخوذ البرونزية، مثل الأصـوات التي تصـدر عن قـرع السندان، وتطاير الشرر من قـرع الفـولاذ بالفـولاذ، وكـانت أصـوات السيـوف مثل أصـوات الرعـد، وتناثرت أدمغـة الناس على الأرض، وتحطمـت الدروع والسـوابغ إلى شظايا، وتدفقت أحشـاء الذين كانوا يرتدونهم فـوق الأرض، وتصببت الخيـول عـرقـاً من شـدة التعب، ولم تنل لحظـة توقف من قبل ركـابها،

واشتبك الجيشان الآن مع بعضهما، وتقاتل بعضهم يداً بيد، ورجلاً برجل، وتكادموا بأجسادهم، وتصارع واحدهم مع الآخر، وتابعوا الصراع المميت، وساد الشك الآن حول إلى جانب من سيكون النصر، لكن حدث فجأة أن شوهد جيش كان مخفياً، ينزل من الجبال، وكان مقاتلوه يمتطون خيولاً بيضاء، ويحملون أعلاماً بيضاء في أيديهم، وعرف الأمراء من بينهم القديس جرجس، والقديس ديمتريوس، والقديس ميركوريوس Mercurius وبعث هذا المشهد الذي أرعب المسلمين، آمالاً جديدة في نفوس الصليبيين.

ولم يرهم الجميع، بل فقط الذين سمح الرب لهم بمشاهدة مقاصده السرية، وأدى ذلك إلى اضطراب صفوف الترك، ومن ثم الانتصار المباشر لأعدائهم، لأن الأتراك— كما قلنا— ماأن شاهدوا هذه الشارة، حتى لاذوا بالفرار بسرعة، مخلفين وراءهم سلعاً كثيرة ثمينة، ورأى بعض رجالنا أيضاً ملائكة يطيرون في الهواء، ويرسلون صواعق محرقة على الأتراك الفارين، وكان كربوغا قد بقي منعزلاً عن الجيش منذ بداية المعركة، واتخذ موقعه في مكان مرتفع، وعندما شاهد فرار فرقه، تخلى عن عساكره وفرّ حتى ماوراء الفرات، وقد غير خيوله، فعندما كان يشعر بتعب الذي يمتطيه كان يغيره بواحد أحسن حتى يضمن تراجعه الشخصي، وكان قادتنا يدركون أن خيولهم لن تستطيع المطاردة والمثابرة، لذلك تخلوا عن المطاردة البعيدة، وذلك باستثناء تانكرد وعدد قليل آخر طاردوا الأعداء ودمروهم حتى غياب الشمس، لأن التجلي الرباني شحنهم بخوف عظيم، بلغ حداً أنهم لم يعودوا يستطيعون مقاومة حملاتنا وقتالنا، ولاالدفاع عن أنفسهم وحمايتها من سيوفنا، ولذلك بدا بالنسبة إليهم عشرة من رجالنا يساوون عشرة آلاف.

الغنائم الثمينة للأتراك الذين هربوا والخيمة الرائعة

ومع انتهاء هذه المعركة المجيدة، عاد قادتنا إلى معسكر الأعداء،

حيث وجدوا كميات هائلة من الثروات من ذهب وفضة، ومجوهرات، وملابس حريرية، وأواني لايمكن تقديرها بثمن، وكانت الغنائم من الكثرة بمكان أنهم لم يتمكنوا من تعدادها أو تقديرها، وكان هناك أيضاً عدداً كبيراً من الخيول، والمواشي، وقطعان الأغنام، والميرة، والرقيق من الغلمان والفتيات، والخيام والسرادقات، وقد حملوها كلها إلى معسكرهم، وكان بين الأشياء الأخرى خيمة رائعة، مبنية مثل مدينة، مع أبراج، وأسوار، وشرافات، منسوجة من مختلف الألوان من أحسن أنواع الحرير، ومن مركزها، الذي شكل القاعة الرئيسية، تفرعت مقاصير على جميع الجوانب شكلت مايشبه الشوارع، يمكن فيها لألفي رجل أن يجلسوا بكل راحة، وبعد هذا، قام الأتراك الذين كانوا في القلعة العليا بالاستسلام لقادتنا، وجاء ذلك بعدما رأوا حلفاءهم قد فروا، وكان استسلامهم على شرط أنهم يستطيعون الذهاب إلى أي مكان يرغبون به، وحدثت هذه الأمور في اليوم الثامن والعشرين من حزيران لعام ١٠٩٨م.

ترميم الكنائس ووصف أنطاكية

وبناء عليه عاد قادتنا من المعركة، وعادت المدينة إلى حالة الهدوء، وبدا لهم جميعاً ولاسيما إلى أسقف لى بوي، أن من المناسب، إعادة الكنيسة الرئيسية التي شيدت فيما مضى تشريفاً لأمير الرسل، مع بقية كنائس المدينة، إلى سالف مجدها، وأنه يتوجب تعيين عاملين دينيين فيها يتولون عبادة الرب ليلاً ونهاراً، كما أنهم أعادوا البطريرك يوحنا إلى منصبه الرفيع السالف، وعينوا أساقفة لكل المدن المجاورة، وذلك حيثما كان من قبل أساقفة، وأعطوا سلطة المدينة إلى بوهيموند، الذي جرت العادة على دعوته بلقب أمير، أو بالمقدم الأول والأعلى بين رجاله، وقد بدأوا الآن يعتادون على استخدام اصطلاح أمير أنطاكية.

وكانت المدينة نفسها جميلة جداً، ومحصنة بشكل جيد، وتمتلك

بداخلها أربع تلال مرتفعة، فوق الأولى منهن قلعة مشرفة على المدينة كلها، وبنيت المدينة في الأجزاء المنخفضة بشكل نظامي، وهي مطوقة بسورين: السور الداخلي مرتفع وواسع، في دائرته أربعمائة وخمسين برجاً محاطة بشرافات جميلة، ولم يكن السور الخارجي مرتفعاً كثيراً، لكنه كان متميزاً بقدمه، وتحتوي أنطاكية على ثلاثمائة وأربعين كنيسة، ويوجد تحت رئاسة بطريركها مائة وثلاثة وخمسين أسقفاً، والمدينة محاطة من جهة الشرق بأربع تلال، ويوجد من جهة الغرب النهر، الذي يسميه بعضهم نهر فرفر، وبعضهم نهر الأرنط، وأسهم في بناء المدينة خمسة وثمانون ملكاً، ومن الأول منهم وهو أنطيخوس نالت اسمها، واستولى الصليبيون عليها بعد حصار استمر ثمانية أشهر مع يوم واحد، وبعد الاستيلاء عليها، حاصرها المسلمون ثانية لمدة ثلاثة أسابيع، قبل خروج الصليبيين منها والقتال معهم، ومكث المنتصرون الآن في المدينة لمدة خمسة أشهر وتسعة أيام، خلالها أصيبوا بموتان، غير معروف سببه، لكنه كان هائلاً، حتى أنه خلال عدة أيام مات خمسين ألفاً من الجنسين، وكان من بين الضحايا أدهمر، أسقف لى بوي، الذي رعى الشعب كأب وكحاكم، وقد دفن وسط نحيب الجيش كله في كنيسة أمير الرسل، فوق البقعة التي تمّ العثور فيها على حربة مخلصنا، وسقط بين الضحايا هنري دي أسكي، ورينالد دي آرم باخ Armesbach ، وكانا رجلان متميزان لأصالة مولدهما، ولكي يتجنب بقية الأمراء الخطر نفسه اتفقوا على التفرق على شرط الاجتماع ثانية في الأول من تشرين الأول، وذلك عندما يكون كل من الرجال والخيول قد استردوا قواهم، ومن ثم اكمال مابقي عليهم عمله للوفاء بعهد حجهم، وزحف ريموند الذي لقبه بايلت Pilet مع عساكره واستولى على قلعة اسمها تل منس، ومن هناك زحف إلى المعرة، التي هي مدينة مليئة بالمسلمين، وخرج السكان للتصدي له، وهزموا في البداية، لكنهم نالوا في النهاية النصر، وقتلوا عدداً كبيراً من الصليبيين.

كيف أرسل هيوج الكبير إلى الامبراطور لكنه لم يعد

وأثناء حدوث هذه الأمور، أرسل هيوج الكبير من قبل الأمراء، إلى الامبراطور ألكسيوس، وقد أساء كثيراً إلى شهرته الماضية، بعدم العودة شخصياً، وبعدم إرساله أي جواب إلى الذين أرسلوه، ناسياً مصداقية بيت شعر جوفينال Juvenal :

..... الجريمة الأكبر هي للشخص

الذي هو الأكبر

وفي الوقت نفسه تولى كونت طولوز حصار مدينة البارة والاستيلاء عليها، وتدبر رسم بطرس أوف نربون أسقفاً هناك، ثم بدأ الأمراء من اليوم الأول من تشرين أول بالتجمع والاحتشاد مع بعضهم وفقاً لإتفاقهم، واستعدوا للزحف إلى القدس، وفي الثامن والعشرين من تشرين زحفوا إلى المعرة، وألقوا الحصار عليها، وتقع هذه المدينة على بعد سفر ثلاثة أيام عن أنطاكية، وكان سكانها متشامخين بسبب غناهم، ذلك أنهم ثبتوا صلباناً على أبراج وأسوار المدينة بعدما لوثوها بالبصاق عليها، وبطرائق أخرى، وذلك تحديا للصليبيين، وقد غضب رجالنا لهذا، وبعد اشتباكات استمرت عدة أيام، نصبوا السلالم، وتسلقوا فوق الأسوار، واستولوا على المدينة عنوة، لكنهم لم يجدوا سكاناً فيها، ونتيجة لذلك استولوا على كنوزها من دون معارضة أو ضجة، فقد كان السكان قد فروا إلى كهوف تحت الأرض، وبذلك بقيوا سالمين لبعض الوقت، لكن في الصباح أشعل رجالنا نيراناً عند مداخل الكهوف، وأرغموهم على الاستسلام، فقطعوا رؤوس بعضهم، وألقوا بالآخرين في السجن، وفي الحادي عشر من كانون الأول مات وليم أسقف أوراسيا هناك، وكان رجلاً متديناً ومستقيما، وكان يخاف الرب، وقد أمضى الحجاج في تلك المدينة شهراً واحداً وأربعة أيام.

كيف ظلم الملك وليم الانكليز بالضرائب

وفي السنة نفسها، كان وليم ملـك الانكليز، الملقب روفوس Rufus في نورماندي، مشغول تماماً في مشاريع حربية، في حين لم تكتف مكوسه في انكلترا بتجريد الناس، بل بالفعل جردتهم وكشطتهم تماما، ولذلك كـان مكروها من قبل جميع النـاس، ومـات في الوقت نفسـه وولكلاين Walkeline أسقف وينكستر، وهيوج شروبشـاير Shropshire مات مقتولاً من قبـل الايرلنديين، وقد خلفه أخـوه روبرت دي بلسمي Be-lesme

كيف استعد الأمراء لمتابعة زحفهم بسبب تذمر الشعب

سنة ١٠٩٩م، احتفل أمـراء الغرب والحجـاج بشكل مهيب، بميـلاد ربنا في المعـرة، ووقتهـا نشب خـلاف بين بوهيمـوند، وكـونت أوف طولوز، لكن بما أن ذلك لاعلاقة كبيرة له بموضوعنا الحالي، دعونا نعبر إلى القضـايا الأخـرى، فنبين كيف أن الشعـب قـد غضب بسبب أن الأمراء عملوا تأخيراً غير ضروري، واختلفوا فيما بينهم حول كل مدينة جرى الاستيلاء عليهـا، مهملين في الوقت نفسه— كما وضح— العمل الأسـاسي للحملة، ولكي يرضي الناس، قـام كونت طولـوز فأخذ معـه عشرة آلاف رجل مسلح مع ثـلاثمائـة وخمسين فـارسـاً، وانطلق نحـو القـدس، وتبعـه في الوقت نفسـه روبرت دوق نـورمـاندي وتانكرد مع ثمانين فـارساً وعـدداً كبيرا من الرجـالة، وبعـد عدة أيام، عندمـا عبروا المنطقة المعترضة، نزلوا إلى سهل حول مـدينة اسمها عرقة، لم تكن بعيدة عن ساحل البحر، ونصبوا مخيمهم على مقـربة منها، وكانت هذه إحدى المدن الفينيقيـة عند سفح جبل لبنان، وقد تأسست— وفقـاً للمأثور من الروايات القديمة— من قبل عرقوس، الذي كان الابن السابع لكنعان، ومن بعده تصحف الاسم فصار عرقة.

وحـــاصرها الصليبيــون لوقت طويـل، لكن من دون نجـــاح، وهنا أثيرت مجدداً القضية المتعلقـة بالحربة التي طعن بها جنب ربنا، فقـد قال بعضهم بأنها ظهرت بعدما جرى الارشاد إليها بإلهام رباني، وكان ذلك من أجل مواساة الجيش، في حين رفض آخرون ذلك باستخفاف وقالوا بأن المسألة كـــانت خطة مـدبرة من قبل كـونـت طولوز، ولم يكن هناك اكتشـاف، بل مجرد اختراع للربح، وبنـاء عليـه أشعلت نار كبيرة جـداً، كانت بحجمها كافية لإخـافة حتى الواقفين إلى جوارها، وعندما اجتمع الناس مع بعضهم في اليـوم السادس من الاسبـوع قبل انتقال ربنا، قـام الكاهن بطرس— الذي إليـه عمل اكتشاف الحربة— بالدخـول بالمحنة المرعبـة، فبعدمـا قام بالصـلاة، أخـذ الحربة، واجتاز، دون أن يتعـرض للأذى، خـلال وسط النار، لكن بها أنه مـات بعـد ذلك بعـدة أيام فإن المحنة لم تعط قناعة كاملة للحزب المعارض.

وفي حـوالي هذا الوقت استعـد الدوق غـودفري والقـادة الآخـرون، الذين بقيـوا في أنطـاكيـة، لمتـابعـة الزحف، وجـــاء ذلك بناء على طلب مستعجل من الجيش، ووصـل في اليـوم الأول من آذار إلى اللاذقيـــة في سورية، مع خمسة وعشرين ألفاً من الجنود الشجعان، وكانت هذه المدينة مقطونة من قبل المسيحيين، وقـد طلب غـودفـري من متـوليهـا اطلاق سراح غـونمير أوف بولون Guenemer of Boulogne، الذي كان معتقـلاً هناك في سجـن، ولم تتجـرأ السلطات على المقـاومـــة، وأطلقت سراحه مع جميع رفـاقه ومع اسطوله كله، لأن غـونمير كان بعـدما حمل الصليب، قـد رســا هناك مع اسطول قـوي، غير أنه فـــوجيء من قبل السكان، وألقي به في السجن، ووضعه الـدوق ثانية على رأس اسطوله، وأمره بمتابعة السير خلف الجيش على طول الساحل.

كيف عبر الأمراء خلال كثير من المناطق ووصلوا إلى طرابلس

وساير الأمراء الآن ساحل البحـر حتى مدينة جبلة، التي تبعد حوالي

اثني عشر ميلاً عن اللاذقية، ونصب الجيش خيمه حول المدينة، وقد حاصروها لبعض الوقت، عندما عرض واليها الذي كان وكيلاً لسلطان مصر، على الدوق دفع ستة آلاف قطعة ذهبية، وهدايا أخرى إذا ماتخلى عن الحصار، لكنه عندما لم يستطع الحصول على هذا المطلب، أرسل رسلاً عرض بوساطتهم المبلغ نفسه على كونت طولوز، إذا ماستطاع انقاذ المدينة من السقوط بيدي الدوق، وأخذ الكونت المال، وبعث أسقف البارة إلى الدوق يحثه على ترك الحصار، والقدوم إليه بكل سرعة، لأنه سمع بأن حشداً كبيراً من الأعداء قادماً من فارس للانتقام للخسائر التي عانوا منها عند أنطاكية تحت قيادة كربوغا، وأن هذا قد تأكد لديه من مصادر معلومات وثيقة يمكن الاعتماد عليها، وصدّق الدوق مع الأمراء الآخرين ما أخبروا به، وتخلوا عن الحصار، فمروا بمدينة بانياس، على يسار المرقب، والتي هي أول مدن فينيقيا، ووصلوا إلى طرطوس، وتابعوا زحفهم من هناك، ونصبوا مخيمهم قرب مدينة عرقة، واجتمعوا هنا مع تانكرد الذي أباح لهم خبر خدعة كونت طولوز، ونتيجة لذلك عزلوا خيامهم عن خيامه، ولم يعسكروا على الأرض نفسها معه، ورأى الكونت الغضب الذي تسبب بالشعور به من قبل الأمراء نحوه، فأرسل إليهم هدايا وتصالح معهم، وجذبهم إليه باستثناء تانكرد.

وعندما ترك الأمراء حصار عرقة، أوكلوه إلى أسقف البارة مع بعض الآخرين، ووجهوا زحفهم نحو طرابلس، فوجدوا هناك حاكم المكان وجميع سكان المدينة قد تعبأوا واصطفوا للقتال، وقد انزعجوا تجاه هذا العرض، فهاجموهم بحنق وشدة، وحطموا صفوفهم من الحملة الأولى، وطردوهم وأعادوهم إلى داخل المدينة، بعدما قتلوا سبعمائة منهم، واحتفل الأمراء بعيد الفصح أمام طرابلس، ولدى مشاهدة حاكم المدينة واقع الحال وإدراكه أنه غير قادر على مواجهة رجالنا في الميدان أرسل

سفـارة، وحصل على شروط اتفاق من الأمـراء أنهم سوف يمـرون من خـلال أراضيـه دون إلحاق أي أذى بها، شريطة أن يعطيهم خمسـة عشر ألف قطعة من الذهب مع خيول، وبغال، وملابس حريرية، وآنية ثمينة، ومـواشي وأغنام، وعندها سايرت عسـاكرنا سـاحل البحر، وكـان على يمينها جروف جبل لبنان، وقد عبرت جبيل، وعسكرت قرب البحر في مكان اسمه جـونية، وبعد ذلك توقفـوا لمدة ثلاثة أيام أمام بيروت، وفي اليـوم التـالي وصلوا إلى صيـدا، واجتـازوا في اليـوم الذي تلاه الصرفند حيث كـان النبي إيليـا قـد نشأ، ثم وصلو إلى مـدينة صور العـاصمـة، وزحفـوا من هنـاك إلى عكا، تاركين الجليل على اليســار، بين الكرمل والبحر، ومن هناك إلى قيسارية التي هي حاضرة فلسطين، والتي تدعى أيضاً باسم برج ستراتو، وعبر بعض الأمـراء من خلال قلعة بيت أولا، ووصلوا إلى مدينة بـاروخ، وكان ذلك في يوم صعود ربنا، ثـم مروا من خـلال الزيب إلى دورا ثم إلى حيفــا، حيث التقـوا جميعـاً في قيسـارية، واحتفلوا بعيد العنصرة يوم الثامن والعشرين من حزيران.

تخريب كنيسة القديس جرجس الشهيد من قبل الأتراك

وبعد التـوقف هناك لمدة أيام، استأنفوا زحفهـم وتـابعوه، تاركين على يمينهم المناطق البحـرية لأرسـوف ويافا، وعبروا مـن خلال اليـازورية ووصلوا إلى اللد، التي تعـرف أيضاً باسم هليوبولـس، حيث يوجد قبر الشهيد المشهور القديس جرجس، وكانت كنيسته قد تعرضت للتخريب من قبل أعـداء الإيمان، قبل وصول الحجـاج، لأنهم خافـوا أن يستخدم الجيش عوارض السقف، التي كانت طويلة جداً، من أجل تشييد آلات لقتال المدينـة بها، وانطلق من هناك روبرت كونت فـلاندرز يؤم الرملة، حيث وجـد الأبواب مفتـوحـة فـدخل مع أتبـاعـه إلى المدينة، لكنهم لم يجدوا أحـداً فيها، لأن الأتراك عندمـا سمعوا بزحف عسـاكرنا، أنقـذوا أنفسهم بالمغـادرة في الليلة المتقـدمـة، ووصل في اليـوم التـالي بعض من

القـادة الآخـرين، فوجـدوا هناك كميـات وافـرة من الخمـرة، والزيت، والحبوب، وقـد وقفوا هناك لمدة ثلاثـة أيام، عملوا خلالها رجـلاً اسمه روبرت النورمـاندي أسقفـاً لتلك المدينة وعينوا له أسقفيـة دائمـة تضم الرملة واللد مع المناطق المحيطة بها.

ثم تابعت قـواتنا زحفهـا من هناك إلى نيقـوبوليس، وهي مـدينة فلسطينية، كانت تعرف من قبل عندما كانت قرية، باسم عمواس، ومن المعـروف أن المسيح سار هنا، بعـد قيامتـه مع كليوفـاس، ويوجد أمـام المدينة نبع مـاء عذب، يغتسل به الناس المرضى والمواشي لتنقيـة أنفسهم من مختلف العلل، لأنه يحكى بأن المسيح عندما مرّ مرة بهذا النبع قد قام بغسل قـدميـه به، وبذلك حصل الماء على القـدرة على شفـاء مختلف الأمراض.

كيف حصن الترك المدينة المقدسة وسلبوا المسيحيين

وفي الوقت نفسـه، علم الترك الذين سكنـوا في القـدس، باقتراب الحجـاج، فقـامـوا بتحصين المدينة بكل نشـاط، وسلبـوا المؤمنين الذين وجـدوهم فيهـا مـن جميع أمـوالهم التي امتلكـوها، وبدأوا بـذلك بالبطريرك، الذي كـان رأس المدينة، وجمعوا من بقيـة الناس خمسة عشر ألف قطعة من الذهب، وبعـد عملية السلب هذه طردوا جميع المسيحيين من المدينة، باستثناء الضعفاء، والنساء والأطفال، وفي الوقت نفسه رأى الصليبيون أن التأخر خطر، لذلك قاموا عند فجر اليوم بمتابعة رحلتهم مع خشـوع في القلب، وعندمـا اقتربوا من مشـاهدة مـدينة القـدس المقـدسة، أرسلوا الآهات مع دمـوع الفرح، وخلعـوا أحذيتهم وتابعـوا زحفهم بأقدام حافية، وتابعـوا على هذا الشكل حتى صاروا في مواجهة المدينة، وشرعوا في حصارها يوم السادس من حزيران.

ولقـد قيل بأن تعـداد الجيش المحـاصر بلغ حـوالي الأربعين ألفـاً من

الرجـالة، مع ألف وخمسمائـة من الفـرسـان، وذلك إلى جـانب الشيـوخ والمرضى، والرعاع من الآخـرين، الذين كانوا لايحملون سلاحـاً، ولقد قيل بأنه كـان في المدينة أربعين ألفـاً من الترك المسلحين بشكـل جيـد، الذين كـانـوا قـد تقـاطروا عليهـا للدفـاع عـن المدينة الملكيـة، ولتأمين سلامتهم أيضـاً، وأدرك الأمراء أنهم لن يفلحوا في الحصـار من الجهات الشرقية، والغـربية والجنوبية من المدينة، بسبب وجـود الوديان العميقة، ولذلك قـرروا حصارها من جهـة الشمال، ولهذه الغـاية نصبوا خيـامهم بين الباب المعـروف باسم باب اسطفان، وبـرج داوود، وكان في الصف الأول غـودفري، وتلاه روبرت كـونت نورمـاندي، وكونت فـلاندرز، وتمركـز اللورد تانكرد مع بعض آخـرين كـانوا معـه حـول برج عـرف بسبب قـربه من احدى زوايا السـور، باسم برج الزاوية، وتولى كـونت طولوز مع عساكـره إلقاء الحصار على الأسوار ما بين بـرج آخر والباب الغـربي، وجرت مـركزة جـزء من قـواته باتجاه الشمال، على الجبل الذي عليـه بنيت المدينة، وذلك بين المدينة نفسهـا وبين الكنيسـة التي تعـرف باسم كنيسة صهيون، التي هي على بعـد حوالي رمية سهم عن الأسوار، وهذا هو المكان الذي يقـال بأن مخلصنا تعشى فيـه مع تلاميـذه، وغسل فيـه أقـدامهم، ويقـال أيضـاً بأن هناك كـذلك نزل الروح القـدس على التـلاميـذ على شكل لسـان ناري، وهناك دفعت أم الرب دين الطبيعـة، وقبر القديس إسطفان، أول الشهداء موجود هناك ويحظى باحترام حتى هذا اليوم.

أول حملة شديدة على المدينة

وعندمـا اكتمل نصب المعسكر على شكل دائرة حـول المدينة، وذلك في اليـوم الخامس عشر بعد وصـولهم، جرى استـدعاء الجميع بصـوت البوق للقيام بحملة عـامة على الأسوار، وبعدمـاوضع الجميع سوابغهم ودروعهم على أجسامهم ولبسوها، تقاطروا جميعاً من العالي والداني على

مهاجمة الأسوار، وقد حملوا بشجاعة وإقدام، حيث تمكنوا من هزيمة الحامية المدافعة عن المدينة، وخرقوا الدفاعات الخارجية، وانهزم المدافعون إلى داخل المدينة في خوف شديد، ولو كان لدى الصليبيين آلات رمي، وسلالم تدعم حماستهم، لكان من المؤكد استيلائهم على المدينة في ذلك اليوم، لكن عندما رأوا بعد قتال استمر لمدة سبع ساعات أن جهودهم كانت بلامحصلات، لأنهم كانوا بلا آلات، قاموا بتأجيل الهجوم لوقت آخر، وبعد تعب شديد حصلوا على الخشب، وأخذوا يصممون صنع آلات، وعندما صارت مواد آلاتهم جاهزة، جروها بعد تعب شديد وجهد عظيم إلى قرب الأسوار، وعملوا منها أبراجاً، ومجانيق، وعرادات، وكباش، مع آلات للغم الأسوار، لأنهم قدروا أن كل مابذلوه من قبل هو لاشيء، إذا ماأخفقوا في الاستيلاء على المدينة، الذي هو الهدف الأساسي لحجهم المتعب، ولذلك عمل جيشنا بشكل مواظب لصنع الآلات، والأسيجة المتنقلة، والسلالم، التي بها طال الحصار، وبما أن المنطقة التي هي قرب الأسوار جافة وبلامياه، فقد أرغموا على استخدام الجداول، والينابيع، والآبار، الواقعة على مسافة خمسة أميال أو ستة عن المدينة، ولذلك تحمل الناس وقاسوا من العطش الشديد.

وكان الأتراك أيضاً عندما سمعوا بأن الصليبيين قادمين، ملأوا أكبر عدد من الآبار بالرمال وبأشياء أخرى، لمضايقة المحاصرين، وحطموا جميع البرك والصهاريج الأخرى، حتى لايمكنهم احتواء الماء، أو أنهم أخفوا بعضهم، حتى لاتتمكن العساكر العطشى من الاستفادة منهم، ولذلك أجبروا على التفرق في مختلف الجهات للحصول على الماء، وكانت إذا ذهبت فئة صغيرة منهم ووجدت بعد كل صعوبة جدولاً، قبل أن يجده سواهم، كانت تأتي فئة أكبر إلى المكان نفسه، وكان أحياناً يحدث قتال بينهم، وماتت أيضاً خيولهم، وبغالهم، وحميرهم،

ومـواشيهـم، وقطعـانهم بسبب العطش، ثـم إن جثثهم تعفنت وسببت روائح كـريهة لايمكن تحملها وكـان ذلك بسبب الحرارة، ولذلك فسـد الهواء.

ووصل في الوقت نفسـه رسول تحدث بأن اسطولاً جنويا قـد وصل إلى يافا، وهو يطلب من الأمراء مرافقة تتولى قيادهم إلى المعسكر، ووقع اختيـار كونت طولـوز للقيـام بهذه المهمـة على واحد اسمـه غولدمـار Galdemar ، وكان فارسـاً شجاعاً، وعين معه ثلاثين فـارساً وخمسمائة من الرجـالة، وإليهم أضيف لمزيـد من الضمان ريمـونـد بايلت، ووليم سابران Sabran مع خمسمائـة من الفرسـان، وقد وصلوا إلى المنطقـة مـابين مـدينتي اللـد والرملة، حيث اصطدمـوا هناك مع ستمائـة من الأتراك، وحدث اشتباك قتل فيـه أربعة من فرساننا وعـدد من العساكر الرجـالة، لكن في النهاية انتصرت قـواتنا، وتمّ قتل مـائتين من الأتراك، أمـا الباقي فـأرغموا على الفـرار، وسقط— على كل حـال— هناك من جـانبنا اثنان من رجـالنا هما غيلبرت دي تريفـا Gilbert de treva، وأيكارد دي مونت ميرلا Aicard de Monte Merla، ووصل البقية إلى يافا سالمين، وبذلك جرت مـرافقة القادمين إلى القدس بسلام، حيث جرى استقبالهم بسرور، وكانوا ذوي فائدة عظيمة للجيش الصليبي.

اكتمال صنع الآلات ومهاجمة المدينة مجدداً

ومع نهاية الشهـر اكتملت الآلات، وأعطى الأسـاقفـة مع شيـوخ الجيش أوامـر للقيام بمصالحة عـامة بين الجنود، مـع صيام، ومسيرات، وصلوات للرب، وجـرى تنفيـذ هذا كلـه بنظام، وفي يوم محدد اجتمع حشد الحجاج كله وهو حامل للسلاح، وهـم جميعـا مجمعون على هدف واحـد: إما أن يقـدموا حيـواتهم في سبيل المسيح، أو أن يستردوا المدينة ويعيـدوها إلى الحرية المسيحية، وزحفـوا إثر ذلك جميعـاً نحو الأسـوار، وبذلوا جهـودهم لإحضـار الآلات ومـركـزتها، حتى يمكنهم محاربة

الأتراك بشكل أفضل، وكـان هؤلاء يقـاتلـون من الأبراج وكـذلك من وراء شرافـات الأسوار، هذا وقـاوم العـدو بشجاعـة، ورمـوا علينا مع أصوات مـرتفعة الحراب، والسهام، والحجـارة من آلاتهم، وقام في ذلك الوقت رجـالنا، وقـد تستروا بترستهم وبالحواجـز المتنقلة، بالرمـاية على الأتراك بالقسي الطويلـة، وبالقسي العقـارة، ورمـوا كميـات كثيفـة من الحجارة، وزحفـوا أقرب فأقرب من الأسـوار، ولم يمنحوا الجنود الذين كانوا على الأسوار أية فرصة للاستراحة.

وقام آخرون من جنودنا فمركزوا الآلات والأبراج، وقذفوا بحجارة كبيرة من المجـانيق والعـرادات على الأسوار، فقـد كـان هدفهم خلخلة هذه الأسـوار وتسبيب سقوطهـا، في حين قذف آخرون بحجـارة أخف من آلات أصغـر، وسددوا رمـاياتهم ضـد الذين كـانوا فوق الأسـوار، وبهذه الطريقـة صرفـوا أنظارهـم عن رجـالنا الذيـن كـانوا يزحفـون بالأسفل، ومع ذلـك تقـدم هؤلاء قليـلاً، لأن الأتراك الذيـن كـانوا في الداخل دلّوا فـوق الأسـوار أكيـاسـاً من القـش، وزرابي، وعـوارض خشبية، وفرشاً مليئة بقطع القماش، وقد أخمدت نعومة هذه الأشياء قوة القـذف، وبددت تعب رجالنا وجهـودهم، يضاف إلى هذا أن الحجـارة والنشـاب الذين رمـوهم من آلاتهم، سببوا توقف رجـالنا أثناء القتـال، وهم يحاولـون طم الخندق بـالتراب، والحجـارة، ونشـارة الخشب، والفضـلات، وذلك بغيـة أن يكون أسهل بالنسبـة لهم الوصـول إلى الأسوار، وقام المحاصرون، من جهة أخرى، حتى يحبطوا جهود رجالنا، بإلقـاء قطع محترقـة، وأسهماً مشتعلة بعـدمـا جـرى تغطيسهـا بالزيت والكبريت، وذلـك بهدف اشعـال النار— إذا أمكـن— في آلاتنا، وفي مـواجهـة لهذه المقذوفـات، قـام قـادتنا برمي الرمـال وبصب الميـاه من الأعلى، وبذلك أطفأوا النيران، وتمت الحملة مـن ثلاثة أمـاكن في وقت واحـد، وتولاها: الدوق غودفـري، وروبرت دوق نورماندي، وكـونت

طولوز، واستمـرت هذه الحملة طوال النهـار، من الصبـاح حتى الليل، وأخيرا تولى الظلام الفصل بين المتصارعين.

الحملة الثالثة والاستيلاء على المدينة

استأنف الجيش كله في الصباح الباكر القتال بخفة ورشاقة، وعاد كل رجل إلى المركـز الذي كان معيناً له في اليـوم المتقدم، فقـد رمى بعضهم بحجـارة الطواحين من الآلات ضـد الأسـوار، ودفع آخـرون الأبراج، وتولى آخرون الرمي بالقسي الزيارة والقسي الطويلة، أو بالحجارة، إبعاد المحـاصرين عن الشرافات، إلى حـد أن مامن واحـد منهم بات بإمكانه اظهار يده فوق الأسوار، وحاول في تلك الأثناء سكان المدينة استخدام وسائل جـديدة، كان منهـا قطعاً من الأقمشة المحترقـة، وقدوراً صغيرة مليئة بالنيران، من النوع السريع التحطم، وباستخـدام أشياءأخـرى، كما فعلوا من قبل، لتـدمير آلات الصليبيين، وكـانت هناك مقتلة كبيرة من على الجانبين، بسبب المقذوفـات التي استخدمت، وكـان من غير الممكن القـول من من الفريقين قـاتل بشجاعـة أكبر، وكانت هناك واحـدة من آلاتنا قـد رمت حجارة كبيرة ضـد الأسوار، كـانت مدهشـة بحجمها، وعندمـا وجـد العـدو أن وسائلـه غير فعالـة جلب ساحـرتين لتتـوليـا سحرهما وابطال مفعولها، وعندمـا كانتا هاتين تقومـان بسحرهما وإلقاء تعـاويذهما، أصابتهما حجـرة كبيرة من الآلة نفسهـا، وقتلتهما، مع ثلاث نساء أخريات كن يتولين خدمتهما، وسقطت أجساد الخمسة في الخندق، وصـدرت صرخـة مـدوية عن الجيـش لدى رؤيتـة لهذا المشهـد، أمـا معنويات الأتراك فقـد تدمـرت بشكل كـامل، وكـانـت الآن السـاعـة السابعة من النهار، وكان رجالنا قد ملوا من بذل جهودهم غير المجدية، وكانوا يفكرون بالتراجع وبسحب أبراجهم التي كانت تحترق، وكذلك آلاتهم، وبإيقـاف الهجـوم حتى اليـوم التـالي، وقتهـا أظهـرت المعـونة السماوية ذاتها، وألهبت الأمل في قلوبهم، فقد ظهر فارس نازل من جبل

الزيتون حاملاً بيده ترساً بريقه يزيغ العيون، وقد أعطى إشارة إلى عساكرنا للعودة إلى القتال، واستئناف الهجوم، وتشجع الدوق غودفري بالإشارة، فاستدعى الجيش بأصوات مرتفعة، وبصرخات عالية، وقد أطاعوا أوامره بخفة ونشاط، حتى بدا الأمر وكأن المعركة قد بدأت آنذاك.

وأعطاهم ناسك أملاً ونشاطاً، بإخبارهم بأنهم سوف يستولون على القدس في ذلك اليوم، وكان هذا نفسه قد سكن في جبل الزيتون، وشجعت هذه الشارات جميعاً الجيش، وجعلت عساكره متأكدين من أنهم سوف ينالون النصر، وتمكن أخيراً الدوق غودفري، بالنعمة التي منحها الرب إليه، من إزالة جميع العقبات وتسوية الأرض، ومن ثم الوصول بحرية إلى الأسوار، التي كان المحاصرون الذين يدافعون عنها في غاية الانهاك، وقام رجاله بناء على أوامره بإلقاء النيران على الأكياس والفرش التي كانت مليئة بالقش، ومعلقة من فوق الأسوار، ونشر اللهب الذي حركته الرياح دخاناً انتشر في المدينة كلها، إلى حد أن المدافعين عن الأسوار لم يعد بامكانهم متابعة بذل الجهود والمثابرة فانسحبوا من وراء الشرافات، وأمسك الدوق عوارض الخشب، التي علقوها من الأسوار لإزعاج رجالنا بها، وجعل نهاياتها مربوطة بالبرج بمسامير، والنهايات الأخرى فوق الشرافات، ثم ألقى بالجسر بحيث امتد من طرف البرج إلى شرافات السور، وهكذا كان الدوق، الذي كان فارساً شجاعاً، أول من دخل المدينة، ولحق به أخوه يوستاس، ثم روبرت دوق نورماندي، وبعدهم كونت فلاندرز مع أخويه ليتولف Li-tolf، وغلبرت، وتجمع فوق الجسر حشد كبير من الفرسان والرجالة إلى حد أنه لم يعد يستطيع تحملهم.

وعندما شاهد الأتراك بأن جنودنا، قد استولوا على الأسوار، وأن الدوق قد نصب رايته فوقها، تخلوا عن الأبراج، وهربوا إلى الأزقة

الضيقـة، وأيضـاً لدى إدراك عامـة جندنا بأن الأمـراء قـد حصلوا على مـوقع في الأبراج، نصبـوا السـلالم، وأسنـدوها على الأسـوار بالسرعـة الممكنة، والتحقـوا بقـادتهم من دون تأخير، ثم أرسل الدوق غـودفـري بعضـاً من رجالـه لفتح الباب الشمالي، الذي مـايزال يعـرف باسم باب القـديس بولص، ومـاأن تمّ فتحـه، حتى دخل الجيش، وكـان ذلك في السـاعـة التـاسعـة، من اليـوم السـادس من الاسبـوع، فـآنذاك جـرى الاستيلاء على القدس، وكان ذلك في سنة ١٠٩٩ لتجسيد ربنا، أي بعد أربع سنوات منذ أن ربط الحجاج أنفسهم بعهد الحج، وكان آنذاك البابا أوربان الثـاني جالسـاً على كرسي الكـاثوليك الرومان، وكـان هنري هو امبراطور الرومـان، وألكسيوس هو امبراطـور الامبراطورية الاغريقيـة، وكان فيليب يحكـم في فرنسا، ووليم روفـوس في انكلترا، في حين حكم على جميع الناس وعلى كل الأشياء الرب يسوع المسيح، إلى أبد الآبدين، فله التشريف والمجد لعصور بلانهاية.

كيف جرى قتل جميع الأتراك ومن ثم تنظيف المدينة المقدسة

وجرى الاستيلاء على المدينة وفق هذه الطريقة، وقام الدوق غودفري مع الأتباع المؤمنين بالتحكم بالطرقـات بسيوف مجردة، وتولوا قتل جميع الأتراك الذين قـابلوهم، وكـان عـدد الجثث كبيراً جداً، وكـذلك عـدد الرؤوس التي فصلت عن أجسـادها، حتى أنه لم يعد بإمكان أي انسـان السير في الطرقـات من دون أن يسير فوق أجسـاد ميتة، وأثناء حـدوث هذا كله، كـان كونت طـولوز مع الأمراء، الآخـرين يقـاتلون بشجاعـة حول جبل صهيـون، غير عارفين بما حدث، لكن عندمـا سمعوا صراخ الفريقين المتصارعين، وشاهدوا مقتلة سكان المدينة، عرفوا بأن المدينة قد جـرى الاستيلاء عليهـا بعد اقتحـامها، وأن عسـاكرنا قـد نالت النصر، وبناء عليـه أسندوا على الفور السـلالم على الأسـوار، ودخلوا إلى المدينة من دون مقاومة، وقتلوا من الأعداء أعداد كبيرة، وفتحوا الباب الجنوبي

الذي كـان بجـوارهم، وتركـوا بقيـة الجيش يدخل، وهكذا فإن الأتراك الذين انهزمـوا مـن الدوق ومن رجـاله، وقعـوا الآن أمـام هذا العـدو الجديد، وصـاروا بين نارين، وكانـت المذبحة التي اقترفت في كل جـزء من أجزاء المدينة هائلة، وكـانت كميات الدماء المراقـة كثيرة إلى حد أنها سببت الانزعاج والقرف للمنتصرين أنفسهم.

وسمع تانكرد بـأن عـدداً كبيراً من الأتراك قـد هربوا للالتجـاء في سـاحات المعبـد، فاندفـع إلى هناك مع عدد كبير من الرجـال المسلحين، وشق طريقه إلى داخـل المعبد بالقوة، وقتل عـدداً كبيراً من الناس هناك في داخله، ويقـال بأنه انتـزع، وسلب، وحمل معـه، كميـات واسعـة من الذهب والفضـة، ولدى سماع بقية الأمراء بهذا اندفعـوا إلى الداخل مع حشد من الفرسان والرجـالة، وقتلوا كل من واجهوه، وملأوا الطرقات بالدماء، ويقال بأن عشرة آلاف مـن الأتراك قد قتلوا بين أطراف المعبد، وذلك بالاضـافـة إلى الذين قتلـوا في الطرقـات في أحـوازه حيث بلغ تعدادهم مثل ذلك، ثم إن رجالنا تفرقوا خلال الشوارع، وبحثوا في كل مكان سري أو خفي، وأخرجوا كل من وجـدوه من سادة وسيدات مع أطفـالهم وأسرهم، لقـد جـروهم من غـرفهـم السرية ومن حيث خبأوا أنفسهم، وقتلـوهم إمـا بـالسيف، أو أطـاحـوا بهم من الأعلى على رؤوسهم، فدقوا أعناقهم، وكـان كل من تملك بيتاً أولاً أو قصرا، ادعى ملكيته بشكل دائم، لأنه كـان هناك اتفاق بين الأمـراء، أنه عندما يجري الاستيـلاء على المدينة، ينبغي أن يحتفـظ كل انسـان بكل مـايمكنه الاستيلاء عليه، وهكذا أقدم كل من استولى على بيت قبل سواه، بتثبيت علم، أو ترس، أو أي نوع من السـلاح، عند الباب، كعلامـة بأن البيت قد جرى احتلاله وتملكه.

كيف زار الأمراء الأماكن المقدسة

وبعـدمـا عـاد الهدوء إلى المدينة، بعد الاستيـلاء عليهـا، وجـرى جمع

الغنائم والأسلاب من قبل الحجاج، شرعوا مع الآهات والدموع، وبأقدام حافية، ومع كل علامة من علامات التواضع والخشوع، بزيارة كل مكان مقدس، كان ربنا قد قدسه بحضوره، وبشكل خاص كنيسة قيامة ربنا وآلامه، ولكم كان ممتعا أن تشاهد مدى الخشوع الذي أبداه المؤمنون من الجنسين، بينما حلقت نفوسهم بمتعة روحانية، واقتربوا وهم يسكبون الدموع من الأماكن المقدسة، وهم أيضاً يقدمون الشكر للرب لتمكينهم من ايصال جهودهم التقوية وصلواتهم الطويلة إلى النهاية المطلوبة، ومن هناك حصلوا على آمال، بأن ماعملوه سوف يكون نافعاً في القيامة المستقبلية، وأن الفوائد الحالية سوف تعطيهم توقعاً مؤكداً حول كل ماهو مقبل، وأن القدس الأرضية التي ساروا عليها الآن، سوف تكون بالنسبة إليهم الطريق إلى القدس القائمة في السماء.

وقام الأساقفة أيضاً والكهنة، بتطهير كنائس المدينة، ولاسيما أحواز المعبد، وكرسوا للرب الأماكن المقدسة، ثم أقاموا القداسات أمام الناس، وقدموا الشكر للمباركات التي تلقوها، وفي ذلك اليوم أيضاً، قيل بأن أدهمر أسقف لى بوي، صاحب الذكرى الخالدة، والذي قلنا بأنه قد توفي في أنطاكية، قد شوهد من قبل عدد كبير من الناس في المدينة، لابل أكثر من هذا، لقد أكّد كثير من الناس من أعظمهم ثقة بأنهم رأوه بأعينهم يتجول مع الأمراء ويقوم بزيارة الأماكن المقدسة، يضاف إلى هذا، أن كثيرين آخرين، من الذين ماتوا في سبيل المسيح أثناء الحج، قد ظهروا في المدينة أمام الكثيرين، وهم يزورون بخشوع الأماكن المقدسة.

أما بالنسبة لبطرس الناسك، الذي كان قبل خمس سنوات، قد زار البطريرك والسكان المؤمنين للمدينة المقدسة، والذي تولت حماسته وغيرته إقناع أمراء الغرب بالتعهد بالقيام بالحج، بطرس هذا قد اعترف الجميع به، وحيوه بعاطفة جياشة، وقد تلقى شكرهم، لأنه قام باخلاص عظيم باثارتهم للقيام بهذه المهمة، وجعل الأمراء والشعوب

يتولون بذل هذا الجهد العظيم من أجل المسيح وفي سبيله.

وعندما تمّ الفراغ من هذا كله، عاد الأمراء إلى بيوتهم وأماكن سكناهم، التي كان الناس في تلك الأثناء قد أعدوها لهم، وقد وجدوها مليئة تماماً بكل شيء ضروري، وصار لدى الجميع من أدناهم إلى أعلاهم وفرة عظيمة من كل شيء يرغبون به، من: ذهب، وفضة، وجواهر، وملابس ثمينة، وقمح، وخمرة، وزيت، وذلك بالاضافة إلى كميات عظيمة من المياه، وقام الذين عانوا كثيراً من العوز والفاقة أثناء الحصار، والذين تملكوا الآن البيوت، وصار لديهم قدرة، قاموا بسد العوز لدى إخوانهم المحتاجين، ونتيجة لذلك توفرت في اليوم التالي للانتصار كميات عظيمة من كل شيء يمكن أن يرغب به الانسان معروضة للبيع في السوق العام بأسعار متدنية، حتى أن أدنى الناس مكانة صارت لديهم وفرة من كل شيء.

كيف انتخب الأمراء ملكاً وبطريركاً

وبعد سبعة أيام أمضيت بالراحة وبالمتعة الروحانية، اجتمع الأمراء مع بعضهم في اليوم الثامن، ليقرروا بفضل نعمة الروح القدس، أياً من أفرادهم سوف يكون ملكاً لتلك المنطقة مع المدينة المقدسة، هذا ولايجوز لي أن أغفل أن جميع الأمراء طلبوا الإلهام من ملاك الحكمة في عليين، أن ينتخبوا ملكاً الذي يتولى الرب تعيينه، وأعطيت وقتذاك شمعة إضاءة إلى كل أمير، على أساس أن الذي سوف يختاره الرب من بينهم بإضاءة شمعته تتوجب تحيته ملكاً من قبلهم جميعاً، ووقع الاختيار على روبرت دوق نورماندي، فقام هذا بإطفاء الضوء، ومن دون سرور أبعد الاختيار الرباني، ذلك أنه قال بأنه سوف يتمتع من بعد بسلطان أعظم، عندما يعود إلى وطنه في انكلترا[ذلك أنه كان قد سمع للتو نبأ وفاة أخيه وليم روفوس]، وقام الأمراء الآن بعد كثير من النقاشات، باختيار الدوق غودفري، واصطحبوه وسط الحمد،

والترانيم، والمزامير إلى أمام ضريح الرب.

كما أنهم قرروا القيام بتعيين بطريرك للمدينـة المقدسة، وبفضل جهود روبرت دوق نورمـاندي، حصل أسقف من مـاتورين Maturane في كـلابـريا على التعيين لإيشاره له، وكـان اسمـه أرنولف، كما كـان ابنا لكاهن، ومعروفاً بين الحجاج بفسـوقه وطيشه، هذا ومالبث أرنولف أن مات، وبذلك انتهت عملية تعيينه، وبقي الكرسي بعده شاغراً لمدة خمسة أشهر، وقـام الأمراء الذين كـانوا موجـودين، بعد كثير من المنـاقشات، باختيار ديبرت Daibert المحترم، لأن يجلس على عرش البطـركية، وليمارس عنايته الرعوية، وكان من قبل أسقف كنيسة بيزا، وكان رجلاً عظيم المعرفة، وقد نشأ منذ طفولته وسط المسائل اللاهوتية.

كيف جرت هزيمة جيش سلطان مصر من قبل الصليبيين

وقبل مضي وقت طويل على استيـلاء المؤمنين على المدينة المقـدسـة، سمع سلطان مصر ودمشق، الذي كـان الأقـوى بين الأمـراء الشرقيين، بالذي حـدث للقـدس، فـاستـدعـى أمير الجيـوش لديه، وكـان اسمـه الأفضل، وأمره بالزحف إلى سورية مع جميع قوات مصر، وامبراطوريته كلها، لإزالة الشعب الطائش من على وجـه الأرض، حتى لايذكر اسمه ثانيـة، هذا وكـان الأفضل من أصل أرمنـي، وولد من خـلال أبوين مسيحيين، لكنه من أجل الثروة ارتد عن الايمان، وكان اسمه التعميدي إميريوس(١) Emyreius، لكنه بعـدمـا غير دينه، أصبح يـدعى باسم الأفضل، وعلى هذا قـام عـدو صليب المسيـح هذا بحشـد جميع قـوات مصر، والعـربية، ودمشق، ووصل إلى عسقـلان، وهناك نصب معسكره مع جميع عساكـره، وبنيته متابعـة الزحف إلى القدس، ليقـوم بمحاصرة الجيش الصليبي هنـاك وأن يقـوم بعـد هزيمتـه له، بتـدمير ضريـح ربنا

١ — كذا ولعل هذه التسمية تصحيفـاً لكلمة« أمير الجيوس» اللقب الذي حمله الأفضل من بعد أبيه ووراثة عنه.

تدميراً كـاملاً، ولكن حجـاج الصليب لم يكونوا على استعداد للتعـرض ثانية لمحنـة ومآسي الحصار، ولذلـك احتشدوا جميعاً من شعـب ورجال دين عند ضريح ربنا، وطرحوا أنفسهم على الأرض، وتوجهـوا بالدعاء إلى الرب، بقلوب متضرعـة مع كثير مـن النحيب، والتمسـوه أن يكون رحيماً فيحرر شعبه من مخاطره الهائلة، وبعدما حصلوا على الثقة من هذا العمل الديني، زحفوا بشجاعة نحـو عسقلان لمواجهة العدو في الميدان، وحملوا معهم قطعـة من صليب الرب، كـانت قد اكتشفـت مؤخـراً من قبل واحد من سكان القـدس اسمه سيروس Syrus ، الذي كان قد أبقاها في حفظه، وأنها وصلت إليه من عصور قديمة.

ووصل الدوق، الـذي هو الآن ملك القـــدس، إلى الرملة، مع بقيـــة الأمـراء، وعلم هناك بشكل مؤكـد بأن إميريوس المتقدم الذكـر معسكر مع جيشـه عند عسقـــلان، ولذلك بعث أمـامـه بمائتين مـن الفـرسـان، لاستطلاع الطريق، وللتجسس حـول أوضـاع العـدو، وبعدمـا سـاروا مسـافـة قصيرة، وجـدوا بعض قطعـان الثيران، والخيـول، والجمال، مع رجال مسؤولين عن جميع هذه الحيوانات، وكذلك بعض الفرسان الذين كانوا يتـولون حراستهم، وقـد هرب هؤلاء في اللحظة التي اقترب فيها رجـالنا، وتركوا الأسراب للعنايـة بأنفسهم وجرى— على كل حـال— اعتقـــال بعض هؤلاء، وتمّ الحصـــول على معلومـــات منهم فيما يتعلق بخطط العدو، وأن قائدهم الأعلى، الذي كـان على بعد سبعة أميال، قد اقترح القيام بعـد يومين بالهجوم وتدمير جيشنا، وكـان تعداد الصليبيين حوالي اثنتـي عشرة مائة فـارس، أما الرجـالة فكانوا حـوالي ستة آلاف، وقـــام هؤلاء وقـــد وثقـوا من الحصـــول على النصر، بتعبئة رجـــالهم، فجعلوهم في تسعـة أقسـام، وضعـوا ثلاثة منهم في المقـدمـة، وثلاثة في الوسط، وثلاثة في الساقة، حتى إذا ماخرق العدو القسم الأول والقسم الثـاني، أو من أي جانب، يمكنه أن يجد خطاً آخـر جاهزاً للتصـدي له،

وكـانت الأسلاب التي كـانوا قـد حصلوا للتو عليهـا كبيرة جداً، وقـد أمضوا الليل حيث كـانوا مع سرور عظيم، وفي الصباح جـرت دعوتهم بوساطة البـوق للاستعداد للقتال، وعهـدوا بأنفسهم للرب، ومع ثقتهم المطلقـة به، زحفـوا نحـو الأمـام كـأنهم رجل واحـد لمواجهـة العـدو، وتقدمت الكتائب وفق نظام عسكري، وزحفت بشكل قتالي ثابت، وفي تلك الأثناء تمكنوا من الاحتفاظ بالمواشي والدواب، ودفعها بقوة ربانية، ولذلك بدا مـن الأثر، ومما أحـاط بالعسـاكـر من على اليمين ومن على اليسار من غبار، أن القوات الزاحفة كبيرة، إلى حد أن مامن أحد يمكنه منعها.

ورأى العـدو عن بعـد هذا المشهـد، من خـلال نور الشمس غير الواضح، فبدأ يشعر بالخوف، قبل حدوث القتال، لأنه اعتقد أن الجيش الصليبي كان جيشـاً ضخماً جداً، مع أن تعـداد قوات هذا العـدو كانت أكبر بكثير من حيث الرجـال، وقام روبرت دوق نورمانـدي الذي كان قـائد الصليبيين وحـامل علمهم بإنجـاز، لايمكن إلاّ الثناء عليـه كثيراً، فقد شاهد عن بعد راية أمير الجيـوش ولها تفاحة ذهبية على رأس رمح، وكانت تشع مع صفائح فضية، فـافترض بأن أمير الجيوش شخصياً كان هناك، فحمل عليـه من خـلال وسط الأعـداء، وسبب له جرحـاً مميتـاً، ولذلك ألقى برعب كبير بين صفوف المسلمين.

نحيب أمير الجيوش والنصر والغنائم

وعندمـا كـان أمير الجيـوس بالرمق الأخير، لجراحتـه المميتـة، تفـوه بكلمات النحيب التاليـة وتوجه بها إلى الرب القدير قـائلاً:« ياأعظم من كل شيء، أي مصير صعب مصيري هذا، وأية وصمـة عـار لسـلاحنا، عندما انتصرت فئة صغيرة من الرجال المعوزين على قواتنا العظيمة، فقد قدت إلى هنا مـائتي ألف من الفرسان(كذا) وأعـداد أعظم من الرجالة، وكان— كما هو مفترض— عليّ أن أقهر العالم كله، لكنهم الآن— إذا لم

أكن مخطئا— قـد انهزمـوا بشكل مشين من قبـل أقل من ألـف من الفرسـان، وبضعة آلاف من الرجالة، ولاشك أن ربهم هو القـدير، وقد قاتل في سبيلهم، أو أنه غاضب علينا، وعاقبنا بغضبه الشديد ومهما كان الحال، إنني لن أعـود ثانيـة للالتقـاء بهم في معـركـة، بل سأعـود مجللاً بالعار إلى بلدي، إذا مـابقيت حياً»، وجـدد بهذه الكلمات بكاءه، وغرق في نحيب عظيم، وكان الأتراك وقتها يفكرون بالهزيمة، وفيما هم كذلك قـام فـارس من اللورين، كـان معينا في السـاقـة مع الدوق غـودفـري، بالحملة عليهم من على الجناحين، وحـرمهم من فـرصـة التراجع، وبهذه الصـورة هـوجموا من الأمـام من قبل دوق نـورمـاندي، وحـرمـوا من التراجع من قبل الذيـن كـانوا خلفهم، ولذلك مـزقـوا إلى قطع حسب مشيئة الصليبيين، وهرب القـائـد ونجـا على ظهـر جمل بفـراره بسرعـة كبيرة، ووقتهـا وصل جيشنا، وقـد أنعم عليـه بالنصر من عليين، إلى معسكر العـدو، حيث وجـد وفـرة عظيمـة من الذهب، والفضـة، والمقتنيـات، والحجـارة الثمينة، وثروات غير معـروفـة في مناطقنا من العـالم، وقد امتـلأوا حتى التخمة بها، حتى أن الأدنى بينهم كـان يمكنه أن يردد مع الشاعر(أوفيد):

« الوفرة عملتني فقيراً»

واستنقـذ الدوق روبرت الراية السلطانيـة مقابل عشريـن ماركـاً من الفضة، أعطاها للذي احتفظ بها أثنـاء قيامه بمطاردة العـدو، وحملها إلى ضريح ربنا، لتكون شـاهدة على تخليـد نصره، وباع رجـل آخـر سيف القـائد نفسـه مقابل أربعين قطعـة ذهبيـة، وبهذه الطريقة لحقت الهزيمـة بالأعداء، وحصل جيشنا بهبة من الرب، على النصر، وعاد مسروراً جداً إلى القدس، مثقلاً بكثير من كميات الأسلاب.

عودة روبرت دوق نورماندي وكونت فلاندرز إلى وطنيهما

وبعـدمـا أكمـل روبرت دوق نورمـاندي وكـونـت فـلاندرز حجهما بنجـاح، عادا إلى بلديهما، وقـال بعضهم بأن الرب قـد غضب منه، لأنه رفض تسلم السلطة في القـدس، ولم يسمح له بعد ذلك بالنجـاح في أي شيء، كما سـوف يتحـدث التاريـخ فيما بعد، وبناء عليـه، بعـدمـا ذهب هذان الأميران، احتفظ الملك غودفري معه بتـانكرد، وغارنر كونت دي غري، وببعـض آخر من الأمراء الغـربيين، وقد أدار المملكة التـي منحه الرب إياها بنشاط وحكمـة، وقد منح مدينة طبرية، القـائمة على بحيرة جنسارث مع جميع منطقـة الجليل، ومدينة حيفا البحرية والمعـروفة أيضاً باسم بروفيريا إلى اللورد تانكرد، الذي كـان راغباً في حكمـه في إرضاء الرب، حتى أن كنائس تلـك المنطقـة تتحـدث حتى الآن عن حكومتـه بفخار، وبعد مضي عامين جرت ترقيتـه لفضائله إلى إمارة أنطاكية، وقد أغنى الكنائس، التي كـانت مجيدة في العصور الخاليـة، بكثير من الهدايا، وذلك بالاضافـة إلى أنه وسع حدود إمـارته بأن أضاف إليها عـدة مدن وقلاع استولى عليها.

وضع المدينة المقدسة والمدن الواقعة من حولها

من المعـروف بشكل جيـد أن مدينة القـدس واقعـة في منطقة جبليـة عـاليـة، وفي ديار سبط بنيـامين، وكان في غـربيهـا ديار سبط شمعـون، وأرض الفلسطينيين، والبحـر المتوسط، وهي تبعـد عنه حتى مدينة يافـا أربعـة وعشرين ميـلاً، وفي منتصف الطريق إلى هناك قلعـة عمـواس، وموديـن، حصن المكابيين المبـاركين، ونين قرية الكهنة، واللد التي شفى فيهـا بطرس عنيـاس العـاجز، وحيث عـاش سمعـان في بيت سمعـان الدباغ، وذلك عندما تسلم الرسالة، فأعاد إلى الحياة في يافا التلميذة التي اسمها تابيثا، ويقع على الجهة الشرقية من القدس نهر الأردن، وصحراء أبناء الأنبياء، وعلى أربعـة عشر ميلاً، هناك واد كثير الأشجـار، وكذلك البحر الميت، وعلى هذا الجانب مـن الأردن مدينة أريحا، والجليل مسكن

اليشع، وهناك على الجانب الآخر: جلعاد، وبيسان، وعمون، ومآب، اللائي جرى فيها بعد، اقتسامهن بين سبطي رأوبين، وجاد، ونصف سبط منسى، وتمتد المنطقة هذه الآن وتعرف بشكل عام باسم العربية، وإلى الجنوب من القدس ديار سبط يهوذا، حيث في دياره: بيت لحم التي تقدست بولادة ربنا، وتقوع بلدة حبقوق وعموس، وحبرون، التي هي قرية أربعة، وأيضا مدفن البطاركة اليهود، وتقوم في الشمال جبعون، التي حظيت بالشهرة، بسبب نصر يوشع بن نون، وسبط إفرايم، وشيلوه، وشيكار، ومنطقة السامرة، وبيت إيل، الذي شهدت ذنب يربعام، وسبسطية، وقبر اليشع، وعوبديا، والمنطقة التي شهدت استشهاد يوحنا المعمدان، وكانت هذه المنطقة تعرف من قبل باسم السامرة اشتقاقاً من جبل سومر، وكان هذا كذلك اسم المنطقة كلها، التي كانت هي مملكة ملوك اسرائيل، وهناك أيضاً توجد مدينة نابلس— أونيقوبولس— حيث قتل شمعون ولاوي ابنا يعقوب شكيم ابن عمور Emmor، لاغتصابه اختهما دينه، ودمرا مدينته بالنار.

والقدس هي حاضرة اليهودية، وكان اسمها في البداية— وفقاً للتاريخ القديم— سالم، اشتقاقاً من اسم سام أكبر أبناء نوح، الذي بناها وحكم عليها، وهو الذي عرف فيها بعد باسم ملكيصادق، الذي قدم خبزاً وخمرة إلى ابراهيم عندما عاد من قتله للملوك الأربعة، ومعنى كلمة« ملكيصادق» « ملك العدالة»، وقد حفظه الله من الطوفان، حتى يلد المسيح من سلالته، وكان هناك في ذلك الوقت مدينة أخرى، اسمها— تبعاً لجيروم— سالم، وقد حُكمت أيضاً مثل المدينة المتقدمة من قبل ملكيصادق، ومن الممكن رؤية خرائبها حتى هذه الأيام قرب مجرى نهر الأردن، ومع مرور الأيام صارت المدينة تعرف باسم يبوس، وذلك اشتقاقاً من اسم واحد من ملوكها، وهكذا بدمج هذين الاسمين:« يبوس» و« سالم» صارت تعرف باسم « يبوس سالم»، ثم

جـرى استبـدال حرف«ب» بحـرف«ر» فصـارت تعـرف باسم« يروس سـالم»(أورشليم)، وفيما بعـد عندمـا استولى داوود على يبـوس، عـرفت باسم مـدينة داوود، وعندمـا حكمها ابنه سليمان صـارت تعـرف باسم هيروسوليما أي هيروسالم، التابعة لسليمان.

وفي السنة الثـانيــة والأربعين، بعـد آلام ربنا، وبسبب آثـام اليهـود، حـوصرت هذه المدينة وجـرى الاستيلاء عليهـا من قبل تيتـوس الأمير المجيد للرومـان، الذي دمرها، إلى حد أنه وفقاً لكلمـة الرب لم تبق فيها حجـر فوق حجـر آخـر، وقد بنيت فيما بعـد من قبل ايليـوس هدريان، الذي كـان الامبراطور الرابع بعـد تيتوس، وباتت تعـرف باسم إيليـاء، اشتقاقـاً من اسمه، هـذا وكانت من قبل قـائمة فـوق الجروف المنحدرة للجبل، وتوجهت بشكل مستمر ومنحدر نحـو الشرق والجنوب، قائمة على جـانب جبل صهيــون وجبل مـوريا، وفيهـا فقـط الهيكل، وقلعـة أنطونيا على قمة الرابية لكن قام الآن الامبراطور هدريان بنقلها كلياً إلى القمة، وبذلك أغلق موضع آلام ربنا وأدخله داخل دائرة الأسوار.

الأماكن المقدسة في داخل المدينة المقدسة

إن هذه المدينة المقدسة، المحبـوبة من الرب، ليست واسعة بقدر المدن العظمى في العــالم، غير أنها أوسع من عـــدد كبير من المدن الصغـــرى، وهي من حيث الشكل مستطيلة، لها أربعة أضلاع، حيث أول الأضلاع أطول من البقيـة، والأضلاع الثـلاثة المتبقية محاطة بوديان عميقـة، فمن الجهة الشرقية منها هناك وادي شعفـاط، الذي في قعره كنيسة أم الرب، حيث من المعتقد أنها قد دفنت، وقبرهـا المجيد مرئي هناك، ودون ذلك هناك جـدول قدرون، الذي يعـود بأصوله إلى الأمطار التي تتسـاقط في ذلك المكان، وحـوله قد قيل:« لقـد مضى إلى مـاوراء جدول قـدرون» الخ، وهناك من الجنـوب وادي جيحـون، وهو متصل بالـوادي المتقـدم الذكر، وهو في تقسيم البلاد عائد إلى سبطي بنيامين ويهوذا، ويرتفع هذا

الوادي نحو قمة الجبل القائم في مواجهة بيت عنان Beennon في الغرب، وهناك حقل الدم الذي شري بالمال الذي دفع من أجل ربنا، وهو مكرس لدفن الغرباء فيه، وفي الجانب الغربي من هذا الوادي نفسه هناك موضع فيه بركة قديمة، كانت مشهورة في أيام ملوك اليهودية، وهناك بالأعلى بركة أخرى اسمها« جب البطريرك»، على مقربة منها الكهف المقبرة الذي اسمه« كهف الأسد»، ومن الجانب الشمالي، من الممكن الوصول إلى المدينة عبر أرض مستوية، وذلك عند المكان الذي يقال بأن الرائد الشهيد اسطفان قد رجم فيه.

وتحت سلطان بطريرك هذه المدينة المقدسة أربعة رؤساء أساقفة هم: رئيس أساقفة صور، ورئيس أساقفة قيسارية، ورئيس أساقفة الناصرة، ورئيس أساقفة البتراء، التي تعرف أيضاً باسم الشوبك، ورئاسة الأسقفية الأولى في فينيقية، والثانية في منطقة فلسطين، والثالثة في الجليل، والرابعة في منطقة مآب، ويساعد رئيس أساقفة قيسارية، أسقف سبسطية، وتحت رئيس أساقفة صور أربعة أساقفة مساعدين هم: أسقف عكا،وأسقف صيدا، وأسقف بيروت، وأسقف بانياس، التي تعرف أيضاً باسم قيسارية فيليب، وفي منطقة الناصرة كرسي أسقفيه واحد هو الموجود في طبرية، ولدى رئيس أساقفة البتراء أسقف مساعد واحد أيضاً، هو أسقف إغريقي في جبل سيناء، وإلى جانب الذين تقدم ذكرهم، لدى البطريرك أيضاً تحت سلطته الرعوية المباشرة أساقفة: بيت لحم،واللد، وحبرون، حيث جرى دفن: آدم، وحواء مع ابراهيم، واسحق، ويعقوب.

والأماكن المقدسة في المدينة هي: كنيسة قيامة ربنا على جبل الجمجمة، والموضع المعروف بالجلجلة، وهناك هيكل آخر، يوجد فيه رجال دين، ويوجد في كنيسة جبل صهيون رهبان نظاميون، لهم راعي دير على رأسهم، وفي كنيسة وادي شعفاط رهبان سود تحت رئاسة

راعي دير، وهناك في كنيسة اللاتين رهبان سود تحت رعاية راعي دير، وهؤلاء جميعاً رؤساء ديرة متوجون، وهناك فضلاً عن ذلك مدن أخرى ليس لها أساقفة، وهذه هي: عسقلان، وهي خاضعة لأسقف بيت لحم، ويافا التي هي تحت سلطة كهنة الهيكل، وحيفا، وهي خاضعة لرئيس أساقفة قيسارية، والناصرة، وهي المكان الذي ولدت فيه مريم أم ربنا، وفيها جرى الحمل بابن العلي الأعلى في رحم العذراء، وبيت لحم، التي ولد فيها خبز الحياة، والأردن، وهو النهر الذي كان تعميد المسيح فيه، وهناك مكان آخر فيه صام المسيح، وأغوي من قبل الشيطان، وبحيرة جنسارث، حيث دعا تلاميذه، وعمل كثيراً من المعجزات، وجبل الطور حيث عليه ظهر وتغير شكله.

وفي داخل المدينة المقدسة هناك الهيكل الذي جرى تقديمه فيه، وجبل صهيون حيث تعشى مع تلاميذه، وحيث نزلت الروح القدس على التلاميذ، وحيث أيضاً غادرت أم ربنا هذا العالم، وجبل الجمجمة هو المكان الذي عانى فيه من الموت، والضريح حيث مدد، ثم قام ثانية في اليوم الثالث، وجبل الزيتون حيث جلس على أتان، وجرى تعبده من قبل الأطفال، ومنه صعد إلى السماء، وبيت عنيا حيث أقام لعازر من الموت، وسلوان حيث أعاد النظر إلى الذي كان قد ولد أعمى، وجيسماني، أو وادي شعفاط هو المكان الذي اعتقل فيه المسيح من قبل اليهود، وحيث جرى دفن الأم مريم، وكنيسة القديس إسطفان، حيث جرى رجمه حتى الموت، وسبسطية حيث جرى دفن يوحنا المعمدان مع النبيين: اليشع، والياس، ولابد أن يكون في هذا كفاية للقارىء في الوقت الحالي فيما يتعلق ببلاد القدس والمدينة المقدسة.

كيف نظر الملك وليم إلى بلاطه في القاعة الجديدة في وستمنستر

وفي السنة نفسها التي هي سنة ١٠٩٩م، عاد وليم ملك انكلترا، إلى انكلترا بعد مغادرته نورماندي ونظر إلى موضع بلاطه للمرة الأولى، في

القاعة الجديدة في وستمنستر، عندما دخل إليها أولاً مع حاشية كبيرة من الجنود لتفقدها، وقال بعضهم بأنها كانت واسعة أكثر من الضروري، لكن الملك رد على ذلك بقوله بأنها نصف حجم ماينبغي أن تكون عليه، وأنها يمكن أن تكون فقط غرفة نوم، في توزيع القصر الذي عزم على بنائه.

وبعد مضي وقت قصير، وعندما كان يصطاد في الغابة الجديدة، وصل إليه رسول أخبره بأن أسرته كانت محاصرة في مين Main، فبادر الملك على الفور مسرعاً بالنزول إلى شاطيء البحر، وصعد إلى ظهر سفينته، غير أن البحارة قالوا له:« أيها الملك العظيم، لماذا أنت مسافر بالبحر وسط هذه العاصفة؟ أولست خائفاً من التعرض للغرق؟» وقد رد على ذلك قائلاً:« إنني لم أسمع بأن ملكاً قد غرق»، ووفق هذه الطريقة عبر البحر، ولم ينل مثلما ناله من سمعة حسنة طوال حياته بوساطة هذا العمل، لأنه ماأن وصل إلى مين حتى تولى طرد الكونت هلياس Helias، وعاد إلى انكلترا بعد استيلائه على المدينة.

وفي السنة نفسها أعطى الملك وليم أسقفيه درم Durham إلى راندولف Randolph الذي كان رجل الإدعاء لديه، وكان رجلاً سيئاً، وفارق أوسموند Osmund أسقف سالسبري هذه الحياة، وأوصل سيغبرت Sigebert راهب غمبلور Gemblours تاريخه إلى هذا التاريخ(الصحيح أوصله حتى ١١٥٢)، وشوهد الدم في السنة نفسها ينبع من الأرض في فينكهامبستد Finchampstead في بيركشاير Berkshire، واستمر ذلك طوال الليلة التالية، وبدت السموات حمراء، وكأنها كانت تحترق بالنار.

موت وليم روفوس وبعض الشارات التي بشرت بموته

في سنة ١١٠٠ عقد الملك وليم روفوس بلاطه في عيد الميلاد وسط

أبهة كبيرة وكان ذلك في غلوكستر Gloucester ، وفي عيد الفصح في وينــكستر Winchester ، وفي أحد العنصرة في لندن، وفي اليوم التالي، الذي كان يوم عيـد القديس بطرس في الأغلال(٢—آب)، ذهب إلى الصيـد في الغـابة الجديدة، وهنـاك عندمـا كـان وولتر تيرل Tyrrel يرمي نحـو وعل، أصـاب— دونما قصـد— الملك، حيث خـرق السهم حتى القلب، دون أن يتفـوه بكلمـة، وهكـذا أنهى مـوت تعيس حيـاته الوحشية، وكانـت قد ظهرت عدة علامـات أشرت على موته، ذلك أنه حلم قبل يوم من وفـاته بأنه قد فصـد من قبل طبيب، وأن دمه المتـدفق وصل حتى السماء وحجبهـا، ولذلك استيقظ من نـومـه، ودعـا باسم القديسـة مريم، وطلب مصباحـاً، وأبقى حجابه معـه طوال بقية الليل، وفي الصباح، كان هناك راهب أجنبي، كـان موجوداً في البلاط من أجل بعض الأعمال المتعلقــة بكنيستـه، وقـد قص هـذا الراهب على روبرت فتـز— هامون، وكـان نبيلاً له سلطانـه، ومقرباً من الملك، بأنه قـد رأى مناماً مدهشاً في الليلة المتقدمة: فقد رأى بأن الملك قد دخل إلى كنيسته، وألقى بنظرته المتكبرة على المجتمعين من حـولـه، ثم إنه تناول الصليب ووضعــه بين أسنانه، وضغـط عليــه حتـى كـاد أن يقتطـع الذراعين والقدمين ويفصمها، وكان الصليب في البـداية مماشياً للملك، لكنه بعد ذلك ركل الملك بقـدمه اليمنى، ولذلك سقط على البـلاط، وأخرج من فمـه لهباً عظيماً صعـد دخانـه مثل سحابة وصلت حتى النجـوم، وأخبر روبرت الملـك بهذا المنام، فقــال وهـو يضحك:« إنه راهب، مثلـه مثل جميع الرهبـان، حلم بهذا ليحصل على شيء به، أعطه مـائـة شلن، حتى لايقول بأنه حلم عبثاً».

وجرى الإخبار المتقدم بموت الملك التعيس— كما ذكرت من قبل— بوســاطة الدم الذي خـرج مـن الأرض، مع أنه لم تكن هناك حــاجـة لعلامة أخرى تبشر بالحادثة نفسها، لأن أنسلم رئيس أساقفة كانتربري،

عندما كان منفياً لمدة ثلاث سنوات، من خلال طغيانه، سافر من روما إلى مرسينياك Marcenniac، من أجل التمتع بالحديث مع هيوج راعي دير كلوني، وكان ذلك في حوالي بداية آب، وهناك جرى الحديث بينهما حول الملك وليم، وقد أكد رئيس الأساقفة، بصدق لايمكن نقضه، بأنه قد رأى في الليلة المتقدمة الملك، وقد جرى احضاره إلى أمام عرش الرب، وقد أتهم بجرائمه، وحكم عليه من قبل الحكم العدل بالإدانة، لكنه لم يوضح كيف جرى إخباره بذلك، كما أن رئيس الأساقفة، والذين كانوا حضوراً آنذاك لم يقدموا على سؤاله، بسبب قداسته العظيمة وذهب رئيس الأساقفة في اليوم التالي أيضاً إلى ليون، وفي الليلة نفسها عندما غنى الرهبان الذين رافقوه الصلاة الليلية، كان هناك شاب، قد ارتدى ملابس بسيطة، وكانت ملامحه لطيفة، وقد وقف إلى جانب واحد من كهنة رئيس الأساقفة، وكان فراشه على مقربه من باب القاعة، ومع أنه لم يكن نائماً، أبقى عينيه مغلقتين، وقد دعاه باسمه قائلاً:« آدم هل أنت نائم»؟ فأجابه الكاهن:«لا»، فتابع الشاب كلامه قائلاً:« هل تود سماع بعض الأخبار»؟ فأجابه آدم« بكل ترحاب»، فتابع الشاب حديثه قائلاً:« على هذا اعلم بكل تأكيد بأن الخصام مابين رئيس الأساقفة والملك وليم قد انتهى الآن»، ولدى سماع الكاهن هذه الكلمات نهض ونظر من حوله بعينين مفتوحتين فلم ير أحداً، وفي الليلة التالية أيضاً، عندما كان واحد من رهبان رئيس الأساقفة نفسه واقفاً في مكانه، وهو ينشد الصلاة الليلة، تصور بأن أحد الموجودين هناك ناوله ورقة صغيرة ليقرأها، وقد قرأ الراهب عليها الكلمات التالية:« الملك وليم قدمات»، وقد فتح على الفور عينيه، لكنه لم يشاهد أحداً باستثناء مرافقيه، وبعد وقت قصير جاء إليه(رئيس الأساقفة) اثنان من رهبانه، وأخبراه بأن الملك قد مات، ونصحاه باخلاص بالعودة على الفور إلى كرسيه الأسقفي.

حول أخطاء الملك وليم

إنه صحيح أن الملك وليم قد انقطع بالموت في وسط ظلمه، لأنه فاق جميع الناس، وفعل دوماً كل شر كان بإمكانه فعله، وكان بذلك يتبع نصائح مستشاريه الأشرار، فقد كان طاغية لشعبه، وسيئاً بالنسبة للغرباء، وأسوأ كل شيء لنفسه، وأغضب رعيته بضرائبه ومكوسه المستمرة، وفي الوقت نفسه أثار جيرانه بالحروب وبالغرامات، ولم يكن بامكان انكلترا التنفس تحت وطأة مافرضه عليها، لأن الملك وخدمه ألقوا بأيد عنيفة على كل شيء، وأوجدوا اضطراباً وفوضى على جميع الجوانب، وكانت أعمال اغتصابهم، وفسوقهم وغشهم، وظلمهم، قد وصلت إلى درجة لم يسمع بمثلها في سابق العصور، وكان هذا الملك الشرير، المكروه من قبل كل من الرب ومن شعبه قد استولى من أجل استخداماته الشخصية، في يوم موته، على رئاسة أسقفية كانتربري، وأسقفتي: ونكستر، وسالسبري، إلى جانب اثني عشر ديراً، هو إما قد باعهم، أو أنزلهم للضمان، أو احتفظ بهم بين يديه، وهو لم يمارس جرائمه في الفسوق سراً، بل بشكل مكشوف في وضح النهار، فهل أنا بحاجة لقول المزيد حول هذا الموضوع؟ فقد كان كل مايرضي الرب، ويرضي العبيد المؤمنين للرب، من المؤكد كان لايرضي الملك وأتباعه، وقد دفن في اليوم الذي أعقب يوم وفاته في ونكستر ، هذا ولم يبلل قبره بدموع أحد، وكان السرور عظيماً هو الذي شعر به الناس لدى مغادرته.

كيف جرى تتويج هنري الأول ملكاً على انكلترا

وبعد وفاة الملك وليم، لم يعرف نبلاء انكلترا ماالذي حدث لأخيه الأكبر، روبرت دوق نورماندي، الذي كان قد مضى على غيابه خمس سنوات في الحملة إلى القدس، وكانوا غير راغبين في أن تبقى المملكة وقتاً طويلاً من دون حاكم، وكان هنري هو الأصغر بين أخوته

وأكثرهم حكمة، وقد أدرك الوضع، فجمع الناس ورجال الدين مع بعضهم في لندن، ومن أجل أن يقنعهم بمساندة قضيته ويعملونه ملكاً، وقد وعدهم بإعادة النظر بالقوانين وتصحيحها، وهي القوانين التي ظلمت بها انكلترا في أيام الملك المتوفى، وعلى هذا ردّ رجال الدين والشعب أنه إذا ماقام بتأكيد هذا في صك منشور يضمن جميع الحريات والعادات التي كانت مرعية في أيام حكم الملك المقدس ادوارد، هم سوف يستجيبون لرغباته ويعملونه ملكاً، وكان هنري جاهزاً للقيام بهذا، وقد تعهد بذلك وأكده باليمين، وقد جرى تتويجه في وستمنستر في يوم البشارة للقديسة مريم وكان ذلك مع اعتراف الناس ورجال الدين، والمناداة به، وبعد ذلك باخراج هذه الامتيازات كتابة، وفعل ذلك تشريفاً للكنيسة المقدسة ولسلام شعبه.

الحريات التي منحها الملك هنري إلى مملكته

من هنري، ملك انكلترا بنعمة الرب، إلى العمدة هيوج دي بوكلاند Bocland، وإلى جميع شعبه المؤمنين من فرنسيين، وانكليز في هارنفورد شباير Hertfordshire، أمنيات الصحة، اعلم أنني برحمة الرب، وباجماع بارونات المملكة قد تتوجت ملكاً على انكلترا، وبما أن المملكة كانت مضطهدة بكثير من الجبايات غير العادلة، إنني أقوم تشريفاً للرب، ولمحبتي لكم جميعاً التي أحملها بقلبي، بمنح الحرية للرب منذ الآن وللكنيسة المقدسة، بحيث أنني لن أجعلها خاضعة أو عرضة لبيع أو ايجار أو ضمان، كما أنني عندما يموت رئيس أساقفة، أو أسقف، أو رئيس دير، لن أتسلم أي شيء من ممتلكات الكنيسة أو من ممتلكات أتباعها، حتى يتعين والياً جديداً لها، وإنني أعلن عن إلغاء جميع المكوس الشريرة التي ظلمت بها الكنيسة بشكل غير عادل، ومن هذه المكوس الشريرة سوف أذكر هنا بعضها.

إذا مامات أي واحد من باروناتي، أو ايرلاتي، أو من الآخرين

التابعين إقطاعياً لي، لن يقوم وريثه بـإنقاذ أراضيه كما كان من المعتاد أن يفعل في أيام أبي، بل سيـدفع بشكل عادل وقـانوني للتفريج عنهـا، وفي الطريقـة نفسها سـوف يسترد التابعـون لباروناتي أراضيهم من سـادتهم وإذا مارغب واحـد من باروناتي أو من الآخرين بإعطاء ابنتـه، أو أخته، أو حفيـدته أو ابنة عمـه(أو خـاله) إلى أي انسـان للزواج، واتصل بي حول الموضـوع، إنني لن آخذ أي شيء منه مقـابل الإجازة، كما أنني لن أمنعه من اعطائها للزواج، مـالم يكن طالب الزواج رجلاً عدواً لي، وإذا مامـات واحد من باروناتي أو من الآخرين، تاركـاً ابنة لتكون وريثة له، إنني سـوف أعطيهـا للزواج مع ميراثهـا، بمـوافقـة من باروناتي، وإذا مـامـات الزوج، وبقيت الزوجـة حيـة من دون أولاد، إنها سـوف تنال مهـرها مع حقهـا بالزواج، كما أنني لن أزوجهـا ضـد رغبتهـا وارادتها، لكن إذا بقيت الزوجـة حية ولديها أولاد فإنها سوف تحصـل على مهرها وحقهـا بالزواج، وذلك أثناء محافظتها على شخصهـا وفقاً للقـانون، كما أنني لن أزوجهــا ضــد إرادتها، ولســوف تبقى أراضي الأطفــال تحت وصاية الزوجـة، أو تحت وصاية واحد من الأقرباء المقـربين وذلك وفقاً للعدل والحق، وإنني آمر أتبـاعي بالتصرف بأنفسهم وفق الطريقة نفسها نحو أبناء وبنات وزوجات أتباعهم.

وبالنسبـة للنقود التي هي بالاستخـدام العـام، والتي أخذت خـلال المدن والمناطق، والتي لم تكن كـذلـك في أيام الملك إدوارد، إنني ألغيهـا تماما وأحـرمها، وإذا ماألقي القبض على أي واحـد سواء من الماليين أو الآخـرين، ومعه أمـوال مـزيفة، لندع العـدالة تأخـذ مجراها نحوه وفقـاً للقانون، وإنني ألغـي جميع دعاوى الاستئناف والديون التي كـانت حقاً لأخي الملك، بـاستثناء مــزارعي، وأيضــاً باستثناء مــاهـو معين لورثة الآخـرين، أو للأشيـاء التي تخص بشكـل أكثـر، الناس الآخـرين، وإذا مـاقـام أي انسـان بعمل أية صفقـة حـول ميراثه، إنني أعفـو عن ذلك

وألغيه مع جميع التفريجات، التي جرى الاتفاق عليها من أجل المواريث الحقيقية، فإن ذلك سوف يلقى التثبيت من قبلي، لكن إذا مامنع بجراحة في الحرب، أو بالمرض، فلم يتمكن من ذلك أو من التصرف بماله، فإن زوجته أو أولاده، أو أبويه، وأتباعه القانونيين، سوف يتقاسمونه من أجل راحة نفسه، وذلك حسبما يرون أنه الأفضل، وإذا كان قد جرى تغريم واحد من باروناتي أو أتباعي بغرامة، فإنه سوف يمنح كفالة رحمة من أجل ماله، مثلما كان يفعل في أيام أبي أو أخي، إنما وفقاً لدرجة الغرامة، كما أنه لن يكفر عنها، كما كان سيفعل في أيام أبي أو أخي، لكنه إذا مااقترف خيانة أو جريمة، فإن تكفيره سوف يكون وفقاً للجريمة، ولقد جرى العفو عن جرائم القتل الماضية حتى يوم تتويجي، أما الجرائم التي سوف تقترف في المستقبل، فلسوف يكون التكفير عنها، وفقاً لقانون الملك إدوارد، وإنني أحتفظ بالغابات في أراضي، بموافقة جميع باروناتي، وفق الطريقة التي احتفظ بها أبي، وإنني أتنازل إلى جميع الفرسان الذين يدافعون عن أراضيهم بالسلاح وأسمح لهم بالاحتفاظ بجميع الأراضي الموجودة في ممتلكاتهم، معفية من جميع ضرائب التاج، والهدايا إليّ شخصياً، حتى إذا ماتحرروا من جميع المكوس الثقيلة، يمكنهم نيل الخبرة، في الفروسيه والسلاح، ويكونوا جاهزين لخدمتي، وللدفاع عن المملكة كلها.

إنني أقيم السلم خلال جميع ممتلكاتي، وآمر بمراعاته منذ الآن فصاعداً، وأعيد إليكم قانون الملك إدوارد، مع التحسينات والاصلاحات التي عملها أبي بموافقة البارونات، وإذا كان أي انسان قد استولى على أي شيء لانسان آخر منذ وفاة أخي الملك وليم، عليه إعادة ذلك بكل سرعة ودونما تغيير، إنما إذا مااحتفظ أي انسان بأي جزء من ذلك، وسوف يتم العثور على ذلك، فلسوف يدفع غرامة كبيرة لي مقابل ذلك.

شهد على ذلك التالين: موريس أسقف لندن، ووليم المنتخب لونكستر، وجيرارد أسقف هيرفورد Hereford، وإيرل هنري، وإيرل سيمون، وايرل وولتر جيفورد Gifford ، وروبرت دي مونتفورد، وروجر بيغود Bigod، مع آخرين كثر.

وقد جرى عمل نسخ كثيرة من هذه الوثائق، بقدر مناطق انكلترا، وبناء على أوامر الملك، جرى وضعهم في ديرة كل منطقة للذكرى.

عودة أنسلم رئيس أساقفة كانتربري إلى إنكلترا

وهكذا جرى تتويج الملك هنري، وإثر ذلك أعطى أسقفية ونكستر إلى وليم جيفورد، وقام على الفور بمنحه جميع الممتلكات العائدة إلى الكرسي الأسقفي، وذلك بشكل يتعاكس مع شروط المجلس الجديد التي ذكرناها أعلاه، ثم إنه قام بناء على نصيحة الكنيسة الانكليزية كلها، بإرسال سفارة مهيبة إلى الخارج إلى أنسلم، رئيس أساقفة كانتربري، لدعوته بإخلاص للعودة بدون تأخير، حتى يقوم بتملك كرسيه الأسقفي.

وفي الوقت نفسه كان الدوق روبرت، أخو الملك، قد أكمل بشكل مجيد حجه إلى القدس، وقد عاد إلى نورماندي، بعد غياب خمس سنوات، وقد استقبل بسرور وتشريف من قبل جميع رعيته، وكان الملك في ذلك الحين لديه في السجن رالف[فلامبارد Flambard] أسقف درم، فهو قد كان رجلاً منحرفاً بأخلاقه، جاهزاً لإقتراف كل نوع من أنواع الشرور، لإزعاج انكلترا كلها، وقد عين أسقفاً لدرم من قبل الملك وليم، ونظراً لاستعداده للتماشي مع ذلك الملك، عهد إلى جميع وكلائه في جميع أنحاء المملكة بالقيام بنهب، وتخريب، وتدمير ممتلكات كل انسان من أجل منفعة محاسب الملك وجابيه، لكن عندما مات ذلك الملك الظالم، وجرى تتويج هنري مكانه، قام الملك برميه بالسجن،

الذي منه هرب برشـوته للحرس، وعبر إلى نورمـانـدي، حيث حـرك الدوق روبرت ضد أخيه.

وبعث الدوق برسـائل خاصة إلى نبـلاء انكلترا، أظهر فيهـا بأنه كان الابن الأكبر لوليم الذي استـولى على انكلترا بسـلاحـه، وبهذا الادعـاء طالب بعـرش انكلترا لنفسه، وعندمـا سمع النبـلاء بهذا، آثر كثير منهم الوقوف إلى جانبه، ووعدوه بـالاخلاص والمساعدة، واستعد روبرت في الوقت نفسه للعمل على تحقيق دعواه، لكن بما أنه كـان قد عاد للتو من الحج، أجّل نواياه لبعض الوقت، حتى تتهيأ الفرصة المناسبة.

ومـات في السنة نفسهـا تومـاس رئيس أسـاقفـة يورك، وقـد خلفـه جيرارد، وأوصل سيغيبيرت Sigisbert راهب غيمبلور Gem-blours تاريخه الذي كُتب بشكل أنيق، إلى هذه السنة الحالية.

فضائل الدوق غودفري وموته المبكر

مات في السنة نفسهـا البابا أوربان، وقـد خلفه باسكال، الذي جلس ثمانية عشر عامـا على كرسي روما، وقام في السنة نفسهـا غودفري، ملك القـدس، بتحريض من بعض باروناته، بعبـور نهر الأردن، وبعدمـا جمع أسلاباً كثيرة من بـلاد العموريين، التي كانت مسكونـة من قبل العرب، عـاد إلى مملكته منتصراً، وقـد أثار هذا الهجوم واحـداً من كبار الأمـراء العرب، وكـان قوياً، ومقاتلاً قـديراً، فقام هذا في البـداية بالحصول على اذن وأمان من الدوق بـإرساله رسولاً إليـه، ثم قدم إلى زيارة غـودفري مع حـاشيـة من النبـلاء من أهل بلاده، ذلك أنه سمع أخبـاراً عن قـوة وأبهة الملك وشعب الغـــرب، الذي أخضع مناطق شـــاسعـــة بالطول والعـرض في الشرق، وبما أنـه كـان يتحـرق بالرغبـة لرؤيتـــه، مثل في حضرته، وحياه باحترام، وبعدمـا نظر بإعجاب لبعض الوقت إلى المظهر الخارجي لجسم الملك، طلب منه بإلحاح شـديد أن يريه قوته بـاستخدام

سيفـه على جمل كان قـد جلبه معـه لهذه الغاية، وقـام الملك— ليس من باب التبجح، بل من أجل أن يلقي الرعب في قلوب العـرب— بسحب سيفـه، وبضربة واحـدة قطع رأس الجمل، وكـأنه كـان خيطاً، واندهش العربي تجاه هذا المشهـد، لكنه عزا ذلك في ذهنه إلى أن سيفه كـان حاداً، ثم إنه حصل على إذن بالكلام، وهنا سأل الملك عما إذا كان يمكنه فعل الشيء نفسه بسيف انسـان آخر، فابتسم الملـك وطلب من الأمير اعارته سيفه، حيث به قطع رأس جمل آخـر من دون أدنى صعوبة، وفعل ذلك فـوق البقعـة نفسهـا، وبذلك وجـد العـربي أن الأخبـار عن قـوة الملك كانت صحيحة، فأعطاه كثيراً من الهدايـا من الذهب والفضة، والخيول، وأشياء أخرى ثمينة، وبعدما ضمن صداقته، عاد إلى قومه، حيث حدّث كل واحد عن القوة المدهشة للملك.

وبعـد هذا، أصيب الملك المجيـد، في شهـر تموز بمـرض غير قـابل للشفاء، وبعدما تلقى قـربان الخلاص، لفظ آخر أنفاسه، وهو يردد اسم المسيح حتى يتمتع بسعـادة سرمدية مع الملائكة في السماء، وقـد مات في الثامن عشر مـن تموز من هذه السنة الحالية، وقد دفـن في كنيسة ضريح ربنا، تحت جبل الجمجمــة، حيث قـام خلفــاؤه بتعيين مكان لأنفسهم للدفن، حتى اليــوم الحالي، وبقيت مملكة القــدس شـاغــرة لمدة ثلاث سنوات بعد موته، وتـم أخيراً بقرار من جميع الأمراء والشعب، استدعاء اللورد بلدوين، الذي كان أخـا غير شقيق للملك المتوفى، للقدوم لتسلم العرش، ولأن يحكم بعد أخيه، وذلك حسبما تطلبت العدالة.

كيف جرى تتويج بلدوين ملكاً على القدس وحول تقواه

في سنة ١١٠١م قدم بلدوين كونت الرها، وأخو الملك غودفري لأمه إلى القـدس، ومسح وتوج ملكاً على القــدس في يوم عيـد ميـلاد ربنا، وكان ذلك بيدي ديبرت البطريرك، غير أن النبيل تانكرد لم ينس الإهانة التي كان قد تلقـاها قديماً من بلدوين، المنتخب الآن ملكاً، والتي كنا قد

تحدثنا عنها من قبل، ولذلك حصل على إذن بمغادرة البلاد، وسلم إلى الملك الجديد مدينتي طبرية وحيفا اللتين تلقاهما أعطية من الملك غودفري، وعاد إلى أنطاكية، حيث جرى الترحيب به من قبل سكان المدينة، لأن بوهيموند، أمير أنطاكية كان قد وقع بالأسر في مدينة ملطية، وهي احدى مدن الجزيرة، وكان الذين أسروه هم الدانشمند الأتراك، ولم يكن قد استرد حريته بعد، وكان تانكرد قد تلقى دعوات متوالية لتسلم حكومة المدينة والشعب حتى يتحرر بوهيموند، وقد قبل الدعوات أخيراً، وتسلم حكم المدينة والمنطقة.

وفي حوالي الوقت نفسه، عبر أيضاً الملك بلدوين الأردن، ونهب ودمر داخل العربية، واستهدف التجسس على المناطق الضعيفة للشعوب المجاورة، وانقض في احدى الليالي فجأة على كتلة كبيرة من الترك، وأخذ كثيراً منهم على حين غرة وهم في خيامهم مع أزواجهم وأولادهم ومع جميع مقتنياتهم، واستولى على اعداد لم يسمع بمثلها من الجمال والحمير، هذا وقد نجا معظم الرجال على ظهور خيولهم السريعة، تاركين أزواجهم وأولادهم مع أثقالهم في أيدي الصليبيين، وعندما كان الملك على طريق عودته، وجد امرأة كانت زوجة واحد من كبار المقدمين، في آلام الوضع فأمر بوضع فراش لها، وزودها براوية من الماء، وبكثير من الحليب، وببعض الخادمات للعناية بها، وبعدما أعطاها رداءه للفها به، تابع الزحف مع جيشه، وفي اليوم التالي، كان المقدم العربي القوي قلقاً على زوجته، فلحق بجيشنا، ووصل إلى المكان الذي كانت زوجته ممددة فيه، وقد دهش تجاه المشهد، وحمد انسانية الملك، وأثنى عليه حتى النجوم، ومنذ تلك اللحظة ارتبط باخلاص لتلبية كل متطلباته الضرورية.

كيف تزوج الملك هنري من ماتيلدا ابنة ملك الاسكوتلنديين

وعاد في السنة نفسها أنسلم رئيس أساقفة كانتربري إلى انكلترا،

وخطب مـاتبنـدا ابنة ملكولم ملك الاسكوتلنديين، وكـذلك ابنة الملكة القـديسة مـرغريـت، إلى هنري، الملك الجديد لانكلترا، وبعد الاحتفـال بالزفاف، لم يَكن هناك اضطراب قليل في المملكة، وذلك بسبب روبرت دوق نورمـاندي، الذي قيل بـأنه كـان قـادمـاً مع جيش كبير لاخضـاع انكلترا، ولدى سماع الملك هنـري بهذه الأخبـار، أرسل قـوة بحـرية للتصـدي إلى أخيـه، لكن الجزء الأعظم مـن الجيش خضع إلى روبرت لدى اقترابه، وجـاء الدوق للرسو في بورتموث في اليـوم الأول من آب، وزحف الملك ضده مع جيش كبير، غير أن النبلاء لم يقبلوا بهذا الخلاف بين الأخـوين وعملوا صلحـاً بينهما وفق الشروط التاليـة: يتـوجب على الملك أن يدفع ثلاثة آلاف مارك فضة كل سنة من الممتلكات الانكليزية إلى أخيه روبرت، وأنه إذا مامـات واحد منهما من دون ورثة فإن الآخر سوف يخلفه في الممتلكات، وتأكدت هذه الشروط بأيمان اثني عشر نبيلاً من كل جانب، وبعدما بقي الـدوق روبرت مع أخيه حتى عيد القديس ميكائيل(٢٩--ايلول)، عاد إلى بلاده.

وفي هذه السنـة نفسهـــا(الصحيح:١٣—نيســـــان١١١١) وصل هنري(الخامس) إلى عرش الامبراطورية الرومـانية، وقد حكم لمدة خمس وثلاثين سنة.

وفي السنة نفسها أعطى الملك هنري أسقفية هيرفورد Hereford إلى واحد اسمـه رينيلم Reinelm ، من دون عمل انتخاب، وقـد نصبه باحتفال عام، مخالفاً قرارات المجمع الجديد.

المجمع الذي عقد في لندن وتجريد بعض رعاة الديرة

في سنة ١١٠٢، حاصر هنري ملـك انكلترا قلعة أروندیل Arundel التي كانت ملكاً لروبرت دي بلسمي Belesme، الذي احتفظ بها ضد موافقة الملك، وكانت قلعة من الصعب الاستيلاء عليها، فتولى بناء قلعة

أخرى من الخشب مقابلها، وفي تلك الأثناء حاصر قلعة بردجنورث Bridgenorth واستولى عليها، وأخيرا استسلمت قلعة أرونديل، وقام الملك بنفي روبرت دي بلسمي من انكلترا.

وعقد في السنة نفسها أنسلم رئيس أساقفة كانتربري مجمعاً في لندن في كنيسة القديس بولص في حوالي عيد القديس ميكائيل، وكان الملك مع الأساقفة المساعدين بين الحضور، وجرى في هذا المجمع الحرمان كنسياً للكهنة الذين لديهم خليلات، مالم ينفصلوا عنهن على الفور، إنما وإن كان هذا نال رضا بعضهم، لم يوافق آخرون عليه، خشية أنه بممارسة معايير أخلاقية على سلطتهم، سوف يقعون في أمور لاأخلاقية، ثم إنه عرض بلغة واضحة ماجرى رسمه في المجمع العام في روما وتقريره بشأن التعيينات في الكنائس، والمعني بذلك أن مامن رئيس أساقفة كنيسة، أو أسقف، أو راعي دير، أو كاهن يجوز أن يستلم أيا من المناصب اللاهوتية من يد رجل علماني، وبناء عليه قام رئيس الأساقفة أيضاً بتجريد بعض رعاة الديرة الذين حصلوا على مراتبهم من أيدي رجال علمانيين، وعن طريق الشراء، وكان هؤلاء هم: رتشارد أوف إيلاي Ely، وألدوين أوف رمزي Aldwin of Ramsey، مع رعاة ديرة: بورغ Bourg ، وتافيستوك Tavistock، وكرنلي Cernely، ومدلتون Middleton الذين لانتذكر أسماءهم، ولأنه رفض تكريس بعض الأساقفة ورسمهم بناء على أوامر الملك، لأنهم كانوا قد تسلموا مناصبهم من الملك، ولأنه رفض حتى الاتصال بهم، غضب الملك، فأمر جيرارد رئيس أساقفة يورك القيام بسيامتهم، لكن وليم جيفورد المنتخب لونكستر، والذي كان من المفترض السيامة من قبله، رفض السيامة من قبل جيرارد، فكان أن نفي من المملكة بموجب قرار الملك، وأعاد رينيلم أسقف هيرفورد، الذي نال منصبه من الملك، الأسقفية إليه.

كيف ذهب أنسلم رئيس أساقفة كانتربري إلى روما آخذاً معه رعاة الديرة المجردين

في سنة ١١٠٣، بعدما تلقى أنسلم رئيس أساقفة كانتربري كثيراً من المكابدات والازعاجات من الملك، أخذ طريقه إلى روما، وقد اتفق مع الملك على أن يصطحب معه رعاة الديرة المجردين ووليم المنتخب لونكستر، واستقبله البابا باسكال بلطف، وفي تاريخ يوم محدد قام وليم ووروواست Warewastكاهن الملك والمسؤول عن شؤون ملك انكلترا، بعرض قضيته وسط أشياء أخرى، وأكد بكل حزم أنه لن يتخلى عن التنصيب في الكنائس، حتى لو أن ذلك سوف يكلفه فقدان مملكته، وأكد هذا الموقف الثابت بكلمات تهديد عرضها، وعلى هذا رد البابا قائلاً:« إذا كان كما تقول لن يتخلى ملكك عن تعيينات الكنيسة، ليبقي مملكته، مثل ذلك إنني لن أدعه يفعل ذلك مقابل حفظ حياتي»، وبذلك خسر الملك قضيته، وتدخل رئيس الأساقفة أنسلم لدى البابا من أجل رعاة الديرة المجردين، لكي يمنحهم عفواً حتى يستردوا مناصبهم، ثم إن الكرسي المقدس، الذي لم يرفض عرض أي انسان، إذا ماارتبط ذلك بالذهب والفضة، توسط بين الفرقاء، وبرحمة أعاد الأساقفة ورعاة الديرة المتقدم ذكرهم إلى مناصبهم السالفة، وأعادهم مسرورين إلى مقراتهم.

وفي السنة نفسها جرى حرمان روبرت دوق نورماندي من الثلاثة آلاف مارك التي كانت تدفع له سنويا، وجاء ذلك ببراعة من أخيه، ولصالحه فقط.

كيف هلك كثير من النبلاء كانوا على طريقهم إلى القدس بخيانة من الامبراطور

حمل في حوالي ذلك الوقت كثير من النبلاء من الغرب الصليب،

وانطلقوا يؤمون القدس، تحت قيادة النبلاء الأقوياء: وليم دوق أكوتين، وهيوج الكبير كونت فيرومادا Viromadaالذي كان قد عـاد لتوه من الحج، وستيفن كـونت تشارتـرز وبلوا، مع ستيفن كـونت بيرغندي، ووصل هؤلاء مع حـاشيـة كبيرة إلى القسطنطينية، وهـم جميعا يلتهبـون حماسة، وجرى استقبالهم باحترام— لكن خداعاً— من قبل ألكسيوس، ووجدوا هناك كـونت طولوز، الذي كان منذ أن حمل الصليب قـد قرر عدم العـودة إلى بلاده، وبعدما حصلوا على إذن الملك، جـرت مرافقتهم من قبل كـونـت طولوز عبر البـوسفـور حتى نيقيـة في بيثينيـا، ثم قـام الامبراطور ألكسيـوس، الخائن الشرير، الذي كـان يشعـر بالغيرة من نجـاح رجـالنا، فبعث برسـائل إلى مقـدمي الأتراك المسلمين، الذين من ديارهم كـان الصليبيـون على وشـك العبـور، وحثهم بإلحاح على عـدم السماح لمثل هذا الجيش الصليبي الكبير بعبور أراضيهم.

وكـان الآن رجالنا يتصرفـون من دون حذر، وكـانوا لايتوقعـون أي شر، بل كـانوا يزحفـون على شكل فئات متفـرقـة، دون أن يكون هناك رابط بينهم، وبـذلك ألقيـوا في أيدي الأتراك الذين كمنوا بـانتظارهم، وقـد جـرى في ذلك اليوم مقتل أكثـر من خمسين ألفـاً منهم، أمـا الذين نجـوا فـوصلوا مجردين من كـل شيء إلى طرسـوس في كيليكيـة، حيث مات هيـوج الكبير، ودفن في كنيسة رسول الأمـم، ثم تابعوا سيرهم إلى أنطاكيـة، ومن هناك سـاروا مسرعين يـريدون القـدس، وقـد وصلوا طرطوس، حيث بعـدمـا حـاصروها لأيام قليلة استـولوا عليهـا، فقتلوا سكانها أو حولوهم إلى عبودية دائمة.

كيف أخضع ملك القدس ثلاث مدن

ووصل في هذه الآونة اسطـول كبير إلى يافـا، وفي أيام عيـد الفصح ذهب من كـان فيـه إلى القـدس، وتمكن الملك بلدوين بمسـاعـدتهم من محاصرة المدن الساحلية التالية والاستيـلاء عليها وهي: أرسوف، فبعدما

استولى على الحصن الذي فيهـا، زحف إلى قيسارية، التي استـولى عليها، بعد صعوبات جمة، فقتل السكان، ووزع أسـلاباً كثيرة بين رجاله، وكان في واحد من أجزاء المدينة مسجـد لله، إليه هرب الناس للأمان، لكنهم اقتحمـوه وأعقب ذلك مـذبحـة هائلة للـذين كـانوا في داخله، وكـانت مـذبحـة مـرعبة أن تنظر إليهـا، ووجـدوا في ذلك المسجـد وعـاء لونه أخضر، على شكل صحن، وقد أخذه الجنويون عـادّينه من الزمرد، وقد أخذوه مقابل مبلغ كبير من المال، وقـدموه بمثابة هدية ثمينة لكنيستهم، وجـرى استـدعاء أمير المدينة، وقـاضيهـا إلى حضرة الملك، ووضعـا في أغـلال الحديد، لاستخراج أكبر فـدية ممكنة منهما، ثم عين الملك رجـلاً اسمـه بلدوين ليكون رئيس أسـاقفـة للمـدينـة، وكـان بلدوين هذا ممن قـدمـوا مع الدوق غـودفري، وبعـدمـا ترك فيهـا شحنة عسكرية كبيرة تكون مسؤولة عن المدينة، زحف مسرعاً نحو الرملة.

وفي تلك الآونة كـان خليفة مصر قـد أرسـل أمير جيـوشـه ضـد بلدوين مع أحـد عشر ألفـاً من الفـرسان وعشـرين ألفـاً من الرجـالة، وأمـره بطرد الرعـاع الصليبيين من ممـالكه، وذلك حسب عبـاراته، وتوجـه الملك بلدوين من دون خـوف للتصـدي إليهـم مـع مـائتين مـن الفرسـان، وتسعمائـة من المشاة، وبعـون من الرب، انقـض عـلى العـدو، وألحق به الهزيمـة، وطـارده حتى عسـقلان، وظـل يقتـل برجـاله حتى مسافـة ثمانية أميـال، وعسكر الصليبيون المنتصرون في تلك الليـلة في ميـدان المعـركة، وجـرى قتـل خمسـة آلاف مـن جانب الأعداء، أمـا من جانبنا فالذين قتلوا كـانوا سبعين فارساً، وأكبر من هذا العـدد من الرجالة، غير أن هـذه الأعداد ليست مـؤكدة تمامـاً، ووصل في الوقت نفسـه أمراء الغـرب الذين تقـدم ذكرهم إلى القـدس وخـرج الملك إلى استقبـالهم، ورافقهم مـع كثير من السرور إلى داخل المدينة المقدسة.

كيف أخلى الملك هنري مناطق أخيه روبرت من سكانها

في سنة ١١٠٤م تفجـر خـلاف لأسبـاب محددة بين الملك هنري وروبرت دوق نورمـاندي وأرسل الملك إلى مناطق أخيـه قوة مسلحـة، تعـاونت مع بعض الخونة من رعيـة الدوق فـاقترفت كثيراً من أعمال الدمار خلال تلك المنطقة، وأظهر وليم كونت أوف مورتين Mortaine الذي كان قـد نفي من انكلترا لتوه من قبل الملك، بسبب الخيـانة، نفسه رجلاً شجاعـاً، وحمل السلاح ضد عساكـر الملك، وقام الدوق روبرت، وقـد خشي من قوة أخيـه، فحصن قلاعـه مع جميع النقاط الضعيفـة في أراضيه إلى أقصى حـد ممكن بقدرته، وظهـر في السنة نفسها في الجنوب أربع دوائر بيضاء حول الشمس.

كيف جرى منع رئيس الأساقفة أنسلم من العودة إلى انكلترا

ووصل في تلك الآونة رئيس الأسـاقفـة أنسلم إلى ليون لدى عـودته من روما، وقـام وليم دي وورواست المشرف على شؤون ملك انكلترا، والذي ذكرناه أعلاه، بمنعه من العودة إلى انكلترا ثانية باسم الملك، مالم يعد بـإخلاص بمراعـاة جميع الامتيـازات المعتادة لأبيه وأخيـه، وعجب أنسلم لدى سماعه بهذا، عـارفاً بأنه قد غـادر انكلترا وفق شروط أخرى مختلفـة تماما، وبناء عليـه، لدى وصـوله إلى ليون بقي مع هيـوج رئيس أسـاقفة تلك المدينة، معطيـا اهتمامه إلى الخشـوع والتدين، وعندمـا رأى الملك هنري أن البابا ورئيس الأساقفة كانا غير مرنين معه، وضع رئاسة الأسقفية بين يديه، وصادر جميع ممتلكات أنسلم.

حول تركي تلطف فساعد على نجاة الملك بلدوين

وفي حـوالي هذه الآونة قام العـرب والمصريون بالدخـول إلى الحدود الصليبية قـرب اللد،وسارونا، والرملة، وقد بلغ تعـدادهم عشرين ألفاً، وقـد ركـزوا جهودهـم على السلب والنهب، ولدى سماع الملك بلدوين

بهذا، تصرف بطيش غير معتـاد، ذلك أنه أهمل استـدعـاء القـوات من المدن المجاورة، وقام وهو واثق بشجاعته ومعتمد عليها بمهاجمة الأعداء مع قرابة المائتي فارس، الذين كانوا أدنى من أن يتمكنوا من الوقوف في وجه مثل ذلك الحشـد العظيم من المسلمين، ولذلك قتل أغلبهم، ولاذ البقيـة بالفـرار، والتجأ الذيـن هربوا إلى بلدة الرملـة، وسقط في تلك المعركة كل من النبيلين اللذين اسميهما ستيفـن ممن وصل حديثاً، وذلك إلى جـانب عدد كبير آخـر من النبـلاء، الذين دونت أسماؤهم في كتـاب الحياة، ومع أن الملك لم يكن كبير الاعتماد على الرملة ودفاعاتها، فقد لجأ إليهـا لانقاذ حيـاته، وكان متـوقعاً أن يحاصر من قبل الأعـداء، لكن في سكون الليل المظلم، حـدث فجأة أن اقترب الأمير العـربي من المدينة، وهو الأمير الذي— كما ذكـرنا من قبل— أبدى الملك كثيراً من اللطف نحو زوجتـه، عندما كـانت في آلام المخاض، وبعـدما اقترب من البلدة صرخ بصـوت منخفض إلى الحرس الذين كـانوا على الأسوار، وقـال:« لدي رسالة سرية إلى الملك، دعوني أمثـل في حضرته»، وعندما مثل أمام بلدوين، وعده باقتياده إلى مكان أمين، إذا ماغادر المدينة مع حرس قليل فقط، ودون إثارة أية ضجـة، لأن العـرب قد قـرروا مهـاجمة البلدة، في اليـوم التالي، واقتنع الملك أخيراً بمغـادرة البلدة، وبتوجيـه من صديقـه وإرشـاد، هرب إلى الجبـال، ولدى مغـادرة الأمير العـربي، وعــده بأنه سوف يقدم الطاعة إليه في أول فـرصة مناسبة، ونجا الملك مع اثنين من مـرافقيـه فقط من خـلال وسط الأعـداء إلى أرسـوف، حيث استقبل بسرور من قبل شعبـه، ونال بعضـاً من الراحة بعـد التعب الذي عـانى منه.

وحاصر العرب المنتصرون في اليـوم التالي الرملة، وقتلوا أو استعبدوا الحامية العسكرية التـي كانت فيها، وفي الوقت ذاتـه التحق هيوج أوف سـانت أومر، الذي إليـه منح الملك مدينة طبرية، التحق به في أرسـوف

مع ثمانين فارساً، وبذلك قويت صفوف بلدوين، فأخذ معه رجال يافا مع تسعين فارساً، وزحف للتصدي للعدو مع ثقة كبيرة بالنجاه، وبالرد عليه والانتقام منه للأضرار التي ألحقها به، وكان الأعداء حوالي ثلاثة آلاف من حيث العدد، وقامت قوات الملك، وهي تتمتع بالقوة من عليين بالهجوم عليهم بشدة، فمزقت صفوفهم، وقتلت عدداً كبيراً منهم، وأرغمت البقية على الفرار، ثم رجع جيش الصليبيين إلى معسكر الأعداء، حيث حصلوا على غنائم من الحمير والجمال، والسرادقات، والخيام والمؤن، وقد بقيوا بعد ذلك بهدوء لمدة سبعة أشهر تقريباً.

وفي حوالي الوقت نفسه حاصر اللورد تانكرد أفاميا واستولى عليها، وأفاميا هي عاصمة سورية المجوفة، وزحف بعد ذلك ضد اللاذقية، واستولى عليها أيضاً، وامتلكت كلتا المدينتين مساحات واسعة من الأراضي مع بلدات وأحواز واسعة، وفي الوقت نفسه بعدما بقي بوهيموند أربع سنوات بالأسر، فدى نفسه، وعاد إلى أنطاكية.

استسلام عكا إلى الملك بلدوين

وفي السنة نفسها ألقى بلدوين الحصار على مدينة عكا البحرية في فينيقية، وكان لهذه المدينة ميناء في كل من داخل أسوارها وفي خارجهم، حيث يمكن للسفن البقاء والتحرك بأمان، ويقال بأنها تأسست من قبل أخوين هما: بطليموس وعكون، وكانا قد إقتسماها فيما بينهما، وحصناها بأسوار قوية وسمياها بطولميس اشتقاقاً من اسم الأول منهما، وعكون من اسم الثاني منهما، وحوصرت هذه المدينة الآن من قبل الملك مع أمرائه من جهة البر، في حين قطع الاسطول الجنوي والسفن المنقارية، التي اسمها غلايين، جميع اتصالات المدينة من جهة البحر، وأقيمت الآلات من حول الأسوار، وجرى قتل أعداد كبيرة من السكان بوساطة الحملات المتوالية التي تمت ضدهم بوساطة كل من الجيش والأسطول، وبعد قتال استمر عشرين يوماً استسلمت المدينة على شرط أن جميع من

سيختـارون مغـادرتها يمكنهم بأمـان فعل ذلك مع أزواجهم وأولادهم ومقتنيـاتهم، وأن جميع الذين سـوف يختـارون البقـاء عليهم أن يدفعـوا جزية سنوية إلى الملك، وبالتالي البقاء تحت حمايته.

وبهذه الحادثة منح الحجـاج الذين يزورون الأرض المقـدسـة بحـراً، إمكانية الوصول بأمان بعدما جـرى تنظيف الساحل جزئياً من الأعداء، وعبر في السنة نفسها بوهيموند، والكونت بلدوين، وتانكرد، وجوسلين مع جميع فـرقهم، الفرات، وألقـوا الحصار على مـدينة حران، التي عنهـا نقـرأ في حيـاة ابراهيم، ولأن السكان لم تتـوفر لـديهم آمال بالمسـاعـدة، عرضوا تسليم المكان ولكن نشب خـلاف بين بوهيموند وبلدوين حول من سيتملك المدينة، ولذلك أخروا الاستيلاء عليها حتى الصباح، حتى يتمكنوا من تسـوية هذه المسألة الصعبة، وقبل فجـر النهار كـانت هناك كتلة كبيرة من الترك تزحف لنجـدة سكان المدينة، حتى أنه لم يبـد هناك أمل أمـام رجالنا بالنجـاة، وحثهم البطريكان اللذان كانا حـاضرين على أن يكونوا شجعـانـاً، لكن هؤلاء الـذين فـارقتهـم نعمـة الرب، كـان لايمكن مسـاعـدتـم بالكلمات أو بالتـذكير، ومع الحملة الأولى أداروا ظهـورهم بخزي وتخلـوا عن كل من المعسكر والأثقـال، وعبثاً حـاولوا انقاذ أنفسهم بالفرار، ووقع هناك بالأسر بلـدوين كونت الرها مع أخيه جـوسلين، لكن بـوهيمـوند وتانكرد، مع البطريكين نجـوا سـالمين إلى الرها، ووضعت سلطـة هذه المدينة مع مقـاطعتهـا كلهـا الآن بين يدي اللورد تانكرد وذلك حتى يتم تخليص بلدوين من الأسر.

حول العمل الخالد للملكة ماتيلدا

في سنة ١١٠٥م، عبر هنري ملك انكلترا إلى نورمـاندي للقتال ضـد أخيـه الدوق روبرت، واستـولى بمسـاعدة كـونت أوف أنجـو على كين Caen وبايوكس Bayeux وعلى قـلاع أخـرى كثيرة، وخضع تقـريبـاً جميع البارونات النورمـان إليه، وقدم في الوقت نفسـه داوود أخو الملكة

ماتيلدا إلى انكلترا لزيارة أخته، وذهب في احدى الليالي لزيارتها في جناحها، بناء على دعوتها، فوجد البيت مليئاً بأناس مجذومين، والملكة واقفة في الوسط حيث كانت تغسل، وتمسح وتقبل أقدامهم، وسألها أخوها عما كانت تفعله، وقال:« من المؤكد أن الملك إذا ماعلم بهذا هو لن يضع شفتيه على شفتيك، بعد تقبيلك لهؤلاء الناس المجدومين»، وردت الملكة عليه وهي تبتسم:« إن قدمي الملك السرمدي مفضلة لدى شفتي الانسان الفاني، ولقد أرسلت وراءك ياأخي حتى تتعلم وتحذوا حذوي، وأن تفعل الذي رأيتني أفعله»، فرد عليها أخوها أنه من المؤكد لن يفعل مارآها تفعله، وبناء عليه استأنفت الملكة عملها، وتركها أخوها وهو يضحك، وعاد في السنة نفسها الملك هنري إلى انكلترا بعد تسويته لأعماله الضرورية في نورماندي.

كيف أخذ الملك هنري أخاه أسيراً على أرض المعركة

سنة ١١٠٦م، جاء روبرت دوق نورماندي إلى أخيه في نورثأمبتون، وسأله بطريقة لطيفة، أن يجدد العهد الأخوي الذي خرق، لكن الرب لم يسمح لهما أن يكونا صديقين، فعاد الدوق غاضباً إلى نورماندي، فلحق به الملك وألقى الحصار على قلعة تنشبري Tenchebrai، وكان معه تقريباً جميع نبلاء نورماندي وأنجو مع نخبة انكلترا وبريتاني، حتى يتمكن من قهر أخيه تماماً، وبناء عليه زحف الدوق روبرت لرفع الحصار ومعه روبرت دي بلسمي، وإيرل مورتون Moreton مع مشايعين آخرين، وعندما زعق البوق حمل جيشه الصغير بشجاعة على الأعداء الذين كانوا أكثر منه بكثير، وبما أن الدوق نال خبرة في القتال في الأرض المقدسة، فقد تمكن من مهاجمة عساكر الملك وردهم، ودفع وليم إيرل مورتون الجيش الانكليزي إلى الخلف من نقطة إلى نقطة، وكاد أن يهزمه، لكن هنري مع رجالته منعه من الهزيمة وجعله يعود إلى القتال، وبعد مرور بعض الوقت حملت قوة الفرسان البريطانيين على

عساكر الدوق، فخرقت صفها، وتمكنت بتفوقها العددي من طردها من الميدان، وفي هذه المعركة ميز وليم دي أوبني Aubeny وهو بريطاني، نفسه بشكل خاص، فهو الذي جلب المعركة إلى النهاية بفضل شجاعته الشخصية ووقع الدوق النورماندي الشجاع بالأسر مع وليم ايرل مورتون، وتمكن روبرت دي بلسمي من النجاة عندما شاهد رفيقيه يؤسران.

وبهذه الهزيمة انتقم الرب لنفسه من روبرت لرفضه مملكة القدس، ولاختياره العيش بنعومة وسهولة في الوطن بدلاً من خدمة الذي يحكم الملوك جميعا، في القدس، وكعلامة على هذه الحادثة، ظهر في السنة نفسها، مذنب على بعد ذراع واحد من الشمس، واستمر ذلك من الساعة الثالثة حتى الساعة التاسعة، وجرّ وراءه ذيلاً طويلاً من الضوء، كما جرت مشاهدة قمرين كاملين في يوم عشاء ربنا، وكان أحدهما في الشرق وثانيهما في الغرب، وبذلك تحقق ماقاله الملك وليم، وهو على فراش موته، لابنه هنري، الذي سأله بعدما أعطى انكلترا إلى وليم، ونورماندي إلى روبرت وقال له:« ومالذي أعطيتني إياه ياوالدي؟» فأجابه أبوه:« لقد أعطيتك خمسة آلاف باوند من الفضة من خزينتي»، فقال هنري:« لكن ماالذي سوف أفعله بالمال، إذا لم يكن لدي مكان أسكن فيه؟» فقال الملك:« كن صبوراً ياولدي، وثق بالرب، ودع أخويك يتقدمان عليك، فأنت سوف تحصل في الوقت المناسب على جميع التشريف الذي حصلت أنا عليه، ولسوف تتفوق على أخويك بالثراء والسلطان».

كيف تصالح الملك هنري مع رئيس الأساقفة أنسلم

سنة ١١٠٧م، وبعدما استطاع الآن الملك هنري تدمير جميع أعدائه، وانزالهم إلى درجة الخضوع له، وبعدما جعل نورماندي تخضع لإرادته، ذهب إلى بك Bec، وبوساطة من الأصدقاء التقى برئيس الأساقفة

أنسلم، الذي— بناء على طلب الملك— عاد إلى انكلترا، واستأنف إدارة كرسيه الأسقفي، وعاد هنري بعده بقليل إلى انكلترا، حيث وضع أخاه روبرت ومعه وليم كونت مورتون في السجن مدى الحياة، وأضفى الرب القدير المنح التالية على الملك هنري، وهي: الحكمة، والنصر، والثروة، التي بها نجح في كل شيء، وتفوق على أسلافه.

وكان في السنة نفسها هناك اجتماع للأساقفة، ورؤساء الديرة، والنبلاء في لندن، في قصر الملك، تحت رئاسة رئيس الأساقفة أنسلم، حيث رسم الملك في هذا الاجتماع أنه من ذلك الحين فصاعداً، مامن أسقف أو راعي دير يجوز أن يتسلم السيامة بالعصا والخاتم، من يدي الملك أو أي انسان علماني، ومن الجانب الآخر تنازل رئيس الأساقفة وقبل أنه لايجوز رفض سيامة أي واحد، جرى انتخابه إلى منصب ما، وذلك بسبب الولاء الذي عمله للملك، وجرى في السنة نفسها سيامة وليم أسقف ونكستر، وروجر أوف سالسبري، ورينلم Reinelm أوف هيرفورد، ووليم اكستير Exeter ، وأوربان أوف غلامورجان Glamorgan، وأنسلم رئيس أساقفة كانتربري، في كانتربري، في يوم الأحد الحادي عشر من آب، وفي حوالي الوقت نفسه مات موريس أسقف لندن، مؤسس كنيسة القديس بولص، وادغار ملك الاسكوتلنديين، الذي خلفه أخوه الاسكندر.

كيف جرت خلافة جيرارد رئيس أساقفة يورك من قبل توماس

سنة ١١٠٨م، فيها توفي جيرارد رئيس أساقفة يورك، وقد خلفه توماس، حاجب الملك، حيث جرت ترقيته إلى الكرسي الشاغر، لكن ما أن جرى انتخابه حتى اعترض أنسلم رئيس أساقفة كانتربري على ممارسته واجباته الأسقفية حتى يتولى تقديم الطاعة الدينية والقانونية نفسها، التي قدمها من قبله سلفاه: توماس وجيرارد، وذلك وفقاً للعادة القديمة، وقال أنسلم له:« وإذا لم توافق على هذا، فإننا نمنع جميع

أساقفة بريطانيا، تحت تعرضهم لعقوبة الحرمان الكنسي، إذا وضعوا أيديهم عليك، أو قبلوا بأن تكون رئيس أساقفة، على افتراض أنك سوف تحصل على السيامة من الخارج»، وفي السنة نفسها، جرت سيامة رتشارد دي بومي Beaumeis المنتخب للندن، وتكريسه من قبل أنسلم في باكنهام، بحضور كثير من أساقفته المساعدين، وفي حوالي الوقت نفسه خلف لويس فيليب على عرش فرنسا.

موت القديس أنسلم رئيس أساقفة كانتربري

سنة ١١٠٩م، فيها مات أنسلم رئيس أساقفة كانتربري، والفيلسوف المسيحي، وحدثت وفاته أثناء الصوم الكبير، وكانت حياته اللامعة، وأعماله المتميزة، وموته قد تبعها معجزات متوالية، بها جرى حث خلفاءه على أعمال الرحمة.

وأرسل في السنة نفسها هنري، امبراطور روما، سفراء يطلبون للزواج ماتيلدا ابنةالملك، وبناء عليه عقد الملك بلاطه في وستمنستر، أثناء عيد العنصرة، مع أبهة عظيمة، كانت أكبر مما كان في أية مناسبة متقدمة، حيث قبل اقتراح الامبراطور، وزوج ابنته ببضع كلمات بسيطة، وأخذ ثلاث شلنات، حسب عادة الملوك الانكليز— من كل هايد Hide من البلاد خلال انكلترا.

وفي السنة نفسها، وبناء على أوامر الملك، اجتمع رتشارد أسقف لندن، ووليم أسقف ونكستر، ورالف أسقف روكستر، وهيربرت أسقف نوروك Norwick ، ورالف أسقف تشستر، ورالف أسقف درم، وهيرفي أسقف بنغور Bangor ، اجتمعوا مع بعضهم في ٢٧—حزيران، في كنيسة القديس بولص، لسيامة توماس المنتخب ليورك، وعندما اعترف توماس بالطاعة القانونية لرئيس أساقفة كانتربري، ولخلفائه، جرت سيامته من قبل رتشارد أسقف لندن، وفي

السنة نفسهـا رفّع دير إيلاي Ely إلى كـــرسي أسقفي، وعمل هنري أول أسـاقفتها، لأن رتشـارد، آخـر رؤساء الديـرة في الجزيرة كان ميتـاً، وأخـذت كمبردج الآن من أسقف لنكولـن، وأعطيت لتكون أبرشيـة للأسقف الجديد، وفي حوالي الوقت نفسه ولدت خنزيرة خنزيراً له وجه انسان، وولد فروج بأربعة أرجل.

كيف عاث بوهيموند فساداً في أراضي الامبراطور الكسيوس

وفي هذه الآونة، قـام بوهيمـونـد أمير أنطاكيـة، وهو يحمل في ذهنه، الأذى الذي تسببـه الامبراطور الشرير ألكسيـوس، وأنزله دومـا بالذين عملوا الحج إلى القـدس، فـأراد الانتقـام للقضيـة العـامــة، فأغـار على أراضيه مع خمسـة آلاف من الفرسان، وأربعين ألفـاً من الرجالة، ونهب تقريبـاً جميع المدن الساحلية، وكـذلك إيبروس الأولى والثانيـة، وحاصر أخيراً ديراخيـوم، التي كـانت عـاصمة منطقـة ايبروس الأولى، وعـاث فسـاداً في المنطقـة كلهـا بالنار والسيـف، ولدى سماع الامبراطور بذلك جاء مع جيش كبير للدفـاع عن رعاياه، لكن بوسـاطة الأصدقـاء، أعيد السـلام بينهما، وجـرى الاتفـاق وتـأكـد بالأيمان أن الامبراطور سـوف يؤمن مـرور الحجاج بمساعـدتهم بكل طريقة ممكنة، وبنـاء عليه زحف بوهيموند إلى أبوليـا حيث استدعي لقضـاء عمل خاص هناك، وجمع في الصيف التـالي قـوة كبيرة من العسـاكـر ليعـود إلى أنطاكيـة، لكنه وقع مريضاً ومات، مخلفاً ولداً، أيضاً اسمه بوهيموند، ولد له من كونستانس ابنة فيليب ملك فرنسا.

وفي تلك الآونة نفسهـا مـات الملك الـلامع فيليب، وقـد خلفـه ابنه لويس، الذي كـان في الثـامنة والعشرين من عمــره، وفي حـوالي ذلك الوقت جــرى اطلاق سراح بلدوين مع أخيــه جـوسلين من الأسر التركي، وجرى تقـديم رهائن من أجل تحريرهم، لكن حدث بعـد عدة أيام أن قتل الرهائن حـراسهم وعادوا إلى أصدقـائهم، ووصل في السنة

نفسها برتراند كونت طولوز، وابن الكونت ريموند إلى مدينة طرابلس مع اسطول جنوي واستولى على جبيل، التي هي مدينة ساحلية في فينيقيا، وتمكن بوساطة أعمال المحاصرة وبمساعدة ذلك الاسطول الجنوي من السيطرة على منطقة طرابلس، وقد منحها إلى برتراند.

كيف نفى الملك هنري بعضاً من أعدائه

سنة ١١١٠م، فيها حرم الملك هنري فيليب دي بروس Brause، ووليم مالت، ووليم بينارد Binard مع آخرين كانوا خونة بالنسبة له، من مواريثهم، وأعدم كونت هلياس Helias الذي انتزع منه منطقة مين، ولدى سماع جيوفري كونت أوف أنجو بهذا، استقبل ابنة هلياس المذكور، وتسلم منها المنطقة، واحتفظ بها على الرغم من ارادة هنري.

وقام في السنة نفسها رتشارد رئيس دير القديس ألبان، وسط سرور عارم لرجال الدين والشعب، بنقل الآثار الثمينة للملك أوسين Os-win المجيد والشهيد، إلى الكنيسة الجديدة للقديسة مريم في تينيماوث Tynemouth، وذلك من البيعة القديمة لأم الرب المقدسة نفسها، حيث تمّ العثور على جسده المقدس أولاً، ووضع في مزار، وعمل هذا النقل في يوم آلام الشهيد، أي في الثالث والعشرين من آب،[وفي هذه السنة نفسها زوّج الملك هنري ابنته إلى امبراطور ألمانيا].

وفي هذه السنة نفسها، بدأ أيضاً القديس غودريك Godric حياة التنسك في فنشلي Finchale ، واستمر بها بطريقة محمودة لمدة أربعين سنة، حين تحرر من الجسد، ودخل قصراً في السماء هناك ليتمتع بسعادة أبدية مع القديسين فوق.

وظهر في هذه السنة أيضاً مذنب بطريقة غير اعتيادية، ذلك أنه وإن أشرق من الشرق، وارتفع نحو السماء، بدا وكأنه لايتحرك نحو الأمام بل نحو الخلف.

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، أخضع بلدوين ملك القدس بيروت بقوة السلاح، وهي مدينة ساحلية في فينيقيا، وأضافها إلى الممتلكات الصليبية، وهي واقعة بين جبيل وصيدا.

كيف عاث الملك هنري فساداً بشده في أراضي كونت أنجو

سنة ١١١١م، عبر الملك هنري إلى نورماندي، وهاجم كونت أوف أنجو، الذي استولى على مين التي كانت تابعة له، ضد ارادته، وعاث فساداً في أراضيه من كل جانب بالسيف والنار، [وكان في هذا الوقت موتان كبير للحيوانات، ومجاعة شديدة في نورماندي، ووضع أيضاً هنري الملك الألماني البابا باسكال في السجن].

حول القديسة فرايدسوايد وبناء كنيستها

وأعطى في حوالي الوقت نفسه روجر أسقف سالسبري مكانا في أكسفورد، حيث كانت العذراء القديسة فرايد سوايد Frideswide مدفونة، إلى راهب نظامي اسمه ويموند Wimund الذي شكل هناك جماعة من الرهبان النظاميين، تحت نظام مقرر، وكان هو أول رئيس لهم، وكان المكان في الأيام الخالية مكرساً للاستخدام من قبل الراهبات، وذلك صدوراً عن الاحترام لتلك القديسة التي رفضت المتعة الأرضية من أجل المتعة في السماء لتكون عروساً هناك، وذلك أن ابنا لأحد الملوك رغب في الزواج من هذه العذراء، واستخدم عبثا كل الوسائط والمغريات، ثم حاول أخيراً استخدام القوة، وأدركت فرايد سوايد نواياه، فهربت بشكل سري إلى الغابة، غير أنها لم تنج من محبها، الذي كان مستنفراً لمعرفة إلى أين ذهبت، وبناء عليه هربت العذراء أثناء الليل، وجعلت الرب دليلها، فوصلت إلى اكسفورد، وعندما وصل محبها المتعنت إلى هناك، يئست من النجاة، وكانت منهكة وغير قادرة على متابعة السير، فدعت إلى الرب حتى يحميها ويعاقب مطاردها،

وكـان الشـاب قـد دخل إلى المدينة مع أتبـاعـه وعنـدها أصيب بالعمى بضربة سماوية، فأدرك أنه قـد عـوقب بسبب عناده، فأرسـل إلى فـرايد سـوايـد، ورجـاها التـوسط له عند الرب، ودعت العـذراء إلى الرب، وبوسـاطة دعـواتها استرد الشـاب بصره بسرعـة مثلما كـان من قبل أن أصيب بالعمى، ولهذا السبب يخاف ملوك انكلترا دومـا من الدخول إلى تلك المدينة، لأنه قـد قيل بأنها قـاتلة لهم، وهم لايرغبـون في تجريب الحقيقـة على حسـاب تعـرضهـم للخطر، وبنت العـذراء ديراً هناك، وترأست هي شخصياً على مجمـوعة من العـذراوات التقيـات اجتمعن هناك، وكـان هـذا الدير قـد التهمتـه النيران في أيام الملك إيثلرد Eth-alred مع الدانيين Danes الذين هـربوا إلى هناك للإلتجـاء، عندمـا حكم على جميع رجـال تلك الأزمـة بالموت، وبعـد مـرور وقت قصير أعيـدت عمارتـه من قبل الملك نفسـه، وقـد أوقف عليـه كثيراً من الممتلكات.

ومات في هذه السنة روبرت كونت فلاندرز، الذي ميز نفسه كثيراً في الحج إلى القـدس، ولذلك سوف يظل اسمـه مـذكوراً إلى الأبد، وصـار ابنه بلدوين كونتاً بعده.

وفي هذه السنة نفسهـا، تمت محاصرة صيـدا، الـواقعـة على سـاحل البحر، وجرى الاستيلاء عليها من قبل الملك بلدوين اللامع.

الخلاف بين البابا والامبراطور

سنة ١١١٢م، نشب فيهـا خـلاف بين البـابا بـاسكال والامبراطور هنري، نتيجـة للسبـب التـالي: فقـد رغب الامبراطـور في استخـدام الامتيازات التي تمتع بها أسلافه لمدة ثلاثمائة وستين سنة في ظل البابوات الرومان، وذلك بمنح الأسقفيات ورعاية الديرة، بوساطة الخاتم وعصا الأسقفيـة، لكن البـابوات الرومـان أرادوا عـدم السماح بإعطاء الخاتم

والعصا، ولاأن يتسلم أي لاهوتي منصباً من واحد علماني، وأقيم على كل حال السلام بين الامبراطور والبابا على شرط أن يتسلم الأساقفة ورعاة الديرة مناصبهم في المستقبل من الامبراطور ومن خلفائه من بعده، ويكون ذلك بوساطة الخاتم والعصا، إنما يتوجب عليهم قبل ذلك عمل اعتراف بالطاعة إلى الأسقف الذي يعنيه الأمر، ومنه يتلقون السيامة المعهودة، وجرى الاعلان عن هذا الإتفاق أمام مذبح الرسولين بطرس وبولص، وعندها سمح البابا للامبراطور بتناول جسد المسيح المقدس والمشاركة فيه.

ومات في السنة نفسها تانكرد اللامع الذي أنجز أعمالاً رائعة في فلسطين، وكان أميراً لأنطاكية كما كان كونتاً للرها، وقد خلفه روجر فتز— روجر، وكان رجلاً نبيلاً وذلك على شرط أنه عندما سيطالب بوهيموند الشاب بتملك أنطاكية، سوف يسلمه إياها على الفور.

حول الخلاف بين رئيسي أساقفة كانتربري ويورك

سنة ١١١٣م، أعطى فيها الملك هنري كرسي كانتربري إلى رالف أسقف لندن، ونصبه بوساطة الخاتم والعصا الأسقفية، ومات في السنة نفسها توماس رئيس أساقفة يورك، حيث خلفه ثورستان Thurstan، ونشب جدل كبير بين رالف رئيس أساقفة كانتر بري، وثورستان رئيس أساقفة يورك، لأن هذا الأخير كان غير راغب في تقديم الطاعة المعهودة إلى رئيس أساقفة كانتربري، كما فعل أسلافه من قبله، وغالبا ماأثيرت هذه المسألة أمام الملك، وأمام مولانا البابا، لكنها لم تحسم تماماً، وفي السنة نفسها قاد الملك هنري جيشاً إلى داخل ويلز، وأرغم السكان على الخضوع لمشيئته الملكية.

وظهر في شهر أيارمن السنة نفسها مذنب كبير، وتبع ذلك بعد وقت قصير زلزلة هدمت شطراً من مدينة المصيصة، التي ليست بعيدة عن

أنطاكية، مع قلعتين هما: الأثارب ومرعش، وغزا في السنة نفسها أيضاً مودود، ملك الفرس بلاد الصليبيين مع جيش كبير، من غير الممكن ذكر تعداده، وبعدما عبر مناطق كثيرة نصب معسكره قرب الجسر الذي يجري من تحته نهر الأردن، ولدى معرفة بلدوين ملك القدس بهذا، دعا روجر أمير أنطاكية إلى مساعدته، لكن الملك اندفع قبل وصول حلفائه، واثقاً بقوته المفترضة كثيراً، وقد زحف مع جيش صغير للتصدي للعدو، فوقع في كمين نصبوه له، وبذلك تغلبوا عليه بتفوقهم العددي، وأرغموه على الفرار، تاركاً رايته على أرض المعركة، ومثله فعل أرنولف البطريرك والأمراء الآخرون الذين كانوا معه، حيث تخلوا عن معسكرهم مع جميع أثقالهم، ولازوا بالفرار بشكل مهين، وسقط في القتال ثلاثين فارساً وألف وخمسمائة من الرجالة، وعرف الترك أن الأجزاء الأخرى من المملكة ليس فيها قوات عسكرية تحميها، فقسموا جيشهم واجتاحوا المنطقة كلها بالنار والسيف، ونهبوا مناطق الضواحي، وأسروا المزارعين وجمعوا أسلابهم في القرى والبلدات، وهرب الملك بلدوين، ودخل قلعة كانت في أراضيه ودافع عنها وقتاً طويلاً ضد هجمات الأعداء، لكنه استسلم أخيراً على شرط السماح له بالعودة إلى قومه من دون إعاقة.

كيف جعل الملك هنري نبلاءه يؤدون يمين الولاء لابنه

سنة ١١١٤م، جعل فيها هنري ملك انكلترا جميع نبلاءه يؤدون يمين الولاء لابنه وليم، الذي ولدته له الملكة ماتيلدا، وفي السنة نفسها، في شهر كانون الأول أصبحت السماء فجأة حمراء، وكأنها كانت فوق نار، وكان هناك خسوف للقمر.

سيامة رالف رئيس أساقفة كانتربري

سنة ١١١٥م، فيها جرت سيامة رالف رئيس أساقفة كانتربري، في

كـانتربري، من قبل أنسلم(حفيـد أنسلم الكبير) ونائب البـابا ومندوبه، وكـان ذلك في السـابع والعشرين مـن حـزيران ، وتسلم الطيلسـان من يده، وفي اليـوم نفسه كرس رئيـس الأساقفة ثيـوفيلوس Theophilus لكرسي ووركستر، وبرنارد لكـرسي القـديس داوود، وبعــد عــدة أيام وجهت الدعوة إلى ثـورستان المنتخب إلى يورك، من قبل رئيس أسـاقفة كـانتربري ليتسلم منـه المبـاركـة المعتـادة، وليقـدم اعترافـاً بـالطاعـة له ولكرسي كـانتربري، لكن ثورستان ردّ بأنه على استعـداد لتلقي المباركـة منه، لكنه لن يقـدم اعتراف الطاعــة المطلوب، ولدى سماع الملك هنري بهذا، احتج بصـوت مرتفـع، بأنه لن يعمل الاعتراف المطلوب، كما فعل أسـلافـه، وإذا فعل ذلك سـوف يحرم من رئاسـة أسـاقفـة يورك، ومن المباركـة أيضاً، وعندها أصدر رئيس أسـاقفة كـانتربري نداء لمنع تسلمه السيامة من أي انسان آخر عداه شخصياً، وهكذا تفرق الفرقاء.

تكريس كنيسة القديس ألبان

سنة ١١١٦م، فيهـا كـان الملك هنـري في أيام الميـلاد، وفي يوم عيـد الأبرياء المقـدسين، حاضراً أثناء تكريس كنيسـة القديس الشهيـد ألبان، وقـد تولى التكريس روبرت أسقف لنكولن، الذي استدعي للقيـام بهذا الواجب من قبل المبجل رئيس رهبان تلك الكنيسـة، وكان بين الحضور أثناء الاحتفـال: الملك، والملكة ماتيلدا، وجيـوفري رئيس أسـاقفة روان Rouen، ورتشـارد أسقف لندن، وروجــر أسقف سـالسبري، ورالف أسقف درم، مع كثير من الايرلات من انكليـز ونورمـان، الذين احتفي بهم بكرم من قبل رتشارد، رئيس الرهبـان، ومنح الملك هنري الأسقفية لتكون أبدية دائمـة التملك من قبل الكنيسة المتقـدم ذكرها، وأكـد هذه المنحة بصك براءة.

وكان في السنة نفسهـا خصام شديد بين ملكي انكلترا وفرنسـا، وقد ثار للسبب التـالي: حمل في تلك السنة ثيـوبـولد كـونت أوف بلوا وابن

اخت الملك هنري، السلاح ضد ملك فرنسا، وأنزل الملك هنري، في دفاعه عن ثيوبولد، أضراراً كبيرة بالملك الفرنسي لويس، الذي دعا إلى عونه كل من كونتي: فلاندرز، وأنجو، لأنهما أقسما معا، بأنهما سوف ينتزعان نورماندي من الملك هنري، وإعطائها إلى وليم ابن الدوق روبرت، أخو الملك هنري، الذي يمتلك حق الادعاء بها، لكن بما أن الملك الانكليزي كان عاقلاً وحكيماً، فقد ضم إلى جانبه بريتاني مع ثيوبولد المتقدم ذكره، وقام بجمع قوات انكلترا، ونورماندي وبريتاني وتوحيدها، ووقف ينتظر وصول الأعداء، ودخل الملك الفرنسي وجيش كبير مع الكونتين المتقدم ذكرهما اللذان كانا متحالفان معه، إلى نورماندي، لكنه أمضى ليلة واحدة فوق الحدود، ذلك أنه كان يخشى من أن يزحف ملك انكلترا ضده، ثم انسحب إلى أراضيه دونما قتال، وفي السنة نفسها أثقلت انكلترا بمختلف أنواع الجبايات والمكوس لتأمين حاجيات الملك.

اضطراب أحوال العناصر الأساسية

سنة ١١١٧م، فيها كانت رعود، وزوابع، وبروق، وتساقط برد، وهزات أرضية، دمرت الكنائس، والأبراج، والأشجار، وبني الانسان في لومبارديا، ومات في السنة نفسها أيضاً إيفو Ivo المبجل، أسقف تشارترز، وكان مشهوراً بمعارفه بالكتابات المقدسة.

كيف تفجر الشقاق في روما حول جيلاسيوس البابا المضاد

سنة ١١١٨م، فيها مات البابا باسكال، وخلفه جيلاسيوس Gelasius البابا المضاد لمدة سنة واحدة، وماتت في السنة نفسها ماتيلدا ملكة انكلترا، ودفن جسدها بسلام في وستمنستر، وصعدت روحها إلى السماء، كما كان واضحاً من خلال علامات متوالية ومعجزات، وكانت هذه الملكة المباركة قد بنت داراً للمجذومين في لندن، مع بيعة وأبنية

موائمة، وهي المعروفة حتى هذا اليوم باسم« مشفى القديسة مرغريت».

أصل طائفة فرسان الداوية

في حوالي هذا الوقت كرس بعض النبلاء من طائفة الفرسان، من رجال الدين الذين كانوا يخافون الرب، أنفسهم لخدمة المسيح، وفق طريقة الرهبان النظاميين، وتخلوا عن جميع المباهج تطوعاً بإرادتهم، وعملوا تعهداً إلى بطريرك القدس بأن يعيشوا بطهارة أبدية وبطاعة، وكان أول هؤلاء المحترم هيوج دي باني Paganis ، وغودفري دي سينت أومر، وبما أنهم لم يمتلكوا مقراً ثابتاً، فقد منحهم الملك بلدوين مسكناً في قصره، وذلك في الجانب الشمالي من هيكل الرب، وأعطاهم رهبان الهيكل الفسحة المفتوحة العائدة إليهم والقائمة حول القصر، ليبنوا مكاتب عليها، وقام البطريرك أيضاً، والملك، مع نبلايه مع بقية أساقفة الكنائس، بتقديم هدايا لهم من ممتلكاتهم، حتى يؤمنوا مايحتاجون لأنفسهم، ويزودوها بالطعام والكساء، وكان هدفهم الأول— من أجل التخلص من ذنوبهم— تنظيف الطرق من اللصوص، وهي الطرق التي كان يتوجب على الحجاج عبورها، وهم على طريقهم إلى القدس.

وأخيرا جرى منحهم بعد تسع سنوات، نظاماً، وكان ذلك من قبل مجمع تروي Troyes ، وعُين لهم رداءً من قبل البابا هونوريوس، وبعد انقضاء السنوات التسع، وحيث كان عددهم تسعة في البداية، قد بدأ هذا العدد بالازدياد بسرعة، وكذلك ممتلكاتهم، وخاطوا فيما بعد، في أيام البابا يوجينيوس صليباً أحمر على أرديتهم حتى يميزوا أنفسهم عن الآخرين، وازدادت أعدادهم في وقت قصير حتى بات هناك مالايقل عن ثلاثمائة فارس في بيتهم، وذلك إلى جانب الرهبان الآخرين الذين كان عددهم غير محدود، ويقال أنهم في هذه الأيام يمتلكون ممتلكات هائلة على طرفي البحر، إلى حد أنه ليس هناك أياً من جميع البلدان

المسيحية لم يمنحهم جـزء من ثرواته، وهم في هذه الأيام يتفـوقون حتى على الملوك بالشـراء، وبسبب إقـامتهـم قـرب هيكل الرب، أطلق عليهم اسم فرسان الهيكل.

ومع أنهم التـزموا لوقت طويل بمـؤسستهم الأصيلة، تخلوا الآن عن تواضعهم الذي كـانوا قـد آمنوا به، وابتعـدوا بـأنفسهم عن البطريرك، الذي منه تسلموا مـؤسسة طائفتهم، وأول المنح والهبـات، وتوقفوا عن تقـديم الطاعـة إلى الكنيسة وعن دفـع العشور إليهـا، وبذلك أصبحـوا مبغوضين من قبل كل انسان.

وفي هذه السنة نفسها مات بلدوين الأول، ملك القدس، وكان أميراً رائعـاً، أخضع إلى سلطانه مـدن: عكا، قيسـارية، وبيروت، وصيـدا، وطرابلس، وأرسـوف مع جميـع بلاد العـرب حتى البحـر الأحمر، وقـد خلفه كـونت الرها، الذي كـان اسمه أيضـاً بلدوين، وقد جـرى تتويجه ملكاً في شهر نيسان، وذلك في اليوم الثاني من الشهر.

موت البابا جيلاسيوس وخلافة كاليكستوس له

سنة ١١١٩م، فيها مات البابا جيلاسيـوس، وقد خلفه كاليكستوس، Calixtus، الذي مكـث عشر سنوات، وعشرة أشهـــر، وثـلاثة عشر يومـاً، وقـد كـان من قبـل أسقف فينا تحت اسم غي، وعندمـا جـرى تكريسه بابا اتخذ اسم كـاليكستوس، وقد عقـد مجمعاً في ريمس، حضره بعض الأسـاقفـة الانكليـز والنورمان، الـذين أرسلوا إلى هناك من قبل الملك هنري، وحصل ثورستان المنتخـب ليورك على إذن الملك بالذهاب إلى هناك، وقـد أعطى في البـداية تعهـداً بأنه لن يتسلـم التبريك من كاليكستوس، لكنه عندمـا وصل إلى هناك إلى المجمع كسب الرومان إلى جـانبه -كما يحدث دومـاً في مثل هذه الأحوال -بوسـاطة الهدايا، فأقنع البابا بـالقيام بتكريسه، وعندمـا سمع الملك بهذا ، منع رئيس الأسـاقفة

هذا من أن يطأ بقدميه أياً من أراضي الملك، وفي هذا المجمع أدان البابا نفسه خطيئة المعلم غيلبيرت بوريتا Poreta الذي يقال بأنه أخطأ في أربعة مسائل محددة هي: أولاها، أنه قال بأن الطبيعة الإلهية التي نسميها لاهوت، هي ليست الرب، بل شكل هو دون الرب، مثلما الانسانية هي ليست الانسان، بل شكل دون الانسان، وعلى هذا رد المجمع بقوله: «نحن نعتقد بأن الطبيعة الساذجة للاهوت هي الرب، وما من عقل كاثوليكي يمكنه أن ينكر بأن اللاهوت هو الرب: وعلى هذا حيثما الرب يقال بالحكمة هو حكيم، وبالعظمة هو عظيم، وبالخلود هو خالد، وواحد في وحدة، ورب باللاهوت، ونحن نعتقد أنه ليس حكيماً إلاّ بالحكمة التي هو بها رب، وأنه ليس عظيماً إلاّ بالعظمة التي هو بها رب، كما أنه ليس خالداً إلا بالخلود الذي هو به رب، كما أنه ليس واحداً إلاّ بالوحدة، التي هو بها رب، كما أنه ليس رباً إلاّ باللاهوت الذي هو نفسه، يعني أنه حكيم في نفسه، وعظيم، وخالد، وإله واحد»، وثانيها: لقد قال بأن الأقانيم التي هي الآب، والابن، والروح القدس، ليسوا إلهاً واحداً، ولاجوهراً واحداً، أو أي شيء واحدا، لكن هؤلاء ثلاثة أقانيم (أشخاص) وثلاثة أشياء مختلفة في العدد أيضاً، كما لو أن ثلاثة أفراد وجدوا ذوي طبيعة بشرية واحدة، وعلى هذا ردّ المجمع قائلاً: «إننا عندما نتحدث عن ثلاثة أشخاص: أب، وابن، وروح قدس، نحن نعتقد أنهم إله واحد، ولاهوت واحد، وجوهر واحد، والعكس صحيح: لأننا عندما نتحدث عن رب واحد، ولاهوت واحد، وجوهر واحد، نؤمن أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة رب واحد، وجوهر لاهوتي واحد»، وثالثها: قال غيلبيرت بأن الخاصية لكل واحد من الأشخاص هي علاقات أبدية خاصة، وهي ليست كذلك بسبب أن الأشخاص مختلفون بالعدد، ومنقسمون منفصلون بالجوهر، ولهم ثلاث وحدات، وبالتالي كثير من الأشياء غير الخالدة، ما من واحد منها هو رب، وعلى هذا ردّ المجمع قائلاً: «نحن نعتقد بأن الرب هو

الآب، والابن، وروح القدس، فقط وحده خالد، وأن ما من شيء سواء دعي باسم علاقات أو خاصية، أو وحدات، هو عائد إلى الرب، وهم غير متأصلين بالخلود، وليسوا رباً» ورابعها لقد أعلن بأن الطبيعة اللاهوتية لم تصبح متجسدة، وعلى هذا ردّ المجمع قائلاً: «نحن نعتقد بأن اللاهوت، سواء قيل له: جوهر لاهوتي، أو طبيعة لاهوتية، قد تجسد بالابن».

القتال بين ملكي فرنسا وانكلترا

نشبت في السنة نفسها معركة قتالية بين لويس ملك فرنسا، وهنري ملك انكلترا، وعمل ملك فرنسا صفين من العساكر وضع في الأول منهما وليم ابن الدوق روبرت، أخو الملك هنري، واتخذ هو موقعه مع الكتلة الأساسية من القوات في الصف الثاني، وعبأ هنري ملك انكلترا جيشه في ثلاثة صفوف، حيث وضع في الصف الأول نبلاء نورماندي، وفي الصف الثاني، اتخذ موقفه مع آل بيته وعساكره، ووضع في الصف الثالث ولديه مع القوات الأساسية المؤلفة من الرجالة، وعندما تواجهت القوات واشتبكت، خرق الصف الفرنسي الأول صف النورماندين، وألقاهم من على خيولهم وفرقهم، ثم هاجم الفرنسيون رجال الصف الذي كان هنري يقوده شخصياً، وقاموا بحدة بردهم نحو الخلف، لكن الملك الانكليزي تمكن برجولة من إعادة جمع رجاله ووقف ثابتاً في مكانه، وأعقب ذلك اشتباك عنيف بين العساكر الملكية، حيث تكسرت رماحهم، واشتد القتال وازداد التلاحم في مناطق عدة، والسيوف بالأيدي، وتمكن وليم غريسبن Grispin كونت إيفروكس Evreux ، الذي لسوء فعاله، كان الملك هنري قد أبعده ونفاه، تمكن هذا مرتين من ضرب الملك على رأسه بالسيف، وصحيح أن السابغة والخوذة كان لايمكن خرقهما، مع ذلك دفعت شدة الضربة السابغة إلى خرق رأس الملك، وبذلك تدفقت الدماء بغزارة، وعندما

شعر الملك بأنه قد جرح امتلأ غضباً، وبضربة واحدة قذف بالكونت وبحصانه إلى الأرض، وأمسك الفارس على الفور، وحمل أسيراً، ثم قام الرجالة، الذين كان بينهم ولدي الملك، والذين لم يشاركوا بعد في القتال، بتشريع رماحهم، وحملوا فوراً على الأعداء بثقل عظيم وبقوة بلغت حداً جعلت جميع العساكر الفرنسية تنكص على أعقابها، وتدير ظهورها، وتفر، معطية النصر إلى الملك هنري، الذي بقي في ساحة المعركة حتى فرار الملك الفرنسي، وإلى أن وقع نبلاءه بالأسر، وجلبوا إلى أمام ملك انكلترا، وحمل كونت فلاندرز على محفة ونقل إلى موطنه، وهو مصاب بجراحة قاتلة، وعاد الملك هنري إلى روان حيث استقبل بقرعات النواقيس والترانيم في الكنائس، وقد قدم شكراً خاشعاً إلى رب الحشود.

موت رتشارد رئيس رهبان القديس ألبان

في السنة نفسها فارق هذه الحياة رتشارد دي أوبني Aubeney [سماه من قبل دي Exaquis] رئيس رهبان القديس ألبان، وصار غيوفري دي غورهام Gorhamرئيس الكنيسة نفسها، رئيساً للرهبان هو السادس عشر، ومات في السنة نفسها هيربرت أسقف نورروك، وبلدوين كونت فلاندرز من الجراحة التي تلقاها في إيو Eu في نورماندي، وقد خلفه شارل ابن كنوت Cnut ملك الدانمرك، وجاء في تلك الآونة البابا كاليكستوس إلى عند الملك هنري في نورماندي، وعقد هذان الاثنان، اللذان كان أولهما الحبر الأعظم، وثانيهما الملك، محادثات فيما بينهما في غيسور Gisors:

كيف جرى مقتل أمير أنطاكية

في حوالي ذلك الوقت، قاتل روجر أمير أنطاكية، مع ثلاثمائة فارس، وثلاثة آلاف من الرجالة، ضد الأمراء الثلاثة للأتراك، ورجال دمشق،

والعـرب، الذين كـان معهم مـالايقل عن ستين ألف رجل في جيشهـم، وفي هذا الصراع غير الاعتيادي، قتل الأمير مع جميـع رجاله، حتى أنه لم يبق هناك من يحمل أخبار الهزيمـة، وبعد هذه المعركة استـولى المسلمون على بلدتي كفـرروما، وزردنا، وعندمـا سمع بلدوين ملك القـدس بهذه الحادثة، سـار بشجاعـة للتصدي للأعـداء، وقاتل مع جيشـه الصغير في جبل داوود ضـد عسـاكـرهم الكثيرة، وهزم الأمـراء الثـلاثة، وأعـاد الاستيلاء على بلدتي كفر روما، وزردنا، المتقـدمتي الذكر، وطارد العدو المنهزم، موقعاً فيه كثيراً من القتلى، واستمر في ذلك حتى حلول الليل.

كيف غرق في البحر الكثيرون من آل بيت الملك هنري

سنة ١١٢٠م، فيها بعدما أخضع الملك هنري جميع أعـدائه في فرنسا، وهدّن كـل شيء في نورمـــاندي، عبر منتصراً إلى انكلترا، لكن ولـديه: وليم، ورتشارد، وابنته وحفيدته، مع رتشارد ايرل أوف شستر، وسقاته، وخدمـه، وطهاته، وكثير مـن النبلاء، قيل بأنهم كـانوا جميعاً قـد فسدوا بسبب ممارسـة إثم اللواطة، قد غـرقـوا في البحر، وهلكوا جميعـاً بشكل تعيس، لأنهم لم ينالوا دفنا مسيحيا، فقد ابتلعهم موت مفاجىء مع جميع دنسهم، مع أن البحر كان هادئاً آنذاك.

كيف اتخذ الملك هنري زوجة

سنة ١١٢١م، فيهـــا تزوج هنري من أليـس، ابنة دوق لوفين Lou-vain، لبهائهـا وجمالها، وقد جرى تكريسهـا ملكة من قبل رالف رئيس أسـاقفة كـانتربري، في لندن، في أيام عيـد العنصرة، حيث جلست هناك بشكل رسمي وراء مـائـدة والتـاج عليها، وكـانت برفقـة الملك، وبعـد الفـراغ من هذا زحف الملك على رأس جيش كبير إلى ويلز، لكن شعب ويلز قابله متضرعاً، وخضع لإرادته الملكيـة، وفي هذه السنة نفسها أخذ البابا كـاليكستوس واحداً اسمـه موريس كـان الامبراطور قد جعله بابا

مضاد، ورسمه راهباً.

موت رالف رئيس أساقفة كانتربري

سنة ١١٢٢، فيها سدد رالف رئيس أساقفة كانتربري، وجون أسقف بـــــاث Bath ، دين الطبيعة، وفي هذه السنة نفسها أسر القائد بلك جوسلين كونت الرها وأخيه جاليران.

كيف هلك واحد من مستشاري الملك بشكل تعيس

سنة ١١٢٣م، فيهـا أمضى الملك هنري عيد الميــلاد في دنستيبل Du-natable، وســار بعــد العيــد من هناك إلى بيركهــامبستــد Berk-hampstead، وكان برفقتـه مستشار اسمـه رالف، الذي كان لعشرين سنة مصابا بمرض شديد، ومع ذلك كان نشيطاً بما فيه الكفاية في سبيل جميع أنـواع الجرائم، ذلـك أنه ظلـم البريء، وسلب أراضي الكثيريـن، ومع أنه كان ضعيفاً بالجسد، زاد من قـوة اندفاع عقله، وبينما كان يرشد الملك إلى بيتـه، عندما وصـلا إلى قمة رابيـة، منها كـان من الممكن رؤية قلعــة الملك، تحمس كثيراً وانفعل إلى حــد أنه سقـط من على ظهــر حصانه، فقام راهـب من رهبان دير القديس ألبان، كـان قد استولى على أرضـه، بالمرور فوقـه وحصـانه يعدو بدون انتبـاه، وبذلك أنهى حيـاته البائسة خلال عدة أيام انقضت.

ومات في السنة نفسها روبرت أسقف لنكولن، وقد خلفه الاسكندر، وأعطى في السنة نفسهـا الملك هنري رئاسـة أساقفة كـانتربري إلى وليم دي كـــوربـويل Corboil رئيس رهبـــان شيك Chick [في اسكس Eeesx]، وأعطى أسقفية باث إلى غـودفري، الذي كـان حاجب الملكة في تلك الآونة، وثار كذلك روبرت دي ميدلنت Medlent على الملك، الذي تولى حصـار قلعتـه بونتـوديمير Pontaudemer واستولى عليها، وبنى في الـوقت نفسه سوراً عـالياً، وعـريضاً مع شرافـات حول

برج روان، ومتن برج قلعة كين Caen ، وبالاضافة إلى ذلك جعل قــلاع: آرشـــــي Arches ، وغيســور، وفــلاسي Falaise ، وأرغنتول Argenteuil، ودو مفرونت Domefront، وأوكسيم Ox-ismes، وأمبرت Ambert، وفير VIR، قلاعاً لاترام، وكذلك برج فيرنون Vernon.

كيف جرى أسر ملك القدس من قبل الأمير التركي بلك

واقتاد في السنة نفسها، بلدوين ملك القدس جيشاً في مناطق كونت الرها، وبينما كان يسير بدون حذر في إحدى الليالي، وعساكره غير منتظمة، حمل عليه بلك أمير الترك، من كمين، وأخذه أسيراً، ووضعه في السجن في قلعة خرتبرت، وكان مسجوناً في القلعة نفسها: جوسلين كــونت الرها، وأخيه جــاليران، اللذان من أجل اطلاق سراحهما وتحريرهما جاء الملك إلى تلك المناطق، وعندما سمع أمراء القدس بالأخبار المشؤومة المتعلقة بأسر الملك، عينوا لحكم المملكة رجلاً اسمه يوستاس غرنت، وكان رجلاً حكيماً ومخلصاً، وكان عليه معالجة الأمور، وتسيير الأحوال أثناء غياب الملك، وفي تلك الأثناء حاصر الأمير بلك يافا مع ستة عشر ألف رجل مسلح، ولدى سماع أخبار ذلك قام بطريرك القدس، مع الحاكم يوستاس والأمراء الآخرين، تصحبهم رحمة الرب، فزحفوا إلى هناك مع سبعة آلاف رجل، فهزموا الأعداء بعدما قتلوا سبعة آلاف رجل منهم، واستولى على كميات هائلة من الغنائم اقتسموها بالتساوي فيما بينهم.

وفي تلك السنة نفسها ذهب وليم المنتخب لكانتربري إلى روما حيث تسلم الطيلسان، ثم عاد إلى انكلترا، حيث جرت سيامته في كانتربري من قبل وليم أسقف ونكستر، لأن رتشارد أسقف لندن، الذي إليه عاد ذلك الواجب، كان قد مات قبل وقت قصير.

كيف جرى أسر بعض أعداء الملك

سنة ١١٢٤م، فيها دخل بقوة السلاح إلى نورماندي: روبرت كونت ميلنت Mellent مع ابن أخته هيوج دي مونتفورت، وهيوج فتز -غيرفياس Gervais ، لكن وليم دي تانكرفيل Tankerville -حاجب الملك -قاتلهم واشتبك معهم في معركة، حيث أخذهم أسرى، وأرسلهم إلى الملك هنري، الذي وضعهم في السجن.

ومات في السنة نفسها ثيوفيلوس أسقفووركستر، وأرنولف أوف روكستر، وحوصرت في السنة نفسها صور، حاضرة سورية، من قبل ميكائيل دوج البندقية من جهة البحر، في حين حاصرها أمراء مملكة القدس من جهة البر، وبدأ الحصار في ٢٥ - شباط، وجرى الاستيلاء على المدينة في ٢٩ -حزيران، وقدّم في السنة نفسها بلدوين ملك القدس رهائن من أجل اطلاق سراحه، وعاد سالماً إلى شعبه.

كيف فوجىء نائب البابا وهو يقترف الزنا

سنة ١١٢٥م، جاء إلى انكلترا جون أوف كريما Crema، كاردينال الحضرة البابوية، بترخيص من الملك، وزار الأسقفيات والديرة، وقد حصل على هدايا واسعة قدمت له، وعقد مجمعاً مهيباً في لندن في يوم ميلاد العذراء مريم، حيث تحدث بحدة ضد اتخاذ الخليلات من قبل رجال الدين، وقال بأن ذلك كان ذنباً عظيماً أن يصدر من جانبهم، وأن يعمل جسد المسيح، لكن حدث في تلك الليلة، بالذات أن فوجىء برفقة عاهرة كان يجامعها، مع أنه كان في ذلك اليوم قد كرس جسد المسيح، وكانت الحقيقة واضحة بحيث لايمكن انكارها، وهكذا تحولت مكانته السامية إلى خزي عظيم.

وفي السنة نفسها، أعطى الملك هنري إلى سيمون، كاهن الملكة، أسقفية ونكستر، وإلى جون رئيس شمامسة كانتربري أسقفية روكستر،

وإلى سيفرد Sifred راعي غلاستونبري Glastonbury ، أسقفية شستر، وأيضاً نشب خلاف بين وليم رئيس أساقفة كانتربري وثيرستان رئيس أساقفة يورك حول الأولوية، التي حاول كل واحد منهما أن يبرهن أنه الأحق بها.

وفي هذه السنة مات الاسكندر ملك الاسكوتلنديين، وقد خلفه أخوه داوود، وكان رجلاً صاحب قداسة عظيمة، وكرم مدهش، فضلاً عن هذا أمر الملك هنري بجميع الماليين في انكلترا، فتعرضوا لسوء العذاب، وكذلك أمر بقطع أيديهم اليمنى لأنهم اقترفوا تخفيض عيار النقود، ولم يحافظوا على نقاوتها.

كيف انتصر بلدوين ملك القدس على الأتراك

وفي حوالي هذه السنة نفسها اجتمع البرسقي، الذي كان أميراً شرقياً قوياً، مع طغتكين ملك دمشق، وبعدما عبر نهر الفرات، عاث فساداً في أراضي أنطاكية، واستولى على حصن كفرطاب، وتابع زحفه فألقى الحصار على بلدة عزاز، وعندما سمع بلدوين بهذا، وكان وقتها مسؤولاً عن كل مملكة القدس وإمارة أنطاكية، زحف إلى هناك مسرعاً مع عساكره، فوجد العدو المتقدم ذكره مايزال مشغولاً بالحصار، فهاجمه بشدة، وبرحمة ربانية هزم الأعداء جميعاً، وقتل ألفين، كلهم وجدوا قبورهم في النار، وبالأموال التي وجدها الملك هناك، قام بفداء ابنته، التي كانت طفلة في الخامسة من عمرها، كان قد أعطاها من قبل رهينة من أجل تحريره شخصياً، وعاد من هناك حيث جمع الأسلاب قرب عسقلان، وكان قد قتل عدداً من الأتراك وجدهم على طريقه، ثم عاد إلى شعبه.

كيف مات الامبراطور وكيف عادت الامبراطورة إلى أبيها

سنة ١١٢٦م، فيها فارق هنري امبراطور الرومان هذه الحياة، وقد

خلفـــــه لـوثير Lothaire ، الذي حكم اثني عشر عاماً، ثم عادت الامبراطورة ماتيلدا إلى أبيها الملك هنري، وسكنت في قصره مع الملكة، لأن الملك قد أحبها كثيراً، لأنها كانت وريثته الوحيدة، وكان قد عاد إلى انكلترا في أيام عيد القديس ميكائيل، وجلب ابنتـه معه، بعد وقت قليل من فقـدانها -كما قلنا -زوجها الذي كـان رجلاً عظيماً، وقام بعـد ذلك بقليل، وبناء على أوامر الملك، جميع نبلاء انكلترا ونورماندي بتأدية يمين الولاء إليهـا، وكذلك إلى ستيفن كـونت بولون، ابن أديلا، أخت الملك، وكونت أوف بلوا.

الخلاف بين رئيسي أساقفة كانتربري ويورك

سنة ١١٢٧م، عقد الملك هنري بلاطة لعيد الميلاد في وندسور، حيث رغب ثورستـان رئيس أسـاقفـة يورك القيـام بتتـويج الملك، وذلك على الرغم من معارضـة رئيس أساقفة كـانتربري، لكنه منع من ذلك باتفاق عام، وجرى طرد حـامل صليبه، الذي حمل الصليب إلى بيعة الملك، هو والصليب الذي كان يحمله.

وعندما كان الملك في وندسور، جاءه رسول ليخبره بأن شارل كونت أوف فلاندرز، الذي كـان أعز أصدقائه لديه، قـد قتل بشكل خياني من قبل نبلائـه في كنيسة في بروج Bruges ، وأن ملك فرنســا قد أعطى الكونتيـة إلى وليم بن روبرت أخو هنري، أي ابن أخي هنري وعـدوه، وأن وليم قـد استقـر في الكونتيـة، وأنه قـد قتل قتلة شـارل مع مختلف أنواع العـذاب، وقد انزعج هنري تجاه ذلك، لأن الشـاب كان شجـاعاً ورجـلاً نشيطاً، وقـد هدد بطرد هنري من كل من نورمـاندي وانكلترا، التي قال بأنها من حقه وملكاً له بشرعة الوراثة.

ومات في الوقت نفسه رتشارد أسقف لندن، وخلفه غيلبرت العالمي، الذي تلقى السيامة من وليم، رئيس أساقفة كانتربري.

زواج الامبراطورة ماتيلدا من غيوفري كونت أوف أنجو

عزم في تلك السنة نفسها فولك كونت أوف أنجو على الذهاب إلى القدس، والاستقرار بها مدى الحياة، فسلم الكونتية إلى ابنه غيوفري، الذي كان لقبه بلانتغنت، وكان شاباً بارعاً جداً، وأخذ فولك طريقه إلى القدس، حيث وصلها سالماً، وفرح ملك القدس كثيراً بوصوله، وزوجه من كبرى بناته، مع توقع أن يغدو ملكاً من بعده شخصياً، وعندما بات ذلك معروفاً لدى الملك هنري، عبر إلى نورماندي، وزوج ابنته الامبراطورة إلى غيوفري كونت أنجو المتقدم ذكره.

وعبر في الوقت نفسه بوهيموند بن بوهيموند الكبير إلى سورية، وتسلم من ملك القدس بلدوين، ميراثه الأبوي، أي حكم أنطاكية، مع الابنة الثانية للملك لتكون زوجة له، واستولى بوهيموند بعد ذلك على كفر طاب، وقتل جميع الأتراك الذين وجدهم هناك.

سنة ١١٢٨م، فيها زحف هنري ملك انكلترا بطريقة هجومية إلى فرنسا، لأن لويس ملك فرنسا حمى كونت فلاندرز، الذي هو ابن أخيه وعدوه، وعسكر في هيسبارد Hespard (ربما ايبرنون Epernon) لمدة ثمانية أيام، وهو آمن مطمئن كأنه كان في ممتلكاته، وبهذا أرغم ملك فرنسا على رفض تقديم العون إلى كونت فلاندرز، وعندما كان الجيش هناك، سأل الملك واحداً من الرهبان -وكانت لديه معلومات كثيرة عن أمة الفرنسيين -عن نسب الملك لويس، فأجابه الراهب قائلاً: «أيها الأمير الأعظم قوة، إن الفرنسيين مثلهم مثل الشعوب الأوربية الأخرى يستمدون أصولهم من تروجان Trojans، وعندما حدّث الملك بحكاية نسب ملوك فرنسا كلها شروعاً من حكاية البيضتين، أضاف «كان فيليب ملك فرنسا، الذي هو والد لويس الذي هو في الحكم الآن، لو تمكن فقط من تقليد أسلافه بالقوة، لما كان بامكانك البقاء آمنا كما أنت الآن في مملكته»، فابتسم الملك وعاد إلى نورماندي.

وفي تلك الآونة جاء دوق اسمه ثيودورك من ألمانيا، بناء على دعوة من هنري، وأغار على فلاندرز، وكان معه بعض النبلاء الفلمنكيين، وزحف وليم لمواجهته على رأس جيش صغير، وتحارب الطرفان بشجاعة، لكن كونت فلاندرز سدّ عجز قواته بقوة غير مرئية، لأنه كان حاداً في استخدام السلاح، وقد حطم صفوف أعدائه، مثل البرق، بسيفه، وبناء عليه لم يعد بامكان أعدائه تحمل ثقل ضرباته، فأداروا ظهورهم وهربوا، وبذلك نال الكونت وليم النصر، لكن عندما كان يحاصر ايو Eu ، ضد الملك هنري، ومتوقعاً في اليوم التالي تسلمها بعد استسلامها، لأن العدو كان منهكاً تماما، مات الشاب من جرح خفيف في اليد تاركاً وراءه شهرة لاحدود لها.

ومات في السنة نفسها رالف أسقف درم، ووليم أسقف ونكستر، وأوصل المعلم هيوج دي سينت فكتور تاريخه إلى هذا التاريخ.

كيف عقد الملك هنري مجمعاً حول خليلات الكهنة

سنة ١١٢٩م، جلس هونوريوس خمس سنوات وشهرين على كرسي البابوية في روما، وفي السنة نفسها عقد الملك هنري مجمعاً كبيراً في لندن، في اليوم الأول من آب، حول منع الكهنة من اتخاذ خليلات، وكان موجوداً في هذا المجمع وليم رئيس أساقفة كانتربري، وثورستان رئيس أساقفة يورك، مع أساقفتهم المساعدين، وقد خدعهم جميعاً الملك هنري من خلال سذاجة رئيس أساقفة كانتربري، لأنهم منحوا الملك الحق القضائي على خليلات الكهنة، وهو أمر انتهى بشكل مهين، لأن الملك تسلم مبالغ كبيرة من المال من الكهنة لانقاذ خليلاتهم، ثم إنه، عندما صار الوقت متأخراً جداً، أسف الأساقفة من أجل الإجازة التي منحوها، وذلك أنه بات واضحاً للأعين كلها انخداع الأساقفة وظلم الشعب، وفي السنة نفسها صار هنري رئيس دير غلاستونبري أسقفاً لونكستر، وعُمل روبرت أسقفاً لهيرفور، وروبرت آخر (الصحيح

الاسكندر) أسقفاً للنكولن.

وفي هذه السنة، عندما كان فيليب ابن ملك فرنسا، الذي توج رسمياً ملكاً بعد وفاة أبيه، راكباً للتنزه في أحد الأيام، قابله خنزير، ركض بين أرجل حصانه، وبذلك رمي الملك الجديد أرضاً، فاندقت عنقه، ومات حيث هو.

وقدمت في هذه السنة نفسها أسراب عظيمة من الطيور الطائرة، حتى أنها احتلت شطراً كبيراً من السماء، ثم إنهم قسموا أنفسهم إلى مجموعات منفصلة، واشتبكوا في القتال وقتلوا بعضهم بعضاً بشكل مخيف، ولعل ذلك بشّر بالشقاق التي قام بين المرشحين للبابوية.

الشقاق بين البابوين

سنة ١١٣٠م، فيها مات البابا هونوريوس، وقام بين الرومان حزبين حول من سيخلفه، فقد اختار بعضهم انوسنت، واختار الآخرون أناكلت Anaclet ، وقد بقي الثاني في المدينة، بسبب إخوانه، الذين كانوا رجالاً لهم نفوذهم، ويمتلكون إمارة قلعة كرسنتيور Crescentior ، وقام انوسنت، المطرود من قبل الرومان، بعبور جبال الألب، ووصل إلى غاليا حيث جرى استقباله باحترام في تشارترز من قبل هنري ملك انكلترا، الذي احتفى به ثانية بعد عيد الفصح في روان، وتمكن بسلطانه من جعل الجميع يعترفون به بابا، ثم إنه بوساطة ملك انكلترا، جرى تتويج لويس، أخو الملك فيليب ملك فرنسا المتوفى، وكان التتويج في ريمز Rheims من قبل البابا، ثم إنه بعد هذا، في أيام عيد ميلاد القديسة مريم، أعطى الملك ابنته الامبراطورة زوجة إلى غيوفري، كونت أوف أنجو.

موت بوهيموند أمير أنطاكيه

في هذه السنة نفسها أغار رضوان أمير حلب على منطقة أنطاكية،

وزحف بوهيموند على رأس جيش للتصدي له، فأصيب ومات في كليكية، وفي ظل هذه الفاجعة الكبيرة طلب شعب أنطاكية المساعدة من ملك القدس، الذي زحف إلى هناك مسرعاً، فهزم رضوان وأعطى إلى ابنته بائنتها مدينتي: اللاذقية، وجبلة، بعدما ضمن حكم أنطاكية بعد موت بوهيموند إلى ابنته الصغيرة، عن طريق أداء يمين الولاء لها، وعاد بعد هذا إلى القدس.

موت بلدوين ملك القدس

سنة ١١٣١م، وقع الفارس الشجاع، بلدوين ملك القدس، مريضاً مرضاً شديداً، ولتوقعه اقتراب نهايته، دعا إليه ختنه وابنته مع ابنهما الذي كان آنذاك في الثانية من عمره، وكان أيضاً اسمه بلدوين، وأوكل إليهم العناية الكاملة والمسؤولية عن المملكة، وبعدما أكمل جميع واجباته التي كان عليه تأديتها كمسيحي، أسلم الروح، وذهب ليجني ثواباً سرمدياً مقابل جهوده التي بذلها، وليكون مع أسلافه الأتقياء، وخلفه ختنه فولك، وكان فارساً نبيلاً، وتسلم في يوم تمجيد الصليب تاج المملكة.

كيف أوجد ملك انكلترا أسقفية جديدة في كارلآيل

سنة ١١٣٢م، فيها أوجد هنري ملك انكلترا أسقفية جديدة في كارلآيل Carlisle على حدود انكلترا وغالووي Galloway، وعين فيها ليكون أسقفها الأول إيثلوولف Ethelwulf، رئيس رهبان أوسولد Oswald ، والذي كان متلقي اعترافاته، ووضع الأسقف على الفور أنظمة قانونية في الكنيسة، وأضفى عليها كثيراً من التشريفات.

وولد في السنة نفسها لغيوفري كونت أوف أنجو ولداً ذكراً من ابنة الملك هنري، أعطاه اسم هنري، ولدى سماع الملك بهذه الأخبار، وتلقيه لها، دعا إلى الاجتماع جميع أمراء مملكته وعين ابنته ووريثته لتكون

شخصياً وريثة لجميع ممتلكاته بعد وفاته.

ومات في السنة نفسها روبرت أسقف شستر، الذي كان لقبه بيكهام Peckham وهو الذي بإجازة حصل عليها من الملك نقل مقره إلى كوفنتري Coventry ، التي جعلها عاصمة لأسقفية ميرسيان Mercian ، وقد خلفه روجر رئيس شمامسة لنكولن، وامتلكت هذه الأسقفية حتى الوقت الحالي ثلاثة مقاعد هي: شستر، وليشفيلد Lich-field، وكوفنتري.

كيف قتل فولك ملك القدس ثلاثة آلاف من الترك

عبر في السنة نفسها جيشاً كبيراً من الترك نهر الفرات، وعسكر في منطقة أنطاكية، فدعا سكان تلك المدينة ملك القدس إلى مساعدتهم، وزحف فولك إلى هناك مع جيش، وانقض على الأعداء، فقتل ثلاثة آلاف منهم، ونجا البقية فراراً، وعاد رجالنا إلى أنطاكية مع غنائم كثيرة لم يعرفوا كيف يتصرفون بها، وفي تلك الآونة شيد بطريرك القدس حصناً قرب نوبه التي تعرف بشكل عام باسم بيت نوبه، وفي حوالي ذلك الحين تزوج ريموند كونت أوف بواتو Poictou من كونستانس ابنه بوهيموند الأصغر، وأعاد في هذه الآونة فولك ملك القدس، بناء مدينة بئر السبع القديمة، التي تبعد حوالي العشرين ميلاً عن عسقلان.

شفاء واحد من الكهنة من قبل أم الرب

سنة ١١٣٣م، كان فيها واحداً من العلماء قد أصيب بمرض شديد أقعده، وتمدد ليلاً ونهاراً وهو يصرخ كأنه امرأة في آلام المخاض، وهو يدعو الأم المقدسة للرب حتى تساعده، وفي إحدى الليالي عندما كان في عذاب شديد، شاهد العذراء الأم المباركة للرب، واقفة إلى جانبه برداء أبيض، وذلك استجابة لصلواته، وقد مدّت يدها نحوه، وارتجف

الرجل المريض، لكنه ما أن شعر بلمستها حتى استرد على الفور صحته كما كانت، ومات في السنة نفسها هيرفي أسقف إيلاي وعين الملك نيغل Nigel لخلافته، وأعطى الملك في الوقت نفسه أسقفية درم إلى مستشاره غيوفري.

كيف أنجبت الامبراطورة ماتيلدا ولداً اسمته غيوفري

سنة ١١٣٤م، فيها ولدت الامبراطورة ماتيلدا ولداً أسمته غيوفري، ونتيجة لذلك وبسببه عبر الملك هنري إلى نورماندي، وبقي هناك لبعض الوقت بسرور عظيم بشأن حفيديه، ومات في تلك الآونة للانداف Llandaff، وهو على طريقه إلى روما، وغيلبرت أسقف لندن، ومات في السنة نفسها روبرت كورتهوز Curthose، أخو الملك هنري، ودفن في غلوستر، وتمددت في هذه الآونة الامبراطورة مريضة لوقت طويل، بسبب المصاعب التي عانت منها أثناء ولادتها لابنها، وقدمت هذه العقيلة التقية كثيراً من الأعطيات إلى الأرامل، واليتامى، والكنائس، والديرة، فنجت من خطر الموت.

موت هنري ملك انكلترا

سنة ١١٣٥م، فيها عندما كان الملك هنري في نورماندي، عاد في أحد الأيام من الصيد، فتوقف في سينت دنس Denys ، في غابة الأسود، ليأكل بعض الجلكى، وهو سمك (كالأنقليس) كان مغرماً به كثيراً، مع أنه كان لايوافقه، وغالباً ماحذره الأطباء من أكل هذا النوع من السمك، لكنه لم يكن يصغي إلى نصائحهم، وجعل الطعام دم الرجل المسن يرتجف بشكل مميت ويشعر بقشعريرة شديدة سببت له مرضاً مفاجئاً وشديداً، وقاومت الطبيعة ضده، فكان أن عانى من حمى حادة، وذلك في محاولة لمقاومة أسوأ مؤثرات المرض، ولم يستطع هذا الملك العظيم تحمل قوة علته، فمات في اليوم الأول من كانون الأول، بعدما

حكم خمساً وثلاثين سنة وثلاثة أشهر، وقد بشّرت بموته ريح عنيفة، في مساء عيد الرسولين سمعان ويهوذا، هدمت الأبراج، والبيوت، واقتلعت الأشجار من كل جانب، وانخسف القمر أيضاً في السنة نفسها في اليوم التاسع والعشرين من تموز، وكان هذا الملك قد أسس ديرة: ردنغ، وسسرينستر، وبري `Pre قرب روان، ومورتيمير -Mor timer، كما شيد خمساً وعشرين بلدة فخمة إلى جانب الأبراج والقلاع، وبقي جسد الملك ملقى فوق الأرض في روان لمدة طويلة، حيث جرى دفن أحشائه، ومخه وعينيه، وجرى تقطيع بقية جسد الملك بالسكاكين، وجرى تمليحه لقتل الروائح الكريهة التي كانت عظيمة، وقد أزعجت كل من اقترب منها، وقد لف بجلد ثور، وجرى دفع مبلغ كبير من المال إلى الطبيب لكي يفتح رأسه بفأس، وليخرج مخه بعدما فسد كثيراً، ومع ذلك جرى لف الرأس بعدة مناديل، وصار مسماً برائحة قاتلة، وهكذا كان المال الذي تسلمه قاتلاً له، وبذلك كان آخر ضحايا الملك هنري، ذلك أنه كان قد قتل عدداً كبيراً قبله، وبعد ذلك صدر على الفور من الجسد من جلد الثور سائل ودم، تولى جمعه الخدم في طشت، وكان ذلك أمراً مرعباً للذين رأوه، وأخيراً جرى حمل جسد الملك إلى انكلترا، ودفن وسط أبهة ملكية في يوم عيد ميلاده، في ردنغ، في الكنيسة التي كان قد أسسها شخصياً، وكان رؤساء الأساقفة والأساقفة ونبلاء المملكة حضوراً أثناء الدفن.

كيف جرى تتويج ستيفن بن ثيوبولد كونت بلوا ملكاً

عندما مات هنري، وقبل أن يجرى دفنه -كما تحدثت -قام حفيده ستيفن، عن طريق اخته أديلا، زوجة ثيوبولد كونت بولون، وأخو ثيوبولد الأصغر، كونت بلوا، بالاستيلاء على تاج المملكة، مع أنه كان قد أدى قسم الولاء للامبراطورة، لكنه أغوي من قبل الرب، وكان رجلاً صاحب شجاعة كبيرة، ونشاط عظيم، ذلك أنه عندما اجتمع

نبلاء المملكة في لندن، وعد بوجوب اصلاح القوانين بما يرضي كل واحد منهم، هذا وتولى وليم رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان أول النبـــلاء في تأدية يمين الولاء إلى الامبراطورة كملكة لانكلترا، تولى تكريس ستيفن ليكون ملكاً، وخلاصة الأمر أن جميع الأساقفة، والإيرلات، والبارونات، الذين كانوا قد أقسموا يمين الولاء لابنة الملك ووريثته، قدموا المساندة إلى الملك ستيفن، قائلين بأنه من العار أن يخضع مثل هذا العدد من النبلاء أنفسهم إلى امرأة، وأقسم في الوقت نفسه هيوج بيغود، قهرمان الملك هنري، وشهد أمام رئيس أساقفة كانتربري، أنه عندما كان الملك على فراش الموت، حرم الامبراطورة وجعل ستيفن خليفته، وبناء عليه تسلم الملك الجديد تاج المملكة من يدي وليم رئيس أساقفة كانتربري، في وستمنستر، وسط هتافات الشعب وتأييده الحار، وكان ذلك في يوم عيد الشهيد الرائد، القديس اسطفان، وأقيمت مائدة ملكية في غاية الأبهة.

وأكملت أعمال التتويج بأبهة عظيمة، وعندما انتهت مراسم تقديم الولاء، ذهب الملك ستيفن إلى أكسفورد حيث أكد وعوده التي عملها للرب، وللشعب والكنيسة، في يوم التتويج، وهي كمايلي: فقد وعد أولاً، بعد أداء اليمين، أنه عندما يموت أسقف، لن يحتفظ بمقره بين يديه، بل سيوافق على الفورعلى إجراء انتخاب قانوني، وتكريس كل منتخب من دون تأخير، ووعد ثانياً أنه سوف يبقي بين يديه الغابات التي هي ليست ملكاً لرجل دين أو رجل علماني، وأن يحذو في ذلك حذو الملك هنري الذي كان يقاضيهم كل سنة إذا ما أخذوا قط لحم طرائد في غاباتهم، أو إذا تولوا نقلهم أو استخدامهم لتأمين حاجياتهم، واستمر هذا النوع من المقاضاة طويلاً، ومورس بشكل ظالم، ذلك أنه كان إذا مانظر المشرفون الملكيون عن بعد إلى غابة كانت ملكاً إلى أي واحد كانوا يعرفون بأنه رجل صاحب أموال، كانوا على الفور يقدمون

شكوى بوجود تجاوزات، سواء أكان هذا صحيحاً أم لا، وذلك بغية إرغام الملاك، على تخليص غابته دونها استحقاق، وثالثا وعد بأن الشلنين (danegelt) اللذان كانا يدفعان كل سنة عن كل هايد hide من الأرض، وهو المبلغ الذي كان أسلافه يتسلمونه كل سنة، وعد بإلغاء ذلك إلى الأبد، ولقد كانت هذه هي الأمور المحددة، وكانت هناك أمور عامة أخرى وعد بمراعاتها، غير أنه لم يحافظ على أي من هذه الوعود، مع أنه قطعها على نفسه أمام الرب.

حول التحالف بين الملك ستيفن وملك الاسكوتلنديين

وقام في تلك الآونة، داوود ملك الاسكوتلنديين، الذي كان قد أقسم يمين الولاء، إلى الامبراطورة، بغزو انكلترا، واستولى على كارلآيل، ونيوكاسل -على -التاين Tyne، ووضع حاميات عسكرية فيها، ولذلك قاد ستيفن ضده جيشاً كبيراً، والتقاه في درم، حيث عقدت معاهدة بينهما، بموجبها أعاد الملك داوود نيوكاسل، واحتفظ بكارلآيل، وذلك بموافقة من ستيفن، ولم يقدم الملك الاسكوتلندي يمين الولاء إلى الملك ستيفن، لأنه كان قد أقسم على تقديم الولاء إلى ابنة خاله الملك هنري، ومع ذلك اعترف الملك داوود بأنه من أتباع الملك ستيفن، وتلقى مقابل ذلك منطقة هنتنغدون Hun-tingdon ملكاً له ولورثته من بعده إلى الأبد.

ثم عاد الملك إلى وطنه، وعقد بلاطه في لندن، أثناء الاحتفالات بعيد الفصح، بأبهة أعظم مما عرف قط من قبل، بسبب وفرة الذهب، والفضة والمجوهرات، والملابس الثمينة، وأشيع في يوم عيد صعود الرب، في جميع أنحاء انكلترا بأن الملك قد مات، وقد سبب هذا اضطراباً عظيماً في المملكة، ولذلك استولى هيوج بيغود على قلعة نوروك، وأعلن أنه لن يسلمها إلى أحد سوى الملك، لابل أعلن إنه غير مستعد للتخلي عنها حتى إليه، وبدأت الخيانة تنتشر الآن بين النورمان، لكن الملك قاومهم

برجولة، واستولى على قلعة بادنغتون، التي كانت ملكاً لواحد اسمه روبرت، كان متمرداً، وقد زحف من هناك إلى إكستير، التي وقفت ضده وقاومته بوساطة بلدوين دي رفرRivers، وتمكن بصعوبة من الاستيلاء على كل من المدينة والقلعة، وقد سمح للمتمردين بناء على نصيحة المستشارين الأشرار بالذهاب دون عقاب، ولذلك ثاروا ثانية، واستطاعوا بشكل خياني تحصين عدد من القلاع ضده، وسار الملك من اكستير إلى جزيرة وايت، التي انتزعها من بلدوين دي رفر المتقدم ذكره، ونفاه إلى انكلترا، وبعد هذه النجاحات ذهب الملك إلى الصيد في برانتون ليس بعيداً عن هنتنغدون، حيث دخل إلى غابات نبلائه، واصطاد خارقاً بذلك العهد الذي قطعه على نفسه للرب وللشعب.

كيف أخضع غيوفري كونت أوف أنجو بعض البلدات في نورماندي

وتمكن في تلك الآونة غيوفري كونت أوف أنجو وزوجته ماتيلدا، من الاستيلاء بسهولة على بعض القلاع في نورماندي، مع جميع المزارع التي أبقاها الملك بيده، وذلك عندما طردا وليم تيلفاز Talevaz ملاكهم السالف، وقدما في شهر آب إلى روان حيث ولدت ماتيلدا للكونت غيوفري ولداً ثالثاً، سمته وليم، وغضب نبلاء نورماندي من هذا، فبعثوا إلى ثيوبولد كونت أوف بلوا، الذي كان الأخ الأكبر للملك ستيفن، ودعوه للقدوم ومساعدتهم على استرداد نورماندي، ووصل ثيوبولد إلى ليزكس Lisieux في صوم الشهر العاشر، وهناك سمع بأن أخاه ستيفن قد توج ملكاً على انكلترا، وعندها تخلى روبرت ايرل أوف غلوستر، عن فالي Falaise وسلمها إلى ثيوبولد، وكان قد أخذ أولاً مبلغاً كبيراً من المال من خزانة الملك هنري.

ومات في السنة نفسها وليم رئيس أساقفة كانتربري، ووليم أسقف

إكستر، وجون أسقف روكستر.

كيف تلقى ملك فرنسا ولاء يوستاس ابن الملك ستيفن عن نورماندي

سنة ١١٣٧م، فيها عبر الملك ستيفن إلى نورماندي، فهرب كونت أوف أنجو من أمامه، مما ساعد على عمله العسكري، فنجح في كل شيء تولاه، وهزم أعداءه، واستولى على قلاعهم، وبرهن على أنه شخصياً من أكثر الرجال تميزا، وعمل معاهده مع ملك فرنسا، الذي إليه قدم ابنه يوستاس الولاء من أجل نورماندي، ولدى مشاهدة غيوفري كونت أوف أنجو لهذا، وهو الذي سلف لستيفن أن قدم لزوجته الولاء، طلب منه اعادة انكلترا، ولكن بما أن القوة الملكية كانت متفوقة عليه كثيراً، وافق على عقد هدنة، بموجبها تسلم من الملك خمسة آلاف مارك سنويا شرط الحفاظ على السلام، أما بالنسبة لثيوبولد أخو الملك، وكونت أوف بلوا، فقد اشتكى بأن ستيفن الذي كان الأخ الأصغر، قد استولى على تاج انكلترا بشكل غير عادل، ولذلك وافق الملك على أن يدفع له سنويا مبلغ ألفي مارك، وهكذا افترق الأخوان على وفاق، وعاد ستيفن بعد هذه النجاحات إلى انكلترا.

ومات في السنة نفسها لويس ملك فرنسا، وقد خلفه ابنه لويس، الذي تزوج من إليانور ابنة دوق أكوتين، ومنها ولد له ابنتان، الكبرى منهن تزوجت من هنري أكبر أولاد كونت فلاندرز، وتزوجت الصغرى من ثيوبولد الابن الأصغر للأمير نفسه.

حول عداء الاسكوتلنديين نحو الملك ستيفن

سنة ١١٣٨م، فيها حصل كونراد على الامبراطورية الرومانية، وحكم لمدة خمس عشرة سنة، وفي السنة نفسها، حاصر الملك ستيفن، في يوم عيد ميلاده قلعة بدفورد Bedford قائلاً لاينبغي ترك عدو واحد يرتاح

حتى لمدة ساعة»، لكنه لم يستطع اخضاع القلعة، لأن الاسكوتلنديين قادوا مع ملكهم جيشاً إلى نورثأمبرلاند Northumberland، واقترفوا أعمالاً شائنة جداً، وبحكم أن ملكهم كان قد أقسم يمين الولاء إلى الامبراطورة، شرعوا الآن ينتقمون لصالح قضيتها، حيث كانوا يستخرجون الأطفال من أرحام أمهاتهم، ويطوحون بهم على أسنة رماحهم، وقد قتلوا الكهنة على المذابح، وقطعوا رؤوس الصلبان ووضعوهم على جثث الذين كانت رؤوسهم مقطوعة، ووضعوا مكانهم رؤوس ضحاياهم الدموية، وكانوا حيثما ذهبوا هناك مشهد واحد من الوحشية والرعب، والنساء يولولن، والشيوخ يبكون، وكل حي هو في رعب شديد.

وبناء عليه، زحف الملك ستيفن مع عساكره نحو اسكوتلندا، لكن قبل أن يصل إلى تلك البلاد عاد الملك الاسكوتلندي إلى مملكته، وانسحب إلى معاقله، وتولى الملك ستيفن نهب جنوب اسكوتلندا، ثم عاد إلى انكلترا، وكان في ذلك الوقت غضب شديد ضده بين النبلاء، حتى أن الاضطراب أحاط به من كل جانب، حيث استولى وليم تالبوت على قلعة هيرفورد ضده،واستولى أيضاً روبرت ايرل غلوستر -وهو ابن غير شرعي للملك هنري -على قلعتي ليدز وبرستول، واستولى وليم لوفل Luvell على قلعة كاري Cary ، واستولى باغانل Paganel على لودلو Ludlow، واستولى وليم دي موين Moiun على قلعة دنستر Dunster ، واستولى روبرت أوف لنكولن على وورهام Warham، واستولى يوستاس فتز-جون على ملتون، واستولى وليم فتز -ألان Alan على شروبري Shrewbury ، وقام الملك ستيفن بالاستيلاء على آخر هذه القلاع تسمية بالقوة، وشنق بعضاً من حاميتها، وعندما بلغ ذلك إلى مسامع وولكلاين Walkeline الذي كان مستوليا على قلعة دوفر، سلمها على الفور إلى الملكة التي كانت تحاصرها.

كيف أغار ملك اسكوتلندا ثانية على نورثأمبرلاند

عندما كان الملك ستيفن مشغولا على هذه الصورة في الجنوب من انكلترا، قاد داوود ملك اسكوتلندا جيشاً ضخماً إلى نورثأمبرلاند، وواجهه هنا النبلاء الشماليون، فتمكنوا بقيادة ثورستان رئيس أساقفة يورك من غرس العلم الملكي في ألفيرتون (North Alerton) Alver-ton ، وبرجولة قاوموا الأعداء، وكان الرجال الرئيسيون الذين شاركوا في هذا القتال هم: وليم ايرل أوف ألبمارلي Albemarle، ووليم أوف نوتنغهام، وولتر إسبك Espec ، وغلبرت دي لاسي، وحال المرض دون حضور رئيس الأساقفة، غير أنه أرسل مكانه رالف أسقف درم، حتى يذكّر الناس بواجباتهم، وكان كلامه الذي وجهه إليهم من العالي إلى الداني كمايلي: «يانبلاء انكلترا الشجعان، أيها النورمان المولد، الذين ارتجفت شجاعة فرنسا أمام قوتهم، والذين بحدة أسلحتهم أخضعوا انكلترا، والذين أيضاً تحت حكومتهم ازدهرت أبوليا الغنية ثانية، والقدس الشهيرة جداً، وأنطاكية الواسعة الشهرة خضعا معا أمامكم، والآن اسكوتلندا، التي هي بالشرع خاضعة لكم، تجرأت على مقاومتكم، وعرضت حماقاتها، التي غير مؤيدة بأسلحتها، وهي موائمة -كما هي- للخصام وليس للقتال والمعركة، وعلى هذا لاتكونوا خائفين، بل كونوا بالحري غاضبين، من أن هؤلاء الذين دوما طاردناهم وقهرناهم دوماً في بلادهم، يقومون الآن بخرق النظام المعتاد، وقد طلبونا بشكل أحمق على أراضينا، وإنني أخبركم، بصفتي أسقفكم، بأن هذا قد عمل بمثابة تحذير رباني لكم، بأن هؤلاء الذين انتهكوا حرمة معابد الرب، ودنسوا المذابح، وقتلوا كهنته، ولم يوفروا الأطفال ولا النساء الحوامل بالأطفال، يمكن أن يتلقوا على هذه الأرض العقوبة التي يستحقونها على جرائمهم، وعلى هذا كونوا شجعانا أيها المقاتلون البارعون، وقوموا بوساطة الشجاعة العائدة إلى

جنسكم، لابل بمعرفتكم المتقدمة بالرب، وصدوا هؤلاء الأعداء من الغربان، الذين لايعرفون حتى كيف يسلحون أنفسهم في يوم المعركة، ولاتتطلعوا إلى أية احتمالات مشكوك فيها كما يحدث في الحرب، فصدوركم مغطاة بدروعكم الطويلة السابغة، وعلى رؤوسكم خوذكم، وعلى أرجلكم ساترات السوق، وأجسادكم كلها محمية بترستكم، وبذلك لن يجد العدو أي مكان يضربكم به، لأنه يراكم وأنتم محاطون بالسلاح من كل جانب، فلماذا أنتم مترددون تجاه غير المسلحين وغير أهل الحرب؟ فالعدو يزحف بغير انتظام، ولا أريد أن أقول أكثر، إن الأعداء يتدفقون نحوكم بصورة فوضوية، وهذا أمر يفرحني، ثم إن كل واحد منكم يسقط وهو يقاتل في سبيل الرب، وفي سبيل بلادكم، نحن نحلله من العقوبات المستحقة على ذنوبه، وذلك باسم الآب، الذي قتل الأعداء مخلوقاته بشكل مخجل ومريع، وباسم الابن الذي دنسوا مذابحه، وباسم الروح القدس، الذي أزالو نعمته باقتراف مثل هذه الكمية من أعمال الشر»، وردّ الجيش الانكليزي على هذا الخطاب بالصراخ عالياً: آمين، آمين، ورددت الجبال والروابي أصداء ذلك.

حول المعركة التي نشبت بين السكوتلنديين والانكليز

ولدى سماع الاسكوتلنديين الصراخ، قاموا مثل النساء برفع صرخات حربهم «ألبان»، «ألبان» ثم مالبثوا أن اندفعوا بشكل مخيف، واشتبك الجيشان بالقتال، وقامت كتلة من الرجال من اللوثيين Loth-ian ، كانوا حصلوا من الملك على شرف تسديد الضربة الأولى،قاموا بالحملة باقدام على الفرسان الانكليز الدارعين، وجاءت حملتهم برمي الحراب، وباستخدام الرماح الطويلة، ولقد سقطوا على الانكليز مثل سقوطهم على سور، لأن الانكليز بقيوا دونما حراك، ثم اختلط الرماة الانكليز مع الفرسان وصبوا نشابهم مثل السحاب على الاسكوتلنديين، وأصابوا الذين لم يكونوا محميين بالدروع، وفي ذلك الحين تحلقت

القوات الانكليزيه كلها حول العلم، ومعها فخار ومجد النورمانديين، وبقيوا صامدين لم تتخلخل صفوفهم، وسقط قائد الرجال اللوثيين قتيلاً لإصابته بنشابة، وشرع رجاله بالفرار، لأن الرب العلي الأعلى كان غاضباً عليهم، ولذلك تدمرت قواهم بالمعركة مثل بيت للعنكبوت، وهربت الكتلة الأساسية من الاسكوتلنديين، وكانوا يقاتلون في جانب آخر من أرض المعركة، وجاء ذلك بعد رؤيتهم رفاقهم ينهزمون، فوقتها فقدوا شجاعتهم، وتراجعوا أيضاً، وبدأت عساكر الملك التي كانت من عشائر مختلفة، أولاً بالفرار بشكل فردي، ثم نكصوا على أعقابهم بشكل جماعي، مع أن الملك وقف في مكانه ثابتاً، لكن رفاقه أرغموه على امتطاء ظهر حصانه والفرار، وفي الوقت نفسه لم يعبأ ابنه الشجاع بفرار الآخرين، بل انصرف نحو نيل المجد، فحمل على صفوف العدو بتصميم وشجاعة واصرار، مع أن رجاله لم يكن بمقدورهم إلحاق الأذى بالفرسان الذين كانوا محميين بدروعهم، وقد أرغموا أخيراً على الفرار، لكن من دون، سفك عظيم للدماء، وجرى طردهم بشكل مهين وفروا في كل اتجاه، ولقد روي بأن أحد عشر ألفاً من الاسكوتلنديين قد قتلوا، إلى جانب الذين أصيبوا بجراحات مميتة في حقول القمح والغابات، وانتصر جيشنا بسرور مع قليل جداً من الخسائر بالحياة، ومن بين جميع الفرسان، كان أخو غيلبرت دي لاسي Lacy الوحيد الذي قتل، وجرى القتال في هذه المعركة في شهر آب، من قبل الناس الذين سكنوا في المنطقة وراء الهمبر Humber.

وفي هذه السنة نفسها، أرغم في شهر تشرين الأول كونت أوف أنجو سكان أورسمي Orismes على الاستسلام، كما أنه ألقى الحصار على بيوكس Bayeux وفالي Falaise.

كيف جرى انتخاب ثيوبولد رئيس أساقفة لكانتربري

وقدم في هذه السنة نفسها ألبيرك Alberic أسقف أوستيا Ostia،

ومندوب الكنيسة الرومانية، إلى انكلترا، وعقد مجمعاً في لندن في أيام عيد الميلاد، وذلك في كنيسة القديس بولص، وهناك قام بأمر من المندوب البابوي هنري أسقف ونكستر برسم رتشارد دي بيومي Beaumeisشماساً، وفي اليوم نفسه، وفي أثناء القيام بأعمال السيامة جرى انتخاب ثيوبولد رئيس دير بك، من قبل الأساقفة، رئيساً لأساقفة كانتربري، وكان إرميا رئيس رهبان كانتبري بين الحضور، وبعدما جرت سيامته من قبل النائب البابوي ذهب إلى روما حيث تسلم الطيلسان من البابا إنوسنت.

كيف غزا الملك ستيفن سكوتلندا وعاد مع ابن ملك الاسكوتلنديين رهينة

سنة ١١٣٩م، استولى فيها ستيفن بعد يوم الميلاد على قلعة ليد، وذهب بعد ذلك إلى اسكوتلندا وبالسيف والنار، أرغم ملك تلك البلاد على أن يتصالح معه ويقبل بشروطه، ويعطيه ابنه هنري رهينة، ثم عاد ستيفن إلى انكلترا، جالباً الشاب معه، وقام على الفور بإلقاء الحصار على قلعة لودلو Ludlow ، حيث جرى سحب هنري هذا من على ظهر حصانه، ورفعه بوساطة كلاب حديدي من قبل المحاصرين، حتى كادوا يرفعونه إلى القلعة، لكن الملك ستيفن، تصرف من جانبه كفارس شجاع فأنقذه بيديه، وما أن استسلمت القلعة، حتى زحف ستيفن إلى أكسفورد، وقام بشكل قبيح بأن اعتقل في بلاطه: روجر أسقف سالسبري، والاسكندر أسقف لنكولن، وكان حفيده، مع أنهما لم يرفضا تسوية المسائل عن طريق العدالة، وألقي بالاسكندر في السجن، وجرى حمل أسقف سالسبري من قبل الملك إلى ديفيزي Devizes قلعته، التي لم يكن هناك قلعة أجمل منها في أوربا، وأبقي هنا من دون طعام، وجرى تهديد ابنه الذي كان مستشاراً بالمشنقة، وبهذه الوسائط حصل الملك على استسلام القلعة، وحصل بعد ذلك مباشرة على استسلام قلعة

شيربيرنSherburne بالطريقة نفسها، وبعدما وضع أموال الأسقف بين يديه، حصل على يدكونستانس، أخت لويس ملك فرنسا، لتكون زوجة لابنه يوستاس، ثم عاد من هناك، حيث عامل أسقف لنكولن وفق الطريقة نفسها حتى سلم إليه قلعتي: نيوآرك Newark، ولاتفورد Latford.

كيف قدمت ماتيلدا الامبراطورة السالفة إلى انكلترا

وفي تلك الآونة قدمت إلى انكلترا ماتيلدا، ابنة الملك هنري، والتي كانت من قبل امبراطورة، والتي إليها جرى ضمان المملكة عن طريق الأيمان، وقدم معها أخوها روبرت، وقد رست في آروندیل Arundel، حيث استقبلت بالسرور والترحاب والهتافات من قبل وليم دي أوبني Aubeny زوج الملكة أليس، التي كان في بائنتها من الملك هنري قلعة وايرليه آروندیل، وزحف روبرت ايرل غلوستر مع عشرة فرسان، وعشرة رماة فرسان، في وسط ممتلكات الملك ستيفن إلى وولنغفود Wallingford ومن هناك إلى غلوستر، حيث أعلن لبرين فتز -ايرل Brian Fitz-Earl ، وإلى ميلو أوف غلوستر بأن الامبراطوة قد نزلت إلى اليابسة، وهي الآن موجودة في آروندیل مع زوجته، ومسؤولين آخرين، وفرح الفارسان فرحاً شديداً لدى سماع هذه الأخبار، واستعدا للقتال بشكل فعال إلى جانبها.

ومات في السنة نفسها روجر أسقف سالسبري، جزئيا بسبب التقدم بالسن، وجزئيا بسبب الأسى، وبعد وفاته نفى الملك نيغل Nigel أسقف إيلاي، لأنه كان حفيد روجر أسقف سالسبري، الذي نتيجة لاجحافه به اقتيد إلى دماره، فمنذ ذلك الحين لم تعد تعقد هناك بلاطات، أو احتفالات مهيبة في انكلترا، كما أنه لم يعد هناك شيء اسمه سلام، فقد كان في كل مكان قتل، وحرائق، واضطراب، ونحيب، ورعب، في كل موضع، وأيضا مات ثورستان رئيس أساقفة يورك، وقد

خلفه وليم، خازن الكنيسة نفسها.

كيف حاصر ستيفن قلعة لنكولن

سنة ١١٤٠، فيها ألقى الملك ستيفن قبل عيد الميلاد، الحصار على لنكولن، وهي القلعة التي كان رالف ايرل شستر قد تسلمها لتوه، وقد دافع عن المدينة ضد الملك حتى عيد طهارة العذراء المباركة، ثم إن الايرل المتقدم الذكر مع روبرت ايرل غلوستر، ابن الملك هنري وختنه قدموا إلى لنكولن مع جيش كبير لرفع، الحصار، وبجرأه عبروا مستنقعاً كان تقريبا متعذر العبور، وقاموا بصف قواتهم واشتبكوا مع الملك في القتال، وكان الإيرل رجلاً صاحب قوة خارقة، وهو الذي تولى قيادة الصف الأول، وكان على رأس الصف الثاني الذين كان ستيفن قد نفاهم، وقاد الصف الثالث روبرت ايرل غلوستر، واستمع في الوقت نفسه الملك ستيفن إلى قداس مع كثير من الخشوع، وعندما وضع أثناء القداس بين يدي الاسقف الاسكندر حامل شمعة ملكي، كما هي العادة ليكون تقدمة للرب، انكسر فجأة وانطفأت الشمعة، مماسبب الحزن للملك، ووقع القربان أيضاً على المذبح مع جسد المسيح ، بسبب انقطاع خيط، وكان ذلك نذير شؤم عن دمار الملك.

وقام ستيفن، وهو واقف على قدميه بتعبئة قواته بعناية كبيرة، وصف من حوله ببراعة جميع رجاله بدروعهم من دون خيولهم، لكنه صف ايرلاته مع خيولهم للقتال على شكل رتلين، وكان جيش الايرلات المتمردين صغيراً جداً، بينما كان جيش الملك كبيراً جداً، ومتحد تحت علم واحد، وفي بداية القتال حمل المنفيون الذين كانوا في الساقة على جيش الملك بشدة متناهية، وكان في المكان الذي تعرض للحملة: ايرل ألان، وروبرت ايرل دي ملّنت Mellent ، وهيوج بيغود، وإيرل سيمون، ايرل شرقي أنجليا Anglia، وإيرل وورني Warenne، وقد تعرض بعض هؤلاء للقتل، وبعضهم للأسر، وهرب الباقون، وحملت

الفرقـة التي كانت بقيـادة ايرل أوف ألبمارل Albemarle، ووليم أوف يبري Ypres، على الويلزيين، الذين تقدمـوا من على المجنبة، وهزمتهم، لكن ايرل شستر هاجم هذه الفـرقـة، وهزمها مثلما هزم البقيـة، وبذلك هرب جميع فرسان الملك، وحـدث أن وليم أوف يبري الذي كان رجلاً يحمل مرتبة إيرل، مع آخرين لم يستطيعوا الفـرار فأخذوا أسرى وألقي بهم في السجن، ووقعت هنا وقـائع مـدهشـة، فقـد بقي الملك ستيفن كالأسد المزمجر وحـده في الميدان، ومامن واحد تجرأ على منـازلته، وكان يصك أسنانه ويخرج الزبد من فمـه وكأنه خنزير جبلي، وقد صـد ببلطة حربه العسـاكر التي حملت عليه، ونال شرفاً مـؤبداً، بالتدمير الذي أنزله بمقـدمي أعـدائـه، ولوكان هناك مـائـة مثله، لما كـان من الممكن أخـذه أسيراً، ذلك أنه عندما كان وحيداً وجد نفسه في ضيق في مواجهة حشد أعدائـه، ولذلك أخذ أسيراً في يوم عيد طهـارة العذراء المباركـة، واقتيد إلى أمام الامبراطورة التي سجنته في قلعة برستول.

كيف جرى الاعتراف بالامبراطورة ماتيلدا من قبل كثير من الناس سيدة لهم

ونتيجة لهذا النجـاح جرى الاعتراف بسيـادة الامبراطورة ماتيلدا من قبل جميع شعب انكلترا تقـريبـاً، باستثناء رجـال كنت، حيث استمـرت ملكة الملك ستيفن ووليـم أوف يبري يقـاتلـون ضـدها بجميع قـواهم، وبعد ذلك من قبل وليم أسقف ونكستر وسكان لندن، وقد حدث بعد ذلك إمـا عن طريق اقتراح قـوم مخادعين، أو بحكمـة من الرب، أن الامبراطورة طـردت من قبل اللندنيين، فـأعطت أوامـر بوضـع الملك ستيفن في أغلال الحديد، ثم إنها قامت بعد بضعة أيام أقامتهم مع خالها ملك الاسكوتلنديين وأخيهـا الايرل روبرت وعساكـر أخرى، بحصـار برج أسقـف ونكستر، لكن أرسـل هذا الأسقـف إلى الملكة، وإلى وليـم أوف يبري مع النبـلاء الآخـريـن الذين آثروا الملك ستيفـن، وجمعهم

لمساعدته، وقام بهجوم حاد على جيش الامبراطورة، وهزم القوات التي كانت تحاصر برجه، وكان بين من أسرهم أثناء المطاردة الايرل روبرت أخو الامبراطورة، الذي كان مسؤولاً عن سجن الملك ستيفن، وبأسره فقط توفرت فرصة لإطلاق سراح الملك، وأسر الايرل في يوم عيد تمجيد الصليب المقدس، وعلى الفور جرت مبادلة الملك به، وبذلك استرد كلاهما حريتهما، وفي تلك الآونة عمل وولران Waleran كونت دي مولانت Meulant، الذي كان على رأس النبلاء النورمان، معاهدة مع غيوفري كونت أوف أنجو، متخلياً له عن قلعتي: مونتفورت، وفالي Falaise، وهكذا استسلم جميع النبلاء إليه من السين حتى حدود رايل Risle، وقدموا الولاء له، ومات في السنة نفسها غيلبرت أسقف لندن، والذي كان لقبه العالمي، وقد خلفه روبرت دي سيغللو Sigillo.

كيف اقتاد الايرل روبرت بعض الرهائن إلى نورماندي

سنة ١١٤١م، فيها عبر روبرت ايرل غلوستر إلى نورماندي، آخذا معه بعض الرهائن من النبلاء الانكليز، الذين آثروا كونت أوف آنجو، حتى يمكنه الاحتفاظ بهم، وعبر أيضاً حتى يتمكن من اخضاع المملكة، وهذا مارفض الكونت فعله لبعض الوقت، وذلك بسبب عصيان أهل أنجو مع رعاياه الآخرين الذين ضايقوه، ومع ذلك وضع بين يدي الايرل هنري أكبر أولاده، ليأخذه معه لدى عودته إلى انكلترا، وعندما كان الايرل روبرت مايزال في نورماندي، استولى على قلاع أوني Au-nay، ومورتين Mortaigne، وتوشبري Teuchebrai، وسيرنس Cerences، وكانوا جميعاً ملكاً لكونت دي مورتين، واستسلم له طواعيه سكان: أفرانش Avranches، وقنسطنطين Constantine، وفي السنة نفسها عندما كان الملك ستيفن يقوم بتحصين قلعة في ونكستر، هاجمه جيش كبير عائد للحزب المضاد، وأرغمه على الفرار،(كذا: وهذا وقع عند ولتون سنة ١١٤٣)، وأخذ في هذه المعركة وليم

مــارتل أسيراً، وكــان قهــرمــان الملك ستيفــن، ووضع في السجن في وولنغفـورد Wallingford ، تحت حـراسـة بـرين فتـــزـــ ايرل، ولم يطلق سراحـه ثانية حتى أعطى إلى الامبراطورة قلعـة شيربورن Sher-bourne، كثمن لاطلاق سراحه.

كيف حوصرت الامبراطورة ماتيلدا وكيف نجت بخداعها الملك ستيفن

وفي تلك الأثناء سمع الملك ستيفـن بأن الامبراطورة كـانت في قلعـة أكسفورد مع حاشية صغيرة، فحشـد جيشاً كبيراً، وزحف إلى هناك بعد عيد القـديس ميكائيل، وحاصر تلك القلعـة حتى عيد الميـلاد، وعندما رأت الامبراطورة أن مامن أحد من أصدقائها قدم لمساعدتها على الرغم من مضي وقت طويل، لعبت خـدعـة نسائيـة مع الملك ستيفن، ونجت أثناء الليل عبر نهر التايمز الذي كـان متجلداً، حيث لبست ثياباً بيضاء، وكـان معها عـدد قليل من الأعـوان، وهكذا نجت لأنه لم يكن بامكان الأعـداء رؤيتها، لأن لون الثلج يزيغ العيـون، وهناك تشـابه باللون بينه وبين ملابسها، وبناء عليه هربت إلى قلعـة وولنغفورد، وعهدت بنفسها إلى برين فتزـــ ايرل، وعلى هذا الأسـاس استسلمت قلعة أكسفورد إلى الملك.

المجمع الذي عقد بلندن

١١٤٢م، فيهـا عقـد وليم أسقف ونكستر، ونائب الكرسي الرسـولي البابوي، مجمعـاً في منتصف أيام الصوم الكبير، في لنـدن، بحضور الملك مع الأسـاقفـة الآخـرين، لأن مـامـن احترام أبدي في تلك الأثناء نحـو كنيسة الرب والعـاملين المكرسين فيها، من قبل التعسـاء المتهتكين الذين نهبوا البلاد، بل اعتقل كل انسان سجناء أو أطلق سراحهم مقابل فدية، كما يريد، دونما تفـريق بين رجال دين أو علمانيين، ولذلك تقـرر أن أي

واحد يخرق حرمة كنيسة أو رجل كنيسة، أو يعتقل بعنف رجل دين أو أي من الكهنة الآخرين، سوف لن يكون قادراً على تلقي التحليل إلاّ من البابا نفسه، كما رسم أن فلاحة الحقول، والفلاحين الذين يعملون فيها، سوف يكونون مقدسين، كما لو أنهم كانوا يعملون في ساحة الكنيسة، كما أنهم حرموا مع شموع مشتعلة كل الذين سيعارضون هذا المرسوم، وهكذا أمكن ضبط شرور هؤلاء الأوغاد قليلاً.

وفي تلك الآونة نفسها، اعتقل الملك ستيفن وليم دي ماندفيل Mandeville في سينت ألبان، وأرغمه على تسليم برج لندن مع قلعتي وولدن Walden، وبلسي Plessis، وذلك قبل أن يعيد إليه حريته، وبذلك جرده من ميراثه الأبوي، ثم هاجم دير رامسي Ramsey، وطرد الرهبان، وملأ المكان بأوغاده، وقد كان رجلاً شجاعاً، غير أنه كان عنيداً في اقتراف الذنوب ضد الرب.

موت فولك ملك القدس

وفي حوالي تلك الآونة نفسها، كان الملك فولك، ملك القدس يعبر سهول عكا، فصدف أن انبعث أرنب بري من مكمنه، فأخذ الجميع يطاردون الحيوان بصوت مرتفع، وتناول الملك رمحه وشارك بالمطاردة، وحث حصانه بدون انتباه، وألح عليه إلى أبعد الدرجات، فكان أن كبا الحصان وألقى بالملك فتهشم رأسه إلى قطع، وخرج دماغه من أذنيه، وبادر الجميع مسرعين إلى مساعدته، لكنه كان قد مات، وقد حدث هذا في الثالث عشر من تشرين الثاني، وجرى حمل جسده إلى القدس، حيث دفن هناك في كنيسة ضريح ربنا وسط دموع الحشود التي أحاطت به، وكان الذي تولى ادارة طقوس الدفن الرسمية البطريرك وليم، وما ان انتشر خبر موت الملك في الخارج بين المسلمين، حتى قام زنكي، وهو أمير تركي قوي، على رأس جيش كبير، فألقى الحصار على الرها، وبعد بذل جهود كبيرة جعل المدينة تخضع له، وقد قتل جميع المسيحيين الذين

وجدهم هناك، دونما رحمة، ودونما تمييز بين الجنس أو العمر، وهكذا فإن هذه المدينة القديمة جداً، التي تشرفت باعتناق الإيمان المسيحي، والتي تحولت إلى المسيحية بفضل العمل التبشيري لثاديوس الرسول، قد صارت الآن— وياللعار أن تقول ذلك— تحت سلطة المسلمين، ويقال بأنه في هذه المدينة مدفون أجساد : القديس توماس الرسول، والقديس ثاديوس المتقدم ذكره، والملك أبجر المبارك، وأبجر هذا الأمير المشهور، هو الذي— وفقاً للتاريخ اللاهوتي ليوسيبيوس — بعث رسالة إلى ربنا، وقد تشرف بتلقي جواب رسالته، وأعطانا المؤرخ يوسيبيوس نص كل من الرسالتين، وأضاف الملاحظة التالية:« لقد وجدنا هذه الحقائق ضمن وثائق مدينة الرها، وذلك حيث حكم أبجر، منسوختان في ورق، كان يحتوي فيما مضى أعمال ذلك الملك نفسه»، وقد قرأنا عن هذه المدينة بأنها غالباً ماجرى الاستيلاء عليها من قبل المسيحيين، ثم استردها المسلمون ثانية.

موت بابوين رومانيين

ومات في السنة نفسها البابا انوسنت، وقد خلفه البابا سيليستينوس Celestinus ، الذي مات أيضاً بعد جلوسه بخمسة أشهر، وقد خلفه لوسيوس Lucius الذي ترأس الكرسي البابوي الروماني لمدة أحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً، ومات في السنة نفسها وليم أسقف ونكستر، وقد خلفه هنري، وإلى هنري هذا أرسل لوسيوس الطيلسان، راغباً في إقامة رئاسة أساقفة في ونكستر، وأن يضع تحت رئاسته سبعة أساقفة، وفي هذه السنة أيضاً، أنهى المعلم وليم، راهب أوف مالمزبري Malmesbury تاريخه عن انكلترا.

كيف عبثاً حاصر الملك ستيفن لنكولن

سنة ١١٤٣م، مات البابا لوسيوس، وقد خلفه يوجينيوس، الذي

بقي في منصبه ثمانية أعوام وأربعة أشهر، وواحداً وعشرين يوماً، وفي السنة نفسها حاصر الملك ستيفن لنكولن، وشرع في بناء برج آخر مقابل القلعة، التي كانت بيد رالف ايرل شستر، ولكن حوالي الثمانين من رجاله قد قتلوا من قبل الايرل، وتمّ التخلي عن العمل، وفي السنة نفسها قُتل روبرت مارميوم، الذي كان فارساً من أهل الحرب، والذي كان قد طرد رهبان كوفنتري من ديرهم، وحوّل الكنيسة إلى قلعة، وجاء قتله في أحد الأيام أمام الدير، وهو يقاتل ضد أعدائه، مع أنه كان في وسط عصابته من اللصوص، ومامن أحد جرح إلاّ هو نفسه، وبما أنه مات وهو محروم كنسيا، لقد نال موتاً هو من نصيبه الى الأبد، وفي الوقت نفسه أصيب غيوفري إيرل أوف ماندفيل، الذي اقترف عمل الشر نفسه في دير رامسي، بسهم أطلقه عليه عسكري عادي من المشاة، ووقعت هذه الحادثة أمام الكنيسة نفسها، ومثله مثل الايرل، كان يقاتل في وسط عساكره، ونزفت الكنيسة أثناء استخدامه لها كقلعة، كثيراً من الدماء من جدرانها، كدليل على عدم رضا الرب، وحدث لأرنولف ابن الايرل نفسه، الذي استحوذ على الكنيسة كقلعة، بعد وفاة والده، أن وقع أسيراً للملك، الذي نفاه من المملكة، ووقع قائد عساكره من على ظهر حصانه، ومات فوق البقعة، وحكم على رينير أيضاً بالنفي، وهو الذي كان قائد المشاة، وكان من عادته إحراق الديرة وتهديمها، وعندما كان يعبر البحر، فجأة وقفت السفينة من دون حركة في المياه، وعندما ضرب البحارة القرعة، وقعت القرعة ثلاث مرات على رينير، وبناء عليه وضعوه في قارب صغير مع زوجته ومع أولاده وكل ماكان يمتلكه، وغرق القارب على الفور، وهلكت جميع الأسرة التعيسة، في حين أبحرت السفينة فوق بحر هادىء، من دون صعوبة أو عوائق.

وفي السنة نفسها جرى استقبال غيوفري دوق أنجو بشكل رسمي

لائق من قبل سكان روان، وحمل منذ ذلك الحين لقب دوق نورماندي.

استيلاء الملك ستيفن على قلعة فارنغدون

سنة ١١٤٤م، فيها طرد الملك ستيفن ايرل غلوستر مع عدد آخر من أعدائه، من أبنية قلعة فارنغدون Faringdon ، واستولى على تلك البلدة، وأبقاها محفوظة من قبله.

كيف أسر الملك ستيفن ايرل أوف شستر

سنة ١١٤٥م، فيها اعتقل الملك ستيفن رالف ايرل شستر، أثناء قدومه إليه بطريقة سلمية إلى نورثأمبتون Northampton، وأبقاه في السجن، حتى أعاد إليه قلعة لنكولن، مع الحصون الأخرى، التي احتفظ بها بين يديه، وهكذا حمل الملك تاجه بشكل رسمي إلى لنكولن.

كيف عبر هنري الملك المستقبلي إلى نورماندي

سنة ١١٤٦م، فيها عبر هنري ابن دوق أنجو والامبراطورة ماتيلدا إلى بك Bec في نورماندي، حيث احتفي به كثيراً من قبل الدير، وصار في السنة نفسها وليم دي سينت بربارة، عميد يورك، أسقفاً لدرم، ومات في هذه السنة أيضاً غيوفري، صاحب الذكرى الجليلة، ورئيس دير القديس ألبان، الذي كان رائد الشهداء الانكليز، وقد جاء موته بعدما حكم ذلك الدير بطريقة مرضية جداً لمدة ستة وعشرين عاماً، وحرمت هذه الكنيسة من راعي لها من ٢٥— شباط إلى أيام الابتهال قبل عيد الصعود التالي، عندما انتخب الرهبان رالف غوبي Gubby، وكان راهباً من كنيستهم، كما كان جيد التعليم، ورجلاً جيداً، وعندما جرى الانتخاب، جاء الملك ستيفن إلى سينت ألبان في يوم الصعود، وعن طواعية قدم موافقته في أن يكون يصبح رالف المتقدم ذكره، راعياً ومات في السنة نفسها أسيلين Ascelin ، أسقف روكستر، وكذلك روجر أوف شستر، وروبرت أوف هيرفور، وقد خلف أسيلين وولتر

رئيس شمامسة كانتربري، وخلف روجر، وولتر رئيس رهبان دوفر، وخلف روبرت، غيلبرت رئيس دير رهبان غلوستر، وفي السنة نفسها خلف هنري— الذي كان راهبا من رهبان دير السسترشيان— ثورستان في رئاسة أساقفة يورك، وظهر في تلك الآونة مذنب حيث بقي عدة أيام في الغرب، مضيئا السماء بأشعته إلى مسافة عظيمة من حوله.

حول الخلاف الذي ثار بين البابا يوجينيوس والملك الفرنسي

وقدم في السنة نفسها البابا يوجينيوس إلى باريس، حيث تولى تكريس واحداً اسمه بطرس، كان حفيداً لإيميرك Aimeric مستشار الحضرة البابوية، كرسه ليكون رئيس أساقفة لبورغ Bourges، على الرغم من معارضة لويس ملك فرنسا، وغضب الملك كثيراً لدى هذا الاعتداء على كرامته، وأقسم على الآثار المقدسة، بحضور كثير من الشهود، بأن رئيس الأساقفة المذكور سوف لن يدخل مدينة بورغ، مادام هو شخصياً في الحياة، ولهذا السبب عاش هذا الملك لمدة ثلاثة أعوام تحت الحرمان الكنسي، ولذلك كان أينما ذهب إلى أية مدينة، أو بلدة، و قلعة، تعلق القداسات الدينية هناك، وأخيرا أمكن باقناع له من برنارد راعي دير كليرفو، أن غيّر الملك موقفه، واستقبل رئيس الأساقفة، واعتذر عن ذنبه، ووعد بأنه سوف يذهب إلى الحج إلى القدس، ولهذا السبب والغرض جرى تحصيل جبايات عامة جرى فرضها في جميع أنحاء غاليا، ولم يُعف أحد لجنسه أو لمرتبته، أو لمكانته من الدفع أو قبل عذره عن تقديم العون إلى الملك، ولهذا السبب لحق حجه اللعنات من قبل رعيته، كما سوف تظهر الرواية المقبلة.

كيف عقد البابا يوجينيوس مجمعاً في ريمس
من أجل انقاذ الأرض المقدسة

وفي هذه السنة نفسهـا، في أيام الابتهال الكبير، جـرى استقبال البـابا يوجينيوس بمسيرة مهيبة في جنيف، وضرب خدم الكنيسة بالعصي كهنة ورجال مـولانا البابا، وأراقوا دمـاءهم داخل جدران الكنيسـة، وعقوبة على هذا التجـاوز من قبل الخدم، جـرى هـدم البناء، وطرد الرهبـان النظاميين من أمـاكنهم، وغـادر البـابـا من هناك إلى ريمس حيث عقـد هناك مجمعـاً، فيــه أدان هرطقــة يدو Eudo، النبي المزيف، الذي فيما يتعلق بتعـويذاته وخيـالاتـه، من الأفضل أن لانقـول شيئاً، وعين في المجمع أيضـاً أشخـاصـاً للتبشير حـول ارسـال المسـاعـدة إلى الأرض المقدسـة، التي كانت تحت ضغط شـديد من قبل المسلمين، الذين تجولوا فيها من دون معارضة، وذهبـوا إلى حيث مأأرادوا، وبناء عليه، وبسبب تبشير برنارد رئيس دير كليرفـو، حمل كـونراد امبراطور الرومـان شـارة الصليب، ومعه حشد كبير من أشخاص آخرين.

وفي شهر أيار المقبل، انطلق الامبراطور على رأس سبعين ألف فارس مسلح، ولحقـه أيضـاً لويس ملك فـرنسا، مـع عدد مسـاوٍ من الرجـال المسلحين، وكـان عازمـاً على الزحف على طريق منفصل، حتى يمكنهم بصـورة أفضل الحصـول على المؤن لأنفسهم ولخيـولهم، وبعـدمـا عبروا بافـاريا، والدانوب، والنمسا، وهنغـاريا، ومقـاطعتي بانونيا، وبلغـاريا، ومـاشيـا Maesia، وداشيـا، وصلوا أخيراً إلى تراقيـا، ومن هناك تابعـوا سيرهم إلى القسطنطينيـة، حيث هناك اجتمع الامبراطور والملك مع الامبراطور مـانويل، ثم إنهم عبروا البـوسفور الذي يشكل حـدود أوربا، ودخلوا إلى بيثينيا التي هي أول مقاطعـات آسيا، ونصبوا خيامهم في منطقة خلقيدونية.

وعندمـا عبر الامبراطور كـونراد البـوسفـور، كـانت غـلاطيـة، وبافـلاغـونيـا ومقاطعتـي بنطش على يسـاره، وفريجيـا، وليـديا، وآسيـا الصغري، على يمينـه، ثم زحف خلال بيثينيـا وبتركه نيقيـة على يساره،

وصل إلى ليكونيا.

حول الخيانة المقيتة لامبراطور القسطنطينية

ولدى سماع سلطان قونية بوصول مثل ذلك العدد الكبير من الأمراء، عمل طويلاً من أجل جمع نجدات من جميع بلاد المشرق، وركز تفكيره كله على انقاذ نفسه من الخطر الداهم، فحشد عساكره واتخذ موقفه على حدود ليكونيا، حتى يمكّن نفسه، إذا واتاه الحظ ووافقه المكان من ايقاف زحف العدو، وزود امبراطور القسطنطينية امبراطور الرومان بأدلاء، بسبب مصاعب المنطقة، التي سوف يزحف مع قواته خلالها، لكن هؤلاء الرجال— كما قيل— مارسوا الخداع المعهود للاغريق، وقادوا الجيش خلال القفار، حيث امتلك العدو فرصة جيدة للقتال، مع مزية أن الجيش المتقدم جاهل بالمنطقة، ولدى رؤية السلطان الصليبيين وقد انشغلوا في ممرات تلك القفار، انقض عليهم، وهم غير حذرين، وجاء هجومه مع عساكره المتطين لخيول نشيطة، ومعلوفة بشكل جيد، في حين كان جند الرومان ضعفاء بسبب ثقل أسلحتهم ودروعهم، وكانوا يمتطون خيولاً نصف جائعة، ولذلك كانوا غير قادرين على مقاومة العدو، وأعقب ذلك مقتله رهيبة، وبقدر من الرب الخفي، ولكن العادل، بالكاد بقي من السبعين ألف فارس مسلح، مع مثل هذا العدد من الرجالة، عشرهم، فهؤلاء هم الذين نجوا، وهلك البقية بالسيف وبالجوع، أو أنهم أسروا، وحملوا إلى المعتقلات من قبل العدو.

كيف خدع الامبراطور نفسه الملك الفرنسي وجيشه

سنة ١١٤٧م، فيها وصل الامبراطور كونراد في بداية الربيع، بالسفن إلى عكا، وتابع من هناك سيره إلى القدس، حيث جرى استقباله من قبل الملك بلدوين ومن قبل رجال الدين والشعب بالترانيم وأغاني الحمد،

وجرت مرافقته إلى داخل المدينة المقدسة، ووصل في ذلك الوقت لويس ملك فرنسا، إلى مخاضات نهر ميناند، وجاء ذلك إثر لحاقه بالامبراطور، وبعد رحلة متعبة، وكان على رأس سبعين ألف رجل مسلح، وذلك إلى جانب الاسطول الذي لحق به، وعند النهر، ولدى محاولة الفرنسيين العبور، وجدوا الضفة المقابلة محتلة من قبل جيش المسلمين، الذين قاوموا عبورهم، ولكن أخيراً عندما وجدوا المخاضات، هزموا الأعداء، وقتلوا كثيراً منهم وأرغموا البقية على الفرار، وجمعوا بعد هذا الأسلاب، وفرحوا بالنصر الذي نالوه، وعبروا من هناك إلى لوديسيا، فوصلوا إلى جبل مرتفع، كان من الصعب صعوده، هذا وكان من عادة الفرنسيين، اختيار بعض أشجع عساكرهم، للسير في الأمام، وأن يتبعهم البقية من الخلف، من أجل حراسة أثقال سواد الناس الذين كانوا من غير العسكريين، وللإعداد مع الأمراء حول طريقة الزحف وحول كمية مؤنهم.

وكان في ذلك اليوم النبيل غيوفري دي رانكون Rancon هو الذي يقود المقدمة وعندما وصل إلى قمة الجبل، انقض الأتراك على حين غرة على الجناح الفرنسي، ذلك أنهم كانوا يتبعونه من أجل مفاجئته وقد حطموا الصفوف الفرنسية، وحدث في ذلك اليوم حادث مأساوي، سقط فيه فخار فرنسا وشجعانها، الذين كانوا غارقين في عمى آثامهم، حيث لم يجلبوا معهم تقديماتهم السرية للرب، لكن الملك ماكان ليتحول عن مقصده بسبب هذه المأساة، وانطلق على رأس القوات مع الملكة إليانور، وقد وصل أخيراً إلى القدس، حيث جرى استقباله بترحاب من قبل الملك الشعب، وتعاطفوا معه تجاه المأساة التي حلت به.

كيف حوصرت دمشق من قبل الأميرين المتقدمي الذكر وخيانة الأمراء الشرقيين

وعندما انتهت الصلوات المعهودة، دعا الامبراطور الروماني إلى

اجتماع مع ملكي القدس، وفرنسا، للتباحث حول كيف سيعملون لضمان ثمار هذا الحج العظيم، من أجل منفعة الأرض المقدسة، وتقرر أخيراً بالاجماع القيام بحصار دمشق، التي أنزلت أضراراً كبيرة بالصليبيين، وبعد القيام بالاستعدادات، زحفوا نحوها حتى اقتربوا منها، ثم إنهم زحفوا متقدمين نحو النهر القريب من أسوار المدينة، حتى يتمكنوا من الحصول على الموارد المائية، وقد وجدوا على ضفافه حشداً كبيراً من العساكر، قد اصطفت عند الضفة، وبذلك لم يكن بإمكان لاملك القدس ولاملك فرنسا الاقتراب من النهر، وعندما وصلت أخبار ذلك إلى الامبراطور كونراد، زحف وهو غاضب، من خلال العساكر الفرنسيين، ووصل إلى ميدان العمل، وضرب واحداً من الأتراك المتقدمين، وكان قد اعترض سبيله، ضربه بسيفه ضربة شديدة فصلت رأسه عن الخوذة مع رقبته ودرعه وسابغته، وذراعه الأيسر وجزء من طرفه الأيسر عن بقية جسده، وبذلك أرعب الأعداء، إلى حد أنهم تركوا النهر وهربوا، وبذلك نال الصليبيون السيطرة على ضفة النهر، وبما أنه صار بإمكانهم الوصول إلى المدينة من دون عوائق، ألقوا الحصار عليها من جميع الجوانب، وبعدما استمر الحصار لبعض الوقت، خاف السكان من شجاعة الصليبيين وأعدادهم، فجمعوا أثقالهم وقرروا تأمين نجاتهم بالفرار أثناء الليل.

لكنهم سعوا أولاً، وقد وجدوا أنفسهم غير قادرين على التغلب على رجالنا بقوة السلاح، أن يفسدوا عقولهم بالرشاوى، ودفعوا مبالغ كبيرة من المال إلى بعض أمرائنا من المشارقة، الذين تعهدوا بشكل خياني برفع الحصار، ولتحقيق هذا الغرض، تحدثوا إلى الامبراطور وإلى الملك عن مصاعب الحصار، ونتيجة لهذه الريبة، وللتخلي المخادع للأناس الشرقيين، قام جميع جنود الغرب، وعلى رأسهم الامبراطور والملك الفرنسي بالعودة إلى بلدانهم عبر الطريق نفسه الذي قدموا منه، ومنذ

ذلك الوقت شعــروا بالعـداوة العظمى، ليس فقط نحـو الـذين كـانوا مسؤولين عـن الخيانة، بل أيضـاً نحو جميع أمراء الشرق، وأيضـاً جعلوا آخرين فاتري العزيمة نحو مسألة الحج.

وفي السنة نفسهـا جـرى تنصيـب روبرت دي كيسني Chaisney رئيس شمامسة ليكستر، أسقفاً للنكولن بعد الاسكندر، والذي نصبه هو ثيـوبولد رئيس أسـاقفـة كـانتربري، وكـرس أسقفاً بعـد صـوم الشهـر السابع.

كيف جرى قتل ريموند أمير أنطاكية من قبل الأتراك

سنة ١١٤٨م، فيهـا دخـل نور الدين بـن زنكي، بعـد مغـادرة الامبراطور وملك فـرنسا، إلى أراضي أنطاكيـة، وكـان نور الدين أعظم أمـراء الترك قـوة، وقـد ألقى الحصـار على قلعـة إنـب، وضـده زحف ريمـوند أمير أنطاكيـة، على رأس جيشـه، ولكن لأنه لم يجمع جيشـه بالعناية الكافية، ولابالعدد الكافي، جرى قتل ريموند مع عدد من نبلائه في المعـركة، وتابع نور الدين زحفـه من دون عـائق لإلقاء الحصـار على قلعة حارم، وشعث المنطقة المجـاورة كلها، حتى قدوم ملك القدس مع جيش قوي حيث أرغمه على التراجع.

وفي السنة نفسهـا، قـام داوود ملك الاسكوتلنديين، في أيام أحـد العنصرة بتنصيب هنري فارساً، وهو الـذي كان آنذاك دوق نورماندي، وكان الابن الأكبر لغيوفري بلانتغنت، من خلال ابنة أخته الامبراطورة السالفة ماتيلدا.

كيف أعطى الدوق غيوفري نورماندي إلى ابنه هنري

سنة ١١٤٩م، فيها قام غيوفـري دوق نورماندي، بإعطاء الدوقية إلى ابنه هنري، التي كانت ميراثه من جهـة أمه، وذلك على الرغم من حظر الملك الفرنسي، وبذلك توفر سبب لنشوب خلاف بين الملك والكونت.

كيف تلقى الملك لويس الولاء من الدوق هنري

سنة ١١٥٠م، فيها قدم الملك لويس مع يوستاس ابن الملك ستيفن على رأس جيش كبير، إلى أمام برج أسكي، وكان ذلك نتيجة للخلاف الذي تقدم ذكره، وكان الدوق هنري دوق نورماندي أيضاً موجوداً، وكذلك والده غيو فري كونت أوف أنجو، مع قوة لابأس بها من أنجو، وبريتاني، ونورماندي، ورأى القادة من على الجانبين أنه إذا ماوقعت الحرب بين الطرفين، لن ينقضي ذلك من دون إراقة للدم، فبدأوا يفكرون بمحاولة الوصول إلى وفاق، وبناء على ذلك، وبفضل وساطة الأصدقاء، تلقى الملك الفرنسي الولاء من هنري دوق نورماندي، وعلى ذلك افترق الطرفان على سلام، وبناء عليه، أخذ الدوق هنري مع نبلائه بالإعداد للعودة إلى انكلترا، لكن حدث أن والده غيوفري الذي كان مريضاً مرضاً خطيراً، قد توفي في قلعة سيري Seriفي اليوم الثالث عشر من شهر ايلول، وبوفاته صار ابنه هنري الكونت لأنجو والدوق لنورماندي.

وفي السنة نفسها، وقع رالف راعي دير سينت ألبان مريضاً، فقام بناء على نصيحة الدير كله بتعيين روبرت دي غورهام Goreham، الذي كان رئيساً للكنيسة نفسها، وكلفوه في أن يكون نائبه، وأن يحكم الدير عوضاً عنه.

حول الهراطقة الذين اسمهم الحشيشية

وجرى في السنة نفسها قتل ريموند كونت طرابلس، من قبل الحشيشية، وكان رجلاً قوياً وشجاعاً، وبكى موته بلدوين ملك القدس مع جميع الناس، لأنه كان مصدر خطر عظيم على المسلمين، وعلى أمراء المسلمين، وكانت هناك فئة من الناس، سكنت في الجبال، في منطقة صور في فينيقيا حول أسقفية طرطوس، وكان بأيدي هؤلاء عشر قلاع،

مع مناطق واسعة ملكاً لهم، وقد بلغ تعدادهم إلى ستين ألف رجل، أو أكثر، ولايأخذ هؤلاء القوم بمبدأ وراثة السلطة، بل يعتمدون الفضائل الشخصية، وينتخبون واحداً مقدماً لهم وسيداً وحاكماً، يطلقون عليه لقباً واحداً، هو لقب« شيخ الجبل»، وقد تعهدوا بطاعته دوما وبلا تردد في كل شيء، مهما كان الأمر صعباً وخطيراً، وكان هؤلاء، إلى جانب المناسبات الأخرى، إذا مااتخذوا أي أمير هدفاً لكراهيتهم، أو موضع ريبتهم، يتسلم واحد منهم أو أكثر مدية من مقدمهم، وينطلقون دون إعطاء أدنى اهتمام لنتائج عملهم أو العقوبات الناجمة عنه، فيتوجهون إلى مكان إقامة ضحيتهم، فيجعلونه هدفهم الوحيد وموضع اهتمامهم حتى يقضى لهم باغتياله، ويعرف هؤلاء القوم باسم الحشيشية من قبل المسلمين والصليبيين سواء، لكن أصل هذا الاسم غير معروف، وقد مضى عليهم أربعمائة سنة وهو يرعون شرائع وتقاليد المسلمين، ومامن أحد يمكن مقارنته بهم بالطهارة والغيرة، وكان رئيسهم في هذه الأيام الأخيرة رجلاً غاية الفصاحة، والبراعة، والاخلاص، وهو بالاضافة إلى عادات أسلافه، قد حصل على كتاب الأناجيل، وعلى كتابات الرسل، حيث درس المعجزات المسيحية وأفكارها، وهذا ماجعله يتخلى عن شرعة محمدﷺ.... والتحول إلى الشرعة الحلوة الفضيلة العائدة للمسيح، وقد شرع الآن بهدم المساجد التي استخدمها شعبه من قبل، وجعل شعبه يصلي وفقاً لعادات المسيحيين، وبدأ يرغب بالقبول في الحظيرة المسيحية، وبناء عليه، أرسل واحداً من رجاله، وكان انساناً حكيماً ومخلصاً، إلى الملك بلدوين، ملك القدس، من أجل أن يتمكن بوساطته من الحصول على تكريس المعمودية، لكن الشيطان الذي هو دائماً غيور من تقدم الكنيسة، لم يسمح لهذا بالحدوث، لأن رسول هؤلاء القوم المتقدم ذكرهم قد جرى قتله من قبل فرسان الداوية، مما ألحق ضرراً بالكنيسة، وهذه النية، التي بدأت بشكل مخلص، لم تكتمل حتى اليوم الحالي.

وفي هذه السنة نفسها جرى طلاق لويس ملك فرنسا من الملكة اليانور، لأنهما كانا قد ارتبطا أحدهما بالآخر بالدرجة الرابعة من قرابة العصب.

كيف تزوج هنري دوق نورماندي من اليانور

سنة ١١٥١م، فيها تزوج هنري، دوق نورماندي، من الملكة اليانور، التي تطلقت في العام المتقدم من الملك لويس، وقد حصل بوساطة هذا الزواج على دوقية أكوتين، وكونتيه بواتو، وذلك بالاضافة إلى دوقية نورماندي، وكونتيه أنجو، وعندما سمع الملك لويس بهذا بات غاضباً غضباً شديداً ضد الدوق هنري، لأنه امتلك ابنتين من اليانور المتقدمة الذكر، وهاتان سوف تحرمان من الميراث إذا ماولدت، ولداً من أي زوج آخر، وبعد عيد القديس يوحنا، عندما كان الدوق هنري في باربيفلور Barbefleure وهو على طريقه إلى انكلترا، زحف ملك فرنسا، ومعه يوستاس ابن الملك ستيفن، والكونت روبرت دي بيرشي Perche، وهنري كونت أوف شامبين، وغيوفري أخو الدوق هنري، على رأس جيش كبير، لتجريد هنري من نورماندي، وأنجو وأكوتين، ومن جميع ممتلكاته الأخرى، التي توافق هؤلاء الأمراء الخمسة على اقتسامها فيما بينهم، واجتمعوا كلهم من أجل هذه الغاية في نوفمارشي Neufmarche— التي ألقوا عليها الحصار، وبعثوا بغيوفري شقيق الدوق على رأس قوة كبيرة لمهاجمة أنجو، ولدى سماع الدوق هنري بهذه الأعمال زحف من باربيفلور، ليرفع الحصار عن القلعة، لكنه قبل أن يصل وجدها قد استسلمت إلى الملك الفرنسي عن طريق خيانة الحامية، وكأنها سقطت عنوة.

ثم أقام الدوق هنري معسكره قرب أنديل Andelle، ونهب شطر فكسين Vexin القائم بين نهري إيكا Icca وأنديل، وكانت هذه المنطقة تابعة إلى دوقية نورماندي، لكن غيوفري كونت أوف أنجو أعطاها

بشكل مؤقت إلى الملك لويس، وأحرق هنري أيضاً قلاع: باسكرفيل Baskerville، وشيتري Chitrey، وستيربني Stirpiney ، وهي قلاع كانت عائدة إلى أعدائه وذلك إلى جانب قلعة هيوج دي غورني Gornay، التي اسمها كافيري La Ferte، لأن هيوج هذا رفض تقديم خدماته المتوجبة، ثم إنه أحرق قلعة بروبول Brueboles، وأخرى اسمها فيل Ville، ثم دخل من هناك إلى نورماندي حيث ألحق أضراراً بالغة برتشارد دي أقويلا Aquila ، الذي كان زاحفا ضده مع مساعدة لأعدائه، وأحرق قلعته بونفيل Bonnville، وفي حوالي شهر آب، وضع الدوق عساكر لحراسة نورماندي، ومن ثم أخذ طريقه إلى أنجو، وألقى الحصار على قلعة جبل سورل Sorel ، التي كان فيها وليم صاحب القلعة، الذي آثر قضية أخيه، وكان معه عدداً من الفرسان الآخرين، وجرى أسر هؤلاء جميعا، وبهذه النازلة تمّ ارغام أخيه غيوفري على إقامة سلام.

وفي الوقت نفسه اغتنم ملك فرنسا فرصة غياب الدوق، فدخل إلى نورماندي فأحرق شطراً من بورغ ريغولر Bourg Reguliar مع قرية تابعة لقلعة فيرنيل Verneuil ، ثم أمكن بوساطة تدخل رجال الدين إقامة هدنة بين الملك والدوق.

وقدم في هذه السنة أيضاً الملك ستيفن إلى سينت ألبان، وأخبر هناك بمرض راعي الدير رالف، وأعطى هناك بناء على وساطة الأساقفة ورجال الدين الآخرين، إلى الرهبان امتيازاتهم في انتخاب راعي الدير، وبهذا الإذن انتخبوا بالاجماع رئيسهم روبرت غورهام Gorham، الذي تبعاً لذلك تلقى المباركة المعتادة في ١٧— حزيران، ومات سلفه بعد تسعة عشر يوما من انتخابه، ودفن مع الاحترام المستحق، في بيت الكهنة مع الرعاة الآخرين، وفي السنة نفسها أوحي إلى رجل في المنام بأنه إذا ماقطع يديه ورجليه، فلسوف يضمن خلاصه الأبدي، وتبعا

لذلك نفذ هذا العمل، فمات إثر ذلك على الفور.

وفي تلك السنة، في يوم تمجيد الصليب المقدس، ماتت ماتيلدا زوجة الملك ستيفن، وحدث موتها في هينغهام Hiangeham ، وهي قلعة تابعة للكونت ألبيرك دي فير Ver ، ودفنت في دير فيفرهام Faversham ، الذي كان الملك ستيفن قد بناه، وفي السنة نفسها جرى تعيين يوحنا، راهب أوف سيز Seez ، أسقفاً ثانيا لجزيرة مان Man ، الواقعة فيها بين انكلترا وايرلندا، ولكن أقرب إلى انكلترا، ولهذا السبب أسقفها تابع لرئيس أساقفة يورك، وكان أول الأساقفة هناك هو ويموند Wimund، وهو راهب من سيفني Savigny ، ولكن لفساد سلوكه جرى حرمانه من النظر، ونفي، ومات في السنة نفسها وليم، أسقف درم، وغيوفري[أوف مونماوث Monmouth] الذي لقبه آرثر، وهو الذي ترجم تاريخ البريطانيين من البريطانية إلى اللاتينية، وكان قد عمل أسقفاً لسينت آساف Asaph في شمالي ويلز، وقد تقرر من قبل مجمع الرهبان السسترشيان عدم تأسيس أية ديرة جديدة لطائفتهم، لأن عددهم كان قد تجاوز الخمسمائة، وجرى اعفاء جون بابيرو Rapiroالذي كان كاردينالاً في تلك الآونة، من وظيفة النائب البابوي، في ايرلندا، حيث أقام أربع رئاسات أساقفة، وأثناء مرور هذا النائب البابوي في انكلترا أقسم يمين الولاء للملك ستيفن.

حول الطريقة الاعجازية التي أفحمت فيها هرطقة هنري

في هذه الآونة، كسبت عقيدة هنري المهرطق الفاسدة، كثيراً من القوة خاصة في غاسكوني، حتى أثار الرب روح فتاة شابة في تلك المنطقة، قامت بنقضها، لأن الهرطقة التي دعا إليها وبشّر بها كانت مناقضة لمبادىء الإيمان، فقد تمددت هذه الفتاة لمدة ثلاثة أيام من كل أسبوع دونما صوت، أو شعور، أو تنفس، وعادت بعد ذلك إلى وعيها حيث

قالت بأن العذراء المباركة قد صلّت من أجل الشعب المسيحي، وأن القديس بطرس قد علمها العقيدة الكاثوليكية، ولذلك جادلت بحكمة بالغة حول العقيدة الكاثوليكية، وتمكنت بشكل خاص من دحض هرطقة هنري، وأعادت إلى صدر الكنيسة كثيراً ممن كان قد أضلهم.

حول بعض الأعمال الخالدة للامبراطور كونراد

ومات في السنة نفسها الامبراطور كونراد، وكان رجلاً حكيماً، ومستقيماً، وعنه قد قرأنا بأنه عندما كان حاضراً في أحد الأيام القداس اللاهوتي في اليوم الأول من أحد العنصرة، في احدى المدن، بحضور رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والأمراء العائدين للامبراطورية، نشب خلاف أثاره الشيطان بين رجال الدين المتقدم ذكرهم، وكان ذلك حول من منهم سيكون الأعلى مرتبة في الصف الكاتدرائي، وأن يكون الأقرب بالجلوس إلى جانب الامبراطور، وعندما كان الأساقفة ورجال الدين الآخرون يتخاصمون حول هذا، اندفع خدمهم بسيوف وهراوات، واقتلعوا الفئة الأولى من مقاعدها، لكن ليس من دون ضراب، ووضعوا الفئة الأخرى في مكانها، وحطموا الحواجز والمنصات من على كل جانب، وسفكوا كثيراً من الدماء في الصرح المقدس، وانزعج الامبراطور كثيراً تجاه هذا المشهد، وأمر خدمه بطرد أولئك المنشقين من الكنيسة وتهدئة الاضطراب، وكان هذا مافعلوه، وانتقد الامبراطور رجال الدين بحدة، وأمرهم بالتكفير عن خرقهم لحرمة الكنيسة، خشية أن يغضبوا الروح القدس، وإلاّ فإنه سيرفض حضور القداسات في مثل هذه المناسبات المهيبة، وبذلك هدأ الاضطراب، وتمّ عمل التكفير، حسبما هو مطلوب، وبدأت أعمال القداس، دونما التفات إلى أنه كان قد بدأ بمثل تلك الأعمال الطائشة، كما أظهرت الواقعة بوضوح، ومع ذلك تابعوا حتى وصلوا إلى قراءة الانجيل، لكن حدث أنه عندما شرع المرتلون بغناء البيت التالي:« أنت عملت هذا اليوم يوماً

مجيداً» رفع الشيطان صوته عالياً، وقال بشكل واضح، حتى أنه سمع من الجميع:« أنا عملت هذا اليوم يوم حرب» ولدى سماع هذا الصوت المتميز، نظر كل واحد نحو الآخر متسائلين عما يمكن أن يعني هذا، ثم إن الامبراطور، الذي كان رجلاً مخلصاً، وعبداً تقياً للرب، أدرك بأن هذا كان صوت الشيطان أراد عن قصد توبيخ الأساقفة والسخرية منهم ومن انقساماتهم، ولذلك أمر على الفور، بأن يقوم رئيس الأساقفة بالتوقف عن متابعة القداس، حتى تتم أعمال التكفير، لأن الروح القدس قد أغضب كثيراً، وهي التي اعتادت في مثل هذا الوقت على إنارة قلوب المؤمنين بكثير من الهبات الخفية.

ثم إنه أرسل جميع خدمه للتجول بشوارع المدينة والقيام بجمع كل الفقراء والعجزة، وحشدهم في داخل الكنيسة وفي خارجها، أي الكنيسة التي خرقت حرمتها، وقد أطعم الجياع، وأعطى شراباً إلى العطاش، وكسى العريانين، وأعطى أحذية إلى الذين احتاجو إليها، وفعل الشيء نفسه إلى الشيوخ والمتقدمين بالسن، والمتمددين في فرشهم، في جميع أرجاء المدينة، كما أعطى كل واحد منهم قطعة من الذهب، وطلب منهم جميعا الدعاء بطلب الرحمة الربانية، حتى لاتلحق الناس جريره تشامخ رجال دينهم، ولكي لاتحرمهم من حضور روح قدسه، فضلاً عن هذا خلع الامبراطور ثوبه الأرجواني، وارتدى ثوباً من المسوح، وسار على أرض الكنيسة حافي القدمين، حيث تولى خدمة الفقراء، وضرب مثلا للجميع في تقديم الصدقات وفي التواضع، حتى رأى هذا الأمير المجيد أن بلاط الكنيسة قد تبلل بالدموع، وهو الذي كان قد تلوث بالدماء من قبل، ثم أعطى بثقة الأوامر بوجوب الابتداء بالقداس، وقد أنهوا القداس بأعظم خشوع، وعندما وصلوا إلى ذلك البيت:« أنت عملت هذا اليوم يوماً مجيداً»، أمر الامبراطور بتكرار بيت الشعر من قبل جوقة المرتلين الثالثة، كطريقة للتعبير عن الانتصار على

الشيطان، وبعد الفراغ من ذلك أمر الجميع بالصمت لبعض الوقت، ليستمع هل سيقول العدو القديم شيئاً سخرية كما فعل من قبل، إنما بعدما انتظروا لبعض الوقت، ولم يسمعوا شيئاً، قال الامبراطور: «كونوا على ثقة بأن عدونا قد غادر وهو مضطرب»، وعندها ابتهج الجميع بالرب، وأوصلوا القداس إلى نهاية سعيدة، ومجدوا الروح القدس، التي ألهمت الامبراطور بهذا الرأي السديد، وقد خلفه في حكم الامبراطورية الرومانية حفيده فريدريك.

مات في هذه السنة البابا يوجينيوس ومات معه عدد كبير من الرجال الأغنياء

عام ١١٥٢م، فيه مات في شهر حزيران البابا يوجينيوس، وقد خلفه أناستاتيوس، وقد مكث في منصبه سنة واحدة وأربعة أشهر، وأربعة وعشرين يوماً، وجرت في هذا العام سيامة رتشارد دي بومي Beau-meis رئيس شمامسة مدكس، أسقفاً للندن، وفارق هذه الحياة برنارد راعي دير كليرفو، وهنري مورداك Murdach رئيس أساقفة يورك.

وفي هذا العام، عندما كان يوستاس ابن الملك ستيفن ذاهباً لنهب أراضي القديس ادموند الشهيد، بتره الموت، وقد دفن في دير فيفرهام، الذي كان أبوه ستيفن قد بناه، ومات في العام نفسه داوود ملك الاسكتلنديين، وقد خلفه حفيده مالكولم.

كيف نزل الدوق هنري في انكلترا مع قوة

في هذا العام نفسه عبر إلى انكلترا هنري دوق نورماندي وأكوتين، وكونت بواتو وأنجو مع ست وثلاثين سفينة وجيش كبير، وفي الثامن من عيد الغطاس حاصر قلعة مالمبري Malmesbury واستولى عليها، ثم تابع من هناك زحفه إلى كرومارش Crowmarsh، وألقى الحصار على القلعة، لكن تردد رسل بين الملك والدوق، وتمّ الاتفاق على أن

يقوم الملك بهدم تلك القلعة على حسابه، وهكذا تمّ التخلي عن الحصار، ولم يكن هذا بعيداً عن قلعة وولنغفـورد، كما تسلم الدوق، هنري ملكية قلعتي ردنغ وبرايتـول Brightwell ، وطردت غيمـــدرد Gimdred كـونتسـه وووروك عسـاكـر الملك هنري من القلعـة، وسلمت البلدة إلى الدوق هنري، الذي ازدهـرت قضيتـه بهذه الوسـائل كثيراً، وولدت في العام نفسـه اليانور زوجـة الدوق هنري له ولداً، أسماه وليم، وهو اسم عام بالنسبة لدوقات أكوتين، وكونتات أنجو.

حول المعاهدة بين الملك ستيفن والدوق هنري

عام ١١٥٣م، فيه عقد ستيفن والدوق هنري معاهدة في وولنغفورد، وجـاء ذلك بفضـل عـدالة السماء، وحـرص ثيـوبولد رئيس أسـاقفـة كانتربري وأساقفة المملكة، وجاءت المعاهدة كما يلي: بما أن الملك ستيفن محروم من الورثاء، باستثناء الـدوق هنري فقط، لذلك جـرى الاعتراف خلال اجتماع كامل للأساقفـة مع نبلاء المملكة الآخرين، بالحق الوراثي للدوق هنري إلى مملكة انكلترا، ووافق الدوق بلطف على أن يقوم الملك ستيفن بـالتمتع بالسلطة، كما يـريد، حتى وفـاته، عـى شرط أن يقسم الملك، والأسـاقفة، ونبـلاء المملكة الآخـرين، على أنه بعد وفـاة الملك، سـوف يتـولى الدوق— إذا كـان وقتهـا حيـاً— السلطة من دون أية معيقات، وبذلك تحققت نبوءة ميرلين Merlin التي تقول« سوف تؤذي التقـوى الذي استحـوذ على الأشيـاء من دون تقـوى حتى يتملك(أي يتبنى) أباً» فمن الواضح: أن الملك ستيفن قـد تبنى هنري ليكون وريثـاً له، مع أنه لم يكن ابنه، وجعله شريكاً في المملكة، وخليفة له بعـد وفاته، وانحنـى الجميع إلى الـدوق على أنه هـو الملك، وإلى الملـك على أنه هـو الدوق.

ومنذ الآن فصاعـداً سوف يستعيد الملك سلطاته الملكيـة، التي جرى اغتصابها في كل مكان من قبل نبلائه، وسوف تعود الأراضي التي جرى

نهبهـا، الآن، إلى أصحـابها الشرعيين، الذين كـانوا في أيام الملك هنري، وأمـا بالنسبـة لقـلاع المتمـردين التي بنيت بمبـادرة منهم في أيام الملك، وعـددها ألف ومـائـة وخمس عشرة قلعـة، سـوف يجري هدمهـا الآن، وسوف يقوم الملك الآن باسكان المزارع بالعمال، ويعيد بناء البيوت التي أحـرقت، وسيمـلأ المراعي بالقطعــان، وسيغطي قمم التـلال بالأغنام، ولسوف يفـرح رجال الدين لاستعـادة الهدوء الصحيح، ولن يتعـرضوا بعـد الآن للظلم بمكوس غير عادلة، وسيعـاد تعيين العمد في أمـاكنهم المعتـادة، ولن يعــاني واحـد منهم من الظلم، ولســوف يظهـرون الآن الرعـاية والعنـاية نحـو أصـدقـائهم، ولن يهملـوا الجرائم بالتـورط بها، ولسـوف يحمـون كل انسـان في ممتلكاته الخاصة بـه، ولسوف يعـاقبـون المجـرم، وأمـــا اللصـوص وقطـاع الطرق فستكون عقـوبتهم المشـــانق والاعـدام، وسوف يحول الجنود— تبعـاً لإشعيا— سيـوفهم إلى سكك محاريث، ورمـاحهم إلى مساحي، وسـوف يعود الفـلاح من المعسكر إلى المحـراث، ومن الخيمة إلى ورشـة عمله، وسيعود البقيـة مع السرور مع أتبـاعهم بعـد متاعبهم في الحراسـة، ولسـوف يتمتع الريفي بالإستقـرار بسـلام وهدوء، ولسوف تغني التجـارة التـاجر، ولسـوف يجري ضرب نقد واحد جيد، وعـام، للملكة كلها، وهكذا فإن الحرب التي استمرت لمدة سبعة عشر عاماً، ودمـرت المملكة كلها، قد انتهت بهذه الواقعة، إلى الأبد.

حول الفارس أون الذي تولى التطهر وهو حي

بعدمـا تأكدت المعـاهدة التي أبرمت— كما روينا— بين الملك ستيفن والدوق هنري، حصل فـارس اسمـه أون Owen ، كـان قـد خــــدم لسنين كثيرة في ظل الملك ستيفن، على إذن الملك، وذهـب لزيارة والديه في ايرلندا، التي هي موطنه الأصلي، وبعـدما أمضى بعض الوقت هناك، بدأ يستعيد من ذاكرته صورة حياته الشريرة، التي أمضاها منذ صغره في

النهب والعنف، وتأسف بشكل خاص من خرقه لحرمة الكنائس، ومن غزو الممتلكات اللاهوتية، وذلك بالاضافة إلى ذنوب أخرى كثيرة كان قد أجرم باقترافها، وذهب وهو في حالة الأسف والتوبة هذه إلى أسقف تلك البلاد، الذي استمع إلى اعترافه، ولامه بقسوة، وأكد بأنه اقترف عدواناً عظيماً ضد رحمة الرب، وبدأ الفارس يفكر حول كيف يمكنه أن يظهر توبة حقيقية عن آثامه، ورغب الأسقف في أن يفرض عليه كفارة تكون عادلة نوعاً ما، وعلى ذلك ردّ الفارس:« إذا كنت تقول بأنني أغضبت خالقي إلى هذا الحد، فلسوف أخضع نفسي إلى كفارة تكون قاسية أكثر من المعتاد، ومن أجل إزالة ذنوبي، سوف أتولى تنفيذ الدخول إلى مطهرة القديس باتريك»، والرواية التالية هي التي أعطانا إياها مؤرخ ايرلندي قديم حول هذه المطهرة وأصلها.

حول طبيعة المطهرة المتقدم ذكرها

بينما كان باتريك الكبير يبشر حول عمل الرب في ايرلندا، ويكسب كثيراً من الاحترام بوساطة المعجزات التي قام بها هناك، رغب في أن يسترد من أعمال الشيطان ويخلص الناس ذوي الغرائز البهيمية لتلك البلاد، وذلك بوساطة التحذير من عذاب جهنم، والرغبة بالسعادة في الجنة، لكنهم أخبروه بأنهم لن يتحولوا إلى المسيح، مالم يريهم أولاً بأعينهم الأشياء التي أخبرهم عنها، وبناء عليه، عندما كان القديس باتريك، متوجها نحو الرب، وهو صائم، وسهران، ومصلي، من أجل إنقاذ ذلك الشعب، ظهر ابن الرب إليه، واقتاده إلى مكان مهجور، حيث أراه كهفاً مستديراً، ومظلماً في الداخل، وقال له:« إن كل من هو في توبة حقيقية، وإيمان ثابت، وسوف يدخل إلى هذا الكهف لمدة يوم وليلة، سوف يتطهر من جميع الذنوب، التي اقترفها ضد الرب، طوال حياته كلها، وهو سوف لن يرى فقط عذاب الشقي، بل إنه إذا ما حافظ بثبات على محبة الرب، سوف يكون أيضاً شاهداً على بهجة

المباركين».

ثم اختفى المسيح، وكـان القـديس باتريك مسروراً لـرؤيتـه المسيح، ولاكتشافـه الكهف، وصار أخيراً واثقـاً من أنه سوف يكـون قادراً على تحويل النـاس التعســاء في ايرلندا إلى الايمان الحقيقـي بالمسيح، ثـم إنه قـام— بناء عليـه— على الفـور ببناء خلوة فـوق تلك البقعـة، وأحـاط بسور الكهف الذي كان في أرض مقبرة قائمة أمام الكنيسة، ووضع باباً هناك، وبذلك بـات من غير الممكن لأي انسـان الدخــول إلى هناك من دون إذن، ثم عين بعد ذلك هناك طائفـة من الرهبان النظاميين، وأعطى المفتـاح إلى رئيسهم، مـع أوامـر أنه كل من يأتي إلى رئيس الـرهبـان مع إجـازة من الأسقف في تلك المنطقــة، ينبغـي السماح له بالدخــول إلى المطهـرة، وحصل عدد كبير من النـاس على شرف ذلك الامتياز عندمـا كان القديس باتريك مايزال حياً، وعندمـا كانوا يخرجون كانوا يشهدون بأنهم شـاهدوا عذاب الأشرار، وكـذلك السعادة التي لايمكن وصفهـا التي تمتع بها الأخيار.

كيف بإذن من الأسقف دخل أون إلى المطهرة

وبناء عليـه ثابر الفـارس المتقـدم ذكـره على طلب الإجـازة المطلوبة، ولدى رؤية الأسقف اصراره منحه رسالة إلى رئيـس الرهبان، طالباً منه العمل وفق الطريقة المعتـادة، وبعدما قـرأ رئيس الرهبان الرسـالة، اقتاد الفـارس إلى الكنيسـة، حيث بقي مصليـا لمدة خمسـة عشر يومـاً، وبعـد انتهـاء هذه المدة، أقام رئيـس الرهبان أولاً قـداسـاً، وقدم إليـه القـربان المقدس، ثم اقتاده إلى باب الكهف، الذي كـان مفتوحـاً، ورش عليه الماء المقدس، وقال:« إنك سوف تدخل إلى هنا باسم يسوع المسيح، ولسوف تسير خلال الكهف حتى تصل إلى سهل مفتوح، حيث ستجـد قاعة قد بنيت بشكل بارع، ادخل إليها، ولسوف يرسل إليك الرب أدلاء يتولون اخبــارك بالذي يتــوجب عليك فعله»، ودخل الرجـل إلى هذا الموضع

للاصطراع مع الشياطين، بشجاعة، وعهد بنفسه إلى صلوات الجميع، ورسم على جبينه علامة الصليب المقدس، ثم اجتاز الباب بجرأة، وأغلق رئيس الرهبان الباب خلفه، وعاد في مسيرة إلى الكنيسة.

كيف وصل الفارس إلى القاعة المتقدم ذكرها وكيف دخل إليها

واجتاز الفارس بشجاعة خلال الكهف كله حتى صار وسط ظلام كامل، وأخيرا بدأ الضوء ينزل عليه من جديد، ووجد نفسه في السهل حيث كانت القاعة التي أخبر عنها، ولم يكن الضوء أكثر من ضوء الغسق، ولم تكن القاعة محاطة بجدران بل بأعمدة، مثل السدة داخل الدير، وقد دخل إليها، وجلس ينظر من حوله في جميع الاتجاهات، ويتعجب من جمال البناء، وبعدما جلس هناك لوقت قصير، دخل إلى القاعة خمسة عشر رجلاً في أردية بيضاء يشبهون السماويين وقد حلقوا شعورهم منذ وقت قصير، وجلسوا، وحيوه باسم الرب، والتزموا بعد ذلك بالصمت باستثناء واحد منهم قال له:« بورك الرب القدير، الذي ألهمك اتخاذ هذا القرار الصالح، بالدخول إلى هذه المطهرة من أجل التخلص من جميع ذنوبك، وعلى كل حال، إنك مالم تتصرف بنفسك بشجاعة، سوف تهلك بالجسد والروح معاً، لأننا عندما سنترك هذا المبنى، سوف يمتلىء بحشد من الأرواح غير الطاهرة، الذين سوف يعذبونك كثيراً، ويهددونك بعذاب أكبر، وهم أيضاً سوف يعدونك باقتيادك إلى الباب الذي دخلت منه، إذا ماامتلكوا فرصة لخداعك، وبذلك لن تستطيع الخروج ثانية، وإذا ماسمحت لنفسك بأن تقهر بتعذيبهم، أو ارتعبت من تهديداتهم، أو خدعت بوعودهم، وتراجعت ووافقت، فإنك سوف تهلك بكل من الروح والجسد، وإذا ماكنت— على كل حال— ثابتاً بالايمان، واضعاً كل أملك بالرب، ولم تستسلم أمام تعذيبهم أو تهديداتهم، أو وعودهم، بل رفضتهم جميعا بمجاميع قلبك، فإنك سوف تتطهر من جميع ذنوبك، ولسوف تشاهد تعذيب

الأشرار، وراحة الأخيار، وطوال الوقت الـذي سوف يعذبك به هؤلاء الشيـاطين، ادع اسم الرب يسـوع المسيـح، وبدعـوتك لاسمـه، سـوف تتخلص على الفـور من جميع عـذابهم، ولايمكننا الآن البقاء معك مـدة أطول، وسنعهد بك إلى الرب القدير.

كيف عذب الشياطين الفارس بشكل مؤثر

وبناء عليه ترك الفـارس لوحده، وأعد ذهنه لمواجهـة نوع جديد من الصراع، وما أن فـرغ من تهيئة نفسه لتكـون شجاعة حتى سمـع ضجة حـــول المبنى، وكأنها صـادرة عـن جميع رجـال الـدنيـا مع الحيــوانات والدواب، وكأنها معمـولة من قبلهم جميعـاً، وجاءت بعـد هذه الضجـة أشباح مـرعبة من الشياطين البشعـة، وقد تدفقت حشـود هائلة منها إلى داخل القـاعـة، وباستخفـاف وسخـرية خاطبـوا الفـارس قـائلين: «إن الرجال الآخـرين الذين يخدموننا، قـانعين بالانتظار حتى موتهم، وذلك قبل أن يقـدموا، ولكن حضرتك شرفـت هذه الجماعة من أسيـادك، بأن قدمت إلينا بالروح والجسد وأنت ماتزال حياً، فهل جئت لتتلقى عقوبة على ذنوبك؟ إنك سوف لن تتلقـى سوى الحزن والأسى بيننا، ولكن بما أنك خـادم غيـورلنا، إذا مارغبت بـالعودة من خـلال البـاب الذي منه قدمت، سـوف نقتادك إلى هناك دون التعـرض للأذى، حتى تتمكن من تمتيع نفسك ثـانيـة بـالدنيــا وبجميع مسراتها، وهكذا تكلم الشيــاطين راغبين في خـديعتــه بالتهـديد أو بالإطـراء، لكن جندي المسيح لم يخف لامن تهديـداتهم، ولم يقنع بإطـراءاتهم، وأدار نحــــوهــم أذنا صماء، ولم يجبهـم ولابكلمة، وغضب الشياطين لمعـاملتهم باللامبالاة، فأشعلوا ناراً عظيمة في القـاعة، وأمسكوا الفارس بيـديه ورجليه ورمـوه في وسطها، وسحبـوه بكلاليب حديد نحـو الأمـام ونحو الخلف في النار، وعندمـا شعـر للوهلة الأولى بالعـذاب دعــا اسم يسـوع المسيح قـائـلاً: «ارحمه يايســوع المسيح»، وبقـوة هذا الاسم انطفأت النار، ولم يبق منهـا شرارة

واحـدة، ولدى إدراك الفارس لذلك لم يعـد يخشاهم، لأنه شـاهد بأنهم زالوا باسم المسيح.

حول مكان العقاب الثاني الذي اقتيد الفارس إليه

وغـادر الشياطين القـاعة الآن، وجـروا الفارس خـلال قفار سـوداء ومظلمة، نحـو مكان حيث تشرق الشمس في الصيف، وبدأ الآن يسمع ولاويل، وكأنها صـادرة عن جميع شعـوب الدنيـا، وأخيراً جـر من قبل الشيـاطين إلى سهل طـويل وعـريض، مليء بالمصـائب والآلام، وكـان طويلاً إلى حـد أنه كـان من غير الممكن رؤية مـاوراءه، وكـان مليئاً بأشخـاص من كـلا الجنسين ومن كل سـن، كلهم عـريان وجـالس مع أمعـائهم ممتدة حتـى الأرض، لأن أجسادهم وأطرافهم كـانت مـربوطة بالأرض بشكل مـرعب، وذلك بوسـاطة مسـامير من الحديد محماة ومغروسة بالأرض، وكانوا يقـومون أحيانا وهم يتألمون ويعانون بقضم الرمـال، وهم يصرخـون ويولـولون قـائلين:: «أبقنـا، أبقنا، ارحمنا، ارحمنا»،مع أنه لايوجـد هناك من يرحمهم أو يبقيهم، ويدوس الشيـاطين فـوق هؤلاء المخلوقـات التعسـاء وهـم يوجهـون إليهم ضربات ثقيلة، وذلك أثناء مرورهم، وقد قالوا للفارس: «إن صنوف العذاب هذه التي تشاهدها، سـوف تعاني أنت منهـا شخصياً، مـالم توافق على أن تقاد إلى الباب الذي دخلت منه، ولسـوف يجري اقتيادك إلى هناك بسلام»، لكن الفارس تذكر كيف أن الرب قد أنقـذه من قبل، أصم أذنه تجاه ماقالوه، ثم إنهم رمـوه أرضـاً، وحاولوا أن يسمـروه إلى الأرض مثل الآخـرين، ولكنه عندما دعـا اسم يسوع المسيح لم يعـودوا قادرين على إلحاق المزيد من الأذى به في ذلك المكان، ولذلك جروه بعيداً إلى سهل آخر مفتوح، ولاحظ هنا الفرق التالي بين الناس الذين كـانوا هنا والناس الذين كانوا في المكان الأول، ففي الوقت الذي كـانت فيـه أمعاء الأول مـربوطة إلى الأرض فإن جميع الذين كانوا هنا كانوا متمددين على ظهورهم، وكانت

هناك تنينات نارية جالسة فوق بعض منهم، وهي تقضمهم بأسنان حديدية، ولذلك كانوا يعانون من آلام لايمكن التعبير عنها، وكان آخرون ضحايا ثعابين نارية، التفت حول رقابهم، وأذرعتهم، وأجسادهم، وكانت هناك أوتاد حديدية مثبتة في قلوبهم، وأيضاً جلست علاجيم ذات أحجام ضخمة جداً، ومرعبة أن تنظر إليها، على صدور بعضهم وحاولت تمزيق قلوبهم بمناقيرها القبيحة، ومشت الشياطين أيضاً عليهم وهي تجلدهم أثناء مرورها، بحيث لم تسمح لهم بدقيقة راحة من عذابهم، ثم إن الشياطين جروا الفارس إلى سهل آخر للتعذيب، حيث كان هناك حشد عظيم بدا وكأنه أكثر عدداً من سكان العالم كله، وكان بعضهم معلقاً فوق نار فحم مشتعلة، بوساطة سلاسل حديدية مربوطة بأقدامهم وأرجلهم ورؤوسهم باتجاه الأسفل، وكان آخرون معلقون بأيديهم وأذرعتهم، وبعضهم بشعور رؤوسهم، وكان بعضهم معلقاً بكلاليب حديدية محماة فوق اللهب، وكانت الكلاليب مارة من خلال أعينهم وفتحات أنوفهم، وبعضهم كان معلقاً من خلال آذانهم وأفواههم، وآخرون من خلال صدورهم وأعضائهم السرية، ووسط أنينهم وولاويلهم، لم تتوقف أعمال الجلد من قبل الشياطين لحظة واحدة، وهنا حاول العدو في هذا المكان الآخر للتعذيب، تعذيب الفارس، لكنه دعا اسم يسوع، فكان آمنا.

حول الدولاب الحديدي المحمى حتى بات أحمر

ومن مكان التعذيب هذا، جر الشياطين الفارس إلى دولاب حديدي محمى، وكانت اشعاعات الدولاب وأطره مثبة بمسامير حديدية محماة، وعليها جرى تعليق أناس، احترقوا بلهب الفحم المحترق بشكل فظيع، وكان اللهب منبعثاً من الأرض، وحرك الشياطين هذا الدولاب بقضبان حديدية، بسرعة بلغت حداً بات فيها من غير الممكن تمييز انسان عن آخر، لأنه بسبب سرعة الحركة بدوا جميعاً وكأنهم كتلة واحدة من النار،

وعـانى آخرون من أنواع مسـاوية من العذاب، حيث جـرى تثبيتهم إلى أوتاد، وأجلسوا من قبل الشياطين في معـدن ذائب، في حين كان آخرون يجري شيهم في أفـران، أو فـوق مقـالي مشتعلة، وفضـلاً عن هذا رأى الفارس، لدى سحب أدلائه له، بيتـاً مليئاً بعدد كبير من المراجل، كانت مليئة باسفلت ذائب، وبكبريـت ومعـادن ذائبـة، وكـان فيهـا مخلوقـات بشرية من كـلا الجنسين، ومن جميـع المراتب والأعمار، وكـان بعضهم غاطسين كليـاً، وبعضهم حتى أعينهم وآخرون حتى شفـاههم ورقابهم، وآخرون حتى صـدورهم، وأخرون أيضـاً حتى ركبهم وأرجلهم فقط، وكان بعضهم يده أو قدمه مغطسـة، وبعضهم كلاهما معاً، وكان الجميع يولولون، ويصرخـون بشكل مـؤلم بسبب معـاناتهم الكبيرة وآلامهم، وعندما حاول الشياطين اغـراق الفارس في المراجل مع البقية، دعا اسم المسيح، وقد أنقذه ذلك.

حول الريح القوية والنهر الآسن

ودفع الشياطين الآن بالفارس إلى قمة جبل مرتفع، وأروه عدداً كبيراً من الناس من كـلا الجنسين، ومن مختلف الأعمار، كلهم كانوا جـالسين وهم عراة منحنيين حتـى أصابع أقدامهم، واتجاههـم نحو الشمال، ومن الواضح أنهم كـانوا ينتظرون برعب وصول الموت، وفجأة هبت زوبعـة من الشمال جرفتهم والفارس معهم، وحملتهم وهم يبكون وينوحون إلى جـزء آخـر من الجبل، إلى نهر بارد وآسن، وعندمـا حـاولوا الخروج من مياهه الباردة، سـار الشياطين فوق وجه الماء، وجعلوهم يغطسـون ثانية في أعماقه، ودعا الفارس -على كل حال -اسم المسيح، فوجد نفسه على الفور على الضفة الأخرى، ثم جـره الشياطين نحو الجنوب، وأروه لهب له بعض الضجيج، وكان هذا اللهب مرتفعاً مع رائحة آسنة صادرة من بئر هناك، فوقه رجال عراة، لونهم أحمر من شدة الحرارة، وقد قذف بهم في الهواء مثل الشرار، وعندمـا كان اللهب يخبو كـانوا يسقطون في الهوة

تحتهم، وقال الشياطين للفارس: «إن ذلك البئر الناري هو المدخل إلى جهنم، حيث نعيش، وبما أنك خدمتنا باخلاص حتى الآن، إنك سوف تبقى معنا هنا إلى الأبد، وإذا مادخلت إلى هذه الهوة فإنك سوف تهلك جسداً وروحاً معا، ولكن إذا أصغيت لنا حتى الآن، وعدت إلى الباب الذي جئت منه، فإنك سوف تعبر دون أن تصاب بأذى»، لكن الفارس اعتمد على عون الرب، الذي غالباً ماأنقذه، فجعل أذنه صماء تجاه جميع تحريضاتهم، وغضب الشياطين، فاندفعوا نحو هوة نارية، وجروا الفارس معهم، وكان كلما ذهب أعمق، صارت الهوة أوسع، وكانت العقوبات التي شاهدها أكثر رعباً، وفي تلك الهوة، شعر الفارس أيضاً بالرعب والتعاسة، حتى أنه نسي لبعض الوقت الذي أيده وسانده، لكن أخيراً بنعمة من الرب، دعا اسم يسوع، وعلى الفور جرى دفعه واخراجه بوساطة اللهب إلى الهواء الطلق في الأعلى، حيث وقف لبعض الوقت وهو مندهش ومصعوق، إنما فجأة، ظهر بعض الشياطين الجدد من فم الهوة وقالوا له: «أنت ياهذا، الواقف هناك، لقد أخبرك رفاقنا بأن هذا فم الجحيم، لكن الأمر ليس كذلك، فنحن معتادون على الإخبار بالأشياء الزائفة، ذلك أننا إذا لم نستطع الخداع بالحقيقة والصدق، نحاول ذلك ونفعله عن طريق الزيف، إن هذه ليست الجحيم، بل نحن سوف نقودك إلى هناك».

حول الجسر الذي كان ضيقاً وعاليا ومنزلقاً

وجر هؤلاء الأعداء الجدد الفارس مع ضجة مرعبة إلى نهر عريض وآسن، مغطى باللهب ونار الفحم المحترقة، وهو مليء بالشياطين، الذين أخبروه أنه تحت ذلك النهر توجد جهنم، وكان هناك جسر ممتد فوقه، فيه ثلاثة عوائق مرتبطة به، لايمكن تجاوزها، ففي المقام الأول كان منزلقاً، ومع أنه كان عريضاً كان من المستحيل على أي انسان الوقوف ثابتاً عليه، وفي المقام الثاني كان ضيقاً إلى حد أنه من غير

الممكن لأحد السير عليه أو حتى الوقوف عليه، وفي المقام الثالث كان عالياً فوق النهر إلى حد أنه كان يزيغ البصر أن تنظر منه نحو الأسفل، وقال له الشياطين: «عليك عبور ذلك الجسر، والريح التي سوف تقذفك إلى النهر الآخر، سوف تقذفك إلى هذا، ووقتها سوف يلقى القبض عليك من قبل رفاقنا الذين هم في النهر، ومن ثم سيغرقونك في هوة الجحيم»، لكن الفارس قام بالدعاء إلى اسم يسوع المسيح، ووضع قدميه على الجسر، فوجد أنه كلما صعد أكثر، ومضى أبعد، صار الجسر أعرض، حتى صار عريضاً مثل طريق عام، ولدى رؤية الشياطين أن الفارس يسير من دون عوائق عبر الجسر، حركوا الهواء بصرخات عالية، مما أزعج الفارس وضايقه أكثر من جميع العذاب الذي تحمله من قبل منهم، وقام آخرون من أعدائه، كانوا تحت الجسر بإلقاء كلاليب حديد محماة نحوه، لكنهم لم يستطيعوا لمسه، وهكذا عبر الجسر بأمان، لأنه لم يتواجه مع أي شيء يمكن أن يمنعه.

كيف تحرر الفارس من شرور الشياطين

تحرر الفارس الشجاع الآن من تعذيب هذه الأرواح غير النظيفة، ورأى أمامه جداراً عالياً، معمولاً بشكل رائع، وفيه باب واحد،كان مغلقاً، وكان هذا الباب مزيناً بحجارة كريمة لمعت بشكل مضيء، وعندما اقترب الفارس من الباب، انفتح الباب، وصدرت عنه رائحة طيبة، بها استرد الفارس شجاعته، وانتعش من كل ما عانى منه من عذاب، وقدم إلى استقباله مسيرة لم ير مثلها في العالم، وكانت المسيرة أثناء تقدمها تحمل الصلبان مع الشموع، والأعلام، وسعف النخيل الذهبية، وقد تبعها حشد من النساء والرجال من كل مرتبة، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الأديرة، والرهبان، والكهنة، ورجال دين من جميع المراتب، وكانوا جميعاً في الملابس المقدسة الموافقة لرتبهم، وقد استقبلوا الفارس بتحيات سارة، وبأغاني لامثيل لها في عذوبتها،

واقتـادوه وسط ذلك إلى داخل باب النصر، ولدى انتهـاء الغناء، تحدث معه اثنان من رؤسـاء الأساقفة، وباركـوا الرب الذي أضفى على روحه الشجاعة حتى قاوم العذاب الذي مـرّ خلاله، وعانى منه، ولدى اقتياده خـلال المنطقـة أروه أجمل المروج التي كـانت مـزينـة بمختلف أنواع الورود، والثمار، مع كثير من أنواع النباتـات والأشجار، وتمتع بالروائح الطيبـة التي تصـور أنه من الممكـن العيش عليهـا إلى الأبد، ولم يتـوفـر شعـور بالظـلام في تلك المنطقـة، لأنها كـانت مضـاءة بنور شعشعـاني سماوي لايتوقف أبداً، وشـاهد هناك حشداً عظيماً من الرجـال والنساء، كـانوا من كثـرة العـدد إلى حد إفترض فيـه أن بقيـة العـالم لايمكنه أن يستـوعب مثلهم، واعتلت فـرقـة المرتلين سـدة المرتلين، وكلهم مجدوا الرب بأغاني عذبة، الرب خالـق كل شيء، وقدم بعضهم وهم متوجون مثل الملوك، وكـان آخـرون يرتدون مـلابس ذهبيـة، وبعضهم الآخـر ملابس ثمينة مختلفة الألوان، وذلك وفقاً لما كـانت عليه عاداتهم، عندما كانوا في هذا العـالم، وفرح بعضهم لسعادتهم، وآخرون لتحـرر ولسعادة البقية، وكلهم عندما رأوا الفـارس، شكروا الرب، على وصوله، وهنأوه على نجاته من منطقة الموت، وما مـن واحد هناك شعر بحر أو برد، كما أنه لم يشاهد هناك أي شيء يمكن أن يسبب عدواناً أو أذى.

كيف اقتيد الفارس إلى الجنة السماوية حيث شاهد سرور المباركين

ثم قـال الأحبار المقـدسون، الـذين جعلوا الفارس يرى هذه المنطقـة البهية، له: «بما أنك، بفضل رحمة الـرب، قد وصلت إلى بيننا دونما أذى، عليك أن تسمع منا شرحـاً لكل مـا شـاهدته، فهـذه المنطقـة هي الجنة الدنيـوية، التـي طرد منهـا الانسـان لذنوبه، وغـرق في تلك الأوضـاع التعيسـة، التي يموت فيهـا الناس في الدنيـا، ونحن جميعاً الذين هنا قـد ولدنا بالجسد، وفي الذنب الأصيل، وبـإيماننا بالرب يسوع المسيح، الذي

تلقيناه بتعميـدنـا، رجعنا إلى هذه الجنة، لكن بما أننا اقترفنا ذنـوباً فعليـة من دون احصاء، وكـان ذلك بعد تعميدنا، لقـد أمكن فقط بعد تطهيرنا من ذنوبنا، وبعد تلقينا العقوبة من أجلهم، أن استطعنا الوصول إلى هذا المكان، لأنه التوبة التي قمنا بها قبل موتنا، أو أثناء ساعة الموت، لكننا لم نكملهـا على الأرض، كـان لابد من التكفير عنهـا بالمعـانـاة في أمـاكن العقـوبات التي رأيتهـا، وذلك وفقاً لطبيعـة الذنب وكبره، وكلنا جميعـاً الذين نحن هنا قد مررنا بأمـاكن العقوبات تلك من أجل ذنوبنا، وجميع الذين رأيتهم هناك يعـانـون من العقـوبات، سـوف يقـدمـون إلى مكان الراحة هذا، ويتم خـلاصهم أخيراً، إلاّ باستثناء أولئك الذين كانوا عند فم الهوة الملتهبـة وفيهـا، والذين يتم خـلاصهم يأتي بعضهم كل يوم إلى هنا، وقـد تطهـروا من ذنوبهم، ونحـن نذهب لاستقبـالهم، ونجلبهم إلى الداخل، كما فعلنا معك، وما من واحد منا يعرف كم من الوقت سوف نبقى هنا، إنما بوساطة القـداسات، والمزامير، وبالمساعدات والصـدقات وبصلوات الكنيسـة المسكونيـة، وكـذلك بالمسـاعـدات الخاصـة من أصـدقـائهم، سـوف تقلل كثيراً عقـوبات الذيـن في المطهـرة، أو أنهم سيتلقـون نوعـاً من العقوبات الخفيفـة، عـوضـاً عن الذين أدينوا أولاً، حتى يمكن في النهـاية خلاصهم جميعـاً، وهكذا كما ترى نحن هنا نتمتع كثيراً بالهدوء، مع أننا لسنـا مـؤهلين بعـد ولاجـديرين بالدخـول في السعـادة الكاملـة، في الجنة، وكل واحـد منا، سـوف يعبر، عندمـا يحل الوقت الـذي حـدده الرب، إلى ملكوت السـمـاء، وفقـاً لما سيهيئه الرب.

كيف أنعش الفارس بالرؤيا السماوية وتقوى بالطعام الروحي

وقـاد الأحبار المبجلون الفـارس الآن إلى الجانب المنحـدر من الجبل، وأمـروه أن ينظر نحو الأعلى، الأمـر الذي عندمـا فعله، سألوه عن لون السماء بالنسبـة للمكـان الذي وقف عليـه، فأجـابهم اللـون مثل لون

الذهب عندما يكون حاراً أحمر في الأتون، فقالوا له: «إن هذا الذي أنت تراه الآن، هو مدخل إلى السماء، وإلى الجنة السماوية، وذلك أنه عندما يغادرنا واحد منا، فإنه يصعد على هذا الطريق إلى السماء، ومادمنا نحن باقين هنا، فإن الرب يطعمنا من الطعـــام السماوي، الـذي سنجعلك تتـذوق طبيعته الآن»، ومـا أن اكتمل التفـوه بهذه الكلمات، حتى نزلت حزمـة من الضوء من السماء، غطت المنطقة كلها، أمـا اللهب المستقر في حزمـة الضوء، على رأس كل شعاع منها، فقـد دخل إلى أجساد الجميع، وشعر الفـارس بلذة حلاوة أنعشت فؤاده وجسـده كله، حتى أنه لم يعد يعرف فيما إذا كان حياً أم ميتـاً، لكن هذا الشعور مرّ بلحظة وعبر، وود بسرور أنه لو بقـي إلى الأبد في هذا المكان، ولو أنـه استطاع التمتع بهذه المسرات، لكن عندما صار في المكان الآخر، جـرى إخباره بأشياء أخرى ليست سارة بالقدر نفسه، فقد قـال له الأحبار المقدسون: «بما أنك الآن ألقيت بناظريـك على مسرات المبـاركين، وذلك وفقـاً لرغبتك وأيضـاً رأيت جـزئيا عـذاب الأشرار، يتوجب عليك العـودة عبر الطريق الذي جئت عليه، وإذا (لاسمح الرب) عندمـا تعود إلى الدنيا، مـارست حياة شريرة، فقد رأيت هنا العذاب الذي هو بانتظارك، وإذا - على كل حال -مارست حياة جديدة ودينية، يمكنك أن تعتمد على عودتك إلينا ثانية، وذلك عندما تتحـرر روحك من الجسد وعليك أن لاتكون خـائفاً من تعذيب الشيـاطين على طريق عودتك، لأن الشيـاطين لن يكونوا قادرين على الاقتراب منك، كما أن تعــذيبهم الذي شـاهدتـه لن يؤذيك»، ورد الفـارس وهو يبكي: «إنني غير قادر على العـودة من هذا المكان، لأنني أخشى من أن ضعف الطبيعـة البشرية، سوف يقـودني إلى الخطيئة، ومن ثم سـوف أمنـع من العـودة» فقـالوا له : «إن هـذه الأشيـاء ليست كما ترغب، بل ستكون وفقـاًلرغبـة الذي خلقنا نحن وأنت»، ووقتها اقتيـد الفـارس عائـداً إلى البـاب مع الأسف والنواح، وبعـدمـا اجتاز البـاب مكرهاً، أغلق خلفه.

— ٥٩٠٥ —

كيف كرس الفارس نفسه بعد عودته
إلى الدنيا على الحج إلى القدس

وعاد الفارس أون عبر الطريق نفسه كما كان قد ذهب إلى القاعة المتقدم ذكرها، لكن الشياطين الذين رآهم أثناء عودته قد فروا منه مذعورين، وأنواع العذاب التي مرّ من خلالها كانت غير قادرة على إيذائه، وعلى الفور عندما دخل إلى القاعة، مجّد الخمسة عشر رجلاً، الذين تقدم وصفهم، الرب، وحمدوه لمنحه تلك الحماية تحت العذاب، وقالوا له: «عليك أن تغادر من هنا بكل سرعة، لأن اليوم هو في فجره في بلادك، وإذا لم يجدك رئيس الرهبان، عندما سيفتح الباب، هو سوف يظن أنك ضعت، ولسوف يغلق الباب، ويعود إلى الكنيسة»، وعندما تلقى الفارس مباركتهم، أسرع عائداً، فالتقى برئيس الرهبان في اللحظة التي فتح بها الباب، وقد اقتاده مع الحمد والشكر إلى المسيح، وأدخله إلى الكنيسة، حيث بقي لمدة خمسة عشر يوما في الصلاة.

وحمل بعد هذا شارة الصليب، وانطلق إلى الأرض المقدسة، ساعياً للتأمل المقدس في ضريح ربنا وفي الأماكن المقدسة الأخرى، وعاد من هناك إلى الوطن بعدما وفى بنذره، وتقدم بالرجاء إلى مولاه الملك ستيفن، حتى يتمكن من إمضاء بقية حياته في خدمة الدين، وأن يصبح جنديا في جيش ملك الملوك، وحدث في تلك الآونة، أن حصل غيرفياس Gervais راعي دير لاوث Louth من الملك ستيفن على منحة أرض حتى يبني عليها ديراً في ايرلندا، وقد بعث واحداً من رهبانه، واسمه غيلبرت إلى الملك، ليحصل على ملكية الأرض، وليبني عليها الدير، ومثل غيلبرت أمام الملك، واشتكى إليه بأنه لم يعرف لغة تلك البلاد، وعليه ردّ الملك بأنه بعون الرب سوف يجد على الفور، له مترجماً قديراً، ودعا أون للمثول أمامه، وأمره بالذهاب مع غيلبرت والبقاء في ايرلندا، وجاء هذا موافقاً لأون، الذي ذهب وهو مسرور مع

غيلبرت، وخدمه باخـلاص، لكنه لم يرتد ثوب الرهبان، لأنه اختار، أن يكون بالحري خادمـاً وليس سيداً، وقد عبرا إلى ايرلندا، وبنيـا ديراً، فيه عمل الفارس أون مترجماً للراهب وخادماً مخلصاً في كل ما عمله، وكانا كلما جلسا منفـردين، كان الراهب يسأله بدقـه فيما يتعلق بالمطهرة، وعن أشكال التعـذيب المدهشـة، التي رآها هناك وشعـر بها، وقـام الفـارس، الذي لم يكن يستطيع السماع حـول المطهـرة دون البكاء بمرارة، بإخبـار صـــديقـــه، مـن أجل تنويره، إنما بشرط السرية المطلقــــة، بكل مــارآه ومـاعـاناه، وأكد لـه بأنه رأى كل ذلك بعينيـه، وبعناية واهتمام من قبل هذا الراهب قـام بتدوين كل مـارآه ذلك الفـارس، وذلك مع حكايات الأسـاقفـة ورجــال اللاهوت الآخـرين لتلك البـــلاد، الذين في سبيل الصدق، أعطوا شهاداتهم على تلك الحقائق.

كيف جرى دس السم لوليم رئيس أساقفة يورك وموته

عـام ١١٥٤م، عين في هذا العـام البابا أنـاستاسيـوس خليفـة لهنري رئيس أساقفة يورك، الذي كما كنا قد ذكرنا كان متوفى، والذي عينه هو وليم، الذي كان البـابا يوجينيوس قد عـزله من قبل، وأعطاه الطيلسان في رومـا، وبحضوره تولى سيـامـة هيوج دي بوسـات Pusat، حفيد الملك ستيفن، كأسقـف لدرم، لكن بعـد وقت قصير من عـــودة رئيس الأساقفة نفسه إلى منصبه، وأثناء قيامه بقداس مات، من سم أخذه -كما قيل - من كأس القربان، وقد خلفه روجر رئيس شمامسة كانتربري.

وعبر في هذا العـام هنري دوق نورمـاندي إلى نورمـاندي، واستأنف إلى درجـة بعيدة سلطـات حكمه للمتلكات التي كـان والده قـد أعطاه إياها، وتوجـه من هناك إلى أكوتين، حيث قضى بيـد قوية على عصيـان بعض باروناته.

ومات في العـام نفسه البـابا أناستاسيـوس، وقد خلفـه نيقولا أسقف

أوف ألبـانو، الذي اتخذ لنفسه اسم أدريان، وكـان رجـلاً متدينا، وكـان من الشعب الانكليزي، وقد ولد في ممتلكات دير القديس ألبان.

وفي تلك الآونة نفسهـا عقــدت معـاهدة بين لويس ملك فــرنسـا، وهنري دوق نورماندي، وفق الشروط التالية: يعيد الملك فيرنويل Ver-neuil ونوفمارشي Neufmarche إلى الدوق، الـذي دفع إليـــــه ألفي مارك من أجل نفقات أخذ، وحفظ، وتحصين هاتين القلعتين.

موت الملك ستيفن وتتويج الدوق هنري

ومـات في العام نفســه ستيفن الملك الشجـاع والتقي، وكـان ذلك في الخامس والعشرين مـن تشرين الأول، ودفن جســـده في دير فيفــرهام، الذي هو أسســه، وذلك حيث كان قبل وقت قصير جـرى دفن زوجته مـاتيلدا، وابنهما يوستـاس، وعندما سمع هنري دوق نورمـاندي بوفـاة ستيفن، قدم إلى باربيفلون Barbefloune، حيث انتظر لمدة شهر مجيء ريح مناسبـة حتى يعبر القنال، وكان هناك في الوقت نفســه هدوء عظيم جداً في انكلترا، وهو نادراً مـاحدث عندمـا يموت ملكهـا، وكان سبب ذلك المحبة والخوف اللذان شعـربهما الناس تجاه الدوق هنري، حاكمهم المقبل، وفي السابع من كانون الأول نزل في انكلترا، وقد استقبل بسرور عظيم من قبل كـل من رجـال الدين والعلمانيين، وفي التــاسع عشر من كـانون الأول الذي كـان الأحد التـالي قبل يوم الميـلاد، أعلن عنه ملكاً وسط احتفال عام، وجرى تتويجه في وستمنستر، من قبل ثيوبولد رئيس أساقفـة كانتربري، وكـان ذلك بحضور، رؤساء الأسـاقفة، والأسـاقفة وبارونات كل من انكلترا ونورمـاندي، وما أن جـرى تتويجه حتى شرع بممارسة سلطتـه على المدن، والقلاع، والبلدات العـائدة للتـاج، وبتدمير القــلاع المتمـردة، وبطرد الأجــانب، وبشكل خـــاص الفلمنكيين، من المملكة، وبخلع الإيرلات المزيفين، الذيـن كـان سيتفن قـد أنفق عليهم جميع واردات الخزينة تقريباً.

وحشد في السنة نفسها بلدوين، ملك القدس، جيشاً كبيراً، وحاصر عسقلان، التي استسلمت بعد حصار طويل إليه على شرط امتلاك الأتراك الذين فيها هم وأزواجهم وأولادهم حق المغادرة لها مع جميع مايملكون، وبعد ذلك استسلمت المدينة إلى الملك، الذي أعطاها إلى أخيه كونت يافا، ليحتفظ بها لنفسه.

حول حياة القديس وولفرك الناسك

وغادر في العام نفسه الناسك المقدس وولفرك Wulfric أوف هيزلبيرغ Heselberg هذه الحياة، وبذلك أنهى حرباً سعيدة ومنتصرة، استمرت تسعة وعشرين عاماً، ضد أعداء بني الانسان، وبشأن حياته وفضائله، نعتقد أننا لن نخرج عن الموضوع إذا ماقدمنا عنها عرضاً موجزاً، نزين به التاريخ: كان القديس وولفرك قد ولد من أسرة انكليزية، في أوضاع عادية، في كونتون، التي كانت قرية على بعد ثمانية أميال عن برستول، فهناك كان أيضاً قد تعلم، وأمضى بضعة أعوام في طائفة دينية، حيث من المعتقد أنه استقبل هناك باستخفاف في طيش الشباب، وليس باستقرار هدف عقله، لأنه لم يعرف الرب، وبالحري اقتيد بالجسد وليس بالروح، وقد أمضى كثيراً من وقته بين الكلاب والصقور، وفي أحد الأيام عندما كان منشغلاً في مثل هذه الأعمال، جاء إليه رجل، بدا من نظراته وثيابه أنه محتاج، وسأله اعطاءه قطعة جديدة من النقود تكون صدقة، لأنه كان في تلك الآونة نقود جديدة في انكلترا، في أيام الملك هنري الأول، لكنها كانت نادرة بسبب حداثتها، ورد عليه وولفرك أنه لايعرف إن كان معه أية نقود جديدة أم لا، وبناء عليه قال له الرجل: «انظر في حافظة نقودك، ولسوف تجد هناك قطعتان ونصف القطعة»، ودهش وولفرك تجاه ذلك، وفعل ماأمر به، فوجد المال فقدمه بتقوى صدقة له، وتسلم الرجل المال وقال: «علّ الذي فعلت هذا من أجله يعوض عليك تعويضاً مناسباً، وإنني أحدثك

باسمه، بأنك سوف تنتقل بعد وقت قصير من هذا المكان إلى مكان آخر، ومن هناك إلى مكان ثالث، حيث ستجد أخيراً الاستقرار، فهناك سوف تثابر على عبادة الرب، الذي سوف يستدعيك في الأخير للالتحاق بجماعة القديسين».

حول تحول القديس وولفرك وحياته المتقشفة

وبعد وقت قصير ارتبط وولفرك بوليم صاحب قريته الأصيلة، وتناول الطعام في كل يوم على مائدته، وهناك أيضاً، أعد نفسه لحياة التقشف بالتخلي عن استخدام اللحوم، وصار رجل الرب الآن متشوقاً إلى حياة العزلة، وقد أرسل من قبل مولاه، أي الفارس المتقدم ذكره،إلى هيزلبيرغ، وهي قرية تبعد حوالي الثلاثين ميلاً إلى الشرق من اكسيتر Exeterومن المعتقد أنه ألهم بفعل ذلك باقتراح من قبل الروح القدس، وهنا عزل نفسه في قلاية قرب الكنيسة، وكرس نفسه على عبادة المسيح، الذي حصل على رضاه بوساطة كثير من الجهد والتعب في كل من الجسد والروح، ذلك أنه أجهد جسده وأفناها بالتقشف والسهر، إلى حد، أن جلده، بات بعد وقت قصير، بالكاد متعلقاً بعظامه، وقدم ذاته إلى عين المشاهد، مظهراً، ليس عائداً لجسد بل لكائن روحاني، وأقنع نفسه بلباس بسيط كان تحته قميص من المسوح، ولكن بعدما تلف هذا خلال عدة أيام، بدأ يفكر باستبداله بسابغة من الحديد، وعندما سمع مولاه، أي الفارس المتقدم ذكره، بهذا، بعث إلى رجل الرب، بسابغة من الحديد، مكرسة لتكون أداة للحرب في خدمة المصالح السماوية، واعتاد في الليل على أن يغطس وهو عريان في حمام ماء بارد جداً، وهناك كان يقدم إلى الرب مزامير الملك داوود، وبهذه الطريقة غالباً ماأمات الجسد ببرد الماء، ذلك أن جسده كان ضعيفاً، وحدث هذا بالغالب بقوة شديدة، وكان متواضعاً ولطيفاً في كلامه إلى جميع الناس، وكانت خطبه تردد مثل نشيد سماوي بالنسبة إلى الذين

سمعوه، مع أنه تحدث دوما إلى الناس ونافذته مغلقة.

معجزة مدهشة حول قطع سابغة

وخرق في الوقت نفسه رجل الرب وولفرك، الذي الرب وحده قد عرفه حقيقة، وانبثق مثل الفجر المبكر فوق المعرفة لبني البشر بجهده في سبيل انقاذهم وتخليصهم، لأنه عندما أعاقته السابغة التي كان مرتدياً لها، وأصابت ركبتيه، وحالت دون حنيهما بشكل مستمر، دعا إليه الفارس الذي كان معتاداً على أسراره، وتحدث إليه بشأن طول سابغته فقال له الفارس:« إنني سوف أرسلها إلى لندن وأقطعها وفق الطريقة التي تختارها» فأجابه رجل الرب:« إن هذا سوف يسبب تأخيراً كبيراً، ويمكن أن يظن أن ذلك برهان على المباهاة، خذ هذا المقص، وقص باسم الرب وقم بالعمل بيديك»، وما أن فرغ من كلامه هذا حتى ناول الفارس مقصاً، كان قد جلبه من بيت الفارس، ولدى رؤيته للمقص تردد وظن أن الناسك كان مجنونا، فتابع الناسك كلامه قائلاً:« كن شجاعاً ولاتتردد، إنني سأذهب وأصلي إلى الرب حول هذا، وفي الوقت نفسه أقلع أنت واشرع بالعمل وأنت واثق» وكان المقاتلان الآن كلاهما منشغلين، أولهما في الصلاة، والآخر بالقطع، وتقدم العمل تحت أيديهما، لأن الفارس قد شعر وكأنه يقطع قطعة من القماش، وليس حديداً، وقد عمل المقص بشكل فعال ومفيد، لكن عندما قطع رجل الرب صلاته، لم يعد الفارس، الذي لم يكن قد فرغ من عمله، قادراً على متابعة القطع، ووقف وولفرك وسأله كيف سارت الأمور معه، فأجابه الفارس قائلاً، بشكل جيد جداً حتى الآن، لكن الآن عندما قدمت توقف المقص عن القطع»، فقال الناسك له:« لاتخف، تابع القص كما بدأت، بالمقص نفسه»، واستأنف الفارس عمله وهو مطمئن، وأنهى عمله وهو مطمئن بالسهولة نفسها، كما كان الأمر من قبل، وصقل المقصوص من دون أية متاعب، وقام رجل الرب منذ ذلك الحين فصاعداً، بقطع حلقات من

الســابغة من دون مقص، بل بأصــابعه الضعيفــة، لكن ليس بإيمان أقل، ووزع تلك الحلقـات من أجل شفاء الأمـراض، وأعطاها لكل من سأله إياها صدقة، ولدى رؤية الفارس لقدرتها أصيب بدهشة أصمته، وسقط على قـدمـي رجل الرب، الذي رفعـه بـاضطراب، وطلب منه أن لايخبر بذلك أحداً مـادام هو نفسه حياً، ولكـن شهرة ذلك لم يكن من الممكن اخفاءها، مادام عدداً من رجال الدين يتفاخرون بأنهم يمتلكون حلقات من تلك السابغة، وانتشرت شهرة رجل الرب في جميع أجزاء المملكة.

كيف قدم رجل الولاء للشيطان وشفي من قبل رجل الرب

كان يوجـد في الأجزاء الشمالية مـن انكلترا رجل شقي، لم يكن قادراً على تحمل الفقـر، فأذعن، وقـدم ولاء للشيطان، وبعـدمـا شعـر لبعض الوقت بظلم سيـده الجديد، أدرك هـذا الرجل الشقي جـريمتـه، وشرع يتوب منها، ونظر من حوله إلى رجل يحميـه يمكن أن يعهد بنفسه إليه، فيتحـرر من موت الروح، فقـرر أخيراً القيـام بزيارة القديس وولفـرك، الذي قيل بأن في يده يقـع الخلاص، وعندمـا عبّر عن قلقـة حـول ذلك وعن نيته إلى واحد من أصدقائه، وقف الشيطان إلى جانبه بشكله المعتاد والمعـروف بشكل جيد، واتهمـه بخرق الثقـة والعهـد، وهدده بمعاقبتـه بشكل وحشي، وألزم الرجـل نفسـه بالصمـت، لأنه رأى بشكل واضح أن العـدو لم يعـرف ماكـان يفكر به سرياً بقـرارة نفسـه، حتى قـام أولاً بتطوير نوايـاه واخـراجهم على شكل كلمات واشــارات، ولذلك أخفى لبعض الوقت نواياه بالتوبة، وانطلق أخيراً للقيام برحلته المقترحة لزيارة وولفـرك رجل الرب، وبعـدمـا أكمل الجزء الأعظم من الطريق، وصل إلى مخاضة النهـر خارج قـرية هيزلبيرغ لأن الرب أنجح رحلتـه، ودخل الآن إلى المخاضة، وكان متأكداً من عون القديس وولفرك، ووقتها ظهر الشيطان، وهو ملتهب بالغضب، وألقى بيـديه بكل عنف عليـه، وقـال له:« مـــالذي كنت أنت قــاصــد أن تفعله أيها الـرجل الخائن، أولست

تحاول خـرق تحالفنا، لكن عبثـا، لأنك الآن سـوف تعـاني من أجل خيـانتـك، أولم تقم أنت من قبل بالتخلي عن عبـادة الرب وخـدمتـه، وتسعى الآن للتخلي عن خـدمتي أيضـاً، إنك سوف تغـرق الآن بشكل تعيس»، ثم أمسكه الشيطـان، وثبتـه بشـدة حتى أنه لم يعـد قـادراً على التقدم نحـو الأمام، ولا الانحـراف بنفسه إلى جـانب أو آخر، وعنـدما كـان هذا يحدث في النهـر، جـرى إخبـار رجـل الرب وولفـرك بذلك، بوساطة رؤيا ربانيـة، فدعا إليـه كاهنه الذي اسمه بريشـريك، وقال له: « امض مسرعـاً، وخـذ الصليب، وبعض الماء المقـدس، وقـابل الرجل المحبوس من قبل الشيطان في المخاضـة خلف القرية، ورش عليه بعض الماء المقدس، وأحضره إليّ، ومضى بريشريـك مسرعاً، وأثناء توجهه رأى الرجل ووجـده على ظهر حصـان في النهـر، غير قادر على التحـرك من المكان الذي كان فيه، وقام بريشـريك على الفور برش الماء المقدس عليه، باسم الأب، والابـن، والروح القـدس، وعلى الفـور انهزم الشيطان، وتحرر الأسير من عـدوه، واقتيـد إلى حضرة رجل الرب، الذي كـان في ذلك الوقت، يصلي بقلق إلى الرب لصالحه، وخلفـه جاء الشيطان الذي طالب برجلـه، وأمسك به دون أن يعبأ بصراخـه إلى رجل الـرب طلبـاً للمساعدة، وأمسـك القديس بالرجل من يده اليمنى، والشيطان من يده اليسرى، وقـام رجل الرب برش الماء المقـدس على وجـه العـدو، الذي هرب على الفـور وهو مضطرب، ثم اقتاد القـديس الرجل الذي أنقـذه من فكي عـدوه، إلى قـلايتـه، واحتفظ به هناك حتى اعترف بـذنوبه، وأخرج منه السم وقـذف به أمام قدمي القـديس، وهو السم الذي كان الشيطان قد أفسده به، ثم جرت مباركته على مشهد من ربنا، وقدمه إليه بالجسد من قبل رجل الرب، وعندمـا سئل عما إذا كان يؤمن بقلبه كله، أجـاب :« أنا أؤمن يامـولاي، وأنـا في حـالتي التعيسـة والمذنبـة، بأنني رأيت في يديك جسد، ودم ربنا يسـوع بالجسد» فقـال القديس:« الشكر للرب، دعنا الآن نصلي معـا، حتى يُعتقـد أنك جـديـر بأن تراه بشكله

الصحيح والحقيقي»، ثم أقام قداساً، به ثبّت إيمانه، وبعد ذلك سمح له بالذهاب بسلام، وقد مات القديس وولفرك في العشرين من شهر شباط، وقد دفن في خلوته في هيزلبيرغ، حيث جرى تنفيذ العديد من المعجزات تشريفاً للرب وللقديسين، وماتزال تمارس حتى الوقت الحالي.

حول نسب الملك هنري

عام ١١٥٥م، فيه في اليوم الأخير من شهر شباط، أنجبت الملكة إليانور إلى الملك هنري ولداً صحيحاً وقانونياً، أطلق عليه اسم هنري، هذا وكان الملك هنري ابن ماتيلدا، التي كانت من قبل امبراطورة وفيما بعد كونتسه أنجو، وكانت أمها هي ماتيلدا، ملكة انكلترا، وزوجة هنري الأول، وابنة القديسة مرغريت ملكة اسكوتلندا، وكانت مرغريت هذه ابنة ادوارد من أغاثا Agatha ، أخت هنري الامبراطور الروماني، وكان ادوارد ابن اديموند الطرف الحديدي Ironside، ابن إيثلرد Ethelred ، ابن ادغار Eadgar الهادىء، ابن إدموند، ابن ادوارد الأكبر، ابن الملك النبيل ألفرد، ابن ايثلوولف Ethelwulf، ابن ايغبرت Egbert ، ابن ألكموند Alcmund ، ابن إيوفا Eoffa ، ابن إيوبا Eoppa ، ابن انغلز Ingels ، أخو آين Ine الملك اللامع، ابن كنرد Kenred ، ابن سيولوولد Ceolwald، ابن كوثا Cutha، ابن سيرتك Certic ، ابن ايليسا Elessa ، ابن ايغلا Egla ، ابن ويغ Wig ، ابن وودن Woden ، ابن فريتوولد Fretewald ، ابن فريوليتر Freolater ، ابن فريثوولف Frethewulf ، ابن فرنجولدف Fringolduff ، ابن غيثا Getha ، ابن تاتوا Tatwa، ابن بيو Beau ، ابن سلدوا Seldwa ، ابن هيرمود Hermod، ابن إيترمود Itermod ، ابن هاثرا Hathra ، ابن والا Wala ، ابن بدوي Bedwi ، ابن سام، ابن نوح.

وقام في العام نفسه الملك هنري بحرمان وليم بيفيريل Peverel، من ميراثه لأنه أمر بوضع السم لرالف ايرل شستر، وقد قيل بأنه كان شريكاً في كثير من الجرائم من هذا النوع، وجعل الملك هنري— في الوقت نفسه— نبلاءه، يؤدون قسم الولاء إلى ابنيه وليم، وهنري من أجل تاج انكلترا، ومات أيضاً روبرت أسقف إكستير، وقد خلفه روبرت عميد سالسبري، وفي حوالي الوقت نفسه، أرسل هنري أسقف ونشستر كنوزه بعيداً مقدماً، لتكون في حفظ راعي دير كلوني، ثم مالبث هو نفسه، أن غادر انكلترا بعد ذلك مباشرة، من دون الحصول على إذن الملك، ولهذا الاعتداء أمر الملك بهدم قلاعه الثلاث وتسويتها بالأرض، وفي حوالي الوقت نفسه، قام هيوج دي مورتيمر -Mortim er، وكان رجلاً أرعناً، بتحصين قلاعه ضد الملك، وهي: أبراج غلوستر، وويغمور، وبردجنورث، لكن الملك حمل عليه فجأة، فاستولى عليهم ودمرهم، ثم أقيم سلام فيما بينهما.

وفي ذلك الحين أيضاً، تزوج لويس ملك فرنسا، من ابنة ألفونسو، ملك اسبانيا، الذي كانت عاصمته طليطلة، وهم يدعونه باسم امبراطور اسبانيا، لأن له السيادة على الملكين الصغار في أرغون وغاليشيا، [وجرى تكريس فريدريك امبراطوراً من قبل البابا أدريان، وأعيدت يد القديس جيمس إلى دير ردنغ] وفي الوقت نفسه جرى تعيين توماس رئيس شمامسة كانتربري، وعميد بيفرلي، والقانوني لعدد من الكنائس الانكليزية، مستشاراً للملك.

كيف أعطى البابا أدريان جزيرة ايرلندا إلى الملك هنري

وفي هذه الآونة أرسل هنري ملك انكلترا سفارة مهيبة لتسعى لنيل إذن البابا أدريان، حتى يتمكن من غزو ايرلندا واخضاعها، وجلب سكانها البهيميين إلى طريق الصواب، بإزالة بذور الشرور من بينهم، وبسرور نال هذا المطلب موافقة البابا أدريان، الذي أرسل إلى الملك

الرسالة التالية:

« **من أدريان، أسقف وخادم عبيد الرب، إلى ابنه العزيز في المسيح، الملك اللامع لانكلترا، تمنيات الصحة، ومباركته الرسولية**: بثناء وتقدم عزمت جلالتك على مضاعفة احترامك على الأرض، لكي تنال لنفسك جائزة السعادة الأبدية في الجنة، وذلك في سعيك، كأمير كاثوليكي، لمدّ حدود الكنيسة، ولتعليم الشعوب الهمجية عقائد الايمان المسيحي، ولإزالة بذور الشر من حقل الرب، ولنجاح هذا المشروع وفائدته الفضلى، سألت تأييد الكرسي الرسولي، ولقد أبديت في سبيل تنفيذ هذه النية اخلاصاً عظيماً، وستنال نصيحة أعظم من عليين، تجعلنا أكثر ثقة بنجاحك، ولقد بينت لنا ياولدنا العزيز في المسيح، نيتك في غزو ايرلندا، واخضاع سكانها، وجعلهم يعيشون طائعين تحت شريعة المسيح، ومن ثم إزالة الشرور من بينهم، مع النية أيضاً بأن تدفع إلى القديس بطرس مبلغاً سنوياً، وهو بنس واحد عن كل بيت، وبأن تحفظ للكنائس في تلك البلاد، حقوقها كاملة ودونما نقصان، ونحن نوافق الآن بشكل قانوني على نيتك هذه المحمودة، ونستجيب بسرور لطلبك، ونحن أيضاً مسرورين لأنك تعمل في سبيل توسيع حدود الكنيسة، لضبط الشرور، وتقويم الأخلاق، ولبذر الفضيلة، وأكثر لمدّ وتوسعة الديانة المسيحية، فأنت في سبيل ذلك سوف تغزو تلك الجزيرة، وتفعل كل شيء يبدو مفيداً في رفع شأن الرب، ويفعل خيراً لذلك الشعب، الذي سوف يستقبلك ويحترمك بمثابة سيد له، شريطة بقاء حقوق الكنيسة كاملة ودفع البنس الواحد سنوياً من كل بيت، وأن يحافظ عليه قانونيا للقديس بطرس، لأن جميع الجزر التي أشرقت عليها شمس العدالة، والتي تلقت الخلاص بوساطة الإيمان المسيحي، هي بلا شك عائدة إلى القديس بطرس، وإلى الكرسي الروماني المقدس، حسبما اعترف نبلاؤك أيضاً، وبناء عليه إذا كنت ترغب في انجاز ما نويته في عقلك، ادرس

القيام بتعليم ذلك الشعب الأخلاق الصالحة، وابذل جهدك من خلالك ومن خلال الذين سوف توكل إليهم مسألة إرشادهم أن يكونوا من حيث الحياة، واللغة، والإيمان أهلاً للقيام بهذا الواجب، حتى يزينوا الكنيسة في تلك البلاد، وأن يمكن غرس المسيحية هناك ومن ثم نموها، وكذلك عمل كل شيء يميل إلى تشريف الرب، وتخليص النفوس، وأن يسود النظام هناك، حتى تتسلم من الرب تاج السعادة الأبدية، وأن تؤمن لنفسك مادمت على الأرض، مجداً لايزول».

حول اكتشاف معطف مخلصنا الذي كان بلاحاشية

عام ١١٥٦م، فيه تم العثور في آرجنتويل Argentoil، وهو دير في منطقة باريس، على معطف مخلصنا، وكان ذلك بوساطة وحي رباني، وكان هذا المعطف من دون حاشية ولونه قاتم، وقد ورد في الكتابات التي تمّ العثور عليها، في الوقت نفسه، بأنه صنع من قبل الأم المجيدة، عندما كان مايزال طفلاً.

وعبر في العام نفسه الملك هنري إلى نورماندي، حيث استولى بعد حصار طويل على قلعتي ميربو Mirabeau، وشينون Chinon، وكانت قلعة لودون Loudon قد استسلمت له من قبل، منذ مدة قصيرة، وبعدما قام أخوه غيوفري بطرد هول Hael ، كونت بريتاني، واستولى على نانتي Nantes بموافقة سكانها، عمل سلاماً مع الملك، على شرط أن يتسلم سنويا ألف باوند من النقود الانكليزية، وألفين من نقود أنجو، فبموجب هذه الاتفاقية صنع سلام بينهما.

وفي العام نفسه، دمر وليم، ملك صقلية، تدميراً كلياً مدينة باروم Barum ، وهزم الاغريق واسترد المدن والقلاع، التي كانت قد أخذت منه، وصنع سلاماً مع البابا أدريان، وسمح له بسيامة أساقفة مملكته، وفي تلك الآونة ولدت اليانور، ملكة انكلترا، للملك ابنة

أسميت ماتيلدا،[ومات في العام نفسه وليم أكبر أولاد هنري، ودفن في ردنغ].

كيف عمل ملكا انكلترا وسكوتلندا سلاما بينهما

عـام ١١٥٧م، فيـه عبر الملك هنري إلى انكلترا، وإليه أعـاد مـالكوم ملك سكوتلندا مدينة كارلآيل، وقلعة بامبـورغ، ونيوكاسل على التاين، وجميع منطقة لوثيان، ومن جهة أخرى أعاد هنري إليه إيرلية هنتنغدون، وفي الطريقـة نفسهـا، سلـم وليم الابن غير الشرعي للملـك ستيفن، وإيرل مـورتون، ووورني Warenne ، إلى الملك قلعتي بيفني Pe-vensey، ونـوروك Norwick ، إلى جانب جميع الحصون في انكلترا ونورمـاندي، التي كـان محتفظا بها كمنحـة من أبيـه، وفي المقـابل أعطاه الملك هنري كل الذي كـان بيـد ستيفن في اليـوم الذي توفي فيـه هنري الأول، وتخلى في الوقت نفسـه أيضاً هيوج بيغـود عن قلاعـه إلى الملك، وأعدّ في السنة نفسها الملك هنري قـوة عسكرية كبيرة لمهاجمة ويلز بحراً وبراً، وفي هذه الحملة طلب من كل فارسين تأمين نفقات تسليح فارس ثالث، وعنـدمـا كـان كل شيء جـاهزاً، دخل الملـك إلى ويلز، فقطع الأشجـار والغـابات، وفتح طـريقـاً لجيشـه، وألقى الحصـار على قلعـة ريـدلار Rhydlar ، واسترد جميع الحصون التي انتزعت من أسلافه، وأعاد بناء قلعة بيزنغويرك Basingwerk ، وبعدما أخضع الويلزيين عـاد منتصراً إلى انكلترا، وفي العـام نفسـه ولدت له الملكة اليـانور ولداً أسماه رتشـارد، وأوصل روبرت دو مونت سينت مـايكل تاريخه إلى هذا الوقت.

كيف وضع الملك هنري تاجه جانباً

عـام ١١٥٨م، فيه جـرى تتويـج الملك هنري في يوم عيد الميـلاد، في ووركستر، وبعـد انقضـاء حفل التقـديس، وضع تاجـه على المذبح، ولم

يلبسه بعد ذلك، وفي العـام نفسه ولدت له الملكة اليانور ولداً منح اسم غيوفـري، كما جرى ضرب نقـود جـديـدة في انكلترا أيضـاً، وذهب تومـاس، مستشـار الملك في سفـارة، مع كثير من الأبهة، لاستقبـال مـرغـريـت، ابنة ملك فـرنسـا، لتكون زوجـة للأمير هنري، ابن ملك انكلترا، وقـام الملك هنري، عقب وفـاة أخيـه غيـوفـري بعبـور القنال، واستولى على مـدينة ناتي، وفضلاً عن ذلك، تولى زيـارة ملك الفرنسيين في باريس، وجـاء ذلك بناء على دعـوة، وأقـام هناك في القصر وأقـام لويس مع ملكته في دير الرهبان النظاميين للقديسة مريم العذراء.

كيف حاصر الملك هنري طولوز

عام ١١٥٩م، فيه زحف الملك هنري ضد طولوز، واستولى على عدة قلاع في أحوازها، وكان آنذاك الملك الفرنسي في تلك المدينة، ولم يرغب هنري بمهـاجمة المدينة نفسهـا، صـدوراً عن احترامـه للملك الفـرنسي، الذي كانت أخته كونستانس قد تزوجت من كونت طولوز، وولدت له ولداً، وكـانت هذه القضيـة هي سبب العـداوة بين الملكين، كما ستظهـر النتـائج، ومـات الآن البـابا أدريان، وقـام شقـاق بين الاسكندر وبين أوكتافيـان، وكان الأخير مؤيداً من الامبراطور ورجـال دينه، أما الأول فكان مؤيداً من قبل ملكي فرنساوانكلترا، وكتب الامبراطور إلى الملكين معـاً معـا، بأن عليهـا الاعتراف بأوكتـافيـان، لكنهما رفضـا الاستجـابة وبذلك حصل الاسكندر على البابوية.

كيف تزوج هنري الملك الأصغر لانكلترا

عام ١١٦٠م، فيـه عاد الملك هنري من طولوز، وزوج ابنه هنري من مـرغريت ابنة ملك فـرنسا، التـي كانت مـوجودة تحت عهـدته، وتسلم ملكية قلعة غيسـور، التي رغب بتملكها منذ زمن طويل، وانزعج ملك فرنسا تجاه ذلك، وادعى بأن ذلك قد عمل قبل أوانه، ولهذا السبب، قام

مع مساعدة ثيوبولد كونت فلاندرز، فحصن شـومونت Chaumont على الرغم من إرادة ملك انكلترا، لكن هنري زحف إلى هناك مسرعاً، وتراجع الملك الفرنسي وكونت فلاندرز، واستسلمت القلعة بعد عدة أيام من الحصار إلى هنري، وذلك مع الخمسة والخمسين فارساً الذين كانوا شحنة فيها، وبناء عليه جرى الاحتفال بالزواج فيما بين الأمير هنري، الذي كان في السابعة من عمره، وابنة الملك الفرنسي التي كان عمرها ثلاثة أعوام فقط، وكان الاحتفال في نيوبورغ Newbourg في اليوم الثاني من تشرين الثاني، بمباركة هنري أوف بيزا، ووليم أوف بافيا، وكانا كاردينالين وممثلين للكرسي الرسولي، ومات في هذا العام ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري.

حول سيامة بارثولميو اكستير والمعجزة التي رآها

عام ١١٦١م، فيه جرت سيامة بارثولميو Bartholomew، الذي كان رجلاً متديناً، وله معارف جيدة باللاهوت، لكرسي أكستير Exet-er من قبل أسقف روكستر، وفيما يتعلق بهذا الأسقف المبجل، يحكى عنه أثر معروف بشكل جيد، بأنه عندما كان يزور أسقفيته، ومركزا جهده حول إنقاذ الأنفس، استراح في احدى الليالي مع رجال دينه، وكانت الاستراحة في احدى قرى المنطقة، وقد نام فوق قطعة أرض مطلة على كنيسة وأرض مقبرتها، وفي منتصف الليل، عندما أفاق لتأدية الصلاة الليلية، وجد المصباح الذي يشتعل بالعادة طوال الليل في غرفته قد انطفأ، ولذلك دعا حاجبه وأخبره بوجوب احضار اضاءة بالسرعة الممكنة، وفي أثناء انتظاره للإضاءة سمع صرخات عدد من الأطفال كانوا يقومون بمسيرة من ساحة الكنيسة، وكانوا يتفوهون بالكلمات التالية بشكل واضح:« الويل لنا، الويل لنا، من الذي سيصلي من أجلنا؟ ومن الذي سيقدم صدقات إلينا، أو سيقيم قداسات من أجلنا؟»، واندهش الأسقف تجاه هذه الكلمات، وتساءل إلى أبعد الحدود

عن المعنى الذي تقصـده، وذهب في الوقت نفسـه الحاجب لإحضار الاضاءة، لكنه لم يجد اضاءة لافي القـاعة ولافي المطبخ، فذهب وهو قلق إلى القـرية، فركض إلى هناك مسرعـاً، فوجـد هناك كاهن الأسقفيـة مع عـدد من الرجال والنسـاء، متحلقين حـول جثة رجل، يبكون وينتفـون شعـورهـم، ولم يهتم كثيرا حـول هذه المسألـة، ولم ينشغل بها، بل وضع الضـوء في مصبـاحـه، ورجع حيث أخبر الأسقف حـول مـارآه، وفـور انتهاء الليل، وعندمـا صار الوقت ضياء، استـدعى الأسقف الكاهن مع بعض سكان القـرية، وسألهم عن الميت وأي نوع من الرجال كـان هو، واتفق الجميع على أنه كـان رجـلاً مستقيماً، كـان يخاف الرب، وكـان أباً لليتـامى ومـواسيـا للمحتـاجين، ذلك أنه كـان قـد أعطى كل ممتلكاته للفقراء، وهو مايزال حياً، وكذلك إلى الغرباء، فضلاً عن هذا احتفظ في بيتـه براهب، حيث أبقـاه على حسابـه ليصلي وليعمل قداسـاً يوميـا من أجل أرواح الموتى، وما أن سمع الأسقف بهذا، حتى أدرك على الفور، أن النحيب الذي سمعـه من سـاحـة الكنيسـة، صـدر عن أرواح الذين كانوا مـدفونين في ساحة الكنيسـة، وذلك أثناء حزنهم على الرجل الذي كان يفيـدهم بصدقاته وقـداساته، ثم بعث الأسقف وراء الكاهن الذي كـان يتـولى تلاوة تلك القـداسـات من أجل الموت، وأعطاه حصـة في الكنيسة، وتمنى عليـه تلاوة قداس وإقامـة الصلوات من أجل الموتى في كل يوم مادام حياً.

كيف عقد ملكا فرنسا وانكلترا معاهدة بين أحدهما والآخر

عـام ١١٦٢م، فيه كـان قـد حشد الآن لويـس ملك فرنسـا، وهنري ملك انكلترا جيشـاً كبيراً على كـلا الجانبين، وكـان من المتـوقع نشـوب معـركة فيما بينهما في فـريتفـال Freitval ، عندما عقد سلم كان غير متوقعا صنعه بينهما، وولدت في العام نفسه إليانور ملكة انكلترا لزوجها ابنـة في روان Rouen ، وأعطت المولودة اسم أمها، وسار رتشارد

أسقف لندن على طريق جميع الأجساد، وأمر الملك بأداء يمين الولاء لابنه هنري، وكان الأول في أداء اليمين توماس، مستشار الملك، الذي أقسم أنه سيكون مخلصاً للأمير الشاب، باستثناء حق ابيه الملك فقط، فهو سيبقى بخدمته طوال حياته وطوال رغبته في حكم المملكة.

كيف جرى اختيار توماس مستشار الملك رئيساً للأساقفة

واجتمع في العام نفسه جميع رجال الدين والناس العائدين لمنطقة كانتربري في وستمنستر، حيث جرى بشكل مهيب انتخاب توماس مستشار الملك، بدون معارضة، لأن يكون رئيس أساقفة، وقد حدث هذا في أحد عيد العنصرة، وتمت سيامة المستشار ليكون كاهنا، من قبل وولتر أسقف روكستر، في كنيسة كانتربري، وفي الأحد التالي جرى تكريسه من قبل هنري أسقف ونكستر وجرى اجلاسه على العرش بشكل مهيب، وعلى الفور تم ارسال رسل إلى روما، وقد قابلوا البابا على هذا الجانب من الألب، وهو داخل إلى فرنسا، وقد عادوا إلى انكلترا، وهم يحملون معهم الطيلسان، الذي وضع على المذبح في كنيسة كانتربري، وبعدما أدى توماس الأيمان المعهودة، تسلم الطيلسان من على المذبح، ووضع على نفسه بشكل مهيب أردية كاهن أعلى، وكان التغيير باللباس عملاً تمهيدياً لتغيير في القلب أيضاً، لأنه تخلى الآن عن الاهتمامات العلمانية، وركز اهتمامه فقط على الاهتمامات الروحية للكنيسة، ولكسب الأرواح.

وأرسل رسلاً إلى الملك في نورماندي، متخلياً عن منصب المستشار، ومعلنا استقالته عن حمل الختم الكبير، وأثر هذا العمل تأثيراً عميقاً على فكر الملك، الذي عدّ نفسه وحده المسؤول عن استقالته، وكانت هذه هي المرة الأولى التي امتلأت فيها نفسه وشحنت نحو توماس، رئيس أساقفة كانتربري، وكان توماس واحداً من سكان لندن، وقد اعتاد منذ صغره على التمتع بالدعاء إلى العذراء المباركة، وبعد المسيح، ركزّ جميع

آماله عليها، وعندما انتهى من تعليمه، دخل في خدمة ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري، وفي أثناء عمله، كسب طريقه لصنع صداقة حميمة وإلفة معه، هذا وليس من السهل الحديث عن كيف أنه في خدماته وأعماله في سبيل قضية كنيسة الرب، قد زار مراراً عتبات الرسولين حول مسائل كانت تتعلق بالأعمال، ولاكيف أنه نجح في القيام بمهامه، ذلك أن عقله كله كان منصرفاً كليا لفحص القضايا وتقريرها، ولتوجيه الناس، وجرت ترقيته أولاً من قبل رئيس الأساقفة لأن يكون رئيس شمامسة كانتربري، وصار بعد ذلك بوقت قصير مستشار الملك، حيث تمكن في إطار عمله بحكمة وعقلانية من إيقاف أعمال سلب الأوغاد الذين كانوا قد تآمروا لسلب أملاك كل من المنطقة والكنيسة، ولعل في هذا كفاية للوقت الحالي فيما يتعلق بالحياة المتقدمة لرئيس الأساقفة توماس، وذلك حتى يكون القارىء قادر بشكل أحسن على فهم الذي سنقوله عنه فيما يلي.

حول التسوية النهائية للخلافات بين كنيستي سينت ألبان ولنكولن

تمّت في هذا العام التسوية نهائياً وسلمياً للخلاف بين كنيسة لنكولن، ودير القديس ألبان، وتولى عرض قضية كنيسة لنكولن والحفاظ عليها من قبل اسقفها روبرت أوف شيسني Chaisney ، أما قضية الدير فتولاها راعي الدير روبرت دي غورهام Gorham ، وكان ذلك بحضور الملك هنري الثاني، وتوماس رئيس أساقفة كانتربري، وروجر رئيس أساقفة يورك، وذلك إلى جانب الأساقفة التالية أسماؤهم: هنري أسقف ونكستر، ووليم أسقف نوروك، وجوسلين أسقف سالسبري، وبارثولميو أسقف اكستير، وهيلاري أسقف سشتر، وهيوج أسقف درم، ورتشارد أسقف كوفنتري، وغيلبرت أسقف هيرفورد، وغودفري أسقف القديس آساف Asaph، وروبرت ايرل أوف ليستر، وكان أيضاً

مسؤول العدالة في انكلترا حاضراً، مع الإيرلات، ورؤساء الديرة، ورؤساء الشمامسة، مع حشد عظيم من الناس، وكان ذلك في وستمنستر يوم الخميس قبل الفصح، ووقتها جرى توقيع الصك التالي:

« ***من روبرت، الذي هو بنعمة من الرب، أسقف لنكولن إلى جميع أبناء أمنا الكنيسة المقدسة، تمنيات الصحة:*** ليكن معلوماً من قبلكم جميعاً، أن الخلاف الذي أنا أثرته ضد روبرت راعي دير القديس ألبان ورهبانه، فيما يتعلق بالدير نفسه، وبالخمس عشرة كنيسة ذوات الامتياز التي يمتلكونها على أراضيهم، والتي أنا أدعي، كأسقف لهم، وجوب أن يكونوا رعية وطائعين لي شخصياً، قد انتهى الآن وإلى الأبد، فلقد تخليت مع موافقة من مجلس الكهنة عن هذه الإدعاءات والمطالبات بحضور الشهود المتقدم ذكرهم، علاوة على ذلك، لقد تسلمت أيضاً بموافقة من مجلس كهنتي، من راعي الدير المتقدم ذكره، مع رهبانه، قرية أوف تنغهيرست Tinghurst مع كنيستها، ومع جميع حقوق الامتياز لعشرة عقارات من الأرض، ليجري تملكها من الآن فصاعداً وإلى الأبد من قبل كنيسة لنكولن، وذلك مقابل التخلي عن الادعاءات المتقدم ذكرها، علاوة على ذلك إن الحقوق التي أدعيها على الدير المتقدم الذكر، ممثلاً بشخص الراعي روبرت وخلفائه، وعلى الخمس عشرة كنيسة المتقدم ذكرها، بمثابة كونها عائدة إلى كنيستي، ولشخصي ولخلفائي، قد تخليت عنها ووضعتها في يدي مولانا الملك نيابة عني شخصياً وعن خلفائي إلى الأبد، وبناء عليه، لتكن— من الآن فصاعداً— الحرية ممنوحة إلى دير القديس ألبان، والخمس عشرة كنيسة المتقدم ذكرها، لتلقي الميرون، والزيت، والمباركة، والتكريسات الأخرى العائدة للكنيسة، من أي أسقف يرضون، من دون أية معارضة منا أو من كنيستنا، وعلاوة على ذلك فإن تلك الكنيسة سوف تبقى حرة في يدي الملك، بمثابة ملك له، لكن الكنائس الأخرى العائدة للدير نفسه

في منطقة أسقفية لنكولن، فلسوف تقدم الطاعة والخضوع الرعوي لأسقف لنكولن، مثل بقية الكنائس، ولكي لاتعود هذه المسألة إلى الخلاف ثانية، قمت بتأكيد هذا الاتفاق الحالي في الكتابة الحالية، وبوضع ختمي هنا عليها، وأختام الكهنة».

وجرى تأكيد هذه التسوية السلمية من قبل الملك، ومن قبل رئيس الأساقفة توماس، والبابا الاسكندر، الذي حذا حذوهما فوافق عليها بموجب صلاحيات الكرسي المقدس، مع الموافقة الكتابية لجميع الكرادلة.

وفي العام نفسه دفع بلدوين، ملك القدس دين الطبيعة، وقد خلفه أخوه عموري.

السبب الثاني لمعاداة توماس رئيس أساقفة كانتربري

عام ١١٦٣م، فيه عاد الملك هنري إلى انكلترا، بعد أنهى عمله فيما وراء البحر، وجاء توماس رئيس أساقفة كانتربري للقائه، وقد استقبله بالقبلة المعتادة، إنما من دون الحظوة الكاملة كما كان واضحاً لجميع الذين كانوا حاضرين، وذلك بإشاحة الملك وجهه عن وجهه، وجرى في العام نفسه، بمبادرة من الملك ومع موافقة البابا، نقل غيلبرت أسقف هيرفورد، إلى كرسي لندن، وجلس على عرشه بشكل مهيب في تلك الكنيسة في ٢٨— نيسان، وكذلك غلب روبرت دي مونتفورت هنري أوف اسكس، في مبارزة واحدة، وذلك بتهمة الخيانة للملك، أما هنري الذي هزم فقد جعل نفسه عرضة للتجريد والمصادرة، لكن سمح له فيما بعد بتدخل من الملك بلبس الرداء الرهباني في دير ردنغ، وفي هذا العام أيضاً عمل رئيس الأساقفة توماس كاهنه غيوفري رايدل Ridel رئيس شمامسة لكانتربري، وجاء ذلك بناء على طلب ملح وسريع من الملك، ومع ذلك لاحظ أن حظوة الملك لم تعد إليه كاملة، وكان الازعاج

الأول له عندما استقال من حمل ختم الملك، وظهر الانزعاج الثاني بالبرودة التي أبداها الملك نحوه عندما استقبله بالقبلة المعتادة، وذلك من دون الحظوة الكاملة، ووضح الآن ذلك للمرة الثالثة عندما منح رئيس الأساقفة رئاسة الشمامسة، حسب طلب الملك، فقد أدرك في ذلك الوقت أن الحظوة الملكية لم تعد إليه كاملة.

وسعى في العام نفسه كليرنبولد Clarenbald راعي الدير المنتخب لدير القديس أوغسطين، للحصول على المباركة المعتادة من رئيس الأساقفة، إنما في كنيسته الديريه، ومن دون مسيرة، وكان يستهدف بهذه الوسائل أن يسحب نفسه من الخضوع لرئيس الأساقفة، واستجاب الملك لرغبات راعي الدير المنتخب هذه، حاثاً على ضرورة المحافظة على العادات القديمة للملكة، وبذلك عاكس رئيس الأساقفة ووقف ضده وكانت هذه المناسبة التالية التي وقف فيها موقفاً عدائياً ضده، وجرى في هذا العام بحث عام وتقصي في أوضاع الممتلكات الإقطاعية في جميع أرجاء انكلترا، وقد تبين من خلال ذلك أنه في مقاطعة كنت، كان المتوجب على دي روز Roos، في تكليفه في بعض الخدمات، الاعتراف بالملك كرئيس له وليس برئيس الأساقفة، وصارت هذه العداوة الشخصية أمراً ثابتاً بالنسبة للكنيسة، وكانت هذه هي المناسبة الخامسة في اتخاذ موقف عدائي من رئيس الأساقفة، وأظهرت المناسبة السادسة نفسها عندما منح رئيس الأساقفة كنيسة آينفورد Eynsford الشاغرة لواحد اسمه لورانس، لكن وليم صاحب القرية، ادعى الولاية على الكنيسة، وطرد لورانس، الأمر الذي نال من أجله الحرمان الكنسي من قبل رئيس الأساقفة، وكان هذا قد حدث من دون استشارة الملك، الذي أبدى انزعاجه الكبير تجاه الاجراءات، والذي ادعى أن من صلاحياته الملكية وجوب عدم تعريض أي اقطاعي رئيسي لديه، أو واحداً من عماله، للحرمان الكنسي، من دون الحصول على إذنه، وذلك

خشيـة امكانية اتصـاله بواحـد محروم كنسيـا من دون أن يعرف، سـواء أكان إيرلاً أو بارونا، والسماح له بقبلة، أو بالحضـور إلى مجلسه للاجتماع به، وظهرت حالة الغضب السابعة للملك، بعد إرساله سفراء إلى روما، للحصول على تثبيت لعادات المملكة، ولدى عودة السفراء، لم يستطيعوا تهدئـة الملك وإزالة غضبـه سواء نحـو رئيس الأسـاقفـة، أو نحو عـدة شخصيات أخرى.

كيف عقد البابا الاسكندر مجمعاً في تور

وعقد في العام نفسه البابا الاسكندر مجمعاً في تور، في كنيسة القديس مـــارتن، وكـــان ذلك في الحادي والعشريـن من أيـار، وحضر هذا المجمع— بناء على إذن من الملك— عدداً كبيراً من الأسـاقفة الانكليز، ورجـال الدين، كما كـان هناك رئيس الأسـاقفـة تومـاس مع أسـاقفتـه المسـاعديـن، وقد جلس على يمين البـابا، في حين جلس روجـر، رئيس أساقفة يورك مع أسقف درم على يساره.

وقـدّم في العـام نفسـه مـالكوم ملك الاسكوتلنديين، وريس Rees أمير ديمشيا Demetia ، أي جنوب ويلز، مع ملوك آخرين، وأمراء كامبريا Cambria، الولاء للملك هنري، وإلى ابنه الأمير هنري، وكان ذلك في اليـــوم الأول من حـــزيران، في وود ستـــوك Wood stock، علاوة على ذلك جرى استـدعاء روجر إيرل أوف كلير Clare، لتقديم الولاء إلى رئيس الأسـاقفـة توماس في وستمنستر من أجـل قلعته قلعـة أوف تونبردج Tunbridgeوتوابعهـــا، لكن بناء على تحريض من الملك رفض، قـائـلاً بأن جميع مـــوارد اقطاع تلك القلعـة ينفق على الخدمـات العلمانيـة للملك، وهي بذلك بيد الملك، وليست بيـد رئيس الأساقفـة، ولقـد كـان هذا السبب الثـامن للعـداوة بين الملك وبين رئيس أسـاقفـة كانتربري.

كيف تمّ الاعتراف بعادات انكلترا في كليرندون

عام ١١٦٤م، فيه جرى اجتماع بحضور الملك هنري، في كليرندون Clarendon ، في الخامس والعشرين من كانون الثاني، وذلك برئاسة جون أسقف أكسفورد، بناء على طلب من الملك، وكان بين الحضور أيضاً رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والإيرلات، والبارونات ونبلاء المملكة، وفيه جرى الاعتراف— أو البحث— ببعض العادات وحريات التصرف العائدة لاجراءات الملك، التي هي اجراءات قضائية لها علاقة بالملك هنري وبجدّه وبآخرين، وهي اجراءات قضائية ينبغي مراعاتها والتمسك بها من قبل الجميع في المملكة، وذلك فيما يتعلق بالخلافات وعدم الوفاق الذي غالباً مايتفجر بين رجال الدين والقضاة التابعين لمولانا الملك، ولنبلاء المملكة، ومن هذه العادات جرى الاعتراف آنذاك بقسط منها هو الموجود في الستة عشر بنداً المقبلة فيما يلي:

١— بالنسبة للأوقاف والهدايا إلى الكنائس؛ إذا نشب أي خلاف بين العلمانيين، أو بين رجال الدين والعلمانيين، أو بين رجال الدين، ينبغي محاولة حسم ذلك في محكمة بلاط مولانا الملك.

٢— لايجوز منح الكنائس الموجودة في إقطاعية الملك، بشكل أبدي من دون موافقته وإجازته.

٣— سوف يجري استدعاء أي واحد من رجال الدين المتهمين بأية جريمة من قبل القضاء الملكي إلى محكمة البلاط الملكي، للإجابة على أي سؤال سوف تقرر محكمة البلاط الملكي وجوب طرحه عليه، وكذلك إلى المحكمة اللاهوتية للإجابة على أية سؤال يقررون وجوب طرحه عليه، هذا ولسوف يرسل القضاء الملكي إلى محكمة الكنيسة المقدسة ليرى كيف ستتم معالجة القضية، وإذا مااعترف رجل الدين أو

أدين، فلن تتدخل الكنيسة في المستقبل لحمايته.

٤— مامن رئيس أساقفة، أو أسقف، أو أي شخص صاحب منصب رفيع، يجوز له مغادرة المملكة من دون الحصول على إجازة من الملك، وإنهم إذا مارغبوا في مغادرتها، سوف يستعد الملك ويملك السلطة— إذا مارغب— في الحصول على الضمانات منهم، في أنهم لن يقوموا لابإيذاء الملك أو المملكة، لافي أثناء الذهاب، أو البقاء، أو الإياب.

٥— ليس على الأشخاص المحرومين كنسيا تقديم كفالة« ad re- manens »، وليس عليهم أداء يمين، بل الذي عليهم تقديمه كفالة مع تعهد، بأنهم سوف يمثلون أمام القضاء الكنسي حيث يجري تحليلهم.

٦— سوف لن يجري اتهام أي رجل علماني، إلاّ بتهم قانونية، وشهود بحضور الأسقف، وبذلك لن يفقد رئيس الشمامسة حقوقه، أو أي شيء يصبح حقاً له من خلال ذلك، وإذا كان المستدعون إلى المحاكمة من النوعية التي لايرغب أحد باتهامهم أو يتجرأ على ذلك، سوف يقوم عمدة القرية، بناء على طلب من الأسقف، بجعل اثني عشر رجلاً مخلصاً، يقسمون أمام الأسقف، بأنهم سوف يعلنون الحقيقة المتعلقة بتلك المسألة وفقاً لضمائرهم.

٧— مامن واحد له مكانته عند الملك، أو أي واحد من خدمه الخاص، سوف يجري حرمانه كنسيا أو وضع أراضيه تحت الحرمان الكنسي، حتى تجري مشاورة الملك، إذا كان في المملكة، أو إذا كان مسافراً فتتم استشارة قضاته، حتى يتم فعل ماهو صحيح حول هذه المسألة، وبذلك تجري تسوية كل ماهو عائد إلى محكمة البلاط الملكي فيها، وكذلك من جهة أخرى بالنسبة لما هو عائد الى المحكمة اللاهوتية.

٨— الالتماسات، إذا ماتم رفعها، فستكون من رئيس الشمامسة إلى الأسقف، ومن الأسقف إلى رئيس الأساقفة، وإذا ماأخفق رئيس الأساقفة في معالجة القضية على الفرقاء الذهاب للمثول أمام مولانا الملك، حتى يمكن بتدخله انهاء الخلاف في محكمة رئيس الأساقفة، وبذلك لن تتطور الاجراءات أكثر من دون موافقة مولانا الملك.

٩— إذا ماانشب خلاف بين علماني وكاهن، حول مبنى، رغب الكاهن أن يدعي أنه ديني، لكن العلماني ادعى أنه ملك علماني، فإن القضية يجري حلها، عن طريق شهادة اثني عشر رجلاً مخلصاً، من خلال المحكمة الملكية الرئيسية، فالشهود سيقررون فيما إذا كان المبني دينيا أو علمانيا، وذلك بحضور قاضي الملك، فإذا تقرر أن المبنى دينيا، فسوف تجري المرافعة على القضية في المحكمة اللاهوتية، وإذا ماكان ملكاً علمانيا، فلسوف تجري المرافعة في المحكمة الملكية، مالم يكن الاثنان قد تداعيا حول مبنى يعود للأسقف نفسه أو البارون، فوقتها تجرى المرافعة في محكمته، وينبغي أيضا عدم حرمان المتولي للمبنى قبل الدعوى حتى يتم القضاء عليه بذلك، واعلانه.

١٠— إذا ماكان أي انسان، ينتمي إلى مدينة، أو قلعة، أو منطقة، أو قرية ملكية، جرى استدعائه من قبل رئيس الشمامسة أو الأسقف للتحقيق معه حول جريمة، ولم يستجب للدعوة، سوف يكون قانونيا وضعه تحت عقوبة المنع، لكن ليس الحرمان الكنسي، حتى يتم اعلام المسؤول الملكي الرئيسي في ذلك المكان بالأمر، حتى يتدبر استجابته للدعوة، وإذا ماأخفق المسؤول الملكي في هذه المسألة، فإنه سيكون تحت رحمة الملك، وسوف، بناء على ذلك، يقوم الأسقف بإرغام الفريق المتهم بموجب النظام اللاهوتي.

١١— سوف يحتفظ رؤساء الأساقفة والأساقفة، وجميع الشخصيات الأخرى ذات المكانة لدى الملك بممتلكاتهم الملكية، مثل البارونات،

ومقابل ذلك سوف يستجيبون لاستدعاء إلى العدالة الملكية وللمسؤولين الملكيين، وعليهم مراعاة جميع العادات الملكية واتباعها، والتصرف باستقامة مثل البارونات الآخرين، حتى يجري تطبيق قرارات العدالة على الأعضاء الخاسرين، أو الموت.

١٢— إذا ماشغرت رئاسة أساقفة، أو أسقفية، أو رعاية دير، أو رئاسة رهبان من مملكة الملك، فلسوف تكون بيده، ولسوف يتلقى منها جميع الموارد، وتكون الإجراءات القضائية فيها مثلما هي في مملكته، وعندما يحين الوقت للتعيين في تلك الكنائس، سوف يقوم مولانا الملك بالتوصية بأفضل الأشخاص إلى تلك الكنيسة، وستتم أعمال الانتخاب في بيعة الملك ومع موافقة الملك وبمشورة الملك بالنسبة للأشخاص الذين سوف يجري استدعائهم لذلك الغرض، وسوف يقدم الشخص المنتخب الطاعة والولاء لمولانا الملك، ليكون سيده ومولاه عن حياته وعن أطرافه، وعن سمعته الأرضية، باستثناء نظمه قبل تكريسه.

١٣— وإذا مارفض أي واحد من نبلاء الملك تقديم العدالة إلى رئيس أساقفة، أو أسقف أو رئيس شمامسة عن نفسه أو عن أي من رجاله، سوف يتولى مولانا الملك الفصل القضائي بينهم، وإذا صدف وقام أي واحد بالاعتداء على أي من حقوق الملك، سوف يتولى رئيس الأساقفة، أو الأساقفة، أو رؤساء الشمامسة إجراء المحاكمة من أجله وتقديم الترضية إلى الملك.

١٤— لايجوز حجز المواشي العائدة للمصادرة لصالح الملك، في الكنيسة أو في المقبرة، مراغمة للعدالة الملكية، لأنهم ملك للملك، سواء أو وجدوا في الكنيسة أم خارجها.

١٥— الالتماسات من أجل الديون المستحقة، سواء أكانت مفروضة بيمين توثيق أم لا، هي من اختصاص المحكمة الملكية.

١٦— لايجوز حجز أبناء الفلاحين من دون موافقة مولاهم، الذي من المعروف أنهم ولدوا في أرضه.

وأقسم على الاعتراف بهذه الطرائق أو وسائل التقصي فيما يختص بالعادات السيئة، والحريات، والمفاخرات، المكروهة من قبل الرب القدير: من قبل رئيس الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، ورجال الدين، إلى جانب الايرلات، والبارونات، والنبلاء، الذين عبروا عن وعودهم سواء بكلمات الفم، أو في كلمات الوعد الصادق، بأنهم سوف يحافظون على هذا كله ويراعونه لصالح مولانا الملك، ولورثته، بإيمان صحيح، ومن دون ريبة بالنوايا، إلى الأبد.

كيف ندم رئيس الأساقفة توماس لتسرعه بإعطاء الموافقة على العادات

ونتيجة لهذه القواعد التشريعية،مارست السلطة العلمانية الجباية من دون معارضة، من جميع المؤسسات اللاهوتية، سواء أتعلقت بالأشياء أو بالأشخاص، خارقة بذلك الامتيازات اللاهوتية، لأن الأساقفة التزموا بالصمت، أو بالحري تذمروا مستهجين صمتاً بدلاً من المقاومة المعلنة، وبناء عليه اكتشف رئيس الأساقفة توماس توريطه لنفسه، وتسرعه في الموافقة على هذه القوانين غير التقية، التي يتوجب على جميع المسيحيين مقتها ورفضها، ولأنه أقسم على مراعاتها، فلقد سبب له هذا ندماً عظيماً، وأثر على نفسه تأثيراً كبيراً، فأخضع جسده إلى استخدام أخشن الطعام، وأقسى أنواع الملابس، وأوقف نفسه عن تأدية الصلوات عند المذبح، حتى اعتقد من قبل البابا الحاكم أن اعترافه وثمار توبته جديرة بتحليله، ذلك أنه أرسل على الفور رسلاً إلى بلاط روما، ليعرض أمام الحبر الروماني، كتابة فيها شرح لقضية الكنيسة، وهي القضية التي كانت أيضاً قضيته، وتمنى على البابا أن يحلله من تعهده المتسرع، ولقد حصل على هذا التحليل في كلمات الرسالة التالية:

تحليل رئيس الأساقفة من قسمه المتسرع

« من الاسكندر أسقف[وخادم عبيد الرب إلى أبنائه بالمسيح، تمنيات بالصحة]، ليكن معلوماً لديكم ياإخوتي بأن أخباراً قد وصلت إلى أذني، أنكم اقترحتم بسبب بعض الاضطرابات والفوضى التوقف عن ترتيل القداس وعن تكريس جسد ودم ربنا، وإن خطورة مثل هذا القرار، وبشكل خاص من قبل هؤلاء الأشخاص الهامين، مع امكانية قيام شرور من ذلك، ينبغي أن يكون موضوعاً لتفكير وتمعن عميق من قبلكم، وأن يشغل ذلك نشاطكم واهتمامكم، ولسوف تتولى حكمتكم تقدير الفوارق بين الأعمال المدبرة وبين الأعمال التطوعية، وبين مايقترف صدوراً عن الجهل أو صدوراً عن الحاجة، لأننا نقرأ بأن الذنب لابد أن يكون دوماً تطوعيا، لأنه لولم يكن كذلك لتوقف عن كونه ذنباً، وبناء عليه، إذا كان بإمكانكم اتهام أنفسكم بأي عمل، ضميركم غاضب منه، مهما كان نوعه، ننصحكم بالاستغفار منه وبالاعتراف به إلى كاهن يكون مستقيماً وحكيماً، وهو إذا مافعل، فإن الرب الرحيم، الذي ينظر إلى قلوبكم أكثر من نظره إلى أعمالكم الظاهرة، سوف يتولى برحمته الغفران لكم، ونحن أيضاً باعتمادنا على فضائل الرسولين: بطرس وبولص، نقوم بتحليلكم مما اقترفتم، وبتحريركم منه بوساطة سلطاتنا الرسولية، وفضلا عن ذلك ننصحكم، لابل نأمركم ، بأن لاتتوقفوا منذ الآن فصاعداً، على هذا الأساس، عن الإحتفال بالقداسات»، [صدر في١— نيسان ١١٦٤م].

كيف رسم الملك بوجوب تلقي رجال الدين العقوبة من العلمانيين

وفي العام نفسه، بما أن الملك كان راغباً بالتأكيد على معاقبة الجرائم بالقسوة المستحقة، وأن كرامة جميع الطوائف ينبغي معاملتها بعدل، أكد

أنه من غير المنطقي، أن يقوم رجال العدالة لديه بالارغام على تسليم رجال الدين، الذين أدينوا بجرائم إلى أسقف الأسقفية من دون عقوبة، ولذلك أمر بأن جميع رجال الدين الذين وجدهم أساقفتهم مجرمين، يتوجب تجريدهم واخراجهم من طوائفهم، بحضور رجال العدالة الملكيين، وأن يسلموا بعد ذلك إلى المحكمة الملكية من أجل المعاقبة، واتخذ رئيس الأساقفة موقفاً معارضاً، بأن مامن أحد يجوز تجريده واخراجه من طائفته من قبل أساقفته، ثم تلقيه بعد ذلك أية عقوبة من محكمة علمانية، لأن ذلك سوف يبدو وكأنه انزال عقوبة مزدوجة على جريمة واحدة، ويعود أصل هذا الخلاف إلى فيليب دي بروك، قانوني بدفورد Bedford الذي عندما استدعي للمحكمة بتهمة القتل، استخدم لغة مهينة نحو القاضي، وهذا مالم يستطع نكرانه عندما مثل أمام رئيس الأساقفة، ولذلك جرد من وقفه الكنسي، ونفي من المملكة لمدة عامين، وكان هذا هو السبب التاسع لتوفر مشاعر البغضاء بين الملك وبين رئيس الأساقفة.

كيف أهين توماس المبارك من قبل الملك في نورثأمبتون وترك المملكة

وبناء عليه، عندما رأى رئيس الأساقفة أن حريات الكنيسة قد أزيلت تماماً الآن، ركب سفينة من رومني Romney ، وعزم على الذهاب إلى روما، من دون علم الملك، لكن الرياح كانت معاكسة، وساقت السفينة عائدة إلى انكلترا، وأضاف هذا سبباً عاشراً إلى العداء بينه وبين الملك، ولهذا السبب جرى استدعائه للمثول أمام القضاة الملكيين، للاجابة على شكوى قدمها جون ماركال Mareschal، فيما يتعلق باحدى القرى، التي— كما قيل— تملكها رئيس الأساقفة من دون اعاقة بتملكها، وذلك لمدة طويلة، وأخيراً وبعد نقاش طويل جرى نقض القرار، وحكم بغرامة للملك قدرها خمسمائة باوند، وقدم رئيس

الأساقفـة على الفور ضمانة بالدفع في ذلك الموضع، وشكـل هذا المناسبة الحادية عشرة للعدوانية ضد رئيس الأساقفة، الذي مازال ضميره نقياً.

واتهم في نورثأمبتـون حـول أعمال عملت أثناء مستشـاريتـه، وظهـر هناك شخصيـاً في الثـالـث عشر من تشرين الأول، حيث تقـرر هناك أن من المتوجب عليـه تقديم حسـاب عن المال الذي كان قـد تسلمه طوال السنين العـديدة التي تسلم فيهـا الأثاث في قلعتي آي Eye وبيركها مبستد، وفيما يتعلق بما كان قبل سيامته لرئاسة الأساقفة، جرىٰ الاعلان من قبل هنري ابن الملك وولي عهده، ومن قبل القضاء الملكي تحرره من جميع المطالب المدنيـة، ومع ذلك حـاول النجاة مـن القرار غير العـادل، بالمرافعـة إلى الكرسي البـابوي، حيث جـرى الحظر على كل أسـاقفتـه المسـاعـدين، وعلى سـواد المؤمنين اصـدار أحكام عليـه، لأنه أبوهم وقـاضيهم، لكن النبـلاء والأسـاقفـة، الذين جمعهـم الملك لهذه الغـاية أصدروا قـرار حكم عليه، مع أنه لم تجر إدانتـه، ولم يعترف شخصياً بأنه مجرم، بل رافع ملتمسا الامتياز له شخصيـاً ولكنيسته، وهكذا قام رئيس الأساقفـة الذي شعر بالضيق، والإهانـة، وبالهجران من قبل الأسـاقفة، برفع صليبه عالياً بيديه، وغادر المحكمة بشكل مكشوف، وقام في الليلة التاليـة بمغادرة البلدة بشكل خاص، وأخفى نفسـه أثناء النهار، وارتحل أثناء الليل فقط، ووصل بعد عدة أيام إلى ميناء ساندوش Sandwich، حيث أبحر في قـارب صغير، وعبر إلى فلاندرز، وهكذا وصـل المدفوع إلى المنفى، والمعترف بالمسيح إلى السين Sens حيث جرى استقبـاله من قبل البابا الاسكندر، ومنح مسكنا في دير بونتني.

إفادات رسل الملك ضد رئيس الأساقفة

وجرى في الوقـت نفسه إرسال رسل من قبل ملـك انكلترا إلى البابا في السين، وقـد أخبروا قداستـه بإصرار كـامل، أنه نتيجـة لخلاف نشب الملك وبين رئيس أسـاقفـة كـانتربري، جـرى تحديد يوم، بمـوافقـة من

الطرفين ، حتى يمكن تسوية الخلاف بينهما في مـؤتمر، وفقا للعدالة، وفي اليـوم الذي تحدد من قبل السلطات الملكيـة، اجتمع رؤسـاء الأساقفـة، والأساقفـة،مع رجال الكنيسـة الآخرين من أجل أن تكـون الإجراءات القضـائيـة معـروفـة من قبل المؤتمر كلـه، وأن يكون من السهل تقصي الأمـور إن كانت عـادلة أو مزيفـة، وأضـافوا أنه في اليـوم المحدد قـدم المفسد للسلام والمثير للاضطراب في المملكة نفسه أمام الملك، غير واثق بعدالة قضيتـه، ورافعاً أمـامه صليب ربنا، وكأنه كـان داخلاً إلى حضرة طاغية، ومع ذلك لم ينزعج جـلاله الملك، بل عهد بالقـرار حول المسألة إلى الأسـاقفـة، حتى يمكن بهذه الطريقـة إزالة جميـع أنواع الشكوك، والذي بقي هو فقط قيـام الأسـاقفـة باتخاذ القرار حـول القضيـة، حتى يمكن إعادة الصداقـة ثانية إلى مابين الفريقين، فيعـودا صديقين، ويدفنا كل العداوات بينهما، لكن الفـريق الثاني قدم اعتراضـاً على أنه سيحاكم من قبل الملك، وأن ذلك فيـه ابتعـاد عن حصانة الكرسي المقـدس، غير مـدرك أنه حتى وقار الكنيسـة وشرفهـا لايجوز تعريضـه بأية وسيلة إلى التسويات، وكـان المرغوب فيه، هو المداجـاة لبعض الوقت حتى يمكن للكنيسة أن تعيش لبعض الوقت بسلام، علاوة على ذلك سارع إلى منح نفسه اسم« أب»، حتى يكون من الرعونة بالنسبة للأبناء إدانة أبيهم، بل أن يكون من الضروري تواضع الأبناء للحفاظ على كـرامة الأب، حتى لايوصلوا كـراهية الأب إلى الأبنـاء، وكان المطلب الرئيسي للسفـراء أن يرسل البـابا اثنين من نوابه، ليقـومـا — من دون التماسـات — بحسم الخلاف بين رئيس الأسـاقفـة والملك، وحـاولوا أخيرا، بوسـاطة مختلف الوعود، إقناع البابا حتى يقوم بتثبيت العـادات والصلاحيات المطلقة في إنكلترا، التي ادعى الملك بـأنها عـاداته الموروثة، وأنها انتقلت إليــه من جده هنري الأول، لكن بعدمـا عاد الرسل وأخبروا الملك بأنهم أخفقوا في مهمتهم، ثار غضبـه، وانفعل كثيرا، وبعث بالرسالة التـالية إلى عمـد مناطق إنكلترا لتعميمها.

رسالة الملك إلى عمدة كنت ضد رجال دين توماس المبارك

إنني آمرك من الآن فصاعداً، أنه إذا ماسيحاول أي واحد، سواء أكان من رجال الدين، أو العلمانيين الاستدعاء إلى بلاط روما، أن تعتقله، وتضعه في السجن حتى يجري اعلام جلالتي، وأن تستولي على، وتضع بين يديك، جميع موارد، وممتلكات رجال دين رئيس أساقفة كانتربري، كما سوف يبين لك راندلوف دي بروك Randolf de Broc وضباطي الآخرين، وأن تعتقل جميع آباء وأمهات، وأخوان، وأخوات، وأحفاد، وحفيدات رجال الدين الذين هم مع رئيس الأساقفة، وأن تضعهم مع قطعانهم في حفظ أمين حتى يجري إعلام جلالتي، وأن تجلب هذه العجالة معك عندما يجري استدعائك.

وكتب إلى غيلبرت أسقف لندن، الرسالة التالية:

رسالة الملك إلى أسقف لندن كما تقدم أعلاه

إنك غير جاهل بالتعامل المؤذي الذي تلقيته أنا ومملكتي من توماس رئيس أساقفة كانتربري، وكيف بانحطاط قد هرب من البلاد، وبناء عليه، إني آمرك أن تتولى منع رجال الدين الذين بقيوا معه بعد فراره، وجميع الآخرين الذين عملوا في سبل الإساءة إليّ أو إلى مملكتي، منعهم من تلقي أية اجراءات قضائية لصالحهم في أسقفيتك من دون إذني، وأن لاتعطي أية تسهيلات أو تأييد مهما كان نوعه لرجال الدين المذكورين

وكتب الملك أيضاً إلى رجال القضاء لديه وفق مايلي:

رسالة الملك إلى رجال القضاء لديه
ضد رئيس الأساقفة توماس المبارك

إذا تم العثور على أي واحد حاملاً رسائل أو توصيات من مولانا البابا، أو من رئيس الأساقفة توماس تحوي منع خدمات تعبدية مسيحية

في انكلترا، ينبغي اعتقـاله وابقـائـه بالسجن حتى تعلم جـلالتي بذلك، علاوة على ذلك، مامن كـاهن، أو راهب، أو راهب نظامي، أو مهتدي، أو أي رجل آخـر، سـوف يسمح له بعبـور البحـر، إلاّ إذا كـانت لديه رسائل مـن قاضينا أو منا شخصياً بشأن عودته، وإذا مـاتم العثور على أي واحد يعمل بشكل معاكس ينبغي اعتقاله وايداعه السجن، ولايجوز لأي انسان الادعـاء إلى البابا أو إلى رئيس الأساقفـة توماس، كما لايجوز النظر بأي دعوى باسميهما، أو تسلم وصاية منهما في انكلترا، وإذا مانظر أي انسـان أو قبل بأية دعـوى من هـذا القبيل، ينبغي اعتقـاله وسجنه، وإذا مـــاراعى أي أسقـف، أو راعي ديـر، أو رجل ديـن، أو علماني، واعترف بأي قرار منـع، فلسوف ينبغي نفيه من المملكـة على الفور، مع جميع أقـربائـه، ولايجوز أن يأخـذ معـه أيـاً من قطعـانه معـه، بل ينبغي الاستيـلاء على قطعانه وكل ممتلكاتـه، ووضعها في أيدينا، وجميع رجـال الدين الذين لديهم مـوارد في انكلترا، سـوف يجري إزالتهـا كليـا في كل منطقـة من مناطق انكلترا، إلاّ إذا عـادوا إلى ممتلكاتهم في انكلترا خـلال ثلاثة أشهر، وذلك إذا رغبـوا في الحفاظ على هذه الممتلكات، ولكن إذا لم يعـودوا إلى انكلترا مطلقـا، فإنه سـوف يجري انتـزاع مـواردهم من أيديهم، هذا ويتوجب مثـول أسقفي لندن ونوروك أمام رجـال عدالتنا، لفعل ماهو صحيح، لأنهما تصرفا بشكل مضاد لقوانين المملكة، وأصدرا قرار منع كنسي ضـد الايرل هيوج، كما أصـدرا قرار حرمـان من شركة المؤمنين ضـد هذا الإيرل نفســه، وواظبــوا على جبــايـة بنس بطرس والاحتفاظ به، حتى تعلموا من جلالتنا الملكية قرارها حول ذلك».

وأمـر الملك أيضـاً بمصادرة ممتلكات كنيسـة كـانتربري مع ممتلكات رئيس الأساقفة وكهنته، وبنفي جميع أقربائه— وهو عمل لم يسمع بمثله في جميع التـاريخ الماضي— بصرف النظـر عن الأوضـاع، أو الجنس، أو العمر، وبدون المبالاة بأن الكنيسة الكـاثوليكية قد اعتادت أن تصلي من

أجل الهراطقـة، والمنشقين، وغير المؤمنين، واليهود، فقـد منع الملك الآن كل انسان من الصلاة من أجل رئيس الأساقفة.

حول الإفادات التي عملها توماس رئيس الأساقفة المبارك أمام مولانا البابا

وعندما وجـد توماس المبارك، وهـو يعاني من كل هذه الأضرار، أنه حـرم من صلوات أسـاقفتـه المساعـدين، انطلق يؤم البـلاط الرومـاني، وهناك عمل الخطاب التالي أمام مولانا البابا:

« إلى حضرتك أيها الأب المقـدس، قد طرت أنـا طالبا اللجـوء، وأنا أنتحب لأن الكنيسة مع امتيازاتها قـد دمرت حسب إرادة الأمراء، ومن أجل هذه القضية، اعتقـدت أنه صحيح أن أمنع نفسي من الاقتراب من الشر، ولقد استـدعيت كرجل علماني إلى أمام الملـك للاجابة على بعض الأمور الإدارية، التي كنت عنها مسؤولاً عندما كنت مستشاراً، علماً أنه في الوقت الذي رقيت فيه، صدر الاعلان بأنني كأسقف منتخب متحرر من جميع الواجبـات المدنيـة، وجـاء ذلـك من قبل الابن الأكبر للملك، ومن قبل قاضي المملكة، وأنا الآن مهجـور في المنطقة التي تطلعت إليها للمساعـدة، لأنني علمت بأن إخواني الأساقفة قـد أرسلوا إلى المحكمة، وهـم مستعدون لاصـدار قرار ضـدي، وهكذا وأنا مسحوق تقـريباً من قبل حشـد أعـدائي، لقـد فـررت إلى حضرتك، التي هي الملاز الأخير للمظلـومين، ففي ظل حمايتك يمكنني أن أبرهن أنه لاتجوز محاكمتي من قبل أولئك الحكام، كما أنه لاتنطبق عليّ أحكامهم، لأن ذلك ماذا يمكن أن يكون سـوى سلب الكنيسـة من حقهـا؟ إن معنى ذلك هو اخضـاع السلطة الروحيـة إلى السلطة الدنيوية، وإنه مـاأن تجري الموافقة على هذه السـابقـة، حتى سيتم تطبيقهـا بشكل عام، ويقـول الأسـاقفـة بأن هذه الأشياء هي التي لقيصر وينبغي تسليمها لقيصر، وإذا كان الأمر كذلك، فينبغي بالحقيقـة إطاعـة الملك في أشيـاء كثيرة، لكن إذا جـرى ذلك

سيتوقف عن كونه ملكاً، ولن يعمله ذلك قيصراً، بل طاغية، وهنا إن الذين سوف يقاومونه، سيفعلون ذلك لصالحهم وليس لصالحي، ومااالذي كانه سبب هذه العداوة الكبيرة، ثم أوليس القضاء عليّ، سوف يكون قضاء عليهم أيضاً؟ ففي الوقت الذي أهملوا فيه واجباتهم الروحية من أجل واجباتهم الدنيوية، لقد أخفقوا وسقطوا معا، وبناء عليه انظر بتمعن، أيها الأب المقدس، بمسألة نفيي وأحوال تعذيبي، وتذكر أنني كنت من قبل في موضع الفخار، وأنني منه طردت ظلماً، وفي سبيلك، طبّق عقوباتك الحادة، واضغط على الذين سببوا هذا العذاب وأثاروه، لكن لاتلق بالقضية أمام باب الملك، لأنه هو الوكيل والأداة، إن لم أقل هو الفاعل لكل هذه المؤامرات.

كيف ألغى البابا الحكم الذي أصدره الأساقفة ضد رئيس الأساقفة

وبعدما استمع البابا إلى هذه الافادات، اجتمع — كما قيل — مع كرادلته للتشاور، وبعد ذلك بعث بالرد التالي على رئيس الأساقفة:« إن الأدنى لايمكنه أن يحكم على سيده الأعلى، وخاصة على الذي هو متوجب عليه تقديم الطاعة له، بحكم كونه أسقفه، وكل من القانون اللاهوتي والقانون البشري واضح تماما بهذا الشأن، وكذلك أوامر الآباء المقدسين، والآن، نحن الذين واجبنا هو تصحيح الذي فعل بشكل ضار، نعلن أن القرار الذي أصدره الأساقفة والبارونات بمصادرة جميع ممتلكاتك، هو ليس فقط مضاداً للعدالة، بل لجميع القوانين اللاهوتية أيضاً، على أساس أنه ليس لديك مقتنيات، غير التي صودرت من الكنيسة، ولذلك قررنا بأن مثل ذلك القرار هو ملغى ولاشأن له، وقد قمنا هنا بموجب سلطاتنا الرسولية بإلغائه، ونعلن أنه لن يمتلك قوة من الآن فصاعداً، ولن يشكل سابقة قانونية فيما بعد بالنسبة لك ولخلفائك، أو بالنسبة للكنيسة التي هي مودعة بعهدتك، وبالنسبة

للبقيـة، إذا كـان أولئك الذين قامـوا بالعـدوان أو تسببـوا بأذى لك أو لكهنتك في الممتلكات أو في الحاجيـات، العائـدة لكنيستك عندمـا تخفق الاجراءات القـانونية في استرداد الذي أخـذوه، أو تقديم ترضيـة مقابلة للأشياء نفسها، عليك عدم التردد في ممارسـة عدالتك اللاهوتية في أول فرصـة مناسبة، وكل ماتراه مناسباً بشكل منطقي لفعله في ذلك الشأن، نحن سـوف نرى ذلك جيـداً وسـاري المفعول، أمـا بالنسبـة لشخصيـة الملك، فإننـا لانعطيك سلطة محددة عليهـا، علما بأننا لانلغـي سلطاتك الأسقفيـة التي تسلمتهـا لدى سيـامتك، بـل على العكس إننا نرغب في الحفاظ عاليها بشكل كامل وسليم»، وانسحب بعد هذا رئيس الأساقفة للعيش في دير بونتني Pontigny.

زواج ماتيلدا ابنة الملك من دوق سكسوني

عام ١١٦٥م، فيه قدم رينالد رئيس أساقفة كولون، الذي كان قد أيد انشقـاق أوكتافيـان ضد البـابا الاسكندر، إلى الملك هنري في وستمنستر لمرافقـة عـودة مـاتيلدا الابنة الكبرى للملك، لتكون زوجـة لهنرى دوق سكسـوني، واستقبله النبـلاء الانكليـز بشكـل فخم، لكن روبرت ايرل ليستر— القـاضي الملكي— رفض تحيتـه بقبلـه، لأنه لم يحلل قط منذ أن جرى حـرمانه كنسيا من قبل البـابا الاسكندر، ولذلك فإن جميع المذابح التي عمل عليها المنشق قداسات جرى هـدمها، وفي العام نفسه ولدت الملكة اليـانور للملك هنري ابنـة أعطيت اسم جـوانا، وجـرت سيـامـة غيوفري، أسقف القديس آساف بالميرون والزيت في كنيسة أول الشهداء الانكليـز، القديس ألبـان، وكـان ذلك عند المذبح العالي، في يوم عشـاء ربنا، وذلك بفضل امتيازات الدير، وبحضور راعي الدير روبرت.

وفي العام نفسه، ألقى نور الدين، الذي كان أميراً تركياً قويا، الحصار على قلعـة حـران، في منطقـة أنطاكيـة، ولدى السماع بذلـك من قبل بوهيمـوند أمير أنطـاكيـة، وريمـوند كـونـت طرابلس، وسلمان أسقف

كليكية، وطوروس أمير أرمينية(الصغرى)، قاموا برفع الحصار، وأرغموا نور الدين على رفع الحصار، وقاموا من دون حذر، وبطيش بمطاردته إلى مسافة بعيدة، لكن نور الدين تمكن من إعادة تجميع رجاله، واستدار لمواجهة مطارديه، فاستطاع أسر النبلاء المتقدم ذكرهم، وألقاهم في السجن في حلب، وتولى بعد ذلك معاودة حصار البلدة والتضييق عليها، فاستسلمت بدون صعوبة مرغمة على فعل ذلك.

كيف حرم كنسيا القديس توماس الذين اعترفوا بعادات انكلترا

عام ١١٦٦م، فيه عبر الملك هنري إلى نورماندي، في بداية الصوم الكبير، وعندما سمع رئيس أساقفة كانتربري بذلك، غادر بونتني إلى فيزلي، وقام في يوم الصعود، بحضور الناس الذين اجتمعوا هناك للاحتفال بالعيد، من كل من السكان المحليين والغرباء، بارتقاء المنبر، وتولى الحرمان كنسياً مع شموع مضاءة، جميع العادات الموروثة لانكلترا، مع جميع المعترفين بها، والمدافعين عنها، والمحرضين عليها بشكل عام، وخص بالتسمية رتشارد دي لوسي، ورتشارد رئيس شمامسة بواتيه، وجوسلين بوليل Baliol ، وألان دي نيفل Neville ، وآخرين كثر، ولكن بما أن جميع هؤلاء قد حرموا كنسياً غيابيا، ومن دون استدعائهم، والتبين أنهم مجرمين، فقد استأنفوا إلى البابا، وأخبروا بذلك رئيس الأساقفة نفسه، ولم يتمنعوا عن الدخول إلى الكنيسة، وبعد مدة قصيرة، جرى إرسال وليم أوف بافيا Pavia، وجون أوف نابل Naples، كمندوبين رفيعي المستوى a latere للحبر الأعظم، وقد استدعيا الملك هنري، ورئيس الأساقفة لمقابلتهما في مونتميريل Mont-mirail ، وشعر رئيس الأساقفة أنهما يميلان إلى ترجيح وجهة نظر الملك، ومع ذلك خضع لحكمهما على شرط، أن يتملك مجدداً هو وكهنته— تماشياً مع قوانين الكنيسة— جميع الممتلكات التي أخذت منهم، ولكن بما أن المندوبين لم يكونا راغبين بالموافقة على هذا، وغير

قادرين، عادا إلى بلاطهما من دون نجاح، وكانا على كل حال، قد قاما أولاً بتحليل الذين تولى رئيس الأساقفة حرمانهم كنسياً، وجرى تحليل آلان دي نيفيل من قبل غيلبرت أسقف لندن، على شرط— أكده بقسمه— أنه وهو على طريقه إلى القدس، سوف يمر بالبابا، وسيلتزم بقراره.

وقدم في الوقت نفسه لويس ملك فرنسا إلى بونتلي، ولكي ينقذ طائفة رهبان السسترشيان من ضغوط ومؤثرات غضب الملك هنري، لأنهم آووا رئيس الأساقفة توماس لديهم لمدة عامين، أخذ رئيس الأساقفة معه إلى سين وحافظ عليه هناك لمدة أربعة أعوام، في دير القديس كولومبا Columba ، وجرى في الوقت نفسه فرض ضريبة أربعة بنسات على كل هايد في جميع أرجاء انكلترا، بهدف ارسال المساعدة إلى الأرض المقدسة، وجرى جرّ بعض الوعاظ بعقائد مزيفة في أكسفورد إلى أمام القضاة، بحضور الملك والأساقفة، وجرت إدانتهم بالابتعاد عن الايمان الكاثوليكي، وجرى أولاً رسم علامات على وجوههم ليتمكن الناس جميعاً من معرفتهم، ثم نفيوا من المملكة، وولدت في السنة نفسها اليانور، ملكة انكلترا، ولداً منح اسم جون، وأيضاً فارق هذه الحياة روبرت راعي الدير الثامن عشر لسانت ألبان، وكان ذلك يوم عيد الرسولين سمعان وجود Jude ، بعدما حكم الدير بكثير من الأبهة خلال أربعة عشر عاماً.

رسالة توماس رئيس الأساقفة المبارك إلى ملك انكلترا

وأمل بالوقت نفسه، توماس رئيس أساقفة كانتربري، أنه بتواضعه في نفسه، سوف يقهر الملك هنري، فكتب إليه الرسالة التالية:

« لقد اشتقت،واشتقت إلى رؤية وجهك، والتحادث معك، جزئيا— في الحقيقة— لصالحي، إنما بشكل رئيسي لصالحك ومن أجلك، ذلك

أنك إذا مـارأيـت وجهي، يمكنك أن تستعيـد في ذهنـك وتتـذكـر، الخدمات التي قـدمتها لك بأعظم حماس، حتـى يكون ضميري راضياً، وبناء عليـه ليعينني الرب، في يوم الحسـاب الأخير، عندما سنقف أمـام حسابه، لنتلقى وفقـاً لما عملنا في الجسد، سـواء أكان خيراً أم شراً، وأن تتـولى الرأفـة علي، لأنني أنا الآن مـرغم على العيش على الصـدقـة، بين أناس غـرباء البـلاد، ومن أجلـك لثـلاثة أسبـاب هي: لأنك مـولاي، وملكي، وولدي في الـروح، وكمـولاي، يتـوجب عليّ أن أقـدم لك مشـورتي، وكملكي إنه مفترض بي أن أقـدم لك الاحترام والتـذكير، وكـابن لي عليّ تهذيبك وتقـويمك، فـالملوك يجري مسحهم على الرأس، وعلى الصـدر، وعلى الذراعين، وفي ذلك إشارة إلى: المجـد، والقداسـة، والقوة، ومعـروف أن الملوك في قديم العصـور، الذين لم يراعوا وصـايا وأوامـر الرب، بل أذنبـوا ضد أوامـره، قـد حرمـوا من كل من المجـد، والقداسـة، والقوة، وخذ مثـالاً على ذلك شاؤول، وسليمان، لكن الذين بعدمـا اقترفوا الذنوب، وتواضعوا بأنفسهم أمام الرب، كـان أن حظيوا بنعمـة الرب، مثلما حـدث لداوود، ولحزقيـا، ولآخـرين كثر، وهنا إذا كنت ترغب يامـولاي بنصيحـة تابعك، وبتهـذيب أسقفـك، وبرعـاية والدك، تمنع عن أن تكون لك صداقـة في المستقبل مع المنشقين،ولاتعقد أية اتفـاقـات معهم، وتذكـر الوعـد الذي قطعتـه، ووضعتـه كتـابة على المذبح في وستمنستر، في أن تحفظ حـريات الكنائس وكنت قـد فعلت ذلك عندمـا كرست ومسحت لأن تكون ملكاً، أعـد كنسية كـانتربري، التي منهـا تلقيت ترقيتك وتكريسـك، إلى الوضع الذي كـانت عليـه في أيام سلفنا، لكن إذا لم تفعل هذه الأشيـاء كن متأكداً أنك سـوف تشعر بقساوة انتقام الرب».

كيف ارتيب بتوماس المبارك من قبل الأساقفة

وكان في العـام نفسه قد سمع مساعـدو الأساقفة لكنيسـة كانتربري،

بأن القديس توماس، ورئيس أساقفة كانتربري قد حرم كنسيا المؤيدين للعادات السيئة لانكلترا والمدافعين عنها، وقد شمل الحرمان بشكل عام كل من أسمائهم مع الملك، وخشية منهم من أن يعيد القرار ضد كل واحد منهم بالاسم، لجأوا إلى الاستئناف مع أن ذلك مضاد للأشكال الاعتيادية للعدالة:

« إلى أبيهم المبجل ومولاهم توماس، رئيس أساقفة كانتربري، من الأساقفة المساعدين للكنيسة نفسها، ومن الأشخاص الآخرين الذين يعيشون في الأسقفية نفسها، خضوع تام، وطاعة: لقد أخبرنا من قبل بعض الأشخاص، أمراً ننزعج لدى استعراضه في ذاكرتنا، وهو أنك أرسلت تهديداً إلى مولانا الملك، حيث حذفت من رسالتك التحية المعتادة، وكل ماجاء فيها من تفكير ومن طعْم للعبارات هو بعيد عن مشاعر الصداقة، فلقد وضعته موضع التهديد بالمنع، وباقتراح اصدار قرار حاد ضده يقضي بقطعه عن الكنيسة، والآن، إنه إذا ماجرى التفوه بهذا القرار بالقسوة التي جرى التهديد بها، نحن نعتقد، ولانتوقع أن الاضطراب الحالي، من الممكن تهدئته، لابل إنه سوف يتفجر لهيباً لخلاف مستمر، ولقد رسخ بمشاعر بعضنا وعقولهم أنه ماأن يظهر الملك نحوك حظوة كبيرة، ومحبة من روحه كلها، وبذلك يضع كل شيء بالكامل تحت سلطتك، فإن ذلك سيكون لمصلحة أناس برأي الدنيا، ينظرون إليك باحترام، وعندما يود هو تفويتك تقلبات الحظوظ الدنيوية، ويبذل جهده لوضعك بشكل ثابت في كنيسة الرب، نأمل بأنه سيتمكن في المستقبل من الحكم بسعادة وأمان، وأن يحظى بمنافع نصائحك الجيدة، ولذلك إنك ربما لن تكون بحاجة للسعي لمدّ يدك على مولانا الملك، وعلى مملكته، وأيضاً على الكنائس والأسقفيات المعهود إلينا بادارتها، ولقد لجأنا إلى الاستئناف، في وجه الكنيسة وضد الأخطاء التي نخشاها، ونجدد نحن الآن استئنافنا إلى البابا، رافعين

التماسنا واستئنافنا في يوم صعود ربنا».

رسالة رئيس الأساقفة توماس المبارك إلى أساقفته المساعدين

« وصلت رسالتكم الجماعية للتو إلينا، لكن لاأستطيع بسهولة أن أصدق أنها صدرت عن حكمتكم الجماعية، وقد ملأتني بالدهشة، وتبدو محتوياتها أنها تحمل مشاعر عدوانية أكثر من المصالحة، وودت لو أنها أمليت بغيرة تقوية ومشاعر رعاية وليس باقتراحات الرغبات المرادة، وشيء واحد يمكنني أن أقوله لكم، إذا ماتمكنت من قوله من دون أن أسيء إليكم: لقد لازمت الصمت طويلاً، منتظراً أن يحدث فيلهمكم الرب، بأن تستردوا شجاعتكم ثانية، بعدما وليتم هاربين في يوم المعركة، وأن يحاول ولو واحد منكم فينطلق ضد العدو، ويعرض نفسه كسور أمام بيت الرب، ضد أولئك الذين لم يتوقفوا يوميا عن ذم جيش الرب، لكن لايوجد ولاواحد سوف ينطلق، وبناء عليه، الرب سوف يقضي بيني وبينكم، ولسوف يحاسبكم على اضطراب الكنيسة، التي سواء أشاءت الدنيا أم لم تشأ، ينبغي أن تقف ثابتة بكلمة الرب، عندما تحين الساعة، وعندما ستنتقل من هذا العالم إلى الرب، هل نسيتم كيف أنني وكنيسة الرب قد جرت معاملتنا في نورثأمبتون عندما حوكم المسيح للمرة الثانية، ممثلاً بشخصي، من قبل محكمة من الأمراء، وعندما أكره أسقف كانتربري، بسبب الإيذاء الذي تعرض له من كل جانب، وتعرضت له كنيسة الرب، إلى التماس السماع له من قبل الكرسي الروماني؟ ومن الذي رأى أو سمع برئيس أساقفة لكانتربري، قد حوكم، وأدين بتقديم كفالة في المحكمةالملكية، وذلك بشكل خاص من قبل أساقفته المساعدين؟ وإذا كان— كما أخبرتموني— كل شيء قد اضطرب لدى مغادرتي للمملكة، دعو الذي تسبب بذلك يتحمل الملامة بشأن ذلك، لأن الخطيئة— بدون شك— جاثية عند باب الذي عمل عملاً ليس من شأنه، والذي انسحب من مواجهة مؤثراته، والذي

تصرف بشكل عـدواني، وليس الذي تجنب الأذى، فبينما كنا في البـلاط ننتظر الاتهام الذي سـوف يقدم ضـدنا، صدر الأمـر إلى موظفينا بعـدم طاعتنا بشكل مطلق في المسـائل الدنيـوية، بل على العكس إطاعة أوامـر الملك، وأمروا بعدم تقديم أية خدمات لنا في حال من الأحوال، وجرى حـرمـان ومصادرة كهنتنـا وعلمانيينا، رجالاً ونسـاء، وأمهـاتاً وأطفـالاً رضع، وحاجيـاتنا، وميراث الذي صلب، قـد أضيفت إلى الخازن: جزء للاستخـدام من قبل الملك، وجـزء لـلاستخـدام من قبل أسقف لندن، وقــد استأنفتم— كما أخبرتموني— إلى البـــابا، لكن لايمكنكم ايقـــاف سلطاتي بهذا الاستئناف، ولامنعي من اتخاذ اجـراءات ضـدكم، أو ضـد كنائسكم، إذا كـــان حجـم عــدوانكم يتطلب ذلك، لأننـا نعلم أن كل واحـد يقدم التماس استئناف، يفعل ذلك باسمـه، أو باسم واحد آخـر، فإذا كـان باسمـه، فـلابـد أن ذلك من خطأ اقترف بحقـه، أو يخشى أن يقترف بحقـه، ونحن الآن متأكـدون— بنعمـة الرب— أن مـامن خطأ لحق بكم من قبلنا، يسوغ لكم تقـديم التماس الاستئناف، وبناء عليه إذا كنتم قد استأنفتم خشية الخطأ، أو خـوفاً من أن أتخذ أي خطوة نحوكم أو نحــو كنـائسكم، فإن هذا ليس استئنافـا يمكنـه تعطيل سلطتي أو سلطاني الذي أتمتع به عليكـم وعلى كنائسكم، وإذا كـان استئنافكم قـد جـــاء باسـم الملك، فـإن ادراككم ينبغـي أن يعلمكم أن التماســـات الاستئناف قـد عملت لمساعـدة انسـان على نفي الأذى، وليس من أجل الايذاء، وللتفـريـج عن المظلوم، وليس لزيادة الظلم، وإذا كـــان الرجل الذي قـد قمع حـرية الكنيسة، والذي غـزاها واستـولى على ممتلكاتها، لم يستمع إلى التماس استئنافـــه، يكون أدنى منه بكثير الذيـن يتقــدمــون بالتماسـات استئناف إليـه، ونحن لانقــول هذا، لأننا فعلنا، أو ننوي أن نفعل أي شيء متطـرف، يمكن أن يـؤثر على مـــــولانـا الملك، أو على مملكتـه، أو على أشخـــاصكم، أو على كنائسكم، وكنا نعتقــد أننا أكثـر عرضة للنقد لطول معاناتنا، لامن أجل قسوتنا أو حدتنا، وبناء عليه إننا

نخبركم باختصــار وبشكل حــاسم، بـأن مـولانـا الملك، لايمتلك أي مســوغ للشكوى، وإذا كـانت أعمال التـذكير التـي تسلمهـا من كل من البابا ومنا أنفسنا، بدون تأثير، فلابد وقتهـا للملامة اللاهوتية أخيراً، أن تأخذ سبيلها ضده».

وفي الرســالة نفسهــا، أمـر رئيـس الأســاقفـة غيلبرت، أسقف لندن، بحكم طاعته، أن يقوم خلال أربعين يوماً بعد استلام الرسالة بإعادة— من دون تأخير، أو تعليل— كل الذي جرى تحويله للاستخدام من قبل كنيستـه، من المصــالح العائـدة للكنيســة مع الممتلكات الكنسيــة للكهنة الذين نفيــوا من المملكة مع رئيس الأســاقفــة، وهي الممتلكات، التي وضعت بموجب أمر الملك تحت عهـدة الأسقف المذكور، وعندما تلقى الأسقف هذه الأوامر، كتب إلى ملك انكلترا، بما يلي:

« لقـد كان جـلالتكم قد تفضل بالأمـر بوضع الكنائس العائـدة إلى كهنة رئيس الأساقفة، والموجودة في أسقفيتي لندن وكنت، تحت عهدتنا، والرب يعـرف، أن عمل المعـروف هـو الذي دفعنا للقيـام بهذا الحمل، حتى إذا مـــاتمكن الكهنة أنفسهـم من استرداد حظـوتكم، مـن تسلم كنائسهم ثانية دون أن يلحقها ضرر، لكن رئيس الأساقفة المتخفي، كان ينتظر فـرصته ضـدي دون سواي، وسعى لأن يحول ضـدي ولضرري، التصرف الذي أملت أن يكون مفيـداً للآخـرين، ففي رســالـة جـرى تسلمهـا للتـو، قد أمـرني، بحكم طاعتي، بـأن أعيد إليـه شخصيـاً وإلى كهنتـه كل مـاانتـزع منه ومنهم، ولذلك أتمنى على جـلالتكم أن تسندوا العناية بهذه الكنائس إلى شخـص آخـر، حسبما تراه مناسبـاً، ومبلغ المال الذي تسلمته منهم، وهو مائة باوند وثمانية باوندات، وأربعة عشر شلناً، وستـة بنســات، يمكن أن أسلمها إلى عهـدة انسـان أو آخـر، حتى يبين المولى الطريقة التي يمكن بها إنهاء هذه المسائل».

رسالة البابا الاسكندر إلى رئيس الأساقفة توماس

في عام ١١٦٧م، كتب البابا الاسكندر، إلى رئيس الأساقفة توماس كما يلي: « احتذاء بمثل سلفينيا: باسكال، ويوجينيوس، صاحبا الذكرى المباركة، نحن نعطي إليك، وإلى خلفائك، رئاسة كنيسة كانتربري، كاملة كما كانت متملكة من قبل لانفرانك Lanfranc، وأنسلم، وأسلافهما وبالنسبة لجميع المناصب والامتيازات المعروف أنها عائدة إلى الكنيسة، نحن نقوم بتأكيدها بالرسالة الحالية، مثلما تمتع أسلافك بها، وذلك بموجب سلطات الكرسي الرسولي، منذ أيام القديس أوغسطين».

وفي العام نفسه انتقل إلى الرب، روبرت أسقف لنكولن، وكان رجلاً عظيم التواضع، وكان ذلك في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني، وجرى أيضاً اختيار سيمون رئيس رهبان سانت ألبان لأن يكون راعي تلك الكنيسة، من قبل غيلبرت أسقف لندن، وبمهابة جرى تكريسه أمام المذبح العالي في الدير.

ونشب في ذلك الوقت خصام بين ملكي فرنسا وانكلترا، كانت نتيجته أن شمومنت Chaumont على مقربة من غيزور Gizors، قد أحرقت من قبل النورمان، وجرى أسر عدد كبير من الفرسان ومن السكان، ولكي ينتقم من هذه الفعلة أحرق ملك فرنسا قرية أندلي An-delis ، وعاد إلى فرنسا في اليوم نفسه، وقد فقد أكثر من ألف رجل أثناء زحفه، وبعد أمد قصير، جرى أسر كثير من الفرسان الفرنسيين في منطقة بيرشي Perche، من قبل النورمان.

رسالة الملك هنري إلى رينالد رئيس أساقفة كولون

عام ١١٦٨م، فيه غضب الملك هنري ضد البابا الاسكندر، لمنحه رئاسة انكلترا إلى رئيس أساقفة كانتربري، فقام بإرسال الرسالة التالية إلى رينالد رئيس الأساقفة المنشق في كولون، وكان عدواً للاسكندر: «

لقد رغبت منذ زمن طويـل، في أن أجد سبباً مسـوغاً لسحب نفسي من البـابا الاسكندر ومن كـرادلتـه الخونة، لأنهم يقومـون برعـاية رعـاياي العصـاة ضدي، وأعنـي بذلك تومـاس رئيس أساقفـة كـانتربري، وبناء عليه، إنني— بناء على موافقة باروناتي وكهنتي— على نية إرسال سفارة إلى رومـا مكونة مـن الشخصيـات البـارزة في مملكتي وهم التـاليـة أسماؤهم: رئيس أسـاقفة يورك، وأسقـف لندن، ورئيس شمامسة بواتيـه رتشارد دي لوسي، وجون أوف أكسفورد، ليعلنوا بوضوح وبشكل عام إلى البابا الاسكندر، وإلى كرادلته، نيابة عني وعن رعيتي في جميع أرجاء ممالكي، بأن عليهم بعـد الآن عدم التمسك بقضيـة ذلك الخائن، بل أن يحرروني منه، وذلـك حتى أتمكن، بمـــوافقــة كهنتي مـن تعيين رئيس أساقفة آخر لكرسي كـانتربري، وأن عليهم القيام على الفور بإلغاء جميع قـرارات تومـاس المذكـور، وهم أيضـاً سـوف يطلبـون أن يقسم البـابا بشكل علني عن نفسه وعن خلفـائه، القيـام بالاعتراف بجميع العادات الملكيـة لجدي الملك هنري الأول، بشكل كامل وبدون خـرق إلى الأبد، لكن إذا رفضـــوا تقـديم الموافقــة على أي من مطالبي، لن أقـــوم لاأنا ولاباروناتي ولاكهنتي بـالاستمـرار بطاعتهم، بل سنأخـــذ بشكل معلن مـوقفاً ضـد البابا نفسـه وضد كـرادلته، ولسـوف أطرد من المملكة كل واحـد، سـوف يؤيد من ذلك الوقت مـوقفـه، وبناء عليـه أطلب منك، كصـديـق عـزيز لنا، أن تـرسل على الفـور إلينا، وبـدون تأخير الراهب أرنولد الاسبتـاري، ممثلاً لك شخصيـاً وللامبراطور، ليتـولى مـرافقـة السفـراء خـلال ممتلكات الامبراطور، ووداعـاً،» ولقـــد روي من قبل بعض الكهنة كتّـاب الملك، بـأن غيلبرت أسقف لندن، قـد أملى هذه الرسـالة، بناء على طلب الملك، ليـدمـر قضيـة البـابا، ورئيس أسـاقفـة كـانتربري، والكنيسـة الانكليـزية بمجملهـا، ولذلك حـدث في إحـدى الليالي، أنه عندمـا كان غيلبرت متمـدداً في فراشـه وهو مستيقظ، وكان يفكر، مـن دون تقـــدير، كيـف يمكنه أن يسبـب الأذى والاضطراب

لرئيس الأساقفة، بوساطة هذه الرسالة المثيرة للاضطراب، سمع صوتاً مرعباً يقول له بصوت مرتفع وبعبارات واضحة:

ياغلبرت فوليوت Foliot

وأنت تفكر حول مثل هذه الأشياء الكثيرة

إن ربك هي عشتروت

رسالة البابا الاسكندر إلى غيلبرت أسقف لندن

وفي حوالي الوقت نفسه، كتب البابا الاسكندر، إلى غيلبرت، أسقف لندن حول قضايا كنيسة كانتربري كما يلي:« لانعتقد أنه زال من ذاكرتك، كيف قام ولدنا المحبوب في المسيح، هنري ملك انكلترا اللامع، فطلب منا بشكل رسمي مع كثير من الإلحاح، في أن نسمح لك بالانتقال من كرسي هيرفورد، الذي كنت تترأسه آنذاك إلى كرسي لندن، ولكي يقنعنا بالموافقة على طلبه، ألح كثيراً على الحاجة الملحة لذلك وعلى الفائدة من مثل هذا الاجراء، على أساس أن لندن كانت هي مقرة الملكي، ولأنه عدّك متفوقاً على سواك في التقوى والاستقامة، ولذلك أراد أن يستفيد من نصيحتك، في كل من المجال الروحي والدنيوي، وذلك فيما يتعلق بخلاص الأرواح وتحسين سلطته والحفاظ عليها، ولهذه الأسباب أرادك أن تكون على مقربة منه، ولذلك قدرنا كم ستكون المنفعة من تقواك وحكمتك لخلاص الملك ومملكته، والفوائد التي يمكن أن تنجم عن ذلك، فقدرنا تماما رغباته، ووافقنا على وجوب انتقالك إلى كرسي لندن، وبناء عليه جاءت موافقتنا بالاستجابة لطلبه، وكان ذلك ترقية لمقامك، ولكي يكون نشاطك المفرح في سبيل تحسين الكنيسة والحفاظ عليها، والعمل بمزيد من الاخلاص، حتى يمكننا أن نلاحظ الخير المتوقع وقد أخذ يتدفق من النوايا الملكية، ونعتقد الآن، أنك لايمكن أن تكون جاهلاً، إلى أي مدى ابتعد الملك عن انصرافه

التقوي نحو الكنيسة، وفي مجالات كثيرة، منهـا مثلاً في الالتماسات، وفي الزيارات، وفي الاتصـالات مع الذين كان قـد جرى حرمـانهم بالاسم، ومع المنشقين، ولقيـامـه بإرغـام أخـانا المبجل، تومـاس رئيس أسـاقفـة كانتربري، على مغادرة مملكته، وبذلك بدا، وكأنه بالفعل يعذب الكنيسة ويظلمهـا، وبنـاء عليـه نحن نسألك بسبـب حـرصك على مصـالحهـا، ونحثك في الوقـت نفسـه ونأمـــرك فيما يتعلق بأخينـا المحترم روبرت أسقف هيرفـورد، لحث الملك باخـــلاص ونصيحتــه في أن يتخلى عن مقـاصـده في جميع المجـالات العـدوانيـة، وأن يقـدم ترضيـة صحيحـة وتكفيراً عن ذلك، وأن يعـود في قلبـه إلى محبـة خـالقـه، وأن ينظر بعين احترامه المعتادة إلى الكنيسة الرومانية المقدسة، التي هي أمه، وأن لايعيق الذين يودون زيارتها، وأن لايمنع الذين يودون تقديم الالتماسـات إليها من فعل ذلك، وأن يعيد استدعاء أخـانا المتقدم ذكره أي توماس رئيس أسـاقفـة كانتربري، إلى كـرسيـه، وأن يظهـر نفسه ابنا مخلصـاً للقـديس بطرس، ولنا أنفسنا، وأن ينصرف إلى أعمال الرحمة والشفقـة، حتى يقوم الذي من خلالـه يحكم الملوك، بحفظ مملكته الدنيويـة له، مادام هو على الأرض، وأن يمنحه مملكة دائمـة فيما بعد في السماء، ومالم يبـادر مسرعاً بتقويم هذه الأخطاء، عليه أن يخشى من أن يكون الرب غـاضباً غضباً شـديداً، من أجل ذلك كله، وأن ينتقم منه انتقـامـاً حـاداً، مـادمنا نحن أنفسنا بتنا غير قادرين أن نكون صـابرين أكثر، كما أننا لانحث على هذا بسبب دوافع تتعلق بنا أنفسنا، بقـدر ماالأمـر متعلق به، لأننا نرغب في علو مجده، ورفعة مقامه من قلبنا وروحنا».

الرد المفترض لغيلبرت أسقف لندن على البابا الاسكندر

« تم تلقي أوامرك الشرعية، ياأبانا الأعز في المسيح، مع كل الاحترام المستحق، وقمنا على الفـور بـالمثـول شخصيـاً أمـام ابننا العـــزيز، الملك اللامـع لانكلترا، وفيما يتعلق بأخينا المبجـل روبرت أسقف هيرفـــورد

حثثناه بإلحاح ووفقاً لما جاء من أوامر في رسالتك، وعرضنا أمامه جميع الخصوصيات في رسالتك، والتمسنا منه وتناقشنا معه، حول ماهو لائق بالجلالة الملكية، من أنه إذا مابتعد في أي مجال عن الطريق القويم، عليه أن لايتأخر — بناء على تشجيعنا — على العودة إليه، وأن يتبع نصائح أبينا، بالابتعاد عن الأعمال الشريرة، وأن يحب الرب من كل قلبه، وأن ينظر باحترامه المعتاد إلى الكنيسة الرومانية، وأن لايمنع الذين يودون زيارتها، وأن لايحول دون رفع الالتماسات القضائية إليها، وأن يعيد إلى أبينا السيد رئيس أساقفة كانتربري كرسيه، وأن يظهر نفسه ابنا تقياً وثابتاً للقديس بطرس، وأن يصرف اهتمامه كله إلى أعمال التقوى، وأن يتوقف عن الإضرار بالكنائس وبرجال الدين، أو أن يعرضهم للأذى من قبل الآخرين، حتى يقوم الذي من خلاله يحكم الملوك بحفظ مملكته الدنيوية له، مادام باقياً على الأرض، وأن يمنحه بعد ذلك سيادة دائمة في السماء، وإذا لم يصغ إلى هذه الآراء السليمة، فقداستك التي تحملت حتى الآن التعامل بصبر، لن تقوم بعد الآن بالمعاناة أكثر، وقد تلقى الملك تشجيعنا مع كثير من الشكر، وأجابنا بلطف حول كل جزء منها، وقد أكد في المقام الأول أنه لم يبتعد بعقله عنكم، وأنه لم ينو نوايا أخرى مطلقاً، شريطة أن تبدي نحوه رعاية أبوية من أجل مصالحه، أكثر من أن تحبه كأب له، من أجل تأييد ورعاية الكنيسة الرومانية المقدسة، وأن يطيع أوامرك، باستثناء مايعرض كرامته وكرامة مملكته للضرر، وإذا كان لم ينظر إليكم بالاحترام المعتاد، فهو يقول بأن سبب ذلك هو مايلي: فهو قد حافظ على احترام حاجاتك وقضيتك بالعناية من كل قلبه، ونفسه وروحه، وقوته، أما أنتم فلم تبادلوه الشيء نفسه في وقت الحاجة، لابل إنه تشكى أنه في كل شيء تقريباً قد طلبه منكم، ووجه من قبلكم بالرفض، وصدوراً عن الثقة بمحبة الأب، الذي سوف يصغي دوماً إلى التماسات وتضرعات ابنه، وأملاً في عطايا لطيفة من اهتمامك، هو سيبقى ثابتاً ومستمراً في تقديره للقديس بطرس ولك، وسوف لن يمنع

أي انسان من زيارتك، ثم إنه لم يمنع أحداً من زيارتك في الماضي، وأما بالنسبة لالتماسات الاستئناف، فإنه يدعي بأن هذا امتياز خاص به، وهو واجبه، بموجب العادات القديمة لبلاده، حتى لايقوم أي رجل دين من مملكته بمغادرة المملكة من أجل دعوى مدنية حتى يحاول الحصول على العدالة في إطار سلطات الملك الخاصة ورعايته، لكن إذا توفر أي اخفاق في العدالة في هذا المجال، فوقتها يمكن الاستئناف إلى غبطتكم، ووقتها لن يقوم الملك بأي اعتراض على ذلك، وفي ظل هذا العنوان نفسه أيضاً، إذا كانت حقوقكم وامتيازاتكم قد تعرضت للإساءة في أي مجال من المجالات، يعد الملك بأنه سوف يتولى اصلاح ذلك بكل سرعة، بعون الرب، وبمشورة جميع رجال الدين في ممتلكاته، أما بالنسبة للامبراطور، فإنه مع أن الملك يعرف أنه منشق، هو لم يسمع قط أنكم قمتم بحرمانه كنسيا، وإذا ماأخبرتموه بأن هذا هو الحال، وكان الملك قد دخل في أية علاقات غير قانونية معه، أو مع أي شخص آخر، فإنه سوف يترك هذه النقطة أيضاً إلى قرار وقضاء الكنيسة في ممالكه، فضلاً عما تقدم أكد الملك أنه لم يرغم أبانا رئيس أساقفة كانتربري على مغادرة المملكة، ذلك أنه غادرها باختياره الشخصي، ويمكنه أن يعود إليها بحرية كما تركها، شريطة أنه في رضاه عن النقاط التي اشتكى حولها، هو سوف يعترف مخلصاً بعادات الملك الملكية، التي أقسم عليها، وإذا أمكن البرهنة على أن أي كنيسة، أو شخص لاهوتي قد أخطأوا بحقه، هو على استعداد لتقديم التعويض، وفقاً لحكم الكنيسة كلها، فهذا الجواب الذي تلقيناه من مولانا الملك، الذي كما يبدو يضع بشكل رئيسي، قضيته، على الارادة باحالة كل نقطة إلى حكم الكنيسة في ممالكه، ونتأمل من غبطتكم أن تتذكروا في أذهانكم القول:« لاتقطع قصبة مكدومة، ولاتطفىء كتانا يدخن»، وإذا كان على هذا الاعتدال يرضيك، لبعض الوقت في حدود التعقل، فإن الحماس الذي شرع بالانتقام لكل خطأ لحق بكنيسة الرب، بوساطة التهديد بإصدارك قرار

المنع، أو أخيراً بقرار الحرمان الكنسي، وإنك بذلك سوف تلحق الضرر بعدد لايحصى من الكنائس التي تهدمت، وبذلك سوف تبعد عنك الملك مع عدد لايحصى من الأشخاص معه، وعن ولائك، لاسمح الرب بذلك، لأن الدم الملكي يسمح لنفسه فقط بالغلبة عندما يزول من الوجود، لكن ليس من العار لديه التنازل لدى كسبه للنصر، ونحن في الحقيقة عندما نتكلم إليك هكذا حمقى، إنما في حدود الرعاية الحقيقية، والحظوة، لأنه إذا كان يضع نهاية لهذه القضية، في أن يفقد رئيس أساقفة كانتربري كل شيء، وأن يقنع نفسه بالنفي، في حين تتوقف انكلترا عن الخضوع لسلطانك، فإن هذا سوف يكون أفضل لبعض الوقت، ومسايرة للحال، من أن نكون عبيداً لمثل هذا النوع من الممارسات القاسية، لأنه إذا كان التعذيب لم يكن قادراً على فصل المزيد وابعادهم عن طاعتك، لن تكون هناك حاجة إلى بعض ممن سيركعون إلى بعل، أو يقبلون من دون تقدير للدين بتلقي طيلسان كانتربري من يد الوثن، كما لن تكون هناك حاجة إلى رجال يشغلون كراسينا المقدسة، ويظهرون طاعتهم له مع جميع التقوى التي في عقولهم، وكثيرون قد تكهنوا متنبئين بمثل هذه الأشياء، آملين بقيام الاعتداءات وعلوها، وبإمكانية تدمير الاستقامة، ولهذا السبب، نحن ياأبانا الأعظم قداسة لانتحب لسوء حظنا فقط، وإنك مالم تقابل الشر بكل سرعة، نخشى أن تتدمر كنيسة الرب بشكل مهين، وأن نصبح يائسين من حياتنا، وأن نلعن اليوم الذي ولدنا فيه».

وفي العام نفسه، حرم رئيس الأساقفة توماس كنسياً، آلان دي نيفيل لأنه وضع في السجن قسيسه وليم، ومات كونان إيرل بريطانيا الصغرى، وترك من خلال زوجته كونستانس، أخت ملك الاسكوتلنديين، ابنة ورثت ممتلكاته، وهي التي أخذها هنري زوجة لابنه غيوفري، وبعمله من أجل إقامة السلام في كل مكان من بريتاني

قام بارضاء عقول كل من رجال الدين والناس في تلك المقاطعة.

رسالة البابا الاسكندر إلى الملك هنري فيما يتعلق بالمصالحة مع توماس المبارك

عـام ١١٦٩م، فيه كتب البـابا الاسكندر إلى ملك انكلترا، حـول مـايتعلق بكنيسـة كـانتربري كما يلي: « غـالبـاً مـاقمنا بـوسـاطة الأبوة والمشـاعـر الطيبـة بالاتصـال بجـلالتكم، وحثثناكـم بكل من الرسـائل والرسل للمصـالحة مع أخينا المحترم توماس رئيس أسـاقفة كـانتربري، وأن تعيـد إليـه وإلى كهنتـه كنائسهم، وممتلكاتهم الأخـرى، وهو أمـر حكمتكم السـاميـة لايمكن أن تخفق في معـرفتـه، لأنه بـات معـروفـاً ومنتشراً، في كل جزء تقريبـاً من العالم المسيحي، وبناء عليه بما أننا حتى الآن لم نحـرز تقـدمـا في هـذا المجـال، كما لم نخمـد بالتصرف اللطيف الغضب في ذهنك، نحن حـزينين وآسفين لذلك، ويؤلمنا أن نجـد بأن آمـالنا قـد هزمت، وخـاصـة لأننا نحبك باخـلاص بمثـابة ابننا الأعـز بالرب، ونحن نرى خطـراً عظيماً يتهـددك، ولقـد كتب:« اصرخ عـاليـا ولاتتوقف، وارفع صوتك مثل بوق، وأعلن إلى شعبي تجاوزاته»، ولهذا قررنا عدم الاستمرار بتحمل قساوة قلبك، كما هو الأمر حتى الآن، من أجل تأمين العدالة، وكـذلك خلاصك، كما أننا لن نستمـر في إغلاق فم رئيس الأسـاقفـة بأية وسيلة من الـوسـائل، أو نمنعـه من تأدية واجبـه بحـــرية، ولســـوف ننتقم بالسيـف اللاهوتي الحاد، من الأخطـاء التي اقترفت بحقه شخصيا، وبحق الكنيسة الموضوعة بعهدته».

وكتب البابا أيضاً إلى سيادة[رئيس أساقفة] كانتربري بما يلي:« بما أننا حتى الآن قـــد انتظرنا طويـلاً مع الصبر واللطف، لأن يتـــوب ملك انكلترا، وكررنا حثه باتصالات لطيفة ومهـدئة، وأحياناً بقسوة وملامة، حتى يعـود إلى شعـوره الصحيح، نقـوم الآن بإعـلامك بأنه إذا لم يُعـد إليك ولأصحـابك، وكـذلك إلى الكنيسـة جميـع الممتلكات والمناصب

الرفيعـــة التي انتــزعت، إنـك تمتلك السلطة الكاملة بممارســةالنظام اللاهوتي وتطبيقـه على جميع الأشخــاص والأفـراد التـابعين لسلطانك، باستثناء فقط أشخــاص الملك، وزوجتـه، وأولاده، ومن دون التماس، شريطة فعـل ذلك مع الحكمـــة والوعـي، حسبما يتماشى مع اعتـــدال الكهنة».

وفي الوقت نفســه، قــام غيلبرت أسقف لندن، حتى يتجنب قــراراً بحقه من رئيس أساقفة كانتربري، بتـوجيه الدعوة لاجتماع رجال الدين والناس من مـدينة لنـدن، في يوم الأحـد الأول من الصـوم، في كنيسـة القـديس بولص، ورفع التماس استئنـاف إلى الكرسي البـابوي، ومع أنه غـالبا مـاجرى حثـه من قبل رئيس الأسـاقفة نفســه، لإعـادة الكنائس والمنافع إلى كهنته، وهو مـاكان قد تلقاه وعهـد به إليه من الملك، وذلك مع جميع الأمتعة والحاجيات التي أخذها منه ومنهم، مع ذلك استمر في عصيانه ولهذا كله، وللاجراءات القانونيـة، قام رئيس الأساقفة، دون أن يعلـم بالتماس استئنافـه، فحـرمــه بشكل مهيب، في كليرفـو، يوم أحـد السعف، وذلك بحكم كونه مؤيـداً للعادات الظالمة للملك، وحول هذا الموضوع تعطينا الرسالة التالية فهما كافياً.

كيف قام رئيس الأساقفة توماس بحرمان أسقف لندن كنسياً

« **من تومــاس، بنعمـة الرب، رئيس أســاقفـة كــانتربري، والنائب للكرسي البابوي، إلى غيلبرت أسقف لندن، الذي يرغب بأن يقول أخيه، لو أنه ابتعـد عن الشر وعمل الخير**، لقـد تحملنا إسرافك طويلاً، ونأمل أن لايكون صبرنا حاسماً بالنسبة للكنيسة كلها، كما هو بالنسبة لأنفسنا، فلقد أفسدت صبرنا، ولم ترغب بالاصغـاء إلى البابا أو إلينا أنفسنا بشأن النصـائح المتعلقة بخـلاصك، لكنك بعنادك صرت أسـوأ فأسـوأ، حتى قمنا صدوراً عن تقديرنا للواجب المقدس، واستجابة لمتطلبات الشريعة، ومن أجل أسباب واضحـة، باصدار قـرار بحرمـانك كنسياً، وبفصمك

عن جسد المسيح المقدس، الذي هو الكنيسة، حتى تقوم بترضية موائمة، ولذلك نحن نأمرك بحكم طاعتك، وخشية على خلاصك وعلى مقامك الأسقفي، وعلى الأنظمة الكهنوتية، أن تتمنع— كما تقضي القوانين الكنسية — عن جميع الاتصالات مع المؤمنين، خشية أنه بالاتصال بك، سوف يضل قطيع الرب ويتدمر، في حين أنه ينبغي أن يتوجه بتعليمك، وأن يقاد بمثلك إلى حياة سرمدية».

والآن مع أن الأسقف كان قد رفع التماس استئناف قبل صدور القرار ضده، تواضع وأطاع أوامر رئيس الأساقفة، وتوقف عن الدخول إلى الكنيسة، وبرسالة من رئيس الأساقفة وجهها إلى عميد لندن وإلى رجال الدين أمرهم بالتوقف نهائيا عن الاتصال بالأسقف.

وفي هذا العام أيضاً، تزوجت إليانور ابنة الملك هنري، من ألفونسو ملك كاستيل.

رسالة الملك هنري إلى غيلبرت أسقف لندن

« من هنري، ملك انكلترا، إلى محبوبه والمخلص له، غيلبرت أسقف لندن، تمنيات بالصحة ومحبة: لقد، سمعت بالاساءة التي ألحقها بك وبآخرين من رعيتي، ذلك الخائن، والعدو لي شخصياً، توماس، وأنا منزعج من ذلك إلى حد، وكأنها وقعت عليّ شخصياً، وبناء عليه ليكن بمعلومك شخصياً وبشكل مؤكد أنني سأبذل جهدي، من خلال مولانا البابا، وملك فرنسا، وجميع أصدقائي، في أن لايكون بمقدوره من الآن فصاعداً توجيه الأذى إلينا وإلى ممالكنا، وإنني أريد، وأنصح أن لاتدع هذه تؤثر على تفكيرك، بل عليك الدفاع عن نفسك بأفضل ماتستطيع، وإما أن تقدم إليّ إلى هنا على الفور إلى نورماندي، أو البقاء في انكلترا، حسبما تراه مناسباً، ذلك أنني أدع هذا إلى مشيئتك، وعليك أن تكون متأكداً، أنك إذا ماقررت القدوم، ومتابعة السفر إلى روما،

سوف أزودك بكل شيء ضروري لرحلتك، أو أن ذلك يمكن أن يفضي بي للحفاظ على كرامتي».

كيف أرسل البابا نواباً عنه لصنع سلام بين الملك وبين القديس توماس

وجرى في العام نفسه ارسال مندوبين سامين هما: فيفيان Vivian وغراشيان Gratianus ، لصنع سلام بين ملك انكلترا ورئيس أساقفة كانتربري، ومع أن سلطتيهما كانت متساوية، فقد كانت مواقفهما متباينة، وبدا أنهما في النهاية لن يتوصلا إلى اتفاق، لأنه منذ البداية كانت مشاعرهما متصارعة كثيراً، وهكذا أخفق غراشيان في الحصول على حظوة لدى الملك، وفيفيان لدى رئيس الأساقفة، فقد مثلا بحضرة الملك، وكذلك أمام رئيس الأساقفة في بيوكس Bayeux في نورماندي، وبعد مناقشات كانت تقريباً بلانهاية، بدت بوادر للتوصل إلى اتفاق، عندما أرسل وليم رئيس أساقفة السين رسالة يحذر فيها المندوبين— وفقا لتعليمات كان قد تلقاها من البابا— من الاستمرار في المباحثات من دون أخذ رأيه، والتداول معه، ولذلك غادر المندوبان بلاط الملك دون أن يكملا أي شيء، لأن الملك هنري لم يكن على استعداد للتوصل إلى أي اتفاق، مالم يتم تقديم الاحترام الكامل للعادات السيئة لمملكته ومفاخرها، وهذا مالم يكن المندوبان يعتقدان أنه من الموائم الموافقة عليه.

رسالة الملك هنري إلى البابا الاسكندر

وعبر في العام نفسه غيلبرت، أسقف لندن، البحر، ليمثل أمام البابا الاسكندر، وليقدم إفادة عن دواعيه إلى الاستئناف، وقد عبر من خلال نورماندي، حيث كان هنري، وتشاور مع الملك حول كيف يمكنه أن يتغلب بالمراوغة على رئيس أساقفة كانتربري المبارك، ويسوّد قضيته

الصحيحة في عيني الحبر المقدس، واتفقا أخيراً معا، على أن يرسل الملك إلى روما سفارة مهيبة تذكر بشكل واضح، أنه مالم يقم البابا على الفور وبشدة بقمع عجرفة رئيس الأساقفة، سوف يعلن هو نفسه وجميع باروناته وكهنته عن تخليهم عن الطاعة إلى البابا، وكان فحوى رسالة الملك كما يلي:

« تعلم جلالتكم السامية بشكل جيد مدى القلق الذي لحق بي من قبل عدوي توماس، مع أن ضميري يشهد بأنني لم أستحق ذلك، فأنا لم أعمل شيئاً يستحق كل هذا الغضب، وقد أضاف الآن أذى جديداً إلى الكثيرين، واستمر ولم يتوقف عن إيذاء واحد هو بريء، فبتفويضك كما أعلن، قد حرم كنسيا هؤلاء الذين هم أبناء أتقياء خلص للكنيسة الرومانية، وأقصد بذلك أسقفي لندن وسالسبري مع بعض أصدقائي، مع أنه لايمتلك سبباً معقولاً ضدهم، وكم هو صعب بالنسبة لي التعامل مع مثل هذا التصرف، وكم ذلك مضر بسمعتي وسمعتكم، وأعتقد أن هذا ليس من الصعب عليكم إدراكه، هذا ويبدو لي أن عنايتكم الأبوية قد أهملتني كلياً، لأنكم سمحتم لعدوي بزيادة آلامي وشقائي، في الوقت الذي يتوجب فيه أن يقوم اعتدالكم الأبوي بإيقاف عنفه وظلمه، ولذلك ألتمس وأتمنى على سموكم، كما هو صحيح، أن تظهروا نحوي العاطفة التي أستحقها كابن، لتصحيح— من دون تأخير— الأذى الذي اقترف بحقي وبحق مملكتي، ولإزالة كل ماعمله خصمي مما هو مضاد للعدل، ضدي وضد رعيتي، سواء أكانوا من الكهنة أو من العلمانيين، لأنه يتوجب عليك الاستجابة إلى الطلبات التي تقدمنا بها إلى تقديرك الأبوي، آخذين بعين التقدير أنك عندما بعثت برسوليك: فيفيان وغراشيان، بأنه ينبغي أن نعيد إلى رئيس أساقفة كانتربري رئاسة أساقفيته، وحظوتنا، وضعنا جانبا كل تقدير لكرامتنا، ووافقنا، أمام المندوبين نفسيهما، مع ثمانية رؤساء أساقفة،

وأساقفة، ورعاة ديرة، مع أن توماس كان قد غادر المملكة دون أن نعلم بذلك، ودون وجود أي إكراه من جانبنا، على أنه يمكنه العودة مجدداً بسلام وأن يستأنف كل أعماله ويسترد كل ممتلكاته، كما تركهم في اليوم الذي غادر فيه المملكة، ومثله كذلك جميع كهنته الذين غادروا المملكة معه، أو من أجله، إنما مع الحفاظ دوماً على كرامة المملكة، وبناء عليه نحن نلتمس من سموكم الرفيع أن تقدروا بعناية الاحترام والخدمة التي قدمناها لكم ولبلاطكم، وسنستمر في تقديمها، مالم يكن ذلك من خطأ منكم، في أن تستمروا بالاعتدال تجاه المسائل القائمة حاليا، أي في أن لاتستمر شرور ذلك الخائن والمتمرد الذي هو من رعيتي، وأن لايشوش أذهاننا الصافية، بل أن تقوم تماشياً مع استراحاماتنا بتحليل أولئك الذين حرموا كنسيا، وأن تتدبروا أن لايقوم ذلك الحاقد نفسه بإصدار قرارات حرمان كنسي ضد آخرين، وخشية أن تصموا أذنكم عن سماع التماسنا، فندفع نحو اليأس من حسن عواطفكم نحونا، وأن تدفعونا، بحكم الضرورة، إلى البحث عن وسيلة لأمننا بعد ذلك، وبما أنه من الصعب في أن ندون كتابة كل مانرغب في قوله، نبعث إلى أقدام كرسيكم الأبوي، خادمينا الموثوقين: رينالد رئيس شمامسة سالسبري ، ورتشارد دي باري Barre ، اللذان سوف يوضحان بكلمات الفم كل الذي حدث، وجميع المسائل التي نود أن نوصلها إليكم».

كيف شوّه رسولا الملك قضية رئيس الأساقفة كثيرا جداً.

ووصل رسولا الملك إلى البلاط الروماني، ووضعا أمام البابا رسالة سيدهما، مع أشياء أخرى عهد بها إليهما، وابتغيا بوساطة الهدايا ولغة الإطراء، جعل البابا يميل إلى إيثار الملك، والذي فعلاه يمكن العثور عليه في الرسالة التي أعادها البابا إلى رئيس الأساقفة توماس، والتي جاءت بدايتها كما يلي:

« تعرفون بغيرتكم النشاط والعناية اللذان أبداهما ابننا العزيز في

المسيح الملك هنري ملـك انكلترا، في حكمـه لمملكتـه، وقـد طلب منا إعطاءها قـوة على سلطة الكنيسـة الرومانيـة، وأن تبقى عـادات المملكة القديمـة وامتيازاتها من دون نقصـان، ثم إنه طلب مني زيادة على ذلك بالحاح أن أمنح السلطة القـانونيـة على انكلترا كلهـا إلى رئيس أسـاقفـة يورك، وتقديراً منا للوضع الحرج لهذه الأيام، قد منحنا السلطة القانونية إلى رئيس أسـاقفـة يورك، وذلك بناء على طلب الملك، لكن مع الوعـد السالف لرسـوليه، بناء على كلمـة الصدق، وتأكيـد ذلك باليمين، بعدم إعطاء الرسـائل إلى رئيس أساقفـة يورك من دون موافقتك»، وأيضـاً في رسالة أخرى أمـر البابا رئيس الأساقفة المتقدم الذكـر، بموجب طاعته، أن لايتفوه بقـرار منع، أو حرمان كنسي، أو تعليق، ضـد الملك، أو ضد مملكتـه، أو ضـد رعيتـه، مالم يصر الملـك على عناده، فيرفض قبل بداية الصوم الكبير أن يعيـد إليه حظوته مع الممتلكات العائدة إليـه شخصيا، وإلى كهنتـه، وذلك من أجل خـلاص روحـه، والهدوء لحكمـه، وحكم ورثته إلى الأبد» .

المعاناة العقلية لرئيس الأساقفة المبارك

هكذا كـانت إذن نار المحنة، والمعاناة العقليـة، التي عـاشها تومـاس المعترف الجريء، حتى أنه شرع الآن يتألم في عقله بآلام الشهـادة التي لم يصلها بعـد في جسده، لأنه رأى الذي يتـوجب أن يكون قائـد القوات العسكرية للكنيسة لم يقف بنفسه أمام سـور الدفاع عنها في يوم المعركة، بل انهزم مثل كبش من دون قـرنين، ولـذلك قنط الآن، وفقـد كل أمل من انســان، وصرف تفكيره لتلقي المواســاة من الرب، وصلى من دون توقف من أجل أوضـاع الكنيسـة، مـرهقـاً جسـده بالسهـر، والصـوم، والصـلاة، من أجل الذين كرهوه وعـذبوه، وبتنهدات ودمـوع صلى إلى الرب ليحفظ الكنيسة، التي أنقـذها وكرسهـا بدمه، ومن الذي يستطيع وصف المعاناة والآلام العقلية لرجل الرب هذا، الذي سيق والده وأمه،

وأخـوانه، وأخواته، وأحفـاده وحفيداته وكهنتـه وموظفيـه الدينيين، إلى المنفى بسببه، وأجبر هو، على الرغم من مكانته السامية في كنيسة الرب، وهو حزين، على أكل خبـز الغرباء، في أرض أجنبيـة، ولكن على اعتبار أن مـامن واحـد وصل فجأة إلى الكمال، فإن آلامـه وقعت لتمتن عقله، ولتمكنه من تلقي شرف الشهادة من حـد السيف، لأن مكان استشهاده لم يحدد له بعد.

صيغة الالتماس الذي قدمه رئيس أساقفة كانتربري إلى الملك

وفي العام نفسه، في الثامن من يوم عيد القديس مارتن، وبوساطة من الحبر الأعظم، جـرى عقد مـؤتمر في باريس بين ملكي فرنسـا وانكلترا، وقـد حضره رئيس الأساقفـة من دون أن يمثل في حضرة الملك هنري، وهنا بعـد صرف وقت طويل في محاولة المصـالحة بين الملك وبين رئيس الأسـاقفـة، قام رئيـس الأساقفـة هذا، بناء على نصيحـة ملك فـرنسـا، وأساقفته، ونبلائه، الذين كـانوا حاضرين، بإرسال الالتماس التالي كتابة إلى ملك انكلترا:

« نحن نسأل مولانا الملك، استجـابة لأوامر مولانا البابا ولنصـائحه، في أن يقـوم مـن أجل محبـة الرب، ومـولانا البـابا، وتشريفـاً لكنيستنا المقدسة، ولخلاص كل من نفسه وورثته، فيتقبل بحظوته جميع الذين من أجلنا، وكـانوا بصحبتنا، قـد نفيوا من المملكة، وأن يمنـح إلينا سلامـه، وأمـانا تامـا على يديه نفسـه وعلى أيدي المشـايعين له، من دون تراجع، وأن يعيـد إلينا كنيسة كـانتربري، كـاملة ومتحررة، كما أخـذناها عندمـا عملت رئيسـاً للأسـاقفـة، مع جميع ممتلكاتها، لنتملكهـا، ولنضعهـا بين أيدينا، حـرة، ومطمئنة ومشرفـة، كما ينبغي للكنيسـة، وكما ينبغي لنا أن نستحـوذ عليهـا، أي مثلها كانـت عندما جـرت أولاً ترقيتنا إلى مـرتبـة رئاسـة الأساقفة، وأن يسمح بالطريقة نفسهـا لجميع أتباعنا أن يتملكوا جميع كنائسهم مع جميع الأوقـاف العائدة لرئـاسة الأسقفيـة، التي غدت

خالية منذ أن غادرنا المملكة، وأن نتصرف بهم وكأنهم ملك لنا، وحسبما يبدو جيداً لنا ولأتباعنا».

ورفض ملك انكلترا الموافقة على هذين الشرطين، لأنه بالنسبة لشرط إعادة التمليك، بما أنه لم يرغم رئيس الأساقفة على مغادرة انكلترا، هو لم يكن مجبراً، وفقاً لكرامته الملكية، على دفع أي شيء، أو نقض منح الكنائس الشاغرة، التي منحت إلى بعض الأشخاص، هذا وأكد الملك بحضور ملك فرنسا أنه على استعداد لتقديم ترضية إلى رئيس الأساقفة، أو إذا رغب في مناقشة القضية بعرضها للمحاكمة في قصر الملك في باريس، أمام رجال دين فرنسيين، أو أن يستمع للمرافعات من الجانبين فريق من العلماء من جميع المناطق، وهكذا فإن الملك الذي كان جلب لنفسه من قبل المشاعر السيئة لكثير من الناس، ربح بهذه الاقتراحات تأييدهم، وبهذه الطريقة، وبوساطة أصدقائهم، صار من الممكن تحقيق اتفاق بين الملك وبين رئيس الأساقفة، لكن الملك رفض منحه قبلة السلام، مع أنه كان على استعداد لمنحه كل ضمانة، لكن رئيس الأساقفة من جانبه، رفض عمل أي سلام، إلاّ إذا استطاع أن يضعه على قواعد ثابتة وأمينة.

كيف أقسم نبلاء بريتاني يمين الولاء إلى الملك هنري وإلى ابنه غيوفري

عام ١١٧٠م، فيه عقد، هنري ملك انكلترا بلاطه في يوم عيد الميلاد، في نانتي Nantes مع أساقفة وبارونات بريطانيا الصغرى، الذين أقسموا جميعاً يمين الولاء له ولولده غيوفري، ثم عبر في الصوم الكبير التالي إلى انكلترا، وكاد أن يغرق مع جميع أناسه.

تحليل أسقف لندن

وفي هذا العام أيضاً، وصل غيلبرت أوف لندن إلى ميلان وهو على

طريقه إلى روما، وهناك تسلم رسالة من مولانا البابا، فيها الاعلام التالي:« لقد أمرنا رئيس أساقفة روان، وأسقف اكستير، بأن يتلقيا منك، عوضا عنا، يمينا بأنك سوف تلتزم بالقرار الذي صدر ضدك، ومن ثم القيام بتحليلك، على أساس أن لايتسبب حرمانك الكنسي أية خسارة في مرتبتك أو مقامك، أو يسيء إلى سمعتك من الآن فصاعداً»، وبذلك نجح الأسقف بتحقيق هدف رغباته، وجرى تحليله بشكل علني في روان في يوم أحد الفصح.

حياة وفضائل القديس غودريك الناسك

وفي هذا العام نفسه، غادر هذه الحياة غودريك Godric الناسك، إلى الحياة الأبدية، وسوف نقدم فيما يلي بعض الملاحظات عن حياته، ومعجزاته، ونهايته المجيدة، لأنه سيكون من الظلم بالنسبة للقديس أن نمر مرور الكرام بأعماله المجيدة، وكان صديق الرب هذا قد ولد في نورفولك Norfolk، وكان اسم ابيه أيلوورد Ailward واسم أمه إيدوينا Eadwenna، وقد ربي من قبل والديه في قريته وولبول Wal-pole، وهناك أمضى شطراً من حياته بصحبتهما، وبعدما أمضى السنين البريئة من طفولته، أصبح تاجراً، في البداية بصورة متواضعة، ثم أصبح بعد ذلك يتردد على السوق العام مع التجار الآخرين، وفي أحد الأيام عندما كان يسير وحيداً على الشاطىء، وجد ثلاثة دلافين مرمية من قبل البحر، وقد بدا واحداً منهم ميتاً، والاثنان الآخران يموتان، ولأسباب انسانية، ترك اللذين كانا حيين دون لمسهما، وحمّل نفسه قطعة من الذي كان ميتاً، وانطلق عائداً إلى البيت، ثم أخذ التيار بالارتفاع كما هي العادة، ووصلت المياه في البداية إلى قدميه ورجليه، وأخيراً ارتفعت حتى رأسه، لكن بما أنه كان قوي الايمان، تابع سيره تحت الماء، بتوجيه من الرب حتى وصل إلى الأرض الجافة، وقدم السمكة إلى والديه، وأخبرهما بكل الذي حدث له.

وكان في بعض الأحيـان يستغرق بالتأمل عندما يكون وحيـداً، حول الأشياء السماوية وحول الصلاة الربانية والعقيدة، ولحماسته للدين ذهب إلى سـانت أندرو في سكوتلندا للصلاة، وبحماسـة ليست أدنى من ذلك ذهب إلى رومـا، وبعـد عـودته من هناك ألحق نفسـه ببعـض التجـار، وأسهم في النقل بالبحر، مما درّ عليه ثروة كبيرة إلى حد أنه صـار مالكاً لنصف سفينة وربع أخرى، ولكونه قـوياً بجسده ونشيطاً في عقله أبحر إلى مختلف بلدان العالم، وزار الأماكن المقدسة للقديسين.

حول الفتاة التي تدبرت للقديس غودريك حجه

وبعدما أمضى ستة عشر عـاماً في الربح من هذه الرحلات التجارية، قرر أن ينفق في سبيل الدين الثروة التي جمعهـا بجهوده، وبناء عليه حمل الصليب وزار بخشـوع ضريح ربنا، وفي طـريق عـودته إلى انكلترا مـرّ[بمزاز] القديس جيمس [في كـومبوستالا في اسبانيـا]، وشعر بعد مضي بعض الوقت بالرغبة بزيارة العتبات[المقدسة] للرسولين، وأوصل هذه النية إلى والديه، وعندمـا عبرت أمه عن رغبتها بمـرافقته، إذا سمح لها، وافق بسرور، وبطاعة بنيوية، وقـد حملها على كتفيه، كلما تطلبت وعوره الطريق ذلك، وعندمـا عبرا خـلال لندن اقتربت منهما امـرأة ذات جمال عظيم، وطلبت الإذن بالالتحـاق بحجهما، وقـد وافق على ذلك بدون تردد، والتحقت بهما بنشـاط عظيم وتقـوى، ذلك أنها غسلت أقـدامهما وقبلتهما، وخـدمتهما أحسن من الآخـرين، وتصرفت على هذه الصـورة طوال الطريق في الذهـاب وفي الإياب، ومـامن أحـد سألها مـن كـانت ولامن أين جـاءت، كما أنها لم تذكـر ذلك قط، ولدى مـرورهما خـلال لندن أثناء عـودتهما، حصلت على مـوافقتهما بالمغـادرة، وقـالت لهما قبل مغـادرتها:« حان الوقت بالنسبـة لي للذهاب إلى المكان الذي جئت منه، وأنت ينبغي أن تقدم الشكر إلى الرب، الـذي لم يهمل قط الذين وضعوا ثقتهم به، وأنا أخبرك أنـه من المؤكـد حصـولـك على الذي صليت من

أجله في روما، من الرسولين»، وما من أحد من الجماعة رأى هذه المرأة، باستثناء غودريك وأمه فقط.

كيف ذهب رجل الرب للاعتزال في الصحراء بعد عودته إلى الوطن

وبعدما أعاد أمه بالأمان إلى حماية أبيه، باع كل ماكان يمتلكه، وتلقى مباركتها، وتركها من أجل أن يصير ناسكاً، في أقصى مناطق انكلترا، وذهب إلى مدينة اسمها كارلآيل، حيث وجد بعضاً من أقاربه وقد حصل من واحد منهم على هدية حوت بعضاً من مزامير القديس جيروم، التي شرع بعد وقت قصير بتلاوتها عن ظهر قلب، ثم ذهب من دون أن يعرف رفاقه للاعتزال في الغابات، حيث عاش لبعض الوقت على الأعشاب والثمار البرية، وجاءت الأفاعي والحيوانات المتوحشة ونظرت إليه، ثم كان أن تركته بعد مضي بعض الوقت دون أن تسبب له أي أذى، وأمضى في هذه الصحراء أياماً كثيرة كناسك، حيث كان في بعض الأوقات يجثو على ركبتيه، وفي أوقات أخرى وهو رافع ذراعيه نحو السماء، أو ساجداً على الأرض، وطوال ذلك كان يصلي بشكل متواصل إلى الرب، وأخيراً وجد مكاناً، كان كهف ناسك، وقد دخل إليه، حيث تلقى تحية« مرحبا ياأخ غودريك» وقد رد عليها بقوله: « كيف أنت ياأب إيلريك Ailric ؟» مع أنه لم يعرف أحدهما الآخر من قبل، وأجابه الرجل العجوز: « لقد أرسلت من قبل السماء لتدفن جسدي الشائخ بعدما أموت»، وعاش هذان الرجلان مع بعضهما لمدة عامين، مع أن أيا منهما لم تكن لديه أية حاجيات، وأخيراً صار الناسك العجوز ضعيفاً جداً، وكان غودريك يحمله، ويجلب إليه الطعام، وقد أحضر له كاهنا ليسمع اعترافه، وقد قدم له القربان، وعندما رأى غودريك بأن حالته قد تدهورت قال له:« إن روحك قد خلقت مشابهة للرب، لذلك أرجو بحق الرب القدير أن لاتغادر هذا الجسد من دون علمي»، وبناء عليه مات الرجل العجوز على الفور،

ورأى غـودريك نوعاً من الأجسـاد الكروية، مثل ريح حـامية ومحرقـة، أشعت مثل أكثر الزجاج صفـاء في وسط بياض لامثيل له، مع أنه مامن أحـد يمكنه وصف حجم الروح وصفـاتها، ولدى انتشـار أخبار مـوت الرجل المقـدس، ووصـولها إلى رفـاقـه الذين كـانوا في بلاط كـوثبيرت Cuthbertحيث عاش المتـوفى عندما كـان شاباً، قـاموا بدفنه في مقبرة درم.

كيف ذهب غودريك المبارك إلى القدس وعاد سالما

بعدما جـرى دفن الراهب المتقدم الذكر، عـاد غودريك إلى الصحراء متسائلا عن طبيعة الارادة الربانيـة حوله، وبينما كان يصلي باخلاص إلى الرب حـــول هذا الموضـــوع، جـاء صـــوت من السماء يقـــول له:« من الأفضل لك الذهاب إلى القـدس والعـودة ثانيـة»، كما ظهـر كـوثبيرت المعترف المقدس للمسيح، له وهو يقـول:« إذهب إلى القدس، وانصلب مع الرب، وأنا سـوف أكـون هنـاك معـاوناً لك وحـامياً في كل شيء، وبعـدمـا تكمل هذه الـرحلة، سـوف تخدم الرب تحت حمايتي في فنشلي Finchale ، وعاد غودريك إلى درم، وحمل الصليب، وتلقى مباركة الكاهن، وفي أثناء رحلتـه لم يأكل شيئا سوى خبـز الشعير، وشرب ماء، كما أنه لم يغير ثيابه ولم يغسلها حتى وصل إلى الأماكن المقدسة، وعندما وصل إلى ضريح الرب، والأماكـن المقدسة الأخـرى، صلى بخشوع إلى الرب، وسكب كثيراً من الدمـوع، وقبل الأماكن طويلاً وبخشـوع كان من الصعب أن يفكر أحـد أن ذلـك ممكنا، ثم إنه ذهب إلى نهر الأردن، وهو يرتدي المسوح، ويحمل كأساً في جعبتـه، وصليباً صغيراً، حمله دوماً بيـده، ودخل إلى النهر، الذي أحبـه دوما فيما بعـد، وخلع ثيابه، وتقـدم نحو الأمام واغتسل وتنظف، لكنه رمى بنعليه وقال:« أيها الرب القدير الذي قد سار حافياً على هذه الأرض وتألم بقدميه حين خرقتهما المسامير على الصليب، أنا لن ألبس بعد الآن أحذية»، وبعدما وفى بعهده بالحج،

عاد إلى انكلترا.

كيف اختار غودريك المبارك بإلهام من الرب مسكنه في فنشلي

وبعدما عاد من الحج، وجد مكاناً سرياً في الغابة، في الشمال من انكلترا اسمه اسكديل Eskdale اعتقد أنه مناسب للسكنى به، وبناء عليه بنى كوخاً من جذوع الشجر، وغطاه بالعشب والطين، وسكن هنا سنة وبضعة أشهر، ولكن عندما بدأ ملاك الأرض بإزعاجه، تركها وذهب إلى درم، حيث تعلم بسرعة المزامير مجدداً، وصار يعرف كثيراً من المزامير، والترانيم والصلوات، وذلك بما فيه الكفاية، وبناء عليه ألهم في أحد الأيام من عليين، فذهب إلى غابة في الجوار، حيث سمع راعياً يقول لرفيقه« دعنا نذهب ونسقي مواشينا في فنشلي»، ولدى سماع غودريك هذه الكلمات أعطى الراعي البنس الوحيد الذي امتلكه، لكي يقوده إلى ذلك المكان، وفي أثناء سيره نحو داخل الغابة قابله هناك ذئب حاد، له حجم غير عادي، وقد اندفع نحوه وكأنه يريد تمزيقه إلى قطع، واعتقد غودريك أن ذلك كان واحداً من خدع العدو القديم فعمل شارة الصليب بيده قائلاً:« أستحلفك باسم الثالوث المقدس أن تغادر من هنا بسرعة، إذا كانت العبادات التي أنوي تقديمها إلى الرب في هذا المكان مقبولة إليه»، وبهذه الكلمات سجد بنفسه مع قدميه غير التقيين، وكأنه يطلب العفو من الرجل المقدس.

كيف سكن القديس غودريك في فنشلي بين الحيوانات المتوحشة والأفاعي

وبناء عليه عزم غودريك على عبادة الرب في هذا المكان، فقام، بناء على إذن حصل عليه من رالف أسقف درم فعمل كهفاً بالأرض قرب شاطىء نهروير Wear ، وبعدما غطاه بالعشب والطين سكن فيه بين حيوانات البرية والأفاعي، وكان عدد الأفاعي مرعباً، لكنهم كانوا جميعاً

مـدجنين نحو رجل الرب، سمحـوا لأنفسهم بالحمل والتناول، وكـانوا مطيعين لأوامره وكـان في بعض الأحيان عندما يجلس أمـام النار، كانوا يلتفون حـول رجليه، أو يكورون أنفسهم في صحنـه أو كأسه، وبعـدما أمضى بضع سنوات على هذه الشاكلة من الحياة، رأى أن الأفاعي تعيق صلواته، ولذلك عندما رآهم في أحد الأيام من حوله، كما جرت العادة، أمـرهم بعدم دخـول بيته ثانيـة، وبناء عليـه تركته هذه الهوام تمامـا، ولم تعاود عبور عتبته، وعندما كـانت الهدايا من الطعام وأشياء أخرى تقدم إليه رفضهم جميعا، مفضلاً العيش بوسـاطة العمل في أرضه، وقد أحرق بعض أغصـان الشجر وفروعهـا حتى صارت رمـاداً، ومزج الرمـاد مع طحين الشعير بنسبـة الثلث للجميع، وأخضع الجسـد وطوّعـه بالبكاء، والسهر، والصوم، وبناء عليه كـان يمضي أحيانا ستة أيام من دون أكل، وبعـدما حـاول الشيطان إغواءه بالـرفاهيـة، ظهر له على شكل حيـوان متـوحش: أحيانا على شكل دب، أو أسـد، أو ثور، أو ذئب، أو ثعلب، أو علجوم، وحـاول إخافتـه، غير أنه كان قويـاً في إيمانه، فاستخف بهم جميعاً، ولكي يخمد نار الجسـد، أخضع جسمه باستخـدام أخشن أنواع المسـوح، وارتدى لمدة خمسين سنة سـابغـة من الحديد، وكـانت مـائـدته حجرة عـريضة مسطحة، عليها وضع خبـزه كما وصفت نوعه من قبل، غير أنه مـاكـان ليتذوقـه حتى يرغم بجـوع حتمي، وكـان شرابه نقـاطاً معتدلة مـن الماء، وفقط عندما كـان يجد نفسه مرغماً بعطش شـديد، ولم يسترح قط في الفـراش بل كـان يتمـدد على الأرض عندما كـان يشعـر بالانهاك، ومسوحه تحته، ورأسه مستند على الحجر الذي اتخذه مائدة له، وعند اشراق القمـر، كان يصرف نفسـه إلى عمله، ويدع النوم، ويمضي الوقت بالصـلاة، وفي الشتـاء وسط الثلـج وتسـاقط البرد، كـان يدخل النهر عارياً، وهناك كان يقـدم نفسه طوال الليل قربانا حياً للرب، والماء واصل إلى رقبتـــه، وكـــان في هـذا الوضع يتـــدفق بانشـــاد المزامير، والصلوات، ويسكب الدموع، وهو مايزال في داخل الماء، وغالباً ماظهر

له الشيطان وجميع أطرافه مشوهة، وعلى حافة الانقضاض عليه، لكنه كان يصده وهو مرتبك مضطرب بوساطة شارة الصليب المقدس، وكان على كل حال يحاول سلب ثياب الرجل المقدس، لكن كان يتولاه الرعب من صرخات غودريك، فيرميهم، وينهزم بعيدا.

كيف شاهد القديس غودريك في أحد الأيام طفلاً يخرج من فم المصلوب ويقر نفسه على صدر أمه

وفي أحد الأيام، عندما كان رجل الرب، جالساً في خلوته، يكرر المزامير، رأى طفلاً صغيراً قد خرج من فم المصلوب، وذهب إلى تمثال العذراء المباركة، الذي كان قائماً في الجهة الشمالية من اللوح، وأجلس نفسه على صدرها، وقامت هي من جهة أخرى بمدّ يديها لاستقباله، واحتضنته بين ذراعيها لقرابة ثلاث ساعات، وكان الطفل يتحرك طوال ذلك الوقت وكأنه حيّ، وفي كلتا الحالتين عندما جاء وعندما ذهب، اهتز تمثال العذراء كثيراً، حتى بدا اللوح وكأنه سيسقط، واعتقد غودريك أن أطراف التمثالين كانت ممتلئة بروح الحياة، وأن الطفل لم يكن سوى عيسى الناصري، وعاد الطفل بعد ذلك إلى فم المصلوب وفق الطريقة نفسها التي جاء بها.

كيف ظهرت أم ربنا ومريم المجدلية إلى القديس غودريك وحول الأغنية التي علمته إياها أم منقذنا

وفي وقت آخر، عندما كان رجل الرب يصلي أمام مذبح العذراء المباركة، أم الرب، رأى فتاتين، في عمر الشباب، وكانتا على غاية من الجمال، تقفان عند طرفي المذبح، وترتديان ثوبين ببياض الثلج، وقد وقفتا لبعض الوقت تنظر إحداهما إلى الأخرى، ولم يتجرأ غودريك على التحرك، بل نقل عينيه من واحدة إلى الأخرى، وطأطأ رأسه أحيانا بتعبد، ثم اقتربت العذراء منه، وكانت على يمين المذبح وسألته:« هل

تعـرفني ياغودريك؟» فأجـابها قائـلاً: « إن هذا من غير الممكن، إلاّ إذا كنت تنوين التعريف بنفسك» فردت عليه قائلة:« إن ماقلته قلته صادقاً، أنا أم المسيح، ومن خـلالي سوف تنال نعمـة، وهذه السيـدة الثانيـة هي الرسـولة الأنثى بين الرسل، إنها مريم المجـدلية»، ورمى غـودريك الآن بنفسـه على قـدمي أم الرب قـائـلاً:« إنني أعهـد بنفسي إليك ياسيـدتي، وألتمس منك أن تضعيني تحت حمايتك»، ثم إنها وضعت كلتا يديها على رأسه ومسحـت شعره، وملأت المكان بـرائحة طيبة، وغنت بعـد ذلك، وعلمت غـودريك أن يغني أغنيـة، صار في الغـالب يرددها بعـد ذلك، وقد انطبعت ثابتة في ذاكرته، والأغنية بالنظم الانكليزي هي كما يلي:

"Seinte Marie,Clane Virgine,
Moder Jesu christ Nazarene
Onfo, Scild, help Thim Godrich
Onfang, bring heali widh The in Coderich
Seinte Marie, Thristes bour,
Meidenes Clenhed, moderes flour,
Delivere mine Sennen. regne in min modm
Bringe me to blisse wit selfe, God"

ومن الممكن نقل هذه الأغنية إلى اللاتينية هكذا:

"Sancta Maria virgo munda moter Jesu christi nazareni, suscipe adduc, sarcta, tecum in dei rgnum. Sancta maria, christi thalamus, virginalis paritas, matris flos, dele mea crimina, vegna in mente mea duc

me ad felicitatem cum solo deo"

وعلمت أم المسيح غودريك أن يغني هذه الأغنية كلما كـان خائفاً أن يُقهر بالألم، أو الأسف، أو الإغواء، وتابعت تقـول له:« وعندما تدعوني بغنائك بها، سـوف تنال على الفور مسـاعـدتي»، ثم إنها رسمت علامـة الصليب على رأسـه، وصعـدت أمـام نـاظريه إلى السماء، مخلفـة وراءها رائحة طيبة.

كيف أقام القديس غودريك شخصين ميتين وردهما إلى الحياة ثانية

وجاء في أحد الأيام إلى رجل الـرب زوج وزوجة، ورجواه أن يكون رحيماً فيرد إلى الحيـاة ابنتهما التي كـانت ميتـة، وقـدمـا في الوقت نفسـه جثتها وأخـرجاها من كيس كانا قد جلبـاها به معهما، وعدّ رجل الرب نفسـه غير جدير للقيـام بمثل هذا العمل الإعجازي، ولم يعمل جـواباً، بل ذهـب إلى الحقل من أجل عملـه الاعتيــادي، الأمــر الـذي أزعج الشخصين، فغـادرا، تاركين الجثة في خلوته، ذلك أنهما قـالا:« من أجل أن يحتفظ بالجثة ويدفنها، أو أن يعيدها إلى الحياة، وهو مايمكنه فعله إذا رضي»، وعاد غودريك في المساء، فوجد الجثة في زاوية خلوته، فبدأ على الفـور يصلي بخشوع إلى الرب، الذي هـو نبع الحياة والصحـة للجميع، من أجل إعــادة الفتــاة إلى الحيـاة، واستمــر يفعل هذا لمدة ثـلاثة أيام وليلتين، وفي اليـوم الثالث، وعندمـا كـان مـايزال متمدداً أمـام المذبح، شـاهد الفتاة تتقـدم نحـوه، وبناء عليه دعـا والديها، وردها إلى عنايتهما، وجعلهما في الوقت نفسه يقسمان أنه مـادام حياً، لن يبـوحا بهذا السر إلى أحد من الناس، وفي وقت آخر، عندما جلب والدان بشكل سري جسد ابنهما الصبي الميت، إلى رجل الرب، أمـرهما بوضعه على مـذبح العذراء المباركة في خلوته، قائلاً:« لاتفترضا بأن الصبي هو ميت، بل اجثيا معي

على ركبتيكما، واسألا الرحمة اللاهوتية للصبي»، وبعدما فرغوا من الصلاة، أمرهما بالذهاب، وأخذ الطفل من على المذبح، الأمر الذي عندما فعلاه، وجداه حياً ويبتسم، ثم ربطهما رجل الرب بيمين أن لايبوحا بهذا الصنيع إلى أي واحد، مادام حياً.

الجواب الذي أعطاه رجل الرب إلى واحد طلب أن يكتب حياته

كان لرجل الرب أصدقاء مقربين بين رهبان درم، خاصة واحداً كان اسمه[رينالد]، وحُثّ هذا الرجل مرارا لأن يكتب حياة القديس غودريك وفضائله لصالح الأجيال المقبلة، ولكي يحصل على مزيد من المعلومات الأكيدة حول الموضوع، جاء إلى رجل الرب، ليعلم منه ماالذي ينبغي أن يكتبه، وبينما كان جالساً عند قدمي القديس، قال بأنه يقترح بأن يكتب حياته، وأوضح المنافع التي سوف تنجم لصالح الأجيال المقبلة من معرفة الذي عمله، وعلى ذلك ردّ رجل الرب مع كثير من الانفعال قائلاً:« إن حياة غودريك ياصديقي هي كما يلي: في المقام الأول غودريك، فظ، وقذر، وزاني غير نظيف، وزائف، وحانث باليمين، وغشاش، ومتشرد، ووقح، ونهم، وكلب قذر، ودودة منحطة، وليس ناسكاً بل منافق، وليس سائحاً بل انسان فاقد للعقل، وملتهم للصدقات، وضال، ومحب للمتع، وكسول، ومبدد لوقته، ومبذر، وطماع، وغير جدير بخدمة الآخرين ودائم النميمة واللوم للذين يتولون تدبير أموره، وهذه الأشياء، لابل ماهو أسوأ من هذا الذي سوف تكتبه حول غودريك»، وبعدما فرغ من هذه الكلمات، التزم بالصمت وهو غاضب منزعج، فانسحب الراهب، وهو مضطرب، إنما بعد مضي عدة سنوات، لم يتجرأ ثانية على سؤال القديس حول حياته الماضية، حتى قام غودريك، رحمة به، أو لأنه ندم على الخطأ الذي عمله له، فأخبره طواعية من ذاته عن الأشياء التي رغب بمعرفتها، وفي الوقت نفسه رجا الراهب بحكم الصداقة والاحترام المتبادل بينهما بعدم اظهار

الكتاب إلى أحد خلال حياته.

الجواب الذي أعطاه غودريك عندما سئل عما يتعلق بمفارقة الروح وعن أوضاعها بعد الموت

وفي وقت آخر، عندما جاء الراهب نفسه إليه، في عيد القديس يوحنا المعمدان ليقيم قداساً معه، جلس خارج باب خلوته، وسمع غودريك وهو يغني بالداخل، وبعد العشاء سأله الراهب عن طبيعة مغادرة الروح، وعن ذلك تلقى هذا الجواب حيث قال:« تغادر روح التقي بلطف من الجسد لكن روح المذنب، بما أنها غير موائمة للمغادرة، تحرض على ذلك بوساطة كثير من الجلدات، وفور مغادرتها للجسد، ترتفع عاليا تنتظر الأوامر من القدير، ويوجد في الهواء بوابة حديدية ضيقة، محروسة من على الجانبين بأرواح خيرة وشريرة، من خلالها يجري قبول أرواح الأتقياء بتسهيل المرور، لكن أرواح الأشرار تعاق بشدة، وتتعرض للعذاب، وتطرد نحو الأسفل بشكل تعيس، ولقد رأيت في هذا اليوم روح رجل مستقيم تمر من خلالها، ولسروري لذلك، بدأت أغني مع الملائكة الذين تولوا قيادتها، وكان هذا الذي سمعته مع دهشة كبيرة جداً».

كيف أقام القديس بطرس قداساً للقديس غودريك

وفي مناسبة أخرى، عاد الراهب نفسه، إلى هناك ثانية، ليسأل رجل الرب عما إذا كان يرغب بسماع القداس، وقد ردّ عليه قائلاً:« لقد سمعت في هذا اليوم قداس الثالوث المقدس، وتلقيت القربان من يد رجل كان مرتديا البياض، وقد نزل من السماء، ثم صعد إلى هناك، بعدما جعلني أعترف بذنوبي، وقد أخبرته بكل ماوقع لي، وماإقترفته من ذنوب، وقد أعطاني تحليلاً، وتناولت القربان من يديه، وبعد ذلك رفع يديه فوقي، وصعد إلى السماء، فهل بعد هذا يابني تطلب مني أن أتلقى

الاعتراف أو القربان من يديك»؟ وقال الراهب بأنه لايتجرأ أن يفعل ذلك، لكن في الوقت نفسه سأله، من كان ذلك بين القديسين، وأجابه رجل الرب بأن ذلك كان بطرس الرسول، فهو الذي أرسل من قبل الرب لتحليله من ذنوبه، وقال هو:« وعلى هذا هل تقيم قداساً تشريفاً للعذراء المباركة، حتى يمكن بوساطتها أن نحصل على حظوة ابنها؟» وقدم الراهب الشكر للرب وهو مسرور، وفعل الذي أمر به.

كيف تحرر القديس غودريك من الشياطين بالصلوات وبعلامة الصليب

وبعد أن أمضى غودريك أربعين سنة في العزلة في فنشلي، أنهكته الأمراض مع تقدم السن، واقترب من النهاية الأخيرة، ذلك أنه في السنوات الثمان الأخيرة تقريباً، التزم الفراش، ولم يعد بإمكانه التقلب على جانبه من دون مساعدة انسان ما، وكانت آلامه في تلك الآونة واغواءاته كثيرة جداً، حيث لايمكن للسان أن يتحدث عنها، ولاالقلم أن يكتبها، وقدم إليه شيطانان، يحملان رسالة وقالا له:« لقد قدمنا لنحملك إلى جهنم، لأنك رجل عجوز مجنون، وبعدما كنت عاقلاً صرت مجنوناً، لكن غودريك عمل شارة الصليب، وتفوه بصلاة إلى الرب، مما أرغم الشيطانين على الفرار.

كيف ضرب الشيطان غودريك على رأسه وموته

وفيما بعد عندما كان رجل الرب مستلقياً على فراشه، سمع الذين كانوا يتولون خدمته صوتاً يستدعيهم، ذلك أنهم كانوا بالخارج، وركض أحدهم نحو الداخل، فوجده متمدداً على أرض خلوته وهو قد تعرى من ثيابه، فوضعه على الفراش، وسأله لماذا كان متمدداً على الأرض، فقال غودريك:« وقف الشيطان إلى جانبي، ورآني متمدداً من دون انتباه، بعد إغماءة، فقام فجأة فرماني من فراشي وضرب رأسي

بالمقعد» وبعدما قال هذا جعلهم يرون التورم في رأسه، ثم أضاف قائلاً:« لقد هجم الشيطان علي بشكل مفاجىء، حيث لم يتوفر لدي الوقت لحماية نفسي برسم علامة الصليب، وهو يقول: آه ياغودريك الأخرق، أنا لم أستطع قتلك بوساطة أتباعي، لكن وأنت في إغماءة على فراشك، قد قتلتك الآن، وبناء عليه ليكن معلوماً من قبل كل واحد كم هو خطر الاستسلام إلى متع البدن، أو أن يستغرق الانسان بالكسل، فالرب لاينوجد مطلقاً بين الذين يعيشون برفاهية»، ولقد مات الأب المبجل غودريك في الحادي والعشرين من أيار، الذي وافق اليوم الثامن من عيد صعود ربنا، وكانت حياته وأعماله أكثر مما هي انسانية، وفوق قدرة الانسان ليتولى وصفها، وقد دفن في الجانب الشمالي من خلوته أمام درجات مذبح يوحنا المعمدان، وقبره حتى هذه الأيام مقدس بوساطة المعجزات التي تعمل هناك.

تتويج الملك هنري الشاب

في هذه الآونة، أي في عام ١١٧٠م، وفي الثالث عشر من تموز، التقى، بناء على أوامر الملك، واجتمع في وستمنستر روجر رئيس أساقفة يورك، وجميع الأساقفة المساعدين لكنيسة كانتربري، لتتويج هنري أكبر أولاد الملك، وقد جرى تتويجه إثر ذلك من قبل رئيس أساقفة يورك، في اليوم الثامن عشر من تموز، مراغمة لحظر مولانا الملك، الذي بعث برسائل إلى رئيس الأساقفة والأساقفة الآخرين، كان مغزاها مايلي:« نحن نمنعكم بموجب سلطاتنا الرسولية من تتويج الملك الجديد، إذا تمّ العمل من دون موافقة رئيس أساقفة كانتربري وكنيسته، كما لايجوز لأي منكم وضع يده مراغمة للعادات القديمة لتلك الكنيسة ولكرامتها، أو تسهيل القيام بالتتويج المتقدم ذكره»، وكان هذا الحظر— على كل حال— بلا فائدة، فقبل إذاعة الرسائل، كان الملك الشاب، قد جرى تتويجه، وقام الملك بعد ذلك على الفور بعبور البحر، وعقد مؤتمراً

مع رئيس أساقفة مونتميريل Montmirail ، حيث حضر ملك فرنسا أيضاً، وبعد مناقشات طويلة حول اقـامة سلام بينهما، وعندما وصلا إلى القبلة استخـدم رئيس الأسـاقفة العبـارات التـالية:« أنا أقبلكما تشريفـاً للرب»، لكن الملكان تمنعا عن التقبيل، وكأنهما اتفقا اتفاقاً مشروطاً، لأنه وإن كانت نوايـا رئيس الأساقفة صـافية تمامـاً، اعترض الملك دوماً على شكل الكلمات التي استخدمها، من ذلك على سبيل المثال:« إبقاء شرف الرب، وابقــاء نظامي، وإبقــاء الايمان المقـدس للرب»، وكــان رئيس الأسـاقفـة شاكـاً في هذه التـوجسـات من جـانب الملك، خشيـة أنه إذا ماقامت الاتفاقية، أن يعتقد بأنه اعترف بالعادات الظالمة لملك انكلترا.

كيف صنع سلام بين الملك هنري وتوماس رئيس أساقفة كانتربري

عقد ملك فـرنسا ثانية مؤتمراً مع ملك انكلترا، ووليم رئيس أسـاقفة السين، وأسقف نيفـار Nevers، وكـان ذلك في فــريتفـال Freitval، حيث ركب الملك هنري ورئيس الأسـاقفة على انفـراد عن البقية، وقـد ترجلا مرتين عن فرسيهما ثم عاودا الركوب ثانية، وأمسك الملك مرتين الركاب ورئيس الأساقفة راكب، وأخيراً توصلا بوساطة روتريك Rot-ric رئيس أسـاقفة روان إلى اتفاق في أمبـويز Amboise، وصنع سلام بينهما، وكتب الملك هنري الرسـالة التـاليـة إلى ابنه الملك الشـاب:« هذه الرسالة لإخبـارك بأن توماس رئيس أساقفـة كانتربري قد عمل سـلاماً معي حسبما يرضيني، وبناء عليـه آمـرك بعدم التعـرض بسـوء إلى جميع المؤيدين له، وأن تأمر بإعـادة جميع ممتلكاته إليه وكذلك كل ماهـو عائد إلى كهنتـه والآخـرين الذين غـادروا انكلترا من أجله، وذلك كما كـانوا بحوذتهم ثلاثة أشهر قبل مغادرة رئيس الأساقفة لانكلترا، وعليك أيضاً استـدعاء بعضـاً من أقـدم الفـرسـان في سالتـوود Saltwood للمثول أمـامك، وأن تتأكد بوسـاطة أيمانهم الأمـلاك هناك التي امتلكها كـرسي

كانتربري، وكل ماوجد عائد له سوف يتملكه نوابه، وداعاً». وقبل أن يعبر رئيس الأساقفة إلى انكلترا، أرسل رسالة إلى البابا أخبره فيها بأنه عمل سلاماً مع الملك، وقدم البابا في جوابه الشكر إلى الرب، على الشكل التالي:« القلق في القلب وآلام الروح قد قهرانا، عندما نتذكر الآلام والهموم التي أثقلتك، والأخطاء التي تحملتها طويلاً من دون ملل، وذلك في سبيل العدل، ولكي تكمل فضائلك، حافظت على مقاصدك، ولم تهزم من قبل العدوان، الأمر الذي نبدي إعجابنا به وبثباتك، ونهنئك من قلبنا بالرب من أجل هذه المعاناة الطويلة، ولقد تعاملنا منذ وقت طويل مع ملك انكلترا، وغالباً ماحذرناه بلغة ناعمة ولطيفة، وأحيانا بقسوة وبحدة، بأن عليه إعادة النظر بسلوكه وتقويمه، وإنه إذا لم يف بجميع الشروط العائدة للاتفاق الذي عقده معك، ولم يعد إليك وإلى أصحابك جميع الممتلكات التي صودرت، نحن نمنحك سلطة كاملة على الأشخاص جميعاً والأماكن العائدة إلى سلطاتك، حتى تمارس تطبيق النظام اللاهوتي عليهم، من دون استئناف، وفقاً لماتراه مناسباً».

عودة رئيس الأساقفة من المنفى إلى انكلترا

بكفالات من البابا ومن الملك، أبحر رئيس الأساقفة إلى انكلترا، ونزل في ساندويش في اليوم الأول من كانون الأول، وفور وصوله، وحيث لم تكن هناك حاجة للتسرع إلى مجد الشهادة، التي تشوق إليها بشدة، بعث بالرسالة التالية إلى رئيس أساقفة يورك:« بما أن ملك انكلترا قد رغب بتتويج ابنه، وبما أنه من المعروف أن وظيفة التتويج عائدة إلى رئيس أساقفة كانتربري صدوراً عن الأعراف القديمة، يبدو لي أخي رئيس الأساقفة أن الملك المذكور، قد وضع جانباً رئيس الأساقفة المتقدم الذكر، وأمر بوضع تاج المملكة على رأس ابنه بيديك، وأن اليمين المكتوب والقاضي بالحفاظ على حريات المملكة، لم يؤخذ

فقط، لابل إنك لم تطالب به، وعلى العكس من ذلك، نجد أن العادات الظالمة للملكة التي عرضت كرامة المملكة للخطر وللغرق، قد تأكدت بوساطة اليمين الذي أعطي بالاحتفاظ بها إلى الأبد، وبالنسبة إلى هذه القضية، لاننكر أن شدة الملك وعنفه قد سببا كثيراً من الاضطراب، لكننا مع ذلك انزعجنا أكثر تجاه الضعف الذي أبديته أنت مع إخوانك الأساقفة، ويؤسفنا أن نصفه بأنكم كنتم أشبه بكباش بلاقرون، وأنكم تراجعتم بشكل مخجل أمام مطاردكم، ولربما كان قانونيا ياأخانا إيداع هذا المنصب في مقاطعتك لكن في مقاطعة آخر، هو بشكل خاص في المنفى من أجل العدالة، وهو وحده تقدم ليعطي المجد للرب، نحن لايمكننا أن نجد شيئاً من المنطق في ذلك، ولافي قوانين الآباء المقدسين وأعرافهم ليسوغ مثل هذا الصنيع، فلقد سمحت لتلك الأعراف الظالمة بأن تتثبت باليمين، وأهملت حمل ترس الايمان، والوقوف للدفاع عن بيت الرب في يوم المعركة، وبناء عليه لن نلتزم بعد الآن بالصمت، فنكون متورطين في يوم الحساب، بالادانة نفسها مثلك شخصيا، ولذلك نقوم هنا بموجب سلطات الكنيسة الرومانية المقدسة، التي أنا خادمها تحت الرب فنعلن تعليقك عن العمل بأي منصب له علاقة بمركزك الأسقفي».

وبفضل رسالة أخرى من البابا، علق رئيس الأساقفة توماس أيضاً وأوقف عن الممارسات الأسقفية أساقفة: لندن، وسالسبري، واكستير، وسشتر، ورركستر، وسينت أساف، وللانداف، وكذلك الآخرين الذين ساعدوا في التتويج المتقدم الذكر، وجاء محتوى رسالة البابا كما يلي:« إن القضية التي من أجلها دُفع أخانا المبجل، توماس رئيس أساقفة كانتربري، ونائب الكرسي الرسولي، إلى المنفى، لاأحتاج أنا الآن لأشرحها لكم وأبينها، لأنكم كنتم شهوداً على ذلك وحضوراً، ولأن أخبار ماحدث قد انتشر خلال كنائس الغرب كله، هذا وبما أن ثيوبولد،

صاحب الذكرى الطيبة، ورئيس أساقفة كانتربري من قبل، وسلف رئيس الأساقفة الحالي، هو الذي وضع التاج على رأس ملك انكلترا، وبهذه الوسائط، امتلكت كنيسة كانتربري— كما كانت— الحق في ممارسة هذا العمل، وإنكم لم تترددوا الآن بتجاهل وتحدي رسائلنا الرسولية إلى عمل العكس، في المساعدة على تتويج الملك الجديد، علماً أن رئيس الأساقفة لم يتم إعلامه بذلك، والاحتفال قد جرى في مقاطعته، وأنتم الذين كان بإمكانكم تخفيف نفي رئيس الأساقفة بمثل هذه المواساة، وكان بمقدوركم فعل ذلك، قمتم بالحري بزيادة المسألة سوءاً ضده، ويحزننا أن نقول: زدتم على آلام جراحاته، وفي هذه الحالة، لن نثار لإتخاذ اجراء ضدكم يعادل ماتستحقه خطيئتكم، ومع ذلك أن نمرّ بها ونتجاوزها كليا بصمت خشية— لاسمح الرب— أن يصدر قرار العقوبة الربانية ضدي وضدكم، وذلك إذا أهملنا معاقبة الجرائم التي اقترفت بشكل علني أمام مرأى الناس، وليكن معلوماً بالنسبة إليكم، أننا بوساطة السلطة التي نتملكها من الرب، قد أوقفناكم عن ممارسة عملكم الأسقفي، حتى تظهروا أمام كرسينا الرسولي، وتعملون ترضية، وذلك مالم تعملوا الترضية المتقدم ذكرها، أمام رئيس الأساقفة المتقدم ذكره، بطريقة يرى فيها أنكم أهل لتخفيف حكمنا ضدكم».

كيف أمر وكلاء الملك القديس توماس القيام بتحليل الأساقفة المحرومين كنسيا

بعدما عاد أسقف كانتربري المبجل إلى كنيسته وسط سرور، وخشوع وتقوى كل من رجال الدين والناس، ظهر موظفوا الملك أمامه مباشرة ووصلوا إليه، مع أوامر من سيدهم ليقوم بتحليل الأساقفة المعطلين وآخرين كان قد حرمهم كنسياً، بحجة أن كل ماصنع ضدهم يزيد من إيذاء عادات المملكة ويفسدها، فأجابهم رئيس الأساقفة، إنه إذا ماأقسم الأساقفة المحرومين وفقاً للشكل الذي وضعته الكنيسة، أي الالتزام

بأوامر البابا، فإنه سوف يوافق على تحليلهم من أجل خاطر الملك، ومن أجل السلام في الكنيسة، وعندما روي هذا إلى الأساقفة، أجابوا بأنهم لن يؤدوا مثل هذا اليمين من دون موافقة الملك، وبعد ذلك بوقت قصير ذهب رئيس الأساقفة لزيارة الملك الشاب في وودستوك، لكنه قوبل من قبل رسل، أمروه باسم الملك بعدم المتابعة، بل العودة إلى كنيسته، وتبعاً لهذا عاد إلى كنت، وهناك أعد العدة للاحتفال بموسم الميلاد الذي كان قد اقترب.

الاستشهاد الرائع لتوماس رئيس أساقفة كانتربري

عام ١١٧١م، فيه في يوم الميلاد، اعتلى رئيس أساقفة كانتربري المنبر، ليقدم قداساً للناس، وبعد الفراغ منه تولى الحرمان كنسيا لنيغل دي ساكفيل، الذي استولى بالعنف على كنيسة هيرجي Herges، وكذلك لنائب رئيس الكنيسة نفسها روبرت دي بروك، الذي استخفافاً برئيس الأساقفة قام بتشويه واحد من خيوله كان محملاً بالمؤن، وبعد هذا حدث في اليوم الخامس بعد يوم الميلاد، وفي حوالي ساعة العشاء، عندما كان رئيس الأساقفة جالساً مع رجال دينه في قاعته، اقتحم الغرفة وليم دي تريسي Tracy ، ورينالد فتز— يوري Fitz-urse ، وهيوج دي مورفيل Morville ، ورتشارد برايتون Briton ، وكانوا قد قدموا من نورماندي، وكانوا حين اقتحموا الغرفة مثل المدفوعين بجنون، وقد أمروه باسم الملك بإعادة الأساقفة المعطلين، وبتحليل الذين تولى حرمانهم كنسيا، وعلى هذا أجاب رئيس الأساقفة بأن القاضي الأدنى لايمكنه التحلل من قرار حكم رئيسه الأعلى منه، وأن مامن انسان يمكنه إلغاء قرار صادر عن الكرسي الرسولي، وإذا ماقام أسقفا لندن وسالسبري مع الأشخاص المحرومين الآخرين بتأدية يمين بالالتزام بطاعته، سوف يوافق بسرعة من أجل تنفيذ ماكان بأذهانهم، وجاءت مغادرتهم بعنف، وفي تلك الأثناء دخل رئيس الأساقفة إلى الكنيسة

للقيام بالقـداس، وكان ذلك بناء على نصيحـة رجال دينه، ولأن سـاعة العشـاء كانت قـد دنا حلولها، وتولى فعلة الشر ومـدبروه لبس دروعهم وحمل أسلحتهم، وتتبعـوا عن قرب رئيس الأسـاقفة، فوجـدوا الأبواب مفتوحة خلفه بناء على أوامـره، لأنه قال:« إن أبواب كنيسة الرب ينبغي أن تظل مفتوحـة، لأنها مكان التجاء لجميع الناس، وعلى هذا لاتـدعونا نحـوّلها إلى قلعة»، وبدأت الحشـود تركض الآن من على جميع الجوانب، ودخل الرجـال الأربعة مـن دون احترام إلى الكنيسة وهم يصرخـون:« أين هو الخائن لملكه؟، أين هو رئيس الأساقفـة؟»، ولدى سماعه الدعوة إليه استدار لمقابلتهم، ذلك أنه كان قد ارتقى ثلاث أو أربع درجات من درجات السدة وقال لهم:« إذا كنتم تطلبون رئيس الأساقفة، فها هو هنا هو واقف»، وبعد ذلك استخدموا لغة قاسية ضده مزيجة بالتهديد، فقال لهم:« إنني على استعـداد للموت، ذلك أننـي أفضل الحفاظ على عـدالة الكنيسـة وحـريتهـا على حيـاتي»، فـاندفع القتله نحـوه بسيـوف مجردة، وسقط وهو يردد هذه الكلمات« إلى الرب وإلى القديسـة مريم حماة هذه الكنيسة، وإلى القـديس دينس أعهد بروحي وبقضيـة الكنيسة»، وهكذا جرى قتل هذا الشهيـد المجيد أمام مذبح القـديس بندكت، بتلقي جرح في ذلك الجزء من جسـده، الـذي كـان من قبل قـد تلقى عليــه الزيت المقـدس الذي كــرسـه للرب، ولم يتـورعـوا عن تلـويث الكنيسـة بدم الكاهن، وافســاد ذلك اليـوم المقـدس، بل إنهم قطعــوا قحف رأســه، ونثروا بسيوف ملطخة بالدم دماغه على أرض الكنيسة.

كيف نهب القتلة أسلاب الشهيد المبارك وطريقة موته المزعجة

وجـرى نقل الشهيـد المجيـد إلى المملكة السماوية، في حين قـام القتلة الدمــويون بنهب مقتنيــاته، واستــولوا على ألبســة كهنتــه، وعلى كل ماوجدوه في مكاتـب خدمه، وفي الوقت ذاته كانت جثتـه المباركة ممددة على أرض الكنيســة، فحملت في حــوالي وقت الشفق إلى أمــام المذبح

العالي، حيث اكتشف النـاس الواقفون هناك الحقيقة التي كـانوا من قبل يجهلونها، لأنه وإن كـان رئيس الأسـاقفة متخفيـا تحت الرداء الرهبـاني، وهو اللباس الرهباني الذي إرتداه منذ ترقيتـه، فقد وجد مرتدياً لقميص من المسوح، وهذا مالم يسمع به من قبـل، وكان قميصاً طويلاً، حتى أنه غطى حقويه أيضـاً، وكان هناك بعض التساوق في حياته، سـوف نعدده هنا باختصـار: ففي يوم الثـلاثاء كـان رئيس الأسـاقفة قـد غـادر بلاط الملك في نورثأمبتون، كذلك غادر انكلترا في يوم الثلاثاء إلى المنفى، وفي يوم ثلاثاء عاد إلى انكلترا، تماشياً مع وصـاية البابا، وفي يوم ثلاثاء واجه الشهـادة، وفي الصبـاح الباكـر من يوم الأربعـاء انتشرت الأخبـار، بأن القتلة قرروا سلب الجسد من الكنيسـة، ورميه خارج المدينة حتى يمزق إلى قطع من قبـل الكلاب والغـربان، فكان أن بادر راعـي دير بوكسلي Boxley مع رئيس الدير والدير التـابع لكنيسـة كـانتربري، بسرعـة إلى دفنه، من دون الغسل المعتـاد له، لأنه كـان قـد ذبل من طول التقشف، والتف بقميص المسـوح، وتقـدس بالغسيـل بدمـه، وكـان من الممكن مـلاحظة كثير من العلامـات المدهشـة التي تزامنت مع شهادته، وكـان أولاها أنه عـانى في تأكيـد العـدالة وفي الحفاظ على حـريات الكنيسـة، وثانيـا، إن مكان آلامـه لم يكن كنيسـة عـادية، بل كـانت أم الكنائس الانكليـزية، وثالثا كـان الزمن هو أيام عيـد الميلاد، وذلك عندمـا أكمل أولئك الخونة عملهم الخيـاني، ورابعاً، هو لم يكن كـاهنا عاديا، بل كـان مقـدم جميع كهنـة انكلترا وأبوهم، وخـامسـاً، هو لم يتـألم في واحـد من الأمـاكن العادية التـابعـة له، بل في المكان الذي تلقى فيـه السيامـة لأن يكون كاهنا، وحيث جرى صب زيت المسح المقدس.

ندامة الملك وكيف أرسل رسلاً إلى روما لتسويغ فعلته

وكان الملك هنـري في أرجنتون Argenton في نورماندي، عندما سمع بأخبـار هذه الفعلة الشنيعـة، وفي البـداية انـزعج بذلك انزعـاجـاً

كبيراً، وغير ثيابة الملكية واستبدلها بمسوح ورماد، ودعا إلى الرب القدير ليكون شاهداً بأن هذه الفعلة قد عملت من دون رغبته أو موافقته، وكل ماهنالك أنه كان مذنباً في أنه لم يحب رئيس الأساقفة كما ينبغي، وحول هذه النقطة أخضع نفسه لحكم الكنيسة، ووعد بأن يلتزم بتواضع بحكمها مهما كان، ولهذا الغرض أرسل رسلاً لتسويغ موقفه أمام الحبر الأعظم، ولتأكيد براءته، لكن البابا رفض استقبالهم، ولم يسمح لهم حتى بتقبيل قدميه، وقد استقبلوا بعد ذلك من قبل الكرادلة، لكن من دون فائدة سوى سماع كلمات رسمية، وفي يوم الخميس قبل الفصح، وعندما كان البابا مرتديا ثيابه للاعلان بشكل عام قرارات التحليل أو الحرمان الكنسي ضد من يستحقون ذلك، جرى اخبار سفراء ملك انكلترا بأن البابا قد قرر، بناء على نصيحة جميع أعضاء المجلس، أن يصدر قرار حرمان من شركة المؤمنين على سيدهم بالاسم، خلال ممالكه كلها، وأن يؤكد القرارات التي كانت قد صدرت على رئيس أساقفة يورك، والأساقفة الانكليز الآخرين، وفي هذا الوضع أخبر الكرادلة البابا بأن رسل الملك قد صدرت إليهم تعليمات في أن يقسموا بأن سيدهم سوف يلتزم بكل قرار يصدر عن البابا والكرادلة في كل مجال، وتبعاً لذلك الاقتراح أدى الرسل اليمين بالموافقة على ذلك، وبذلك أمكن تجنب قرار الحرمان من شركة المؤمنين، وحذا رسل رئيس أساقفة يورك والأساقفة الآخرون حذوهم وفعلو مافعلوه، وبناء عليه قام البابا في ذلك اليوم بحرمان القتلة الأشرار للقديس توماس رئيس أساقفة كانتربري الشهيد، كنسيا، وكل الذين أشاروا عليهم بذلك، أو ساعدوهم أو وافقوا على فعلتهم، وكذلك ضد كل من يستقبلهم في أراضيه، أو يحتفظ بهم، وكان الرجال الأربعة آنذاك في نيربوراKnaresborough، التي كانت قلعة الملك، حيث بقيوا هنالك لمدة سنة.

المعجزات التي بدأت الآن بالظهور تكريما للشهيد المقدس

بعد وفاة توماس الشهيد المبارك، توقفت كنيسة كانتربري لمدة سنة كاملة عن إقامة الطقوس اللاهوتية، وعملت نحيباً مستمراً عليه، فقد جرى نزع البلاط، وأوقفت النواقيس عن القرع، وجردت الجدران من زينتها، وأقامت الكنيسة كلها مآتم في حزن وخنوع، ورجالها يرتدون المسوح ويضعون الرماد، وفي نهاية السنة، وفي يوم عيد القديس توماس الرسول، اجتمع معاونوا الأساقفة مع بعضهم بناء على استدعاء كنيستهم الأم، كنيسة كانتربري، وجاءوا بناء على توجيه البابا، وذلك من أجل استعادة الكنيسة الملوثة بعد تعليقها الطويل، إلى سالف عهدها، ووقتذاك قام بارثوليوأوف اكستير، بالاحتفال بقداس مهيب، بناء على طلب الرهبان، وألقى موعظة بالناس، بدأها بهذه الكلمات:« بعد حشود من حزني، توبتكم تبهج روحي».

حول الرعود التي سمعت بشكل عام وأعمال التكفير التي عملها الملك من أجل وفاة القديس توماس

عام ١١٧٢م، فيه في ليلة عيد الميلاد، سمعت أصوات رعود، بشكل عام في جميع أرجاء انكلترا وايرلندا، وغاليا، وكانت مفاجئة ومرعبة، تدعو الناس من مختلف الأقطار للقدوم وشهود المعجزات الجديدة للقديس توماس الشهيد، ذلك بما أنه سفك دمه من أجل الكنيسة العالمية، لذلك ينبغي أن تتثبت شهادته في الذاكرة التقوية لجميع الناس، وفي الوقت نفسه، عندما كان الملك هنري في ايرلندا، بدأ هيوج دي سينت مور Maur، ورالف دي في Fay، عم الملكة اليانور— بموافقتها كما قيل— بابعاد الملك الشاب عن أبيه، حيث أكدوا أنه وضع متناقض أن يكون الواحد ملكاً، ومع ذلك لايمتلك أية سلطة على ممالكه، وقام في الوقت نفسه والده الملك، قبل مغادرة ايرلندا، بالدعوة إلى مجمع في ليسمور Lismore ، حيث جرى الترحيب بسرور بقوانين انكلترا

من قبل الجميع، وجرى تأكيدها بالأيمان، ثم وضع الملك جميع المدن، والقلاع التي استولى عليها في ظل حماية أمينة، وبما أن قضايا الأعمال المتنوعة قد تطلبت من الضروري، وجوده في مكان آخر، أقلع في مساء عيد الفصح، ورسا في اليوم التالي في ويلز، وتابع من هناك إلى بروكستر، وعبر إلى نورماندي بريح موائمه، ومن هناك ذهب من دون تأخير لمقابلة سفيري البابا: ألبرت، وثيودواين Theodwine وأقسم أمامهما بعد نقاش صعب يمينا أن موت الشهيد المجيد توماس، لم يكن متماشياً مع رغباته أو بموافقته، أو جرى بوساطة أية مؤامرة من قبله، بل كل مافي الأمر أنه تفوه ببضع كلمات وهو غاضب، أثارت مجموعة من الفرسان ومن حاشيته، الذين انفعلوا كثيراً فأقدموا على إتخاذ موقف ضد رئيس الأساقفة، وانتظروا مناسبة لمقتله، وبذلك وضعوا رجل الرب للموت، وقد طلب الملك التحليل مع أعظم التواضع، وفي سبيل ذلك. وعد— بناء على اقتراح النائبين البابويين— بتقديم مايكفي من المال للانفاق على مائتي فارس لمدة سنة، للدفاع عن الأرض المقدسة، ثم أن يجري السماح للاستئنافات أن تعمل من دون أية عوائق إلى الكرسي المقدس، وأن يلغي العادات التي أخرجت في أيامه والتي هي مضادة لحريات الكنيسة، وأن يعيد إلى كنيسة كانتربري كل ماأُخذ منها منذ مغادرة رئيس الأساقفة، وأن يسمح للذين كانوا منفيين، من كلا الجنسين، من أجل الشهيد المبارك، بالعودة إلى الوطن، واستئناف تملكهم لممتلكاتهم، وحُول هذه النقاط جميعاً أقسم الملك على الالتزام والتطبيق، وفقاً لأوامر مولانا البابا، من أجل غفران ذنوبه، وأقسم اليمين نفسه الملك الشاب ابن الملك هنري، الذي عبر إثر ذلك مباشرة مع قرينته مرغريت إلى انكلترا، وفي العشرين من الشهر نفسه، قام روتروك Ro-troc رئيس أساقفة روان، يعاونه الأساقفة المساعدون لكانتربري بتتويج مرغريت المتقدم ذكرها ملكة على انكلترا، وفي العام نفسه أعيد غيلبرت أسقف لندن إلى منصبه الأسقفي بعدما أقسم أنه في إطار أحسن مايعرفه

هو لم يحّرض على مـــوت القـــديس تومـــاس الشهيـــد لابـالكلام، ولابالأفعال، ولابالكتابة.

حول زواج جون ابن الملك وحول الانتخاب إلى كرسي كانتربري

سنة ١١٧٣م، فيها حصل الملك هنري بوساطة الزواج لابنه جون— المعروف باسـم بلا أرض— على الابنة الكبرى لهيوبرت كونـت مورين Maurienne، من خلال زوجتـه أرملة هنري دوق ساكسـوني، مع أنها لم تكن قـد بلغت السابعـة من عمـرها، وانتخب في السنة نفسها أيضـاً، روبرت راعي دير بك رئيساً لأساقفة كانتربري، وجرى ذلك في السابع من آذار، في لامبث Lambeth بحضـور الأسـاقفة المسـاعـدين لتلك المنطقـة، لكن راعي الدير رفض كليـا أن ينتخب، ولاندري أكـان ذلك لضعف، أو لأسباب ودوافع دينية، فهذا مالم نعلمه.

وفي السنة نفسهـا اتبع الملك هنـري الشـاب النصـائح الشريرة، فترك والده، وانسحب إلى بلاط والد زوجتـــه، أي ملك فـرنسـا، وبناء عليـه اختار رتشـارد دوق أكوتين، وغيوفـري كونت بريتـاني أخاهم بدلاً من أبيهم، وكان ذلـك— كما يقال— بناء على نصيحة أمهم الملكـة إليانور، وهكذا تطور الشقاق من على الجانبين وازداد تدهوراً مع السلب وأعمال الحريق، وبذلـك نحن نعتقـد بشكـل صحيح أن الرب أراد أن يعـاقب الملك هنري لسلوكه نحو القديس توماس، فأثار ضده أولاده الذين هم من لحمه ودمـه الذين طاردوه حتى الموت، كما سيظهر التـاريخ المقبل، وصار في السنة نفسها رالف دي وورنفيل Warneville الحافظ لغر فة الآثار المقدسـة في روان، وخازن يورك، مستشـاراً لانكلترا، وفي الوقت نفســه، وافق هنري ملك انكلترا على أن تجري الانتخـابـات للكنائس الشاغرة بشكل حـر، وجاء ذلك بناء على تحريض الكاردينالين ثيودواين

وألبرت، وجرت التعيينات التالية بموافقة قاضي الملك: رتشارد، رئيس شمامسة بواتيه إلى كرسي ونكستر، وغيوفري رئيس شمامسة كانتربري للمنصب نفسه في إيلاي، وغيوفري رئيس شمامسة لنكولن إلى المنصب نفسه في لنكولن، وورينالد رئيس شمامسة سالسبري إلى المنصب نفسه في باث، وروبرت رئيس شمامسة أكسفورد إلى المنصب عينه في هيرفورد، وجون عميد شستر إلى أسقفية الكنيسة نفسها.

انتخاب رتشارد إلى رئاسة أساقفة كانتربري وتطويب القديس توماس

وفي السنة نفسها، في التاسع من تموز، انتخب الأساقفة المساعدون لمنطقة كانتربري مع مقدمي الدير، رتشارد رئيس رهبان دوفر، لرئاسة الأساقفة، وأقسم على الفور الأسقف المنتخب يمين الولاء للملك،« بالحفاظ على نظامه»، ولم تكن هناك اشارة إلى الاعتراف بعادات المملكة، وجرى هذا في وستمنستر، في بيعة القديسة كاترين، وذلك مع موافقة قاضي الملك، وقرىء في المؤتمر أيضاً رسالة البابا، على مسمع من جميع الأساقفة والبارونات، وقد حوت هذه الرسالة إلى جانب أمور أخرى مايلي:« إننا نحث أخوتكم بوساطة سلطاتنا الرسولية، ونأمركم بدقة بالاحتفال في كل سنة بيوم توماس الشهيد المجيد، وهو اليوم الذي تألم فيه، وأن تسعوا بصلواتكم النذرية إليه، للحصول على العفو عن ذنوبكم، ذلك أنه من أجل المسيح تحمل النفي بشجاعة خلال حياته، والشهادة في الموت، علّه يتوسط لدى الرب من أجلنا، من خلال ابتهالات المؤمنين»، ومـاأن اكتملت قراءة هذه الرسالة، حتى رفع الجميع أصواتهم عالياً، وصرخوا:« الشكر لك يارب»، لأنه فضلاً عن ذلك كان جميع أساقفته المساعدين، لم يظهروا نحوه الاحترام الذي هو جدير به، كأب لهم، عندما كان في المنفى، أو بعد عودته من منفاه، بل قاموا جميعاً بتعذيبه، فاعترفوا الآن بشكل معلن بأخطائهم وذنوبهم، بفم

واحد منهم، ردد مايلي:« كن حاضراً يارب، واستمع إلى ابتهالاتنا، حتى نتمكن نحن الذين نعرف أنفسنا مذنبين، من التحرر بوساطة القديس توماس، الشهيد والكاهن الأعلى»، وفي السنة نفسها، عملت مريم، أخت الشهيد المقدس نفسه، راعية لدير باركنغ Barking، وجاء ذلك بناء على أمر من الملك، وكذلك ألقى هنري، الملك الصغير، الحصار على قلعة غورناي Gornai ، وأسر هناك هيوج صاحب القلعة ، وابنه مع أربعة وعشرين فارساً، وقام بإحراق القلعة، وأرغم سكان البلدة على دفع غرامة، وفي السنة نفسها تخلى أيضاً روبرت ايرل أوف ليستر، ووليم دي تانكرفيل Tankerville ، مع كثير من الكونتات والبارونات، عن الملك هنري، والتحقوا بالملك الشاب.

ملك فرنسا يغزو نورماندي مع جيش

وحشد في السنة نفسها لويس ملك فرنسا، جيشاً كبير العدد، للاغارة على نورماندي وتشعيثها، ودخل إلى تلك المقاطعة، وألقى الحصار على ألبمارل Albemarle ، وأرغم وليم صاحبها، مع الكونت سيمون مع عدد آخر من النبلاء، على الاستسلام، ثم استولى بعد ذلك على قلعة درينكورت Driencourt ، ووضع حامية فيها، وزحف من هناك إلى قلعة آرش Arches وفقد على طريقه كونت أوف بولون، وبناء عليه حزن كونت أوف فلاندرز على أخيه، وعاد إلى منطقته، وكان هنري الملك القديم طوال ذلك الوقت في روان، كما يبدو غير مهتم بما كان يجري، لابل أكثر من ذلك عزم على الصيد، وقد أبدى نحو جميع الذين جاءوا إليه السرور وملامح ضاحكة، لكن الذين كان قد جمعهم من حوله منذ سنواته الأولى، بدأوا ينفضون من حوله، لأنهم اعتقدوا أن ابنه قد امتلك كل الظروف المساعدة ليكون فوراً ملكاً في مكانه، وكان ملك فرنسا الآن، مع الملك الصغير، يحاصران فيرنويل Ver-neuil، عندما أرسل الملك هنري رسلاً إلى الملك الفرنسي، ينذره بأن

يغـادر نورمـاندي من دون تأخير، أو أنه سـوف يزحف ضـده في ذلك اليـوم بالذات، وكـان ملك فرنسـا، يعـرف بأن ملك انكلترا أميراً قـوياً جـداً، وحـاد الطبع، لذلـك اختـار الانسحـاب وآثر ذلك على القتـال، ولذلك تراجع من أمام وجه الملك هنري، وعاد بكل سرعة إلى فرنسا.

تدمير ليستر

وفي السنة نفسهـا، جـرى في الرابع من تموز، حصـار مـدينة ليستر، وذلك— كما قيل— بناء على أوامر الملك، لأن الايرل صـاحبها قد تخلى عن الملك، والتحق بـابنه الملك الشـاب، وعندمـا جـرى احـراق الجزء الأكبر من المدينة، بدأ سكانها يبحثـون مسألة السـلام وتم الاتفـاق على شرط أن يدفعوا ثلاثة آلاف مارك إلى الملك، مع منحهم الإذن بالانتقال إلى أي مكان يختارونه، وبناء عليـه أعطي لهم الإذن بالذهاب والسكنى في أي من مـدن الملك وقـلاعه يختـارون، وبعـد مغادرتهم، جـرى هدم أبواب المدينة مع جزء من الأسـوار، وأعطيت هدنة إلى الجنود الذين في القلعة حتى عيـد القديس ميكائيل، وبناء عليه انتهى الحصـار في الثامن والعشرين من تموز، وبعـد هذا ادعى وليـم ملك اسكوتلندا ملكيـة مقاطعـة نورثأمبتون، التي كانت قـد منحت إلى جده الملك داوود،الذي تملكهـا لبعض الوقت، لكن الملك الانكليـزي رفض منحـه إياها، وبناء على ذلك حشـد وليم جيشـاً من الويلزيين والاسكـوتلنديين، وزحف بصورة انسان واثق خلال أراضي أسقف درم، وأحرق عدداً من القرى، وقتل كل من الرجال، والنساء والأطفال، وحمل معه منهوبات لاتحصى، وفي سبيل صـد الغزاة احتشد النبـلاء الانكليز مع بعضهـم، وأرغموا وليم على التراجع، ولاحقـوه حتى لوثيـان Lothian ، ودمـروا تلك المنطقـة بالنار والسيف، وقـد نهبـوا كل مـاوجـدوه في الحقـول، وأخيراً عملوا هدنة، بناء على مبادرة من الملك الاسكوتلندي حتى عيد هيلاري Hilary، وعادوا منتصرين إلى انكلترا.

-٥٩٩١-

كيف جرى أسر ايرل ليستر وكونت فلاندرز وسجنهما

وعندما سمع روبرت ايرل ليستر بالذي حدث لمدينته، امتلأ بالأسى، وعبر من خلال فلاندرز مع زوجته وهو على طريقه إلى انكلترا، وحشد هناك عدداً كبيراً من النورمان والفلمنكيين من الفرسان والرجالة، وأبحر ونزل في والتون في سفولك Suffolk في التاسع والعشرين من ايلول، وقام على الفور بإلقاء الحصار على القلعة، لكن من دون نجاح، وزحف من هناك في الثالث عشر من تشرين الأول، وهاجم قلعة هيجنت Hagenet ، وأحرقها، وأسر هناك ثلاثين فارساً، وأرغمهم على دفع الفدية، ثم إنه عاد إلى فيرمنغهام Fermingham، لكنه أثناء اقامته أعطى الحكم إلى هيوج بيغود Bigod صاحب القلعة، وحوّل تفكيره واهتمامه نحو ليستر، وزحف في ذلك الاتجاه، وحاول وهو على طريقه أن يفاجىء إدموندبري Edmunbury، لكنه منع من قبل جيش الملك الذي كان معسكراً هناك لحماية تلك القطعة من البلاد، وبناء عليه جرى تطويق الايرل بقوات ضخمة، وكان مع الإيرل ثلاثة آلاف فلمنكيين، فيهم وضع ثقة خاصة، ولذلك قرر المغامرة بالقتال، وبناء عليه بدأ الاشتباك، وبعد تقلبات عديدة، وقع الايرل، والكونتسة، مع جميع الفلمنكيين، والنورمان، والفرنسيين، بالأسر، وقد حدث هذا في السادس عشر من تشرين الأول، وكان بيد الكونتسه خاتم جميل، فطوحت به في النهر القريب، مؤثرة ذلك على السماح للعدو بالحصول على مثل هذا الربح، بحكم وقوعها بالأسر، وأخيراً جرى قتل الجزء الأكبر من الفلمنكيين، أما الباقين فقد أغرقوا، ولكن الآخرين اتخذوا أسرى.

كيف أخذ الملك كثيراً من أعدائه أسرى

وعندما كان الملك هنري الأب متوقفاً في نورماندي، جرى اعلامه بأن عساكره مع رجال برابانت Brabantوقطاع الطرق، قد

فاجأوا العساكر الفوضوية لابنه، وحصروهم في مدينة دول Dole ، وفور تلقيه هذا الخبر، ركب حصانا، ووصل في الصباح التالي إلى المعسكر، وبعد عدة أيام من المقاومة تسلم المستسلمين، لكن قبل وصوله كان الجزء الأكبر منهم قد قتل من قبل قطاع الطرق، وكان بين الأسرى رالف ايرل شستر، الذي كان قبل وقت قصير فقط قد هجره والتحق بابنه، ووليم فورليغري Fulgeriis، ووليم باتريك، ورالف دي لى هي Haie ، وهاسكلف Hasculph دي سينت هيلاري، وذلك إلى جانب ثمانين فارساً، وزحف في السنة نفسها النبلاء الانكليز بصحبة جيش كبير، لقمع عجرفة بيغود، لكن عندما كانت الأوضاع بحال اعتقد فيها الجميع أنه سوف يهلك، توسط الوسطاء بينهم، وجرى عقد هدنة حتى أحد العنصرة، وبناء عليه رافقه أربعة عشر ألفاً من الفلمنكيين سالماً خلال اسكس وكنت، وجُهز في دوفر بسفن لعبور القنال، وفي السنة نفسها ذهب إلى روما رئيس أساقفة كانتربري المنتخب، ويرافقه أسقف باث.

الاستيلاء على قلعة إكسهولم وأسر كتلة كبيرة من الرجال

عام ١١٧٤م، فيه أعلن روجر دي ماوبري Mowbray عن تخليه عن الولاء للملك القديم، ورمم القلعة المهدمة في جزيرة إكسهولم، غير أن عدداً كبيراً من رجال لنكولنشاير عبروا إلى هناك بالقوارب، وألقوا الحصار على القلعة، وأرغموا شحنتها مع جميع الفرسان على الاستسلام، ثم إنهم أعادوا هدم القلعة وحولوها إلى خرائب، وفي اليوم الأخير من شهر نيسان، سمع الملك القديم بأن ابنه رتشارد قد استولى على قلعة سانتونغ Santonge ، فزحف ضده لاستردادها مع رجال بواتو، وأظهر فرسان رتشارد عدم احترام لكل من الرب والكنيسة، فدخلوا إلى الكاتدرائية، وحولوها إلى قلعة، وشحنوها بالرجال المسلحين والمؤن، وسمع الملك بأن الأعداء يحتلون ثلاثة مواقع حصينة،

فاستعد للهجوم عليهم، وعلى الفور جرى الاستيلاء على موقعين، ثم إنه اقترب من الكاتدرائية التي كانت مشحونة بالعساكر، وبأناس غير منضبطين، ولم يرغب بالهجوم عليها، بل أراد تنظيفها من المنتهكين لحرمتها، وكان تعداد مجموع الذين جرى أسرهم، وكانوا في الكنيسة أو في مكان آخر، ستين فارساً وأربعمائة من أصحاب القسي الزيارة، وبهذه الوسيلة عاد الهدوء إلى هذه المنطقة، وهنا وجد هنري نفسه مرغماً على العودة إلى نورماندي، لأن فيليب كونت أوف فلاندرز، كان قد أقسم على الانجيل المقدس، بحضور لويس ملك فرنسا مع نبلاء ذلك الملك، بأنه سيقوم بعد خمسة عشر يوماً من حلول عيد القديس يوحنا المعمدان بغزو انكلترا بالقوات، واخضاعها ووضعها تحت حكم الملك الشاب، وتحمس الملك الشاب لدى سماعه لهذه الأخبار، فوصل إلى وتساند Witsand ، في الرابع عشر من تموز، مع نية إرسال رالف دي لى هي مع جيش إلى انكلترا، وأرسل ايرل فلاندرز مقدما ثلاثمائة وثمانية عشر فارساً محنكاً لنقلهم إلى انكلترا أيضاً، ومالبث هؤلاء أن نزلوا في آرويل Arwell(قرب هيرويك Harwick) ، وكان ذلك في الثامن والعشرين من حزيران، واستولى هناك على غنائم كثيرة، إلى جانب إرغامهم كثيراً من الأسرى الذين اعتقلوهم على دفع مبلغ كبير من المال فدية لأنفسهم، وعندما رأى رجال العدالة الملكية هذا، اتفقوا بالاجماع على ارسال رتشارد، الأسقف المنتخب لونكستر لإخبار الملك بالمخاطر التي تهدد انكلترا، وعبر الأسقف من دون تأخر إلى نورماندي ووضع أمام الملك تقريراً صادقاً حول كل ماكان يجري في انكلترا.

كيف عاد الملك إلى انكلترا وقيامه بزيارة لضريح القديس توماس للصلاة هناك

واستقبل الملك الأسقف، بالاحترام اللائق، واستعد على الفور للعبور إلى انكلترا، وأخذ معه الملكة إليانور، والملكة مرغريت، وابنه

جـون، وابنتـه جـوانا، وأرسل أمـامـه ايرل ليستر مـع كـونتسـة ليستر والأسرى السجناء الآخرين إلى باربفلوف Barbefleuve، حيث ذهب على ظهـر سفينة مـع جيش كبير، لكن الريح لم تكن مـواتيـة، وخـاف البحارة من المغـامرة في ذلك اليوم، وأدرك الملك أن البحر كـان هائجاً، فرفع عينيه نحو السماء، وتفوه بالكلمات التالية بحضور جميع قومه:« إذا كانت نواياي موجهة للحفاظ على السلام لكل من كهنتي وشعبي، وإذا كـان ملك السماء قـد قضى بإعـادة الهدوء إلى مملكتي عندمـا أصل إلى هناك، ليمنحني وقتهـا الوصـول إلى الشـاطىء بأمـان، ولكن إذا كـان غضبـه قـد ثار، وقضى بأن أزور مملكة انكلترا بعصـا غضبـه، أتمنى أن لايسمح لي بالوصـول إلى شـواطىء تلـك البـلاد»، وعندمـا أكمل هذه الصـلاة، أقلع في ذلك اليـوم نفسـه، وبعـد عبـور طيب وصل إلى ثاوثأمبتون بسلام، ثم إنه صـام على الخبز والماء، ولم يدخل إلى أي مدينة حتى وفى بعهد كان قـد قطعه على نفسه بفكره، في أن يصلي عند ضريح القـديس تومـاس، رئيس أساقفـة كـانتربري والشهيـد المجيد، وعندمـا وصل إلى مقربة كانتربري، ترجل عن ظهـر حصانه، ووضع جانباً جميع الشعارات الملكيـة، وسار حافي القـدمين، وعلى شكل حاج نادم مبتهل، ووصل إلى الكاتدرائيـة في يوم الجمعة الثـالث عشر من حـزيران، ومثل حزقيـا توجه نحو ضريح الشهيـد المجيد مع الدمـوع والتنهدات، وتمدد سـاجـداً على الأرض مع يديه ممدودتان إلى السماء، وتابع تـأدية صـلاة طويلة، وفي الوقت نفسـه قام أسقف لندن بالاعـلان أمام الناس— بناء على أمـر من الملك— في مـوعظة وجههـا إلى الشعب، بأنه لم يأمـر، ولم يرغب، ولم يتآمر بأي شكل مـن الأشكال من أجل موت الشهيد، الذي اقترف نتيجـة لسـوء فهم من القتلة لكلمات تفـوه بها الملـك متسرعـاً، ولذلك طلب التحليل مـن الأسـاقفـة الذين كـانـوا حـاضرين، وجـرد ظهره، فتلقى من ثلاث إلى خمس جلـدات، من الأعداد الكبيرة من كتلة اللاهوتيين الذين تجمعـوا هناك، ثم قـام الملك بإعـادة ارتداء مـلابسـه،

وعمل تقدمة ثمينة مكلفة إلى الشهيد، وعين مبلغ أربعين باوند سنويا من أجل الشموع لإحراقها حول ضريحه، وأمضى بقية اليوم والليلة التالية في حزن وآلام في النفس، ولمدة ثلاثة أيام لم يعط الملك نفسه راحة، بل أسلم نفسه للسهر، والصلاة والصوم، وبهذه الوسائط أمكن تأمين حظوة الشهيد المبارك ورضاه، وفي ذلك اليوم بالذات الذي صلى به حتى يرى علامة الغفران، ألقى الرب بين يديه وليم ملك الاسكوتلنديين، الذي وضع قيد الاعتقال في قلعة رتشموند، وفي ذلك اليوم نفسه حدث أيضاً أن الاسطول الذي جمعه الشاب من أجل غزو انكلترا تشتت بسبب الأنواء وكاد أن يضيع، ودُفع الملك الشاب عائداً إلى ساحل فرنسا.

أسر وليم ملك اسكوتلندا

والطريقة التي أصبح بها الملك الاسكوتلدني أسيراً، كانت باختصار كمايلي: فقد غزا نورثأمبرلاند كما فعل في السنة المتقدمة، بقصد دمجها بممتلكاته، لكن نبلاء تلك المنطقة، تصدوا له بالسلاح، وبعد نشوب معركة أخذوه أسيراً، وجرى مقتل عدد كبير من أولئك الأشرار الاسكوتلنديين، وكانوا لايعدون ولايحصون، ووُضع الملك رهن الاعتقال في قلعة رتشموند، وبذلك تحققت نبوءة ميرلين في قوله:«سوف يوضع لجام على فكيه مصنوع من قلب أرموريكا Armorica »، يعني قلعة رتشموند، التي كانت في تلك الآونة مملوكة من قبل أمراء أرموريكان، وكانت كذلك منذ العصور القديمة.

ولكي نقدم تقويماً صحيحاً للمنافع التي نتجت للملك من توبته عند ضريح الشهيد، والوساطة التي عملها الشهيد من أجله، علينا أن نفعل ذلك في نهاية تاريخنا، وعندما فرغ الملك من صلواته ذهب إلى لندن، حيث استقبل باحترام من قبل الشعب، ومن هناك ذهب إلى هنتنغدون حيث حاصر القلعة واستولى عليها في التاسع عشر من تموز، وقدم إليه

هناك فرسان ايرل ليستر، وسلموا إليه قلعتي غروبي Grobi، وماونتسورل Mountsorel ، من أجل أن يظهر تقديراً أعظم نحو سيدهم، وفي الثاني عشر من تموز، استولى النبلاء الشماليون، مع الأسقف المنتخب للنكولن، وابن الملك على رأسهم، على قلعة ميلسارت، Malessart، التي كانت قلعة روجر دي ماوبري، وأخذت العساكر الآن تتقاطر من كل جانب، ولذلك قرر هنري أن يحاصر قلعتي هيوج بيغود: بنغي Bungay، وفرامنغهام Framingham، وشعر الايرل أن لاأمل لديه بالمقاومة الناجحة، لذلك قدم رهائن، ودفع ألف مارك، وبذلك ضمن السلام، وكان ذلك في الخامس والعشرين من تموز، ووقتها جرى السماح لجيش الفلمنكيين، وهو الجيش الذي بعث به من قبل الكونت فيليب، بالعودة لكن بعدما أرغم أفراده أولاً على أداء يمين أنهم لن يغزو إنكلترا ثانية، وأيضاً غادرت انكلترا عساكر الملك الشاب، وهي التي كان يقودها رالف دي لى هي، من دون معيقات، فضلاً عن هذا أرسل روبرت ايرل أوف فيرار Fer-rars، وروجر دي ماوبري Mowbray، اللذان كانت قلعتاهما: ثيرسك Thirsk وستوتبري Stutbury، آنذاك محاصرتين من قبل الملك، أرسلا مندوبين يسألان السلام، والتقى وليم ايرل أوف غلوستر، ورتشارد ايرل أوف كلير، الملك، ووعداه الالتزام بطاعة أوامره، وهكذا وجد الملك نفسه وقد قهر جميع أعدائه، واسترد السلام إلى انكلترا، عبر إلى نورماندي في السابع من تموز(كذا)، ومعه أسراه: ملك اسكوتلندا، وإيرل ليستر، وهيوج دي كاستيلو Castello .

كيف تخلى ملك فرنسا عن حصار روان

وعندما نزل الملك هنري في نورمادي، في الحادي عشر من تموز، وجد مدينة روان محاصرة، لأن لويس ملك فرنسا، وهنري الملك الشاب، وكونت فلاندرز، كانوا قد حشدوا قوة كبيرة في غياب الملك،

وضغطوا بشدة على السكان، لكن عندما سمع ملك فرنسا بوصول ملك انكلترا، تراجع، لكن ليس من دون الإساءة إلى سمعته، واستولى الجند الانكليز على كميات واسعة من أسلحته وعتاد الحرب.

وعاد في السنة نفسها رئيس أساقفة كانتربري من روما، وقد جلب معه الطيلسان ورئاسة انكلترا، فقد وصل إلى لندن في الثلاثين من آب، فاستدعى رجال الدين الرئيسيين العائدين إلى الكنائس الشاغرة، وكذلك الذين انتخبوا أساقفة مؤخراً وجديداً، وثبت وكرّس الأساقفة المنتخبين لوينكستر، وإيلاي، وهيرفورد، وشستر، أما غيوفري الأسقف المنتخب للنكولن، والذي لم يكن قد تثبت بعد، فقد عبر البحر، وبنيته ارسال رسل إلى روما، أو الذهاب إلى هناك شخصياً.

كيف صنع جميع أبناء الملك سلاما مع أبيهم

سنة ١١٧٥م، فيها بدأ لويس ملك فرنسا، وكونت أوف فلاندرز، يشعران بالنفقات الكبيرة التي تحملاها في سبيل مساندة الملك الشاب لانكلترا، وتفكرا بالخسائر بالأرواح والأملاك التي ألمت بشعبيهما، فوعدا بالتمنع عن غزو نورماندي، وبذلا جهديهما لمصالحة الملك مع أولاده، الذين عرفوا جيداً، بأنهم جنوا غضب أبيهم، وكراهية رجال الدين، ولعنة الناس جميعاً، وبناء عليه علم الملك من خلال تقارير الرسل، بأن جميع خصومه قد أصبحوا نادمين، فاستعد لاستقبالهم في مان Mans ، حيث قدم في البداية ولداه: غيروفري ورتشارد الولاء إليه، وأقسما يمين التابعية، وبعد عدة أيام، مثل أمام الملك القديم، الملك الشاب، مع رئيس أساقفة روان وعدد كبير آخر من الأساقفة والبارونات، في بوري Bure في نورماندي، وقد ألقى بنفسه على قدمي أبيه، وطلب رحمته، وأثير الملك والده بالعاطفة نحو ابنه، لأنه كان يحبه بشكل كبير، ولأنه أدرك اخلاصه، توقف عن غضبه عليه، وتلقى ولاءه مع يمين التابعية، وعندما اكتمل عمل السلام، وتأكد تماما بالقبلة،

أطلق سراح تسعمائة وستة وتسعين فارساً من دون فدية، وكان قد أسر هؤلاء خلال الحرب، لكن قلة، كانت أعمالهم الشريرة جداً قد دفعته إلى الغضب، على الرغم من ميوله الرحيمه، أبقاهم بالاعتقال، وأيضاً، أطلق الملك الشاب جميع الفرسان الذين أسرهم في الحرب، من دون فدية، وقد تجاوز عددهم المائة الواحدة، ثم أرسل والده الملك رسائل إلى جميع المناطق في ممالكه لإخبارهم عن المصالحة التي تمت، حتى يمكهنم وهم الذين عانوا بشكل عام من الحرب وتألموا، أن يبتهجوا في إعادة إقامة السلام، وأوضحت الرسائل أن جميع القلاع التي حصنت ضده أثناء الحرب،، ينبغي أن تعود إلى وضعها الذي كانت عليه قبل بداية الأعمال العدوانية.

إقامة وليم ملك اسكوتلندا سلاماً مع الملك هنري

وأقام في السنة نفسها وليم ملك اسكوتلندا، الذي كان سجينا في فالي، سلاماً مع الملك هنري ملك انكلترا، وكان ذلك في الثامن من كانون الأول، وفق الشروط التالية: أعلن ملك اسكوتلندا عن نفسه تابعاً لملك انكلترا، وقدم ذلك عن مملكة اسكوتلندا وعن جميع ممتلكاته، وقدم الطاعه له والولاء على أساس أنه مولاه الخاص، وكذلك إلى هنري ابن الملك، ماا‌حتفظ باخلاصه إلى ابيه، وبالطريقة نفسها فعل الأساقفة، مع الايرلات، والبارونات العائدين إلى اسكوتلندا، الذين رغب الملك في أن يتلقى منهم الطاعة والولاء، ليس فقط عن أنفسهم بل أيضاً عن خلفائهم، وليس له فقط بل إلى خلفائه إلى الأبد، من دون أية تحفظات من أي نوع، فضلاً عن هذا وعد ملك اسكوتلندا مع رجاله بعدم منح ملجأ في أي جزء من ممالكهم لأي لاجيء قادم من انكلترا، بل يتولون اعتقال كل من يأتيهم ويسلمونهم إلى ملك انكلترا وإلى قضاته، وكضمانة على الالتزام بهذه المعاهدة أعطى ملك اسكوتلندا إلى الملك هنري وإلى خلفائه قلعتي بيرويك، وبكسبورغ Boxburg إلى

الأبد، وإذا ماحـاول ملك اسكوتلندا خرق هذه المعاهدة، تعهد أسـاقفة اسكوتلندا وايرلاتها وباروناتها بمعـارضتـه والوقـوف ضده، وأن يقـوم الأساقفـة بوضع مملكته تحت الحرمان من شركـة المؤمنين حتى يعود إلى تأدية واجبـه نحو ملك انكلترا، وهكذا أعطى الملك وليم رهائن، وعـاد إلى انكلترا متحرراً من السجـن، حتى يجري تسليم القلاع وفقـاً لصفقته مع الملك، وبـالنسبـة للحصـــون الكثيرة التي أقيمت في أرجـــاء انكلترا ونورماندي أثناء الانقسامـات بين الأب والابن، فقد جرى الآن هدمها بموجب أمر الملك.

كيف قام الملكان الأب والابن بزيارة ضريح القديس توماس

سنة ١١٧٦م، فيها، أكل ملكا انكلترا، الأب والابن، بعد عودتهما إلى انلكترا، على المائـدة نفسهـا في كل يوم، ونامـــا كل ليلة في غـرفـة النوم نفسها، وقامـا أيضاً معا بزيارة الشهيد المبارك، القـديس توماس، لتقديم صلواتهما وعهـــودهما عند ضريحه، وتجولا بعـــد ذلك في جميع أرجـــاء انكلترا، واعدين بالعدالة لكل انســان، من رجال الدين ومن العلمانيين، وقد قامـا بعد ذلك بتنفيذ كامل الوعـود، وفي السنة نفسها، حشد وليم دي بروز Brause بشكل تآمري جمعاً من الويلزيين في قلعة أبير جافني Abergavenny، ومنعـــوا المســـافـريـن من حمل السكاكين والقسي، وعندمـا عـارضـوا هذا الأمـر، أمـر بهم فعـوقبـوا بالاعـدام، ومن هذا يمكنك أن تفهم كيف أنه اقترف خيـانته تحت رداء العـدالة، وأقدم على فعلته هذه للانتقـام لعمه(خـاله) هنري أوف هيرفورد، الذي كـانوا قد قتلوه في يوم سبت عيد الفصح المتقدم.

وعين في السنة نفسهـا رتشارد رئيس أساقفـة كانتربري ثلاثـة رؤساء شمامسـة في أسقفيتـه هـم: سفـاري Savary ، ونيقـــــولا، وهيربرت، وجــــرى في الســـنة نفسهـــا تكريس جـون عميـــد ســالسبري أسقفـــاً لنورويك، وليس بعـــد أمـد طويل هـدم الملـك هنـري مــلك انكلـترا

تماماً قلاع: ليستر، وهنتغدون، وولتون، وغوربي، وستوتبري، وهي، وثيرسك، إلى جانب قلاع أخرى كثيرة، وذلك مقابل الأضرار والأذى التي غالبا ماألحقها أصحاب هذه القلاع به، ثم إنه قام بناء على نصيحة ابنه والأساقفة بتعيين قضاة في ستة أقاليم من مملكته، ووضع في كل جزء ثلاثة، أقسموا بأنهم سوف يعطون عدالة كاملة لكل انسان.

كيف منح الملك أربعة بنود إلى بطرس مندوب الكرسي الروماني

ووصل في هذه الآونة بترو— ليونيز، النائب البابوي، إلى انكلترا، ووافق الملك على منحه أربعة بنود هي التالية، ووعده بمراعاتها في مملكة انكلترا، وكان أولها، أنه لن يجري في المستقبل سحب أي رجل دين ليمثل شخصياً أمام قاضي مدني، من أجل أي جريمة أو عدوان، باستثناء قضية الغابة أو الأجور الاقطاعية، سواء أكانت أجوراً مستحقة للملك أو لأي اقطاعي آخر، وكان ثانيها، أنه لايجوز اعتقال رؤساء أساقفة، أو أساقفة، أو رعاة ديرة في أيدي الملك لمدة تتجاوز السنة، باستثناء إذا كان ذلك لسبب واضح، أو لضرورة ملحة، وكان ثالثها، وجوب معاقبة رجال الدين، الذين أدينوا، أو اعترفوا، أمام قضاة الملك، بحضور الأسقف، وكان رابعها، وجوب عدم إرغام رجال الدين على الخدمة في الحرب، وفي السنة نفسها، كانت جوانا، ابنةالملك، التي أعطيت زوجة إلى ملك صقلية، في التاسع من تشرين الثاني في سانت جايل، ومن ثم جرى حملها إلى زوجها، وذلك برعاية جماعة من الرجال اللامعين، الذين شهدوا على ذلك، وفي السنة نفسها وضعت جميع قلاع انكلترا في الحفظ بناء على أوامر الملك، وقام كذلك وليم إيرل غلوستر، الذي لم يكن لديه ولد يرثه، والذي لم يرغب بتقسيم ميراثه ين ابنتيه، بتعيين جون ابن الملك الذي بلا أرض، وريثاً له.

كيف أخضع الملوك الأجانب خلافاتهم إلى قرار ملك انكلترا

وفي هذه الآونة نشب خلاف بين ألفونسو ملك قشتالة، وزوج ابنة ملك انكلترا، وبين عمه سانشو ملك نافار، فأرسلا سفراء إلى ملك انكلترا، ووعدا بالالتزام بقراره، وعندما مثل السفراء أمام الملك في وستمنستر، وأمام الأساقفة، والايرلات، والبارونات، قد عرضوا أولاً موقف ألفونسو، من أنه عندما كان مايزال صغيراً ويتيما، انتزع منه سانشو ملك نافار، بشكل ظالم وبعنف قلاع وأراضي: لوغتيوم Log-toium، ونفارات Navarret، وأنثيلينا Anthlena، وأبتول Aptol، وأغوسن Agosenمع متعلقاتهم، مع أنهم كانوا ملكاً لوالد ألفونسو قبل أن يموت، ومن ثم آلوا إلى ألفونسو نفسه منذ سنوات تملكه، ولهذا السبب طالب بإعادتهم إلى صاحبهم، ولم ينكر سفراء سانشو هذه الحقائق، لكنهم أكدوا بأن ألفونسو قد استولى بالقوة على قلعتي ليجين Legin، وبورتيل Portel، وبأنها بيد غودين Godin، وبما أن رجال الفئة الثانية لم تعارض ذلك، فإنهم طالبوا بالمساواة ومن ثم إعادتهم إلى صاحبها، وقد أعلنوا أيضا عن إقامة هدنة بين الفريقين لمدة سبع سنوات، وأنها تأكدت باليمين، وبعدما تشاور ملك انكلترا مع أساقفته وإيرلاته، وباروناته حول موضوع هذا الخلاف، بدا أن مامن واحد من الفريقين أنكر استخدام العنف على الطرفين، وظهر أنه لايوجد سبب يحول دون اعادة متبادلة، ولذلك قرر الملك وجوب أن يعيد كل فريق الذي استولى عليه، وأن يراعيا الهدنة ويلتزما بها طوال المدة، ومن أجل خاطر السلام، ينبغي أن يدفع ألفونسو إلى سانشو، لمدة عشر سنوات، مبلغ ثلاثة آلاف[دينار] مرابطي، وأنه بناء على هذه الشروط ينبغي أن يكون هناك سلام نهائي بين الاثنين.

واجتمع في تلك الأيام سفراء من عند مانويل امبراطور القسطنطينية، ومن لدن فريدريك الامبراطور الروماني، ومن عند وليم رئيس أساقفة

تريف Treves، ومن عند هنري دوق ساكسوني، ومن عند فيليب كونت فلاندرز، وانشغل كل واحد منهم بعمله المنفصل، والتقوا بالملك في البلاط في وستنمنستر، وكأنهم على اتفاق، وكان ذلك في الثاني عشر من تشرين الثاني، ولقد أتينا على ذكر هذه الحقيقة كبرهان على المكانة والتقدير الذي نظر به العالم أجمع إلى أبهة وعظمة الملك، حيث اندفع كل واحد بالطلب إليه النصيحة وفض خلافاتهم.

نقل الرهبان المدنيين من كنيسة وولتهام

سنة ١١٧٧م، فيها جرى نقل الرهبان الذين يسمون بالمدنيين من كنيسة وولتهام Waltham ، وأُحل محلهم رهبان نظاميون، بموجب سلطات الحبر الأعظم، وكان ذلك عشية أحد العنصرة، وجاء ذلك بناء على أوامر الملك، الذي كان حاضراً لتلك المناسبة، وفي اليوم نفسه تسلم رالف قانوني أوف شستر حكم تلك الكنيسة نفسها، من يدي أسقف لندن، الذي إليه عادت الأسقفية، وقد ربط نفسه بعبارات تفوه بها بأن يلتزم بالطاعة الرهبانية، ودخل بعد ذلك إلى الكنيسة بصحبة الراهب، الذي عينه الأسقف ليكون رئيساً للرهبان، وجلس على عرشه بشكل مهيب.

وبعدما أنهى ملك انكلترا مشاكل مملكته وأرسى قواعدها حسب رغباته، عبر إلى نورماندي في الثامن عشر من آب، وعقد مؤتمراً مع ملك فرنسا، إثره أبرمت المعاهدة التالية:« أنالويس ملك فرنسا، وأنا هنري ملك انكلترا، نعلم هنا جميع الناس، بأننا بإلهام من الرب، قد وعدنا وأكدنا باليمين، في أن ندخل في خدمة مخلصنا المصلوب، وأن نأخذ الصليب، وأن نذهب إلى القدس، ورغبتنا أن نكون صديقين، وأن يحافظ كل واحد منا على حياة وعلى أعضاء، وعلى الشرف الدنيوي للآخر، ضد جميع الناس، وإذا ماحاول أي واحد إيذاء أي واحد منا، أنا هنري سوف أساعد لويس ملك فرنسا، بحكم أنه مولاي، ضد جميع

الناس، وأنا لويس سوف أساعد هنري ملك انكلترا، بحكم كونه رجلي المخلص، ضد جميع الناس، محافظين على الاخلاص الذي ندين به لرجالنا، ماداموا متابعين الاخلاص لنا»، ووقع هذا في ميناكورت Mi-nancourt، في الخامس والعشرين من أيلول.

تأسيس دير وستوود

سنة ١١٧٨م، فيها، قام رتشارد دي لوسي، مسؤول العدالة في انكلترا، في الحادي عشر من حزيران بإرساء قواعد كنيسة ديرية على شرف القديس توماس الشهيد في مكان كان اسمه وستوود West-wood، في منطقة روكستر، وأيضا بعدما أمّن الملك هنري جميع الحصون في ممالكه كلها من البيرينيز إلى المحيط البريطاني، وبعدما فض كل شيء وفقاً لرغباته قام في الثالث عشر من حزيران بزيارة ضريح القديس توماس الشهيد، وبعد ذلك بوقت قصير عمل في السادس من آب، في وودستوك ابنه غيروفري فارساً بحزام.

حول الرؤيا التي عملت إلى أحد النساك فيما يتعلق بالقديس أمفيبالوس

كان في السنة نفسها رجلاً عادياً، يعيش في بلدته الخاصة، سينت ألبان، وقد تمتع بأخلاق كانت متحررة من النقد بين أهل بلدته، فقد عاش منذ صغره حتى الوقت الحالي باستقامة، وذلك بقدر ماسمحت له مقدرته وحظه بذلك، وكان مداوماً تقياً على الكنيسة، وبينما كان هذا الرجل متمدداً في فراشه في إحدى الليالي، في حوالي وقت نداء الديك، دخل رجل طويل جلالي الطلعة إلى حجرته، وهو متدثر بالبياض، وكان ممسكا بيده صولجاناً جميلاً، وأشرق البيت كله وأشع لدى دخوله، وأضاءت الحجرة وكأنها في وضح النهار، واقترب من فراشه وسأله بصوت لطيف:« روبرت هل أنت نائم؟»، وأجاب روبرت وهو يرتجف

خوفاً ودهشة:« من أنتم ياسيدي»؟ فقال له:« أنا الشهيد القديس ألبان، وقــد جئت لأخبرك بإرادة الرب فيما يتعلـق بمــولاي الكاهـن الذي علمني الايمان بالمسيح، الذي وإن كـانت شهـرته عظيمـة جـداً بين بني البشر. فإن مكان ضريحه مازال غير معروفاً، مع أن المعتقد بين المؤمنين بأنه سـوف يظهـر في العصور المقبلة، وبناء عليـه انهض، والبس ثيـابك واتبعني فأنا سأريك البقعة المدفون فيها بقاياه الثمينة»، وبناء عليه نهض روبرت من فراشه— كما بدا— ولحقه، وذهبا معا خلال الشوارع العامة نحـو الشمال، حتى وصـلا إلى سهل، قد ترك منـذ أجيال غير مـزروع، وذلك على مقـربة من الطريق العام، وكـان السطح مستـويا، فيه مـرعى جيـد للمواشي، ومكان استراحـة للمسافـرين، وذلك عند قرية اسمهـا ردبورن Redburn، على بعد نحـو ثلاثة أميال من سينت ألبـان، وكان في هذا السهل مـرتفعين اسمهما« رابيتي الأعلام»، لأنه جـرت العادة أن يكون حــولهما تجمعـات للمـؤمنين، عندمــا كـانوا— وفقــاً للعـادات القـديمة— قـد اعتادوا سنـويا على عمل مسيرة مهيبة إلى كنيسـة سينت ألبـان، وتقـديم الصلوات، واستـدار هنا القـديس ألبـان قليـلاً خـارج الطريق، وأمسك بيـد الرجل واقتاده إلى احـدى الأكوام، التي أحتـوت ضريح الشهيـد المبـارك، وقـال وهو ملتفت إلى تابعـه:« هنا ترقـد بقـايا معلمي»، ثم إنه فتح الأرض قليــلاً على شكل صليب بابهام الانسـان، وأخـرج قليـلاً من الطين والعشب، وفتح صندوقـاً صغيراً، فصـدر منه ضـوء مشع، ملأ أولاً الغـرب كله بأشعته ثم العـالم بأجمعه، وبعـد ذلك انغلق الصندوق ثانية، وعاد السهل إلى مظهره السالف، واعترت الرجل الدهشة حتى يسأل القـديس ماالذي عليه أن يعمله، فقـال له القديس: لاحظ البقعـة بدقـة، وتذكر الذي عـرض عليك، ولسـوف يحل الوقت سريعاً، عندما ستظهر المعلومـات التي أخبرتك بها بشكل خاص، لمنفعة كثيرين»، ثم استطـرد يقــول:« انهض الآن، ودعنا نذهـب، ونعــود إلى المكان الذي جئنا منه»، وعندما كانا عائدين على طريقهما، دخل القديس

إلى كنيسته، ورجع الرجل إلى بيته، وذهب إلى فراشه مجدداً.

كيف أباح الرجل خبر الرؤيا التي رآها

واسيقظ الرجل في الصباح، وكان منزعجاً جداً في تفكيره، متشككاً هل عليه أن يبوح للآخرين بما شاهده بالرؤيا، أم لا، ذلك أنه آمن بها حقيقة، وهنا خاف أنه إذا أخفاها سوف يغضب الرب، وأنه إذا باح بها سوف يتحمل استهزاء بني البشر به، وفي حالة الشك هذه، تغلب الخوف من الرب، ومع أنه لم يعلن خبر الرؤيا بشكل عام، أوصل الخبر إلى بعض أصدقائه المقربين والخاصين، وقام هؤلاء ـ على كل حال ـ باعلان ماسمعوه في ظلام الليل، بوضح النهار، والذي سمعوه بآذانهم أعلنوه على رؤوس الأشهاد، وهكذا انتشرت الحكاية في جميع أرجاء المقاطعة، لذلك احتشد الناس في دير القديس ألبان، وأخيراً وصل الخبر المفرح إلى سيمون راعي الدير، الذي بفضل نفوذه، التالي لنفوذ الرب، حظي الخبر لديه باهتمام كبير، فقام على الفور بتقديم الحمد والشكر للرب، وعقد اجتماعاً ضم الرهبان، فاختار بعضهم للذهاب إلى المكان، الذي يتوجب على الرجل السالف الذكر قيادتهم إليه، وفي الوقت نفسه صلى الرهبان في الدير بخشوع إلى الرب، وسار في الوقت ذاته الرهبان الذين تعينوا للمهمة إلى المكان، على أمل العثور على آثار الشهيد، وعندما وصلوا إلى هناك، وجدوا حشداً كبيراً من الناس، اجتمعوا مع بعضهم من مختلف أجزاء المنطقة، وقد اقتادهم الروح القدس، ليكونوا شهوداً على اكتشاف آثار الشهيد، وفيما هم ينتظرون وقوع الحادث، اقتاد الرجل المتقدم الذكر الرهبان إلى السهل حيث رقدت أجساد القديسين، وكان اليوم يوم جمعة قبل عيد القديس ألبان، عندما عُمل هذا، ومن ذلك اليوم حتى جرى نقل أجساد القديسين، كانت هناك حراسة مستمرة ومتواصلة فوق تلك البقعة، وقد تعاون رهبان الدير مع العلمانيين للقيام بهذا الواجب.

وفي الوقت نفســـه شرع الدير في تطبيق نظام حيـــاتي دقيق، وأعلن للناس عن مناسبـة مهيبـة للصـلاة والصـوم، ونال هذا المكان الذي تمّ العثـور فيه على الآثار المقـدسة الآن مظهـر سـوق، حيث كانت عندمـا تغادر البقعة طائفة زارتها بغرض التقوى، تصل طائفة أخرى.

المرأتان اللتان شفيتا بزيارتها للقديس

وبينما كان الشهـداء مايزالون تحت الأرض بدأت معجـزات بالظهور بظواهر مدركة بشكل جيـد، معطية آمالا بأعمال أعظم سوف تحدث فيها بعد، فقد كـانت هناك امرأة من غيتدن Gatesden، مربوطة منذ عشر سنوات بالكتفين وبالحقوين، وكـانت بسبب عجزها محط عـدم إعجاب من قبل زوجهـا، فغـادرت مكانها المحلي، ولـدى مـرورهـا بردبورن، تمددت ونامت قرب المكان الذي دفن فيه الشهداء، ولم تنهض من هناك حتى شفيت تمامـاً، وكـانت هناك امـرأة أخـرى من دنستيبل Dun-stable، اسمها سيسيليا Cecilia ، لها انتفاخ أعطاها مظهر الحامل، وقـد عـادت هذه إلى الصحـة بزيارة البقعة، وكـان هناك أيضـاً فتـاة في الخامسـة من عمـرها، لم تتمكن من المشي منذ ولادتها، بل كـانت تحمل دوماً من قبل والديها، فـوضعت إلى جانب البقعـة ذاتها، على مشهد من عـدد كبير من الناس المؤمنين، وبعـد نوم قصير، نهضت وركضت على قدميها، مما أعطى والديها سروراً عظيماً، وفي الـوقت نفسه حلّ يوم عيد القديس ألبان الشهيـد، ومع أن هذا اليوم كان مشهوراً بحـد ذاته، صار الآن أعظم شهرة بنشر أخبار هـذه المعجزات، وجرى حث المؤمنين على تقديم الصدقات بشكل أكبر لـلاستخدام في التقشف في الطعام، وجرى تكرار مسيرة مهيبة في اليوم التـالي، ثم إن الأيام التي كانت قد مضت لم تتبـدد في الكلام الفارغ، ذلك أنـه منذ ساعـة اكتشـاف الآثار المقدسـة، ظهرت معجـزات كثيرة ونفذت، فقـد سخر رجل من كنغبري Kings-bury ، من الذين كانوا يحفرون بحثاً عن القديسين، وقد قدم إلى

البقعـة مع البقيـة، إنما مع تفكير مختلف عن تفكيرهم، حيث على الفـور استـولى عليه جنون، ومـزق ثيابه، وعـوضا عن سخـريته بالذين كـانوا يحفرون، صار مشهداً يهزأون هم منه، وبعدما تعذب لبعض الوقت أمام جميع الذين كانوا موجودين، توقفت يد الرب عن معـاقبته، وعاد سالماً إلى منزله، وإن كان معـاقباً منبوذاً، وضحك رجل آخـر من الذين كانوا يحفرون بحثـاً عن القديسين، وقد أصيب أيضـاً بضربة انتقام رباني، لأنه عندما كان في وسط كلامه، قهر بعنف ولفظ فوق البقعة روحه الكافرة، وقدم رجل اسمـه ألغار Algar من دنستيبل إلى البقعة في عربة، كان فيهـا برميل جعة للبيع، وجـاء إليـه رجل فقير مريض ورجـاه من أجل محبـة الشهداء منحـه جرعـة صغيرة لإطفـاء عطشه، وغضب ألغـار من طلبه، وقـال له بأنه لم يقدم إلى هناك تقديراً منه للشهـداء، بل للحصول على الربح ببيعه بضائعه، وعندما كان هكذا يهين الرجل الفقير، سقطت نهايتا البرميل، وتـدفقت الجعة على الأرض، وهكذا حدث أنه بـوساطة القديسين لم يجث الرجل الفقير الذي أنكر عليـه نيل جرعة صغيرة، على ركبتيـه لوحـده، بل فعل ذلك عـدد كبير آخـر معـه جثـوا على ركبهم، وشربوا مارغبوا، لأن مامن أحد منعهم، وهكذا أمكن عن طريق تدخل الشهـداء قمع شرور المعتدي، ونال المؤمنـون الأتقياء الجائـزة، ذلك أنه خلال الأيام الثـلاثة التالية نال عشرة أشخـاص من الجنسين الشفاء من مختلف الأمراض، فحمداً للرب وللشهيد المقدس.

اكتشاف القديس أمفيبا لوس ورفاقه التسعة

وفي صباح اليوم الـذي جرى فيه اكتشاف أجسـاد القديسين والعثور عليهم، وصل الأب المبجل الراعي سيمـون إلى البقعـة المقدسـة، وذلك بعـدما أقـام قداسـاً لأسرار مخلصنا في بيعـة القديس جيمس المجـاورة، وصدوراً عن الاحترام للشهيـد القديس ألبـان أمر الرهبان الـذين كانوا حضـوراً بالبحث بيقظة أكبر، وأن يستخـدمـوا على الفـور المزيد من

الحفارين، وكانت بيعة القديس جيمس قد بينت تكريماً للشهيد، عقب نزول بعض اشعاعات الضوء دوماً على القطعان، كلما ساقهم رعاتهم للرعي فوق تلك البقعة، ولهذا السبب أيضاً أقام الراعي المتقدم الذكر قداساً، وطلب عون الشهيد لمباركة بحثهم، وبعد عودة الراعي ورهبانه إلى الدير، جلسوا لتناول الغداء، فقرأ واحد منهم بصوت مرتفع حكاية آلام القديس الذي كان يحفرون من أجله ومن أجل رفاقه، الذين بعدما تحرروا من الجسد دخلوا في المجد السرمدي، وبناء عليه، عندما كان أهل الدير يبكون وراغبين في سماع خبر وحشية القاضي، وشرور معاونيه، وتفاصيل طويلة عن موتهم، دخل شخص فجأة إلى الغرفة، وأعلن أنهم للتو قد اكتشفوا أجساد أمفيبالوس وثلاثة آخرين، ولماذا علي أن أتحدث عن أثر هذا الخبر؟ فقد تبدلت تنهداتم إلى حمد وشكر، وأعقبت البهجة الأسى، ونهضوا من وراء المائدة، وساروا جميعاً إلى الكنيسة، وقدموا الشكر تعبيراً عن البهجة التي ملأت قلوبهم، وكان الشهيد المقدس أمفيبالوس راقداً بين اثنين من رفاقه، بينما تمّ العثور على الثالث وهو راقد بشكل اعتراضي في مكان منفرد لوحده، كما أنهم وجدوا قرب المكان سبعة شهداء آخرين، صاروا مع القديس أمفيبالوس عددهم كلهم عشرة، وكان بين الآثار المكتشفة المتعلقة ببطل المسيح هذا سكينين كبيرين أولهما في جمجمته والثاني في صدره، وبذلك تأكدت الأخبار التي وصلتنا من العصور القديمة في كتاب قصة استشهاده، لأنه وفقاً لذلك الكتاب، إنه في حين هلك الآخرون بالسيف، نزعت أحشاء أمفيبالوس أولاً، ثم طعن بالحراب والسكاكين، ورجم أخيراً حتى الموت، ولهذا السبب أيضاً لم يتم العثور على أي من عظامه كاملاً، مع أنه في أجساد رفاقه لم يكن هناك عظماً مكسوراً.

كيف جرى نقل آثار القديس أمفيبالوس إلى دير القديس ألبان

وكما رأينا ، عندما سمع الراعي بالأخبار السارة، بادر مسرعاً مع

رئيس الرهبان وبعض الرهبان إلى المكان، وأمر بإخراج الآثار المكتشفة، ولفها بأقمشة مناسبة، وإدراكاً منه للأذى الذي يمكن أن يحصل من ضغط الحشود، الذي لايمكن إبعادهم عن الكنز الذي وجدوه، أصدر أوامره بوجوب حمل الشهداء المقدسين إلى كنيسة القديس ألبان، حيث يمكن العناية بهم بشكل أفضل، فهل أنا بحاجة لقول المزيد؟ وعاد الراعي والرهبان إلى الدير وهم يحملون معهم بشكل منفصل أجساد القديسين، أما بقية الرهبان الدين كانوا قد بقيوا في الدير، فقد خرجوا لاستقبالهم، وهم يحملون جسد الشهيد المبارك القديس ألبان، الذي برهن حملته أنه كان ثقيلاً بشكل عام، لكنه كان في تلك الحالة خفيفاً إلى حد بدا فيه وكأنه يطير، وليس راسياً على أكتافهم، وهكذا قابل الشهيد الشهيد، والتلميذ معلمه، وجرى استقباله لدى عودته بشكل علني من قبل الذين كان فيما مضى قد علمهم الإيمان الصحيح في بيت ريفي متواضع، وعلى كل حِال، ينبغي عدم المرور بما حدث بصمت، فقد عمل الرب معجزة في العناصر عندما التقت هذه الآثار، فقد كان هناك انحباس للمطر، سبب جفاف كل شيء، وأوصل المزارعين إلى حالة اليأس تقريباً، ففي تلك اللحظة، تساقط مطر عاصف، مع أنه لم تكن هناك سحابة مرئية، ورويت الأرض، وتجدد الأمل بموسم مستقبلي، وكان العثور على القديس أمفيبالوس ورفاقه في يوم السبت الخامس والعشرين من حزيران لعام ١١٧٧م، وكان ذلك العام عام ثمانمائة وستة وثمانين بعد استشهاده، وجرى وضع الآثار المقدسة كما كانوا مدفونين في تلك البقعة، وكان في سبيل مجد الرب، وشهيده قد جرى شفاء المرضى من مختلف الأمراض، واستردت الأطراف المعاقة قوتها، وفتحت أفواه الخرسان، ورد البصر إلى الأعمى، والسمع إلى الأطرش، وتمكن الأعرج من المشي، فهل بقي هناك المزيد من الأمور الإعجازية، فالذين كانوا متلبسين من قبل الشياطين قد تحرروا، وتمّ شفاء المصروعين، ونقاء المجذومين، وأعيد الميت إلى الحياة، وإذا مارغب أي

واحد بقراءة أخبار المعجزات التي عملتها الرحمة الربانية بوساطة هؤلاء الشهداء، عليه استخدام كتاب معجزاته، والآن نطلب السماح من قرائنا من أجل الاستطراد، ونبادر مسرعين نحو المواضيع الأخرى.

كيف أقام هنري الملك الشاب مباريات مبارزات

عام ١١٧٩م، فيه عبر هنري الملك الشاب إلى غاليا، حيث أمضى ثلاثة أعوام في الصراعات وفي الاسراف في النفقات، واضعاً جانباً الأبهة الملكية، ومتخذا سمة فارس، وصارفاً نفسه إلى تمارين الفروسية، ونائلاً للنصر في كل مبارزاته، وناشراً لشهرته في جميع الأرجاء من حوله، وعندما اكتملت سمعته عاد إلى أبيه الذي استقبله بالتشريف اللائق، وقرر في العام نفسه لويس ملك فرنسا القيام بزيارة للصلاة عند ضريح القديس توماس الشهيد، ولهذه الغاية قدم إلى انكلترا، الأمر الذي هو لم يفعله من قبل، ولاكذلك أي واحد من آبائه، فقد نزل في دوفر واستقبل في الثاني والعشرين من آب من قبل ملك انكلترا، الذي أظهر نحوه ونحو حاشيته كل علامات الاحترام الممكنة، وسار رئيس أساقفة كانتربري مع أساقفته المساعدين، والايرلات، والبارونات، وذلك إلى جانب رجال الدين والناس، سار هو و هؤلاء بموكب مهيب إلى الكنيسة، تشريفاً للملك الكبير، وما من أحد يعرف كم هو كثير الذهب والفضة، والأحجار الكريمة والصحون التي منحها الملك هنري إلى النبلاء الفرنسيين، ولذلك مامن انسان يمكنه الحديث عن شيء مماثل، وتبرع ملك فرنسا بمائة معيار من الخمرة، لتوزع سنوياً في باريس صدوراً عن الاحترام للشهيد المجيد، وكذلك من أجل استخدامات دير كانتربري، وعرض الملك هنري على الملك الفرنسي وحاشيته رؤية جميع ثروة مملكته، مما جمعه هو شخصيا، أو من قبل أسلافه، وأمسك الفرنسيون أيديهم عن تسلم الهدايا، خشية أن يبدو أنهم جاءوا لغرض آخر غير رؤية الشهيد المبارك، وحين تمنعوا هكذا لعلهم تحملوا نوعاً من

الشهادة العقلية، وهكذا بعدما أمضى ملك فرنسا ثلاثة أيام في السهر، والصوم، والصلاة، في كانتربري، وتلقى قليلاً من الهدايا الصغيرة من ملك انكلترا، كبرهان على المحبة، أبحر عائداً إلى فرنسا في السادس والعشرين من آب، ومات في السنة نفسها روجر أسقف أوف وينكستر في التاسع من آب.

مجمع روما برئاسة البابا الاسكندر

وعقد في العام نفسه مجمع عام في روما، حضره ثلاثمائة أسقف وعشرة أساقفة، وكان ذلك في التاسع والعشرين من آذار، في اللاتيران، وقد ترأسه البابا الاسكندر الثالث، وكانت القرارات التي اتخذت آنذاك، والتي تستحق الثناء العالمي، قد جاءت تحت تسعة وعشرين عنوانا كما يلي: حول انتخاب الحبر الأعظم، وحول الهراطقة الألبينيين، ومختلف أسمائهم، وحول قطاع الطرق والنهابين في برابانت، الذين أضروا بالمؤمنين، وأن مامن أحد سوف يتقدم إلى الأسقفية، أو إلى أية مرتبة لاهوتية، مالم يكن في العمر القانوني، وقد ولد من زواج شرعي، وأنه لايجوز منح أية منافع وتوزيعها مادام المكرسين لها أحياء، وأن لاتبقى أكثر من ستة أشهر شاغرة بعد وفاة المكرسين لها، وحول الاستئنافات أن لايشغل أي واحد من الطوائف المقدسة أو من الذين يعيشون من الموارد اللاهوتية، نفسه بالأعمال المدنية، وحول تثبيت الهدن، وتثبيت تواريخها، وأن يمتلك رجال الدين كنيسة واحدة، وكذلك الأساقفة، إذا مارسموا أشخاصا من دون ألقاب محددة، عليهم الاحتفاظ بهم، حتى يمكن تعيينهم لمنصب في الكنيسة نفسها، وأن لايتولى الحماة والعلمانيون ظلم الكنائس أو أي انسان لاهوتي، وأن لايتملك اليهود والمسلمين أيا من العبيد المسيحيين، لكنهم إذا اختاروا التحول إلى المسيحية فلايجوز انتزاع هؤلاء العبيد من أسيادهم، وأن يتملك الأشخاص المجذومين؛ الذين يعيشون في عزلة عن المجتمع،

مصلى خاص بهم مع كاهن لهم، وأن لايجري نقل الممتلكات اللاهوتية وتحويلها إلى أية استخدامات أخرى، وأن لايصرف العمداء الذين يمارسون الأعمال القضائية الأسقفية من أجل مبلغ محدد من المال، وبالنسبة لأعمال الانتخاب والتكريس اللاهوتي يجري تنفيذ إرادة الشطر الأكثر من المجلس، وأن لايسمح للذين يمارسون الربا بشكل علني بتناول القربان عند المذبح، وأن لايتلقون دفنا مسيحيا، وسوف يتمتع المزارعون والمسافرون بسلام عام وأمان، وعدّ جميع أعمال التكريس التي تجري من قبل المنشقين لاغية، وفارغة، وكل المنافع التي تمنح من قبلهم منقوضة، ولاتجوز المطالبة بأية مدفوعات من أجل سيامة الأشخاص اللاهوتيين، ودفن الموتى، والتفوه بالمباركة أثناء الزواج، أو من أجل التكريسات الأخرى في الكنيسة، ولايجوز لأي أشخاص دينيين أو آخرين الإقدام على تسلم كنائس أو عشور من يدي علماني من دون موافقة الأسقف وتفويضة، ولايجوز أيضاً للداوية أو الاسبتارية فتح كنائسهم تحت الحرمان، مرة في السنة، وأن لايتولوا وقتها دفن الموتى، ولايجوز لأحد، من أجل المال، مصادرة الملابس الدينية، ولامصادرة أحداً من رجال الدين لديهم ممتلكات خاصة، ولايجري تجريد الأساقفة إلاّ بسبب التخريب أو العجز عن كبح النفس جنسيا، ولايجوز للمسيحيين بيع الأسلحة إلى المسلمين، وأن لايتجرأ أحد على سرقة الذين تجنح سفنهم، ويتوجب على الكهنة في الطوائف المقدسة العيش بعفة، وإذا عثر عليهم وهم يمارسون ذلك النوع من الممارسات المعارضة للطبيعة، فلسوف يجري حرمانهم كنسياً، ويطردون من الكهنوتية، وعلى رؤساء الأساقفة الذين يتولون زيارة الأسقفيات أو الكنائس، أن يقنعوا بحاشية تتكون من أربعين إلى خمسين فارساً، والأساقفة بعشرين أو ثلاثين، والنواب البابويون بعشرين أو خمس وعشرين، ورؤساء الشمامسة بخمسة أو سبعة، والعمداء ليس بأكثر من اثنين، ولايجوز لأحد ممارسة المبارزات، والذين يموتون فيهم يحرمون من الدفن

المسيحي، وعلى كل كنيسـة كـاتدرائيـة أن تتملك معلماً يتـولى تعليم الطلاب الفقـراء والآخـرين، شرط عـدم مطالبـة أي واحـد بالدفع من أجل التعليم، ويتـولى القسيس إدارة كنيسـة واحـدة، ولايجوز للأوليـاء استخراج مـال من الكنائس أو من أراضيهم، ولايجوز إرغام الأسـاقفة والأشخـاص اللاهوتيين على الظهـور في المحـاكم المدنيـة، وأن لايدفع الرجـال العلمانيين عشـوراً إلى أنـاس علمانيين، وإذا مـاتسلم أي انسـان ملكيـة من آخـر كضمان من أجل دين، ثم إنه بعـد حسم النفقـات جمع ماله من انتاج تلك الملكية، عليه وقتها إعادة الضمان إلى المستدين منه.

رسالة البابا الاسكندر ضد هرطقة بطرس لومبارد

وأخبر البابا الاسكندر نفسـه بأن المعلم بطرس لومبارد، قـد ابتعد في بعض كتاباته عن أسس الإيمان وقـواعده، ولذلك بعث بالرسالة التـالية إلى وليم رئيس أساقفة سين:

« من الاسكندر، أسقف وعبـد عبيـد الرب، إلى وليم رئيس أسـاقفـة سين، تمنيات الصحة:

عندمـــا كنتم من قبـل في حضرتنا، أعلمناكم بكلمات الفـم، وطلبنا منكم حث أسـاقفتكم المسـاعـديـن في باريس، وأن تستخـدمـوا أفضل جهودكم لتـدمير العقيدة الزائفة، لأسقف باريس السـالف، التي أكدت أن المسيح، هو انسـان، وليس شيئا آخر، ولذلـك نأمرك ياأخي بكتـابتنا الرسـوليـة، مثلما أمـرناك مـن قبل بكلمـة الفم أن تجمع أسـاقفتك في باريس، وأن يكـون معهم آخـرين من رجـال الـدين وأهل الحكمـة، لتقوموا بإبطال العقائد المتقدم ذكرها جميعاً، وأن تجعلوا المعلمين يعلّمون التلاميـذ في اللاهوت بأن المسيح إله كامل، وهو أيضاً انسـان كامل، يتكون من جسد وروح، وعليك أن تأمر جميـع الناس بأن لايقدموا بأي حـال من الأحـوال على التبشير بالعقيدة المزيفـة المتقـدم ذكـرها، بل أن

يقوموا بمقتها كلياً».

حول كتاب الراعي واكيم الذي كتبه ضد بطرس اللومباردي

وكتب في هذه الأيام واكيم راعي دير فلور Flore كتاباً ضـد بطرس اللومبـاردي، أطلق عليه فيـه اسم هرطقي واسم مجنون، لأنه قـال لدى حـديثـه عـن الوحـدة أو جـوهر الثـالوث، بأن الآب، والابن والروح القدس، هم جـوهر واحد سامي، هو لم يلد ولم يولد، بل انبثـاق واحد، وبسبب هذا التأكيـد اتهم الراعي بطـرس بأنه لم يؤمن بثـلاثة أشخـاص هم الرب، بل بوجـود رابع، أي الثـلاثة المعتـادين، وجـوهرهم العـام، الذي هـو رابع بشكل مـــا، أي ليس هناك شيء هـو الآب، أو الابن، ولاروح القـدس، ولاجـوهر، ولاأسـاس، ولاطبيعـة، مع أنه أقـر بأن الآب، والابن، والروح القـدس هم جـوهر واحـد، وأسـاس واحـد، وطبيعـة واحدة، وقـام واكيم نفسه بتأكيـد وضعه بالنصـوص التاليـة:« هناك ثـلاثة لهم الوجـود في السماء، وهـم: الآب، والكلمـة والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد، وهناك ثلاثة لهم الوجود في الأرض، وهم: الروح، والماء، والدم، وهؤلاء الثـلاثة هم واحـد»، وقـال ثانيـة:« وأرغب ياأبي، أن يكونوا واحـداً فينا، مثلما هم أيضاً واحـد»، وعلى هذا بدا أن واكيم المتقدم الذكـر، لم يعترف بوحدة صحيحـة وكاملة من هذا النوع، بل بنوع من الوحـدة التراكمية، تشابهت عنـاصرها فصارت مثلما ندعـو عـدداً كبيراً من الناس، شعباً واحـداً، وكثيراً من المؤمنين كنيسـة واحدة.

كيف أدان البابا انوسنت كتاب واكيم

وبقيت هذه الخلافـات غير محسـومـة لسنين طـوال، وذلك منذ أيام البـابا الاسكنـدر إلى أيام البـابا إنـوسنت، أي طوال مـدة بـابويات: لوسيـوس Lucius ، وأوربان، وغـريغـوري، وكليمنت، وسيلستين

Celestine الذي خلفه انوسنت الثـالث، الذي قـام في سنة ١٢١٥ لتجسيد ربنا، فعقد مجمعا عاماً في روما، وأدان كتاب واكيم ضد بطرس بهذه العبـارات:« نحن نوافق، ونستحسـن في هذا المجمع، ونعتقـد، ونعترف مع بطرس بأن هناك عنصر سـامي واحـد، لايمكن مقـارنته ولاوصفه هو حقاً الآب، والابن، والروح القـدس، وأنهم مع بعضهم ثلاثة أشخاص، وكذلك كل واحد منهم منفصل، وبناء عليه هناك ثلاثة أشخـاص وليس أربعـة في الإله، لأن كل واحـد من هؤلاء الثـلاثة أشخـاص هـو الشيء نفسـه، أو العنصر الأسـاس، أو الجوهـر للطبيعـة اللاهوتية، التي هي بداية جميع الأشياء، وإلى جـانبها لايوجد شيء آخر، وأن ذلك العنصر الأسـاس لم يلد ولم يـولد، ولم ينبثق، بـل الأب هو الذي ولد، والابن هو المولـود، وروح القـدس هي المنبثقـة، وبناء عليـه هناك تمييـز بين الأشخـاص، ووحـدة في الطبيعـة، لأنه مع أن الآب، والابن، والروح القـدس، هم أشخاص مختلفون، لكنهـم ليسوا مختلفين بعنصر الأسـاس، فـالأب بولادته لابن مـن الأبدية أوصل إليـه عنصرة الأسـاس، وهذا ماأكـده هو نفسه بقـوله:« ذلك الأب الذي أعطاني هو أعظم من الجميع»، كما أنه لايمكن القـول بـأنه أعطى الابن جـزئاً من عنصر الأسـاس واحتفظ بالبـاقي لنفسـه، لأن عنصر أسـاس الآب لايمكن تقسيمه، وهـو كله ساذج، كما أنه لايمكن القـول بأن الآب قد نقل أسـاسـه إلى الابن بولادتـه له، أي أنه بإعطائـه هكذا الابن هو لم يحتفظ به لنفسـه، وإلاّ فإن عنصره الأساسي سوف يتـوقف، لكن الابن تسلم بالولادة كـل العنصر الأسـاسي للآب، وهكـذا فإن الآب والابن لهما عنصر الأسـاس نفسـه، وهما الشيء نفسه، وكـذلك الروح القـدس التي انبثقت مـن الاثنين، وبقيت فيهما معـا، ذلـك أن العبيـد المؤمنين للمسيح ليسوا— كما قـال الأب واكيم، هم عنصر أساس للجميع ، بل واحـد فقط في وحـدة الرعـاية والنعمـة، لكن بالنسبـة للأشخـاص اللاهوتيين هناك وحـدة بالذات وفي طبيعتهـم، وبناء عليـه نحـن ندين

ونشجب كتاب وعقائد واكيم، ونأمر أنه إذا ماحاول أحد الدفاع عن مواقفة في هذه القضية، أن يُنظر إليه على أنه هرطقي بيّن جميع الناس»، وبشأن هذا المجمع والبابا المذكور أعلاه، سوف يقال المزيد في مكانه المناسب.

كيف جرى تكريس فيليب ملكاً لفرنسا

وجرى في العام نفسه، تتويج فيليب بن لويس ملك فرنسا، ملكاً في يوم عيد جميع القديسين في الرايم Rheims ، من قبل وليم رئيس أساقفة تلك المدينة، وكان أبوه مايزال حياً، وقدم كل شيء تطلبه التتويج، وجلب أيضاً كادوولان Cadwallan، أمير ويلز، في هذا العام، ليمثل في حضرة ملك انكلترا، حيث وضعت كثيراً من الاتهامات ضده، ولدى عودته إلى ويلز، بموجب أمان منحه إياه الملك، هوجم من قبل أعدائه، وقتل في الثاني والعشرين من ايلول، حيث كان ذلك تحديا كبيرا للملك، وعلى هذا لايمكن توجيه اللوم إليه، ذلك أنه أمر بعقوبة مقترفي هذه الجريمة بعقوبة حادة.

التحالف بين ملك فرنسا وملك انكلترا

عام ١١٨٠م، فيه جرى عقد مؤتمر بين فيليب الملك الجديد لفرنسا، وبين الملك هنري في مكان بين غيسور، وتراي Trie، حيث جرى ابرام المعاهدة التالية بينهما:« أنا فيليب بنعمة الرب، ملك فرنسا، وأنا هنري بالنعمة نفسها ملك انكلترا، نعلم جميع الناس، بأننا جددنا يمين التحالف والصداقة بيننا، ولكي نتجنب جميع مناسبات الخلافات بيننا من الآن فصاعداً، اتفقنا أن مامن واحد منا سوف يدعي ملكية أية أرض ضد الآخر، والممتلكات والأشياء التي بأيدينا الآن، وذلك باستثناء أوفرين Auvergne التي يوجد حولها الآن خلاف بيننا، وباستثناء الرسم الاقطاعي لقلعة رالف، وباستثناء رسوم صغيرة أخرى

واقتسام لأراضينا في بيري Berri، التي حولها لم نتمكن من التوصل إلى اتفاق، وقد اختار كل منا ثلاثة أساقفة وبارونات ليقرروا فيما بيننا، ونحن سنلتزم بقرارهم بعد الموافقة على ذلك بنوايا طيبة»، ومات في السنة نفسها لويس ملك فرنسا في باريس، وكان ذلك في الثامن عشر من أيلول، ودفن في دير السسترشيان في باربوكس Barbeaux، الذي أكملت عمارته على حساب الملك نفسه.

كيف شعث رتشارد كونت أوف بواتو أراضي غيوفري دي ليزينياك

وفي تلك الآونة استثير رتشـــارد دوق أوكتين وابن الملك هنري بعجرفة غيوفري دي رانكون وبسبب كثير من الأذى الذي ناله منه جمع عساكره، وألقى الحصار على تيلبورغ Tailburg ، التي كانت احدى قلاعه، وكانت مغامرة جريئة مامن واحد من أسلافه قد أقدم عليها، لأن القلعة كانت حتى ذلك الحين غير معروفة من قبل أعدائها، وكانت محمية بثلاثة خنادق وأسوار، إلى جانب أسلحة من جميع الأنواع، والحواجز والموانع، كما كانت متوجة بأبراج متحركة منصوبة على مسافات، وكان يوجد على شرافاتها كميات واسعة من الحجارة، إلى جانب مخازن من المؤن، وعدد كبير من الفرسان والعساكر المجربين، ولذلك لم تشعر بالخوف من وصول الدوق رتشارد، وقام هو بمهاجمة أراضيها بأكثر من غضب أسدي، واستولى على المنتجات المجموعة من الأعناب، وأحرق القرى، ودمّر كل شيء، ثم نصب خيامه قرب القلعة، وأقام آلات رمي مقابل الأسوار، مما سبب ذعراً حقيقياً عظيما بين صفوف الحامية، الذين ماكانوا يتوقعون وقوع مثل هذا الشيء، ولقد رأوا— على كل حال— أنه شائن أن يتعامل مثلهم من العساكر المجربين ويرغموا على البقاء محصورين داخل الأسوار، لذلك قرروا بالاجماع القيام بهجوم مفاجيء على جيش الدوق، وجرى تنفيذ هذا

القـرار بشجـاعـة، لكن الـدوق جمع رجـاله، وأرغمهم على التراجع إلى ماوراء أسوارهم ، وفي أثناء تراجعهم كان هناك قتال شديد، وكان سيئا بالنسبة لكل من الرجال والخيول، وللسيوف والرماح، والقسي، والقسي الزيارة، والترسـة والحراب، مع كل نـوع آخـر من السـلاح، والسـوابغ والدروع الدفاعيـة، فهذه جميعاً جرت تجربتهـا في تلك المبارزات، ونجم عن ذلك أن أهل البلدة، وجـدوا أنفسهم غير قادرين على متـابعة تحمل حملات الدوق، فتراجعـــوا إلى مـــاوراء الأســـوار، واندفـع الدوق في مطاردتهم ودخل مع المطاردين، وامتـلأت الشـوارع بالسلب والحرائق، لأنه لم يكن قـد ترك لهم طريق للنجـاة، وكـان سكان البلدة محظوظين بالفـرار إلى البرج الرئيسي، وتمت تسـوية الأسـوار الجميلة بالأرض، وعانى الآخـرون الذين مكثوا في القلعـة الثائرة من الحتف نفسـه خلال شهـر، واكتمل كل شيء حسب رغبـات الـدوق، وعند ذلك عبرا إلى انكلترا حيث جـرى استقبـاله بـالتشريف الأعظم من قبل أبيـه الملك هنري.

كيف أخضع فيليب ملك فرنسا تصريف مملكته إلى ملك انكلترا

عام ١١٨١م، فيـه، ذكّر بعض وزراء ملك فـرنسا سيـدهم، كيف أن ملك انكلترا قـد حكم ممالكه الـواسعـة بسـلام، وأبقـاهم سـالمين، من أولئك البرابرة مـن شعـوب الويلزيين والاسكـوتلنديين، ولهذا أخضع الملك الفرنسي— بناء على نصيحة آل بيته— مملكته وكذلك شخصه إلى تصريف ملك انكلترا، حيث تأثر بطرائقـه وحـذا حـذوه، فـوضع جميع نورماندي، تحت اشراف الملـك الشاب ابنه، وعبر إلى انكلترا في الخامس والعشرين من تموز، وقـام بزيارة هـدفهـا الصـلاة عند ضريح القـديس توماس الشهيد.

ومـات في العـام نفسـه في العشرين من تشرين الثـاني، روجـر رئيس أساقفـة يورك، الذي حصل أثناء حياته على امتيـاز من البابا الاسكندر،

قضى أنه إذا ماقام أي كاهن كان تحت سلطانه، بعمل وصية وهو على فراش موته، ومات دون أن يتولى توزيع ممتلكاته بيديه، وقتها يستولي رئيس الأساقفة على جميع ممتلكات المتوفى، وبما أن كل واحد ينبغي أن يخضع للقوانين التي وضعها للآخرين، نجد الآن أنه عندما مات رئيس الأساقفة، فإن جميع كنوزه قد صودرت بموجب حكم عادل من الرب، وقد بلغت أحد عشر ألف باوند من الفضة، وثلاثمائة قطعة من الذهب، وكأس ذهبي واحد، وسبعة كؤوس من الفضة، وتسعة طوس من الفضة، وثلاث ممالح من الفضة، وثلاثة كؤوس من المر، وأربعين ملعقة، وتسع قصعات من الفضة، وطشت فضي واحد، وقصعة فضية كبيرة.

رسالة البابا الاسكندر إلى بريستر جون ملك الهند

وفي هذه الآونة كتب البابا الاسكندر إلى بريستر جون ملك الهند، كما يلي:« من الاسكندر الأسقف، إلى ولده المحبوب في المسيح، صحة ومباركات رسولية، لقد سمعنا منذ زمن طويل مضى، بوساطة العلاقة بكثيرين، عن النشاط الذي أبديته في انجاز الأعمال التقوية، منذ أن تبنيت الديانة المسيحية، هذا وأبدى ولدنا المحبوب، فيليب الطبيب، الذي قال بأنه تحادث مع عظماء وأشراف الرجال في مملكتك، إلحاحه وإخلاصه المعهود، في العمل على تبيان نواياكم وخططكم، وأوضح لنا رغبتكم في توجيهكم في العقيدة الكاثوليكية والرسولية، وأن هذا هو شغفكم، الجامح، وذلك بالنسبة لشعبكم ولكم أنفسكم، وأن لاتتمسكوا بشيء يبدو مخالفا لعقائد الكرسي الرسولي، وإلى ذلك ينبغي أن نضيف الفضيلة السامية المتعلقة برغبتكم— كما قال فيليب المتقدم الذكر، بأنه سمعها من شعبكم— بأن تتملكوا كنيسة ومذبحاً في مدينة القدس، حيث يمكن لرجال دين وحكماء من مملكتكم البقاء والتعلم بصورة أوفى والتدرب بشكل أكمل على الأنظمة الرسولية، التي

بوساطتهـا يمكنكم أنتم أيضاً وشعبكـم أن تتلقوا بصورة أسهل العقـائد المسيحية، وتتمسكون بها، وبناء عليه، رغبـة منا في إبعادكم عن الأفكار التي تنأى بكم عن الإيمان المسيحي، قد بعثنا إلى سمـوكم فيليب المتقدم الذكر، الذي من خلاله يمكن أن تتعلموا أفكار الإيمان المسيحي، وذلك حيث تبـدو أنت ويبدو أتبـاعك أنكم تختلفـون عنا، وهكذا لاعليك أن تخاف مـن أي شيء يمكن أن يصـــــدر عـن أخطـائكم، في أن يعيـق خـلاصكم أو خـلاص أتبـاعكم، أو أن يلقـى بأية وصمـة على إيمانكم بالمسيحية».

كيف خلف لوسيوس البابا الاسكندر

ومات في العام نفسه البابا الاسكندر، بعدما جلس في منصب البابوية الرومـانيـة لمدة اثنين وعشرين عـامـاً، وقـد خلفـه همبـولد Humbald أسقف أوستيا، الذي اتخذ لنفسـه اسم لوسيوس الثـالث، ومكث أربعة أعـوام في الكنيسـة الرسـوليـة، وأيضـاً تـزوج فيليب ملك فـرنسـا من مـرغريت ابنة بلدوين كـونت أوف هينولت Hainult ، من مرغريت أخت فيليب كـونت فلاندرز، وفي هذا العـام ألغي أيضاً النقـد القديم، وصدر نقـد جديد في يوم عيد القـديس مارتن، وفي العـام نفسه، خلف بلدوين راعي فـورد، وهو دير سستر شيـاني، روجـر، وصـار أسقفـاً لوينكستر.

كيف رفض غيوفري المنتخب للنكولن الانتخاب

عـام ١١٨٢م، فيـه قـام غيـوفري المنتخـب للنكولن، والذي هو ابن ملك انكلترا، بعـد تأكيد انتخـابه من قبل البـابا وحكمه لتلك الكنيسـة نفسهـا بسلام لمدة سبعـة أعـوام، قـام في يوم عيد الغطـاس في مالبـورا Marlborough ، بالتخلي عن انتخابه، وكان ذلك بحضور الملك والأساقفة، مع أن مامن أحد أرغمه على فعل ذلك.

وفي الوقت نفسه، منح هنري بحضور نبلاء المملكة في وولتهام، وبكرم منه ألفي مارك من الفضة وخمسمائة مارك من الذهب لمساعدة الأرض المقدسة، وعبر بعد ذلك إلى نورماندي، وفي هذه الأيام جرى نفي هنري دوق سكسوني من قبل الامبراطور، وهنري هذا كان ختن الملك، وقد وصل إلى الملك مع الدوقة، وولديه: هنري وأوتو، وهناك زوده الملك لمدة ثلاثة أعوام بسخاء، بكل الأشياء التي احتاجها، وبأعظم الكميات، وفي هذا العام نفسه جرى تكريس كونستانتي Con-stantiis رئيس شمامسة أكسفورد، أسقفاً للنكولن، من قبل رتشارد رئيس أساقفة كانتربري، في آنجو في كنيسة القديس لود Laud، ومات أيضاً وولتر أسقف روكستر في هذا العام.

وفاة الراعي سيمون وتعيين وارن

عام ١١٨٣م، فيه مات سيمون راعي دير القديس ألبان، وقد خلفه وارن رئيس رهبان الكنيسة نفسها، وكان ذلك في يوم عيد ميلاد أم الرب، حيث وقتها تلقى المباركة كراعي دير.

موت هنري الملك الشاب

وفي هذه الآونة بذل الملك هنري جهده في سبيل جعل ولديه غيوفري ورتشارد يقدمان الولاء للملك الشاب، بحكم كونه الابن الأكبر له، وذلك عن بريتاني، ودوقية أكوتين، ولهذه الرغبة وافق غيوفري على الفور، وقدم الولاء من أجل ايرلية بريتاني، لكن رتشارد ماأن سمع بطلب أبيه حتى انفجر غاضباً، وقائلاً إنه من غير المنطقي، طالما والدهم مازال حياً، أن يخضعوا أنفسهم إلى أخيهم الأكبر، الذي ولد من الأب نفسه والأم نفسها مثلهم أنفسهم، وأن يقوم الأخ الأكبر بادعاء وراثة الأب، إنه هو نفسه، أي رتشارد، له الحق بالمطالبة بوراثة ممتلكات أمه، وكان الملك هنري منزعجاً جداً تجاه هذا التصرف، وسعى

باخلاص شديد لجعل ابنه الشاب، يبذل غاية جهده لخضد شوكة عجرفة أخيه، وبعدما اجتمعا مراراً من أجل هذا المقصد، ووضح أنه مامن أمل في السلام، حشد الملك الشاب جيشاً كبيراً، وقرر محاربة أخيه، لكن حياته انقطعت فجأة مثل خيط، ومعه آمال الكثيرين، ففي الوقت الذي كان فيه بنضارة شبابه، وعندما فقط أكمل الثامنة والعشرين من عمره، توفي في ذلك الجزء من غاسكوني الذي اسمه تورونيا Turonia في قلعة مارتل، في يوم عيد القديس بارنباس -Bar nabas الرسول، وجرى لف جسده بأثواب من الكتان، هي التي لبسها لدى مسحه بالميرون أثناء تتويجه، وحمل إلى روان، حيث دفن إلى جوار المذبح في الكاتدرائية، بتشريف عظيم يليق بأمير كبير مثله، وفي هذا العام نفسه مات جيرارد الملقب بلي بوسل Pucelle وكانت قد جرت سيامته لكرسي كوفنتري، وجاءت وفاته بعد عشرة أسابيع من صيرورته أسقفاً، وقدم أيضاً وولتر دي كاوتانس Coutance أسقف لنكولن إلى انكلترا، وجلس على عرش أسقفيته بشكل مهيب.

عام ١١٨٤م، فيه مات رتشارد رئيس أساقفة كانتربري، في ألنغهام Allingham ، وهي قرية عائدة لأسقف روكستر، واصطحب الملك هنري دوق سكسوني مع أرسرته إلى انكلترا، حيث ولدت الدوقة بعد ذلك بعدة أيام ولداً أعطي اسم وليم، وكان ذلك في وينكستر، وفي العام نفسه جرى انتخاب بلدوين أسقف ووركستر، ليكون رئيساً لأساقفة كانتربري، كما تمّ انتخاب وولتر أوف لنكولن ليكون رئيساً لأساقفة روان، وتلقى هذين الأسقفين الطيلسان، وبمهابة جلسا على عرشيهما، وقدم في هذه الآونة إلى انكلترا فيليب رئيس أساقفة كولون، وفيليب كونت أوف فلاندرز، ليقدما نذريهما إلى الشهيد المبارك، القديس توماس، وخرج الملك هنري لاستقبالهما، ودعاهما للقيام بزيارة لندن، المدينة الملكية وعندما وصلا إلى لندن، أقامت تلك العاصمة

احتفالاً، لم يشاهد مثل منظره من قبل، وغنت جميع شوراعها فرحاً وحبوراً، وجرى استقبال رئيس أساقفة كولون وكونت فلاندرز بمسيرة مهيبة في كنيسة القديس بولص، وقدم لهما في اليوم نفسه تشريف آخر، وبعد ذلك استضيفا لمدة خمسة أيام في القصر على حساب الملك، لكن هل حملا معهما وهما عائدين إلى الوطن كثيراً من الهدايا أم لم يحملا، يبدو أن من الفضول البحث في ذلك، ومات في العام نفسه جوسلين أسقف سالسبري.

كيف هاجم المسلمون اسبانيا المسيحية وتراجعوا باضطراب

وفي هذه الأيام، في حوالي يوم عيد القديس يوحنا المعمدان اقتاد أبو حفص ملك المسلمين في اسبانيا ملك ملوك المسلمين الذي اسمه أبو يعقوب، على رأس سبعة وثلاثين ملكاً آخر، إلى داخل أراضي المسيحيين، وحاصروا أولا شنترين، وبعد قتال استمر ثلاثة أيام وثلاث ليالي، أحدثوا ثغرة في الأسوار، ودخلوا إلى البلدة، وهربت الحامية إلى القلعة، وفي الليلة التالية انقض أسقف البرتغال مع ابن الملك على المسلمين، وقتلوا الملك أبو حفص مع خمسة عشر ألفاً من رجاله، وقد كوموا جثثهم في مكان الأسوار التي أحدثت فيها الثلمة، وفي اليوم التالي الذي كان عيد القديس يوحنا، والقديس بولص[٢٦— حزيران]، حشد رئيس أساقفة سانتياغو عشرين ألفاً من الرجال، وقتل عند الفجر ثلاثين ألفاً من المسلمين، وفي اليوم التالي الذي كان عيد القديسة مرغريت دمّر المسلمون عند العقاب عشرة آلاف امرأة وطفل، غير أن الذين كانوا في بلدة العقاب خرجوا منها وحملوا على المسلمين فقتلوا ثلاثة ملوك مع جيشهم كله، وبعد ذلك في عشية عيد القديس جيمس سمع الملك أبو يعقوب بأن ملك قشتاله كان قادماً لقتاله، ولذلك عندما رغب في امتطاء حصانه وقع أرضاً ثلاث مرات ومات، وبناء عليه هرب جيشه كله، مخلفاً وراءه جميع أمواله، وأعطى ملك

البرتغـال بعضاً من أسرى المسلمين كـرقيق للعمل في خدمـة البنائين في اعـادة عمارة الكنائس، وعمل بالذهب بيعـة ذهبيـة في القـديس فنسنت Vincent، وقـدمت بعـد ذلك عدة غـلايين إلى لشبـونة جـالبين معهم مـركبـاً ضخماً، كان فيـه آلة رمي ذات طبيعـة أنه كـان بإمكان المسلمين الرمي فيها إلى ماوراء الأسوار، والعـودة ثانية، وبفضل الحكمة الربانية، تمكن أحدهم من الغطس في الماء تحت هذا المركب، وفتح ثغرة كبيرة في أسفله، مما سبب غـرقـه، وقـدّر المسلمـون أنهم صـدوا، ولذلك هربوا مخلفين وراءهم جميع أثقالهم.

انتخاب غي لوزغنان حامياً لمملكة القدس

كان في هذه الأيام يحكم في القدس بلـدوين ابن الملك عموري، وقد كان منذ بداية حكمه مصاباً بمـرض الجذام، وكان هذا المرض قد حرمه بصره، والقـدرة على استخـدام قـدميه ويديـه، ومع ذلك على الرغم من ضعف جسده، كـان قوياً في فكره، وقـد بذل جهوداً فوق طـاقته لتأدية واجبـاته الملكية، وفي سبيل هذه الغـاية حث نبـلاء مملكته، وكـان ذلك بحضـــور أمـه والبطريـرك من أجل تعيين غي لوزغنان، كـــونت يافـــا وعسقلان، ليكون وكيـلاً للمملكة، وكان غي هذا قـد تزوج من سيبيلا أخت الملك، التي كانت من قبل زوجـة مركيز مـونت فرات، الذي منه ولدت بلدوين، لكنه بعـدمـا صـار لبعض الوقت وكيـلاً للمملكة، ولم تتقـــدم المملكة، عـــزل الملك غي، وعين ريمـــوند كـونـت طرابلس في موضعه.

كيف دمّر صلاح الدين سلطان مصر عدة مدن عائدة للصليبيين

أخضع في هذه الآونـة صـــلاح الديـن، سلطان دمشق، جميع ممـالك المسلمين في أرجـاء الشرق، وبذلك صـار مـن الممكن تسميتـه عن حق ملك الملوك، وسيد السادة، وصـار الآن مقصده اخضاع جميع الصليبيين

أيضاً، فعبر نهر الأردن في بداية تموز، وأغار على المنطقة من حول قلعة الكرك لجمع الغلال والأعلاف، ومنطقة الكرك هي التي كانت تعرف من قبل باسم البتراء في الصحراء، ثم إنه عبر إلى بلدة نابلس، التي نهبها ثم أحرقها، وفي سبسطية تمكن الأساقفة من دفع فدية عن المدينة وعن الكنيسة بتسليمه ثمانين من الأسرى، وزحف من هناك صلاح الدين إلى العربية فشعث تلك المنطقة، واقتلع النساء والرجال وحملهم معه أسرى، وتابع من هناك زحفه إلى قلعة جيرين الكبرى التي دمرها، وقتل كل من الرجال والنساء وذلك باستثناء عدد قليل اتخذهم أسرى، وكانت جيرين الصغرى قرية تابعة للداوية، وقد شاركت بالمصير نفسه، وعاد المسلمون بعد ذلك عبر طريق كوكب الهوا، وكانت قلعة تابعة للداوية فقتلوا بعضا من سكانها وحملوا البقية أسرى.

انتخاب ملك انكلترا ملكا للقدس

وعندما مات أخيراً بلدوين الملك المجذوم للقدس، حكم مكانه طفل كان في الخامسة من عمره، كان ابن أخت الملك المتوفى من أخته سيبيلا ووليم مركيز أوف مونتفرات، وكان بعد تتويجه أن عهد بتربيته لريموند كونت طرابلس، ولكن عندما رأى الناس ورجال الدين أن المملكة تدهورت إلى حالة بات من غير الممكن الحفاظ بها عليها، أخذوا يفكرون بالخطوات المتوجب اتخاذها، مقدرين في ظنونهم أن السلطان من غير الممكن أن يبقى طويلاً من دون عمل مؤثر، وكانت لديهم آمال قليلة للافادة من سني طفولة الملك، لذلك اتفقوا جميعاً على ارسال سفراء إلى هنري ملك انكلترا، وعرضوا عليه مملكة القدس، مع مفاتيح المدينة المقدسة، وكذلك مفاتيح ضريح ربنا، وتولى هرقل البطريرق بناء على طلبهم القيام بهذه السفارة، وكان برفقته مقدم الداوية مع آخرين، وقد عبروا البحر المتوسط، ووصلوا إلى روما، وحصلوا على رسائل من البابا لوسيوس، فيها رجاء لملك انكلترا بالموافقة على طلبهم.

وصول البطريرك هرقل إلى انكلترا وإعلامه الملك هنري بانتخابه

عام ١١٨٥م، فيه وصل هرقل بطريرك ضريح القيامة المقدس، وروجر مقدم الاسبتارية في القدس، إلى الملك هنري، في ردنغ، وأوصلوا إليه رسالة البابا، وشرحوا له الهدف من رحلتهم، والوضع المأساوي لمدينة القدس ولجميع منطقتها، وأثارت الكلمات الملك والمجتمعين وجعلتهم يبكون، فقد تفاعلت عواطفهم مع ميلاد الرب، وآلامه، وبرج داوود، ومفاتيح الضريح المقدس، وراية المملكة، فهؤلاء قد قدرهم الملك واحترمهم بدون حدود، وجاء محتوى رسالة البابا، بين مواضيع أخرى مايلي:

رسالة البابا لوسيوس إلى ملك انكلترا

من لوسيوس، أسقف وعبد عبيد الرب، الخ

« لما كان سلفك قد شهروا فوق جميع أمراء العالم بالشجاعة في السلاح، والنبالة في العقل، تعلم الناس من المؤمنين أن يتطلعوا نحوهم كحماة لهم في محنهم، وليس من دون مسوغ أن تقدموا إليكم، أنتم الذين ورثتم جميع فضائل أبيكم وكذلك مملكته، في اللحظة التي بات فيها ليس الخطر فقط ولكن الدمار الوشيك معلقاً فوق الشعب الصليبي، يطلبون أن تتولى بسلطانكم الملكي حماية أتباع المسيح، المسيح الذي سمح لكم بالوصول إلى مقام مجدكم الرفيع الحالي، وجعلكم سور دفاع ضد الذين يهاجمون اسمه بشكل شرير، فضلاً عن هذا ليكن معروفاً من قبل سموكم بأن صلاح الدين ذلك المعذب الشرير لاسم المصلوب، قد بلغ حداً خطيراً من العمل العدواني ضد صليبيي الأرض المقدسة، وأنه إذا لم يضبط عدوانه، هو قد بات متطلعاً لأن يصب نهر الأردن كله في فمه»، الخ.

رفض الملك هنري مملكة القدس

وبعـدمـا تسلم ملك انكلترا هـذه الرسـالة دعـا إلى الاجتماع رجـال الدين، والناس، والنبلاء التابعين لمملكته، وكان ذلك في الثامن عشر من آذار في كليركنول Clerkenwell في لنـدن، وفي أثناء اجتماع الملـك بالبطريرك مع مقـدم الاسبتـاريـة حث بشكل مهيب جميع أفـراد رعيتـه المخلصين، أن يعلنوا عـن الذي يرونـه مفيـداً لخلاص روحـه بشأن الموضـوع المعـروض أمامهم، مضيفـاً أنه مصمم بشـدة في عقله الأخـذ بالنصيحـة التي سـوف يقـدمـونها، وتولى المجلس كلـه فحص الذي سمعوه، فـرأى أنه من الأسلم والأفضل لخلاص روح الملك هو حكمه لمملكته كلها باعتدال صحيح، والدفـاع عنها ضد غارات البرابرة، وهذا خير من أن يتولى بشخصـه الاشراف على مصالح شعب الشرق، لكنهم لم يتـوصلوا إلى أي قـرار، فيما يتعلق بأولاد الملك، الـذين كـانوا غيـاباً، والذين طالب بطـريرك القـدس بارسـال واحـد منهم إلى القـدس، إذا مارفض الملك الذهاب شخصياً.

ورسم في هذا العـام نفسه جـون ابن الملك فارسـاً بنطاق، وذلك من قبل أبيه في وندسور، في اليوم الأخير من آذار، وبعد ذلك عبر الملك إلى ايرلندا، ثم إن الملـك عبر مع البطريرك إلى نورمـاندي، واحتفل بعيـد الفصح في روان، ولدى سماع ملك فـرنسـا بوصول ملك انكلترا، جـاء مسرعـاً تماماً إلى فـودرويل Vaudreuil حيث أمضى الملكان ثلاثة أيام من المحادثات العادية، وحمل كثير من النبلاء الصليب بحضورهما، لكن الملكين نفسيهما وعدا بأنهما سـوف يرسلان مساعـدة سريعة إلى الأرض المقدسة، لأنهما اعتقدا أنها سوف لن تكون مسألة سهلة القيام بمثل هذه المغامرة المهمة من أقصى حدود الغـرب، وخابت آمال البطريرك بالنسبة لهدفه، وحبطت آماله، فعاد إلى بلاده.

وفي العام نفسـه، قتل هيوج دي لاسي، الذي كـان صاحب مقـاطعة

اسمها ميديا(ميث Meath في ايرلندا) في الخامس والعشرين من تموز، ومات في الوقت نفسه ايرل أوف هنتنغدون من دون أولاد، فأعطى الملك الايرلية مع متعلقاتها إلى وليم ملك اسكوتلندا، وأيضاً جرت سيامة غيلبرت دي غلانفيل رئيس شمامسة ليوكس Lisieux أسقفاً لروكستر في التاسع والعشرين من إيلول، وعاد هنري دوق سكسوني— بإذن من الامبراطور— إلى وطنه، وأقنع نفسه وأرضاها بميراثه الأبوي الخاص.

بلدوين رئيس أساقفة كانتربري يتسلم الطيلسان والسلطات الشرعية

عام ١١٨٦م، فيه تلقى بلدوين رئيس أساقفة كانتربري الطيلسان مع التفويض الشرعي، والسلطة على المقاطعة التي يحكمها، وكذلك جرت سيامة وليم دي فير Vere أسقفاً لهيرفورد، وكان ذلك في يوم عيد ميلاد القديس لورانس، ومات في العام نفسه غيوفري كونت بريتاني، وابن ملك انكلترا في التاسع عشر من آب، وقد دفن في باريس في كنيسة نوتردام في سدة الرهبان النظاميين، وقد خلّف ابنتين من زوجته كونستانسي ابنة كولون الذي كان من قبل كونت بريتاني، وقد ولدت بعد وفاته ولداً أعطي اسم آرثر، وفي العام نفسه، تمت سيامة هيوج أوف بيرغندي، رئيس رهبان طائفة الكارثوسيين Carthusian في انكلترا، أسقفاً للنكولن، وكان ذلك في يوم عيد القديس متى، وفي اليوم نفسه جرت أيضاً سيامة وليم دي نورهيل Norhale أسقفاً لووركستر Worcester، ومات البابا لوسيوس، وخلفه أوربان، وتمت سيامة جون قائد جوقة المرتلين في اكستير أسقفاً لتلك الكنيسة.

البابا أوربان يمنح إلى بلدوين رئيس أساقفة كانتربري إذناً لبناء كنيسة في أكنغتون

وفي تلك الآونة، كتب البابا أوربان إلى بلدوين رئيس أساقفة كانتربري كما يلي:« نحن نعلمكم بوساطة هذه التقديمات، بأنكم تمتلكون الإذن ببناء كنيسة على شرف الشهيدين المباركين: اسطفان، وتوماس، وبتزويدها بأشخاص مناسبين ليكونوا مرتبطين بها، وعليك أن تعين لهم جميع مايحتاجون إليه للحفاظ عليها، وذلك وفقاً للكيفية التي سوف تعينهم بها، كما أن جميع التقدمات التي تعمل عند آثار القديس توماس الشهيد، تكرس ربع ذلك لاستخدامات الرهبان، وربع من أجل أعمال الكنيسة، وربع للفقراء، والربع المتبقي للاستخدامات التي تراها مناسبة.

تتويج سيبيلا ملكة على القدس

ومات في تلك الآونة، بلدوين الملك الطفل للقدس، ولم يكن هناك من يخلفه إلى العرش سوى سيبيلا، زوجة غي كونت يافا، وأخت الملك المجذوم، وأم الملك الطفل، الذي توفي آنذاك، وبما أن الهدنة بين صلاح الدين وبين الصليبيين كانت على وشك الانتهاء، باتت حماية المملكة في حالة حرجة، وأنها سوف تتحطم بعد وقت قصير، لأنها ماعادت تحتمل التأخير، وبناء عليه عقد اجتماع للنبلاء، وتم الاتفاق على وجوب تتويج سيبيلا زوجة غي ملكة، لأنها وريثة المملكة، وجرى رفض غي على أساس أنه غير أهل للحكومة، ورفضت سيبيلا الملك على أساس هذه الشروط، حتى يوافق النبلاء على منحها حق اختيار الرجل الذي سوف يكون زوجها، وأقسموا على إطاعته كملك، وطلب منها غي عدم اهمال العناية بالمملكة من أجله، وهكذا جرى بعد عدة أيام من التأخير قبول سيبيلا ورضوخها وهي تبكي، وتوجت ملكة بشكل مهيب، وتلقت الولاء من جميع الناس، في حين جرى تجريد غي في اللحظة نفسها من زوجته ومن تاجه، وعاد إلى قومه، وانتشر في الوقت نفسه تقرير، مالبث أن تأكد بوساطة الحقائق، عن اقتراب عدوان صلاح الدين، وبناء عليه

استدعت الملكة رجال اللاهوت لديها مع نبلائها المدنيين، وتباحثت معهم حول اختيار ملك، وكما حدث من قبل أن سمحوا لها جميعاً باختيار من ترغب به، وتطلعوا بقلق إلى الاختيار الذي سوف تعمله، فقالت لغي الذي كان واقفاً بين الآخرين:« مولاي غي، لقد اخترتك لتكون زوجاً لي، وأعطيتك نفسي ومملكتي، ولأن تكون الملك المستقبلي»، واعترت الدهشة الجميع بسماع كلامها، وعجبوا كيف أن امرأة بمثل هذه البساطة، قد خدعت مثل هذا العدد الكبير من المستشارين العقلاء، وفي الحقيقة جاء تصرفها جديراً بالثناء الكبير، بسبب كل من عدالته وحكمته، لأنها أبقت التاج لزوجها، وأبقت زوجها لنفسها.

وحدث في تلك الآونة زلزال مخيف، حتى انكلترا التي نادراً ماشهدت مثل هذه الأشياء، قد هدمت فيها عدة بيوت، وحدث أيضاً أن أم صلاح الدين، كانت على طريق عودتها من مصر إلى دمشق مع حاشية كبيرة وفخمة، وقد عبرت من خلال الأراضي الصليبية الواقعة على الطرف الآخر من نهر الأردن، وكانت واثقة بالهدنة، ولكن أرناط(رينودي شاتليون) هاجم الجماعة واستولى على كل ماهو ثمين كان معهم، وتمكنت أم صلاح الدين من النجاة بالفرار، وغضب صلاح الدين لما حدث، وطالب بإعادة المنهوبات، وبترضيته، وفقاً لشروط معاهدة الهدنة، ولدى مطالبة أرناط برد المنهوبات، ردّ بقسوة وبجواب مهين، وبناء على ذلك ابتهج صلاح الدين إلى أبعد الحدود لأن الصليبيين كانوا أول من خرق المعاهدة، وأعدّ نفسه للحرب وللانتقام، [وفي العشرين من كانون الثاني حمل ملك فرنسا وانكلترا الصليب].

صلاح الدين يشعث الأرض المقدسة

عام ١١٨٧م، فيه حشد صلاح الدين وهو يتحرق غضباً ضد الصليبيين: الفرثيين، والبداة، والترك، والمسلمين، والعرب، والميديين،

والأكـــراد، وشعث جميع الأرض المقـدسـة، ولم يقتنع باحتـلال بعض الحصون الصغيرة في الجليل، بل أعد نفسه لحصار جبل الجمجمة (أكرا)، وزحف إلى هناك مـع مختلف أنواع الآلات الحربيـــة، وتمكن وهو على طريقـه من انزال الهزيمة بكتلة كبيرة من الصليبيين، وقتل المقـدم الأعلى للداوية مع ستين من فرسان الداوية، وتحمس بهذا النجاح، فتابع العمل ومتـابعة الحصـار، ولدى سماع ملك القدس بأن المدينة [مـدينة طبرية] قـد حـوصرت، والسكان قـد ضغـط عليهم بشـدة، أعلن النفير العـام وبوساطتـه حشد جميع قوات مملكتـه، ولم يترك أحداً إلا العـاجزين عن القتـال، بسبب عمـرهم أوجنسهم، وقد أبقـاهم للدفـاع عن الحصـــون، وكـان موضع الاحتشـاد هو نبع الصفـورية، وعندما زحفـوا من هناك، وصل تعـدادهم إلى عشرين ألف مقاتل، وجـرى تعيين ريموند كـونت طرابلس قائداً أعلى لهم، وانطلقوا نحـو طبرية، وعندما حل يوم المعركة الحاسمـة رأى حاجب الملـك في منامه، بأن نسراً قـد طار فـوق معسكر الصليبيين، وهو حامل في مخالبه سبعة أسهم، ويصرخ عاليا:« الويل لك ياقدس، الويل لك يـاقدس»، وفي ترجمة لهذا الحلم وشرح له، يكفي أن نتذكر كلمات الروح القدس التي تفـوهت بها على لسان النبي في قوله:« فوّق الرب قوسه، وفيه أعدّ وريد الموت».

صلاح الدين يستولي على مدينة القدس ويأسر الملك شخصياً

ولدى سماع صـــلاح الدين باقتراب الملـك لرفع الحصـــار، زحف بشجـاعـة لمواجهـة الصليبيين، مـدركـاً بأنهم قـد أنهكوا بضيق الطريق وقسـوة الصخـــور، وليس بعيـداً عن طبرية، وفي مكـان اسمـه حطين، انقض على جيش الملك وهو واثق من النجـاح، وقد تلقـاهم الصليبيون بشجـاعـة وذلك بقـدر ماسمحت لهم طبيعـة الأرض، واشتـد القتـال، وحمي الوطيس، وسقطـت أعــداد من على الجانبين، إنما أخيراً، وبسبب آثام الصليبيين، انتصر الأعـداء لأنهم— كما يقـولون— أنزل كـــونت

طرابلس— الذي كان يقود الجيش— علمه بشكل خياني، وجعل جنوده يفكرون بالفرار، علما بأنه لم يكن أمامهم سبيل للفرار، إلاّ من خلال الأعداء، ووقع الملك غي بالأسر، وتمّ الاستيلاء على الصليب المقدس، وتعرض الجيش كله إما للقتل بالسيف، أو للأسر من قبل الأعداء. وذلك باستثناء كونت طرابلس، الذي من المعتقد أنه خانهم، ونجا أيضا اللورد رينالد حاكم صيدا، واللورد بالين مع عدد ضئيل من فرسان الداوية، وكان القتال في هذه المعركة المأساوية، في يومي الثالث والرابع من تموز، في الأيام الثمانية للقديسين: بولص، وبطرس، ونجا مقدم الداوية من هذه المأساة، إنما مع خسارة مائتين وثلاثين من رهبانه الفرسان، وكانت نجاة كونت طرابلس دون الاصابة بجراح برهاناً للافتراض بأنه خان الجيش، وتمكن العدو من قهر الصليب المقدس، مع أسقف عكا، ورئيس جوقة المرتلين في ضريح ربنا، أما الأسقف فقد قتل، وأما رئيس الجوقة فقد وقع بالأسر، ومثله حدث للصليب المقدس، وهو الذي كان من قبل قد جرى تحريره من قبل من نير الأسر، قد اتخذ الآن أسيراً بسبب ذنوبنا، وبذلك تدنس بأيدي غير المسيحيين.

كيف جرى اخضاع المدينة المقدسة وتقريباً جميع المملكة لصلاح الدين

وبعد حصول صلاح الدين على هذا النصر، رجع إلى طبرية، وبعدما استولى على القلعة التي كانت قد بقيت مستعصية عليه، أرسل الملك وأسراه إلى دمشق، ثم إنه دخل إلى الجليل، فلم يجد أحداً يعترض سبيله، فاستولى عليها من دون سفك للدماء، وتابع من هناك زحفه إلى القدس، ونصب آلات رميه في جميع الجهات من حول الأسوار، وأقام سكان المدينة من الدفاعات الذي استطاعوا اقامته، لكن قسيهم، وقسيهم الزيارة وآلات رميهم للحجارة قد تكدست من دون فائدة،

وتجمع الناس وهم مرعوبين حول البطريرك وحول الملكة، التي كانت تحكم المدينة في ذلك الوقت، وطالبوا الدخول بمباحثات مع صلاح الدين من إجل تسليم المدينة، وتلا ذلك عملية استسلام تستحق البكاء ولاتستاهل الوصف، وقضت الشروط أن يدفع كل رجل عشرة دنانير، والمرأة خمسة، والطفل دينار واحد، لكن كان في المدينة أربعة عشر ألفاً من الجنسين كانوا غير قادرين على دفع هذه الفدية، وبذلك نزلوا إلى درجة العبودية الدائمة، وبذلك استسلمت مدينة القدس إلى أعداء المسيح، وسقط الضريح في أيدي الذين كانوا يعذبونه، وهو المكان الذي دفن فيه، وصار الذين يدنسون المصلوب متملكين لصليبه، ودخل صلاح الدين إلى المدينة مع أصوات الطبول والأبواق، وبادر مسرعاً إلى الهيكل، فأزال الصليب الذي كان مبنيا هناك، وجميع الأشياء التي نظر الصليبيين إليها نظرة احترام، ثم إنه أمر بغسل الهيكل بماء الورد من الداخل ومن الخارج، وبإعلان النداءات المتعلقة بدينه في زواياه الأربع، وتركت كنيسة القيامة مع ضريح ربنا في أيدي بعض السريان مقابل دفع جزية مقررة، ثم تابع صلاح الدين زحفه واستولى على بقية المدن والبلدات، باستثناء عسقلان، وصور، والكرك، الواقعة فيها وراء الأردن، والتي تعرف باسم آخر هو مونتريال(كذا ومونتريال هي الشوبك).

البابا يمنع بناء كنيسة أكنغتون

وكتب في هذه السنة البابا أوربان إلى بلدوين رئيس أساقفة كانتربري بالصيغة التالية:« إلى أولادنا الأعزاء، ورئيس الرهبان ورهبان كنيستك، لقد أرسلتم لنا رسائل حول موضوع الكنيسة التي شرعتم بعمارتها، ذاكرين أنه مالم يتم التوقف عن متابعة العمل فإن سمعة وأوضاع كنيستهم سوف تتضرر كثيراً، وبناء عليه رغبة منا وحرصاً بأن لاينشب خلاف بينكم وبين إخوانكم، وبما أنكم لن تستطيعوا القيام بشكل

صحيح بأداء واجباتكم المقدسة عندما ينشب خلاف بينكم أنفسكم، وبناء على نصيحة إخواننا، نحذر، ونأمر بدقة إخوتكم، أنه حتى نقرر انطلاقاً من أسباب معروفة من قبلنا، الذي ينبغي عمله بشأن هذه المسألة، أن تضعوا جانباً جميع مناسبات الالتماسات، وتتوقفوا عن أعمال بناء تلك الكنيسة، حتى يجري منحكم رسائل من الكرسي الرسولي، بعدم معارضة ذلك».

ومات في العام نفسه البابا أوربان، وقد خلفه غريغوري، وأيضاً بعدما شغل هذا الكرسي لمدة شهرين مات، فجرى تعيين كليمنت الثالث في العشرين من كانون الأول، وفي هذا العام أيضاً دفع غيلبرت، أسقف لندن، دين الطبيعة، وسمع في العام نفسه رتشارد، كونت أوف بواتو، بأنباء الكارثة في الأرض المقدسة، والاستيلاء على الصليب، فقام على الرغم من نصيحة أبيه وارادته بحمل شارة الصليب، فكان بذلك أول نبلاء ماوراء البحر بفعل ذلك، وقد تلقى هذه الشارة من يدي رئيس أساقفة تور.

كيف حمل كثيرون الصليب بناء على التبشير بالحملة الصليبية

عام ١١٨٨م، فيه حمل فردريك امبراطور الرومان شارة الصليب، بناء على تبشير هنري أسقف ألبا Alba ، الذي كان نائباً للكرسي الرسولي، والذي كان قد أرسل من قبل البابا كليمنت، وفي الوقت نفسه توجه كل من فيليب ملك فرنسا، وهنري ملك انكلترا للاجتماع في مؤتمر في نورماندي بين تراي Trie وغيسور، وذلك من أجل تقديم المساعدة إلى الأرض المقدسة، وقد قاما بعد كثير من المداولات بالاتفاق، أمام فيليب كونت أوف فلاندرز وبحضوره، بشكل متبادل ومتضامن، على حمل شارة الصليب والاسراع برحلتيهما معا إلى القدس، وبناء عليه، كان ملك الانكليز أول من حمل شارة الصليب من يدي رئيس أساقفة الرايمز، ووليم الصوري، ووليم هذا كان البابا قد عهد

إليه بوظيفة النائب البابوي للمسائل الصليبية في غربي أوربا، وبعد هذا أخذ أيضاً ملك فرنسا وفيليب كونت فلاندرز الصليب، وكان المثل الذي أظهروه هكذا وضربوه قوياً وفعالاً، لذلك تناول الصليب في مملكتي وممتلكات الملكين المتقدمي الذكر بحماس، كل من رؤساء الأساقفة والأساقفة، والدوقات، والمراكيز، والكونتات، والبارونات، والعساكر، والناس من الطبقتين الوسطى والدنيا سواء، وتمّ الاتفاق بين الأمراء على أن يرتدي جميع الفرنسيين صلباناً من اللون الأحمر، والانكليز من اللون الأبيض، وأتباع كونت فلاندرز صلباناً من اللون الأخضر، أما بالنسبة لممتلكاتهم، فقد تمّ الاتفاق على أنه حتى انجاز حجهم، وبعد إمضاء كل واحد منهم أربعين يوماً في بلاده، فإن جميع الأشياء سوف تبقى كما كانت قبل حملهم للصليب.

كيف نأت عواطف رتشارد كونت أوف بواتو عن أبيه

في هذه الآونة، قتل غيوفري أوف ليزنياك Liziniac بشكل خياني واحداً من أصدقاء رتشارد كونت أوف بواتو، وثار الكونت من أجل الانتقام لهذه الجريمة، ولجأ إلى السلاح، لكنه تذكر شارة الصليب التي حملها، فوفر حياة الذين كانوا راغبين بحمل شارة الصليب من أتباع غيوفري، أما البقية فقد قتلهم، وأخضع عدة قلاع، وكان غيوفري يعتمد على الأموال والمساعدات— التي قيل— بأن ملك انكلترا كان يرسلها له، ولذلك قام بمقاومة الكونت رتشارد، إنما مع قليل من النجاح، وأبعدت هذه الظروف عقل الكونت عن أبيه، وبعد اخضاع غيوفري، كان الكونت قد أصيب بجراحة على يدي كونت طولوز، ولذلك غزا أراضي هذا النبيل، وأخضع في وقت قصير سبع عشرة قلعة، وغضب ملك فرنسا لمهاجمة رتشارد لأراضي كونت طولوز من دون معرفته، فقام بشكل سري بمهاجمة قلعة رالف، وأرغم جميع الذين كانوا هناك على تقديم ولائهم له، وبدا هذا مخلاً كثيراً بالشرف من

جانب مثل هذا الأمير العظيم، خاصة وأن ملك انكلترا عندما كان على وشك العبور إلى انكلترا، قد عهد بالعناية بأراضيه إلى الملك الفرنسي، وحقق بعد هذا الملك الفرنسي صداقة بعض المتملكين للقلاع التي كانت خاضعة لملك انكلترا، وكان ذلك بعضه بالوعد، وبعضه الآخر بالوعيد، وهكذا بإغواء من الشيطان، نشبت الخلافات بين الملكين، اللذان قاما بعد حملهما للصليب بانزال جراحات متبادلة، كل على الجانب الآخر، وغزا أخيراً الملك الانكليزي المملكة الفرنسية، وأحرق كامل المنطقة الممتدة من فيرنويل Verneuil إلى ميودان Meudan، ومات في هذا العام رتشارد أسقف وينكستر في الثاني والعشرين من كانون الأول، ودفن في وينكستر.

رسالة فردريك الامبراطور الروماني إلى صلاح الدين

وكتب في هذا العام الامبراطور الروماني فردريك إلى صلاح الدين، فيما يتعلق بالأرض المقدسة، الرسالة التالية:

«[نحن] فردريك، بنعمة الرب امبراطور الرومان، المهيب الدائم، والمنتصر المجيد على أعداء الامبراطورية[والحاكم السعيد للمملكة كلها]، إلى صلاح الدين اللامع، وحاكم المسلمين، عله يتعظ بفرعون، ولا يلمس القدس.

لقد تسلمنا الرسائل التي أرسلتها حضرتكم إلينا منذ وقت طويل مضى، حول مسائل ثقيلة وهامة، كان من الممكن أن تستفيد منها، لو أمكن الاعتماد على كلامك، الذي بات واضحاً لجلالتنا، وكنا على نية الاجابة على اتصالاتكم برسالة تليق بعظمتكم، لكن بما أنك الآن دنست الأرض المقدسة، التي هي خاضعة لحكمنا بموجب التخويل من الملك السرمدي، وبحكم كوني الوصي على اليهودية، والسامرة وفلسطين، فإن هذا يدفع مقامنا الامبراطوري للمبادرة بالزحف ضد

أعمال الاغتصـاب المجرمـة والشريرة بكل سرعة وفعـالية، وبناء عليـه، إنك مـالم تقم قبل كل شيء، بإعـادة الأرض التي استـوليـت عليهـا، وبإعطاء تعويضات مرضيه، تتـوافق مع القوانين المقدسة، من أجل هذه التجـاوزات العـدوانية، ولكي لانظهـر بإثارة حـرب غير شرعيـة، فإننا نعطيك مهلة من الأول من تشريـن الثـاني، مقـدارها اثني عشر شهـراً، وإنك بعدها سوف تجرب حظ الحرب، في ميدان صوعن، وذلك بفضل الصليب المانح للحياة، وباسم يوسف الحقيقي، لأننا لايمكن أن نصدق إلاّ بصعوبة بالغة أنك جاهل بما تحدثت عنه الكتـابات الماضية والقديمة وشهـدت عليـه، فهل يمكنـك أن تدعي أنك لاتعـرف بـأن كل من الأحباش، والموريتانيين، والفرس، والسكيزيين، والفرثيين كانت بلادهم هي التي لاقى فيهـا قائـدنا مـاركوس كـراسيوس مـوتاً قبل أوانه، وأن اليهـودية والسـامـرة والعـربيـة، والجزيرة، والعـراق، ومصر هي[من المخجل القـول أن مـواطناً رومـانيـا هو أنطونيـوس، الرجل الذي تمتع بفضيلة واحـدة، لأنه تجاوز حـدود ضبـط النفس، وعمل ضـد مـاكـان ينبغي عمله بحكم كونه جنديا أرسل من قبل دولة عظيمة، قد أخضعها لحبـه غير الطاهر لكليوبترا، وهل يمكنك أن تدعي أنك لاتعـرف بأن] أرمينيـا مع بلدان أخـرى لاتحصى هـي خـاضعـة لسلطاننا؟ فهـذا أمـر معـروف بشكل جيـد بالنسبـة إلى أولئك الملـوك الذين غـالبـا مـاتلطخ السيف الرومـاني بدمـائهم، وأنت شئت أم أبيت سـوف تعلم بالتجـربة قدرة نسـورنا المنتصرة، وستصبح عارفاً بعساكـرنا المكونة من عدد كبير من الشعـوب منها: الغـاضبين الألمان، والشرسين من الراين، والشبـاب من ضفـاف الدانوب، الذين لايعرفـون كيف يفـرون، والبافـاريين أهل الأبراج، والسـوابيين البـارعين، والفــرنجـة الحذرين، وأهل سكسـوني الذين رياضتهـم هي استخـدام السيف، والتــورنجيين، والوستفـاليين، والبربانتيين النشطين، واللـوريين الذين غير معتــاديـن على الســلام، والبيرغنديين الحادين، وسكان جبال الألـب الرشيقين، والفريزونيين مع

خناجـرهم وأسـواطهم، والبـوهيميين الجاهزين دومـاً لموت شجـاع، والبـولونيين الأشجع من أشجع الحيـوانات المفترسـة، وأهالي: النمسـا، وستيريا، وروانيا، واستيريا، وروكمفيا، وإليريا، ولومبارديا، وتوسكانيا، وتخوم أنكونا، والبنادقة أصحاب الادارة، والبيازنة البحارة، وأخيراً، من المؤكـد أنك سوف تتعلم كيف أن يميننا— التي تفـترض أنها ضعفت بسبب تقـدم السن— مـاتزال قـادرة على استخـدام السيـف، في ذلك اليـوم، الذي هو يوم الاحـترام والسـرور، الذي تقـرر من أجـل نصر قضـية المسيح».

جواب صلاح الدين إلى الامبراطور فردريك

« إلى الملك الكبير، والصـديق المخلص، فردريك اللامع ملك ألمانيـا: بسم الله الرحمن الرحيم: الحمـد لله الواحـد الأحـد، القـادر، والقـاهر، والباقي، الذي ليس لملكه من نهاية.

نحمـده دومـاً، الذي نعمتـه على العـالم كله، وندعـوه لينزل شـآبيب رحمتـه على جميع أنبيائـه، وخـاصة على معلمنـا، رسوله النبي محمـدﷺ، الذي أرسله بالـدين الصحيح الذي سيظهـره على الـدين كله، ونود أن نعلم الملك المخلص والقـوي، الذي هو صـديقنا اللطيف، ملك ألمانيـا، أنه قـد وصل إلينا رجل اسمه هنري، ادعى أنه رسـولكم، وأعطى إلينا رسـالة، قـال بأنها من يدكم، ولقـد أمرنا بقـراءة الرسـالة، وسمعنا منه كلاما تفوه به، والكلام الذي تفوه به جاوبناه أيضا بكلام، وإليكم الآن جـواب رسـالتكم: لقـد عـددتم الذين تحالفـوا معكم للقـدوم ضـدنا، وسميتهم، وذكرت اسم هذه البـلاد، واسم تلك البلاد، وهذا الكونت، وذلك الكونت، وبينت وجـود كذا من رؤسـاء الأساقفـة، والمركيزات، والفـرسـان، وإذا مـارغبنا أن نعـدد الذيـن هم في خـدمتنـا، والذين يستجيبـون لأوامـرنا، والذين يطيعـون كـلامنـا، والذين سيقـاتلون من أجلنا، لطالت القـائمـة حتى لايمكن وضعهـا كتـابة، وإذا مـا أحصيت

عـدد أسماء المسيحيين، فإن عـدد المسلمين أكبر مـن عـددهم، لابل هم ضعف أضعـاف المسيحيين، وإذا كـان البحـر يقـوم بيننـا وبين الذين سميتهم مسيحيين، ليـس هناك من بحـــر يفصـل بين المسملين، الذي لايمكن تعـدادهم، وبيننا وبين الذين سيقـدمـون لعـوننا ليس هناك من عـوائق، ويوجد لدينا البـداة، البـداة، الذين سيكون بهم وحدهم كفـاية لمواجهة أعـدائنا، والتركمان، الذين يمكنهم من دون مساعـدة تدميركم، حتى فـلاحينا، إذا مـاأمـرناهم، فإنهم سـوف يقـاتلون بشجـاعـة ضـد الشعـوب التي ستأتي لغـزو بلادنا، ولسـوف تسلبهم ثرواتهم، وتفنيهم، أوليس لدينا في جانبنا العسـاكر الذين يحبون القتـال، والذين بوساطتهم فتحنا البـلاد وحصلنا عليهـا، وأخـرجنا أعـداءنا وطـردناهم؟ وهؤلاء جميعا وكل الملوك المسلمين لن يتأخروا عندمـا نحشدهم، ولن يتقاعسوا عندمـا نستـدعيهم، وعندمـا سيتـم حشـد عسـاكـرك، كما ذكـرت في رسـالتك، ولدى قيـامك بقيـادتهم، كما أخبرنا رسـولـك، فإننا سـوف نواجههم بقدرة اللـه، كما أننا لن نكتفي بالأراضي القائمـة على شاطىء البحر، بل سوف نعبر نحوكم— بمشيئة الله— ونأخذ منكم أراضيكم، بعون الله وقدرته، لأنك إن كنت ستقدم، سوف تقدم مع جميع قواتك، ونحن نعلم أنه لن يبقى في وطنك أحـد للدفـاع عن أنفسهم أو للقتـال من أجل بلادهم، وعندمـا سيعطينا الله بقـدرته النصر عليكم، لن يبقى لنا من عمل نقـوم به سـوى الاستيـلاء على أراضيكم، بقـدرته تعـالى، ومشيئته، لأن المسيحيين المتحـدين قد جاؤوا مرتين ضـدنا في مصر، مرة إلى دميـاط، وثانية إلى الاسكنـدرية،[وكان هناك أيضـاً في سـاحل بلاد القدس أراض بيد المسيحيين، وفي بلاد دمشق، وفي بلاد المسلمين، وكان في كل حصن صـاحب له عـرف مصـالحه]، وأنت تعـرف كيف أن المسيحيين قد عادوا في كل مرة، وإلى أية نتـائج قد وصلوا، هذا ويحتشد قـومنا ويجتمعون مع بعضهم في بلادهم، وقـد زود الله بلادنا بالوفـرة، ووحـدها بـالطول والعـرض تحت سلطاننا، فبـلاد مصر مع متعلقـاتها

وبلاد دمشق، وساحل القدس، وأرض قيسارية مع قلاعها، وبلاد الرحبة مع متعلقاتها، وبلاد الهند مع متعلقاتها، هي بنعمة الله في أيدينا، وبقية ملوك المسلمين هم في سلطنتنا، لأننا إذا ما أردنا أن نأمر الملوك اللامعين للمسلمين فإنهم لن يتخلوا عنا، وإذا ماحثثنا خليفة بغداد[حفظه الله] للقدوم إلى عوننا، فلسوف ينهض عن سرير دولته العظمى ويقدم لمساعدة سعادتنا، يضاف إلى هذا، نحن تملكنا بفضل عون الله القدس وأراضيها، والمتبقي هناك هو ثلاثة مدن بأيدي المسيحيين هي: صور، وطرابلس، وأنطاكية، والذي بقي علينا هو وجوب احتلالهم أيضاً، وإذا كنت تريد الحرب، وإذا كان الله قد أراد لنا أن نحتل جميع بلاد المسيحيين، فإننا سوف نلقاك بمشيئة الله، كما قد كتب في رسالتنا، ولكن إذا كنت تطلب منا سلاماً حقيقيا، فما عليك إلاّ أن تأمر أصحاب هذه الأماكن المذكورة أعلاه، بتسليمها لنا من دون مقاومة، ونحن بالمقابل سوف نعيد إليكم صليب الصلبوت، وجميع الأسرى المسيحيين في بلادنا كلها، وسوف نكون بسلام معكم، ولسوف نسمح لكم بوجود كاهن واحد في الضريح، ولسوف نعيد الديرة التي كانت موجودة في أيام المسلمين، وسنحسن إليهم، وسنسمح للحجاج بالوصول خلال حياتنا، وسنكون في حالة سلم معكم، وإذا كانت الرسالة، التي وصلت إلينا على يدي هنري، هي رسالة الملك، فقد كتبنا هذه الرسالة جواباً لها، وكتبت هذه الرسالة في سنة ٥٨٤ لهجرة نبينا محمدﷺ بفضل الله الواحد[وحفظ الله نبينا محمدﷺ وأمته، وحفظ الله حياة وسلامة مخلصنا، مولانا اللامع، والملك المنتصر، ومعطي الوحدة، والكلمة الصادقة، والحامل للواء الصدق والمتمسك به، مقوّم العالم والشريعة، سلطان الاسلام والمسلمين، خادم الحرمين الشريفين، والحرم القدسي الشريف، أبو المظفر الناصر يوسف بن أيوب، محيي ذرية المروانيين».

كيف أطلق سراح غي ملك القدس من الأسر

وجرى في هذا العام اطلاق سراح غي ملك القدس، من الأسر من قبل صلاح الدين، وذلك بعدما بقي في الأسر لمدة عام، وجاء اطلاق سراحه على شرط خلع نفسه عن ملكه، والذهاب فوراً إلى المنفى فيما وراء البحار، غير أن رجال الدين في المملكة كانوا يرون بأن هذه الاتفاقية ينبغي أن تعد لاغية، وأن مصداقية العهد لايجوز الحفاظ عليها في الحالة التي يكون فيها الدين في خطر، ومادامت أرض الميعاد ليس فيها أمان، لأنها ليس لها رأس أو حاكم، وليس للحجاج الممكن وصولهم قائد، ولايوجد للناس من يحميهم، وباطلاق سراح الملك، نجد أن كثيراً من الحجاج الذين كانوا قد وصلوا مؤخراً، أخذوا يحتشدون مع شعب البلاد، وقد شكلوا جيشاً كبيراً، وقد رغب هؤلاء بدخول صور، لكن المركيز رفض السماح لهم، مع أن المدينة قد عهد له بها على شرط، أنها بناء على طلب الملك والورثة للمملكة، أن تعاد إليهم، وعلى كل حال إنه عند وفاة المركيز، التي كانت بعد أيام قليلة توقف هذا الاضطراب، ومات أيضاً في الوقت نفسه ريموند كونت طرابلس، الذي إليه عزيت مأساة أرض الميعاد كلها، ولهذا السبب، لم يتلق— كما قيل— الطقوس الأخيرة للمسيحية في ساعة موته.

وبعد هذه الوقائع أخذ الملك طريقه نحو عكا، وذلك مع جيشه الذي تألف من بارونات المملكة، الذين ظلوا مرتبطين به، وذلك بالاضافة إلى الداوية والاسبتارية، والبنادقة الذين وصلوا مؤخرا، وكذلك الحجاج من جنوا، وتجاوز تعداد كامل عساكره التسعة آلاف رجل، ووصل ملك القدس، إلى قرب المدينة، فأمر عساكره بتسلق جبل بين الجبال هناك، وهو جبل بسبب استدارته، ولأنه شابه البرج في قمته أطلق عليه اسم تورون Turon (تل المصلبين)، وارتفع هذا الجبل بشكل شاهق على الجانب الشرقي من المدينة، وامتد على شكل دائرة

ناشرة نفسها فوق السهل، وفي اليوم الثالث لوصول الصليبيين، ألقوا الحصار على المدينة، الذي لم يخفف حتى أيام الاستيلاء عليها من قبل فيليب ملك فرنسا، ورتشارد ملك انكلترا، وتحمس عامة الجند كثيراً، إلى حد أنهم لم ينتظروا وصول الملكين، بل تقاطروا واحتشدوا من جميع الجهات للخدمة في جيش الرب.

كيف تراجع صلاح الدين من عكا باضطراب

وقام ملك القدس، وهو محاط بحشوده الضخمة من الحجاج، باصدار الأوامر إلى جميع عساكره بالنزول من تورون، وقام معهم بنصب معسكره أمام المدينة، وقدم بعد عدة أيام صلاح الدين لمواجهتهم والتصدي لهم، وأقلع مع قوة قوية بالهجوم على الصليبيين، وكأنه فكر أنه سوف يقهرهم بحملة واحدة، ولكن جيش المؤمنين الذي كان متراصاً، وكأن رجاله يقاتلون من أجل أرواحهم، تصدى بشجاعة لقوات صلاح الدين، وأعطى صلاح الدين أوامره بتطويقهم، مقدراً أنه لن يكون من الممكن لأي واحد منهم النجاة، لكن كان قد قضي عكس ذلك من قبل، الذي يسبب الاضطراب لخطط الأشرار، فبعد تحمل القتال لمدة ثلاثة أيام، والحملات من قبل المسلمين، الذين أوقعوا بهم من جميع الجهات، وعندما بدأوا يسقطون لأنهم أضعفوا من قبل الأعداء وحملاتهم، شاهدوا اسطولاً فيه اثني عشر ألفاً من الدانيين والفريزيين مبحراً بسرعة، وقد دخل إلى الميناء، وقد وصلوا— بعون الرب — بعد رحلة موفقة وارتعب صلاح الدين لدى مشاهدته لهذا المنظر مع حوادث مشابهة، فتراجع إلى الأجزاء المنخفضة من بلاده.

العائق الكبير لقضية الأرض المقدسة

وكان في هذه الآونة هناك انتكاسة كبرى بالنسبة لقضية الأرض المقدسة، وبسب الخلافات التي نشبت مؤخراً، لابل منذ أن حملوا شارة

الصليب، وهذه الخلافات التي تفجـرت بين ملك فـرنسـا، ورتشـارد كونت بواتـو من جانب، وبين هنري ملك الانكليـز من الجانب الآخر، وكـان النزاع بينهم على درجـة كبيرة مـن الشـدة، حيث انتـزع أحـدهم قلاعاً من الآخـر، واقترف تجاوزات كثيرة، بالقتل والاغتصاب، وأخيرا اجتمعـوا من أجل السـلام في مـؤتمر في نورمـاندي، لكن الشيطان ألقى ببذور الشقاق بينهم، ولذلك افترقوا وهم متعادين.

كيف سعى جون كاردينال أوف آناجنيا لإقامة سلام بين الملكين فيليب وهنري

عام ١١٨٩م، فيه عندما كان الملك هنري مايزال مقيماً في بلاد ماوراء البحار، شعر بانزعاج كبير وبحنق كان الذي سببه له ملك فرنسا، وابنه رتشـارد كونت أوف بواتـو، وفي يوم الميلاد كـان في سـومور في أنجـو، مقيماً لاحتفال الميـلاد هناك، مع أن عدداً من كونتـاته وباروناته قد تخلوا عنه وتحولوا إلى جانب ابنه رتشارد، وبعد عيـد القديسة هيلاري خرقت المعاهدات التي كـانت قائمـة بين الملكين، ودخل فيليب الملك الفرنسي، والكونـت رتشـــارد إلى منـاطق ملـك انكلترا، ونهبـــوهـا، وتخلى عنه البريتـانيـون أيضاً، والتحقـوا بالكونت رتشـارد، وكـان البـابا كليمنت مندهشـاً لأن السلم لم يعقـد بين الملكين، لذلك بعث بجـون كـاردينال آناجنيـــا Anagnia، مع سلطـة كـاملة لإزالـــة الخلاف من بينهما، وحـاول هذا الأسقف توصيلهما إلى الاتفـاق، أحيـانا بالملامـة، وأحيـانا أخـرى بالمناقشـات اللطيفـة، وأخيرا أعطـى الملكان مـواثيق وضمانات، وأقسما بالالتـزام بقـرار لجنة تحكيم تألفت من رؤسـاء أسـاقفـة: بورغ، وروان، وكـانتربري، وأن أي واحـد منهما سـوف يخفق في ميثـاقـه، بأن يجعل السلام بينهما أقل ثباتاً، أو أنه سوف يؤخر الحملة إلى القدس، فإنه سيصدر ضـد الفاعل لذلك قراراً بالحرمان الكنسي، وسيجـري الاعلان عن ذلك بوساطة سلطة مولانا البابا، وسـوف يعدّ مدمراً لصليب ربنا،

وللديانة المسيحية كلها، واتخذ الكاردينال على الفور موقفاً ضد جميع رجال الدين والعلمانيين، حين يقرر من منهم كان السبب في ذلك الشقاق بين الملكين، وذلك باستثناء شخصي الملكين المتقدمي الذكر.

رسالة ابن المركيز فيما يتعلق بمحنة الأرض المقدسة

« من كونراد ابن مركيز مونتفرّات، إلى بلدوين رئيس أساقفة كانتربري، تحيات: اضطربت أحوال الدنيا، وإنه لخطير بالنسبة للايمان الكاثوليكي رؤية القدس وقد انفصلت عن الكرسي الرسولي، فقد أصبحت القدس جثة هامدة، وعجز الصليبين يتحدث عنه المسلمون بكل ازدراء، فلقد دنسوا ضريح ربنا، وهم الآن يدمرون الجمجمة، ويستخفون بموضع ميلاد المسيح، ولقد دمروا بشكل كامل ضريح مريم العذراء المباركة، وكرسي القسطنطينية لايبدي الاحترام لكرسيي روما، وأنطاكية أيضا، كما هو معروف تعيش في رمقها الأخير، وجميع هذه الأشياء قد وقعت— كما هو معروف— بسبب تقاعس المسيحيين، هذا وتستحق مدينة القدس المقدسة كثيراً من البكاء والنواح عليها، لأنها حرمت من متعبدها، وأيضاً حيث فيما مضى، أمضى المسيح ساعات النهار والليل في الصلاة، وهناك الآن اسم محمد ﷺ هو موضع الاجلال بصوت مرتفع، وبناء عليه إنني أضع أمام سموكم صلواتي ممزوجة بالدموع، بأن تتلطفوا بمواساة آلام الأرض المقدسة، بتذكير الملوك، وبحثّ ذوي الإيمان الصحيح حتى يقوموا بطرد هؤلاء الكلاب من ميراث يسوع المسيح، وأن يقدموا المساعدة على تحريره من الأسر، وأن يخلصوا من حكم المسلمين الأرض التي مشت عليها وداستها القدمين المقدستين لمخلصنا، وبالاضافة إلى كتلة الظلم هذه والإضرار بالمسيحية، هناك صداقة مزدهرة بين صلاح الدين وامبراطور القسطنطينية، الذي إليه— كما يقال— سلم صلاح الدين جميع كنائس أرض الميعاد، وأن تمارس الطقوس المقدسة فيهم من قبل أتباعه وفقاً

للعادات الاغـريقية، فضـلاً عن هذا أرسل صلاح الدين أيضـاً بناء على موافقـة ذلك الامبراطورد وثنة إلى القسطنطينية حتى يعبـد هناك بشكل علني، لكن بفضل من الرب أسر في البحر من قبل الجنويين وجلب مع السفينة التي حملته إلى صور، وظهـر أخيراً جيش جهزه الامبراطور أمام أنطاكية، وقد وعد صلاح الدين بمائة غيلون، وأعطاه صلاح الدين جميع أرض الميعاد، إذا مامنع زحف الفرنسيين لمساعدة الأرض المقدسة، وكل واحد يقدم في القسطنطينية على حمل الصليب، يلقى به في السجن، ولقد حظينا بمـواساة واحدة هـي أن أخا صلاح الديـن وابنه أيضاً قـد وقعا بالأسر أخيراً أمام أنطاكية، وقد أودعا بالاعتقال في السجن، وداعاً».

الأسباب التي اقتادت رتشارد للثورة ضد أبيه

وعقـد في العـام نفسـه، بعـد الفصح، مـؤتمر بين الملكين في فيرت— برنارد Ferte- Bernard والتقيـا أخيراً في أيام اسبوع أحـد العنصرة، وطالب الملك الفـرنسي بوجــوب تزويج ابنتـه، أليـس الموجـودة تحت وصـاية الملك هنري، من الكونت رتشـارد، مع ضمانة لرتشـارد بعـرش انكلترا بعد وفـاته، وكذلك أن يقوم ابنه جون بتبني الصليب والمشـاركة في الحروب الصليبيـة، لأن رتشــارد لن يذهب مـن دونه، ورفض ملك انكلترا الموافقــة على هذه المقترحــات، وافترق الملكـان بغضب، وقــام الكاردينال المتقـدم الذكـر، بالتهـديد بشكل ايجابي، أنه إذا لم يعمل ملك فرنسـا والكونت رتشارد سلامـاً مع ملك انكلترا، فهو سيضع ممتلكاتها تحت الحرمان، فـرد ملك فرنسـا عليه، أنه لن يكون خائفـاً من مثل هذا القـرار الظالم، وكـذلك ليس من صـلاحيـة كنيسـة رومـا اصـدار قـرار حـرمـان ضـد الملك أو مملكة فـرنسـا، من أجل حمل السـلاح في سبيل معـاقبـة رعـايا متمـردين، وأن الكـاردينال قـد شم رائحـة البـاوندات الاستيرلنيـة لملك انكلترا، ولـذلك هو بات يشك بحكمــه الذي أفسـد بذلك، ومن جهـة أخرى نصح رؤسـاء الأساقفة والنبـلاء ملك انكلترا

بالموافقة على مطالب ابنه، قائلين إنه أمر صحيح اعطاء مثل هذا الولد النبيل والفارس الشجاع بعض الضمانات بشأن الحصول على المملكة بعد وفاة أبيه، لكن الملك رفض فعل ذلك، في تلك الأوضاع، خشية أن يقال بأنه فعل ذلك بالضغط وتحت الإكراه، وليس بإرادته الحرة، ولدى سماع الكونت رتشارد بهذه الاجابة، قدم الولاء للملك الفرنسي أمامهم جميعا، عن جميع أراضي أبيه التابعة لتاج فرنسا، باستثناء إقطاعية أبيه مادام حياً، وكذلك باستثناء الولاء المستحق لأبيه، وهكذا انتهى المؤتمر، وافترق الملكان وجميع الناس.

كيف استولى ملك فرنسا على أربع قلاع من ملك انكلترا وطرد الملك نفسه من مدينة مان

وغادر ملك فرنسا المؤتمر بصحبة الكونت رتشارد، واستولى على حصون فيرت— برنارد، ومونت فورت، وبالفيركيو Baalverque، وكانت هذه الحصون تابعة لملك انكلترا، وبقي بعد الاستيلاء عليهم أربعة أيام، ثم تابع زحفه إلى مين، وتظاهر بالذهاب إلى تور، وفي يوم الاثنين التالي، عندما اعتقد ملك انكلترا ورجاله أنهم بأمان هناك، عبأ قواته للقيام بهجوم على مدينة مان Mans، وألقى ستيفن دي تورنهام، الذي كان نائب ملك انكلترا في أنجو النار في الأحواز، فتجاوزت النيران الأسوار، وحولت المدينة إلى رماد، وبناء على هذا تابع الفرنسيون زحفهم إلى جسر حجري، حيث تصدى لهم غيوفري دي بيورلون Biurlunمع عدد كبير آخر كانوا مع من أتباع ملك انكلترا، وسعى هؤلاء إلى تدمير الجسر، ونشب قتال شديد هناك، وسقط كثيرون من على الجانبين، ووقع غيوفري بالأسر بعدما تلقى جراحة في رقبته، ووقع بالأسر عدد كبير آخر وحاول البقية النجاة إلى المدينة، فدخل الفرنسيون معهم، ويئس ملك انكلترا من المقاومة، فهرب مع سبعمائة فارس، وطارده الملك الفرنسي والكونت رتشارد لمسافة ثلاثة

أميال، ولولا أن الجدول الذي خاضوه لم يكن عريضاً وعميقاً، لكان من الممكن أخذ جميع الفرسان مع حاشية ملك انكلترا أسرى، وقد هلك في هذه المعركة عدد كبير من الويلزيين، والتجأ الملك هنري على رأس فئة قليلة إلى قلعة تور، أما بقية رجاله فالتجأوا في برج مان، وحاصر ملك فرنسا على الفور، البرج، وتمكن جزئياً بوساطة مجانيقه، وجزئيا بوساطة لغاميه من السيطرة على الحصن ومن كان فيه، وكانوا يتألفون من ثلاثين فارساً، وستين رجلاً مسلحاً، فقد استسلم هؤلاء جميعاً، وزحف من هناك للاستيلاء على مونت— دبل Mont-Double، وترو Trou، ودي روكر Rocherومونتويري Mon-toire، وكارسير Carciere، وشاتو— دو— لوير Chateau- du-Loir، وشومنت Chaumont، وأمبيويز Amboise، وروشي— كوربون Roche - corbon، وبومونت Beaumont.

الاستيلاء على اشبيلية

وعبرت في العام نفسه خلال البحار البريطانية، العديد من السفن، ودخلت باتفاق مع حجاج انكلترا، وقد غادرت دارتماوث Dart-mouth في الثامن عشر من أيار، وكان تعدادها سبعة وثلاثين مركباً، محملة بشكل كثيف، ووصلت بعد أنواع من المغامرات إلى لشبونه، وقد رأى ملك البرتغال أن هذه المراكب محملة بالأسلحة وبعساكر مسلحين بشكل جيد وجاهزين للقتال، فرجاهم تقديم العون له في الاستيلاء على مدينة اشبيلية، ووعدهم بأن يعيرهم سبعة ثلاثين غليون وكثيراً من السفن الأخرى، وعقد معهم أيضاً اتفاقية، تأكدت بالأيمان، بأنهم سوف يحتفظون بكل ماسيجدونه في تلك المدينة لدى الاستيلاء عليها من ذهب، وفضة، وأسلاب أخرى، وأن يعطوه المدينة فقط، وبناء عليه غادروا لشبونة مع رياح طيبة، وسرعان ماوصلوا إلى ميناء اشبيلية، حيث أوصلوا سفنهم إلى الشاطىء، ونصبوا معسكرهم، وألقوا الحصار

على الفور على المدينة، وكان عدد رجالهم القادرين على القتال ثلاثة آلاف وخمسمائة، وقاموا في اليوم الثالث بهجوم حاد وعنيف على الأسوار، وشقوا طريقهم بالقوة خلال الأرباض، حيث كان هناك نبع محاط بنبع مزدوج، وله سواتر دفاعية مكونة من تسعة أبراج، ومنه كان أهل المدينة يحصلون على الماء، وقد طموا النبع بالروث والحجارة، وارتعب سكان المدينة لانقطاع مواردهم من الماء، فذهب السيد أمير المدينة إلى ملك البرتغال، فسلم المدينة إليه من دون معرفة الصليبيين، وهكذا استولى الصليبيون على المدينة بهذه الصورة الرائعة، ووجدوا فيها ستين ألفاً من الناس جعلوهم كلهم طعمة للسيف باستثناء ثلاثة عشر ألفاً من الجنسين، وبرحمة من الرب جاء الحصول على هذا النصر من دون خسائر بين صفوف الصليبيين، وبعدما نظفت المدينة من الجيف المهترئة، كرس ملك البرتغال المسجد الكبير ليكون كنيسة على شرف أم الرب، وعين أسقفاً لها، كان واحداً من الحجاج الذين جاءوا إلى هناك من فلاندرز.

كيف أرغم الملك هنري على عمل سلم مع ابنه رتشارد

وقدم في العام نفسه، في اليوم التالي لعيد القديس بطرس، والقديس بولص، إلى سومور: وليم رئيس أساقفة الرايم، وفيليب كونت فلاندرز، وهيوج دوق بيرغندي، من أجل السعي لصنع سلام بين الملك الفرنسي وبين الكونت رتشارد، كونت بواتو، وكان الكونت قد ضم البريتانيين إلى رجال بواتو، وقد حصلوا على رسائل موثقة من ملك فرنسا، تعهد فيها أنه لن يعمل سلاماً مع الملك هنري من دون شمولهم بالمعاهدة، وألقى في الوقت نفسه ملك فرنسا، ورتشارد كونت بواتو الحصار على تور، وفي يوم الاثنين التالي للعيد المتقدم ذكره، وضعوا سلالم التسلق على أسوار جانب اللوار Loire ، الذي كان فيه القليل من الماء، واستولوا على المدينة مع حاميتها التي تألفت من تسعة

وستين فارساً، ومائة رجل مسلحين، ثم أرغموا ملك انكلترا على ابرام سلم مهين، وفق الشروط والعبارة التالية:« وضع ملك انكلترا نفسه تحت اشراف ملك فرنسا، وبالتالي كل مايراه الأخير مناسباً ليفعل، يفعله ملك انكلترا من دون مخالفة»، ثم قدم ملك انكلترا الولاء إلى ملك فرنسا، مثلما كان قد فعل من قبل في بداية الحرب، وكان بين الشروط وضع أليس أخت ملك فرنسا تحت عهدة الكونت رتشارد حتى عودته من الحج إلى الأرض المقدسة، وعند ذلك سوف تصبح زوجته، واشترط أيضاً وجوب تلقي الكونت رتشارد الولاء من رعية أبيه على طرفي البحر، وأن مامن واحد من البارونات أو الفرسان، الذين ارتبطوا خلال هذه الحرب بالكونت رتشارد، يجوز أن يعود إلى انكلترا، إلاّ في الشهر الأخير، قبل مغادرة الملك نحو الأرض المقدسة، حيث سيكون موعد ذلك في منتصف الصوم الكبير، فضلاً عن هذا عليه أن يدفع إلى ملك فرنسا عشرين ألف مارك من الفضة من أجل خدماته في مساعدة كونت رتشارد، وأن ملك فرنسا والكونت رتشارد سوف يحتفظان بمدن: مان، وتور مع شاتو— دو— لوار، وترو، حتى يتم الوفاء بالشروط المتقدم ذكرها، وبعملية الانتقال هذه بدا أن نبوءة ميرلين قد تحققت، بأن لجاماً جرى صنعه في شواطىء آرموريكا سوف يوضع بين فكيه، لأن لجاماً قد وضع بين فكي ملك انكلترا، لأن الممالك التي كان سلفه قد حصلوا عليها في أوفرين، أصبحت ممتلكات واحد آخر، لأنه أرغم الآن على التخلي لابنه رتشارد— شاء أم أبى— عن أولئك الذين هجروه، أي: غيوفري دي ميدون، وغي دوفال، ورالف دي فولتشر، وكانوا جميعاً يسكنون داخل سواحل آرموريكا، أي بريتاني، التي هناك من خلالها ممر آمن بين بريطانيا وفرنسا، من دون اللجوء إلى سواحل نورماندي.

حول مغادرة امبراطور الرومان إلى الحج

في هذه الآونة، وفي يوم عيـد القـديس جـرجس، انطلـق فـردريك، امبراطور الرومـان ليقـوم بحجـه، وجـاء، انطلاقـه من ريمبـورغ Re-mesburg، وقد عزم على الزحف خلال هنغاريا وبلغاريا.

موت الملك هنري

وعـاد الملك هنري من شينون، من المؤتمر وهو محبط تماماً، وقـد لعن اليوم الذي ولد فيه، وبعد مضي ثلاثة أيام لم يعـد موجوداً، فقد توفي في ثمانية عيد الرسولين: القـديس بطرس، والقديس بولص، بعد حكم دام أربعة وثلاثين عـاماً وسبعة أشهـر وخمسة أيام، وأعدوه في اليـوم التالي لحمله للدفن، وعرضـوه في ملابسه الملكيـة، وتاجه، وقفازيه، وحـذائه، وخـاتمه، وصـولجانه، وسيفـه، وعندمـا كـان ممدداً ووجهـه غير مغطى، وعندها عندمـا سمع رتشارد الأخبـار عن مـوته، فجاء ليقـابل الجنازة، وقتها تدفق الـدم من فتحتي أنف الميت، وكأن ذلك جاء غضبـاً لحضور الرجل الذي من المعتقـد بأنه سبب موته، ولدى رؤية الكونـت رتشارد لهذا بكى بحـرقـة، وتبع جثـة أبيـه، وهو عظيم الحزن والاضطراب، إلى فـونـت— ايفـرود Font- Evraud، حيث أمـر بـدفنه مع التشريف، وذلك من قبل رئيسي أسـاقفـة تور، وتريف، وحيث كـان الملك المتـوفى غالباً مايقول بأن العـالم كله ينبغي أن لايكون كافياً لمطامح ملك واحد، هناك نقش موضوع على قبره، قد جاء فيه مايلي:

« هنا يرقد الملك هنري، أنا الذي كثيراً من الممالك

قد أخضعت، وكنت كونتاً وملكاً.

ومع أن بلدان العالم كله لم تكن

كافية لي فيما مضى، ثمانية أقدام من الأرض، الآن

كافية لي، أيها القارىء فكر بالموت،

وانظر إليّ، كما ينبغي على جميع الناس أن يفعلوا».

وبودي أنا أن أضيف هنا في هذا المكان القوانين التي عملها الملك هنري لصالح مملكته، لولا خوفي من إنهاك صبر قرائي، وماتت في الوقت نفسه تقريبا ماتيلدا، ابنه هنري، وزوجة هنري دوق سكسوني.

كيف حصل الايرل رتشارد على دوقية نورماندي

وهكذا عندما بات الملك هنري ميتاً، قام ابنه رتشارد على الفور بإلقاء القبض على ستيفن دي تورنهام Turnham [لعل الأصح: تور] الذي كان نائب الملك في أنجو، وألقاه بالسجن. وطالبه بتسليم القلاع والأموال التي كانت بين يديه، وكانت عائدة إلى أبيه، ثم إنه احتفظ مع التشريف بكل الذين خدموا والده، والذين على اخلاصهم يمكن الاعتماد، وكافأ كل واحد منهم وفقاً لما يستحقه لطول الخدمات التي أداها إلى والده، علاوة على ذلك عندما قدم أخوه جون لرؤيته استقبله بكل تشريف، ثم أخذ الطريق بعد هذا إلى روان في نورماندي، وفي اليوم الثالث عشر قبل غرة شهر آب، قام بحضور الأساقفة، والايرلات، والبارونات، والفرسان بأخذ سيف دوقية نورماندي، وتولى هذه الرسوم رئيس الأساقفة، من على مذبح مريم العذراء المباركة، وبعد تلقي الولاء من كل من رجال الدين والناس، أكد كليا لأخيه جون تملكه لجميع الأراضي التي أعطاه إياها والده في انكلترا، وهي ملكية بأربعمائة مارك، وكل كونتية مورتين Mortaigne، ومنح كذلك إلى أخيه غيوفري، الذي كان من قبل الأسقف المنتخب للنكولن، رئاسة أساقفة يورك، وقام غيوفري على الفور بإرسال كهنته مع رسائل الدوق، واستحوذ، على رئاسة الأساقفة، ووضعها بين يديه، وطرد حراس الملك، وهيوبرت وولتر، عميد الكنيسة نفسها، الذي كان قد

جرى انتخابه أسقفاً من قبل بعض الرهبان النظاميين، وفي اليوم الثالث من حكمه، عقد الدوق مقابلة مع الملك الفرنسي، بين شومنت Chau-mont، وتراي Trie، وفي تلك الأثناء طالب ملك فرنسا بقلعة غيسور وجميع المقاطعة المجاورة، لكن بسبب أن الدوق كان مقبلا على الزواج من أليس أخت الملك، أوقف الضغط لتحقيق طلبه لبعض الوقت،ووعد الدوق من جانبه بدفع أربعة آلاف مارك زيادة على المبلغ الذي وعد به والده.

كيف أطلق الملك رتشارد سراح أمه من اعتقالها المديد

وكانت في الوقت نفسه أمه الملكة إليانور، التي أبعدت عن فراش والده، ووضعت في اعتقال مضيق لمدة ستة عشر عاما، قد تلقت الآن من ابنها الإذن بإدارة القضايا والأمور في المملكة وفقاً لرغباتها، وصدرت التعليمات إلى النبلاء باطاعتها في كل مجال من المجالات، وقامت الملكة من خلال الصلاحيات هذه التي منحت لها باطلاق سراح جميع الذين كانوا بالسجن في انكلترا كلها، عارفة من خبرتها كم هو مؤلم للانسان أن يكون بالسجن، وتحققت في هذه الأيام نبوءة ميرلين، التي تقول:« سوف يبتهج نسر المعاهدة المخروقة في عشه الثالث»، والذي عني بالنسر هو الملكة، لأنها مدت جناحيها على المملكتين: فرنسا، وانكلترا، وقد انفصلت عن الملك الفرنسي بالطلاق بسبب قرابة العصب، وعن ملك انكلترا بسبب الريبة والسجن، وعلى هذا كانت من على الجانبين هي نسر المعاهدة المخروقة، ومن الممكن فهم الشطر التالي من الجملة:« وهو سوف يبتهج في عشه الثالث» وفق مايلي: كانت الملكة قد ولدت ابنها الأول، الذي اسمه وليم، وقد مات هذا وهو مايزال طفلاً، وكان ابنها الثاني هو هنري، الذي رقي إلى مرتبة ملك، وهذا أيضاً كان قد سدد دين الطبيعة، بعدما تورط في أعمال عدوانية ضد والده، وكان رتشارد هو الولد الثالث، وهو الذي قصد«

بالعش الثالث» وهو قد كان مصدر بهجة إلى أمه وقد أطلق سراحها— كما قلت— من شقاء سجنها.

قدوم الملك رتشارد إلى انكلترا وتتويجه

وبعد الفراغ من ترتيب هذه الأمور جميعها، تولى الدوق رتشارد تطبيق عدل صحيح بالنسبة إلى جميع رعيته، ثم إنه وصل إلى باربيفلوف Barbefleuve، ونزل إلى اليابسة في بورتماوث في النصف الأول من آب(١٣—آب)، ومالبث خبر وصوله أن انتشر في جميع أرجاء انكلترا، وسبب كثيراً من البهجة إلى كل من رجال الدين والناس، لأنه مع أن بعضهم قد حزن لوفاة والده، قد وجدوا الآن المواساة من كلمات الشاعر هذه:

« غنيت مندهشاً لأن الشمس حجبت نورها

ومع ذلك لم يتبع ذلك الظلام».

وتوجه الدوق إثر وصوله مباشرة إلى وينكستر، حيث أمر بوزن جميع كنوز والده، وبعمل قائمة جرد بهم، وقد وجدوا هناك تسعمائة ألف باوند من الذهب والفضة، إلى جانب أحجار كريمة، وتوجه من هناك إلى سالسبري، ومن هناك سافر من مكان إلى آخر، حيث منح إلى جميع الرعية ماطلبوه في شكاويهم، ومنح كثيراً من الأراضي إلى أناس لم تكن لديهم أملاك من قبل، فضلاً عن هذا منح إلى أخيه جون ابنة روبرت ايرل غلوستر مع ايرلية وقلاع: مالبورا Marlborough، ولوتغارشيل Lutegareshale، وبولسوفير Bolsover، ونوتنغهام، ولانكستر، مع المراتب الشرفية العائده لها، والمرتبة الشرفية العائدة إلى وليم بيفيريل، وجرى تأكيد منح هذه الممتلكات إلى أخيه جون، الذي تزوج من ابنة الايرل المتقدم ذكرها، على الرغم من تحريم بلدوين رئيس أساقفة كانتربري، لأن والديها كانا في المرتبة الثالثة من قرابة العصب.

وفي هذه الآونة نفسهـا قـام بعض من الرهبـان النظاميين في يورك بانتخاب غيـوفري، أخي الدوق، وغنوا ترنيمـة بشكل مهيب، ثم أكدوا الانتخـاب وثبتـوه بوضع أختـامهم، غير أن المعلـم بارثوليـو ومـوظف هيوبرت وولتر عميـد تلك الكنيسة، لم يرغبا بقيـام ذلك الانتخاب أثناء غياب أسقف درم، وكـذلك هيوبرت وولتر العميـد، لأنه كان لهما الحق بالحضور أثناء الانتخاب، لذلك تقدما باستئناف إلى مولانا البابا ضده.

موت غيوفري أوف ايلاي من دون وصية

ومات في الوقت نفسه غيوفري أسقف إيلاي من دون وصية، وكان ذلك في اليـوم الثـاني عشر قبل غـرة شهـر ايلول(٢١— آب)، ولذلك جـرت مصادرة ثلاثة آلاف مـارك فضي وألفي مـارك ذهبي مما كان قـد خلّفـه، وكـانت المصـادرة لصـالح الملك، وذلك مع كميـة من أثاثه، ومخزون من الخواتم، وصحـون الذهـب والفضـة، والقمح، والملابس الثمينة، وأشياء أخرى، كثيرة جداً.

تتويج رتشارد الأول

ولدى الفراغ مـن جميع الاستعدادات من أجل تتويـج الملك رتشارد، جـاء إلى لندن، حيث كـان هناك احتشـاد لرؤسـاء أساقفـة: كـانتربري، وروان، وتريف، وقـد جرى تحليله من قبلهم لحمله السـلاح ضد أبيـه، بعـد حمله للصليب، وكـان رئيس أسـاقفـة دبلن هنـاك أيضـاً مع جميع الأسـاقفة، والايرلات، والبـارونات، والنبـلاء، العائـدين للملكة، وفق الترتيب التالي، فقد جاء أولاً رؤساء الأساقفة، فالأساقفة، فرعاة الديرة، فالكهنة، وهـم جميعاً يلبسون أرديتهم، وقـد عملوا مسيرة مع الصليب، والماء المقـدس، والمبـاخـر، حتى وصلوا إلى القـاعـة الـداخليـة، حيث استقبلوا الدوق، فاقتادوه إلى كنيسة وستمنستر، إلى أن وصلوا إلى المذبح العالي، وكـانت المسيرة مسيرة مهيبة، وسـار في وسط الأساقفـة والكهنة

أربعة بارونات يحملون حوامل الشموع مع الشموع، وجاء من بعدهم اثنان من الايرلات، حمل أولهما الصولجان الملكي وعلى رأسه صليب ذهبي، وحمل الآخر الصولجان الملكي وعلى رأسه حمامة، وجاء بعد هذين الإيرلين ثالث بينهما، كان يحمل ثلاثة سيوف مع أقربة من ذهب، كانوا قد جلبوا من خزينة الملك، وكان قد وضع عليهم الرنوك الملكية والأردية، كما أنه سار خلفهم ايرل آخر حاملاً بشكل مرتفع تاجاً ذهبياً، وجاء بعد الجميع الدوق رتشارد، حيث كان من على يمينه أسقف، ومن على يساره أسقف آخر، وقد نشرت فوقهم مظلة حريرية، وتابعوا سيرهم حتى المذبح كما سلف وقلنا، ووضعت الأناجيل المقدسة أمامه مع آثار بعض القديسين، وقد أقسم بحضور رجال الدين والناس بأنه سوف يحافظ على السلام، والشرف، والاحترام طوال حياته، وذلك نحو الرب، والكنيسة المقدسة، وقوانينها، وأقسم أيضاً أنه سوف يمارس عدلاً صحيحاً نحو الناس الموضوعين تحت عهدته، وسوف يلغي جميع القوانين السيئة، والعادات غير العادلة، وذلك إذا ماوجد شيء من هذا القبيل في ممالكه، وهو سوف يراعي بشكل ثابت كل ماهو جيد، وجردوه بعد هذا من ثيابه كلها باستثناء سراويله وقميصه الذي رفع فوق كتفيه، وذلك من أجل تلقي القربان، ثم ألبس نعلاً منسوجاً بخيوط ذهبية، ومسحه بلدوين رئيس أساقفة كانتربري ملكاً في ثلاثة أماكن هي: على رأسه، وعلى كتفيه، وعلى ذراعه الأيمن، وكان يستخدم صلوات نظمت من أجل المناسبة، ثم جرى وضع قطعة من قماش الكتان مكرسة، على رأسه، فوقها وضعت قبعة، وعندما ألبسوه مجدداً ملابسه الملكية مع مئزر ورداء، أعطاه رئيس الأساقفة وسلمه بيده سيفاً يدمّر به أعداء الكنيسة، وبعد انجاز هذا، ألبسه اثنان من الايرلات حذاءه في قدميه، وعندما تسلم العباءة، طلب منه رئيس الأساقفة، باسم الرب، أن لايقدم على تسلم هذه التشريفات، مالم يكن قد نوى في عقله بشكل ثابت القيام بمراعاة الأيمان التي عملها والحفاظ عليها، وقد

أجاب بأنه بعون الرب، سوف يحافظ بصدق وإيمان على كل شيء وعد به، ثم أخذ الملك التاج من على المذبح وأعطاه إلى رئيس الأساقفة، الذي وضعه على رأس الملك، مع الصولجان في يده اليمين، والعصا الملكية في يده اليسار، وهكذا اقتيد والتاج على رأسه من قبل الأساقفة والبارونات، وقد تقدمت أمامه الشموع، والصليب، والسيوف الثلاثة المتقدم ذكرها، وعندما وصلوا إلى تقديم القداس وتلاوته، اقتاده الأسقفان المتقدم ذكرهما نحو الأمام ثم نحو الخلف، وهكذا حتى جرى انشاد القداس، وانتهى كل شيء وفق الصورة الصحيحة، وقتها اقتاده الأسقفان المتقدم ذكرهما، وأبعداه والتاج على رأسه، وهو يحمل بيمناه الصولجان، وبيسراه العصا الملكية، ثم إنهم عادوا إلى السدة بمسيرة، وهناك خلع الملك ملابسه الملكية، وارتدى ملابس أقل وزنا، ووضع على رأسه تاجاً أخف، ثم إنه سار نحو مائدة الغداء، التي جلس إليها: رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والايرلات، والبارونات، مع رجال الدين والناس، وجاء جلوسهم كل واحد حسب مرتبته ومكانته، واحتفلوا بشكل فخم، ولذلك تدفقت الخمرة على أرض البلاط وعلى جدران القصر، وحدث هذا كله يوم الأحد قبل الخامس من ايلول.

تعذيب اليهود

وكان الكثير من اليهود حضوراً أثناء هذا التتويج، وذلك مراغمة لأوامر الملك، ذلك أنه كان قد أمر بأن يعلن في اليوم المتقدم، بأنه لايجوز حضور أي يهودي أو امرأة التتويج، بسبب التعاويذ السحرية التي كانت تحدث أحيانا أثناء التتويجات الملكية، وقد ألقى رجال البلاط القبض عليهم، مع أنهم جاءوا بشكل سري، وبعدما سلبوهم وجلدوهم بشكل مرعب رموهم خارج الكنيسة، وقد مات بعضهم، وبعضهم الآن من الصعب أن نقول بأنه قد بقي فيهم رمق من الحياة، ولدى سماع سكان المدينة بحملة رجال البلاط هذه على اليهود، قاموا

بحملات مماثلة على الذين بقيوا في المدينة، وبعدما قتلوا عددا من الجنسين، وهدموا بيوتهم وسووها بالأرض وأحرقوها، نهبوا ذهبهم وفضتهم، وكتاباتهم وثيابهم الثمينة، أما اليهود الذين نجوا من الموت، فقد التجأوا إلى برج لندن، وبعد ذلك اتخذوا مساكن لهم هنا وهناك بين أصدقائهم، وقد تسببوا بأن يصبح آخرون أغنياء بسبب خساراتهم، وبدأت أعمال التعذيب في سنة يوبيلهم، التي يسمونها سنة الغفران، ولم تتوقف قبل نهاية السنة، وعلى هذا ماكان ينبغي أن يكون سنة غفران، تحول في يوبيلهم إلى الاضطراب، وعندما سمع الملك في اليوم التالي بالخطأ الذي اقترف وعمل، عدّ ذلك وكأنه خطأ اقترف بحقه شخصياً، ولذلك أمر باعتقال ثلاثة منهم، تولى محاكمتهم قضاة بلاطه، وقد شنقوا واحداً منهم لأنه استولى على أشياء كانت ملكاً لمسيحي، وأعدما الاثنين الآخرين لأنهما كانا قد أشعلا النار في المدينة، الأمر الذي تسبب باحتراق بيوت بعض السكان المسيحيين، وعندما سمع الشعب الانكليزي في جميع أرجاء البلاد بأخبار هذا الهجوم على اليهود في لندن، حملوا عليهم بإجماع من الآراء، وأنزلوا بهم أضراراً كبيرة، وقتلوا أشخاصاً منهم ونهبوا مقتنياتهم، ثم كان في اليوم التالي ليوم التتويج أن تلقى الملك رتشارد الولاء مع يمين التابعية الاقطاعية من النبلاء، فأصدر أوامره بعدم متابعة تعذيب اليهود، وأنهم ينبغي أن يعيشوا بسلام في أرجاء جميع مدن انكلترا.

سخاء الملك رتشارد

عندما اجتمع الرهبان السسترشيان من جميع أنحاء العالم، وعملوا مجمعاً لطائفتهم، منحهم الملك رتشارد مائة مارك من الفضة لكل سنة، وأكد ذلك بصك.

كيف أعطى الملك رتشارد قسساً للكنائس التي كانت شاغرة في جميع أرجاء انكلترا

وفي اليوم التالي ليوم ارتقاء الصليب المقدس،[١٧— ايلول] كان الملك رتشارد في بايبول Pipewell[في نورثأمبتونشاير] حيث قام بعقد مجمع كبير، بناء على نصيحة، رؤساء الأساقفة والأساقفة، وأعطى إلى أخيه غيوفري رئاسة أساقفة يورك، وعيّن في تلك الأثناء غودفري دي لوسي إلى أسقفية ونكستر، ورتشارد رئيس شمامسة إيلاي إلى أسقفية لندن، وهيوبرت وولتر إلى سالسبري، ووليم دي لونغشامب إلى إيلاي، هذا وقام بلدوين رئيس أساقفة كانتربري، بعد اتمام أعمال الانتخاب، بمنع غيوفري المنتخب لرئاسة أساقفة يورك من تسلم أعمال السيامة، أو التكريس الأسقفي من يدي أحد سواه هو شخصيا، ولأجل هذه المسألة عمل مرافعة إلى الكرسي الرسولي.

كيف حصل هيوج أسقف درم على لقب إيرل بالمال

وعزل في هذه الآونة الملك رتشارد من وظيفة نائب الملك، رالف دي غلانفيل، ورئيس العدالة في انكلترا، مع جميع عمد المناطق في انكلترا والعاملين في مكاتبهم، وأرغمهم على دفع غرامات كبيرة لتخليص أنفسهم، وعمل من أجل جمع المال من أجل استرداد الأرض المقدسة من أيدي المسلمين، بعرض كل شيء للبيع: اللوردية، والقلاع، ورئاسة البلدات، والغابات، والمزارع، ووظائف العمد، وماشابه ذلك، وبناء عليه، اشترى هيوج دي بوساز Pusaz ، أسقف درم، لنفسه ولكرسيه، الحقوق الملكية لبلدة سيغسفيلد Segesfeld، مع ويبنتيك Wapentake، ومتعلقاتها، وإيرلية نورثأمبرلاند، خلال حياته، وعندما منطقه الملك بالسيف الذي يخوله حمل لقب ايرل، قال وهو يضحك:« لقد عملت ايرلاً شاباً من خلال أسقف عجوز»، ومضى الأسقف أبعد من هذا، واشتط، ولكي يكمل مهزلة الأشياء، أعطى إلى الملك عشرة ماركات من الفضة، من أجل تعيينه مسؤولاً عن العدالة في انكلترا، ولكي لايذهب إلى الأرض المقدسة، وكاحتياط ضد جميع المعترضين

دفع مبلغاً كبيراً، بمثابة رشوة إلى الكرسي الرسولي، الذي لم يعترض قط على وجهة نظر أي من الأشخاص، وهكذا حصل على إذن بالبقاء، وبهذه جعلته المطامح الدنيوية يقوم بالتخلي عن شارة الصليب، التي أخبرنا المبشرون، بوجوب حملها من قبل جميع الناس، وبشكل خاص الأساقفة، وحقق الأسقف بهذا السلوك نبوءة القديس غودريك الناسك، فقد جاء في بداية ترقيته إلى الناسك وسأله حول تطورات مستقبله، وعن طول المدة التي سيحياها، فاعتاد الناسك أن يستخدم هذه الكلمات ويقولها له:« بالنسبة لتقدمك المستقبلي وعدد السنوات التي ستعيشها، عليك أن تسأل عنها الرسل المقدسين ومن شابههم، لأنني هنا أقوم بالتوبة من ذنوبي، ويحزنني القول بأنني مازلت مذنباً تعيساً، ويهمني أن أخبرك أنك سوف تعاني قبل وفاتك بسبع سنوات من عمى محزن جداً»، وترك الأسقف رجل الرب، وقد وقرت في نفسه الكلمات التي سمعها، ولأنه كان عظيم الثقة بالناسك، اهتم اهتماماً كبيرا بعينيه، واستشار عدة أطباء حتى يتمكن من الاحتفاظ بنظره طوال الوقت الذي سيعيشه، وبعد مضي عدد كبير من السنوات، أصيب بالمرض الذي منه مات، فسأل الأطباء، بقلق كبير، ماهو أفضل مايمكنه فعله، فأجابوه جميعاً بصوت واحد، ونصحوه بأن يفكر بأوضاع روحه، ذلك أنه لن يلبث أن يغادر هذا العالم مرغماً، ولدى سماع الأسقف هذه الكلمات، قال:« لقد خدعني غودريك، فهو قد وعدني سبع سنوات من العمى قبل موتي»، ويمكننا نحن الآن أن نقول بشكل مسوغ، أنه بالتأكيد كان أعمى، لأنه اغتصب بالرشوة لنفسه لقب ايرل الفارغ، ووظيفة العدالة، وورط نفسه بالمشاكل الدنيوية، ثم إن عدم حجه إلى الأرض المقدسة، وإيلائه القليل من الاهتمام لنجاة الأرواح، مع واجبات الأسقفية، لم يحرمه فقط من بصره، بل أغرقه في ظلام دامس، وبذلك مات هذا الأسقف، وفقاً لما قاله رجل الرب في نهاية السنوات السبع، ومات في هذه الآونة وليم إيرل أوف مانفيل في روان.

معركة مجيدة قاتلها الصليبيون ضد المسلمين

في الرابع من تشرين الأول لهذا العام، نشبت معركة بين الصليبيين والمسلمين عند أنطاكية كانت على الشكل التالي: كان على الجانب الصليبي: ملك القدس، والداوية، والاسبتارية، ومركيز أوف مونتفرات، والفرنسيون، وثيبولد المفتش، وبطرس لايونيس اللاندغريفي، Landegrave مع التيتون والبيازنة، فقد حشدوا مع بعضهم جيشاً مؤلفاً من أربعة آلاف من الفرسان، ومائة ألف من الرجالة، وكان الجيش المسلم تحت قيادة صلاح الدين، وقد تكوّن من مائة ألف فارس، مع حشد هائل من الجنود الرجالة، وكان الصليبيون يحملون شارة الصليب على أسلحتهم، وقد بدأوا القتال في حوالي الساعة الثالثة من النهار، وكان الرب إلى جانبهم، لذلك دفعوا بالمسلمين إلى معسكرهم، وطاردوهم بحد السيف، وهاجموهم ودمروا لهم سبع فرق، وقتلوا خمسمائة فارس من فرسان صلاح الدين، كان من بينهم قطب الدين ابن صلاح الدين،وأصيب أخاه تقي الدين بجراحة مميتة(١)، وعندما كان الفريقان يتقاتلان هكذا بشراسة، قام خمسة آلاف من المسلمين بانقضاض مفاجىء، وقاتلوا الصليبيين، ولدى رؤية صلاح الدين لذلك ارتفعت معنوياته واسترد قوته، واشتد الضغط على الفرنجة من الجانبين، فوجدوا أنفسهم مرغمين على التراجع من خلال معسكر المسلمين، لكن بعدما فقدوا مقدم الداوية، وعدد كبير آخر، كانوا قد قتلوا في ذلك اليوم.

١— كذا، والمرجح أن المقصود هنا معركة عكا التي ذكرها أبو شامة في الروضتين ص ٨٦٨٧، علماً بأن صلاح الدين لم يفقد أيا من أبنائه في الحروب، وكان تقي الدين عمر، ابن أخي صلاح الدين، مؤسس المملكة الأيوبية في حماه أبرز قادة صلاح الدين في هذه المعركة وفي غيرها.

وصول رسل من لدن الملك الفرنسي إلى الملك رتشارد لسؤاله الاسراع بحجه إلى الأرض المقدسة برفقة الملك الفرنسي

في شهر تشرين أول نفسه، وصل إلى انكلترا روترود كونت أوف بيرشي، كرسول من قبل الملك الفرنسي، ليخبر الملك رتشارد وبارونات انكلترا، بأنه أقسم في مؤتمر عقد في باريس، مع نبلاء مملكة فرنسا، يميناً قضى بوصوله حتما بمشيئة الرب مع نبلاء مملكته إلى فنزلي، بعد عيد الفصح، ومن هنالك سوف ينطلق إلى القدس، وكبرهان على هذا القسم، بعث الملك الفرنسي رسالة إلى ملك انكلترا، يطلب منه أن يعطيه ضمانة حول الموعد نفسه من أجل تنفيذ الرحلة، وبناء على ذلك جمع ملك انكلترا أساقفة ونبلاء المملكة في وستمنستر، وبعد سماعه ليمين الملك الفرنسي، من أنه سوف يسرع بالمغادرة من دون تردد، أمر وليم الايرل القائد لديه بعمل قسم عنه شخصيا، بأنه رتشارد سوف يلتقي بالملك الفرنسي في فينزلي، في ذلك الموعد المحدد، من أجل أن يشرعا معا بالانطلاق من ذلك المكان نحو أرض الميعاد، وبعدما نفذ الرسل مهام بعثتهم، عادوا إلى بلادهم، وفي الأول من تشرين الثاني، من هذا العام، تلقى غودفري دي لوسي أسقف وينكستر، وهيوبرت وولتر الأسقف المنتخب لسالسبري، التكريس على يدي بلدوين رئيس أساقفة كانتربري، في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر.

المحادثات التي جرت بين رئيس أساقفة كانتربري وبين رهبان ذلك المكان ومسائل أخرى

ووصل في شهر تشرين الثاني نفسه إلى انكلترا جون كاردينال آناني Anagni، ونزل في دوفر، ولأن الملك كان في الأجزاء الشمالية من المملكة، مُنع من قبل الملكة إليانور من متابعة السفر من دون موافقة من الملك، ولذلك أمضى ثلاثة عشر يوماً، على حساب رئيس الأساقفة، وذلك حتى يمكن صنع سلام بين رئيس أساقفة كانتربري وبين رهبان

كـانتربري حول بيعـة أكنغتون، وبما أن رتشـارد كان ملكاً حكيما جـداً، ولأنه تلقى إلتماسات من كلا الفـريقين، قدم في شهر تشرين ثاني نفسه، وأعد شروط مصـالحة وسلام بينهما كـانت كمايلي: أولا— وجوب خلع روبرت رئيس الرهبان الذي عينه رئيس الأساقفة في ذلك المنصب، على الرغم من معـارضـة رغبات الرهبـان، وأن يجري هدم تلك البيعـة التي بناها رئيس الأسـاقفـة في الضـاحيـة، من دون مـوافقتهم، وأن يظهـر الرهبـان المتقـدم ذكرهـم، وفقا لنظام القـديس بندكت، طـاعة قـانونيـة ورعـوية إلى رئيس الأسـاقفـة، كما اعتـادوا أن يفعلوا لسلفـه، وأعطى الملك، بناء على طلب رئيـس الأسـاقفـة، إلى رئيس الرهبـان المخلوع، رعاية دير ايفهام Evesham ، وتقرر أيضاً عـدم منح البيعة المتقدم ذكرهـا امتياز التعميد، أو الـدفن، أو إقامة الطقـوس المقدسـة، باستثناء الذي يقام من قبل كاهن علماني.

كيف قدّم وليم ملك الاسكوتلنديين الولاء إلى الملك رتشارد في كانتربري

وقـدّم في العـام نفسـه وليم ملك الاسكوتلنـديين الولاء إلى ملك انكلترا عن حقوقه في انكلترا، وأعـاد الملك رتشارد إليه قلعتي روكسبرا Roxburghe وبيرويك Berwick ، ومقـابـل تخليـص هذيـن الحصنين، وترضيـة لمطالبة الملك رتشـارد بالحقوق الاقطاعيـة على ملك اسكوتلندا، وفيما يتعلق بولاء هذا الملـك، وتثبيتـاً لصكه دفع هذا الملك إلى ملك انكلترا عشرة آلاف مارك فضي.

كرم الملك رتشارد وسخائه

وفي هذه الآونة، أعطى الملـك رتشـارد إلى أخيـه جـون كـونتيـات: كـورنوول Cornwall، وديفـون Devon، وسمـرست Somerset، ودورست Dorset ، وأعطى إلى أمه إليانور بائنتها المعتادة، مع أراضي

وتشريفات مضافة إليها.

عبور الملك رتشارد البحر إلى نورماندي

في الخامس من كانون الأول من العـام نفسه، أقلع الملك رتشارد من مـدينة كانتربري إلى دوفـر، وعبر من هناك البحـر، وتبعاً لذلك قـام في عشية عيد العذراء القـديسة لوسي، بالابحار إلى فلاندرز، حيث استقبل ببهجة من قبل الكـونت فيليب، الذي رافقه أيضاً إلى نـورماندي، وعين الملك هيـــوج أسقف درم، ووليم أسقف إيلاي، ومستشــاره هيــوج باردولف Bardulph، ووليم بريوير Briwere أوصيــاء على مملكة انكلترا، للحفاظ على قوانين وأعراف المملكة ولمراعاتها، ولتطبيق العدل ومنحـه للذين يطلبـونه، وكـان هناك تمايز بين هؤلاء الأوصيـاء، وكـان ذلك لصـالح هيـوج أسقف درم، ووليم أسقف إيلاي، فلقـد عهـد إلى الأول بإدارة العـدالة في جـزء البـلاد الممتـــد من نهر همبر Humber الكبير، إلى البحر الاسكوتلندي، في حين احتفظ الثاني بالقضاء في البلدة الممتـدة من النهر المتقـدم الذكر إلى بحـر غـاليا، وقـد أغضب هذا كثيراً هيـوج أسقف درم، الذي علم آنـذاك للمـرة الأولى، أن الملك عمل منه رجل العـــدالة، ليس من أجل تطبيق العـــدل، بل من أجل استخــراج المزيد من المال— كما تقـدم الذكـر— ولهذا السبـب نادراً مـاكــان هو والمستشار على وفاق، وذلك كما يقال:

.... ذلك أن كل سلطة

تغار من منافستها

كيف ألقى رئيس الأساقفة حرماناً على أراضي جون أخو الملك، لكن الكاردينال نقضه

وفي هذه الآونة، رفع جـون أخو الملك، استئنافا وشكـوى شديدة إلى النائب البـابوي، والأساقفـة بأن رئيس الأسـاقفة قـد أنزل حرمـانا على

جميع أراضيه، وفعل ذلك حتى بعد الالتماس الذي عمله إلى الكرسي الرسولي، وسبب ذلك زواجه من ابنة ايرل غلوستر، التي كانت قريبة له قرابة صلب من الدرجة الثالثة، ولدى سماع النائب البابوي لهذه الشكوى وقف إلى جانبها، وحرر الأراضي من الحرمان.

كيف جرى منح عشر ممتلكات انكلترا لمساعدة الأرض المقدسة

وفرضت في هذه الأيام ضريبة العشر على كل ماهو متحرك عام في انكلترا، وجمعت من أجل إرسال مساعدة إلى الأرض المقدسة، وسببت هذه المكوس العنيفة شروراً كبيرة أثناء جمعها، وذلك تحت اسم صدقات، مما أزعج كثيراً رجال الدين والناس جميعاً، وجرى في هذا العام انتخاب رتشارد أسقف لندن، ووليم أسقف إيلاي، وتم تكريسهما في لامبث في اليوم الأخير من كانون الأول.

كيف قرر الملكان المتحالفان المغادرة معا إلى الأرض المقدسة

عام ١١٩٠م، فيه كان الملك رتشارد، ملك انكلترا، أثناء عيد الميلاد في بيور Bure في نورماندي، وأمضى وقت ذلك العيد المهيب مع أعيان تلك البلاد، وجرى بعد الميلاد اجتماع بين ملكي انكلترا وفرنسا عند مخاضة القديس ريمي Remy، وجرى الاتفاق، على وجوب— بمشيئة الرب— الاسراع بمغادرتهما إلى القدس في الوقت نفسه، وعملت صيغة من الاتفاق من أجل المحافظة على السلام بين البلدين، في يوم عيد القديسة هيلاري، وكان ذلك بحضور الأساقفة والنبلاء من المملكتين، وبعدما تأكدت بالقسم من قبل الملكين، جرى الأمر بكتابتها، فجاءت كما يلي:« أنا فيليب ملك فرنسا سوف أحافظ على الاخلاص نحو رتشارد ملك انكلترا، على أساس أنه صديقي، وحليفي، فأحفظ حياته، وجوارحه، وشرفه الدنيوي، وأنا رتشارد ملك الانكليز، سوف أحافظ على الاخلاص الجيد نفسه مع ملك فرنسا، على أساس أنه صديقي،

ومولاي، فأحفظ حياته، وجوارحه، واتفقنا أيضاً على تقديم المساعدة أحدنا إلى الآخر، إذا كانت ضرورية، في الدفاع عن أراضي بعضنا، كل واحد منا بالغيرة نفسها التي يدافع بها عن ممتلكاته»، وأقسم نبلاء وبارونات المملكتين على عدم التخلي عن ولائهم إلى ملكيهما، أو عمل حرب، حتى مضي أربعين يوماً في سلام عقب عودة الملكين، وشارك الملكان في أداء القسم، وأقسم رؤساء أساقفة، وأساقفة المملكتين على اصدار قرارات الحرمان الكنسي ضد الذين سوف يخرقون هذا التحالف أو ينفذون خلاله، وتقرر أيضاً، أنه إذا مامات أحد الملكين أثناء الحملة، فإن الذي سيبقى حياً، سوف يتولى المسؤولية عن أموال وقوات المتوفى، ليتولى تنفيذ الخدمة التي يدينان بها للرب، ولما كانا غير قادرين على تنفيد هذه المعاهده بكل دقة، فقد أجلا الأعمال حتى عيد ميلاد القديس يوحنا، وذلك بغية تمكين الملكين، وجميع الصليبيين من الاجتماع من دون تقصير في فينزلي، للدخول في أعمال حجهم إلى الأرض المقدسة، وورد في نص المعاهدة الكلمات التالية«: وإذا ماحاول أي واحد إعاقة اتفاقنا هذا، فلسوف توضع أراضيه تحت الحرمان الكنسي، وكذلك سوف ينال أصحابهم الحرمان الكنسي»، وبعدما رتبوا القضايا على هذه الصورة، أنهوا المؤتمر،[وفي هذه الآونة عقد بلدوين رئيس أساقفة كانتربري اجتماعاً في وستمنستر، فيه عمل وداعاً لرهبانه وانطلق يريد الأرض المقدسة في رتل فخم].

كيف جرى تعيين أسقف إيلاي مستشارا

أرسل رتشارد ملك انكلترا سفراء برفقة آخرين كان قد أرسلهم وليم أسقف إيلاي، إلى البابا كليمنت، وحصلوا من الحبر الأعظم على المرسوم التالي:« نحن البابا كليمنت— تحيات: استجابة للطلب موضع الثناء، من ابننا المحبوب بالرب، رتشارد، الملك واسع الشهرة لانكلترا، قد قررنا في ادارتنا الرسولية على أن يعهد إلى عنايتكم الأخوية بواجبات

المستشارية لجميع انكلترا، وويلز، وفي رئاسة أسقفيتي كانتربري ويورك، وفي تلك الأجزاء من إيرلندا التي يمتلك فيها سلطة، جون ايرل أوف مورتون، أخو الملك، صدر في الثاني من حزيران، في السنة الثالثة من بابويتنا».

كيف علق رئيس أساقفة كانتربري الأسقف هيوج

وكتب في هذا العام بلدوين رئيس أساقفة كانتربري إلى رتشارد أسقف لندن كما يلي:« عندما كنا في روان علقنا عن ممارسة الواجبات المقدسة أخانا هيوج أوف كوفنتري، لأنه قام من دون اهتمام واحترام لكرامة المرتبة الأسقفية، فاغتصب وظيفة العمدة، لكن بناء على وعده الصادق بالاستقالة بين أيدينا من مسؤوليات ووظيفة العمدة، وأن لايشغل نفسه ثانية بأعمال من هذا النوع، اعتقدنا وقتها أنه يستحق التحليل، وبناء عليه نرسل هذا الأسقف إليكم مع رسالتنا هذه، ونأمركم القيام من دون تأخير بالتعاون مع أسقف روكستر وكهنتنا، بتحديد موعد ومكان للسماع ولاتخاذ قرار عادل حول التهم التي من أجلها جرى تعليق ذلك الأسقف من قبلنا.

حول مذبحة اليهود في عدة أماكن

قرر في هذا العام كثيرمن الناس في جميع أرجاء انكلترا، من الذين كانوا على نية السفر إلى القدس، قبل أن يسافروا، أن يتسببوا بثورة ضد اليهود، وتفجر هذا أولاً في نورويك، حيث كان اليهود من الكثرة بقدر ماهو ممكن، فقتلوهم في بيوتهم، ونجا على كل حال قليل منهم، والتجأوا إلى قلعة في ذلك المكان، وحدث بعد هذا في السابع من آذار، أن ذبح كثير منهم في ستامفورد في يوم السوق، وفي الثامن من عشر من آذار، قيل بأن سبعة وخمسين قد قتلوا في سينت إدموند، وعلى هذا جرى قتل اليهود، حيثما وجدوا على أيدي الصليبيين، باستثناء الذين جرت

حمايتهم من قبل موظفي المناطق والمدن، هذا وينبغي أن لانعتقد أن مثل هذه المذابح لليهود، كانت مرضية للناس العقلاء، لأنه قد كتب:« لاتقتلهم، خشية أن ينسى الناس».

حول المذبحة الرهيبة لليهود في يورك

وفي العام نفسه، أثناء الصوم الكبير، أي في الخامس عشر من آذار، قام يهود مدينة يورك، الذين كان عددهم قد بلغ خمسمائة إلى جانب النساء الأطفال، من خلال الخوف من هجوم عليهم يشنه الصليبيون، فحصلوا على إذن من العمدة ومن حاكم القلعة، بأن يعتصموا في القلعة، وعندما طلبت منهم الحامية ارجاع القلعة، رفضوا فعل ذلك، ولدى رفضهم ذلك تمت حملات متوالية على القلعة في كل من النهار والليل، وبعد مرور وقت طويل، تفكر اليهود بالأمر، فعرضوا مبلغاً كبيراً من المال مقابل حياتهم، لكن ذلك رفضه الشعب، ثم نهض واحد منهم، وكان بارعاً بالشريعة، فخاطب رفاقه على الصورة التالية:« آه، يارجال اسرائيل، اسمعوا رأيي، إنه من الأفضل، كما تأمرنا شريعتنا، أن نموت في سبيل شريعتنا، على أن نقع في أيدي أعدائنا»، ووافق الجميع على هذا، وجاء رأس كل أسرة بموسى حادة، فقطع أولاً رأس زوجته، وأولاده وبناته، وبعد ذلك جميع أسرته، وألقوا بعد هذا ببعض أجساد القتلى، الذين عدّوهم بمثابة ضحايا للشيطان، على المسيحيين في خارج القلعة، ثم إنهم حبسوا أنفسهم في بيت الملك، وأوقدوا النار فيه، فاحترق فيه كل من الأحياء والأموات مع البناء، وبعد هذا أحرق السكان والجنود بيوت اليهود، مع أوراق دائنيهم، واحتفظوا بأموالهم في سبيل استخداماتهم الخاصة بهم.

تكريس غيوفري رئيس الأساقفة المنتخّب ليورك كاهناً

وفرض في تلك الآونة الأسقف وليم، مستشار الملك، والمسؤول عن

العـدالة في انكلترا ضريبة جـوادين مع سـائقين على كل مدينة من مـدن انكلترا، وجواد واحـد مع سائق واحد على كل رعـوية، وكرس في هذه الأيام أيضاً، جـون أسقف وايزرن Whithern ، والأسقف المساعد لكنيسـة يورك، غيوفـري رئيس أسـاقفة يورك المنتخب، ليكون كـاهنا، وجـرى في الوقت نفسه تثبيت انتخـاب غيوفـري المتقدم ذكـره من قبل البابا كليمنت، الذي بين أشياء أخرى عملها، كتب إلى هيئة كهنة يورك، مضيفـاً هذه الكلمات،:« وبناء عليـه نحث جميع إخوانيتكـم أن تقدمـوا الاحترام والتشريف إليـه بمثابـة أسقف لكم، فتبرهنون بذلك على أنكم جـديرين بالثناء بنظر الرب والناس، صـدر في اللاتيران، في السـابع من آذار، في السنة الثالثة من بابويتنا».

نظام تعبئة الجيش الصليبي أثناء حصار عكا

كان نظام تعبئة الجيش الصليبي أمام عكا في هذه الآونة كما يلي: كان أمـام جبل المصلبين، قـرب البحر، الجنويين، وجـاء بعـدهم الاسبتـارية ومـــركيـز أوف مـــونتفـرات، ثم تـلاهم بالترتيب هنري كـــونت أوف شامبين، وغي أوف دونبيرك Duinperc، وكونت برين Brenne، ثم كـان بعد ذلـك كونت بار، وكـونت شـالون Chalons، ومن بعدهما روبرت أوف دروكس Dreux، وأسقف أوف بوفيا Beauvais، وكان على مقـربة منه باتجاه السهل، ثيوبولد كـونت أوف كليرمونت، وهيـوج دي غورني، وأوثودي تريسـون، وفلورنتوس Florentius دي هوجي، وولكلاين دي فيرار Walkeline de Ferrars، ثم جـاء فلـورنتـاين Florentines، ثم أسقف كامبري Cambray، وإلى جانبه كان أسقف سـالسبري، مع جميع القـوات الانكليـزية، ثم جـاء وكيل فـلاندرز، مع جـــون دي نيل، وأوگو دي هام، والفلمنكيين ، وجـــاء من بعـــدهم صاحب هيسولدون Hissoldone، وفيزكونت أوف تور، وعلى مقربة منهما ملك القـدس وهيوج أوف طبريا مع أقـربائهما، ومن بعدهما كـان

الداوية، وجيمس دي أفني Avennes، وكان إلى جوارهما اللاندغريف Landegrave، وكـــــونـت أوف غيلـدر Geldres مع الألمان، والداشيين، والتيـوتون والفـريزلانـدريين، وكـان بينهم قـد نصب دوق سوابيـا معسكره بجوار المسجد، وبعدهم، وعلى مقـربة من البرج تمركز بطريرك وأسقف عكـا، وأسقف بيت لحم وفيـزكـونـت أوف شـاتل— هيرلوت Chatel- Herault، مع رينالد دي فلشي Fleche، وهمفري أوف تور، وكان صرافـو النقود تحت تورون، وفي الطرف الأقصى، على مقـــربة من الميناء، رئيس أسـاقفـة بيـزا مع البيـازنة، وجـاء بالأخير اللومبارد.

بناء بيعة عند عكا تشريفاً لتوماس الشهيد المبارك

وفي هذه الآونة عندمـا كـان شماس انكليزي اسمـه وليم، وكـان من المقـربين من رالف دي ديسيتـو، عميـد لندن، على طريق رحلتـه إلى القدس، عمل نذراً، أنه إذا ماوصل سالماً إلى ميناء عكا، سوف يبني على حسابه بيعـة على شرف توماس الشهيد المبارك، ولسـوف يتولى تكريس مقبرة على اسم ذلك الشهيـد، وقـد وفى بنـذره، وتقـاطر كثيرون من مختلف الجهات مع بعضهم إلى الصلـوات في تلك البيعة، وحمل وليم— بقـرار من جميع الصليبيين، اسم رئيس الرهبـان، ولكي يبـدي تقـواه كجندي للمسيح، عمل شغله الشـاغل رعاية الفقـراء، وبصورة خـاصة دفن الذين هلكوا من الأمراض وكذلك الذين قتلوا في المعركة.

مقدمو جيش صلاح الدين

كان المقدمون في عكا تحت قيـادة صلاح الدين هم كما يلي: قراقوش، الذي عمل فارساً من قبل كربوغـا أثناء حصار أنطاكية، وهو الذي ربى صلاح الدين، وكـان معه جمال الدين، وقليج، وسنجر شـاه، وشيركوه، وأبو الهيجـاء السمين، وفخر الـدين، وقطب الدين، وكـان قادة جيشـه

هم هؤلاء: أولاده الثـلاثـة: الملك الأفضل، والملك العـزيـز، والظاهر غـازي، مع اثنين من أبناء أخـوته هم: تقي الـدين، وشمس الدين، مع المقدمين: زيـن الدين، وقايماز، وبدر الدين، والمشطوب، وسـابق الدين، وامتلك جميع هؤلاء المقدمين سلطة على الجزيرة والرحبة، والبيرة، وعلى الفرس، والتركمان، والعرب، والاسكندرية، ودمياط، وحلب، ودمشق، وجميع الأراضي الواقعـة فيما وراء الفـرات والممتدة حتى البحـر الأحمر، وفيما وراءها إلى المغرب، وحكم تقي بلاد مصر، وعهد إلى أخوة صلاح الدين الأربعـة بحكم بلدان: العبـاسيـة، واليمن، والمغـرب، والنوبة، وقيسارية وعسقـلان، وآمد، وميافـارفين، وسنجار، والناصرة، ونابلس، وحمص، وحلب، ومـرعش، وتولى العـادل سيف الديـن حكم الكرك والشـوبك، وغازي جـزء من أرمينيـا، هذا وكـان صلاح الدين السيـد الحاكم عليهم جميعاً(١).

كيف جرى احراق آلات الحصار الصليبية من قبل المسلمين

وجـرى في العـام نفسـه، قـذف النفـوط والنـار الاغـريقيـة من قبل المسلمين الذين كـانوا محاصرين في مـدينة عكـا، على الآلات التي بناها الصليبيون بنفقات عالية جداً، من أجل اخضاع المدينة، وانتشرت النار، على الفور، وحـولتهم إلى رماد، وقـد حدث هذا في هذا اليـوم الخامس من أيار.

كيف جرى اكتشاف خونة بين الصليبيين

وكشف في هذه الآونة العادل صاحب الكرك والشـوبك عن مؤامرة كان قـد أعدها مع أسقف بـوفيا Beauvais وأخيه الكونت روبرت، وغي أوف دونبيرك Duinperc ، واللاندغريف، وكونت أوف غيلدر Geldres، الذين دخلوا بالمؤامرة مع صلاح الدين، ولذلك تسلموا من

١— تشوهت الأسماء بالأصل إلى حد صعب فيه نقلها إلى العربية بدقة.

ذلك الأمير ثلاثين ألف دينار ذهبي، ومائة مارك من الذهب، بالاضافة إلى رشوة مقدارها أربعة جمال، وفهدين، وأربعة صقور، قد تسلمهم اللاند غريف، وقد وافقوا، مقابل هذه الهدايا على ايقاف الهجوم على المدينة، وترك أبراج حصارهم تحترق.

رسالة الملك رتشارد بشأن مستشاره

وأصدر في هذه الآونة رتشارد ملك انكلترا رسائل بعث بها إلى جميع التابعين من رعيته في جميع أرجاء انكلترا، كان نصها كما يلي:« من رتشارد بفضل الرب إلخ: نحن نأمركم ونحثكم بالنسبة لما يتعلق بنا وبمملكتنا، وكذلك بكم أنفسكم وبممتلكاتكم، لابل في جميع الأشياء، أن تكونوا طائعين إلى صديقنا، والعزيز علينا، المستشار، أسقف إيلاي، في جميع الأشياء التي فيها فائدة لنا، وأن تعملوا معه وتطيعوا أوامره لصالحنا، وكأننا نحن أنفسنا كنا في المملكة، شهدت على ذلك بنفسي في بيون Bayonne.

حول قادة اسطول الملك رتشارد والقوانين التي عملت ضد المجرمين

وفي هذه الآونة اختار الملك رتشارد وعين في اجتماع للنبلاء: جيرالد رئيس أساقفة أوكسين Auxienneوبرنارد أسقف بافاريا، وروبرت دي سابل Sabels، ورتشارد دي كانفيل Canville، ووليم دي فورت Foret ، ليكونوا قضاة للأسطول المتحد لانكلترا، ونورماندي، وبريتاني، وبواتو، الذي كان على نية الابحار إلى الأرض المقدسة، وبعث برسائل يرخصهم بها كانت كما يلي:« من رتشارد بنعمة الرب ملك انكلترا، إلى جميع رعاياه الذين على نية الابحار إلى الأرض المقدسة، التحيات: ليعلم جميع الناس، بأننا عملنا هذه القوانين التالية بناء على نصيحة مجلسنا الجيد: كل من يقتل على ظهر السفينة رجلاً

آخـر، سوف يربط بالرجل الميـت، ويلقى في البحر معـه، وكل من يقتل رجلاً آخر على اليابسـة يربط مع الرجل الميت، ويدفن معه، وإذا ماأدين أي واحد لإشهـاره سكين ليضرب بها واحداً آخـر، أو أنه أسال دم من واحد آخـر، فإنه سوف يفقد يـده، وإذا ماضرب أي واحد انسـانا آخر، فإنه سيغطس بالبحر ثـلاث مرات، وكل من يقدم إهانة، أو مـلامة، أو لعنة لرفيقـه، فإنه سيجري تغـريمـه بأونسات من الفضـة، بقـدر ماقـام بإهانتـه، والسارق الذي يدان بالسرقـة سوف يجري صب قـار يغلي على رأسه، وبعـد ذلك يجري رش رماد فـوقه ليعرف بـذلك، ولسوف يطرد من السفينة عند أول مينـاء تصل إليـه»، وقـد جعل الجميع فـرداً فـرداً يقسمـون على الحفـاظ على هذه القـوانين، وأنهم بناء على ذلك سـوف يطيعـون رجـال العدالـة المتقدم ذكـرهم، وبعـد هذا أمـر قـادة اسطوله بالاقلاع واللقاء في مرسيليا.

كيف تسلم الملك رتشارد الصك والعصا في فنزلي

التقى في هذا العـام الملكان الفـرنسي والانكليـزي في ثمانيـة القـديس يوحنا المعمـدان، في فينزلي، حيث كـان جسد القـديسـة مـريم المجدليـة مدفوناً، وقد مكثا هناك لمدة يومين، وهنا تسلم الملك الانكليزي الصك والعصـا في كنيسـة القـديس دنس، وانطلق بعـد هـذا الملكان مع جميع قـواتهما نحو ليـون على الرون، حيث عندما كـانا هما وشطر من جيشهما يعبران الجسر، تحطم الجسر، فغـرق كثيرون من كـلا الجنسين، وافترق بعـد هذا الجيشـان، لأن مكانا واحـداً لم يكن واسعـاً بما فيـه الكفـاية لاستيعـاب مثل تلك القـوات الضخمـة عندمـا تتحـد، وأخـذ الملك الفـرنسي الطريق إلى جنوى، واتجه ملـك انكلترا نحـو مسينـا، ولدى وصـول رتشارد إلى ذلك المكان وجـد أن كثيراً من الحجـاج قد أنفقـوا أموالهم، بسبب إقامتهم الطويلة هناك، واحتفظ الملك رتشارد بعدد كبير من هؤلاء وألحقهم بجيشه، وبعدمـا أقام هناك في ذلك المكان لمدة ثمانية

أيام، وهو يتوقع وصول اسطوله، وجد أنه خدع بآماله، فجمع عشر بطسات كبيرة، وتسعة غلايين جيدة التسليح، وأقلع بهذه المراكب، ذلك أنه كان قلقاً بسبب تأخر أسطوله، ولكي لايبدو أنه كان كسولاً، أبحر مع قوة عسكرية جيدة، فعبر من أمام جزيرة القديس اسطفان، فأكويليا Aquileia ، فالجبل الأسود، فجزيرة القديس هونوراتوس Hon-oratus، فمدينة ميس Meis، ثم المدينة التي اسمها وينتيليماين Win-tilimine، ثم ارتحل من هناك إلى قلعة سين Seine ، وفي اليوم الرابع عشر من آب، وصل ملك الانكليز إلى ميناء دوفين Dauphin، ومكث هناك خمسة أيام، وعندما كان في ذلك المكان، أرسل إليه ملك الفرنسيين يطلب منه تزويده بخمسة غلايين، وقدم له الملك الانكليزي ثلاثة، لكنهم رفضوا من قبل الملك الانكليزي، وفي الرابع والعشرين من آب، وصل الملك إلى بورتوير Portesweire، الذي وقع في منتصف الطريق بين مرسيليا ومسينا، وبعد عبوره بأماكن مختلفة دخل إلى نهر التايبر Tiber ، الذي كان يوجد قرب مصبه برج ممتاز، والتقى في هذا المكان مع أوكتافيان أسقف أوستيا، مع رسالة لصالح البابا، بأن يزوره الملك، وقد رفض الملك هذا، قاذفاً الأسقف بالسيمونية، والكهنة الرومان بالجشع، مع تهم أخرى كثيرة، مضيفاً بأنهم قد تسلموا سبعمائة مارك، من أجل تكريس أسقف مين، وتلقوا ألفاً وخمسمائة مارك فضي من أجل منح نيابة البابا إلى وليم أسقف إيلاي، وعلاوة على ذلك تسلموا مبلغاً كبيراً من المال من رئيس أساقفة بوردوكيس Bour-deaux ، الذي اتهم بجريمة من قبل كهنته، وبناء عليه، دخل، بعد رفضه زيارة روما إلى أبوليا قرب مدينة كابوا Capua.

كيف عين الملك رتشارد ابن أخيه آرثر وليا لعهده

وأعطى في هذه الآونة، تانكرد ملك صقلية[الذي خلف الملك وليم] إلى الملك رتشارد عشرين ألف أونسة فضة، من أجل أن يحتفظ

بشروط للسلام معه، ومقابل جميع ماادعاه ضده، وكمية من الذهب، مقابل الدعوى المتعلقة بالوصية التي كان الملك وليم قد عملها لصالح الملك هنري، والد رتشارد، وتقديراً للزواج الذي جرى التعاقد عليه بين آرثر دوق بريتاني وابنة الملك تانكرد، وبناء عليه عين الملك رتشارد آرثر المتقدم ذكره ولياً لعهده، في حال وفاته من دون أي وريث شرعي، وانطلق بعد هذا على طريق حجه.

كيف تركت الملكة إليانور مع ابنها لدى مغادرته بيرنغاريا

قررت في هذه الآونة الملكة إليانور، السير خلف ابنها الملك، وقد عبرت جبل جانوس Janus ، وسهول ايطاليا، والتقت به أخيراً، وبعدما أمضت معه أربعة أيام، حصلت على إذنه ورجعت إلى انكلترا، وتركت مع ابنها بيرنغاريا، ابنة ملك نافار، التي كان رتشارد سيتزوجها، لأن الملك رتشارد كان قد أعطى الملك الفرنسي عشرة آلاف باوند كترضية له من أجل عدم زواجه من أخت هذا الملك، وبهذه الاتفاقية تخلى أيضاً ملك الفرنسيين عن مطالبته بقلعة غيسور وجميع فكسين Vexin.

وفي هذا العام أيضاً، عبر فردريك الامبراطور الروماني، في السنة الأربعين من حكمه، خلال بلغاريا، في طريقه إلى القدس، وفي أثناء زحفه من قونية نحو أنطاكية، وبعدما عبر بأمان جيشه النهر الأسود، سقط الامبراطور من على حصانه في الماء وغرق.

كيف ظهر توماس الشهيد المبارك إلى قادة اسطول الملك رتشارد

تعرض في العام نفسه اسطول ملك انكلترا إلى كثير من المخاطر، ففي طريقه إلى لشبونة استدار حول الجبل المرتفع الذي اسمه غدتيرا Go-desterre، ثم عبر بريتاني والقديس متى أوف فنزتيرا Finisterre على يساره، والمحيط الذي كان عليه طريقه إلى القدس على اليمين، ثم غادر

بواتو وغسكوني على يســاره، وكــان الاسطول في يوم صعــود ربنا في البحر الاسباني، وتعرض وقتهـا الاسطول إلى عاصفة فرقت السفن على الفور، وفي أثناء هياج العاصفة، وعندمـا كان الجميع خائفين يدعون إلى الرب، ظهر تومـاس الشهيد المبارك، رئيس أساقفة كـانتربري في أوقات ثلاثة متنـوعـة، إلى ثـلاثة أشخـاص مختلفين، كــانوا على ظهــر سفينة اللندنيين، وقـال لهم:« لاتخافـوا، لأنني أنـا، وإدمـوند الشهيـد المبـارك، والقـديس نيقـولا المعترف، قـد جـرى تعييننا مـن قبل الرب، من أجل حـراســة اسطول ملك انكلترا، وإذا مـانأى البحـارة وقـادة الاسطول بأنفسهم عن الذنوب، وتابوا من ذنوبهم الماضيـة، سوف يمنحهم الرب رحلة موفقة، وسيـوجه سبلهم في ممراته»، وسمعت هذه الكلمات ثلاث مـرات متواليـات، وإثرها اختفى القـديس تومـاس، وتوقفت العاصفـة وهدأت، وكان بين بحـارة تلك السفينة واحداً اسمـه وليم ذي اللحية، وآخر اسمـه وليم فتز— أوسيبرت Fitz- osbert، وغيوفـري العامل بالذهب، وكان معهم كثيراً مـن سكان لندن، وعبر هؤلاء الآن لشبونة، ورأس القـديس فنسنت Vincent ثم اقتربوا من مـدينة اشبيليــة، التي شكلت آنذاك النهايـة القصوى للمسيحية في اسبـانية، وفي الحقيقـة كان الايمان المسيحي مايزال ضعيفاً هناك، لأنها قد غدت مسيحيـة قبل عام واحــد مضى، حيث جـرى الاستيــلاء عليهــا وانتـزاعهــا من سلطة المسلمين، ووجـه بحارة السفينة اللندنيـة، سفينتهم وقادوها على مقـربة من المدينة، فوجدوا بعض الاشارات الدالة على سكنى المسيحيين هناك، ولذلك رسـوا هناك، وقـد استقبلوا بكثير من التكريم من قبل الأسقف وبقيــة السكان، وكـان على ظهــر هذه السفينة مــا يزيد على ثمانين من الشبـاب المسلحين، بهم احتفظ أهل المدينة مع ملك البرتغال، وأبقـوهم في خـدمتهم، وذلك لخوفهم من ملك المغـرب، وأعطـوهم كل نوع من الضمانات في أن يدفعوا لهم الذي يطلبونه، ووعدوهم بالاضافة إلى ذلك بهدايا كثيرة، وإلى جـانب هذه السفينة كان هناك مـايزيد على عشر سفن

من الاسطول الانكليزي، مع بحارتها قد تفرقوا هنا وهناك، وأخيرا، وصلوا بفضل من الرب إلى مدينة لشبونة بوساطة نهر تاجه Tagus، وبعد هذا كان رئيس أساقفة أوكسيا Auxia ، وروبرت دي سابل Sables، ورتشارد دي كانفيل Canville، ووليم دي فورتز Fortz، قد أخذوا طريقهم بين أفريقيا واسبانيا، ووصلوا بعد كثير من العواصف، في ثمانية القديسة مريم إلى مرسيليا، وكان ذلك مع جميع الاسطول الذي كان تحت عهدتهم، وقد وجدوا الملك هناك، لذلك توقفوا للقيام بالترميمات الضرورية لسفنهم.

كيف نزل بلدوين رئيس أساقفة كانتربري مع آخرين في صور

في حوالي الوقت نفسه، كان بلدوين، رئيس أساقفة كانتربري، ورالف دي غلانفيل، وهيوبرت أسقف أوف سالسبري، الذين كانوا مسؤولين رسميا عن العدالة في انكلترا، والذين تقدموا على الملك الانكليزي في الرحلة نحو القدس، قد أخذوا طريقاً مباشراً، مخلفين صقلية على اليسار، ووصلوا بعد المعاناة من كثير من المخاطر، إلى صور، في حوالي أيام عيد القديس ميكائيل، وكان جون أوف نورويك قد ذهب إلى البابا، فحصل منه على الاذن، فوضع جانباً صليب الرب، وأخذ حقائبه، وعاد إلى انكلترا، وقد تحلل من عهوده.

نشوب خلاف بين الملكين في مسينا

وصل في السادس عشر من إيلول من العام نفسه فليب الملك الفرنسي إلى مسينا، وتمت استضافته في قصر الملك تانكرد، ووصل الملك رتشارد في الثالث والعشرين من الشهر نفسه، لكن لم يسمح له بالدخول إلى المدينة، لأن الفرنسيين كانوا خائفين من أن الأطعمة سوف لن تكون كافية للحشود التي تبعت الملكين، ولدى سماع رتشارد بذلك، أرسل قادته إلى شيوخ المدينة، وطلب منهم بيع مؤن إلى جيشه، حتى

لايتعـــرض أفـراده إلى ضغط الحاجــة، وقـد رغـب سكان المدينة بفتح أبوابهم واستقبال مثل هذا الأمير العظيـم والترحيب به، لكن الفرنسيين لم يسمحـوا لهم، فقـد تسلقـوا فـوق الأسـوار، وهم يحملون السـلاح، وقرروا الدفـاع عن الأبواب، وعند هذا أمر الملك رتشارد عسـاكره بأن يهبوا إلى السـلاح، وأن يشقوا بالقوة طريقاً له ولأتبـاعه، على الرغم من أعـدائهم، وأطاعت العسـاكـر أوامـر الملك، وهاجمت الأبواب، وشقت طريقها بالقـوة إلى المدينة، وبعدما قتلوا عدداً من الفـرنسيين، حيث كان ملكهم على رأسهم، أرغمـــوا البقيـة على الفـــرار، وعندمـــا بلغت هذه الأخبار إلى مسـامع الملك الفرنسي شعـر بغضب عظيم جداً ضـد الملك الانكليـزي، ولم يخلّص نفســه من ذلك طوال حيـاته، ومع ذلك اجتمع الملكان، وتحادثا بسـلام، وكان ذلك في اليـوم نفسـه، ولم يأتيا على ذكـر ماحدث.

كيف أخضع الملك رتشارد بعض الحصون

في الرابع والعشرين من ايلول من هذا العام، صعـد الملك الانكليزي إلى سفنه، وأراد الاقـلاع لكن الريح لم تكن مـواتيـة، فعـاد إلى مسينا في اليـوم نفسه، وفي الثـلاثين من ايلول عبر الملك رتشارد نهر الفـار Var، واستـولى على مكان حصين جـداً في كـالبيريا كـان اسمـه لابامير Lab-amare ، ووضع هناك أختـه جـوانا، التي كـانت ملكة صقليـة من قبل، وعـاد إلى مسينا، واستـولى في اليــوم التـالي على حصن اسمـه دير الغـريفـون Griffones ، بين مسينا وكالبيريا، وقام الغريفون في هذا المكان بهجوم على هيـوج برون Brun ايرل أوف مارش March، وقد جرى ردهم مـن قبل رتشارد، وبناء عليه أغلقـوا أبواب المدينة، وحملوا أنفسهم إلى الشرافات، ومن هناك قتلوا وجرحـوا عدداً من رجال الملك وخيـولـه، وغضب الملك لهذا وهاجم واقتحم الأبـواب، واستـولى على المدينة، ومركـز في الرابع من تشرين الأول أتباعه فيها، وفي اليـوم التالي

أعطى شيوخ المدينة رهائن من أجل رعـاية صحيحة للسلام من قبلهم، وشيد بعـد هذا قلعة هناك، أطلق عليها اسم ميت— غـريفون Mate-Griffon، وعُقـد في هذه الآونة مـؤتمر اقليمي، كـان الرئيس فيـه، وليم أسقف إيلاي، النائب للكرسي الرسـولي، لكن الذي أنجز في هذا المؤتمر كان قليلاً أو لاشيء من أجل تهذيب الكنيسة الانكليزية.

كيف تحررت الكنيسة النورماندية من نير العبودية

وفي هذه الآونة تحررت كنيسـة الرب في نورمـاندي- بموافقـة الملك رتشـارد- من نير العبـودية الذي تحملتـه طـويلاً، فقـد تقـرر بالدرجـة الأولى، وجـاء مـاتقـرر بمنحـة من الملك، أنه بـالنسبـة للكهنة، لايجوز اعتقـالهم بأي حـال من الأحـوال من قبل السلطات المدنيـة، كما كـانت العـادة من قبل، مـالم يكن ذلـك من أجل قتل، أو سرقـة، أو الاحـراق عمداً، أو جرائم من هذا النوع الرهيب، وأن يكون ذلك على الفور بناء على طلب القضـاة اللاهوتيين، حيث يتـوجب تسليمهم للمحـاكمـة في محاكم لاهوتيـة، وبالاضـافـة إلى ذلك فإن جميع المسـائل المتعلقـة بعـدم الوفـاء بالعهـد، أو الحنث بـاليمين، يجري تقـريرها في هـذا السيـاق في البلاط اللاهوتي، وأيضاً بالنسبـة لقضايا المهور، أو هدايا الزواج، حيث كانت تجري المطالبة بمقتنيات أو بسلع حيـة، فهذه سوف يشار إليها من قبل التحكيم الكنسي، وأيضـاً فيما يتعلق بالممتلكات الديرية، وانتخـاب رعاة الديرة، ورؤساء الرهبـان، وراعيات الراهبات، فإن هذا كله ينبغي أن يتم بمـوافقـة أسقفهم، وكـذلك ليس للمحـاكم المدنية صـلاحيـات حيث يمكن للمحـاكم اللاهوتيـة البرهنة على ذلك، إمـا بالفعل، أو بشكل آخـر إذا كانت الملكية صـدقة أو وقف، وأن هذا ينبغـي الاشارة إليـه في قـرار القضـاة الـلاهوتيين، وكـذلـك إن التصرف بالممتلكات الممنوحـة بوصية ينبغي اقـراره من قبل السلطات الكنسيـة، وأنه لايجوز استخراج عشر من ذلك، وكذلك بالنسبة لسلع الكهنة، ومع أنه قد قيل

بأنهم كانوا يمارسون الربا، فإنهم إذا ماماتوا، ليس للسلطات المدنية من صلاحيات تجاه مخلفاتهم، بل إنها ينبغي توزيعها من قبل السلطات الأسقفية على أعمال تقوية، وكذلك مهما كانت الممتلكات التي أودعها رجال علمانيون أثناء حياتهم، وتحت أي عنوان غربوها، ومع أنه يمكن تسميتهم مرابين، الأمر نفسه، لايجوز نقضها بعد موتهم، ولكن أي شيء أمكن العثور عليه غير مغرب بعد موتهم، وإذا أمكنت البرهنة على أنهم كانوا مرابين في أيام موتهم، فالذي ينبغي هو مصادرتهم، وكذلك إذا كان شخص ميت كان لديه أية رهينة قد حصل بها على الفائدة، فإن حصته ينبغي إعادتها إلى المودع للرهينة، أو إلى ورثته، والشيء نفسه ينبغي عمله بحصص زوجته وأولاده بعد موتهم، وإذا مات أي واحد موتاً مفاجئاً، أو بوساطة حادث، وكان من غير الممكن توزيع ممتلكاته، فإن توزيعها ينبغي أن يعهد به إلى السلطات الكنسية.

موت بلدوين رئيس أساقفته كانتربري

وفي هذه الآونة كان بلدوين رئيس أساقفة كانتربري، على حافة الموت في عكا، فتبرع بجميع ممتلكاته لمساعدة الصليبيين في الأرض المقدسة، وبعد وفاته تولى هيوبرت أسقف سالسبري- الذي كان رئيس الأساقفة قد عينه منفذاً لوصيته- توزيع ممتلكاته بأمانة ولاستعمالات تقوية، وكان قلقاً حول حرس المعسكر، فدفع لهم، مثلما قرر رئيس الأساقفة في أيام حياته أن يفعل، وعين رواتب لعدة أيام لعشرين فارساً، ولخمسين لخدمهم، وقد أخذ على نفسه العناية دوماً بالفقراء، ملقيا عين الرحمة على المعوزين، وقائماً في جميع الأحوال بواجبات أسقف صالح.

هذا ولم تتأثر عكا بالحملات المتوالية للصليبيين، وقاومت بشجاعة وتصميم، لأنها كانت محاطة بأسوار جيدة، وكانت مشحونة بشكل جيد، ومزودة بالآلات الحربية، علاوة على ذلك كان جيش صلاح

الديـن محيطاً بالمحـــاصرين من جميـع الجهـــات، ولهذا السبـب وبسبب انسحـاب بعضـاً من الصليبيين، وكــذلك بسبب الأعـداد الكبيرة التي قتلـت منهم، فـإن جيش المسيـح قـــد ضعف كثيراً، ومـع ذلك فـإن الصليبيين الذين وثقــوا بمسـاعـدة المسيح، كـانـوا متأملين أنه سيكون بامكانهم تحمل المصـاعب ومتاعب الحصار حتـى وصول الملكين، ذلك إذا ماوصلا إليهم مع أيام الفصح، لكن إذا لم يصلا فإن أموالهم ستكون أنفقت، واستهلكت، وسوف تتبدد جميع الآمال بمعونة أرضية.

حول تشامخ وليم أسقف إيلاي ومستشار انكلترا

أمـر في هـذه الآونة وليم، قـاضي انكلترا، ونائب الكـرسي المقـدس، بحفر خندق عميق حول برج لندن، آملاً أن يكون قادراً على جلب المياه من نهر التيمز إلى المدينة، لكن بعد انفـاقه كثيراً من الأموال من الخزينة، تبرهن أن جهـوده بلاثمار، عـلاوة على هـذا أصبح هذا المستشـار نفسـه عظيماً جداً بين جميع شعوب الغـرب، وكان في انكلترا هو ملك وراهب معـا، ولم يعـد يبـدي اهتمامـا بأي شيء، ذلك أنه لم يعـد قـانعـاً بالمكانة الأسقفية لوحـدها، بل أظهر بأن تفكيره مـركّز على أشيـاء كانت عـالية جداً بالنسبة لـه، ذلك أنه أظهر عبثيته وعجرفته بقـوله في مطلع رسائله كلها:« نحن وليـم، أسقف إيلاي بفضل نعمة الرب، ومستشـار مولانا الحاكم، وقاضي انكلترا كلها، ونائب الكرسي الرسولي، التحيات، إلخ»، وقـد مارس تجاوزات كثيرة بوسـاطة مـراتبه التي شغلهـا، والتي حصل عليها بوساطة الرشوة، وسعى إلى ترميم المؤسسـات المقدسة التي سلبها في سبيل حصـوله على مراتبـه، وكان يوزع الأمـوال على موائـده، حتى يتمكن من القدوم ثانية واستخراج الأموال نفسها، لكن مع فائدة، ذلك أنه مارس واجبـات النيابة البابوية، التي حصل عليهـا بكلفة ألف باوند من الفضـة، وبات متعجـرفـاً إلى حـد غـدا فيــه عبئاً ثقيـلاً على جميع المؤسسـات في انكلترا من كل من الديرة، والكاتدرائيـات، وفي الحقيقـة

ارتحل خـلال انكلترا كلها مع رتل تألف من ألف وخمسمائـة من الخدم، ورافقه أيضاً حشد من الكهنة، وأحاطت به كتائب من الجند، وقد أهمل جميع الأشيـاء التي ارتبطت بمرتبتـه الأسقفية، وقـد خدمـه على مائـدته جميع أبناء النبـلاء الذين زوجهم من حفيـداته مع الاناث من قـريبـاته، وقد اعتقد الذين احتفظ بهم، بمثـابة خدم، أنفسهـم محظوظين، ولم تكن هناك أرض معروضة للبيع إلاّ واشتراها، ولم تكن هناك كنيسة فارغة أو دير شـاغـر، إلاّ ووزعـه أو احتفظ بـه لنفسـه، ولم تكن هناك قلعـة من القـلاع أو بلدة من البلدات إلاّ وحـاول الحصول على الوصـاية عليهـا، عن طريق التهـديد أو الرشــوة، وبهذه الأعمال، وبتصرفـات مماثلة في سماتها، ألقى الرعب في قلوب النـاس، وصـارت مملكة انكلترا صـامتـة بحضوره، ومـامن أحد تذمر، لأنـه لم يبق في انكلترا قوة تقاومـه، وكان موكبه مكوناً من:

Ambubaiarum collegia, Pharmacopolae,

òMendici, mimae, balatrones,hoc genusomne.

وهكذا عندما كان يسير على الأرض، كان تتبعه جميع أنواع الموسيقى والغناء، مثلما يتبع الملائكة المقدسون الرب الكلي القدرة في السماء، ولقد عمل في كل مجال تماماً بطريقة بـدا فيها وهو يسعى لأن يضع نفسه على سـوية الرب، ولسـوف نحكي خبر نهايـة هذا كله في أحـداث التـاريخ المقبلة في وقتها.

حول الموتان عند عكا

عـام ١١٩١م، فيـه مات بعـد مـوت بلدوين المبجل رئيس أسـاقفـة كانتربري، نبلاء وفرسان مجربين بشكل جيد وأقوياء، وذلك أثناء حصار عكا، وقـد قيل بأن ذلك جـاء بسبب الأجـواء غير الصحية، وكـان بين هؤلاء رالف دي فولتشر، والكونت روبرت دي بيرشي، وثيوبولد أوف

بلوا، وأخوه الكونت ستيفن، والكونت الابن للامبراطور فردريك، وايرل فيّرار Ferrars ، والايرل روبرت دي ليستر، ورالف دي غلانفيل، ورالف هوتيرايف Hauterive، ورئيس أساقفة كولستر، وإلى جانبهم آخرون لايمكن تعدادهم، وفي تلك الأثناء كان الملك هنري الانكليزي مع الملك الفرنسي، ينتظران في صقلية حلول الربيع حتى يتجنبا السفر في الشتاء.

ومات في هذا العام أيضاً البابا كليمنت، بعدما شغل الكرسي الرسولي لمدة أربعة عشر شهراً، وقد خلفه سيليستين، الذي كان يعرف من قبل باسم هاياسينثوس Hyacinthus.

كيف أقلع فيليب ملك فرنسا ورتشارد ملك انكلترا من مسينا

وفي التاسع والعشرين من آذار من هذا العام أقلع الملك الفرنسي من مسينا، وأبحر مباشرة باتجاه القدس، ولحقه في العاشر من نيسان الملك رتشارد، وسط أبهة عظيمة، مع أسطول تألف من ثلاث عشرة بطسة من ذوات الأشرعة الثلاثة، إلى جانب مائة سفينة نقل، وخمسين غليون من ذوي الصفوف الثلاثة للمجذفين، وبعد مسير عشرين يوماً اقتربوا من جزيرة رودوس، وبعد عشرة أيام رسوا عند قبرص، هذا وقدم اسحق حاكم الجزيرة، الذي اتخذ لنفسه لقب امبراطور، مع قوة مسلحة كبيرة، لمنع الملك من الدخول، وأسر عدداً من أتباعه كانت سفينتهم قد جنحت، وسلبهم، وألقاهم في السجن ليموتوا جوعاً، وقام الملك الانكليزي، وهو يتحرق غضباً، بمهاجمة عدوه، وهزمه على الفور، وأخذه أسيراً واحتفظ به، وأخضع ابنته الوحيدة مع الجزيرة كلها وكل الأماكن الحصينة، وعمل اسحق اتفاقاً مع الملك في أن لا يبقيه بأغلال من حديد، ووفى الملك بوعده، وغلّه بأغلال من فضة، وأمر بوضعه في قلعة قريبة من طرابلس اسمها المرقب، لكنه احتفظ بابنته مكرمة مع الملكتين تحت الحراسة في بيته الخاص به، وفي سبيل انعاش نفسه وأتباعه

بعد رحلتهم المتعبة، ومن أجل الحصول على المزيد من المؤن الطازجة قرر الملك رتشارد التوقف في هذه الجزيرة، من دون إلحاق الضرر بأي انسان، لكن اسحق المتقدم ذكره منعه من محاولة الدخول إلى أراضيه، لابل أكثر من هذا منع كل واحد من رعيته بيع أية مؤن إلى جيش الملك الانكليزي، أو عرض أية أدوات وأشياء أمامهم لبيعها، وبهذه الوسائل أغضب الملك وأثاره، وأرغمه على انزال ماكان قد أنزله به من أضرار ذكرناها من قبل، وعندما تمكن الملك أخيراً من الحصول على أموال الجزيرة، وأعاد ترتيب الأمور بها بما يرضيه، تزوج من بيرنغاريا ابنة ملكة نافار، وهي نفسها التي كانت الملكة إليانور قد أحضرتها له عندما كان مقيماً في صقلية.

وفي اليوم الرابع من اسبوع الفصح لهذا العام كرس البابا سيليستين هنري ابن الامبراطور فردريك امبراطوراً، وفي هذا العام أيضاً مات فيليب كونت أوف فلاندرز، الذي أبحر نحو الأرض المقدسة مع الملك الفرنسي، من دون أن يخلف أولاداً.

كيف جرى سجن غيوفري رئيس أساقفة يورك في دوفر

وحدث في هذه الآونة أن جرت سيامة غيوفري المنتخب ليورك، أسقفاً، من قبل بارثوليميو رئيس أساقفة تور، وجاء ذلك بناء على أوامر الحبر الأعظم، وانطلق غيوفري بعد سيامته يريد انكلترا، ووصل مع أتباعه إلى دوفر، وكان متى دي كلير Clere عمدة تلك الكونتيةقد تلقى قبل وقت قصير رسالة من وليم أسقف إيلاي جاء فيها مايلي:« نحن نأمرك إنه إذا ماوصل الأسقف المنتخب ليورك إلى أي ميناء، واقع تحت سلطتك، أو أي رسول من قبله، أن تتولى اعتقاله حتى تتلقى أوامر منا تتعلق به، ومثل هذا نأمرك أن تتولى احتجاز جميع رسائل مولانا البابا، أو رسائل أي رجل عظيم، يمكن أن تصل إلى هذه المناطق»، وبناء عليه عندما عرف متى بوصول رئيس الأساقفة، قام بناء

على نصيحة أخت أسقف إيلاي، التي كانت وقتذاك مسؤولة عن القلعة، بتنفيذ تعليماته من دون إبطاء، فحاصره لمدة ستة أيام ومعه عصابة من الرجال المسلحين، في مقر رئاسة رهبان القديس مارتن، وأنزله إلى ضائقة شديدة، ذلك أنه في تلك الأثناء حصل على المؤن بصعوبة بالغة، وكان ذلك عن طريق الصدقات التي كان من الممكن وصولها له، هذا وازدادت خيانة الساخطين يومياً، ووصل إلى الكنيسة المذكورة أعلاه مجموعة من جنود أسقف إيلاي مع العصي، واندفعوا وهم مسلحين إلى حضرة رئيس الأساقفة، وأمروه بصلف وبشكل حاسم بمغادرة المملكة من دون تأخير، وبالإبحار إلى فلاندرز، وقد رفض إطاعة هذه الأوامر، ووقف ورداؤه فوق كتفيه والصليب بيديه، فسحب بالقوة من أمام المذبح، وجر من قدميه، ومن ذراعيه، ومن رجليه، ورأسه يلتطم بالأرض، وأخذ مع كهنته، ورجال الدين الذين جاءوا لرؤيته من مناطق كثيرة، وحملوه إلى القلعة، وألقوه بالزنزانة، حيث بقي سجيناً مضيقاً عليه لمدة ثمانية أيام، ووصلت أخبار هذه المعاملة إلى أسقف لندن، فذهب هذا الأسقف على الفور إلى المستشار، وبعد كثير من المصاعب، وبعد معالجات طويلة، حصل على اطلاق سراح رئيس الأساقفة، لكن بعدما أعطى أسقفيته كلها ضمانة له، وبناء عليه أطلق سراح رئيس الأساقفة، وخرج من السجن، وقدم إلى لندن، حيث استقبل من قبل الأسقف، والكهنة والشعب بكل تشريف، وبمسيرة مهيبة، ويعزى إلى هذا العمل الطائش— كما ستظهر أحداث التاريخ المقبلة فيما بعد— كثيراً جداً مما حل فيما بعد من إهانات بالمستشار.

كسوف متميز للشمس

في شهر حزيران من العام نفسه، ظهر يوم الأحد، عشية عيد القديس يوحنا المعمدان، في حوالي الساعة السادسة من النهار، كسوف للشمس،

استمر حتى الساعة الثامنة، وكان القمر وقتها في السابع والعشرين، وكانت الشمس في برج السرطان.

كيف استولى الملك رتشارد على مركب شحن كبير

وفي الحادي والعشرين من آذار، من هذا العام، وصل فيليب ملك فرنسا إلى عكا[كذا: علماً بأنه غادر مسينا في التاسع والعشرين من آذار]، ونزل الملك رتشارد الذي لحق به، في قبرص، مع كميات واسعة من المؤن، وسمع بأن جيش الملك الفرنسي كان يعاني في عكا من الجوع وندرة الحاجيات إلى حد أن سعر الربع من القمح صار يكلف ستين ماركاً، ولذلك بادر بالاسراع للتفريج عن هذه الضائقة والآلام بسفنه المحملة بكميات كبيرة من القمح، وعندما كان مبحراً نحو عكا في ريح طيبة—وعكا هي المدينة التي كانت تعرف من قبل باسم بطوليس— رأى في الأفق، في السادس من حزيران، سفينة كبيرة اسمها درمونه Dromund، كانت مرسلة وهي محملة بكمية كبيرة من المال، من مدينة بيروت من قبل سيف الدين أخو صلاح الدين، الذي كان آنذاك سلطان مصر، وكانت مكلفة بحمل المساعدات إلى المسلمين المحاصرين في عكا، وكان مع المسلمين على ظهر هذا المركب النفوط، وكثيراً من الجرار المليئة بأفاعي سامة، وطاقم بحارة مؤلف من ألف وخمسمائة مقاتل، وذلك بالاضافة إلى ألف وخمسمائة من الرجال الأشداء، الذين بهم تقوت السفينة واندعمت، وأمر الملك رتشارد رجاله بالاستعداد على الفور للعمل، وصفت الغلايين إلى جانب بعضها بعضاً، ثم نشبت معركة قاسية بين الطرفين، لكن السفينة المعادية أصبحت يائسة بسبب توقف الرياح، وبعد بعض الوقت اقترب واحد من عمال التجذيف لدى الملك، وكان غواصاً بارعاً، من سفينة المسلمين من تحت الماء، وفتح فيها ثغرة، وبعد مافعل ذلك عاد تحت حماية المسيح، إلى سفينته، وأخبر الملك بالذي فعله، ودخل الماء في وقت قصير إلى السفينة،

ووصل سطحها، وعلى الفور فقد جميع البحارة الأمل بالنجاة، بعدما كانوا واثقين من سفينتهم، وجرى اغراق ألف وثلاثمائة من هؤلاء بناء على أوامر الملك رتشارد، أما المائتين الذين بقيوا فاحتفظ بهم رهائن.

وصول الملك رتشارد إلى عكا والاستيلاء على تلك المدينة

وبعدما جمع الملك رتشارد جميع أسلاب السفينة المسلمة، وصل إلى ميناء عكا، الذي اتجه نحوه مع ريح موائمة، وفي الثامن من حزيران دخل الملك إلى الميناء، وزعقت أصوات الأبواق والنفر، وملأت أصوات القرون الهواء قرب الشاطىء، وأعيد التصويت بها حتى تملأ المنطقة الداخلية إلى مسافة بعيدة، وشجعت هذه الأصوات الصليبيين على القتال، لكنها قذفت بالرعب في قلوب المسلمين المحاصرين، لأنها أعلنت عن وصول مقدم كبير، وعبر الملك رتشارد عن مشاعره الطيبة وأظهرها نحو الجميع بتزويد الجيش الجائع بالأطعمة، ثم أعدّ الملكان على الفور، يعاونهما حشد من الفرسان والجنود المجانيق والآلات الأخرى ونشروها حول المدينة، وتمكنوا بوساطة وزن مقذوفاتهم، ومتابعة الرماية من المجانيق نهاراً وليلاً، من دك أسوار المدينة، ولذلك أصيب المسلمون بالرعب، وفقدوا كل ثقة بقدرتهم على المقاومة، وأخيراً عقدوا اجتماعا، وباشروا التباحث من أجل السلام، وكانت شروط الاتفاق، أن يعيد صلاح الدين الصليب الحقيقي، مقابل اطلاق سراح حامية المدينة، وكان هذا الصليب هو الذي استولى عليه أثناء القتال، وكان على صلاح الدين أيضاً اطلاق سراح ألف وخمسمائة من الأسرى الصليبيين، يجري اختيارهم من قبلهم، وبالإضافة إلى الاتفاق المتقدم ذكره كان عليه أن يدفع سبعة آلاف دينار، وبموجب ذلك جرى تسليم المدينة، بما كان فيها من سلاح وعتاد وكل شيء، باستثناء أشخاص المسلمين، إلى الملكين في الثاني عشر من تموز، وعندما حل موعد الدفع، لم يف صلاح الدين بما وافق عليه، وعقوبة على هذا الخرق الكبير،

وبسببه جرى اعدام ألفين وستمائة من المستسلمين، والذي احتفظ به كان عدداً صغيراً من الأعيان، حيث وضعوا في السجن، تحت تصرف الملكين.

كيف عاد الملك الفرنسي إلى بلاده بسبب الحسد

وبعد اخضاع المدينة أعدّ الملك الفرنسي نفسه للعودة إلى وطنه، وكأن الحرب قد انتهت تماماً، ذلك أنه كان غاضباً إلى أبعد الحدود، لأن الفضل بنجاحات الجيش الصليبي قد عزيت كلها إلى الملك رتشارد، وبناء عليه تذرع بالحاجة إلى المال، واتخذ الفقر عذراً فقال بأنه لايستطيع الإقامة مدة أطول، لكن الملك رتشارد، الذي كان يتحرق رغبة لرفع شأن قضية الصليبيين، عندما سمع بهذا، وعد بأنه على استعداد لتزويد الملك الفرنسي بشطر جميع ماملكه من مال، ومؤن، وخيول وسلاح، وسفن، من أجل أن يبذلا الجهد متحدين في سبيل اخراج أعداء المسيح من الأرض المقدسة، ولكن الملك الفرنسي قابل هذا كله بأنه قد أقسم على العودة، وبتصميم بات أعد نفسه للعودة، ولم يعبأ برفع أتباعه أصواتهم احتجاجاً على ذلك، واستثير الجيش كله وعبر عن انفعاله الكبير، ولذلك انطلق عائداً إلى بلاده مع فئة صغيرة برفقته، علاوة على ذلك نشب بين الملكين، عدم اتفاق بشكل سري، ولذلك اقترح ملك فرنسا تسليم مدينة عكا، وجميع المدن الأخرى، والقلاع والمناطق التي سوف يستولون عليها إلى مركيز مونتفرات، وأن يجري تعيينه ملكاً على الأرض المقدسة، ولهذه الغاية تزوج هذا المركيز نفسه من ابنة الملك عموري، وأخت ملكة القدس التي توفيت مؤخراً، وكان الملك رتشارد معارضاً بشكل كلي لهذه الرغبة، وبرهن بشكل واضح، أن الذي عليهم فعله والذي هو الأصح هو إعادة الملك غي إلى مملكته، التي حرم منها منذ وقت قصير، بدلاً من تعيين واحد جديد، وهو مايزال بين الأحياء، ولاسيما أنه كان من الواضح أنه فقد سيادته ليس بسبب تقاعسه بل

بسبب اقدامه وشجاعته في حرب حادة، وقع فيها بالأسر مثلما وقع الصليب بأسر المسلمين، وكان سبب ذلك تفوق عدد أعدائه، وضعف جيشه، ولقد كان هذا هو السبب الأساسي للخلاف بين الملكين المتقدمي الذكر، مع أن الخلاف قد تفجر بينهما في المقام الأول— وإن ظل مخفياً— في مسينا في صقلية، عندما استحوذ الملك رتشارد على المدينة بالقوة المسلحة، ودمر كثيراً من أتباع الملك الفرنسي، بسبب قسوة الجيش الفرنسي وفظاظته وسوء معاملته للانكليز، يضاف إلى هذا أن الملك الفرنسي رأى أن الناس من مختلف البلدان، الذين تدفقوا على الأرض المقدسة، قد وضعوا أنفسهم تحت قيادة الملك رتشارد، وأن شهرة رجولة هذا الملك ومقدرته قد إزدادت يوميا، وذلك بسبب أنه كان أفضل تزويداً بالمال، وأعظم كرماً في منح الأعطيات، ثم إنه امتلك جيشاً أكبر، وكان أشجع في قتاله لأعدائه، ولقد اعتقد الملك الفرنسي بأن شهرته قد خبت وكذلك مقدرته تجاه ماتمتع به الآخر، ولذلك تعجل العودة، وبالاضافة إلى هذا كله، لقد رغب في أن يستحوذ لنفسه أراضي كونت فلاندرز الذي مات مؤخراً، وبناء عليه قام— بعدما أقسم أنه لن يغزو أراضي الملك الانكليزي، أو أراضي القادة الذين بقيوا معه— بالمغادرة، وتدبر الملك رتشارد بعد هذا ترميم الثلم في أسوار عكا، وتنظيف خنادقها، وشحنها بقوة من الرجال المسلحين.

نجاحات الملك رتشارد وتقدمه

بعد هذه الحوادث، وفي عشية يوم عيد صعود مريم المباركة، أخذ الملك رتشارد مع أتباعه المجربين الطريق خروجاً من أبواب عكا، وانطلق بجرأة زاحفاً ليحاصر، ومن ثم ليستولي على مدن ساحل البحر، وأمر بنصب معسكره على مقربة ومشهد من جيش صلاح الدين، وذلك في المكان الذي أعدم فيه الألفين والستمائة من المسلمين، كما تحدثنا من قبل، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى المسلمين الذين احتلوا

المدن الساحلية، خافوا من أن يقوم الملك أثناء غضبه بإنزال عقوبة مماثلة بهم، أي مثل العقوبة التي أوقعها بعكا، ولم تتوفر لديهم ثقة بمساعدة صلاح الدين لهم، بما أنه رفض أن يدفع فدية الآخرين التي طلبت منه، ولذلك أفرغوا مدنهم وهربوا على الفور لدى سماعهم باقتراب الملك، وكانت هذه هي الحالة مع سكان: حيفا، وقيسارية، وأرسوف ويافا، وغزة، وعسقلان، وهكذا— بإرادة من الرب— سقطت جميع المناطق البحرية في ذلك الشطر من البلاد في أيدي الصليبيين، وهذا على كل حال لم يكن من دون بعض القتال الحاد، لأن جيش صلاح الدين تبع من الخلف، أجنحة الجيش الصليبي، وأوقع ضربات قاسية بالأطراف، ونجم عن ذلك مذابح كبيرة من على الطرفين، وعانى منها الجيشين معا، وبعدما قام الملك رتشارد بتحصين المدن المتقدم ذكرها، عاد منتصراً إلى عكا،[وعاد بعد أيام إلى يافا التي هي غير بعيدة عن قيسارية، حيث أنزل بصلاح الدين هزيمة مهينة، وبعد ذلك منح مملكة القدس إلى هنري ابن أخته، مع أرملة مركيز مونتفرات كزوجة له، وأنقذ في الوقت نفسه آثار عدد كبير من القديسين كان صلاح الدين قد استولى عليها، ودفع مقابل ذلك مبلغاً كبيراً من المال].

وهذه الرواية التي قدمناها، نستطيع أن نفهمها أكثر بتقديم نص رسالة كان رتشارد قد بعث بها إلى وولتر رئيس أساقفة روان حول هذا الموضوع نفسه:« من رتشارد، بنعمة الرب، ملك انكلترا، الخ— اعرف بأن مولانا ملك فرنسا قد عاد إلى الوطن، وبعد ذلك تولينا ترميم الأماكن المهدمة والثلم في أسوار مدينة عكا، ثم قمنا بعد هذا في سبيل رفع شأن القضية الصليبية، ومن أجل الوفاء بأهداف نذرنا، فزحفنا إلى يافا، بصحبة دوق بيرغندي مع أتباعه الفرنسيين، والكونت هنري وعساكره، وعدد كبير آخر من الكونتات والبارونات، هذا وتوجد منطقة شاسعة بين عكا ويافا، والطريق إلى هناك طويل، وبعد زحف

مـديد، مع كثير من التعرق والتعب، وصلنا إلى قيسـارية، وفقد صـلاح الدين أيضاً بعضـاً من أتباعه أثناء الزحف نفسه، وبعـدما استراح جيش الرب لبعض الـوقت في يافـا، استـأنفنا مجدداً زحفنا الموفق، وعنـدمـا تقدمت طلائع قواتنا وكانت تنصب المعسكر قرب أرسوف، قام صلاح الدين مع حشد كبير من المسلمين بـالهجوم على ساقـة قواتنا، إنما بفضل الرب أرغم على الفرار، وقد طارده جندنا لمسافة مرحلة، وأوقعوا مقتله كبيرة في ذلك اليـوم بين أعيـان المسلمين، وكـان اليـوم هو عشيـة عيـد القديسة مريم، وهناك في أرسوف عـانى صلاح الدين في يوم واحد مالم يعـاني من مثله خـلال أربعين سنة مضت، ووصلنـا بعـد هذا بعناية من الرب وإرشاد إلى يافا، وقويناها مع خنادقها وأسوارها، ذلك أن هدفنا، هو أننا إلى حيث نستطيع الـوصـول، العمل على رفعـة الشأن الصليبي، بقـدرما نمتلك من قـوة، وفي الحقيقـة، لم يتجرأ صـلاح الدين، منذ يوم الهزيمـة المتقـدم ذكـره أعـلاه، على الاقتراب من الصليبيين والاشتبـاك معهم، لكنه نصب بشكل سري كمائن لتدمير أصـدقاء الصليب، مثله في ذلك مثل أسد في عـرينه ينتظر الشاة المقـدر لها الذبح، وكان— على كل حـال— لدى سماعه بأننـا كنا زاحفين بسرعة نحـو عسقـلان، قد قـام بتـدميرها وتسويتهـا بالأرض، والآن بما أنه لم تعد لديه خطة، ولاقـدرة على التحـرك والتحرير، ترك سـورية كلهـا إلى قدرها، وهذا مـاشجعنا، وجعلنا نمتلك آمالاً جيـدة في أن نتمكن خلال وقت قصير من استرداد جميع ميراث ربنا— وداعاً ثم وداعاً».

كيف أعطى الملك رتشارد مملكة القدس إلى ابن أخته هنري

ولدى عـودة الملك رتشـارد إلى عكا، كما ذكـرنـا من قبل، أعطى ابن أختـه هنري، مملكة القدس، مع زوجـة مـركيز مـونتفرات، لأنها كـانت وريثة المملكة، بعد وفاة أختهـا ملكة القدس، ووافق على هذه الترتيبات برضـا غي أوف لوزغنان، الـذي كـان الملك المتقـدم لتلك المملكة، وفي

سبيل ضمان السلام تسلم هو جزيرة قبرص، التي كان انتزعها في الحرب الأخيرة الملك الانكليزي من ملك تلك الجزيرة، وقدم غي الولاء إلى الملك الانكليزي من أجلها، وكان المركيز قد قتل مؤخراً في صور من قبل الحشيشية المسلمين، وبوفاته قيل بأن مملكة القدس صارت بموجب حق الوراثة لزوجته.

كيف أنقذ الملك رتشارد جميع الآثار المقدسة للأرض المقدسة

كان صلاح الدين قبل مضي بعض الوقت قد أسر غي ملك القدس، واستولى على صليب ربنا، وإثر ذلك مباشرة ألقى الحصار على القدس، وكان السكان الذين بقيوا في المدينة، محبطين بما نزل بهم، ويائسين من القدرة على مقاومة صلاح الدين، لذلك قاموا على الفور بتسليم المدينة له، وهو لم يسمح لأحد منهم بالمغادرة، مالم يدفع عشرة دنانير فدية عن كل انسان، وتمكن الأغنياء على الفور من دفع الفدية عن أنفسهم، لكن سبعة آلاف رجل وجدوا في المدينة، كانوا لايمتلكون وسائل الدفع، وقام بقية سكان المدينة بالعطف عليهم وتأسفوا لسوء حظهم، واتفقوا بالاجماع على أخذ الصلبان الذهب والفضة والكؤوس، والتمائم، وجردوا ضريح ربنا من زينته، وأخذوا الحلي الأخرى التي وجدوها في الكنائس، وأنقذوا بذلك فقراء أبناء المدينة، وجمعوا أيضاً جميع آثار القديسين التي وجدوها في المزارات، ووضعوها في أربعة صناديق كبيرة من العاج، ولدى استسلام المدينة لصلاح الدين، كان من بين الأشياء التي رآها بعدما استولى عليها هذه الصناديق، وقد سأل باهتمام عما كانت تحتويه، ثم أمر بإرسالهم إلى بغداد، وأن تعطى الصناديق إلى الخليفة، حتى لايتمكن الصليبيون من متابعة الاعتزاز بعظام أناس أموات، وأن يتوقفوا عن الاعتقاد، بأن أصحاب العظام التي يعبدونها على الأرض سوف يشفعون لهم في السماء، لكن مقدم أنطاكية والبطريرك مع مؤمنين آخرين، كرهوا تماماً تشويه مثل هذه الذخائر

الثمينة، وفقدانها، فوعدوا، وأقسموا أنهم سوف يدفعون اثنين وخمسين ألف دينار، لانقاذ هذه الآثار نفسها، وأنهم إذا عجزوا عن دفع المبلغ المذكور، في موعد جرى الاتفاق عليه، سوف يتخلون عن الآثار المذكورة له ويعيدونها إليه، وأخذ مقدم أنطاكية الآثار وهي مختومة، وشعر الآن جميع أتباع المسيحية بحزن قاهر شديد، وباتوا خائفين، لأن موعد الدفع المثبت من قبل صلاح الدين قد اقترب حلوله، وبات على المقدم المتقدم ذكره الذي أخذ الآثار معه أن يعيدها مختومة كما تسلمها، إلى صلاح الدين، هذا وسمع رتشارد الملك الانكليزي بهذا، وكان آنذاك بالفوله، وعلم بأن جميع الأشياء قد رتبت بشكل صحيح، فأمر على الفور بدفع المبلغ المتفق عليه إلى صلاح الدين مقابل الآثار المقدسة، وحافظ بتقوى على تعهدات القديسين بأن الذين ينقذون عظام رجال الرب هؤلاء من الأيدي غير التقية على الأرض، سوف ينالون الشفاعة لعون أرواحهم في السماء، وكان كل صندوق كبير الحجم كثيراً وثقيلا جداً، إلى حد أنه تعذر على أربعة رجال حمله لأي مدة من الزمن.

اكتشاف آرثر الملك الأعظم شهرة في بريطانيا

وفي هذا العام نفسه، تمّ العثور على عظام آرثر، الملك المشهور لبريطانيا، وقد عثر عليها مدفونة في غلاستونبري في ناووس قديم جداً، قام إلى جانبه هرمين، وعليهما كان محفوراً كلمات، لكنها كانت غير مفهومة بسبب خشونتها، وانعدام شكلها، وكانت مناسبة العثور عليها كما يلي: كان بعض الناس يحفرون في المكان نفسه قبراً، لراهب تمنى أثناء حياته بشغف في أن يدفن هناك، فوجدوا نوعاً من أنواع النواويس، عليه موضوع صليب رصاصي، مع هذه الكلمات محفورة عليه:« هنا يرقد آرثر المشهور، ملك بريطانيا، وقد دفن في جزيرة أفالون Avalon، وكان المكان محاطاً من جميع جوانبه بسبخ، وكان يعرف من قبل باسم«

جـزيرة أفـالـون»، أي جـزيرة التفـاح، وفي هـذا الـعـام جـرى تكـريـس روبـرت، الـذي كـان راهـبـاً نظاميـا في كنـيسـة لنكـولـن، وكـان ابنا لوليـم مفـوض الجيش في نورماندي وتمّ تكريسه في كـانـتربـري أسقفـاً لوينكسـتر، مـن قبل وليم، نائـب الكرسي الرسولي.

كيف أخذ الملك رتشارد تتولاه الشكوك تجاه المستشار

وأخـذت في هـذه الآونـة تتوارد الشكـاوى الجـادة يومـاً تلو آخـر إلى الملك حـول عجـرفـة مستشـاره، وعن الأذى الذي ألحقـه بكثيرين، ولهذا كتب إلى نبـلاء انكلترا بما يلي:« نحـن رتشـارد ملك انكلترا، إلى مـارشـالنا وليم، وإلى غ. فتـز— بطرس، وهـ. باردولف Bardolph، وو. بروير W.Bruyere، الخ، إذا صـدف، ولم يقم مستشـارنا الذي عـهدنا إليـه بـإدارة أمـور مملكتنـا، بالتصرف بإخـلاص في تنفيـذ واجباته، نأمـركم باتخاذ الاجراءات من أجل إداره شـؤون المملكة وفقاً لإخـلاصكم واستقـامتكـم، وذلك فيما يتعلق بمـواريث الـدولة والحصـون»، وقـدم في هذه الآونـة إلى انكلترا، وليم رئيس أسـاقفـة روان، حـامـلاً رسـائل من الملـك بهذا الخصـوص جـاء فيهـا:« نحن رتشـارد، بنعمـة الـرب، ملك انكلـترا، إلى وليم المارشـال، والآخـرين من نظرائـه، تحيات— اعـرفـوا أننا رأينا من المناسب، أن نرسل إليكم، من أجل الدفـاع عن مملكتنا وترتيب شؤونها، الأب المحبـوب من قبلنا، وليـم رئـيس أساقـفة روان، الذي استـدعي من حجه وعاد بمـوافقة من الحبر الأعظم، وبنـاء علـيه نحن نأمـركم، ونفـرض عليكم بدقـة، أن تقـومـوا أثنـاء إدارة شـؤوننـا، أن تأمـروا بكـل شـيء وفقـاً لنصيحـته، وإن إرادتـنا تقـضي، أنـنا مـادمـنا في حجنا، أن تتبـادلوا الآراء مع بعضـكم، في ترتيـب جميع الأمـور— هـو معكم، وأنتم معه».

إهانة المستشار وسقوطه

في هذا العام نفسه، وفي يوم السبت التالي لعيد القديس ميكائيل، وبناء على طلب من الإيرل جون، أخو ملك انكلترا، اجتمع النبلاء الانكليز قرب جسر لندن فيما بين ردنغ ووندسور، لعقد مؤتمر حول المسائل الهامة بالنسبة للملك وللملكة، وفي اليوم التالي للمؤتمر، قام رئيس أساقفة روان، وكذلك رئيس أساقفة يورك، وجميع الأساقفة الذين اجتمعوا في ردنغ، ليكونوا حضوراً في المؤتمر، قاموا بشكل مهيب، ومع شموع مشتعلة، بانزال عقوبة الحرمان الكنسي بجميع الذين أشاروا، أو ساعدوا، أو أمروا بالإبعاد عن الكنيسة، وبالمعاملة السيئة والسجن لرئيس أساقفة يورك، وذكروا بشكل خاص اسم ألبرت دي مارلين، والاسكندر بونتيل Puintil، وفي يوم الاثنين التالي، عرف الايرل المتقدم ذكره، بأن المستشار يخشى من هجوم منه عليه، فاقترح عليه، ليزيل من نفسه جميع الشكوك، القدوم إلى مؤتمر في مكان قرب قلعة وندسور، وذلك بناء على طلب المستشار، وأعطاه ضمانة على سلامته من قبل أسقف لندن، وعلى كل حال لم يقتنع المستشار بهذه الضمانة، فهرب على الفور، والتجأ إلى برج لندن، ولدى معرفة الايرل بفرار المستشار، جاء شخصياً إلى لندن، وعندما كان على وشك الدخول إلى المدينة، قابلته مجموعة من فرسان المستشار، بسيوف مجردة، وقام هؤلاء الفرسان بهجوم عليه وعلى أتباعه، وقتلوا واحداً من النبلاء اسمه روجر دي بلين Planes ، وفي اليوم التالي الذي كان يوم الثلاثاء، اجتمع الايرل جون مع رئيسي الأساقفة، والأساقفة، والفرسان، والبارونات، في بيت هيئة كهنة كنيسة القديس بولص، وكان ذلك بحضور المستشار، وبعد نقاش طويل، أقسموا على الولاء للملك رتشارد، وكان الإيرل جون أول من أدى اليمين، وتبعه رئيسا الأساقفة، وجميع الأساقفة، والفرسان والبارونات، الذين كانوا في الاجتماع، وفي

يوم الخميس التـالي لهذا الاجتماع، جـرى عقـد مـؤتمر آخـر، في الجزء الشرقي من برج لندن، حضره النبلاء الذين تقـدم ذكـرهم، وفيه تقـرر بشكل حاسم بالاجماع، وجوب عدم وضع مملكة انكلترا مرة ثانية تحت حكم رجل واحـد، سببت إدارته انحطاط الكنيسـة، وإنزال الناس إلى درجـة الحاجة والعـوز، لأن المستشار المذكـور وأعوانه قـد أنهكوا جميع ثروات المملكة، إلى حد أنهم لم يتركوا لانسان حزامه الفضي، ولا لامرأة طوقهـا، ولالنبيل خاتماً، أو مـالاً، أو أي شيء له قيمـة عند يهودي، كما أنهم أفرغـوا خزائنهـا، إلى حد أنه بعـد مرور عامين، مـامن شيء يمكن العثور عليـه في صناديقهـا، غير المفاتيح وأواني فـارغة، وتقـرر أيضاً أن جميع الحصـون التي قـرر المستشـار اسنادها إلى اتبـاعـه، يتـوجب عليـه التخلي عنها وإعادتها، وفي المقـام الأول برج لندن، ولقد أقسم المستشار على التقيد بهذه القـرارات، وتطبيقاً لهذا قـام يوم الثلاثاء التـالي بمغادرة البرج مـع آلـه وحـاشيتـه، وعبـر نهـر التيمـز إلـى بيـرمـوندسـي Bermondsey، تاركاً أخـويه: هنري، وأوسبرت Osbert ، بمثابة ضمانة لإعـادة القلاع، لأنه أقسم على أنه لن يغـادر المملكة، حتى يكون قـد تم التخلي عـن القـلاع وتسليمهـا، ثم إنه ذهب مـن هناك إلى كـانتربري، وحمل صليب الحج المقـدس، متخليـاً عن وظيفـة النائب البابوي، التي شغلهـا لمدة سنة ونصف السنة، بعد مـوت البابا كليمنت، من أجل الإضرار بالكنيسـة الرومـانيـة، وكذلك بالكنيسـة الانكليـزية، وبعـد فعله هذا ذهب إلى دوفر برفقـة غيلبرت أسقف روكستر، وهنري دي كورنهل Cornhill ، وعمدة كنت، وظن أن بإمكانه اغلاق أعين البحـارة هناك، فـاقترح نوعـاً جـديـداً من الخداع، فقـد غير الرجل إلى امرأة، مثلما غيّر رداء الكاهن واستبدله بثـوب عاهرة، حيث ألبس نفسه ثـوب امـرأة لونه أخضر، مع رداء من اللون نفسـه ووضع قبعـة على رأسه، وذهب نحو الشاطىء يحمل بعـض الأقمشة الكتانية كأنها للبيع، وعندمـا كـان الكاهن جـالسـاً على هذه الصـورة على صخـرة قـرب

الشـاطىء، منتظراً ريحاً طيبة، كـان هناك ملاح أراد أن يمـزح مع المرأة، فاندهش لرؤيتـه سراويل على امـرأة، فـصرخ على الفور بصـوت مرتفع قـائـلاً:« تعـالوا إلى هنا، جميعكـم، تعـالـوا إلى هنا وشـاهـدوا رجـلاً بثيـاب امـرأة»، وتجمـع عـدد من النسـاء من أهـل البطالة، وسألن بإلحاح عن سعر القماش الذي حمله للبيع، فلم يجبهن، وكأنه كان لايفهم اللغـة الانكليـزية، وبناء عليـه تشـاورن فيما بينهن، وتوجسن أن يكون محتـالاً، لذلك وضعـن أيديهن على حجـابه الذي غطى فمـه، وجـذبنه ونزعنه من على أنفـه وسحبنه نحو الخلف، فـاكتشفـن ملامـح رجل، داكن، وقـد حلق مـؤخـراً، فصرخن على الفـور إلى بعضهـن بعضـاً قـائـلات:« أقـدمن، ودعـونا نرجـم هذا الوحش الذي أسـاء إلى كـلا الجنسين»، واحتشد هناك وتجمع حشد من النسـاء والرجـال، فانتـزعـوا قبعته من على رأسـه، وبطحوه أرضـاً وسحلوه بشكل مهين وجروه من أكمامه ومن ردائـه، فـوق الرمـال والحجـارة، مسببـين الجراحة الكثيرة لهذا الأسقف، وبعـد أمـد جـاء أتباعـه لتخليصـه، لكن من دون نجاح، لأن النـاس لحقـوه برغبة جامحة، وشتمـوه، وهاجموه بالضربات، وبصقـوا عليه، وبعـدما سحلـوه في الشوارع، ألقـوه في الزنزانة سجيناً، وبذلك بات هدفـاً لسخرية الناس، وكان من المتمنى أنـه لو أهان نفسه فقط، ولم يهن الكهنوت كلـه، وهذا الذي تولى سحل رئيـس أسـاقفـة يورك وأودعـه السجن، هو الآن قد جـرى سحله وايداعـه في السجن، وصار المعتقل الآن معتقلاً، والمقيـد الآن مقيداً، والسجان سجيناً، وبناء عليـه يمكن عدّ درجـة العقوبة التي نـالها متساوقـة مع درجة عـدوانه، وأخيرا، لم يعط تقدير للرهائن التي أودعهـا، وأقسم أنه لن يغادر مملكة انكلترا قبل أن يجري تسليـم القـلاع، ولدى الفـراغ مـن ذلك، عبر المستشـار المذكور البحـر إلى نورماندي في التـاسع والعشرين من تشرين الأول.

حادثة لم يسمع بمثلها

وفي هذا العـام نفسه، كـان شاب من حـاشية أسقف لندن، قـد علّم صقـراً على اصطيـاد البط النهـري الصغير فقط، وكـان البط يطير فجأة ويهرب لدى سماع أصوات نقرات أداة اسمها الطبلة، كان يضرب عليها الذين سكنوا على شـاطىء النهر، ولدى طيران البطات اعترض الصقـر غنيمتـه، ثم اندفع نحـو سمكة كراكي كـانت تسبح في الماء، وأمسكهـا، وحملها بشكل مرئي لمسافة أربعين قدما فوق اليابسة، واندهش الأسقف تجاه هذا الحادث الفريـد، وأرسل الصقر والسمكة، كمـؤشر غريب على مستقبل الأيام، إلى الايرل جـون، وكـان ذلك في الثـاني والعشرين من تشرين الأول.

موت رينالد رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري

عـام ١١٩٢م، فيـه مـات رينالد أسقف باث، الذي انتخب لرئـاسـة الأساقفة من قبل رهبـان كانتربري، وكان موته في يوم عيـد الميلاد، بعد تسعـة وعشرين يومـاً من تعيينـه، وقـد دفن في كنيستـه في باث، قـرب المذبح الكبير.

وصول الملك الفرنسي إلى باريس قادماً من حجه

وعاد في هذه الآونة الملك الفرنسي مـن حجه، وقد استقبل في باريس بمسيرة مهيبة، في السابع والعشرين من كانون الأول.

الاستيلاء على الدارون من قبل الملك رتشارد

وبعـد عيـد الفصح من هـذا العـام نفسـه، وصل الملك رتشـارد إلى الدارون، وهي الحصن الأخير للصليبيين مما يلي مصر، وبعـدمـا حـاصر البلدة لخمسـة أيام استولى عليهـا، وترك الحاميـة تغـادر، بعد دفع فـدية كبيرة.

كيف استولى الملك رتشارد على سبعة آلاف جمل محملة بالثروات

وبعد هذا النصر جاء دوق بيرغندي مع العساكر الفرنسية التي كانت لديه، واقتادها بموجب تفويض من الملك الفرنسي، الذي عينه قائداً، ورئيسا أعلى لها، والتحق بالملك رتشارد، وأعطى الملك رتشارد إلى هذا الدوق، أثناء العيد المنصرم مبلغ ثلاثين ألف دينار، على شرط أن يقف إلى جانبه باخلاص في الحرب ضد أعداء المسيح، وفي أثناء مؤتمر بينهما قررا الذهاب إلى القدس من دون توقف، وعندما وصل الملك رتشارد إلى قلعة النطرون، وبيت نوبه قرب عمواس، قدم إليه بعض البدو، وكانوا خاضعين إلى اتفاق مع الملك بأن يجلبوا له الأخبار، فأوصلوا إليه أخباراً بأن جماعة كبيرة من التجار، كانوا على طريقهم من مصر إلى القدس، مع سبعة آلاف جمل محملة بالتجارات من مختلف الأنواع، وأن هذه الجماعة تحت حراسة بعض من أشجع نخبة قوات صلاح الدين، وجيشه، وزحف الملك مع عدد صغير من الجند، لاعتراض هذه الجماعة، وعند الصهريج الأحمر فاجأها كلها، وأخذ الجمال مع أثقالها، ثم قام بسخاء بتوزيع ماناله على جيشه، وعاد بعد ذلك إلى المعسكر الآنف الذكر، وبحكمة شحن كل مدينة وقلعة بالقوات،[وجاء في هذه الآونة دوق النمسا للوفاء بنذره بالحج، بوساطة الخدمة في الجيش الصليبي، ولكي يتعبد في الأماكن التي سار عليها مخلصنا، وعندما تدبر مارشاله مقراً له لسكناه، وقام بالترتيبات اللازمة، جاء مسرعاً فارس نورماندي من حاشية الملك رتشارد، وشرع بحماقة يتبجح، وفق طرائق ذلك الشعب وعاداته، بأنه يمتلك أعظم الحقوق في تلك الأماكن، وأنها قد عينت له بحكم كونه القادم الأول، وثار خصام، ووصلت الضجة إلى مسامع الملك، الذي أظهر نفسه أنه مؤيد للنورماندي، واشتعل غضباً ضد رجال الدوق، ولم يأخذ بما حثّه عليه الرب، بالذهاب ورؤية كيف كانت الأمور تسير، بل أصدر الأوامر بتسرع ومن دون روية

بإنزال علم الدوق، الذي نصب فوق مقراته، وبرميه في الخندق، وبذلك حرم الدوق من مسكنه، فذهب وسط سخرية النورمان وإهاناتهم ليتشكى إلى الملك، لكنه لم يحصل على شيء، سوى السخرية مما زاد من آلامه، وهكذا لدى استخفاف الملك به، توجه وهو يبكي بالدعاء إلى ملك الملوك لأن ينتقم له مما لحقه من أذى، وذلك وفقاً لما كتب:« الانتقام لي، هكذا قال الرب، وأنا الذي أسدد»، وإثر هذا مالبث أن عاد الدوق إلى بلاده وهو مضطرب، وفيما بعد خجل الملك رتشارد من هذه الفعلة خجلاً عظيماً].

حول احدى النساء التي كانت صديقة للصليبيين وبشكل خاص للملك رتشارد

وعاد الملك رتشارد منتصراً مع جميع أسلابه إلى قلعة النطرون، التي تبعد ثلاثة أميال عن القدس، وحث بإلحاح كل واحد من المقدمين على الزحف، وإلقاء الحصار على القدس، طالما أنهم يمتلكون تلك الوفرة من كل شيء، أي من العتاد والمؤن، والدواب للحمولة، وذكرهم بالمنافع التي سوف تضفى عليهم في حجهم من قبل الرحمة اللاهوتية، علاوة على ذلك، كان الملك قد تشجع إلى أبعد الدرجات، من قبل امرأة متدينة، وكانت سورية من حيث البلد، وكانت قد سكنت في مدينة القدس، فقد أوصلت هذه المرأة إليه جميع أسرار المدينة، وكيف أن المسلمين كانوا مرعوبين، ومن دون معنويات، بسبب قرب وصوله، وأخبرته أيضاً أن جميع أبواب المدينة كانت مغلقة باستثناء باب اسطفان في الجانب الشمالي من المدينة، وقد نصحته أن يمركز قوات جيشه إلى جانب هذا الباب، كما أرسلت له مفتاحاً يمكن بوساطته فتح الأبواب، وعلى كل حال، إنه بعدما تقرر من قبل الجميع إلقاء الحصار على القدس، تشاور دوق بيرغندي مع الداوية والمقدمين الفرنسيين، فأقنع بنقض قراره، فقد أكدوا أن الدوق مع جميع الفرنسيين سوف يجنون

غضب الملك الفرنسي الأعظم شدة، إذا ماتمكن الملك رتشارد من الاستيلاء على مثل هذه المدينة العظيمة والواسعة الشهرة، وما من شيء من فضل وسمعة ذلك، سوف يعزى إلى الدوق نفسه أو إلى الفرنسيين، مع أنه بمساعدتهم جرى الاستيلاء على مثل هذه المدينة العظيمة.

كيف جرت رشوة دوق بيرغندي من قبل صلاح الدين ومغادرته للأرض المقدسة

وجرى في الوقت نفسه إرسال رسل من قبل الدوق إلى صلاح الدين، لكن لأية غاية، ماضي الأحداث ومستقبلها سوف يري ذلك، ففي إحدى الليالي، عندما كان الملك الانكليزي مقيماً أمام المعسكر المذكور، وكان الدوق مع أتباعه في بيت نوبة، سمع جاسوس تابع للملك رتشارد اسمه جوموس Jumaus ، أصوات جمال ورجال وهم يتحركون نازلين من الجبل، فتبعهم خلسة، فوجد أنهم قوم أرسلهم صلاح الدين إلى معسكر الدوق، مع خمسة جمال محملين بالذهب والفضة والسلع التجارية، وأقمشة حريرية وهدايا أخرى كثيرة، وبادر الجاسوس عائداً بسرعة إلى سيده وأخبره بجميع هذه الأوضاع ثم أخذ بعضاً من خدم الملك، وجلس بشكل حذر على الطريق الذي سوف يعود عليه الرسل، وكمن بانتظارهم، وعندما كانوا عائدين أخذهم أسرى، وجلبهم إلى حضرة الملك، وقام أحدهم بعدما تعرض للتعذيب، بالاعتراف— وهو مكره— بأنه تنقّل فيها بين الدوق وبين صلاح الدين، وفي النهار أمر الملك، بعدما أبعد الرسل عن المشاهدة، بالبعث خلف الدوق، والبطريرك، ورئيس رهبان بيت لحم، وعندما صاروا مع بعضهم في مكان منعزل، أدى على الفور قسماً بحضورهم على الآثار المقدسة، بأنه جاهز مستعد، كما تم الاتفاق بينهم، ثم أكد ذلك باليمين، وقال بأنه هو وجيشه على استعداد للزحف للهجوم على القدس،

ومـدينة باروخ، التي من دون الاستيـلاء عليهـا من غير الممكن تتـويج ملك القـدس، وبعـدمـا أقسم الملك على هذه الصـورة، دعـا الدوق أن يقسم من أجـل الغـرض نفســه، وهذا مــارفض الـدوق أن يفعله، مما أغضب الملك كثيراً، ودعـــاه على الفـور باسم خـائن، ولامــه لتسلمـه مختلف الهدايـا من صـــلاح الديـن، وكـــذلك بشأن الـرسل السريين، والاتصالات التي قـامت بينهما، وأنكر الدوق وبذل جهده للـدفاع عن نفسه ضد هذه الاتهامـات، فأمر الملك بالرسل الذي اعتقلهم الجاسوس فأحضروا، وأباحوا جميع أسرار الاتصـالات، وأمر الملك خـدمه برميهم على مـرأى من الجيش كله، مع أن الجيشين كـانا جـاهلين أسبـاب هذه الوحشية، ولم يعرفوا مـاالذي فعلوه، أو من أين أتوا، أما بالنسبة للدوق فقـد استـولى عليه الخجـل، وغضب لأنه تبرهن أنه خـائن، لذلك بادر بأقصى سرعـة ممكنة بالمغـادرة مع الجيش الفـرنسي، وانطلق نحـو عكا، وكان الملك مدركاً لنواياه وعارفاً بها، فأرسل رسالة إلى قادة تلك المدينة بعدم السماح لأي رجل بالدخول إليها، ولذلك أقاموا معسكرهم خارج المكان.

حول ناسك تنبأ بأن مدينة القدس لن يتم اخضاعها

وفي الليلة التي تلت مغادرة الدوق على هـذه الصورة التي وصفناها، جاء إلى الملك أحد المريدين، وجلب إليـه رسالة من ناسك مقدس، بأن يأتي مسرعاً لرؤيتـه، ونهض الملك على الفور، ومع أن الوقت كـان ليلاً، ذهب نحـو رجل الرب، آخـذاً معـه خمسمائـة من الحرس، ولقـد عـاش رجل الرب هذا منذ وقت طـويل على جبل القـديس صمـوئيل، وكـان محبيا بروح التنبـؤ، فمن يوم الاستيلاء على صليب ربنا، وأخـذ الأماكن المقدسة، هو لم يأكل شيئاً سـوى الأعشاب، ولم يلبس شيئاً يغطيه سوى شعــر لحيتــه الطـويل، وحـــدق الملك لبعـض الوقت بالنـاسك، وهو مندهش، ثم سأله مـاالـذي يريده منه، وفـرح الرجل المقـدس بوصـول

الملك، وأخـذه معـه إلى داخل خلـوته، وأزاح هناك حجـرة من الجدار، وسحب من هناك صليبـاً خشبيـا، وأمسكه بكل خشـوع أمـام الملك، وأوضح بأن هـذا الصليب، مصنوع من دون شك مـن خشبـة صليب ربنا، وبين أشيـاء كثيرة، أخبر الملك، بـأنه لن يتمكن بأيـة طريقـة من الطرق في الوقت الحالي، من الاستيـلاء على تلـك المنطقـة، مع أنه عمل بدأب شديد، ولكي يجعل الملك أكثر استعـداداً لتصديقه، أوضح له بأنه هو نفسـه سوف يغـادر هذه الحيـاة في اليوم السـابع من ذلك التـاريخ، ولكي يتمكن الملك مـن الوقـوف على برهان على صحـة كلماته، أخـذ الناسك معـه إلى المعسكر، وحـدث أنه كما قـال سلفـاً، فمات في اليـوم السابع.

الموت التعيس لدوق بيرغندي

وفي اليـوم التالي لـوقوع هذه الأحـداث، نقل الملك معسكره، وسـار عـائـداً على طريق دوق بيرغندي ونصب معسكره على مقـربة من ذلك المقدم، خارج مدينة عكا، غير أنه ماكاد يرتاح مع جيشه لمدة ثلاثة أيام، حتى وصله انذار على يد بعض الرسل، الذين بعثوا من يافـا مع أخبار، بأن صـلاح الدين، ومعه جيشـه كله قد ألقى الحصـار على تلك المدينة، وقـالوا بأنه لن يلبث أن يستـولي عليها، وأن يقتل الفـرسـان والعساكـر المعسكرين فيهـا، مالم يحمل على الفـور المساعدة إلى المحـاصرين، ولدى تلقي هذه الأخبـار انزعج الجيش الصليبي كله انزعـاجـاً كبيراً وحـزن، وكـان بين الآخـرين الملك رتشـارد في حـالـة قلق عظيم، وبذل جهـده وجهود الآخرين لإعادة دوق بيرغندي الغـاضب لعقد اتفاق وتصالح، ورجاه بالحاح ليقـدم له مساعدته للحيلولة دون وقـوع مثل هذه المأساة الكبيرة، وعلى كل حـال تمنع ذلك المقـدم عن الإصغـاء إلى وسـاطتهم، ولأنه لم يرغب أن ينزعج بمطالبهم، انطلق مع أتباعه نحو مدينة صور، إنما فـور وصـوله إلى هناك حلت به مصيبـة من الرب، وأصبح مجنوناً،

وأنهى حياته بموت تعيس.

كيف أرغم الملك رتشارد صلاح الدين على رفع الحصار عن يافا

بعد وفاة دوق بيرغندي، أقلع الملك رتشارد على ظهر سفن حربية، مع قوة صغيرة، وأسرع نحو يافا لتقديم المساعدة إلى المحاصرين، لكن بسبب عنف الرياح وشدة هيجان البحر دفعت سفنه بشكل معاكس نحو قبرص، ولدى رؤية سكان عكا ذلك خيل إليهم أنه كان عائداً إلى وطنه، لكن الملك شق طريقه على الرغم من شدة الرياح، بوساطة التجذيف القوي، وعند انبلاج الفجر في اليوم الثالث وصلوا إلى يافا، لكن ثلاثة سفن فقط، وحدث في الوقت نفسه أن تمكن صلاح الدين، بعد حملات متوالية، من الاستيلاء على المدينة، وقتل جميع العساكر المعاقين والجرحى، وهم الذين بقيوا هناك بسبب ضعفهم، غير أن خمسة منهم، وكانوا أشجع من البقية، وكان رتشارد قد تركهم مسؤولين عن المدينة، تركوا الآن المدينة، وحملوا أنفسهم إلى القلعة، حيث وجدوا الناس هناك يتناقشون حول تسليم القلعة قبل إرغامهم على فعل ذلك بهجمات الأعداء، وكانوا علي وشك فعل ذلك، لولا أن تمّ توجيههم من قبل البطريرك، الذي مُنح أمانا للتنقل بين الجيشين، ذلك أن جند جيش صلاح الدين، كانوا يريدون الانتقام لموت رفاقهم وأقربائهم، الذين أعدمهم الملك رتشارد بلا رحمة في أماكن كثيرة، وقد أقسموا على قتلهم جميعاً، وذلك دون مراعاة لمنح صلاح الدين لهم ممراً آمنا، وأمانا بالمغادرة، وعلى هذا كانوا في خطر عظيم بمواجهة الموت، وكانوا في ريبة حول مايمكنهم فعله، مقدرين عدد أعدائهم وشدتهم، وكان عدد الموجودين هناك قليلاً، كما أنهم كانوا غير واثقين من قدوم الملك لمساعدتهم، وعندما— على كل حال— علموا بوصول الملك، أصبحوا أكثر جرأة ودافعوا عن أنفسهم بشجاعة، وعلم الملك من القتال الشديد بين كل من من المهاجمين والمحاصرين، بأن قلعة المدينة لم تسقط بعد،

فقفز برشاقة إلى البحر، وهو مسلح، وألقى بنفسه ومعه أتباعه، مثل أسود غاضبة، بين أكثف مكان لعساكر الأعداء، وشرعوا بتقطيعهم واسقاطهم من على اليمين واليسار، ولم يستطع الترك تحمل هذا الهجوم المفاجىء، واعتقدوا بأنه جلب معه جيشاً أكبر عدداً، فتخلوا عن الحصار فوراً، وحثوا الآخرين على الفرار، وأعلنوا عن الوصول غير المتوقع للملك، وكان رعبهم أثناء ذلك الفرار من غير الممكن كبحه، حتى أنهم دخلوا مدينة الرملة، وقاد صلاح الدين فرارهم طوال ذلك الوقت وهو في عربته، وبعدما ألحق الملك رتشارد هذه الهزيمة بالأعداء نصب معسكره خارج المدينة، وذلك للسرور غير المتوقع للمحاصرين.

كيف هزم الملك رتشارد مع قوة صغيرة اثنين وستين ألفاً من المسلمين عند يافا

وبعد يوم فراره، أخبر صلاح الدين، بأن الملك قد جاء مع جيش صغير فقط، وأن الذي لديه ليس أكثر من ثمانين فارساً، إلى جانب أربعمائة من رماة الزنبورك كانوا برفقته، ولدى سماع صلاح الدين بهذا غضب غضباً عظيماً من رجال جيشه، لأنهم كانوا آلافاً مؤلفة، وقد هزموا من قبل مثل هذا العدد الصغير، وبناء عليه، قام لإزعاج جيشه، باستعراضه هناك وتعداده، وأصدر أوامره الامبراطورية، بوجوب عودة اثنين وستين ألفاً منهم فوراً إلى يافا، وأسر الملك نفسه، وجلبه حياً في اليوم التالي إلى حضرته، وكان الملك هنري وجيشه مرتاحين في تلك الليلة بأمان، ولايخشون أي هجوم مفاجىء، وعند انبلاج الفجر جاء الجيش المسلم كله، وطوق بشكل كامل معسكر الملك، بشكل أن رجال الملك لم تعد تتوفر لديهم فرصة بالفرار إلى المدينة، فقد تمركزت قوة كبيرة جداً بينها وبين معسكر الملك، واستيقظ الملك وجميع قواته الصليبية بسبب ضجيجهم وأصواتهم، واعترتهم الدهشة لدى رؤيتهم لأنفسهم وقد جرى تطويقهم من كل جانب من قبل أعداء الصليب.

وأدرك الملك على كل حال مدى الخطر الكبير، فقام على الفور بتسليح نفسه، وركب ظهر حصانه وكأنه يطير بجناحين، وطرح جانبا كل الخوف من الموت، وكأنه قد تشجع بعدد الأعداء، وبث الحماس بصوته بين رجاله للقيام بالمنازله، وقام هو مع أحد عشر فارساً، كانوا وحدهم، من بقية الأعداد قد امتطوا خيولهم، بشق طريق بجرأة بين صفوف الأعداء، فبسيفه المجرد، ورمحه المسدد، وجه ضربات صاعقة، وقرع بسيفه على رؤوس أعدائه المغطاة بالخوذ، فحرر الخيول العربية من أصحابها الذين امتطوا ظهورها، ووزع هذه الخيول بين فرسانه الذين كانوا يسيرون على أقدامهم، فقام هؤلاء بامتطاء ظهورها برشاقة، وبوساطة الملك الذي قاد دوماً الطريق وكان على رأس أتباعه، فرقوا عساكر الأعداء من على جميع الأطراف، وقتلوا من دون رحمة كل الذين اعترضوا سبيلهم، وصرخ المسلمون الذين سقطوا تحت ضربات أعدائهم بأصوات مرعبة، وأسلموا أرواحهم إلى الجحيم، وتولى في هذه المعركة رماة الزنبورك زمام الأمور، وتصرفوا بشكل استحقوا به الثناء، وذلك بسبب شجاعتهم التي لامثيل لها، ولاسيما بصدهم لحملة الأعداء، وإذلالهم لجرأتهم، ولقد أشعت شجاعة الملك كثيراً، في هذه المعركة، وكذلك بالقدر نفسه أشعت مقدرة رجاله وشجاعتهم، فالآلاف المؤلفة من الأعداء التي أرغموها على الفرار، تبدو أمراً لايمكن تصديقه، لولا وجود يد ربانية قد تولت حمايتهم، لأنه من يمكنه أن يصدق أن ثمانين فارساً، كان يمكنهم هكذا التعامل بغلبة مع اثنين وستين ألفاً من الرجال والقتال معهم طوال النهار، وأمكنهم تحمل زخات من رشقات نبالهم، وضربات حرابهم، وذلك من دون أن يتراجعوا عن مواقعهم الأولى، ولو لمسافة قدم واحد، لابل أكثر من ذلك تمكنهم من تمزيق صفوف أعدائهم وتفريقهم في كل اتجاه، وإرغامهم على الفرار، وقطعاً ماكان لهم نيل هذا النصر المفرح، وغير المنتظر منهم، لولا أنهم اعتمدوا على عون الرب، واعتقدوا أنهم كانوا

تحت حماية السماء، وبعد أمد رأت شحنة يافا الشجاعة المنتصرة للملك ولأتباعه، فقام أفرادها بالإغارة بشكل مفاجىء على ساقة الأعداء، وانقضوا عليها، وبحملات متوالية من جانبهم، مع حملات الملك، أدار المسلمون ظهورهم، وهربوا بشكل فوضوي، مع خسائر كثيرة، ولجأوا إلى الآجام والكهوف لصيانة أنفسهم.

كيف وصل الجيش الصليبي لمساعدة الملك رتشارد

ووصلت في الوقت نفسه أخبار إلى رجال الجيش الذي كان الملك قد تركه في عكا، بأنه كان محاصراً من جميع الجهات في يافا، من قبل الأعداء، وأنه كان في خطر عظيم، مالم يذهبوا بكل سرعة للتفريج عنه، وألقت هذه الأخبار الرعب والكآبة في قلوب الجميع، وفكروا جميعاً بالفرار، لكن رجال الشطر الأكثر شجاعة في الجيش اجتمعوا للتداول حول فرص أن يكونوا قادرين على تقديم العون إلى الملك، ولذلك زحفوا باتفاق من الجميع إلى قيسارية، ولم يتجرأوا على التقدم مسافة أبعد خوفاً من العدو، وقد علموا هناك بالنصر غير المتوقع للملك، فغلبهم الفرح، وقدموا الشكر للرب لأنه الحافظ لهم جميعاً، ووقعت هذه المعركة أيام عيد القديس بطرس في الأغلال.

كيف قرر الملك رتشارد العودة إلى الوطن

وبعد هذا النصر الذي لانظير له، بقي الملك سبعة أسابيع في يافا، كان خلالها مريضاً مرضاً شديداً، سببه الأجواء غير الصحية، فقد حمل المرض عليه وعلى أتباعه بهجوم مدمر، وقد هلك جميع الذين أصيبوا بهذا المرض، باستثناء الملك، الذي حفظ بصحته من قبل العناية الربانية، علاوة على ذلك اكتشف الملك في تلك الآونة أن أمواله قد أصبحت قليلة جداً، بسبب العطايا الكبيرة التي وزعها باسراف بين جنوده، ووجد أن الجيش الفرنسي والآخرين الذين احتفظ بهم، بعد وفاة دوق

بيرغندي، مقـابل نفقــات عـاليـة، كـانـوا الآن قلقين راغبين في تركـه، وكــذلك وجــد جيشــه يتناقص بـالعـدد، بـوســاطة المرض المميت، والصراعات مع الأعـداء، الذين كانت أعـدادهم تتزايد يوميـا، ولذلك عقـد مشاورات مـع الداوية والاسبتاريـة، والمقدمين الذين كـانوا معـه، وأعدّ العـدة للعودة إلى الوطن على الفـور، مقيداً نفسـه باليمين بالعودة لحصار المدينة المقدسة، فـور تمكنه من تقوية جيشه، وتزويد نفسه بالمال، وبالإضافة إلى الأسباب المتقـدمة من أجل مغادرته، كان السبب الأعظم ثقـلاً وتأثيراً عليـه، هو ماعلمـه من أن أخـاه جـون كان يتـآمـر لوضع انكلترا تحت سيادته، وقد برهنت النتيجـة أنه قد رغب بفعل ذلك، وبما أنه كان واضحاً أن مغادرة مثل هذا الجيش الكبير مع أمير مثل رتشارد، لايمكن إلاّ أن تعـرض الذين سيبقــون هناك إلى خطر عظيم، وفقـدان المنطقة التي أخضعوها ، ولذلك تمت الموافقة— بناء على طلب الجيشين ومشورتها— على عقـد هدنة بين الصليبيين والمسلمين لمدة ثلاثة أعوام، تبدأ من يوم الفصح المقبل.

كيف عاد الملك رتشارد من حجه

وبناء عليـه، عندمـا صـارت سفنه في فصل الخريف جـاهزة، وجميع ترتيباته قد اكتملت، أقلع الملك رتشـارد مع ملكته، وأخته جوانا، ملكة صقلية ونبـلائه، لعبور البحـر المتوسط، وأثناء سفـرهم ثارت عواصف غير معتـادة، وعـانوا من كثير من المصـاعب في الوصـول إلى اليـابسـه، وعاني بعضهم من جنوح سفنهم، ونجـا بعضهـم بعدما جنحت سفنهم، إلى الشاطىء، عراة تقريباً، مع فقدانهم لمقتنياتهم، وقليل منهم هم الذين وصلوا إلى المرسى المنشود آمنين، ووجد— على كـل حال— الذين نجو من المخاطر في البحر، في كل مكان أنفسهم يتعـرضون للهجوم من قبل الأعداء على الشواطىء، وقد أُسروا من قبلهم، وسُلبوا، وأرغم بعضهم على دفع فـــدية ثقيلة، ولم يكن هنـاك مكان يلجأون إليـــه، وكأن البر

والبحر قد تآمرا ضد الصليبيين العائدين، ومن هذا هناك برهان كاف، بأن مغادرتهم قبل انجاز هدف حجهم، لم يكن مرضياً بأي شكل من الأشكال للرب، الذي كان قد قرر بعد وقت قصير إغنائهم في تلك البلاد، بجلب أعدائهم وجعلهم خاضعتين لهم، وبمنحهم الأرض التي قاموا في سبيلها بذلك الحج المرهق، وبعد أمد قصير من غيابهم، أنهى صلاح الدين ذلك الغازي للأرض المقدسة، حياته الشريرة أثناء الصوم الكبير التالي، بموت تعيس ، ولقد قالوا بأنه لو كان حياً في تلك الأثناء، لتمكن بسهولة من الاستيلاء على الأرض المقدسة، لأن أبناء وأقرباء صلاح الدين نفسه اختلفوا فيما بينهم أنفسهم، وتصارعوا من أجل ملك أبيهم.

كيف نجا الملك المذكور من كثير من الكمائن التي نصبت له من قبل أعدائه

وبعدما تعرض الملك رتشارد مع بعض من أتباعه لزوابع شديدة لمدة ستة أسابيع، اقتربوا من سواحل المغرب، أي كانوا على بعد مسافة ابحار ثلاثة أيام من مرسيليا، حيث علم من تقارير متواترة بأن كونت سانت جايل وجميع الأمراء الآخرين، الذين كان سيسافر من خلال أراضيهم، كانوا بالاجماع يتآمرون ضده، ونصبوا في كل مكان الكمائن له، ولذلك رتب بشكل سري أن يعود عن طريق ألمانيا، وبناء عليه انطلق عائداً مع قليل من أتباعه، الذين كان من بينهم بلدوين أوف بيثيون Bethune، والمعلم فيليب، وكاهنه، وأنسلم شماسه[الذي رأى وسمع بهذه الأشياء، وأخبرنا بها]، وبعض رهبان الداوية، ونزلت هذه الجماعة في بلدة في سلافونيا اسمها غزارا Gazara، وأرسلوا من هناك على الفور رسولاً إلى أقرب قلعة يسألون السلام، ويطلبون أمانا من صاحب تلك المنطقة، الذي كان حفيداً للمركيز، وكان الملك رتشارد قد اشترى أثناء عودته من تاجر بيزي ثلاث جواهر من النوع الذي يعرف

باسم الياقوت، مقابل تسعمائة دينـار، وأمر عندما كان على ظهر السفينة بوضع احــدى هـذه الجواهر في خــاتم ذهبي، وأرسل هـذا الخاتم مع الرسول المذكـور إلى صاحب تلك القلعة، وعندمـا سأل الحاكم الرسول عن الذين طلب لهم الأمـان، أخبروه بأنهم كانـوا حجاجـاً عائـدين من القدس، وسأله الحاكم عن أسمائهم، فأجابه الرسول قائلاً:« واحد منهم اسمه بلدوين دي بيثيون، واسم الآخر هيـوج، وهو تاجر قد أرسل لك هذا الخاتم»، ونظر صاحب القلعـة بدقة أعظم نحـو الخاتم، وقال:« هو ليس اسمـه هيـوج، بل الملك رتشـارد»، ثم أضـاف:« مع أنني أقسمت على اعتقال جميـع الحجاج القادمين مـن تلك الجهات، وعلى عـدم قبول هدية منهم، إنني مع ذلـك بسبب قيمـة الهدية، وكـذلك بسبب المرسل، الذي شرفني كثيراً، مع أنني غريب بالنسبة له، أعيد إليه هديته، وأمنحه إذنا بحـرية المغـادرة»، وبهذا عـاد الرسـول، وأخبر الملك بجميع مـاقـد حدث، وخشية من هذا الاكتشاف، اشترت الجماعة خيولاً، وانطلقت في منتصف الليل بشكل سري من البلدة المتقـدم ذكـرها، وسـارت لبعض الوقت خـلال تلك المنطقـة مـن دون معيقـات، لكن ذلك الحاكم بعث بكشـاف إلى أخيـه سـار خلفهم، ليخبره بالقيـام باعتقـال الملك عندمـا يدخل إلى أراضيـه، وبناء عليه عندمـا وصل الملك إلى هناك، ودخل إلى المدينة التي كـان يعيش فيهـا أخـو الحاكم المتقـدم ذكـره، قـام هذا الأخ فبعث خلف صـديـق مـوثوق لديه، اسمـه روجـر، وكـان من الشعب النورماندي، من أهالي أرجنتون، وكان قـد عاش معه عشرين سنة، وقد تزوج من حفيدته، وأمره أن يبحث بدقة في جميع البيوت التي يقيم فيها الحجاج، ووعده إذا أمكنه أن يعثر على الملك، ويتعرف عليه إما بوساطة اللغـة، أو بوساطـة أية شارة أخـرى، بإعطائـه نصف المدينة لاسيما، إذا مـااعتقله، ووجـد هذا الرسـول الملك، بعـدمـا بحث في أمـاكن إقـامـة الحجـاج، واحداً واحـداً، وبعد كثير من الخداع والمراوغـة، أرغم الملك بالأخـذ والرد وببكاء البـاحث بصدق، على الاعتراف بشخصيـة، وبناء

على ذلك تقدم بالرجاء إلى الملك وهو يبكي، في أن يقوم على الفور بالفرار، وأعطاه جواداً ممتازا، وعاد بعد هذا إلى سيده، وأخبره بأن ماسمعه عن وصول الملك كان غير صحيح، بل هم بلدوين دي بيثون، ورفاقه عائدون من حجهم، وغضب سيده غضباً شديداً، وأمر باعتقالهم جميعاً، وكان الملك مع وليم دي إيستينغ Estaing وصبي كان يفهم اللغة الألمانية، قد نجا من المدينة خلسة، وبقي على الطريق لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالي من دون طعام، ووقتها دفعه الجوع إلى الانعطاف نحو قرية اسمها غيناشيا Gynatia، على الدانوب وليكتمل سوء حظه، كان دوق النمسا متوقفاً فيها آنذاك.

كيف جرى اعتقال الملك رتشارد من قبل الدوق ورميه في السجن

. وهكذا وصل الملك رتشارد إلى النمسا وتوقف هناك، وبعث بالطفل إلى بلدة غيناشيا، إلى السوق ليشتري بعض الطعام إلى رفاقه الجياع، ولدى توجه الطفل نحو السوق أظهر عدة دنانير، وتصرف بعجرفة وبتبجح، ولذلك جرى اعتقاله من قبل أهل البلدة الذين سألوه من هو، فأجابهم بأنه كان خادم تاجر غني، وصل إلى تلك البلدة، بعد سفر ثلاثة أيام، وبناء عليه تركوه يذهب، فذهب خلسة إلى المقر السري للملك، ونصحه بأن يهرب على الفور، وأخبره بالذي حدث له، ولكن الملك رغب— على كل حال— بعد الذي عاناه أثناء السفر، أن يرتاح عدة أيام في البلدة المسماة أعلاه حيث كان يرسل أحيانا هذا الطفل نفسه إلى السوق العام، لشراء حاجياته، وحدث في إحدى المرات في يوم عيد القديس توماس، أن كان هذا الطفل يحمل من دون حذر قفازات سيده الملك تحت حزامه، ورآه المشرف على المنطقة، فاعتقله ثانية، وأنزل به مختلف أنواع العذاب، وضربه، وهدده بسحب لسانه وقطعه إذا لم يعترف على الفور بالحقيقة، وأخيراً أرغم الطفل بوساطة تلك الأنواع

من العذاب على إخباره بحقيقة الأمور، فبعث ذلك المشرف على الفور خبراً إلى الدوق وطوق بيت لملك، وأمره بشكل مهين أن يسلم نفسه بهدوء، ولم ينزعج الملك لدى سماعه للضجة والصراخ، ورأى أنه ليس بمقدوره الوقوف ضد مثل ذلك العدد من البرابرة، فأمر بوجوب احضار الدوق، واعداً بأنه سيسلم نفسه إليه فقط، ولدى قدوم الدوق سلمه نفسه مع سيفه، وطار الدوق فرحاً بذلك، وأخذ الملك معه بطريقة محترمة، ثم وضعه تحت حراسة جنوده، مع أوامر بوجوب حراسته بكل دقة وعناية، مع سيوف مجردة ليلاً ونهاراً.

وعلينا الآن أن لانعدّ أن هذه النازله من سوء الحظ قد نزلت من دون قرار من الرب القدير، ولم يكشف لنا، فيما إذا كان ذلك جزاء للملك على ذنوب شبابه، أو عقوبة على آثام رعيته، أو أن ذلك جاء تذكرة لهذا الملك ليتوب، وليكفر عن جريمته لدى سماعه نصيحة الملك الفرنسي ونيله مساعدته حيث حاصر والده شخصياً، أي الملك هنري عندما كان مريضاً في فراشه في مدينة مين، وصحيح أنه لم يذبحه بسيفه، لكنه أرغمه بالحملات المتوالية على ترك ذلك المكان، ومما لاشك فيه أن جميع هذه الظروف والمعطيات كانت السبب في موته.

وفي هذا العام، جرى أيضاً انتخاب سافاري Savary رئيس شمامسة نورثأمبتون أسقفاً لباث، ثم إنه ذهب إلى روما، وهناك جرى رسمه كاهنا، وفي التاسع عشر من إيلول تلقى السيامة من ألبان أسقف ألبانو.

كيف باع دوق النمسا ملك انكلترا إلى الامبراطور

عام ١١٩٣م، فيه بقي الملك رتشارد سجينا لدى دوق النمسا، حتى باعه هذا الأمير إلى الامبراطور الروماني مقابل ستين ألف باوند من الفضة، بعيار كولون، ثم إنه أمر به في يوم الثلاثاء بعد أحد السعف أن يحرس بعناية، ولكي يرغم الملك على دفع مبلغ كبير فدية لنفسه، أمر به

فأودع السجن في تريفي Treves ، وهو سجن لم يدخله أحد وخرج منه حتى ذلك الحين، وهو المكان الذي يقول عنه أرسطو في كتابه الخامس:« Bonum òest mactare parentes Intreves »، وعنه قال في مكان آخر:

Sunt loca, Sunt gentes quibuse mactare parentes

ففي هذا المكان جرى وضع الملك تحت حراسة قوية من الجنود، والخدم، وقد رافقه هؤلاء إلى حيث ذهب مع سيوف مجردة نهاراً وليلاً، لابل حتى أنهم تابعوا الحراسة حول فراشة بحيث لم يسمحوا لأحد بالبقاء بقربه أثناء الليل، ولم تؤثر أياً من هذه الظروف على ملامح الملك حيث بدا دوماً مشرقاً ومقبولاً لدى محدثيه وشجاعاً وجريئاً في أعماله، وذلك حسبما تطلب الوقت، والمكان، والسبب، والشخص، وإلى آخرين أدع حكاية مزاحه مع حرسه، وكيف جعلهم يسكرون، وكيف انقض على أشخاصهم الضخمة عن طريق المزاح.

كيف اتهم الامبراطور الملك رتشارد بأشياء كثيرة وكيف رد الملك بحكمة عليهم .

كان الامبراطور لزمن طويل يحمل مشاعر غضب، وحقد ضد الملك، حتى أنه لم يتنازل لاستقباله في حضرته، أو حتى التحادث معه، لأنه تشكى بأن الملك قد أضرّ به وبرفاقه في مجالات كثيرة، وتظاهر بأن لديه كثيراً من التهم ضده، وأخيراً بعد وساطات عدد من الأصدقاء من وقت إلى آخر، ولاسيما راعي دير كلوني، ووليم مستشار الملك، دعا الامبراطور إلى الاجتماع: أساقفته، ودوقاته، وفرسانه، وجلب الملك إلى حضرته، وهناك اتهمه بعدة اعتداءات، أمامهم جميعا، وعدّدها وكان أولها في المقام الأول، أن الامبراطور خسر بسبب نصيحة رتشارد ومساعدته، مملكة صقلية وأبوليا، التي بموجب الحق عائدة له، إثر وفاة

الملك وليم، ولكي يحصل عليها حشد جيشاً كبيراً، وأنفق مبلغاً لانهاية له من المال، وقال بأن الملك المذكور، قد وعده بصدق بتقديم مساعدته للحصول على تلك المملكة من تانكرد، ثم تعرض لقضية ملك قبرص، الذي كان قريباً له، واتهم رتشارد، أنه خلعه بشكل غير عادل عن عرشه، وأنه سجن ذلك الملك، وأنه غزا بلاده بالقوة، وسلبه أمواله، ثم باع الجزيرة إلى أجنبي، ثم اتهمه بتدبير مقتل مركيز أوف مونتفرات، ووريثه، وأكد أنه بسبب خيانته وتآمره قد جرى قتل ذلك الرجل النبيل من قبل الحشيشية، وأنه قد أرسل هؤلاء القوم أنفسهم لقتل مولاه ملك فرنسا، الذي لم يحافظ على الاخلاص له، أثناء حجمهما معا، كما كان الاتفاق معقوداً ومؤكداً بالأيمان بينهما، واشتكى أخيراً، أنه ألقى في يافا بين الأوساخ علم قريبه، دوق النمسا، مراغمة له، وأنه أهان دوماً ألمانه في الأرض المقدسة وآذاهم بالكلام والسلوك.

وبعد توجيه هذه التهم وأمثالها من قبل الامبراطور، وقف الملك الانكليزي على الفور، وتقدم نحو وسط الاجتماع، ورد على التهم واحدة واحدة، وتكلم بشكل واضح تماما ومقنع، إلى حد أنهم نظروا إليه بإعجاب، واحترام من قبل الجميع، ولم يبق هناك أدنى شك فيه أنه لم يكن مجرماً أو مقترفاً لأي عدوان، في أذهان المستمعين إليه، لأنه برهن على ذلك بوضوح وبصدق، وبسياق كلماته، وبصدق تأكيداته، وماشابه ذلك في مناقشة القضية، وبذلك قضى على كل التهم، ولم يبتعد عن حقيقة ماقد وقع، ورفض بكل ثبات تهمة الخيانة، أو أنه كان المتآمر في قتل أي أمير، مؤكداً أنه يمكنه البرهنة على براءته بالنسبة لجميع هذه التهم، كما ينبغي على محكمة الامبراطور أن تقرر، وبعدما ترافع لوقت طويل أمام الامبراطور ونبلائه بمقدرة عظيمة حيث دفع جميع التهم، أعجب الامبراطور بفصاحته، فنهض وبعث وراء الملك ليأتي إليه، وعانقه ومنذ ذلك الحين تصرف نحوه بلطف ولين، وعامله بود عظيم،]

وجرى فيما بعد حرمان دوق النمسا كنسياً من قبل مولانا البابا مع جميع كرادلته، وعندما كان على فراش الموت، لم يقدم التكفير المتوجب، وخشية أن يتعرض للضياع، جرى تحليله من قبل أساقفته، ومات بشكل مريع].

كيف دفع الملك رتشارد غرامة مائة وأربعين ألف باوند مقابل اطلاق سراحه

وبعد هذه الأحداث، وبناء على وساطة الأصدقاء من وقت إلى آخر، جرى بحث دفع فدية الملك، واحتاج ذلك إلى وقت طويل، وكانت النتيجة في النهاية، وجوب دفع مائة وأربعين ألف مارك فضي، من عيار كولون، نقداً إلى الامبراطور، مقابل اطلاق سراحه، وأن يكون ذلك قبل الوصول إلى أية اتفاق، وتبعاً لذلك، أقسم في يوم القديس بطرس والقديس بولص الرسولين: الأساقفة والدوقات، والبارونات يمينا، أنه فور دفع الملك للمبلغ المسمى أعلاه، سوف يطلق سراحه ويمتلك الحرية في العودة إلى مملكته، وجلب أنباء هذه المعاهدة إلى انكلترا مستشار الملك، وليم أسقف إيلاي، الذي أحضر معه رسائل من مولانا الملك، وكذلك الختم الذهبي للامبراطور، وصدر على الفور قرار عن رجال العدالة الملكية، يقضي بأن يدفع جميع الأساقفة، والكهنة، والإيرلات، والبارونات، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان مساهمة مقدارها ربع دخلهم في سبيل اطلاق سراح الملك، وعلاوة على ذلك أعطوا أوانيهم الذهبية والفضية من أجل ذلك العمل التقوي، ولقد أخذ جون أسقف نورويك نصف ثمن الأواني الموجودة في جميع أرجاء أسقفيته، وأعطى هذا النصف إلى الملك، وأعطت طائفة السسترشيان، التي كانت حتى ذلك الحين معفية من جميع الضرائب، جميع صوفها من أجل اطلاق سراح الملك، وفي الحقيقة مامن كنيسة، أو طائفة، أو مرتبة، أو جنس، نجا من دون أن يرغم على الدفع في سبيل اطلاق سراحه،

وظهـرت العـلامـات الدالـة على وقـوع هذه الكـارثة في المواسم غير الاعتيادية، وفي فيضانات الأنهار، والعواصف المرعبة والزوابع والأمطار ثلاث مـرات أو أربع في كل شهر، مع برق مخيف على امتـداد السنة، مما سبب نقصاً شديداً في حاصلات الفواكه والقمح.

تبرئة الملك رتشارد من تهمة قتل المركيز

وعندما كان ملك انكلترا متهماً بشكل ظـالم بقتل المركيز، بعث رسلاً إلى مقـدم الحشيشيـة يسأله أن يكتب رسـالـة إلى دوق[النمسـا] أو إلى امبراطور[ألمانيـا] حتـى يبرهن براءته، ومنه حصل الملك على الـرسـالة التاليـة:« من شيخ الجبل، إلى ليوبولد دوق النمسا، تحيـات: بما أن عدداً من ملوك وأمراء مـاراء البحر، قد اتهموا مـولانا رتشارد، ملك انكلترا، بقتل المركيـز، إنني أقسم بالله الـذي يحكم إلى الأبد، وبالشريعـة التي نؤمن بها، أن مـامن مـلامة يمكـن إلصاقهـا به، فيما يتعلق بمـوت ذلك النبيل، ولقد كان سبب موت المركيز كما يلي: كان واحد من اخوتنا قادم في مركب من أضاليا إلى منطقتنا من البـلاد، عندما دفعت عاصفة به إلى صور، حيث اعتقله المركيـز، وقتله، واستولى عـاى مقتنياته التي تكونت من مبلغ كبير من المال كان ملكه، وبعثنا برسل إلى المركيز نطلب منه أن يعيـد إلينا مال أخينا، وأن يتفق معنا حـول التعويض عن مقتله، الأمـر الذي لم يفعله، بل أهان رسلنا واتهم بمقتل أخينا رينالد صاحب صيدا، مع أننا نستطيع أن نؤكد الصـدق عن طريق بعض أصدقـائنا بأن المركيز نفسه هو الذي تدبر قتل الرجل وسرقته، ثم بعثنا إليه برسول آخر اسمه ادريس وقـد أراد رمي هذا الرجل بالبحـر، لكن رفـاقنا سـاعـدوه على مغادرة صـور، ولقد عاد على الفـور، وأخبرنا بهذه الأشياء، ورغبنا من تلك الساعة بموت المركيز، وبناء عليه بعثنا باثنين من إخواننا إلى صور، وهناك قتلوه بشكل مكشـوف، وأمـام جميع السكان تقريبـاً، وهذا كـان سبب مقتل المركيـز، ونحن في الحقيقـة، نتحـدث الصـدق في قـولنا بأن

مولانا الملـك رتشارد لم تكن له علاقـة بموت ذلك النبيل، الـذي عانى بسببه ظلماً، من كثير من الأذى وذلك من دون سبب، ونؤكد لكم أيضاً بأننا لم نقتل أي انسـان بهذه الطريقة من أجل جائـزة، أو من أجل المال، بل فقط عندمـا ألحق الأذى بنا، واعلموا بأننـا قد كتبنا هذه الرسـالة في بيتنا في حصننا مصيـاف بحضور إخـواننا، وختنماها بختمنا في منتصف شهر ايلول في سنة ألف وخمسمائة لتوقيت أيام الاسكندر(١)».

كيف جرت سرقة هيوج أسقف شستر وسلبه جميع مقتنياته

وفي هذه الآونة كان هيوج أسقف شستر مسرعاً مع هدايا كثيرة، كان قد اشتراها مع صعوبات جمة، لرؤية الملك، لكن عندما كان متوقفاً أثناء الليل قـرب كانتربري للاستراحـة، جرى اعتقـاله وسرقته وسلبـه جميع ماكان معه، وأظهر متى دي كليرا Clera شحنة قلعة دوفر التعاطف مع اللصـوص ولذلك جرى حـرمانه كنسيـا من قبل رئيس الأساقفـة، وليس من المعروف الآن فيما إذا كان قد كفر عن ذنبه.

موت صلاح الدين وخلافة سيف الدين له

وفي هذه الآونة نفسهـا، أصيب صلاح الـدين العدو المعلن للحقيقـة والصليب بزيارة الرب له، في أيام العيـد في الناصرة، ومات فجأة، وبناء على ذلك اغتصب أخـوه سيف الدين الملك هناك، لكن كان هناك معـه الأبناء السبعـة لصـلاح الدين، وضـدهم أبناء نـور الدين، الذين طردوا من ملك أبيهم من قبل صـلاح الـدين ، حيث زحف هؤلاء مع حشـد من الفـرس، ومن هـؤلاء أخـوين هما صـلاح الدين وسيـف الدين، وذريتهما، والخلفاء من أولادهما، هنـاك حاجة قليلة للحـديث عنهم من أجل توضيح هذا التـاريخ، وذلك سوى القول بـأنهم مشهورين في كل مجال لدى المسلمين، وكـان صلاح الدين لدى مـوته، الذي ذكرناه، قـد

١ — انظر ص ٦٣٦، حيث ورد نص هذه الرسالة بشكل فيه بعض الخلاف.

خلف تسعة أولاد يرثون مملكته، لكن سيف الدين، أخاه الأصغر، قتل جميع أبناء أخيه، باستثناء واحد اسمه غياث الدين كان متملكاً لحلب مع جميع المدن المجاورة لها، والبلدات، وأماكن أخرى حصينة، كان عددها أكثر من مائتين، وكان لسيف الدين، الذي جعل من نفسه سيداً لمملكة أخيه، وقتل أبناء أخيه، خمسة عشر ولداً، سبعة منهم جعلهم ورثة لممالكه التي حصل عليها بالقتل، وكان أول أولاده اسمه الكامل، الذي ورث حكم الاسكندرية، والفسطاط، والقاهرة، ودمياط، وتنيس، مع جميع بلاد مصر، وامتلك ابنه شرف الدين دمشق والقدس، وجميع المناطق الصليبية، الحاوية لأكثر من ثلاثمائة مدينة، وحصن وقلعة، وذلك إلى جانب القرى، وامتلك ابنه الملك الأشرف منطقة اسمها حران(وخلاط) مع جميع المنطقة التي فيها أكثر من أربعمائة مدينة، وحصن، وقلعة، إلى جانب القرى، وامتلك ابنه الرابع الذي اسمه Mehemodain مملكة آسيا، التي احتوت على مايزيد على ستمائة مدينة، وحصن، وقلعة إلى جانب القرى، وامتلك ابنه الخامس Mechisemphat منطقة Sarcho ، حيث قتل هابيل، وتحتوي هذه المملكة على تسعمائة مكان وأكثر، بما في ذلك: المدن، والحصون، والقلاع، إلى جانب القرى، وحكم ابنه السادس Machinoth ، منطقة بغداد، حيث يعيش بابا المسلمين، الذي يدعى باسم الخليفة، وهو الذي يخشى منه ويحترم في شريعتهم مثل الحبر الروماني بيننا نحن أنفسنا، ويشاهد رجل الدين هذا مرتين في الشهر فقط، عندما يذهب مع تلاميذه— الذين يحتفظ بهم، مثل احتفاظ البابا بالكرادلة— إلى المسجد، حيث تجري— كما يقال— عبادة محمدﷺ رب الهاجرين، وبعدما يسجد هناك، ويؤدي صلاته وفقاً لشريعتهم، يقوم جميع الحضور، قبل مغادرتهم المعبد بالأكل والشرب، وبعد ذلك يعود إلى قصره، وزيارة محمدﷺ وتعبده هناك، هي مثلما يتعبد المسيحيون المسيح المصلوب، علاوة على ذلك إن مدينة بغداد التي فيها محمدﷺ والخليفة،

هي عـاصمـة الهاجريين، مثلما رومـا هي عـاصمـة الشعوب المسيحيـة، واسم ابن سيف الدين السابع Salaphat ، وبهذا لم تكن لديه منطقة ليرثها، غير أنه سكن مع أخيه الكامل، وهو الحامل لرايته، وإلى الكامل هذا نفسه، يرسل كل واحد من أخـوته إليه سنويا، ألف دينار اسلامي، ومائـة قطعة ذهبية، وفـرسين مجهزين بشكل جيد، وعندمـا كان والدهم سيف الدين يذهب لزيـارة أولاده، كان يقـدم ورأسـه مغطى بغطاء من الحرير الأحمر، وكان أولاده يخرجـون لاستقباله، فسيجدون أمـامه أربع مرات، ويقبلون قـدميه، ثم يعـانقهم ويصافحهم، وكـان يجلس مع كل واحد من أولاده ثلاثة أيام كل عـام، ويلبس كل واحد من أولاده خاتماً محفـوراً عليـه صـورة أبيـه، وكلما ركب سيـف الدين المذكـور وخـرج، لايكشف عن وجهـه سوى عشر مرات في العـام، وعندما يتلقـى رسلاً من عند أي أمير، يستقبلهم في قصره في اليـوم الأول بـوسـاطة أتبـاعـه المسلحين، وفي اليوم الثـاني يُعطي لهم جوابه حسب مقتضيـات المناسبة، لكنه لايعطيهم الإذن بالاقتراب منه حتى اليـوم الثـالث، ويعيش أولاده الثمانية وفقـاً لترتيبات أبيهم وفق الطريقة التاليـة: إثنان منهم مسؤولون عن ضريـح المسيح، وإليهما يجري دفع المنـح التي تقـــدم إلى الضريح، ويقتسمان ذلك بينهما، ودخلهما أكثـر من عشرين ألفـ[دينار] اسـلامي، ويتلقى الأربعـة الآخرين الضرائب المجبيـة من النيل، ويسـاوي دخلهم أكثـر من أربعين ألف دينار اســلامي، ويقف الابنان الآخــرين أمـــام محمدﷺ، وإليهما يجري دفع الأعطيات التي تقـدم عند قدمي النبي ﷺ، والتي تسـاوي أكثـر من ثلاثين ألف دينار اسـلامي، وعند سيف الدين خمس عشرة زوجة، والعدد نفسـه من الورثة، واعتاد أن ينام مع زوجاته كل واحدة بدورها، وإذا كـانت احداهن حاملة كان ينام معهـا بحضور البقيـة جميعـاً، وعندمـا احـدى هؤلاء الخمـس عشرة تموت، كـان يأتي بواحـدة جـديدة محلهـا، وذلـك حسبما عـادة شريعتهم، ويمتلك هؤلاء القـوم شريعـة مكتـوبة أعطيت لهم مـن قبل محمـدﷺ اسمهـا القـرآن،

ويجري الحفاظ على أوامر ذلك الكتاب من قبل ذلك الجنس غير التقي من الناس(١)، كما نحافظ نحن المسيحيون على الانجيل.

كيف رغب جون أخو الملك بالاستحواذ على حكم انكلترا

وعندما كان الملك رتشارد— كما ذكرنا— محتجزاً من قبل الامبراطور، سمع أخوه جون بما نزل به، فاعتقد أنه لن يعود، فدخل في تحالف صداقة مع فيليب ملك فرنسا، وبوساطة النصيحة المؤذية لذلك الملك، عمل ترتيبات من أجل تتويجه مكان أخيه، لكن الانكليز باخلاص معلن لم يسمحوا بذلك.

كيف سعى الملك الفرنسي للاستيلاء على نورماندي

أطلق ملك فرنسا الآن العنان لكراهيته ضد الملك الانكليزي، فغزا مع جيش كبير نورماندي ولم يوفر أحداً من مرتبة، أو جنس، أو عمر، وبعث غيلبرت دي واسكويل Wascuil خلف الملك المذكور، وسلم بشكل خياني غيسور إليه، حسبما كان متفقاً بينهما، وأخضع بعد ذلك الملك المذكور منطقة فكسين Vexin النورماندية كلها، جزئياً من خلال الخيانة، وجزئياً بوساطة القوة، وكذلك كونتية أومرل Aumarle بعيداً حتى ديبي Dieppe مع وادي رويل Ruil ، وذلك مع الحصون الرئيسية، واستولى أيضاً على منطقة هيوج دي غورناي، الذي استسلم مع آخرين للملك الفرنسي، وفضلاً عن هذا حاصر روان، ولكنه صد بوساطة شجاعة ايرل أوف ليستر، ومقدرة السكان وصلابتهم، وطرد من تلك المدينة وهو مضطرب، مع خسارة لبعض عساكره، واستولى الملك المذكور على مدينة ايفروكس Evreux، ثم أعطاها لتكون تحت وصاية[جون] الايرل المذكور.

١— هذه المعلومات مشوهة إلى أبعد الحدود، هذا واستحالت مطابقة بعض أسماء أبناء الملك العادل مع الأصول المعتمدة عن بني أيوب.

كيف تزوج الملك الفرنسي من أخت ملك الدانمارك ثم طلقها على الفور

واقترن في هذه الآونة الملك الفرنسي بأخت ملك الدانمارك، التي اسمها إنغلبورغ Ingelburg وكانت سيدة ذات جمال مدهش، لكنه طلقها بعد الزواج، ووضعها بين الراهبات في سواسون Soissons، وأمر بالوقت نفسه جميع الدانيين الذين جاءوا معها بالعودة إلى بلادهم، وجرى في العام نفسه انتخاب هيوبرت وولتر، أسقف سالسبري، بشكل قانوني، رئيساً لأساقفة كانتربري، وفي اليوم التالي لعيد القديس ليونارد، وضع على عرشه، وإلى عنايته عهد بأمر من الملك رتشارد، بمملكة انكلترا، وبإدارة الأعمال هناك، فقد جرى ارسال وولتر رئيس أساقفة روان، من قبل الملك، إلى ألمانيا، وكان مصحوباً أيضاً بإليانور، أم الملك التي كانت متشوقة لرؤية ابنها.

كيف أطلق سراح الملك رتشارد ووصوله إلى انكلترا

عام ١١٩٤م، فيه جرى دفع الجزء الأكبر من الفدية، كما جرى فيه تسليم رهائن كضمانة مقابل المبلغ المتبقي

وفي اليوم المحدد، وهو يوم طهارة مريم المباركة، أطلق سراح الملك رتشارد، وسمح له بالعودة إلى مملكته، وبناء على ذلك انطلق مع أمه، والمستشار، وعبر من خلال أراضي دوق لوفين Louvain، ووصل إلى القناة البريطانية، وفي يوم الأحد، بعد عيد القديس غريغوري، وصل إلى انكلترا إلى ميناء، ســـانـدويـش، مما سبب السرور العظيم إلى جميع الطبقات، وفي الساعة نفسها التي وصل فيها الملك مع مرافقيه ونزلوا إلى اليابسة، وكانت الساعة الثانية من النهار، وعندما كانت الشمس مشرقة بوضوح، ظهر وقتها في السماء شكل شعشعاني غير معتاد، امتد بمقدار طول انسان وعرضه بعيداً عن الشمس، وكان أبيض لامعاً كثيراً

وأحمر اللون، وكأنه نوع من أنواع قـوس قـزح، وأعلن عـدد من الناس الذين رأوا هذا اللمعان، بأن الملـك هو على وشك الوصول إلى انكلترا، وفـور وصول الملك انطلق يؤم كـانتربري ليقدم تقـديساته وعبـاداته في مزار القـديس توماس، وذهب من ذلك المكان إلى لندن، واستقبل هناك بترحـاب كبير، فقد تزينت المدينة كلهـا وتجملت من أجل قـدوم الملك، وذلك بمختلف أنواع الزينة التي كان يمكن للثـروة أن تنتجها، وعندما بات خبر وصوله معروفاً، خرج النبـلاء والعامة لاستقباله على الطريق، بتشوق عظيم، ذلـك أنهم كانوا قلقين جداً من أجل عـودته من الأسر، بعدمـا كانوا يخشـون أنه لن يعود مطلقـاً، وتوقف الملك أقل من يوم في وستمنستر، قبل أن يأخذ طريقه إلى القديس إدموند ليعيد الشكر، وبادر من هناك مسرعـاً إلى نوتنغهـام ليحـاصر وليعتقل أولئك الذين تآمـروا ضده والتحقـوا بالايرل جون، وكـان جيش انكلترا قد استـولى على كل قلعة عائدة لذلك الايرل المتقدم ذكره، وذلك باستثناء هذه القلعة فقط، التي كـانت صـامدة، ومـدافع عنهـا بشجاعـة، لكن عندمـا ألقى الملك الحصار عليهـا، وقام بهجـوم واحد، بات المحـاصرون على قناعـة بعدم القدرة على الصمود بعد وصوله، فسلمـوا القلعة إليه، ووضعوا أنفسهم تحت تصرف الملك، واعتمـدوا على رحمتـه، وقـد سجن بعض هؤلاء، وأطلق سراح آخـرين لدى تسلمـه فـدية مناسبـة، حيث كـان نهماً كثيراً وعظيم التشوق إلى مال كل واحد، لابل مالهم جميعاً، لأنه كان آنذاك في وضع ضائـق كثيراً، وقد دفعه سببـان إلى اتخاذ هذا المنهج، وهما التمكن من إطلاق سراح الرهائن الذين أعطيوا إلى الامبراطور من أجله، ولكي يستطيع أن يحشد جيشاً كبيراً ضد ملك فـرنسا، الذي كان يلحق الدمار بممتلكاتـه في كل مكان، بـالنار والسلب، ومـع أنه لهذا السبب، قـــد استخرج أمـوالاً من أسراه بجشع أكبر مما يتواءم مع كرامتـه الملكية، إنه كـان معـــذوراً ، وينبغي تسـويغ عمله بدلاً من وصـم سمعتـه، بسبب حاجاته الملحة.

تتويج الملك رتشارد وعبوره البحر على الفور إلى نورماندي

بعـد تسوية هذه المشـاكل في انكلترا واخضـاع جميع المتمردين ضـده بكل سرعة، جـرى تتويج الملك رتشارد، وذلك بناء على نصيحة نبـلائه مع أن ذلك ماكان ليضيف شيئا إلى شهرته، وكان التتويج في وستمنستر في اسبوع الفصح، وعمـل القداس أثناء ذلك الاحتفال هيـوبرت رئيس أساقفة كانتربري، وكـان ذلك بحضور وليم ملك الاسكوتلنديين، وقام بعـد ذلك في يـوم عيـد القـديسين نيرو Nereus وآخيل Achilles بالاقـلاع من بورتماوث، وأبحر إلى نورمـاندي[في ١٢— أيار]، ولدى وصوله توقف تلك الليلـة للاستراحة في بارفلور Barfleur، وإليه قدم إلى هذا المكان أخوه جـون متضرعاً، وألقى بنفسه مع كثير من عسـاكره على قـدمي الملك، سـائلاً الرحمة من أخيـه مع كثير من الدمـوع، ومتهماً نفســه بكثير من الحماقـات في كثير مـن المجـالات، وبما أن الملك كـان عـاطفياً، فإنه لم يتمكن من حبس نفسـه من الدموع، وأشفق على سـوء حـظ أخيـه، ورفعــه مــن عــلى الأرض وأرجعـه إلى متقـدم حظوته لديه.

كيف أرغم الملك رتشارد الملك الفرنسي على الفرار من فيرنويل

وعلم الملك رتشـارد بأن ملك فرنسـا قد ألقى الحصـار على فيرنويل Verneuil، وأنه عمل لمدة ثمانيــة أيام مـن دون نجـاح، في محاولة بناء بعض آلات رمي الحجارة، وفي جلب أحجـار كبيرة، وفي لغم الأسوار، والتضييق على الحامية المحـاصرة، بأخـذ طريقـه نحـو ذلك المكان بكل سرعـة— وكـان يوم أحـد العنصرة قـد اقترب حلوله— لكي لايتبجح الفرنسيون بالحصول على نصر في ذلك اليوم المقدس، وسمع الفرنسيون قبل حلول ظلام ذلك اليوم، بأن الملك الانكليزي كـان مستعداً للقتال، وأنه سوف يصـل عند انبلاج النهار، وقتهـا أصيب الفرنسيـون بالرعب لدى سماعهم لهذا الخبر، ولأنهم كـانوا كثيراً مــاخبروا شجـاعـة الملك،

اختاروا لذلك الفرار وآثروه على القتال، وتراجعوا من معسكرهم، جالبين العار الأبدي على أنفسهم والشنار.

كيف عمل هيربرت المسكين أسقفاً لسالسبري

وجرى في هذه الآونة نفسها انتخاب هيربرت Herebert الملقب بالمسكين، والذي كان رئيسا لشمامسة كانتربري، أسقفاً لسالسبري بشكل قانوني، وتمت سيامته كاهنا في يوم أحد العنصرة، وجرت سيامته في اليوم التالي أسقفاً، من قبل هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، في وستمنستر، وقام الملك الفرنسي، في الوقت نفسه، أثناء تراجعه من فيرنويل، وهو غاضب يتهديم حصن صغير اسمه فاونتين Fountains ، وذلك حتى لايظهر بأنه لم يحدث شيئاً، فبتخريبه لهذا الحصن أعطى نفسه مظهر المنتصر، فعاد إلى ممالكه.

الاستيلاء على لوكس من قبل الملك رتشارد

وبعد هذه الأحداث، وصل الملك رتشارد إلى تور، وتسلم مبلغ ألفي مارك فضي عن طريق الهدية من برجوازية نوفشاتيل Neufchatel، حيث يرقد جسد القديس مارتن، ثم إنه زحف داخل حدود تور، وألقى الحصار على قلعة لوشي Loches ، حيث استولى عليها بالقوة بعد عدة أيام، وكان ملك فرنسا قد تسلم هذه القلعة من ضباط الملك الانكليزي، عندما كان هذا الملك سجينا، وذلك كنوع من أنواع الضمانة، حتى لايخرقوا المعاهدة المعمولة بين الملكين، وقد سلموه اياها وهي مشحونة بشكل جيد بالمؤن، ووضعوها بعهدة خمسة عشر فارساً، وثمانين جنديا، ووصل في هذه الآونة ابن ملك نافار لمساعدة الملك الانكليزي، مع جيش كبير، وكان بين أتباعه خمسين من رماة القسي العقارة إلى جانب مائة آخرين، وألحق هذا الأمير

الدمار بأراضي غيوفري دي رافين Ravanne وأراضي كونت أنغوليم Angouleme.

كيف طرد الملك رتشارد الملك الفرنسي من منطقة تور

ودخل في هذه الآونة أيضاً فيليب ملك فرنسا إلى حدود تور، ونصب معسكره قرب فيندوم Vindome ، ثم وجد بوساطة كشافته بأن الملك الانكليزي كان زاحفاً ضده، فقوض في الصباح الباكر معسكره، وأسرع بقدر ماأمكنه نحو فريتفال Freitval، لكن الملك الانكليزي طارده، واعتقل جميع أركان فرقه، وكذلك أركان الكونتات والبارونات الذين كانوا يقاتلون تحت قيادته، وأشياء أخرى لاتحصى عدداً، وحمل ذلك كله معه، وعبر بهذه الطريقة إلى بواتو، وتمكن خلال أيام من اخضاع قلعة تيلبور Tailebure ، ومنطقة أعدائه، أي منطقة كونت أنغوليم، ومنطقة غيوفري دي رافين، وبذلك لم يبق ولا ثائر واحد ضده من قلعة فيرنويل إلى كارليكرويكس Charlecroix.

كيف سعى الملك الفرنسي إلى خداع رتشارد

وأرسل في هذه الآونة الملك الفرنسي أربعة رسل إلى الملك الانكليزي، لخداعه عن طريق استخدام كلام معسول، بقصد الاقتراح لإنقاذ الرعايا على الجانبين، الذين أفرغا صناديقهم في حروبهما من الذهب والفضة، وليوقفا سفك الدماء النبيلة في المملكتين، وأن إدعاءات كل منهما يتوجب أن تتقرر بناء على مبارزة خمسة رجال من على كل طرف، وأن ينتظر مقدمي كل مملكة نتيجة المبارزة، فبعد المبارزة من الممكن الحكم بما هو حق لكل ملك، وأرضى الاقتراح الملك الانكليزي إلى أبعد الحدود، شريطة أن يكون الملك الفرنسي هو الشخص الخامس من جانبه، وهو أي الملك الانكليزي سوف يكون كذلك الخامس من الجانب الانكليزي، وأنهم ينبغي أن يحافظوا على

المساواة في الرجال والسلاح، وأن يشتبكوا بفريقين متساويين، وقد رفض الملك الفرنسي الموافقة على هذا، على الرغم من سخرية كثيرين به، وبعد هذا تم الاتفاق على هدنة بين الملكين الفرنسي والانكليزي، بناء على وساطة بعض رجال الدين بينهما، لكن المبادلات التجارية بين الطرفين كانت ممنوعة.

كيف أسس الملك رتشارد مبارزات في جميع أرجاء انكلترا

وعبر في هذه الآونة الملك رتشارد إلى انكلترا، وعين مواعيد مبارزات تعقد في بعض الأماكن، وقد اقتنع بفعل ذلك للسبب التالي: وهو إمكانية أن يجد الجنود الانكليز أنفسهم مضطرين للمواجهات من جميع الجهات والمناطق، ولذلك عليهم البرهنة على قوتهم، بتدريب خيولهم في الحلقة، وبذلك يكونون أكثر رشاقة وتجربة من أجل القتال ضد أعداء الصليب، لابل حتى ضد جيرانهم.

وجمع في هذه الآونة أيضا واحد اسمه الكسيوس بن مانويل— الذي كان من قبل امبراطور القسطنطينية— جيشاً، وسجن اسحق الامبراطور الحالي، الذي كان قد حاربه، وقد حرمه من نظره، وأخيرا أودعه السجن بشكل أبدي، بعدما خصاه، واستولى على امبراطوريته.

كيف قدم الملك الانكليزي شكوى أمام مولانا البابا ضد دوق النمسا لسجنه إيّاه

عام ١١٩٥م، فيه أرسل الملك رتشارد رسلاً إلى الكرسي الرسولي، مع توجيهات أن يضعوا الشكوى التالية أمام مولانا البابا:« أيها الأب المقدس، مولانا رتشارد ملك الانكليز يحيي سموكم، ويطلب اظهار العدل له ضد دوق النمسا، الذي اعتقله وسجنه، عندما كان عائداً من حجه المتعب، وآذاه بطريقة مضرة حتى لايكون أميراً له سمعته الكبيرة،

وباعـه بعـد ذلك إلى الامبراطور وكأنه كـان ثوراً أو حماراً، وإلتهم بعـد ذلك كـلاهما قــوام إمكانيـات مملكة انكلترا، بطلـب مبلغ لايحتمل من أجل فـديتـه، وعـلاوة على ذلك، زاره الذيـن لم يكونوا غـرباء بالنسبـة لقـوانين المسيحيـة بأحكام أشـد قسـوة في هذه القضيـة، مما كـان يمكن لصلاح الدين أن يفعله، لو أنه بسبب سوء حظ مماثل وقع في يدي ذلك المسلم نفسه، الذي إلى حربه ارتحل الملك المذكور من بلاده، تاركاً مملكته التي حصل عليهـا مؤخـراً، وبلاده، وأقـربائه، وأصـدقـائه، ولعله كـان يعرف كيف يقـدم الاحترام لنبالته وشجاعته، أو لجلالتـه كملك، الأمر الذي لم يعرف ذلك الجيل من البرابرة العنيدين كيف يقدرونه، لابل ربما فعلوا ذلك حتى يعـزون باعتقال مثل هذا الأمير العظيم، سمعـة النصر الطيبـة إليهم، مع أنهم ماكـانوا ليتجـرأوا مطلقاً على مـواجهته في قتـال مكشــوف، عنـدمـا يكون محاطاً مـن قبل جيشــه الشجــاع، ودعهم لايعتقدون أن إهانة الملك تأتي من قبلهم، لابل بالحري إن ذلك قدر من الرب ونصيب، الرب الذي بإرادته يذل دولاب الحظ انساناً ويعز آخر، ويسقط واحداً ويرفع آخر، وكـذلك كان مما أغضب مولانا الملك كثيراً، أنه اعتقل في أيام السلم، وعندما كانت حمايتكم ممنوحة إلى جميع الحجاج لمدة ثلاثة أعوام، وأن هذا كـان ملزما ومـؤكدا بوساطة عقـوبة الحرمان الكنسي، وأنهم على الرغم من ذلك جعلوه سجيناً، وهو عائد من حجه، وكـان يعدّ العـدة لعـودته ثانيـة، وألقوه في السجن، وأرغمـوه على دفع مبلغ ثقيل من أجل فـديتـه، فهل من الممكن لسمـوكم— بناء عليـه— إعطاء أوامــر إلى ذلك الـدوق، ليسمح لرهائن مــولانا الملـك، الذين مـايزالون محتجـزين لديه بمثابة سجنـاء مقابل جـزء من الفـدية لم يدفع بعد، لكي يغـادروا وهـم أحراراً، وكذلك حتى يعيـد كامل المبلغ، الذي تلقاه ذلك الرجل المحروم كنسياً، من مـولانا، وأن يقدم تعويضاً مناسباً مقابل الأذى الذي أنزله به وبرعيته».

حرمان الدوق كنسيا من أجل الملك رتشارد

وبعـدمـا ترافع رسـل الملك بهذه الشكوى وبشكاوى أخـرى كثيرة، أمام الحبر الأعظم، نهض عندها مـولانا البابا مع كرادلته، وحـرم كنسيا الدوق نفســه بالاسم، وبشكل عــام جميع الذين عــاملوا بعنف الملك ورجـاله، ووضع كـذلك جميع أراضي الدوق تحت الحرمـان من شركـة المؤمنين، وأعطى أوامــر إلى أسقف فيرونـا حتى ينشر قــرار الحرمــان الكنسي هذا في جميع أرجاء دوقية النمسـا، وأن يعلن ذلك كل يوم أحد ويوم عيـد، وأن يقـول مـايلي:« وإنه إذا مـاقـرر الدوق المذكـور إطاعـة قراراتنا، نأمره بفضل الرب وإرادته، أن يقوم باطلاق سراح جميع رهائن ملك انكلترا، وأن يلغي جميع الاتفـاقات، وأن يعيد جميـع المقتنيات التي أُخذت منهم من قبله ومن قبل أتباعه، وكـذلك ماكان قد تسلمه بشكل ظالم بمثــابة فـدية من أجل الملـك المذكـور نفسـه، وأن يرسـل الرهائن المذكـورين بأمـان إلى بلادهم، وبالنسبـة للمستقبل أن لايقـدم على مثل هذه الأشيـاء ثانية، بل أن يقـدم تعـويضاً مقـابل الأذى والأضرار التي أنزلها».

الموت التعيس لدوق النمسا

وجـرى التفـوه بهذا كله ضـد الدوق من قبل أسقف فيرونا، غير أنه أصر على موقفه بعـدم القبول بالوصاية الرسوليـه عليه، وفي تلك الآونة أصيبت بلاده أيضــاً بجــدب لم يسمع بمثلـه، وبالمجــاعــة أيضــاً، وبالأمراض، وفاض أيضـاً نهر الدانوب في هذه الأيام بشكل غير معتاد في بعض أجـزاء البـلاد، وغرق بتلك الحادثة غير المتـوقعـة عشرة آلاف انسـان، ولكـن على الرغم من جميع هذه الأحـداث والأشيـاء، لم يتغير غضب الـدوق، لابل بالحري إزداد، وأصيـب أخيراً هو نفســه بنـازلة لاهوتيـة، ففي يوم عيـد القديس اسطفـان، كـان يقوم بنزهة على ظهـر حصـانه مع أتباعـه وحاشيتـه، فرمح الحصـان الذي كان يركبـه بعنف،

وأصاب بحافره ساق راكبه بجرح لايمكن شفائه، وعلى الفور تحولت الساق والقدم إلى السواد والإحمرار، والتورم، ولم تستطع كمادات الطبيب تخفيف ذلك، وتعذب الدوق بشكل لايحتمل بسبب لهيب الاصابة،— كما كانوا يسمونها— وذلك بالاضافة إلى التورم، وبعد طول عذاب لم يعد قادراً على تحمله، أمر ببتر قدمه، وأخذ هو نفسه، في الوقت ذاته فأساً، وقد رفض ذلك كل واحد برعب، لكنه لم ينج بهذا من عذاب آلامه، لأنه هو وطرفه وبقية جسده بدأ يتداعى من شدة الالتهاب، وبعد هذا، أخذ يعترف بالجريمة الشريرة التي اقترفها، من خلال تآمره، ضد الملك، وتخلى عن المتبقي من المال المستحق من أجل فدية الملك، ووعد أيضاً بأنه سوف يعيد ماتسلمه، وتعهد من ذلك الوقت فصاعداً، أن يكون مطيعاً لحكم الكنسية، وعندما رآه الأساقفة في هذه الحالة من الآلام، حللوه من الحرمان الكنسي، وقبلوه في شراكة المؤمنين، وهلك بعد ذلك وسط آلام مرعبة، وبقي جسده لبعض الوقت من دون دفن، حتى تغطى بذباب مخيف، وذلك لأن ابنه رفض تنفيذ أمر أبيه، غير أنه أخيراً أجبر على فعل ذلك من قبل أصدقائه، فأطلق سراح الرهائن وسمح لهم بالعودة إلى بلادهم].

كيف أخضع الامبراطور هنري مملكة أبوليا

وفي هذه الآونة استولى الامبراطور هنري على مملكة أبوليا، وصقلية، فقد مات تانكرد الذي خلف الملك وليم بصورة غير عادلة، لأن هذا الامبراطور نفسه كان قد تزوج من أخت الملك وليم وإليها عاد الحق بالمملكة لدى وفاة أخيها.

غزوة مخيفة لاسبانيا من قبل المسلمين

تدفق في هذه الآونة ملك المغرب وانقض مع ثلاثين مقدما، وجيش من المسلمين لايمكن تعداده، من أفريقيا على اسبانيا، للإستيلاء على

أراضي ملك اسبانيا، وبعدما عاثوا في عدة مناطق أخرى بالنار، وسلبوها دون أن يوفروا أحداً لجنسه، أو مرتبته أو عمره، إلاّ الذين استسلموا بأنفسهم أمام غضبه، وقد تألف جيشه من ستة ملايين من الرجال المقاتلين، وارتعبت المسيحية كلها أمام هذه الغزوة غير المتوقعة،[وسمعوا بأن البابا اقترح الدعوة إلى عقد مجمع ديني عام، وتشكيل حملة صليبية ضدهم، يقودها رتشارد المجيد ملك انكلترا، الذي ملأت شهرته الشرق ،ونشر رعباً كبيراً في جزء كبير من أفريقيا، وكانوا قد سمعوا أيضاً بسجنه وباطلاق سراحه، وكيف أنه منذ ذلك الحين قد أرغم ملك فرنسا على الانصياع له، ولذلك عاد جميع المسلمون إلى بلادهم.

موت الراعي وارين وخلافة جون للرعوية

في التاسع والعشرين من نيسان من السنة نفسها، مات وارين راعي كنيسة سينت ألبان، بعدما شغل ذلك الكرسي لمدة أحد عشر عاماً، وثمانية أشهر، وثمانية أيام، وقد خلفه جون، الذي كان راهباً من المؤسسة نفسها، وقد جرى انتخابه في الحادي والعشرين من آب، وتلقى في الثلاثين من الشهر نفسه، المباركة من رتشارد أسقف لندن.

نيابة هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري للبابوية

وكتب في الوقت نفسه البابا سيليستين إلى جميع أساقفة انكلترا يقول:« من سيليستين إلى إخواننا المحترمين: رئيس أساقفة يورك، وجميع الأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والأساقفة الآخرين المعينين للكنائس في جميع أرجاء مملكة انكلترا، التحيات، الخ: بما أنه من مهامنا الأمر بتقديم العناية الأسقفية إلى جميع الكنائس، إننا ننظر الآن بعين تقديرنا الأبوي بشكل خاص إلى الكنيسة الانكليزية، وقد قمنا من أجل سلامة تلك المؤسسة، بناء على النصيحة العامة لإخواننا، فرسمنا، بأن

يكون أخانا المبجل هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، الذي لمحاسنه، وفضائله، وحكمته، وعلمه، تبتهج الكنيسة كلها، هو شخصياً المتولي لإدارة النيابة البابوية، وأن يمارس بارادته جميع أعمالنا من أجل رفع شأن الكنيسة، وفي سبيل سلام وسلامة المملكة كلها، خلال جميع أرجاء انكلترا، من دون أية امتيازات، أو استثناءات لكم، أو لكنيستكم ياأخانا رئيس الأساقفة، أو لأي شخص آخر، وبسلطات هذه الأحوال على هذا، نأمر كل جماعتكم، أن تقدموا الاحترام المستحق والتشريف إلى هيوبرت المذكور، بمثابة نائب للكرسي الرسولي».

لوم البابا لملك فرنسا من أجل طلاقه لزوجته

وكتب في هذه الآونة البابا سيليسين بين أشياء مختلفة كثيرة إلى رئيس أساقفة السين كما يلي:« بما أننا نمنح من قرارة أنفسنا وعواطفنا تقديراً خاصاً لملك فرنسا، قمنا بارسال ابننا المحبوب معاون الشماس، كمندوب للكرسي الرسولي ونائب له في سبيل أن يطلب من الملك المذكور وجوب معاملته لزوجته بعواطف الزوج، الزوجه التي أبعدها عنه، باصغائه لمشورة شريرة، وأن لايستمع إلى أولئك الناس الذين يرون أنه مربح القيام بزرع الكراهية وعدم الوفاق بين الناس عندما يستطيعون، ولذلك قمنا بناء على نصيحة إخواننا، بإلغاء قرار الطلاق إلغاء كلياً، وهو القرار الذي صدر مضاداً للشريعة، ونأمركم برسائلنا الرسولية هذه، ونوصي بكل دقة أخوتكم، إنه إذا ماأراد الملك المتقدم الذكر، أو رغب خلال حياتها الاقتران بواحدة مكانها، أن تتولى بعناية منعه من القيام بذلك، وذلك بوساطة سلطاتنا الرسولية».

مرسوم البابا إلى أساقفة انكلترا بشأن الأرض المقدسة

وفي هذه الآونة كتب البابا سيليستين إلى هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، وإلى أساقفته الكهنة المساعدين حول مواضيع كثيرة من بينها

حول الأرض المقدسة قوله:« إخواني، رؤساء الأساقفة، والأساقفة، الذين إليهم موكلة العناية بالأنفس، عليكم القيام بصلوات مستعجلة ومستمرة إلى الرب، حتى تقنعوا كثيراً من الناس، خاضعين لحكمكم، من أجل حمل الصليب، وأن تثيروا أنفسهم حتى يسببوا الاضطراب إلى معذبي المسيحية، ذلك أننا نأمل كثيراً جداً، وعليكم أن تأملوا أيضاً، أن يقوم الرب بتبشيركم وبصلواتكم، فيدع شبكتكم تنزل للصيد، وسوف يثير مثل هؤلاء الناس من أجل الدفاع عن البلاد الشرقية، فبفضل احسان الرب وليس بفضل قدرتهم وبراعتهم بالقتال، سوف يثورون، وأعداءه سوف يتفرقون، والذين يكرهونه سوف يفرون من أمامه، هذا وبالنسبة للذين سوف يقومون بهذا الحج في سبيل محبة الرب، وسيبذلون قصارى جهودهم وقدراتهم للوفاء بعهودهم، سوف نقوم بفضل السلطة الربانية الموكلة إلينا، بمنحهم التحليل نفسه من أي عقوبة مفروضة عليهم من قبل رجال الكهنوت، وذلك كما هو معروف بأن سلفنا قد منحوا ذلك في أيامهم، أي أن أولئك الذين سيتجشمون متاعب هذا الحج، بقلب خاشع ونفس متواضعة، سوف يكون مضيهم في هذه الرحلة بمثابة غفران لذنوبهم، وإذا ماتوا مخلصين، فإنهم سوف يحصلون على تحليل كامل من جميع آثامهم، وعلى حياة سرمدية، ولتكن سلعهم أيضاً وأسرهم من وقت حملهم للصليب تحت حماية كنيسة روما، وكذلك الأساقفة وبقية أساقفة الكنيسة، وينبغي أن لايكون هناك خلاف بشأن الممتلكات التي امتلكوها بسلام في أيام حملهم للصليب، وذلك حتى عودتهم، أو حتى تتأكد معرفة موتهم، ولتبق ممتلكاتهم بالوقت نفسه دون أن تلمس من قبل أحد أو تتأثر، والذين بعثوا بممتلكاتهم، لمساعدة تلك البلاد، سوف ينالون العفو عن ذنوبهم، وفقاً لما يقضي به الأساقفة، وبالنسبة لك أيها الأخ رئيس الأساقفة، رأينا من الموائم أن نعهد إليكم بمجهود هذا العمل، ونأمركم باستخدام نفوذكم، مع ابننا المحبوب بالرب، الملك اللامع لانكلترا، الذي عمل

هدنة لمدة ثلاثة أعوام في الأرض المقدسة، لكي يرسل فرساناً وجنداً مجهزين بشكل جيد لحماية تلك البلاد، ونأمركم أيضاً بالترحال خلال انكلترا، والقيام بحث الناس بمناسبة وغير مناسبة بشكل مستمر، والتبشير أيضاً لتحريض الناس على حمل الصليب والسفر إلى بلاد ماوراء البحر للدفاع عن الأرض المقدسة»، [وعندما وصلت هذه الرسائل إلى مسامع الملك، تحمس كثيراً للعمل في سبيل الصليب، وحث الآخرين، ولاسيما الذين رقّاهم، بكثير من الطرق، لأن يكونوا متحمسين مثله أيضاً، وكذلك في سبيله هو نفسه، ومن أجل تقدم الصليب، وكذلك في سبيل انقاذ أرواحهم، ولكي يكون أكثر تأثيراً، وجه اللوم إلى بعض الذين كانوا غير مطاوعين لأعمال الحث والندب هذه، واتخذ لنفسه شكل واعظ، وغالباً ماكرر النصيحة للذين كانوا من حوله].

عقد معاهدة بين ملكي فرنسا وانكلترا

عام ١١٩٦م، فيه أمضى الملك رتشارد عيد الميلاد في مدينة بواتو، وبعد عيد القديسة هيلاري، التقى فيليب ملك فرنسا، ورتشارد ملك انكلترا، في مؤتمر في لوافير Louviers، حيث عقدت فيما بينهما المعاهدة التالية: تنازل الملك الفرنسي للملك رتشارد ولورثته عن ايسودون Iso-udun مع توابعها، وعن جميع الحقوق التي له في بري Berry، وأوفرين وغاسكوني، وأعطاه تملكاً كاملاً لقلعة آرشي Arches، وكونتيتي أوشي Auches، وأموريل Aumarle ، وحصوناً أخرى كثيرة، هي التي استولى عليها الملك الفرنسي منذ عودته من الحج إلى الأرض المقدسة، وتنازل الملك الانكليزي إلى الملك الفرنسي عن دعواه بالنسبة لقلعة غيسور وجميع منطقة فكسين النورماندية، وفي سبيل تنفيذ هذه البنود كلها وتأكيدها، أوجدا بشكل متبادل ضمانات، وقررا غرامة خمسين ألف مارك فضي على الذي يخرق المعاهدة من الجانبين، لكن مع

مـرور الأيام، بعـدمـا تسلم رتشـارد الممتلكـات التي تقـدم ذكـرها مع الأمـاكن، ندم الملك الفـــرنسي لعقـده لهذه الصفقـة، وجمع جيشـاً كبيراً ليلقي الحصـار على أمـوريل، وبناء عليـه أمـر الملك الانكليـزي بالقيـام بحجز جميع السلع والممتلكـات التي كانت في ممالكه، والتي هي عـائدة إلى رعاة ديرة: مـارمونتير Marmontier ، وكلوني، والقديس دنس، وتشـــــــارتي Charite ، الذين كان الملك الفرنسي قد قدمهم ضمانة للمعاهدة المتقدم ذكرها، وأخـذ عليهم العهد بدفع المال المذكور آنفاً إلى الملك الانكليزي، إذا لم يلتزم الملك الفرنسي بمـراعاة اتفاقه، واستولى في الوقت نفسه الملك الفـرنسي على قلعة أموريل بالقـوة، وهدمها، وأعطاه ملك انكلترا ثلاثة آلاف مارك من الفضـة من المال المذكور آنفـاً، مقابل فـدية فرسـان ذلك الحصن، مع أتبـاعهم، وأن يسمح لهم بالمغـادرة من دون خيولهم وأسلحتهم، وبعد هذا استولى ملك فرنسا على نونانكورت Nonancourt، واستولى الملـك رتشارد على قلعة غـامي Gameges، وهكذا شغل الملكان نفسيهما في عملية الاستيلاء على القلاع.

موت وليم الذي كان من سكان لندن من قبل

وتفجـر في هذه الآونـة خـلاف في مـدينة لنـدن، ونزاع بين الأغنيـاء والفقراء حول توزيع حصص الضرائب التي يتوجب دفعها إلى الخزانة، والتي— كما قالوا— غالباً لم تفرض بالمساواة، وكان السبب في قيام هذا الخلاف هو وليم فتز— أوسبيرت Fitz- osbert، الذي قـام مراغمـة لجلالة الملك، فعقد اجتماعات للناس، وربط كثيراً منهم به بالأيمان لدى اجتماعهم، وعـاقب حتى الموت أخـاه مع رجلين آخـرين بريئين وكأنهم أدينوا بالخيـانة نحـو الملـك، وفجـر أخيراً عصيـاناً واضطراباً في كنيسـة القديـس بولص، وعندما علم فيها بعـد بأنه بسبب جرائمـه أثار غضب الملك ضده بشكل حاد، اعتصم في داخل بـرج احدى الكنائس، وكانت ملكاً خـاصـاً لرئيس الأساقفـة، وبذلك عمل قلعـة من المبنى المقـدس،

وعندما رأى بأن عصابة من الرجال المسلحين قد التفت من حوله، ولكي يتجنب الموت الذي كان يخشاه، ألقى النار في هيكل العذراء المباركة، وأحرقت هذه النار شطراً من المكان الذي كان مكرساً للرب، وسحب أخيراً من داخل الكنيسة، ونقل إلى برج لندن، حيث تلقى حكماً نهائياً، ولكي تلقي عقوبة انسان واحد الرعب في قلوب كثيرين، جرى تجريده من ثيابه الطويلة، وبعد ربط يديه خلف ظهره، وربط قدميه مع بعضهما، وضع على ظهر حصان، وجرّ خلال وسط المدينة إلى مشانق في تايبورن Tyburn ، وهناك جرى تعليقه بالسلاسل مع تسعة من أتباعه المتآمرين، وذلك بهدف اظهار أن عقوبة مماثلة سوف تنتظر الذين يجرمون بجرائم مماثلة.

وفي العشرين من تشرين أول[تشرين الثاني] من السنة نفسها جرت سيامة جون عمدة روان لأسقفية وينكستر، وفي هذا العام أيضاً بنى الملك رتشارد قلعة جديدة في جزيرة أندلي Andelys ، وذلك مراغمة لرغبات وولتر رئيس أساقفة روان، وبعد انذاره مرارا للتوقف عن هذا المشروع، وضع رئيس الأساقفة المتقدم الذكر نورماندي كلها تحت الحرمان، وبناء عليه ذهب إلى بلاط روما.

أسر هيوج دي شومونت

ونشبت في العام نفسه معركة بين أتباع الملك الفرنسي وأتباع الملك الانكليزي، وقع فيها بالأسر هيوج دي شومونت Chaumont، وكان صديقاً كبيراً للملك الفرنسي، وقد حمل إلى أمام الملك الانكليزي، الذي أعطاه سجيناً إلى روبرت دي روز Ros ، وأعطاه هذا الفارس إلى وليم دي ايبني Epinayليعتني به، وكان وليم تابعاً له، وبسبب خيانة هذا التابع نجا، وكان ذلك بعد حصوله على إذنه، فقد دلّى نفسه من سور قلعة بونفيل Bonville على التوك Tuke حيث كان مسجوناً، وهكذا قال وداعاً لهم، وغضب الملك رتشارد غضباً عظيماً من روبرت

دي روز، وأخذ منه ألفاً ومائتي مارك من الفضة لجريمته، وأمر بتعليق وليم دي ايبني على المشنقة.

أسر أسقف بوفياس ووليم دي ميرل

بعد هذا الحادث كان جون، أخو الملك وميركادوس Mercadeus أمير برابانت يقومان بغارة أمام مدينة بوفياس Beauvais وبنيتهما الاستيلاء على بعض الأسلاب، فخرج من المدينة فيليب أسقف ذلك المكان مع وليم دي ميرل Merle وابنه وعدد من الفرسان وبعض الجنود، للتصدي لهما، لكنهم وقعوا بالأسر بعد وقت قصير، وجرى قتل عدد كبير من الجنود، وفي هذا اليوم، وبعد عملية الأسر هذه، تابع النبيلان الانكليزيان نفساهما الزحف إلى ميلي Milli ، وهي قلعة كانت ملكاً للأسقف السالف الذكر، فاستوليا عليها بالقوة، ودمراهابعد ذلك، ثم عادا بعد هذا منتصرين، وأرسلا أسراهما إلى الملك الانكليزي، وبما أن الأسقف قد أسر بقوة السلاح، فقد أودع السجن، وغلّ بأغلال حديدية ثقيلة، وحدث في العام نفسه فيضان مفاجىء للسين، وتدفقت المياه وأحاطت بالأبنية المجاورة المبنية سواء من الخشب أو من الحجارة، وسببت دمارها، الأمر الذي أخاف ملك فرنسا كثيراً وموريس أسقف بيرشي، الذي كان مقيماً في باريس، وغادر الملك قصره، وأخذ ابنه لويس معه، وذهب لتمضية الليل في كنيسة القديسه جنيفا، وهرب الأسقف إلى كنيسة القديس فكتور.

حول رؤيا رآها أحد الرهبان وحول مطهرة ومكان للعقوبة القراءة حولهم مفيدة جداً

وقع في هذه الأيام واحداً من الرهبان العائدين إلى دير إيفهام Evesham مريضاً، وظل لمدة خمسة عشر شهراً يعاني من آلام مبرحة بالجسد، وكان دوما يتقيأ مايتناوله من طعام وشراب، إلى حد أنه صار

أحياناً كل تسعة أيام أو أكثر لايتناول شيئاً، أو على الأغلب بضع نقاط من الماء البارد، ولم تستطع براعة أي طبيب معالجته، بل كان كل مايعطيه إياه أي واحد من الأطباء له تأثير معاكس، وهكذا تمدد على فراشه بلا حراك، ذلك أنه فقد كل قوته الجسدية، حتى أنه لم يعد بامكانه التحرك من أي مكان مالم يجري نقله من قبل الخدم، ولدى اقتراب حلول يوم قيامة ربنا بدأ يشعر بأن الأمور باتت أسهل، وسار حول قلايته وهو يتوكأ على عصا، ثم مضى أخيراً في الليلة التي تقدمت على يوم عشاء ربنا، وهو معتمد على عصاه، ودخل إلى قاعة كبيرة، مدفوعاً إلى ذلك بتقواه، دون أن يعرف هل هو في الروح أم في الجسد، وهناك عندما كان الرهبان المحتشدون يؤدون صلواتهم الليلية المعتادة إلى الرب، شعر بضغط عظيم للرحمة اللاهوتية، وللنعمة السماوية، إلى حد أن خشوعه المقدس قد فاق الحدود، فمنذ منتصف تلك الليلة حتى الساعة السادسة من اليوم التالي، لم يستطع منع نفسه من البكاء، وتقديم الشكر للرب، ثم إنه بعث خلف اثنين من الرهبان، من الذين يسميهم رجال الدين باسم« المعترفين»، واحداً بعد الآخر، وقام هناك وهو يبكي، ومع نقاء وصفاء بالقلب، بالاعتراف لكل واحد منهما بجميع أخطائه، حتى بالأخطاء الصغيرة جداً منهم، سواء أكانت ضد القصاص أو ضد وصايا الرب، ثم إنه سأل التحليل وحصل عليه، وهكذا أمضى اليوم كله في خشوع وفي تقديم الحمد للرب.

كيف وُجد الراهب نفسه راقداً وكأنه ميت

وحصل في الليلة التالية على قليل من النوم، وعندما قرع جرس الصلوات الليلية، نهض من فراشه، وأخذ طريقه إلى الكنيسة، لكن ماالذي حدث هناك، هو الذي تحكيه الرواية التالية: ففي صباح اليوم التالي، الذي كان يوم استعداد، وعندما نهض الرهبان من أجل الصلاة الصباحية، وكانوا يعبرون أمام مكتب كهنة الكنيسة، وذلك على

طريقهم إلى الكنيسة، رأوا الراهب نفسه متمدداً ساجداً بقدمين حافيتين، أمام كرسي راعي الدير، وذلك حيث اعتاد الرهبان على التماس السماح، وكان وجهه ملتصقاً بالأرض، وكأنه يسأل السماح من واحد كان جالساً أمامه، واندهش الرهبان أمام هذا المشهد، وحاولوا أن يرفعوه، فوجدوه من دون تنفس وبلا حراك، مع عينيه وقد جحظتا نحو الأعلى، وكان بؤبؤا العينان والأنف مبللين بكمية من الدم، فصرخوا جميعاً بأنه كان ميتاً، حيث وجدوه قد فقد كل نبض في عروقه منذ زمن طويل، وبعد أمد اكتشفوا أنه مايزال يتنفس لكن بضعف، فغسلوا رقبته، وصدره ويديه بماء بارد، فرأوه في المقام الأول يرتجف قليلاً بجسده كله، لكنه مالبث أن أصبح هادئاً دون حركة، وبقيوا لوقت طويل في شك كيف يعمل، غير عارفين بشكل أكيد، هل هو ميت أم تحسن بعض الشيء، وبعد طويل وقت، وبعد مناقشات طويلة، حملوه إلى المصح، ووضعوه على فراش، وعينوا بعض الأشخاص لحراسته بعناية، ثم إنهم وضعوا كمادات على صدره، وجربوا احساسه بوخز قدميه بالإبر، لكنهم لم يعثروا على اشارات بوجود حياة فيه، وبقي على هذه الصورة ممدداً على فراشه من دون حراك لمدة يومين، أي من منتصف ليلة يوم الاستعداد حتى منتصف يوم السبت التالي، لكن في يوم السبت العظيم عندما كان الرهبان على وشك الاجتماع من أجل قداس منتصف الليل، بدأ جفنا الراهب المتقدم الذكر بالتحرك بشكل لطيف، وبعد قليل بدأ شيء رطب يشبه الدموع يسيل على وجنتيه، ومثل أي انسان ينتحب أثناء النوم، بدا وكأنه يتنهد بشكل متوالي، ثم ظهر بعد قليل كأنه يتفوه بكلمات في حلقه بشكل عميق، لكن بصوت كان من الصعب سماعه، وبعد أمد عاد تنفسه إلى درجة ما، ثم إنه بدأ يدعو القديسة مريم قائلاً: « يامريم المقدسة، لأي جريمة حرمت أنا من السرور إلى هذه الدرجة العظيمة»؟ وأخذ وفق هذه الطريقة يكرر هذه الكلمات وكلمات أخرى، فجعل بذلك معروفاً، من قبل الواقفين،

حرمانه من بعض السرور العظيم، وبعد هـذا، هزّ رأسه، وكأنه قد أفاق من نوم عميق، وأخذ يبكي بمـرارة، وشرع بالتنهد، ودموعـه تتدفق من دون توقف، ثم إنه بيدين مغلقتين، مع أصابعه وقد تجمعت مع بعضها، أنهض نفسه فجأة، وأخذ وضع الجلوس، واضعـاً رأسه على ركبتيه وقد غطاه بكفيه، لأنه بدأ بنواحه ونحيبه، وبعد كثير من المحاولات من قبل الرهبان، ليقوم بعد ذلك الصوم الكبير والمعاناة الطويلة، فيتناول شيئا ما ليأكله، أخـذ قطعة صغيرة من الخبز، ثم استمـر يقظاً وهو يصلي، ولدى سـؤاله عما إذا كان يتـوقع النجـاة من مـرضه، أجـاب:« سـوف أعيش طويلاً بما فيه الكفاية، لأنني شفيت تماما من ضعفي»، وفي الليلة التالية، أي ليلة قيامـة ربنا، وعندما قرع الجرس من أجل الصـلاة الليلية، ذهب إلى الكنيسة من دون مساعدة، ودخل إلى السـدة، وهو مالم يفعله خلال الأحد عشر شهـراً الماضية، وفي اليـوم التالي بعدمـا أدى صلواته بشكل موائم، عدّ جديراً بالانعـاش عن طريق المشاركة في تناول العشاء الرباني المقدس.

كيف حكى الراهب المتقدم ذكره خبر الرؤيا التي رآها

وبعـد هذا التحق هذا الراهـب نفسـه بحماس في الواجبـات الدينيـة للرهبان الآخرين، وهم بدورهم رجوه بالحاح اشباع رغباتهم بأن يحكي لهم الذي حـدث له، وكل الذي رآه في منامـه، لأنهم كـانوا مقتنعين بأن أشياء كثيرة قد أريت له، وذلك من خلال علامات واضحة، ومن سماع كلماته، ومن رؤية نحيبه المتـواصل عندما أفاق في اليوم المتقـدم، وبعدما أجلهم لبعض الوقت، صـاروا ملحين في طلبهم، قـام أخيراً وهو يبكي ويتأوه، وبصـوت متحشرج، فتحـدث عما ألم بـه وظروفـه وفق الترتيب التالي حيث قال:« عندما كنت— كما تعلمون— أعاني من عجز جسدي طويل وحاد، صرت أبارك الرب بالقول والتفكير، ورجعت إليـه شاكراً لتنازله بمطاردة عبـده الحقير بعصـاه الأبوية، وبعـدمـا فقـدت كل أمل

بالشفـاء، شرعت بإعـداد نفسي بقدر مـاأستطيع حتى أتمكن من النجـاة من عـذاب الوضع المستقبلي، بما أننـي كنت على وشك الاستـدعـاء من الجسـد، وفيما أنا متفكر بشكل مثابر حـول هذه الأشياء، أغـويت في أن أسأل الرب أن يتلطف بطريقـة مـا، فيكشف لي أحـوال الحيـاة المقبلة، وماهي الأوضاع بعد هذه الحيـاة، وبعدما تتحرر الأرواح من الأجساد، ذلك أنني بمعرفة ذلك أصبح أكثر تأكيداً بوضوح من أنا، وما أنا مقبل عليه، لأنني اعتقـدت أنني سوف أغادر هذه الحيـاة وشيكاً، ثم ماالذي أنا علي أن آمل به، ومـاالـذي علي أن أخـاف منه، وذلك بهدف أن أنال قدر مايمكنني من عطف الرب، وعنـدما كنت أتقصى في هذه الأوضاع المتقلقلة، وبرغبة مني حتى أحقق هذا، ثابرت دونما انقطاع على التـوجه بالدعاء، أحيانا إلى ربنا مخلص العالم، وأحيانا أخرى إلى العذراء المجيدة، إنما أملت في أن أنال تلبيـة لطلبي التقـوي، بشكل خـاص من خـلال شفـاعـة القـديس نيقـولا المعترف الذي هو، الأعظم تقـوى وقـداسـة، ورأيت في احـدى الليـالي مـع دنو بداية الصـوم الكبير، الذي انقضى مـؤخـراً، وأنا نائم قليلاً، قـد ظهـر لي شخص مبجل، وكله بهاء، وقـد خاطبني بلطف زائد، بما يلي:« أيها الابن الأعظـم محبة، خشوعك عظيم في الصلاة، ولقد امتلكت مثابرة عظيمة في مقصدك، ولن تكون أهداف صلاتك المستمرة، من دون ثمار من رحمة المخلص، وكن منذ الآن هادئاً في تفكيرك، وتابع الخشوع في صـلاتك، لأنه من دون شك سوف تحقق على الفـور طلب التماسك»، ولدى الفـراغ من حـديثـه هذا، اختفى شخص المتحدث، واستيقظت».

كيف رأى الراهب نفسه عندما كان يعبد صليب ربنا أن هذا الصليب أصبح دموياً

« وصحيح أنني استيقظت، غير أنني حـافظـت على رؤية هذه الرؤيا في عقلي باستمـرار، لمدة ستـة أسـابيع انقضـت، وعندمـا نهضت في ليلة

العشاء الرباني، من أجل الصلاة الليلية، وتلقيت— كما تذكرون— القصاص على أيديكم، شعرت في وسطه بحلاوة في الذهن عظيمة تغلغلت في جسدي، حتى أنني في اليوم التالي شعرت أنه ممتع جداً البكاء من دون توقف، كما رأيتموني بأعينكم، وفي الليلة التالية بعد هذه، التي كانت ليلة الاستعداد، غرقت في نوم هادىء، لدى اقتراب ساعة النهوض للصلوات الليلية، ثم إنني سمعت بعض الأصوات، إنما بوساطة من أوصلت إلى أذني، أنا لاأدري، والذي أدريه أنها قالت:« انهض، واذهب إلى المصلى، واقترب من المذبح المكرس لعبادة القديس لورانس، وستجد خلف ذلك المذبح صليباً، هو الذي جرت عادة الدير بعبادته في يوم الاستعداد، وإنك مالم تفعل ذلك، من غير الممكن انجاز أي شيء وتحقيقه من قبلك في اليوم التالي، لأنه قد بقيت أمامك رحلة طويلة، وبناء عليه تعبد صليب ربنا في تذكر له نفسه، وقدم قربانا من قلب متواضع ونادم، واعلم بشكل مؤكد أن تقدمتك الصادرة عن تقواك سوف تكون مقبولة لدى الرب، وأنك سوف تبتهج بعد ذلك ابتهاجاً عظيماً بغناها»، وأفقت بعد هذا من النوم، وذهبت— كما بدا لي— مع الرهبان، لسماع الصلاة الليلية، التي كانت قد بدأت، وقابلت في ردهة الكنيسة رجلاً مسناً، مرتدياً ثياباً بيضاء، وكان هذا هو الذي تلقيت منه في الليلة المتقدمة القصاص، ثم إنني أشرت إليه إلى العصا المعتادة، ليقدم لي قصاصاً، الذي من أجله ذهبنا إلى بيت مجمع الكهنة، وبعدما نفذ مطلبي، عدنا إلى المصلى، ثم إنني ذهبت بمفردي إلى المذبح الذي ذكر لي أثناء نومي، فخلعت حذائي، وزحفت على ركبتي، وقصدت المكان الذي أخبرت أن فيه يمكن العثور على صليب مخلصنا، وحسبما كنت قد أخبرت قد وجدته هناك، وإثر ذلك غرقت كليا بالدموع، وألقيت بنفسي على الأرض بطولي، حتى أستطيع تعبده بخشوع أعظم، وعندما كنت راكعاً أمام تمثال المصلوب، وكنت أقبله على الفم والعينين، شعرت ببعض النقاط تتساقط بلطف على جبيني،

ولدى تحريكي لأصـابعي، اكتشفت من لونهم، أنهم دم، وعـلاوة على ذلك رأيت الدم يتدفق من جـانب المصلوب على الصليب، وكأنه يتدفق من عروق انسان حي، عندمـا يجري قطعها لترك الدم يسيل، وأمسكت الدم بيـدي، ولست أدري مقـدار النقاط التي تسـاقطت، وبهذه الدمـاء قمت بخشـوع بمسح عيني، وأذنيّ، وفتحات أنفي، ولاأعـرف إن كنت قـد أذنبت بعـد هذا، فقـد ابتلعـت نقطة واحـدة، وفعلـت ذلك أثناء انفعالي، أما النقـاط الأخرى التي أمسكتها بيدي، فقـد قررت الاحتفاظ بها».

كيف انفصل هذا الراهب نفسه عن الجسد ودخل المكان الأول للعقوبة

« وبعـدمـا عبـدت هكذا صليب ربنا، سمعت بعـد وقت خلفي، صـوت الـرجل المبجل، الذي كنت قـد تلقيت منه في الليلة الفـائتـة، القصاص، ثم انني تركت حذائي وعصاي قرب المذبح، ولاأدري كيف أنني ذهبت إلى مجمع الكهنة، وبعـدمـا تلقيت القصـاص، ست مـرات متفرقات، كما كنت قد فعلت من قبل، تلقيت التحليل، وقد جلس هذا الرجل العجـوز في كـرسي راعي الدير، فسجدت بنفسي أمـامـه، ثم إنه اقترب مني، وقـال لي الكلمة التـاليـة فقط:« اتبعني»، وبعـدما أقـامني، أمسك بيمينـي بثبـات، إنما بلطف، وقـد بقينا طـوال الوقت ويـدينا متشـابكتـان مع بعضهما، وحـرمت في ذلك الوقت من جميع مشـاعـري الجسـدية والعقليـة، ثم إننا سرنا على طـريق سـوي ناعم باتجاه الشرق، حتى وصلنا إلى قطاع واسع مـن المنطقـة، مخيف أن تنظر إليـه، له وضع مستنقع، قـد تشـوه بصلصـال كثيف، وكـان في ذلك المكان حشـد كبير جداً من الناس، أو الأرواح، لايمكن لأحد تعـدادهم، وكانوا معرضين لأنواع من العـذاب لايمكن وصفهـا وذكـرها، وكـان في ذلك المكان حشد كبير من كـلا الجنسين، من كل وضع، واحتراف، ومـرتبة، وجميع

أنواع المذنبين الذين أدينوا وحكم عليهم بالتعـذيب، وذلك وفقـاً لتنوع حـرفهم، ودرجات آثـامهم، ورأيت خلال فسحـة امتـداد ذلك السهل، الذي من غير الممكن وصول نظر الانسان إلى أطرافه وشاهدت حشوداً من التعساء قـد جمعوا على شكل أرتال، وصنفوا إلى فئات وفقـاً للتشابه بين جرائمهم واحترافاتهم، وكانو جميعاً يحترقون بشكل متساوي، مع أن صرخـاتهم كـانت متنوعـة، ولاحظت بـوضـوح بين جميع الناس الذين شاهدتهم، الذين يعاقبـون لأنواع من الذنوب، كل حسب طبيعة ذنبهم، كـانت درجـة عقــوبتهم، حيث كـانوا يكفــرون وقتهــا عن ذنوبهم وجرائمهم، أو كـانوا— بفضل وساطـة آخرين— قد وضعـوا في مكان النفي، وحصلت العقــوبـة على اذن بتنفيـذهـا في منطقــة سماوية، هذا ورأيت بعضهم يتحملون عـذاباً أشد قسوة بعقل هـادىء، وكأن شعوراً بالمثـوبة قـد أعـدّ من أجلهم، ولذلك كـانوا يفكرون باستخفـاف بآلام العـذاب المرعب الذي كـانوا يعـانونه، ورأيت بعضهم يقفـز فجأة، من مكان تعـذيبهم، ويأخـذون طريقهم بقـدر مايستطيعـون من سرعـة إلى أطراف ذلك المكان، وبعد احتراقهم بشكـل مخيف، ولدى ظهورهم من البؤر، يركض المعذبون نحـوهم بمذاري، ومشاعل، وكل نوع من أنواع أدوات التعذيب، ويعيدونهم إلى مواضع تعذيبهم مجدداً، لينزلوا بهم كل نوع من أنواع العذاب، ومع أن هـذا كان يصاب بجـراحة، وهذا يطعن حتى القلب بضرباتهم، إنهم كـانوا يعـودون بعد ذلك، ويتـدرجـون من أقسى أنواع العذاب، إلى أقسى أنواع الآلام، لأن بعضـاً من الأكثر آثاماً هناك يبقـون في مـوت شنيع، دون المرور بمـزيد من العـذاب الشـديد، وكـان كل منهم يعـامل وفقاً لما عملوه من منـافع أو اقترفوه في افعـالهم الماضية، أو بالأعمال الجيـدة لرفاقهم، والذي رأيتـه كان أنواعـاً لاحدود لها من العذاب، فبعضهم كان يجري شبه أمام النار، وكان آخرون يجري قليهم بالمقـالي، وكـانت مســامير حمراء لشـدة الاحتراق تدفع إلى داخل بعض عظامهم، وجـرى تعذيب بعضهم في نتن مرعـب في حمامات من

القار والكبريت، ممزوجين برصاص ذائب، وبنحاس وبأنواع أخرى من المعادن، وكانت هناك هوام ذوات حجوم هائلة لها أسنان مسمومة يلتهمون بعضهم بها، وجرى وضع بعضهم من ذوي المراتب العالية على خوازيق لها أشواك نارية، وقد مزقهم المعذبون بمساميرهم، وجلدوهم جلداً مبرحاً، ومزقوهم بأنواع من الآلام الرهيبة، ورأيت في ذلك المكان كثيرين كانوا معروفين بالنسبة لي، وكانت لي علاقة وثيقة بهم أثناء هذه الحياة، رأيتهم يتعرضون لأنواع من العذاب، وكان بعضهم أساقفة، وبعض آخر رعاة ديرة، وبعض من مراتب أخرى، بعضهم من رجال اللاهوت، وكان بعضهم في مناصب علمانية، وبعضهم ذوي مناصب ديرية، فلقد رأيت كل هؤلاء، ورأيت الذين كانوا أقل دعماً بامتيازاتهم الشرفيه في الحياة الماضية، الأكثر لطفاً في تعرضهم للعذاب الذي أوقع بهم، وأخبركم في الحقيقة أنني أعرف إن مالاحظته بشكل خاص، هو أن جميع الذين عرفتهم بأنهم كانوا قضاة للآخرين، أو أساقفة في هذه الحياة، كانوا يتعذبون أكثر من الآخرين، وذلك مع درجات متصاعدة من الشدة، ويبدو أنه ممل بالنسبة لي الحديث عن شدة العذاب الذي تلقوه وهم يستحقونه، أو عن الذي عانوا منه، وكم كانت الأمور واضحة بالنسبة لي، وليكن الرب شاهداً عليّ، أنني لو رأيت واحداً، كان قد قتل جميع رفاقي وأقربائي، وحكم عليه بمواجهة مثل ذلك العذاب، أنا على استعداد لمواجهة الموت— إذا كان ذلك ممكنا— الدنيوي ألف مرة، من أجل انتزاعه من ذلك العذاب، لأن جميع مارأيته هناك من تعذيب، فاق جميع معايير الآلام، والحدة، والتعاسة».

حول المكان الثاني للتعذيب في المطهرةوأنواع العذاب

« بعدما تجاوزنا مكان التعذيب، مررت وأنا ودليلي وتابعنا سيرنا دون التعرض للأذى، مثلما فعلنا في أماكن التعذيب الأخرى، التي

سأتحدث عنها فيما يلي: ووصلنا بعد ذلك إلى مكان آخر للتعذيب، وقد انفصل المكانان عن بعضهما بجبل لامس بارتفاعه السحاب تقريباً، وقد عبرنا قمته بسهولة، وسرعة، وكان يوجد في الجانب الأقصى لهذا الجبل واد عميق ومظلم، محاط من كل جانب بشعاب من الصخور العالية، لايمكن فوقها للنظر أن يمتد، ويوجد في قعر الوادي نفسه بعضاً من المياه، لاأعرف إن كانت نبعاً أم آسنة، وهذه المياه لها مساحة واسعة جداً ومرعبة بسبب نتانتها، وهي تصدر بشكل دائم أبخرة ذات ألوان لاتحتمل، ويصدر جانب الجبل المطل على الجهة الأولى من البحيرة ناراً تصل إلى السماء، ويوجد في الجهة المرتفعة المقابلة من التلة نفسها برد هائل، سببه الثلج، والبرد، والعواصف الهوجاء، إلى حد أنني اعتقدت أنني لم أشهد من قبل أي شيء مرعباً ومزعجاً من البرد مثله في ذلك المكان، والمنطقة الواقعة فوق الوادي، واحتلت جوانب الجبلين، اللذان يحملان هذين المظهرين المرعبين للحر والبرد حشود من الأرواح، عددها من الكثرة مثل نحل في أيام طيرانها، وعذاب هذه الأرواح بشكل عام، هو رميها في البحيرة الآسنة أولاً، ثم في وقت آخر، لدى خروجها من هناك، يجري التهامها من قبل لهب هائل ليتصدى لها هناك، وأخيراً بعد أمد من قبل كرات متحركة من النار، وكأنها شهب خارجة من أتون، حيث كان يطوح بها نحو العالي، ثم تسقط إلى قعر الشاطىء الآخر، ثم كانت تعاد ثانية إلى زوابع الرياح، وبرد الثلج، وصقيع البرد، ثم يرمى بها من هناك، وأثناء طيرانها بسبب عنف العواصف، كان يلقى بها ثانية في نتانة البحيرة، والنيران الملتهبة بغضب، وجرى تعذيب بعض الأرواح بالبرد، وبعضها الآخر بالحر، لمدة طويلة، وأبقي بعضها لمدة طويلة في البحيرة الآسنة، ورأيت آخرين مثل زيتون في المعصرة، قد عصروا وتمازجوا معاً في وسط لهيب غير متوقف، وهو أمر مرعب حكايته، وكانت أوضاع الذين كانوا يعذبون هناك وقتذاك كما يلي: لقد أرغموا من أجل انجاز طهارتهم على المرور خلال وجه

تلك البحيرة من البداية حتى النهاية، ولقد كان هناك— على كل حال— درجات كبيرة من التميز بين أولئك الذين كانوا يتعذبون في هذا المكان، ذلك أن بعضهم قد سمح لهم بمرور سهل وسريع، وفقاً لفضائلهم ، والمساعدة التي قدمت لهم بعد موتهم، في حين جرت عقوبة الذين كانوا من المقترفين لجرائم أعظم، أو نالوا مساعدة أقل بوساطة قداسات رفاقهم، بشكل أكثر حدة، وبمدة أطول، لكنهم جميعا، كانوا كلما اقتربوا أكثر من نهاية البحيرة، صاروا أقل شدة في التعرض للعذاب المتبقي، ذلك أن الذين وضعوا في البداية شعروا بالعقوبة والعذاب بحدة أكبر، علماً بأنهم لم يتألموا سواء، وأخف أنواع العذاب في ذلك المكان، كانت أكثر وحشية من أشد أنواع العذاب العائدة للمكان الأول الذي رأيناه من قبل، ورأيت في مكان العذاب هذا، وعرفت عدداً أكبر من المعارف، ممن رأيته في المطهرة الأولى، وفي الحقيقة، لقد تحدثت مع بعضهم، وكان بين من ميزته هناك صائغ كان لي معروفاً بشكل جيد في الحياة، وعندما رآني دليلي أمعن النظر إليه، سألني عما إذا كنت أعرفه، ولدى معرفته بأني كنت أعرفه بشكل جيد قال لي:« إذا كنت تعرفه، تحدث إليه»، ونظرت الروح إلينا، وظهر أنها عرفتنا بوساطة دلائل من السرور لايمكن وصفها، وقدمت الشكر إلى الرجل الذي كان دليلي، وبيدين ممدودتين، وبانحناءات لجسدها تعبدته، وقدم الرجل له الاجلال وشكره كثيراً لتلطفه بالحديث إليه، ولدى صراخه المتوالي قائلاً:«ارحمني يا نيقولا المقدس» سررت لاعترافه باسم شفيعي القديس نيقولا، الذي أرجو أن أنال منه الخلاص في كل من الجسد والروح، ولدى سؤالي بعد هذا الصائغ كيف مضى هكذا سريعاً خلال العذاب الوحشي، رأيته يتألم، ثم أجاب قائلاً:« أنت ياصديقي، وجميع معارفي، الذين رأوا خلال حياتي، بأنني قد حرمت من تأييد جميع الايمان المسيحي، مثل الاعتراف، وقربان الموت، وقد عددت من قبل المسيحيين رجلاً ضائعاً، دون أن يعلموا برحمة مولاي، الذي هو معي، وأعني

بذلك القديس نيقولا، الذي لم يتركني، أنا عبده التعيس، أعاني من موت مدان سرمدي، لأنه الآن، ودوما، منذ أن جرى تعييني لمكان العقوبة هذا، وعندما كنت أعاني تحت العذاب الشديد، جرى انعاشي مرارا بوساطة زيارة رحمته، هذا ربما أنني كنت في عملي بالذهب، الذي هو حرفتي، قد اقترفت كثيراً من أعمال الغش، وأقوم الآن بأقسى أنواع التكفير، فقد قذفت مراراً وسط كومة من المال المحترق، واللهب الذي لايحتمل، وغالبا ماأرغمت بفم مفتوح على ابتلاع هذه النقود كلها، وعلاوة على ذلك غالباً ماأرغمت على تعداد هذه النقود والشعور بأن يدي وأصابعي التهمت واحترقت بوساطتهم»، ثم إنني سألته، هل يستطيع الناس بوساطة أية وسيلة مخلصة تجنب مثل هذا العذاب المرعب، وعلى هذا أجاب وهو يتنهد:« إذا ماكتب الناس بأصابعهم يوميا كل واحد على جبينه، وعلى الأجزاء القريبة من قلوبهم» « يسوع الناصري، ملك اليهود»، فإن عناصر الايمان هذه سوف تحفظه من دون شك وتبقيه دون أن يصاب بأذى، وهذه الأماكن ذاتها سوف تشع بعد الموت بضوء رائع، هذا وأشياء أخرى كثيرة قد سمعتها منه، لكن دعونا الآن نسرع إلى وصف أشياء أخرى، وليكن فيما قيل كفاية».

مكان التعذيب الثالث والأنواع المضاعفة من العذاب

« ثم إنني قمت مع دليلي بمغادرة هذا الوادي، الذي يعرف حقاً باسم وادي الدموع، وهو الذي صرنا إليه في المكان الثاني، ووصلنا إلى سهل واسع قائماً في الأسفل في قلب قعر الأرض، وهو مابدا أنه لايمكن الوصول إليه، إلاّ لشياطين التعذيب، والأرواح المُعَذِّبة، وكان وجه هذا السهل مغطى بشكل فوضوي كبير ومخيف، ممزوج بدخان الكبريت، وبسحب من النتانة لايمكن تحملها، مع لهب قار أسود، وهذا كله كان متصاعداً من جميع الاتجاهات، وقد اختلط بطريقة مرعبة، خلال جميع تلك الفسحة الفارغة، ولقد امتلأ وجه المكان بحشود من

الهوام، مثل إمتلاء ساحات البيوت وتغطيتها بالطفح والاندفاعات، وهؤلاء مرعبين فوق التصور ولهم أحجام عملاقة وأشكال مشوهة، مع وجود فتحة بين الفكين، وكانوا ينفثون بنار مروعة من فتحات آنافهم، فتمزق حشود المخلوقات التعيسة بشراهة، حتى أنه مامن أحد كان ينجو منها، والشياطين تركض في جميع الاتجاهات، مغضبة مثل مخلوقات مجنونة، فتستولي على المخلوقات التعيسة، وتقوم على الفور بتقطيعها إلى قطع، قطع بمخالبها النارية، هذا حينا، وحينا آخر تمزق جميع أجسادها وتفصل اللحم عن العظم، ثم تلقيهم في وقت آخر في النار، وتذيبهم مثل إذابة المعادن، ثم تعيدهم على شكل لهب محترق، واعلموا— يشهد الرب— أنني لاأذكر شيئاً، أو ما أذكره قليلاً عن عذابات ذلك المكان، لأن الرب وحده يعرف، أنني رأيت في تلك الفسحة الضيقة من الوقت، هؤلاء التعساء من المخلوقات، قد دمروا بمائة نوع، أو أكثر، من أنواع العذاب ثم أعيدوا على الفورمجدداً، ومجدداً تحولوا إلى لاشيء تقريباً، ثم أعيدوا مجدداً، لأن حياة ضائعة تسببت في تعذيبهم في ذلك المكان، ونظراً لتعدد أنواع العذاب، لم تكن هناك نهاية لآلامهم، لأن لهب تلك النار هو ملتهم إلى حد أنك تظن أن النار العادية أو الحمى هي دافئة، مقارنة بها، وجمعت الهوام الميتة والممزقة إلى قطع، وتكدست في أكوام تحت التعساء، تملأ كل شيء بنتانة لاتحتمل، بشكل فاقت به جميع أنواع الآلام الأخرى، ويبقى ماهو أكثر مقتاً وحدة من كل شيء، هو ماستتحدث عنه؛ لأن جميع الذين عذبوا هنا، كانوا مذنبين بحياتهم بشرور غير مذكورة لها قيمتها عند المسيحيين، أو حتى عند الكفار أو المشركين، فقد جرت مهاجمة هؤلاء بشكل مستمر من قبل تنينات لها مظهر ناري، ومرعبات بشكل لايمكن وصفه، وهم لايعبأون بخصومهم ويقترفون عليهم الجرائم الملعونة، التي أذنبوها وهم على الأرض، وتتوالى صرخاتهم المخيفة حتى يغشى عليهم، ويظهرون أنهم موتى، ووقتها يعودون ثانية، ويتعرضون لعذابات

جديدة، وإنني أرتجف وأنا أحكي ذلك، وأنا مربك إلى أقصى الحدود تجاه قذارة جرائمهم، ذلك أنه حتى ذلك الوقت لم أسمع ولم أفكر أنه يمكن لكلا الجنسين أن يفسدوا بمثل هذه القذارات، أو الخزي، وهناك أعداد لاتحصى من الحشود التعيسة جداً، بشكل محزن جداً أن تأسف عليها، وأشكال الكثيرين في ذلك المكان، أنا لم أرها ولم ألاحظها، لأنني كنت مغلوباً بالرعب من الحجم الهائل للتعذيب، والقذارة، ووساخة النتانة، وكان ذلك مضايقاً إلى أبعد الحدود، حتى أنني لم أستطع الوقوف هناك للحظة واحدة، أو أن أنظر إلى ماكان يجري هناك، وحدث أخيرا أن صرخ أحدهم وسط الجلبة بصوت مرتفع:« واأسفاه، لماذا أنا لم أتب»؟ ولقد كان أنينهم مرتفعاً إلى حد أنه يخيل إليك، أن جميع المتألمين في العالم كانوا ينوحون هناك».

حول أحد المحامين وعذابه

« ومع أنني تجنبت قدرما استطعت النظر إلى شخص أثناء مروري هناك، لم أتمكن الهروب من رؤيته، وكان واحداً من رجال الدين، وكنت قد عرفته فيما مضى، وقد عدّ أثناء حياته رجلاً بارعاً جداً، وكان واحداً من الذين تولوا أعمال المحاماة، والتعامل مع القوانين، ولهذا السبب كان بالنسبة للموارد اللاهوتية، يغدو يومياً أغنى من البقية، ولقد دهشت تجاه حجم آلامه، ولدى سؤالي له عما إذا كان يتوقع الحصول على رحمة ما، أجابني وهو يصرخ« واأسفاه، واأسفاه، والويل لي، إنني أعرف، وأنا أعرف، أنني لن أتلقى رحمة في هذا الجانب من يوم القضاء، ثم بعدئذ أنا غير متأكد، لأنني منذ أن أخضعت إلى هذه الآلام، فإن عذابي يزداد سوءاً، ويجرني من سيء إلى أسوأ»، فقلت له: لماذا لم تقم أخيراً بالاعتراف بذنوبك، وتبت»؟ فأجابني؟« لأنني كنت آمل بالشفاء، فالشيطان قد ضللني، وكنت أخجل من الاعتراف بمثل تلك الجرائم المهينة، خشية أن أبدو غير محترم أمام الذين بدوت أمامهم مشهوراً

ونبيلاً، ولقد اعترفت بواحد من أخف آثامي إلى راهب، ولدى سؤاله لي عما إذا كنت واعيا ومتذكرا لذنوب أخرى، طلبت منه وقتها أن يتركني، ووعدت بأن أدعه يعرف، إذا ماعاد أي منها إلى ذاكرتي، وعندما غادر، وابتعد قليلاً، شعرت بنفسي أنني أموت، وعندما أُعيد إليّ من قبل خدمي وجدني أنني قدمتّ، ولهذا مامن واحد من أنواع العذاب الألف التي أتحملها يوميا يعذبني بقدر عمل تذكر آثامي، لأنني أرغمت بالفعل على أن أكون عبداً لدناءة ضعفي السالف، لأنه بالإضافة إلى عظمة هذه العقوبة التي لايمكن وصفها، أنا مسحوق بعار لايمكن تحمله، عندما أظهر على أنني واحد لعين بسبب هذه الآثام الكبيرة»، وفي اللحظة التي كان يتحدث بها هكذا إليّ، رأيته يتعذب بطرائق لاتعدّ ولاتحصى، وقد تناقص في وسطها حتى تلاشى وأصبح لاشيء، وذاب بقوة الحرارة، مثل ذوبان الرصاص، وسألت أنا أيضا القديس نيقولا، الذي وقف إلى جانبي، عما إذا كان هذا العذاب يمكن أن يخفف بأي نوع من العلاج، فأجابني:« عندما يحل يوم الحساب، وقتها سوف يجري تنفيذ إرادة المسيح، لأنه هو وحده يعرف قلوب الجميع، وعندها هو سوف يعطي إلى الجميع جزاء عادلاً»، وفيما بعد، عندما عدت إلى جسدي، جاء ذلك الكاهن الذي إليه اعترف ذلك المحامي بذنوب خفيفة، ودعا الرب في حضور كثيرين وعدّه شاهداً على أن ماقلته كان صحيحاً، لأن مامن أحد عرف هذه الأشياء، إلاه هو نفسه، ولقد أسقطت ذكر عذاب الكثيرين ممن شاهدتهم، خشية أنني إذا ماتكلمت أكثر منهم، سوف أسبب الغثيان إلى قرائي، وليكن في هذه الاختيارات القليلة كفاية».

الرؤيا التي رآها الراهب نفسه حول المجد السرمدي للمباركين

« أما وقد قمنا بالوصف الجزئي للأشياء التي رأيناها من أماكن العذاب والعقوبة للتعساء، بقي علينا أن نتحدث عن مواساة الذين

كانوا في الراحة، وعن المجد السرمدي للمباركين، الذي رأيناه بأعيننا، فبعدما سرنا لوقت طويل، وسط مختلف أنواع العذاب التي قمت بذكرها أعلاه، وبعدما رأيت مختلف أنواع آلام التعساء، ولدى متابعتنا طريقنا نحو المناطق الداخلية، بدأ الضوء بالظهور على درجات بشكل مريح أكثر، وهنا كانت الروائح جميلة وطيبة، وهنا كان السهل الغني مزدهراً بمختلف الأنواع الكثيرة من الورود، التي منحتنا سروراً لايمكن وصفه، ووجدنا في هذا السهل آلافا لاتحصى من الناس أو الأرواح، الذين بعدما عبروا من خلال عقوباتهم، كانوا يتمتعون هناك بالراحة السعيدة للمباركين، وكان الذين وجدناهم في الشطر الأول من هذا السهل، يرتدون أردية بيضاء بالفعل، غير أنها لم تكن لامعة، ومع ذلك لم يظهر عليها أي سواد أو بقع، مع أنها لمعت بأدنى درجات البياض، ورأيت بين هؤلاء عدداً كانوا معروفين لدي من قبل، وقد لاحظت بينهم راعي دير قدم مؤخراً من أماكن العذاب، وقد لبس ثياباً غير ملطخة، مع أنها لم تكن كثيرة اللمعان، ورأيت هناك ولاحظت واحداً من رؤساء الرهبان، كان بعد تحريره من جميع العقوبات يتمتع بسلام سعيد مع أرواح المستقيمين، وكان يأمل بالتأكيد بالرؤيا اللاهوتية التي كان على وشك نيلها مكافأة له، ورأيت في ذلك المكان نفسه، كاهنا كان قد امتلك نعمة الوعظ متحدة مع مثالية الحياة الجيدة، وقد حرر من الذنب كثيراً من الناس ليس فقط في أبرشيته التي كان مسؤولاً عنها، بل أيضاً من الذين كانوا بعيدين عنه، وكذلك بتعاون الرب، وبإضفائه مجداً لايمكن وصفه على كثيرين، مثلما أضفاه عليه نفسه».

مكان الراحة الثاني ومجد الساكنين هناك

ولدى متابعتنا السير من هناك نحو داخل منطقة الحلاوة هذه، ووضوح الضوء، وطيب الرائحة التي انتشرات أكثر، وقد عدّ جميع الذين سكنوا في هذا المكان بمثابة سكان للقدس العلوية، وكانوا قد

عبروا خلال عقوباتهم بسهولة كبيرة جداً، لأنهم كانوا الأقل مشاركة بشرور العالم، والذي رأيناه لدى متابعتنا السير، لايستطيع اللسان التعبير عنه، كما أن الضعف الانساني غير مؤهل لوصفه، لأن من الذي هو جدير أن يبين بالكلمات، كيف أنه وسط الأرواح المباركة التي هي آلاف لانهاية لها قد وقفت هناك، وكأنها واقفة حول آلام الرب ذات المهابة المقدسة، والمخلص التقي للبشرية نفسه ظاهر وكأنه معلق على الصليب، والدماء تسيل من جسده كله بسبب الجلد، والاهانة بالبصاق، والتتويج بالشوك والمسامير قد دفعت إلى داخله، وقد طعن بالرمح، بينما تدفق نهر من الدماء فوق يديه وقدميه، وسال الدم والماء من جانبه المقدس، وإلى جانبه وقفت أمه، لكن الآن ليست قلقة ولاحزينة، بل مسرورة تنظر بملامح هادئة جداً، فهذا المشهد غير ممكن وصفه، فهل يمكن لأحد، في الحقيقة، تخيل بأية رغبة ركض الجميع نحو هذا المشهد، وأية تقوى توفرت بين الذين شاهدوه، وأية خشوع كان هناك، وكم كانوا كثرة الذين كانت مؤشراتهم تعبر عن الشكر لهذه النعمة العظيمة؟ ولدى تفكيري بعمق أكبر حول هذه الأشياء، لست أدري فيما إذا كان الحزن أو الخشوع هو الذي ضلل عقلي غير السعيد، ذلك أن الدهشة والاعجاب حرماني من الشعور، وكان الخشوع عظيماً إلى حد توجب معه قهر الشيطان، بهذا الازدراء، وأن تهزم جهنم، وتحرم من أسلحتها، وأسلابها، وأن يتعافى الانسان الضائع، وأن يجري انتزاع فرائس الشياطين من بيت جحيمهم السام، وأن يوضعوا في السماء بين جوقة الملائكة، وأشياء كثيرة أنا رأيتها هناك وسمعتها، أخشى من الحديث عنها، حتى لاتبدو غير معقولة ولايمكن تصديقها من قبل كثيرين، وأخيراً، بعد امضاء وقت طويل في النظر إلى هذه الرؤيا المباركة نفسها، اختفت فجأة، وفي المكان الفارغ، حيث كانت هذه المعجزة المجيدة موجودة، عاد الجميع وهم مسرورين، ورجع كل واحد إلى مكانه المحدد، وتبعت دليلي، وأنا ممتلىء بالإعجاب، إلى المناطق الداخلية، إلى

أمـاكن سكنى المبـاركين، وهنا كـان بريق الذين تجمعـوا، وهنا كـانت الروائح الطيبة المستنشقة، وهنا توفرت أيضاً تسابيح الذين حمدوا الرب.

مكان السرور الثالث ورؤى الرب

وبعـد السير لمسافـة، ومع ازديادطيب الأمكنـة أمـامنا، رأيت مـابدا جداراً من الزجـاج الصافي(الكرستال) وكـان عالياً إلى درجـة أن مامن انسـان كـان يمكنـه أن ينظر من فـوقـه، وإلى امتـداد لانهاية له، ولدى اقترابنا منه، رأيتـه يشع بضـوء هو الأكثـر لمعانا، وكـان يصـدر عنه من الداخل، ورأيت أيضـاً مـدخله مفتوحـاً، ومعلما بشـارة حماية الصليب، وقـد اقترب من هناك حشـد كـان قلقـاً جـدا للدخـول لأنه صـار عند المدخل، ورفع الصليب الـذي كـان في منتصف البـاب، نفسـه عـاليـاً، وبذلك فتح مدخلاً للذين اقتربوا، ثم إنه سقط ثانية ومنع دخول الذين رغبـوا بالدخول، ولكم كـان سرور الذين سمح لهم بالدخـول، عظيماً، وكم كان تشـوق الذين بقيوا في الخارج ينتظرون الرفـع التالي للصليب، فهـذا كله مـالا أستطيع وصفـه، فهنا وقف دليلي معـي لبعض الوقت، ولكن أخيراً تقدمنا نحـو الأمام، حيث كـان الصليب قد ارتفع، وانفتح المدخل لنا للدخول، ودخل مرافقـي من دون صعوبة، وكنت أنا خلفه، وأثناء ذلك نزل الصليب فجأة على يدي، وكـاد يمنعني من اتباع دليلي، ولدى رؤيتي ذلك بت مـذعـوراً جداً، لكنني سمعـت الكلمات التاليـة تصـدر عنـه حيث قـال:« لاتخف، وضـع ثقتك فقط بالـرب، وادخل بسـلام»، ولدى سماعـي هذا عـادت إليّ طمأنينتي، وعنـدمـا منحني الصليب مدخـلاً، دخلت، ولكم كان الاشعاع هائلاً، فـالضياء لايمكن تصوره، ولكم كان الضوء قـوياً الذي ملأ جميع تلك الأماكن، لايسألني أحـد عن ذلـك، لأنني غير قـادر عـن التعبير عنه في الكلمات، كما لايمكنني استرجـاع ذلك في ذاكـرتي، فلقـد أزاغ ذلك اللمعـان الناعم والفخم ناظري، إلى حد أنني لم أستطع التفكير بشيء يمكن مقـارنته به،

مما كنت قد رأيته من قبل، لأن ذلك اللمعان لايمكن تصوره، فهو كما كان لايعمي نظر العين، بل بالحري يجعل هذا النظر أكثر حدة، وعندما نظرت إليه، مامن شيء واجه ناظري سوى ضوء الجدار الزجاجي النقي(الكريستال) الذي تقدم ذكره، علاوة على ذلك كانت هنالك من أسفله حتى أعلاه سلالم ذوات جمال رائع، جرى إعدادها وفق طريقة تتمكن بوساطتها حشود الأرواح المسرورة من الصعود حالما تدخل من الباب، ولم يتعب الذين صعدوا، ولم يكن هنالك مصاعب ولا تأخير بالصعود، لأن الدرجة الأعلى كانت دوما أسهل بالصعود من صعود الدرجة التي كانت قبلها، وعندما وجهت عينيّ نحو الأعلى شاهدت مولانا مخلص البشرية، جالساً على عرش المجد، على شكل انسان، وبدا لي أنه مابين خمسمائة إلى سبعمائة أرواح مخلوقات مباركة، الذين صعدوا أخيراً عبر الطريق المتقدم ذكره، إلى مكان العرش، حيث تحلقوا من حوله على شكل دائرة، مع شارات تقديم الشكر له، وتعبدوه، هذا والذي هو واضح بالنسبة لي، هو أن ذلك المكان الذي كنت قد رأيته هو أنه لم يكن سماء السموات، حيث سوف يظهر مولى الموالي في صهيون، كما هو في جلالته، ومن هنالك تصعد الأرواح إلى تلك السماء المباركة بسبب وجود الإله الدائم، ويأتي ذلك بعد إزالة جميع المصاعب والتأخيرات، وشعرت أنا— على كل حال— في نفسي بفرح وسرور عظيمين، وبكثير من السعادة، والبهجة، فمهما حاولت العبقرية الانسانية التعبير عن سرور وفرح قلبي وما شعرت به، سوف تخفق».

كيف أعيد الراهب المذكور إلى جسده

« وبعدما رأيت هذا كله وسمعته، وأشياء أخرى لاعدّ لها، تحدث القديس نيقولا إليّ قائلاً:« انتبه يابني، لقد حصلت الآن على مارغبت به، وذلك بقدرما هو ممكن لك، فلقد رأيت من جانب شرط الحياة المقبلة، ومخاطر المذنبين، وعقوبات الأشرار، وراحة المتطهرين الأنقياء،

وسرور الذين ســوف أخيراً يصلون إلى بلاط السماء، وأسرار آلام ربنا، وعليك الآن العودة إلى صراعاتك المميتة، ولســوف تتسلم، إذا ما واظبت على خوف الرب، الأشياء التي رأيتها بعينيك، وأكثر من ذلك بكثير، إذا ماسعيت بجسد طاهر وبقلب بريء إلى انتظار يوم دعوتك الأخيرة»، وعندما كــان يتحدث إليّ هكذا، سمعت فجأة لحناً رائعاً بعذوبته وكأنه صوت جميع نواقيس الدنيا، أو أن كل شيء موسيقي كان يصوت مع بعضه، وكان في هذا اللحن عذوبة رائعة، ومزيج متنوع من التناغم الشجي، ولست أدري هل الاعجاب بذلك للعظمة أم للعذوبة، وعندما كنت أصغي بتشوق لهذا اللحن غير الاعتيادي، كنت قد فقدت ذاكرتي ثم لقد وجدت نفسي ماأن توقف اللحن حتى فقدت رفقة دليلي، وعادت إليّ قوة جسدي، وعاد النظر إلى عيني وصرت قادراً على الرؤية، كما أن آلام مرضي السالف قد تدمرت، وقد تحررت أنا كليا من ضعفي، وجلست بينكم قوياً وصحيحاً، مع أنني قلق وحزين، وبعدما عدت إلى نفسي، وما أن سمعت من الرهبان بأن احتفال الفصح كان يقترب، حتى عددت تلك الموسيقى التي سمعتها هي علامة، على أنه حتى بين سكان السماء يجري الاحتفال بأسرار الخلاص البشري ببهجة وبفرح من قبل سكان السماء، وذلك مثلما عملت على الأرض من قبله، وهو الذي خلق السماء والأرض من لاشيء، وأعني بذلك يســوع المسيح، الذي ليكن إليه مع الآب والروح القدس جميع التشريف ومجد العالم بلا نهاية، آمين».

وسقط في هذه الآونة هنري أوف شــامبين، الذي خلف غي ملكاً للقدس، من النافذة العليا في بيته، إلى الشارع، فاندقت رقبته، وقتل، ولقد كان ابن أخت لكل من ملكي فرنسا وانكلترا: فيليب ورتشارد، ذلك أنه كان ابن بنت لويس ملك فرنسا، والد فيليب، وهي الابنة التي جاءته من اليانور، التي كانت آنذاك الملكة زوجته، والتي تزوجت فيما

بعد من الملك هنري، والد الملك رتشارد، وبناء عليه عندما مات الملك المذكور، تطلبت بالضرورة أوضاع الأرض المقدسة ملكاً جديداً، وبحكم ذلك جرى باجماع من رجال الدين والناس واتفاق، انتخاب رجلاً فرنسياً لامعاً هو جون بريين، وكان رجلاً بارعاً في القتال، وعلى الفور جرى تتويجه ملكاً، وتقدمت شؤون المملكة تحت حكمه كثيراً.

ارسال الملك رتشارد رسلاً إلى روما للشكوى ضد رئيس أساقفة روان

عام ١١٩٧م، فيه كان الملك رتشارد في بور Bure في نورماندي، وكان يعاني من اضطراب عظيم لأن رئيس أساقفة روان قد وضع نورماندي تحت التعليق والحرمان من شراكة المؤمنين، فقد كانت أجساد الموتى ملقاة في ساحات شوارع المدن من دون دفن مما سبب رائحة نتن شديد بين الأحياء، ولذلك بعث وليم أسقف إيلاي، وكان مستشاره، مع أسقفي درم وليزكس Lisiex إلى بلاط روما ليترافعوا بقضيته ضد رئيس الأساقفة المذكور، لكن وليم أسقف إيلاي قد مات وهو على طريقه إلى روما، في بواتو، ودفن في الدير السسترشياني في دسبن Dispin في التاسع والعشرين من كانون الثاني، وتابع— على كل حال— الأسقفان اللذان كانا معه رحلتهما، ووصلا إلى روما، وعندما اجتمع الفرقاء بحضور مولانا البابا، وتم الاستماع إليهم بعناية، وقدّر مولانا البابا مع كرادلته، بعد مناقشة مستفيضة الأضرار والاضطراب الذي يمكن أن يلحق بالملك في نورماندي مالم يتم بناء تلك القلعة في أندلي، ونصحوا رئيس الأساقفة بالوصول إلى اتفاق سلمي مع مولاهم الملك، وأن يتسلموا منه تعويضاً كافيا، حسب تقدير رجال حكماء لما تمت خسارته، لأنهم أعلنوا إنه كان أمراً قانونيا تماماً لأي انسان كان قادراً أن يفعل مافعله ملك انكلترا، في تقوية الأجزاء الضعيفة من مملكته، حتى لايتعرض للخسارة أو الضرر من هناك، وعاد رسل

الطرفـان مع شروط السلم هذه، وبذلك تمّ الحصـول على نقض لقـرار التعليق من شركة المؤمنين.

صيغة الاتفاقية التي عملت بين الملك رتشارد ورئيس أساقفة روان

كانت صيغة السلام والاتفاقية التي عملت بين ملك انكلترا، ورئيس أسـاقفة روان كما يلي:« رتشـارد ملك انكلترا، بنعمـة الرب، الخ: بما أن الكنيسـة المقدسـة هي قرينة الملـك الأبدي، والمحبوبة الوحيـدة من قبل الذي باسمه يحكم الملوك، ويمتلك الأمراء سلطاتهم، نحن نرغب في أن نعطيها المزيد من الاحترام والتقوى، ومـزيداً من الثبات في اعتقادنا بأنه ليست الملكيـة فقط صـادرة عـن الرب، بل جميع القـوى هي من عند الرب، ولذلك فإن كنيسـة روان المقـدسـة، التي هي، كما هو معـروف، الأعظم شهـرة بين جميع ممالكنا، تستحق لأن نتشاور دومـاً معها حـول مصالحنا وفقاً إلى حاجات الوقت، والظروف الأخرى، ولذلك رأينا أنه من المناسب دفع تعـويض من أجل تقـدم وازديادالكنيسـة نفسهـا، التي هي أمنا، وبما أن بلدة آندلي، وبعض المناطق المجـاورة الأخرى، العـائدة إلى كنيسـة روان لم تكن محصنة بما فيه الكفـاية، وكان هناك باب مفتـوح للعـدوان من قبل أعدائنا والتغلغل في بـلادنا في نورماندي، من خـلال هذه الأمـاكن نفسهـا، فبتلك الوسـائل يغيرون على المنطقـة نفسهـا، ويلحقون الضرر بها بالنار والاغتصاب، وبوسائل حربية شريرة أخرى، ولذلك قـام صاحب النيـافة أبـونا وولتر رئيس الأساقفـة مع هيئة كهنة روان، بتقدير صحيح لخسائرنا في المنطقـة المتقدم ذكرها، وبناء على ذلك تمت عمليـة مبـادلة بين كنيسـة روان وولتر رئيس الأسـاقفـة من الجهـة الأولى، وبيننا أنفسنا من الجهـة الأخرى، وذلك فيما يتعلق بعـزبة أندلي، كما يلي: لقـد منحنا رئيس الأسـاقفـة المذكـور، بمـوافقـة مـولانا البـابا سيليستين الثـالث ورغبتـه، ومع مـوافقـة هيئة كهنة روان، بشكل دائم

وتنازل لنا ولورثتنا عن عـزبة آندلي المتقدم ذكرها، مع قلعـة« الصخرة» الجديدة، والغـابة، وكل مـاهو متعلق بها، مع امتيـازاتها، وذلك باستثناء الكنائس، والحاجيـات للجنود، وباستثناء عـزبة فـريســان Freisanas ومتعلقاتها، فذلك كله يحتفظ به رئيس الأسـاقفة المذكور وكنيسة روان، وله شخصياً ولـورثته، مع جميع امتيازاتهم، والاعفـاء من الجمارك، وهـم بشكل مـوحـد إلى الأبـد، ومقـابل عن عـزبة آندلي المتقــدم ذكـرها مع متعلقـاتها، قـد منحنا، وتنازلنا تنازلاً أبدياً إلى كنيسـة روان، وإلى رئيس الأساقفـة المتقدم ذكـره، وإلى خلفائه، عن جميـع الطواحين التي نمتلكها بروان، أثناء عمل هذه المبـادلة، وذلك مـع جميع توابع المطاحن وأدوات الطحن من دون أي احتفــاظ بالأشيـاء العـائــدة للمطحنة أو للطحن وذلك مع جميع الامتيـازات والاعفـاء من الجمارك، وهو مـاعتـادوا أن يتملكوه أو يتوجـب لهم تملكه، ولن يكون قانونيـا السماح إلى أي انسان ببناء طاحون في ذلك المكان، مـن أجل إعاقة الطواحين المتقـدم ذكرها، عــلاوة على هذا لقـد منحنـا إليهم بلدتي ديبي Dieppe وبوسلي Bu-celes مع توابعهما وامتيـازاتهما، وكذلك عـزبة لوري Loures وغابة هاليمونت Haliermunt مع الحيـوانات البرية والمتعلقات الأخـرى والامتيـازات، ولسـوف يتملك رئيس الأسـاقفـة المتقـدم ذكـره والذين سيخلفـوه جميع هذه الأمـاكن بدلاً عـن عـزبة أندلي المتقـدم ذكـرها إلى الأبد، والشهود هـم التالية أسماؤهـم.... وعملت هـذه المبادلة في روان، في سنة ١١٩٧م، وذلك في السنة الثامنة لحكمنا».

كيف حمل الملك رتشارد جسد القديس فاليري إلى نورماندي، وكيف أحرق هناك عدة سفن

وفي هذه الآونة أشير إلى الملك رتشــارد، أن سفناً قــد اعتـادت على القدوم من انكلترا إلى القديس فاليري Valery لجلب مؤن إلى ملك فـرنسـا وإلى أعـدائـه الآخريـن، وبناء على ذلك زحف إلى ذلك المكان،

وأحرق البلدة، ودمر الرهبان، وحمل تابوت القديس فاليري مع عظامه إلى نورماندي، وقد وجد في الميناء هناك بعض السفن الانكليزية محملة بالقمح والمؤن، وبناء عليه أمر بشنق البحارة، وباحراق السفن، ووزع المؤن على جنوده.

كيف ضمن الملك رتشارد التحالف مع كونت فلاندرز

وفي هذه الآونة حرض الملك رتشارد بوساطة الهدايا، جميع الأقوياء في المملكة الفرنسية لإقامة صداقة معه، فقد أعطى خمسة آلاف مارك من الفضة إلى بلدوين كونت أوف فلاندرز من أجل مساعدته، وقدم ذلك الأمير رهائن إلى الملك كضمانة على أنه لن يعقد اتفاقاً مع ملك فرنسا من دون موافقته، وتخلى سكان شامبين مع سكان بريتاني أيضاً عن ملك فرنسا، وانضموا إلى جانب الملك رتشارد، وقام وليم كريبن Crepin، قسطلان أوج Auge— مرغماً بالقوة— بتسليم القلعة نفسها إلى الملك الانكليزي، الذي قام على الفور بشحنها بقوة عسكرية، وحشد الملك الفرنسي جيشاً، وألقى الحصار عليها، وبينما كان هذا يجري، قام الملك الانكليزي بنزول سريع على أوفرين، واستولى على عشر من قلاع الملك الفرنسي، وعلى عدد كبير من أتباعه، لكن قبل أن يعود الملك رتشارد إلى نورماندي استولى الملك الفرنسي على قلعة أنجو، إنما بتسلمه خمسين ماركاً من الفضة، أعطى لجنود حامية القلعة أماناً على حياتهم، وعلى جوارحهم مع خيولهم وأسلحتهم، واحتفظ الملك بالقلعة وقواها.

كيف جرى التضييق بشدة على الملك الفرنسي في نورماندي

وحاصر في الوقت نفسه بلدوين كونت فلاندرز قلعة أرآس Arras، وسمع الملك الفرنسي بهذا، فقدم إلى هناك مع جيش كبير، ولدى وصوله رفع الكونت الحصار، وغادر إلى ممتلكاته، والملك الفرنسي يطارده، إنما بعدما قطع هذا الملك مسافة كبيرة بين البحيرات وخلجان

البحر، قام كونت فلاندرز بتدمير جميع الجسور، وبفتح قنوات جر المياه، وذلك من أمام الملك الفرنسي ومن خلفه، ولذلك لم يعد بامكان الملك الفرنسي لاالتقدم ولاالتراجع، ولم يعد ممكنا جلب أية مؤن إليه، وعندما وجد الملك نفسه في مواجهة هذه المصيبة، بعث رسالة إلى الكونت، بأنه جاء إلى هناك مع نية عمل اتفاقية سلمية معه، أو استرجاعه من ولائه للملك الانكليزي، وعلاوة على ذلك أخبر الكونت بأنه كان تابعاً له ومن رعيته وعلى ذلك الأساس لايجوز له، وغير متوقع منه القتال ضد تاجه، وعلى كل حال قبل أن يسمح الكونت لملك فرنسا بالمغادرة جعله يقسم أنه سوف يعيد إليه نفسه— الكونت— وإلى ملك انكلترا، جميع القلاع والحقوق، التي استولى عليها خلال الحرب، وحدد يوما لإبرام هذه الاتفاقية، وأعدّ الترتيبات لأن يجتمع هو نفسه مع الملك الانكليزي الذي يتوجب حضوره إلى مؤتمر يعقد يوم الأربعاء بعد عيد تمجيد الصليب المقدس، بين غيلون Gaillon ، وأندلي، وبذلك نجا الملك الفرنسي من الأسر من قبل الدوق، وعاد إلى ممالكه، لكنه بعدما عاد إلى باريس، اجتمع للتشاور مع نبلائه من أجل خرق الاتفاقية والتخلص منها، لأنه لم ير نفسه ملزماً بالحفاظ على يمين أداه مكرهاً.

حول بعض القوانين المفيدة التي عملها الملك رتشارد

وفي العام نفسه، في يوم عيد القديس ادموند، أصدر الملك والشهيد، الملك رتشارد، بناء على تشجيع هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري ومتولي العدالة في انكلترا، مرسوماً في وستمنستر، قضى بوجوب أن تكون معايير القمح والقطاني في جميع أرجاء انكلترا، وفي المدن وفي الأماكن الأخرى ذات حجم واحد، وبشكل خاص معيار الجعة، والخمرة، وأوزان التجار، ورسم أيضاً أن تكون الأقمشة الصوفية في جميع أرجاء المملكة بعرض ذراعين مع الحواشي، وأن تكون جيدة في الوسط كما هي في الأطراف، وعلاوة على ذلك رسم أنه لايجوز لتاجر أن يعلق أمام

حـانوته أقمشـة حمراء أو سـوداء، أو أي شيء آخـر يمكن أن يزيغ نظر الشاري ويخدعه في اختيار القماش الجيد، وأصدر مرسوماً آخر قضى أنه لايجوز استخدام صباغ، إلاّ الصبـاغ الأسود في أي مكان في المملكة، إلاّ باستثناء مدن الحواضر، أو المناطق، وإذا ماخرق أي انسان هذه القوانين وأدين بذلك، ينبغي سجنه جسـدياً، ومصـادرة سلعـه لصالـح الميزانيـة الحكومية؛ وفي هذا العـام نفسه جرى انتخاب فيليب، الذي كـان كاهنا من مقـاطعـة بواتو التـابعـة للملك، أسقفـاً لدرم، وجـرى تكريسـه في اللاتيران من قبل البابا سيلييستين.

تتويج أوتو ملكاً على ألمانيا

وفي السنة الثامنة من حكم الملك رتشـارد، وبناء على توصية من هذا الملك نفسـه جرى تتـويج ابن أخته أوتو ملكاً على ألمانيـا، وقد قـام على الفـــور بالـزواج من ابنـة دوق لوفين Louvain ، وفي يوم تتويجه، جلس إلى المائـدة في الكنيسـة معهـا، مع أنها لم تكن متـوجـة في ذلك الوقت، وفي هذا العام نفسـه، وإثر وفاة البـابا سيليستين، خلفه انوسنت الثالث، وفي يوم عيـد القديس بطرس، جرى تكريسـه بابا ووضع فوق كرسي القـديس بطرس، وتحت رعايته ظهـر في ايطاليا فرقـة جديدة من المبشرين اسمها فرقة« اليعاقبة»، لأن أفرادها قلدوا حياة الرسل، وتجول هؤلاء الرجـال بين المدن، والشوارع والقلاع، يبشرون بكلمـة الانجيل، ويأكلون قليلاً، ويرتدون ثيابـاً خفيفة، ومن دون ذهب، أو فضة، أو أية مقتنيات أخرى، وتكاثر هؤلاء القـوم خلال وقت قصير في جميع أرجاء العالم، بسبب فقرهم التطوعي، وكانوا يسكنون في المدن الرئيسية كسبعة أو عشرة، دونما اهتمام بالمستقبـل، وبلا احتفـــــاظ بأي شيء مـن أجل الاستخـدام في الغـد، وقـد عـاشـوا أيضـاً وفقـاً لأحكام الرسل، ومهما اجتمع على مـوائدهم من وفـرة بالأشياء، من خـلال هدايا الصدقـات، كانوا يتـولون توزيعه على الفـور على الفقراء، وقـد تجولوا في كل مكان

يبشرون بالانجيل، وناموا في ملابسهم، واستخدموا فرشاً قاسية، ووضعوا حجارة تحت رؤوسهم بدلاً من الوسائد.

التوبة الرائعة لهيوج أسقف شستر

ووقع في هذا العام هيوج دي نونات Nunant أسقف كوفنتري أو شستر، مريضاً جداً عندما كان على طريقه إلى روما، وعندما أقعد على الأرض بسبب مرضه، وعرف بأن موته قد اقترب، بعث خلف جميع رجال الدين في نورماندي كلها، ووراء رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، وبقدرما استطاع من آخرين، وعلى مسمع منهم جميعاً، وببراءة وقلب نادم، اعترف وهو يبكي، بصوت مرتفع بجميع ذنوبه، وأخطائه، وجرائمه التي تمكن من تذكرها، وكانت توبته عظيمة جداً، وكذلك ندامته، إلى حد أن جميع الذين وقفوا ونظروا إليه انفعلوا وأخذوا يبكون، وقام أخيراً وهو يبكي وينتحب، وبيدين متشابكتين، فتوجه بالرجاء إلى جميع الكهنة، ورجاهم بفضل الرب، أن يفرضوا عليه توبة مناسبة وتكفيراً لائقاً، يكون بمثابة توبة من جرائمه الكبيرة، التي اقترفها، غير أن رجال الدين الذين وقفوا إلى جانب فراشه يسمعون عن الحياة الشريرة للأسقف، ويرون بالوقت نفسه الندامة القصوى لقلبه، نظر أحدهم نحو الآخر، وكانوا جميعاً صامتين، غير عارفين النصيحة التي عليهم تقديمها بشكل مفاجىء، ولدى رؤية الأسقف لذلك قال لهم:« إنني أعرف، وإنني أعرف، أنكم سمعتم عن هذه الآثام العظيمة، إنكم تشكون وسط أنفسكم، حول ماذا عليكم أن توقعوه بي عن طريق التكفير، لكنني أرجوكم باسم مولانا يسوع المسيح، أن تحكموا علي بوساطة طريق التوبة، من أجل إزالة ذنوبي، ولكي أبقى— وفقاً لمشيئة الرب— في عذاب المطهرة حتى يوم الحساب، أي برحمة مخلصنا، الذي قامت رحمته على قضائه، يمكن أن أنجو»، وقد أرضاهم هذا الرأي جميعاً، وذلك باستثناء الرحمة اللاهوتية التي ترغب دوما بانقاذ الجميع

ونجاتهم، وأن لايضيع أحـد، ثم قال الأسقف على مسمـع منهم جميعاً، واعترف وهو حـزين جـداً، بأنه طـرد الرهبـان من كـوفنتري، ولكي يضيف إلى أخطائـه أحل محلهم كهنة من رجال الدين، ولكي يكفـر عن ذنبه، لم يجد سوى طريقة واحـدة للتصحيح، هي أن يموت وهو مرتدياً لثوب من ثياب هؤلاء، الذين قام بمطاردتهم، وهو تحت تأثير الشيطان، وذلك طوال مـاكـان قادراً على ذلك، وأنزلهم إلى درجـة التسـول، ومن خـلال كراهيتـه وحقده آذاهـم بكل طريقة ممكنة، وبعـد هذا الاعتراف رجا أسقف بك Bec ، الذي كان واقفـاً إلى جانبـه بين الآخرين، أن يتصدق عليه، فيمنحه في سبيل عار الشيطان وخزيه، ثوب راهب، حتى يتمكن من اتخاذ وقـاة له في الحيـاة المقبلة الذين عـذبهم في هذه الحيـاة، وبعـدمـا جـرى منح ذلك له، أعطى كل مـاامتلكـه من ذهب وفضـة، وجواهر، وأواني ثمينة إلى البيوت الدينية وإلى الفقراء، وهكذا مات أكثر سعادة مما كان متوقعاً، وسط آمال ودموع الذين وقفوا من حوله.

حول استرداد كنيسة كوفنتري الديرية وطرد الكهنة

كـان في تلك الآونة يقيم في بلاط رومـا واحـداً من رهبـان الدير في كـوفنتري اسمه تومـاس، وكـان قد تعـرض للطرد مع رفـاقه كما تقـدم التبيـان أعلاه، مـن قبل الأسقف المتقدم الـذكر، وكـان يسعى بوسـاطة سلطات الحبر الأعظم أن يعيد الرهبان إلى سالف وضعهم، بعدما جرى تفـريقهم في جميع الجهـات، وكـان بعـض إخـوانه الرهبـان قـد مـات، وبعضهم قد ترك البلاط مرهقاً وفقيراً، وحافظ هو وحده وثابر مع هذه القضية، مع أنه بسبب فقـره، غالباً ماأرغم على التسـول في سبيل خبزه، وعندما سمع بالأخبار التي كان يتمناها، والتي تحدثت عن وفاة أسقف كوفنتري، ارتفعت آمـاله في قلبه بالرب، الذي أظهر جـوده نحو أولئك الذين وثقـوا به، وثابـروا على فعل الخير، وفي أحـد الأيام، عندمـا كـان البـابا الجديد أنوسنت جـالسـاً في مجلسـه مـع كـرادلتـه، اندفع الراهب

المذكور إلى وسطهم بشكل مفاجىء، وقدم إلى البابا شكوى طرح فيها قضيته، وبعدما قرأ البابا الشكوى، رد على الراهب المتعجل:« ألم يحدث أمام ناظري ومسمعي أن رفضت هذه الشكوى مراراً من قبل سلفينا: كليمنت وسيليستين، فهل تظن أنك ولم تستطع الوصول إليهما، أن تفعل ذلك معي، وكأنني أحمق»؟ وأضاف وهو مغضب« غادر ياأخانا، غادر، لأن من المؤكد أنك تنتظر هنا من دون غاية»، ولدى سماع الراهب هذه الكلمات، ردّ وهو يبكي بحرقة قائلاً:« أيها الأب المقدس، ان شكواي عادلة، وهي كلها صادقة، ولهذا لم أنتظر عبثاً، ذلك أنني سوف أنتظر موتك، مثلما فعلت بالنسبة لمتقدميك، لأن الذي سوف يخلفك سوف يستمع إلى شكواي بشكل فعال»، ولدى سماع البابا لهذه الكلمات كان مندهشاً بشكل مؤثر، والتفت إلى كرادلته الذي جلسوا بجواره وقال:« هل سمعتم الذي قاله هذا الشيطان، فلقد قال بأنني سوف أنتظر موتك كما انتظرت موت سلفيك، ثم إنه التفت إلى الراهب وقال: ياأخانا، بحق القديس بطرس، لن تنتظر موتي هنا، لأنه جرت الموافقة على شكواك»، وقام على الفور، وقبل أن يتناول أي طعام، فأرسل أوامره إلى هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، أنه فور تسلمه لرسائله، عليه الذهاب شخصياً إلى كنيسة كوفنتري فيطرد الكهنة، ويعيد اسكان الرهبان، وقام رئيس الأساقفة المذكور، وهو مؤيد بسلطات الحبر الأعظم، فنقل الكهنة المتقدم ذكرهم، وفي الثامن عشر من كانون الثاني أعاد الرهبان وأقرهم في موضعهم، وبما أن رئيس رهبان ذلك المكان كان قد مات عندما جرى طرد الرهبان إلى المنفى، عين رئيساً عليهم نورمانديا اسمه جويبيرت Joibert، الذي تولى الحكم على ثلاث رئاسات رهبان هي ديفنتري Davertry، ووينلوك ;Wenloc، وكوفنتري، وكان ذلك بسبب براعته العالية في إدارة الأعمال المدنية، وقد قام على الفور، بناء على نصيحة الرهبان، فأقام انتخاباً لأسقف، وبموافقة من الجميع وقع الاختيار على غيوفري

موسكهامب Muschamp ، وكان رئيس رهبان بيرموندي Bermondsy يحتضر آنذاك، في تلك الآونة أيضاً، ولكي يرضى هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري جشع جوييرت المتقدم ذكره، أضاف إليه رئاسة الرهبان الرابعة هذه، وذلك مع الثلاثة المتقدمات.

حول سيامة أسقفين

وفي الأحد الرابع بعد الصوم الكبير، جرت سيامة يوستاس عميد سالسبري أسقفاً لإيلاي، من قبل هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر، وبعد هذا جرت سيامة غيوفري الأسقف المنتخب لكوفنتري، من قبل رئيس الأساقفة نفسه في كانتربري، وكان ذلك في الحادي والعشرين من حزيران، وتساقطت في هذا العام نفسه زخات من الدم على الذين كانوا يبنون القلعة في آندلي في نورماندي، وربما كان ذلك انذاراً بموت الملك رتشارد الذي وقع بعد ذلك بوقت قصير، وعمل في هذه الآونة أيضاً، غيوفري رئيس أساقفة يورك سلاماً مع الملك وأخيه في نورماندي، لأن الملك كان منزعجاً منه لعزله مستشاره عندما كان سجيناً للامبراطور.

عزل هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري من وظيفة رئاسة العدالة

ونشبت في هذه الآونة خلافات بين رئيس أساقفة كانتربري وبين رهبان الثالوث المقدس في ذلك المكان حول الكنيسة الجديدة التي بناها رئيس الأساقفة في لامبث، لأن الرهبان كانوا خائفين، من أن ينقل الكرسي الكاتدرائي إلى هذا المكان الأخير، وبناء عليه أرسلوا شكوى إلى روما، إلى البابا انوسنت، بأن رئيس الأساقفة، كان على الرغم من مكانته وسمو مركزه، يعمل رئيساً للعدالة في انكلترا، وقاضياً حول مسائل تتعلق بالحياة والموت، وأنه يهتم بالشؤون المدنية، أكثر من اهتمامه بشؤون اختصاصه، ويهمل شؤون الكنيسة، واتهموه بحقيقة، أنه بأمر

منه جرى تدنيس كنيسة القديسة مريم في آرشي Arches في لندن وخرق حرمتها، وذلك عندما جرى سحب وليم ذي اللحية منها، وربط إلى ذيول خيول، وجرّ خلال شوارع المدينة، وأخيرا جرى تعليقه على المشنقة، وبهذه الطريقة أنفق الرهبان كمية كبيرة من المال حولها، وأساءوا كثيراً إلى سمعة رئيس الأساقفة، ولدى سماع البابا بهذه الأشياء أمر ملك انكلترا، القيام على الفور ـ لدى تسلمه لرسائله، وتحت التهديد بعقوبة الحرمان من شركة المؤمنين ـ بعزل رئيس الأسافقة من وظيفة رئاسة العدالة، لأنه كان محرماً بشكل خاص على الأساقفة التورط في القضايا المدنية، وعزل الملك رتشارد رئيس الأساقفة، وعين غيوفري فتز— بيتر في موضعه.

معركة بين الانكليز والويلزيين سقط فيها كثيرون

وفي هذا العام نفسه، عندما كان الملك رتشارد، مقيماً فيما وراء البحر، حشد غيوفري فتز— بيتر رئيسَ العدالة في انكلترا، جيشاً كبيراً، وزحف إلى ويلز، ليساعد وليم دي بروز Brause وأتباعه الذين كانوا محاصرين في قلعة ماتيلدا من قبل وينيونون Wenunwen، ملك الويلزيين، ولدى وصوله إلى هناك نشبت معركة، لم يكن الويلزيون فيها قادرين على مقاومة الانكليز، ولذلك أرغموا على الفرار، وألقوا أسلحتهم في سبيل الفرار بشكل أحسن، مما شجع الانكليز، وقد قيل بأن أكثر من ثلاثة آلاف وسبعمائة منهم قد قتلوا، أي من جنودهم، وذلك إلى جانب الذين وقعوا بالأسر، والذين أصيبوا بجراحات قاتلة، وقتل من الانكليز رجل واحد فقط، وقد أصيب بسهم غرب رماه به من دون انتباه واحداً من جنود جيشه.

كيف أسر الملك رتشارد في معركة مع الملك الفرنسي عشرين فارساً

في هذه الآونة نفسها التقى فيليب ملك فرنسا مع الملك الانكليزي رتشارد في معركة بين جوميجي Jumieges وفيرنون Vernon، وأرغم الملك الفرنسي وأتباعه في هذه المعركة على الفرار، وانسحبوا إلى فيرنون من أجل السلامة، لكن قبل أن يتمكنوا من الدخول إلى القلعة، تمكن الملك رتشارد الذي كان يطاردهم بحد السيف، من أسر عشرين فارساً، وأكثر من ستين جنديا، وفي العاشر من ايلول من هذا العام دفع رتشارد أسقف لندن دين الطبيعة وسدده.

حول النصر الرائع الذي ناله الملك رتشارد

وحشد في هذه الآونة الملك رتشارد جميع قواته، وبتأييد من شجاعة عساكره الانكليز استولى بالقوة على ثلاث قلاع من قلاع الملك الفرنسي هي: سيرفونتان Sirefontan، وبور Burs وحصن كورسيل Curcel، وقدم الملك الفرنسي الذي لم يعتقد بأن قلعة كورسيل قد تم الاستيلاء عليها بعد، من نانتي Nantes لتقديم المساعدة إلى ذلك المكان، مع أربعمائة من الفرسان وعدد من المرافقين مع جميع جنوده، وعلم الملك رتشارد بهذا بوساطة كشافته، فقدم من الاتجاه المعاكس للتصدي له، واشتبك بمعركة إلتحامية مع الفرنسيين بين كورسيل وغيسور، ولم يستطع الملك الفرنسي الصمود أمام صدمة حملات القتال، فهرب مع مرافقته إلى قلعة غيسور، وعندما كان الهاربون منسحبين فوق جسر تلك البلدة، انهار بسبب الحشود التي اندفعت من دون صبر للعبور عليه، وسقط الملك نفسه مع فرسه ودروعه وسلاحه في نهر إيثي Ethe ، مع عدد لايحصى من الفرنسيين الآخرين، وعندما كان مرميا هناك، زحف وسط الوحل، وبصعوبة أنقذ من الموت، وفي الوقت نفسه قامت نخبة من العساكر الفرنسيين، بالتصدي للملك رتشارد، وقاموا بهجوم حاد عليه، وفعلوا ذلك من أجل مساعدة مليكهم، ولإنقاذه من السقوط بين يدي الملك الذي كان يطارده، وبذلك عرضوا أنفسهم

للموت في سبيل الحفاظ على ملكهم، ثم استعر القتال من على الطرفين، وقرعت السيوف على رؤوس الخوذ، وأصدرت شرراً بسبب الضربات المتوالية، ورمت الرماح القاسية بالأعداء في جميع الاتجاهات، هذا وليس لدي وقت للتفاصيل، المهم هو أن حدة القتال لم تتوقف حتى أسر الملك الانكليزي كل المجموعة المقاومة، وترجل الملك رتشارد في هذه المعركة، واتخذ أسرى لنفسه ثلاثة من نخبة الفرسان هم: متى دي مونتمورنسي Montmorenci، وألان دي روسكي Rusciوفولك دي جايلرنالي Gilernalles ، وجرى معهم أسر الرجال التالين من أصحاب المراتب في المملكة الفرنسية: غالي دي بورتا Galis de porta، وجيرارد دي كوري Chori، وفيليب دي نانتويل Nanteuil، وبيتر دي اسكان Eschans ، وروبرت دي سينت دني Denys ، وثيوبولد دي وولنغار Wallengard، وسيدونال دي تري Cedunal de trie، وروجر دي ميتلنت Meetlent، وإيم ترير Aim triers، ورينالد دي أسكي Asci، وبلدوين دي ليزني Leisniوتوماس دي أسغنت Asgent، وفيريوس دي باريس Ferrius de paris، وبيتر دي لاتوتنيا Latotnia، وغي دي نافار Nevers ، وفرومنتين أوف شامبين Frumentin of champagne، وثيودورك دي أنسي An-ceis، وأنفريك دي بعليم AnFrie de Baalim، وايبورارد دي مونتني Eborard de montigny، وأودو دي مونتسيون Munt-ciun، وفونكارد دي روشي Funcard de Roche، وولتر روفوس Rufces، وأرنولف دي ليني De Arnulph leini، ووليم دي بانسيتو Banceto، وجوكن دي بري Joken de Bray، وبيتر دي بنسي Pinci ودينبرت دي أوجي Augi ، وبونكارد دو شاتيل Pun-card du-chatel، ووليم دي ميرلون Merllon، وجون دي غرانجي Granges، وثيوبولد دي برون Breun، وروجر دي بومنت Beau-mont، وغيلبرت دي بري Brayex، وبيتر دي ميدول Maidul ،

وجـون دي ســيرني Cerni ، وألارددي لـوفـــير Alard de Lo-viers، ورالف دي فـالنسيل Falencel، وفيري دي بروني Ferri de Brunaye، وتوماس دي كاستيل Castele ، ووليم دي روشمونت Rochemont، وثيــوبولد دي ميشي Misci وإلى جـــــانب هؤلاء الذين تقدم ذكـرهم، أسر الملك مائـة فارس، وغنم مـائتي فرس مغطاه بالدروع، وعدداً كبيراً جداً من الجنود الخيالة والرجالة ورماة الزنبورك، وبعث بعـد هذا رتشارد المنتصر رسـائل إلى جميع أصـدقائـه في انكلترا، مثل رؤسـاء الأسـاقفـة، والأسـاقفـة، ورعـاة الـديرة، والايرلات، والبارونات يرجوهم بإخلاص وحراره أن يشاركوه بتمجيد الرب، لأنه منحه مثل هذا النصر على أعدائه.

إبرام معاهدة بين ملكي فرنسا وانكلترا

وبناء عليه عندمـا رأى فيليب ملك فرنسـاأن قوة ملك انكلترا تزداد يوميـاً، في حين تزداد قـوته عجزاً، تراجع أمـام الحاجـة، وأرسل بشكل سري رسله إلى الحبر الأعظم، عـارضـاً توسـلاتـه حتى يتفضل لعمل ترتيبات مع ملك انكلترا، أو أن يقيم هدنة يوقف خـلالها القتال لبعض الوقت، من أجل أنه بعد إقامة الهدنة وتثبيتها من قبل البابا نفسه، يمكن بالتعـاون معـه، لملكي المملكتين أن يكونـا قـادرين على الوفـاء بعهـدي حجهما، ومن تحرير أرض الميعاد من سلطان أعداء المسيح، ولكي يكون هذا مضموناً وموثوقاً، سأل الملك البـابا إرسال أحد الكرادلة مع سلطة ايقاع العقـوبة إلى البلدان الغربيـة، حيث يمكنه إذا دعته الضرورات أن يتفـوه بقـرار الحرمان مـن شركة المؤمنين، ضـد أي واحـد يجده معـاديا للسـلام والمصالحة، واقتنع البـابا انوسنت بهذا وبمطالب أخـرى، ولأنه كـان راغبـاً بتقـدم القضيـة الصليبيـة، وتأثر أكثـر بالمال منه بالتـوسل، فـاستجاب فأرسل بطرس أوف كـابوا Capua، وكان واحـــــداً من كـرادلتـه، لإقامـة سـلام بين الملكين، وبعـد وصـوله إلى ممتلكات الملك

الفرنسي، أخذ معه— بناء على نصيحة الملك الفرنسي— بعض الأساقفة من المملكتين، ولدى وصـــوله إلى عند ملـك انكلترا بيّن له المآسي التي كانت واقعة وسوف تستمر بالوقوع في مملكتي الملكين مالم يصنع سلام، على الفور، بينهما، وأجابه الملك الانكليزي مغضباً، قائلاً بأنه ليس ملزماً بالشريعـة على فعل شيء بناء على أوامر البـابا، لاسيما وأنه سأله مـراراً، إرغام الملك الفرنسي بوساطة العقوبات الكنسية، لأن يعيد إليه الأراضي والقلاع، التـي استولى عليها الملك المذكـور بشكل ظالم، وبدون مـراعاة ليمينه، وذلك عندمـا كـان شخصياً في أرض الميعـاد، يعمل على طرد أعـداء الصليب، ويسعى إلى إعـادة الأرض المقـدسـة إلى وضع مـوائم، وبناء عليـه، لقد أرغـم، بسبب غلطة البابا نفسـه، على انفـاق مبلغ كبير من المال في سبيل استعـــادة أراضيــه الموروثة، وبـذلك لم يقترف الملك الفــرنسي إثم الحنث باليمين فقط، بل خـرق أيضـاً عقـوبة الحرمـان الكنسي، وعلاوة على هذا كلـه هو لم يعرف فيها إذا كان الملـك الفرنسي يوافق على الهدنة، وعند ذلك أخـذ الكاردينال الملك الانكليـزي جانبـاً، وأخبره— تحت التعهـد بـالسرية بأنه بمبـادرة مـن ذلك الملك ومطلب منه، قد جرى إرساله من قبل البابا لإقامة سلام بينهما، ونصح الملك أن يستجيب في هذه المرة إلى رغبـة البابا، وليكن واثقاً مطمئنـا إلى أن البابا سوف يصغي إليـه فيما يتعلق بملك فرنسا، وكـذلك فيما يتعلق بالمسائل الأخرى، وكـان الملك رتشارد راغباً إلى أبعد الحدود بمصـالح ابن أخته أوتو، الذي جرى تتـويجه مؤخراً ملكاً على ألمانيـا، وكان يريد أن يحصل له من البـــابا على وصـــول سهل إلى العــرش الامبراطـوري، ولذلك استسلم إلى التـوسـلات التي صـدرت عن الجميع، ورضي بالترتيبـات، وبناء عليـــه التقى الملكـان، وأقسما على الحفــاظ على الهدنة لمدة خمســة أعـوام، مع شرط السماح للرعـايـا والتجـار من الجانبين، أي العـائـدين للملكين، بالذهاب والإياب حسب رغباتهم، بغرض البيع أو والشراء، في جميع مناطق وأسـواق كـل من المملكتين، وبعـد عمل هذا وانجـازه،

أرسل ملك انكلترا راعي دير كيرتسي Chertsey وريموند الراهب العائد لدير القديس ألبان، الذي كان قد بُعث إلى نورماندي للقاء الملك من أجل قضايا الكنيسة، أرسلهما إلى روما، لحمل المعاهدة المتقدمة الذكر ووضعها موضع التنفيذ، وفي سبيل تنفيذ هذا كله، فرض الملك ضريبة خمسة شلنات على كل هايد(فدان) من الأرض مفلوح في جميع أرجاء انكلترا، وذلك من أجل مساعدته.

كيف دمر هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري كنيسة لامبث

عام ١١٩٩م، فيه قام هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري بتدمير كنيسة لامبث، على نفقته، وفي جلب العار لنفسه ولآخرين كثر، وذلك بناء على طلب رهبان كانتربري، وأوامر الحبر الأعظم، وكانت هذه الكنيسة قد أسست من قبل سلفه بلدوين، وأنهاها هو نفسه.

وفاة الملك رتشارد

في العام نفسه، بعد إعداد الهدنة بين فيليب ورتشارد، ملكي فرنسا وانكلترا، حول الملك الأخير سلاحه ضد بعض البارونات المتمردين في بواتو، ونقل النار والسيف إلى مدنهم وبلداتهم، وقطع كرومهم وبساتينهم، وقتل بعضاً من أعدائه من دون رحمة، ووصل أخيراً إلى دوقية أكوتين، وألقى الحصار على قلعة كالوس Chalus في ليموزين Limosin، وهناك في السادس والعشرين من آذار جرح— كما قيل— بسلاح مسموم من قبل بيتر بازيلي Basilii، لكنه لم يعبأ بهذه الجراحة، وتمكن خلال الاثني عشر يوما التي عاشها من مهاجمة القلعة بشدة، والاستيلاء عليها عنوة، وقد ألقى بالفرسان وبأتباعهم في سجن ضيق، ووضع أتباعه في القلعة، وقوى في الوقت نفسه التحصينات، غير أن الجرح الذي أصيب به في هذا المكان، والذي لم يتلق العناية طوال ذلك الوقت، أخذ بالتورم، وأخذ نوع من السواد ينتشر حول مكان الجرح،

وقــد امتـزج بالـورم، وسبب له ألماً لايحتمل، وأخيراً عندمــا أدرك بأن الخطر كـان عظيماً، استعـد الملك لنهـايتـه بـالتـوبة في القلب، وباعتراف طاهر نقي، وبقربان جسـد ودم ربنا، وقد غفـر للذي سبب موته، الذي اسمه بيتر، وهو الذي أصـابه بالجراحه وأمر بفك أغـلاله ومغادرته، ثم أمر بدفـن جسده في فونت— ايفـرولت Font- Evrault، عند قدمي والده، الذي اعترف بأن مـدمـره، كـان هو شخصيـا، ومنح قلبـه الذي لايقهر إلى كنيسـة روان، وأمر بـدفن أحشائـه في كنيسة القلعـة المذكورة أعلاه، وبذلك قـدمها هدية إلى سكان بواتو، وقد أباح لبعض أصدقـائه المقـربين— تحت وعـد السرية— أسبـاب قيامـه بتـوزيع جسـده هكذا، فللسبب المتقـدم ذكره أعطى جسده إلى أبيـه، وقد أرسل قلبـه هدية إلى سكان روان، نظراً لإخــلاصهم الذي لانظير لـه، الذي تمتع به دومــا، لكن بالنسبـة لسكان بواتو، ترك لهم أحشـاءه، نظراً لمعـرفته بخيـانتهم، عادّاً إياهم غير جديرين بأي جزء آخر من جسده، وبعدما فرغ من قوله هذا، وصل التـورم فجأة إلى المناطق التي حـول قلبه، وفي الســادس من نيسـان، أسلم هذا الرجل المحارب روحـه، في القلعـة المذكورة أعـلاه، وذلك بعدما حكم تسعة أعوام ونصف العام، وقد دفن حسبما أمر وهو حيّ، في فـونت— ايفـرولـت، ودفن معـه— كما رأى كثيرون— أيضـاً فخار وشرف الفروسية في الغرب، وعن موته ودفنه نشر أحدهم النقش التالي:

أحشـاؤه أعطيـت إلى بواتو— وهي راقـدة مـدفـونة قــرب حصن كالوس؛

جسده راقد مدفون تحت— ألواح رخامية في فونت— ايفرولت؛

ونوستريا حصلت على شطرك— الذي هو قلب البطل الذي لايقهر.

وهكذا توزعت هناك في مدن ثلاث— بقايا ذلك الميت الجبار

وهذه الجنازة لايمكن أن تكون— لملك واحد بل لملوك ثلاثة

هنا البدايات حول الملك جون وأشياء أخرى وقعت في ذلك الحين

بعد انتقال الملك رتشارد المنتصر، الذي تقدم ذكره، من الجسد، احتفظ أخوه جون بتكريم بجميع الذين خدموا أخاه، وكذلك بالفرسان المرتزقة، واعداً إياهم بهدايا كبيرة، وأرسل مباشرة هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، ووليم مارشال إلى انكلترا، لإقامة السلام هناك وليتوليا المسؤولية عن المملكة، وذلك مع غيوفري فتز— بيتر، الذي كان آنذاك المسؤول عن العدالة مع غير هؤلاء مع نبلاء المملكة، ولدى وصولهما إلى هناك جعلا الناس يقسمون يمين الولاء إلى الايرل جون، واجتمعا مع غيوفري فتز— بيتر، ودعوا مع بعضهم جميع النبلاء الذين كانوا يشكون بهم كثيراً، وقد وعدوهم بأن الايرل جون سوف يعيد إليهم حقوقهم جميعاً، وعلى أساس هذا الشرط، أقسم وقتها الايرلات والبارونات يمين الولاء إلى الايرل المذكور، وذلك على الرغم من الآخرين، هذا وبعثوا رسالة إلى وليم ملك الاسكوتلنديين مع يوستاس دي فسكي Vesci ، بأن الايرل جون سوف— لدى عودته إلى انكلترا— يرضيه بالنسبة لجميع حقوقه في انكلترا، إذا ماحافظ— في الوقت نفسه— على الاخلاص والسلام مع الايرل، وهكذا جرى إخماد جميع النزاعات والخلافات في انكلترا وتسويتها.

كيف ربط بعض النبلاء أنفسهم بالايرل جون وآخرون بآرثر

وفي أثناء وقوع هذه الأحداث في انكلترا، ذهب الايرل جون إلى شينون Chinon حيث كانت أموال الملك المتوفى، مودعة، وقد سلمه إياها جون دي تورنهام Turnham الذي كان مسؤولاً عنها، وأعطاه معها قلعتي سومور Saumur وشينون وحصوناً أخرى،

كان معهوداً إليه العناية بها، لكن توماس دي فيرني Furnes ، حفيد روبرت المذكور، قد سلم مدينة أنجو وقلعتها إلى آرثر كونت بريتاني، والتحق بآرثر المذكور، والتحق أيضاً مقدمو أنجو، ومين، وتور بحزب آرثر لأنه كان مولاهم الاقطاعي، قائلين بأن هذه كانت عادة هذه المناطق وكان هذا موقفها، بأن آرثر هو ابن الأخ الأكبر، يتوجب أن يخلف عمه في الأسرة وفي الميراث، وهذا ماكان غيوفري والد آرثر هذا نفسه سيفعله لو أنه عاش بعد الملك رتشارد، علاوة على ذلك ذهبت كونستانسي، أم آرثر إلى تور، إلى الملك الفرنسي وسلمت آرثر المذكور إليه، وقام ذلك الملك على الفور بإرساله إلى باريس تحت حراسة حرس، وتسلم جميع القلاع والمدن العائدة إلى آرثر، ووضعها تحت رعايته، لكن الايرل جون والملكة اليانور، وصلا مع جيش كبير إلى مين Maine، واستوليا على المدينة والقلعة، وهدما البيت الحجري فيها، واتخذا السكان أسرى، وسجناهم.

كيف تسلم الايرل جون دوقية نورماندي

بعد هذه الأحداث أمضى الايرل جون يوم الفصح في بامفورت Bamfort في أنجو، وأرسل في اليوم التالي الملكة اليانور مع ميركادوس إلى مدينة أنجو، التي هاجماها، ودمراها، واتخذا سكانها أسرى، ووصل الايرل جون في الوقت نفسه إلى روان، وفي ثمانية يوم الفصح[٢٥— نيسان] تقلد سيف دوقية نورماندي في الكنيسة الأم، من قبل وولتر رئيبس أساقفة روان، ووضع رئيس الأساقفة نفسه، وهو أمام المذبح الكبير، على رأسه، الإطار الذهبي مع الوردة الذهبية، المصنعة بشكل فني على شكل دائرة، فوق رأس الاطار، ثم إن الدوق جون أقسم بحضور رجال الدين والشعب، على آثار القديسين، وعلى الانجيل المقدس بأنه سوف يدافع باخلاص، ومن دون ممارسات شريرة عن الكنيسة المقدسة، وعن مكانتها، وعن شرف الكهنة المرسومين فيها،

وعلاوة على ذلك أقسم على إزالة القوانين السيئة، إذا ماوجد أي منها، وأن يجعل الآخرين بدلاً عنهم، وفي الثالث والعشرين من أيار من العام نفسه، جرت سيامة وليم الذي كان من أصل نورماندي وكان كاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، أسقفاً للندن، في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر وكان الذي تولى تكريسه هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري.

تتويج الملك جون

وقدم في هذه الآونة جون دوق نورماندي إلى انكلترا، ونزل في شورهام Shoreham في الخامس والعشرين من أيار، وفي اليوم التالي، الذي كان عشية صعود ربنا، ذهب إلى لندن، ليجري تتويجه هناك، ولدى وصوله إلى هناك، اجتمع رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والايرلات، والبارونات، مع جميع الآخرين الذين كان من واجبهم الحضور أثناء التتويج، اجتمعوا مع بعضهم في كنيسة رئيس الرسل في وستمنستر، وكان ذلك في السابع والعشرين من أيار، وهناك وضع هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري التاج على رأسه، ومسحه ملكاً، وقدم فيليب أسقف درم التماساً بمنع هذا التتويج أثناء غياب غيوفري رئيس أساقفة يورك، لكنه لم يحصل على رغبته، وربط الملك جون نفسه أثناء هذا التتويج بيمين مثلث، تضمن: محبة الكنيسة المقدسة، وكهنتها المرسومين، وحفظها سليمة من الأذى والعدوان والنوايا الشريرة، وأن يزيل القوانين السيئة، وأن يحل محلها قوانين جيدة، من أجل أن يرى العدل يطبق بشكل صحيح في جميع أرجاء انكلترا، ثم جرت بعد ذلك مناشدته من قبل رئيس الأساقفة نفسه، باسم الرب، ومنعه بكل دقة من الاقدام على تقبل هذه المرتبة العالية، مالم يكن قد نوى في عقله الوفاء، بما أقسم عليه، وفي جواب على هذا، وعد الملك أنه بعون الرب، سوف يحافظ باخلاص على اليمين الذي وعد به، وذهب في اليوم التالي، بعدما

تلقى الولاء والتابعية من رعاياه، إلى القديس ألبان، الشهيد الرائد لانكلترا، وذلك بهدف الصلاة، وبذلك عمل إقامة قصيرة في انكلترا، وقام وقتها بناء على نصيحة النبلاء بتسوية كل القضايا التي استرعت انتباهه.

كيف عبر الملك جون إلى نورماندي وصالح كثيراً من النبلاء مع نفسه

في يوم ميلاد القديس يوحنا المعمدان، عبر الملك البحر إلى نورماندي، ولدى وصوله إلى روان تدفقت عليه أعداد كبيرة مع بعضها من خيالة ورجالة، وبسرور احتفظ بهؤلاء في خدمته، واجتمع بعد ذلك مع ملك النمسا، ووقتها جرى الاتفاق على هدنة، حتى اليوم التالي ليوم صعود مريم المباركة، من أجل أن يتمكنوا في تلك الأثناء من إعداد شروط للسلام، وفي الوقت نفسه وصل إلى عند الملك جون وهو في روان كونت فلاندرز، وعدد كبير آخر من نبلاء المملكة الفرنسية، وأبرموا معاهدة تحالف معه، كما كانوا قد أبرموا من قبل مع الملك رتشارد، ضد ملك فرنسا، وبعد تبادل الضمانات عاد كل واحد إلى بلاده.

كيف التقى الملكان في مؤتمر لكن افترقا مختلفين أحدهما مع الآخر

وفي هذا العام نفسه، وفي اليوم التالي لعيد صعود العذراء، اجتمع الملك الفرنسي بمؤتمر مع الفرسان ذوي الأحزمة حول آرثر كونت بريتاني، وقام آرثر المذكور على الفور بتقديم الولاء إلى الملك الفرنسي عن: أنجو، وبواتو، وتور، ومين، وبريتاني، ونورماندي، ووعد الملك آرثر بتقديم العون له من قبله من أجل الحصول على هذه الأماكن، وبعد مضي يومين، اجتمع الملكان وعقدا مؤتمراً فيما بين قلعتي بوتافانت

Butavant، وغيلون Gaillon ، فيه تحادثا منفردين، بعيداً عن نبلاء المملكتين، وجهاً لوجه لمدة ساعـة، ولم يكن معهما أحد أثناء المحادثات، وطلب الملك الفـرنسي في ذلك الاجتماع لاستخـدامـه الشخصي جميع فكسين، أي المنطقـة الواقعـة فيما بين غـابة ليـون والسين من الجانب الأول، ونهري أندلي وإيثي Ethe من الجانب الآخر، وقال بأن غيوفري بلانتغنت كونت أوف أنجـو، الذي هو جد الملك جـون، قد أعطاها إلى لويس لى غروس Gros ، من أجل مساعدة قدمها له ذلك الملك، في سبيل الحصول على نورماندي، في مـواجهة للملك ستيفن، وعلاوة على ذلك طـالب لصـالح آرثر بمنـاطق: أنجـو، وبواتـو، ومين، وتور، ونورمـاندي، وأشيـاء أخـرى كثيرة، لم يرغب الملك جـون بمنحهـا، وتوجب عليه عدم منحها، وهكذا ارفض الاجتماع، وافترقا على خلاف متبـادل، وسأل النبـلاء الفـرنسيـون الملـك الفـرنسي عن سبب مـوقفـه العدائي الكبير من الملك جون، الذي لم يؤذه قط، فأجاب بأن هذا الملك استولى على نورماندي، والمناطق الأخـرى المذكوره أعلاه من دون إذنه، حيث كـان عليه، إثـر وفاة الملك رتشـارد، القـدوم في المقام الأول إليـه وتقـديم الولاء إليه من أجل حقـوقه، وبناء عليـه غادر الملك الفـرنسي، وقام وليم دي روبيبس Rupibus وكان نبيلاً بارعاً، فأخذ آرثر وأبعده عن وصاية الملك الفرنسي، وعمـل مصالحة بينه وبين ملك انكلترا، وقد تنازل في الوقت نفسـه إلى الملك الانكليـزي عن مدينـة مان، التي كـان الملك الفرنسي قـد وضعها مع آرثر تحت عهدة وليم المتقـدم ذكره، لكن في اليـوم نفسه جـرى إخبار آرثـر، بأن الملك الانكليزي سـوف يعتقله، ويضعـه في سجن أبدي، وبناء على ذلك نجـا بشكل سري، وعاد ثانيـة إلى الملك الفرنسي.

كيف ذهب الملك أوتو إلى روما وحصل على لقب امبراطور هناك

وجرى في تلك الآونة إلغاء انتخاب فيليب دوق سوابيا وعدد كبير آخر، وتمّ انتخاب أوتو ملك ألمانيا، وقبل امبراطوراً في روما من قبل البابا انوسنت، ومن قبل جميع الشعب الروماني، وبعد تأكيد هذا الانتخاب من قبل البابا، جرى تهديد فيليب دوق سوابيا مع مؤيديه جميعاً بالحرمان الكنسي، مالم يتمنعوا عن تعذيبهم لأوتو، وارتفعت الأصوات في العاصمة روما عاليا تنادي« الحياة والصحة للامبراطور أوتو»، وبذلك تأكد اللقب من قبل الجميع، ووقتها تذكر أنه بوسائل الملك رتشارد، تقدم إلى هذا المقام العالي، وبناء عليه أرسل رسالة إلى الملك جون أن يوقف محاولات اتفاقات الصداقة مع الملك الفرنسي، لأنه، وهو الامبراطور، على استعداد لتزويده في وقت قصير بالمساعدة التي تسمح المكانة الامبراطورية بتقديمها.

وضع المملكة الفرنسية تحت الحرمان

وفي هذه الآونة، وضع بطرس الذي كان كاردينالاً، ونائباً للكرسي الرسولي، المملكة الفرنسية تحت الحرمان من شركة المؤمنين، بسبب سجن أخيه بيتر دي دوي Douay ، الذي كان أسقفاً منتخباً لكامبري Cambray ، وقام الملك الفرنسي باطلاق سراح الأسقف المنتخب المذكور قبل سحب القرار، وفي العام نفسه وصل النائب البابوي نفسه إلى ملك الانكليز، وطلب— تحت التهديد بفرض عقوبة الحرمان من شركة المؤمنين— اطلاق سراح أسقف بوفياس الذي كان قد مضى على احتجازه بوحشية كبرى، في السجن عامين، والحصول على اذن الملك بالسماح إلى ذلك الأسقف بحرية المغادرة، ولكن بما أن ذلك الأسقف قد حمل السلاح مثل جندي أو قاطع طريق، دون أن يقيم تقديراً لمكانته الدينية، لم يسمح له بالمغادرة قبل أن يشبع نهم الملك، بدفع ستة آلاف مارك فضي بالعيار الاسترليني إلى خزينته، وأقسم بعد هذا، الأسقف المذكور على عدم حمل السلاح مرة ثانية ضد المسيحيين.

قرار حول الخلاف القديم بين كنيستي تور ودول

اتخذ في هذا العام قرار في روما حول الخلاف القديم بين كنيستي تور ودول Dol ، وجاء القرار بناء على تحكيم قطعي من قبل البابا انوسنت، فقد طالب رئيس أساقفة تور بخضوع أسقف دول له، وعارض أسقف دول ذلك، وكانت كنيسة دول هي الرئيسية في بيرتاني الصغرى، وكان الكهنة الأعلون لتلك الكنيسة ، وكذلك جميع الأساقفة الآخرين في بريتاني الصغرى، في أيام القديس مارتن، وقبل ذلك بوقت طويل، أساقفة مساعدين لكنيسة تور، غير أنهم ثاروا فيها بعد وتمنعوا عن التابعية لتلك الكنيسة، وكان السبب لذلك هو: عندما قدم الانكليز إلى بريطانيا الكبرى، وأخضعوها، مرض يوتربندراغون Uterpendragon ، ملك البريطانيين، مرضاً شديداً، واضطر إلى ملازمة فراشه في فيريولاميموم Verulamium، ولم يعد قادراً على عون نفسه، أو الدفاع عن مملكته ضد غارات برابرة المنطقة، ويقال بأن أعمال التدمير التي قام بها الانكليز(السكسون) قد امتدت إلى مسافات شاسعة، حتى أن المنطقة كلها لحقها التشعيث وغطى ذلك الجزيرة كلها من البحر إلى البحر، وسويت الكنائس المقدسة بالأرض، وأمام هذا تراجع رؤساء الأساقفة والأساقفة، وقد وجدوا أنفسهم معزولين والكنيسة المقدسة مشعثة، تراجعوا إلى أماكن أكثر أمانا، واتفقوا بالاجماع أنه من الأفضل تجنب غضب البرابرة لبعض الوقت، وعدم السكنى من دون ثمار بين أولئك المتمردين ضد الإيمان المسيحي، وكان بين هؤلاء القديس سامبسون، رئيس أساقفة يورك، وكان رجلاً لانظير له بالقداسة، وقد هرب، إلى أهل منطقته في بريتاني الصغرى(لأنهم كانوا من الأصل نفسه والمنطقة) وحمل معه الطيلسان الذي تسلمه من الحبر الأعظم الروماني، ولدى وصوله إلى تلك المنطقة استقبل بالترحاب من قبل بني قومه، وباجماع منهم كلهم انتخبوه إلى أسقفية

كنيسة دول، التي كانـت قد حرمت مؤخراً مـن أسقفيتها، وتم الحصول على إذن الملك، فأجلس في تلك المرتبـة، على الرغم من إرادته، وبقي في تلك الكنيسـة بقدر مـاعاش، وارتدى مـن بعد كثيراً من خلفـائه دومـاً ذلك الطيلسـان الـذي جلبـه من الدير في يورك، لكن فيما بعـد لم يعـد ملوك تلك المنطقـة يسمحون لأولئك الأساقفـة، لأنهم امتلكوا لممالكهم رئـاسة أسـاقفة، وصـار هؤلاء دومـا أساقفـة مساعـدين بشكل رسمي لكنيسة تور، ويقدمون الطاعة المتوجبـة لرئيس أساقفة تور المتقدم ذكره، وبعدها قرر رؤساء الأساقفة، أنه لايجوز ثـانية لأساقفة بريتاني الصغرى أن تكون لديهم رئاسـة أساقفـة سوى رئاسـة أساقفـة دول، وبعد مضي حقبة مقدارها ثلاثمائة سنة أو أكثر منذ ذلك التاريخ، حاول البابا نيقولا بناء على تحريض من رئيس أساقفـة تور إزالة هذه الغلطة، فكتب رسالة إلى سليمان ملك البريطانيين، موجـودة في مراسيم غـراشيان Gratian: المجموع الثالث— القضية السادسة، وكان نص الرسالة كمايلي:

رسالة البابا نيقولا حول القضية نفسها

« هذا هو مـرسـوم أباك المذكـور، وهذه هي شريعـة الكنيسـة أمك، والمسألة هي أنك بعثت جميع أسـاقفـة مملكتك إلى رئيس أسـاقفـة تور، وطلبت حكمـه، لأنه هو رئيس الأسـاقفة، وجميع أسـاقفـة مملكتك هم أساقفة مسـاعدين، وحسبما تظهر كتابات أسـلافي بوضوح، فهم انتقدوا بشـدة، أسـلافك لأنهم سحبوا أنفسهم مـن الخضوع لرئيس الأسـاقفـة ذاك، وكأن رسـائلنا أيضاً إليكم حـول هذه القضية كانـت كما يبدو غير كافيـة» وقال في جزء آخر:« وبما أنه هناك خـلاف شديد بين البريطانيين حول لمن تعود الأسقفيـة، وأن مامن انسان يتذكـر بأنكم امتلكتم رئاسة أسـاقفـة قط في منطقتكم، وإذا كـان يـرضيكم، فيمكنكم بسهـولة فهم مصداقية كلماتي، بما أن الرب القدير قـد عمل، سلاماً بينكم وبين ولدنا المحبوب، الملك شـارل المشهور، لكن إذا مـا عزمتم على متابعـة المرافعة

والمحاكمة، اسعوا لعرض القضية أمام كرسينا الرسولي، فبقرار حكمنا يمكن أن يكون أكثر وضوحاً معرفة من منكما كان قبل كنيسة رئاسة الأساقفة، وبذلك يتم نفي كل شك، وعلى أساقفتكم أن يعرفوا من دون تردد السبيل الذي عليهم اتباعه»، وعلى كل حال لم يقم الملك المذكور التقدير اللازم للتذكير المتقدم ذكره، بل إنه أصر وخلفائه على عدم الطاعة، وتابعوا الصراع، ووجد عدم الاتفاق بين أساقفة تور ودول واستمر حتى السنة الحالية، كما ذكرنا أعلاه، ووقتها تقرر بشكل حاسم من قبل البابا وجوب أن يكون أساقفة بريتاني كلهم، وليس فقط دول، خاضعين لرئيس أساقفة روان، وتحت إدارته القانونبة إلى الأبد، وتفوه البابا المذكور بقرار حكمه النهائي حول هذه القضية، وقد وقف بحكم كونه صاحب معرفة عالية، وجريئاً، وبارعاً— في الوقت نفسه— بالقانون، قائماً وتفوه كما يلي:« لتحزن دول، ولتفرح تور».

كيف أرسلت الملكة إليانور من أجل زواج السيدة بلانشي من لويس

عام ١٢٠٠م، فيه، عقد الملكان الفرنسي والانكليزي: فيليب وجون، مؤتمراً بعد عيد القديسة هيلاري في مكان بين قلعتي غيلون Gaillon وبوتافانت Butavant ، فيه جرى الاتفاق بين الملكين المذكورين، بناء على نصيحة كبار النبلاء في كل مملكة، بأن يقترن لويس ابن الملك الفرنسي ووريثه، بابنة ألفونسو ملك قشتالة، التي كانت أيضاً ابنة أخت الملك جون، وأنه ينبغي على الملك الانكليزي لدى عقد هذا الزواج أن يعطي إلى لويس، وذلك بمثابة حصة زواج، وإلى ابنة أخته بلانشي، مدينة ايفروكس Evreux مع جميع تلك الكونتية، وإلى جانب ذلك ثلاثين ألف مارك من الفضة، وعلاوة على ذلك طلب الملك الفرنسي من الملك الانكليزي أن يعطيه ضمانات بأنه لن يقدم مساعدة لابالجنود ولابالمال، إلى ابن أخته أوتو، في الحصول على الامبراطورية الرومانية،

لأنه قد قيل بأن فيليب دوق سوابيا كان بالتفاهم التآمري مع الملك الفرنسي، وبمساعدته، يقوم بتهديد أوتو وايذائه بشكل خطير، ذلك أنه في الحقيقة لم يتوقف على إلحاق الضرر به، دون أن يعبأ بقرار الحرمان الكنسي الذي ربطه به البابا، أما المعاهدة المذكورة أعلاه بين الملكين، فقد جرى أخيراً تأكيدها، وقد عينا العيد المقبل للقديس يوحنا المعمدان لوضعها موضع التنفيذ، وبعد ارفضاض المؤتمر، أمل الملك جون أنه بهذا الزواج سوف يتمتع بسلام أطول، ولذلك بعث أمه الملكة إليانور، لجلب السيدة بلانشي المذكورة، حتى تعود هذه السيدة معها بأمان في الوقت المتفق عليه، وأبحر الملك الانكليزي في الوقت نفسه إلى انكلترا، وفرض ضريبة ثلاثة شلنات على كل هايد[فدان] من الأرض في جميع أرجاء انكلترا، وبعدما أنهى بعض الأعمال، عبر البحر ثانية إلى نورماندي.

زواج لويس من ابنة ألفونسو ملك قشتالة

عادت بعد هذه الأحداث بوقت قصير، الملكة إليانور، مع السيدة المتقدم ذكرها لتتزوج من لويس، وقدمتها إلى ملك الانكليز، وبعد هذا عقد الملكان مؤتمراً في الحادي والعشرين من حزيران في مكان بين غولتون Guletune وبوتافانت، خلاله أعطى ملك فرنسا مدينة ايفروكس وتنازل عنها إلى الملك الانكليزي مع جميع المنطقة والأراضي في نورماندي، والممالك الأخرى العائدة إلى الملك الانكليزي التي استولى عليها وتملكها أثناء الحرب، وقدم الملك جون على الفور الولاء إلى الملك الانكليزي من أجل هذه المناطق ثم قدمهم جميعا وتنازل عنهم إلى لويس بمثابة حصة زواج وكذلك إلى ابنة أخته، وتلقى الولاء من لويس من أجلهم، وفي اليوم التالي تزوجت السيدة بلانشي من لويس في بورتمورت Portmort في نورماندي، بوساطة رئيس أساقفة بوردوكس Bourdeaux ، لأن مملكة فرنسا كانت آنذاك تحت عقوبة الحرمان

من شركـــة المؤمنين بسبب الملكة بـوتيلدا Botilda [أنغلبورغ ابنة ملك الدانمارك]، التي طلقها الملك الفـرنسي، وبعد الزواج مباشرة، حمل لويس زوجتـــه إلى باريس، وسط السرور العـــام والفـــرح العظيم لدى رجال الدين والشعب في المملكتين.

كيف تزوج الملك جون من الملكة ايزابل

وحدث في العـام نفسه طلاق بين الملك الانكليزي وزوجتـه هاويسا Hawisa، ابنة ايرل غلوستر لأنهما كانا أقرباء في الدرجة الثالثة من قربة العصب، واقترن الملك المذكور، بناء على نصيحـة الملك الفرنسي بايزابل ابنة كونت أنغوليم Angouleme، وكانت من قبل زوجة هيوج، الذي لقبـه« لى برون» Le brun ، ايرل التخوم March، وكـان هذا الزواج مـؤذياً جـداً للملك الانكليزي، وكـذلك إلى مملكة انكلترا، وبعـد مضي وقت قصير من هذا عقـــد الملكان مـؤتمراً في فيرنون، وهنـاك قـدم آرثر الولاء إلى ملك انكلترا من أجـل بريتـاني ومن أجل ممتلكاتـه الأخـرى، ولأنه كـان مـايزال يخشى الخيـانـة من جـانب الملك جـون، مكث تحت رعاية الملك الفرنسي.

أمر من الرب وصل من السماء إلى القدس فيما يتعلق بمراعاة يوم السبت

ووصلت في هذه الآونة رسالة من السماء إلى القدس، وجرى تعليقها على مذبح القـديس سمعان في الجلجلة، حيث جـرى صلب المسيح من أجل خـلاص العالم، وجـرى تعليق هذه الرسـالة لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليـــالي، والـذين رأوها انكبـــوا على الأرض يسألون الرحمة مـن الرب، ويتوسلون إليه ليريهم إرادته، وفي اليـوم الثالث، بعد الساعـة الثالثة من النهار، نهض البطريرك، ورئيس الأسـاقفة زكـريا من صلواتها، وفتحوا العصبة الموجـودة فوق المذبح العـالي، وأخذوا الرسـالة المقدسـة للرب،

وبعد تفحصها، وجدوا مكتوب عليها:« أنا الرب، الذي أمركم بالمحافظة على يوم السبت المقدس، الذي فيه استرحت من تعبي، وأن جميع الفانين عليهم الاستراحة دوماً في ذلك اليوم، لكنكم لم تحافظوا عليه، كما أنكم لم تتوبوا من ذنوبكم، وكما تكلمت في انجيلي: « السماء والأرض سوف تزولا، ولكن كلمتي لن تزول»، ولقد أمرت بالتبشير بالتوبة في الحياة إليكم، ولكنكم لم تؤمنوا، ولقد أرسلت ضدكم الكفار، والشعوب الذين سفكوا دماءكم على الأرض، ومع ذلك مازلتم لم تؤمنوا، ولأنكم لم تحافظوا على يوم الرب المقدس، فقد عانيتم لأيام من المجاعة، ومالبث الرب أن أعطاكم الوفرة، ففعلتم بعد ذلك الأسوأ، ولذلك إن ارادتي تقضي أنه من الساعة التاسعة في يوم السبت حتى شروق الشمس من يوم الاثنين، ينبغي أن لايعمل أحد شيئاً، إلاّ ماهو جيد، وكل من يفعل ذلك سوف يثاب على ذلك، وإذا لم تطيعوا أمري هذا، أقول مؤكداً لكم، وأقسم بكرسي وبعرشي، وبالكروبيين الذي يحرسون كرسي المقدس، بأنني سوف لن أرسل لكم أية أوامر برسالة أخرى، بل سأفتح السموات، وعوضاً عن المطر سوف أمطركم بالحجارة، والخشب والماء الساخن، وذلك في الليل، حتى لايستطيع انسان تجنب ذلك، لأنني سوف أدمر جميع مقترفي الشرور، وإنني أقول لكم، بأنكم سوف تموتون الموت، بسبب اليوم المقدس للرب والأعياد الأخرى لقديسيّ التي لم ترعوها، ولسوف أرسل عليكم وحوشاً لها رؤوس الأسود، وشعور النساء، وذيول الجمال، ولسوف يكونون جائعين كثيراً إلى حد أنهم سوف يلتهمون أجسادكم، ولسوف تتمنون الهرب إلى قبور الأموات لإخفاء أنفسكم، خوفاً من هذه الوحوش، ولسوف أخفي نور الشمس، وأرسل الظلام عليكم، حتى لاتعودوا قادرين على الرؤية، ولسوف يذبح أحدكم الآخر، وسوف أشيح بوجهي عنكم، ولن أريكم رحمة، لأنني سأحرق أجسادكم، وقلوب الذين لايحافظون على اليوم المقدس للرب، وعلى هذا اسمعوا صلواتي،

خشيــة مـن أن أفنيكم من على الأرض بسبب اليــوم المقـــدس للرب وابتعـدوا عن الشرور، وتوبوا من ذنـوبكم، وإذا لم تفعلوا ذلك سـوف تهلكون هلاك ســدوم وعمــوره، واعلمــوا أنكـم الآن بأمــان بفضل صلوات مـريم الأم الأعظم قداسـة، وبفضل ملائكتي المقـدسين الذين يصلون يومياً من أجلكم، ولقد أعطيتكـم القمح والخمرة بوفـرة، ومع ذلك إنكم لاتطيعوني، لأنكم يوميـا تجعلون الأرامل واليتامى يصرخون إليكم، ولاتظهـرون نحوهم أية رحمة، فلـدى الكفار مـرحمة وأنتم ليس لديكم، ولن أدع الأشجار التي تعطي الثمار تتجذر بسبب ذنوبكم، ولن تعطيكم الأنهار والينابيع المياه، فعلى جبل سيناء أعطيتكم شريعة، أنتم لم ترعـوها، أنتم رجال أشرار، لأنكـم لم تحافظوا على يوم الأحد المقـدس، الذي هو يوم قيـامتي، فلقـد استـوليتم على أملاك الآخـرين، وعـاملتم القضيـــة من دون اهتمام وتقـــديـر، ولهذا أنا سأرسـل عليكم أســـوأ الوحـوش، الذين سوف يلتهمـون صدور النساء، ولسـوف ألعن الذي يتصرف بشكل غير عـادل نحـو إخـوانه، وسألعن الذين يحكمـون بشر الفقـراء واليتـامى، وأنتم الذين قـد هجـرتموني وتبعتم أمير هذه الحيـاة، استمعوا إلى صـوتي ولسوف تتلقـون الرحمة، لكن مادمتـم غير متوقفين عن اقتراف الشرور، وعن أعمال الشيطان، وبقدر ماتستمرون في اقتراف الحنث باليمين والزنا، فـإن الشعـوب سـوف تحيط بكم، وتلتهمكم مثل الحيوانات المتوحشة».

تبشير يوستاس راعي دير فلي حول الوصاية المذكورة

ولدى تمعن البطريرك ورجـال الدين في الأرض المقـدسة في فحـوى هذه الرسالة، ونظروا إلى الكلمات باعجاب ممزوج بالخوف، فتقرر برأي الجميع تحويـل الرســـالة من أجـل الفحص والتقـــدير مـن قبل الحبر الرومـاني، ذلك أنه يمكنه تقـرير مـاالذي ينبغي فعله، وجلبت الرسـالة ووضعت أخيراً تحت الفحص من قبل مولانا البابا، وإثر ذلك تولى على

الفور رسم أساقفة أرسلوا إلى كل جزء من أجزاء العالم، للتبشير بمحتوى الرسالة وهدفها، وتعاون الرب معهم، وأيد خطاهم بوساطة معجزات نتجت عن ذلك، وكان بين هؤلاء راعي دير فلي Flaye وكان اسمه يوستاس، وكان متديناً ورجلاً متعلماً، حيث انطلق إلى انكلترا، وأشع هناك بعمله عدداً كبيراً من المعجزات، فقد نزل قرب مدينة دوفر، وبدأ واجبه بالتبشير في مدينة اسمها واي Wiففي جوار ذلك المكان أضفى مباركته على أحد الينابيع، فبفضل الفضائل التي نالها بمباركة من الرب، صار الحال أنه بمجرد تذوق تلك المياه فقط، استرد الأعمى بصره، والأعرج قدرته على السير، والأخرس المقدرة على الكلام، والأطرش استطاعة السماع، وكل انسان مريض شرب من المياه وهو مؤمن، تمتع على الفور بعودة الصحة، فاحدى النساء قد هوجمت من قبل الشياطين، وتورمت وكأنها مصابة بالاستسقاء، فقدمت إليه هناك، تنشد العودة إلى الصحة بوساطته فقال لها:« اطمئني يابنتي، واذهبي إلى النبع في واي الذي باركه الرب، واشربي منه، وهناك سوف تستردين صحتك»، وغادرت المرأة، ووفقاً لنصيحة رجل الرب، شربت، وتحولت على الفور لأن تكون قادرة على الغثيان، وأمام جميع الناس الذين كانوا عند النبع لاسترداد صحتهم، خرج منها علجومان أسودان كبيران، وقد تحولا على الفور إلى كلبين كبيرين أسودين، من أجل اظهار أنهما كانا شيطانين، وأخذا بعد وقت قصير شكل حمارين، ووقفت المرأة وقد علتها الدهشة، لكن مالبثت بعد وقت قصير أن ركضت خلفهما وهي مغضبة، راغبة بإلقاء القبض عليهما، وقام الرجل المعين ليكون مسؤولاً عن النبع، برش بعض الماء بين المرأة والوحشين، وإثر ذلك طارا في الهواء واختفيا، مخلفين وراءهما بعض آثار قذارتهما.

كيف تسبب راعي الدير المتقدم ذكره بتفجر نبع ماء عذب

ووصل رجل الرب هذا إلى بلدة رومسنيل Rumesnel ، ليقوم بالتبشير، وكان هناك نقص بالمياه العذبة في ذلك المكان، وبناء على طلب شعب ذلك المكان، قام فضرب بعصاه صخرة في الكنيسة هناك حيث تدفق الماء منها بوفرة، وكثيرون ممن شربوا من المياه شفيوا من أمراض متنوعة، ثم إنه تنقل من مكان إلى مكان، ومن مقاطعة إلى مقاطعة، ومن مدينة إلى مدينة، وأقنع كثيرين بالتخلي عن عادات الربا، وأقنعهم بحمل صليب الرب، وانصراف قلوبهم نحو كثير من أعمال التقوى، كما أنه منع الأسواق والمواصلات في أيام الآحاد، وهكذا فإن جميع الأعمال التي كان من المعتاد القيام بها في أيام الأحد، في جميع أرجاء انكلترا، جرى اعدادها للتنفيذ في واحد من الأيام التالية، أثناء الاسبوع، وبذلك استخدم أهل الإيمان راحتهم في أيام الأحد، لتأدية واجباتهم نحو الرب، وتمنعوا كلياً عن التعب في ذلك اليوم، لكن مع مرور الأيام، عاد كثيرون إلى عاداتهم القديمة، مثل عودة الكلاب إلى قيئهم، ومنع القسس والكهنة في الكنائس، مع الأشخاص الخاضعين لهم، من ابقاء المصابيح مشتعلة بشكل دائم أمام القربان، من أجل أن يتمكن الذي يعطي الضوء إلى كل انسان يأتي إلى هذا العالم، من إعطاء الديمومة إلى الضوء الدنيوي، وأعطى وصية إلى جميع أصحاب المراتب العليا، خاصة من التجار والمواطنين، بأن يكون هناك دوما على موائدهم صحن المسيح إلى الفقراء، فبأخذهم من وفرتهم المعتادة يمكنهم أن يرفعوا حاجات المحرومين ويزيلوها، كما أنه أمر عدّ يوم السبت من الساعة الثالثة مقدساً، ومنع جميع الأعمال فيه مثل يوم الأحد، وأيضاً جميع يوم الأحد والليلة التالية حيث يشكلان يوماً طبيعياً، وبهذا قدم رمزياً الرقود لراحتنا السرمدية.

معجزة مرعبة عملت على احدى النساء

في تلك الآونة نفسهـا، قـامت مرأة من منطقـة نورفـولك Norfolk، على الرغم من تحذير رجل الرب، فـذهبت في أحد الأيام لغسل الملابس بعـد الساعـة الثـالثة من يـوم السبت، وعندما كـانت مشغـولة بالعمل، اقترب منها رجل له مظهـر مبجل، وغير معروف بالنسبة إليهـا، ولامها وسألها عن السبب في استخفـافهـا هكذا وجرأتها، واقـدامهـا على غسل الملابس بعـد الساعـة الثالثـة على الرغم من حظر رجل الرب، فبعملهـا غير الشرعي هذا دنست يوم السبت المقـدس، وعلاوة على هذا أضـاف أنها مـالم تتوقف على الفـور عن عملها، فلسـوف تجني بدون شك، على الفـور غضب الرب، وانتقام السماء، غير أنها أجـابت منتقدها بالمرافعـة والتسـويغ بوجود فقـر مدقع، ولقـد قـالت بأنها حتى وقتها عـانت من حياة تعيسة، بالتعب من هذا النـوع، وأنها إذا توقفت عن عملها المعتاد، ستفقـد بدون شك قـدرتها على شراء وسـائـل عيشهـا، وغـاب الرجل لبعض الوقـت من أمــامهــا، وجــددت هي غســل الملابس وتجفيفهم بالشمس، بنشاط أكبر من ذي قبل، لكن مقابل هذا كله، انتقام الرب لم ينتظر، لأنه فـوق البقعة نفسها، التصق خنزيـر أسود صغير على الجانب الأيسر من صـدر المرأة، ولم يكـن من الممكن، بأية وسيلة من الـوسـائل انتزاعه وازالته، بل استمر يمتص الدم ويسحبه، واستنفد في وقت قصير جميع القدرة الجسدية للمـرأة التعيسة، وتحولت أخيراً إلى وضع، صارت فيه لحاجتهـا الماسة، مرغمة لوقت طويل، على التسـول من أجل خبزها من باب إلى باب، وذلك على مشهد مـن كثير الناس، الذين دهشوا تجاه انتقام الرب، وقد أنهت حياتها تعيسة بموت بائس.

معجزة أخرى عملت على قطع رغيف من الخبز

وفي تلك الآونة نفسهــا، أمـر أحــد العمال في منطقــة نورثأمبرلاند زوجته بصنع بعض الخبز في يوم السبـت، من أجل أكله في اليوم التالي،

وأطاعت المرأة أوامر زوجها، وعندما في الغد وضعت الخبز أمام زوجها، وبدأت بقطعه، وقعت ساعتها حادثه هائلة ولم يسمع بمثلها، لأن دماً دافئاً تبع السكين وهي تقطع الخبز، وكأنه قد تدفق من حيوان قد ذبح للتو، وعندما وصل خبر هذه الواقعه إلى علم الناس، منعت كثيرين من العمل في ذلك اليوم.

كيف جرى حرمان غيوفري رئيس أساقفة يورك من جميع ممتلكاته

وفي هذه الآونة، جرى حرمان غيوفري رئيس أساقفة يورك— بناء على أوامر من الملك جون— من جميع أجور وتعويضات رئاسة الأسقفية، لأن جيمس عمدة يورك وأعوانه قاموا بالهجوم بعنف على قراو، وعلى ممتلكات رجال الدين والكهنة الآخرين، ثم اقتسموا جميع ممتلكاته، وبناء على ذلك تولى رئيس الأساقفة المذكور، حرمان جيمس المتقدم ذكره كنسيا بالاسم، وبشكل عام جميع الآخرين من مقترفي هذا العنف، وكان غيوفري قد أثار غضب الملك ضده وانزعاجه، وفي الحقيقة كان سبب غضب الملك منه له عدة أسباب، وكان أولها في المقام الأول عدم سماحه للعمدة المذكور أن يجمع من أسقفيته الضريبة من أجل استخدام الملك، مثلما سمح بذلك في جميع أرجاء انكلترا بشكل عام، وكان ثانيها بسبب عدم مرافقته الملك إلى نورماندي، لإقامة حفل الزواج بين لويس وبين ابنة أخته، ولعقد اتفاق مصالحة مع الملك الفرنسي، وثالثا بسبب حرمانه كنسيا للعمدة المذكور، ولوضعه جميع كونتية يورك تحت الحرمان من شركة المؤمنين.

تتويج الملك جون والملكة ايزابيل في لندن

وفي هذا العام، بعدما قام الملك جون بتسوية أموره على الجانب الآخر من الماء، عبر إلى انكلترا جالبا معه زوجته، وفي الثامن من تشرين

أول نزل في دوفر، ثم إنهما قدما بعد هذا إلى لندن، حيث جرى تتويجهما معا في وستمنستر من قبل هيوبرت، رئيس أساقفة كانتربري، بحضور نبلاء الملكة، وكان غيوفري رئيس أساقفة يورك الذي كان قد تصالح مع الملك، حاضراً في هذا الاحتفال، وفي هذه الآونة، بعث جون رسالة أيضاً إلى وليم ملك الاسكوتلنديين للقدوم إليه إلى لنكولن، في اليوم التالي لعيد القديس إدموند، حتى يرضيه بالنسبة إلى حقوقه في انكلترا.

حياة القديس هيوج أسقف لنكولن قبل حصوله على الأسقفية

وقدم في هذه الآونة هيوج أسقف لنكولن، صاحب الذكرى الطيبة، من القارة، ذلك أنه هوجم من قبل حمى الملاريا، في الهيكل القديم في لندن، فأنهى حياته السامية بموت رائع في السادس عشر من شهر تشرين الثاني، وكانت أحاديثه المقدسة أثناء حياته، كلها تعليمات للناس للأخلاق، ومثلاً للأعمال الجيدة، وهذا يرغمنا على اقحام أشياء قليلة حوله في أعماله، فقد ولد هذا الرجل المقدس في منطقة نائية في بيرغندي، وكانت أخلاقه أكثر نقاء من أسرته، وكان شديد الانصراف والمتابعة للآداب منذ صغره، وعندما كان في العاشرة من عمره عهد به إلى رهبان نظاميين ليتعلم العلوم اللاهوتية، وقد تعلم بينهم في ميدان كل من الأخلاق والعلوم، وبعد امضاء ستة عشر عاماً في القلاية، حصل على وظيفة رئيس رهبان، وسارت جميع الأمور وهو في هذا المنصب بشكل مزدهر معه، ثم إنه قرر أن يضع مراقبة أشد على آلام الجسد الخطيرة، وبأمر من الرب، ذهب إلى طائفة الرهبان الكارثوشيين Carthusian، وأظهر نفسه بينهم لطيفاً ودمثاً تجاه الجميع، وظل مع ذلك مخفياً جديته الدينية، ولذلك بعد مضي وقت جرى تعيينه مديراً للبيت كله، ومع مرور الأيام، وعندما جرى تأسيس بيت للرهبان الكارثوشيين في انكلترا من قبل الملك اللامع هنري ملك انكلترا، الذي كان يتحرق رغبة إلى رفع شأن قضية الرب، استجاب لتوسلات ذلك

الملك، ليصرف انتباهه إلى ادارة ذلك البيت، وبعدما جرت دعوته لتولي رئاسة الرهبان، جعل همّ دراسته الأول يوميا زيادة قداسته السالفة، ولهذا ولأحاديثه المقدسة نال حظوة عظيمة لدى الملك، الذي غالبا ماتمتع بالحديث معه، وكان الملك قد وضع بين يديه كنيسة لنكولن، التي كانت قد حرمت منذ عدة سنوات من عناية أسقف يتولاها، ولكي يكفر عن هذا الذنب، بقدرما يستطيع حصل على التعيين بوساطة الانتخاب للرجل المتقدم الذكر، أي هيوج، ليكون حاكماً لتلك الكنيسة، وفيما بعد عندما تمّ الاعلان عن انتخابه لرجل الرب، أجاب أنه لن يقبل بذلك المنصب، أي وظيفة الأسقفية، مالم يتم التوضيح له تماما أنه تولى ذلك بوساطة الموافقة الجماعية لكنيسة لنكولن، وذلك مع موافقة رئيس الرهبان الكارثوشيين، وبعدما جرى اقناعه بالنسبة لهذه النقاط، قدم عميد لنكولن مع شيوخ تلك الكنيسة إلى رجل الرب، وحصل بعد الاجتماع الأول بهم على تقديرهم إلى حد أن يكون أسقفهم وأباهم الروحي، بتقوى وعواطف مخلصة، ولكي تكون موافقتهم أكثر تأكيداً، جعلوه يعرف بأنهم انتخبوه هناك، وقام هو بناء على ذلك باعلامهم للمرة الأولى بالموافقة على ذلك، وبعد ذلك، بعدما جرى تكريسه، وفي الليلة الأولى التي نام فيها في أسقفيته، سمع بعدما صلى بخشوع صوتاً يقول له: «لقد مضيت أنت نحو سلامة شعبك وإلى السلامة مع المسيح».

فضائل الرجل المقدس في أسقفيته

جعل عبد الرب هيوج المكرس كنيسته تشع بفضائله، ووجه الناس وعلمهم أن يتخذوه مثلا لهم وفعل ذلك بالقول والعمل، وأظهر بأن اسم أسقف حقاً لائق به وجدير، ووضع أيضاً أشخاصاً منتخبين في الكنيسة التي بناها، وجعلها هيكلاً من خلال الأحجار الحية، وصدّ هو بشكل مستمر هجمات القوى العلمانية في القضايا المتعلقة بالكنيسة،

ذلك أنه أظهر أنه لايعبأ بالمخاطر المتعلقة بممتلكاته أو جسده، وبهذا المنهج حقق تقدماً كبيراً حيث استرد كثيراً من الحقوق، كانت قد ضاعت، وحرر كنيسته من أقسى أنواع العبودية، وبالاضافة إلى هذا، اعتاد رجل الرب على دخول بيوت المجذومين من الناس، التي كان يمر بها، وكان يقبّل جميع المصابين بالجذام، مهما كانوا مشوهين، ويضفي عليهم الصدقات بكرم، وحول هذا، حاول وليم، صاحب الذكرى الطيبة، الذي كان مستشاراً للكنيسة نفسها، أن يجرب ويعرف فيما إذا كان عقله قد تأثر وأصيب بالعجرفة، بسبب ذلك، فسأله:« لقد شفى مارتن بقبلاته المجذوم، وأنت لم تشف المجذومين بقبلاتك»، فأجابه الأسقف على الفور قائلاً:« شفت قبلة مارتن جسد المجذوم، لكن قبلة المجذوم شفت روحي»، وبالنسبة لدفن الموتى، قام بواجباته الانسانية بيقظة تامة، ولم يهمل جسد أي ميت، اعتقد أنه قد عهد إليه القيام بواجبه نحوه، ومرة عندما كان هذا الرجل المقدس يقوم بواجب العناية برعيته، وكان وقتها يزور احدى الأبرشيات، وكان بين الأماكن التي زارها بلدة اسمها الكموندبري Alcmundeberi، حيث قدم إليه أبوان لأحد الأطفال، ومعهما طفل صغير لهما كان بدون حياة تقريباً، وهما يبكيان وينشدان مساعدته، ولدى سؤال الأسقف لهما ماذا يريدان، أجابته أم الطفل قائلة:« أخذ هذا الطفل الصغير بيده قطعة من الحديد طولها أكثر من انش وكذلك سماكتها، وكما يفعل الأطفال وضعها في فمه، غير أنه ابتلعها، ومضت سريعاً في بلعومه، وهي الآن تقتل الطفل، وبناء عليه ياأبانا المقدس، لقد أرسلك الرب كي تعيد إلينا طفلنا، الذي هو الآن على حافة الموت، ونظر الأسقف نحو الطفل، ولمس لسانه، وقرأ مباركة، ونفخها عليه، وبعدما رسمها بعلامة الصليب، أعاده إلى والديه، ولدى أخذهما له من الأسقف قفزت قطعة الحديد خارجة وكلها دماء، وشفي الطفل من تلك الساعة، وفي مناسة أخرى، عندما كان الرجل المقدس يمر خلال بلدة اسمها كستريهنت Cestrehunte

جاء إليه أقرباء أحد المجانين، الذي كان مرغماً منذ ثلاثة أسابيع على الحبس مغلولاً ورجوه أن يزوره ويباركه، ولدى سماع ذلك ترجل الرجل المقدس من على فرسه، وذهب إلى الرجل المجنون، الذي كان رأسه مربوطا إلى عمود، ويداه ورجلاه مربوطون كل على حده إلى أوتاد، وبارك الأسقف بعض الماء الذي كان قد جلبه معه، وعندما مدّ الرجل المجنون لسانه، وكأنه يريد أن يسخر منه، رش بعض الماء عليه، ثم قرأ على الرجل المجنون جزء الانجيل الذي فيه:« في البدء كانت الكلمة»، وبعدما أعطاه مباركته غادر، وبعدما ذهب، بدأ الرجل المريض بالنوم، وعندما أفاق عاد إلى وضعه الصحي المتقدم، وحدث في هذه الآونة أن كان هذا الرجل التقي في لنكولن، يساعد في أعمال عمارة الكنيسة الأم هناك، التي بناها بشكل فخم من الأساسات، وبينما كان يحمل حجارة وملاط في وعاء على كتفيه، كما كانت عادته بالغالب، وصل إليه رجل أعرج بالرجلين، وكان يتوكأ على عصاتين، ورجاه بالحاح أن يحمل الوعاء نفسه، آملاً في أن يسترد العافية إلى طرفيه بفضائل هذا الرجل المبارك، وحصل أخيراً على إذن معلم العمل بإعطائه الوعاء، وشرع وهو يتوكأ على عصاتيه يحمل الحجارة والملاط فيه، هذا وحدث بعد عدة أيام انقضت أن تخلى عن العصاة الأولى، ثم مالبث بعد ذلك أن تخلى عن الثانية، وبعد مضي وقت قصير صار قوياً، ومناسباً لحمل الوعاء نفسه في العمل في الكنيسة، من دون الاتكاء على أي عصا، وبعدما صار وضعه صحياً تماما أحب ذلك الوعاء كثيراً، وأعلن أنه لن يتخلى عنه مطلقاً، وحدث مرة أخرى في المدينة نفسها، أن أحد السكان أصيب بالجنون، إلى درجة أنه جرى تعيين ثمانية رجال يكونون مسؤولين عنه، وقد حبس بالأغلال ذلك أنه أصيب بجنون وصل إلى درجة أنه هدد بتمزيق زوجته وأولاده إلى قطع بأسنانه، وحمل أخيراً، وهو مربوط داخل عربة إلى رجل الرب، الذي ماأن رآه حتى رش عليه على الفور الماء المقدس، وأمر الروح الشريرة بالخروج منه،

وأن لاتزعجه أكثر من هذا، ووقع الرجل المجنون فجأة على الأرض، وكأنه رجل كان يموت، وصب الرجل المقدس الماء المبارك عليه بكميات كبيرة، ونهض بعد ذلك على الفور الرجل المجنون، ورفع يديه المربوطتين نحو السماء، وقدم الشكر للرب، وإلى الكاهن المبارك، وبناء على ذلك فكت أغلاله، وذهب في حال سبيله رجلاً معافى، وأيضاً كانت هناك امرأة في لنكولن لديها ولدين، أصيب أحدهما وهو مايزال طفلاً بتورم كبير في جنبه، وخافت أمه على صحته خوفاً كبيراً، فذهبت إلى هذا الأسقف المقدس، وحصلت على وعده بمباركة ابنها، وبناء على ذلك وضع الأسقف يديه، على الجزء المريض، وباركه ثم أرسله في حال سبيله، وبعد ذلك اختفى التورم، ومنذ تلك الساعة لم يعد يزعج الطفل، كما أن أمه لم تعد ترى أي أثر منه، وحدث في وقت آخر أن هذه المرأة نفسها، أخذ ابنها الآخر يعاني بشكل شديد من اليرقان، وقد تذكرت ملازها السالف، فحملته إلى أمام الأسقف المبارك ليبارك من قبله، وهذا أيضاً بعد تلقيه المباركة، عاد إلى وضعه الصحي المتقدم، وحدث ذلك خلال ثلاثة أيام.

كيف غادر القديس هيوج هذه الحياة

ومع نهاية العام الرابع عشر من أسقفيته، لدى عودة الأسقف المقدس هيوج إلى انكلترا من البيت الرئيسي لطائفة الكارثوشيين، حيث كان هناك بزيارة لرئيس الرهبان وللرهبان في ذلك البيت، وذلك بناء على رغبتهم الطويلة، وقتها وقع مريضاً بشده بحمى الملاريا، وكان ذلك في الهيكل القديم في مدينة لندن، وهناك جاء الملك جون لرؤيته، وقبل أن يتركه أكد وصيته، وذلك بناء على تشجيع من رجل الرب، ووعد بحق الرب، أنه في المستقبل سوف يقر الشهادات المعقولة للكهنة، ومع أن مرضه ازداد كل يوم ترسخاً، لم يسمح، بناء على نصيحة أي انسان، بأن يضع جانباً، ولو لوقت قصير، الثوب الصوفي الذي ارتداه

دوما، وقد أصر، مع اقتراب موته، على المحافظة على النظام القاسي لطائفة رهبان الكارثوشيين، وبناء على دعوة من الرب، غادر حياته هذه وهو سعيد، وعندما حمل سكان لندن جسد الرجل المقدس لدفنه في لنكولن، وقعت حوادث رائعة، فالمشاعل الذي أشعلت أمام الجسد لدى مغادرة لندن، ظلت تشتعل طوال أيام الرحلة الأربعة، لذلك لم يكونوا في أي وقت من دون ضوء واحد من المشاعل، مع أن الأنواء كانت سيئة بشكل غير معتاد، وذلك بسبب الرياح والأمطار، ومن هذه الأحوال، لم يكن هناك من شك، بأن الرب قد هيأ ضوءاً دائماً لروحه، لأنه تقديراً منه لجسده، لم يسمح للضوء الموقت بالانطفاء، ولقد مات عبد الرب هيوج، أسقف لنكولن في سنة ألف ومائتين لتجسيد الكلمة، وكانت وفاته في السابع عشر من تشرين الثاني.

كيف جرى حمل جسد القديس هيوج إلى لنكولن لدفنه

في الحادي والعشرين من تشرين الثاني، التقى جون ملك الانكليز، ووليم ملك الاسكوتلنديين في مؤتمر مع بعضهما بصحبة جميع النبلاء، ورجال الدين والعلمانيين من المملكتين، وعلى الرغم من نصيحة الكثيرين، دخل الملك جون إلى مدينة(لنكولن) بجرأة، الأمر الذي لم يتجرأ أحد من أسلافه على محاولته، ولدى وصوله إلى الكنيسة الكاتدرائية، قدم كأساً ذهبياً على مذبح القديس يوحنا المعمدان، الذي كان في البناء الجديد، الذي أنشأه من الأساسات، القديس هيوج المتقدم ذكره، والتقى في اليوم نفسه هو وملك الاسكوتلنديين، على رابية خارج المدينة، وهناك قدم الملك وليم الولاء للملك جون أمام جميع الناس، من أجل جميع حقوقه، وأقسم فيما بعد بحضور جميع نبلاء المملكة، يمين التبعية له، على صليب هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، وعاهده على الاخلاص له بالنسبة للحياة وسلامة والأعضاء والشرف الأرضي، وفي ذلك اليوم وصل جسد الأسقف هيوج الأكثر قداسة، إلى هناك لدفنه،

وذهب الملكان لاستقباله، وكان يصحبتها ثلاثة رؤساء أساقفة هم: هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، وغيوفري رئيس أساقفة يورك، وبرنارد رئيس أساقفة راغوا Ragua ، وثلاثين أسقفاً، وايرلات، وبارونات، وكهنة بلا نهاية، وقد استقبلوا جسده الأعظم قداسة، وتسلموه، وقام الملكان نفساهما، والايرلات والنبلاء، بحمله على أكتافهم إلى القاعة في الكنيسة الكاتدرائية، وعند باب الكنيسة استقبله رؤساء الأساقفة الذين تقدم ذكرهم مع الأساقفة، وجرى حمله من قبل هؤلاء الأساقفة إلى السدة، حيث ظل راقداً باحترام طوال الليلة، وكان هذا الأسقف قد اعتاد خلال أيام حياته، على القيام بكل نشاط بواجباته الانسانية في دفن الموتى، ولم يهمل قط دفن جسد أي ميت، رأى من واجبه حضوره والقيام به، ولهذا السبب، فإن الرب الذي يعرف كيف يكافىء فضائل المستقيمين، بجزاء مناسب، قد سمح له بمثل هذا الدفن المتميز، حتى بدا أنه يكافئه بالتشريف لفضائله المتقدم ذكرها، وحدث على كل حال أنه قبل الدفن لرجل الرب هذا، وبينما كانت طقوس الجنازة آخذة مجراها لدفنه، وكان هو نفسه— كما جرت العادة بالنسبة للكهنة العالون— ممدداً غير مغطى، وهو يرتدي القلنسوة على رأسه، والقفازان في يديه، والخاتم باصبعه وذلك مع بقية الزينه الحبرية، قدم أحد الجنود وكان معروفاً من قبل الرهبان النظاميين للكنسية، وكانت ذراعه متآكلة كلها بوساطة الجذام حتى العظام، وظهرت وهي مجردة من اللحم والجلد، فوضع ذراعه فوق جسد الأسقف، وبلل وجهه مراراً بالدموع ليتولى شفاء ذراعه المريض، وعلى الفور تمّ استرداد اللحم والجلد برحمة من الرب، من خلال فضائل قديسه، ولهذا عاد الجندي يحمد الرب، والأسقف المقدس، وغالبا ما أظهر نفسه لشماس الكنيسة، ولأشخاص موثوقين آخرين، وقدمت في الوقت نفسه امرأة، كانت فقدت بصرها باحدى عينيها منذ سبع سنوات، فاستردت بصرها على مشهد من الجميع ودهشة منهم، وقام في الوقت نفسه بشال، في

وسط ضغط الناس الذين تجمعوا حول عبد الرب، فانتشل حافظة نقود احدى النساء، ولكن بفضل الأسقف المبارك، الذي أظهر أنه لم يكن ميتاً بل حياً، اشتبكت يدا اللص الشرير، ويبست أصابعه، وثبتت على كفه حتى أنه لم يعد قادراً على امساك السلعة التي سرقها، فألقاها على أرض الكنيسة، وبدا وكأنه مجنون، وصار بعد ذلك هدف المقاطعة من الناس، وهكذا بعدما تعذب بالروح الشيطانية لمدة طويلة، جاء بذاته ووقف من دون حراك، ثم إنه بدا يبكي بحرقة، وقام على مسمع من الناس جميعاً، فاعترف بجريمته الدنيئة إلى جميع الذين أصغوا إليه، وعندما لم يجد سبيلا للنجاة، التفت نحو الكاهن وقال:« ارحمني، ارحمني، أنت يارفيق الرب، لأنني تخليت عن الشيطان وعن أعماله، الشيطان الذي كنت حتى الآن عبداً له، وصلّ للرب من أجلي حتى لايصدني في توبتي، بل أن يعاملني برحمة»، وفور تلفظه بهذه الصلوات للرب، انفكت أغلال الشيطان التي كانت يداه مربوطتان بها، وعاد صحيحاً شاكراً للرب وللأسقف المبارك.

دفن القديس هيوج

وبعد انقضاء السهر المطلوب على جسد الأسقف، وفي ظل ضوء اليوم التالي، قام رؤساء الأساقفة والأساقفة المتقدم ذكرهم، بعدما أنهوا القداس في الكنيسة الجديدة، التي كان هو نفسه قد بناها تشريفاً لأم الرب، فأودعوا بشكل لائق الجسد المقدس في القبر، قرب مذبح القديس يوحنا المعمدان، وتولوا القيام بواجبه بشكل متميز بدا وكأن الرب قد جمعهم من أجل هذه الغاية الخاصة، وقد دفن في الرابع والعشرين من تشرين الثاني، واستمرت المعجزات تعمل عند قبره، للذين طلبوهم، وسعوا إليهم مؤمنين، فبعد موته الرائع، كان هناك طفل من منطقة لنكولن نفسها، وكان مريضاً منذ خمسة عشر يوماً، وقد حمل مع ازدياد قوة المرض عليه ووضع أمام بيت الميت فأصبح جسده

فجأة متيبساً، وكأنه قد مضى على موته عدة أيام، ولدى رؤية ذلك، قامت احدى النساء وكانت واقفة بجواره، باغلاق عينيه، وبوضع يديه ومدّ أطرافه كما هي العادة مع الميت، وبعدما تمدد على هذه الصورة منذ صراخ الديك حتى صباح اليوم التالي، اقتربت أمه— التي حتى وسط دموعها لم يمت إيمانها مع ولدها — من الجسد بثقة، وأخذت بيدها خيطاً مما يصنع منه فتيل الشموع، وقاست به جسد ابنها من جميع الجهات، وقالت بعد ذلك وهي واثقة وفي وسط الدموع:« إنه حتى ولو دفن ولدي، بإمكان الرب إعادته من خلال فضائل القديس هيوج»، ومع مرور النهار، صلوا وقدموا صدقات لصالح روح الطفل، وبعثوا وراء الكاهن ليتولى دفنه، مع أن أمه استمرت تصرخ معارضة ذلك، وقبل وصول الكاهن الذي بعثوا خلفه، اكتشفت الأم، التي كانت قلقة من أجل الحفاظ على ابنها، الحياة فيه، وبناء عليه مجدت الرب، والأسقف المبارك، الذي إلى فضائله عزت هذه المعجزة، وليكن في عرض هذه الأمور المتعلقة بحياة رجل الرب كفاية، وذلك من بين كثير من الأمور المتعلقة بهذه المسائل.

ظهور خمسة أقمار

وفي هذا الشهر نفسه، وقبل وقت قصير من عيد الميلاد، وفي حوالي الساعة الأولى من الليل، ظهرت خمسة أقمار في السماء، وظهر الأول في الشمال، وظهر الثاني في الجنوب، وظهر الثالث في الغرب، وظهر الرابع في الشرق، وظهر الخامس في وسط الأربعة مع عدة نجوم من حوله، ودار القمر الأخير مع النجوم التي رافقته حول الأقمار الأخرى، خمس مرات أو أكثر، واستمرت هذه الظاهرة لحوالي الساعة، الأمر الذي أدهش جميع الذين شاهدوا ذلك.

المحتوى

الصفحة	الموضوع
٥	توطئة
٩	المجمع الذي عقده البابا أوربان الثاني
١١	موعظة البابا في المجمع
١٤	أسماء النبلاء الذين حملوا الصليب
١٥	رؤيا بطرس الناسك
١٧	وولتر الذي كان أول الصليبين انطلاقاً
١٩	حج بطرس الناسك
٢١	موت الثلاثين ألفاً من الصليبيين
٢٢	حول مقتل بعض الحجاج غدراً
٢٤	حول بعض الحجاج الذين عذبوا اليهود
٢٥	رحلة الدوق غودفري ورفاقه
٢٧	غدر الامبراطور ألكسيوس
٢٧	انطلاق الأمير بوهيموند
٢٨	حج كونت طولوز
٣٠	انطلاق روبرت دوق نورماندي
٣١	حصار مدينة نيقية
٣٢	قدوم الدوق روبرت إلى حصار نيقية
٣٢	انهزام الأتراك في القتال
٣٤	لغم أحد الأبراج
٣٥	الاستيلاء على نيقية
٣٧	متابعة الزحف والإنتصار المفجع على الأتراك

الصفحة	الموضوع
٣٨	الزحف من نيقية إلى أنطاكية
٤٠	حصار أنطاكية
٤٢	كيف قتل بوهيموند كثيراً من الأتراك
٤٤	المجاعة والوباء بين الصليبيين
٤٥	مرض غودفري وشفائه
٤٦	سيامة سامبسون أسقفاً لوركستر
٤٧	مقتل ألفي تركي
٤٨	تدمير ثلاثمائة من الحجاج
٥١	كيف استولى الحجاج على ألفين من الخيول
٥٢	حول فيروز الذي خان أنطاكية
٥٣	الاستيلاء على أنطاكية
٥٦	وفاة يغي سيان
٥٦	حول شمس الدولة وتسليمه القلعة إلى كربوغا
٥٧	الحصار الثاني لأنطاكية من قبل كربوغا
٥٨	عذاب الحجاج
٦٠	مواساة الرب للحجاج
٦٢	العثور على حربة المخلص
٦٣	حشد العساكر وخروجها من أنطاكية
٦٥	المعركة الرهيبة والنصر الرائع
٦٧	الغنائم الثمينة والخيمة الرائعة

الصفحة	الموضوع
٦٨	ترميم الكنائس
٧٠	ذهاب هيوج الكبير وعدم عودته
٧١	ظلم الملك وليم الانكليز بالضرائب
٧١	متابعة زحف الفرنجة وتذمر الشعب
٧٢	الوصول إلى منطقة أنطاكية
٧٤	تخريب كنيسة القديس جرجس
٧٥	تحصين الأتراك للقدس
٧٦	أول حملة شديدة على القدس
٧٨	اكتمال صنع الآلات ومهاجمة المدينة مجدداً
٨٠	الاستيلاء على القدس
٨٢	قتل سكان القدس وتنظيف المدينة
٨٣	كيف زار الأمراء الأماكن المقدسة
٨٥	كيف انتخب الأمراء ملكاً وبطريركاً
٨٦	هزيمة جيش سلطان مصر
٨٨	نحيب أمير الجيوش والنصر والغنائم
٨٩	عودة روبرت دوق نورماندي
٩٠	وضع المدينة المقدسة
٩٢	الأماكن المقدسة داخل المدينة
٩٤	كيف نظر الملك وليم إلى بلاطه
٩٥	موت وليم روفوس

الصفحة	الموضوع
٩٨	أخطاء الملك وليم
٩٨	تتويج هنري الأول ملكاً على انكلترا
٩٩	الحريات التي منحها الملك هنري إلى مملكته
١٠٢	عودة أنسلم رئيس أساقفة كانتربري
١٠٣	موت غودفري المبكر
١٠٤	تتويج بلدوين ملكاً على القدس
١٠٥	زواج الملك هنري
١٠٦	عقد مجمع في لندن
١٠٨	ذهاب رئيس أساقفة كانتربري إلى روما
١٠٨	هلاك كثير من النبلاء وهم على طريقهم إلى القدس
١٠٩	كيف أخضع ملك القدس ثلاث مدن
١١١	كيف أخلى الملك هنري مناطق أخيه من السكان
١١١	منع أنسلم رئيس أساقفة كانتربري من العودة
١١١	مساعدة تركي بلدوين على النجاة
١١٣	استسلام عكا إلى الملك بلدوين
١١٤	العمل الخالد للملكة ماتيلدا
١١٥	الملك هنري يأسر أخاه
١١٦	الصلح بين الملك هنري ورئيس الأساقفة أنسلم
١١٧	وفاة جيرارد رئيس أساقفة يورك
١١٨	موت أنسلم رئيس أساقفة كانتربري

الصفحة	الموضوع
١١٩	كيف عاث بوهيمود فساداً في أراضي الامبراطور الكسيوس.
١١٢٠	كيف نفى الملك هنري بعضاً من أعدائه
١٢١	كيف عاث الملك هنري فساداً في أراضي كونت أنجو
١٢١	القديسة فرايدسوايد
١٢٢	الخلاف بين البابا والامبراطور
١٢٣	الخلاف بين رئيس أساقفة كانتربيري ويورك
١٢٤	كيف جعل الملك هنري نبلاءه يؤدون اليمين لابنه
١٢٤	سيامة رالف رئيس أساقفة كانتربري
١٢٥	تكريس كنيسة القديس ألبان
١٢٦	اضطراب أحوال العناصر
١٢٦	خلاف في روما حول البابا جيلاسيوس
١٢٧	أصل فرسان الداوية
١٢٨	موت البابا جيلاسيوس
١٣٠	القتال بين ملكي فرنسا وانكلترا
١٣١	موت رتشارد رئيس رهبان القديس ألبان
١٣١	مقتل أمير أنطاكية
١٣٢	غرق آل بيت الملك هنري في البحر
١٣٢	زواج الملك هنري
١٣٣	موت رالف رئيس أساقفة كانتربري
١٣٣	هلاك مستشار الملك هنري
١٣٤	وقوع ملك القدس بالأسر

الصفحة	الموضوع
١٣٥	أسر بعض أعداء الملك
١٣٥	كيف فوجىء نائب البابا وهو يقترف الزنا
١٣٦	انتصار بلدوين ملك القدس على الأتراك
١٣٦	موت الامبراطور هنري
١٣٧	الخلاف بين رئيس أساقفة كانتربري ويورك
١٣٨	زواج الامبراطورة ماتيلدا من غيوفري كونت أنجو
١٣٩	كيف عقد الملك هنري مجمعاً حول خليلات الكهنة
١٣٩	الشقاق بين البابوين
١٤٠	موت بوهيموند أمير أنطاكية
١٤١	موت بلدوين ملك القدس
١٤١	ايجاد أسقفية جديدة في كارلآيل
١٤٢	قتل فولك ملك القدس لثلاثة آلاف تركي
١٤٢	شفاء أحد الكهنة من قبل أم الرب
١٤٣	ولادة ماتيلدا لطفل أسمته غيوفري
١٤٣	موت هنري ملك انكلترا
١٤٤	تتويج ستيفن ملكاً
١٤٦	التحالف بين الملك ستيفن وملك اسكوتلندا
١٤٧	استيلاء غيوفري كونت أنجو على بعض مناطق نورماندي
١٤٨	كيف تلقى ملك فرنسا ولاء يوستاس ابن الملك ستيفن عن نورماندي
١٥٠	اغارة ملك اسكوتلندا على نورثأمبرلاند

الصفحة	الموضوع
١٥١	معركة بين الاسكوتلنديين والانكليز
١٥٢	انتخاب ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري
١٥٣	كيف غزا الملك ستيفن سكوتلندا
١٥٤	قدوم الامبراطورة ماتيلدا إلى انكلترا
١٥٥	كيف حاصر ستيفن قلعة لنكولن
١٥٦	الأعتراف بماتيلدا من قبل كثير من الناس
١٥٧	كيف اقتاد الايرل روبرت بعض الرهائن إلى نورماندي
١٥٨	حصار ماتيلدا ونجاتها
١٥٨	المجمع الذي عقد في لندن
١٥٩	موت فولك ملك القدس
١٦٠	موت بابويين رومانيين
١٦٠	حصار الملك ستيفن لنكولن
١٦٢	استيلاء الملك ستيفن على قلعة فارنغدون
١٦٢	كيف اسر الملك ستيفن ايرل شيستر
١٦٢	عبور هنري الثاني إلى نورماندي
١٦٣	خلاف بين البابا يوجينيوس والملك الفرنسي
١٦٣	كيف عقد البابا يوجينيوس مجمعاً في ريمس من أجل انقاذ الأرض المقدسة
١٦٥	خيانة امبراطور القسطنطينية
١٦٥	كيف خدع الامبراطور الملك الفرنسي
١٦٦	حصار دمشق من قبل الحملة الثانية

الصفحة	الموضوع
١٦٨	مقتل ريموند أمير أنطاكية
١٦٨	اعطاء الدوق غيوفري نورماندي إلى ابنه هنري
١٦٩	كيف تلقى الملك لويس الولاء من الدوق هنري
١٦٩	الحشيشية
١٧١	زواج هنري دوق نورماندي من اليانور
١٧٣	افحام هرطقة هنري
١٧٤	بعض أعمال الامبراطور كونراد
١٧٦	موت البابا يوجينيوس
١٧٦	نزول الدوق هنري في انكلترا
١٧٧	معاهدة بين الملك ستيفن والدوق هنري
١٧٨	الفارس أون والمطهرة
١٧٩	طبيعة المطهرة
١٨٠	دخول أون المطهرة
١٨١	وصول الفارس إلى القاعة
١٨٢	تعذيب الشياطين للفارس
١٨٣	مكان العقاب الثاني
١٨٤	حول الدولاب الحديدي
١٨٥	الريح القوية والنهر الآسن
١٨٦	الجسر الضيق والمرتفع
١٨٧	تحرر الفارس من شرور الشياطين
١٨٨	اقتياد الفارس إلى الجنة السماوية

الصفحة	الموضوع
١٨٩	انعاش الفارس بالرؤيا السماوية
١٩١	تكريس الفارس وحجه إلى القدس
١٩٢	دس السم إلى وليم رئيس أساقفة يورك
١٩٣	موت الملك ستيفن وتتويج الدوق هنري
١٩٤	حياة القديس وولفرك
١٩٥	تحول القديس وولفرك وحياته
١٩٦	معجزة مدهشة
١٩٧	كيف قدم رجل الولاء للشيطان
١٩٩	نسب الملك هنري
٢٠٠	البابا أدريان يعطي ايرلندا إلى الملك هنري
٢٠٢	إكتشاف معطف المخلص
٢٠٣	سلام بين ملكي انكلترا واسكوتلندا
٢٠٣	كيف وضع الملك هنري تاجه جانباً
٢٠٤	حصار الملك هنري طولوز
٢٠٤	كيف تزوج هنري الملك الأصغر لانكلترا
٢٠٥	سيامة بارتولميو اكستير
٢٠٦	معاهدة بين ملكي فرنسا وانكلترا
٢٠٧	اختيار توماس لرئاسة أساقفة كانتربري
٢٠٨	تسوية الخلافات بين كنيستي سينت ألبان ولنكولن
٢١٠	السبب الثاني للعداء بين الملك وتوماس
٢١٢	كيف عقد البابا الاسكندر مجمعاً في تور

الصفحة	الموضوع
٢١٣	الاعتراف بعادات انكلترا
٢١٧	ندم رئيس الأساقفة توماس
٢١٨	تحليل رئيس الأساقفة من قسمه
٢١٨	كيف رسم الملك بوجوب تلقي رجال الدين العقـ العلمانيين
٢١٩	اهانة توماس من قبل الملك ومغادرته المملكة
٢٢٠	افادات رسل الملك ضد رئيس الأساقفة
٢٢٢	رسالة الملك إلى عمدة كنت ضد رجال توماس
٢٢٢	رسالة الملك إلى أسقف لندن
٢٢٢	رسالة الملك إلى رجال القضاء
٢٢٤	حول الافادات التي عملها توماس أمام البابا
٢٢٥	الغاء البابا الحكم الذي صدر ضد رئيس الأساقفة
٢٢٦	زواج ماتيلدا ابنة الملك
٢٢٧	حرمان توماس للذين اعترفوا بعادات انكلترا
٢٢٨	رسالة توماس إلى ملك انكلترا
٢٢٩	ارتياب الأساقفة بتوماس
٢٣١	رسالة توماس إلى أساقفته المساعدين
٢٣٣	رسالة البابا الاسكندر إلى توماس
٢٣٤	رسالة الملك هنري إلى رينالد رئيس أساقفة كولون
٢٣٦	رسالة البابا الإسكندر إلى غيلبرت أسقف لندن
٢٣٧	رد غيلبرت على البابا

الصفحة	الموضوع
٢٤١	رسالة البابا الأسكندر إلى الملك هنري
٢٤٢	حرمان توما س لأسقف لندن
٢٤٣	رسالة الملك هنري إلى أسقف لندن
٢٤٤	محاولة البابا المصالحة بين توماس والملك
٢٤٤	رسالة الملك هنري إلى البابا الاسكندر
٢٤٦	تشويه قضية توماس
٢٤٧	المعاناة العقلية لتوماس
٢٤٨	الالتماس الذي قدمه توماس إلى الملك
٢٤٩	إقسام نبلاء بريتاني يمين الولاء للملك ولابنه
٢٤٩	تحليل أسقف لندن
٢٥٠	حياة وفضائل غورديك
٢٥١	حج غورديك والفتاة
٢٥٣	ذهاب غورديك للسكن في فنشلي
٢٥٤	سكن غورديك في فنشلي بين الحيوانات والأفاعي
٢٥٤	مشاهدة غورديك الطفل يخرج من فم المصلوب
٢٥٦	ظهور الرب مع مريم المجدلية لغورديك
٢٥٦	كيف رد غورديك شخصين إلى الحياة
٢٥٨	جواب غورديك لرجل أراد ان يكتب عن حياته
٢٥٩	غورديك يصف مغادرة الروح
٢٦٠	اقامة القديس بطرس قداساً لغورديك
٢٦١	تحرر غورديك من الشياطين

الصفحة	الموضوع
٢٦١	الشيطان يضرب غورديك على رأسه
٢٦٢	تتويج الملك هنري الشاب
٢٦٣	المصالحة بين توماس والملك هنري
٢٦٤	عودة توماس من المنفى
٢٦٦	كيف أمر وكلاء الملك توماس بتحليل الأساقفة
٢٦٧	مقتل توماس
٢٦٨	نهب أسلاب توماس
٢٦٩	ندامة الملك
٢٧١	المعجزات التي ظهرت تكريماً لتوماس
٢٧١	أعمال التدمير التي قام بها الملك
٢٧٣	زواج جون ابن الملك
٢٧٤	انتخاب رتشارد رئيساً لأساقفة كانتربري
٢٧٥	ملك فرنسا يغزو نورماندي
٢٧٦	تدمير ليستر
٢٧٧	أسر الملك العديد من أعدائه
٢٧٨	الاستيلاء على قلعة إكسهولم
٢٧٩	عودة الملك إلى انكلترا
٢٨١	أسر وليم ملك اسكوتلندا
٢٨٢	تخلي ملك فرنسا عن حصار روان
٢٨٣	مصالحة أبناء الملك مع أبيهم
٢٨٤	سلام بين ملكي اسكوتلندا وانكلترا

الصفحة	الموضوع
٢٨٥	زيارة الملكان الأب والابن لضريح توماس
٢٨٦	منح الملك أربعة بنود إلى مندوب البابا
٢٨٧	تحكيم الملوك الملك هنري بخلافاتهم
٢٨٨	نقل الرهبان المدنيين من كنيسة وولتهام
٢٨٩	تأسيس دير وستوود
٢٨٩	رؤيا عملت إلى أحد النساك
٢٩١	اباحة الرجل خبر الرؤيا
٢٩٢	المرأتان اللتان شفيتا بزيارتها للقديس
٢٩٣	اكتشاف القديس أمغيبالوس
٢٩٤	نقل آثار القديس أمغيبالوس
٢٩٦	اقامة هنري الشاب مبارزات
٢٩٧	مجمع روما برئاسة البابا الاسكندر
٢٩٩	رسالة البابا ضد هرطقة بطرس لومبارد
٣٠٠	كتاب الراعي وليم ضد بطرس لومبارد
٣٠٠	ادانة البابا كتاب واكيم
٣٠٢	تكريس فيليب ملكاً لفرنسا
٣٠٢	التحالف بين ملك فرنسا وملك انكلترا
٣٠٣	كيف شعث رتشارد كونت بواتو أراضي غيوفري دي ليزيناك
٣٠٤	وضع ملك فرنسا مملكته تحت تصرف ملك انكلترا
٣٠٥	رسالة البابا الاسكندر إلى بريسترجون
٣٠٦	بابوية لوسيوس بعد الاسكندر

الصفحة	الموضوع
٣٠٦	رفض غيوفري الانتخاب للنكولن
٣٠٧	وفاة الراعي سيمون
٣,٧	موت الملك هنري الشاب
٣٠٩	كيف هاجم المسلمون اسبانيا
٣١٠	انتخاب غي لوزغنان ملكاً للقدس
٣١١	كيف دمر صلاح الدين عدة مدن
٣١٢	انتخاب ملك انكلتراً ملكاً للقدس
٣١٢	وصول البطريرك هرقل إلى انكلترا
٣١٣	رسالة البابا لوسيوس إلى ملك انكلترا
٣١٤	رفض الملك هنري مملكة القدس
٣١٥	بلدوين رئيس أساقفة كانتربري يتسلم الطيلسان
٣١٦	تتويج سيبيلا ملكة على القدس
٣١٧	صلاح الدين يشعث الأرض المقدسة
٣١٨	صلاح الدين يستولي على مدينة القدس
٣١٩	البابا يمنع بناء كنيسة أكنغتون
٣٢٠	الكثيرون يحملون الصليب
٣٢١	التباعد بين رتشارد كونت بواتو وأبيه
٣٢٢	رسالة فردريك الإمبراطور الروماني إلى صلاح الدين
٣٢٤	جواب صلاح الدين إلى الإمبراطور فردريك
٣٢٧	اطلاق سراح الملك غي
٣٢٨	تراجع صلاح الدين من أمام عكا

الصفحة	الموضوع
٣٢٨	العائق الكبير لقضية الأرض المقدسة
٣٢٩	محاولة اقامة سلام بين الملكين فيليب وهنري
٣٣٠	رسالة ابن المركيز .. رل الأرض المقدسة
٣٣١	أسباب ثورة رتشارد على أبيه
٣٣٢	استيلاء ملك فرنسا على أربع قلاع انكليزية
٣٣٣	الاستيلاء على اشبيلية
٣٣٤	ارغام الملك هنري على التصالح مع ابنه
٣٣٦	مغادرة امبراطور الرومان إلى الحج
٣٣٦	موت الملك هنري
٣٣٧	حصول رتشارد على دوقية نورماندي
٣٣٨	اطلاق رتشارد لسراح أمه
٣٣٩	موت أسقف ايلاي
٣٤٠	تتويج رتشارد الأول
٣٤٢	تعذيب اليهود
٣٤٣	سخاء الملك رتشارد
٣٤٣	منح الملك رتشارد قسساً للكنائس الانكليزية
٣٤٤	حصول أسقف درم على لقب إيرل
٣٤٦	معركة للصليبين ضد المسلمين
٣٤٧	وصول رسل الملك الفرنسي إلى رتشارد للاسراع بالحملة الصليبية
٣٤٧	محادثات بين رئيس أساقفة كانتربري ورهبانه

الصفحة	الموضوع
٣٤٨	تقديم ملك اسكوتلندا الولاء إلى رتشارد
٣٤٨	كرم الملك رتشارد وسخائه
٣٤٩	عبور الملك رتشارد البحر إلى نورماندي
٣٤٩	القاء الحرمان على أراضي جون أخو الملك
٣٥٠	منح عشر ممتلكات انكلترا لمساعدة الأرض المقدسة
٣٥١	قرار الملكان بالمغادرة نحو الأرض المقدسة
٣٥٢	تعيين أسقف ايلاي مستشاراً
٣٥٢	تعليق الأسقف هيوج
٣٥٣	مذبحة اليهود في عدة أماكن
٣٥٣	مذبحة اليهود في يورك
٣٥٣	تكريس غيوفري كاهناً
٣٥٤	نظام تعبئة الجيش الصليبي عند عكا
٣٥٥	بناء بيعة عند عكا على اسم توماس
٣٥٥	مقدمو جيش صلاح الدين
٣٥٦	احراق آلات الحصار الصليبية
٣٥٦	اكتشاف خونة بين الصليبيين
٣٥٧	قادة اسطول رتشارد وقوانينه
٣٥٨	استلام رتشارد للصك والعصا
٣٥٩	كيف عين رتشارد ابن أخيه آرثر ولياً لعهده
٣٦٠	بيرنغاريا وزواجها من رتشارد
٣٦٠	ظهور توماس إلى قادة الاسطول

الصفحة	الموضوع
٣٦٢	نزول رئيس أساقفة كانتربري في صور
٣٦٢	نشوب خلاف بين الملكين في مسينا
٣٦٣	استيلاء رتشارد على بعض الحصون
٣٦٤	تحرير كنيسة نورماندي
٣٦٥	موت رئيس أساقفة كانتربري
٣٦٦	سوء سلوك أسقف ايلاي
٣٦٧	الموت عند عكا
٣٦٨	اقلاع الملكان من مسينا
٣٦٩	سجن رئيس أساقفة يورك في دوفر
٣٧٠	كسوف الشمس
٣٧١	استيلاء رتشارد على مركب اسلامي
٣٧٢	وصول رتشارد إلى عكا
٣٧٣	عودة الملك الفرنسي إلى بلاده
٣٧٤	نجاحات الملك رتشارد
٣٧٦	كيف أعطى رتشارد مملكة القدس إلى هنري
٣٧٧	كيف أنقذ رتشارد الآثار المقدسة
٣٧٨	إكتشاف آرثر ملك بريطانيا
٣٧٩	شكوك رتشارد تجاه المستشار
٣٨٠	اهانة المستشار وسقوطه
٣٨٣	حادثة لم يسمع بمثلها
٣٨٣	موت رئيس أساقفة كانتربري

الصفحة	الموضوع
٣٨٣	وصول الملك الفرنسي إلى باريس
٣٨٣	الاستيلاء على الدارون
٣٨٤	استيلاء رتشارد على القافلة الكبيرة
٣٨٥	احدى النساء المتعاملات مع الصليبيين
٣٨٦	رشوة دوق بيرغندي من قبل صلاح الدين
٣٨٧	حول ناسك تنبأ بعدم سقوط القدس
٣٨٨	موت دوق بيرغندي
٣٨٩	ارغام صلاح الدين على رفع الحصار عن يافا
٣٩٠	هزيمة رتشارد لقوة اسلامية كبيرة عند يافا
٣٩٢	وصول الجيش الصليبي لمساعدة رتشارد
٣٩٢	قرار الملك رتشارد بالعودة
٣٩٣	عودة رتشارد من حجه
٣٩٤	نجاة رتشارد من كثير من الكمائن
٣٩٦	اعتقال رتشارد وسجنه
٣٩٧	كيف باع دوق النمسا رتشارد إلى الامبراطور
٣٩٨	محاكمة رتشارد
٤٠٠	كيف دفع رتشارد غرامة كبيرة
٤٠١	تبرئة ساحة رتشارد من قتل المركيز ورسالة شيخ الجبل
٤٠٢	سرقة أسقف شستر
٤٠٢	موت صلاح الدين
٤٠٥	سعي جون للاستيلاء على الملك

الصفحة	الموضوع
٤٠٥	سعي الملك الفرنسي للاستيلاء على نورماندي
٤٠٦	زواج الملك الفرنسي وطلاقه
٤٠٦	اطلاق سراح رتشارد.
٤٠٨	تتويج الملك رتشارد
٤٠٨	ارغام الملك الفرنسي على الفرار
٤٠٩	انتخاب هيربرت المسكين أسقفاً لسالسبري
٤٠٩	استيلاء رتشارد على لوكس
٤١٠	طرد رتشارد للملك الفرنسي من منطقة تور
٤١٠	محاولة الملك الفرنسي خداع رتشارد
٤١١	اقامة رتشارد لمبارزات في انكلترا
٤١١	شكوى رتشارد ضد دوق النمسا أمام البابا
٤١٣	حرمان الدوق كنيسا
٤١٣	موت الدوق
٤١٤	اخضاع الامبراطور هنري مملكة أبوليا
٤١٤	غزوة اسلامية لاسبانيا
٤١٥	موت الراعي وارين
٤١٥	نيابة هيوبرت للبابوية
٤١٦	لوم البابا ملك فرنسا لطلاقه زوجته
٤١٦	مرسوم البابا إلى أساقفة انكلترا
٤١٨	عقد معاهدة بين ملكي فرنسا وانكلترا
٤١٩	موت وليم الانكليزي

الصفحة	الموضوع
٤٢٠	أسر هيوج دي شومونت
٤٢١	أسر أسقف بوفياس
٤٢١	رؤيا أحد الرهبان حول المطهرة والعقوبات
٤٢٢	رقود الراهب وكأنه ميت
٤٢٤	كيف حكى الراهب خبر رؤياه
٤٢٥	كيف رأى الراهب الصليب وقد أصبح دموياً
٤٢٧	انفصال الراهب عن الجسد
٤٢٩	المكان الثاني للتعذيب
٤٣٢	مكان التعذيب الثالث
٤٣٤	عذاب أحد المحامين
٤٣٥	المجد السرمدي للمباركين
٤٣٦	مكان الراحة الثاني
٤٣٨	مكان السرور الثالث
٤٣٩	عودة الراهب إلى جسده
٤٤١	ارسال رتشارد رسلاً إلى روما
٤٤٢	اتفاقية بين رتشارد ورئيس أساقفة روان
٤٤٣	نقل رتشارد لجسد القديس فاليري إلى نورماندي
٤٤٤	تحالف رتشارد مع كونت فلاندرز
٤٤٤	التضييق بشدة على الملك الفرنسي في نورماندي
٤٤٥	حول بعض القوانيين التي عملها رتشارد
٤٤٦	تتويج أوتو ملكاً على ألمانيا

الصفحة	الموضوع
٤٤٧	توبة هيوج أسقف شستر
٤٤٨	استرداد كنيسة كوفنتري
٤٥٠	حول سيامة أسقفين
٤٥٠	عزل هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري من وظيفة العدالة
٤٥١	معركة بين الانكليز والويلزيين
٤٥٢	أسر رتشارد لعشرين من الفرسان الفرنسين
٤٥٤	نصر رائع لرتشارد
٤٥٦	ابرام معاهدة بين ملكي فرنسا وانكلترا
٤٥٨	تدمير كنيسة لامبث
٤٥٨	موت الملك جون
٤٥٩	كيف ربط بعض النبلاء أنفسهم بجون وآخرون بآرثر
٤٦٠	تسلم جون دوقية نورماندي
٤٦١	تتويج الملك جون
٤٦١	عبور جون إلى نورماندي
٤٦٢	لقاء بين الملكين
٤٦٣	ذهاب الملك أوتو إلى روما وحصوله على الامبراطورية
٤٦٤	وضع المملكة الفرنسية تحت الحرمان
٤٦٥	حل الخلاف بين كنيستي تور ودول
٤٦٦	رسالة للبابا نيقولا حول هذه القضية
٤٦٧	الملكة اليانور تجلب بلانشي للزواج من لويس
٤٦٨	زواج لويس من ابنة ألفونسو

الصفحة	الموضوع
٤٦٨	رسالة وصلت من الرب إلى القدس
٤٧٠	تبشير يوستاس حول الرسائل
٤٧٢	راعي الدير يوستاس يفجر نبعاً
٤٧٢	معجزة مرعبة عملت على امرأة
٤٧٣	معجزة أخرى على رغيف الخبز
٤٧٤	حرمان غيوفري رئيس أساقفة يورك من ممتلكاته
٤٧٥	تتويج الملك جون
٤٧٦	حياة القديس هيوج
٤٧٩	فضائل هيوج
٤٨٠	وفاة هيوج
٤٨٠	حمل جسده إلى لنكولن
٤٨٢	دفن القديس هيوج
٤٨٣	ظهور خمسة أقمار

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

ورود التاريخ

تصنيف

روجر أوف ويندوفر (ت ١٢٣٧)

(٤٤٧ —١٢٣٥م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء التاسع والثلاثون (٢)

دمشق ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠م

الموسوعة الشامية في
تاريخ الحروب الصليبية

ورود التاريخ

الجزء الثاني

(١٢٠١ — ١٢٣٥)

كيف جرى تتويج ملك وملكة الانكليز في كانتربري

عـام ١٢٠١م،فيه احتفل الملك جـون بعيد الميـلاد في غـولفـورد Guilford ووزع هناك عـدداً من أثواب العيـد بين فرسـانه، وفي محاولة من هيـوبرت، رئيس أساقفـة كـانتربري أن يجعل نفسه على مستـوى الملك، فعل الشيء نفسـه في كانتربري مما أثارغضب الملك الى درجـة عالية جداً، وبعد ذلك انطلق الملك الى نورثأمبرلاند، واستخرج مبلغاً كبيراً من المال من سكان تلك الكونتيـة ، ثم إنه عـاد الى كـانتربري بصحبة ملكته ، وفي اليوم التالي ليوم عيد الفصح، جرى تتويجهما معاً في ذلك المكان ، وتكلف أثناء الاحتفـال رئيس أسـاقفـة كـانتربري نفقــات عــاليــة وبشطط واسراف أثناء عنايتــه بهما ، وفي يوم عيــد الصعود التالي ، أصدر الملك في تويكبري Tewkesbury إعلاناً ، بأن يكون الايـرلات ، والبــارونات مـع جميع الذيـن يدينون بالخدمــة العسكرية اليــــه، مستعــدين مع خيــولهم وأسلحتهم في بورتماوث لينطلقوا معه نحو المقـاطعات فيما وراء البحر، في يوم أحد العنصرة المقبل، لكن عندمـا حل الموعد المقـرر، حصل كثير منهم على الاذن للبقـاء وعــدم الذهاب، حيث دفع كل منهم الى الملـك مـاركين من الفضة عن كل محلجة.

كيف عبر الملك جون وملكته البحر الى نورماندي

بعد الاحتفـال بعيد العنصرة في بورتماوث، أقلع الملك مـع ملكته في اليـوم التـالي ، ووصـلاً بعـد كثير من الاضطراب الى نورمـاندي، وبعـد ذلك بوقت قصير عقـد الملكان الفـرنسي والانكليزي مـؤتمراً قـرب جـزيرة أندلي حيث جـرى الاتفاق على شروط سـلام، وبعـد مضي ثلاثة أيام ، ذهب الملـك جون الى باريس بناء على دعـوة من الملك الفـــــرنسي ، واحتفي بـه هناك في قصر ذلك الملـك الذي اتخذ لنفسـه سكناً في مكان آخر، وبعـلما احتفي به هناك بتشريف زائـد

وكما يليق بملك، غادر وذهب الى شينون، وفي الوقت نفسه، ولكي يكون السلام مضموناً بشكل أعظم، لقد تقرر، وتثبت بالكتابة، أنه إذا ما أراد الملك الفرنسي خرق شروط السلام، بأية طريقة من الطرق، وهي الشروط التي تقدم ذكرها، فإن بارونات المملكة الفرنسية ، الذين اتخذهم ضمانة له، سوف يتحللون من جميع الولاءات له، ولسوف يلتحقون بالملك الانكليزي في القتال ضد الملك الفرنسي ، ومن ثم ارغامه على الحفاظ على السلم المذكور، وعقدت الاتفاقية نفسها على الجانب الانكليزي .

وثارت في هذا العام عواصف رعدية مرعبة ، وبروق ، وبرد ، مع أمطار فيضانات ، مما أرعب عقول الناس ، وسبب أذى عظيماً في مناطق كثيرة.

وفي هذه الآونة أيضاً ، جرى إعطاء جزء من أربعين من مداخيل الكنائس لمساعدة أرض الميعاد ،وجاء ذلك بناء على مبادرة من البابا انوسنت، وجرى إرغام النبلاء والعامة سواء — بواسطة العقوبات الرسولية — ممن وضع شارة الصليب جانباً على إعادة حملها.

حول نشوب خلاف بين ملكي فرنسا وانكلترا

عام ١٢٠٢م، فيه احتفل الملك جون بعيد الميلاد في أرجينتان Ar-gentan في نورماندي، وأثناء الصوم الكبير التالي عقد مؤتمر بين ملكي فرنسا وانكلترا، على مقربة من غولنتون Gulentune وفي هذا الاجتماع قام الملك الفرنسي، وهو يحمل كراهية قاتلة ضد الملك الانكليزي ، بتوجيه الأمر إليه وهو مغضب بوجوب أن يتخلى على الفور إلى آرثر كونت بريتاني عن جميع الممتلكات التي بين يديه في هذا الجانب من البحر، أي : نورماندي ، وتور ، وأنجو ، وبواتو،

وطلب منه أشياء أخرى كثيرة ، الأمر الذي رفضه الملك الانكلزي ، ولم يستجب له ، ولدى رؤية الملك الفرنسي نفسه أنه لم ينجح بتحقيق غاياته في المؤتمر، قام في اليوم التالي بهجوم مفاجىء على قلعة بوتافانت ، وسواها بالأرض وزحف من هناك فاستولى بالقوة على بلدة أوجي Augi مع قلعة ليون liuns وعلى عدد آخر من الحصون، كما انه حاصر قلعة ريدبونت Radepount لمدة ثمانية أيام، لكن بسبب قدوم الملك الانكليزي ضده ، تراجع من ذلك المكان باضطراب، غير انه تحول بعد عدة أيام نحو غورني -Gour naye وبشق فتحة في البحيرة ، تمكن بقوة اندفاع الماء من تهديم الجزء الأعظم من الأسوار التي أحاطت بالمدينة ، ونتيجة لهذا هربت الحامية،ودخل الملك الفرنسي ، وأخضع المدينة دون أن يعارضه أحد، ثم انه عاد الى باريس، ووضع آرثر بعهدة أناس أمناء، وأعطاه مائتي جندي فرنسي لمرافقته في بواتو ، وكانت الغاية من ذلك القيام بغارات عسكرية بغية التمكن من إخضاع تلك المناطق لصالح آرثر،وعندما كانت هذه القوات تزحف نحو الأمام مع ضجة كبيرة ، وصلت اليها رسالة بأن الملكة اليانور كانت مقيمة في قلعة ميرابو، ومعها حامية صغيرة ، ولذلك وجه جنود هذه القوات اندفاعهم للهجوم على تلك القلعة ، وجاء ذلك باتفاق عام منهم، وألقوا الحصار على القلعة، ولعدم وجود قوة كافية لدى الحامية لمقاومتهم استسلمت القلعة لهم باستثناء البرج الذي كانت فيه الملكة اليانور ، التي اعتصمت فيه مع عدد قليل من الجنود، ولم يستطيعوا الاستيلاء على هذه القلعة ، ولذلك وجهوا هجماتهم ضد البرج، وقدم في تلك المنطقة الى مساعدة آرثر جميع النبلاء والعساكر ذوي المراتب في بواتو، وقام واحد بشكل خاص اسمه هيوج، ولقبه لى برون وكان ايرل التخوم فأعلن عن نفسه بأنه عدو للملك الانكليزي، بسبب الملكة ايزابيل، حيث قيل بأن ذلك الايرل كان مرتبطاً بها

كزوجة له بكلمة الفم، وذلك قبل أن تتزوج من الملك جون، وبذلك شكلوا قوة كبيرة هناك، واستمروا بالحملات الشديدة على القلعة من أجل الاستيلاء عليها بأسرع وقت ممكن.

النصر الرائع الذي حصل عليه الملك جون في ميرابو

وعندما وجدت الملكة نفسها في هذا المأزق ، بعثت رسالة مع استخدام كل سرعة ، الى الملك ، الذي كان وقتذاك في نورماندي، ترجوه بإلحاح وتحثه بعاطفة الأمومة أن يقدم الى مساعدتها ، ولدى تلقي الملك هذه الأنباء انطلق بسرعة مع قوة شديدة ، وسار ليلاً ونهاراً، وقطع مسافة طويلة بشكل أسرع مما هو معتقد ،ووصل الى ميرابو وعندما علم الفرنسيون وشعب بواتو بأن الملك كان على طريقه، خرجوا بصفوف صاخبة وكلها أبهة للتصدي له،والقتال معه، وعندما التقى كل فريق مع الآخر وهما على تعبئة ، ومصطفين للقتال ، وعند الاشتباك ، صمد الملك بشجاعة لحملاتهم الشديدة ، وأخيراً أرغمهم على الفرار ، وطاردهم بسرعة فائقة بوساطة فرسانه، حتى أنهم دخلوا القلعة ساعة دخول الفارين إليها ، ثم أعقب ذلك قتال حاد جداً داخل أسوار القلعة، إنما مالبث ذلك أن حسم بوساطة الشجاعة العالية الصيت للانكليز،ووقع أثناء القتال بالأسر مائتي فارس فرنسي ، مع جميع نبلاء بواتو، وأنجو، وذلك مع آرثر نفسه ، ولذلك لم يتمكن ولا واحد من العدد كله من النجاة والعودة، ومن ثم الحديث عن النازلة التي ألمت ببني منطقته، وبعدما وضع جميع أسراه بالقيود وبالأغلال، ألقى بهم في عربات ، وهي طريقة جديدة ووسيلة غير معتادة للنقل، وأرسل الملك بعضاً منهم إلى نورماندي، وبعضهم الى انكلترا، وسجنهم في قلاع حصينة، منها ليس هناك من خوف من إقدامهم على الفرار ، لكن آرثر أبقي في فالي Falis ،في سجن مضيق عليه.

كيف انسحب الملك الفرنسي وهو مضطرب من حصار قلعة آركوي

وأثناء وقوع هذه الحوادث في قلعة ميرابو، زحف الملك الفرنسي مع جيش كبير ضد قلعة أركوي Arques وألقى الحصار عليها وصفّ مجانيقه حولها، ولمدة خمسة عشر يوماً بذل قصارى جهده بوساطة القصف واللغم لخرق الأسوار والدخول منها، ومن جانب آخر قاومت حامية القلعة بشجاعة، وسعت بوساطة رمي الحجارة والنشاب الى طرد الأعداء، وإبعادهم الى مسافة بعيدة، وعندما وصلت أخبار أسر آرثر وأتباعه الى مسامع الملك الفرنسي، انسحب من الحصار وهو مغضب، وفي أثناء تراجعه دمّر وأحرق كل مكان وصل اليه، حتى أنه حول الديرة العائدة الى رجال الدين إلى رماد، ووصل أخيراً إلى باريس، ومكث من دون نشاط حتى نهاية ذلك العام.

موت آرثر كونت بريتاني

وبعد مرور بعض الوقت، قدم الملك جون الى قلعة فالي، وأمر بجلب ابن أخيه آرثر الى حضرته، وعندما مثل أمامه، خاطبه الملك بلطف، ووعده بكثير من التشريفات، وسأله أن يفصل نفسه عن الملك الفرنسي، والالتحاق به هو نفسه، بحكم أنه مولاه وعمه، لكن أرثر— السيء المشورة — رد عليه برعونة وتهديد، وطلب من الملك أن يتنازل له عن مملكة انكلترا وعن جميع المناطق التي امتلكها الملك رتشارد وقت موته، وقال بأن هذه الممتلكات جميعاً عائدة له بموجب حق الوراثة، وأكد بوساطة القسم أنه ما لم يقم الملك جون بسرعة بإعادة المناطق المتقدم ذكرها إليه، فإنه سوف لن يتمتع بالسلام أية مدة من الزمن، وانزعج الملك كثيراً لدى سماعه

كلماته وأمر بوجوب نقل آرثر الى روان ، ليسجن في البرج الجديد هناك ، وأن تشدد عليه الحراسة ، إنما بعد مضي وقت قصير ، اختفى آرثر المذكور.

وقدم الملك جون في هذا العام نفسه الى انكلترا ، وجرى تتويجه في كانتربري من قبل هيوبرت رئيس أساقفة ذلك المكان،وكان ذلك في الرابع عشر من نيسان، وأبحر بعد هذا الى نورماندي، وبعد وصوله الى هناك ظهر رأي حول وفاة آرثر ، وقد عمّ انتشاره خلال المملكة الفرنسية والقارة بشكل قيل فيه باتهام الملك جون، وبأنه قد قتله بيده شخصياً ولذلك ابتعد كثير من الناس بعواطفهم عن الملك منذ تلك الساعة والى الأبد وذلك حيثما ملكوا الجرأة ، واحتفظوا بأعمق مشاعر العداوة ضده.

كيف تخلى النبلاء الانكليز عن الملك جون في انكلترا وهجروه

عام١٢٠٣م، فيه أمضى الملك جون عيد الميلاد في كين Caen في نورماندي، حيث القى جانباً كل تفكير بالحرب ، واحتفل مع ملكته بشكل فخم وأطال نومه في الصباح حتى وقت الافطار، لكن حدث أنه بعد انتهاء وقار أيام عيد الفصح التي روعيت، قام الملك الفرنسي فجمع جيشاً كبيراً ، واستولى على عدة قلاع كانت عائدة الى ملك انكلترا، وهدم بعضها وسواها بالأرض، لكن القلاع الحصينة أبقاها سليمة، ووصل أخيراً رسول إلى الملك جون مع الأخبار قائلاً بأن الملك الفرنسي قد دخل الى أراضيك كعدو،واستولى على كذا وكذا من القلاع، وحمل حكامهم بشكل مهين، وهم مربوطين الى ذيول الخيول ، وأتلف ممتلكاتك ووزعها عن تصميم دون أن يعترضه معترض، ورد الملك جون على هذه الأخبار بقوله:« دعوه

يفعل ذلك ، فمهما استولى عليه الآن ، سوف أسترده في يوم واحد »
و لم يتمكن هؤلاء الرسل ، ولا الآخرون الذين جلبوا له أية أخبار أخرى مشابهة الحصول على جواب آخر ، وعندما سمع الايرلات والبارونات والنبلاء العائدون للمملكة الانكليزية — الذين كانوا حتى ذلك الوقت مرتبطين به ومؤيدين له بثبات — كلماته هذه ورأوا كسله أمراً لا يمكن تقويمه حصلوا على إذنه ، وعادوا الى الوطن ، متظاهرين أنهم سوف يعودون اليه، وهكذا تركوا الملك مع عدد قليل من الجنود في نورماندي ، وقام هيوج دي غورني Cournaye ، الذي منحه الملك جون كل التشريفات وعهد اليه بقلعة مونتفورت ، بتسليمها الى ملك الفرنسيين وسمح لجنوده بالدخول اليها أثناء الليل وبهذه الطريقة تخلى عن تابعيته وعن ولائه للملك الانكليزي ، وهرب الى الملك الفرنسي، وفي الوقت نفسه كان الملك الانكليزي مقيما مع ملكته دونما نشاط في روان، حتى قيل بأنه كان مصاباً بالخبال بوساطة السحر، لأنه في وسط كل خسائره وعاره كان يظهر ملامح مشرقة فرحة الى الجميع ، وكأنه لم يخسر شيئاً ، وقدم الملك الفرنسي في الوقت ذاته مع جيش كبير الى بلدة رويل Ruyl ، حيث كانت هناك قلعة فخمة ، قام على الفور بتطويقها بآلات رميه الحربية لكن بعدما مركزهم ، وقبل أن يقوم ولو بحملة واحدة، قام روبرت فتز— وولتر، وسيردي كوينسي sayer de Quincy ، وهما النبيلان المسؤولان عن القلعة بتسليمها سليمة الى الملك الفرنسي، دون أن تتعرض حجرة واحدة من تلك القلعة للتحطيم ، ودون أن تصاب شعرة واحدة من رأس أحد رجال حامية القلعة، لكن الملك الفرنسي الذي كان غاضباً جداً ضدهم، أمر بهم فوضعوا في الأغلال، واحتفظ بهم في سجن ضيق في كومبينCompegne ، حيث بقيوا في وضع مهين حتى جرى دفع فدية ثقيلة من أجل اطلاق سراحهم ،

وعندما وجـد الملك الفرنسي أن كل المعارضة له في نورماندي ومناطق ما وراء البحر الأخرى قد توقفت، زحف خلال المناطق كما يريد ودونما عائق وأعاد الاستيلاء على عدد من القلاع ، وقام أيضاً في هذه الآونة بإلقاء الحصار على قلعة صخرة أندلي ، التي كان الملك رتشارد قد بناها، لكن لحصانة القلعة ، ولإخلاص روجر دي لاسيlacy الذي كان لا مثيل له، وهو الذي كانت القلعة موضوعة تحت عهدته، لم يحصل الملك الفرنسي على أي شيء من الحصار باستثناء انه بمنعه الخروج على المحاصرين، منعهم من الحصول على المؤن ، وفي أثناء وقوع هذه الأحداث، انفصل بعض النورمان عن الملك الانكليزي انفصالاً نهائياً، وخفف آخرون العلاقات معه والارتباط به.

كيف جاء الملك جون الى انكلترا
واستخرج مبالغ كبيرة من المال من النبلاء

وعندما رأى الملك جون أخيراً خطأه ، وانه قد حرم من جميع الموارد الحربية، أخذ سفينة وأبحر بها بكل سرعة، ونزل في يوم عيد القديس نيقولا في بورتماوث ، ثم جرى تحريضه ضد الايرلات والبارونات ، بحجة انهم قد تخلوا عنه ، وهو في وسط أعدائه في القارة ، وانهم بتخليهم عنه قد فقد القلاع والأراضي، فأخذ منهم سبع جميع ممتلكاتهم المتحركة، ولم يتمنع بهذا العمل من الاستيلاء بعنف على الممتلكات الديرية أو ممتلكات كنائس الأبرشيات، ومن أجل تحقيق هذه الغاية استخدم هيوبرت رئيس أساقفة كانتر بري وكيلًا له في هذه السرقات المتعلقة بممتلكات الكنيسة، وغيوفري فتز- بيتر، المسؤول عن العدالة في انكلترا ، فيما يختص بسلع العلمانيين، ولم يوفر هذان أحداً لدى تنفيذهما لأوامرهما .

وعندما علم الملك الفرنسي ، بأن ملك انكلترا قد غادر مناطق ما وراء البحار توجه مع قوة كبيرة نحو كل بلدة وقلعة في المنطقة، موضحاً الى السكان والى حكام القلاع، بأن مولاهم قد تخلى عنهم، وقال أيضاً بأنه هو السيد الرئيسي لهذه المناطق ، وانه إذا كان الملك الانكليزي قد تخلى عنهم بشكل شائن، ليس في نيته فقدان السلطة الرئيسية عليهم، التي هي عائدة اليه، ولذلك رجاهم كأصدقاء أن يستقبلوه كسيد لهم لعدم وجود سيد آخر ، وقد أعلن لهم وربط اعلانه بالقسم، انهم اذا لم يفعلوا ذلك طواعية ، وتجرأوا على الوقوف ضده، هو سوف يخضعهم كأعداء له ، ولسوف يعلقهم على المشانق، أو سيسلخهم وهم أحياء، وقرروا أخيراً، ووافقوا بالاجماع بعد كثير من المناقشات من على الطرفين، أن يقدموا رهائن الى الملك الفرنسي ، مقابل الحفاظ على هدنة لمدة سنة واحدة، فبعد مضي ذلك الوقت، انهم إذا لم يتسلموا مساعدة من الملك الانكليزي، سوف يحولون وقتها اعترافهم إليه كحاكم لهم، ولسوف يعطونه المدن والقلاع، وبعدما وصل الملك الفرنسي الى هذه الغاية عاد الى مناطقه.

ترقية وليم أسقفاً للنكولن

وفي هذا العام نفسه جرت سيامة المعلم وليم، رئيس جوقة المرتلين ، والكاهن في كنيسة لنكولن، أسقفاً للكنيسة نفسها ، وتمت السيامة في وستمنستر، في يوم عيد القديس بارثلميو الرسول ، من قبل وليم أسقف لندن، وترافع غيلبرت أسقف أوف روكستر، لصالح دعواه ومطالبته شخصياً، لكنه لم ينجح ، لأن هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، كان راقداً مريضاً جداً.

كيف جرى منح المساعدات من أجل الحرب بشكل كبير الى الملك

عام١٢٠٤م، فيه احتفل الملك جون بعيد الميلاد في كانتر بري، وقدم هيوبرت ، رئيس أساقفة ذلك المكان جميع الضروريات للاحتفاء بالملك، وبعد ذلك، وفي اليوم الذي جاء بعد عيد الختانة، التقى الملك مع النبلاء في اكسفورد في مؤتمر ، وفيه جرى منح الملك المساعدات من أجل الحرب وتمثل ذلك بماركين ونصف المارك من كل محلجة قطن، ولم يستطع الأساقفة ورعاة الديرة المغادرة من دون اعطاء وعد بتقديم العون نفسه.

كيف أصبح بشكل رائع زيت تمثال أم الرب لحماً

وحدثت في العام نفسه ، في اليوم الثالث قبل عيد الفصح ، معجزة هي الأعظم ادهاشاً ، تعلقت بزيت تمثال أم الرب في صيدنايا ، وكانت كما يلي: لقد صدف وجود سجناء من الجنود الصليبيين في قلعة دمشق ، وقد قام أحد الجنود بأخذ قارورة من صندوقه ، وضع فيها بعضاً من الزيت الذي تساقط من تمثال أم الرب في صيدنايا ، وعندما نظر بدقة نحو القارورة التي وضع الزيت فيها وهو شفاف مثل الماء، ظهر الزيت أنه قد أصبح لحماً، لكنه انقسم الى قسمين : القسم الأول في الشطر الأسفل من القارورة ، والقسم الثاني في الشطر الأعلى ، ثم أخذ الجندي سكينه، وحاول أن يوحد ما بين الشطر الأعلى والشطر الأسفل ، لكن ما أن لامس حد السكين الزيت المتجسد، حتى تساقطت نقاط من الدم منه، مما أدهش الشمامسة والفرسان ، وجميع السجناء ، الذين كانوا ينظرون اليه، وبما أن كثيرين يجهلون الحقيقة المتعلقة بتمثال الرب هذا، انه موائم كثيراً، أن نتحدث عن أصله، الى الذين لا يعرفونه ، وذلك في

سبيل تقديم الثناء الى أم الرب المذكورة.

حول أصل التمثال المذكور وحول بعض معجزاته

عاشت هناك في دمشق ، التي هي المدينة العاصمة لسورية عقيلة محترمة، ارتدت ثوب راهبة، وصار عملها هو عبادة الرب بأعظم خشوع، ولكي تكون أكثر حرية في ممارسة واجباتها الدينية، ومن أجل أن تتجنب صخب المدينة، انسحبت نحـو مكان اسمه صيدنايا، يبعد ستة أميال عن المدينة المذكورة أعلاه، وبنت هناك لنفسها بيتاً ومصلى تشريفاً الى أم الرب المقدسة، وقامت بواجبات الضيافة نحو الحجاج والفقراء، وحدث أن قدم راهب من مدينة القسطنطينية الى القدس من أجل التعبد، ورؤية الأماكن المقدسة، وبترحاب استقبل من قبل الراهبة المتقدمة الذكر ولدى معرفة هذه الراهبة أنه كان ذاهباً الى المدينة المقدسة، توسلت اليه بتواضع وبإلحاح، أن يجلب لها لدى عودته من القدس تمثالا ما، أي صورة مرسومة ما لتضعها في مصلاها ، يمكن أن تريها أثناء صلواتها، شبيه أم الرب، وبإخلاص وعدها بأنه سوف يجلب لها صورة، وبعدما وصل الى القدس، وأدى واجباته الدينية ، ولدى فراغه استعد للعودة، فنسي وعده للراهبة، وبعدما خرج من المدينة ، وفيما هو على طريق عودته ، وصل اليه صوت من السماء يقول له: «لماذا عدت فارغ اليدين؟أين هو التمثال الذي وعدت أن تأخذه الى الراهبة»؟

ولدى تذكيره بهذا الشيء، عاد الراهب الى المدينة، وذهب الى المكان الذي كانت تباع فيه التماثيل ، واشترى واحداً أرضاه وحمله معه أثناء عودته،ولدى وصوله الى مكان اسمه غيث Cith كان هناك الأسد كامناً في عرينه، يتولى افتراس البشر، وقد خرج الأسد لاعتراض الراهب على طريقه لكنه أخذ يلعق قدميه ، وهكذا نجا تحت حماية النعمة اللاهوتية دونما أذى، ووقع بعد ذلك في مكمن

للصوص، وعندما كانوا على وشك إلقاء القبض عليه بعنف، ارتعبوا كثيراً من صوت أحد الملائكة ، الذي قرعهم، لذلك لم يعودوا قادرين لا على الكلام ولا على الحركة، ثم ان الراهب ألقى نظرة على الصورة التي حملها، فعرف بوجود بعض الفضائل اللاهوتية الخفية فيها، ثم انه أزعج نفسه بالتفكير حول كيف يمكنه خداع الراهبة ، وبالتالي أن يحمل الصورة معه الى بلاده، ولدى وصوله الى مدينة عكا، صعد الى ظهر سفينة، راغباً إذا أمكن العودة الى الوطن لكن بعدما أبحروا بأشرعة ممدودة لعدة أيام، ثارت فجأة عاصفة، وكانوا مرعوبين كثيراً الى حد أن كل واحد رمى ما معه من سلع في البحر ، وعندما كان الراهب — بين البقية — على وشك أن يرمي حقيبته الى الأمواج، قال له ملاك الرب :«لاتفعل هذا بل ارفع الصورة عالياً بين يديك نحو الرب»، وعندما رفع الصورة عالياً مطيعاً بذلك أوامر الملاك ، توقفت العاصفة على الفور ، وبما أن البحارة لم يكونوايعرفون الى أين هم ذاهبون، عادوا الى مدينة عكا، ثم ان الراهب علم بما أراده الرب من الصورة ، وأنه يرغب أن يفي بوعده ، ولذلك عاد الى الراهبة ، وتمتع أخيراً بضيافتها ، وهي لم تعرفه بسبب تواتر الضيوف ، ولذلك لم تسأله عن الصورة ، ولدى رؤية الراهب ذلك فكر ثانية بأخذ الصورة معه والعودة الى الوطن ، ولكنه عندما حصل في الصباح الباكر على الإذن بالمغادرة ، ذهب الى المصلى للصلاة وبعدما أدى عباداته أراد الخروج ، فلم يتمكن من العثور على الباب ، ولذلك وضع الصورة التي كان يحملها على المذبح في المصلى ولدى فعله ذلك رأى الباب مفتوحاً، لكنه عندما أخذ الصورةمجدداً ، وسعى إلى الخروج لم يستطع ثانية العثور على الباب،وأخيراً عندما رأى أن الفضيلة اللاهوتية تحيط بالصورة وضعها على مذبح المصلى وعاد ثانية الى الراهبة ، وقص عليها بالتدريج وبانتظام جميع الأحوال التي أحاطت بالصورة كما

حكينا أعلاه، وبناء عليه قال بأن إرادة الرب قضت ببقاء الصورة هناك، ومن ثم أن يجري تعبدها بالتشريف الذي تستحقه وبناء عليه أخذت الراهبة الصورة ، وباركت الرب وأمه ، من أجل جميع ما قصه عليها ذلك الراهب، هذا وقرر الراهب نفسه امضاء بقية حياته في ذلك المكان نفسه ، بسبب المعجزات التي تسبب الرب بها بوساطة صورة أمه ، ثم بدأت الصورة تنال الاحترام من الجميع، وأعجب الجميع بأعمال الرب العظيمة والرائعة من خلالها (١).

كيف أخذ تمثال أم الرب يرشح زيتاً

وبعد هذه الأحداث، بنت الراهبة مكاناً بدا لها أكثر تكريما لوضع التمثال فيه، وطلبت من كاهن ظنت أنه كان أعظم جدارة منها نفسها، وكان مشهوراً بقداسته، كما اعتقدت، ليضع عليه ثيابه المقدسة، وليتولى نقل التمثال الى المكان المتقدم ذكره، وكان هو — على كل حال — قد خاف من لمسه، لأنه بعدما وضع على المذبح ، أخذ يرشح، ولم يتوقف من ذلك الحين عن اعطاء سائل واضح ونقي تماماً مثل الزيت، وتولت الراهبة في البداية مسح هذا البلل بقطعة رقيقة من القماش الكتاني، غير أنها اشترت فيما بعد وعاء صغيراً من النحاس الأصفر، جمعت فيه الزيت، الذي وزعته على المرضى وكان كلما جرى استخدامه باسم الرب وباسم أمه شفى أمراضهم، وأبقاهم بصحة حتى هذا الحين، انما عندما اقترب الكاهن المتقدم ذكره من التمثال من دون اهتمام ليأخذه وينقله ما أن لمس السائل الذي تدفق منه ، حتى يبست يداه، ومات بعد ثلاثة أيام وذهب الى الرب، ولم يتجرأ بعد هذا أحد على لمس هذا التمثال أو نقله من مكان الى آخر، باستثناء تلك الراهبة وحدها ، وبعد أمد وضعت المرأة المتدينة وعاء من الزجاج تحت التمثال حتى يمكن جمع الزيت الذي كان يتدفق منه، وحفظه لتزويد المرضى المحتاجين له به.

١— تقدمت هذه الحكاية برواية أخرى في ص٤٢١٠—٤٢١١

كيف أخرج ذلك التمثال نفسه حلمات من اللحم

ومع مرور الأيام وقعت وقائع لم يسمع بمثلها حتى الآن، لأن ذلك التمثال المتقدم ذكره أنتج أنواعاً قريبة من الصدور اللحمية، وبدأ يكسوها باللحم بطريقة مدهشة وبناء عليه بدا التمثال نزولاً من الصدر مغطى باللحم كلياً، ومن هذا الجسد تساقط السائل من دون توقف، وأخذ رهبان الداوية، أثناء الهدنة مع صلاح الدين بعضاً من هذا الزيت، الى بيتهم لتوزيعه على الحجاج الذين كانوا يقدمون الى هناك للصلاة، ولكي يتولوا، مع الاحترام، تمجيد واحترام أم الرب ونشر ذلك في مختلف مناطق العالم، ويوجد هناك بالحقيقة رهبان في بعض أجزاء الدير، للقيام بالواجبات الدينية، لكن المكانة والسلطة هي بيد الراهبات صدوراً عن الاحترام لتلك المرأة التي تقدم ذكرها، والتي كانت أول من سكن ذلك المكان، وبنت مصلى هناك على شرف مريم المقدسة، أم الرب.

كيف استرد سلطان بصره بوساطة هذا التمثال

وحدث في ذلك الحين ان سلطان دمشق الذي كان أعمى في أحد الأيام، أن هوجم من قبل مرض في العين، حتى لم يعد قادراً على الرؤية بها، وصار أعمى كلياً، وقد سمع بالتمثال المتقدم ذكره، الذي عمل من خلال قدرة الرب كثيراً من المعجزات، فذهب إلى المكان ودخل إلى المصلى ومع أنه لم يكن مسيحياً كان لديه ايمان بالرب وأنه من خلال تمثال أمه، من الممكن ان تسترد صحته، وانكب على الارض وبقي ساجداً وهو يصلي وعندما نهض من صلاته رأى الضوء مشتعلاً في المصباح الذي كان معلقاً وهو يصلي، وعندما نهض من صلاته رأى الضوء مشتعلاً في المصباح، الذي كان معلقاً امام تمثال مريم أم الرب، واكتشف — لسروره — بأنه قد استرد بصره، وبناء عليه قام هو، وجميع الذين كانوا معه، ورأوا هذا، فمجد الرب ولأن أول شيء كان قد رآه

هو الضوء مشتعلاً في المصباح، عمل عهداً للرب، انه سوف يعطي منذ ذلك الحين وصاعداً، سنوياً ستين عياراً من الزيت الى مصابيح ذلك المصلى، الذي استرد فيه بصره من خلال فضائل مريم المباركة، أم الرب.

كيف استسلمت نورماندي وممتلكات ماوراء البحر الأخرى إلى حكم الملك الفرنسي

تمكن في هذه الآونة جيش الملك الفرنسي، الذي كان يحاصر قلعة صخرة أندلي، منذ قرابة العام، من لغم وتهديم جزء كبير من الأسوار، لكن النبيل والمقاتل روجر، قسطلان شيستر استمر في الدفاع عن المدخل ضد الفرنسيين ، إنما نقصت مؤنه أخيراً، وبلغت به الحاجة إلى حد، أنه لم يعد من الممكن تقديم وجبة واحدة من الطعام لأي عسكري، وكان يفضل أن يموت في القتال على الجوع، وبناء عليه حمل هو وجنوده أسلحتهم، وركبوا خيولهم ، وقاموا بحملة من القلعة، لكن بعدما قتلوا عدداً ممن تصدوا لهم ، وقعوا أخيراً بالأسر، مع أن ذلك كان بصعوبة كبيرة، وهكذا سقطت قلعة صخرة أندلي في يدي الملك الفرنسي في السادس من آذار، وحمل روجر دي لاسي مع جميع أتباعه إلى فرنسا، حيث احتجز طليقاً بعد تعهده بعدم الفرار، وذلك بسبب الشجاعة التي أظهرها في الدفاع عن قلعته، وبناء على هذا أرسل جميع المتملكين للقلاع في مناطق ما وراء البحر مع المواطنين وبقية رعايا ملك انكلترا، رسلاً إلى انكلترا لإخبار الملك عن الوضع الحرج الذي باتوا فيه، وان عليهم في ذلك ، وفقاً لشروط المعاهدة، وقد اقتربوا من موعد نهاية الهدنة إما ان يسلموا المدن والقلاع إلى الملك الفرنسي، أو تعريض الرهائن إلى التلف ، أي الرهائن الذين كانوا قد أعطوهم إلى الملك، وعلى هذه الرسالة أجاب الملك جون جواباً أعطاه إلى جميع الرسل، بأن قال عليهم عدم توقع مساعدة منه، والذي عليهم عمله هو

فعل الذي يـرونه هو الأفضل ، وهكذا سقطـت جميع أنواع الدفـاع في تلك المناطق، ووقعت نورماندي كلها، وتور، وأنجو، وبواتو، مع المدن، والقـلاع، والممتلكـات الأخـرى، باستثناء قـلاع: روشيل Rochelle، وثوارThouars، ونيـورزNiorz ، وصـارت ضمـن ممتلكات ملك فـرنسـا، ولدى إخبـار الملك الانكليـزي بذلك لم يهتم لأنه، كـان يتمتع بجميع مباهج الحياة مع ملكته، حيث اعتقد انه بصحبتها قد امتلك كل شيء أراده ، فضلاً عن ذلك لقـد شعر بالاطمئنان، من خلال ضخـامة الثـروة التي جمعهـا، وكـأنه بها يستطيع ان يسترد الأراضي والممتلكات التي فقدها.

موت غودفري أسقف وينكستر وخلافة بطرس دي روبيبس له

وفي الأول من نيسـان من هذا العـام نفسه ظهـر في الهزيع الأول من الليل، في الجزئين الشمالي والشرقي مـن السماء احمرار ، اعتقـد كثير من الناس انه نار حقيقيـة ، والأكثر ادهاشـاً من هذا كله أنه ظهـر في الجزء الأكثف من ذلك الاحمرار، بعـض النجـوم اللامعـة ، واستمـرت هذه الظاهرة حتى منتصف الليل.

ومات في العـام نفسه غـودفري أسقف وينكستر، وقـد خلفه بطرس دي روبيبس Rupibus ، وكان رجـلاً من مرتبة الفروسيـة ، وماهراً في فن الحرب، وقـد جرى تعيينه بالأسقفيـة لصـالح الملك جون، وقـد انطلق إلى روما، وبعدما وزع هداياه بكرم كبير، بادر مسرعاً إلى الكنيسة في وينكستر ليجـري تكريسه أسقفـاً ، ووقع هذا في هذا العام في اليـوم الأخير من الفصح في يوم عيد القديس مرقص الانجيلي.

بعض الحوادث العجيبة

عـام ١٢٠٥م، فيـه احتفل الملك جـون بعيـد الميـلاد في تويكبري Tawkebesbury لكنه لم يمكث هنـاك يومـاً واحـداً، وفي الشهـر

نفسـه، أي شهـر كـانون الثـاني تجمـدت الأرض إلى درجـة أن الأعمال الزراعية تأجلت من الرابع عشر من كـانون الثاني حتى الثاني والعشرين من آذار ، وبسبب ذلك بيع في الصيـف التـالي حمل القمح بأربعـة عشر شلناً، وفي حوالي عيـد أحد العنصرة من العام نفسه، حشـد الملك جون جيشاً كبيراً، وكأنه كـان على وشك عبور البحر، ومع أن رئيس أسـاقفة كـانتربري وكثير من الأسـاقفـة أثنوه عن عـزمـه هذا ، فإنه أمـر بجمع أسطول كبير في بورتماوث، ثـم انه أقلع مع جماعـــة صغيرة في الخامس عشر من تموز ، وسافر في البحر، لكن ما لبث ان غيّر مقصده، فقد نزل في اليوم الثالث في ستودلاند STUDLAND قرب وورهام WOR-HAM ولدى عـودتـه أخـذ مبلغـاً هائـــلاً من المال، من الايرلات ، والبـارونات، والفـرسـان، ومن رجـال الدين، واتهمهـم بأنهم رفضـوا مرافقتـه إلى القارة لاسترداد ميراثه الضـائع، وفي هذا العام ، استسلمت قلعة شينون إلى الملك الفرنسي.

موت هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري وانتخاب نائب رئيس الرهبان في كانتربري

وفي الثـالث عشر مـن تموز من العـام نفسـه مـات هيـــوبرت رئيس أساقفة كـانتربري في تنهام Tenham، مما بعث السرور في قلب الملك، الذي كان يتهمـه بأنه كان على عـلاقة وطيدة مع الملك الفـرنسي، وبعد وفاة رئيس الأسـاقفة ، وقبل ان يوضع جسـده في القبر ، انتخب بعض صغار الرهبـان من الكنيسة الديرية في كـانتربري —من دون إذن الملك وموافقتـه — رينالد نائب رئيس الرهبان، ليكون رئيساً للأسـاقفة، وفي منتصف الليل، غنوا بعـد انتخابه وأنشـدوا Te deum ووضعوه أولاً على المذبح الكبير ، ثم بعـد ذلك على كـرسي رئـاسة الأسـاقفـة، لأنهم كانوا خـائفين من أن هذا الانتخاب الـذي جاء من دون موافقـة الملك، قـد يصل خبره إلى مسامع الملك، فيمنعهم من متـابعته والاستمـرار به،

وبناء عليه، قام نائب رئيس الرهبان هذا ، بأداء قسم، بأنه لن يعد نفسه منتخباً من دون إذن رهبـان الدير، ورسائل خـاصة منهم، وانه لن يري الرسائل التي لديه إلى أي إنسان، وأخذ بعض رهبان الدير معه، وذهب إلى بلاط رومـا، وعمل هذا كله في سبيل إبقاء خبر الانتخـاب مكتومـاً عن الملك حتى يجدوا فيها إذا سيكون بإمكانهم في بـلاط رومـا تنفيـذ الانتخاب الذي تولوه ، وجعله فعـالاً، لكن رئيس الأساقفة المنتخب ، مـا أن نزل في فـلاندرز حتى أهمل القسم الذي كـان قـد أداه، وأعلن بشكل مكشوف، بأنه كان رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، وأنه كان ذاهبـاً إلى بلاط روما لتثبيت انتخـابه، لا بل عـلاوة على ذلك جعل كل انسان يـرى رسائل رهبـان الدير التي كانت بين يديه، معتقـداً بأنه بهذا سـوف يفيـد قضيتـه كثيراً ويرفع من شـأنها، ووصل أخيراً إلى رومـا ، فتـولى على الفور إخبـار مـولانا البـابا بذلك ، وكـذلك أعلم الكرادلة، وأظهر الرسـائل وعرضهـا على الجميع، وبجرأة طلب من البـابا تثبيت انتخابه بالمباركة الرسولية ، ولكن البـابا أجابه بسرعة، بأنه سوف يحتاج إلى وقت طويل حتى يتمكن من تفحص الأمر ، في سبيل ان يكون أكثر وثوقاً حول الظروف المتقدم ذكرها.

انتخاب جون أسقف نورويك بناء على طلب الملك الانكليزي

وفي الوقت ذاتـه ، مـا ان سمـع رهبـان كـانتربري بأن نـائب رئيس الرهبان لـديهم قد خرق يمينه، وانـه حالما وصل إلى فلانـدرز، قد أعلن انه قد انتخب، وبذلك كشف سرهم، غضبوا كثيراً ، وبعثـوا على الفور بعضاً من الرهبان من ديرهم إلى الملك، وطلبوا منه الإذن باختيار رئيس أسـاقفة يكون مناسبـاً لهم، ووافق الملك على الفـور بلطف وبدون تردد على طلبهم، ولدى حـديثه الخاص معهم ألمح بأن أسقف نورويك كـان صديقـاً كبيراً له، وانه هو وحده من بين الأسـاقفة الانكليـز كان عـارفاً بأسراره، وبناء عليـه أكـد لهم بأنه سـوف يكـون مفيـداً له شخصيـاً

وللملكة، إذا كان بإمكانهم نقل الأسقف المذكـور إلى رئاسة الأسـاقفة، وبناء عليه طلب من الرهبان بأن يقوموا مع كهنته الذين سوف يرسلهم إلى الدير، ان يتولوا تقـديم هذا الطلب إلى رهبان الدير، ووعـد بإضفاء منافع كثيرة على رهبـان الدير إذا ما قـرروا الاصغـاء إليه، ولدى عـودة الرهبـان إلى مقرهـم أخبروا إخوانهم الآخـرين في الدير بأوامـر الملك ، وبناء عليـه اجتمع رهبـان الديـر جميعـاً في بيت هيئة الكهنة، وفي سبيل إرضـاء الملك والتصالح معـه، وذلك بعد مـا أغضبوه، وافقـوا بالاجماع على انتخـاب جـون أسقف نورويك، وبعثـوا على الفـور بعض رهبـان الدير إلى رئيس الأساقفة المنتخب، الذي كان في يورك يتولى تدبير بعض أعمال الملك ، لإخباره بالقدوم سريعاً إلى كانتربري، وبادر الرسل بتنفيذ رحلتهم المرسومة وأنجزوها بكـل سرعة، ووجدوا الأسقف المذكور في نوتنغهام، فقام على الفـور بتسوية أعمال الملك، وبادر مسرعاً إلى المناطق الجنوبية ، حيث التقى بالملك ، وانطلقا معـاً يؤمان كانتربري، وفي اليوم نفسه اجتمع حشد عظيم في كنيسة رئاسة أساقفة كانتربري، وقام رئيس رهبـان كـانتربري فأعلن بحضـور الملك ، وبشكل عـام إلى الجميع عن انتخـاب جون دي غـري GRAI ، أسقف نوريك، ثم قـام الرهبـــان باصطحـــابه ، وحملوه إلى المذبح الكبير وهم ينشـــدون «TE DEOM» وفي الأخير وضعوه على كـرسي رئيس الأساقفـة ، وبعد هـذا الاحتفال وضع الملك في حوزة رئيس الأسـاقفة المنتخب جميع الممتلكات العـائدة إلى رئـاســة الأسقفيـة، وعـــاد الجميع إلى مســاكنهم ، وبهذا عمل هذا الانتخـاب نوعـاً جـديداً من الخطيئة الأولى، كما سـوف تظهـر النتيجـة بشكل واضح.

الخلاف بين الأساقفة المساعدين في كنيسة كانتربري وبين رهبان ذلك المكان نفسه حول اختيار رئيس للأساقفة

عـام ١٢٠٦م ، فيـه احتفل الملك جـون بعيـد الميـلاد في اكسفـورد ،

وأرسل في الوقت نفسه بعض رهبان كنيسة كانتربري ، وكان بينهم بشكل خاص المعلم الحاز دي برانتفيلد -EHAS DE BRANT FIELD أرسلهم إلى بلاط روما ، وزودهم بهدايا كبيرة من الخزانة الملكية من أجل الحصول من مولانا البابا على تثبيت لانتخاب جون أسقف نورويك، وأرسل أيضاً في الوقت نفسه بعض الأساقفة المساعدين لكنيسة كانتربري وكلاء إلى روما لتقديم شكوى جادة أمام مولانا البابا، فحواها بأن رهبان كانتربري قد تهوروا بالقيام بانتخاب رئيس للأساقفة من دونهم، مع أنهم -وفقا للحق العام، والعادات القديمة - كان من المتوجب حضورهم الانتخاب مع الرهبان، وعرض الوكلاء أيضاً مراسيم وأمثلة حول القضايا المتقدمة، وجلبوا بعض الشهود، وقدموا بعض الشهادات، وبذلك حاولوا اظهار أنهم -أي الأساقفة المساعدين- قد اختاروا ثلاثة رؤساء أساقفة بالتعاون مع الرهبان، وفي المقابل، وعلى عكسهم، أكد الرهبان، أنهم بوساطة امتياز خاص من الحبر الروماني، وأنهم أيضا بوساطة عادة قديمة مجازة، قد اعتادوا على القيام بالانتخاب من دون الأساقفة، ووعدوا بالبرهنة على ذلك بوساطة شهود مناسبين، وبعد الفراغ من الاستماع إلى مرافعات الطرفين، وتقديم الشهود، وفحصهم بكل دقة، تقرر الحادي والعشرين من كانون الأول من قبل مولانا البابا من أجل اعلان الحكم بين الفريقين، وقد جاءوا لسماع الشرعة التي تقررت.

كيف عبر الملك جون إلى بواتو
واستولى بالقوة على قلعة مونتأوبان

وفي أيام عيد العنصرة من العام نفسه، حشد الملك جون جيشاً كبيراً في بورتماوث، وركب ظهر السفينة في الخامس والعشرين من حزيران، ونزل في التاسع من تموز في روشيل ROCHELLE ولدى سماع السكان بهذه الأقاليم بذلك طاروا فرحاً، والتحقوا سريعاً بالملك

وأعطوه وعوداً مؤكدة بالمال والمساعدة ، ثم انه زحف بعد ذلك متقدماً مع ثقة أكبر، وأخضع شطراً كبيراً من تلك المنطقة ، ووصل أخيراً إلى قلعة مونتأوبان الفخمة MONTAUBANالتي كان فيهـــا جميع النبلاء الأشداء في تلك المنطقة، وبشكل خاص أعداءه الشخصين، فهناك اتخذوا موقف الدفاع ، وقام هو على الفور بنصب مجانيقه حولها، وبعد مضي خمسة عشر يوماً دمر شطراً كبيراً من القلعة بالرمي المتواصل للمجانيق والنشاب من القسي العقارة والسهام، وتسلق الجنود الانكليز الذين كانوا مشهورين بهذا النوع من فن الحرب، الأسوار، وتبادلوا ضربات مميتة مع أعدائهم، وبعد مضي بعض الوقت سيطر الانكليز، وسقطت الحامية وتم الاستيلاء على قلعة مونتأوبان الحصينة، وهي قلعة لم يستطع شارلمان —فيما مضى —اخضاعها بعد حصار استمرسبع سنوات، وأسماء النبلاء والرجال المشهورين الذين استولوا على القلعة بخيولهم، وأسلحتهم، ونهبوها، أكثر من أن تحصى، وذكر الملك الانكليزي في رسالة له فيما بعد إلى رجال العدالة، والأساقفة، والنبلاء الآخرين في انكلترا، انه تم الاستيلاء على القلعة في يوم القديس بطرس«في الأغلال» (١—آب).

النيابة الرسولية لجون أوف فيرنتنو في انكلترا

قدم في العام نفسه جون أوف فيرنتنو FERENTINO ،نائب الكرسي الرسولي، إلى انكلترا، وارتحل خلالها فجمع مبلغاً كبيراً من المال، وعقد أخيراً بعد يوم عيد القديس لوقا الانجيلي، مؤتمراً في ردنغ، ومن ثم سافر بعده مسرعاً، فحزم حقائبه، وأخذ طريقه إلى ساحل البحر، حيث قال وداعاً لانكلترا.

وفي تلك الآونة أيضاً توسط بعض رجال الدين من مختلف البلدان ، ونشطوا بحماس بين الملكين، وحصلوا في يوم عيد جميع القديسين على وعد منهما بالحفاظ على هدنة لمدة عامين، ولذلك عاد الملك جون إلى

انكلترا، ونزل في بورتماوث في الثاني عشر من كانون الأول، وفي عشية يوم الصعود من هذا العام نفسه، غادر هذه الحياة وليم أسقف لنكولن، وفي هذا العام تسلم جوسلين أوف ويلز، الذي انتخب أسقفاً لباث، من خلال وكالة وليم أسقف لندن ، المباركة.

القرار النهائي للبابا انوسنت فيما يتعلق برهبان كنيسة كانتربري

وفي تلك الآنة أرسل البابا انوسنت قراره النهائي إلى الأساقفة المساعدين لكنيسة كانتربري، وكان فحواه كما يلي:«أحيلت إلينا مسألة سلطة الكنيسة والعادات المجازة، من أجل ان يكون البت في القضايا الكبرى في المسائل الكنسية من قبل الكرسي الرسولي، وبما انه قد ثار خلاف بينكم وبين أولادنا المحبوبين رئيس رهبان ورهبان كنيسة كانتربري، فيما يتعلق بحق اختيار رئيس الأساقفة ، فلقد ذكرتم انه ليس فقط بوساطة الحق العام، بل أيضاً بالعادة القديمة، عليكم عمل الانتخاب لرئيس الأساقفة بالتعاون معهم، وفي المقابل هم أجابوا انه بوساطة الحق العام، والامتياز الخاص، وكذلك بوساطة العادات المجازة، لهم الحق بانتخاب رئيس الأساقفة من دونكم، ولدى مناقشة القضية الخلافية بشكل قانوني أمامنا من قبل وكلاء صحيحين، استمعنا بعناية لما قاله الفريقان، ولما عرضاه أمام حضرتنا، فقد عرض فريقكم كل من مراسيم وأمثلة، وقدموا أيضاً بعض الشهود ، وأظهرتم بعض الشهادات، التي حاولتم من خلالها ان تبرهنوا انكم اخترتم ثلاثة رؤساء أساقفة بالتعاون معهم، في حين تبرهن بوساطة رسائل وشهادات أخرى أنكم توليتم في مكان آخر ووقت آخر القيام بانتخابات من هذا النوع من دونهم، هذا وتبرهن بشكل قانوني بوساطة الشهود الذين تقدموا لصالح الرهبان، بأن رئيس الرهبان مع الرهبان في كنيسة كانتربري، قد انتخبوا منذ وقت طويل وإلى الآن رؤساء أساقفة في بيت هيئة كهنتهم من دونكم ، وأنهم حصلوا على تثبيت لهذه

الانتخابات من الكرسي الرسولي، هذا وجرى التدوين من قبلنا ومن قبل أسلافنا في كتاب امتيازاتنا ، انه لدى وفاة رئيس أساقفة لكانتربري، لايجوز تعيين واحد مكانه بالغش أو بالقوة، بل يجري اختيار واحد من قبل غالبية الرهبان ذوي الحكم الصحيح بالرب، وفقاً لبنود القانون المقدس الذي يقرر أمور الانتخاب، وبناء عليه، بعدما سمعنا وفهمنا بوضوح جميع الذي عرض علينا ، وبما أنه من الواضح من خلال تأكيداتكم أنه لايجوز لكم القيام بانتخاب من دونهم ، وأنه عندما كان يجري انتخاب حرم الرهبان من المشاركة فيه، كان الانتخاب غير صحيح، وأيضاً انتخاباً قد عمل من قبل الرهبان من دونكم، عدّ جديراً وصحيحاً ، ولذلك جرى تثبيته من قبل الكرسي الرسولي، وعدّ قانونياً، وانه في كلتا الحالتين توجب بحكم الضرورة تثبيته، نقوم نحن بموجب نصيحة إخواننا فنفرض صمتاً دائماً عليكم بالنسبة لحق انتخاب رئيس أساقفة ، ونحرر بقرارنا الواضح هذا والمحدد، رهبان كانتربري من أي هجوم أو ازعاج من قبلكم ومن قبل خلفائكم، ونرسم أيضاً بموجب سلطاتنا الرسولية بأن يتولى رهبان كنيسة كانتربري وخلفائهم في المستقبل انتخاب رئيس الأساقفة من دونكم، صدر في كنيسة القديس بطرس، في روما ، في اليوم الحادي والعشرين من كانون الأول ، في السنة التاسعة من حبريتنا».

رؤيا تتعلق بمطهرة وبعقوبة الأشرار وبمجد المباركين

في هذا العام انشغل احد الناس، وكان بسيطاً بطبائعه، وكريماً بقدر ما سمحت له امكاناته المتواضعة وكان يعيش في بلدة اسمها تونستد TUNSTED (هي ربما توينسد TUINSTED في اسكس) تابعة لأسقفية لندن، انشغل بعد ساعة الصلاة المسائية، في أمسية يوم الرسولين: القديس سمعان، والقديس جود، في سقاية حقله الذي كان قد بذره في ذلك اليوم، وكان عندما رفع عينيه، رأى رجلاً مسرعاً نحوه

من مسافة ، وبعدما نظر إليه بدأ بالصلاة الربانية، وعندما وصل الغريب إليه، سأله أن ينهي صلاته، وأن يتحدث إليه، وتبعاً لذلك ، ما ان أنهى صلاته حتى تبادلا التحيات، وبعد هذا سأله الرجل الذي جاء إليه،. أين يمكنه ان يجد في الجوار مكاناً يكون مناسباً للاقامة لليلة واحدة، وعندما أطرى الرجل المسؤول كرم الضيافة عند جيرانه، وجد السائل عيباً في كرم الضيافة عند بعض الذين ورد ذكرهم، وفهم العامل وقتها بأن الغريب كان يعرف جيرانه، فسأله برغبة شديدة ، بأن يقبل الاقامة معه، وبناء عليه قال الغريب :«لقد استقبلت زوجتك امرأتين فقيرتين للاقامة معها ، وأنا أيضاً سوف اتحول إلى بيتك من أجل هذه الليلة ، حتى أتمكن من اقتيادك إلى مولاك، أي إلى القديس جيمس ، الذي إليه — حتى في الوقت الحالي — قد صليت بخشوع، لأنني أنا جوليان المضيف، ولقد أرسلت من أجلك، لأكشف لك بوساطة الوسائل اللاهوتية ، بعض الأشياء المخفية عن الناس في الأجساد، ولذلك اذهب إلى بيتك، واسع إلى تجهيز نفسك من أجل رحلة، وبعد ما فرغ الرجل من هذه الكلمات ، أي الذي كان يتحدث معه، اختفى من البقعة، وبادر العامل الذي كان اسمه تورشيل TURCHILL عائداً بسرعة إلى البيت ، وغسل رأسه وقدميه، ووجد امرأتين ضيفتين هناك، حسبما كان القديس جوليان قد أخبره من قبل، وألقى بعد ذلك بنفسه على الفراش الذي كان قد أعده في بيته بعيداً عن زوجته، من أجل كبح نفسه عن الشهوة الجنسية، ونام خارج الغرفة ، وما أن بات جميع أفراد البيت نائمين، حتى أيقظ القديس جوليان الرجل ، وقال «ها أنا ذا، حسب وعدي ، انه الوقت لنذهب معاً ، ودع جسدك يرتاح على الفراش ، حيث انها روحك فقط هي التي سوف تذهب معي، ولكي لا يظهر جسدك انه جسد ميت، سوف أنفخ فيه نفس الحياة»، وبهذه الوسيلة غادرا معاً البيت، القديس جوليان يشق الطريق ، وتورشيل يتبعه.

كيف أخذ الرجل بعد ماتحرر من الجسد إلى كنيسة كان فيها اجتماع للأرواح

وبعـدما ارتحلا إلى منتصف العـالم، وذلك حسب قـول دليل الرجل، واتجها نحو الشرق، دخلا إلى كنيسة ذات بناء رائع، كان سقفها مسنوداً بثلاثة أعمدة فقط، وكانت الكنيسة كبيرة وواسعة، لكن من دون تجزئة، وكلها على شكل قبـة واحدة، مثل قلاية راهب، وكـان هناك على الجهة الشمالية جدار، ارتفاعه ليس أكثر من ستة أقدام، وكان متصلاً بالكنيسة القائمة فوق ثلاثة أعمدة، وكان في وسط الكنيسة مكاناً واسعاً للتعميد، منه كـان يصدر لهباً كبيراً، ليس محرقاً، لكنه كـان يضيء الكنيسة كلهـا دونما توقف، وذلك مع الأماكن المحيطة بها، مثل شمس الهاجرة، وكان هذا الضـوء صـادراً -كما أخبره القـديس جـوليـان -عن العشـارين المستقيمين، وعندمـا دخلا إلى القـاعة، استقبلهما القـديس جيمس، وهو يرتدي قلنسـوة كـاهن، ولدى رؤيتـه الزائـر الذي أرسـل خلفـه، أمـر القـديس جوليـان، والقـديس دومنينوس Domninus ، اللذان كانا يتوليان حـراسة المكان، أن يريا زائـره أمـاكن عقوبة الأشرار، وكـذلك بيوت الأخيـار، وبعدمـا قال هذا مـرّ عابراً، ثـم أخبر القديس جـوليان رفيقه بأن تلك الكنيسـة كانت المكان المعـدّ لاستقبال أرواح جميع الذين توفـوا مـؤخـراً إلى أن يمكن أن تعين لهم أمـاكن الاقـامـة، والمواضع وكذلك الادانة أو النجاة بوساطة كفارة المطهرة، التي هي مقررة لهم من قبل الرب، وصمم هذا المكان، من خلال وساطة مريم العذراء المجيدة، بشكل رحيم، لكي يمكن لجميع الأرواح التي ولدت مجدداً بالمسيح، أن تجتمع هناك، فـور مغـادرتها لـلأجسـاد، وهي متحـررة من هجمات الشيـاطين، ولكـي تتلقى الحكم وفقـاً لأعمالها، ولقـد رأيت في هذه الكنيسة التي اسمها «مجمع الأرواح»، كثيراً من أرواح المستقيمين، وهي كلها بيضاء، مع وجوه شباب، وبعدما أخذت إلى ماوراء الجدار الشمالي،

رأيت عدداً كبيراً من الأرواح، واقفة قرب الجدار، معلمة ببقع سوداء وبيضاء، وكان بعض هذه الأرواح بياضها أكثر من السواد، وأرواح أخرى كانت على عكس ذلك، وقد مكث الذين كانوا أكثر بياضاً باللون أقرب إلى الجدار، والذين وقفوا في الأماكن القصوى لم يمتلكوا مظهر بياض من حولهم، وظهروا وهم مشوهين في كل جزء.

العشارون الظالمون

على مقربة من الجدار كانت هناك بؤرة الجحيم، التي كان يصعد منها دخان من دون توقف، وهو دخان نتن جداً وله رائحة مقيتة، خلال الكهوف المحيطة، والقائمة في وجه الذين وقفوا هناك وكان هذا الدخان يصدر عن العشارين الظالمين المحبوسين، وعن جثث العشارين الظالمين، وكانت النتانة تسبب آلاماً لامثيل لها للذين كانوا مدانين بهذه الجريمة، وبناء عليه، بعدما شمّ الرجل هذه النتانة مرتين، انضغط عليه بها، حتى أنه أرغم على أن يسعل مرتين، وأعلن الذين وقفوا حول جسده، بأن جسده قد سعل في الوقت نفسه مرتين، وعندها قال له القديس جوليان: «يبدو أنك لم تعشر محصولك بشكل صحيح، ولهذا شممت هذه النتانة»، ولدى تسويغه عمله بسبب فقره، أخبره القديس بأن حقله سوف ينتج وفرة أكبر من المحاصيل، إذا مادفع العشر بشكل صحيح، وأخبره الرجل المقدس، أن عليه الاعتراف بهذه الجريمة في الكنيسة بشكل مكشوف إلى الجميع، وأن يطلب التحليل من الكاهن.

نار المطهرة والبحيرة والجسر، والكنيسة القائمة على جبل البهجة

وكان على الجانب الشرقي لتلك الكنيسة نار مطهرة كبيرة جداً، موضوعة بين جدارين، وكان أول هذين الجدارين قائماً في الجانب الشمالي، وكان الآخر قائماً في الجنوب، وكانا مفصولين عن بعضهما

بفسحة واسعة، امتـدت طويلاً بالعرض على الجانب الشرقي، إلى بحيرة واسعة جداً، كان فيها يجري تعميد أرواح الذين كانوا يمرون خلال نار المطهرة، وكانت مياه البحيرة مالحة بشكل لامثيل له، وكذلك باردة، كما تبرهن فيما بعد إلى الـرجل، وكان يوجد فـوق هذه البحيرة جسر واسع جداً، مـزروع كله بالشوك والحسك، وكان كل واحـد مرغماً على المرور فوقه قبل أن يتمكن من الوصول إلى جبل البهجـة، وكان مبنياً فوق هذا الجبل كنيسة كبيرة، ذات بناء رائع، كان واسعاً بها فيه الكفاية -كما بدت للرجل -لاستيعاب جميع سكان العالم، ثم اقتاده جوليان المبارك دون أن يجرح، خلال النار المتقدمة الذكـر، وفوق البحيرة الآنفة الذكر، ومن ثم سار الاثنان مع بعضهما على الطريق الذي قاد من الكنيسة، خلال وسط اللهب، ولم تكن هناك مواد خشبيـة لإمداد تلك النار بالوقـود، بل كان هناك نوعـاً من اللهب، مـرتفعاً، يشبـه مـايشـاهد في أتون محمى بشكل كثيف، وكان اللهب موزعـاً على جميع تلك الفسحة، وقد التهم الأرواح السوداء والمرقطة لمدة قصيرة أو طويلة، وذلـك حسب درجات الجرائم، ونزلـت الأرواح التي خـــرجت من تلك النـار إلى تلك البحيرة المالحة والبـاردة، وذلك بناء على أوامـر نيقـولا المبـارك، الذي ترأس على تلك المطهرة، وغمر بعض هؤلاء حتى مافوق الرأس، وبعضهم حتى الرقبة، وبعضهـم الآخر حتى الصدر والذراعين،وبعضهـم حتى السرة، وآخرون حتى الركب، ولم تصل الميـاه بالنسبـة لآخرين حتـى موطيء أقـدامهم، والذي بقي بعد البحيرة هو اجتيـاز الجسر، الذي قام على الجانب الغربي للكنيسة، ومن أمام هذه الكنيسة عبرت بعض الأرواح بشكل ممل كثيراً وبطيئاً، وعبرت أرواح أخرى بشكل أكثر سهولة وسرعة، وعبرت أيضاً أرواح أخرى كما أرادت وبسرعـة، دون أن تواجه أي تأخير أو مشـاكل أثناء العبـور، ذلك أن بعضهم مضـى خـلال البحيرة بطيئاً جـداً، حتى أنهم مكثوا سنوات كثيرة، وسـار الذين لم يتلقوا المسـاعدة من أي من القـداسات الخاصـة، أوالذين لم يسعـوا أثناء حيـاتهم، للتخلص من

ذنوبهم بأعمال الصدقة تجاه الفقراء، ولدى وصول هؤلاء — أنا أقول — الى الجسر المتقدم الذكر، ومن ثم رغبتهم بالعبور فوقه الى المكان المخصص لهم للراحة ، ساروا بشكل موجع، بأقدام حافية، وسط الحسك الحاد والأشواك التي كانت قائمة فوق الجسر وكانوا عندما يصبحون غير قادرين على تحمل آلام الوجع الحاد، يضعون أيديهم على عصي حادة لتثبيت أنفسهم، ومنعها من السقوط، ووقتها عندما تنخرق أيديهم، كانوا يتدحرجون وهم يتألمون كثيراً ويعانون على بطونهم، وأجسادهم كلها فوق العصي الحادة، وذلك إلى أن يتمكنوا، من الزحف على النهاية القصوى للجسر، وهم ينزفون بشكل مرعب، وكلهم قد خرقت أجسادهم من كل طرف، إنما عندما يصلون الى قاعة الكنيسة المتقدم ذكرها، يحصلون هناك على مدخل سعيد ويتذكرون قليلا عذابهم الشديد.

كيف تولى القديس ميكائيل مع الرسولين بطرس وبولص توزيع الأرواح على الأماكن التي خصصت لها من قبل الرب

ثم بعد رؤية هذه الأشياء كلها عاد القديس جوليان والرجل من خلال وسط اللهب الى كنيسة القديسة مريم، ووقفا هناك مع الأرواح البيضاء التي وصلت مؤخراً ، وكانت هذه الأرواح مرشوشة بالماء المقدس من قبل القديس جيمس، والقديس دومنينوس، في سبيل أن يصبحوا أكثر بياضا ، وهنا مع أول ضوء يوم السبت ، جاء القديس ميكائيل رئيس الملائكة مع الرسوليين : بطرس وبولص ، لتوزيع الأرواح التي تجمعت في داخل الكنيسة وفي خارجها ، على الأماكن التي خصصت لهم من قبل الرب، وفقاً لما يستحقونه، لأن القديس ميكائيل أعطى الى الأرواح البيضاء أماناً بالمرور خلال وسط لهب المطهرة ومن خلال أماكن التعذيب

الأخرى حتى مدخل الكنيسة الكبرى التي بنيت على جبل البهجة، مع باب على الجانب الغربي مفتوح دوماً، أما بالنسبة للأرواح المدموغة ببقع سوداء وبيضاء ،والتي كانت جالسة خارج القاعة على الجانب الشمالي فقد جلبت من دون مناقشة حول أعمالها ، من قبل القديس بطرس، وأدخلت من خلال الباب القائم على الجهة الشرقية، الى نار المطهرة، حتى يتمكنوا أن يتطهروا بوساطة اللهب الثائر من وصمات ذنوبهم.

وزن الخير والشر

وجلس بطرس المبارك أيضاً في داخل الكنيسة عند نهاية الجدار الشمالي، وجلس في الجهة المقابلة للرسول الشيطان مع زبانيته، واللهب الكريه الرائحة ، الذي كان ينقذف من فم بؤرة الجحيم ، كان قريباً من قدمي الشيطان ، وكان مثبتاً على الجدار بين الرسول والشيطان ميزاناً معلقاً بشكل متوازن، وكان وسطه معلقاً في الخارج أمام الشيطان، وكان لدى الرسول وزنتين واحدة كبيرة ، وأخرى صغيرة ، وكانت الوزنة الأولى تشع مثل الذهب، وكان لدى الشيطان أيضاً وزنتين، الأولى سخامية، والثانية سوداء ثم اقتربت الأرواح السوداء وقدمت من جميع الاتجاهات، وهي في حالة خوف عظيم وارتجاف ،واقتربوا روحاً بعد أخرى في محاولة لوزن أعمالهم،أخيراً هي أم شراً، لأن الميزان المذكور يزن الأعمال العائدة لكل روح من الأرواح، وفقاً للخير أو للشر الذي فعله، وبناء عليه عندما كان الميزان يميل بنفسه نحو الرسول كان الرسول يأخذ ذلك الروح ، ويضعه من خلال الباب الشرقي المتصل بالكنيسة ، في النار المطهرة، فهناك يكفر عن شروره، لكن عندما كان الميزان يميل ويرجح نحو الشيطان وزبانيته، يسرع ذلك الروح ويبتعد. وهو يولول ويلعن الأم والأب، لأنهما أنجبا صاحبه، ويمضي نحو العذاب

السرمـــدي ، ويـرمى وسط أنين عظيـم في الأتون العميق والمتـأجج بالنيران، الذي كـان عند قـدمـي الشيطان الذي كـان يتـولى الوزن، وغالباً ما ورد ذكـر وزن الخير والشر وفق هذه الطريقة في كتابات الآباء المقدسين.

حول أحد الأرواح الذي حوله الشيطان الى شكل فرس

وفي يوم السبت قرب ساعة المساء وعندما كان القديس دومنينوس والقديس جوليـان في الكنيسة المتقدم ذكرها، جـاء من الجهة الشمالية أحد الشيـاطين وهو على ظهر حصان أسـود وهو يجري بكل سرعة، وكـــان يحثـه خـــلال منعطفـــات المكان، وذلك وسـط كثير من الضجـة،وذهـب عـدد كبير من الأرواح الشريرة لاستقبـــاله، وهم يرقصون هناك ويزمجر أحدهم نحـو الآخر حول الصيد الذي جلب اليهم، وعندها أمـر القديس دومنينوس الشيطان الذي كـان ممتطياً للحصان، أن يقدم اليه مباشرة، وليخبره روح من الذي جلبه، ولكن الشيطان تمهـل كثيراً بسبب السرور العظيم الذي كـــان يتمتـع به فوق ذلك الروح التعيس، فتناول القديس على الفور سوطاً ، وجلد به بحـدة الشيطان، وبناء عليـه لحق بالقـديس إلى الجدار الشمالي، حيث وقف ميـزان الارواح، ثم سأل القديس الشيطان عن اسم صـاحب الروح الذي كـان يعـذبه على هذا الشكل بركـوبه له هكذا ، فأجـابه الشيطان قائلاً :« انه روح واحد من نبلاء مملكة انكلترا، قد مات في الليلة المتقدمـة من دون اعتراف ، ومن دون المشاركـة بتناول جسد الرب ، وكان بين الأخطاء التي اقترفها، وأعظمهـا جريمة، وحشيته نحو رجاله، الذين أنزل كثيراً منهم الى حالة العوز، وقد فعل ذلك، بشكل رئيسي بناء على تحريض زوجته ، التي دفعتـه دوماً نحو الأعمال الوحشيـة ، ولقـد مسختـه الى حصـان لأنه مسمـوح لنا تحويل أرواح المدانين الى أي شكل نرغب به، ولسـوف أقوم على الفـور بالنزول

معه الى جهنم ، وسوف أحوله نحو العذاب الأبدي، اذا لم تحل الآن ليلة الأحد، عندما تتوقف وظائفنا عن المباريات المسرحية ، وأن نوقع المزيد من العذاب الشديد على الأرواح البائسة »، وبعدما تفوه بهذه الكلمات، وجه نظره نحو الرجل، وقال للقديس :« من هو هذا الفلاح الواقف معك»؟وقد أجابه على سؤاله قائلاً «أولم تعرفه»؟ ووقتها أجابه الشيطان قائلاً: «لقد رأيته في كنيسة تيدستود Tidstude في اسكس في يوم عيد تكريسها»،ثم سأله القديس:«في أي ثوب دخلت الى الكنيسة »؟ فأجابه: «في ثوب امرأة ، لكن عندما تقدمت نحو جرن المعمودية عازماً على الدخول الى الهيكل، تصدى لي الشماس بمرشة الماء المقدس ، ورشني بها ، فجعلني أهرب بإندفاع شديد، وصرخت صوتاً عالياً وقفزت من الكنيسة حتى حقل وقع على مسافة فرسخين » وبين الرجل مع آخرين من أهل الأبرشية ، وشهدوا على الواقعة نفسها ، وأعلنوا أنهم سمعوا تلك الصرخة، وكانوا يجهلون تمامًا سببها .

المباريات المسرحية للشياطين

وقال بعد هذا القديس دومنينوس للشيطان :« نحن نرغب بالذهاب معكم لمشاهدة مبارياتكم». فأجابه الشيطان :« إذا ما رغبت بالذهاب معي ، فلا تجلب هذا العامل معك، لأنه سوف يقوم عند عودته الى بني جلدته من الفانين بإفشاء خبر أعمالنا مع الأنواع السرية من عذابنا، الى الأحياء، وسوف يكسب الكثير ويمنعهم من خدمتنا»، فقال القديس له:« سر مسرعاً وتقدم نحو الأمام وسوف أقوم أنا والقديس جوليان باتباعك » وبناء عليه سار الشيطان في الأمام، وتبعه القديسان، وأخذا الرجل معهما خلسة،.ثم إنهم مضوا في سيرهم نحو المنطقة الشمالية، وكأنهم كانوا يصعدون جبلاً وكان هناك بيتاً واسعاً جداً وله مظهر مظلم، تحيط به أسوار قديمة، وكان

فيه كثيراً من الأزقة(plateae) كانت ممتلئة من جميع الجهات بأعداد لا تحصى من المقاعد الحديدية المحماة، وكانت هذه المقاعد مبنية مع أطر حديدية تتقد اشتعالاً الى حد باتت فيه بيضاء لشدة الحرارة، وكانت هنالك مسامير مدفوعة فيها في كل طرف، من تحت ومن فوق ، ومن على اليمين وعلى اليسار، وعليهم جلست مخلوقات متنوعة الأوضاع والجنس، وكان هؤلاء مخروقين بالمسامير المحماة من جميع جهات أجسادهم، وكانوا مربوطين من كل جانب بأطر نارية، وكان هناك عدداً كبيراً جداً من هذه المقاعد، ومثل ذلك من حشود الناس الجالسين فوقهم، الى حد أن ما من لسان يمكن أن يكون قادراً على تعدادهم، وكان هنالك حول تلك الساحات جدرانا حديدية سوداء،وكان الى جوار تلك الجدران مقاعد أخرى، عليها جلس الشياطين على شكل دائرة، وكأنهم كانوا يتمتعون بمشاهدة منظرمفرح،وكل واحد يزمجز نحو الآخر بسبب عذابات المخلوقات البائسة، وكانوا يذكرونهم بجرائمهم المتقدمة ، وكان على مقربة من ذلك المشهد المقيت ، ولدى النزول من الجبال هناك — كما قلنا — جدار ارتفاعه خمسة أقدام ، منه من الممكن الرؤية بوضوح الذي يصنع دوما في مكان العذاب ذاك ، ثم انه وقف القديسان المتقدم ذكرهما قرب الجدار في الخارج، وأخذا يشاهدان الذي كانت تعاني منه المخلوقات البائسة في الداخل، وكان الرجل متخفياً بينهما، وقد شاهد ما كان يحدث في الداخل.

رجل متشامخ وعذابه

وعندما جلس خدم النار يشاهدون هذا المشهد المعيب،قال رئيس ذلك الحشد الشرير الى زبانيته:« اسحبوا الرجل المتشامخ من مقعده بعنف ودعوه يمثل أمامنا»، وبعدما سحب من مقعده وألبس ثوباً أسود، قام بحضور الشياطين الذين صفقوا له بالدور، فقلد

جميع حـركات رجل متكبر متشامـخ بلا حدود ، فكان يمـد رقبته ، ويرفع وجهـه، ويحدق بعينيـه مع جبين مقطب ، ويزمجر عـاليـاً بكلمات متعجـرفـة ، ويحرك كتفيـه، وبصعـوبـة بالغـة يحمل ذراعيـه لتشامخه، وأمـا عيناه فكانتا تبرقان، لإعطاء نظرة تهديد ومظهـراً مخيفاً، وكان ينهض على رؤوس أصابعه، ويجلس برجلين متشابكتين، يتنفس الصعداء، ويمـد رقبته ويجعل وجهه مـربداً، مظهراً عـلامات الغضب بعينين تقـدحان ناراً ، وكـان يضرب أنفه بـاصبعه، معطيـاً انطباعـاً بتهـديدات كبيرة وهكـذا تورم وانتفخ بتكبر داخلي، وشكل بـذلك موضـوعا للضحك بالنسبة للأرواح الـلابشرية ، وعندما كان يتفـاخر متكبراً عارضاً لملابسه، وأثناء ربطه لقفازيه، تحولت ملابسه فجأة الى نار،أتلفت جميع جسـد ذلك المخلوق البائس، وقـام الشياطين أخيراً، وهم مشتعلون غضباً بتمزيق أطراف ذلك البائس طرفاً طرفاً بمخالب وكلاليب حـديدية، وقام أحدهم بوضع دهن مع زفت ومـواد دهنية أخرى في مقلاة حـامية جداً، وأخذ يقلي كل واحـد من الأعضاء، عند انتزاعـه ، في ذلك الدهن الذي كان يغلي وفي كل مـرة كان الشيطان يرش عليهم الدهن، كـان يصدر من الأعضـاء فحيحاً يشبـه الصوت الذي يتسببه صـب الماء البارد على الدم الذي يغلي، وبعـد قلي الأعضاء هكذا، كـانوا يتحـدثون ثانيـة ويعـود ذلك الـرجل المتكبر الى شكله السـالف ، ثـم انه اقترب من ذلك الـرجل البـائس حملـة المطارق الجهنميـة مع مطارق، وثلاثة قضبان حـديدية محماة لونها لذلك أحمر، وهي مطروقة مع بعضهـا وفق تريب ثلاثي ، ثم انهم وضعوا قضيبين عند ظهـر جسـده ، واحـد الى اليمين وآخـر الى اليسـار، ثم قـامـوا بوحشيـة بدفع المسامير الحاميين في داخله بوسـاطة الطرق بمطارقهم، وكانت بداية هذيـن القضيبين عند قدميه، وقـد خرقا صعـوداً فخديه وحقـويه حتى الكتفين، ثم لويـا حـول رقبتـه، أمـا القضيب الثـالث فكانت بدايتـه عند وسطـه، حيث مـرّ بأمعـائـه، ووصل حتى أعلى

رأسه وبعد ما جرى تعذيب هذا البائس لوقت طويل، وفق الطريقة الموصوفة أعلاه، غرس بدون رحمة ، ثانية على كرسيه السالف، وعندما أجلس هناك، جرى تعذيبه من جميع الجهات بوساطة أظافر محماة حتى الاحتراق وبأصابعه الخمسة الممدودة، ثم انتزع بعد هذا من مكان التعذيب هذا ووضع في مقر الاقامة الذي عمله لنفسه عندما كان حياً لينتظر المزيد من العذاب.

حول أحد الكهنة

ثم جرى سحب كاهن بعنف من مقعده الناري للاستهزاء به، وأجلس أمامه هؤلاء العفاريت اللابشرية، من قبل خدم الذنوب، حيث قاموا بعد ذلك بقطع حلقومه من وسطه، وسحبوا لسانه وقطعوه من جذره ولم يقم هذا الكاهن — لدى تمكنه — بسداد ديون الناس الذين عهد اليه بأمر العناية بسلعهم الدنيوية، حيث أخذها منهم، لا بوساطة الإثارة الدينية ، ولابمثال الأعمال الطيبة، ولم يمنحهم التأييد بالصلوات أو بالقداسات ، وبعد ما — كما حكينا عما حدث للرجل المتكبر — مزقوا أطرافه طرفاً طرفاً، ثم أعادوه كما هو ، وأجلسوه في كرسي التعذيب .

حول أحد الجنود

وجلب بعده.، ودفع نحو الأمام، أحد الجنود ، الذي كان قد أمضى حياته في قتل الناس الأبرياء في المبارزات والسرقات، وقد جلس على ظهر حصان أسود ، وبرفقته جميع أسلحته الحربية، وكان عندما يحث الحصان بالمهماز كان يقذف نحو الأمام لهباً من القار مع نتانة ودخان من أجل تعذيب ممتطيه وكان سرج الحصان مثقباً من جميع الجهات بمسامير نارية طويلة ، وكان الدرع والخوذة والترس والحذاء جميعاً مغلفين باللهب وكان الراكب مثقلاًجداً بحملهم

بسبب وزنهم، وكـانوا في الوقت نفسـه يحرقونه حتى العظام بعـذاب هائل، وبعـدمـا قـام تقليداً لعـاداته الماضيـة في الحرب، حث حصـانه ليركض بأقصى سرعـة وهـز رمحه ضـد الشيطان الذي تصـدى له، وأجبره على الترجل، ثم انه أنزل مـن على ظهـر حصـانه ، ومـزق الى قطع ، وقليت أطرافـه في السـائل المذكـور أعلاه ، وبعـد قلي أطرافـه أعيدت ولصقت ثـانية بالطريقة نفسهـا مثل الذين تقدمـوا قبله، ثم ربط بوسـاطة ثلاثة أوتاد، وعندما أعيـد الى ما كـان عليه غـرس بعنف في مقعده.

حول أحد المرافعين

وبعـد الجندي، جـرى سحب رجل كـان بـارعـاً جـداً بالقـانون الدنيوي، وشـد نحو الأمام الى الوسط مع عذاب شـديد ، جلبه على نفسـه من خلال سبيل شرير طويل نهجـه في الحياة ، ولقبـوله الهدايا من أجل منع القضـاء والحكم، وكـان هـذا الرجل معـروفـاً جـداً في المقـاطعات الانكليـزية، بين أوسـاط المراتب العليا، لكنه أنهى حيـاته بشكل بائس في السنة التي شـوهـدت بها هذه الرؤيا، ذلك أنه مـات بشكل مفـاجىء من دون عمل أية وصية، وجميع الثـروة التي كان قـد جمعهـا بجشعه الشرير ، قـد حرم منهـا كلياً ، وأنفقت من قبل غـرباء عنه، وكان قد اعتـاد على الجلوس في خزانة الملك، حيث غالبـاً ما كان يتلقى الهدايا من الفـرقاء المتخـاصمين، وأيضـاً بعدمـا جرى جـره نحو الأمام من أجل السخـرية منه، وذلك بحضور الأرواح الشريرة، أرغم بشكل مهين من قبل العفاريت على تقليـد أعمال حياته الماضية حيث كان يدير نفسه ساعة نحـو اليمين ثم ساعة أخرى نحو اليسار، ليعلم الفريق الأول كيف يعرض قضيته ، ثم ليعلم الفريق الثاني كيف يرد عليـه، وأثناء عمله هذا لم يتمنـع عن قبـول الهدايا، بل تقبل المال من فريق أول حيناً ، ثم من الفريق الثاني حيناً آخر ، وبعد عدّه لها

وضعها في جيوبه، وبعدما شاهد الشياطين لوقت طويل حركات هذا الرجل التعيس، صارت الأموال فجأة حامية، وأحرقت الرجل البائس بطريقة ليس فيها مرحمة، وقد أرغم على وضع قطع النقود في فمه، مع أنهم كانوا يحرقونه، ثم أرغم بعد ذلك على ابتلاعهم، وبعد ابتلاعه لهم قدم اليه إثنان من الشياطين مع عربة ذات دواليب حديدية، كلها مزروعة بأوتاد ومسامير، ووضعوها على ظهر المذنب، ودوروها في جميع الاتجاهات، وبذلك مزقوا ظهره كله بحركتها العنيفة المحرقة والسريعة وأرغموه على التقيؤ بالأموال التي ابتلعها وسط عذاب شديد، والآن مع عذاب أشد وأقسى وبعد التقيؤ بالمال، أمره شيطان بجمعهم ثانية، حتى يمكن اطعامه بهم ثانية، وبعد هذا بات خدم الجحيم مغضبين كثيراً، فأنزلوا به جميع أنواع العذاب التي ورد ذكرها أعلاه، وكانت زوجة هذا الرجل جالسة فوق واحد من المقاعد ذوات الأوتاد النارية لأنها كانت محرومة كنسياً في عدة كنائس، بسبب خاتم قد وضعته في علبة جواهرها دون أن تعرف، ثم أعلنت أنه قد سرق، وهي لم تتحرر من هذا الذنب ، ومنعها من ذلك موت مفاجيء.

حول زاني وزانية

وجرى الآن إحضار زاني وزانية الى أمام الشياطين الغاضبين ، وقد عرضا وهما متحدين باتصالهما القذر ، وكررا بحضور الجميع حركاتهما المهينة والمخجلة ، وذلك بخلجات عنيفة لإرباكهما، وسط لعنهما من قبل الشياطين، ثم بعد ما أصيبا بالخبال ، شرعا بتمزيق أحدهما الآخر، حيث غيرا الحب الظاهري، الذي بديا وهما يتمتعان به من قبل، أحدهما نحو الآخر، وبدلاه الى كراهية ووحشية ، ووقتها جرى تمزيق أطرافهما من قبل الحشود الغاضبة من حولهما، وعانيا من العقوبات نفسها مثل الذين تقدموا قبلهما، وجرى أيضا تعذيب جميع

الزناة الذين كـانوا حضوراً بطريقة مشـابهة وكانت شـديدة وكثيفة الى حد أن آلامهم كـانت من الهول بمكان، أن قلم الكاتب ليس كـافياً لوصف ذلك.

المستهزئون

وبين المخلوقـات البـائسـة الأخـرى، جـرى احضـار اثنين من المستهـزئين الى الوسط ، اللذان قامـا مع تشـويه مستمر بفتح فـاهيهما حتى أذنيهما، وأدارا وجهيها كل واحد نحو الآخـر، وحدق كل واحد منهما بالآخـر بأعين غاضبـة عـابسة ، ووضع في فم كل واحـد منهما نهاية نوع من أنواع الرمـاح المحترقة، وكانـا يأكلانه ويلوكانـه بأفواه مشوهة، وسريعاً مـا وصلا الى وسط الرمح، واقتربا من بعضهما حتى كـادا يلتصقان، وبهذه الصـورة مـزق كل واحد، منهما الآخـر، ولوثا وجهيهما بالدم.

اللصوص والمحرقون

وكان بين الذين أحضروا ودفعوا نحو الأمـام ، لصوصاً وحراقين مع خارقين لحرمات الأماكن الدينيـة وقد وضع هؤلاء من قبل عبيد الجحيم فـوق دواليب حـديدية حمراء مـن شـدة الحرارة، مغـروسـة بالحسك والمسامير، ولشدة حماوتها كانت ترسل باستمرار شرراً من النار كـان يتساقط دومـاً مثل المطر على أولئك التعساء الذين كـانوا يدورون ، ويعانون من عذاب مخيف .

الباعة

ثم جاء الى البقعة أحد الباعـة مع موازين زائفة ، وأوزان ، وأيضاً مع الذين مـدوا أقمشـة جـديـدة في حـوانيتهم وشـدوها الى درجـة عظيمـة في الطول وفي العـرض حتى أن خيـوطهـا تمزقت وتقطعت وعمل فيهـا فتحـات ، وخـاطوا بعـد ذلك ببراعـة متناهيـة هذه

الفتحات، وباعوا هذه الأقمشة في أماكن مظلمة، وانتزع هؤلاء بقسوة متناهية من مقاعدهم، وأرغموا على اعادة تمثيل حركات ذنوبهم الماضية لإهانتهم ولزيادة تعذيبهم،من قبل الشياطين، وفق الطريقة التي وصفناها عن الآخرين من قبلهم، ورأينا الى جانب هذا الرجل، على مقربة من المدخل الى الجحيم المنخفض، أربع ساحات، كان وضعها كما يلي: حوت الساحة الأولى عدداً لا يحصى من الأفران، ومراجل مليئة حتى الأعلى بزفت محترق وبعناصر أخرى ذائبة، وفي كل ساحة من هؤلاء كدست الأرواح مع بعضها ،وهي تغلي بحدة، ورؤوسهم مثل رؤوس الأسماك السوداء، وذلك بسبب عنف الغليان ، وكانوا يرغمون أحياناً على الصعود نحو الأعلى فوق السائل، وفي أوقات أخرى كانوا يهوون نحو الأسفل، واحتوت الساحة الثانية مثل ذلك مراجل ، لكن مليئة بالثلج وبالجليد المتجمد ، فيها كانت تتعذب الأرواح وسط آلام لا تحتمل، وكانت مراجل الساحة الثالثة مليئة بماء كبريتي يغلي وبأشياء أخرى ، وكان يصدر عن ذلك روائح نتنة ممزوجة بدخان قذر، وكان هناك الأرواح التي ماتت وسط قذارة شبقها، وهناك كانت هذه منطقة عذابهم الخاصة، واحترت الساحة الرابعة على مراجل مليئة بماء مالح أسود، حدة ملوحته تنزع لحاء أي نوع من الأشجار مباشرة عند رميها فيها، وكان في هذه المراجل حشود من المذنبين ، والقتلة ، واللصوص والنهابين، والسحرة ، والرجال الأغنياء، الذين ظلموا أتباعهم بشكل غير اعتيادي واستخرجوا منهم الأموال بشكل غير عادل، وكانوا يغلون بشكل مستمر، وكان عبيد التعذيب واقفين من حولهم، يضغطون عليهم معاً في الداخل حتى لا ينجو أحد منهم من حرارة السائل الذائب، وكان الذين جرى غليهم لمدة سبعة أيام في هذا الدهن المائع، قد ألقي بهم في اليوم الثامن في البرد، في السائل الذي كان يغلي، وفي الوقت نفسه فإن الذين كانوا يغلون في الماء المالح، قد

جرى تعذيبهم فيما بعد في النتانة، وكانوا دوماً يرعون عمليات التغييرات هذه كل ثمانية أيام.

الكنيسة القائمة على جبل البهجة والوساطات التي عملت من أجل الأرواح

وبعد رؤية هذه الأشياء، وعند بداية ظهور صباح يوم الرب، تابع القديسان اللذان تقدم ذكرهما مع الرجل الذي كانا يقتادانه ، وساروا نحو جبل البهجة، وكان ذلك من خلال نار المطهرة ، والبحيرة، وفوق جسر الحسك والشوك، وذلك حتى وصلوا الى قاعة قائمةعلى الجهة الغربية من الهيكل الذي تقدم ذكره، والذي كان قائماًعلى الجبل، وقد كان هناك باب جميل وواسع، مفتوح بشكل دائم ، من خلاله جرى احضار الأرواح، التي جعلت بيضاء تماماً، من قبل القديس ميكائيل ، واجتمع في هذه القاعة الأرواح التي تطهرت، وكانت تصلي بكل حرارة، متوقعة سماحاً سعيداً الى ذلك المكان، ورأى الرجل في الجهة الجنوبية خارج الهيكل عدداً لا يحصى من الأرواح، وكلهم ووجوههم قد التفتت نحو الكنيسة، وكانوا يصلون من أجل الحصول على مساعدة أصدقائهم الذين كانوا أحياء، فبتلك المساعدة ربما يمكنهم نيل الإذن بالدخول إلى تلك الكنيسة، وكانوا كلما حصلوا على مزيد من المساعدة ،كلما اقتربوا أكثر من الكنيسة، ولاحظ في هذا المكان عدداً كبيراً من معارفه ، وكذلك أولئك الذين قد عرفهم بشكل عابر أثناء الحياة، وأخبر القديس ميكائيل الرجل وجدثه عن جميع أولئك الأرواح، وبين له بكم من القداسات يمكن لكل روح أن تنطلق متحررة ، ومن ثم يسمح لها بالدخول الى الهيكل، ولم تعان الأرواح التي كانت أيضاً تنتظر الإذن، من أية عقوبة، إذا لم يكونوا بانتظار أية مساعدة خاصة من أصدقائهم، ومع ذلك فإن جميع الأرواح التي وقفت هناك اقتربت

يومياً من مدخل تلك الكنيسة بوساطة المساعدة العامة للكنيسة كلها.

المراتب المتنوعة لتلك الكنيسة

وبعد احضار ذلك الرجل الى داخل الهيكل من قبل القديس ميكائيل، رأى هناك كثيرين كان قد رآهم في الحياة من كلا الجنسين، في ملابس بيضاء، كانوا يصعدون الى الهيكل، ويتمتعون بهناءة كبيرة، وكانت الأرواح كلما صعدت أعلى فوق سلالم الهيكل ، غدت أكثر بياضاً وأكثر اشعاعاً، وكان من الممكن أن يرى في تلك الكنيسة العظيمة كثيراً من المنازل الأعظم جمالاً، فيها سكنت أرواح الأتقياء، وكانت أكثر بياضاً من الثلج،وكانت وجوههم وتيجانهم تبرق مثل بريق الذهب، وكانوا يسمعون في ساعة محددة من كل يوم أغاني من السماء، وكأن جميع أنواع الموسيقى كانت تغنى بانسجام وبلحن جميل واحد، وكانت هذه الموسيقى تلطف وتنعش جميع سكان الهيكل في نعومتها المقبولة،أثناء تمتعهم بجميع الأنواع اللذيذة من اللحوم، لكن الأرواح التي كانت لاتزال واقفة منتظرة في القاعات في الخارج، لم تسمع شيئاً من هذه الأغاني السماوية، وكان في هذا المكان أيضاً، قد اتخذ عدد من القديسين مساكن لهم،حيث كانوا يستقبلون بسرور،أولئك الذين خدموا بشكل خاص أنفسهم بعد الرب في كل شي،حتى يمكنهم فيها بعد احضارهم على مرأى من الرب.

الجنة وآدم أبونا الأول

وانحرفوا بعد هذا جانباً، نحو الجهة الشرقية من الهيكل المتقدم ذكره،ووصلوا الى مكان جميل جداً،رائع بأنواع أعشابه ووروده،وكان مليئاً بالرائحة الطيبة الصادرة عن الأعشاب والأشجار،وهناك رأى الرجل نبعاً عظيم الصفاء،كان يتدفق على شكل أربعة جداول ألوان

مائها مختلفة،وكان فوق ذلك النبع شجرة ذات حجم مدهش،وارتفاع هائل،فيها وفرة من جميع أنواع الفواكه،ومن جميع أنواع الروائح الطيبة،وكان راقداً تحت هذه الشجرة وعلى مقربة من النبع رجل له شكل وسيم وحجم هائل،وكان مرتدياً من قدميه الى صدره ثوباً له ألوان متنوعة، ومن قماش جميل بشكل مدهش،وبدا هذا الرجل وكأنه يبتسم بالعين الأولى،ويبكي بالعين الثانية،وقال القديس ميكائيل:«إن هذا هو الأب الأول لبني البشر،إنه آدم، وهو يشير في العين التي يبتسم فيهاويعبر عن البهجة التي يشعر بها نتيجة مجد أبنائه الذين أنقذوا، وهو يعبر في العين الأخرى التي يبكي بها عن أسفه الذي يشعر به،بسبب عقوبة أبنائه والحكم العادل الذي صدر عليهم من الرب،أي على الذين أدينوا،وكان الثوب الذي تغطى به مع أنه لم يكن كاملاً،هو ثوب الديمومة،ورداء المجد، الذي حرم منه لدى اقترافه لذنبه الأول، ذلك أنه منذ أيام قابيل،ابنه الصالح،قد بدأ باسترداد هذا الثوب،واستمر يفعل ذلك خلال جميع أجيال أولاده الصالحين،ومثلما يشع النخبة بفضائلهم المتنوعة،كذلك يفعل هذا الثوب،المصبوغ بألوانه المتنوعة، وعندما سيكمل عدد النخبة من أولاده،وقتها سوف يلبس آدم كامل ثوب الخلود والمجد، وبذلك سوف يصل هذا العالم الى النهاية.

كيف عاد الرجل الى جسده

وبعد الابتعاد قليلاً عن هذا المكان،وصلوا الى أكثر الأبواب جمالاً،وكان مزيناً بالجواهر وبالأحجار الكريمة،وأشع السور الذي كان من حوله،وكأنه كان من الذهب،وما أن دخلوا ذلك الباب،حتى ظهر هيكل من النوع الذهبي،كان أكثر فخامة من الهيكل الأول،في جماله كله، وفي طيب رائحته،وفي أبهة أضوائه الشعشعانية،حتى أن الأماكن التي رأوها من قبل قد بدت ليست جميلة بالمقارنة مع هذا المكان، وبعدما دخلوا الى الهيكل، رأى الرجل في الجانب الأول،بيعةمتألقة بزينة

رائعـــة،وقـد جلس فيهـا ثـلاث عـذراوات يشعـن بجمال لايمكن وصفـه،وقد كن كما أخبره رئيس الملائكة: القـديسة كـاترين،والقـديسـة مـرغـريت،والقديسـة أوسيـز osith، وعندمـا كان يتأمل معجبـــــاً بجمالهن،قـال القـديس ميكائيل للقـديس جـوليـان:« أعـد هذا الرجل مباشرة الى جسده،لأنه إذا لم تتم إعادته بسرعة إليه،فإن المياه البادرة التي يرميهـا الواقفــون في وجهـه سـوف تخنقـه كليـاً»، وبعـد التفـوه بهذه الكلمات،لم يعـرف الرجـل كيف أعيـد الى جسـده، واستيقـظ وقـام من فـراشــه،فقـد كــان راقـداً على فــراشـه، وهـو بدون وعي،لمدة يومين وليلتين،أي من سـاعـة مسـاء اليوم السـادس من الأسبـوع حتى مسـاء الأحد التالي،وهو كأنه غاط في نوم عميق،وحالما جاء الصباح حتى بادر مسرعـاً الى الكنيسـة،وبعد قيـامـه بقـداس، سأله الكاهن وبقيـة رجـال الأبرشيــة،الذين كــانوا قــد رأوه وكأنه بدون حيـــاة قبل وقت قصير مضى،ورجـوه أن يخبرهـم عن الذي كشف له، وتردد- على كل حـال- من خلال سذاجتـه الكبيرة، في القيام بالحديث عن رؤياه، حتى ظهر له في الليلة التاليـة القديس جـوليان، وأعطاه أوامـر بأن يكشف كل الذي رآه،لأنه- كما قال- أُخذ من فراشه،بقصد أن ينشر على الناس جميعاً كل الذي سمعه، وفي طاعة منه لأوامر ذلـك القديس، قام في يوم عيد جميع القــديسين،وفي الأوقـــات التي تلــت ذلك،بالحديث عـن رؤياه بشكل واضح ومكشوف بـاللسان الانكليزي،وكل الذين رأوه عجبـوا مما حبي به من مقـدرة على الكلام بشكل غير اعتيـــادي،وهو الرجل الذي ظهـر من قبـل من خـلال سـذاجتـــه أنه جلف وغير قـــادر على الكلام، وباستمراره في حكايته عن الرؤيا التي رآها، قد جعل الكثيرين ينفعلون فيبكون، وينوحون بمرارة.

كيف ذهب غيوفري رئيس أساقفة يورك إلى المنفى

عام ١٢٠٧، فيـه احتفل الملك جون بعيد الميـلاد في وينكستر،بصحبة

نبلاء المملكة، وفيما بعد في أيام طهارة مريم العذراء المباركة،فرض ضريبة في جميع أرجاء انكلترا،قضت بجباية جزء من ثلاثة عشر جزءاً من السلع المنقـــولة وغير المنقـــولـة،على العلمانيين، واللاهوتيين والأساقفة،مما سبب شكوى عامة بين الجميع،مع أنهم لم يتجرأوا على المصارحة بمعارضة ذلك،وكان غيوفري رئيس أساقفة يورك هو وحده الذي لم يوافق على الضريبـة،وقد تحدث بشكل معلن ضـدها،وغادر انكلترا بشكل سري،ولدى مغـادرته لعن وحـرم من شراكـة المؤمنين بشكل خاص جميع الذين شاركوا في هذه السرقة، في رئاسة أسقفية يورك، وبشكل عام كان قراره ضـد جميع الذين يهاجمون الكنيسة أو ممتلكات الكنيسة.

وهبت في هذا العام نفسه، في السابع والعشرين من شباط،عاصفة عنيفة،في حوالي منتصف الليل،فدمرت الأبنية،واقتلعت الأشجار، ولأنها ترافقت مع سقوط كميات ضخمة من الثلج فقد سببت هلاك المواشي وقطعان الأغنام والسائمة.

وقـدم في هذا العـام نفسـه الامبراطور أوتو الى انكلترا،واجتمع للتحادث مع خاله، وبعد ذلك عاد الى مملكته،لكن بعدما تسلم من خاله مبلغ خمسة آلاف مارك من الفضة.

ونبغ في هذه الآونة،تحت رعاية البابا أنوسنت، طائفة من الواعظين اسمها الفـرنسيسكان،مـلأت الأرض ، وسكنت في المدن والبلدات بالعشرات والسبعـــات ، حيث لم يتملكوا ممتلكات بشكل مطلق، وعاشوا وفقاً للانجيل، وأظهروا فقراً شديداً، وساروا بأقدام حافية، وضربوا مثـلاً عظيماً بالتواضع الى جميع الطبقات، وذهبوا في أيام الآحاد وفي أيام الأعياد، من أماكن إقامتهم ، يبشرون بكلمة الانجيل في كنائس الأبرشيات ، وكانوا يأكلون ويشربون كلما وجدوه بين الذين كانوا يتولون وعظهم، وكانوا متميزين جداً، نظراً لتقديرهم

لأعمال السماء، ولمحاولتهم بأنهم أنفسهم غير مرتبطين بقضايا هذه الحياة ، ولا بمتع الجسد ، ولم يحتفظوا بأي نوع من الأطعمة امتلكوه الى الغد ليستخدموه، بهدف اظهار أن فقرهم الروحي هو الذي يتحكم بعقولهم، ولكي يظهروا أنفسهم الى الجميع فقراء في ملبسهم وفي أعمالهم.

إلغاء انتخاب أسقف نورويك
وكذلك انتخاب نائب الشماس من كانتربري

ومثل في هذه الآونة رهبان كنيسة كانتر بري أمام مولانا البابا، للترافع حول الخلاف المؤسف الذي تفجر بينهم أنفسهم، لأن شطراً منهم قدم رينالد، نائب رئيس رهبان كانتربري بوساطة رسائل صحيحة صادرة عن رهبان الدير ، على انه رئيس أساقفتهم المنتخب، وكرروا هذا مراراً ، وطالبوا بإلحاح تثبيت انتخابه، وكان لدى الشطر الآخرمن الرهبان . أنفسهم ، رسائل أيضاً أصيلة، تقدم بها جون أسقف نورويك ،وقد أظهروا من خلال مناقشات كثيرة أن انتخاب نائب رئيس الرهبان كان لاغيا، ليس فقط بسبب أنه عمل أثناء الليل، ومن دون الطقوس والاحتفالات المرعية، ومن دون موافقة الملك، بل أيضاً لأن هذا الانتخاب لم يجر من قبل الجزء المسن والأكثر حكمة بين رهبان الدير، وهكذا عرضوا هذه الأسباب، وطالبوا بوجوب تثبيت الانتخاب، الذي عملوه أمام شهود موائمين، في وضح النهار، وبموافقة الملك، وأثناء حضوره، ولدى عرض هذا الجانب من القضية وبعد الفراغ من سماعه وفهمه بوضوح، قام المرافع الممثل لحزب نائب رئيس الرهبان، فعرض بأن الانتخاب الثاني باطل وفارغ، فمهما قيل عن طبيعة الانتخاب الأول، سواء أكان صحيحاً أم غير صحيح، كان من المتوجب الغاء الانتخاب الأول قبل عمل الانتخاب الثاني ، ولذلك طالب بشكل

ثابت، بوجوب الاعتراف بالانتخاب الأول ، وأنه هو الصحيح.

وأخيراً رأى مولانا البابا ، بعد المناقشات الطويلة من كلا الجانبين ، أنه لا يمكن اتفاق الفريقين على تثبيت شخص واحد ، وأن الانتخابين معاً قد عملاً بشكل غير نظامي، وليس وفقاً لمراسيم القوانين المقدسة ، وبناء عليه واعتماداً على نصيحة كرادلته، قام فألغى الانتخابين ، ووضع حرمانا رسولياً على الفريقين ، وأمر بقرار حكم محدد أنه لا يجوز لأي منهما التقدم لنيل مرتبة رئاسة الأساقفة .

ترقية المعلم ستيفن لانغتون وتكريسه

ومع إلغاء الانتخابين المتقدمين ، لم يرغب مولانا البابا بالسماح لقطيع الرب بالبقاء مدة أطول من دون رعاية راعي أبرشية ، فأقنع رهبان كانتربري الذي مثلوا بحضرته كمرافعين في مسألة كنيسة كانتربري، بالقيام بانتخاب المعلم ستيفن لانغتون Langton ، وكان هناك كاهناً كاردينالا، وكان — كما قلنا — با رعاً في العلوم الأدبية، ومستقيماً، ومصقولاً في أخلاقه، وأكد أن ترقية ذلك الرجل سوف تكون مفيدة جداً الى الكنيسة الانكليزية كلها، ومثل ذلك الى الملك نفسه، وأجابه الرهبان وأوضحوا له، انهم لا يمتلكون التخويل، إلاّ بموافقة الملك، وباختيار الكهنة وبالتالي لا يستطيعون الموافقة على انتخاب أي شخص ، أو القيام بانتخاب من دونهم، وقال لهم البابا ، وكأنه يلقي على مسامعهم كلاماً قالوه:« إنكم تظنون أنكم تمتلكون سلطات مطلقة في كنيسة كانتربري، وإنه ليس من المعتاد انتظار موافقة الأمراء فيما يتعلق بانتخابات تعمل لدى الكرسي الرسولي ، ولذا آمركم بحكم طاعتكم، وتحت عقوبة الحرمان والتكفير من قبلنا،، آمركم أنتم الذين هنا، مهما كان عددكم ووضعكم — ففي ذلك كفاية تامة للقيام بالانتخاب— أن تقوموا بانتخاب الرجل الذي أعطيناكم إياه، ليكون رئيس أساقفة لكم، وأباً ، وراعياً لأنفسكم»،

ولم يتجرأ الرهبان على مواجهة قرار الحرمان الكنسي ، وأعطوا موافقتهم، بالاكراه وهم يتذمرون، وكان الوحيد بينهم الذي لم يوافق هو المعلم اليـاس دي برانتفيلد Brantfield ، الذي جاء من جهة الملك، وجهة أسقف نورويك ، وأنشد بقيتهم :« Te Deum »، وحملوا رئيس الأساقفة المنتخب الى المذبح، وبعد هذا تلقى التكريس من البابا المذكورفي مدينة فيتربو Viterbo، في السابع عشر من حزيران.

كيف بعث البابا انوسنت رسائل الى ملك انكلترا يطلب منه استقبال ستيفن لانغتون المكرس بمثابة رئيس للأساقفة

بعد تسوية هذه القضية ، بعث البابا انوسنت رسائل الى ملك انكلترا، يسأله برفق واخلاص أن يستقبل بلطف المعلم ستيفن لانغتون الذي هو كاردينال كاهن للقديس خريسوجونوس Chrysogonus والذي انتخب بشكل قانوني الى رئاسة أساقفة كانتربري والذي يعود أيضاً بأصوله الى مملكته ، وهو لم ينل لقب معلم في العلوم الدنيوية فقط ، بل هو دكتور في اللاهوت، وبما أن حياته وأخلاقه قد تفوقت على عظمة تعليمه ، فإنه بسماته سوف يكون ذا فائدة كبيرة الى روح الملك، وكذلك الى شؤونه الدنيوية.

وهكذا سعى البابا عن طريق حجج من هذا النوع وبعبارات مماثلة لطيفة ، أن يبذل قصارى جهده لاقناع الملك ونيل موافقته، وقام برسائله الى رئيس الرهبان وإلى الرهبان في كانتربري ، فأمرهم بحكم طاعتهم ، باستقبال رئيس الأساقفة المتقدم الذكر، بمثابة الراعي لهم، وأن يطيعوه بتواضع في المسائل الدنيويةوكذلك في القضايا الروحية،وعندما أخيراً وصلت رسائل مولانا البابا الى علم الملك الانكليزي، غضب الى أقصى الحدود بسبب ترقية ستيفن لانغتون، وكذلك بسبب الغاء انتخاب أسقف نورويك، واتهم رهبان كانتربري

بالخيانة، وقال بأنهم فعلوا ذلك لأنهم تجاوزوا حقوقه فانتخبوا نائب رئيس الرهبان من دون إذنه، ثم انهم بعد ذلك قاموا حتى يلطفوا غلطتهم بإعطائه ترضية، فانتخبوا أسقف نورويك وأنهم أيضاً تسلموا مالاً من الخزانة من أجل نفقاتهم، في سبيل الحصول على تثبيت انتخاب الأسقف المذكور من الكرسي الرسولي ولكي يكملوا عدوانهم، انتخبوا هناك ستيفن لانغتون ، الذي هو عدو مكشوف له، وحصلوا على تكريسه في رئاسة الأساقفة ، وبناء على ما حدث، أرسل الملك المذكور ، وهو يشتعل غضباً وانزعاجاً: فولك دي كانتلو Cantelu وهنري دي كورنهل Cornhill ، وكانا أكثر الفرسان وحشية ولاانسانية، مع اتباع مسلحين ، للقيام بطرد رهبان كانتربري، وكأنهم مذنبين بجريمة ضد جلالته المكلومة، وأن يكون الطرد من انكلترا، أو إنزال عقوبة كبرى ، وبادر هذا الفارسان بكل سرعة الى إطاعة أوامر مولاهما،وانطلقا نحو كانتر بري، ودخلا الى الدير بسيوف مجردة، وأمرا رئيس الرهبان بقسوة بأن يغادر هو والرهبان مملكة انكلترا على الفور ، بحكم كونهم خونة لجلالته الملكية، وأكدا باليمين بأن (الرهبان) إذا ما رفضوا فعل هذا ، سوف يلقيان بنفسيهما النار في الدير، وفي المكاتب المتصلة به ، ولسوف يحرقان الرهبان أنفسهم مع مبانيهم ، وتصرف الرهبان بشكل لاعقلاني، وغادر وا الدير من دون مقاومة، ومن دون أن يمدوا أيديهم ضد أي انسان، ولقد غادروا جميعاً باستثناء ثلاثة عشر مريضاً ،كانوا راقدين في المصحة، وغير قادرين على السير، ولقد عبروا مباشرة الى فلاندرز، حيث جرى استقبالهم بحفاوة من قبل راعي دير القديس بيرتينوس Bertinus وفي ديرة أخرى في القارة، وجرى بعد ذلك بناء على أوامر من الملك — وضع بعض الرهبان من طائفة القديس أوغسطين محلهم في كنيسة كانتر بري ، ليقوموا بالواجبات هناك، وتولى فولك المتقدم الذكر تدبر توزيع ومصادرة

جميع ممتلكات الرهبان أنفسهم ، وفي الـوقت نفسه بقيت أراضيهم مع أراضي رئيس الأسـاقفـة من دون زراعـة، وحـدث طرد الـرهبـان المتقدم ذكرهم من ديرهم ونفيهم في الرابع عشر من تموز.

كيف ارسل ملك انكلترا رسائل تهديد الى البابا

وبعدمـا نفى الملك جون رهبان كـانتربري على هذه الصورة، بعث رسـلاً مع رسـائل البـابا ، اتهمـه فيهـا بعبـارات تهديدية بأنه قـام بشكل مهين بإلغـاء انتخـاب أسقف نورويك، وأنه كـرس رئيسـاً للأساقفة في كانتربري ستيفن لانغتون ، وهو رجل غير معروف لديه، لكنه معـروف منذ وقت طويـل، ومشهـور بعـداوته المعلنة في المملكة الفرنسية، ومما زاد وضاعف الاعتداء عليه وعلى التعرض للامتيازات العائدة لتـاجه ، أن موافقته، لم تعتمد بشكل أصـولي على سؤال الرهبان وأخذ مـوافقتهم ، وهم الرهبان الذين يحق لهم الانتخـاب، بل إن البابا أعطى بوقاحـة الحق بالاقدام على ترقية ستيفن هذا نفسـه، وأكد الملك أن عجبه بلا نهايةوكذلك دهشته، كيف أن البابا ، وكذلك بلاط روما كله، لم يتذكروا ما فيه الكفاية مكانة الملك الانكليزي بالنسبة للكرسي الرومـاني حتى الآن ، ولا المنافع التي حصل عليهـا هذا البـلاط من مملكة انكلترا ، ذلـك أن هذه المنـافع أكثـــر من منـافع جميـع البلدان الأخرى القائمـة على هذا الجانب من الألب، وأكثر من هذا أضاف بأنه سوف يقف مدافعاً عن حقوق تاجه، إذا كان ذلك ضرورياً حتى الموت، وأعلن أنه لن يتـزحزح ، ولا يمكن تحويله عن انتخـاب أسقف نورويك وترقيته، الذي يعرف أنه سيكون مفيداً له شخصياً ، وأوجز أخيراً القضية أنه إذا لم ينظر الى مصالحه في القضايا الخارجية، فلسوف يغلق الطريق البحـري في وجـه جميـع الذاهبين الى رومـا ، وبذلك لن تفرغ مناطقه من ثرواتها ، وهو لن يكون نفسه بذلك أقل قدرة على طرد أعــدائـه مـن هذه المناطق، لاسيما وأن هناك كثيراً من رؤســاء

الأسـاقفــة، والأسـاقفـة وكهنة آخــرين للكنيسـة في انكلترا، كما في مقاطعـاته الأخرى، وهم جميعـاً مزودين بجميع أنواع المعـارف، إذا ما أرادهم ، ولذلك هو لـن يستجـدي العـدالة والقضـاء مـن الغـرباء خارج ممالكه ولدى عرض هذا كله على البابا من قبل الرسل ، كتب ذلك الحبر الأعظم جواباً له كما يلي:

جواب مولانا البابا إلى الملك الانكليزي

«من انوسنت، عبـد عبيـد الرب، إلى ولده المحبـوب بالرب ، اللامع جـون، ملك الانكليز، الصحـة والمباركـة الرسـولية، عندمـا كتبنا اليك حـول قضية كنيسـة كانتربري، كتبنا بتـواضع وبحرص، وباثارة لطيفـة وطالبناك — إذا جـاز لي أن أقول — بكل احترام لسموك، وقـد كتبت جواباً لنا بتمـرد وعصيان ، وبتهديد، وبمـلامة، وفي الوقت الذي أبدينا فيه نحوك احتراماً أكثر مما ينبغي، أظهرت نحونا احتراماً أقل مما ينبغي، لأنه إذا كـان ولاءك ضروري جـداً لنا، يبقى احترامنا ليس أقل فـائـدة لك، ومع اننـا في مثل هذه الحالات لم نقـدم احترامــاً إلى أي أمير مثل الذي قدمناه إليك، لقد بذلت جهدك لانقـاص كرامتنا بطريقة لم يفعلها أي أمير في مثل هذه القضيـة، أو فكر أن يفعـل، ولقـد عـرضت بعض التعليلات التافهة، أكدت بها بأنك لن تعطي موافقة على اختيارنا لولدنا المحبـوب، المعلم ستيفن ، الذي يحمل لقـب كـاردينال كـاهن القـديس خريسوجـونوس لأنه كان من قبل صديقاً لأعـدائك، ولم يكن شخصياً معـروفـاً لديك، عـلاوة على هذا، كما قـال مثل سليمان:«ألقيت الشبكة عبثاً أمام عيون الطيـور » حيث أننا نعلم ان ما عددته له ذنباً، ينبغي ان يعـدّ له مجداً، لأنه عنـدمـا كـان لبعض الوقت في بـاريس، كـان يدرس الفنون الحرة، ولقد أحرز في ذلك تقدمـاً استحق عليه لقب استاذ، ليس في ميدان المعارف المدنيـة فحسب، بل في مجال العلوم اللاهوتية ،وهكذا بما ان حياته تـوافقت مع عقائده، أجيـز بمركـز كاهن فخـري في كنيسة

باريس، وبناء عليه، انه لأمر عجيب بالنسبة لنا، كيف ان رجلاً بمثل هذه الشهرة، ومستمد لأصوله من مملكتكم ، غير معروف لديكم، حسبما جاء في تقريركم، فكيف ذاك خاصة عندما كتبتم له ثلاث مرات، بعد ترقيته من قبلنا إلى مرتبة كاردينال، وأنكم كنتم على استعداد لدعوته إلى خدمتكم، وكنت مسروراً لترقيته إلى مرتبة عليا، ونلفت هنا انتباهكم، انه قد ولد في مملكتكم من أبوين كانا مخلصين ومحبين لكم، وأنه عمل كاهناً في كنيسة يورك، التي كانت أعظم بكثير، وأعلى في مقامها من كنيسة باريس، هذا ولقد تبرهن ليس بسبب الجسد والدم، لا بل بشغله مقاما لاهوتيا ومنصبا ، انه بعواطفه أكثر اخلاصاً لك ولمملكتك، لكن رسلك أعطونا سبباً آخر لعدم موافقتك على انتخابه، وكان سبباً واقعياً، لأنك لم تسأل عنه من قبل الذين توجب أن يسألوا موافقتك عليه، وقد أوضحوا بأن الرسائل التي أمرناك فيها، أن ترسل وكلاء مناسبين إلينا حول هذه المسألة، لم تصل اليك، وأن رهبان كانتربري، وإن كانوا قد ظهروا أمامك، حول شأن آخر، لم يرسلوا رسائل أو رسلاً يطلبون موافقتك على هذه المسألة، وبناء عليه سألنا الرسل أنفسهم باخلاص كبير، انه إذا كان يرضينا أن نحفظ إليك شرف وجوب قيام رهبان كانتربري بطلب موافقة ملكهم، وبما أن ذلك لم يعمل ، ينبغي أن نمنح تأخيراً مناسباً لعمل ذلك، حتى لا يحدث أي انتقاص من حقوقك، وقدموا أخيراً شيئاً ما ضد شخص رئيس الأساقفة المنتخب، وهو أمر عمل علانية ، وكان من المتوجب حبس ألسنتهم عن قوله خاصة —لو أن ذلك كان صحيحاً— لا يمكن أن يعوق انتخابه، ومع أنه ليس من المعتاد عند عمل انتخاب لدى الكرسي الرسولي، انتظار موافقة أي أمير ، لقد جرى ارسال راهبين إليك، لمقصد خاص، هو طلب موافقتك ، لكنهما حجزا في دوفر، ولذلك لم يكونا قادرين على تنفيذ مهمتهما، وأما الرسائل حول الوكلاء، فقد سلمت بحضورنا إلى رسلك ، لكي يقوموا باخلاص بتسليمها إليك،

ونحن أيضاً الذين نمتلك سلطة كـاملة على كنيسة كانتربري نفسهـا، قد تنازلنا لطلب حظوة ملـك، ورسـولنا الذي سلم الرسـائـل الرسـوليـة إليك، سلمك أيضـاً رسائل رئيس الـرهبان والرهبـان الذين عملوا — بناء على أوامـر الهيئة الكهنوتيـة كلهـا لكنيسة كـانتربري —الانتخـاب المتقـدم ذكره، وقـد كتب هؤلاء في رسـائلهم إليك يطلبون مـوافقتك ، وبناء عليه إننا لا نرى أن نقوم ثانيـة، بعد كل هذه التصرفات ، فنطلب الموافقة الملكيـة ، ذلك أننا نسعى ، دون أن نميل إلى يمين أو يسار، لأن نعمل مـا تأمـربه القوانيين الشرعيـة للآباء المقـدسين أن يعمل، حتى لا يكون هناك تأخير أو مصاعب في عمل الترتيبات الموائمة، لكي لا يبقى قطيع الرب أي مـدة أطول من دون رعـايـة راعي، ولذلك ينبغي أن لا يكون هنـاك أي اقتراح إلى كيـاستـك الملكيـة أو حكمتـك ، في أننا سننحـرف عن اتمام هذا العمل ، وبما أن انتخـابات قانونيـة قـد عملت وفقاً للنظام من دون تزييف أو مكر ، وذلك لشخص مناسب ، وهنا لا يمكننا من دون أن نفقـد اسمنا الجيـد وسمعتنا ، وتعـريض ضميرنا للخطر ، إذا قمنا بتأخير اكمالها ، وبنا ءعليه يـا ولدنا المحبوب، الذي في سبيل كـرامتـه قدمنا تنازلات أكثـر مما ينبغي أن نقـدم، اسع لأن تقـدم احترامـاً مناسباً لكرامتنا ، حتى تنـال جزاء أوفى من نعمـة الرب ، ومن حظوتنا ، إنما إذا مـا تصرفت بشكل معـاكس ، فإنك سـوف تجلب على نفسك المتاعب وتضعهـا في مصاعب ، لن تتخلص منهـا بسهولة، لأنها ستكون متعلقة بالذي هو الأعلى، والذي له تنحني كل ركبة، من الذين هـم في السماء ، وعلى الأرض، وتحت الأرض، والـذي أعمالـه على الأرض نحن —مع أننـا لا نستحق — جـرى تعيننا لتنفيـذها ، وبناء عليـه لا تذعن لخطط الذين هم متشـوقون دومـاً لخلق الاضطراب لك حتى يمكنهم أن يصطادوا أفضل في الميـاه المضطربة ، بل اعهـد بنفسك إلى رعـايتنا الطيبـة، التي هي مـن المؤكـد تميل نحـو الثناء عليك ونحـو مجدك وكـرامتك، لأنه لن يكون سلبياً بالنسبـة لك في هذه القضيـة ، أن

تظهر مقاومة للرب، وللكنيسة، التي في سبيلها سفك منذ أمد وجيز، الكاهن الأعلى توماس، الشهيد المبارك ، دمه ولا سيما أيضاً أنه منذ أيام والدك وأخوك، صاحب الذكرى البهية ، قد جرى عندما كانا ملكين لانكلترا، إزالة هذه العادة الشريرة ، من أمام مندوبي الكرسي الرسولي ، ونحن إذا ما أذعنت بتواضع صحيح واستجبت لرغبتنا، سوف نهتم أن لا يلحقك أذى في هذه القضية، صدر في اللاتيران، في السنة العاشرة لبابويتنا».

وفي هذا العام نفسه ، في يوم عيد القديس ريميغيوس Remigius ولدت الملكة ايزابيل ملكة الانكليز للملك جون ، أول أولادها، وقد أطلق عليه اسم هنري، لأن ذلك كان اسم جده.

خسوف للقمر

عام ١٢٠٨م ، فيه احتفل الملك جون بعيد الميلاد ، في وندسور، حيث وزع ثياب العيد بين فرسانه، وحدث في اليوم الذي أعقب يوم طهارة القديسة مريم خسوف للقمر، ظهر أولاً على شكل لون أحمر دموي، وفيما بعد على شكل داكن ، وفي تلك الآونة نفسها سدد كل من فيليب أسقف درم وغيوفري أسقف شيستر دين الطبيعة، وفي هذا العام أيضاً ولدت الملكة ايزابيل ولداً شرعياً للملك جون سمته رتشارد.

تحذير ملك انكلترا من قبل مولانا البابا

في هذا العام نفسه ، بعدما علم البابا بأن قلب الملك جون قد ازداد قسوة، إلى حد أنه لابالاقناع ولا بالتهديد سيقنع ويذعن لاستقبال ستيفن كرئيس لأساقفة كانتربري، انزعج كثيراً ، وشعر بالحزن في قلبه، وقام بناء على نصيحة كرادلته، فأرسل أوامر إلى وليم أسقف لندن ، ويوستاس أسقف أوف ايلاي ، وموغر Mouger أسقف وينكستر، بالذهاب إلى الملك المذكور، حول قضية كنيسة كانتربري ، وأن يقدموا

له نصيحة شاملة كي يتراجع أمام الرب في هذه القضية ، فهو بذلك سوف ينال حظوة المولى، لكن إذا ما وجدوه متمرداً وعاصياً ، كما هو حتى الآن، فقد أمرهم ان ينزلوا عقوبة الحرمان من شركة المؤمنين على انكلترا كلها، وأن يشجبوا الملك المذكور، وإذا لم يتوقف عن وقاحته بتلك الوسائل فهو — أي البابا— سوف ينزل به ضربة أكثر قسوة، لأنه من الضروري بالنسبة له قهره، فهو من أجل سلامة الكنيسة المقدسة ، قد أعلن الحرب وشنها ضد الشيطان وزبانيته، ودمر أجنحة الجحيم، وأعطى أيضاً بوساطة رسائل الكرسي الرسولي أوامر إلى نواب أساقفة كانتربري ، وإلى الكهنة الآخرين التابعين لتلك الأبرشية، أن عليهم بحكم طاعتهم ، استقبال رئيس الأساقفة المذكور كأب وكراعي، وأن يطيعوه بكل اخلاص.

كيف وضعت انكلترا تحت حرمان كامل من شركة المؤمنين

وتنفيذاً للمهمة الموكلة من البابا إلى أساقفة: لندن، وإيلاي، ووينكستر، ذهبوا إلى الملك جون ، وبعدما عرضوا بشكل صحيح الأوامر الرسولية ، توسلوا إليه بتواضع، وهم يبكون، أن يضع الرب أمامه، ويقوم باستدعاء رئيس أساقفة كانتربري والرهبان إلى كنيستهم، وأن يقدم التكريم والحب لهم بعاطفة كاملة، وأخبروه أن ذلك سوف يجنبه عار انزال عقوبة الحرمان من شراكة المؤمنين، ثم إن المكافآت التي سوف ينالها —إذا فعل ذلك — هي مضاعفة لكرامته الدنيوية، ولسوف يضفي عليه بعد موته مجداً سرمدياً ، وعندما رغب الأساقفة المتقدم ذكرهم صدوراً عن التقدير للملك، إطالة الحوار، صار الملك أشبه بالمجنون لشدة غضبه، وانفجر يتفوه بكلمات التجديف ضد البابا وضد كرادلته، وأقسم باسم الرب، انه إذا ما تجرأوا هم أو أي كاهن مهما كان، على وضع ممتلكاته تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، فإنه سوف يرسل جميع أساقفة انكلترا والكهنة والأشخاص من المكرسين إلى

البابا، ولسوف يصـادر جميع ممتلكاتهم، وعلاوة على هذا أضاف ان جميع رجـال الدين التـابعين لرومـا أو للبـابا نفسـه، الذين سـوف يجدهم في انكلترا، أو في مقاطعـاته الأخرى، سوف يرسلهم إلى رومـا، وقد قلعت أعينهم وجـدعت أنوفهم، حتى يمكن أن يعرفـوا بهذه العلامـات هناك ويجري تمييزهم عن الناس الآخـرين، وزيادة على ما تقدم أمر الأسـاقفة بشكل جلي أن يحملوا أنفسهم بكل سرعـة، وان يغربوا عن وجهـه، إذا ما رغبوا بالحفاظ على أجسادهم وعـدم تعريضها للأذى، وعندما لم يجد الأساقفة أية توبة لدى الملك ، غادروا، وقاموا أثناء الصوم الكبير التالي، دونما خوف ، بتنفيـذ الواجب الذي طلبه منهم البابا ، وبناء عليـه ألقوا في صبـاح يوم الإثنين، في اسبـوع الآلام، الـذي حل في ذلك العـام، في الثالث والعشرين من آذار ، حـرماناً عامـاً من شراكة المؤمنين، على جميع انكلترا، وبما أن هذه العقوبة قد صدرت بموجب سلطات مولانا البابا، فقـد جـرى الالتـزام بها ، دون الاهتمام بالأشخـاص أو الإمتيـازات، ولذلك توقفت جميع العبادات الكنسيـة عن الممارسة في انكلترا، باستثناء الاعتراف وتناول القـربـان في الحالات القصـوى، وكـذلك تعميـد الأطفـال، وحملت جثث الموتى أيضاً إلى خـارج المدن والبلدات ودفنت على الطرقـات والخنادق ، من دون صلـوات، أو حضـور للكهنة ، فهل أنا بحاجة لذكر المزيد ؟وغـادر الأساقفة: وليم أسقف لندن، ويوستاس أسقف ايلاي، وموغر أسقف وينكستر، وجوسلين أسقف باث، وجايل أسقف هيرفورد ، انكلترا بشكل سري، معتقـدين انه من الأفضل تجنب غضب الملك الحانق لبعض الوقت ، بدلاً من الاقـامة من دون إحـداث أي تأثير مفيد في بلاد واقعة تحت الحرمان من شراكة المؤمنين.

كيف صادر الملك جون بسبب الحرمان ممتلكات رجال الدين

وقـام ملـك انكلترا وهو يشعـر بغضب عظيم، بسبب الحرمـان من شراكـة المؤمنين ، فبعث عمـد مناطقـه والموظفين الآخـرين للتفتيش،

بعثهم إلى جميع أرجاء انكلترا، معطياً أوامر مع تهديدات مرعبة إلى جميع رجال الدين والذين هم خاضعين لهم، بوجوب مغادرة انكلترا على الفور ، وأن يطلبوا منحه العدل من البابا لما لحقه من هذا الأذى، وأعطى أيضاً هذه الأوامر إلى جميع الأسقفيات ، ورعاة الديرة ، ورؤساء الرهبان ، والمسؤولين من العلمانيين، وأمر أيضاً بمصادرة جميع موارد كل اللاهوتيين، لكن كان رجال مجمع اللاهوتيين لانكلترا قد حولوا انتباههم بحذر إلى هذا الأمر، ورفضوا التخلي عن ديرهم، ما لم يتم طردهم بالعنف ، وعندما وجد وكلاء الملك هذا الوضع لم يرغبوا باستخدام العنف نحوهم، لأنهم لم يحملوا ترخيصاً من الملك للقيام بذلك لكنهم حولوا جميع ممتلكاتهم، إلى الإستخدامات الملكية، وأعطوهم القليل من علاوات الخبز والملابس من ممتلكاتهم، وجرى خزن جميع قمح رجال الدين في كل مكان ومنعه عنهم، وتحول لصالح الخزانة ، وأخذ عبيد الملك خليلات الكهنة ورجال الدين وأرغموهم على دفع فدية عن أنفسهن عالية جداً، ولدى العثور على رجال دين أو أشخاص مكرسين من أي نوع، على الطرقات وهم مسافرين، جردوا من خيولهم، وسلبوا وعوملوا بشكل مهين جداً من قبل زبانية الملك، وما من أحد منحهم العدالة، وفي هذه الآونة قدم بعض عبيد أحد العمد من منطقة تخوم ويلز إلى الملك ومعهم لص معتقل يداه مربوطتان خلفه، لأنه كان قد سلب كاهناً وقتله على الطريق، وسألوا عن رغبة الملك في التعامل مع هذا اللص في هذه القضية ، فأجابهم الملك على الفور«إنه قد قتل عدواً لي ، أطلقوا سراحه، ودعوه يذهب »، وبالنسبة إلى رؤساء الأساقفة والأساقفة الذي وضعوا انكلترا تحت الحرمان من شركة المؤمنين، فقد جرى اعتقالهم حيثما تم العثور عليهم، وسلبهم من جميع ممتلكاتهم وسلعهم، وألقي بهم في السجن، وبينما كان الناس يعيشون في ظل هذه الشرور ويعانون منها ، كان الأساقفة المتقدم ذكرهم يقيمون في القارة، ويعيشون على جميع أنواع الطيبات، عوضاً

عن وضع أنفسهم سوراً لبيت الرب، وذلك كما قال المخلص:«عندما شاهدوا الذئب قادماً ، تخلوا عن الشياه وهربوا».

كيف تلقى الملك جون ولاء نبلاء انكلترا

وفي وسط هذه الاجراءات غير التقية وما يماثلها ، ولما نجم عنها من آثار بات الملك جون خائفاً انه بعد قرار الحرمان من شراكة المؤمنين، ان يقوم مولانا البابا ، فينزل به عقوبة أشد، بحرمانه كنسيا بالاسم، أو بتحليل نبلاء انكلترا من الولاء له ، وذلك حتى لا يفقد حقوقه بالسيادة ، أرسل رجالاً مسلحين إلى كل واحد ذي مرتبة في انكلترا، ولا سيما إلى الذين كانوا يرتاب بهم، وطلب رهائن منهم يمكنه بوساطتهم، إذا ما جرى مع مرور الوقت حرمانه من ولائهم، أن يستدعيهم لأداء طاعتهم له كما ينبغي، وأذعن كثيرين إلى مطالب الملك وأعطى بعضهم إلى رسله أولادهم، وبعضهم أحفادهم، أو بعض أقربائهم الجسديين ، وعندما جاءوا أخيراً إلى وليم دي بروز Brause وكان رجلاً من أصل نبيل ، وطلبوا رهائن منه، كما أخذوا من الآخرين، قامت ما تيلدا زوجة وليم المذكور مع مجموعة من النساء الجريئات بإجابة الرسل ما قلن سمعنه من فمه:« إنني لن أرسل أولادي وأسلمهم إلى مولاكم، الملك جون، لأنه قتل بدناءة ابن أخيه آرثر، الذي كان من المتوجب عليه الاعتناء به وتشريفه»ولدى سماع زوجها كلامها هذا انتقدها، وقال:«لقد تحدثت مثل امرأة حمقاء ضد مولانا الملك، لأنني إذا كنت قد أغضبته في أي شيء فإنني سأكون على استعداد لتقديم ترضية إلى مولاي من دون رهائن وذلك وفقاً لقرار محكمته وأتباعي من البارونات، إذا ما شاء ان يحدد موعداً ومكاناً لمثل هذا العمل»، ولدى عودة الرسل إلى الملك، أخبروه بالذي سمعوه، ولقد غضب من ذلك غضباً شديداً، وبعث بشكل سري بعض الفرسان مع أتباعهم لاعتقال وليم وأسرته، لكن وليم كان تلقى التحذير من

بعض أصدقائه، فهرب مع زوجته، وأولاده ، وأقربائه إلى ايرلندا.

وفي هذا العام نفسه ، توقف الرهبان البيض ، بناء على صدور قرار الحرمان من شركة المؤمنين ، عن القيام بأعمالهم، لكن بعد ذلك استأنفوا القيام بممارسة واجباتهم المقدسة ، بناء على أمر راعيهم الرئيسي ، لكن هذا الاستئناف وصل إلى مسامع الحبر الأعظم ، فجرى توقيفهم وتعليقهم عن ممارسة أعمالهم، مما سبب لهم اضطراباً كبيراً.

كيف أرسل ملك الانكليز مبلغاً كبيراً من المال إلى ابن أخته أوتو

عام ١٢٠٩م ، فيه كان الملك جون في بريستول أيام الميلاد، ومنع هناك امساك الطيور في جميع أرجاء انكلترا ، وجاء بعد هذا هنري دوق سوابيا من عند أوتو ملك ألمانيا ، إلى انكلترا لرؤية الملك جون ، وبعدما تلقى مبلغاً من المال لاستخدامات أوتو المذكور عاد إلى وطنه ثانية، وفي هذا العام أيضاً ، جرى —بناء على وساطة ستيفن رئيس أساقفة كانتربري—السماح بإقامة الوظائف اللاهوتية مرة في الاسبوع ، ومنح ذلك إلى الكنائس الديرية في انكلترا، لكن الرهبان البيض منعوا من القيام، بهذا العمل لأنهم وإن كانوا قد تمنعوا مع بداية الحرمان عن أداء الواجبات الدينية ، قاموا فيها بعد بناء على أوامر راعيهم الرئيسي، فاستأنفوا أعمالهم، من دون استشارة البابا.

وفي هذه الآونة، تم رسم لويس بن فيليب ملك فرنسا، وابنه الأول وولي عهده الشرعي فارساً بحزام ، وتولى رسمه والده في كومبين، مع مائة نبيل معه .

كيف دخل ملك الانكليز بمعاهدة تحالف مع ملك الاسكوتلنديين

وحشد في هذه الآونة الملك جون قوة كبيرة ، ووجه سلاحه ضد سكوتلاندا ، وعندما وصل في كونتية نورثأمبرلاند إلى قلعة اسمها نورهام Norham صف هناك جيشه وأعده للقتال ضد ملك الاسكوتلنديين ، وعندما علم الملك الاسكوتلندي بذلك بات خائفاً من الاشتباك، لأنه كان يعرف نزعة الملك إلى جميع أنواع الوحشية ، ومع ذلك قدم لمواجهة ذلك الملك للتباحث من أجل السلام ، ولكن بما ان ملك انكلترا كان مغضباً ، فقد وجه اللوم إليه لأنه استقبل في مملكته الرعايا اللاجئين من مملكته، مع أعدائه المعلنين ، وقدم لهم المساعدة وأبدى اللطف نحوهم ، لاغضاب الملك الانكليزي وازعاجه، وعلى كل حال ، بعدما طرح جون جميع هذه القضايا أمام ملك الاسكوتلنديين المذكور ، دخلا في اتفاقية بموجبها كان الملك الاسكوتلندي سيدفع إلى الملك الانكليزي اثني عشر ألف مارك من الفضة كضمانة للسلام، وعلاوة على ذلك وكضمانة أفضل للسلام ، سوف يسلمه ابنتيه كرهينتين حتى يكون السلام بهذه الوسيلة ، أكثر تأكيداً بينهما، ثم غادر الملك جون من القلعة المتقدم ذكرها ، في الثامن والعشرين من حزيران ، وأعطى أوامره بإحراق جميع الأسيجة ، وبطم جميع الخنادق في جميع أرجاء غابات انكلترا ، حتى تكون المراعي مفتوحة من أجل رعي المواشي ، وتلقى بعد هذا الولاء من جميع مواليه الأحرار ، وشمل ذلك حتى الأطفال أبناء الاثني عشر عاماً في جميع أنحاء المملكة ، وبعد ما قدموا الولاء ، استقبلهم بقبلة السلام ، ثم صرفهم ، والأمر الذي لم يسمع به من قبل في العصور الماضية ، هو أن الويلزيين جاءوا إلى الملك في وودستوك وقدموا له الولاء ، مع أن ذلك كان مرهقاً للغني وكذلك للفقير.

وجرى في هذا العام نفسه تكريس أوتو ابن أخت ملك انكلترا ، امبراطوراً في روما من قبل البابا انوسنت في الرابع من تشرين الأول.

وفي هذه الآونة قتل واحد من الكهنة ، كان يدرس في اكسفورد الفنون الحرة ، امرأة بحادث عرضي وعندما رآها ميتة ، بحث عن نجاته بالفرار ، ولدى اكتشاف عمدة المدينة مع أشخاص آخرين معه ، المرأة الميتة ، بدأ بالبحث عن القاتل في بيته ، الذي كان مستأجراً له، مع ثلاثة من رفاقه الآخرين ، وتولى اعتقال رفاقه الرهبان الثلاثة ، الذين كانوا جاهلين تماماً بمسألة القتل ، وألقى بهم بالسجن ، وبعد مضي عدة أيام ، أخذوا بناء على أمر من الملك — في تحد منه لحقوق الكنيسة — إلى خارج المدينة وشنقوا، وبناء عليه، انسحب الكهنة من اكسفورد، وكان عددهم ثلاثة آلاف ما بين طالب ومعلم ، وبناء على ذلك لم يبق أحد في الجامعة كلها ، وذهب بعض هؤلاء إلى كمبردج ، وآخرون إلى ردنغ، لمتابعة دراساتهم ، وبذلك تركوا مدينة أكسفورد شاغرة.

وجرى في العام نفسه انتخاب هيوج ، رئيس شمامسه ويلز، ومستشار الملك، لشغل أسقفية لنكولن، وكان ذلك بتدبير من الملك ، وتسلم بعد الانتخاب مباشرة من الملك اشرافاً كاملاً ومطلقاً على الأمور القضائية في الأسقفية كلها.

كيف جرى حرمان الملك جون كنيساً بالاسم

كان الآن قد مضى قرابة العامين على الملك جون ، وهو على حاله كما كان من قبل ، واستمرت الأوضاع الصعبة في جميع أرجاء انكلترا ، بسبب الحرمان من شركة المؤمنيين ، واستمر هو في المطاردة الحادة والتعذيب ضد رجال الدين ، وكذلك ضد بعض العلمانيين ، وقد دمر تماماً كل أمل لدى كل انسان في حدوث أي تحسن أو ترضية ، ولم يعد بامكان البابا انوسنت تأجيل العقوبة على عصيانه، ولهذا قام ، بناء على نصيحة كرادلته ، وفي سبيل إجتثاث جذور هذه الاهانة بحق الكنيسة ، فأصدر أوامره إلى أساقفة : لندن ، وايلاي، ووينكستر، إلى اعلان عقوبة الحرمان الكنسي ضد الملك المذكور بالاسم ، وأن يجري التفوه بشكل

مهيب بهذا القرار في كل يوم أحد وفي كل يوم عيد، في جميع الكنائس الديرية ، في جميع أنحاء انكلترا ، وذلك بهدف ان يصبح الملك بشكل حاسم منعزلاً عن كل انسان ، وعهد الأساقفة المتقدم ذكرهم، بموجب السلطات الرسولية باعلان هذا القرار، إلى الأساقفة أتباعهم ، الذين بقيوا في انكلترا، وإلى بقية رجال الكنيسة ، لكن هؤلاء من خلال الخوف ، أو التقدير للملك ، أصبحوا أمثال كلاب خرساء ، لا يتجرأون على العواء ، وبذلك تخلوا عن القيام بواجباتهم الملقاة على عواتقهم بموجب الوصاية الرسولية ، وأخفقوا في السير وفقاً نحو السبيل المعتاد للعدالة ، ومع ذلك صار القرار في وقت قصير معروفاً من قبل الجميع في الطرقات والشوارع، لا بل حتى في أماكن تجمعات الناس ، ووفر موضوعاً للمحادثات السرية بين الجميع، وكان من بين الناس غيوفري، رئيس شمامسة نورويك ، فقد كان في أحد الأيام جالساً في الخزانة في وستمنستر يتولى القيام بأعمال الملك ، فشرع يتكلم بشكل سري مع مرافقيه، الذين جلسوا معه ، وكان موضوع حديثهم القرار الذي صدر ضد الملك ، فقال انه ليس من السليم للناس المستقيمين المحافظة أية مدة أطول على ولائهم إلى ملك محروم كنسياً ، وبعد ما قال هذا ، ذهب إلى بيته ، دون ان يطلب إذن الملك ، ووصلت أخبار هذه الحادثة فوراً إلى مسامع الملك، فغضب غضباً شديداً، فبعث الفارس وليم تالبوت Talbot مع بعض الجنود لاعتقال رئيس الشمامسة ، وبعد اعتقاله غلوه بالأغلال ، وألقوه في السجن، وبعدما أمضى هناك بضعة أيام ، وضعوا على رأسه خوذة من الرصاص ، وذلك بناء أوامر من الملك ، وبعد أمد قهره الجوع والحاجة إلى الطعام مع وزن الخوذة الرصاصية ، ففارق إلى الرب .

حول النصيحة الشريرة للاسكندر الشرير

نال في أيام الحرمان ، لاهوتي مزيف، اسمه المعلم الاسكندر ، ولقبه

ماسـون الحظوة Mason الحظوة لدى الملك ،وقـد آثار بمواعظه الظالمة الملك إلى أبعـد الحدود، للتصرف بشكـل وحشي، وقـد قـال بأن هذا البـلاء العـام لم ينزل بانكلترا بسبب أي خطـأ من الملك، بل بسبب شرور رعيته، كما أعلن بأن الملك كـان عصا الرب ، وأنه عمل أميراً من أجل ان يحكم شعبه ، والرعـايا الآخرين التابعين له ، بعصـا من حديد، وان يكسرهم جميعـاً «مثل إناء فخـاري» وان يغلهم بقـوة بأغـلال ، مع نبلائه بقيـود من حديد ، وبرهن من خلال بعض المناقشـات المخادعة ، انه ليس من شأن البابا التورط بالشؤون المدنية للملوك أو لأي صاحب سلطة مهما كـان، أو بالحكومات التـابعـة لرعاياهم ، لا سيما ان مـا من شيء منح من قبـل الرب للقـديس بطرس ، إلاّ السلطة على الكنيسـة فقط، وعلى ممتلكات الكنيسة ، وبهذا وما ماثله من زيف نال مكانة لدى الملك، وحصل على عدة منافع ، كـانت قد انتـزعت من رجال الدين ، بالعنف من قبل الملك المذكـور ، لكـن حـالما وصلت شرور هذا الرجل إلى مسـامع الحبر الأعظم، حتىٰ تدبر تجريده من جميع سلعـه ومنافعـه ، وأنزله بعـد أمـد إلى درجة من التعـاسـة ، انه أرغم بسبب الحاجـة ، ان يقـوم وهو يرتدي ثياب أشـد الناس فقـراً باستجداء خبـزه من باب إلى باب ، ونظر الناس إليه بازدراء قـائلين:«انظروا إلى الرجل الذي لم يتخذ الرب معيناً له ، لكن وضع ثقته في حشود ثرواته، وقوى نفسه بعبثياته، ولذلك لتختف ذكراه أمام الرب من على الأرض ، لأنه لم يضع في ذهنه إظهـار المرحمة ولا تذكـرها، ولهذا سـوف يـدمـره الرب حتى النهـاية ، وسـوف يكون كلامـه ضده كـذنب ، وبذلك ليمح وجوده وذكـره من أرض الأحياء».

تكريس هيوج أسقفاً للنكولن

حصل في العـام نفسـه هيـوج الأسقف المنتخب للنكولن ، على إذن الملك، بالعبـور إلى فرنسـا، حتى يتمكن من الحصـول على التكريس من

رئيس أســاقفـة روان، لكنه مــاأن نزل في نورمــاندي، حتى ذهب إلى ستيفن، رئيس أساقفة كـانتربري، وبعدما قدم طاعتـه القانونية إلى ذلك الأسقف، جرى تكريسه من قبله في العشرين من كانون الأول، وعندما جــرى اكتشــاف هـذا من قبل الملك، استـــولى على الفــور على تلك الأسقفية، وحـول جميع الموارد فيها لاستخدامـاته الذاتية، كما أنه أعطى ختمه إلى وولتر دي غري، وعينه مستشاراً له، فاتخذ سرور الملك ومتعته وظيفته وعمله في إدارة جميع شؤون المملكة.

كيف أرغم اليهود على دفع فدية كبيرة

عام ١٢١٠م، فيه كان الملك جون في وندسور أيام عيد الميلاد، وكان جميع نبلاء انكلترا حضوراً ويتحـدثون معه، دون الاكتراث بقرار الحكم الصادر بحقه، وكانت اشاعة حول ذلك قد عم انتشارها في جميع أنحاء انكلترا، إنما دون إعلان، ووصلت هذه الاشاعـة إلى مسامع كل انسان، وسعى الملك إلى ايقـاع الشر بكل من حاولوا تغييب أنفسهم والابتعـاد عنه، وجرى بعد هذا بناء على أوامر الملـك، اعتقال جميع اليهود من كلا الجنسين، في جميع أرجاء انكلترا، وأودعوا السجون وعذبوا عذاباً شديداً في تنفيذ رغبات الملك، بالنسبة إلى أمـوالهم، وتخلى بعضهم بعد التعذيب عن كل مـاكان لديهم، ووعـدوا بالمزيد، وذلك في سبيل النجـاة، وأصر واحد من طائفة بريستول، حتى بعد تعذيبه بشكل مخيف، على عدم دفع فدية عن نفسه، أو وضع نهاية لآلامـه، وبناء على ذلك أمر الملك رجاله بلكمه على خـده، واقتلاع واحد من أسنانه يـومياً، حتى يدفع له عشرة آلاف مـارك فضي، وبعـدما اقتلعـوا له، خلال سبعـة أيام، سناً كل يوم مع عـذاب شـديد عانى منه اليهودي، ولدى شروعهم بالعمليـة نفسها في اليـوم الثــامن، وجـد اليهــودي نفســه مـرغـــماً على تقــديم المـال المطلـوب، وســدد المبلـغ وأنقــذ سنـه الشــامن، مع أنه كـان قـد فقـد سبعة.

الحرمان الكنسي للامبراطور أوتو

تذكـر في تلك الآونة أوتـو الامبراطور الرومـاني، اليمين الذي أداه لدى ترقيتـه إلى الامبراطورية مـن قبل البـابا، أي أنه سـوف يحافظ على كـرامـة الامبراطورية، وبقـدرما ستسمح له قـدرته سـوف يعيـد تجميع حقوقهـا الموزعة، وفي سبيل ذلك أمر بـاجراء بحث، بناء على يمين من قبل رجال قـانونيين، وذلك فيما يتعلق بقلاع مملكته، والحقـوق الأخرى العائدة إلى مقـامه الامبراطوري، وكل ماوجده عـائداً للعرش، سعى إلى تحويله لاستخـدامه الذاتي، وبهذا الصدد نشـب خلاف جدي بين البـابا وبين الامبراطور، لأنه عندما كان العـرش الامبراطوري شاغراً، استولى البـابا المذكـور، وتملك عـدة قـلاع مع أشيـاء أخـرى عـائـدة إلى الامبراطورية، وبناء عليـه، لأن الامبراطور سعى لاسترداد مـاهو عائـد إليـه، أثار كـراهيـة البـابـا، دون أن يستحق ذلك، وأغضب الامبراطور نفسـه أيضاً بشكل جـدي فريدريـك ملك صقلية، الذي كـان قد قـام، بالطريقـة نفسهـا، عندمـا كـان العـرش الامبراطوري ليس مشغـولاً، فـاستـولى على بعض الأمـاكن الحصينة، وبناء عليـه تولى البـابا المذكـور بوسـاطة الـرسل والرسـائل بشكل متـواتـر تحذير الامبراطور المذكـور، وطالبه بالتمنع عن إلحاق الضرر بكنيسة روما، وأيضاً بعدم الاقدام على تجريد ملـك صقليـة مـن ممتلكاته، لأنه مـوضـوع تحت الوصـاية الامبراطورية، ويقـال بأن الامبراطور قام بالرد على رسل البـابا قائـلاً:« إذا مـاأراد الحبر الأعظم ورغب بشكل غير عـادل بتملك حقـوق الامبراطورية، دعـوه يحررني من اليمين الـذي أرغمني على أدائـه أثناء تكريسي للمقام الامبراطوري، وهو اليمين الذي قضى باسترداد الحقوق المغتصبـة للامبراطورية، والحفـاظ على الحقـوق التي لدي»، لكن البـابا رفض تحليل الامبراطور من اليمين الذي اعتاد جميع الأباطرة على أدائه، أثناء تكـريسهم، على الانجيل المقـدس، ومن الجانب الآخـر، رفض

الامبراطور التخلي عن حقوق الامبراطورية، التي استرد معظمها بالقوة، ولذلك أصدر البابا المذكور قراراً بالحرمان الكنسي ضد الامبراطور، وحلل جميع نبلاء ألمانيا، وكذلك نبلاء الامبراطورية الرومانية من الطاعة له.

كيف قاد ملك انكلترا جيشاً إلى ايرلندا

حشد الملك جون في هذا العام جيشا كبيراً، في بمبروك Pembroke في ويلز، وأقلع يريد ايرلندا، حيث وصل إلى هناك في السادس من حزيران، ولدى وصوله إلى دبلن التقاه أكثر من عشرين مقدماً من تلك المنطقة وهم خائفين جداً، وأدوا الولاء له، وأدوا يمين التابعية إليه، ولم يفعل— على كل حال— بعضهم ذلك، ورفضوا القدوم إلى الملك، لأنهم سكنوا في أماكن منيعة، وقرر الملك هناك القوانين الانكليزية والأعراف الانكليزية، وعين عمداً للمناطق ووكلاء لحكم شعب تلك المملكة، وفقاً للقوانين الانكليزية، كما عين جون، أسقف نورويك، رئيساً للعدالة هناك، وهو الذي أمر بضرب بنس لتلك البلاد له الوزن نفسه مثل البنس الانكليزي، وأمر بضرب نصف بنس، وربع بنس مستدير، وأمر الملك أيضاً باستخدام النقود بشكل عام في انكلترا، ومثل ذلك في ايرلندا، وأن نقود المملكتين يتوجب وضعها معا في خزانته، وبشأن استدارة هذه النقود كان مورلين المتنبيء قد قال متنبئاً:« إن شكل التجارة سوف يكون مقسوما، والنصف سوف يكون مستديراً»، وسار الملك بعد هذا وزحف مع قوة عظيمة واستولى على عدد من حصون أعدائه وهرب من أمامه وولتر دي لاسي، وهو رجل من أصل نبيل، وجاء فراره مع عدد من الآخرين، كانوا خائفين من الوقوع بين يديه، ولدى وصوله إلى منطقة ميث Meath حاصر زوجة وليم دي بروز، ووليم ابنها مع زوجته في حصن هناك، وأسرهم، وأرسلهم مثقلين بالأغلال إلى انكلترا، وأمر بسجنهم والتضييق عليهم

في قلعة وندسور، وبعدما رتب الملك جون الأمور حسب هواه في الشطر الأعظم من ايرلندا، أقلع منتصراً نحو انكلترا، ونزل هناك في التاسع والعشرين من آب، ثم بادر مسرعاً إلى لندن، وأمر باجتماع كل أساقفة انكلترا بحضرته مع رجال الدين جميعاً، وقدم إلى ذلك الاجتماع العام: رعاة الديرة، والكهنة، وراعيات الديرة، والداوية، والاسبتارية، ورؤساء ديرة الـ Vills ، وطائفة كلوني، وآخرون من مناطق أجنبية، وأناس من كل مرتبة وطائفة، وأرغم هؤلاء جميعاً على دفع غرامات ثقيلة، والانفاق بشطط من موارد الكنيسة، حتى قيل بأن الأموال التي استخرجت تجاوزت مائة ألف باوند استرليني، أما بالنسبة للرهبان البيض، فقد جرى تمييزهم عن البقية، وذلك بعدما حرموا من امتيازاتهم، ومع ذلك أرغموا أيضاً على دفع أربعين ألف باوند من الفضة إلى الملك، في حملة الضرائب هذه.

وحدث في هذا العام أيضاً أن السيدة النبيلة ماتيلدا، زوجة وليم دي بروز، وابنها ووريثها وليم مع زوجته، وكانوا في السجن في ويند سور، بناء على أوامر الملك، قد ماتوا جوعاً في ذلك المكان.

كيف أخضع ملك انكلترا أمراء ويلز

عام ١٢١١م، فيه كان الملك جون، أيام عيد الميلاد في يورك، بصحبة ايرلات وبارونات مملكته، وحشد في العام نفسه هذا الملك جيشاً كبيراً في ويتتشيرش Whitchurch ، ومن هناك زحف إلى داخل ويلز، في الثامن من تموز، وتوغل بقوة عظمى إلى داخل تلك البلاد حتى سنودون Snowdon ، وقد دمر جميع الأماكن التي وصل إليها، وأخضع جميع الأمراء والنبلاء من دون معارضة، وتسلم ثمانية وعشرين من الرهائن، ضمانة لخضوعهم في المستقبل، وعاد بعد هذه النجاحات، في يوم عيد صعود القديسة مريم، إلى ويتتشيرش، وذهب من هذا المكان إلى نورثأمبتون، والتقى هناك برسولين مع رسائل من مولانا

البابا، وكانا: باندولف Pandulph ، وهو نائب شماس وكاردينال للكرسي الرسولي، ودوراند Durand، وهو راهب من فرسان الداوية، وقد جاءا من أجل اعادة السلام بين الكهنة والملك، وبعدما تشاور الملك مع الرسولين منح برضا الإذن إلى رئيس الأساقفة والرهبان، وإلى جميع الأساقفة الذين تقدم ذكرهم بالعودة إلى مواطنهم بسلام، لكنه رفض تقديم العون إلى رئيس الأساقفة والأساقفة مقابل الخسائر التي عانوا منها، أو تقديم ترضية لهم مقابل ممتلكاتهم التي جرت مصادرتها، وعاد الرسولان إلى فرنسا دون إكمال عملهما، وبعد هذا فرض الملك جون ضريبة على الفرسان الذين لم يكونوا في الجيش في ويلز، وكان مقدارها ماركين على كل محلجة.

وأنهى في هذا العام رجل نبيل، هو الفارس المشهور روجر، قسطلان شيستر، حياته.

كيف نفى الملك الفرنسي رينالد كونت أوف بولون

وجرى في هذه الآونة بشكل غير عادل، طرد رينالد كونت أوف بولون، من كونتيته، من قبل الملك الفرنسي، مع أنه كان جريئاً، ومحارباً، وقد حرم من جميع ممتلكاته، وبعد طرده، أعطى الملك المتقدم الذكر، الكونتية نفسها إلى ابنه فيليب، مع ابنة الكونت المذكور، ووريثته الشرعية، وقد أعطاه الكونتية ليتملكها، ولتكن حقاً له إلى الأبد، وذهب الكونت رينالد، إلى انكلترا، واستقبل بتكريم من قبل الملك جون، وبكرم تسلم منه ثلاثمائة باوند كمورد أرضي، ومقابل ذلك قدم الولاء إلى الملك المذكور، وأقسم يمين التابعية.

موت وليم دي بروز

أنهى في هذه الآونة وليم دي بروز الأكبر حياته في كوربيل Cor-beil، وكان قد هرب إلى فرنسا من الملك جون، وقد دفن مع التشريف

في دير القديس فكتور في باريس.

وفي هذا العام تملكت الدهشة البابا انوسنت إلى أقصى الحدود تجاه قحة الملك جون وتمرده، في رفضه النصيحة المفيدة التي قدمها له رسله، الذين بعث بهم إليه لمناقشة شروط للمصالحة، فحلل من الولاء والتبعية للملك الانكليزي، الأمراء، وجميع الآخرين من أعلى المراتب وأدناها سواء، من الذين عليهم واجبات تجاه التاج البريطاني، وجاء هذا التحليل واضحاً، وتحت تهديد عقوبة الحرمان الكنسي، وقد أمرهم بدقة بوجوب تجنب الالتقاء به والتعامل معه، على المائدة، أو في مؤتمر أو محادثة، وفي أيام الحرمان هذه كان لدى الملك أكثر المستشارين شروراً، الذين لن أحذف أسماءهم، ولن أتخلى عن ذكرها جزئيا هنا، وهم: وليم، أخو الملك وايرل سالسبري، وألبيرك Alberic دي فيرل، ايرل أكسفورد، وغيوفري فتز— بيتر، المتولي للعدالة، وفيليب أوف درم، وبيتر أوف وينكستر، وجون أوف نورويك، ورتشارد مارشال المستشار، وهيوج دي نيفل المسؤول عن الغابات، ووليم دي وورثهام مدير الموانىء البحرية، وروبرت دي فيبونت Vipont، وأخوه إيفو Ivo، وبرين دي لآيل Lisle، وغيوفري دي لوسي، وهيوج دي باليول Balliol، وأخوه برنارد، ووليم دي كانتيلو Cantelu، وهنري دي كورنهل Cornhill، عمدة كنت، وروبرت دي بريبروك Braybrook، وابنه هنري، وفيليب دي أوليكوت Ulecote، وجون دي باسنغبورن Bassingbourne، وفيليب مارسي Marcy قسطلان أوف نوتنغهام، وبيتر دي مولي Maulei، وروبرت دي غوغي Gaugi، وجيرارد دي أتي Atie، واينغلارد Engelard حفيده، وفولك ووليم بريأوري Briuere، وبيتر فتز— هيربيرت، وتوماس باسيت Bassett، مع كثيرين آخرين، أن تتولى ذكرهم سوف يكون أمراً متعباً، وقدم هؤلاء جميعا نصائحهم وفقاً لما رغبوا به في إرضاء الملك ولسروره، ليس وفقاً

للعقل، بل وفقاً لما أملته مسرات الملك ومتعه.

كيف رسم ملك انكلترا الاسكندر ابن ملك الاسكوتلنديين فارساً

عام ١٢١٢م، فيه كان الملك جون في ويندسور وفي يوم أحد الفصح، في الصوم الكبير التالي، أقام الملك المذكور احتفال العيد في لندن، في القديس بردجيت Bridget، في مشفى أوف كليركنول Clerkenwell، ورسم عند المائدة الاسكندر ابن ملك اسكوتلندا وولي عهده فارساً.

ومات في العام نفسه في بونتني Pontigny موغر أسقف وينكستر، الذي كان في المنفى، ورجلاً مشهوداً له من أجل حماية حقوق الكنيسة، ولمحافظته على العدل.

كيف جرى تحذير ملك انكلترا بوجود خيانة ضده

وخرج الويلزيون في هذه الآونة من مكامنهم، واستولوا على بعض قلاع الملك الانكليزي، حيث قتلوا كل الذين وجدوهم فيهم من فرسان وجنود سواء، كما أحرقوا عدة بلدات، وقاموا بعد هذا كله بجمع كميات كبيرة جداً من الأسلاب، فحملوا أنفسهم ثانية عائدين إلى مكامنهم من دون أية خسائر لأنفسهم، وعندما باتت هذه الأحداث معروفة من قبل الملك، غضب غضباً شديداً، وحشد جيشاً كبيراً من الفرسان والعساكر الرجالة، مقرراً الانتقام ونهب المناطق الويلزية، وافناء سكانها، ولدى وصوله مع جيشه إلى نوتنغهام، وقبل أن يأكل أو يشرب، أمر بثمان وعشرين شاباً، كان قد تسلمهم رهائن من الويلزيين، في العام الماضي، بتعليقهم على المشانق، انتقاماً للأعمال العدوانية التي اقترفها أبناء بلادهم، وعندما كان بعد هذا جالساً إلى المائدة يتناول طعامه ويشرب، وصل إليه رسول من ملك اسكوتلندا، وناوله رسائل، حذره فيها من وجود مؤامرة تحاك ضده، وإثر ذلك مباشرة وصل إليه

رسـول آخـر من ابنة الملك نفسـه، زوجـة ليـولين Leolin، ملك ويلز، وجلب الرسول الثـاني رسائل لاتشبه الرسـائل الأولى، وقد أخبر الملك بأن المحتويات كانت سرية، واختلى الملك به بعد الطعام جانباً، وأمره أن يشرح له معنى الرسـائل، فـوجـد أن الـرسـولين وإن قـدمـا من بلدين مختلفين قد حملا خبراً واحدا، وكان لهما غاية واحدة، وكان ذلك، أنه إذا ماواظب الملك على الحرب التـي بدأها، فإنه إما سيقتل من قبل نبـلائه، أو سوف يسلم إلى أعـدائه من أجل إهلاكه، وخاف الملك خـوفاً عظيماً لدى سماعه بهذا، ولأنه كان يعرف بـأن النبلاء الانكليز كانوا محللين من الولاء له، آمن أكثر بصحة ماجـاء بالرسائل، لذلك غيّر بعقلانية نواياه، وأمـر جيشه بالعـودة إلى الوطن، وذهب هو شخصيـاً إلى مـدينة لندن، حيث قام إثر وصـوله، بارسال رسل إلى جميع النبـلاء، الذين كان يشك بولائهم له شخصيـاً، وطلب رهائن منهـم، حتى يتمكن بهذا من معرفـة الذين كـانوا على استعـداد لطاعتـه، والذين لم يكونوا على استعـداد لطاعته، ولم يتجرأ النبلاء على عدم طاعة أوامر الملك، فبعثوا بأولادهم، وحفيداتهم، وبآخرين من أقـربائهم، للحصول على رضا الملك، وبذلك خمد غضبـه إلى حد مـا، وقام— على كل حـال— يوستاس دي فيـزكي Vesci، وروبرت فتـز— وولتر، وكانـا عرضـة للتهمـة بتدبير المؤامـرة المذكـورة أعـلاه، وكـانا مـوضع شك عظيم لدى الملك وريبـة، فغـادرا انكلترا، فقـد انسحب يوستـاس إلى اسكوتلندا، وذهـب روبرت إلى فرنسا.

بطرس الناسك ونبوءته

قطن في هذه الآونة في كـونتية يورك، ناسك اسمـه بطرس، وقد عـدّ رجـلاً حكيما، بسبب أنـه أخبر عـدداً كبيراً من الناس بـوقـائع كثيرة حـدثت، وبين أشياء كثيرة كـانت مـوضع روح التنبؤ لديه، قـد تعلقت بجـون ملك الانكليز، حيث أعلن بشكـل مكشوف، وأمـام الجميع بأنه

لن يكون ملكاً مع حلول يوم عيد الصعود المقبل، لابل إنه تنبأ بعد ذلك أنه في ذلك اليوم سوف ينتقل تاج انكلترا إلى واحد آخر، ووصلت هذه التأكيدات إلى معرفة الملك، فأمر باحضار الناسك أمامه، وسأله الملك، عما إذا كان سيموت في ذلك اليوم، أو كيف أنه سيحرم من عرش المملكة، فأجابه الناسك:« كن متأكداً بأنك لن تكون في اليوم الذي تنبأت عنه، ملكاً وإذا ماتبرهن أنني أخبرت بالكذب، افعل معي ماتريده»، وهنا قال له الملك:« ليكن كما تقول»، ثم إنه عهد بالناسك ليوضع في السجن لدى وليم دي هاركورت Harcourt، الذي أثقلة بالسلاسل واحتفظ به في كورفي Corfe، بانتظار حادثة النبوءة، ومالبث اعلان الناسك هذا أن انتشر على الفور في الخارج، حتى وصل إلى أقصى المناطق النائية، وبذلك صدقه معظم الذين سمعوه، وآمنوا بماتنبأ، وكأن هذه النبوءة قد أعلنت من السماء، وكان في ذلك الحين في مملكة انكلترا، كثيراً من النبلاء تولى الملك فضح زوجاتهم وبناتهم، لإهانة أزواجهم وآبائهم، كما كان هناك كثيرين استصفاهم الملك وأنزلهم إلى الفقر الشديد، ومثل هذا كثيرين أيضاً كان قد تولى نفي آبائهم وأقربائهم، وحول ممتلكاتهم لاستخداماته الشخصية، وعلى هذا كان عدد أعداء الملك المذكور من الكثرة بمكان بقدر تعداد جميع نبلائه، وبناء عليه، لدى معرفتهم في هذه الأزمة، بأنهم كانوا محللين من الولاء لجون، كانوا مسرورين جداً، وإذا كان من الممكن تصديق الروايات، لقد أرسلوا أوراقاً مختومة بأختام كل واحد من النبلاء المذكورين، إلى الملك الفرنسي، يخبرونه أنه يمكنه أن يأتي بأمان إلى انكلترا، حتى يستحوذ على المملكة، ويتوج بكل تشريف وكرامة.

كيف صدر قرار بالخلع ضد الملك جون

وفي هذه الآونة، ذهب ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، مع الأسقفين: وليم أسقف لندن، ويوستاس أسقف إيلاي، إلى روما،

وأخبروا البـابـا بمختلف أعمال التمـرد والجرائم التي اقترفهـا ملك انكلترا، من وقت حرمانه مـن شركة المؤمنين حتى الوقت الحالي، فهو لم يتـوقف عن إلقـاء يد الاغتصـاب والاكـراه والوحشيـة على الكنيسـة المقدسة، معاداة منه للرب، والتمسـوا بناء عليه بتواضع أن يتفضل البابا برحمتـه التقيـة بمساعـدة كنيسـة انكلترا، التي كـانت تعـاني من لحظات بقـائها الأخيرة، وحـزن البابا وقتهـا حـزناً عميقاً من أجل إقفـار مملكة انكلترا وعـزلتها، فقـام بناء على نصيحـة كـرادلته، وأسـاقفتـه، والناس العقـلاء الآخـرين، فقضى بشكـل محدد بأن جـون ملك انكلترا، ينبغي خلعه من على عرش تلك المملكة، وأنه يتوجب اختيار واحد أفضل منه من قبل البـابا، ليخلفه، وفي سبيل تنفيذ قـراره هذا، كتب مولانـا البابا، إلى فيليب ملك فـرنسا القـوي، يعفيـه من جميع ذنوبه، ويأمره أن يتـولى القيام بهذا العمل، وأعلمـه أنه بعدما يتمكـن من طرد الملك الانكليزي من عـرش تلك المملكة، فإن خلفـاءه سـوف يستحـوذون مملكة انكلترا بشكل أبدي، وبالإضافـة إلى ذلك كتب إلى جميع النبلاء الفـرسان، وإلى أمثالهم من رجال الحرب الآخرين، في مختلف مناطق المملكة، آمراً إياهـم بحمل شارة الصليب، وأن يتبعوا الملك الفرنسي، على أنه قائدهم، حتى يمكن خلع الملك الانكليزي، وبذلك ينتقمـون للإهانة التي ألقيت على الكنيسة العالمية، كما أنه أمر بوجـوب عدّ جميع الذين قدموا شخصيا، أو قدّمـوا مساعـدة شخصية في خلع ذلك الملك المتمرد، مثـل الذين ذهبوا لزيارة ضريح الـرب، وأن يبقـوا آمنين تحت حماية الكنيسـة، فيما يتعلق بممتلكاتهم، وأشخاصهم، واهتمامـاتهم الروحية، وبعث البـابا بعد هذا، من جانبه باندولف نائب الشماس مع رئيس الأساقفة والاسقفين، الذين ورد ذكرهم أعـلاه، إلى المناطق الفرنسية، حتى يمكن بحضـورهم تنفيذ جميع الأوامـر المذكـورة أعـلاه، ثم قـام باندولـف قبل أن يترك البـابا، وعندما كان البقية بعيدين عنه، فسأل البابا بشكل سري، واستوضح من قداسته، عن الذي سوف يـرضيه أن يفعل، إذا صدف ووجد أية ثمار في

توبة جون، وأنه سوف يقدم ترضيـة مقنعة إلى الرب، وإلى كنيسة روما، فيما يتعلق بجميع أعماله، وعندها أملى عليه البـابا صيغة بسيطة للسلام، وقـال: إذا مـاقـرر جـون الموافقـة عليهـا، يمكنه أن يجد الحظوة لدى الكرسي الرسولي، ولسوف يأتي فيما بعد وصف لهذه الشروط.

عودة رئيس أساقفة كانتربري مع الأسقفين المذكورين من عند الكرسي الرسولي وموت غيوفري رئيس أساقفة يورك

عـام ١٢١٣م، فيـه عقـد الملك جـون بلاطه في عيـد الميـلاد في وستمنستر، برفقة عدد ضئيل جداً، من الفـرسان كانوا في ركابه، ومات في تلك الآونة غيـوفري رئيس أساقفـة يورك، الذي كان قـد مضى على وجـوده بالمنفى سبعة أعـوام، وذلك بسبب دفاعـه عن حقوق الكنيسـة والحفاظ على العـدل، وفي شهر كـانون الثاني، مـن هذا العام نفسـه عاد ستيفن رئيس أسـاقفـة كـانتربري مع وليم ويوستـاس، أسقفي لندن وإيلاي، من بلاط رومـا، وعقـدوا مـؤتمراً في القارة، أعلنوا فيـه بوقـار مناسب عن القـرار الذي صـدر ضد الملك الانكليـزي بسبب عصيـانه، وجعلوا ذلك معلوماً من قبـل الملك الفرنسي، والأساقفـة الفرنسيين مع رجال الديـن، وكذلك إلى الشعب بشكل عـام، وبعد هذا، فـرضوا على الملك الفـرنسي وكـذلك على الآخـرين جميعـاً، باسم مـولانا البـابا، أنه مقابل إعفـائهم من ذنوبهم، يتوجب عليهم القيـام جميعاً متحـدين بغزو انكلترا، وخلع جون من عرش المملكـة، وتعيين واحد آخر محله، وذلك تحت السلطة الرسـوليـة، التي هي جـديرة بالقيـام بذلك، ولدى رؤية الملك الفرنسي، مـاتشوّق إليه قد اقترب حـدوثه، عمل جميع استعداداته من أجل الحرب، وأمـر رعـاياه جميعـا سواء، والدوقـات، والكونتـات، والبـارونات والفـرسـان، والأتبـاع، بـأن يعـدوا أنفسهم مع الخيـول والسـلاح، وأن يحتشدوا بقـواهم في روان في اليـوم الثـامن من الفصح، وذلك تحت عقـوبة الوصم بـالجبن، ونيل تهمـة الخيـانة، ومـثل هـذا

أمـر جميـع سفنـه، وسفنـاً أخرى استطاع جمعـها، بأن تشحـن بشـكل جيـد بـالحبـوب، والخـمرة، والـلحوم، والمـؤن الأخـرى، حتى تكون لديهم وفـرة بجميـع الضروريـات التـي يحتاجهـا مثـل ذلـك الجـيش الكبـير.

استعدادات الملك جون لمقاومة أعدائه القادمين

ولدى اطلاع الملك جـون، بوسـاطة الجواسيـس، عما كـان يجري في مقاطعات مـاوراء البحر، تولى إعداد أفضل دفاع يستطيعـه ضد الخطط، التي أعدت ضده، ولذلك أمر بإعـداد قائمة بجميع السفن في كل ميناء من موانىء انكلترا، وجـاء ذلك بوساطة تفـويض عمله لكل واحد من الوكلاء، في كـل ميناء للقيام بهذا العمل، وكان نـص التفويض كما يلي: «من جـون ملك انكلترا، الخ، نحن نأمـركم أن تقـومـوا فـور تسلمكم رسائلنا هذه، بـالذهاب شخصياً مع الوكلاء في المينـاء إلى كل واحد من المراسي الموجـودة في وكالتكم، وأن تعملوا لائحـة دقيقـة بجميع السفن التي تجدونها هناك، قـادرة على حمل ستـة خيـول أو أكثـر، وأن تأمـروا باسمنا القبـاطنة وكذلك أصحـاب هذه السفن، أن يكونوا هم أنفسهم، مع سفنهم وجميع الممتلكـات العـائـدة إليهم، في بورتماوث في منتصف الصـوم الكبير، وأن تكـون سفنهم مشحـونة بالمؤن وبالمعـدات بشكل جيد، مع بحارة مجربين، وعساكر جيدين، للدخول في خدمتنا، وليكونوا تحت تصرفنا من أجل خـلاصنـا، وأن تعـدوا وقتهـا وفيما بعـد لائحـة واضحة وصحيحة بعـدد السفن التي وجدتموها في كل ميناء، ولمن هم، وكم من الخيـول تستطيع كل سفينـة أن تحمل، ثم أن تخبرونا كـم من السفن وما هي الأنواع، مما ليس موجـوداً في موانئهم في يوم الأحد بعد أربعـاء الرماد، وذلك كما أمـرنا، وسـوف يظل هذا التفويض قـائماً، من أجل الأمر نفسه، شهدت بنفسي، في المعبـد الجديد، في اليوم الثالث من آذار».

وبعدما عمل هذا بالنسبة للسفن وأعده، بعث الملك برسائل أخرى إلى جميع عمد مناطق مملكته، فيها الأوامر التالية:« من جون ملك انكلترا، الخ: أنذر بوساطة عمال جيدين، جميع الايرلات، والبارونات، والفرسان، وجميع الرجال الأحرار والأقنان— أينما كانوا، ومهما كان العقد الذي بين أيديهم، أنه يتوجب أن يكون لديهم سلاح، أو أن يتولوا شراء سلاح، والمقصود بهذا الذين قدموا الولاء لنا، وأقسموا على طاعتنا، ولديهم تقدير لنا، أن يكونوا هم أنفسهم، مع جميع مقتنياتهم في دوفر في نهاية الصوم الكبير المقبل، مجهزين بالخيول وبالسلاح، وبكل مايمكنهم إعداده وتوفيره، وذلك بغية الدفاع عن ذاتنا كما يدافعون عن ذواتهم، وعن أرض انكلترا، وينبغي أن لايتخلف انسان قادر على حمل السلاح، وذلك تحت عقوبة الوصم بالجبن، والإدانة بعبودية دائمة، وعلى كل انسان وجوب اتباع مولاه، وعلى الذين لايمتلكون أرضاً، ولكنهم قادرون على حمل السلاح، أن يقدموا ويشاركوا في خدمتنا كمرتزقة، وفضلاً عن هذا أرسل جميع المؤن الممكن نقلها، واجعل جميع الأسواق الموجودة في وكالتك أن تلحق بجيشنا، وأن لايعقد سوق في أي مكان آخر في وكالتك، وقم أنت نفسك بالحضور في ذلك المكان مع عمالك المتقدم ذكرهم، وكن متأكداً أننا نود أن نعرف كيف سارت الأمور في وكالتك، ومن الذي جاء ومن الذي لم يقدم، وانتبه بأن تقدم مزوداً بشكل جيد بالخيول وبالسلاح، حتى لانكون مرغمين على التعامل معك شخصياً، وينبغي أن يكون لديك ملفاً، لكي تتمكن من اعلامنا عن الذين بقيوا».

ولدى انتشار هذه الرسائل وتوزيعها في جميع أنحاء انكلترا، احتشد في موانىء البحر في مختلف المناطق، التي جذبت انتباه الملك مثل: دوفر، وفيفرهام، وايبسويتش Ipswich، أناس من مختلف الأحوال والأعمار، الذين لم يخافوا من شيء أكثر من خوفهم من اسم جبان، لكن بعد مضي

عدة أيام، نقصت المؤن لديهم بسبب أعـدادهم الكبيرة، ولذلك قام قادة الجيش بإعـادة أعداد كبيرة من النـاس إلى بيوتهم، ممن لم يكونوا رجـالاً مجربين، واحتفظوا عند الشـاطىء بالجنود، والأتبـاع والرجال الأحـرار، مع رجـال القسي الزيارة والرمـاة، علاوة على ذلك، قـدم جـون أسقف أوف نورويك إلى الملـك من ايرلندا، مع خمسمائـــة فـارس، وكتلة من الجنود الخيـالة، وقد استقبل بترحـاب كبير من قبله، ولدى اجتماع جميع القوات في بارهام داون Barham Down، جرى تعداد الجيش، فكان ستين ألفاً من الرجال الأشداء، بما فيهم الفرسان النخبة وأتباعهم، وهم مسلحـون بشكل جيد، ولو كـانوا على قلب واحـد، وتوجه واستعـداد واحـد نحو ملك انكلترا، والدفـاع عن بلادهم، ماكـان هناك أمير تحت السماء لايمكنهم الدفـاع ضده عن مملكة انكلترا، وقـرر الملك الاشتباك بأعدائـه في البحر، ليغرقهم قبل نزولهم إلى اليـابسة، لأنه امتلك اسطولاً أكثـر قـــوة من اسطول الملك الفـرنسي، وفي هذه الخطة، وضـع أهدافـه الرئيسية في الدفاع.

قدوم باندولف إلى الملك

وعندما كان الملك الانكليزي مع جيشه ينتظر وصول ملك فرنسا إلى قرب ساحل البحر، وصل اثنان من فـرسان الداوية إلى دوفر، وقدما إلى الملك بطريقـة صـديقـة وقـالا له:« لقـد أرسلنا إليك أيها الملك الأعظم قوة، لفـائدتك نفسك، وفائـدة مملكتك من قبل باندولف نائب الشماس والصـــديق المقـــرب من مـــولانا البـــابا، وهو يرغـب بالاجتماع معك والتحـادث، ولســوف يقترح عليك شكل مصـالحة، فيهـا يمكن أن تتصـالح مع الـرب، ومع الكنيسـة، مع أنك قـد حـرمت من حقك في تملك انكلترا، من قبل بلاط رومـا، وجرت إدانتك بوساطـة قرار حكم صـادر عـن ذلك البـلاط، ولدى استماع الملك لحديـث هذين الداويين، أمرهما بعبـور البحر على الفور، واحضـار باندولف إليه، وبناء على هذه

الدعوة جاءباندولف إليه، والتقى بالملك في دوفر، وخاطبه بهذه الكلمات:« اعلم بأن ملك فرنسا الأعظم قوة موجود الآن عند مصب السين مع اسطول لاعدّ له ولاحصر وجيش كبير من الفرسان والرجالة، ينتظر حتى يقوى بقوة كبيرة، كي يقدم إليك ويهجم عليك وعلى مملكتك، وليتولى طردك بالقوة بحكم كونك عدواً للرب، وللحبر الأعظم، وليتولى بعد ذلك، بتفويض من سلطة الكرسي الرسولي، على مملكة انكلترا بشكل دائم، ولسوف يقدم معه من هناك الأساقفة الذين نفيتهم منذ زمن طويل من انكلترا، وذلك مع رجال الدين المنفيين والعلمانيين، فهؤلاء سوف يقدمون له المساعدة لاسترداد كراسيهم الأسقفية بالقوة مع الممتلكات الأخرى، وليقدموا له في المستقبل الطاعة، التي أبدوها من قبل نحوك ونحو آبائك، علاوة على ذلك، لقد قال الملك المذكور بأنه يمتلك أوراقاً بالولاء والطاعة من الغالبية العظمى لنبلاء انكلترا، وهو على أساسها يشعر بالأمان والاطمئنان بأنه سوف يوصل العمل الذي شرع به إلى نهاية ناجحة تماماً، وعلى هذا فكر بمنافعك، وأقبل على التوبة، فأنت في اللحظة الأخيرة، ولاتتأخر في إرضاء الرب الذي أغضبته، ودفعته لأن ينتقم منك انتقاماً ثقيلاً، وإذا كنت على استعداد لتقديم ضمانة كافية، بأنك سوف تخضع لحكم الكنيسة، وأن تتواضع بنفسك أمام الذي تواضع بنفسه من أجلك، يمكنك وقتها أن تسترد سيادتك، برحمة من الكرسي الرسولي، وهي السيادة التي خلعت منها في روما بسبب تمردك، والآن فكر وتمعن، خشية أن يمتلك أعداؤك سبباً للضحك عليك، ولاتضع نفسك في المآزق، التي منها لن تكون قادراً على التخلص، مهما رغبت بذلك».

كيف أثير الملك جون للاقدام على التوبة

واستمع الملك جون، ورأى في الذي سمعه الصدق، وقد غضب كثيراً، وارتعب لأنه شاهد كم هو الخطر قريب من جميع الجهات،

وتوفرت أربعـة أسباب لحضـه على التوبة والتكفير، وكـان أولها أنه كان قد مضى عليه حتى الآن خمس سنوات وهو تحت الحرمان الكنسي، وأنه قد أغضب الرب والكنيسـة المقدسة، إلى حد أضاع فيـه جميع الآمال في إنقاذ روحـه، وكان السبب الثـاني هو خوفـه الشديد من وصـول الملك الفـرنسي، الذي كـان ينتظر قـرب شـاطـىء البحـر مع جيش لايعـدّ ولايحصى، ولديه خطة لاسقاطه، وكان السبب الثالث خوفه من أنه إذا مااشتبك بالقتال مع أعدائـه الذين اقترب وصولهم، أن يتخلى عنه نبلاء انكلترا، ويتركوه في الميـدان لوحده، وأن يفعل ذلك شعبـه أيضاً، أو أن يسلمـوه إلى أعدائـه لتـدميره، وكـان السبب الرابع قد أرعبـه أكثـر من البقية، وتمثل باقتراب يوم صعـود الرب، فوفقـاً لنبوءة بطرس الناسك، التي تقـدم ذكـرها من قبل، سـوف يفقد حيـاته الدنيـوية ومعهـا حكم المملكة، وبما أنه قـد دفع إلى حـافـة اليأس بهذه الأسبـاب وبـأسبـاب مشابهة، فكان أن أذعن لضغط باندولف واقتنع، لكن ليس من دون ألم، فقبل بصيغـة السلم المدونة أدناه، وأقسم بـالانجيل المقـدس بحضـور باندولف، بأنه سـوف يكون مطيعـاً لحكم الكنيسـة، وأقسم أيضـاً ستـة عشر من أكثـر نبـلاء انكلترا قـوة، وتعهـدوا أنه إذا مـاأقـدم على نقض وعده، سوف يبذلون كل ماوسعهم من طاقة في إرغامه على الوفاء به.

صك الملك جون الذي أعطاه ترضية لرئيس أساقفة كانتربري مع رهبانها ورجال الدين الآخرين وأساقفة انكلترا، ومن أجل إعادة ممتلكاتهم المصادرة

وفي اليـوم الثـالـث عشر من أيار، الـذي كـان يوم اثنين، جـاء بعـد عيـد الصعــود المتقـدم، اجتمع الملك مـع باندولف، والايرلات، والبــارونات، وعدد كبير من الناس احتشدوا هنـاك، في دوفر، وهناك وافقوا بالاجماع على صيغة السلام المكتوبة أدناه:

« من جـون ملك انكلترا إلى جميع هؤلاء الحضـور، والذين سيقدمـون،

التحيات» إنه بوساطة هذه الرسائل المرخصة منا والمختومة بختمنا، نرغب أن يكون معلوماً، أنه قام بحضورنـا، وبناء على أوامرنا، البارونات الأربعة التـالية أسماؤهم: وليم ايرل سـالسبري، وهو أخونا، ورينالد كـونت أوف بولون، ووليم ايرل ويرني Warenne ، ووليم كونت أوف فيرار Ferrars ، فأقسمـوا ضمانـة لأنفسنا، أننا سنقـوم باخـلاص بالحفـاظ على السلم الموصوف أدناه في جميع الأشياء، وبناء عليـه إننا نقوم في المقام الأول بالاقسـام بشكـل مهيب ودقيق، بحضـور النائب البـابوي، على الالتـزام بأوامر مـولانا البابا في جميع القضايا التي من أجلها حـرمنا كنسيا من قبله، وأننا سوف نمنح سـلاماً دقيقـاً ونلتزم به، ونقدم أمـاناً شامـلاً إلى الرجال المبجلين التـالي ذكـرهم: ستيفن رئيس أسـاقفـة كـانتربري، ووليم أسقف لندن، ويوستـاس أسقف ايلاي، وجـايل أسقف هيرفـورد، وجـوسلين أسقف باث، وهيـوبرت أسقف لنكولن، وإلى رئيـس رهبـان ورهبـان كـانتربري، وإلى روبرت فتز— وولتر، ويوستـاس دي فيزكي، وأيضـاً إلى بقيـة رجال الـدين والعلمانيين المرتبطين بهذه المسألة، ونقسم بشكل علني، في الوقت نفسـه، بحضـور النائب البـابوي، أو المندوب البـابوي، بأننا لن نؤذيهم في ممتلكاتهم، أو نتسبب، أو نسمح بتعرضهـم للأذى بأشخاصهم، أو ممتلكاتهم، ولسـوف نلغـي جميع غضبنا عنهم، وسنستقبلهـم بحظوتنا، وسنحـافظ على هذا ونرعـاه بصدق وإيمان جيـد، وكـذلك لن نعيق رئيس الأساقفـة المتقدم ذكره مع الأساقفـة أو نتسبب بإعاقتهم، أو نسمح بذلك، أي بمنعهم عن أداء واجبـاتهم بكل حـرية، وبالتمتع بسلطـات كـاملة في أعمالهم الإدارية والقضـائيـة، وذلك كما ينبغي لهم أن يفعلوا، ولهذا سـوف نمنح رسائلنا موثقـة معتمدة سواء: إلى مولانا البـابا، وإلى رئيس الأساقفة المذكـور، وإلى كل واحـد من الأسـاقفـة، وأن نجعل أسـاقفتنا، وايرلاتنا، وباروناتنا، بقدر ماسيختاره منهم رئيس الأساقفـة المتقدم ذكره والأساقفة المذكـورين، يتقـدمـون بأيمانهم وبرسـائل معتمـدة مـوثقـة أنهم أنفسهم سيبذلون جهـودهم لرؤية السلام والترتيبات، قـد حفظت بثبات، وأنه إذا

ماحـدث— لاسمح الرب— فقمنا إما نحن بأنفسنا، أو بوسـاطة آخرين، بمخالفـة هذا، عليهم الالتزام بالأوامـر الرسوليـة، لصالح الكنيسـة، ضد الخارق لهذا السـلام ولهذه الترتيبات، وبذلك يمكن أن نفقـد بشكل أبدي إدارة الكنائس الشاغرة، وإذا حدث أننا لم نستطع اقناعهم بالموافقة على هذا الشطر الأخير من هذا اليمين، أي، بمعـارضـه ذلك، إمـا من قبلنا نحن أنفسنا، أو من قبل الآخـرين، عليهم الالتزام بـالأوامر الرسـولية لصـالح الكنيسة، ضد الخارقين لهذا السلام، ولهذه الترتيبات، وقدمنا في سبيل ذلك رسائلنا المعتمدة، وعهدنا إلى مولانـا البابا، وإلى كنيسة روما بجميع حقوق الرعـوية التي نمتلكها في الكنائس الانكليـزية، ولسوف نتـولى تحويل جميع هذه الرسـائل المعتمدة، التي منحت لضمانة رجـال الدين المتقدم ذكـرهم، وإلى رئيس الأسـاقفة، وإلى الأسـاقفة، قبل قـدومهم إلى انكلترا، وعلينا أن نطلب من رئيس الأساقفـة المذكور ومن الأساقفة، أنه باستثناء فقط كـرامة الرب، وشرف الكنـائس، عليهم تقـديم ضمانات مشفـوعـة باليمين وبالكتابة، أنهم سوف لن يعملوا لابأشخاصهم، ولابوساطة الآخرين، أية محاولة ضد شخصنا، أو ضد التاج، طوال الوقت الذي نمنحهم فيه الأمان المذكـور أعـلاه، وطوال محافظتنا على السـلام غير مخروق، ولسـوف نعيـد بشكل كامل جميع الممتلكات المصادرة، مع ترضية على خسائرهم، ويشمل ذلك رجال الدين، وكذلك العلمانيين، الذين لهم علاقة بهذا العمل، وليس ذلك فقط بالنسبـة لممتلكاتهم، ولكـن أيضـاً بالنسبـة لحقـوقهم، ولسـوف نحمي حقـوقهم المحفوظـة وبالنسبة لرئيس الأسـاقفـة، وأسقف لنكولن، سـوف نضمن ذلك من تاريخ تكريسهم، أمـا البقيـة فمن تاريخ بداية هذا الخلاف، ومـامن اتفـاقية، أو وعـد، أو منحـة، سوف تشكـل معوقـاً لهذه الضمانات، أو تسبـب خسـارة، أو تعيق استرداد الممتلكـات المصـادرة للأمـوات وللأحيـاء سـواء، كما أننا لن نحتفظ بأي شيء تحت حجـة خـدمات مستحقـة لنا، وفيما بعد سـوف يجري تقديم تعـويضات مناسبـة مقابل الخدمات التي تعمل لنا، وسنقوم منذ الآن باطلاق سراح، وصرف،

والاعادة إلى الحقوق جميع رجال الدين الذين هم موضوعين من قبلنا تحت الاعتقال، ومثلهم أي واحد من العلمانيين، الموجودين قيد الاعتقال بسبب هذا العمل، وفور وصول واحد، يكون شخصاً مناسباً لتحليلنا، سوف نقوم، من جانب أول بإعادة الممتلكات المصادرة، ثم تسليم الرسل الموكلين من قبل رئيس الأساقفة المذكور، والأساقفة، ورهبان كانتربري، مبلغ ثمانية آلاف باوند، تكون من الأموال الاسترلينية القانونية، لدفع ماهو مستحق، ومن أجل النفقات الضرورية، لكي يتم الانفاق عليهم من دون ديون أو اعاقة من قبلنا، ولكي يتمكنوا بكرامة من الاستدعاء والعودة إلى انكلترا، حالما يكون ذلك ممكنا، وأعني بذلك أن يكون الدفع إلى ستيفن رئيس أساقفة كانتربري: ألفين وخمسمائة باوند، وإلى وليم أسقف لندن سبعمائة وخمسين باوند، وإلى يوستاس أسقف إيلاي سبعمائة وخمسين باوند، وإلى جوسلين أسقف باث سبعمائة وخمسين باوند، وإلى هيوبرت أسقف لنكولن سبعمائة وخمسين باوند، وإلى رئيس رهبان ورهبان كانتربري ألف باوند، وفور معرفتنا بأن السلام قد تثبت وتأكد، سوف نعين من دون تأخير إلى رئيس الأساقفة وإلى الأساقفة، وإلى رجال الدين، ولكل كنيسة لابل لها جميعاً، ونسلم إلى أيدي رسلهم أو وكلائهم جميع الممتلكات المتحركة، مع الحرية بإدارة هذه الممتلكات، ولسوف نصرفهم بسلام، وسوف ننقض بشكل معلن القرارات اللاقانونية، التي أصدرناها ضد اللاهوتيين، وأن نعلن بوساطة رسائلنا المعتمدة، التي سوف ترسل إلى رئيس الأساقفة، أن هذه الممتلكات ليست بأي حال من الأحوال عائدة لنا، وأننا سوف لن نصدر ثانية أحكاما ضد اللاهوتيين، وعلاوة على هذا سوف ننقض القرار اللاقانوني الصادر ضد العلمانيين، والمتعلق بهذه القضية، وسوف نعيد كل الذي تسلمناه من اللاهوتيين منذ صدور قرار الحرمان من شراكة المؤمنين، وذلك باستثناء عرف المملكة وامتياز الكنيسة، وإذا ماثارت أية قضية حول الخسائر والمصادرات، أو أية كمية مخمنة منهم، فإن ذلك سوف يقرره نائب، أو موفد مولانا البابا، وذلك بعد سماع

الشهادات حول القضية، وبعدما يجري ترتيب هذا كما ينبغي، سوف يجري سحب قرار الحرمان من شركة المؤمنين، وبالنسبة للقضايا الأخرى، فإنه إذا ماتوفرت أية شكوك جديرة بالمعالجة، أو أثيرت، فإنها إذا لم تعالج من قبل النائب البابوي، أو من قبل مندوب مولانا البابا، يجري إحالتها إلى البابا نفسه، والذي سوف يقرره، سيجري الالتزام به، شهدت بنفسي في دوفر، في هذا اليوم الثالث عشر من أيار، في السنة الرابعة عشرة من حكمنا.

كيف تخلى الملك جون عن تاجه وعن مملكة انكلترا ووضعها بين يدي البابا انوسنت

وهكذا جرى ترتيب الأمور، في اليوم الخامس عشر من أيار، والذي كان عشية يوم الصعود، ففي ذلك اليوم التقى الملك الانكليزي وباندولف مع نبلاء المملكة، وكان اللقاء في بيت فرسان الداوية قرب دوفر، وهناك قام الملك المذكور، أخذا بالمرسوم الذي أعلنه في روما، فتخلى عن عرش مملكتي انكلترا وايرلندا، ووضعها بين يدي مولانا البابا، الذي كان يقوم بأعماله آنذاك، باندولف المذكور، وبعدما تخلى عنهما، أعطى المملكتين المذكورتين إلى البابا وإلى خلفائه، وأكد ذلك إلى البابا بالصك الوارد نصه فيما يلي:

« **من جون، بفضل الرب، ملك انكلترا، الخ، إلى جميع المؤمنين، من عبيد المسيح، الذين سوف يرون هذا الصك، الصحة في الرب**— نود أن يكون معلوماً بصكنا هذا المهمور بخاتمنا، أننا قمنا في كثير من الأشياء باغضاب الرب، وأمنا الكنيسة المقدسة ونحن الآن بحاجة قصوى إلى الرحمة اللاهوتية من أجل ذنوبنا، ولن نقوم هنا بتقديم تقدمة جديرة، كتكفير للرب، وبتسديد المطالب الحقة للكنيسة، مالم نذل أنفسنا أمامه الذي أذل نفسه من أجلنا، حتى الموت، ولقد خضعنا بوساطة إلهام من الروح القدس، وليس بدوافع خوف من قرار الحرمان من شركة المؤمنين، وفعلنا

ذلك بارادتنا ورضانا، وبناء على نصيحة عامة من باروناتنا قمنا بتعيين، ومنحنا للرب، ولرسوليه المقدسين بطرس، وبولص، وإلى أمنا الكنيسة المقدسة في روما، وإلى مولانا البابا انوسنت، وإلى خلفائه الكاثوليك، جميع مملكة انكلترا، وجميع مملكة ايرلندا، مع جميع الحقوق والمتعلقات، وذلك ككفارة عن ذنوبنا وعن ذنوب قومنا، من الذين هم أحياء ومن الأموات، ونحتفظ من هذا التاريخ فصاعدا بهذين البلدين وكالة عنه وعن كنيسة روما، كنائب وكيل، ونعلن عن هذا بحضور هذا الرجل المتعلم، أي باندولف الذي هو نائب شماس، وصديق مقرب من مولانا البابا، وقدمنا ولاءنا، وأقسمنا على التبعية لمولانا البابا، ولخلفائه الكاثوليك، وإلى كنيسة روما، بوساطة ماهو مكتوب هنا، ولسوف نؤدي ولاءنا ونقسم على التبعية، للأمور نفسها، بحضور مولانا البابا نفسه، إذا ماتمكنا من الذهاب والمثول أمامه، ولقد ربطنا خلفاءنا وورثتنا من زوجتنا بشكل دائم، بالطريقة نفسها، كي يقدموا الولاء، ويعلنوا عن التبعية من دون معارضة، إلى الحبر الأعظم، لهذا الوقت، وإلى كنيسة روما، وكعطاء ودليل على هذا الارتباط الدائم، سوف، لابل قررنا أن نعطي من الآن فصاعداً، من دخلنا، ومن مواردنا الخاصة، وجباية من المملكتين المذكورتين، إلى كنيسة روما، مقابل جميع الخدمات، والتوظيفات التي نحن ندين بها إليها— باستثناء بنس القديس بطرس— مبلغ ألف مارك من النقود الاسترلينية، سنويا، وأن يسدد ذلك كما يلي: خمسمائة مارك في يوم عيد القديس ميكائيل، وخمسمائة في عيد الفصح، وأن يكون ذلك: سبعمائة عن مملكة انكلترا وثلاثمائة عن ايرلندا، مبقين لنا ولورثتنا جميع حقوقنا، وامتيازاتنا، والعوائد الملكية، ورغبة منا في توثيق وتأكيد كل الذي كتب أعلاه، ربطنا أنفسنا وخلفائنا بعدم معارضة ذلك، وإذا ماتجرأنا نحن، أو واحد من خلفائنا على معارضة هذا، ليحرم بشكل دائم من حقه في المملكة، وليبق هذا الصك بما ارتبطنا به وبما منحناه، مؤكداً إلى الأبد.

شهدت على ذلك أنا نفسي في بيت فرسان الداوية، قرب دوفر، بحضور هنري رئيس أساقفة دوبلن، وجون أسقف نورويك، وغيوفري فتز— بيتر، ووليم ايرل سالسبري، ووليم ايرل بمبروك، ورينالد كونت بولون، ووليم ايرل ويرني، وسير ايرل وينتون، ووليم ايرل آرونديل، ووليم ايرل فيرار، ووليم بروير، وبيتر فتز— هيربرت، ووارن فتز— جيرالد، وكان هذا في اليوم الخامس عشر من مايس، في السنة الرابعة عشرة من حكمنا».

تقديم الملك جون الولاء إلى البابا وإلى كنيسة روما

بعد نسخ صك الملك المذكور أعلاه، قدمه إلى باندولف لأخذه إلى البابا انوسنت، وقدم بعد ذلك مباشرة، على مرأى من الجميع الولاء المدون فيما يلي: «أنا جون، بنعمة الرب ملك انكلترا، ومولى ايرلندا، سوف أكون من هذا الوقت، كما كنت من قبل، مخلصاً للرب، وللقديس بطرس، ولكنيسة روما، ولمولاي البابا انوسنت، ولخلفائه الكاثوليك، فأنا لن أعمل، ولن أتكلم، ولن أوافق على، أو أنصح بأي شيء، يمكن به أن يفقدوا حياة أو عضواً، أو أن يكونوا عرضة للاتهام بالخيانة، ولسوف أمنع الضرر عنهم، إذا ماكنت واعياً لذلك، وإذا كان بمقدوري أن أرمم ذلك، أو أنني سأخبرهم، عندما يكون بمقدوري فعل ذلك، أو أنني سوف أخبر بذلك إلى شخص، أعتقد متأكداً أنه سوف يخبرهم بذلك، وسأبقي الأمر سراً أية مسألة عهدوا بها إلي، أنفسهم شخصياً، أو بوساطة رسلهم، أو بالرسائل، وإذا ماعلمت بذلك، سوف لن أبوح بذلك إلى أي واحد، حتى لاأوذيهم، وسوف أساعد على الحفاظ والدفاع عن ميراث القديس بطرس، ولاسيما مملكتي انكلترا، وايرلندا، ضد جميع الناس، وذلك بقدر ما أستطيع، وهكذا ليكن الرب، والانجيل المقدس، بعوني، آمين».

وقد حدث هذا— كما قلنا— قبل عشية يوم الصعود، بحضور: الأساقفة، والإيرلات والنبلاء الآخرين، وتمّ التطلع إلى يوم الصعود في الغد، بعدم ثقة، ليس فقط من قبل الملك، بل من قبل جميع الآخرين، سواء

من الغائبين، أو الحضور، وذلك بسبب تأكيدات بطرس الناسك، الذي— كما ذكـرنا من قبل— قـد تنبأ إلى الملك جـون، بـأنه لن يكون ملكاً، في يوم الصعـود، أو بعـد ذلك، ولكن بعـدمـا عبر اليـوم المحـدد، واستمـر سليما وبصحة، أمر الملك ببطرس المتقدم ذكره، الذي كـان مسجوناً في سجن في قلعة كورفي Corfe ، أن يربط إلى ذيل حصان في مدينة ويرهام، وأن يجر خـلال شوارع البلدة، وأن يعلـق بعد ذلك على المشنقـة، مع ابنه، وقـد بدا بالنسبـة إلى كثيرين، أنه لم يكن يستحق العقـوبة بمثل هذا الموت الوحشي، لأنه أعلن الحقيقية، لأنه لو أن الأوضاع التي ورد ذكـرها أعلاه قد وقعت، وقدرت تمام التقدير، لتبرهن أنه لم يخبر بالزيف.

كيف عاد باندولف إلى فرنسا مع جزء قد أعيد من الممتلكات المصادرة

عبر بعد هذا، باندولف البحر إلى فرنسـا، آخذا معه الصكوك التي تقدم ذكرها، وكـذلك ثمانية آلاف باوند من النقـود الاسترلينية، حتى يتمكن أن يعمل تعـويضـاً جزئيـا لخسـائـر رئيس الأسـاقفـة، والأساقفـة، ورهبـان كانتربري، وآخرين كانوا يعيشون في المنفى، بسبب قرار الحرمان من شراكة المؤمنين، وبما أن مقـاصد الصكوك وصيغـة السـلام الذي تقدم ذكـره منح الرضـا لهم جميعـاً، نصح باندولف بشـدة الأساقفـة الذين تقـدم ذكـرهم، بالعودة بسـلام إلى انكلترا، حتى يتسلموا هناك بقية أمـوال التكفير، ثم قام بعـد هذا فأشـار على الملك الفـرنسي بإلحاح— الذي عمل الاستعـدادات لغـزو انكلترا بالقـوة— للإقـلاع عـن مقصـده، ومن ثم العـودة إلى وطنه بسـلام، لأنه من غير الممكن بـالنسبـة له مهـاجمة ملك انكلترا، من دون اغضـاب الحبر الأعظم، ولاحتى مهـاجمة الملك شخصيـا، لأن ذلك الملك قدم ترضيـة للرب، وللكنيسة المقدسة، ولأحبـارها المكرسين، كما أنه وعد بإطاعة الأوامر الكاثوليكية الصادرة عن مولانا البابا، وغضب الملك غضباً عظيماً عندمـا سمع بهذا، وقـال بأنه قـد صرف ستين ألف باوند على تجهيـز

سفنه، وعلى تأمين المؤن والسلاح، وأنه تولى القيام بهذا الواجب المذكور بناء على أوامر من مولانا البابا، والتوبة من ذنوبه والتخلص منها، ولنقل الصدق لم يرغب الملك المذكور بالاذعان إلى اقتراح باندولف، لولا أن فيليب كونت فلاندرز رفض اتباعه، لأن ذلك الأمير كان قد عمل معاهدة مع الملك الانكليزي، ورفض العمل بشكل مضاد لتلك الاتفاقية، وعلاوة على ذلك قال الكونت بأن الحرب التي قرر القيام بها لاخضاع الملك الانكليزي، كانت غير عادلة، لأن مامن واحد من ملوك فرنسا— حتى ذلك الحين— قد ادعى بأية حقوق في المملكة الانكليزية، وفضلاً عن ذلك أضاف بأن الملك الفرنسي قد استولى بشكل غير عادل على أراضيه— أي الكونت— وعلى قلاعه، وكان آنذاك محتجزاً ميراثه، ضد شرائع العداله، ولقد كانت هذه أسبابه لرفض الذهاب معه إلى انكلترا.

كيف قام الملك الفرنسي بهجوم على كونت فلاندرز

وكان الملك الفرنسي غاضباً جداً، تجاه هذه الكلمات التي صدرت عن كونت فلاندرز، ولأنه لم تكن لديه ثقة به، أمره بمغادرة بلاطه على الفور، وبعد مغادرته، غزا أراضي الكونت، ودمر كل مكان وصل إليه بالنار، وجعل السكان طعمة للسيف، وأعطي أيضاً أوامر إلى البحارة وإلى قادة أسطوله— الذين كانوا، كما قلنا من قبل، ينتظرون عند مصب نهر السين، مجهزين بكميات من الأسلحة— بالإقلاع مبحرين، بدون تأخير نحو سواين Swine التي كانت مرسى فلاندرز، وأن يبذلوا جهدهم للالتقاء به هناك، بكل سرعة، وقد فعلوا ذلك، وقام كونت فلاندرز، الذي خاف كثيراً من هجومه، بارسال رسالة مستعجلة إلى الملك جون، يرجوه فيها بالحاح، ارسال بعض العساكر لمساعدته، ولدى سماع الملك الانكليزي بهذه الأخبار، أرسل إلى مساعدة الكونت، أخاه وليم، إيرل سالسبري، ووليم دوق أوف هوتلاند Houtland ، ورينالد كونت بولون، وهم عساكر مقتدرين، مع خمسائة سفينة، وسبعمائة فارس مع عدد كبير من

الجنود الخيالة والرجالة، وأبحر هؤلاء الجند مع ريح طيبة، لذلك وصلوا سريعاً إلى مرسى سواين، ولدى وصولهم إلى هناك، دهشوا لرؤيتهم تجمعا كبيرا وحشداً للسفن، وعرفوا عن طريق الكشافة، بأن هذا كان اسطول الملك الفرنسي، الذي وصل مؤخراً، وقد عرفوا أن المسؤولين عن حمايته كان عددهم قليل جداً، وهم مجرد بعض الملاحين، لأن الجنود الذين كانوا في الأسطول، وإليهم معهودة أموره، قد ذهبوا لجمع الأسلاب، وكانوا ينهبون ويسلبون أراضي الكونت، وعندما علم قادة الجيش الانكليزي بهذا، طاروا إلى السلاح، وهاجموا الأسطول بعنف، وفي الحال هزموا الملاحين، وقطعوا حبال ربط ثلاثمائة، من سفنهم كانت محملة: بالقمح، والخمور، والدقيق، واللحوم، والسلاح، ومخزومات أخرى، وأرسلوهم إلى البحر، لأخذهم إلى انكلترا، وبالاضافة إلى هؤلاء، ألقوا النيران في السفن وأحرقوا منها مائة أو أكثر، وأغرقوهم بعدما أخذوا جميع المخزومات التي كانت فيهم، وبهذه النازلة، فقد الملك الفرنسي، وتقريباً جميع نبلاء المناطق البحرية، جميع ممتلكاتهم الثمينة، وأثير بعد هذا، بعض من النبلاء الانكليز، بالحقد إلى أبعد الحدود، واندفعوا من سفنهم، وركبوا خيولهم، وحملوا أسلحتهم، وانطلقوا يطاردون الفرنسيين الذين هربوا من المقتلة، لكن الملك الفرنسي، الذي لم يكن بعيداً عن ساحة القتال، أرسل بعضاً من أكثر جنوده موثوقية لصد العدو، ومنع تقدمه، وللتأكد من معرفة من كان هؤلاء الأعداء، وبناء عليه حملوا على الفور أسلحتهم، وتصدوا للفئة المهاجمة، واشتبك الفريقان، لكن النبلاء الانكليز أرغموا على الفرار مع خسائر، ونجوا بصعوبة إلى سفنهم، وبعدما صعدوا إلى سفنهم، عاد الفرنسيون إلى معسكراتهم، وسأل الملك عن الذي حدث، ومن أين جاء الغرباء، فحدثه الجنود بأن أولئك كانوا من الجيش الانكليزي، الذي أرسل لمساعدة كونت فلاندرز، وعندها أخبروه بالكارثة التي وقعت، وبالخسائر التي لايمكن تعويضها بالنسبة لاسطوله، ولدى سماع الملك فيليب بهذا، تراجع بشكل مضطرب، وانسحب من فلاندرز، مع خسائر كبيرة بالنسبة

له، ولأتباعه.

تحليل الملك الانكليزي في وينكستر

ولدى سماع الملك الانكليـزي بما حدث في فـلاندرز، سرّ سروراً عظيماً، وفي سروره في نفسه لدى معرفته بأن وصـول الملك الفرنسي قد تعلق الآن، على الأقل لبعض الوقت، أمر النبلاء، والجيش كله، الذي كان قد جمعه على مقـربـة من شـاطيء البحـر، من أجل الدفـاع عن بلادهم، بالعـودة إلى مواطنهم، ثـم إنه أرسل مبلغاً كبيراً من المال إلى الجنود في فـلاندرز، واعداً إياهم بمساعدة الامبراطور، بغـزو أراضي الملك الفرنسي بالنار وبالسيف، وجمع الملك نفسه جيشـاً كبيراً عند بورتماوث، عازمـاً على العبور إلى بواتو، مقرراً لجم الملك الفرنسي ومملكته في المناطق الغربية، مثلما فعل الذين كانوا في فلاندرز، في الشرق، وأن يبـذل كل ماباستطاعتـه لاسترداد المناطق التي خسرها من ممالكه، لكن الأشياء سارت على العكس مما توقعه، لأن النبلاء الانكليـز رفضوا اتبـاعه، مـالم يتم أولاً تحليله من حكم الحرمـان الكنسي، ووسط هذه المصـاعب، أرسل الملـك وقتهـا وثائق الأربعـة والعشرين من الايرلات والبارونات إلى رئيس الأساقفة المذكـور، وإلى الأساقفة معه، مع ضمانات أعظم، وأخبرهم بازاحـة كل خوف، والقـدوم إلى انكلترا، حيث هناك يمكنهم تسلم حقـوقهم مـع أمـان عن جميع ممتلكاتهم التي حـرمـوا منهـا، وذلك وفقـا لشروط المصـالحة التي كتبت من قبـل، وبنصيحـة من باندولف، قـام هؤلاء، عندمـا باتـوا جـاهزين للعـودة إلى الوطن، وهـم: ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، والأساقفة: وليم أسقف لندن، ويوستاس أسقف إيلاي، وهيـوبرت أسقـف لنكولن، وجـايل أسقف هيرفـورد، بالركوب في السفينة بصحبة رجـال الدين الآخرين والعلمانيين الذين كانوا منفيين بسبب الحرمان من شراكة المؤمنين، ونزلوا في دوفر في السادس عشر من تموز، ثم انطلقـوا لرؤية الملك، ووصلوا إليـه في وينكستر، في يوم عيـد القديسةمـرغريت العذراء، وعندما سمع الملك بوصـولهم خرج لمقابلتهم،

وعندما رأى رئيس الأساقفة والأساقفة، سجد أمام أقدامهم، والتمس منهم وهو يبكي أن تكون لديهم رحمة عليه، وعلى مملكة انكلترا، ولدى رؤية رئيس الأساقفة المذكور والأساقفة التواضع العظيم للملك، أنهضوه من على الأرض، وأخذوه باليد من على الجانبين، واقتادوه إلى باب الكنيسة الكاتدرائية، حيث رتلوا المزمور الخامس، وكان ذلك بحضور جميع النبلاء الذين بكوا فرحاً، وقاموا بتحليله وفقاً لعادة الكنيسة، وأثناء هذا التحليل أقسم الملك على الأناجيل المقدسة، بأنه سوف يحب الكنيسة المقدسة ورجالها المكرسين، وهو سوف يبذل كل جهد مستطاع لديه في الدفاع عنهم، والحفاظ عليهم ضد جميع أعدائهم، وأنه سوف يجدد جميع القوانين الجيدة لآبائه، ولاسيما قوانين الملك إدوارد، ولسوف يلغي القوانين السيئة، وسوف يحكم رعاياه وفقاً للقوانين والمراسيم العادلة لمحاكمه، وسوف يعيد الحقوق إلى الأفراد وإلى الجماعات، كما أنه أقسم، بأنه سوف يعيد، قبل عيد الفصح المقبل الممتلكات المصادرة إلى جميع الذين لهم علاقة بقضية الحرمان من شراكة المؤمنين، وأنه إذا لم يفعل ذلك، سوف يوافق على إعادة قرار الحرمان الكنسي وتجديده، وفضلاً عن ذلك أقسم على الولاء والطاعة للبابا انوسنت، ولخلفائه الكاثوليك، حسبما ورد مكتوبا في الصك أعلاه، وعندها أخذ رئيس الأساقفة، الملك إلى داخل الكنيسة، وأقام هناك قداساً، واحتفل بعد ذلك رئيس الأساقفة والأساقفة والنبلاء، وعيدوا عند المائدة نفسها مع الملك، وسط البهجة والسرور، وأرسل الملك في اليوم التالي رسائل إلى جميع عمد مناطق المملكة، آمراً إياهم بارسال أربعة رجال تابعين من كل بلدة في اقطاعيتهم، مع الناظر، إلى كنيسة القديس ألبان في الرابع من آب، حتى يمكن من خلالهم ومن خلال وكلائه الآخرين، القيام بالتقصي حول الخسائر والممتلكات المصادرة لكل واحد من الأساقفة، وكم هو مستحق لكل واحد، ثم إنه أرسل بكل سرعة إلى بورتماوث، حتى يمكنه العبور من هناك إلى بواتو، وعهد بشؤون المملكة إلى غيوفري فتز—بيتر، وإلى أسقف وينكستر، مع أوامر بوجوب التشاور مع رئيس أساقفة

كـانتربري في تدبر أمـور المملكة وإدارة شـؤونها، ولدى وصـول الملك إلى بورتماوث وصل إليه إلى هناك عـدد كبير جداً من الفـرسان، يتشكون أنهم أثناء اقامتهم الطويلة هناك قـد انفقوا جميع أموالهم، وبناء عليـه إنه مالم يتم تزويدهم بالمال من الخزانة، لن يكون بامكانهم اتبـاعه، ورفض الملك هذا، وغضب غضباً عظيماً، وركب السفن مع مرافقيه الخاصين، ونزل بعد ثلاثة أيام في غورنسي Guernscy ، في حين رجع نبلاؤه إلى ديارهم، وعندما رأى الملك نفسـه مهجـوراً على هذه الصـورة، أرغم ذاتـه على العـودة إلى انكلترا.

إعلان القوانين والحقوق

وأثناء حدوث هذا، عقد غيوفري فتز— بيتر مع أسقف وينكستر مؤتمراً في كنيسة القديس ألبـان، مع رئيس الأساقفة، والأساقفـة، ونبلاء المملكة، وخـلال المؤتمر جرى إخبـار الجميع بالسلام الذي عمله الملك، ونيـابة عن الملك المذكـور، صدرت الأوامـر بشكل دقيق، بوجوب الحفـاظ على جيع قوانين جده الملك هنري، من قبل الجميع في جميع أرجاء المملكة، وأن جميع القـوانين غير العادلـة يتوجب إزالتهـا كليـاً، ومنع جميع عمـد المناطق، مع المتولين لحفظ الغابات، ووكلاء الملك الآخرين، تحت طائلة فقدان الحياة أو أحد الأعضـاء، من استخراج أي شيء من أي واحد بالقـوة، أو ايقاع أذى على أي انســان، أو عمل أية أتاوة في أي مكـان من المملكة حسبما جــرت عادتهم، ووجـد الملك جون ذاته في الوقت نفسـه، مهجوراً من قبل بعض النبلاء كما ذكـرنا، فجمع جيشاً كبيراً، لإعادة المتمـردين إلى الطاعة ولتأدية واجبـاتهم، ولكنه مـاإن شرع باستخـدام الســلاح، حتى قـدم إليـه رئيس الأسـاقفـة إلى نورثأمبتـون وأخبره أنه سـوف يكون هناك كثيراً من الضرر بيمينه الذي أقسمه أثناء تحليله، إذا ماكـان سيقدم على إثارة حرب ضد أي انسـان، من دون قـرار بلاطه، ولدى سماع الملك هذا، أجـابه وهو مغضب بأنه لن يتخلى عن شـؤون المملكة لصـالح رئيس الأسـاقفـة، لأن المسـائل

العلمانية ليست عائدة له، وبناء عليه، انطلق في اليوم التالي في زحفه وهو حانق، وأخذ الطريق إلى نوتنغهام، وتابع رئيس الأساقفة— على كل حال— اللحاق به، وأعلن بكل جرأة، أنه مالم يتوقف عن مشروعه، سوف يلعن ويحرم من شراكة المؤمنين، كل من يثير حرباً ضد أي انسان، قبل أن يكون قد تحلل من الحرمان من شراكة المؤمنين، وذلك بالاضافة إليه نفسه وحده، وهكذا حول رئيس الأساقفة الملك عن هدفه، ولم يتركه حتى أقنعه بتسمية يوم لقدوم البارونات إلى بلاطه، وهناك يخضعون لإجراءات العدالة.

سبب هياج البارونات ضد الملك

وفي الخامس والعشرين من آب من العام نفسه، اجتمع ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، مع أساقفة المملكة، ورعاة ديرتها، ورؤساء الرهبان، والشمامسة، والبارونات في كنيسة القديس بولص في مدينة لندن، وهناك منح رئيس الأساقفة الإذن إلى أعضاء الكنائس الديرية وكذلك إلى الكهنة العلمانيين بإنشاد القداسات بصوت منخفض، وذلك على مسمع من أساقفتهم، وفي هذا المؤتمر دعا— كما أكدت التقارير— رئيس الأساقفة المذكور بعض النبلاء للاجتماع به على انفراد، وتناقش معهم منفردين حول المسألة التالية حيث قال:« هل سمعتم، كيف أنني عندما حللت الملك في وينكستر، جعلته يقسم أنه سوف يزيل القوانين غير العادلة، وسوف يعيد القوانين الجيدة، مثل قوانين الملك ادوارد، وأن يأمر بمراعاتهم من قبل جميع المملكة، وقد تمّ الآن العثور على صك هنري الأول، ملك انكلترا، وبامكانكم إذا مارغبتم، أن تطالبوا بوساطته إعادة حقوقكم الضائعة منذ زمن طويل إلى وضعها الماضي»، ووضع ورقة في وسطهم، وقد أمر بأن تقرأ بصوت مرتفع أمام الجميع حتى يتمكنوا من سماعها، وكان محتواها كما يلي:

« من هنري، بفضل نعمة الرب، ملك انكلترا، إلى هيوج دي بوكلاندي

Boclande، المتولي لأمور العـدالة في انكلترا، وإلى جميع رعاياه المخلصين، وكذلك إلى الفرنسيين والانكليز في هيرتفورد شاير، التحيات:

اعلموا بأنني، برحمة من الرب، قـد توجت ملكاً، بموافقة عـامة من قبل بارونات مملكة انكلترا، ولأن المملكة قد ظلمت بمكوس غير عـادلة، أقوم أنا، صـدوراً عن الاحترام إلى الرب، وعن المحبـة التي أشعـر بها نحـوكم، بالوعـد في المقام الأول بأنني سـوف أجعل الكنيسة المقـدسة للرب كنيسـة حـرة، وبذلـك أنا لن أبيعهـا، أو أضمنهـا، كما أنني، لـدى وفـاة أي رئيس أساقفـة، أو أسقف، أو راعي دير، لن آخذ أي شيء مـن ممتلكات الكنيسة، أو من ممتلكات شعبها، حتـى يأخذ خليفته مكانه، وإننـي سوف أزيل منذ الآن جميع الممارسـات الشريرة، التي تعاني منهـا مملكة انكلترا ظلماً وبشكل غير عـادل، وهـذه الممارسـات الشريرة، أنا مقبل الآن على ذكـرها: إنه إذا مامـات أي بارون أو ايرل، أو أن واحداً من الرعايا الآخـرين التابعين لي، والذين بحـوذتهم متلكات من عندي، فإن وريثـه لن يقـوم بانقـاذ أرضـه، حسبما كانت العادة في أيام أبي، بل إنه سوف يـدفع بدلاً عادلاً وقانونياً من أجلهـا، وبالطريقة نفسهـا سـوف يدفع التابعـون لبـاروناتي بدلا مماثلاً من أجل أراضيهم إلى مـواليهم، وإذا مـاأراد واحـد من بـاروناتي، أو من باقي رعاياي، أن يعطي ابنته، أو أخته، أو حفيدته، أو أية انثى قريبة له، للزواج، عليه طلب إذني حول هذه المسألة، وأنالن آخذ أيا من ممتلكاته في سبيل منح إذني، كما أنني لن أمنع اعطـائهـا للزواج، بـاستثناء أنه إذا رغب بإعطائهـا لواحـد من أعـدائي، وإذا حـدث لـدى وفـاة بارون ، أو أحـد من رعيتي الآخرين مـات، وترك وريثة هي ابنتـة، أنا سوف أقـوم— بناء على مشورة باروناتي— باعطائهـا زوجـة مع أرضها، وإذا حـدث لدى وفـاة زوج، أن بقيت زوجتـه من دون أولاد، فإنها سوف تأخـذ بائنتهـا من أجل أن تكون بمثـابة حصـة زواجهـا، ولن أعطيها زوجـة إلى زوج آخـر مـالم يكن ذلك بمـوافقتها، لكن إذا مـاعـاشت زوجـة ولها أولاد، إنها سوف تنال بائنتهـا

بمثابة حصة زواج، مادامت متولية حفظ نفسها وفقاً للقانون، وأنا لن أعطيها إلى زوج مالم يكن ذلك بموافقتها، وسوف تكون الوصاية على أرض الأطفال إما للزوجة، أو لواحد من أقرب الأقرباء، يكون حقيقاً بذلك وجديراً، ولسوف أفرض على باروناتي أن يتصرفوا بالطريقة ذاتها نحو أبناء وبنات، وزوجات المتعلقين بهم، فضلاً عن هذا إن المال العام الذي كان يؤخذ في أيام الملك ادوارد، قد جرى منعه منذ الآن، وإذا ماجرى اعتقال أي انسان سواء أكان ضارب نقود، أو شخص آخر، مع نقود مزيفة، ينبغي تطبيق العدالة الدقيقة عليه مقابل ذلك، وجميع المرافعات والديون العائدة والمستحقة لأخي الملك، إنني قد تنازلت عنها، باستثناء ماعاد إلى ضماناتي والديون التي جرى التعاقد عليها من أجل وراثة الآخرين، أو بالنسبة لتلك الأشياء العائدة بشكل صحيح إلى الآخرين، وإذا ماأوصى أي انسان بأي شيء بعقد لميراثه، إنني أعفيه، وأعفو عن جميع البدلات التي جرى العقد عليها من أجل مواريث صحيحة، وإذا ماكان واحداً من باروناتي أو من رعيتي مريضاً، فانني سوف أوافق على أي توزيع سوف يعمله بأمواله، وإذا لم يقم خلال الخدمة في الحرب أو المرض بتوزيع أمواله، فبإمكان زوجته، أو أولاده، أو أبويه، والمتعلقين الشرعيين به، توزيعها لصالح فائدة روحه، كما يرون أن ذلك هو الأفضل بالنسبة لهم، وإذا ماأراد أي بارون أو أي واحد آخر من رعيتي أن يعمل تكفيراً، إنه لن يدفع كفالة لحماية ماله، كما كان يفعل في أيام أبي، أو في أيام واحد من أجدادي، وإذا ماأدين أي واحد بالخيانة، أو بجريمة أخرى، فإن عقوبته سوف تكون حسب خطيئته، وإنني أعفو عن جميع جرائم القتل التي اقترفت قبل اليوم الذي توجت فيه ملكاً، لكن الجرائم التي اقترفت بعد ذلك، فإنها سوف تعاقب وفقاً لقانون الملك ادوارد، ولقد احتفظت بحوزتي بجميع الغابات التي كانت بيد أبي كما احتفظ بهم، وعلاوة على ذلك جميع الفرسان الذين يستحوزون أراضي مقابل خدمات، مسموح لهم من الآن فصاعداً الاحتفاظ بممتلكاتهم محررة من جميع الغرامات، ومن

الخدمات الشاذة، ذلك أنهم وقد أعفيوا هكذا من حمل ثقيل، يمكنهم تجهيز أنفسهم بشكل أفضل بالخيول وبالسلاح، وبذلك يكونون موائمين وجاهزين لخدمتي، وللدفاع عن مملكتي، وانني أمنح سلاماً مؤكداً في جميع مملكتي، وآمر بالحفاظ عليه من الآن فصاعداً، وأعيد إليكم قانون الملك ادوارد، مع التعديلات التي أجراها والدي، بوساطة نصائح باروناته، وإذا ماأخذ أي انسان أي شيء هو عائد إليّ، أو من ممتلكات أي شخص آخر، منذ وفاة أخي الملك وليم، عليه أن يعيد ذلك فوراً من دون أي تبديل، وإذا مااحتفظ أي انسان بأي شيء من ذلك، وجرى اكتشافه، فوقتها عليه أن يعوض إليّ بشكل ثقيل.

شهد: موريس أسقف لندن، ووليم الأسقف المنتخب لوينكستر، وجيرارد أسقف هيرفورد، والايرل هنري، والايرل سيمون، والايرل وولترجيفورد Gifford ، وروبرت دي مونتفورت، وروجر بيغود، وآخرون كثر».

وعندما جرت قراءة هذه الورقة، وتم استيعاب مقصدها من قبل البارونات الذين سمعوها، كانوا مسرورين كثيراً بها، وأقسموا جميعاً بحضور رئيس الأساقفة، بأنهم عندما سيرون فرصة موائمة، سوف يقفون مطالبين بحقوقهم، وإذا اقتضى الأمر سوف يموتون في سبيلها، وبإخلاص وعدهم رئيس الأساقفة أيضاً بمساعدته، بقدر ما هو متوفر بطاقته، وما أن تمت الموافقة على هذه المسألة واقرارها فيما بينهم، حتى ارفض الاجتماع، وانتهى المؤتمر.

حول هرطقة الألبينيين واعلان حملة صليبية ضدهم

وفي تلك الأونة كسب الهراطقة الفاسدون، الذين عرفوا باسم الألبينيين، والذين سكنوا في غاسكوني ، وفي أرومنياArumnia، وألبي Alby ، قوة عظيمة، في المناطق حول طولوز، وفي مملكة أرغون، حتى

أنهم لم يكتفوا بممارسة هرطقتهم سراً، كما كانوا يفعلون في المناطق الأخرى، بل إنهم بشروا بعقيدتهم الخاطئة بشكل مكشوف، وأقنعوا البسطاء وضعفاء العقول بالالتحاق بهم، وعرف الألبينيون بهذا الاسم نسبة إلى مدينة ألبا Alba ، حيث يقال بأن تلك العقيدة قد نشأت فيها، وأثارت أخيرا طائفتهم الشريرة غضب الرب بشكل كامل لدى تحديهم له، ونشرهم لكتبهم المتضمنة عقيدتهم بين الطبقات الدنيا، أمام أعين الأساقفة والكهنة، حيث لم يقيموا تقديراً لالكأس القربان، ولا للأواني المقدسة، ولا احتراماً لجسد ودم المسيح، وحزن البابا انوسنت حزناً عظيماً لدى سماعه بهذه الأشياء، وأرسل على الفور وعاظاً ومبشرين إلى جميع مناطق الغرب، وفرض على الزعماء والأناس المسيحيين الآخرين، وجوب حمل شارة الصليب في سبيل التحلل من ذنوبهم، ومن أجل استئصال هذا الوباء، وفي مواجهة لمثل هذه الكارثة، عليهم حماية الشعب المسيحي بقوة السلاح، وأضاف أنه بموجب سلطات الكرسي الرسولي، فإن كل من يشارك في أعمال الإطاحة بهذه الهرطقة، وفقاً لوصاياه، سوف يكون مثل الذين زاروا ضريح الرب، ولسوف تشمل الحماية للمشاركين كل من ممتلكاتهم وأشخاصهم وبناء على هذا التبشير اجتمعت حشود كبيرة جداً من الصليبيين، ولم يكن من الممكن تصديق الأعداد التي احتشدت في بلادنا.

زحف الصليبيين ضد الألبينيين

وبناء عليه عندما احتشدوا جميعاً، واستعدوا للقتال، قوض رئيس أساقفة نربونة، ونائب الكرسي الرسولي، وكانا في هذه الحملة، وقادة الجيش، وهم دوق بيرغندي، وكونت نافار، وكونت مونتفورت، معسكرهم، وزحفوا لإلقاء الحصار على مدينة بيزير Beziers، لكن قبل أن يصلوا إليها هرب عدد من أصحاب بعض القلاع، لأنهم امتلكوا ثقة صغيرة في أنفسهم، وجاء فرارهم لدى رؤيتهم لجيش الصليبيين، وقام

الفرسان والآخرون الذين تركوا مسؤولين عن القلاع المذكورة بالمضي بجرأة، بحكم أنهم كانوا كاثوليك جيدين، وسلموا أنفسهم مع ممتلكاتهم، وكذلك القلاع إلى الجيش الصليبي، وسلموا في عشية عيد القديسة مريم المجدلية قلعة سيرمين Cermaine الفخمة إلى الرهبان، وقام صاحب القلعة الذي امتلك عدة قلاع أخرى حصينة جداً، بعدما هرب مع آخرين، بانذار أهل مدينة بيزير، من خلال أسقف تلك المدينة، وذلك تحت التهديد بعقوبة الحرمان الكنسي، بأن عليهم اختيار واحداً من أمرين: إما أن يسلموا الهراطقة مع ممتلكاتهم إلى أيدي الصليبيين، أو أن يتولوا طردهم من بينهم، وإلاّ فإنهم سوف يحرمون كنسيا، وستكون مسؤولية دمائهم على رؤوسهم، ورفض الهراطقة مع حلفائهم بغضب القبول بهذا، وتبادلوا الأيمان بالدفاع عن المدينة، وعندما تعاهدوا وأدوا أيمانهم، كانوا يأملون بأن يكونوا قادرين على المقاومة والتصدي لحملات الصليبيين لوقت طويل، وبعدما وضعت المدينة تحت الحصار، في يوم عيد القديسة مريم المجدلية، بحث البارونات الكاثوليك عن وسيلة يمكنهم فيها انقاذ الذين كانوا بينهم في المدينة وكانوا كاثوليك، وقاموا بالمفاتحة من أجل تحريرهم، لكن الرعاع والطبقات الدنيا من الناس، قاموا بالهجوم على المدينة، من دون انتظار تلقي الأوامر من قادتهم، ومما أدهش المسيحيين، أنه عندما ارتفع نداء، إلى السلاح، وكان الجيش المؤمن مندفعاً من جميع الاتجاهات، قام الذين كانوا يدافعون عن الأسوار من الداخل برمي كتاب الانجيل من المدينة عليهم، وهم يشتمون اسم الرب وجدفوا ضده، وسخروا من مهاجميهم وقالوا: « انتبهوا إننا لانأخذ بشريعتكم، شريعتكم سوف تظل شريعتكم»، وثار غضب جنود الايمان بمثل هذا التجديف، واندفعوا في حملاتهم، وتمكنوا خلال أقل من ثلاث ساعات من الزمان من عبور الخندق، وتسلقوا الأسوار بعون الرب، وبذلك تمّ الاستيلاء على المدينة وقد نهبت في اليوم نفسه وأحرقت، ووقعت مذبحة عظيمة في صفوف الكفار، جاءت بمثابة عقوبة من الرب، وفي ظل حمايته، جرى قتل عدد

ضئيل جداً من الكاثوليك، وبعـد مضي وقت قصير، عندما انتشرت أخبار هذه المعجـزة في الخارج، فـرق الرب أمـام وجـه الصليبيين، الذين شتمـوا اسمه وجدفوا ضد شريعته، وجاء ذلك وكأنه من دون مساعدة الصليبيين، ثم ارتعب أخيراً أتبـاع هذه الهرطقـة الفاسـدة، إلى درجـة كبيرة، حتى أنهم هربوا إلى قمم الجبال، ولايمكن لانسان أن يصدق أنهم تركوا أكثر من مائة قلعة لاترام بين بيزير وكاركسون Carcassone ، مشحونة بالأطعمة، وبجميع أنواع المخزومات، مما لم يستطيعوا أخذه أثناء فرارهم.

الاستيلاء على مدينة كاركسون وعلى قلعتها

ونقل الصليبيـــون معسكرهم من هـذا المكان، ووصلوا في يوم عيـــد القديس بطرس« في الأغـلال»، إلى كاركسون، وهي مـدينة كثيفة السكان، وماتزال حتى الآن ممجدة بشرورها، وغنيـة بثرواتها، ومحصنة بشكل جيد، وقامـوا في اليوم التـالي بالهجوم، وخـلال ساعتين أو ثلاث سـاعات عبروا الخندق، وتسلقوا على الأسـوار، وسط زخات النشـاب من القسي الزيارة، وطعنات الرماح، وضربات سيـوف المدافعين الأشرار عنها، ونصبـوا بعد هذا آلات الحرب، وفي اليوم الثامن جـرى احتلال الربض الأكبر للمدينة، بعدمـا جرى قتل العدد الأكبر من الأعداء الذين عـرضوا أنفسهم من دون خـوف، وجـــرى تهديم أرباض المدينة، التي بدت وكـأنها أوسع من بلدة، تهديماً كلياً، وهكذا حـوصر الأعداء في الأزقة الضيقة للمـدينة، وعانوا من كثرة أعدادهم، وأكثر من ذلك من الحاجة إلى المؤن، ولذلك قدموا أنفسهم وجميع ممتلكاتهم مع المدينة إلى الصليبيين، على شرط الحفـاظ على أرواحهم صـدوراً عن الرحمة، وأن يجري الاحتفـــاظ بهم على الأقل لمدة يوم واحـد، وبعدما عقد البارونات اجتماعاً، تسلموا المدينة كما هي تحت الاكراه، وكان ذلك بالمقـام الأول— برأي الناس— لأنها عدّت لاترام، والسبب الثـاني، هو أنه لو جـرى تدمير تلك المدينة كليـاً، لن يكون هناك مكان لاقـامـة أي نبيل من الجيش، سوف يتولى حكم تلك المنطقة، كما أنه لن يوجد موضع في

المكان المحتل، يمكن له أن يسكن فيه، ولذلك: إن تلك الأرض التي سلمها الرب إلى أيدي عبيده، كان من الممكن الحفاظ عليها تشريفاً له، ولفائدة المسيحية، وجرى بناء عليه اختيار النبيل سيمون دي مونتفورت ايرل أوف ليستر، حاكماً لتلك المنطقة، وجاء ذلك بموافقة عامة من الأساقفة والبارونات، وإليه جرى تسليم النبيل روجر، الذي كان من قبل فيزكونت وحاكما لتلك المنطقة، ليكون سجيناً، وشمل التسليم المنطقة كلها، بما في ذلك حوالي مائة قلعة، قرر الرب خلال شهر واحد إعادتها إلى الوحدة الكاثوليكية، وكان بين هذه القلاع، بعضاً بلغن من القوة والمنعة، أن كن لا يخفن— برأي الناس— إلاّ قليلاً من أي جيش كان، وبعد هذا الانجاز، عاد كونت نافار إلى الوطن مع شطر كبير من الجيش، في حين تابع دوق بيرغندي اللامع وبقية الأمراء، وزحفوا مع جيوشهم للقيام بإفناء هذه الهرطقة الفاسدة، ووضعوا بعد هذا بين يدي الايرل سيمون دي مونتفورت المزيد من القلاع التي استولوا عليها إما بوساطة الترغيب أو الترهيب.

إرسال رسل إلى طولوز من قبل الصليبيين

وبما ان مدينة طولوز موصوفة—كما قيل—منذ زمن طويل بهذا الذنب الدنس،بعث البارونات رسلاً خاصين إلى رئيس أساقفة سانتونغ san-tong وأسقف فورولي Foroli وفيزكونت أوف سينت فلورينتوس Florentius وإلى اللورد أكالد دي روزيلون Roussilon وإلى سكان المدينة، مع رسائل منهم، آمرين إياهم بتسليم هراطقة تلك المدينة إلى جيش الصليبين، وذلك مع ممتلكاتهم، وذلك إذا صدف وقالوا بأنه لم يكن هناك هراطقة، فإن هؤلاء المذكورين والذين جرى ذكر أسمائهم عليهم القدوم إليهم، وعمل اعلان واضح عن ايمانهم، وفقاً للعادة المسيحية ولكن أمام الجيش كله، وإذا ما رفضوا فعل هذا، فإنهم سوف يحرمون كنسياً، بالرسائل نفسها، قادتهم الرئيسيين ومستشاريهم، ويضعون

بلدة طولوز مع متعلقاتها تحت حرمان من شراكة المؤمنين.

[وخلال ذلك العام نفسه، وأثناء الصيف التالي، نجم في فرنسا قيام عقيدة مزيفة، لم يسمع بمثلها من قبل، حيث قام شاب، كان ما يزال غلاماً في سنّه، لكنه صاحب عادات شريرة، قام بناء على إثارة من الشيطان، وذهب يتجول في المدن والقلاع في فرنسا، وهو ينشد بالفرنسية بهذه الكلمات: «أعد إلينا يا مولانا يسوع المسيح الصليب المقدس»وذلك مع اضافات أخرى كثيرة،وعندما رآه بقية الأطفال الذين من سنّه وسمعوه، تبعوه بأعداد ليس لها نهاية، وبما أنهم فتنوا بشرور الشيطان، تركوا آبائهم وأمهاتهم، وحاضناتهم، وجميع أصدقائهم، وصاروا يغنون بالطريقة نفسها مثل معلمهم،والذي كان مدهشاً ان ما من غلق كان من الممكن حبسهم فيه،كما لم يكن بالإمكان اقناعهم من قبل آبائهم ولا اعادتهم، وقد تبعوا معلمهم المذكور نحو شواطىء البحر المتوسط، وعبروه وساروا بمسيرات غنائية، ولم يكن بإمكان مدينة من المدن استيعابهم، بسبب أعدادهم،ووضع قائدهم نفسه في عربة مزينة مع سرير ومظلة، وقد أحيط بحرس مسلح كانوا يرفعون أصواتهم من حوله،وكانت أعدادهم كبيرة، حتى أنهم ضغطوا على بعضهم بعضاً، واعتقد أحدهم نفسه سعيداً، عندما كان يستطيع الحصول على خيط أو قطعة من ثيابه، لكن أخيراً، تآمر الشيطان الذي هو العدو القديم ضدهم، وهلكوا جميعاً إما على الأرض أو في البحر.

وفاة غيوفري فتز ــ بيتر

ومات في العام نفسه غيوفري فتز—بيتر، وكان ذلك في اليوم الثاني من تشرين الأول، وكان المسؤول عن العدالة في انكلترا كلها، وكان رجلاً قوياً جداً، وصاحب سلطة واسعة، وسبب موته حزناً عظيماً للملكة كلها، وكان هذا الرجل عموداً ثابتاً للكنيسة، وكان رجلاً صاحب عقل نبيل، وعليماً بالقوانين وبالخزينة والموارد، وقد تمتن بأعماله الجيدة، وكان حليفاً

إما عن طريق القرابة أو بروابط الصداقة، لجميع نبلاء انكلترا، ولهذا السبب خاف الملك من جانبه منه أكثر من خوفه من بقية رعيته، حيث كان لا يقيم أي اعتبار له، لأنه أمسك بأزمة الحكومة، ولذلك غدت انكلترا لدى موته مثل سفينة في البحر بلا ربّان، وكان هذا الاضطراب قد بدأ لدى موت هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، وكان رجلاً نبيلاً ومخلصاً، وبعد وفاة هذين الرجلين، لم يعد بإمكان انكلترا التنفس، ولدى وفاة بيتر المذكور، واخبار الملك جون بذلك، قال وهو يضحك: «دعوه عندما يصير في جهنم يقدم التحية إلى هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، وذلك انه سوف يجده هناك بدون أدنى شك»، ثم التفت إلى الذين كانوا جالسين من حوله، فأضاف وهو يقول: بحق قدمي الرب، إنني الآن للمرة الأولى ملك انكلترا وسيدها»، ثم إنه امتلك منذ ذلك الوقت سلطة أكثر حرية للعمل بشكل مضاد لأيمانه واتفاقاته، التي عملها مع غيوفري المذكور، وليحرر نفسه من أغلال السلام التي ورط نفسه بها، وبناء عليه كان آسفاً لأنه اقتيد لإعطاء الموافقة على السلام المتقدم ذكره.

ارسال الملك وهو يائس رسلاً إلى أمير المؤمنين

وبناء عليه أرسل على الفور رسلاً سريين هم: الفرسان توماس هاردنغتون Hardington ورالف فتز—نيقولا، وروبرت أوف لندن، وكان رجل دين، إلى أمير المؤمنين، الملك الكبير لأفريقيا، والمغرب، واسبانيا، وهو الذي كان يعرف بشكل عام بلقب أمير المؤمنين، ليخبره، بأنه متطوعاً سوف يسلم إليه نفسه ويسلم مملكته، وإذا ما رغب سوف يليها منه مقابل دفع الجزية، وهوسوف يتخلى عن العقيدة المسيحية، التي يعدها عقيدة مزيفة، وسوف يرتبط مخلصاً بشريعة محمد (صلى الله عليه وسلم).

ولدى وصول الرسل المتقدم ذكرهم إلى بلاط الأمير المتقدم الذكر، وجدوا عند الباب الأول بعض الفرسان المسلحين يتولون القيام بحراسة

مشددة، بسيوف مجردة، ووجدوا عند الباب الثاني لذلك القصر، عدداً أكبر من الفرسان المسلحين بشكل كامل، وكانوا أكثر أناقة في ملابسهم، وأقوى، وأعظم نبلاً من الآخرين، وقد تولى هؤلاء حراسة المدخل بدقة أكثر، بسيوف مجردة، وكان هناك عند باب الغرفة الداخلية عدداً أكبر من الحرس، ووضح من مظهرهم أنهم كانوا أقوى وأكثر حدة من الفرسان المتقدمين، واقتيدوا أخيراً بسلام، بإذن من الأمير نفسه، الذي يدعونه الملك الكبير، وأدخلوا إليه، وقام هؤلاء الرسل، بتقديم التحية باسم مولاهم ملك انكلترا، بكل احترام، وشرحوا شرحاً كاملاً أسباب قدومهم، وسلموا إليه بالوقت نفسه رسالة الملك، التي تولى مترجم، استدعي من قبله، تفسيرها إليه، وعندما فهم هدف الرسالة ومحتواها، قام هذا الملك الذي كان متوسط العمر، وسامياً، وله مظهر كله رجولة، كما كان فصيحاً، وواعياً حذراً في حديثه، قام بإغلاق كتاب كان ينظر إليه، لأنه كان جالساً وراء منضدة، حيث كان يدرس، ثم إنه بعدما فكر ملياً، وراجع الأمور مع نفسه، أجاب بلطف قائلاً :«كنت للتو أنظر في كتاب لحكيم اغريقي ومسيحي اسمه بولص، وقد كتب بالاغريقية، وقد أعجبتني أفعاله وأقواله كثيراً، وهناك على كل حال، أمر واحد متعلق به لم يعجبني، هو أنه لم يلتزم بحزم بالعقيدة التي ولد عليها، بل تحول إلى عقيدة أخرى، مثل هاجر ومتقلب، وإنني أقول هذا بالنسبة لمولاكم ملك الانكليز، الذي تخلى عن شريعة المسيحية التي هي الأكثر نقاء وتقوى، التي ولد في ظلها، وبما انه صاحب رغبات، ومتقلب، وغير مستقر، يرغب بالتحول إلى عقيدتنا»، ثم استطرد مضيفاً :«ويعلم الرب القادر العارف، أنني لو كنت بلا شريعة لقمت باختيار تلك الشريعة، ولدى قبولي بها، لتمسكت بها باصرار»، ثم إنه سأل عن أوضاع ملك انكلترا، وعن أحوال مملكته، وعلى هذا أجابه توماس، الذي كان الأكثر فصاحة قائلاً:«ينحدر الملك بشكل شهير ونبيل، من ملوك، كبار وأراضيه غنية، وفيها وفرة من جميع أنواع الثروات، في الزراعة، والمراعي، والغابات، ومنها يجري استخراج جميع

أنواع المعـادن وتصنيعها، وشعبنا شعب جميل بهي، وأصيل، وبارع بثـلاث لغـات هي: اللاتينيـة، والفرنسيـة، والانكليـزية، وكذلـك في متابعـة جميع الأعمال النظرية والعمليـة، وبلادنا—على كل حال— لا تمتلك بنفسهـا أية كميـات من كـروم العنب وأشجـار الزيتـون، وليس فيهـا أيضـاً أشجـاراً مناسبـة، لكنهـا تحصل على هذه الأشياء بكميـات كبيرة وافـرة من البلدان المجاورة عن طريق التجارة، والمناخ فيهـا صحي ومعتدل، وهي واقعة بين الغـرب والشمال، وتتلقى الحرارة من الغــرب، والبرد من الشمال، وتتمتع بأنواء هي الأكثـر مواءمـة، وهي محاطة تمامـاً بالبحـر، ولذلك تدعى باسم ملكة الجزر، ومملكتنا تحكـم منذ القـدم مـن قبل ملوك معمــدين، وشعبنا شعب حر، ويتمتع بالرجـولة، ولا يعترف بسلطان أحد إلا سلطان الرب، وكنيستنا وطقوسنا الدينيـة محترمة هناك أكثر من أي جـزء من العالم، وهي تحكم بسـلام بموجب قـوانيين البـابا وقوانيين الملك»، وتنهـد الملك بعمق لدى انتهــاء هذا الكلام، وأجــاب:« إنني لم أقـرأ قـط ولم أسمع بأن ملكاً يمتلك مثل هذه المملكة المزدهرة، التـي هي خـاضعـة له ومطيعـة، يرغب هكذا عن طواعيــة بتـدمير سلطانه بوضع بلاد هـي حـرة لأن تكون تحت الجزية، وذلك بإعطـاء غـريب مــا هو له وخــاص به، وبابدال السعــادة بالتعاسة، وبوضع نفسه على هـذه الصورة تحت إرادة واحد من الآخرين، بحيث يستــولي عليهــا هكذا من دون أذى، ولقــد قــرأت—بالحري— وسمعت من كثيرين بـأن كثيراً من الناس يشترون الحرية لأنفسهم مقــابل أنهار من دمــائهم، الذي هو عمل محمـود، لكننـي أسمع الآن بأن ملككم التعيس خامل وجبان، وهو لا يسـاوي شيئاً، لأنه يرغب بتحويل نفسه من رجل حـر إلى إنسـان عبد، فمثل هـذا هو أتعس الكائنات البشرية»، وسأل بعد هذا بإزدراء، مـا هو عمره، وحجمـه،وقوته،وفي جـواب لهذا السؤال، أخبر بأنه كان في الخمسين، أشيب تماماً، وقـوياً في جسده، ليس طويلاً، بل هو بالحري مـربوع مـدملج، وله شكل مناسب للقـوة، ولدى سماع المللك بهذا قال:«إن شبـابه وشجاعتـة ورجولتـه قد اختمـرت، وبدأ الآن يصبح

أكثر برودة، وخلال عشر سنوات—إذا عاش كذلك—سوف تنهار شجاعته، ولسوف تخونه قبل ان يتمكن من انجاز أي عمل صعب، وإذا ما بدأ الآن هو سوف يسقط نحو الانحدار، وسوف لن يكون صالحاً لشيء، لأن الانسان ابن الخمسين يغرق بعدم الادراك، ويعطي ابن الستين دلائل تشير إلى الانحدار، دعوه يحصل ثانية على سلام لنفسه، ويتمتع بالراحة»، ثم إنه بعدما قرأ جميع الأسئلة، وأجاب الرسل، انفجر بعد وقت قصير بالضحك، وذلك كعلامة على التعالي والغضب، ورفض عرض الملك جون بهذه الكلمات:«ذلك الملك هو بلا تقدير، لكنه ملك صغير، بلا عقل، وقد غدا عجوزاً، وأنا لا أهتم به، ولا أبالي به، وهو غير جدير بأي تحالف معي»، وبالنسبة لرالف وتوماس قال وهو ينظر إليهما شذراً:«لا تأتيا إلى حضرتي ثانية، ولا تدعا عينيكما تريا وجهي ثانية، إن شهرة، أو بالحري عدم شهرة ذلك الأحمق المرتد، الذي هو سيدكم، تصدر عنه رائحة كلها نتانة أشمها بأنفي».

وأخذ الرسل وقتها ينصرفون، وهم يشعرون بالخجل، عندها رأى الأمير روبرت الكاهن، الذي كان ثالث الرسل، والذي كان رجل دين صغير، ذراعه الأول أطول من الثاني، وأصابعه جميعاً مشوهة ذلك ان اصبعين كانا ملتصقين، وكان له وجه مثل وجه يهودي، فاعتقد أن مثل هذا الرجل اللافت للتأمل بشكله، ما كان ليرسل لتدبير أمور صعبة، ما لم يكن حكيماً وماهراً، وفهيماً متعلماً، ولدى رؤيته لقلنسوته الرهبانية، ورأسه الحليق في وسطه، أدرك من ذلك بأنه كان رجل دين، وهنا أمر الملك باستدعائه، لأنه عندما كان الآخران يتكلمان وقف هو حتى ذلك الحين صامتاً، على مسافة منه، ولذلك احتفظ به، وأبعد الآخرين، ثم كان له حديث سري طويل معه، وكان محتوى ذلك الحديث وفحواه—كما أباح روبرت ذلك فيما بعد لرفاقه—هو أن ذلك الملك قد سأله عما إذا كان الملك جون له طبائع عادية، وعما إذا كان له أولاد شجعان، وعما إذا كان

يمتلك طاقة طبيعية كبيرة، وأضاف أنه —أي روبرت—إذا ما كذب عليه في هذه المسائل، هو لن يصدق مسيحياً ثانية، لا سيما إذا كان رجل دين، ثم إن روبرت— بناء على وعده كمسيحي— وعده بأن يعطيه إجابة صحيحة على جميع الأسئلة، التي سوف يطرحها عليه، وبناء عليه أجاب بشكل مؤكد، ان جون كان طاغية، وليس ملكا، ومدمرا أكثر منه حاكما، وظالما لشعبه، وصديقا للغرباء، وأسد على رعيته، وحمل بالنسبة للأجانب وللذين يقاتلون ضده، فبسبب فسولته وتراخيه، قد فقد دوقية نورماندي، وكثيرا من مناطقه الأخرى ، وأكثر من هذا،هو متشوق لفقدان مملكة انكلترا، أو لتدميرها، وهوجشع في استخراج المال، ومهاجما ومدمرا لممتلكات رعاياه الطبيعيين، وقد أنجب قليلاً من الأولاد الأقوياء، أو بالحري لم ينجب أبداً أحد بشكل مطلق، بل فقط أولاداً على غرار أبيهم، وله زوجة مكروهة من قبله ومكروه من قبلها، زواجه لها سفاحاً، وهي شريرة، ومكشوفة، وإمرأة زانية، وبالنسبة لهذه الجرائم غالباً ما وجدت وهي مجرمة، وبناء عليه أمر الملك باعتقال عشاقها، وخنقهم بالحبل فوق فراشها، وعلى الرغم من هذا كله، إن هذا الملك نفسه حسود لكثير من نبلائه وأقربائه، وقد فضح بناتهم وأخواتهم اللائي كن في سن الزواج، وبالنسبة لمراعاته للديانة المسيحية هو متقلب ولا يمكن الوثوق به كما سمعت». وعندما سمع الملك الأمير هذا كله هو لم يكتف بكراهية الملك جون كما فعل من قبل، بل ازدراه، ووفقاً لشريعته لعنه، وأضاف:«لماذا يسمح الانكليز البؤساء لمثل هذا الرجل ان يكون حاكماً وسيداً عليهم؟ لا شك أنهم خاملين وعبيد»، فأجابه روبرت:«إن الانكليز أكثر الناس صبراً، حتى تجري اثارتهم وإلحاق الأذى بهم خارج حدود الاحتمال، وهم الآن مثل أسد، أو فيل، عندما يشعر نفسه قد جرح، أو يرى الدم، وهم الآن حانقون، ومستعدون، ويعملون —مع أن ذلك جاء متأخراً—لإزالة نير الظالم من على رقابهم، ولدى سماع الملك الأمير لهذا، لام الأناة اللينة للانكليز، التي أكد المترجم الذي كان موجوداً طوال الوقت، أنها بالحقيقة خوف، وتحادث الملك مع روبرت حول عدة

موضـوعات أخرى إلى جـانب هذا الموضوع تحدث فيها بعـد روبرت عنها وأخبرها رفـاقه في انكلترا، ثم إنه قـدم إليـه بعد ذلك عـدة هدايا ثمينة من الذهب والفضـة ومختلف أنواع الجواهر والحرير، ثم صرفـه وفق اتفاقـات صداقة، لكنه لم يقـدم التحية للرسولين الآخرين عنـدما تركاه، ولم يشرفهما بأية هـدايا، ثم إنهم عـــادوا إلى الوطن، وأخبروا جـــون بكل الذي رأوه وسمعوه ، وقـد بكى بحرقة في نفسـه بسبب إزدرائه من قبل الملك الأمير، ولأنه صد بالنسبـة لمقاصده،وقـام روبرت—على كل حال— بعـدم تقديم الهدايا الأجنبيـة التي منحت له، إلى الملـك، ولم يعـرفـه بها،مع أنه كـان من الواضح بأنـه استقبل بعناية أكبر من الآخـــرين، وذلك على الرغـم من أنه صد في البداية، وأمر بالتزام الصمـت، ولهذا السبب أكرمه الملك جون أكثر من الآخـــرين، ومنحــــه عن طـريق المكافـأة—هذا المصـــادر المغتصب الشرير—المسؤولية عـن دير القديس ألبان، مع أن رئاستـه لم تكن شاغرة، وهكذا منح هذا المعتدي على الإيمان غصبـاً لكاهنه ما كـان ملكاً لآخر، ثم قـام روبرت هذا دون الرجـوع إلى رأي آخـر،وعلى الرغم من إرادة راعي الدير القـائم، وهوجـون دي سل Cellالذي كـان رجلاً عظيم التـــدين، ومن أكثـر الناس علماً، فاستـولى على كل شيء، كان آنذاك في الكنيسـة وفي الدير حسبما رغب، ووظف ذلـك كله لاستخـدامـاته الخاصـة، وأثناء كل وكـالة، ندعوها، نحن طاعـة، عين لنفسه حـاجباً، يتسم بالحزم، وبالقـدرة على البحث عـن كل شيء، وبتلك الـوســـائـل استطاع روبرت، الكـاهن المذكور، خداع الكهنة والرهبان وابتزازهم بمبلغ يزيد عن ألف مارك، وقد أقـــام—على كل حـــال—تقـــديراً لبعض الخدم الرئيسيين لراعـي الدير، ولراهب من سينت ألبان، اسمه لورانس، وكان فارساً لدى المفوض العام، وإلى لورانس الكاهن، وإلى المعلم وولتر الراهب، الذي كان أيضـاً رساماً، وقد احتفظ بهم أصـدقاء مقربين منه، وإليهم كـان يظهر مجوهراته، والهدايا الأخـرى السرية التـي نالها من الأمير، كما كـان يقص عليهـم الذي جـرى بينهما، وكـــان متى هو الذي سمـع ذلك، وهو الذي كتـب هذه الحوادث

ورواها.

قرار جون بوضع انكلترا تحت الحكم البابوي

وبدأ الملك جــون منذ ذلك الحين، في تمتين هدفـه، الـذي فكر بالتراجع عنه، وأن يجعل الوضع أسـوأ فـأسـوأ، لصـالح تدهور المملكة، وقـد كـره —مثل أفعى ســـامـــة—جميع الناس من ذوي المراتـب النبيلة في المملكة، وبشكل خاص سيردي كـوينسي، وورويرت فتز— وولتر، وستيفن رئيس أساقفة كـانتربري، وكان يعلم من خلال كثير من التجارب، بـأن البابا كان أكثر طموحـاً من بقية الناس، متفاخراً، ومتعطشـاً يسعى وراء المال، وكان مستعداً لاقتراف أي ذنب مقابل جـائزة، أو الوعد بمكافأة، ولذلك أرسل رسلاً، مع أوامر بالاسراع، وحـول معهم مبلغاً كبيراً من المال، له، مع وعد بالمزيد، وأنه سـوف يكون دوماً خـاضعاً له، يؤدي إليـه الجزية، على شرط، أن يسعى عندما تتوفر الفرصـة، لتحقير رئيس أساقفة كانتربري، وأن يحرم كنسيـا بارونات انكلترا، الذين وقفوا مـن قبل إلى جانبـه، وتشوق متطلعـاً لالحاق شروره بهم، بحـرمانهم من مـواريثهم، وسجنهم، وقتلهم، عندمـا يجري حرمانهم كنسيا، وهذه الخطط الشريرة التـي أبدعها، قد تولى تطبيقها وتنفيذها بشرور أعظم، كما سيأتي الحديث فيما بعد.

اهتمامات الملك جون بآرائه الشريرة حول الإيمان

وأصبح الملك جون في هذه الآونة مجنوناً، حتى أنه تصور أفكاراً شريرة حول قيـامة الموتى وقضايا أخرى تعلقت بالديانة المسيحيـة، وتفوه ببعض الألفـاظ الحمقاء التي لم يسمع بمثلهـا من قبل، ونعتقد أنه من المفيـد رواية حكـاية واحـدة من ذلـك، فقـد حدث أن جرى امسـاك وعل سمين جداً في الصيـد، وعندمـا أحضر لسلخـه بحـضرة الملـك، ضحك وقـال سـاخراً:«كم هو سمين هذا الحيـوان، مع أنه كبر من دون أن يسمع قداسـاً قط».

غلبة أمير المؤمنين وفراره

وعـزم في هذه الآونة الملك أو أمير المؤمنين، الذي ورد ذكره أعـلاه، مع جيش كبير كـان قـد حشده،مع مـوافقـة جـون، كما قلنا من قبل، وأراد أن يستـولي بالقوة، على مملكة اسبـانيـا، وقد تشجع بسبب تقلب الملك جـون بالنسبة للعقيدة، وبسبب حرمـان مملكته من شراكة المؤمنين، وملك الجرأة، لكن الذي حـدث هو أن المسيحيين من أتباع ملك اسبـانيا، عندمـا سمعوا بهذا، تصـدوا له بشجاعـة ومزقـوا جيشه كله، وطردوه من البـلاد، وذلك بعـدمـا قتلوا أكبر أولاده، واستـولوا على رايتـه الملكيـة(١)، وكـانت هذه المعـركة ستكسب ملك أراغـون، وتعطيه شهـرة أبدية، لولا انه تكبر كثيراً وتعجـرف، وقـام بلا مبـالاة فـانتـزع من سيمـون دي مـونتفـورت، جميع الأرض التي حصل عليهـا من الألبينيين ليتـولى حكمهـا والاحتفـاظ بها، وجاء انتزاعه لها، على الرغم من تحريم البابا، الذي طلب منه عدم انتزاعها، ولذلك أشعل بعمله هذا حرباً ضده شخصياً].

وفي الرابع عشر من تشرين أول، مات غيوفري فتز—بيتر، المسؤول عن العدالة في انكلترا، وأنهى حياته.

موت ملك أراغون في موريلي

وكان في هذه الآونـة جرى تتويج ملـك أراغون في روما، من قبـل البابا انوسنت، لكن مع أنه قـد تلقى أوامر دقيقـة جـداً، بعدم تقـديم المساعـدة لأعـداء العقيـدة، أو إبداء اللطف نحوهـم، لم يلتزم بتقـوى بأوامـر الأب المقدس، فقام بلا مبالاة بالعمل ضد الوصاية الرسولية، ذلك أنه ما أن عاد إلى الوطـن حتـى التحـق بهراطقـة، تلـك المنطقـة نفسها، التي جـرى للتو

١— هذه المعركة هي معركة العقاب سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٣م/، التي خسرها محمد الناصر لدين الله الموحـدي، وشكلت نتـائج هذه المعـركـة كـارثة حقيقيـة على الدولـة الموحـدية، وعلى عـرب الأندلس، انظر الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ١٦٠—١٦١ .

استردادها، تحت قيادة الرب وذلك بمساعدة الصليبيين، واتحد مع كونتات طولوز، وفويكس Foix وكومني Commengesوقام بصحبة سكان طولوز وجيش كبير، في اليوم الثالث من الاسبوع، بعد ميلاد القديسة مريم، وألقى الحصار على قلعة موريلي Murelle وبناء على هذه الأخبار، تلقى الآباء المبجلون: أساقفة طولوز، ونسمي NISMES والقديسة أغاثا، وبوردو، وأوز Uzes ولوفين، وكومني، ورعاة ديرة: كليرفو، ومانفيل Magneville والقديس تايبيروس، الأوامر بالاجتماع، من رئيس أساقفة نربونة، الذي كان نائب الكرسي الرسولي، من أجل تدبير أعمال الحملة الصليبية، وانطلقوا مع بعضهم مع سيمون دي مونتفورت، ومع جيش من الصليبيين، لتقديم العون إلى القلعة المحاصرة، ووصلوا في يوم الأربعاء، من الأسبوع المشار إليه أعلاه إلى قلعة إسمها سافاردون Savardon،ومن هناك أرسلوا رسلاً إلى القادة الذين كانوا يتولون الحصار عند موريلي، حيث قالوا بأنهم جاءوا للتفاوض معهم حول السلام، ولهذا رغبوا بالحصول على أمان يمنح لهم، وفي اليوم نفسه غادر الجيش الصليبي سافاردون، لأن الضرورات الملحة اقتضت ذلك وتطلبته، وأسرع ذلك الجيش لتقديم العون لقلعة موريلي، وقرر—على كل حال— الأساقفة الذين تقدم ذكرهم الإقامة عند قلعة اسمها هانترايف Hanterive ، وذلك في منتصف الطريق ما بين سافاردون وموريلي، حيث كانت على بعد فرسخين عن كل منهما، وأقاموا هناك ينتظرون عودة رسلهم، وعندما عاد هؤلاء ، جلبوا رسالة إلى الأساقفة من ملك أراغون، بأنه لن يمنحهم أمان، لأنهم وصلوا مع مثل هذا الجيش الكبير، الذي هم ليسوا بحاجة إليه، ولدى سماع الأساقفة بهذا دخلوا إلى موريلي مع الجيش الصليبي، في يوم الأربعاء من الأسبوع نفسه، ثم انهم أرسلوا على الفور اثنين من رجال الدين إلى الملك، وإلى سكان طولوز، لكنهما استقبلا بالمجافاة والسخريةمن قبل الملك في الجواب الذي أعطاه، ذلك لأنهما أرادا عقد مؤتمر معه، حول الأربعة البذيئين، الذين جلبهم الأساقفة معهم، هذا

وأخبرهما سكان طولوز—أي الرسولين— بأنهم متحالفين مع ملك أراغون، وأنهم لن يفعلوا شيئاً، إلاّإذا توافق مع رغبات الملك المذكور.

وعندما أخبر الرسولان هذا إلى الأساقفة ، قررهؤلاء الذهاب حفاة إلى الملك برفقة رعاة الديرة، ولدى اقترابهم على هذه الصورة، جرى اخبار الملك بذلك، ففتحت أبواب المدينة، وهنا كان ايرل مونتفورت وجميع الصليبيين غير مسلحين، لأن الأساقفة قد ذهبوا للتفاوض من أجل السلام، ومع ذلك حاول أعداء الرب أن يشقوا طريقهم بالقوة إلى البلدة، لكن بنعمة من الرب جرى صدهم ولم يحققوا ما نووه، ولدى رؤية الايرل مع الصليبيين عجرفتهم، وأنهم هم أنفسهم قد تطهروا كلياً من ذنوبهم بوساطة الندم في القلب ، وبالاعتراف الفعلي، صبوا على أنفسهم أسلحتهم، وذهبوا إلى أسقف طولوز، الذي كان مكلفاً بأعمال النائب البابوي هناك، وذلك بموجب صلاحيات السيد رئيس أساقفة نربونة، ولقد سألوه بتواضع وطلبوا إذنه للانقضاض والهجوم ضد أعداء الايمان، وكانت الأوضاع متأزمة، ولذلك جرى منح الإذن إليهم، وبناء عليه حملوا، بإسم الثالوث المقدس، على أعدائهم، أعداء الإيمان، على شكل ثلاث تشكيلات، وقدم أعداء الإيمان من جانبهم، وتقدموا من معسكرهم الحصين، على شكل عدة كتل من العساكر، ومع أنهم كانوا حشداً كبيراً بالمقارنة مع الصليبيين، فإن عبيد المسيح، اعتمدوا على مساعدته، وتسلحوا بالشجاعة من عليين، ولذلك قاتلوهم بجرأة، وتمكنوا على الفور،بفضل العلي الأعلى، بأيدي أتباعه، من شق طريقهم خلال الأعداء، وسحقوهم في لحظة ، لأنهم أداروا ظهورهم، وهربوا مثل الغبار أمام الريح، وقد نجا بعضهم من الموت تماماً بوساطة الفرار، ونجا بعضهم من السيف، لكنهم هلكوا بالماء، بينما جرى قتل آخرين في ميدان المعركة، ذلك أن ملك أراغون اللامع كان بين الذين سقطوا قتلى، ولأنه كان قد اتحد مع أعداء الإيمان، فقد توفر حزن عميق لذلك، ولأنه أغضب بصورة شريرة الكنيسة

الكاثوليكيـة، هذا ومن غير الممكن، بأية وسيلة من الـوسائل، ذكـر العـدد الصحيح للذين قتلوا، لكن بالنسبة للصليبيين، لقد فقدوا فارساً واحداً إلى جانب قلة من الجنود قد قتلوا، ووقعت هذه المعـركة، في اليوم السادس من الاسبوع، بعد ثمانية ميلاد القديسة مريم، في شهر ايلول من عام ١٢١٣.

وصول نيقولا أسقف توسكولوم والنائب للكرسي الرسولي إلى انكلترا

وفي أيام عيـد القديس ميكائيل من العـام نفسه، جـاء إلى انكلترا نيقولا أسقف توسكـولوم Tusuclum ونائـب الكرسي الرســـــولي، وحل -بوسـاطة السلطة الرسـوليـة -الخلاف بين العرش والأسـاقفـة، ومع أن البلاد كانت تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، استقبل في كل مكان بحفاوة وبمسيرات مهيبة، ومع الموسيقى، والناس وقـد ارتدوا ثياب العيد، ولدى وصوله إلى وستمنستر، قام على الفور بتجريد وليم راعي الدير، الذي اتهم من قبل رهبـانه. بتبـديد النفقات، وبعـدم القـدرة على كبح نفسه جنسيـاً، وجـاء إليـه إلى المكان نفســه، سكـان أكسفـورد، يطلبـون التحليل، بحكم نيابتـه، وبشأن فرضية الكاهنين، اللذيـن أتينا على ذكرهما أعلاه، وكـانا قد شنقا، فعين عقـوبة توبة لهم بين أشياء أخرى، بأن أمـرهم بالذهاب إلى كل واحدة من كنائس المدينة، وأن يخلعـوا أرديتهم، وأن يكونوا حفاة، حاملين للأســواط في أيديهم، وأن ينشـدوا هناك المزمـور الخامـس عشر، وبذلك يحصلون على التحليل من كهنة الأبـرشيـات، وقـد سمح لهم بالذهاب إلى كنيسة واحدة في كل يوم، وذلك حتـى يكون الآخرون خائفين في المستقبل من اظهار مثل تلك الوقـاحة، وهكذا حدث أن النائب البـابوي الذي جاء إلى انكلترا مع سبعة خيـالة في ركابه، مالبـث بعد قليل أن سار خـارجاً مع قطار تألف من خمسين، ويحيط به لخدمته حاشية كبيرة جداً، وأخيراً اجتمع رئيس أساقفة كانتربري مع أسـاقفة ونبلاء المملكة في لندن، بحضور الملك والكاردينال، وهناك جرى نقاش لمدة ثـلاثة أيام بين العرش والكهنة حول

خسائر الأساقفة وممتلكاتهم المصادرة، وتمّ إثر ذلك تقديم عرض من قبل الملك، يكون بمثابة تعويض كامل، وهو دفع مبلغ مائة ألف مارك فضي على الفور، واذا ماتبين من خلال البحث أن حراس الكنائس أو وكلاء الملك الآخرين قد أخذوا، أكثر من هذا المبلغ، فقد تعهد الملك المذكور بموجب يمين أداه مع تقديم ضمانات، بأنه بموجب قرار من الأساقفة والنائب البابوي نفسه، سوف يعمل ترضية قبل الفصح المقبل، تكون كاملة شاملة لجميع ممتلكاتهم المصادرة، ووافق النائب البابوي على هذا، ورغب في تسوية الأمور على الفور، وكان غاضباً لعدم قبول العرض على الفور، ولذلك توفرت شكوك بأن النائب البابوي قد انحاز إلى جانب الملك أكثر من انحيازه إلى الحق، ورغب الأساقفة -على كل حال -في إطالة الأعمال وتأجيلها، مستهدفين إلى وضع شروط للعرض، من أجل، أنهم بعدما يعقدون اجتماعاً، يعملون استقصاءً حول الممتلكات المصادره، وحول خسائرهم، حتى يكون بقدرتهم فيما بعد اعلان المبلغ الذي توصلوا إليه، وتحديد حجم خسائرهم، وأن يتسلموا في الوقت نفسه المبلغ الذي طالبوا به، ولدى سماع الملك بهذا التأخير، الذي ناسبه، أعطى على الفور موافقته، وهكذا تفرقوا في ذلك اليوم دون تسوية أعمالهم.

كيف تخلى الملك جون عن تاجه مع مملكتي انكلترا وايرلندا ووضعهما بين يدي النائب البابوي

وفي اليوم التالي، اجتمعوا كلهم ثانية، في كنيسة القديس بولص الكاتدرائية، حيث جرت هناك نقاشات متنوعة حول إزالة الحرمان من شراكة المؤمنين، أمام المذبح الكبير، بحضور رجال الدين والناس، حيث جرى ثانية فرض الخضوع غير المشرف والظهور المخزي على الملك، فبموجب ذلك تخلى عن تاجه وعن المملكة، ووضعهما بين يدي البابا، وإليه سلم كذلك مملكة ايرلندا مثل تسليمه لمملكة انكلترا، أما بالنسبة للصك الملكي، الذي كان قد ختم بالشمع من قبل، وجرى تسليمه إلى باندولف،

فقد ختم الآن بالذهب، وجرى تسليمه إلى النائب البابوي، لاستخدامه من قبل مولانا البابا وكنيسة روما، أما فيما يتعلق بإعادة الممتلكات المصادرة، فقد عينوا موعداً للاجتماع في ردنغ في اليوم الثالث من تشرين الثاني، ولدى اجتماعهم في اليوم المحدد، كما كان مقرراً من قبل، وعندما اجتمعوا في اليوم الثالث ثانية في وولنغفورد Wallingford، هناك وعد الملك، كما فعل من قبل، بأنه على استعداد لإرضاء الأساقفة وجميع البقية، بالنسبة للممتلكات التي جرت مصادرتها، لكن وضح أن هذا قليل الفائدة بالنسبة للذين جرى تهديم قلاعهم، وتدمير بيوتهم، والذين قطعت بساتينهم وغاباتهم، وبناء عليه وافق الملك ووافق الأساقفة أيضاً على الالتزام بقرار البارونات الأربعة، وأنهم سوف يكونوا جميعاً راضين بقرارهم، وفي السادس من تشرين الثاني، اجتمعوا مجدداً في ردنغ، وضم الاجتماع الملك، والنائب البابوي، ورئيس الأساقفة، والأساقفة، والنبلاء، وجميع رجال الدين الذين لهم علاقة بأعمال الحرمان من شراكة المؤمنين، وفي هذا الاجتماع أبرز كل واحد، وكذلك جميعا، ورقة تحتوي على تقدير للممتلكات المصادرة، ولخسائرهم، ولكن بما أن النائب البابوي أظهر ميلاً إلى الملك، جرى تأجيل الدفع، وذلك باستثناء مسألة رئيس الأساقفة والأساقفة، الذين نفيوا لمدة طويلة من انكلترا، حيث تسلموا هناك مبلغ خمسين ألف مارك من الفضة.

مراسلة البابا انوسنت إلى نيقولا أسقف توسكو لوم حول الكنائس الشاغرة

وأرسل في هذه الآونة البابا انوسنت رسائل إلى نيقولا، نائب الكرسي الرسولي، كانت تستهدف، وتحتوي مايلي: «بما أن كنائس الرب لن تكون أفضل حالاً إلاّ عندما يجري تعيين أساقفة موائمين بها، وتزويدها بهم، من الذين لايرغبون بامتلاك سلطات عليهم، بقدر العمل على ازدهارهم ورفعتهم، إننا نأمر أخوتكم بهذه الرسائل، أخوتكم التي لنا ثقة كاملة بها،

أن تؤمنوا أشخاصاً موائمين، وفقاً لتقديركم لتتم سيامتهم لتولي مناصب الأساقفة ورعاة الديرة في انكلترا، التي هي شاغرة الآن، وأن يكون ذلك إما عن طريق الانتخاب، أو بوساطة التعيين القانوني، وأن يكون هؤلاء موضع اعجاب وتقدير ليس فقط بسبب مسلك حياتهم، بل أيضاً بسبب معارفهم وعلومهم، وأن يكونوا في الوقت نفسه مخلصين إلى الملك، ومفيدين إلى المملكة، وفعالين مؤثرين في تقديم النصيحة إلى الملك، وأن يتم الحصول على موافقة الملك قبل كل شيء، وإننا -على هذا -عندما أمرنا برسائلنا هيئات الكهنة للكنائس الشاغرة، بالالتزام بنصائحكم، اعملوا دوما وأنتم واضعين الرب أمام أعينكم، وتشاوروا حول هذه المسائل مع أناس حكماء وأشراف، يمكن أن يكونوا على دراية تامة بفضائل الأشخاص، خشية أن تنخدع بمهارة أي واحد، وفي حال توفر أي نقد أو معارضة، اعتمد على وسائل الرقابة الكنسية، وأرغمهم على الطاعة من دون اعتراض. صدر في اللاتيران، في الأول من تشرين الثاني، في العام السادس عشر من حبريتنا».

ولدى تلقي النائب البابوي هذه الصلاحيات من البابا، رفض نصيحة رئيس الأساقفة مع أساقفة المملكة، وذهب إلى الكنائس الشاغرة مع الكهنة ووكلاء الملك، عازماً على تعيينهم، وفقاً للعادات الشريرة القديمة لانكلترا، مع أنهم أشخاص ليسوا مناسبين لهذه المناصب، أما بالنسبة لبعض الطوائف الرهبانية المتنوعة، الذين أبدوا أسبابا للشكوى، وطلبوا الترافع أمام الحبر الأعظم، فقد علقهم وأرسلهم إلى بلاط روما، وأظهر نفسه نحوهم جافياً وغير انساني، حتى أنه لم يسمح لهم ولا ببنس واحد من أموالهم لتغطية نفقاتهم أثناء رحلتهم، علاوة على ذلك وزع الكنائس الأسقفية الشاغرة في مناطق متنوعة على كهنته، دون طلب موافقة رعاتهم، مما جعله ينال لنفسه لعنة الكثيرين عوضاً عن الثناء عليه ومدحه، لأنه استبدل العدالة بالأذى، والحكم العادل بالقرار الظالم.

مرافعة رئيس أساقفة كانتربري وشكواه حول التعيينات في الكنائس الشاغره

عام ١٢١٤م، فيه عقد الملك بلاطه في عيد الميلاد في ويندسور، وفي تلك الأثناء وزع ملابس العيد على عدد من نبلائه، واجتمع بعد ذلك ستيفن رئيس أساقفة كانتربري مع أساقفته المساعدين في دنستيبل Dunstable، لبحث شؤون الكنيسة الانكليزية هناك، لأنهم كانوا غاضبين إلى أبعد الحدود من النائب البابوي، لأنه -كما ذكرنا من قبل -رعى رغبات الملك دون التشاور معهم، فكان أن عين أشخاصاً غير مؤهلين للكنائس الشاغرة، وجاء ذلك بالقوة القسرية أكثر منه عن طريق الانتخابات القانونية، وبعد مناقشات كثيرة حول موضوع وآخر، أرسل رئيس أساقفة كانتربري اثنين من الكهنة إلى بيرتون على الترنت، حيث كان النائب البابوي هناك، ليمنعه بوساطة التدخل بالمرافعة والشكوى من جانب رئيس أساقفة كانتربري، من تعيين أساقفة في الكنائس الشاغرة، من دون استشارته، ومن دون تقدير المنصب العالي لرئيس الأساقفة، الذي يمتلك الحق بالتعيينات في كنائس أسقفيته، ولم يظهر هذا النائب البابوي أدنى اهتمام بهذه الشكوى، لابل إنه قام بموافقة من الملك، فبعث باندولف المتقدم ذكره، إلى بلاط روما، ليعمل ضد رغبات رئيس الأساقفة والأساقفة، ولدى وصوله إلى هناك، قام بحضرة الحبر الأعظم، بتلطيخ سمعة وأخلاق رئيس الأساقفة بدرجات عالية جداً، ولم يكتف بذلك بل أثنى على ملك انكلترا ومدحه مدحاً كثيراً، وأعلن أنه لم ير من قبل قط ملكاً متواضعاً ولطيفاً مثله، وبذلك نال الملك جون حظوة كبيرة في عيني البابا، وعلى كل حال، كان هناك شخص واحد في ذلك البلاط، قد عارض باندولف، وهو المعلم سيمون دي لانغتون، أخو رئيس أساقفة كانتربري، ولكن بما أن الصك المختوم ذهبيا المتعلق بخضوع مملكتي انكلترا وايرلندا، قد جلب مؤخراً من قبل باندولف إلى مولانا البابا، فإن معارضة المعلم

سيمون ومناقشاته لم تلق أذناً صاغية، وعلاوة على ما تقدم أعلن باندولف المذكور بأن رئيس الأساقفة والأساقفة كانوا متشددين وجشعين في جباياتهم، وأيضاً في مسألة استرداد الممتلكات التي كانت مصادرة أيام قرار الحرمان من شراكة المؤمنين وأنهم ظلموا الملك نفسه، وانتهكوا حقوق المملكة بشكل غير عادل، ولذلك جرى تأخير مطلب رئيس الأساقفة والأساقفة لبعض الوقت.

كيف عبر الملك جون البحر إلى بواتو

وبعث في العام نفسه الملك جون بمبلغ كبير من المال إلى مقدمي جيشه في فلاندرز، ليمكنهم من مضايقة ملك فرنسا، ولينهبوا أراضيه، وليدمروا قلاعه بغارات هجومية، وعلى هذا، قاموا بناء على أوامر الملك، فعاثوا فساداً في أراضي كونت دي غوسني Guisne بالنار والسيف، وألقوا الحصار على قلعة برنكهام Bruncham ، ودمروها، وحملوا معهم بالأغلال عدداً من الفرسان مع خدمهم، وذلك بعدما أرغموهم على تسليم أنفسهم، كما أنهم حاصروا قلعة آريا Arria ، وبعدما أخضعوها، دمروها بالنار، كما أنهم استولوا بالقوة على قلعة ليين Liens ، حيث قتلوا أعداداً كبيرة، وأودعوا في السجن الذين أسروهم، كما أنهم نهبوا أراضي لويس ابن الملك الفرنسي في تلك المنطقة.

وقام الملك جون، بعدما بعث رسله إلى روما لسحب قرار الحرمان من شراكة المؤمنين، بالاقلاع من بورتماوث، في يوم طهارة العذراء، وكانت الملكة بصحبته، ونزل على اليابسة بعد عدة أيام مع جيش كبير في روشيل، ومع انتشار أخبار وصوله، قدم إليه عدد من بارونات بواتو، وأقسموا له يمين الولاء، واستنأف بعد ذلك زحفه مع قوة كبيرة، فاستولى على عدد كبير من القلاع كانت ملكاً لأعدائه، والذي يود أن يعرف المزيد عما حدث هناك، عليه أن يقرأ الرسالة التي أرسلها الملك إلى رئيس العدالة وإلى المسؤول عن الخزانة.

رسالة الملك جون حول زحفه في بواتو

«من جون، بنعمة الرب، الخ -ليكن معلوماً لديكما، أنه لدى انتهاء الهدنة التي منحناها إلى كونتي: لى مارش ،وأوجي، وعندما وجدناهما غير مستعدين لصنع سلام موائم معنا، قمنا في يوم الجمعة الذي قبل أحد الشعانين، فعبرنا مع جيشنا إلى ميرفانت Miervant، وهي قلعة يمتلكها غيوفري دي لوزغنان، ومع أن الكثيرين قد لايصدقون أنه كان من الممكن الاستيلاء عليها عنوة، استطعنا نحن في اليوم التالي، الذي وافق أمسية أحد الشعانين، الاستيلاء عليها عنوة، بعد حملة واحدة، استمرت من الصباح الباكر حتى الساعة الواحدة، وتولينا في يوم أحد الشعانين من إلقاء الحصار على قلعة أخرى، عائدة إلى غيوفري نفسه اسمها «نوفنت Novent »، كان فيها قد اتخذ غيوفري مع ولديه موقف الدفاع، وبعد متابعة الرمايات من آلات قذفنا لمدة ثلاثة أيام، توفرت فرصة مناسبة واقتربت من أجل الاستيلاء على القلعة المذكورة، وقتها جاء إلينا كونت لى مارش، وعرض علينا بأن غيوفري المذكور قد ترامى علينا بنفسه يطلب الرحمة، ووضع نفسه وولديه، وقلعته وكل شيء فيها تحت رحمتنا، وعندما كنا هناك وصلت إلينا أخبار تحدثت بأن لويس ابن ملك فرنسا قد ألقى الحصار على قلعة عائدة إلى غيوفري نفسه، اسمها «مونيونتور Mu-neuntur »، ولدى سماعنا بهذا قمنا على الفور بتحويل اتجاهنا للتصدي له، وبناء عليه حدث أن كنا في يوم الثالوث المقدس في بارثني Par-thenay ، وإلى هناك قدم إلينا كونتا: لى مارش، وأوجي، مع غيوفري دي لوزغنان المتقدم ذكره، وقدموا الولاء لنا، وأقسموا على التابعية إلينا، وبما أننا كنا قد تفاوضنا من قبل مع كونت لى مارش من أجل اعطاء ابنتنا للزواج من ابنه، منحناه هذه الحظوة، مع أن ملك فرنسا كان قد طلبها لابنه، لكن بنوايا خيانية، لأننا تذكرنا ابنة أختنا التي تزوجت من لويس، ابن ذلك الملك، ونتيجة تلك القضية، ولعل الرب يمنحنا نجاحاً أكبر في

هذا الزواج، مما منحنا إياه في الزواج المتقدم، والآن بفضل نعمة الرب قد توفرت إلينا فرصة للقتال ضد عدونا الأبدي، الذي هو ملك فرنسا، وراء بواتو، نحن نخبركما بذلك لتفرحا بأخبار نجاحاتنا. شهدت على نفسي في بارثني، في السنة السادسة عشرة لحكمنا».

وفي الرابع والعشرين من حزيران، من العام نفسه، مات غيلبرت أسقف روكستر.

رسالة البابا انوسنت حول الغاء الحرمان من شراكة المؤمنين

وكتب في هذه الآونة البابا انوسنت إلى نيقولا أسقف أوف توسكولوم، حول إلغاء الحرمان من شراكة المؤمنين، كما يلي: «من انوسنت أسقف، الخ، إلى أخينا المبجل جون أسقف أوف نورويك، وإلى ابننا المحبوب روبرت دي مارسيكو Marisco ، رئيس شمامسه نورثأ مبرلاند، وإلى النبيلين توماس وآدم دي هاردنغتون، السفيرين المحبوبين لنا تماما في المسيح، وإلى جون ملك انكلترا اللامع، هذا من الجانب الأول، وإلى المعلم ستيفن دي لانغتون، وإلى أ A، وج G ، الكاهنين، رسولي أخينا المحبوب، ستيفن رئيس أساقفة كانتربري من الجانب الآخر، إنهم بعدما ظهروا أمامنا أعلنوا بتصميم واتفاق عام، أنهم حتى يتجنبوا خسائر كبيرة في الممتلكات، وخطراً حقيقياً على أرواحهم، إنه من الضروري جداً للمملكة، ومثل ذلك إلى الكهنة، أن يجري إلغاء قرار الحرمان من شراكة المؤمنين من دون تأخير، وبناء عليه، قمنا في إطار تقديرنا الأبوي، في سبيل الحفاظ عليهم، ومن أجل تقدم السلام، فاهتممنا بالقضية ورعيناها فيما بينهم، وكان أخيراً مع اذعانهم أن أبدعنا الشروط المدونة أدناه واتخذنا قرارنا حولها: يتوجب على الملك المتقدم ذكره أن يدفع إلى رئيس أساقفة كانتربري، وإلى أسقفي لندن وإيلاي -أو إلى من يمكن لهم أن يعينوهم لاستلام ذلك - قدراً من المال، هو عندما يضاف إلى مادفعه الملك المذكور لنا سوف يصل إلى مبلغ قدره أربعين ألف مارك، وفور دفعه له، وتقديمه

الضمانات التي تقدم ذكرها، قم بالغاء قرار الحرمان من شراكة المؤمنين، واحذف جميع مرافعات الاعتراض أو المخالفات، وعليه بعد هذا أن يدفع اثني عشر ألف مارك سنويا، في تاريخين محددين: ستة آلاف مارك في يوم ذكرى جميع القديسين، والمبلغ نفسه في يوم عيد صعود ربنا، وذلك حتى يكتمل دفع المبلغ كله، ومن أجل الوفاء بهذا، ربط الملك المذكور نفسه بيمينه الشخصية وبرسائل موثقة منه وممهورة بخاتمه، وبكفالة أسقفي وينكستر، ونورويك، وإيرلات: وينكستر، وشيستر، ووليم مارشال، أي ورثة الملك المذكور، وخلفائهم سوف يكونون مربوطين بتعهدات مماثلة، وبناء عليه إننا نأمرك برسائلنا الرسولية هذه بمتابعة السير في هذه القضية وفقاً للصيغة التي تقدم ذكرها، مالم تقدم جميع الفئات على اتخاذ قرار، وفقاً لإرادتها بالقيام بتسوية القضية بشكل آخر. صدر في اللاتيران في السنة السادسة عشرة من حبريتنا».

إعادة الممتلكات المصادرة

في الوقت الذي تلقى فيه نيقولا أسقف توسكولوم، ونائب الكرسي الرسولي، هذا التفويض بوساطة رسل مولانا البابا، كان ملك انكلترا في مناطق ماوراء البحر، وكان لدى مغادرته انكلترا، قد عهد بدوره في القضية إلى النائب البابوي مع وليم مارشال، وعقد النائب البابوي المذكور مؤتمراً عظيماً في كنيسة القديس بولص في مدينة لندن، فقد احتشد في ذلك المؤتمر: رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والايرلات، والبارونات، وآخرون لهم شأنهم في مسألة الحرمان من شراكة المؤمنين، وشرح النائب البابوي المذكور إلى الجميع شروط اعادة الممتلكات المصادرة، والتعويض عن الخسائر الذي جرى ترتيبه من قبل البابا في روما، مع موافقة الفرقاء، وأمر بوجوب اعطاء شهادة موثقة حول كمية المال الذي دفع إلى الأساقفة وللآخرين من قبل وكلاء الملك فيمايتعلق بمسألة الحرمان من شراكة المؤمنين، وبذلك فإنه عن طريقة معرفة مقدار المال

الذي دفع، من الممكن معرفة كم بقي ليدفع، وتبرهن بوساطة حساب دقيق مؤكد، أن رئيس أساقفة كانتربري ورهبان كانتربري مع أساقفة: لندن، وإيلاي، وهيرفورد، وباث، ولنكولن، قد استلموا قبل عودتهم إلى انكلترا من المنفى، اثني عشر ألف مارك، من العملة الاستيرلينية، من يدي باندولف، واستلموا أيضاً منذ وصولهم - أي أولئك الأساقفة المذكورين، والرهبان المتقدم ذكرهم - وأثناء المؤتمر الذي عقد في ردنغ في السادس من كانون الأول، مبلغ خمسة عشر ألف مارك، ليجري توزيعها فيما بينهم، وهذا المبلغ مع المبلغ المتقدم الأول الذي جرى استلامه، يساوي مجموعه سبعة وعشرين ألف مارك، والخمسة عشر ألفاً التي بقيت لتدفع لتكمل وتتم مبلغ الأربعين ألف مارك، بقيت تحت ضمانة أسقفي وينكستر، ونورويك، برسائل موثقة من الملك، لتكون ضمانة أوسع، وذلك وفقاً لما ورد في رسائل مولانا البابا.

إلغاء الحرمان من شراكة المؤمنين

وبعد ترتيب الأمور على هذه الصورة، ذهب في يوم الرسولين: القديس بطرس، والقديس بولص، نيقولا، أسقف توسكولوم، ونائب الكرسي الرسولي، إلى الكنيسة الكاتدرائية، وقام هناك وسط قرع النواقيس وانشاد «Te Deum» فألغى بشكل مهيب قرار الحرمان من شراكة المؤمنين، الذي استمر لمدة ست سنوات، وثلاثة أشهر، وأربعة عشر يوماً.

كيف أجل النائب البابوي التعويض عن الممتلكات المصادرة

ولدى إلغاء الحرمان من شراكه المؤمنين، الذي تقدم ذكره، غضب النائب البابوي وانزعج بوساطة حشد لايعد ولايحصى من رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، وفرسان الداوية والاسبتارية، وراعيات الديرة، والراهبات، ورجال الدين والعلمانيين، الذين سألوه تقديم تعويض لهم عن الخسائر والأضرار التي عانوا منها خلال أيام الحرمان من شراكة

المؤمنين، ذلك أنهم أكدوا، أنهم وإن لم يغـادروا انكترا لقد عـانوا من الظلـم المتـواصل للملك ولعمـلائه بالجسـد وبالممتلكات، حتى جـرت مصـادرة جميع ممتلكاتهم وأسيئت معاملتهم شخصياً، إلى حد لم يعودوا يعرفون فيه إلى أين يذهبـون فراراً من مطاردة وقسـوة أعـدائهم، وأجاب النائب البـابوي حشد الشاكين قائلاً بأنه لم يرد ذكـر لخسائرهم وأضرارهم في رسائل البابا، وبناء عليـه هو لايجوز له، ولايمكن له قـانونيـا المضي أبعـد مـن حـدود الوصاية الرسولية، لكن مع ذلك نصحهم بتقديم شكوى حول خسائرهـم وأضرارهم إلى البابا، وأن يطالبوا بمنحهم عدالة كاملة، والذي حدث على كل حال، أن جميع ذلك الحشـد من رجال الدين الشـاكين، فقدوا الأمل في حظ أفضل، لذلك عادوا ثانية إلى مواطنهم.

وأنهى في العام نفسه جون راعي دير كنيسة القـديس ألبان حياته، وكان ذلك في يوم القديس كينيلم Kenelem ، الملك والشهيد، وكـان رجلاً متـديناً ومتعلماً، وجـاء موته عن سـن متقدم، في السنة التـاسعـة عشرة من أسقفيته.

كيف اقتاد الملك جون جيشه في بريتاني

وفي هذه الآونة اقتاد الملك جون جيشه وزحف به نحو الأمام من بواتو إلى بريطانيا الصغرى، ومكث هناك ثلاثـة أيام وثلاث ليال، ولدى وصوله إلى مـدينـة يدعـوها سكانها بـاسم نانتي Nantes ، قرر الهجوم عليها، لكن السكان والفـرسـان الذين تركـوا مسـؤولين عن المكان من قبل الملك الفرنسي، عندمـا سمعوا باقتراب الملك الانكليـزي، خرجـوا للتصدي له، وعند جسر ليـس بعيـداً عن المدينة اشتبكـوا بالقتـال مع جيـش الملك الانكليـزي، ولحسن حظ الملك أنـه حـاز النصر، وأسر عشرين فـارسـاً في المعركـة، وكان بين الأسرى ابن ووريث روبرت دي دروز Drus خال الملك الفرنسي، وأثقل الملـك هذا الفارس بالسلاسل، وحملـه لدى عودته، وزحف الملك المذكور بعد هذا مع جيشـه إلى قلعة روشو مين Rocheau

Maine ، وألقى الحصار عليها، ولدى سماع ذلك من قبل لويس ابن الملك الفرنسي، الذي كان أبوه قد بعثه ليوقف غارات الملك جون، بادر مسرعاً مع جيش كبير لمساعدة المحاصرين، ولدى معرفة الملك الانكليزي باقتراب الفرنسيين، أرسل كشافة من جيشه ليتعرفوا إلى عدد ومقدرة الأعداء الواصلين، وقام هؤلاء الكشافة بتأدية واجبهم الذي عين إليهم، ثم عادوا ليخبروا الملك بأنه - أي الملك الانكليزي -لديه قوة أكبر بكثير، ولذلك أقنعوه بالحاح للاشتباك بالأعداء في معركة مكشوفة، لأنه بفعله ذلك، هو بدون شك سوف ينال النصر على العدو، وتشجع الملك بهذه الأخبار التي جلبها له الكشافة، فأمر بحمل السلاح بالسرعة الممكنة، للاشتباك بمعركة مكشوفة مع لويس، لكن بارونات بواتو رفضوا اتباع الملك، قائلين بأنهم لم يكونوا مستعدين للاشتباك في معركة، وبما أن الملك جون كان يعرف تمام المعرفة الخيانة المعتادة لنبلاء بواتو، قام على الرغم من أن الاستيلاء على القلعة كان مؤكداً، برفع الحصار والانسحاب وهو غاضب جداً، وأيضاً عندما سمع لويس بأن الملك الانكليزي قد نقل معسكره، خاف من أنه سيهاجمه، ولهذا هرب بالاتجاه المعاكس لاتجاه الملك جون، وهكذا هرب كل جيش بشكل شائن وأدار كل جيش ظهره إلى الآخر.

كيف زحف الملك الفرنسي ضد جيش الملك الانكليزي في فلاندرز

كان جيش الملك الانكليزي قد نشر في فلاندرز الدمار في عدة مناطق، وكان الآن يقوم بالعيث فساداً في بواتو بطريقة قاسية جداً، وكان في هذه الحملة أعظم العسكريين وأكثرهم خبرة مثل: وليم دوق هولاندا، ورينالد، الذي كان من قبل كونت بولون، وفيراند كونت فلاندرز، وهيوج دي بوفي Boves ، وهو جندي شجاع، مع أنه كان متوحشاً ومتعجرفاً، لأنه أظهر سلوكه الوحشي في تلك المناطق، حيث لم يوفر

لاالنساء ولا الأطفال الصغار، وكان الملك جون قد عين أخاه وليم ايرل سالسبري مارشالاً على ذلك الجيش، وعلى فرسان المملكة، ليقاتل بالاتحاد والتعاون معهم، وليدفع أيضاً من الخزينة إلى الجنود الآخرين، وعلاوة على ذلك كان هؤلاء المقاتلين قد تلقوا المساعدة والحظوة من أوتو، الامبراطور الروماني، مع جميع قوات دوقي: لوفين Louvaine، وبرابانت Bra-bant اللذان كانا ساخطين بالدرجة نفسها ضد الفرنسيين، وعندما وصلت أخبار هذه الزحوف إلى مسامع فيليب ملك الفرنسيين، بات خائفاً كثيراً، من أنه لن يكون قادراً على الدفاع عن ذلك الجزء من البلاد، ولاسيما أنه كان قد أرسل مؤخراً ابنه لويس مع جيش كبير إلى بواتو، للتصدي إلى الملك الانكليزي، ولإيقاف غاراته هناك، ومع أن ذلك الملك غالباً مافكر بالمثل العامي الذي يقول:

«المنصرف عقله نحو الكثير من الخطط

من الصعب أن يصمم على أي منها».

قام على كل حال بحشد جيش من الايرلات، والبارونات، والفرسان، والجنود الخيالة والرجالة، مع عوام المدن والبلدات، وزحف في قوة عظيمة للتصدي إلى أعدائه، وأصدر أوامر إلى كل كاهن ورجل دين، وقسيس، وراهبة لإعطاء الصدقات، ولتقديم الصلوات للرب، وللقيام بالقداسات من أجل ثبات المملكة، وبعد ذلك زحف بجرأة مع جيشه ضد العدو، وقد سمع بأن هذا العدو قد وصل بعيداً حتى جسر بوفني Bovine في منطقة بونتويي Pontoise ، فقاد قواته في ذلك الاتجاه، ووصل إلى الجسر المذكور، وعبر النهر مع جيشه، وهناك نصب معسكره، وكانت حرارة الشمس عالية جداً، كما هي العادة في شهر تموز، ولهذا قرر الفرنسيون التوقف قرب النهر من أجل انعاش الرجال وكذلك الخيول، ووصلوا إلى أمام النهر المذكور، في يوم السبت، حوالي ساعة المساء، وتولوا صف عجلاتهم وعرباتهم، وجميع الآليات التي حملوا فيها طعامهم وسلاحهم،

وآلات حـــربهم، وأسلحتهم، وعينوا على اليمين وعلى اليســـار حـــراســـاً يراقبون جميع الطرقـات، ومن ثم استراحوا هناك تلك الليلة، وعندمـا جاء الصباح، وعلم القادة الانكليز بأن الملك الفرنسي قد وصل، عقدوا مؤتمراً، وقرروا بالإجماع، الاشتباك بمعركة مكشـوفة مع الأعداء، لكن بما أن اليوم كـان يوم أحد، فإن الرجـال الذين كـانوا أكثر حكمـة في الجيش، ولاسيما رينالد، الذي كان من قبل كونت بولـون قالوا بأنه من غير اللائق الاشتباك بالقتـــال في مثل يوم العيـد هـذا، وتلويث مثل هذا اليـــوم بالقتل وبسفك الدماء البشرية، ووافق الامبراطور الروماني أوتو على هذا الرأي، وقال بأنه لم ينل نصراً قط في مثل ذلك اليـــوم، ولدى سماع هيـوج دي بوفي Boves لهذا انفجـر يجدف ويشتم، ودعـــا الكونت رينالد خـائنـاً منحطا، وانتقـده بامتـلاكه لأراض وممتلكات واسعـة تلقاها بمثـابة هدايا من ملك انكلترا، وأضاف إذا جـرى تأجيل المعركة في ذلك اليـوم سوف تعزى إليـه الخسارة التي لايمكن تعويضها، والتي سـوف يعاني منها الملك جون، لأن «التأخير دوما خطير عندمـا تكون الأشياء جاهزة»، ورد الكونت على شتـائم هيوج وهو مغضب وقـال: «سـوف يبرهن في هـذا اليـوم على أنني مخلص وأنك أنت خائن، لأنه حتى في هذا الأحد نفسـه، سوف - إذا كان الأمر ضروريا - أقف مقـاتلاً في سبيل الملك، حتى الموت، وأنت حسب عادتك، سـوف تهرب من المعـركة، وبذلك سـوف تظهـر نفسك بمثابة خـائن منحط كثيراً بحضـور الجميع» وبكلمات الشتـائم هذه وبشتـائم هيـوج المذكـور ثارت الحشـود وتحمسـت للقتـال، ولذلك طـاروا إلى السـلاح جميعـاً، وبجـرأة استعـــدوا للقتـــال، وعندمـــا تسلحـــوا جميعـــاً، عبـأوا أنفسهم في ثلاث مجمـوعـات، حيث عينوا على المجمـوعـة الأولى فيراند كـونت فـلاندرز، ورينالد ايرل بولـون، ووليم ايرل سـالسبري بمثـابة قـــادة، وأعطوا قيـادة المجمـوعـة الثـانيـة إلى وليم دوق هولانـدا، وهيـوج دي بوفي مع أتبـاعـه البرابانتيين Brabant، وكانت قيادة المجموعة الثـالثة قد عهد بها إلى أوتو، الامبراطور الروماني ورجاله المحاربين، وعلى هذه الصورة زحفوا متقدمين

ضد الأعداء، حتى باتوا على مرأى من الجيش الفرنسي، وعندما رأى الملك الفرنسي أن أعـداءه كانوا مستعدين للـلاشتباك بالقتال، أمـر بتدمير الجسر الذي وقع في خلفه، من أجل أنه في حالة محاولة أي واحد من جيشه وسعيه للفـرار، سوف لن يجد طـريقاً للهـرب، إلاّ من وسط الأعـداء، وعبأ الملك الفرنسي عساكره حول عرباته وآليـاته الأخرى التي تقدمت الاشارة إليها، ووقف هناك ينتظر هجوم أعـدائه، ومالبثت التشكيلات تحت قيـادة القادة الذين ورد ذكرهم أعـلاه، أن قامت بعـد وقت قصير بالحملة على صفوف الفـرنسيين، وكانت الحملة شـديدة إلى حـد أنهم تمكنوا في دقيقة من خـرق صفـوفهم، وشقوا طريقهم حتى إلى المكان الذي كـان فيه الملك الفـرنسي، وعندما رأى الكونت رينالد الملـك الذي كان قد حـرمه من ميراثه، وطرده من كونتيته، وضع رمحه جانباً، وكان قد أرغمه على الترجل، واستعد لقتله بسيفه، لكن واحداً من الجنود الذين كـانوا معينين حرساً شخصياً للملك، عرض نفسـه لضربة الكونت، وقد قتل عوضـاً عنه، ولدى رؤية الفرنسيين ملكهم على الأرض، اندفعوا بشـدة عظيمة وبغيرة لمسـاعدته، ومكنوه من امتطاء فـرسه ثانيـة، ثم استعر القتـال من على الجانبين وتقارعت السيـوف وصدر عنها شرر مثل البرق حـول رؤوس الخوذ، وكان الصراع حاداً جداً من على الطرفين، وصار الآن الكونتات الذين تقـدم ذكرهـم الآن معزولين عن بقيـة أتباعهم من الجنود، وبات تقـدمهم وكـذلك تراجعهم نحو بقيـة الجيش متعـذراً، كما أن حملة الذين جـاءوا من بعـدهم قـد توقفت، وهكذا وجدوا أنفسهم غير قـادرين على الصمود في وجـه حملات الأعداد الكبيرة جداً من الفرنسيين، فاستسلموا أخيراً، وبهذه الصورة صار جميع الكونتات مع مجمـوعـة الجنود التي كـانت معهم، أسرى بعـدمـا كـانوا قـد أظهـروا شجاعة عظيمة.

نهاية المعركة

ولدى وقـوع هذه الأحـداث من حـول الملك فيليب، قـام كـونتـات:

شامبين، وبيرشي، وسينت بول مع كثير مـن نبلاء المملكة الفرنسيـة بهجوم على مجموع العساكر التي ورد ذكرها أعلاه، وكان يقودها هيوج دي بوفي، وأرغموا ذلك النبيل على الفرار مع جميع العساكر الذين تجمعوا من مختلف المناطق، وفي أثناء فـرارهم الـدنيء لحق بهم الفـرنسيـون وطاردوهم بحـد السيف حتى موضـع تمركز الامبراطور، وهكذا بفرارهم ألقـي ثقل القتال كله في لحظة واحدة على الأمبراطور، وقـا م الكونتات الذين تقـدم ذكرهم أعلاه باستدعائه، وبذلوا غاية جهودهم لقتله، أو لإرغامه على الاستسلام، لكنه أمسك سيفـه الذي كان حاداً مثـل شفرة بكلتا يديـه، وسدد ضربات فـائقة الشـدة إلى الطرفين، فلطخ بالدمـاء كل من ضربه، أو أنزل الفرسـان والخيول إلى الأرض، وخاف أعداؤه من الاقتراب منه، وقتلوا ثلاثة خيول تحتـه، غير أنه تمكن في كل مرة من معـاودة الامتطاء، وجـدد القتال بحـدة أكبر، وتركه أعداؤه أخيراً مع أتباعـه غير مقهورين، وتراجع هو من القتال دون أن يصـاب شخصيـاً بالأذى أو أتباعـه، وقـدم الملك الفـرنسي الشكر للرب، وهو مسرور بهذا النصر غير المتــوقع، على أعـدائــه، ووقعت هذه المعــركـة في الســابع والعشريـن من تموز، وبسـوء الحظ هـذا أنفق الملك الانكليزي، من دون فـائدة، الأربعين ألف مـارك التي كان قـد أخذها من رهبـان طائفـة السسترشيان، في أيام الحرمـان من شراكـة المؤمنين، وبذلك تحقق المثل الذي يقول:

«لن ينتهي سلب مهين نهاية جيدة قط»

ووصلت أخبـار ماحـدث إلى الملك جـون، فانزعج كثيراً، وقـال للذين كـانوا من حـوله: «منذ أن أصبحت متصـالحاً مع الرب، وأخضعت نفسي ومملكتي لكنيسـة رومـا، الويل لي، مـامن شيء سـار معي بشكل صحيح، وكل ماهو سيء الحظ قد وقع لي».

وفي هذا العام لنفسـه، عندما كـان جون، أسقف أوف نورويك، عـائداً من بلاط رومـــا، مـات في منطقـة بواتـو، وحمل جسـده إلى انكلترا، ودفن

مشرفاً في كنيسة نورويك.

عقد هدنة بين ملكي فرنسا وانكلترا

تم بعد وقـوع الحوادث التي تقدم ذكرها أعلاه الاتفـاق على عقد هدنة، وجاء ذلك بوسـاطة رجال الدين، وعقدت الهدنة في مناطق مـا وراء البحر بين فيليب وجون، الملكين الفرنسي والانكليـزي، وكان نصها كما يلي: «من **فيليب، بنعمة الرب ملك فرنسا، إلى جميع الذين سوف يرون هذه الأحرف، تحيات**: ليكن معلوماً من قبلكم، بأننا قـد منحنا إلى الملك جون وإلى رجاله الذين ظهـروا في الميـدان إلى جـانبه منذ هـذه الحرب الأخيرة حتى يوم الخميس التـالي بعد عيد تمجيـد الصليب المقدس في أيلول، هدنـة صحيحة منا ومن رجـالنا الذي ظهـروا في الميـدان إلى جـانبنا، حتى الفصح المقبل، وذلك سوف يكون في سنة ١٢١٥ لتجسيد الرب، وخمسة أعوام كاملة بعد الفصح المذكـور، ومستثنيـاً أيضـاً اليمين الذي أدته لنا بلـدات فـلاندرز، وهينلوت، ومثل هذا وبالطريقـة نفسهـا مستثنيـاً إلى الملك جـون الأسرى الذين تحت سلطانه، وسوف نبقى نحن ورعيتنا ومغامرونا في الوضع نفسه كما كنا في الخميس المتقـدم ذكـره، حتى نهاية الخمسـة أعـوام التي تقـدم ذكرها، والذين سوف يتولون من جانبنا إملاء شروط هذه الهدنة وترتيبها، بيننا وبين ملك انكلترا، هم: ب— سافاري، وغي توربين Turpin راعي دير مـارمونتير Marmontier وغ.G.رئيس شمامسـة تور، ومن جـانب ملك انكلترا: راعي دير القـديـس جـون في انكلترا، وعميـد الكرستـاتون Christoton وأقسم هؤلاء جميعاً بثقة طيبـة وباخلاص، من أجل تسوية جميع الخلافـات والشكاوى التي يمكن ان تقـوم في بواتو، أو أنجـو، أوبريتاني، أوتور، وهم سوف يجتمعون في دير فولسيرلي Fulcirelle، ومن أجل الشكـاوى الأخـرى التي يمكن أن تقـوم في بورج Bourges، وأوفريـن، وفي كونتيتي لى مارش، وليمـوزين، ولسوف يجتمعـون لترتيب الأمور في هذه المناطق».

وفي الخامس من تشرين أول في هذا العام جرى تكريس رتشارد عميد سالسبري، ووولتر دي غري مستشار انكلترا، من قبل ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، أسقفين، الأول منهما لكنيسة شيستر، والثاني لكنيسة وينكستر، وفي هذه الآونة أيضاً، وفي التاسع عشر من تشرين الأول، كان الملك جون قد أنهى جميع أعماله في مقاطعات ماوراء البحر، لذلك عاد إلى انكلترا.

المؤتمر الذي عقده البارونات ضد الملك جون

وفي هذه الآونة اجتمع إيرلات انكلترا وباروناتها، في كنيسة القديس إدموند، وكأنهم يريدون تأدية واجبات دينية، مع أن ذلك كان لسبب آخر، وبعدما تباحثوا مع بعضهم بشكل سري لبعض الوقت، وضع أمامهم صك الملك هنري الأول، الذي كانوا قد تسلموه، كما ذكرنا من قبل في مدينة لندن من ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، ويتضمن هذا الصك بعض الامتيازات والقوانين التي منحت إلى الكنيسة المقدسة، وإلى نبلاء المملكة، وذلك إلى جانب بعض الامتيازات التي أضافها الملك من قبل ذاته طواعية، وعلى هذا اجتمعوا جميعاً في كنيسة القديس إدموند الملك والشهيد، وشروعاً من الذين كانوا من ذوي المناصب الأعلى، أقسموا جميعاً على المذبح الكبير، أن الملك إذا رفض منح هذه الامتيازات والقوانين، هم أنفسهم سوف يتخلون عن ولائهم له، وسيشنون الحرب ضده، حتى يقوم بتأكيد كل شيء طلبوه في صك ممهور بخاتمه، ووافقوا أخيراً بالاجماع أنهم بعد الميلاد سوف يذهبون جميعاً معا إلى الملك، ويطلبون تأكيد الامتيازات المتقدم ذكرها، وأن يقوموا في الوقت نفسه بتجهيز أنفسهم بالخيول وبالسلاح، حتى إذا ماسعى الملك إلى التخلص من يمينه، يمكنهم الاستيلاء على قلاعه، وارغامه على الاستجابة لمطالبهم، وبعدما رتبوا هذه الأمور عادوا إلى مواطنهم.

حول وليم راعي كنيسة القديس ألبان

جاء في هذا العام بعد جون راعي كنيسة القديس ألبان وليم، وكان راهباً من الكنيسة نفسها، وقد جرى انتخابه بشكل مهيب في يوم عيد القديس إدموند الملك والشهيد، الذي وافق اليوم الخامس من الاسبوع، وفي يوم القديس أندرو الرسول، الذي وقع في يوم الأحد الأول من ميلاد مولانا، جرى بشكل حبري ومهيب تكريسه أمام المذبح الكبير في كنيسة القديس ألبان من قبل أسقف إيلاي، ويحكى بأن ترقية هذا الرجل قد شوهدت في رؤيا ليلية من قبل أحد الرهبان، من ذلك الدير، وكان ذلك حتى قبل عمل الانتخاب، وكان أول راعي دير لكنيسة القديس ألبان الشهيد الانكليزي، ويلغود Willegod الذي كان أول راعي دير جرى تعيينه، وقد أمر بمراعاة الطريق النظامية للحياة، في الأول من آب، في سنة سبعمائة وأربع وتسعين، لتجسيد ربنا، وكان ذلك من قبل الملك أوفا Offa ملك الميركانيين Mercians ، بعد اكتشاف جسد الشهيد، وتقديم الرهبان، مع أن الكنيسة لم تكن قد بنيت بعد، وجاء بعد ويلغود وخلفه: ايدريك Edric، ثم وولسيوس Wolsius، ثم وولنوث Wol-noth، ثم ايدفرد Edfred، ثم وولسين Wolsin، ثم ألفريك Alfric، ثم ايلدرد Eldred، ثم ادمار Edmar، ثم ليوفريك Leofric ، الذي عمل رئيساً لأساقفة كانتربري، وجاء من بعده وخلفه ألفريك أخو ليوفريك المذكور، وجاء من بعد ألفريك وخلفه ليوفستان Leofstan، ثم فريدريك، ثم بولص، ثم رتشارد، ثم غيوفري، ثم رالف، ثم روبرت، ثم سيمون، ثم وارين Warin وخلف وليم جون، وبذلك كان وليم راعي الدير الثاني والعشرين الذي جرى تعيينه لهذا المنصب، في العام السادس عشر من حكم الملك جون.

الطلب الذي عمله بارونات انكلترا من أجل حقوقهم

كان عام ١٢١٥م هو العام السابع عشر من حكم الملك جون، فيه عقد

بلاطه في وينكستر في عيــد الميـلاد، وذلك لمدة يوم، حيث بـادر بعـد ذلك مسرعاً إلى لندن، واتخذ مقـراً له في المعبد الجديد، وإلى هذا المكان، جـاء إليه النبلاء الذين تقدم ذكرهم أعلاه، في صفوف عسكرية بهية، وطالبوا بتأكيد الامتيـازات والقـوانين العـائدة للملك إدوارد، مع الامتيـازات الأخـرى الممنوحة لهم وإلى الملكة، وإلى كنيسة انكلترا، حسبما ورد ذكرها في الصك، وكذلك قوانين الملك هنري الأول، التي ورد ذكرها أعلاه، وأكدوا أنه كان قد وعد، أيام تحليله في وينكستر بإعادة القوانين، والامتيازات القديمة التي التـزم بها، ووعــد بيمينه بمــراعــاتها، ولدى سماع الملك اللهجــة الجريئة للبـارونات في عملهم مطالبهم، خـاف كثيراً من هجـوم من قبلهم، وذلك عندما رآهم مستعـدين للقتال، وأعطى على كل حـال جواباً، بأن مطالبهم كانـت مسألة هامة وصعبـة، ولذلك طالب بهدنة حتى نهاية الفصح، حتى يتمكن بعد تقـدير وتمعن من إرضائهم، والحفاظ بالوقت نفسه على كـرامة تاجه، وبعد كثير من المناقشـات من على الطرفين، قام الملك -مع أنه لم يكن قـانعا - بالحصـول على رئيس أسـاقفة كـانتربري، وأسقف إيلاي، ووليم مـارشـال، ليكونوا ضـامنين له، في أنه سـوف يقوم في اليـوم الذي جـرى الاتفاق عليه، من دون اعتراض أو تعليل، بإرضائهم جميعاً، وبناء عليه عاد الجميع إلى مـواطنهم، وأراد الملك -على كـل حـال- اتخاذ احتيـاطات من أجل المستقبل، فجعل جميع النبـلاء في أرجـاء انكلترا كلهـا يقسمـون على الولاء له وحده، ضـد جميع الناس، وأن يقومـوا بتجديد تابعيتهم، ولكي يكون أكثر ضماناً لنفســه، قام في يوم طهارة القديسـة مريم، فحمل صليب ربنا، وقـد لجأ إلى هذا العمل واقتنع به صـدوراً عن الخوف أكثر منه قناعـة بالتقوى.

ومــات فـــي العـــام نفســه يوستـــانــس أسقــف إيـلاي في ردنـغ، وكـــان رجـــ/ ئـــلاً بـارعــاً فـــي اللاهــوت وكــذلـــك بالمعــارف الانســـانية.

الأشخاص الرئيسيون الذين أرغموا الملك على منح القوانين والامتيازات

وفي اسبوع الفصح من هذا العام نفسه، اجتمع النبلاء الذين تقدم ذكرهم في ستامفورد مع خيول وسلاح، لأنهم كانوا قد أقنعوا الآن جميع نبلاء المملكة كلها بالالتحاق بهم، وشكلوا جيشاً كبيراً جداً، لأنه جرى تقدير وجود ألفي فارس في جيشهم، إلى جانب العساكر الخيالة والمرافقين والعساكر الرجالة، الذين كانوا مجهزين بعدة أشكال، وكان أعلى قادة هذا الطاعون: روبرت فتز -وولتر، ويوستاس دي فيسكي Vescy، ورتشارد دي بيرسي، وروبرت دي روس Roos، وبيتر دي بروس Brcuis، ونيقولا دي ستوتفيل Stuteville، وسير Saer ايرل أوف وينكستر، ور. R. ايرل أوف كلير، وهـ. H ايرل أوف كلير، والايرل روجر بيغود، ووليم دي مونبرى Munbray، وروجر دي كريسي Creissi، ورانولف Ranulph فتز - روبرت، وروبرت دي فيري Vere، وفولك فتز - وارين Warine، ووليم ماليت Mallet، ووليم دي مونتأكيوت Montacute، ووليم دي بوشامب Beauchamp، وس. S. دي كايم، ووليم مودوت Maudut ، وروجر دي مونت -بيغون Mont- Begon، وجون فتز - روبرت، وجون فتز -آلان، وغ. G. دي لافال Laval، وو.O. فتز -آلان، وو.W. دي فوكس Vaux، وغ.G. دي غانت Gant، وموريس دي غانت، ور.R. دي براكلي Brackele، ور. R. دي مونتفيكت Muntfichet، وو. W. دي لانفالي Lanvali، وغ.G. دي ماندفيل ايرل أوف اسكس، ووليم أخوه، ووليم دي هتنفيلد، وروبرت دي غريسلي Grealei، وغ.G مفوض أوف موتون Meau-tun، والاسكندر دي بونتير Puinter، وبيتر فتز -جون، والاسكندر دي سوتون Sutune، وأوسبرت دى بوبي Osbert de Bobi، وجون قسطلان سيشتر، وتوماس دي مولوتون Mulutune ، وآخرون كثر،

وكـان هؤلاء جميعاً متجـدين بالقسم، وكـانوا مـؤيدين برأي ستيفن رئيس أساقفة كـانتربري، الذي كان على رأسهم، وكان الملك في هذ الوقت ينتظر وصـول نبـلائه في أكسفـورد، وفي يوم الاثنين بعـد ثمانيـة الفصح، اجتمع البارونات المذكورون في بلدة براكلي Braekley، وعندما علم الملك بهذا، أرسل إليهم رئيس أساقفة كانتربري، ووليم مارشال ايرل بمبروك -Pem broke`، مع رجـال حكماء آخـرين، لمعـرفة أية قـوانين وامتيـازات كـانوا يطلبون، وبنـاء عليه سلم البارونـات إلى الرسل ورقة بقيـاس كبير تحتوي القوانين والأعراف القديمة للمملكة، وأعلنوا أنه مالم يقم الملك على الفور بمنحهم ذلك، وتأكيـد الممنوح بخـاتمه، فلسـوف يستـولون على قـلاعـه، ويرغمـوه على منحهم ترضيـة كـافيـة بالنسبـة لمطالبهم المذكـورة من قبل، وحمل رئيس الأسـاقفـة والرسل من أتبـاعـه الورقـة إلى الملك، وقـرأوا له عناوين الورقة واحداً واحداً حتى أكملـوها، وعندما سمع الملك بمقاصد العناوين، قـال سـاخراً، مع غضب شـديد: «لماذا لم يطالب البـارونات بين هذه المطالب غير العادلة بمملكتي أيضاً؟ إن طلباتهم عـابثة وخيالية، وغير مؤيدة بأي عقل أو منطق مطلقاً»، وأعلن أخيراً وهو مغضب، وأيد إعلانه بالقسم، بأنـه لن يمنحهم مطلقـاً مثل هذه الامتيـازات، لأن ذلك سـوف يحوله ليكون عبداً لهم، والشطر الأكبر من هذه القـوانين والامتيازات التي طلبها النبـلاء وأرادوا تثبيت منحها لهم، قد جرى وصفهـا أعلاه في صك الملك هنري، وجـرى استخراج بعض منهـا من القـوانين القديمـة للملك ادوارد، حسبما سيوضحها هذا التاريخ في الوقت المناسب.

حصار قلعة نورثأمبتون من قبل النبلاء

وبما أن رئيس الأساقفة ووليم مـارشال لم يتمكنا بأية وسيلة اقناع الملك بالموافقـة على مطالبهم، فقـد عـادا -بناء على أمـر الملك - إلى البـارونات، وحكوا لهم تمامـاً كل الذي سمعوه من الملـك، وعندما سمع النبـلاء الذي قاله جون، عينوا روبرت فتز - وولتر قائـداً لجنودهم، ومنحوه لقب «قائد

جيش الرب والكنيسة المقدسة»، ثم إنهم طاروا أفراداً وجماعات إلى السلاح، ووجهوا قواتهم نحو نورثأمبتون، ولدى وصولهم إلى هناك، قاموا على الفور بإلقاء الحصار على القلعة، إنما بعدما أقاموا هناك مدة خمسة عشر يوماً، ورأوا أنفسهم أنهم كسبوا قليلاً، أو لم يحققوا أي تقدم، قرروا لذلك نقل معسكرهم، لأنهم جاءوا من دون مجانيق، ومن دون آلات الحصار الأخرى، ولأنهم لم يحققوا أهدافهم، زحفوا بشكل مضطرب إلى قلعة بدفورد Bedford وخلال ذلك الحصار قتل حامل راية روبرت فتز - وولتر مع آخرين، ذلك أنه أصيب برأسه بسهم قوس زيار، فمات، مما سبب الحزن لكثيرين.

كيف أعطيت مدينة لندن وسلمت إلى البارونات

وعندما وصل جيش البارونات إلى بدفورد، استقبل بكل احترام من قبل وليم دي بوشامب، وإليهم قدم إلى هناك أيضاً رسل من لندن، أخبروهم بشكل سري، أنهم إذا مارغبوا بالدخول إلى تلك المدينة، فعليهم الوصول إلى هناك فوراً، وتحمس البارونات بوصول هذه الرسالة الموافقة، وقوضوا معسكرهم على الفور، ووصلوا إلى وير Ware ، وزحفوا بعد ذلك طوال الليل، ووصلوا في الصباح الباكر إلى مدينة لندن، فوجدوا الأبواب مفتوحة، فدخلوا إلى المدينة من دون صخب، عندما كان السكان يقيمون الصلوات اللاهوتية، لأن أغنياء أهل المدينة كانوا يفضلون البارونات، وكان الفقراء يخشون من التذمر ضدهم، وحدث دخولهم في اليوم الرابع والعشرين من أيار، وكان يوم أحد هو التالي لما قبل صعود ربنا، وبعدما دخل البارونات إلى المدينة، مركزوا حرسهم وجعلوهم مسؤولين عن كل باب من الأبواب، ثم إنهم نظموا شؤون تلك المدينة بشكل جيد، وأخذوا بعد هذا رهائن من سكان المدينة، وأرسلوا رسائل إلى جميع أرجاء انكلترا، إلى الايرلات، والبارونات، والفرسان، الذين ظهروا أنهم مابرحوا مخلصين إلى الملك، مع أنهم تظاهروا بذلك فقط، ونصحوهم

مع التهديد، أنهم إذا أرادوا الحفاظ على سلامة ممتلكاتهم ومقتنياتهم، فماعليهم إلاّ التخلي عن الملك الذي كان حانثاً بقسمه، ومقاتلاً ضد البارونات، وأن يقفوا معهم بثبات، وأن يقاتلوا ضد الملك من أجل حقوقهم ومن أجل السلام، وأنهم إذا مارفضوا فعل ذلك فإنهم -أي البارونات -سوف يشنون الحرب ضدهم جميعاً، كما يشنونها ضد الأعداء المكشوفين، ولسوف يدمرون قلاعهم، ويحرقون بيوتهم والأبنية الأخرى، وسف يخربون حظائرهم، وحدائقهم وبساتينهم، وكانت أسماء بعض هؤلاء الذين كانوا لم يقسموا بعد على النضال في سبيل هذه الامتيازات: وليم مارشال، ايرل بمبروك Pembroke، ورالف ايرل أوف شيستر، ووليم ايرل سالسبري، ووليم ايرل وورني Warrenne، ووليم إيرل ألبيمارل Albemarle، وهـ. H. ايرل كورنوول Cornwall، وو.W. دي ألبيني Albiney، وروبرت دي فيبونت Vipont وبيتر فتز - هيوبرت، وبرين Brian دي لي آيل، وغ. G. دي فيرنيفال Furnival ، وتوماس باسيت Basset، وهنري دي بريبروك Braibroc ، وجون دي باسنغبورن Bassingeburne، ووليم دي كانتيلو Cantelu ، وجون مارشال، ووليم بريويري Briuerre ، وقام الشطر الأكبر من هؤلاء إثر تسلمهم الرسائل من البارونات بالانطلاق إلى لندن، والالتحاق بهم، متخلين عن الملك كلياً، وتوقفت مرافعات الخازن ومحاكم عمد المناطق، في جميع أرجاء انكلترا، لأنه لم يعد هناك من يعمل قيمة للملك، أو يطيعه في أي شيء.

المؤتمر بين الملك وبين البارونات

عندما رأى الملك نفسه وقد هجر من الجميع تقريباً، حيث لم يبق معه من الأتباع الملكيين إلاّ أقل من سبعة فرسان، خاف من أن يقوم البارونات بالهجوم على قلاعه ومن ثم الاستيلاء عليهم من دون صعوبة، لأنهم لن يجدوا عائقاً يعيق عملهم، فتظاهر خداعاً، وود أن يعمل سلاما لبعض

الوقت مع البارونات المتقدم ذكرهم، ولذلك بعث إليهم وليم مارشال ايرل أوف بمبروك مع رسل آخرين موثوقين، وأخبرهم أنه من أجل السلام، وفي سبيل رفعة المملكة ومكانتها، على استعداد لمنحهم القوانين والامتيازات التي يطلبونها، كما بعث رسالة مع هؤلاء الرسل أنفسهم إلى البارونات، لتعيين يوم مناسب ومكان موائم للاجتماع، لاخراج هذه المسائل إلى حيز التنفيذ، وبناء عليه جاء رسل الملك مسرعين تماماً إلى لندن، ورووا من دون خداع إلى البارونات الذي فرض عليهم خداعاً، فقاموا وسط سرورهم العارم، فحددوا يوم الخامس عشر من حزيران موعداً للملك ليلتقي بهم، في حقل قائم فيمابين ستين Staines ووندسور، وتبعاً لذلك جاء الملك والنبلاء في الوقت المحدد إلى المكان المتفق عليه، لحضور المؤتمر المعين، وعندما مركز أعضاء كل فريق أنفسهم بعيداً عن الفريق الآخر، شرعوا في نقاش طويل حول شروط السلام، وكان الذين حضروا من جانب الملك ولصالحه: ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، وهـ. H. رئيس أساقفة دبلن، والأساقفة: و . W. أسقف لندن. وب. P. أسقف وينكسر، و هـ . H. أسقف لنكولن، وج ..J أسقف بات، وولتر أسقف ووركستر، وو. W. أسقف كوفنتري، وبندكت أسقف روكستر، والمعلم باندولف الرجل المقرب من مولانا البابا، والراهب أليرك Almer-ic مقدم فرسان الداوية في انكلترا، والنبلاء: وليم مارشال ايرل بمبروك، وإيرل سالسبري، وايرل ووربي، وإيرل آورنديل، وألان دي غالوي Gal-wey، وو.W. فتز -جيرالد،، وبيتر فتز -هيربرت، وألان باسيت، ومتى فتز - هيربرت، وتوماس باسيت، وهيوج دي نيفيل، وهيوبرت دي برى Burgh مفوض بواتو، وروبرت دي روبلي Ropley، وجون مارشال، وفيليب دي أوبني، أما الذين كانوا من جانب البارونات، فليس من الضروري تعدادهم وذكر أسمائهم، لأن جميع نبلاء انكلترا كانوا مجتمعين مع بعضهم بأعداد من غير الممكن إحصاءها، وبعد ماجرى نقاش كثير من النقاط من كلا الجانبين، وجد الملك نفسه أدنى قوة من البارونات،

ولذلك وافق، دون أن يثير أية مصاعب، على القوانين والامتيازات المدونة أدناه، وثبتها لهم بهذا الصك كمايلي:

صك الملك جون ليكون بمثابة منحة للحقوق العامة للبارونات

«**من جون بفضل نعمة الرب ، ملك انكلترا، الخ**، ليكن معلوماً، أننا ونحن ننظر إلى الرب من أجل سلامة نفسنا وسلامة نفوس أجدادنا وورثتنا، ومن أجل تشريف الرب، وتمجيد الكنيسة المقدسة، وتحسين أوضاع مملكتنا، تنازلناللرب، وقمنا بالتأكيد في صكنا الحالي، أصالة عن أنفسنا وعن ورثتنا بشكل أبدي، بأن كنيسة انكلترا سوف تكون كنيسة حرة، ولسوف نحفظ قوانينها كاملة سالمة وامتيازاتها غير مخروقة، ونحن نرغب بقدر ماهو ممكن بالحفاظ على حرية الانتخابات، التي تعد الأكثر أهمية، والأعظم ضرورة للكنيسة الانكليزية، وقد منحنا ذلك طواعية من قبل أنفسنا، وأكدنا ذلك وثبتناه بصكنا، قبل قيام أي خلاف بيننا وبين باروناتنا، وقد حصلنا على تأكيد لها وتثبيت من مولانا البابا انوسنت الثالث، وسوف نحتفظ بها نحن أنفسنا، ونرغب بأن تراعى من قبل ورثتنا بإخلاص ووفاء دائم، ومنحنا أيضاً إلى رعايانا الأحرار في مملكة انكلترا، من أنفسنا، وعن ورثتنا بشكل دائم، جميع الإمتيازات المدونة أدناه،لتكون لهم وليحتفظوا بها هم وورثتهم منا ومن ورثتنا،وإذا ما مات أي واحد من ايرلاتنا أو باروناتنا،أو أي واحد بحوزته ممتلكات منا بشكل رئيسي بخدمة فروسية، وكان وريثه بعد موته قد بلغ السن(القانوني) وامتلك بدل التخليص، سوف يأخذ ميراثه، مقابل بدل التخليص القديم، أي أن وريث ايرل—أو وريثته—سوف يدفع مائة باوند من أجل جميع بارونيـــــة الايرل، ويدفع وريث بارون—أو وريثته— مبلغ مائة مارك من أجل بارونية كاملة، ويدفع وريث فارس—أو وريثته— مبلغ مائة شلن، كأقصى حد مقابل جميع رسم فروسيته، والذي يمتلك أقل، دعوه يدفع أقل، وفقاً للعادة القديمة

للأجـور، ولكـن إذا مـا كـان وريث أي واحــد من هؤلاء تحت السن (القانوني)، لـن يكون لمولاه الوصاية عليه أو على أرضـه، قبل أن يتلقى ولاءه وبعد ذلك سوف يكون مثل هذا الـوريث تحت الوصاية وعندما يصل إلى سن الحادية والعشرين، وقتهـا سـوف يستحـوذ على ميراثه من دون بدل أو غـرامـة، ومثل هذا إذا عمل الوريث، ورسم وهو مـا يزال تحت السن القانوني، فـارساً، ستبقى أرضه مع ذلك تحت وصـاية مولاه حتى يصل إلى السن الـذي تقـدم تحديده، وسـوف يأخـذ الوصي على ممتلكات وريث تحت السن القـانوني من أرض الوريث المذكـور، دخـلاً معقـولاً فقط، ومكسـاً معقولاً، وخـدمـة معقـولة، ويكون هذا كله من دون الحاق تهديم، أو تخريب أو ضرر للشخص أو للممتلكات، وإذا ما عهدنا بالوصاية على مثل تلك الأرض، إلى أي واحد، سواء أكان عمدة أو أي واحد آخر، عليه أن يقـدم حساباً لنا عن صادرات تلك الأرض، وإذا مـا تسبب أثنـاء وصـايتـه بتخـريب أو تبـديد لها، سـوف نأخـذ تعويضات منه، وسوف يعهد بالأرض إلى اثنين من التابعين الاقطاعيين، وإلى رجلين حكيمين بذلك الرسم، الذين عليهم — بالطريقةنفسها — تقديم حساب إلينا، كما تقدم الذكر أعلاه، وعلى الوصي، مادام مسؤولاً عن تلـك الأرض، الانفـــاق من الانتـــاج، على جميع البيـــوت والحدائق،والحظائـر، والبحيرات، والطواحين، والمنشآت الأخـرى لتلك الأرض، وعندما يصل الوريث إلى السن القانونية، أن يعيد الأرض إليه مجهـزة بالمحـاريث، وبالأشيــاء الأخـرى، وأن تكون على الأقل بحـالة جيــدة، كما تسلمهـا، وينبغي مــراعــاة هذه الأحكام جميعهــا من قبل الأوصيـاء على رئـاسـات الأسقفيـات، والأسقفيـات، ورعــاة الديرة، ورؤسـاء الرهبان، والكنائس، والمناصب العليـا الشاغـرة العائـدة إلينا، باستثناء وصايات أولئك التي ليست للبيع، ويمكن للوارثة الزواج دون أن يحط ذلك من قـدرها، ويمكن للأرملة إثر وفـاة زوجها مبـاشرة، أن تأخـذ دون أدنى صعـوبات، وتستحـوذ على حصـة زواجهـا أو الميراث

الذي امتلكته هي وزوجها، في يوم وفـاة ذلك الزوج، ويمكنها البقاء في البيت الرئيسي لزوجهـا لمدة أربعين يـومـاً بعـد وفـاة زوجهـا المذكـور، وخـلال ذلك الوقت سـوف تعطى لها بائنتهـا بعد تخصيصهـا لها، مـا لم تكن قد خصصـت لها من قبل، أو ما لم يكن ذلك البيت قلعـة، وإذا ما غادرت تلك القلعة، ينبغي تزويدهـا ببيت مناسب، يمكنها أن تقيم فيه حتى يجري تخصيص بائنتهـا لها، وفقـاً لما تقـدم ذكـره أعـلاه، ولسـوف تحصل على عـلاوة مناسبة لها شخصيـاً من الممتلكات العـامة، وسـوف يخصص لها من أجل بائنتهـا ثلـث حصـة من جميع أرض زوجهـا، التي كانـت له أثناء حياته، وذلك مـا لم تتسلم أقل كبائنة عند باب الكنيسـة، ولا ترغم أرملة على الزواج عندمـا تـرغب بالعيش من دون زوج، وإذا كانت تحتفظ بملكية منا، فعليهـا أن تقدم ضمانة بأنها لن تتزوج من دون مـوافقتنا، ولن نستـولي نحن أو وكـلاؤنا على أية أرض أو ممتلكات من أجل أي دين، ما دامت قطعـان المدين، الموجودة آنذاك بين يديه، كـافية لدفع الدين، والمدان نفسـه على استعـداد لتلبيـة طلبنا منهم، ولن يكون كفـلاء المدين ملزمين بشيء ما دام المدين نفسـه شخصياً قـادراً على أن يدفع الـدين، وإذا عجـز المدين نفســه عن دفع الديـن، لأنه لا يمتلك وسائل الدفع، أو رفض الدفع مع أنه قادر، على كفلائه دفع ديونه، وإذا ما رغبوا فإنهم يستحوذون على أراضي ودخل المدين حتى تتم ترضيتهم بالنسبة للدين، الذي كانوا قد دفعوه عنه، وذلك ما لم يظهر المدين نفسه بأنه تخلص من الدين بالنسبة لكفلائـه، ولسوف تمتلك مدينة لندن جميع إمتيازاتها القديمة، وعوائدها الحرة، علاوة على ذلك سوف نمنح، لا بل منحنا، بأن جميع المدن الأخرى، والبلدات، والقرى، وبارونيات الموانىء الخمسـة، وجميع موانئنا سـوف تمتلك جميع امتيـازاتها وعوائـدها الحرة، ولن يكون على أي واحـد تقديم خـدمات أكبر مقابل رسـم فارس، أو من أجل أي مستغل حر آخر، أكثر مما يتـوجب عليه الدفع مقابل ذلك، ولن تكون المرافعـات والشكاوى العـامـة مـرافقـة لمحكمـة بلاطنا، بل

يمكن عقدها في بعض الأماكن المحددة، وبالنسبة لكفالة الممتلكات المنتزعة حديثاً، وموت جد، فلسوف تعالج بكونتيتها بهذه الطريقة، وإذا كنا موجودين، أو كنا خارج المملكة، سوف يتولى ذلك رئيس العدالة لدينا، ورجال عدالتنا خلال كل كونتية مرة في العام، وسوف يقوم مع فرسان الكونتية بعقد المحكمة المتقدم ذكرها في كل كونتية، والأشياء التي لايمكن تدبرها من قبل المرسلين المتقدم ذكرهم في المحكمة المذكورة، سوف يجري تدبرها في مكان آخر من قبل المرسلين أنفسهم خلال رحلتهم، والأشياء التي يتعذر تدبرها،بسبب بعض المصاعب المتعلقة بنقاط القضية، من قبل المرسلين المذكورين، سوف تحال إلى رجال عدالتنا أصحاب المنصة، وهناك يجري تقديرها، ولسوف تعقد المحاكم المتعلقة بآخر التقدمات إلى الكنائس، دوماًوتعرض أمام رجال العدالة ذوي المنصة، وهناك يجري تقريرها، وسوف يجري تغريم رجل حر من أجل عدوان صغير، وفقط وفقاً لدرجة خطيئته، أو من أجل عدوانه الكبير، وفقاً لكبر عدوانه— باستثناء أنفسنا—سوف يجري تغريمها بالطريقة نفسها تاجر، باستثناء تجاراته، ونذالة أي انسان — باستثناء أنفسنا— سوف يجري تغريمها بالطريقة نفسها، باستثناء أدوات زراعته، إذا ترامى بنفسه على رحمتنا، ولن يجري عمل أي من العلاوات المتقدمة الذكر، إلاّعلى أساس يمين رجال مجربين وقانونيين من جيران تلك الكونتية، ويجري تغريم الايرلات والبارونات فقط من قبل المساوين لهم بالرتبة، ووقتها فقط وفقاً لدرجة جريمتهم، وما من رجل لاهوتي سوف يجري تغريمه وفقاً لدرجة منافعه اللاهوتية، بل وفقاً لممتلكاته المدنية ودرجة جرائمه، وما من مدينة أو شخص سيكون مرغماً على عمل جسر فوق نهر من الأنهار، ما لم يكن ذلك متوجباً عليه فعله بموجب الأعراف القديمة أو الامتيازات، وما من نهر سوف يجري تطويقه أو عمل سد عليه، باستثناء الذين طوقوا أو عملت عليهم سدود أيام جدنا الملك هنري، وما من عمدة منطقة، أو مفوض، أو

محقق، أو أي من نوابنا الآخرين، يجوز له إقامة دعوى أو مرافعة باسم تاجنا، وإذا كان أي انسان بحوزته رسوم علمانية عائدة لنا، ومات، وأظهر عمدتنا أو وكيلنا رسائلنا المعتمدة مع انذار منا حول الدين الذي لنا بذمة المتوفى، سوف يكون قانونياً للعمدة التابع لنا أو لوكيلنا مهاجمة قطعان الميت التي يمتلكها في ارضه المقطعة مدنياً، وتسجيل هذه القطعان في حساب ذلك الدين، وفقاً لتقدير رجال قانونيين، ولذلك مامن شيء يجوز نقله من هناك، حتى يجري تحديد ديوننا والتأكد من دفعها، والبقية تترك بعد ذلك الى وصي المتوفى ليقوم بتصفيتها وفقاً لارادته، واذا لم يكن مداناً لنا بأي شيء، فإن جميع القطعان سوف تعطى إلى الوصي، باستثناء حصص معقولة إلى زوجته وأولاده، ولايجوز لأي قسطلان أو نائبه أخذ قمح أو قطعان أي واحد ليس عائداً للبلدة الموجودة القلعة فيها، مالم يقم بدفع المال إليه، أو كان له تصرف آخر حسب ارادة البائع، لكنه إذا كان من أهل البلدة، فإن عليه أن يدفع الثمن خلال أربعين يوماً، ومامن قسطلان سوف يرغم أي فارس على الدفع له من أجل الاعتناء بالقلعة اذا مارغب بفعل ذلك شخصياً، أو لسبب مسوغ آخر، إذا لم يستطع فعل ذلك بسبب معقول، وإذا ما أردنا إرساله إلى الجيش، فإنه سوف ينفصل عن إشرافه ما دام محجوزاً من قبلنا في الجيش، وذلك بالنسبة للرسم الذي من أجله خدم في جيشنا، ولا يجوز لأي نائب أو عمدة، أو أي وكيل تابع لنا، أخذ خيول أو عربات عائدة إلى أي انسان من أجل حمل السلع، ما لم يدفع الإيجار المقرر منذ القديم، أي أن يدفع لأي عربة مع حصانين عشرة بنسات يومياً، ولكل عربة مع ثلاثة خيول أربعة عشر بنساً لكل يوم، ولا يجوز أخذ أية عربة عائدة إلى أي شخص لاهوتي، أو فارس، أو إلى أية سيدة، من قبل الوكلاء المذكورين، كما أننا لن نأخذ نحن، ولا وكلاؤنا، أو أي واحد من الآخرين أخشاباً عائدة لانسان آخر لعمل قلاعنا، أو للقيام بأي عمل من أعمالنا، ما لم يكن ذلك بموافقة الفئة العائدة إليها ملكية

الأخشـاب، ولسـوف نحتفظ بأراضي المدانين بجناية لمدة سنـة واحـدة ويوم واحد، وبعد ذلك سوف يجري تسليمهم إلى السادة المسؤولين عن الرسوم، وسوف تجري إزالة جميع الأسيجـة كلياً في نهر التيمس ومدوي Medway وخلال أوروبا كلها، باستثناء سـاحل البحر، والمذكرة التي اسمهـا « Praecipe» سـوف لن تصـدر بعـد الآن من أجل أي إقطاعي، كي لا يفقـد إنسـان حر بلاطه، ولسـوف يكون هناك مكيـال واحد للخمرة وللبيرة في جميع أرجـاء المملكة، وقياس واحد للقمح هو الربع اللندني، وعـرض واحـد بالنسبـة للأقمشـة المصبـوغـة بالألوان الخمـرية والرمـادية، سـوف تكون ذراعين في داخل كل شقـة مع وزن متوافق مع القيـاس، ولسوف لن يعطى من الآن فصاعـداً أمراً بالتحقق لأي واحد يحتاج إلى تحقيق، فيما يتعلق بحياة أو بعضو من الأعضاء، بل إن ذلك سـوف يمنح حراً من دون نكران، وإذا مـا استحوذ واحـد منا بالايجار مـزرعة، أو استثمار أرض، أو اقطاعيـة، وكانت بيـده أرض من شخص آخر مقـابل خدمة فارس، سوف لـن نتولى الاشراف على وريثه أو إدارة أرضه، التي هي ملك لآخر، بحجـة تلك المزرعة المستأجرة، أو الأرض المستثمـرة، أو الأقطاعيـة، ما لم تكـن المزرعة المستأجـرة نفسهـا عليها خـدمة فـارس، وسوف لن نتـولى الاشراف على وريث أو أرض مأخـوذة من آخر مقـابل خـدمة فـارس، تحت حجـة وجود أي ضـابط صغير مستحـوذ لها منا مقـابل خـدمـة تقـديم سكاكين أو أسهم أو أي شيء من هذا النوع، وما من وكيل سوف يضع انساناً منذ الآن فصاعداً أمام المحاكمة أو يجبره على أداء يمين بموجب حجته البسيطة، وذلك ما لم يتوفر له شهود موثوقين، يجري احضارهم من أجل هذا الغرض، ولا يجوز اعتقال أي إنسان حر أو سجنه، أو طرده مـن أي ملكية عائدة له، أو حرمانه من امتيازاته، وأعـرافه الحرة، كما لايجوز عدّه خارج القانون، أو عقوبتـه بأية وسيلة أخرى، كما لاتجوز مهـاجمته من قبلنا، ولاارسـاله إلى السجن مالم يكن ذلك بموجب قرار قـانوني صدر عن إنسان يساويه

مـرتبــة، أو بمـوجـب قـانون الأرض، ولن نبيـع الحق والعـدل إلى أي إنسان، كما لن نرفض ذلك، أو إلغـائه، وللتجـار— مالم يكونوا ممنوعين بشكل معلن— الحق بالخروج مـن انكلترا والدخـول إليهــا، ولهم حق الاقامة والسفـر بالبر وبالماء، وأن يبيعوا وأن يشتروا من دون أي ابتزاز، وذلك وفقـاً للأعراف القـديمة والعـادلة، مالم يكن الأمـر أثناء الحرب، وهم انتمـوا إلى البلـد الذي هو في حـالة حـرب معنـا، وإذا وجـد مثل هؤلاء في أراضينا لدى بدايـة حـرب من الحروب، يجري اعتقـالهم دون الحاق ضرر بهم شخصيـاً أو بسلعهم، وذلك حتى نعلم نحن، أو رئيس العـدالة لدينا، كيف تجري معـاملة تجار بـلادنا في البلد الذي هو بحـالة حــرب معنا، وعما إذا كــان تجارنا في حــالة أمن معهــم، فهم وقتهــا سيكونون بحالة سلم معنا، وإذا كان أي واحد يمتلك ملكية من ميراث عام، مثل مــن شرفية وولنغفورد، أو بولـون، أو لانكستر، أو نوتنغهام، أو من أي ملكية عـامة هي في أيدينـا، وهي بارونية، ومـات، فإن وريثه لن يدفع أي بدل، أو يقـدم أية خـدمة لنا،أكثـر مما يدفعـه أو يقدمـه إلى البارون، إذا كانت تلك البارونيـة بيدي بارون، ونحن سوف نستحوذها بالطريقـة نفسها كما استحوذها البـارون، كما أننا لن نستحوذ أيـة ملكية عامة بحجة مثل تلك البارونية أو الملكيـة العامة، أو نقوم بالوصاية على أي من رعيتنا، مالم يكن المستحوذ للبارونيـة أو الملكية العامة، مستحوذاً منا في مكان آخر بشكل رئيسي، ومـامن رجل حر سـوف يقوم من الآن فصاعداً باعطاء أو ببيع كثيراً من أرضه إلى أي إنسان، هو غير قادر على إدارتها، وذلك من البقيــة، وخـدمتهـا حق لمولاه مقـابـل ذلك الرسم، وجميع رعــاة الديرة الذيـن لديهم من ملوك انكلترا صكـوك وقف، أو يمتلكون ملكيــة من خلال اقطاع قـديم، سوف يكونون مسـؤولين عن رعـاية تلك الديرة عندمـا تصبح شـاغـرة، وذلك كما ينبغي أن يفعلوا، وكما جاء الايضاح والإعـلان أعلاه، ولايجوز اعتقال أي رجل وسجنه، بسبب شكوى امرأة، من أجل مـوت أي واحد، باستثناء أن يكون ذلك

الرجل زوجهـا، ولايجوز من الآن فصاعـداً استحواذ أية كونتيـة إلاّ من شهر إلى شهـر، وحيث تكون الشروط المستخدمـة أطول، سوف تكون أطول، ومامن عمدة أو وكيل لها يمكنـه جعل شروطه في المائة أكثر من مرتين في السنة، ووقت ذلك فقـط في أوقات مناسبة ومعتـاد عليها، أي مرة بعد الفصح، وثانية بعد عيد القديس ميكائيل، ووفق الطريقة نفسها بالنسبـة للتعهد المفتوح، فإن ذلـك سوف يقع في الموعـد المذكور أي في عيـد القـديس ميكائيل من دون اخفـاق، وبذلك يمكن لكل إنسـان أن يمتلك امتيـازاته، مثلما امتلكهـا، واعتـاد أن يفعـل في أيام الملك هنري جـدنا، ومنذ ذلك الحين، أو ماحصل عليه منذ ذلك الوقت، وبالنسبـة للتعهد المفتوح سوف يحافظ عليـه، وبذلك يمكن المحافظة على سلامنا، ولاتتعـرض العشـور للضرر، حسبما كـانت العـادة جـارية، وبذلك لن يطلب العمدة حجـة، وسوف يكون راضياً بما اعتاد العمـدة على تسلمه من أجل تقديم معاينتـه في أيام جدنا الملك هنري، كما أنه لن يسمح له من الآن فصاعداً، اعطاء أرضه إلى بيت ديني، وذلك من أجل استئناف تملكهـا بعـد وضعهـا في حـوذة ذلك البيـت الديني، كما لن يسمح لأي بيت ديني بتسلم أرض لإعادتها مستأجرة له، من الذي تسلموا ملكيتها منه، وإذا مـاأعطـى من الآن فصـاعـداً أي إنسـان أرضـاً إلى بيت ديني،وأدين بفعل ماتقدم، فإن أعطيته سـوف تكون لاغية كلياً، وسوف تصبح الأرض في حـوذة صـاحب الاقطاع، ولسـوف يجري من الآن فصاعداً أخذ بدل الخدمـة العسكرية، حسبما كان هو معتاد في أيام جدنا الملك هنري، وجميع الأعـراف المتقـدم ذكـرها والامتيـازات، التي هي عائدة لنا، وجرى منحها لمراعاتها في مملكتنا، وذلك نحو جميع رعايانا في مملكتنا، سـوف يجري التمسك بها ومـراعـاتها من قبل كـل من رجـال الدين والعلمانيين، بقـدر مـاهي متعلقـة بهم وأيضـاً نحـو المتعلقين بهم، باستثناء مايتعلق برؤسـاء الأساقفة، والأساقفة، ورعـاة الديرة، ورؤساء الكهنة، والداوية، والاسبتـارية، والايرلات، والبـارونات، والفـرسـان،

وجميع الآخـرين من اللاهوتيين وكذلك من العلمانيين، فهـؤلاء سيكون لهم الامتيازات والأعـراف الحرة مثلما كان لديهم من قبل، شهـد هؤلاء الخ»، ولم يكن من الممكن تدوين الامتيـازات والأعـراف الحرة المتعلقـة بالغـابات على الورقـة نفسهـا، مثلما جـرى تدوين الامتيـازات المتقـدم ذكـرها، لأنها لم تكن واسعـة بما فيـه الكفـايـة، ولذلك جـرى تدوينهم ووضعهم في الصك التالي:

امتيازات الغابات

«**من جـون بفضل نعمـة الرب ملك انكلترا**، الخ، ليكن معلومـاً أننا قمنا ونحن نتطلع نحـو الرب، وفي سبيل حفظ نفسنا، وكـذلك نفـوس أجدادنا وخلفائنا، ومن أجل تمجيـد الكنيسة المقدسة، ومن أجل تحسين مملكتنا، وبناء على محض اختيارنا وحريتنا، وأصالة عن أنفسنا ونيابة عن ورثتنا، فمنحنا الامتيازات المذكورة أدناه، للحفاظ عليها بشكل أبدي في مملكتنا انكلترا، ففي المقـام الأول سـوف يجري تفحص جميع الغـابات التي عملها جدنا الملك هنري، ومن ثم تتم الموافقة عليها من قبل رجال قانونيين، وإذا عمل إنسـان غابة من أشجار حرش إنسـان آخر، أكثر مما هو عـائد لملكيتـه، من أجل إيذاء المتملك لتلك الأشجار، سـوف يجري على الفـور عدم عـدّها غابة، وإذا جعل أشجـار أحراشـه غابة، سـوف تبقى غـابة باستثناء المراعي العـامة، والأشيـاء الخاصـة في الغابة نفسهـا العائـدة لاستخدامات المستحوذين عليهـا، وجميع الناس الذين يعيشون خـارج حـدود غـابة مـن الغـابات، لن يجري إحضـارهم —من الآن فصاعداً— أمام المسؤولين عن قضايا العدالة المتعلقة بالغابات، بموجب استدعـاء عادي، مالم يكن قد أدعي عليهم، أو كـانوا كفلاء لشخص أو أشخـاص لهم عـلاقة بغـابة من الغـابات، وكل الأحـراش التي عملت غابات من قبل أخينا الملك رتشارد، سـوف تُـزال عنها هذه الصفة على الفور، مالم يكونوا أحـراشاً في ممتلكاتنا، ورؤساء الأساقفـة، والأساقفة،

ورعاة الـديرة، ورؤساء الرهبـان، والايرلات، والبارونات، والفـرسان، والمزارعين المستأجـرين الأحرار، الذين لديهم أشجـار في الغابة، سـوف يتملكون حيازة أشجارهم مثلما فعلوا في أيام تتويج الملك هنري المتقدم ذكره، وبـذلك سوف يظلون دومـاً أحراراً، دون التعرض لـلازعاج، أو الاتلاف، ومن أعمال التحـرير التي عملت في هذه الغـابات منذ ذلك التـاريخ حتى بداية السنة الثـانيـة لتتـويجنا، وكل من يقـوم من الآن فصـاعـداً، باقتراف اتلاف، أو أعمال شريـرة، أو يقـوم بتحـرير في هذه الغـابات من دون إذننـا، سـوف يقـاضى من أجـل أعمال الاتلاف والاضرار أو التحـرير، وسوف يمضي مفتشـونا خـلال الغابات للقيـام بالتفحص، كما كانت عليه العادة أيام تتـويج جدنا المذكور الملك هنري، وليس عكس ذلك، والتحقيق، أو الرأي حـول تخصيص طرق في الغابة للكلاب، سوف يؤخـذ بعين التقدير من الآن فصـاعداً، عندمـا يتوجب إجـراء مسح، أي خلال كل سنة ثـالثة، وعند ذلك سـوف يجري اعتماد ذلك وفقاً لرأي وتقـدير رجال قانـونيين، وليس عكس ذلك، وإذا ماتم بعد ذلك العثـور على أي كلب لايسير على الممشى، وقتها يجري تغـريم صـاحبه ثلاثـة شلنات، ومن الآن فصاعـداً لايجوز اعتقـال أي ثور من أجل ممشى، بل يتـوجب تقـدير ذلك الممشى بشكل عـام، بأن يكون بمقدار حجم ثلاثة حوافر من حافره الخلفي من دون الكرة، ولن يحتاج الكلاب من الآن فصاعداً إلى ممشى، مالم يكن ذلك في أماكن من المعتاد أن يكون لهم فيهـا ممشى، كما حدث في أيام تتـويج جدنا المذكـور الملك هنري، ولايجوز من الآن فصاعـداً لموظف غابة أو رجل أحـراش فرض أتاوات أو جمع حزم من القمح أو من بقيـة أنواع الحبوب، أو أغنام، أو خنازير، أو تجميع أي شيء، وبعـد إجـراء التفتيش، سـوف يجري تعيين كثير من مـوظفي الغـابات لحراسـة الغـابات، بناء على رأي ويمين إثني عشر مفتشـاً، سوف يرون أن الموظف فيـه كفاءة بالعقل ويمكنه القيـام بالعمل، ولايجوز من الآن فصـاعـداً حجـز الرعـاة في مملكتنا إلاّ ثلاث

مـرات في السنة، أي قبل خمسـة عشر يومـاً من عيـد القـديس ميكائيل، عندمـا يأخـذ مـوظفـونا بالتجـوال من أجل فـرض الضرائب من أجل الحفاظ على أسيجـة غاباتنا، وفي أيام عيد القـديس مارتن، عندمـا يتولى هؤلاء الموظفـون أنفسهم جبـاية رسـوم الأسيجـة والرعـاية، وفي أثناء هذين الموعـدين سـوف يجتمع عمال الغـابات، والرعـاة، وأصحـاب الخضراوات، والجبـاة، وليس سواهـم، بموجب وثيقـة مكتـوبة، وثالث مـوعـد للرعاة سـوف يكون في اليـوم الخامس عشر قبل عيـد القـديس يوحنا المعمـدان، من أجل اطعـام مـواشينا، وفي ذلك الموعـد سـوف يجتمع: الرعاة، وعمال الغابات، وأصحاب الخضراوات، والجباة، ومامن أحد سـواهم بموجب وثيقة مكتوبة، وعـلاوة على ذلك، على أصحاب الخضراوات، وعمال الغابات، الاجتماع كل أربعين يومـاً خلال كل عام، لتفقد وصلات الغابات، وكذلك بالنسبة لأعشاب المروج ولحم الطرائد أثناء حضـور هؤلاء العـاملين في الغابـات، حيث سوف يجري حـزمهـا ووصلهـا أثناء وجـودهم، وبالنسبـة للرعـاة فإنهم سـوف يحبسـون في الكونتيات، التي اعتيـد على حبسهم فيها، ويمكن لكل رجل حـر جباية ضريبة لإصلاح حواجز أحراشه في الغابة، ولسوف يتسلم تعويضاته في سبيل ذلـك، ونحن نمنح أيضـاً الإذن لكل رجـل حـر في أن يجلب خنازيره إلى داخل غـابات ممتلكـاتنا، بشكل حـر وبدون معيقـات، وأن يسيج عليهم في أحـراشـه، أو في مكان آخـر حسب مـايـرضيـه، وإذا مـاتجولت خنازير أي رجل حـر في غاباتنا لمدة ليلـة واحدة، سـوف لن يتخذ ذلك حجة ضده حتى لايحرم من أي من ممتلكاته، كما أنه لن يحرم من الحياة أو من عضـو من أعضائه لقيـامه بالصيـد في غاباتنا، لكن إذا ماجرى اعتقال إنسان، وأدين بالاستيلاء على لحم طرائد، فلسوف يدفع غـرامـة ثقيلـة، إذا امتلك الإمكانـات لفعل ذلـك، وإذا لم يمتلك الإمكانات فلسوف يسجن لمدة سنة ويوم واحد، وإذا ماتمكن بعد مضي السنة واليوم من ايجاد كفلاء، وقتهـا يطلق سراحه من السجن، لكنه إذا

لم يستطع، فلسوف يناشد مملكتنا مملكة انكلترا، وإذا ماحدث أن قام أي رئيس أساقفة، أو أسقف، أو ايرل، أو بارون، أثناء قدومه إلينا بناء على أمرنا، بالمرور خلال غاباتنا، يمكنه وقتها أخذ حيوان أو حيوانين أمام موظف الغابة، وإذا لم يكن موظف الغابة موجوداً، عليه أن يضرب بالبوق، حتى لايبدو، وكأنه أخذهما سرقة، ويمكنه أن يقوم بالعمل نفسه في طريق عودته، ويمكن لكل إنسان حر من الآن فصاعداً، أن يبني في غابته، من دون معيق، أو في الأرض التي يمتلكها في الغابة، طاحوناً، أو أن يعمل مطردة للصيد، أو بحيرة، أو بئراً للسماد، أو خندقاً، أو يترك بقعة منزرعة، خلف ماهو مسيج في أرض منزرعة، بشرط أن لاتكون مضرة لأي واحد من جيرانه، ويمكن لأي رجل حر أن يمتلك أنواعاً من طيور العقاب، أو من طيور الحر، أو النسور، أو مالك الحزين، ويمكنه ببعض الطرق أن تكون لديه مناحل في أحراشه، ومامن موظف غابات، هو ليس ضامن غابة مقابل رسم يؤديه لنا على وكالته، يجوز له من الآن فصاعداً، جباية أية ضريبة طريق في وكالته، بل ضامن الغابة الذي يدفع رسم لنا مقابل وكالته، يحق له أخذ ضريبة طريق، ويكون مقدار ذلك: بنسين عن كل عربة خلال نصف سنة، وبنسين آخرين مقابل النصف الآخر من السنة، ومن أجل حمولة حصان واحد ربع بنس عن نصف سنة، وربع بنس عن النصف الآخر من السنة، وتتم جباية هذا فقط من الذين يأتون من خارج وكالته، للتجارة في وكالته بناء على إذنه، ولشراء الأشجار، والحطب، والخشب، أو الفحم، ولأخذهم إلى مكان آخر للبيع، وذلك حيثما يودون، أما من العربات الأخرى ومن دواب التحميل، فلن تؤخذ ضريبة طريق، وتؤخذ ضريبة فقط من الأماكن التي جرت العادة على أخذها من قبل، أما الذين يحملون على أكتافهم حطبهم، أو خشبهم، أو فحمهم للبيع فلن يدفعوا أية ضريبة طريق، وإن كانوا يعيشون بهذه الوسيلة، ولن يتم دفع ضريبة طريق مقابل أخشاب الناس الآخرين في غاباتنا،

بل فقط مقابل أخشاب ممتلكاتنا، ويمكن لجميع الملاحقين قانونياً، بمسائل تتعلق بالغابات، منذ أيام جدنا الملك هنري حتى موعد تتويجنا، العودة بسلام من دون عائق، وعليهم توفير كفالات جيدة، تضمنهم أنهم لن يقوموا ثانية بتسبيب الأذى لنا فيما يتعلق بغاباتنا، ولايجوز لأي سيد اقطاعي، أو شخص آخر إقامة شكاوى حول الغابة سواء فيما يتعلق بأعشاب أسقف البيوت أو لحم الطرائد، لكن يمكن لأي موظف غابة برسم، أن يرفع شكوى تتعلق بالغابة، أو بالأعشاب المرجية، أو لحم الطرائد. وعليه أن يرفع شكاويه إلى أصحاب الخضراوات في الكونتية، وبعد تدوينهم، وختمهم بخاتم أصحاب الخضراوات، يجري تقديمهم إلى رئيس موظفي الغابات، وذلك عندما يأتي إلى ذلك الجزء من البلاد، لينظر في دعاوى الغابات، ولسوف يجري حسم ذلك بحضوره، وإنها إرادتنا هي القاضية بمراعاة جميع الأعراف والامتيازات التي منحناها في المملكة، نحو رجالنا، ومن جانبنا سوف تجري مراعاتها من قبل جميع شعب المملكة، ومن قبل رجال الدين والعلمانيين نحو رجالهم».

حول الخمسة والعشرين بارون الذين جرى تعيينهم من قبل الملك لمراجعة القوانين التي تقدم ذكرها

«صدوراً عن محبتنا للرب، ومن أجل إصلاح مملكتنا، ولحلّ الخلافات التي نشبت بيننا وبين باروناتنا وتسويتها، قد منحنا هذه الأشياء، راغبين بالحفاظ عليهم سالمين ومرتكزين على قواعد ثابتة، ونحن نمنح إليهم الضمانات المدونة أدناه، وهي:

أن يقوم البارونات باختيار خمسة وعشرين بارونا ممن يريدون من بارونات المملكة، وذلك حسبما يرغبون، وسوف يقوم هؤلاء مع كل ما باستطاعتهم من قوة بمراعاة، وبالحفاظ، وبالتسبب بمراعاة السلام، والامتيازات التي منحناها، والتي أكدناها بصكنا الحالي لهم، وبناء عليه،

إذا ماقمنا نحن شخصيا، أو صاحب العدالة لدينا، أو وكيل تابع لنا، باقتراف خطأ بحق بأي واحد، بأية طريقة من الطرق، أو خرقنا وتجاوزنا أي شرط من الشروط لهذا السلام وهذا الضمان، وأمكنت البرهنة على هذا الأذى من قبل أربعة من بين الخمسة والعشرين باروناً، عندها سوف يقدم هؤلاء البارونات الأربعة إلينا، أو إلى رئيس العدالة لدينا، إذا ما كنا خارج المملكة، ويتولون شرح ماحدث وتبيان الخطأ لنا، ويطلبون منا تقديم ترضية من دون تأخير، وإذا نحن - أو كنا نحن خارج المملكة - أو رجل العدالة لدينا، لم نعط ترضية خلال أربعين يوماً، تحسب من اليوم الذي أشير به بالقضية لنا، سوف يحيل البارووات الأربعة القضية إلى بقية الخمسة والعشرين، وعندها يتولى البارونات مع جميع الناس في البلاد ازعاجنا ومضايقتنا، بجميع الوسائل التي بين أيديهم، مثل الاستيلاء على قلاعنا، وأراضينا، وممتلكاتنا، وبمختلف الوسائل الأخرى، حتى نقدم لهم الترضية، وفقاً لقرارهم، وذلك باستثناء شخصنا، وشخصيات الملكة وأولادنا، وبعد تقديمنا الترضية لهم، هم سوف يطيعوننا كما فعلوا من قبل، وعلى كل واحد في المملكة، هو سوف يختار، أن يفعل كذلك، أن يقسم أنه من أجل الحفاظ على الشروط المتقدم ذكرها، أن يطيع أوامر الخمسة والعشرين باروناً المتقدم ذكرهم، وأنه سوف يضايقنا بالاتحاد معهم، إلى أقصى حد بطاقته، ونحن نمنح إذناً حراً ومفتوحاً، بأن يقسم هكذا إلى أي واحد يختاره ليفعل هكذا، ونحن لن نمنع أحداً من أن يقسم هكذا، هذا ولسوف نجعل جميع الذين في مملكتنا، الذين اختاروا أن يقسموا بالاتحاد مع البارونات من أجل مضايقتنا وازعاجنا، أن يقسموا على إطاعة أوامرنا المذكورة أعلاه، إنما في جميع الحالات التي عهد بها إلى تدبير هؤلاء الخمسة والعشرين باروناً، إذا حدث بالصدفة ولم يتفقوا بين أنفسهم حول أي نقطة، أو أن أيا منهم لدى دعوتهم إلى الاجتماع رفض الحضور، أو كان غير قادر على الحضور، ومهما كان الأمر تتولى الأكثرية

منهم اتخاذ القرار، والقرار الذي سوف يتخذ من قبلهم، سوف يجري اقراره وتثبيته، وكأن الخمسة والعشرين قد وافقوا عليه، ويتوجب على الخمسة والعشرين بارونا أن يقسموا على أنهم يرعون باخلاص الشروط المتقدم ذكرها، وأن يبذلوا غاية جهودهم لجعلهم موضع الرعاية والتطبيق، ونحن لن نفعل شيئاً شخصياً أو بوساطة انسان آخر، في تسبيب نقض المنح والامتيازات المذكورة، أو إتلافها، وإذا ماجرى عمل أي منح من هذا القبيل، فسيكون ذلك لاغياً وفارغاً، ولن نقوم أنفسنا باستخدام ذلك أو من قبل أي انسان آخر، وجميع الخلافات والمهاترات، والضغائن التي ثارت بيننا وبين رعيتنا، ورجال الدين والعلمانيين، وذلك منذ نشوب الخلافات بيننا، قد أزلناها نهائيا، وتسامحنا بالنسبة لها كلها، وبالنسبة للذين تولوا مضايقتنا أكثر من سواهم، وأقصد بذلك أصحاب الأربع قلاع في: نورثأمبتون، وكنيلوورث Kenilworth، ونوتنغهام، وسكاربورا Scarborough، إن هؤلاء سوف يقسمون اليمين للبارونات الخمسة والعشرين، بأنهم سوف يتصرفون بقلاعهم، وفقا لما سيقرره هؤلاء أو الأكثرية منهم، ولما سيأمرونهم به أن يفعل، وسوف يجري تعيين شحن لهذه القلاع، يكونوا مخلصين دوما، ولايحنثون بأيمانهم، ولسوف نبعد من مملكتنا جميع الأجانب، وجميع أقرباء جيرارد دي أثي Athie ، الذين هم: انغلارد Engelard، وأندرو، وبيتر، وكذلك غي دي تشانسيليسChanceles، وغي دي سيغوإغني Ciguigny، وزوجة جيرارد المتقدم ذكره مع أولادهما، وغيوفري دي مارتن Martenn وأخويه، وفيليب مارك وأخويه، وغ. G. حفيده، وفالكو Falco، وجميع الفلمنكيين، واللصوص الذين يسببون الأذى لمملكتنا، وعلاوة على ذلك، إن جميع الانتهاكات التي اقترفت بسبب هذا الخلاف منذ عيد الفصح الأخير، الذي وقع في السنة السادسة عشرة من حكمنا حتى تجديد هذا السلام، هي معفية بشكل عام من قبلنا،بالنسبة لجميع

رجـال الدين والعلمانيين، وبالنسبـة لنا هي مسـامحة تماماً، وعـلاوة على ذلك لقـد تدبرنا منحهم شهـادات ورسائل معتمـدة من مـولانا ستيفن رئيس أساقفـة كانتربري، ومن هنري أسقف درم، ومن باندولف، نائب رئيس الشمامسـه، والصـديق المقـرب من مـولانا البـابـا، وكـذلك من الأساقفة المتقدم ذكـرهم، كضمانة لهذا وللمنح المتقدم ذكرها، وبناء عليه سوف نأمـر بدقة بأن تكـون الكنيسة الانكليزية حـرة، وأن تتملك جميع الرعيـة وتستحوذ على جميع الامتيـازات، والقوانين، والأعـراف، بشكل جيـد وبسـلام، وبصـورة حـرّة، وهادئـة، كـاملة وتامـة، لأنفسهم، ولورثتهم، منا ومن ورثتنا، في جميع القضـايا والأماكن كما قيل من قبل، وجرت أيضـاً تأدية قسم بحضور الذين وردت أسماؤهم أعـلاه، بمثابة شـاهد على أنفسنـا، وعلى البـارونات، بأننا سـوف نـرعى جميع المواد والشروط المتقدمـة الذكر باخلاص جيـد، ومن دون معيقات وتحفظات مخادعة. منح تحت أيدينا في الحقل الذي اسمـه رنيميد Runnymede، بين ستين ووندسـور، في اليـوم الخامس عشر من حـزيران، في السنة السابعة عشرة لحكمنا».

كيف أمر ملك انكلترا برسائل معتمدة بوجوب رعاية الامتيازات المتقدم ذكرها

بعـد هذا، بعث الملك جـون رسائل معتمـدة إلى جميع أرجـاء المناطق الانكليزية، أمـر فيها بكل دقـة جميع عمد المملكة كلهـا، بجعل السكان الموجودين في مناطق ادارتهم من كل مرتبة يقسمون على مراعاة القوانين التي كتبت أعـلاه والامتيـازات، وأن يقـومـوا بقـدر مـالديهم من قـوة بازعـاج الملك والضغط عليه، بالاستيـلاء على قلاعـه حتى يقوم بتنفيـذ جميع الشروط التي تقـدم ذكرها أعلاه، حسبما وردت في الصـك، وبعد هذا جاء كثير من نبلاء المملكة إلى الملـك يطلبون منه حقوقهم بالأرض والممتلكات، والولايـة على القـلاع، التي -كما قـالوا -عـائـدة إليهم

بموجب حق الوراثة، لكن الملك أجل هذه القضية، حتى يكون قد تبرهن بيمين رجال تابعين اقطاعيين، ماهو حق وواجب لكل واحد، ولكي تكون القضية أكثر تأثيراً وفعالية، حدد السادس عشر من آب، ليكون يوماً للجميع للقدوم إلى ويستمنستر، ومع ذلك أعاد إلى ستيفن رئيس أساقفة كانتربري قلعة روكستر، وبرج لندن، لأنهما بموجب الحقوق القديمة يعودان إلى ولايته، ثم أنهى ذلك الاجتماع، وعاد البارونات مع الصك المذكور أعلاه إلى لندن.

كيف انسحب الملك جون بشكل سري إلى جزيرة وايت ووضع خططاً ضد البارونات

وحسبما ذكرنا، بعدما غادر البارونات المؤتمر، ترك الملك مع أقل من سبعة فرسان من بين جميع حرسه الشخصي وخدمه، وعندما كان مستلقيا في تلك الليلة من دون نوم في قلعة وندسور، خوفته أفكاره كثيراً وأرعبته، فهرب قبل انبلاج ضوء النهار خلسة إلى حزيرة وايت Wight، وأبدع هناك وهو يشعر بألم عظيم في عقله، خططا للانتقام من البارونات، وقرر أخيراً بعد كثير من التأملات، مع مساعدة بطرس الرسول، أن ينشد الانتقام من أعدائه بسيفين: السيف الدنيوي، والسيف الروحي، وبذلك إذا لم ينجح بالسيف الأول، يمكنه بشكل مؤكد تحقيق أهدافه بالسيف الآخر، ولكي يضربهم بالسيف الروحي، أرسل باندولف، نائب الشماس البابوي، مع مبعوثين آخرين، إلى بلاط روما، للتصدي بوساطة السلطات الرسولية لنوايا البارونات، كما أنه أرسل أسقف وينكستر ومستشار انكلترا، وجون أسقف نورويك، ورتشارد دي ماريسكو Marisco، ووليم غيرنون Gernon، وهيوج دي بوفز Boves ، مع ختمه الخاص، إلى جميع مناطق ماوراء البحر، للحصول على عساكر واكترائهم من هذه المناطق، واعداً إياهم بأرض، وبوفرة من السلع، وبمبالغ كبيرة من المال، ولكي يضمن طاعة الناس،

وانضمامهم إليــه، أمــرهم - إذا كــان الأمر ضروريا -منحهـم وثائق ضمانات من أجل الدفع إلى جميـع الجنود الذين سيلتقحـون بهم، ورتب أن يلتحقوا به في دوفـر في عيد القـديس ميكائيل، مع جميع الذين يمكن جذبهم إليهم، وعلاوة على ذلك، بعث برسـائل إلى جميع ولاة قلاعه في جميع أرجاء انكلترا، آمـراً إياهم أفراداً وجماعـات القيام بتـزويد قلاعهم بجميع أنواع المؤن والسـلاح، وبتحصين حصـونهم بالجنود، حتى يكون بامكانهم الدفاع عنهـم يوم تلقي الأمر بذلك، ثم إنه قـام بالوقت نفسه مع عدد قليل من الأتباع استعـارهم من حاشية أسقف نورويك، وشرع يشغل نفسـه في أعمال القـرصنة، وسخـر نفســه من أجل كسب مـودة البحـارة في الموانىء الخمســة، وهكذا أخفى نفســه في الهواء الطلق في الجزيرة وقـرب شـواطىء البحـر، من دون أي مظهـر ملكي، لمدة ثلاثة أشهـر برفقة البحـارة، لأنه كان يفضل أن يمـوت على أن يعيش طويلاً دون أن ينتقم للإهانات التي ألحقها به البـارونات، وخلال ذلك الوقت جـرى بين الناس تداول تقـارير متنوعـة مـن قبل مختلف الناس حـوله، وقال بعضها بأنه تحول إلى صائد سمـك، وقال آخرون بأن صار تاجراً، وقـال بعض آخـر بأنه صـار قـرصـانا، وحكـى بعض الناس بأنه صـار مـرتداً، وبعــد مـا بحث عنه كثيرون، خـلال غيــابه المخطط له، بدون نجـاح، أخذوا يعتقـدون أنه قد غـرق، أو هلك بطريقة مـا من الطرق، وعــرف الملـك بجميع هذه التقــاريـر وتحملهــا برباطـة جأش منتظرا الوصول المتوقع لمبعـوثيه، الذي أرسل بعضهـم إلى بلاط روما، وبعضهـم الآخر لتجنيد عساكر لمساعدته.

الافادات التي عملها رسل ملك انكلترا للبابا

ومثل في الوقت نفسه رسل ملـك انكلترا أمام مولانا البـابا في روما، وعـرضوا عليـه وبينوا العصيـان والمضار التي اقترفهـا بارونات انكلترا ضــد الملك المذكور، واستخـرجـوا منه بعض القوانين والامتيـازات غير

العـادلة، التـي جعلت كـرامتـه الملكيـة غير ثابتـة، وأنه بعـد كثير من الخلافات فيما بينهم وبينه، اجتمع الملك المذكور والبـارونات عدة مرات للتفـاوض حول السـلام، وأنه أعلن بوضـوح أمامهم جميعـاً، بأن مملكة انكلترا هي بمـوجب حق الحكم عـائـدة إلى كنيسـة رومـا، ولذلك هو لايحق له، ولاينبغي له، عمل أية ترتيبات جديدة، من دون معرفة مولانا البـابا، أو تغيير أي شيء في المملكة لأن التغيير يتـوجب تغييره من قبل الحبر الأعظم، ومع أنه عمل حـول ذلـك مـرافعـة شكوى، وأنه وضع نفسه وجميع حقـوق مملكته تحت حماية الكرسي الرسـولي، فإن البارونات المذكورين، لم يعيروا أدنى اهتمام وتقدير لشكواه، وقاموا بالاستيلاء على مدينة لندن، التي هي عاصمة مملكته، حيث سلمت إليهم بشكل خياني، وهم حتى الآن مستولون عليها، وطـاروا بعد هذا إلى السلاح، وامتطوا ظهور خيولهم، وطلبـوا من الملك وجوب تأكيد القوانين المتقـدم ذكرها. مع الامتيازات المذكورة، ولم يتجرأ الملـك على رفض ماطلبوه، خشية أن يقـوموا بمهـاجمته، ثم أعطى الرسـل المذكورون إلى البـابا ورقة مكتـوبة تحتوي بعض المواد من الصك المذكـور، التي بدت أنها تؤيد قضية الملك كثيراً، وبعـدما قـرأهم البابا بدقـة، قـال متعجباً ومندهشـاً: «هل يسعى بارونات انكلترا نحـو الطرد من عـرش مملكتـه، ملكاً قـد حمل شـارة الصليب، وهو موجود تحت حماية الكرسي الرسولي، وأن ينقلوا إلى آخر حكم الكنيسـة الرومـانيـة؟ بحـق القـديس بطرس لايمكننا تجاوز هذه الاهانة من دون عقوبتها»، ثم إنه قام بعـد التشاور مع كرادلته، باصدار قرار حاسم لعن فيه الصك المذكور الذي قضى بمنح الامتيازات لمملكة انكلترا، وألغاه إلى الأبد، وكبرهان مؤيد لهذا، حول إلى الملك الانكليزي الاعفاءات التالية:

كيف جرى باعفاء من الكرسي الرسولي إلغاء الامتيازات التي منحت إلى البارونات الانكليز

« من انوسنت، أسقف وعبد عبيد الرب، إلى جميع المؤمنين بالمسيح، الذين سوف يرون هذه الورقة، أماني الصحة، والمباركة الرسولية، إنه مع أن ولدنا المحبوب جيداً بالمسيح جون الملك المشهور للانكليز قد أغضب الرب كثيراً، والكنيسة المقدسة - ولذلك غللناه بأغلال الحرمان الكنسي، ووضعنا مملكته تحت الحرمان من شراكة المؤمنين - إنه مع هذا فإن الملك المذكور، بالهام من رحمته الذي لايرغب بموت المذنب، بل إنه يريد منه أن يهتدي وأن يعيش طويلاً بعد اهتدائه، وتوبته بكل تواضع إلى الرب، والكنيسة، وبتوبته هو لم يعط التعويض فقط للذين خسروا، وأعاد الممتلكات المصادرة، بل إنه منح حرية كاملة إلى الكنيسة الانكليزية، وعلاوة ذلك لقد قام بعد سحب القرارين، بالتخلي عن مملكته في انكلترا، وكذلك عن مملكته في ايرلندا، إلى القديس بطرس، وكنيسة روما، وقد تسلمهما منا بحرية، على شرط دفع مبلغ سنوي مقداره ألف مارك، وتأديته قسم التابعية لنا، كما ظهر بامتيازه الممهور بخاتم ذهبي، ورغبة منه في منح المزيد من الترضية للرب القدير، حمل شارة الصليب الحي، من أجل الذهاب لتقديم العون إلى الأرض المقدسة، الأمر الذي كان يعد نفسه إليه مع كثير من النفقات، لكن عدو الجنس البشري، الذي عادته هي كراهية الأعمال الجيدة وحسدها، تمكن بفنونه الماكرة من إثارة بارونات انكلترا ضده، لذلك اختل نظام الأشياء وفسد، حيث أنه بعدما اهتدى وكان يقدم التكفير إلى الكنيسة، هوجم من قبل الذين وقفوا إلى جانبه أثناء عدوانه ضد الكنيسة، واخيرا عندما ثار الخلاف بينه وبينهم، وبعد تعيين عدة أيام للتفاوض حول السلام، جرى ارسال مبعوثين خاصين إلينا، وبعد مناقشة القضية مطولاً معهم، وبعد تداول طويل وتمحيص كامل، كتبنا بوساطة المبعوثين أنفسهم، إلى ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، وإلى أساقفة انكلترا، نأمرهم بأن يمنحوا عناية متواصلة ومساعدة مؤثرة، لإعادة السلام الحقيقي والوئام بين الفرقاء، ولإعلان أن جميع التكتلات والمؤامرات —إذا كان أي منها

قـد تشكل منذ بداية نشـوب الخلاف بين الملك والكهنة— هي ملغـاة بوسـاطة السلطـات الرسـوليـة، ولمنع، تحت التهـديد بعقـوبة الحرمـان الكنسي، أي واحـد من اظهـار مثل هـذه المظاهر في المستقبل، والقيـام بالوقت نفسه، بشكل لطيف ومؤثر بإنذار النبلاء والرجال ذوي المراتب في انكلترا، وأمـرهم بالسعي بوسـاطة مـؤشرات وبراهين واضحـة، وبتقـوى وتواضع، لعمل سلام مـع الملك، وعندئذ إذا مـا أرادوا طلب أي شيء منه، أن يسـألوه ذلك، إنما ليـس بشكل مهين، بل بتـواضع، مـراعين نحوه الاحترام الجدير بملك ومقـدمين إليـه الخدمات المعتـادة، التي قدمها إليـه هم وأجدادهم، ذلك أن الملك لا تجوز اهانته من قبلهم من دون حكم، وأنهم بذلك يمكنهم هكذا الحصـول بسهـولة أكبر على الذي كـان يسعـون له، وقـد طلبنا أيضـاً، ونصحنا الملك المذكـور، برسائلنا، وفـرضنا على رئيس الأساقفة المذكور والأسـاقفة ليطلبوا منه، وليحذروه، وليكون الأمـر بمثابة غفـران له من ذنوبه، أن يتـولى معاملة النبلاء المتقدم ذكرهم بلطف، وأن يولي شكاويهم العـادلة اهتماماً خاصاً، وبذلك يمكنهـم أن يعلمـوا، وأن ينالوا السرور، أنـه قـد تغير نحـو الأفضل، وأنه بهذه الـوسـائل يمكنهـم هم وورثتهم أن يكونـوا أكثـر استعداداً، وأكثر إقبالاً على خدمتـه وخدمـة ورثته، وأن يمنحهم ضماناً كامـلاً بحرية الذهاب، والاقامة، والمغـادرة، وأنه إذا حدث أنه لم يمكن ترتيب السـلام فيما بينهم، فإنه يمكن للخـلافـات التي نشبت ايجاد حل لها وتسويتها في محكمة بلاطه بوساطة وكلائهم، ووفقاً لقوانين وأعراف المملكة، وحـدث أنه قبل أن يعـود الـرسل مع هذه النصيحـة الحكيمـة والعـادلة، أن قام هؤلاء البـارونات بالتخلي كليـاً عن يمينهم بالتابعيـة، (لأنه وإن قـام الملك بشكل غير عـادل بظلمهم، المتـوجب عليهم أن لا يعملوا ضده ما عملوه، وأن يكونوا في آن واحـد القاضي والمنفذ بالنسبة لقضيتهم، لأنه لا يجوز للأتباع التآمر بشكل مكشوف ضد مولاهم، ولا الفـرسـان ضـد ملكهم) وتجرأوا بالاتحاد مع آخـريـن هم أعـداءه

المكشوفين، على إثارة الحرب ضده، والاستيلاء على أراضيه بعد العيث فساداً فيها، وعلاوة على ذلك، لقد استولوا على مدينة لندن، التي هي عاصمة المملكة، حيث سلمت إليهم من خلال الخيانة، وفي الوقت نفسه، عندما عاد الرسل المذكورون، عرض الملك، بالتوافق مع وصايتنا، أن يظهر نحوهم عدالة صحيحة، لكنهم رفضوها، وحولوا أيديهم نحو اعتداءات أسوأ، بناء عليها توجه الملك نفسه، باسترعاء اهتمامنا، وعرض منحهم عدالة بحضورنا، والحق في تقدير هذه القضية عائد إلى حكمنا، وقد رفضوا هذا كلياً، ثم انه اقترح إليهم وجوب اختيار أربعة رجال بارعين من قبله ومن قبلهم من أجل أن يتمكن هؤلاء بالتعاون معنا، أن يضعوا نهاية للخلاف الذي نشب فيما بينهم، واعداً أنه سيتولى قبل كل شيء إزالة جميع الاساءات، التي ربما وقعت وعرفتها انكلترا في أيامه، لكنهم رفضوا محاولة هذا، وأخيراً شرح الملك إليهم—أنه ما دامت المملكة عائدة إلى كنيسة روما هو لا يمكنه، ولا يجوز له، من دون وصايتنا الخاصة، القيام بأية تغييرات فيها تأتي مضرة بنا، ولذلك توجه مجدداً بالشكوى إلى مسامعنا، واضعاً نفسه ومملكته، مع كرامتها وحقوقها تحت حماية الكرسي الرسولي، وبما أنه لم يحصل على أي شيء بهذه الوسائل، سأل رئيس الأساقفة والأساقفة القيام بتنفيذ وصايتنا، والدفاع عن حق كنيسة روما، وحمايته وفقاً لشروط الامتيازات التي منحت للذين حملوا الصليب، وبالإضافة إلى هذا، عندما لم يوافقوا على أي من هذه الشروط، ولدى وجود ه نفسه محروماً من كل عون ونصح، لم يتجرأ على رفض كل ما تقدموا بالمطالبة به، وبناء عليه لقد أرغم بوساطة القوة ومن خلال الخوف—الذي حتى أكثر الناس شجاعة عرضه للخضوع له—على الدخول باتفاقية معهم، هي لم تكن فقط شريرة ومنحطة، بل أيضاً غير قانونية، وغير عادلة، بل إنها تحط من كرامته ومن حقوقه وتزيلهما، وحسبما أخبرنا الرب من خلال نبيه في قوله:«لقد عينتك على الناس وعلى المملكة، لأقتلع

وأهدم، ولأبني ولأزرع» ومن خلال نبي آخر قوله:

«ارم وفكك أغـلال الشرور، ألق عنك أثقـال الظلم»، لهذا لم نختر المرور مرور الكرام بهذه الوقاحة الشريرة، المتجهة نحو ازدراء الكرسي الرسولي، والى محق الحقوق الملكية، والى اهانة الأمة الانكليزية، وإلى تعريض قضية الصليب للخطر، لولا أن قمنا بوساطة سلطاتنا بنقض كل شيء استخرج من مثل هذا الأمير الذي حمل الصليب، مع أنه كان على استعداد للحفاظ عليهم، وبناء عليه نقوم نيابة عن الرب، الأب القدير، والابن، والروح القدس، وبوساطة سلطة رسوليه: بطرس وبولص، وبوساطة سلطتنا، وبناء على نصيحة إخواننا، بشجب، وبإدانة كاملة لاتفاقية من هذا النوع، ونمنع الملك المذكور، تحت انزال عقوبة الحرمان الكنسي به من الحفاظ على الصك، أو على الضمانات والقيود التي أعطيت من أجل الحفاظ عليه، ونمنع أيضاً البارونات ومن معهم من ارغام الملك على الحفاظ على الصك أو على الضمانات والقيود التي منحت للحفاظ عليه، ونلغي هذا الصك كلياً، ونزيله وكأنه لم يكن، وأن لا يكون له أية فعالية، ونحذر أياً كان، الخ، ومهما كان، الخ، صدر في أغنانو Agnano في الرابع والعشرين من آب، في السنة الثامنة عشرة لحبريتنا».

البابا يلوم بارونات انكلترا من أجل اضطهادهم الملك

وبعدما ألغى البابا على هذه الصورة الامتيازات المتقدم ذكرها، كتب إلى بارونات انكلترا وفق الشروط التالية: «من انوسنت، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى نبلاء انكلترا، روح المشورة الأعقل، حبذا لو أنكم في اضطهادكم الذي تسرعتم في ممارسته ضد مولاكم الملك، أن التزمتم بعناية أكبر بيمينكم بالتبعية، واهتممتم بحقوق الكرسي المقدس، وبالامتيازات التي منحت إلى الذين حملوا الصليب، وبما أنكم من دون شك، لم تقوموا بإجراءات الادعاء بها عملتموه، ولذلك فإن

كل من شاهد مافعلتموه يرفض العدوان، خاصة وأنكم بالنسبة لقضيتكم، قد جعلتم أنفسكم القضاة والمنفذين، مع أن الملك المذكور كان قد استعد لمنحكم وفرة من العدالة في بلاط محكمته، وذلك بقرار من نظرائكم، ووفقاً لقوانين وأعراف المملكة، أو بحضرتنا نحن الذين نمتلك القرار بهذه القضية، بموجب حق السلطة، أو بحضرة محكمين يجري اختيارهم من كلا الجانبين، حيث يقومون متحدين بالاستدعاء والمرافعة في هذه القضية معنا، وبما أنكم لم تحاولوا أية واحدة من هذه الخطط، رفع شكواه إلى مسامعنا، ووضع نفسه ومملكته مع جميع امتيازاتها وحقوقها، تحت حماية الكرسي الرسولي، وأعلن صراحة أنه بما أن السلطة على تلك المملكة هي عائدة إلى كنيسة روما، لايمكنه —ولايجوز له— إحداث أي تغيير يسبب الضرر لنا، وبناء على هذا وبعد رؤيتنا لنوع الاتفاقية التي عملت، وهي اتفاقية أرغمتموه بالعنف وبالتهديد على عملها، وهي على هذا شريرة ومنحطة، وكذلك غير قانونية وغير عادلة، ولذلك يتوجب بشكل مسوغ رفضها من قبل الجميع، وذلك لسبب رئيسي هو نوعية الوسائل التي استخدمت للحصول عليها، ونحن الذين نرى أنه لزاماً علينا تأمين المنافع الروحية وكذلك الدنيوية للملك وكذلك للمملكة، نأمر برسائلنا الرسولية هذه، وننصحكم باخلاص شامل، أن تلتزموا بفضيلة الضروريات، وأن تتخلوا من قبل أنفسكم عن هذه الاتفاقية التي من هذا النوع، وأن تقدموا تعويضات إلى الملك وإلى أتباعه من أجل الأذى والضرر الذي ألحقتم به، حتى إذا ماسكن بوساطة مؤشرات التقوى الواضحة من عندكم والتواضع، يكون وقتها من الممكن أن يقدم طواعية من قبل ذاته تنازلات ينبغي تقديمها بموجب حقوقه بالمنح، وللقيام بمثل هذا نحن أيضاً سوف نقنعه، لأننا، وإن كنا لانرغب بحرمانكم من حقوقكم، نرغب منه التوقف عن مضايقتكم، حتى لاتكون مملكة انكلترا، في ظل حكمنا، عرضة للظلم بوساطة أعراف شريرة، وإلزامات غير عادلة،

وكل مـايتقـرر ويرسـم في هذا المجـال سـوف يجري تثبيتـه واعتماده إلى الأبد، وبناء عليــه، إن الذي يرغب بعـدم هـلاك أي انسـان، يمكنه أن يجعلكم تميلون للأخـذ بتـواضع بنصيحتنا الصحيحة وبـأوامرنا، خشيـة أنكم إذا مـاتصرفتم على العكس سـوف تجدون أنفسكم وقـد نزلتم إلى مضائق لايمكنكم النجاة منها من دون الكثير من الاضطراب، ومع أننا لانستطيع الحديث عن القضايا الأخرى، لانستطيع إخفاء الخطر العظيم المحيق بجميع شؤون الصليب، الذي سوف يكون في خطر حقيقي، مالم نقم، بوسـاطة سلطاتنـا الرسـوليــة، معــاً بإلغــاء جميع الوعــود التي استخـرجت بالقـوة من ذلك الملـك، الذي حمل شـارة الصليب، مع أنه يرغب بالحفاظ عليهم، وبناء عليه عندما سيمثل رؤساء أساقفة وأساقفة انكلترا أمـامنا، أثناء المجمع العـام الذي سوف نعقـده من أجل معـالجة مسـائل الكنيسة الأكثـر إلحاحاً، أقـدموا أنتم أيضـاً على ارسال مـراقبين موائمين للمثـول أمامنا، واعهـدوا بأنفسكم من دون خوف إلى رعـايتنا الخيرة، لأننا تحت نعمـــة الرب، ســوف نعــالـج القضــايا بـإزالة كل الاساءات في مملكة انكلترا، وبذلك سيكون الملك راضياً وقانعاً بحقوقه العادلة وبكرامتـه وعزته، وأن يكون رجـال الدين والشعب بشكل عام متمتعين بالسلام وبالامتيازات المستحقة لهم.

صــدر في أغنانو في الرابع والعشريـن من آب في السنة الثـامنة عشرة من حبريتنا»، وبعـدمـا —على كل حال— تسلمـوا هذه الرسـائل، التي هي رسائل وعد ووعيد، لم يقلعوا عن أهدافهم، وذلك بسبب تصرفات الملك، وقاموا بمضايقته بحدة أكبر وبشدة أعظم.

استيلاء وليم دي ألبيني على إمرة قلعة روكستر

وكـان في الوقت نفســه النبيل وليم دي ألبيني Albiney قد تلقى رسائل متوالية من البارونات في لنـدن، ولأنه تعرض للملامة بدرجات عـالية بسبب تأخـره عن القدوم إليهم، قـام أخيراً في يوم عيد القـديس

ميكائيل بشحن قلعته قلعة أوف بلفوير Belvoir بما يكفيها —لابل أكثر مما يكفيها— من جميع أنواع المؤن والسلاح، عهد بها إلى عناية رجال كانوا مخلصين له، ثم ذهب إلى لندن، حيث استقبل هناك من قبل البارونات بكثير من البهجة، وقد قاموا على الفور باعلامه بخطة كانوا قد قرروها، وقد قضت باغلاق الطريق ضد الملك، وبذلك لن يكون أي طريق مفتوح أمامه من أي اتجاه إذا مارغب بإلقاء الحصار على مدينة لندن، ولذلك انتخبوا قوة كبيرة وقوية من العساكر وعيّنوا وليم دي ألبيني لقيادتها، لأنه كان رجلاً شجاعاً ومجرباً في الحرب، وبعثوا به لاحتلال بلدة روكستر، وكانت قلعتها قد عهد بها قبل وقت قصير بثقة من الملك، إلى رئيس الأساقفة، الذي سلمها إلى أعداء الملك، وأنا لاأعرف ماهي المشاعر التي دفعته إلى ذلك، الرب وحده يعرف ذلك، ولدى دخول أعداء الملك إليها، وجدوا المكان ليس فقط فارغاً من السلاح والمؤن، بل أيضاً من كل نوع من أنواع السلع والعتاد، وذلك باستثناء ماجلبوه معهم، مما خيب آمالهم وفكروا بمغادرتها، لكن وليم دي ألبيني شجعهم واستمر دوماً في رفع حماس أتباعه، ودفع أصحابه نحو أعمال الشجاعة، وقال إنه ليس قانونياً بالنسبة للفرسان التخلي، خشية أن يشكل ذلك وصمة عار لهم، ولكي لايدعون بالتدريج باسم الفرسان الهاجرون، وبذلك تحمسوا كثيراً وتشجعوا بكلماته، فجلبوا إلى القلعة ماوجدوه من مؤن فقط في بلدة روكستر، وكان تعداد هؤلاء الفرسان مائة وأربعين فارساً، ومعهم جميع أتباعهم، ولم يتوفر لديهم الوقت لجمع الأسلاب من المنطقة المحيطة بهم، أو تجهيز أنفسهم بالمؤن من أي نوع.

كيف حاصر الملك جون قلعة روكستر

بعدما استحوذ وليم دي ألبيني وأصحابه —كما ذكرنا أعلاه— على قلعة روكستر، وبعدما أقام الملك جون ثلاثة أشهر في جزيرة وايت،

أقلع من تلك الجزيرة وأبحر إلى دوفر، وإلى دوفر وصل إليه رسله الذين كان قد بعثهم إلى مناطق ماوراء البحر، وجلبوا معهم حشداً كبيراً من الفرسان والجنود، حتى أن كل من رآهم أصيب بالرعب والازدراء، فقد جاء من منطقتي بواتو وغسكوني النبيل ورجل الحرب سافاريك دي موليون Savariec de Maulion وقدم الأخوان غيوفري، وأولفـــــردي بوتفيل Buteville تحيط بهما كتلة كبيرة من الفرسان والجنود، ووعدوا بتقديم طاعة مخلصة الى الملك، وجاء من مقاطعتي: لوفين، وبرابانت الفرسان الشجعان: وولتر بوك Buck وجيرارد وغودسكال دي سوسين Godeschal de Soceinne مع ثلاث وحدات من الجنود،ورماة القسي الزيارة، الذين تعطشوا إلى لا شيء أكثر من تعطشهم إلى الدم البشري، وجاء إلى جانب هؤلاء إلى الملك من كونتية فلاندرز، ومن مناطق ما وراء البحر الأخرى كل الذين اشتهوا جشعاً أملاك الآخرين، وهكذا منحوا الملك أملاً كبيراً في الدفاع عن نفسه، حيث كان من قبل قد فقد كل أمل ، وما أن سمع جون بأن وليم دي ألبيني وأتباعه قد دخلوا إلى مدينة روكستر، حتى زحف إلى هناك، مع جميع الحشود التي تقدم ذكرها، بكل سرعة، وفي اليوم الثالث بعد دخولهم إلى القلعة، أغلق جميع طرقهم للخروج وحاصرهم، وقام على الفور بنصب مجانيقه وبقية آلات رميه، وضايق المحاصرين بشدة بزخات من الحجارة ومن الأسلحة الأخرى، وتحمل المحاصرون حملاتهم من دون إحجام، ودافعوا عن أنفسهم بشجاعة.

وفاة هيوج دي بوفز

وجاء في الوقت نفسه هيوج دي بوفز، وكان فارساً شجاعاً، لكنه كان متكبراً، ورجلاً غير مستقيم، ووصل إلى ميناء كالي في فلاندرز لمساعدة ملك انكلترا، وركب في السفن في ذلك المكان، وأقلع مع جميع قواته، واتجه إلى دوفر، لكن ثارت عاصفة بشكل مفاجيء قبل أن يصل

إلى الميناء المقصود، وقد غرق وغرقوا جميعاً وابتلعهم البحر بأمواجه، وقذف جسد هيوج المذكور إلى الشاطىء مع عدد من الفرسان الآخرين والأتباع، وكان ذلك ليس بعيداً عن بلدة يارماوث Yarmouth وتم العثور في كل ميناء من شاطىء البحر ذاك على حشد كبير من أجساد الرجال والنساء حتى أن الهواء نفسه قد تلوث بنتانتهم، وجرى أيضاً العثور على عدد كبير من أجساد الأطفال، وكانوا قد غرقوا وهم في أسرتهم، وقد جرفتهم المياه إلى الشاطىء، وكان ذلك منظراً رهيباً لأعداد كبيرة من الناس، وقد تركوا—على كل حال جميعاً— ليجري التهامهم من قبل حيوانات البحر، ومن طيور الهواء، وبذلك لم ينج أحد من الأربعين ألف رجل وبقي حياً، فقد كان جميع هؤلاء الناس قد قدموا إلى انكلترا مع نسائهم وأطفالهم، مع نية طرد جميع السكان المحليين، وافنائهم تماماً، واستحواذ أراضيهم لأنفسهم بوساطة حق دائم، لأن الملك بطبائعه قد أعطى—كما قيل—إلى قائدهم هيوج دي بوفز المذكور كونتيتي: نورفولك Norfolk وسفولك Suffolk لكن نعمة الرب بدلت مقاصدهم نحو الأحسن، وعندما حملت أخبار فقدان هؤلاء الناس إلى الملك حزن بشكل مخيف، ولم يتناول طعاماً في ذلك اليوم، حتى المساء، وظل وكأن جنوناً قد تلبسه واستحوذ عليه.

الاستيلاء على قلعة روكستر وسجن الذين أسروا هناك

وفي هذه الآونة، عندما علم بارونات انكلترا بأن وليم دي ألبيني وأصحابه باتوا محاصرين في قلعة روكستر، أصبحوا مضطربين كثيراً، لأنهم قبل أن يدخل وليم دي ألبيني إلى القلعة قد أقسموا على الانجيل المقدس أنه إذا حدث وحوصر، سوف يزحفون لرفع الحصار، ومن أجل أن يظهروا أنهم يعملون شيئاً يتماشى مع يمينهم واخلاصهم بعهودهم، طاروا على الفور إلى السلاح، وشرعوا بالزحف نحو بلدة دبتفورد Deptford معتقدين أنهم سوف يرغمون الملك على رفع

الحصار، بغارة واحدة، ومع أنهم واجهوا ريحاً جنوبية لطيفة كانت تهب في وجوهم، وهي ريح لا تزعج بالعادة أحداً، تراجعوا وكأنهم قد واجهوا عدداً من الرجال المسلحين، وتخلوا عن الحملة دون انجازها، ومع أننا لاينبغي أن نتراجع أمام كل هبة ريح، أداروا ظهورهم لوليم المحاصر مع أتباعه، وعادوا إلى مكمنهم القديم، وعندما عادوا إلى مدينة لندن، تولوا تحصينها بشكل جيد، وشغلوا أنفسهم بالتسلي بلعبة النرد الخطيرة، وبشرب أفضل أنواع الخمرة التي اختاروها حسب تذوقهم، ومارسوا بقية أنواع الشرور، وتركوا رفاقهم المحاصرين في روكستر يتعرضون لخطر الموت، ويعانون من جميع أنواع المآسي، وعندما علم الملك كيف اقترب البارونات بأبهة كبيرة لرفع الحصار، وكيف أنهم تراجعوا بانحطاط وجبن، صار أكثر شجاعة، وبعث بمن يتولى جمع المؤن من جميع الاتجهات لدعم الجيش، ولم يسمح في الوقت نفسه للمحاصرين بأي وقت للراحة في الليل والنهار، لأنه أثناء رمي الحجارة من المجانيق والعرادات والنشاب من قبل رجال القسي الزيارة والنبالة، قام الفرسان وأتباعهم بحملات متوالية، وكان إذا ماعانى بعضهم من التعب الجسدي، كان يخلفهم آخرون جدد بالهجوم، وبهذه التغييرات لم يحظ الذين كانوا تحت الحصار بأية راحة، وعندما يئس المحاصرون من وصول أية مساعدة من البارونات سعوا إلى تأخير تدميرهم الذاتي، لأنهم كانوا مرعوبين جداً من وحشية الملك، ولكي لايموتوا من دون انتقام لأنفسهم أحدثوا مقتلة كبيرة في أوساط المهاجمين، وطال الحصار لعدة أيام بسبب عظم شجاعة وجرأة المحاصرين، الذين رموا حجراً مقابل كل حجر على العدو، واستخدموا سلاحاً ضد كل سلاح، من وراء الأسوار والشرافات، وأخيراً بعدما جرى قتل عدد كبير من القوات المهاجمة، وبعدما وجد الملك أن آلات قذفه كان لها تأثير خفيف، استخدم اللغامين، الذين تمكنوا في وقت قصير من هدم أجزاء كبيرة من الأسوار، وفي الوقت نفسه نقصت المؤن لدى المحاصرين، وقد أرغموا

على أكل الخيــول، لا بل حتى على أكل مطاياهم الثمينـة، واندفع جنود الملك الآن نحـو الثلم في الأسوار، وبحمـلات شديدة متـوالية أرغمـوا المحاصرين على التخلي عن القلعة، لكن ليس من دون خسائر كبيرة من جانبهم، ودخل المحـاصرون إلى البرج وسط حملات جنود الملك، الذين دخلوا إلى القلعــة مـن خــلال الثلم، وقــد تمكن وليـم دي ألبيني مع جنوده—بعد قتله لكثير منهم—من إرغامهم على التخلي عنها، وهنا لجأ الملك إلى استخدام لغـاميه ضد البرج، وبعد صعوبات جمة أحـدثوا ثلمة في الأسـوار، اتسعت لتستخـدم من قبـل المهـاجمين،لكن أثناء استخـدام جيشه وفـق هذه الطريقة، غـالباً ما أجبر جنوده على الإنسحـاب بسبب الخسائـر التي لحقت بصفوفهم وأنزلت بهم من قبـل المحاصرين،وأخيراً لم تبق لديهم أيـة مـؤن، وبناء عليــه رأى وليم دي ألبينـي مع النبــلاء الآخرين الذين كانوا معه أنه سيكون من العار بالنسبة لهم الموت جوعاً، في وقت لم يكن ممكناً فيـه قهرهم في القتـال، وبعد مـا عقد اجتماعـاً مع الآخرين في يوم عيـد القديس أندرو، تركت الحامية— وهي تقـريباً غير مصـابة—القلعـة، وذلك باستثناء فارس قـد قتل بوسـاطة سهـم،وقـدم رجال الحامية، بعد المغـادرة، أنفسهـم إلى الملك، وقد استمر هذا الحصار لمدة ثلاث أشهر تقـريباً، وكان الملك غـاضباً كثيراً بسبب عدد العسـاكر الذين قتلوا، وكـذلك بسبب المال الذي أنفقـه على الحصار، وفي غضبـه أمـر بتعليـق جميع النبـلاء على المشــانق، غير أن النبيل سـافــاريك دي موليون Savaric de Mouleon وقف أمام الملك وقال له:« مولاي الملك إن حربنا لم تنته بعـد، ولذلك عليك أن تقدر بدقة كيف يمكن أن تتقلب حظوظ القتـال، لأنك إذا أمرت الآن بشنق هؤلاء الرجـال، ربما يحدث أن يأسرني البـارونات من أعدائنـا، أو يأسرون آخرين من نبـلاء جيشك، ويحتـذون حــذوك، فيقـدمـون على شنقنا، لـذلك لا تدع هذا يحدث، ذلك أنه في مثل هذه الحالة مـا من أحـد سوف يقـاتل من أجل قضيتك»، وعندها أصغى الملك، وهو مكره، لهذه النصيحـة، ولنصـائح

رجال حكماء آخرين، وبناء عليه جرى بناء على أوامره إرسال وليم دي ألبيني، ووليم أوف لانكستر، وو. W دي اينفورد Einford وتوماس دي مولتان Muletan ، وأوسبرت دي غيفارد Gyffard وأوسبرت دي بوبي Bobi وأودينل Odinall دي ألبيني مع نبلاء آخرين، إلى قلعة كورفي، ليوضعوا تحت حراسة مشددة ، أما روبرت دي كورن Chourn ، ورتشارد دي غيفارد Giffard مع توماس أوف لنكولن، فأمر بسجنهم في قلعة نوتنغهام، كما أمر بسجن آخرين منهم في أماكن أخرى، أما جميع الجنود الأسرى فأعطاهم إلى جنوده حتى ينالوا فديتهم، وذلك باستثناء بعض رجال القسي العقارة الذين قتلوا عدداً كبيراً من فرسانه وعساكره أثناء الحصار، حيث أمر بشنق هؤلاء، وبهذه الانتكاسة ضعفت قضية البارونات كثيراً.

الحرمان الكنسي لبارونات انكلترا بشكل عام

ولدى رؤية البابا انوسنت في هذه الأيام أن البارونات العصاة لم يتوقفوا عن اضطهادهم للملك، قام بحرمانهم كنسياً، وعهد بتنفيذ هذا القرار إلى أسقف وينكستر، وإلى راعي دير ردنغ، وإلى باندولف نائب الشماس في كنيسة روما، بموجب الرسالة التالية:«من انوسنت، أسقف الخ، إلى ب. P. أسقف وينكستر، وراعي دير ردنغ، والمعلم باندولف، نائب الشماس في كنيسة روما، تمنيات ومباركات رسولية، لقد دهشنا كثيراً وغضبنا، لأن ابننا المحبوب كثيراً بالرب، جون الملك المشهور لانكلترا، مع أنه قدم ترضيات أكثر مما توقعنا إلى الرب والكنيسة، وخاصة إلى أخينا رئيس أساقفة كانتربري وإلى أساقفته، فإن بعض هؤلاء لا يظهرون الاحترام المستحق— أو الاحترام بشكل مطلق— إلى شؤون الصليب المقدس، وإلى وصاية الكرسي الرسولي، وإلى يمينهم بالتابعية، ولم يقدموا العون، ولم يظهروا مشاعر طيبة نحو الملك المذكور، وبالوقوف ضد الاضطرابات في المملكة، التي هي

بموجب حق السلطة، عائدة إلى كنيسة روما، هذا إن لم يكونوا مطلعين، أو لنقل مشاركين في هذه المؤامرة الشريرة، لأنه غير محرر من وصمة المشاركة، الذي يخفق في التصدي للمعتدين، فكيف عمل هؤلاء الأساقفة المتقدم ذكرهم في الدفاع عن ميراث كنيسة روما؟ وكيف قاموا بحماية الذين يحملون الصليب؟ وعجباً كيف أنهم لا يعارضون بأنفسهم الذين يسعون إلى تدمير عبادة المسيح؟فهؤلاء الرجال هم بدون شك أسوأ من المسلمين، بما أنهم يسعون لأن يطردوا من مملكته الرجل المأمول أن يقدم مساعدة إلى الأرض المقدسة، ولذلك فإن وقاحة مثل هؤلاء الناس، ينبغي أن لاتسود، ليس فقط لما تسببه من مخاطر لمملكة انكلترا، لا بل أيضاً لما تقود إليه في تدمير الممالك الأخرى، وفوق ذلك كله ما تؤدي إليه من تهديم جميع قضايا المسيح، وبناء عليه أقوم نيابة عن الرب القدير، الأب، والابن، والروح القدس، وبوساطة سلطات الرسولين: بطرس، وبولص، وبوساطة سلطاتنا الخاصة، بوضع أغلال الحرمان الكنسي على جميع الذين يتولون مضايقة الملك مع مملكة انكلترا، وكذلك على جميع الشركاء في الجرم، وعلى جميع المحرضين التابعين لهم، ونضع ممتلكاتهم تحت الحرمان اللاهوتي من شراكة المؤمنين، ونحن نأمر بدقة متناهية رئيس الأساقفة المذكور وأتباعه الأساقفة، بحكم فضيلة طاعتهم، أن يقوموا بشكل مهيب بإعلان قرارنا هذا في جميع أرجاء انكلترا، وأن يكون ذلك في كل يوم أحد، ويوم عيد وسط قرع النواقيس، والشموع مشتعلة، حتى يقوم البارونات المتقدم ذكرهم بتقديم ترضية إلى الملك حول خسائره، والإهانات التي ألحقوها به، وأن يعودوا بإخلاص إلى تأدية واجباتهم، ومن جانبنا نفرض أيضاً على جميع أتباع الملك المذكور، تقديم المساعدة لهذا الملك في مواجهة مثل هؤلاء المعتدين، فذلك سوف يكون تكفيراً عن ذنوبهم، وإذا ما أهمل أي أسقف تنفيذ أوامرنا، ليكن معلوماً بالنسبة له، أننا سوف نوقفه عن تأدية واجباته الأسقفية وسنسحب طاعة الذين تحته، لأن من المشروع

أن الذين يهملون إطاعـة الذيـن هم أعلى منهم والذين هم رؤسـاء لهم، أن لا تتم طاعتهـم من قبل الذين هـم أدنى منهم، وبناء عليـه لا يجوز عدم تنفيذ الوصاية، أو تعطيلها من خلال تراخي أي واحد، وقد عهدنا إليكم بشـؤون الحرمان الكنسي للبـارونات المتقـدم ذكرهم مع القضـايا الأخـرى المتعلقـة بهذه الأعمال، وقـومـوا على الفـور بوسـاطة رسـائلنا الرسوليـة هذه، بتأجيل جميع مـرافعات الشكاوي، والقيـام بالاجراءات حسبما ترونه مناسباً، لكن إذا لم يعمل الجميع»، الخ.

انتخاب المعلم سيمون لا نغتون لكرسي يورك

وكـان في هـذه الآونة كهنة يورك منذ مـدة طـويلة من دون أسقف، لذلك حصلوا على إذن الملك واجتمعـوا مع بعضهم لانتخـاب واحـد، ومع أنهم ضغط عليهم كثيراً وأغـريـوا من قبل الملك، لاستقبـال وولتر دي غـري Gray أسقف ووركستر، ليكون أسقفـاً لهم، قـامـوا بسبب جهله برفضه، واستمروا في أعمال انتخابهم، فـاختاروا سيمون لانغتون، الذي كان أخـاً لرئيس أساقفـة كانتربري، آملين أن ينالـوا بعلمه الحظوة لدى الحبر الأعظم، لكن عندمـا بات خبر هذا الانتخـاب معلومـاً لدى الملك، بعث رسـلاً إلى بلاط رومـا، وقام هؤلاء بحضرة مـولانا البـابا، بتقديم اعتراضات على الانتخاب، كما يلي: لقـد أكدوا أن رئيس أساقفة كـانتربري كـان عـدواً مكشـوفـاً لملك انكلترا، لأنه قـدم التحـريض للبـارونات الانكليـز للعمل ضد الملـك المذكور، وأعطى مـوافقتـه على عملهم هكذا، وبناء عليه إذا مـا جرت ترقيـة سيمون المذكور إلى مـرتبة رئيس أسـاقفـة يورك، وهـو أخ لرئيس الأسـاقفـة، فإن سـلام الملك والمملكة لا يمكن أن يعيش طويـلاً، وبعـرضهم هذه الشكوى وأمثـالها من الاعتراضـات، أقنعـوا البـابا على الاتفـاق معهم، ولذلك كتب إلى هيئة كهنة يورك كما يلي:

«من انونست، أسقف، الخ،عندما مثل المعلم لانغتون مـؤخراً أمامنا

مع بعض الكهنة الآخرين من يورك، منعناه حرفياً من السعي للحصول على رئاسة أساقفة يورك، لوجود بعض الأسباب تمنعنا من السماح بذلك، وفيما يتعلق بما سمعه من كلمات منا، ذهب مع جميع الاحترام، واعداً باحترام هذا الأمر، ولذلك دهشنا، وغضبنا، كيف ان مطامحه أعمته، مع أنه يعرف أنه لا يمكن، بعد تحريمنا، وبعد وعده الصريح، أن ينتخب بشكل قانوني، وأن يعطي موافقته على مثل هذا الانتخاب، الذي وإن لم يعارضه أحد آخر، ينبغي أن نعده لاغيا وفارغاً، وهذا يتوجب ألا يكون مناسبة لخطيئة جديدة في انكلترا، أسوأ من السالفة، ولكي لا تبقى كنيسة يورك مدة أطول من دون رئيس أساقفة لها، نقوم بناء على نصيحة إخواننا، بوساطة رسائلنا الرسولية هذه، فنأمركم ونفرض عليكم بكل دقة بموجب فضيلة طاعتكم، بعدم قبول هذا الانتخاب، ولأننا لا يجوز لنا—ولا ينبغي—تحمل إهانة وتآمر من هذا النوع، من دون أي تعليل أو تردد، عليكم ارسال بعض إخوانكم مع تفويض كامل للمشاركة في مجمعنا العام الذي اقترب موعده، وأن يظهروا أمامنا مع الأول من تشرين الثاني، ووقتها يمكن مع نصيحتنا انتخاب، أو طلب رجل موائم ليكون رئيساً لأساقفتكم، أو أننا سوف نقوم منذ ذلك الوقت أنفسنا بتزويد كم برئيس أساقفة موائم لكم، ولسوف نتولى بشكل جدي انزال العقوبة بكل مخالف أومعارض، إذا وجد أي مخالف أو معارض، وستكون عقوبتنا بموجب العقوبات القانونية، وإذا ما أعطى سيمون المتقدم ذكره موافقته على هذا الإنتخاب، فإننا نرسم، كعقوبة لقبوله، أن يكون من الآن فصاعداً غير مؤهل، ولا يتمتع بالشرعية من الكرسي الرسولي، من أجل الانتخاب للمنصب الأسقفي، صدر في الثالث عشر من أيلول، في السنة الثامنة عشرة من بابويتنا».

تعليق ستيفن رئيس أساقفة كانتربري

وبعد هذا مباشرة، توجه بطرس أسقف وينكستر، والمعلم باندولف، الصديق المقرب من مولانا البابا، شخصياً إلى رئيس أساقفة كانتربري،وأمراه نيابة عن البابا المذكور، بأن يطلب من أساقفته المساعدين التابعين لكنيسة كانتربري القيام بنشر حكم الكرسي الرسولي، الذي كان قد صدر في روما ضد بارونات انكلترا بشكل عام، وأن يقوم هو شخصياً أيضاً بذلك، بما أن واجبه يفرض عليه الاعلان عن ذلك في جميع أرجاء أسقفيته كل يوم أحد ويوم عيد، وكان رئيس الأساقفة آنذاك قد صعد ظهر سفينة ليذهب إلى روما، لحضور المجمع هناك، ولذلك طلب تأجيل الموضوع حتى يتمكن من الاجتماع مع البابا والتحادث معه، وأكد بشكل ثابت، أنه بالنسبة لنشر القرار، هناك قرار ضمني قد صدر ونشر بالفعل ضد البارونات، وأنه لا يمكنه تعميم القرار الجديد بأي شكل من الأشكال حتى يعلم ما يرغب به الحبر الأعظم حول المسائل المتقدم ذكرها، بكلمة الفم، ولدى رؤية الوكيلين المعهود إليهما بهذه القضية، أن رئيس الأساقفة لم يطع أوامر البابا، قاما بوساطة السلطات المخولة إليهما، بتعليقه ومنعه من الدخول إلى الكنيسة، وممارسة الصلوات اللاهوتية، وقد قام بمراعاة هذا بكل تواضع، وذهب إلى روما بمثابة أسقف معلق، ووقتها قام أسقف وينكستر مع أخيه النائب باندولف بإعلان أن جميع بارونات انكلترا، الذين سعوا إلى طرد الملك من مملكته، هم محرومين كنسياً، ونشروا القرار، وتفوهوا به ضدهم كل يوم أحد، وكل يوم عيد، لكن بما أن ما من أحد منهم قد ذكر بالاسم في قرار البابا، لم يهتموا مطلقاً بالقرار المذكور، بل عدوه فارغاً وبدون تأثير.

المجمع العام الذي عقده البابا انوسنت في روما

وفي العام نفسه، أي عام ١٢١٥م، جرى عقد مجمع مسكوني مقدس في شهر تشرين الثاني، في كنيسة المخلص المقدس في روما، وهي التي تعرف بالقسطنطينية، وقد ترأس مولانا البابا عليه في السنة الثامنة عشرة

من بابويته، وقد حضره أربعمائة واثني عشر أسقفاً، وكان بين الشخصيات الرئيسية بين هؤلاء بطريركي القسطنطينية والقدس، ولم يتمكن بطريرك أنطاكية من الحضور، لأنه حبس بمرض شديد، لكنه أرسل نائباً عنه هو أسقف طرطوس، ولأن بطريرك الاسكندرية كان تحت سلطان المسلمين، فقد بذل غاية جهده، حتى أرسل شماساً هو ابن عمه —خاله— مكانه، وكان هناك سبعة وسبعين رئيساً للأساقفة ومطراناً بين الحضور، وأكثر من ثمانمائة راعي دير ورئيس رهبان، وأما وكلاء رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، وهيئات الكهنة، الذين كانوا غياباً، فعددهم ليس معروفاً، وكان أيضاً بين الحضور حشد كبير من السفراء من لدن امبراطور القسطنطينية، وملك صقلية، التي انتخب امبراطوراً لروما، ومن انكلترا، وهنغاريا، والقدس، وقبرص، وأراغون، مع أمراء آخرين، ونبلاء، وأناس من مدن ومن أماكن أخرى.

وعندما اجتمع كل هؤلاء في المكان الذي تقدم ذكره أعلاه، ووفقاً لعادات المجامع المسكونية أخذ كل واحد مكانه وفقاً لمرتبته، ألقى البابا أولاً خطاباً تشجيعياً، ثم تبع ذلك قراءة الستين بنداً على المجمع كله، وقد بدت هذه البنود لبعضهم موافقة، ومملة لآخرين، وشرع أخيراً يبشر حول شؤون الصليب، واخضاع الأرض المقدسة، وقد أضاف مايلي:

«فضلاً عن هذا، مامن شيء قد حذف بالنسبة لقضية صليب المسيح، وإنها إرادتنا وأمرنا أن يقوم البطاركة، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان مع الآخرين المعهود إليهم بالمسائل الروحية، بعرض موضوع الصليب إلى الناس الذين هم تحت رعايتهم، وإنني اتضرع باسم الأب والابن والروح القدس، الإله الواحد وحده، والأبدي، إلى الملوك، والدوقات، والأمراء، والمركيزات، والايرلات،

والبـارونات، والنبـلاء الآخـريـن، وإلى مجتمعـات المدن، والبلدات، والقرى، أنهم إذا كـانوا لايستطيعون الذهاب شخصياً لتقديم المسـاعدة إلى الأرض المقدسـة، أن يقومـوا بتجهيز عـدد مناسب من العساكـر مع جميع العتاد الضروري لمدة ثلاث سنوات، وذلك وفقـاً لوسائلهم، وهذا مقـابل اعفائهم من ذنوبهم، حسبما جـرى التعبير عن ذلك في الرسـائل العـامـة، وإرادتنا أيضـاً مـوجهـة إلى الذين يبنـون السفن من أجل هذا الهدف حيث أنهم سينالون نصيبهم من هـذا الإعفـاء من الذنوب، لكن بالنسبة لهؤلاء الذين يرفضون، إذا وجـد مثل هذا جاحدون، فإننا نعلن من جانبنا، أنهم من المؤكـد سوف يدفعون الحسـاب لنا في يوم الحساب العسير، للقاضي الصارم، وعليهم أن يقـدروا، قبل أن يقوموا بالرفض، بأية فـرصـة من الخلاص سوف يكـونون قادرين بها على الظهـور أمـام الرب الواحد، والابـن الوحيد الوليد للرب، الـذي الى يديه عهد الأب بجميع الأشياء، وذلك إذا ما رفضوا خـدمة ذلك المصلوب الوحيد، في خدمـاتهم الصحيحة، الذي بموجب عطائه هم مستحـوذون على الحياة، والذي هم بلطفه مدعومين، وبدمه قد جرى انقاذهم، ونحن من جانبنا نرغب في ضرب مثل لـلآخـرين، من أجل هـذه الأعمال، حيث سندفع ونمنح ثلاثين ألف بـاوند، إلى جـانـب أسطول، سـوف نـزود به الذين يريدون العبور من هذه المدينة، ومن المناطق المجاورة، وعلاوة على ذلك لقـد عيّـنا لإنجـاز هذا، ثلاثة آلاف مارك من الفضـة، وهي التي بقيت لدينا من صـدقـات بعـض ذوي الإيمان الصحيح، وبما أننا نرغب في أن يشارك الأسـاقفة الآخرين للكنائس، وكذلك رجـال الدين بشكل عام، في كل من فضيلة ذلك وثوابه، رسمنا بأن يسهمـوا جميعاً مع كل الناس العـاديين والأسـاقفـة، من أجل مسـاعـدة الأرض المقـدسـة بجـزء من عشرين من مـواردهـم اللاهوتيـة لمدة ثلاثة أعـوام، ويستثنى من ذلك الذين حملوا الصليب، والذين على نيـة حمله، وقد انطلقـوا نحو الأرض المقـدسـة شخصيـاً، ونحن مع إخـواننا من الكرادلـة في كنيسـة رومـا

المقدسة، سوف ندفع عشر كامل من مواردنا، وتقضي أوامرنا أيضاً، بأن يبقى جميع رجـال الدين والعلمانيين، بعـد حملهم للصليب، آمنين تحت حمايتنا، وتحت حماية القديس بطرس، وأيضاً تحت حماية رؤساء الأساقفة والأساقفـة وجميع كهنة كنيسة الرب، وأن تكون ممتلكـاتهم أيضاً كما هي مـرتبـة، وتبقى كـذلك دون أن تلمس أو تتعـرض للاضطراب، وذلك حتى تاريخ الحصـول على معلومـات مـؤكـدة تتضمن خبر مـوتهم أو عودتهم، وإذا صدف وكان واحـد ممن سيذهب في هذه الصليبية مرتبطاً بيمين دفع فـائـدة، فإن المقـرضين سـوف يكونون مـرغمين بوسـاطة السلطات اللاهوتية على إعفائهم من يمينهم، وأن يتمنعوا عن استخراج الربا منهم، ونحن نشمل بهذا القـرار نفسه اليهـود بوسـاطة السلطات المدنية، وذلك حتى يقتنعوا بفعل ذلـك، وعلاوة على ذلك ليكن معلوماً أن أسـاقفـة الكنيسـة الذيـن يهملون منح العـدالة إلى الصليبيين، أو إلى وكلائهم، أو إلى أسرهم، سـوف يواجهون عقوبات حـادة، وفضلاً على ماتقدم، لقـد قررنا —بناء على نصيحة رجال عقـلاء— أن الذين سوف يحملون الصليب هكذا، عليهم أن يعدوا أنفسهم للاحتشـاد في حزيران المقبل، والذين منهم قد قـرروا العبور بالبحـر عليهم الاحتشاد في مملكة صقليـة، وآخـرون في بـروندسيـوم Brundusium وبعضهم الآخر في مـرسيليا، وهي المكـان الذي قررنا، تحت احسـان الرب، أن نكون فيـه حـاضرين، حتى يمكن بوساطـة مساعـدتنا ورأينا، للجيش الصليبي أن ينتظم بشكـل صحيح، ومـن ثم ينطلـق مع تبريكـات الرب والكـرسي الرسـولي، ونحن نعهـد إلى رحمة الرب القـدير، وإلى سلطات الرسـولين المبـاركين: بطرس، وبولص، ونحن نمنـح بفضل السلطة التي أضفـاها الرب علينا —مع أننا لانستحق ذلـك، وهي سلطة الحل والربط— كل الذين انخـرطوا في هـذا العمل شخصيـاً، وعلى حسـابهم الذاتي، عفـواً كـاملاً عن ذنـوبهم التي سوف يكونون حقـاً نادمين عليهـا من قلوبهم، والتي سوف يعملـون اعترافاً بها، وكثواب على ذلك نحـن نعد زيادة في

خلاص أبدي، وإلى الذين لايأتون شخصياً للمشاركة، بل يرسلون على حسابهم أشخاصاً موائمين، وفقاً لإمكانياتهم، وأيضاً إلى الذين يأتون شخصياً، على حساب الآخرين، إننا مع ذلك نمنح عفواً عاماً عن ذنوبهم، وإنها إرادتنا أن يشمل هذا الغفران، الذين سوف يزودون من ممتلكاتهم الخاصة بعتاد خاص ومؤن لمساعدة تلك البلاد المذكورة، أو يقدمون نصائح معقولة، ومساعدات حول القضايا المتقدم ذكرها، وبالنسبة إلى جميع الذين سيذهبون في هذه الحملة، يضفي هذا المجمع المقدس والمسكوني عليهم نعمة صلواته ورغباته وأمانيه الطيبة، من أجل أن يتملكوا بشكل أفضل، خلاصاً دائماً، آمين».

الاتهام الذي عمل في روما ضدّ ستيفن رئيس أساقفة كانتربري

برز في هذا المجمع راعي دير بولين Beaulien والفارسان توماس هاردنغتون Hardington وغيوفري دي كروكومب Crawcombe بمثابة وكلاء عن ملك انكلترا، ضد رئيس أساقفة كانتربري، واتهموه بشكل معلن بالتعاون مع البارونات الانكليز، وأكدوا أنه أبدى نحوهم التعاطف، وقدم النصيحة إلى البارونات المذكورين في محاولتهم لطرد الملك المذكور من عرش مملكته، ومع أنه تسلم رسائل من الكرسي الرسولي، تأمره بموجب الملامة اللاهوتية أن يوقف النبلاء عن اضطهادهم للملك، رفض أن يفعل ذلك، ولذلك جرى تعليقه من قبل أسقف وينكستر ورفاقه، ومنعه عن أداء الخدمات اللاهوتية، ومن دخول الكنيسة، ثم إنه بادر مسرعاً للقدوم إلى هذا المجمع، وبذلك أعطى برهاناً أظهر فيه نفسه أنه متمرد ضد الأوامر الرسولية، ولدى سماع رئيس الأساقفة لهذه الاتهامات ضده مع اتهامات أخرى، تصرف على الفور وكأنه قد أدين، واضطرب كثيراً، ولم يعط جواباً، سوى أنه طلب سحب التعليق، ويقال بأن البابا، عمل وهو مغضب هذه الاجابة قائلاً:

«إعلم ياأخانا، بحق القديس بطرس، إنك لن تحصل بسهولة على التحليل منا، بعدما أنزلت مثل هذا الأذى الكثير، ليس فقط بملك انكلترا، بل بكنيسة روما أيضاً، ولسوف نقوم بعد التداول مع إخواننا بتقرير كيف سنعاقب مثل هذه الخطيئة المتهورة»، وقام بعدما تناقش حول المسألة مع كرادلته بتثبيت قرار العقوبة الصادر ضد رئيس الأساقفة، بموجب الرسالة المكتوبة التالية:

تثبيت تعليق رئيس الأساقفة المذكور

«من انوسنت الأسقف إلى جميع الأساقفة المساعدين في كنيسة كانتربري، تحيات، نحن نود أن يكون معلوماً من قبلكم جميعاً بشكل عام، أننا قد وافقنا على قرار التعليق الذي تفوه به أخانا المبجل ب. أسقف وينكستر، وأخانا ب. نائب الشماس المقرب منا والمنتخب لأسقفية نورويك، بموجب السلطات الرسولية، ضد ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، ونأمر بمراعاة هذا القرار وتطبيقه بدقة حتى يستحق رئيس الأساقفة المذكور —الذي طبق القرار على نفسه بكل تواضع— تحريره منه، على أن يقدم ضمانة تبعاً لنموذج الكنيسة، ووفقاً لقرارات الالتزام المفروضة على الآخرين، وبناء عليه إننا نأمركم بموجب هذه الرسائل الرسولية مع جميع الإخوان لديكم، أن تقوموا أنتم الأساقفة بمراعاة القرار المتقدم ذكره وتطبيقه، وأن لاتظهروا في الوقت نفسه أية طاعة لرئيس الأساقفة المذكور. صدر في اللاتيران في الرابع من تشرين الثاني هذا».

وبعد هذا قدم كهنة يورك المعلم سيمون لانغتون إلى البابا، طالبين تثبيت انتخابه، لكن البابا قال لهم:

«اعلموا أننا لانعدّه منتخباً، لأننا لعدة أسباب لن نسمح له بالترقية إلى مثل هذه المرتبة العالية، وبسبب أن ذلك الانتخاب قد عمل معاكساً

لتحـريمنا، فإننا نلغيه كليـاً، ونلدينه إلى الأبد، وإن قـرارنا يقضي أنه غير لائق شرعياً لأن ينتخب لمثل هذا المنصب الكهنوتي الرفيع من دون تحلة من الكرسي الرسـولي»، وإثر إلغـاء هذا الانتخـاب، أمـر البـابا الكهنة بالقيـام بإجـراءات انتخـاب آخـر، وإذا لم يفعلـوا ذلك هو سيقـوم بتزويدهم برئيس أسـاقفة مناسب لهم، وبناء عليه قـام الكهنة، بموجب التـوجيـه الذي تلقـوه، بانتخـاب وولترغـري أسقف ووركستر، وذلك بسبب —كما قالوا— نقاوته من الشهـوات الجسدية، لأنه استمر بالنقاء منذ ولادته حتى ذلك التاريخ، وعلى هذا أجابهم البابا المذكور:

«بحق القديس بطرس الطهـارة فضيلة عظيمة، ونحن نمنحكم إياه»، ولهذا بعدمـا تسلم الأسقف المذكور الطيلسـان، عاد إلى انكلترا، بعـدما ربط نفسـه، بـدفع مبلغ عشرة آلاف باوند من النقـود الاستيرلينيـة إلى بلاط روما، وبعدما أنجز الفارسـان: توماس هاردنغتون، وغيوفري دي كروكومب مهمتها على هذه الصورة، عادا إلى انكلترا، وذهبا إلى الملك، الذي —كما تحدثنا من قبـل— كـان قـد أخضع قلعـة روكستر، وقـد قصـداه لإخبـاره بالأخبار الموافقـة، وفـرح الملك كثيراً في عقله، عندمـا سمع بأن بارونات انكلترا، قـد حـرمـوا كنسيـاً، وأن رئيـس أسـاقفـة كانتربـري قد جـرى تعليقه، وأن وولتر دي غري قـد جرت تـرقيته إلى رئاسة أساقفـة يورك، وأنه يمكنه أن يرتب الأمور، حسبما يشاء في قلعة روكستر، وبناء عليه قوض معسكره، وسار مسرعـاً نحو كنيسة القديس ألبـان، ولـدى وصـوله إلى ذلـك المكان، مضى إلى بيت هيئـة الكهنة، وبحضـور الرهبـان، أمـر بقراءة الرسـائل حـول تعليق رئيس أسـاقفـة كـانتربري وطالب على الفـور من رجـال المجمع الديري تثبيت التعليق المذكـور بأختـامهم، ومـن ثم إرسـاله إلى كنـائس انكلترا، وإلى الديرة، وكذلك إلى الكاتـدرائيات، ليتم نشره، ويصبح معروفـاً من قبل الناس، وإثر انتهـاء هيئـة الكهنة من هذا العمـل، ذهب مع عـدد قليـل من

مستشــاريه إلى داخل الدير، وعمل على إبداع خطط للإطاحـة بأعدائـه، ورتب الأمــور من أجل الدفع للأجــانب الذين كـانوا يقــاتلون تحت قيـادته، وبعـد ذلك قام الملـك بتوزيع جيشـه إلى قسمين، ليقـوم الشطر الأول بمهمة أعمال إنهاء اضطراب البـارونات الذين كانـوا مستقرين في مدينة لندن، في حين يتولى الشطر الثاني الذهاب تحت قيادته إلى الأجزاء الشمالية من انكلترا ليقـوم بالعيث فسادا بالمنطقـة كلها بالنار وبالسيف، ووقعت هذه الأحداث في كنيسة القـديس ألبان، في العشرين من كانون الأول، وكان القادة الذين جرى تعيينهم لقيـادة الجيش الذي تركه خلفه هم:وليم ايرل أوف سـالسبري، وهو أخـوه، وفـالكاسيـوس Fal-kasius وكان رجلاً خبيراً بالحرب، وسافاريل دي موليون مع جنود بواتو، ووليم بريوير Briwere مع جميع قـواتـه، وولتر الذي لقبـه بوك Buck وهو الذي قـاد البرابانتيين، وكـان هنـاك آخـرون إلى جانبهـم، حذفت ذكر أسمائهم.

كيف زحف الملك جون إلى الأجزاء الشمالية من انكلترا وعاث فساداً في تلك المنطقة

ثم غـادر الملـك جـون بلدة القـديس ألبــان، وزحف نحـو الشمال، واصطحب معــه: وليـم ايرل أوف ألبيمارل Albemarle وفيليب دي ألبيني، وجون مـارشال، والقادة من مناطق مـا وراء البحر: جيرارد دي سـوتنغين Sotengaine وغـودسيشـال Godeschal مع الفلمنكيين، ورجــال قسي زيارة مع أناس خــارجين على القـانون، ممن لا يخافــون الرب، أو يقيمـون تقديراً لانسـان، وقد استراح قليـلاً في تلك الليلة في دنستيبل Dunstable لكنه استأنف زحفه قبل انبلاج ضوء النهار باتجاه نورثأمبتـون ونشر قواته للقيـام باحراق بيـوت وأبنية البـارونات، حيث نهبهم وسلبهم كل مـا كـان فيهم مـن سلع ومـواشي، وبذلك دمـر كل شيء جاء في طريقه، وأعطى مشهداً مـرعباً لكل من شاهده، وحيث أن

النهار لم يقنع شرور الملك وشهوته لتدمير الممتلكات، أمر محرقيه بإلقاء النار في الأسيجة، والبلدات أثناء زحفه، حتى يمتع ناظريه بمشاهد الاتلاف التي لحقت بأعدائه، وأنه بوساطة السلب يمكنه أن يدعم عملاءه الأشرار في أعماله الظالمة، واتخذ جميع السكان من جميع الأوضاع والحالات والمراتب، الذين لم يلجأوا إلى ساحات الكنائس، أسرى، وبعد تعريضهم للعذاب أرغموا على دفع أتاوات ثقيلة، وكان شحن القلاع الذين تركوا مسؤولين عن حصون البارونات، عندما سمعوا باقتراب الملك، غادروا قلاعهم المتعذر احتلالها وهربوا إلى أماكن سرية، تاركين مؤنهم، ومختلف مخزوناتهم بمثابة غنيمة إلى أعدائهم القادمين، ووضع الملك أتباعه في هذه القلاع الفارغة، ووفق هذه الطريقة زحف مع أتباعه الأشرار إلى نوتنغهام.

أعمال السلب والنهب التي اقترفها جيشه في الجزء الجنوبي من انكلترا

وفي الوقت نفسه، كان وليم ايرل أوف سالسبري وفالكاسيوس مع العساكر التي تقدم ذكرها أعلاه، وهي التي تركها الملك معهما في بلدة سانت ألبان، قد أمرا ولاة قلاع: ويندسور، وهارتفورد، وبيركهامبستد، أن يمروا مع كتلة كبيرة من الجند من أمام مدينة لندن، ثم أن يعاودوا المرور لمراقبة البارونات ومضايقتهم، وللسعي لقطع المؤن والموارد عنهم، وبعد هذا نقلوا أنفسهم إلى كونتيات: اسكس، وهارتفورد، ومدلسكس، وكمبردج، وهنتنغدون، وجمعوا الأسلاب، وقاموا بأعمال النهب، وفرضوا غرامات على البلدات، وأخذوا أسرى من السكان، وأحرقوا أبنية البارونات، وأحرقوا الحدائق والحظائر، وقطعوا الأشجار في البساتين، ونشروا النار حتى ضواحي لندن، وحملوا معهم كميات هائلة من المنهوبات، وعندما قدم المراسلون من مختلف الأماكن يروون للبارونات جميع هذا ، نظر واحدهم نحو الآخر وقال :«الرب أعطى،

والرب انتـزع وأخـذ»،الخ وفي الثـامن والعشرين من تشرين الثـاني من هذا العام استولى فالكاسيوس على بلدة هامسليب Hamslape (لعلها هونسلو Hounslow) وكـانت عـائـدة إلى وليم مـودوت Moudut وجرى في اليوم نفسه الاستيـلاء على قلعة تونبردج، وكانت ملكاً لايرل كلير، والذي تولى ذلـك هي قـوات شحنة قلعـة روكستر، ووصل إثر ذلك مبـاشرة فالكاسيـوس إلى قلعة بدفـورد Bedford وطالب بتسليم القلعة من حاميتها، وحصلت الحاميـة على هدنة سبعة أيام، ولدى عدم تلقيهـا أية مسـاعـدة من مـولاهـا وليم دي بوشـامب Beauchamp خلال ذلك الوقت، استسلمت الحامية وسلمت القلعـة إلى فالكاسيوس المذكور في اليوم الثاني من كانون أول.

استسلام قلعة بيلفيور إلى الملك

عام ١٢١٦م، كان هو العام الثامن عشر من حكم الملك جون، ففي يوم عيد الميلاد كان في قلعة نوتنغهـام، وقد نقل في اليوم التالي معسكره وارتحل فـوصل إلى بلدة لانغـر Langer حيث أمضى الليل هناك، وأرسل في الصبـاح رسـلاً خـاصين ومع تهديدات طالب بتسليم قلعـة بيلفيور Belvoir من حاميتها، وكانـت القلعة تحت عهدة نيقولا، وهو كـاهن وابن لوليم دي ألبينـي، مع الفـارسين: وليم ستـدهام Stud-ham وهيوج دي تشـارنيل Charneles الذي سأل على الفور عن رأي رفـاقـه الفرسـان وأتبـاعـه، عما ينبغي فعله، لأنهم أخبروا من قبل رسل الملك على لســانه، أنه إذا مـا تسلم اشـارة واحـدة عن رفضهم التسليم، فإن وليم دي ألبيني سـوف لن يأكل ثانيـة، بل سـوف يمـوت بشكل مهين، وعلى هذا كـان وضع المحـاصرين حـرجـاً من جميع الجوانب، ولم يعرفوا مـا الذي عليهم أن يفعلوه، وبعد طول وقت أشار الجميع ووافقوا على انقـاذ مولاهم من ميتة تعيسـة، بتسليم القلعة، بدلاً من البقـاء فيها، ومن ثم يفقـدون مولاهم وبعـد ذلك القلعة، ثم أخـذ

نيقولادي ألبيني، وهيوج دي تشارنيل مفاتيح القلعة معهما وذهبا إلى الملك في لانغر، وسلما القلعة إليه على شرط أن يتعامل بشكل رحيم مع مولاهم، وأن يبقيا هما نفسيهما آمنين تحت حمايته، وبناء عليه جاء الملك في اليوم التالي إلى القلعة، وكان اليوم هو يوم عيد القديس جون الانجيلي، وبعدما تسلمها الملك عهد بها إلى غيوفري وأوليفردي بوتفيل Butevilleوكانا أخوين قدما من بواتو، وبعدما أقسم الجميع له يمين التابعية ويمين الطاعة المخلصة، منحهم رسائله موثقة، ضمن فيها لهم أماناً على جميع ممتلكاتهم.

أنواع العذاب التي عانى منها الشعب المسيحي

وقدم في الوقت نفسه شطر من جيش الملك إلى دوفنغتون، وكانت بلدة عائدة إلى جون دي لاسي، وقد وجدها الجنود غير مدافع عنها، فهدموها إلى الأرض، بأمر من الملك، وتوزع بعد هذا، هذا الجيش الشرير، وزحف نحو المقطاعات الشمالية، حيث أحرق الأبنية العائدة إلى البارونات، وسلب مواشيهم، ونهب ممتلكاتهم، ودمر كل شيء وصل إليه بالسيف، وتغطى وجه الأرض كلها بأطراف هؤلاء الشياطين، مثل الجراد الذي يتجمع من مناطق نائية لاقتلاع كل شيء من على وجه الأرض من البشر إلى المواشي، لأنهم كانوا يسعون هنا وهناك بسيوف مجردة، وخناجر مكشوفة، وقد نهبوا ودمروا البلدات، والبيوت، والأسيجة، والكنائس، ونهبوا كل انسان، ولم يوفروا لاامرأةولا طفل، وكانوا حيثما وجدوا أعداء الملك سجنوهم وغلوهم بالسلاسل، وأرغموهم على دفع غرامات ثقيلة، حتى الكهنة، عندما كانوا واقفين أمام المذابح نفسها،مع صليب الرب بأيديهم، وهم يرتدون الأردية المقدسة، جرى اعتقالهم، وتعذيبهم، وسلبهم، ومعاملتهم بالسوء، ولم يعد هناك لا أسقف، ولا كاهن ولا قسيس ليصب الزيت أو الخمرة على جراحهم، وأنزلوا عذاباً مشابهاً بالفرسان وبالآخرين من

كل وضع من الأوضاع، وعلقوا بعضهم من أوساطهم، وبعضهم من أقدامهم ومن أرجلهم، وبعضهم من أيديهم، وبعضهم من أصابعهم وأذرعتهم، ثم رموا ملحاً ممزوجاً بالخل في أعين هؤلاء التعساء، غير آخذين بعين التقدير أنهم خلقوا وفق صورة الرب، وكانوا متميزين بحملهم لاسم مسيحيين، ووضعوا آخرين فوق مراجل أو مشاوي، على نار فحم حامية، ثم قاموا بتغطيس أجسادهم المشوية بمياه باردة، وبذلك قتلوهم، وأثناء عمليات التعذيب كان إذا صرخ بعض هؤلاء التعساء بصرخات مؤلمة، وبأنات مرعبة، لم يكن هناك من أظهر نحوهم أية رحمة، ولم يكن هناك من شيء يقنع معذبيهم ويرضيهم غير المال، وقام عدد كبير بإعطاء جميع مقتنياتهم الدنيوية إلى معذبيهم، ومع ذلك لم يصدقوهم عندما أعطوهم كل شيء، أما الذين لم يمتلكوا شيئاً، فقد أعطوهم كثيراً من الوعود، من أجل أن يخففوا عنهم العذاب، أو على الأقل يوقفوه قليلاً، وهو العذاب الذي عانوا منه كثيراً، وكانت أعمال التعذيب هذه عامة ومنتشرة في جميع أرجاء انكلترا من قبل مواطنين آخرين، وتوقفت الأسواق وأعمال النقل والسفر، وعرضت البضائع للبيع في ساحات الكنائس فقط، وتوقفت أعمال الزراعة وتعطلت، وما من أحد تجرأ على الذهاب أبعد من حدود الكنائس، وفي هذه الآلام، التي تسببها البارونات، كان هؤلاء أنفسهم جالسين في لندن مثل نساء في آلام المخاض، مولين كل اهتمامهم إلى طعامهم وشرابهم، ومفكرين فقط بالملذات الجديدة التي يمكن أن توضع أمامهم، كي ترفع مشاعرهم بالغثيان، ولكي تعطيهم شهية جديدة، ومع أنهم تراخوا، لم ينم الملك حتى حصل على جميع أراضيهم، وممتلكاتهم، وقلاعهم، وبلداتهم، وسلطاتهم من الجنوب حتى البحر الاسكوتلندي.

حول الذين جرى تعيينهم حكاماً للقلاع المستولى عليها

عندما أصبحت ممتلكات البارونات المتقدم ذكرها معروضة تحت

تصرف الملك، عهد الملك بالمنطقة الممتدة مابين نهر تيز Tees وسكوتلندا مع الممتلكات والقلاع إلى هيوج دي باليول Baliol وفيليب دي أولكوت Ulcote ، وأعطاهما مايكفي من فرسان وجنود للدفاع عن ذلك الجزء من المنطقة، وعين في مدينة يورك روبرت أولبردج، وبرين دي لآيل، وغيوفري دي لاسي، وكلفهم بحراسة ممتلكات القلاع، وأعطاهم جنوداً، وأعطى إلى وليم ايرل ألبمارل Albe-marle حكم قلعتي روكنغهام Rockingham وسوفي Sauvey وقلعة اسمها بيهام Biham ، كانت ملكاً لوليم دي كولفيل Cole-ville، وأسند إلى فالكاسيوس حكم قلاع: أكسفورد، ونورثأمبتون، وبدفورد، وكمبردج، وأعطى إلى رالف لى تايري Tyris قلعة بيركها مبستد، وعهد بالوصاية على قلعة هارتفورد إلى وولتر دي غدرفيل Go-darville ، وكان فارساً يعمل في خدمة فالكاسيوس، وأعطى الملك إلى هؤلاء وإلى سواهم في جميع أرجاء انكلترا، بما أنهم يقدرون قيمة أجسادهم وممتلكاتهم وعهد، أن يقوموا بتدمير ممتلكات البارونات، أي أن يتولوا تدمير قلاعهم، وأبنيتهم، وبلداتهم، وحدائقهم، وحظائرهم، وبحيراتهم، وطواحينهم، ومثلما هو قد بدأ، أن يقوموا بانهاء الأعمال والمهام بوحشية مساوية، ولأنهم لم يتجرأوا على معارضة أوامر الملك مارسوا من الوحشية بقدر ماعينه لهم، أي جعلوا أمام مشهد من الناس أجمعين بيوت البارونات وممتلكاتهم الأخرى منظراً محزنا، وهكذا عاد الملك من الشمال بعدما رتب كل شيء وفقاً لرغباته، وكان الذي بقي تحت سلطة البارونات هناك قلعتي مونتسوريل Montsorrel ، وقلعة أخرى كانت ملكاً لروبرت دي روز Roos في كونتية يورك، وبعدما أخضع تلك المنطقة بوساطة مذبحة مرعبة، سار على طول حدود ويلز إلى المقاطعات الجنوبية، وطبق وحشيته على جميع الذين عارضوه، وحاصر عدداً من القلاع واستولى عليها وانتزعها من أعدائه، وقد دمر بعضاً من هذه القلاع، وشحن بعضها الآخر

بجنوده.

الحرمان الخاص للبارونات

وفي هذه الآونة جرى حرمان البارونات الانكليز -الذين سلف حرمانهم بشكل عام، من قبل الحبر الأعظم، لصالح ملك انكلترا -حرماناً فرديا، وفق الشروط التالية: «من انوسنت الأسقف، إلى راعي دير أبنغدون Abingdon ، ورئيس شمامسة بواتو، والمعلم روبرت المسؤول الرسمي عن كنيسة نورويك، تحيات: نحن نرغب في أن تعلموا بأننا قمنا في مجمعنا المسكوني الأخير، نيابة عن الرب القدير الأب، والابن، وروح القدس، وبوساطة سلطات الرسولين بطرس وبولص، وبوساطة سلطاتنا، بحرمان وبلعن بارونات انكلترا مع معاونيهم ومؤيديهم، بسبب اضطهادهم جون الملك الشهير للانكليز، الذي هو ملك قد حمل الصليب، والذي هو من الأتباع الاقطاعيين لكنيسة روما، ولمحاولتهم بوضعهم الحالي انتزاع المملكة منه، التي من المعروف أنها ملك للكنيسة الرومانية، وعلاوة على ذلك لقد حرمنا كنسيا ولعنا وشجبنا جميع الذين قدموا مساعداتهم أو أموالهم في سبيل مهاجمة تلك المملكة، أو لإعاقة الذين ذهبوا لمساعدةالملك المذكور، ونحن نضع أراضي البارونات المذكورين تحت الحرمان من شراكة المؤمنين في الكنيسة، ولسوف نضربهم بأيدينا بشدة أعظم إن لم يقلعوا عن نواياهم، ذلك أنهم في هذا المجال أسوأ من المسلمين، وإنه قرارنا في أن أي كاهن من أي مرتبة أو طائفة، إذا ماتجرأ على خرق قراراتنا المذكورة في الحرمان الكنسي، والحرمان من شراكة المؤمنين، ليكن معلوماً لديه وليكن متأكداً بأنه سوف يضرب بسيف الحرمان من شراكة المؤمنين، وسوف يخلع من كل منصب ومرتبة، وبناء عليه، اننا نعهد إليكم وإلى اخلاصكم، بموجب هذه الرسائل الرسولية القيام بنشر القرارات المتقدم ذكرها في جميع أرجاء انكلترا، والعمل بموجب

سلطاتنا على جعل هذه القرارات مرعية التنفيذ، دون تعرضها للخرق، أو إلى الترافع والشكوى ضدها بأي شكل من الأشكال، وعلاوة على ذلك، إن ارادتنا وأوامرنا تقضي أن تقوموا بموجب السلطات الرسولية بتوجيه الملامة بشكل علني، في جميع أرجاء انكلترا إلى بعض نبلاء انكلترا بحكم أنهم محرومين كنسيا، وأن تتدبروا بكل دقة تجنبهم من قبل الجميع ومقاطعتهم، وهؤلاء النبلاء هم الذين أعلن أسقف وينكستر، وابننا المحبوب كثيراً في الرب، راعي دير ردنغ، والمعلم باندولف، نائب الشماس التابع لنا، والصديق المقرب إلينا، والمفوض من قبلنا، حرمانهم كنسيا شخصياً، بسبب أنهم وجدوهم مجرمين في المسائل المتقدم ذكرها، وهؤلاء هم: سكان لندن، الذين كانوا المحرضين الرئسيين للجرائم المتقدم ذكرها، وروبرت فتز -وولتر، وس. S ايرل وينكستر، ور. R ابنه، وغ. G دي ماندفيل، وأخيه وليم، ور. R ايرل أوف كلير، وغ. G ابنه، وهـ. H . ايرل أوف هيرفورد، ور. R. دي بيرسي، وإ. E دي فيسكي، وج. J مفوض أوف شيستر، ووليم دي ماوبري Mowbray، ووليم دي ألبيني، وو. W ابنه، ور. R دي روز، ووليم ابنه، وب. P دي بروز، ور. R دي كريسي Cressy ، وجون ابنه، ورالف فتز -روبرت، ور.R ايرل بيغود، وهـ .H ابنه، وروبرت دي وير، وفولك فتز -وارن، وو.W ماليت، وو.W دي مونتأكيوت، وو.W فتز -مارشال، وو.W دي بوشامب Beau-champ ، وس. S دي كايم، ور. R دي مونت بيغون، ونيقولا دي ستوتفيل، وآخرين أيضاً ورد ذكرهم بالاسم في المرسوم، بمثابة مجرمين لاقترافهم الجرائم المتقدم ذكرها مع معاونيهم ومموليهم، وعليكم في كل يوم أحد، ويوم عيد القيام بشكل مهيب باعادة نشر القرار المذكور والأمر بالتقيد به بكل دقة، وأن تضعوا مدينة لندن تحت الحرمان من شراكة المؤمنين في الكنيسة، وأن تضعوا جانباً جميع مرافعات الشكوى، وأن توقفوا جميع أحاديث التذمر والشكوى

والمعارضة، تحت طائلة إنزال العقوبات الكنسية وتطبيقها، ونحن نأمركم بأن تقوموا بشجب المعلم غير فيس Gervase مستشار لندن، بحكم كونه محروماً كنسيا، الذي -كما سمعنا من المحكمين المتقدم ذكرهم- كان أكثر المضطهدين علانية للملك المذكور ولأتباعه، وعليكم تهديده بعقوبات أكثر شدة مالم يقم بالابتعاد عن أتباعه المعتدين، وإذا لم يلتزم الجميع، الخ، صدر في اللاتيران في اليوم السادس عشر من كانون الأول، في السنة الثامنة عشرة من بابويتنا».

تطبيق قرار العقوبات المتقدم ذكره

ولدى تسلم الرسائل التي تقدم ذكرها من قبل المحكمين، كتب البابا أيضاً إلى جميع كنائس انكلترا، وكاتدرائياتها، وديرتها يأمرهم بمايلي: «من انوسنت أسقف، الخ، نحن نأمركم بكل دقة بموجب وصايتنا هذه القيام بشجب بارونات انكلترا مع جميع معاونيهم ومحرضيهم بحكم كونهم محرومين كنسيا، وهم الذين قاموا باضطهاد مولاهم، الملك جون، ملك انكلترا، مع جميع الذين قدموا إليهم يد العون، أو المال، في سبيل الاستيلاء، أو الهجوم على المملكة المذكورة، أو عملوا على إعاقة الذين يذهبون لمساعدة الملك المذكور، وأن تعلنوا في أراضي البارونات المذكورين، بأنهم قد وضعوا تحت الحرمان اللاهوتي من شراكة المؤمنين، وأن تقوموا بشجب جميع البارونات الذين ورد ذكرهم أعلاه في رسالة مولانا البابا، وذلك بالاسم، بحكم كونهم محرومين كنسياً، مع جميع الآخرين الذين ورد ذكرهم بالاسم في قرار المحكمين المذكورين، وهم: وولتر دي نورتون، وأوسبرت فتز -آلان، وأولفر دي فوكس، وهـ. H دي بريبروك، ور.R دي روبل Ropele، وو. W دي هوبرجي Hobregge، وو. W دي موديت Mauduit ، وموريس دي غانت Gant، ور. R دي بيركلي Berkley، وآدم أوف لنكولن، ور. R دي ماندفيل، وو. W دي لانفالي Lanvaley، وفيليب فتز -جون،

ووليم دي تونتـونا Twintuna، وو.W دي هنتنغفيلد Huntingfield والاسكندر دي بونتون Puintune ، ور. R دي مونفكت Mun-fichet، ور. R دي غـريسلي Gresley، وغيـوفـري مفـوض أوف مينتـون Meantune، وو. W رئيس شمامسـة هيرفـورد، وج. J دي فيربي Fereby، ور.R قسيس روبـرت فتـــز -وولتر، والاسكندر دي ســوتون Suttune، وو. W دي كــولفيل Coleville، ور. R ابنه، وأوسبرت دي بوبي Bobi، وأوسبرت، وجيفارد، ونيقولا دي ستوتفيل Stuteville، وتومــاس دي ميــولتــون Muletune، وسكان لندن، والمعلم غ.G المستشار، وأن تعلنوا بشكل عام بأن مدينة لندن موضوعة تحت الحرمــان اللاهوتي من شراكــة المؤمنين، وعليكم العمل على نشر قـراري الحرمان الكنسي والحرمـان من شراكة المؤمنين، وتجديد اعـلانهما بشكل مهيب في كل يوم أحد ويوم عيـد، في الكنائس وكذلك في الديرة بحكم كونها مدارس أبرشية تابعة لكم، وأن تنفذوا بشكل دقيق كل بند من بنود الوصــاية الرســولية، وأن تـرعـوها بشكـل صحيح من قبل أنفسكم ومن جانبكم، حتى لاتتعرضوا لملامة الكنيسة، التي هي جديرة بالعصاة، وداعاً».

وعندمـا جـرى نشر قراري الحرمـان الكنسي، والحرمـان من شراكـة المؤمنين هذين في جميع أنحاء انكلترا، وأصبحامعروفين من قبل الجميع، عاملتهما مـدينة لندن وحدها من دون قبـول لأن البارونات قـرروا عدم الاعتراف بهما وتطبيقهما، وأن لايقـوم الكنهـة بنشرهما، لأنهم قـالوا بين أنفسهم، بأن الرسائل جميعها قد جرى الحصول عليها تحت تمثيل زائف، ولذلك هي بـلا أهميـة ولسبب رئيسي مهم آخــر هو أن إدارة الشـؤون المدنيـة ليست عائـدة إلى البابا، لأن الرسـول بطرس وخلفائـه قد عهـد إليهم من قبل الرب بإدارة القضايا الكنسية والاشراف عليها، ولذلك لم يقيمـوا أي تقـدير على الاطلاق لقـرار الحرمـان من شراكـة المؤمنين أو

لقـرار الحرمـان الكنسي، بل أقـامـوا العبـادات في المدينة كلهـا، وكـانوا يقرعون النواقيس، ويرتلون بأصوات مرتفعة.

العيث فساداً في جزيرة إيلاي

وفي الوقت نفسه دخل وولتر بروس مـع البرابانتيين إلى جزيرة إيلاي من قــرب هيربي Herebeie ونهب جميع الكنائس في تلك الجزيرة، وأرغم السكان بأقسى أنواع العـذاب على دفع غرامـات ثقيلة، ولم يكن هناك مكان لـلالتجـاء يمكنهم أن يضعــوا فيــه ممتلكـاتهم لابل حتى أنفسهم، للحماية من الخطر، لأن ايرل أوف سالسبري وفالكاسيوس مع سافـاريك دي موليون قدمـوا من المناطق المجاورة، ودخلوا إلى الجزيرة بوساطـة جسر ستونتني Stunteney ، وعاثـوا فساداً بالمنطقــة كلها، ونهبـوا الكنائس واستـولوا على كل مـاتركـه النهابون المتقـدم ذكـرهم، ودخلوا أخيراً إلى الكنيسـة الكاتدرائية بسيـوف مجردة، وبعـدما نهبـوها تمكن رئيس المكان بصعوبة من انقاذها من الاحراق بدفع تسعة ماركات من الفضة، وجـرى سحب اللورد ستيفن رايدل Ridel من الكنيسة بالقوة، وفقد كل الذي امتلكه من خيول، وكتب، وأثاث منزلي، وسلع، وأواني، وحفظ بصعـوبة بالغـة نفسـه من التعذيـب، بدفع مائـة مـارك، وجرى اعتقال خمسة عشر فـارساً في هذه الجزيرة، مع آخرين من مختلف الأحوال والمراتب، وقام الأغنياء، والأكثر نبـلاً من الفرسان بالنجاة عبر البحر، وهربـوا بعد صعوبات كبيرة إلى لندن، وعلى كـل حال لم يتمكن بعض هؤلاء مـن اكمال رحلتهم بسبب اخفـاق خيـولهم من الضعف، وأخــــذوا أسرى، وهكذا وقـع كـل شيء في الجزيرة بـأيدي هـؤلاء اللصوص من دون معارضة.

كيف اختار بارونات انكلترا لويس ليكون ملكهم

أمـا وقد فقـد بارونات انكلترا كل شيء له قيمة لديهم في الدنيـا، كما

وضح من الرواية المتقدمة، وانعدم لديهم كل أمل بتحسن الأحوال، وباسترداد مافقدوه بوسائطهم، فكانوا في مأزق ولم يعرفوا كيف يعملون، ولذلك قرروا أخيرا، بموافقة عامة اختيار رجل قوي ليكون ملكاً، يتمكنون بوسائله من استرداد ممتلكاتهم، وامتيازاتهم السالفة، وبعد تردد طويل حول قرار من عليهم اختياره، قرروا بالاجماع تعيين لويس بن فيليب الملك الفرنسي ليكون حاكمهم، وليرفعوه إلى عرش انكلترا، وكان دافعهم الأساسي لهذا هو أن أفراد حشد الأجانب الذين أحاط بهم ملك انكلترا نفسه، كان معظمهم تحت حكم لويس وأبيه، وإذا ما أمكن بوساطة امكانيات هذين الملكين حرمان جون من مساعدتهم، فإنه سيترك معزولاً في الداخل وفي الخارج، وسوف يترك لوحده، غير قادر على التصدي لهم ومقاومتهم، وكان هذا القرار مرضياً لهم جميعاً، فأرسلوا س. S ايرل أوف وينكسر، وروبرت فتز - وولتر كمبعوثين خاصين إلى الملك فيليب وإلى ابنه لويس مع رسائل ممهورة بأختام جميع البارونات، يلتمسون بحرارة من الملك الأب أن يرسل ابنه ليحكم في انكلترا، وأن يأتي الابن ليأخذ التاج، وأسرع هذان الرسولان وأوصلا على الفور الرسائل إلى الملك الفرنسي، وإلى ابنه لويس، لكن فيليب، بعدما قرأ الرسائل، وفهم مقاصدهم، أخبر الرسولين بجوابه بأنه لن يرسل ابنه قبل—من أجل ضمانة كبرى— أن يتسلم رهائن جيدين من البارونات يكون عددهم على الأقل أربعة وعشرين، من أكثر الناس تميزاً في جميع المملكة، وبعد سماع الرسولين لهذا، أسرعا عائدين بقدر ما هو ممكن، وذكرا للبارونات الجواب الذي تلقياه، وعندما لم يجد البارونات حلاً آخر، أرسلوا الرهائن إلى الملك الفرنسي، وكان ذلك تلبية لرغباته وفق العدد الذي ورد ذكره أعلاه، ولدى وصول الرهائن، وضعوا في حبس أمين في كومبين، وتشجع لويس بهذا، فأعد عدته من أجل الحملة التي رغب بانجازها فوق كل شيء، لكن بما ان مغادرته للقيام بمثل هذه الحملة الصعبة كان لا يمكن

انجازها بسرعة، بعث قبل سفره رسلاً إلى البارونات لاعطائهم الأمل، وأيضاً لتجريب ولائهم، وكانت أسماء رسله هي: قسطلان القديس أومر، وقسطلان أراس Arras وهيوج ثاكون Thacun ويوستاس دي نيفل Neville وبلدوين بريتيل Bretel وو.W دي وايمز wims وجايلزدي ميلون Melunوو.Wدي بومونت -Beau mont،وجايلز دي هيرسي Hersi ، وبيزت دي فيرسي Biset de Fers، ووصل هؤلاء جميعاً مع حاشية كبيرة من الفرسان والأتباع إلى نهر التيمز، وللسرور العظيم للبارونات، وصلوا إلى لندن في السابع والعشرين من شباط.

وأعطى في هذه السنة ستيفن رئيس أساقفة كانتربري ضمانات في روما بأنه سوف يلتزم بقرار البابا حول القضايا التي تقدم ذكرها، فجرى تحريره من تعليقه، إنما على شرط أنه لن يذهب إلى إنكلترا، قبل استرداد السلام الكامل بين الملك والبارونات.

تجديد القرار الصادر ضد البارونات لتمردهم

وفي العام نفسه، رأى في أيام عيد الفصح راعي دير أبينغدون Abingdon ورفاقه من المحكمين استمرار تمرد البارونات مع سكان لندن، فأنزلوا بهم ضربات أشد وأثقل، وتولوا إعادة القرار، وأعطوا أوامر إلى جميع الكنائس الديرية في انكلترا لنشر القرار الذي كان قد صدر، وفق الصيغة التالية:«من هـ .H بنعمة الرب راعي دير أبينغدون، الخ في متابعة لتنفيذ أوامر الوصاية الرسولية المفروضة علينا، ومثلما كان مقصدنا في رسائلنا التي حولناها إليكم مؤخراً، نريد أن نفهمكم باستيعاب أكبر، أننا لم نقم هذه المرة فقط، بل غالباً ما أرسلنا رسائلنا تحتوي كلمات مرسوم مولانا البابا إلى هيئة كهنة القديس بولص، والقديس مارتن، وإلى غ. G دي بوكلاندي Boclande عميد الكنيسة المذكور، وإلى المجمع الديري للثالوث المقدس في لندن،

نأمرهم بوساطة السلطة الرسولية بالقيام على الفور بنشر قرارات الحرمان الكنسي والحرمان من شراكة المؤمنين، وعدم خرق مراعاتها وتنفيذها، وهي قرارات الحرمان التي صدرت ضد مضطهدي الملك المذكور، وضد مدينة لندن، ذلك أنهم قاموا من دون احترام بعدم تنفيذ قرار الوصاية الرسولية، وتحدوها، وقاموا بتمرد برفض نشر القرارات المذكورة، لا بل حتى بعدم الاعتراف بها، وتولوا وهم على دراية ومعرفة بالمساهمة في الخدمات اللاهوتية مع أولئك المحرومين كنسيا، وبذلك عبروا في كل جانب من الجوانب على أنهم خارقين لمراسيم مولانا البابا ورافضين بشكل علني لوصايته، الأمر الذي نحن على دراية كاملة به بوساطة رسائل موثقة من هيئة كهنة القديس بولص والقديس مارتن، وقد أرسلت خصيصاً إلينا من قبل كهنة ورسل العميد المذكور، وببراهين أخرى كافية، علاوة على ذلك وصل مؤخراً من المملكة الفرنسية بعض النبلاء مع عصبة من الفرسان المسلحين والأتباع، الذين نرغب في أن يغلوا جميعاً ويقيدوا بقرار الحرمان الكنسي، لأنهم يقومون بغزو مملكة انكلترا مراغمة لمولانا البابا وللكنيسة الرومانية، وهم ينبهونها يومياً، وجزئياً يحتفظون بتملكها، وبناء عليه إنه بموجب السلطات الرسولية، التي إلينا قد عهد بواجباتها وبأعمالها، نحن نشجب النبلاء المذكورين بمثابة محرومين كنسيا، وهم: قسطلان القديس أومر، وهيوج ثاكون، ويوستاس دي نيفيل، وقسطلان أراس Aras وبلدوين بريتيل، وو. W دي وايمز، وجايل دي ميلون، وو .W برمونت، وجايل دي هيرسي، وبيست دي فيرسي، مع معاونيهم، وجميع الذين منحوهم مساعدتهم، أو أموالهم، ضد الملك، لغزو مملكة انكلترا، والاستيلاء عليها، وكذلك العميد المذكور أعلاه، وكذلك جميع الكهنة ورجال الدين من كل مرتبة وطائفة في الكنائس المتقدم ذكرها، والمدينة ،الذين علموا بقرار الوصاية، وقاموا إما بتغييب أنفسهم، أو استخدموا كل وسيلة ، لمنع وصول القرارات إليهم

وتبلغهم بها، وبالسلطة نفسها نفرض عليكم أيضاً القيام بشجب جميع الذين تقدم ذكرهم أعلاه، بحكم كونهم محرومين كنسياً، وأن تتدبروا نشر ذلك في جميع أرجاء أبرشيتكم، وذكر العميد بالاسم وكذلك ذكر النبلاء المتقدم ذكرهم، وإنه باظهاركم الاهتمام بهذه القضية، وكذلك تلك التي وردت في رسائله الأولى إليكم، يمكنكم تجنب الاتهام بالاهمال لدى الحبر الأعظم، وبالحري نيل الاطراء والسمعة لديه من أجل يقظتكم، وداعاً».

كيف أرسل لويس رسائل تطمين إلى البارونات

وفي هذه الآونة كتب لويس إلى البارونات الذي كانوا مقيمين في لندن، وإلى سكان المدينة كما يلي:«من لويس الابن الأسن للملك فيليب، إلى جميع أصدقائه وحلفائه في لندن، الصحة وأفضل التمنيات، كونوا متأكدين أننا لدى اقتراب أحد الفصح سوف نكون جاهزين في كالي، بفضل الرب، وذلك من أجل عبور البحر، وبما أنكم تصرفتم بأنفسكم بتماسك وشجاعة في جميع شؤونكم، إننا بالمقابل نرسل إليكم وفرة من الشكر، ونحن نطلب منكم بإخلاص ونسألكم الاستمرار كما فعلتم دوماً، وتصرفتم بأنفسكم بكل شجاعة، ونحن نود أيضاً أن تكونوا متأكدين أننا سنكون لديكم خلال وقت قصير لمساعدتكم، ونحن نرجوكم باخلاص بالنسبة لهذه القضية، أن لا تثقوا بالاقتراحات الأخرى الزائفة، أو بالمكاتيب أو بالرسائل، لأننا نعتقد أنكم سوف تتسلمون رسائل مزيفة، ورسلاً مضللين، وداعاً».

وفي هذه الآونة خرج البارونات من لندن،وتوجهوا على شكل جماعة واحدة مع الفرسان الذين وصلوا مؤخراً من فرنسا للتمتع برياضة التبارز بالرماح فقط، ولبسوا دروعهم، وبعد إمضاء جزء كبير من النهار في حث خيولهم على الركض بسرعة، وطعن أحدهم الآخر برماحهم سدد واحد من الفرسان الفرنسيين رمحه ضد غيوفري دي

ماندفيل ايرل أوف اسكس وأصابه بجراحة قاتلة، وقام الايرل على كل حال بالعفو عن الرجل الذي جرحه، وبعد مضي عدة أيام مات، مما سبب حزن كثيرين عليه.

كيف قدم والو بمثابة ممثل للبابا إلى الملك الفرنسي

وفي تلك الآونة نفسها، جرى إرسال المعلم والو Walo من قبل البابا إلى فرنسا مع سلطات رسولية لمنع لويس من الزحف إلى انكلترا، ولدى وصوله إلى الملك فيليب قدم إليه رسائل استنكار من البابا، كانت محتوياتهاوأهدافها أن لا يسمح لابنه لويس بالذهاب إلى انكلترا كعدو، أو أن يقوم بالتضييق على الملك الانكليزي بأية طريقة من الطرق، بل أن يحميه ويحبه، لأنه تابع لكنيسة روما، وبحكم أنه رجل مملكته وحق حكمها عائد إلى كنيسة روما المذكورة، وفور قراءة الملك الفرنسي لهذه الرسائل أجاب:«لم تكن مملكة انكلترا قط ميراثاً لبطرس، وليست هي الآن، ولن تكون، لأن الملك جون، قد حاول منذ وقت طويل مضى، ظلماً انتزاع مملكة انكلترا من أخيه الملك رتشارد، ولذلك اتهم بالخيانة، وأدين بها بحضور ذلك الملك نفسه، وحكم عليه بموجب قرار صدر عن ذلك الملك نفسه في بلاطه، وقد تفوه بقرار الحكم هيوج دي بوساز Pusaz أسقف درم، ولذلك هو ليس ملكاً حقيقياً، ولا يمكنه التنازل عن مملكته، بالاضافة إلى ذلك هو لم يكن قط ملكاً شرعياً، ثم إنه خسر مملكته فيها بعد بقتله لآرثر، ولهذه الفعلة أدين في محكمة بلاطنا» ثم إنه قال أنه ما من ملك أو أمير يمكنه تسليم مملكته والتنازل عنها من دون موافقة باروناته، الذين مفروض عليهم الدفاع عن تلك المملكة، وإذا كان البابا مصر على الدفاع عن تلك الخطيئة، سوف يكون ذلك مثلاً على درجة عالية من السوء بالنسبة إلى جميع الممالك، ووقتها أبدى النبلاء معارضتهم وعبروا عن ذلك بصوت واحد، بأنهم سوف يعارضون تلك المسألة حتى الموت، والمقصود بذلك

قيام ملك أو أمير وتمكنه حسب أهوائه وحده، بالتنازل عن مملكته، أو بجعلها تدفع الجزية وتحت سلطان هواها، لأن ذلك سوف يجعل نبلاء المملكة عبيداً، ووقعت هذه الأحداث في ليون في اليوم الخامس عشر بعد الفصح.

كيف منع المندوب البابوي نفسه لويس من الذهاب إلى انكلترا

وجاء لويس في اليوم التالي إلى حضور اجتماع، بناء على طلب أبيه، وقد نظر بوجه مقطب إلى المندوب البابوي، وجلس إلى جانب أبيه، ووقتها بدأ المندوب البابوي يرجو لويس بمختلف وسائل الاستعطاف بعدم الذهاب إلى انكلترا لغزو ميراث كنيسة روما أو الاستيلاء عليه، واستعطف والده كما فعل من قبل، بأن لا يسمح له بالذهاب، وقام الملك الفرنسي —على كل حال— بإجابة المندوب البابوي بهذه الكلمات:« لقد كنت دوماً حليفاً مؤمناً ومخلصاً لمولانا البابا، ولكنيسة روما، وسعيت في جميع الأحوال حتى الآن نحو رفع شأن البابا والكنيسة بشكل فعال، ولن ينال ابني لويس الآن نصيحتي بمحاولة القيام بأي شيء ضد كنيسة روما، وعلى كل حال إذا استطاع لويس أن يبرهن على وجود أي إدعاء محق في مملكة انكلترا، دعونا نسمع منه وأن نعطيه ما هو حق له» وبناء على هذا، نهض فارس كان لويس قد عينه للمرافعة باسمه، وأجاب على مسمع من الجميع قائلاً:«مولاي الملك، إنها حقيقة معروفة بشكل جيد من قبل الجميع بأن جون، المدعو باسم ملك انكلترا، محكوم عليه بالموت، بموجب قرار صدر عن نظرائه في بلاطكم، بسبب خيانته لابن أخيه آرثر، الذي قتله بيديه، ثم جرى خلعه بعد ذلك بوساطة بارونات انكلترا، من سلطانه عليهم، بسبب كثير من جرائم القتل واعتداءات أخرى وجرائم قد اقترفها هناك،ولهذا السبب شن البارونات المذكورون الحرب ضده، لطرده من عرش المملكة، وعلاوة على ذلك، أعطى الملك المذكور— من دون موافقة

نبلائـه— مملكة انكلترا إلى مولانا البابا، وإلى كنيسـة روما، حتى يتمكن من استئناف تملكهـا منهما، مقابل مبلغ ألـف مارك يدفعـه سنوياً وإذا لم يكن بـإمكانه إعطاء تـاج انكلترا إلى أي إنســان، مـن دون مــوافقــة البارونات، بإمكانه— على كل حال— الاستقالة، وبمجرد استقالته من حمل التـاج، توقف عن كـونه ملكاً، وبـاتت المملكة من دون ملك، ولا يمكن تسوية مشكلة المملكة الفارغة من دون معـرفة موقف البارونات، ولذلك اختاروا لويس ليكون مولى لهم، لسبب هو أن زوجته، التي أمها ملكة قشتـالة، هي الوحيدة البـاقية حيـة من بين جميع إخوان وأخـوات ملك انكلترا المذكور»، واحتـج النائب البابوي بأن الملك جـون قد حمل الصليب، وبناء على ذلـك، وبمـوجـب قـرار المجمـع المسكوني يستحق تملك السلم لمدة أربع سنـوات، وينبغي بقـاء جميع أمــلاكـه مضمــونة وسليمة تحت حماية الكرسي الرسولي، ولذلك يتوجب أن لا يشن لويس في ذلك الوقت الحرب على الملك المذكور، أو حـرمانه من مملكته، وعلى هذا رد وكيل لويس قـائـلاً:«لقـد شن الملك جــون قبل حمله للصليب الحرب على مـولانا لويس، وحــاصر ودمـر قلعـة بنكهـام، ومثل ذلك استولى على آريا، وأحرق الشطر الأكبر منها، واعتقل عدداً من الفرسان مع أتبـاعهم في ذلك المكان، ومـا زال يحتفظ بهم أسرى لديه، وحـاصر أيضاً قلعة لين Liens وقتل عدداً كبيرا من الناس في ذلك المكان، وعاث فساداً بالسيف والنار في كونتية غسني Gisnes التي هي اقطاع قـانـوني لمولانا لويس، وأكثـر مـن هذا إنه مـا انفك يشـن الحرب ضـد مـولانا لويـس حتى بعـد حمله للصليب، ولذلك يمكـن بشكل مسـوغ إثارة الحرب ضد الملك المذكور».

ولم يقتنع النائب البـابوي—على كل حـال— بهذه المسوغـات، فمنع لويس— كما فعل مـن قبل، تحت طائلة الحرمــان الكنسي— من محاولة الدخـول، ومنع أيضـاً أباه من السماح له بـالذهاب، ولدى سماع لويس

لهذا، قال لأبيه:«مع أنني تابع اقطاعي لك، في الاقطاعية التي منحتني اياها في هذا الجانب من البحر، إنه ليس من واجبك تقرير أي شيء يتعلق بمملكة انكلترا، وبناء عليه إنني أخضع نفسي لقرار نظرائي، حول عما إذا كان يجوز لك منعي من طلب حقوقي، ولاسيما الحق الذي لايمكنك تقديم العدل لي بشأنه، ولذلك أسألك أن لاتعيق مقصدي في السعي وراء حقوقي، لأنني من أجل ميراث زوجتي، سوف - إذا اقتضى الحال—أصارع حتى الموت» وما أن أكمل لويس النطق بهذ ه الكلمات، حتى انسحب من الاجتماع مع أتباعه، ولدى رؤية النائب البابوي لهذا، طلب من الملك منحه أماناً حتى يصل إلى ساحل البحر، وعلى طلبه هذا رد الملك قائلاً:«نحن بسرور نمنحك أماناً بالمرور في أراضينا، لكن إذا صدف ووقعت في يدي يوستاس الراهب، أو في أيدي أي واحد من رفاق لويس الآخرين، المسؤولين عن البحار، لا تلمني لأي شيء سوف يقع لك»،وإثر هذا غادر النائب البابوي البلاط مغضباً.

كيف حصل لويس على إذن أبيه وذهب إلى انكلترا

وفي اليوم التالي الذي كان يوم عيد القديس مرقص الانجيلي، ذهب لويس إلى أبيه في ميلون Melun ورجاه عدم إعاقة رحلته المقترحة، وأضاف بأنه أعطى يمينه إلى بارونات انكلترا، أنه سوف يقدم إلى عونهم، ولذلك هو بالحري يؤثر أن يجري حرمانه كنسياً لبعض الوقت من قبل البابا، ويفضل ذلك على نيل تهمة الزيف والخداع، ورأى الملك اصرار ابنه وقلقه، فأعطاه إذنه، وأرسله مع تبريكاته، وعندها أرسل لويس رسلاً إلى بلاط روما، ليعرضوا أمام البابا حقوقه التي يدعيها لنفسه في مملكة انكلترا، وبعد هذا بادر مسرعاً كل السرعة نحو شاطىء البحر، بصحبة ايرلاته، وباروناته وفرسانه وعدد كبير من الأتباع، حتى يتمكن من الوصول إلى انكلترا قبل النائب البابوي، وعندما وصل

وصحبه إلى ميناء كالي وجدوا هنـاك ستمائة سفينة، وثمانين غليون، كلها مجهـزة بشكل جيد، وكلهـا كـان يوستـاس الراهب قـد أعدها وجمعهـا بانتظار وصـول لويس، ولذلك أقلع الجميع على الفـور، وأبحـروا بكل سرعـة، باتجاه جـزيرة ثانت Thanet حيث رسـوا في مكان يدعى ستانهور Stanhore في الحادي والعشرين من أيار، وكان الملك جون آنذاك في دوفـر مع جيشـه، لكن بما أنـه كـان محاطاً بمـرتزقـة أجـانب، وفرسان من مناطق ما وراء البحر، لم يغامر بمهاجمة لويس وقت رسوه، خشية أن يتخلوا عنه أثناء القتال، وينضموا إلى جانب لويس، وتخلى عن قلعة دوفـر، التي عهد بها إلى هيـوج دي بورغ Burgh واستمر في فراره حتى وصل أولاً إلى غولد فورد، Guldford وبعد ذلك إلى وينكستر، وعندمـا لم يجد لويس من يعترض سبيلـه نزل في سـاندويش، وأخضع على الفـور المنطقة كلهـا باستثناء قلعـة دوفـر، ثم إنه ذهب إلى لندن، واستقبل هنـاك بسرور عـارم من قبل جميع البـارونات، وتلقى الولاء والتـابعيـة منهم جميعـاً، ومن سكان المدينة الذين كـانوا ينتظرون وصـولـه هناك، وأقسم هو نفسـه على الأناجيـل المقـدسـة بأنـه سـوف يمنحهم قـوانين جيدة ويعيـد مـواريثهم لكل واحد منهم ولهم جميعـاً، وكتب كـذلك إلى ملك الاسكـوتلنديين، وإلى جميع نبـلاء انكلترا، وبناء على هذه الأوامـر قـدم إليـه وليم ايرل وارني Warrene ، و.وW ايرل أوف آروندیل A rundel ، وو. W ايرل أوف سـالسبري، وو.W ميرسكال Marsckal الأصغر، وآخرون كثر بالاضافة إليهم، حيث تخلوا عن الملك جـون، وكأنهم كـانـوا متأكـدين تمامـاً بأن لويس سـوف يستحـوذ على المملكة، وعين لويس المعلم سيمـون لانغتـون مستشـاراً له، وهـو الذي تولى وعظ سكان لندن، وكـذلـك البـارونات المحرومين كنسياً، أثناء تأديتهم للخدمـات اللاهوتية، وأقنع أيضاً لويس بالموافقة عليها.

النائب البابوي والو يتبع لويس إلى انكلترا

وفي هذه الآونة، عندمــا سمع والو النائب البـابوي، بـأن لويس قـد غـادر إلى انكلترا، قام كنـائب نشيط للكرسي الرسـولي ووصايتـه، فعبر البحر للحاق به، وعبر من بين الأعداء دون أن يصاب بالأذى، ووصل إلى الملك جــون في غلوستر، واستقبله هذا الملك بسرور عــارم، وألقى بجميع آماله في أن يتمكن من مواجهة أعدائه عليه، وعندها جمع النائب البـابوي جميع الأساقفـة، ورعـاة الديرة، ورجـال الدين الذين تمكن من حشدهم، وقام وسط قرع الأجراس، والشموع المشتعلة، فحرم بالاسم لويس المذكور مع جميع المتعاونين معه ومحرضيه، وخاصة المعلم سيمون لانغتون، وأمر بالوقت نفسه الأسـاقفة المذكورين وجميع الآخرين، بنشر هذا القرار في جميع أرجـاء انكلترا كل يوم أحد ويوم عيـد، وقد ردّ على هذا كله المعلم سيمـون لانغتون، والمعلم غيرفــاس دي هوبرجي Ho-bregge قائـد جوقة المرتلين في كنيسة القـديس بولص في لندن، وعدد من الآخـرين، بأنهم قد عملوا مـرافعة استئناف نيـابة عن لويس، ولهذا هم يعــدّون ذلك القـرار لاغيـاً وفـارغـاً، وفي هـذا الوقت تخلى جميع الفرسـان والجنود من بلاد فلاندرز ومن مقـاطعات مـاوراء البحار عن قضيــة الملك جــون وذلك باستثناء الذين هـم من بواتو، وقــد التحق بعضهم بلويس، وعاد بعضهم الآخر إلى وطنهم.

كيف أخضع لويس المقاطعات الجنوبية لانكلترا

وفي هذه الآونة غادر لويس مدينـة لندن مع كتلة كبيرة من الفرسان، وهاجم كونتية كنت، ونظرا لعدم تصـدي أحد له، أخضعها على الفور، وذلك باستثناء قلعة دوفر، وتابع زحفه فاستولى بالقوة على سسكس مع جميع البلدات والحصــون، لكن كـان هناك شـاب اسمــه وليم، رفض تقديم الولاء إلى لويس، وحشد جماعة من ألف نبال، ولجأ إلى الأحراش والغـابـات التي كـانت كثيرة في تلك المنطقــة، واستمـر بالقتــال ضـد

الفـرنسيين خـلال تلك الحرب كلهـا، وقتل آلافـاً كثيرة منهم، ووصل لويس أخيراً إلى مـدينة وينكستر، وقـد أخضعهـا مع القلعـة والمنطقـة المجـاورة كلهـا، وذهب هيـوج دي نيفيل إلى لـويس، وسلم إليـه قلعـه مالبورا Malborough ، وقدم الولاء له، وذهب لويس بعد هذا إلى أوديهام Odiham، وهي بلدة كـانـت عـائـدة بملكيتهـا إلى أسقف وينكستر، وألقى الحصـار على البرج، وكان في هذا البرج ثـلاثة فرسـان فقط وعشرة عساكـر، وقد دافعوا بشجـاعة عنه، وفي اليوم الثـالث، قام الفرسـان الثلاثة المتقدم ذكرهم مع جنودهم بهجـوم مباغت من البرج، وذلك بعدما كان الفرنسيون قد رتبوا مجانيقهم حول البرج، وقاموا بعدة حملات حـادة عليـه، وقـد أسر هؤلاء من الفـرنسيين مثل عـددهم من الفرسان والجنود، وعادوا إلى البرج واستردوه دون أن يعانوا من خسارة بينهم أنفسهم، وبعـدما -على كل حـال -استمر الحصار لمدة ثمانيـة أيام سلمـوا البرج إلى لويـس، وخـرجـوا منه أنفسهم وعـددهم ثلاثة عشر فقط، ومعهم خيـولهم وأسلحتهم مصـانة، مما سبب دهشـة كبيرة بين الفـرنسيين، وهكـذ وقعت جميع المناطـق الجنوبيـة تحت سلطـة لويس باستثناء قلعة دوفر، ووندسور، التي كـانت مشحونة بشكل جيد، تنتظر وصول لويس، وفي الوقت نفسـه قام وليم دي مـانديفيل، وروبرت فتز -وولتر، ووليم دي هنتنغفيلد مع جيش قـوي من الفـرسـان والجنود، فأخضع كـونتيتي اسكس وسفـولك، ووضعهما تحت سلطة لويس، وفي أثناء حدوث هذا كله، وضع الملك جون مؤناً جيدة وأعتدة وأسلحة في قـلاع: وولنغفـورد، وكـورفي، ووورهـام، وبريستـول، وديفيـزي De-vizes، مع أعداد أخرى كثيرة من الصعب ذكرها.

نشاطات رسل لويس في روما

وفي هذه الآونة كتب الرسل الذين أرسلهم لويس إلى بلاط روما إليه كمايلي: «إلى مولانا القوي جداً لويس الابن الأكبر لملك فرنسا، يتمنى له

الرسل: د. D دي كوربيل Corbeil، وإ i دي مونتفيستـــو Mon-tevisto، وغ. G لايمث Limeth، الصحـة والأدعية الصـالحة، ليكن معلومـاً من قبلكم ياصـاحب السمو أنه في يوم أحـد «ad mensem Pasclae »، وصلنا إلى مـولانا البـابا، من دون أذى لأنفسنا ولسلعنا، ومثلنا على الفور أمامه في اليـوم نفسه، وقد وجدناه مشرق النفس، لكن كما يبـدو لديه سبب مايـدفعه إلى الأسف، وعندمـا قـدمنا رسائلنا إليـه وحييناه باسمكم أجـابنا: «إن مولاكم ليس جديـراً بتحيتنا» فأجبته على الفور قائـلاً: « أعتقد ياأبانا أنك عندما تسمع أسبـاب وتعليلات مولانا سوف تجده جديراً بتحيتك، كمسيحي وكـاثوليكي، وواحداً مخلصاً لك دومـاً، ولكنيســة رومـا»، وهكذا انسحبنا من حضرتـه في ذلك اليـوم، ولكن أثناء انصرافنا، أخبرنـا قـداستـه بلطف عظيـم، أنه على استعـداد لمنحنا مقـابلة أخـرى، عندمـا نرغب، وفي الـوقت الذي نريده، وفي يوم الثلاثاء التالي أرسـل مولانا البابا واحداً من حاشيتـه، إلى مكان اقامتك، آمـراً إيانا بالقـدوم إليه، وبناء عليـه مثلنا على الفـور بحضرته، وبعدمـا عـرضنا قضيتنا، قال الكثير في جـوابه لنا، ومـا أن أكمل عرضـه، حتى ضرب صدره وتنهـد عميقاً، وقال: «الويل لي، إنـه في هذه المشاكل، لن تستطيع كنيســة الرب النجـاة من الاضطراب، لأنه إذا مــاقُهــر ملك انكلترا، سوف نجـد أنفسنا متورطين في مشـاكله، لأنه تابع اقطاعي لنا، ومتوجب علينا حمايته، وإذا ما قُهر مولاكم لويس، ففي تعرضه للضرر، ضرر لكنيســة رومـا، لأننا نعـدّ الضرر الذي يلحق به مثل الضرر الذي يلحق بنا أنفسنا، ولقد تمسكنا دومـاً بالأمل، ونحن نتمسك به الآن، في أن لايكون في جميع أوقـــات الحاجــة الســـلاح في قمع السلوان، وفي اضطهـاد اللاجئين إلى كنيسة رومـا»، وقال أخيراً بأنه يتمنى أن يمـوت الآن على أن يلحق بك أي أذى في هذه القضية، وهكذا غادرنا من عنده في ذلك اليوم، علاوة على ذلك، نحن -بناء على نصيحة بعض الكرادلة - بانتظار يوم عيد الصعـود، من أجل أن لايصدر أي قـرار ضدك، لأن

من عادة البـابا أن يكرر قراراته، ذلك أن البابا أخبرنا بنفسـه بأنه يتوقع رسائل من السيد والو، وداعاً».

فيما يلي

الاتهامات التي أثارها لويس وبارونات انكلترا ضد الملك جون

وكانت أول تهمة عرضت أمام مولانا البابا ضد الملك جون، من قبل الرسل المتقدم ذكرهم، أنه قام بشكل اجرامي بقتل ابن أخيه آرثر بيديه، وهو أسوأ أنواع القتل حسب تعريفات جرائم القتل الانكليزية، وبسبب هذه الجريمة أدين الملك المذكور وحكم عليـه بالاعدام، في محكمة بلاط الملك الفرنسي، من قبل قضاة من أمثاله مرتبة، وجاء اعتراض البابا على هذه التهمة، بأنـه لايمكن لبارونات الحكم عليه بـالموت، لأنه كان ملكاً معمـداً، وبالتـالي رئيسـاً لهم، ولايمكن أن يحكـم عليـه بالموت من قبل البارونات، لأنهم أدنى منه مـرتبة، ولأن الأعلى مـرتبة يمكنه من بعض الجوانب تدمير سلطة الأدنى مـرتبـة، وبـالاضـافـة إلى ذلك، واضح أنه معـارض للقـانون المدني، وعلى عكس القـانون الكنسي اصـدار قـرار بالإعـدام على رجـل غير حـاضر، ولم يتم استـدعـاؤه، ولاتجريمـه، أو اعترافه بأنه مجرم، وعلى هذا أجاب الرسل قائلين: «إن من أعراف مملكة فـرنسـا، أن يكون للملك جميع أنـواع السلطات القضـائيـة على رعـاياه الاقطاعيين، وملك انكلترا من رعـايـاه الاقطاعيين، فقـد كـان كـونتـا ودوقـاً، ومع أنه كان في مكان آخـر ملكاً معمداً، هو بحكم كـونه ايرل ودوق، قـد كـان تحت السلطان القضـائي لمولانا، ملك فـرنسـا، وإذا مااقترف أي ايرل أو دوق مثل هذه الجريمـة في المملكة الفرنسية، يمكن -لابل ينبغي - الحكم عليـه بالإعدام مـن قبل نظرائه، وأكثـر من هذا، إنه حتى وإن لم يكن دوقـاً أو كونتـاً، أو تابعـاً اقطاعيا من رعـايا الملك الفـرنسي، واقترف هذه الجريمة في المملكة الفـرنسية، يمكن للبـارونات فيما يتعلق بجريمة اقترفت في تلك المملكـة، الحكم عليه بالاعدام، ومن

جانب آخر إذا كـان من غير المملكن الحكم على ملك انكلترا بالاعدام، لأنه ملك معمد، من الممكن قدومه إلى فرنسا، ومن ثم يدان بالقتل، من قبل البارونات لقتله آرثر، وعلى هذا أجاب البابا قائلاً: «هناك عدد كبير من الأباطرة والأمـراء، لابل حتى ملوك فـرنسيين، قـد أفيـد من قبل التاريخ بأنهم قتلوا كثيراً من الأشخاص الأبرياء، ومع ذلك نحن لم نقرأ بأن أي واحد من هؤلاء قـد حكم عليه بالاعدام، وعندمـا جرى سجن آرثر في ميربو، لم يكن انسـاناً بريئاً، بل كان مجرمـاً وخائناً لعمـه ومولاه الذي إليه قدم الولاء وأقسم على التابعية، لذلك من الممكن الحكم عليه بأسوأ أنواع الموت من دون محاكمة.

التهمة الثانية التي أثيرت من قبل المذكورين أعلاه ضد جون

وكانت التهمـة الثانية التي أثيرت ضـد الملك، أنه قد استـدعي مراراً للمثـول أمـام محكمـة بلاط فـرنسـا، وهو لم يظهـر شخصيـاً حتى ينال محاكمته، ولم يرسل أحداً نيابة عنه ليقوم بالاجابة عوضاً عنه، وعن هذه التهمـة رد البابـا، بأن ملك انكلترا لم يكن متمـرداً إلى درجة ظهـوره في المحكمة أو دعوته للمثول أمام المحكمة، وما من أحد يمكنه -أو ينبغي له - أن يعـاقب بالموت بسبب التمـرد أو العصيـان، ولذلك لايمكن لبـارونات فـرنسا الحكـم عليه بالموت، بل يمكـن لهم معاقبتـه بطريقـة أخـرى، أي بحرمـانه من اقطاعـه وتجريده منه، وقد أجـاب الرسل على هذا قـائلين: «إن العـرف في المملكة الفـرنسيـة، أنه عندمـا يتم اتهام أي واحد أمام القاضي بجريمـة قتل وحشية، ولم يظهر المتهم أمام المحكمة، ولم يرفع استئنافاً شرعياً يسوغ فيـه عدم ظهوره، فإنه يعد مجرماً، ويجري تجريمه وتجري ادانتـه بجميع التهم، حتى إلى حكم الاعدام، وكـأنه كان حاضراً»، وعلى هذا رد البـابا قائلاً، بأنـه من الممكن الحديث عن وجود اتفاق بين ملك فرنسا، ودوق نورماندي، أو عادة قديمة وبموجب ذلك يتـوجب على دوق نورماندي، إذا مـادعـاه ملك فرنسـا، أن يصل حتى

حدود دوقيتـه، ولذلك إنه إذا لم يستجب أثناء استدعـائه، هو لم يقترف جريمة، كما لايمكن بسبب ذلك عقوبتـه بمثل هذه الطريقة، وقال البابا أيضاً، وبما أن القـرار الذي صدر ضـد ملك انكلترا -لم يتم تنفيذه، لأنه لم يعـدم، فبمـوجب ذلك إن أولاده الذيـن ولدوا بعـد ذلك، ينبغي أن يخلفـوه في المملكة، لأن ملك انكلترا لم يقترف جـريمـة الخيـانة، أو الهرطقـة، لأن مقترفهما فقط لايحق لولده أن يرث والده، بسبب جريمـة أبيه، ورد الرسل على هذه الحجة قـائلين: «إن العادة في مملكة فرنسا، أنه عندما يصدر الحكم بالاعدام على أي واحد، فإن أولاده الذين ولدوا له بعـد صـدور الحكم عليـه لايحق لهم خـلافتـه»، هـذا ولم يرغب الرسل بمناقشـة هذه النقطة، ثم قال البـابا بعد ذلك، ومع أن ملك انكلترا قـد صـدر حكم الإعـدام عليـه، وقـد ولد له أولاد من صلبـه، فإن بلانشي لايجوز لها أن تخلفـه، بل يخلفه الأقـرب إليه من أسرته، أي أولاد أخيـه الأكبر، وعلى هذا أخت آرثر، أو أوتو، الذي هو ابن أخته الكبرى، وإذا ماتقرر بأن ملكة قشتالة ينبغي أن تخلفه، وبعد ذلك ابنتها بلانشي بحكم أنها ابنتها، وهذا لايمكن أن يكون صحيحاً ولا لائقاً، لأن الذكر ينبغي أن يكون هو المفضل، أي ملك قشتـالة، وإذا لم يتـوفـر ذكـر، فإن ملكة ليـون ينبغي أن تفضل لأنها الأكبر سناً، وعلى هذا رد الرسل قـائلين: « إن أبناء الأخ لاينبغي لهم أن يخلفوه، لأن الأخ لم يكن حيا وقت صدور القرار، وأخت ابـن أخيه آرثر لايجوز لها أن تخلفه لأنها لم تكـن منحدرة من خطه النسبي مبـاشرة، مع أنها ابنة أخيـه، ومثل هذا أم أوتو، لم تكن حيـة وقت صدور القـرار، لذلك هي لم تخلفه، وبالنتيجـة لذلك لايجوز لأوتو أن يخلفه، لكن ملكة قشتالة كـانت حية، وهي أخته، ولذلك يحق لها خـلافته، ولدى مـوت ملكة قشتالة فإن أولادها هم الذين يخلفـونها وينبغي أن يخلفوه، وعلى هذا رد البابا قـائلاً، بأن ملك قشتالة ينبغي أن يخلفه، لأنه كان الوريث الذكـر، أو ملكة ليون لأنها أكبر الوريثات سناً، وعلى هذا أجاب الرسل، بأنه عندما يكون هناك عدة ورثاء، يتوجب أن

يرثوا انسانا واحداً، إن الذي يأتي أولاً في الخلافة، يظل هو المحور، لكنه إذا ما أهمل الدخول في عملية الوراثة، يحل محله الذي يليه بالوراثة، وإذا مارغب بالدخول في عملية الوراثة، يتوجب تعيينه وتوريثه، وذلك وفقاً لعادة معترف بها، مع استثناء حق الآخر إذا ماطالب به، وبناء عليه دخل مولانا لويس إلى مملكة انكلترا، بحكم أنها مملكته، ولكن إذا توفر من هو أكثر قرابة منه، فليتقدم بدعواه في هذه القضية، وسيلتزم مولانا لويس بما هو صحيح ويأخذ به.

الاعتراض الثالث ضد الملك جون

ثم قال البابا بأن مملكة انكلترا قد كانت مملكته، بحكم قانون التابعية الاقطاعية وبسببه، فلأجل ذلك قد تلقى قسماً يتعلق بها، وكذلك بسبب المورد الذي يدفع له من المملكة، وبما أنه لم يقترف ذنباً، فلايجوز للويس أن يشن الحرب عليه، لينتزع منه بالقوة مملكة انكلترا، خاصة وأن ملك انكلترا مستحوذ عدداً من الاقطاعات من ملك فرنسا، ولهذا السبب لاتجوز إثارة الحرب ضده، وفي ردهم على هذا قال الرسل: «إنها الحرب، وحرب عادلة قد خيضت ضد ملك انكلترا، قبل أن تصبح هذه المملكة عائدة إلى قداستكم، هذا وكان وليم صاحب السيف الطويل وكثير آخرون قد قدموا مع قوة كبيرة من مملكة انكلترا، وأنزلوا كثيراً من الأذى بفرنسا، وسببوا كثيرا من الخسائر للمولى لويس، لذلك يحق له بشكل مسوغ وعادل شن الحرب ضد ملك انكلترا»، وعلى هذا رد البابا قائلاً: إنه مع أن ملك انكلترا قد شن الحرب على لويس، لايجوز للويس أن يهاجمه ويشن الحرب ضده، بل يتوجب أن يشتكى منه إلى مولاه، أي إلى البابا، الذي له ملك انكلترا تابع اقطاعي ومن رعيته، وعندها أجاب الرسل بأن العادة قد جرت، أنه عندما تشن الحرب على أي واحد من قبل تابع اقطاعي لواحد آخر اعتماداً على سلطاته ومسؤوليته الخاصة، يحق للذي شنت الحرب عليه تقديم شكوى إلى

مولى الرجل الآخر، وإذا ماأقدم ذلك المولى على حماية ذلك التابع أثناء استمراره بشن الحرب، فإن المولى نفسه هو الذي قام بشن الحرب، ووقتها قال البابا بأنه قد تقرر في المجمع المسكوني وجوب قيام سلام، أو هدنة لمدة أربع سنوات بين جميع المختلفين، من أجل تقديم ضمانة إلى الأرض المقدسة، ولذلك لايجوز للويس شن حرب على مملكة انكلترا، أثناء تلك المدة، ورد الرسل على ذلك قائلين بأن لويس عندما غادر فرنسا، لم توجه إليه دعوة للحفاظ على السلام، أو الهدنة، لابل حتى وإن تلقى شيئاً من هذا القبيل، فإنهم يعتقدون بوجود نوايا سيئة من جانب ملك انكلترا، ذلك أنه لن يحافظ لاعلى السلام ولا على الهدنة، ثم قال البابا بأن ملك انكلترا قد حمل الصليب، وبناء عليه إنه بموجب قرار المجمع المسكوني، فإنه يتوجب حمايته وحماية جميع ممتلكاته من قبل الكنيسة، وعلى هذا أجاب الرسل، بأن ملك انكلترا قد شن الحرب على لويس قبل أن يحمل الصليب، وقد أنزل به كثيراً من الأضرار، واستولى على قلاعه، لابل إنه مازال يحتجز لديه فرسانه وجنوده في السجن، وعلى هذا هو مايزال في حالة حرب ضد لويس، وهو لن يمنحه سلام ولن يقيمه معه، ولن يعطيه هدنة، مع أنه غالباً ماطلب منه فعل ذلك، ثم قام البابا بإخبارهم، أنه بموافقة عامة من المجمع المسكوني جرى حرمان بارونات انكلترا كنسياً مع محرضيهم، وبناء عليه فإن لويس قد أوقع نفسه تحت طائلة هذا القرار، وأجاب الرسل على هذا بأن مولاهم لويس لايقوم بمساعدة بارونات انكلترا، كما أنه ليس محرضاً لهم، بل هو يعمل فقط على نيل حقوقه، ولويس لم يعتقد، ولايمكنه أن يعتقد بأن البابا أو المجمع يمكن أن يقوما بحرمان انسان كنسيا بشكل غير عادل، لأنه في وقت صدور القرار لم يعلم قداسته بأن لويس لديه أي ادعاء أو مطالبة بمملكة انكلترا، وبما أن هذا قد تبرهن له، فإن لويس لم يعتقد بأن المجمع سوف ينتزع حقوقه منه، وقال البابا بعد هذا بأن ملك فرنسا، وكذلك ابنه لويس، قد قام حتى بعد صدور قرار الحكم ضد

ملك انكلترا من قبل البارونات الانكليز، بدعوة جون باسم ملك، وعدّه ملكاً، وعمل معاهدات معه بحكم كونه ملكاً لانكلترا، وعلى هذا أجاب الرسل، بأنه بعدما صدر قرار الحكم ضد الملك من قبل البارونات، لم يعدّوه قط ملكاً، لابل دعوه باسم «الملك المخلوع»، وفق الطريقة نفسها التي يعامل بها راعي دير أو أي واحد آخر جرى خلعه، وأخيراً قال البابا، بأنه سوف يتخذ قراره حول هذه القضايا، قبل وصول الرسل من عند والو.

كيف عاث لويس فساداً في المقاطعات الشرقية من انكلترا

وقام لويس في هذه الآونة بهجوم على المناطق الشرقية من انكلترا، ونهب مدن وبلدات اسكس، وسفولك، ونور فولك، وقد وجد قلعة نورويك مهجورة، فشحنها بجنوده، وفرض ضرائب على جميع هذه المناطق، كما أنه أرسل قوة كبيرة ضد بلدة لين Lynn ، حيث جرى الاستيلاء عليها، مع أخذ سكانها أسرى، وإرغامهم على دفع أتاوة كبيرة، وعاد الفرنسيون بعد هذا مع غنائم كبيرة وأسلاب إلى لندن، وقدم في ذلك المكان غيلبرت دي غانت Gantإلى لويس، وإليه قدم سيف كونتيه لنكولن، ثم بعثه لويس من هناك للتصدي لغارات حاميتي قلعتي: نوتنغهام، ونيوآرك Newark لقيامها بتدمير جميع مساكن البارونات وأبنيتهم الجميلة بالنار في تلك المنطقة، مع الاستيلاء على الأراضي التي كانت بحوذتهم وملكاً لهم، وفي تلك الآونة أخضع روبرت دي روس Roos، وبيتر دي بروز، ورتشارد بيرسي مدينة يورك وجميع المنطقة لصالح لويس، واستولى غيلبرت دي غانت وروبرت دي روبلي Roppelleعلى مدينة لنكولن وتلك المنطقة باستثناء القلعة، وفرضوا ضريبة سنوية عليها كلها، وزحفا من هناك إلى هويلاند Hoyland، فنهباها، وفرضا ضريبة عليها، وأخضع ملك سكوتلندا جميع كونتية نورثأمبرلاند، لصالح لويس، باستثناء القلعتين

اللتين كـان هيـوج دي بيللول Baillul وفيليب دي هيولكوت -Hu lecotes يدافعان بشجاعة عنهما ضد المهاجمين من الأعداء، وجرى على كل حال اخضـاع جميع هذه المقاطعـات، وأقسمت يمين الولاء للويس، وجبى في هذا العــام والو النائب البـابوي ضرائب على الـوكـالات من الكنائس الكاتدرائيـة، ومن البيـوت الدينية في جميع أرجـاء انكلترا، أي خمسين شلنا من كل وكـالة، وعـلاوة على ذلـك فـرز جميع منافع الكهنة ورجال الدين الذين قدموا مساعدة، أو مشورة، أو رعاية لقضية لويس، وحوّل ذلك كله لاستخداماته شخصيا ولاستخدامات كهنته.

حصار قلعة دوفر من قبل لويس

وفي هذا العام نفسه، ألقى لويس مع قـوة كبيرة من الفرسان والجنود الحصـار على قلعة دوفـر، وكان ذلك في يوم عيـد ميلاد القـديس يوحنا المعمـدان، وكان قـد أرسل أولاً إلى أبيـه ليبعث إليه آلـة قذف يدعـوها الفـرنسيـون باسم «Malvoisine»، وقد صف الفرنسيون هذه الآلة والآلات الأخـرى أمــام القلعــة، وبدأوا يقصفــون الأســوار بشكل متواصل، لكن هيـوبرت دي بيرغ، الذي كان فـارساً شجاعـاً، قد تمكن مع مـائـة وأربعين فارسـاً وعـدداً كبيراً من الجنود كـانوا يدافعـون عن القلعة، من تدمير كثير مـن الأعداء، حتى إذا شعر الفـرنسيون بفـداحة خسـائـرهم نقلوا خيمهم وآلات رميهـم بعيـداً عن الأسـوار، وغضب لويـس لهذا عضبــاً عظيماً، وأقسم أنـه لن يغــادر المكـان حتى يجري الاستيـلاء على القلعة، ومن ثـم يتـم شنـق جمـيع أفراد الحاميــة، ولهذا قـام الفرنسيـون حتى يبثـوا الرعب في قلوبهم، ببناء عـدد من الحوانيت مع أبنيـة أخرى أمـام مـدخـل القلعــة، لذلك بدا المكان وكأنه سـوق، ذلك أنهم أملوا أنهـم ســوف يرغمــوهـم على الخضــوع بوســاطة الحصــــار الطـويل والجوع، بما أنهم لم يتمكنوا من اخضــاعهـم بقــوة السلاح.

الاستيلاء على قلعة كمبردج

وقامت في هذه الآونة نفسها مجموعة من البارونات الذين كانوا مقيمين في لندن بغارة داخل المنطقة القريبة من كمبردج، ونهبوها واستولوا على القلعة في ذلك المكان، وأسروا عشرين جنديا وجدوهم فيها، وحملوهم معهم، ومن هناك اجتاحوا كونتيتي نورفولك وسفولك، فنهبوا المنطقة وكذلك جميع الكنائس، واستخرجوا غرامات كبيرة من بلدات يارماوث Yarmouth، ودنويتش Dunwich، وابسويتش Ipswich ، ثم إنهم بعدما جمعوا منهوباتاً كثيرة من حول كولشستر Colchester ، وعاثوا فساداً بالمنطقة هناك وفق الطريقة نفسها، عادوا إلى مآويهم القديمة في لندن.

حصار قلعة ويندسور

وبعد هذه الأحداث، حشد البارونات قوة كبيرة، وألقوا الحصار على قلعة ويندسور، وأسندت قيادة هذا الجيش إلى كونت دي نافار Nev-ers، الذي كان منحدراً من الخائن غونلون Guenelon وبعدما رتب رجال هذا الجيش آلاتهم، قاموا بهجوم حاد على الأسوار، وكانت هذه القلعة تحت عهدة انغلارد دي آتي، وكان رجلاً عظيم الخبرة بالحرب، يحيط به ستون فارساً مع أتباعهم، وقد دافع هؤلاء عن القلعة بشدة ضد أعدائهم، وما أن سمع جون بأن قلعتي دوفر وويندسور كانتا تحت الحصار، حتى جمع جيشاً كبيراً من حاميات القلاع التابعة له، وبوساطة هذا الجيش اجتاح أراضي الايرلات والبارونات في أيام الحصاد، فأحرق بيوتهم ومحاصيلهم، وأنزل أضراراً واسعة بأعدائه، وتجول بعد هذا في كونتيات نورفولك، وسفولك، محدثاً دماراً مماثلاً بين ممتلكات ايرلات: آرنوديل، وروجر بيغود، ووليم دي هنتنغفيلد، وروجر دي كريسي، ونبلاء آخرين، وعندما رويت أخبار هذه الحوادث كلها إلى البارونات الذين كانوا يحصلون على قليل من التقدم، أو على لاشيء مطلقاً لدى

حصارهم لقلعة ويندسور، قرروا رفع الحصار، من أجل أن يقطعوا طريق الانسحاب على الملك جون، الذي كان آنذاك -كما قيل -ينهب ويجمع الأسلاب حول ساحل سفولك، وقاموا بناء عليه، وعلى وصية ونصيحة من كونت دي نافار -الذي يقال بأنه تلقى رشوة بوساطة الهدايا من الملك -فرفعوا الحصار أثناء الليل، وغادروا خيامهم، وزحفوا مسرعين نحو كمبردج، من أجل تطويق الملك، وكان الملك قد أنذر مقدماً بهذا، بوساطة الكشافة الجيدين، وحصل ذلك قبل وصول البارونات إلى كمبردج، وحمل نفسه مثل رحالة بارع، إلى بلدة ستامفورد، ومن هناك أخذ طريقه نحو الشمال، ولدى سماعه بأن قلعة لنكولن كانت تحت الحصار، سار بأقصى سرعة نحو ذلك المكان، وقام غيلبرت دي غانت مع النورمان الآخرين، الذين كانوا يحصارونها، بالفرار من أمامه، ذلك أنهم ارتعبوا من حضوره، وجاء فرارهم مثل البرق، والبارونات أيضاً، الذين لحقوا الملك، عندما وجدوا أنفسهم قد خدعوا، انغمسوا في أعمال السلب والنهب، وركزوا اهتمامهم على تدمير الممتلكات، ثم عادوا مع منهوباتهم إلى لندن، حيث عينوا بعض الفرسان لحراسة المدينة، ثم زحفوا للالتحاق بلويس عند دوفر، وقام الملك جون في الوقت نفسه بمتابعة زحفه نحو حدود ويلز، حيث حاصر قلاع البارونات في ذلك الاتجاه واستولى عليها، وأمر بهدمها جميعاً، وتسويتها بالأرض، وقد وفرت أعمال التهديم التي اقترفها بوحشية بين البيوت والمحاصيل العائدة للبارونات المذكورين، مشهداً محزنا لكل من رآه.

وفي شهر تشرين الثاني من العام نفسه، قدم الاسكندر، ملك الاسكوتلنديين، لخوفه من الملك جون، ووصل مع جيش كبير، إلى لويس عند دوفر، وقدم الولاء له، بالنسبة للامتياز الذي يستحوذ عليه من ملك الانكليز، لكن حدث له، وهو على طريقه إليه، أنه عندما كان

مجتازاً لقلعة برنارد في منطقة هيلويركفولك Hailwercfolk، التي كانت في اقطاعيـة هيـوج دي هيللول، قام هو ونبـلاء تلك المنطقـة بالركـوب والسير حول القلعة لاكتشاف مكان مكشـوف يمكن منه القيام بهجوم، وفي تلك الأثناء فـوّق رجل من داخل القلعـة قـوسه العقـار، وأطلقـه، فجـرح رجلاً من المرتبـة العليـا، هو يوستاس دي فيسكي، وأصـابه في جبهته، فخرق دماغه، وقد مات حيث هو، وكان يوستاس هذا متزوجاً من أخت ملك سكوتلنـدا، ولذلك حـزن هذا الملك عليـه كثيراً ومعـه الذين كـانـوا برفقتـه، وقـدم -على كل حـال - الملك المذكـور الولاء وعمله، حسبما كان قد جرى إعداده من قبل، ثم عاد إلى وطنه.

الكشف عن خيانة الفرنسي

وحـدث في هذه الآونة أن فيـزكـونت دي ميلون Melun ، وكان فرنسيا نبيلا، قدم إلى انكلترا مع لويس، قد وقع مريضا بشكل خطير في لندن، وعندمـا وجد أن مـوته قد اقترب، بعث وراء بعض البـارونات، الذين تركـوا في المدينة مسـؤولين عنهـا، للحـديث معهم، وعمل على مسمع منهم جميعاً الاعتراف التالي حيث قال: «أنا حزين بسبب عزلتكم ودماركم، لأنكـم لاتعرفون الخطر المحيق بكم والمعلـق فوق رؤوسكم، لأن لويس ومعه ستة عشر كـونتا وباروناً فرنسياً قـد أقسموا، أنه ما أن يخضع انكلترا، ويتـوج ملكاً، حتى سيقـوم بـالحكم بنفي دائم على جميع الذين يقـاتلون الآن معـه ويضطهـدون الملك جـون، وسيكون حكمـه عليهم بحكم كونهم خونة ضد مـولاهم، ولسوف يدمر جميع عناصرهم مع بني جنسهم ويخرجهم مـن المملكة، وعليكم عـدم الارتيـاب بهذا، لأنني أنا الآن متمدد هنـا وأنا على حافة الموت، أعلن لكم وأنـا أخاطر بنفسي بأنني كنت واحـداً ممن أدى ذلك القسم مع لويـس، وبناء عليـه إنني أنصحكم أن تعـدوا العدة في سبيل نجاتكـم في المستقبل وأن تبقوا سراً الذي أخبرتكم بـه الآن»، ومع فـراغ هذا النبيـل من هذه الكلمات

مات، ولدى انتشار هذه المعلومات بين البارونات كانوا في وضع حرج، لأنهم عرفوا بإحاطة الاضطرابات بهم من كل جانب، لأن لويس لم يأبه بشكاويهم، فأعطى أراضيهم وقلاعهم التي أخضعها في أماكن متعددة إلى فرنسيين، لكن الذي ضايقهم أكثر من كل شيء، هو وصمهم بالخيانة، ولقد ازداد خوفهم وحذرهم أيضاً، بسبب ظروف حرمانهم كنسياً، يوماً بعد يوم، ولأنهم حرموا من الشرف والمكانة الدنيوية، ولذلك وقعوا في اضطراب عظيم في كل من الجسد والعقل، وفكر كثير منهم بالعودة بولائهم إلى الملك جون، لكنهم كانوا خائفين كثيراً بحكم الأذى الكبير الذي ألحقوه به، مما أثار سخطه عليهم، ومما قد يدفعه إلى عدم قبولهم حتى وإن كانوا تائبين.

موت الملك جون

في أثناء متابعة لويس حصار دوفر، واستمراره في ذلك من دون نجاح، اقترف جون مع قوة كبيرة أعمال دمار هائلة ونهب مريع في كونتيتي سفولك ونورفولك، وأخيراً أخذ طريقة من خلال بلدة لين Lunn ، حيث جرى استقباله بسرور من قبل السكان، وتلقى هدايا كثيرة منهم، ثم إنه تابع زحفه نحو الشمال، لكنه أثناء عبوره لنهر ويلستر Wellester فقد جميع عجلاته وعرباته وخيول حمل أثقاله مع جميع أمواله، وآنية ثمينة، وكل شيء له قيمة خاصة لديه، لأن الأرض انفتحت في وسط الماء، وسبب ذلك نشوء دوامات ابتلعت كل شيء، وكذلك الخيول والرجال، ولذلك ما من أحد نجا من هذه الكارثة، حتى الملك نفسه، ونجا هو بصعوبة بالغة مع جيشه، وأمضى الليلة التالية في دير اسمه سواينهد Swinehead، وشعر هناك بآلام مبرحة في قرارة نفسه حول الممتلكات التي ابتلعتها المياه، فاستبدت به حمى عنيفة وصار مريضاً، وازداد مرضه بنزيف معوي لأنه أتخم نفسه وأفرط في أكل الدراق، وشرب عصير الفواكه الجديدة، مما ضاعف حمّاه، وزاد

مرضــه، وغادر على كل حال ذلك المكـان في الفجر الباكـر، مع أنه كان موجوعاً، وأخـذ طريقه إلى قلعة لافورت Lafort ليعسكر هناك، وكان في ذلك المكان في حالة آلام مبرحة، إلى حـد أنه وصل بصعوبة في اليوم التـالي إلى نيوآرك وهـو على ظهر حصـان، وهناك أقعـده مـرضه، وقـام بالاعتراف بنفسه، وتلقى القربان مـن راعي دير كروكستون Croxton، وعين بعـد ذلـك ابنه الأكبر هنري وريثـاً له، وجعل مملكتــه تقسم على تقديم الولاء له، كما أرسل رسائل ممهـورة بخاتمه إلى جميع عمد المناطق، وإلى شحن القـلاع في المملكة، يأمـرهم واحـداً واحـداً وجميعـاً بإطاعـة الابن المذكـور، وسأله بعـد هذا راعـي دير كـروكستـون أين يرغب أن يدفن، إذا توفي، فأجابه: « إلى الرب، وإلى القـديس وولستان Wolstan أعهـد بجسدي وروحي»، وبعـد هذا فارق هذه الحيـاة في الليلة التاليـة بعد يـوم عيد القديـس لوقا الانجيلي، وكان هـذ بعدما حكـم لمدة ثمانية عشر عــامـاً ونصف العــام، وألبس جســـده بثيـاب ملكيــة وحمل إلى وورسستر Worcester ، وهناك دفن في الكنيسة الكــاتدرائية بشكل مشرف من قبل أسقـف ذلك المكان، وعندمــا كـــان الملك يقترب من الموت في نيــوآرك، وصل إليـه رسل إلى هناك مـع رســائل من حــوالي أربعين من البارونات، الذين رغبوا في عمل سلم معه ثانية، لكن بما أنه كان على حـافة الموت، لم يكن بإمكانـه إعطاء انتباهه لهم، وقـام أحدهم بنظم نقشه الذي سوف يحفر على قبره بالأبيات التالية:

Hoc In Sacrophago Sepelitur Regis Imago

Qui Moriens Multum Sedavit In Orbe Tumultum.

Hunc Mala Post Mortem Timor Est Ne Fata Sequantur.

Qui Lgis Haec, Metuens dum Cernis Te Mositurum,

Discute quid rerum pariat mefa dierum.

حكم الملك جون ثمانية عشر عاماً، وخمسة أشهر، وأربعة أيام.

حول تتويج هنري الثالث ملكاً على انكلترا ووقائع حكمه

وبعد وفاة الملك جون، وفي عشية عيد الرسولين سمعان وجود، جرى عقد اجتماع في غلوستر بحضور والو، مندوب الكرسي الرسولي، وكان بين الحضور هناك بطرس أسقف وينكستر، وسيلفستر أسقف وورسستر، ورالف ايرل أوف شيستر، ووليم مارشال، إيرل أوف بمبروك، ووليم ايرل أوف فيرار، وجون مارشال، وفيليب دي ألبيني، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان وعدد كبير من الآخرين، للاعداد من أجل تتويج هنري الابن الأكبر للملك جون، وفي اليوم التالي وكانت جميع الإعدادات قد اكتملت، اقتاد النائب البابوي برفقة الأساقفة والنبلاء المذكورين الملك بمسيرة مهيبة إلى الكنيسة الديرية من أجل تتويجه، ووقفوا هناك أمام المذبح الكبير بحضور رجال الدين والناس، وأقسم، على الأناجيل المقدسة والآثار الأخرى المقدسة للقديسين، بأنه سوف يلتزم بمراعاة التشريف، والسلام، والتبجيل نحو الرب، ونحو الكنيسة المقدسة، ونحو رجالها المكرسين، طوال أيام حياته، كما أنه أقسم بأنه سوف يظهر عدلاً دقيقاً إلى الشعب الذي عهد إليه العناية به، ولسوف يزيل جميع القوانين السيئة والأعراف الفاسدة، إذا توفر أي منها في المملكة، وسوف يلتزم بمراعاة القوانين والأعراف الجيدة، ويتدبر أمر الالتزام بهم ومراعاتهم من قبل الجميع، ثم إنه قدم الولاء إلى كنيسة روما المقدسة، وإلى البابا انوسنت، من أجل مملكة انكلترا ومملكة ايرلندا، وأقسم أنه طوال تملكه لهاتين المملكتين، سوف يدفع باخلاص الألف مارك التي أعطاها والده إلى الكنيسة الرومانية، ووضع بعد هذا بطرس أسقف وينكستر التاج على رأسه، وعمّده ملكاً بالطقوس المعتادة، بالصلاة والأناشيد التي تتلى أثناء أعمال التتويج،

وبعد الفراغ من أداء القداس ألبس الأساقفة والفرسان الذين تقدم ذكرهم أعلاه، الملك الثياب الملكية، وقادوه إلى المائدة، حيث أخذ الجميع مقاعدهم وفقاً لمراتبهم، واحتفلوا وسط الفرح والسرور، وتلقى الملك في اليوم التالي الولاء والتابعية من جميع الأساقفة، والايرلات، والبارونات، ومن الآخرين الذين كانوا حضوراً، ووعده الجميع بولاء مخلص له، وجرى تتويج هنري وهو في العاشرة من عمره، في يوم الرسولين سمعان وجود، الذي كان اليوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول، وبقي بعد تتويجه مستمراً تحت وصاية وليم ايرل أوف بمبروك، الذي كان المارشال الأعظم، والذي أرسل على الفور رسائل إلى عمد المناطق وإلى شحن وولاة القلاع في انكلترا، موجباً على كل واحد منهم وعلى الجميع طاعة الملك المتوج حديثاً، ووعدهم بممتلكات وبالاضافة إلى ذلك الكثير من الهدايا، على شرط الارتباط باخلاص بالملك المذكور، وبذلك ارتبط به بقوة جميع النبلاء وولاة القلاع الذين خدموا والده، لأنهم اعتقدوا أن ذنوب الوالد لاتجوز مطالبة الابن بها، وبناء عليه بدأ الجميع بالاستعداد للدفاع عن قلاعهم ولتقويتها بقدر الامكان، وتشجع الذين وقفوا إلى جانب الملك، لأنهم شاهدوا أن شركاءه في الآثام ومحرضيه عليها كانوا يجري حرمانهم كنسيا كل يوم أحد، وكل يوم عيد.

كيف غادر لويس دوفر لدى سماعه بوفاة جون

وعندما تلقى لويس والبارونات الذين كانوا يحاصرون دوفر أخبار وفاة الملك جون، كانوا مسرورين جداً، وكأنهم شعروا بثقة بأنهم على وشك استلام مملكة انكلترا، وأنها صارت الآن تحت سلطانهم وفي أيديهم، واستدعى لويس هيوبرت دي بورغ قسطلان قلعة دوفر للاجتماع به وقال له: «إن مولاك الملك جون قد مات، ولايمكنك مواصلة التمسك بالقلعة ضدي لوقت طويل، لأنك بدون حامي لك،

ولذلك سلم القلعة، وصر مخلصاً لي، ولسوف أغنيك بالتشريفات، ولسوف تحتل مركزاً عالياً بين مستشاريي»، ويحكى بأن هيوبرت قد ردّ على هذا العرض قائلاً: « مع أن مولاي قد مات، إن لديه أولاد وبنات، يتوجب أن يخلفوه، وبالنسبة لتسليم القلعة، سوف أتشاور مع أتباعي من الفرسان»، ثم إنه عاد إلى القلعة، وأخبر رفاقه بالذي قاله لويس، وقد كان موقفهم بالاجماع رفض تسليمها له، خشية أن يوصموا بالخيانة، لخضوعهم الجبان، وعندما جرى ابلاغ هذا إلى لويس وإلى البارونات، قرروا الاستيلاء على القلاع الصغيرة في أرجاء المنطقة، حتى إذا مافرغوا من القلاع الصغيرة، وصارت بين أيديهم، يمكنهم مهاجمة القلاع الأكبر، ولذلك رفعوا الحصار، وعادوا إلى مدينة لندن، وإثر تراجعهم وفور ذلك خرج الفرسان الذين كانوا يدافعون عن القلعة، وأحرقوا البيوت والأبنية التي شيدها لويس في مواجهة القلعة، ثم نهبوا المنطقة، فحصلوا على كميات وافرة من المؤن ومن الضروريات للحصن وللحامية.

حصار قلعة هارتفورد والاستيلاء عليها

وبعد هذا زحف لويس في اليوم التالي لعيد القديس مارتن مع جيش كبير إلى بلدة هارتفورد، وألقى الحصار عليها، وصف آلات رميه من حول القلعة لقصف الأسوار، وقد تولى وولتردي غوداردفيل، الذي كان فارساً شجاعاً، من أتباع فالكاسيوس، الدفاع عنها مع جنوده، وأوقع قتلى كثيرين بين الفرنسيين، وحدث على كل حال أنه بعدما استمر الفرنسيون في مواصلة الحصار لوقت امتد من عيد القديس مارتن حتى عيد القديس نيقولا مقابل نفقات باهظة، استسلمت البلدة للويس، شرط الحفاظ على الحامية، وعلى ممتلكاتها وخيولها وأسلحتها، وهكذا جرى التنازل عن البلدة، فعمل روبرت فتز - وولتر طلباً بتسليمها له، قائلاً بأن المسؤولية عنها عائدة إليه بموجب حق قديم، ثم

سأل لويس رأي الفرسان الفرنسيين حول هذه القضية، فأخبروه بأن البارونات الانكليز غير جديرين بتولي المسؤولية عن مثل هذه الأماكن، لأنهم خونة لمليكهم، وبناء عليه أخبر لويس روبرت المذكور بأن عليه الانتظار صابراً حتى يكتمل اخضاع المملكة، فوقتها سوف يعطي لكل واحد حقوقه.

وفي هذا العام نفسه، وفي يوم عيد القديسة كاترين القديسة والعذراء، أطلق سراح النبيل وليم دي ألبيني وخرج من السجن، بعدما دفع غرامة قدرها ستة آلاف مارك فدية عن نفسه، ثم إنه قدم الولاء إلى الملك هنري، الذي عهد إليه بولاية قلعة لافورت، التي حافظ عليها بنشاط.

الاستيلاء على قلعة بيركها مبستد

وبعد الاستيلاء على قلعة هارتفورد، كما ذكرنا أعلاه، زحف لويس في يوم عيد القديس نيقولا إلى قلعه بيركهامبستد، وأحاط بها بآلات حربه، وأثناء قيام البارونات الانكليز بنصب خيمهم، وكانوا يسعون لإقامتهم بانتظام، قام فرسان وجنود الحامية بهجوم مباغت، استولوا فيه على الأثقال وعلى حاجيات البارونات، وتملكوا راية وليم دي ماندفيل، وعادوا بها إلى القلعة، آسفين أنهم لم يتمكنوا من إلحاق أضرار أكبر بهم، وفي اليوم نفسه، عندما كان البارونات جالسين عند المائدة، قام فرسان وجنود الحامية ثانية بانقضاض، ولكي يوقعوا البارونات بالاضطراب، حملوا أمامهم الراية التي كانوا قد استولوا عليها قبل وقت قصير، وفكروا بمهاجمتهم وهم غارين، لكن هؤلاء البارونات جرى انذارهم قبل وصولهم، ولذلك طردوهم وأعادوهم إلى القلعة، وفي فجر اليوم التالي أمر لويس بالمجانيق وببقية آلات الحرب، فنصبت من حول المدينة، وما أن فرغوا من ذلك حتى داوموا على رميها بزخات من الحجارة المدمرة، لكن فالران Walleran ، وكان ألمانيا واسع الخبرة

بشـؤون الحرب، عمل مقاومـة شجاعـة ضـدهم، وأوقع مذبحـة كبيرة وسط الفـرنسيين المحـرومين كنسيـا، وأخيراً على كل حـال قـام فـالران المذكـور بتسليم القلعـة بعد حصـار طويل، وجـاء تسليمـه لها بناء على أوامـر الملك، وقــد أعطاها إلى لويس مستثنيـا خيــول رجـال الحاميـة وسـلاحهم، وكان ذلك في العشرين من كـانون الأول، وفي اليوم التـالي الذي كـان عيد القديس تـوماس، ذهب لويس، بعـدما وضع أتبـاعه في القلعـة، إلى القـديـس ألبـان، وطلب من راعي الدير تقــديم الولاء له، وعلى هذا أجـابه راعـي الدير بأنه لن يقـدم الولاء لـه حتى يتحـرر من الولاء الذي عمله إلى ملك انكلترا، وقـد غضب لويس من ذلك كثيراً، وأقسم بأنه سـوف يحرق الدير والبلدة كلها، مالم يفعـل الذي طلبه منه، وأخيراً أعطى راعي الدير المذكــور إلى لويس غـرامـة عـن نفســه وعن البلدة، وجـاء ذلك بعـدمـا تلقـى تهديداً عظيماً، وبناء على وسـاطة سير Sayr ايرل وينكستر، وحصل على هدنـة من لويس حتى عيــد طهـارة العذاراء، وبعدمـا دفع له ثمانية ماركات من الفضـة، وبناء على هذا عاد لويس إلى مدينة لندن.

حوادث تتعلق بأرض الميعاد

وفي العام نفسه، ولدى انتهـاء الهدنة المعمولة بين الصليبيين في أرض الميعاد والمسلمين، وأثناء العبور الأول، بعـد المجمع المسكوني الذي عقد في اللاتيران، احتشد جيش الرب في قوة عظيمة في عكا تحت قيادة ثلاثة ملوك هم: ملك القــدس، وملك هنغـاريا، وملـك قبرص، وكـان بين الحضور دوق النمسـا، ودوق بوهيميا مع أرتال طويلة من الفـرسان من مملكة ألمانيا، وذلك مـع عدد من الكونتات ورجـال من مختلف المراتب، وكـان مـوجوداً رؤسـاء أسـاقفـة نيقوسيـا، وسـالزبورغ Salzburgh وآرجيا Argia، وهنغـاريا، وبيـوكس Bayeux، وباورج Bawerge، وسيسينو Ciceno، ومنستر Munster، وأوترخت، وكان معهم النبيل

والقوي وولتر دي أفيني Avennes ، وبالاضافة إلى هؤلاء بطريرك القدس، الذي حمل بتواضع كبير، وسط رجال الدين والناس، وبتبجيل رمز الصليب المانح للحياة، وقد انطلق خارجاً من عكا في اليوم السادس بعد عيد جميع القديسين، يؤم معسكر جيش الرب، الذي كان قد ذهب إلى خربة كرداني Recordana، وكانت هذه قطعة من صليب الرب حفظت مخفية، بعد فقدان الأرض المقدسة، والذين أخفوها هم من الصليبيين، وقد أخفوها حتى هذه الأيام، لأنه في أيام الصراع بين المسلمين الصليبيين في أيام صلاح الدين، جرى قطع الصليب، حسبما سمعنا من شيوخنا، وقد حملت قطعة منه إلى القتال، وهذه القطعة هي التي ضاعت هناك، لكن القطعة التي بقيت أخفيت، والآن أظهرت وعرضت، وقد زود بها جيش المؤمنين لتكون راية له، وقد زحف خلال سهل الفولة Faba إلى نبع طوبانيا Tubannia، وعانى الجيش من زحفه كثيراً في ذلك اليوم، وأرسل الكشافة للاستطلاع، حيث شاهدوا غباراً تسبب بإثارته العدو، لكنهم كانوا غير متأكدين فيما إذا كان الأعداء متراجعين، أم متقدمين للتصدي لهم، وزحفوا في اليوم التالي بين جبال جلبوع التي كانت على يمينهم، وبحيرة على يسارهم، ووصلوا إلى بيسان حيث كان العدو معسكراً، وخاف العدو من دنو جيش الرب الحي، لأنه كان جيشاً كبيراً، ويزحف بانتظام رفيع، وقوض العدو خيمه، وهرب، تاركاً المنطقة عرضة للسلب والنهب من قبل جنود المسيح، وفي عشية عيد القديس مارتن (٧ -تشرين ثاني) عبر جيش المؤمنين نهر الأردن، وقد استحم أفراده في ذلك النهر، واستراحوا هناك بهدوء لمدة يومين، حيث وجدوا وفرة من المؤن، وعملوا هناك ثلاث محطات على طول ساحل بحيرة طبرية، وعبروا خلال الأماكن التي تلطف ربنا فعمل بها معجزاته، وتحادث بشخصه مع الناس، وشاهدوا بيت صيدا، التي هي مدينة أندرو، وبطرس، واستولوا على حصن صغير، ورأوا أيضاً الأماكن التي دعا فيها المسيح تلاميذه، وسار فوق

الماء بقـدمين حـافيتين، وأطعم الحشود في الصحـراء، وذهب إلى الجبـال للصلاة، وحيث أكل بعـد قيامته مع تلاميـذه، ثم إنهم عادوا عبر طريق كفر ناحوم إلى عكا وهم يحملون مرضاهم معهم.

وعملوا بعد هذا حملة ثانية، وزحفوا نحو جبل الطور، حيث واجهوا أولاً ندرة في الماء، لكن بعـد ذلك عثـروا على وفـرة عن طريق الحفـر، وفقد مقدمو الجيش كل أمل في الصعود إلى الجبل، حتى جرى اخبارهم من قبل غـلام مسلم بأنه من الممكـن الاستيـلاء على القلعـة، ولذلك عقـدوا اجتماعاً، وفي يوم الأحـد الأول لشهـر قدوم الرب (٣ -كـانون أول)، عندمـا جـرت قـراءة قـولـه في الانجيل: «اذهبـا إلى القـرية التي أمامكما» (متى: ٢١/ ٢)، مضـى البطريرك في المقدمة مـع رمز الصليب، ووسط الصلوات، وانشـاد الترانيم من قبـل الأسـاقفـة ورجـال الدين، وصل الجيش إلى جانب الجبل، ومع أنه كـان وعراً من كل جانب، وبدا أنه لايمكن تسلقه، إلاّ بـوساطة ممر ملتوي، على الرغـم من ذلك تسلقه الجميع غير هيـابين، وتمكن جون ملك القـدس، مع جنوده، من ترجيل قسطلان القلعة عن فرسه مع أمير، وكانا أول من هاجم العدو وتصدى له خارج الأبواب، وكانا يرغبان بالدفاع عن الجيب، وقد أربكاهما كثيراً وأرغماهما على الفـرار، لكن الفخـار الذي حصل عليـه الملك وناله أثناء تسلقه للجبل، قـد ضيعه في النزول، لأن عدداً مـن الداوية والاسبتارية والعلمانيين أصيبـوا بالجراحـة، عندمـا استرد العدو شجـاعتـه، علماً بأن عدداً قليلاً قد قتل في هذه الحملة، وكـذلك في الحملة المتقدمة التي أتينا على ذكـرها، وقـد أحضر الصليبيـون معهم عـدداً كبيراً مـن الرجـال، والنسـاء، والأطفـال، إلى عكا، حيث تولى الأسقـف تعميـد جميع الذين قـدر على السيطرة عليهم بـالالتماسـات، أو بالمال، ووزع النسـاء بين الراهبات، وأمرهن بتعليمهن القراءة.

وفي الحملة الثـالثـة التي لم يكن البطريرك مـوجـوداً فيهـا مع رجـال

الدين ورمز الصلب، عانى جيش الايمان من المصاعب، ومن اللصوص وقطاع الطرق ومن قسوة الشتاء، ولاسيما عشية عيد الميلاد، فعندما كان رجال الجيش يزحفون، أزعجتهم الأنواء بعواصف الريح والمطر، في أحواز مدينة صور، وصيدا، وقرب الصرفند أيضاً، وقد واجهوا الكثير من المشاق، وعانوا من قسوة المناخ جسديا.

كيف فكر بارونات انكلترا مليا حول الحالة التعيسة لشؤونهم

عام ١٢١٧م، فيه كان الملك الصغير هنري أثناء عيد الميلاد في بريستول، برفقة والو، النائب البابوي، ووليم مارشال الوصي على الملك والمملكة، وتوفر في ذلك الحين الكثير من النقاش والحيرة بين بارونات انكلترا، حول أي حاكم يتوجب أن يعهدوا إليه بأنفسهم، هل هو هنري الصغير، أم لويس، ولأنهم عوملوا بشكل سيء كثيراً من قبل الفرنسيين، قام كثير منهم برفض مساعدتهم، وتضاعفت هذه الانفعالات العاطفية والدوافع المثيرة وازدادت بأعمال لويس نفسه الذي لم يقم وزنا لأيمانه وتعهداته، حيث أنه على الرغم من شكاويهم احتفظ بين يديه بأراضي وممتلكات وقلاع البارونات المذكورين، التي أخضعها بمساعداتهم، ووضع فرسانا أجانب وأناساً غرباء مسؤولين عنهم، هذا من جانب ومن جانب آخر، بدا أمراً مهيناً بالنسبة إليهم العودة بولائهم إلى ملك هم تخلوا عن الولاء له، خشية أن يعدوا مثل كلاب عائدة إلى قيئها، وفي وضعهم الصعب هذا من كل جانب لم يكن بامكانهم اصلاح أحوالهم المحطمة.

وفي العام نفسه، في العشرين من كانون الثاني قام فرسان وجنود حامية قلعة مونتسوريل Montsorrel بغارة لسلب ونهب المنطقة، لكن فرسان نوتنغهام علموا بمحاولتهم عن طريق كشافتهم، فخرجوا للتصدي لهم، واشتبكوا معهم بالقتال، فأسروا عشرة فرسان، وأربعة وعشرين جندياً، من الفئة المعادية، وقتلوا ثلاثة، وبعد ذلك عادوا

منتصرين.

كيف نهب فالكاسيوس بلدة سانت ألبان

وفي العـام نفسه، في الثـاني والعشرين من كـانون الثاني حشـد اللص الشرير فـالكاسيـوس قوة من الفـرسـان واللصـوص من حـامية قـلاع اكسفورد، وبدفورد، وويندسور، وتوجـه إلى سانت ألبان، وكان التاريخ هو ليلة عيد القديس فينسنت Vincent، حيث وصل عند المساء، وقام بهجـوم غير متـوقع على المكان، فنهبـه، واتخذ أسرى من الرجـال والأطفـال، وأودعهم في سجن مضيق عليهم، وقتل عند باب الكنيسـة بالذات واحداً من أتبـاع البلاط كان يسعى للالتجاء إلى الكنيسـة، وبعد اقتراف هذه الجريمـة الشريرة من قبل أولئك وكـلاء الشيطان، أرسل أوامـر قضت بوجوب أن يرسل إليـه وليم راعي الدير على الفـور مائـة باوند من الفضة، أو أنه سـوف يتولى على الفور إحـراق البلدة كلها، مع الدير والأبنيـة الأخرى، وبناء على ذلك، دفع له راعي الدير، بعـد كثير من التردد، المبلغ، ذلك أنه لم يكن أمامـه مخرج آخر، وقام فـالكاسيوس بعد هذا ومعه رفاقه المحرومين كنسيا، فأسرع مبادراً معهم وهم يحملون السلاح، يؤم قلعة بدفورد، حيث أخـذ معه أسلابه وأسراه، وزحـف من ذلك المكان مع أتباعه إلى غابة وولبورغ Walburg، وأسر هناك روجر دي كولفيل Colevilleوستين من رجال الدين والعلمانيين معـه، كانوا متخفين هناك من أجل جمع الأسلاب.

معاهدة بين ملك انكلترا وبين لويس

وفي هذه الآونة، جلب الرسل الذين ذهبـوا لصـالح لويس إلى بلاط روما، رسـالة له، أنه مالم يغادر انكلترا، فإن قـرار الحرمان الكنسي الذي تفوه به والو النائب البابوي ضده، سوف يجري تثبيته في يوم عيد عشاء الرب، وبناء على هذا عقـدت هدنة فيما بين لويس والملك هنـري تمتـد

حتى شهر الفصح، وبموجب هذه الهدنة جرى الاتفاق على إبقاء كل شيء حتى ذلك التاريخ، على حاله كما كان يوم الحلف على الهدنة، وذلك فيما يتعلق بكل من القلاع والممتلكات الأخرى، وبعدها عبر لويس البحر أثناء الصوم الكبير، وباقدامه على هذه الخطوة لم يحظ ثانية بثقة ومحبة بارونات انكلترا، كما حصل من قبل، لأنه من هذه الفئة، عاد: وليم ايرل أوف سالسبري، ووليم ايرل أوف آرونديل، ووليم ايرل وارني، وآخرون كثر، على الفور، إلى ولائهم إلى الملك هنري، وارتبطوا بقضيته منذ ذلك التاريخ، ودعا مجددا المارشال الكبير ابنه الأكبر، وليم

وقيسارية، وهي ليست بعيدة عن البحر، ولهذا السبب، فإن الذين صعدوا على الطريق الضيق ونزلوا، وهم قاصدون للقدس سموها «District »، وعلى رأس منافع هذه القلعة وفوائدها، أن فرسان طائفة الداوية بعد مغادرتهم لمدينة عكا، التي كانت مليئة بجميع الذنوب والآثام، رغبوا بالإقامة بها حتى ترميم أسوار القدس، وكانت المنطقة المحيطة بها مليئة بوفرة بمصائد السمك، والبحيرات، والغابات، والمراعي، والمروج، والحقول، والأعشاب، والكروم، والحدائق والبساتين، ولم يكن المسلمون متملكون لأية بلدة فيها بين عكا والقدس، لذلك عانوا في سبيلها من خسائر كبيرة، وعلى بعد ستة أميال من جبل الطور، فيما بين القدس ونهر الأردن، يوجد ميناء طبيعي جيد، ولذلك ليس بامكان المسلمين الزراعة ولا الفلاحة في السهل الواسع القائم بينهما، لأنه موجود تحت حماية هذه القلعة، وبعد مافرغ جيش الرب من تحصين هذه القلعة، عاد إلى عكا.

العلامات في السماء التي أثارت مقاطعة كولون للمساعدة في الحملة الصليبية

في شهر أيار من هذه السنة، وفي اليوم السادس قبل أحد الشعانين، استيقظت مقاطعة كولون لأداء واجبها إلى المخلص، فقد ظهر في بلدة بيبون Bebon في فريزلاند، في السماء شكل الصليب في ثلاثة أماكن، واحد متجه نحو الشمال ولونه أبيض، وآخر باتجاه الجنوب له الشكل نفسه واللون، والثالث في وسط لون مظلم، على شكل صليب، وجسد انسان ممدد عليه مع ذراعين مرفوعين وممدودين، ومع مسامير مغروسة خلال القدمين واليدين، والرأس مطأطىء نحو الأسفل، وكان هذا الثالث في الوسط بين الاثنين الآخرين، وعلى الاثنين الآخرين لم يظهر تمثال جسد انسان، وفي وقت آخر ومكان آخر أيضاً، أي في بلدة في فريزلاند اسمها فوسرهوز Fuserhuse ، ظهر قرب الشمس هناك،

صليب له لـون أزرق، وقـد رآه أنـاس أكثـر من الذين رأوا الصلبـان المتقدم ذكرهم، وظهـر صليب ثالث في بلدة اسمها دوكثام Doctham حيث كان القديـس بونيفيس قد تتوج بالشهادة، وكـان قد تجمع في عيد الشهيد المذكـور، آلاف كثيرة من الناس مع بعضهم، وكان وقتها مـرئياً صليبـاً أبيض كبيراً، وكـأن لوحين قـد وضعـا عبر بعضهما بشكل اصطناعي، وقـد تحرك هذا الصليـب بشكل تدريجي من الشمال نحـو الشرق، وقد رأى ذلك عدة آلاف.

حصار قلعة ماونتسوريل

وفي العام نفسه، احتشد بعـد الفصح، بناء على أمر من وليم مارشال الوصي على ملك ومملكـة انكلترا، من أجل القـاء الحصـار على قلعـة مـاونتسـوريل Mountsorel: رالف ايرل شيستر، ووليم ايرل ألبيمارل Albemarle، ووليم ايرل فيرار Ferrars ، وروبرت دي فيبـونت Vipont، وبرين دي لى آيل، وو. W دي كـانتـلأب Cantelupe، وفيليب مارك Marc، وروبرت دي غوغي Gaugi ، وفالكاسيوس مع ولاة قلاعه، وعدد كبير آخر من حاميات القلاع المختلفة، وقد قاموا على الفـور بترتيب آلات حـربهم في مواضع منـاسبة، وطوقـوا القلعـة، وكـان آمـر الموقـع هنري دي بريبروك Braybrooke ، وكان هناك معه عشرة فرسان، وكانوا رجـالاً ذوي شجاعة كبيرة، وعدد من الخدم، الذين ردوا بشجـاعة على مهـاجميهم الحجر بحجـر، والسلاح بسـلاح، وقام المحـاصرون بعدما دافعـوا عن القلعة لعـدة أيام، وخشية منهم أن يتعرضوا للحاجة للمؤن، من خـلال حصار طويل، قاموا بمراسلة سير Sayr، الذي كـان وقتذاك في لندن، يرجـونه للقدوم فـوراً لمساعـدتهم، ووقتهـا ذهب الايرل المذكـور - الذي كـانت القلعـة عائـدة إليـه -إلى لويس، الذي كان قد عاد مؤخراً إلى لندن، من مقاطعات ماوراء البحر، وطلب منه أن يرسـل بعض المسـاعـدة، حتى يمكن بـوسـاطتهـا رفع

الحصار، وبعد التشاور فيها بينهما، وصلا إلى قرار إرسال قوة من الفرسان لرفع الحصار، ولاخضاع المنطقة كلها إلى لويس، وتنفيذا لهذه الخطة، خرج من مدينة لندن ستمائة فارس، وأكثر من عشرين ألف من الجنود،الذين اشتهوا تملك أملاك الآخرين، وكان هذا الرتل تحت قيادة كونت أوف بيرشي Perche آمر الجيوش بفرنسا، وسير ايرل وينكستر، وروبرت فتز -وولتر، مع عدد كبير آخر قدروا أنهم أهل لقيادة الحملة، وقوضوا مخيمهم في الثلاثين من نيسان، وكان ذلك يوم اثنين هو التالي قبل صعود ربنا، وزحفوا إلى القديس ألبان، وقد نهبوا كل مكان مروا به وعبروه، وتجول هؤلاء اللصوص الفرنسيون وقطاع الطرق في أرجاء البلدات ولم يوفروا لا كنيسة ولامقبرة ،واعتقلوا الناس من السكان من كل مرتبة، وبعدما عذبوهم بشكل مريع، استخرجوا منهم غرامات ثقيلة، أما بالنسبة لدير القديس ألبان، الذي كان قد دفع راعية قبل وقت قصير ماأرضى به لويس، بمبلغ كبير من المال، فقد نجا من أيدي اللصوص، حيث أنهم لم يستولوا على شيء سوى اللحم والشراب.

معجزة صليب الرب

ونقلوا في التالي معسكرهم، وزحفوا نحو بلدة دنستيبل Dun-stable، وفي بلدة رد بورن Redbourn، نهبوا كنيسة القديس أمفيبالوس Amphibalus ، وجردوا الرهبان حتى من ملابسهم الداخلية، واخذوا أيضاً آثار القديسين من فوق المذبح الكبير، ودنسوهم بأيديهم غير التقية، واستولى أحدهم على صليب مزين بالفضة والذهب، وكان يحتوي في داخله على قطعة من صليب مولانا، وخبأه في صدره دون أن يعرف ذلك رفاقه، وحدث أنه قبل أن يغادر القلاية تلبسه شيطان، فسقط أرضاً وهو يصر بأسنانه، ويخرج الزبد من فمه، ثم إنه نهض بسرعة بناء على إثارة الشيطان له، وسعى إلى ضرب أصحابه بسيفه، وقد أشفق هؤلاء على آلامه، وربطوا يديه، ودون أن يعرفوا

سبب ماحدث له، أخذوه إلى كنيسة فلامستد Flamstead في حالة من الجنون المخيف، ولدى دخول أولئك اللصوص إلى تلك الكنيسة بقصد نهبها، تصدى لهم كاهن، كان مرتديا لثوب أبيض، وقد أراد إيقاف الشيطان المتلبس لأولئك الرجال غير الأتقياء، ونظراً لخوفهم على رفيقهم المجنون الذي جلبوه معهم، توقفوا عن النهب، وهناك بحضور الرئيس وعدد كبير آخر، قفز الصليب المذكور خارجاً من صدر الرجل المجنون، وسقط على الأرض، وتناوله الرئيس ورفعه بكل احترام ودهشة، وأمسك به، وسأل اللصوص عنه، وتمكنوا أخيراً بعد تقدير للأمر وتفحص من أن يعرفوا، وكان ذلك بوساطة زيارة الرب هذه، بأنه قد سلب بشكل اجرامي من الرهبان الذين نهبوهم في البلدة المجاورة، وكانوا جميعا في حالة من الارتباك والخوف، خشية أن تتلبسهم روح الشيطان، وأن تتولى تعذيبهم، كما فعلت برفيقهم، ولذلك قاموا وهم يشعرون برعب كبير بإعطاء الصليب إلى الرئيس، ورجوه بفضيلة الرب، وبخوفهم من طائفته، أن يقوم قبل أن يتناول أي طعام، فيذهب إلى المكان، ويعيد الصليب إلى الرهبان، وبناء عليه ذهب الرئيس بكل سرعة إلى قلاية القديس أمفيبالوس، وسلم الصليب بكل احترام، وروى حكاية الحوادث الاعجازية المتعلقة به، إلى رئيس الرهبان وإلى الرهبان.

رفع الحصار عن قلعة مونتسوريل وحصار قلعة لنكولن

وصل جيش لويس وبارونات انكلترا إلى دنستيبل، وهناك أمضوا الليل، وفي الصباح زحف نحو الشمال، مسرعاً للتفريج عن قلعة منتسوريل المتقدمة الذكر، وعلم بهذا الزحف رالف ايرل أوف شيستر مع الآخرين الذين كانوا يحاصرونها، وقد أخبرهم بذلك كشافتهم، ولذلك رفعوا الحصار، وتراجعوا إلى قلعة نوتنغهام، حيث قرروا مراقبة تقدم أعدائهم، وعندما وصل البارونات إلى قلعة مونتسوريل،

وبعـد مـا نهبــوا— وفقـاً لطبـائعهم المعتـادة— المقـابر والكنائس على طريقهم، تقـرر بموافقـة الجميع متابعـة الزحف إلى لنكولن، حيث تولى غيلبرت دي غانت مع البـارونات الآخرين الذين تقدم ذكـرهم أعلاه، حصـارها [مـونتسـوريل] لوقـت طويل دونما نجـاح، ثم إنهم قـامـوا بالزحـف خـلال وادي بلفيـور Belvoir وهناك سقط كل شيء بأيدي هؤلاء اللصــوص، وذلك بحكم أن جنود مملكة فـرنسـا الذين كـانوا حثـالة تلك البلاد وخبثهـا، هم لم يتركـوا شيئاً دون أن يدمـروه، ولذلك كان فقـر الناس وتعاستهم هائلة جـداً إلى حد أنهم لم يجدوا من الملابس مـا فيه كفـاية لستر عوراتهم، ووصلوا أخيراً إلى لنكولن، وقـام البارونات بهجمات حـادة على القلعة، وفي الوقت نفسـه رد المحاصرون على رماياتهم من الحجارة والنشاب بـزخات من الحجارة ومن الأسلحة القاتلة بشجاعة عظيمة.

كيف حشد ملك انكلترا جيشاً لرفع الحصار عن قلعة لنكولن

وأثناء وقوع هذه الوقائع، قام وليم مارشال، الوصي على الملك وعلى المملكة، بناء على نصيحـة والو النائب البـابوي، وبطرس أسقف أوف وينكستر وآخرين كانت بآرائهم تترتب أمور المملكة وتدار، بجمع جميع ولاة القـلاع العائـدة إلى الملك مع الفرسـان الذين كانوا مسـؤولين عن القـلاع في مختلف أنحـاء المملكة، وأمـرهم—بناء على أمـر الملك— بالاحتشاد في نيو آرك، في اليوم الثاني من اسبوع عيد الشعانين، ليزحفوا من هناك معهم لرفع الحصار عن قلعـة لنكولن، وكانوا يتحرقـون رغبة للالتحـام مع الفـرنسيين المحـرومين كنسيـاً، وليقـاتلوا أيضـاً في سبيل بلادهم، وقـد وصلوا مسرورين إلى المكان المحـدد مـن قبل، في الوقت المعين، ووصل معهم النائب البـابوي نفسـه، وعدد كبير مـن الأساقفـة الآخـريـن للمملكة، مع خيـول وجنود، للهجـوم بالأدعيـة وكـذلك بالسلاح على أولئك العصاة لمليكهم والمتمرديـن على مولاهم البابا، فقد

بدا الأمر بالنسبة إليهم أنهم يمتلكون قضية عادلة للقتال من أجلها، ولا سيما أن ملكهم كان بريئاً، وبعيداً عن الذنوب، هذا الملك الذي يسعى الأعداء بصلفهم لحرمانه من ميراثه، وعندما احتشدوا جميعاً مع بعضهم، لوحظ وجود أربعمائة فارس في ذلك الجيش، وذلك مع حوالي مائتين وخمسين من رماة القسي الزيارة، وكان أيضاً موجوداً حشد لا يحصى عدده من الأتباع والخيالة، الذين يمكنهم في وقت الحاجة القيام بواجبات الجنود، وكان قادة هذا الجيش: وليم المارشال، ووليم ابنه، وبطرس أسقف وينكستر، وكان رجلاً بارعاً في فن الحرب، ورالف ايرل أوف شيستر، ووليم ايرل أوف سالسبري، ووليم ايرل فيرار، ووليم ايرل أوف ألبيمارل، وكان هناك أيضاً من البارونات: وليم دي ألبيني، وجون مارشال، ووليم دي كانتلو(ورداسمه من قبل: كانتيلوب) ووليم ابنه، وفالكاسيوس الشهير، وتوماس باسيت، وروبرت دي فيبونت، وبرين دي آيل، وفيليب دي ألبيني، مع كثير من ولاة القلاع المجربين بالحرب، وقد أقاموا ثلاثة أيام عند نيوآرك حتى تستجم الخيول وينتعش الرجال، وشغلوا بالوقت نفسه أنفسهم بالاعتراف، وبتقوية، أجسادهم بالمشاركة بدم وجسد مولانا، سائلين إياه حمايته ضد حملات أعدائهم، وهكذا كانوا جميعاً جاهزين لمواجهة المخاطر، وقد قرروا الحصول على النصر أو الموت في سبيل القضية العادلة.

كيف عندما احتشد جيش الملك شجع النائب البابوي رجاله جميعاً من أجل المعركة

وبعد أمد، نهض النائب البابوي، في اليوم السادس من اسبوع الشعانين، بعد إقامة قداس قربان مقدس، وأوضح للجميع، كيف أن قضية لويس كانت قضية غير عادلة ومعه أيضاً البارونات الذين التحقوا به، ولهذا السبب حرموا كنسياً، وصاروا غرباء بالنسبة لجماعة

الكنيسة، ولكي يشجع الجيش للقتال، وضع عليه أرديته البيضاء، وقام مع جميع رجال الدين الذين كانوا هناك بإعلان الحرمان الكنسي للويس بالاسم مع جميع المتعاونين معه ومشجعيه، وبشكل خاص أولئك الذين كانوا يتابعون حصار لنكولن ضد ملك انكلترا، مع جميع المقاطعات، في الداخل وفي الخارج، وأما بالنسبة للذين تولوا القيام بالمساعدة في هذه الحرب شخصياً، فقد منحهم بوساطة السلطة المخولة إليه من الرب القديرومن الكرسي المقدس، غفراناً كاملاً من جميع ذنوبهم، التي عملوا عنها اعترافاً صحيحاً، وكجائزة للصالحين، وعدهم بثواب خلاص سرمدي، ثم إنهم بعدما تلقوا جميعاً التحليل، ومباركة الرب، طاروا إلى السلاح، وامتطوا خيولهم على الفور، وقوضوا معسكرهم وكلهم سرور، ولدى وصولهم إلى ستو Stoue على بعد ثمانية أميال من لنكولن، أمضوا الليلة هناك من دون خوف، وجرى في الصباح تشكيل سبعة أفواج كثيفة وحسنة التكوين، وزحفوا ضد الأعداء، وكانوا يخشون فقط من أن يهرب هؤلاء الأعداء قبل وصولهم إلى المدينة، وسار حملة القسي الزيارة، طوال الوقت، أمام الجيش بمسافة تقارب الميل، وسارت عربات الأثقال ودواب التحميل خلف الجيش في الساقة مع المؤن والحاجات الضرورية، وفي الوقت نفسه رفرفت الرايات ولمعت الترسة في جميع الاتجاهات، وألقت الرعب في قلوب الذين رأوهم.

كيف خرج البارونات من مدينة لنكولن واستطلعوا جيش الملك

وكان البارونات الذين كانوا في المدينة مع الفرنسيين قد شعروا بثقة كبيرة، واطمئنوا إلى نجاحهم في مسألتهم، إلى حد أنه عندما أخبرهم رسلهم بوصول خصومهم ضحكوا منهم واستخفوا بهم، واستمروا في رمي قذائفهم من مجانيقهم لتدمير أسوار القلعة، لكن روبرت فتز—وولتر، وس.S إيرل أوف وينكستر، عندما رأيا بأن جنود

العدو باتوا قريبين من المدينة، خرجا لمراقبة وصولهم ولتعدادهم، وبعدما أكملا عملية مسح دقيقة وتقدير للعدو الواصل، عادا إلى المدينةإلى رفاقهما، وأخبراهم قائلين:«إن العدو المقبل ضدنا هو في تعبئة جيدة، لكننا أكثر منه بكثير،ولذلك فإننا نرى وجوب خروجنا من المدينة لتسلق الرابية للتصدي له، لأننا إذا فعلنا ذلك سوف نمسك أفراده مثل طيور القنبرة»، وجواباً على ما قالاه، قال كونت أوف بيرشي، وناظر الجيش وآمره: «لقد عددتموهم وفقاً لرأيكما، ونحن سوف نخرج الآن ونقدر تعدادهم وفق الطريقة الفرنسية»، وخرجا لاستطلاع الجيش المقبل للملك، وفي تقديرهما له انخدعا، لأنهما عندما رأيا العربات والأثقال في ساقة الجيش، مع الحرس الذين تبعوا الأرتال التي كانت معبأة من أجل القتال، اعتقدوا أن هؤلاء لوحدهم شكلوا جيشاً قائماً بذاته، لأنهما شاهدا حشداً كبيراً من الناس، مع أعلام خفاقة، لأن كل واحد من النبلاء كان معه علمين، علماً—كما تقدم وقلنا—كان يتبع العساكر على مسافة في الساقة مع الأثقال، وعلماً آخر كان يتقدم أمام أشخاص كل واحد منهم، حتى يكونوا معروفين عندما يشتبكون في القتال، وعلى هذا انطلت الخديعة على كونت بيرشي مع ناظر الجيش، وعادا في حالة من الشك وعدم التأكد، إلى رفاقهما، ولدى عودتهما إلى المدينة اقترحا على أصحابهما الخطة التالية، ولم يعترض أصحابهما على ما أشارا به، وكانا قد اقترحا تقسيم النبلاء حتى يمكن حراسة الأبواب، ومنع العدو من الدخول منها، حتى يتمكن الآخرون من الإستيلاء على القلعة، الأمر الذي سوف ينفذ فوراً، وقد وافق كثيرون على هذه الخطة، لكن بعضهم لم يوافق عليها، ثم إنهم تدبروا حماية الأبواب، فعينوا حرساً لهم واستعدوا من أجل الدفاع.

المعركة التي نشبت عند لنكولن ويسميها بعضهم«العادلة»

واقترب جيش الملك في الوقت نفسه من الجانب الأقرب من القلعة،

وعندما انكشف ذلك قادة القلعة أرسلوا رسـولا خرج من باب خلفي للقلعـة ليخبر قـادة الجيش بالذي قـد عمـل في الداخل، وأخبرهم هذا الرسول أنهم إذا ما رغبوا فبإمكانهم الدخول إلى القلعة بتلك الطريقة، لكن أرسلوا فالكاسيوس مع جميع الفـرقة التي كانت تحت قيادته، وكل رماة القسي الزيـارة، ليقوموا بالعمل على شـق طريق بالقوة خـلال أحد أبواب المدينة ليـدخل منه الجيش، ثم زحـف الجيش كله نحـو البـاب الشمالي، وسعى نحـو الاستيلاء عليه وفتحـه بالقوة، ولم يعبأ البـارونات بذلك ، بل تابعـوا رمي الحجـارة الثقيلة من مجانيقهم ضـد القلعـة، وفي تلك الأثناء كـان فالكاسيـوس قـد دخل إلى القلعة مع جماعـة العساكـر التي كانت تحت قيادته، ومعهم رمـاة القسي العقارة، ومركـزهم بشكل مفاجيء على أسطحـة الأبنيـة وعلى الشرافـات، حيث من هناك رمـوا بأسلحتهم القاتلة ضـد المهاجمين من البارونات، فكان أن ألقـوا بالخيول وبركابها على الأرض، وهكذا تمكنوا بطرفـة عين من رمي قوة كبيرة من الجنود الرجالة، والفـرسان والنبلاء، وعندما رأى فـالكاسيوس أن عدداً كبيراً، أكثرهم من نبلاء الأعـداء، قد ألقى بهم على الأرض، شق طريقه بجرأة مع أتباعه واندفع مـن القلعة إلى وسط الأعداء، وقد وقع —على كل حال— أسيرا في أيدي الأعداد الكبيرة التي انقض عليها، وأخذوه، حتى جرى انقاذه بوسـاطة شجاعة رماة القسي العقـارة لديه والفرسان، وتمكنت الكتلـة الكبرى من جيش الملـك، في الوقـت نفســـه مـن شق طريقهـا بالقوة خـلال الأبواب، وانقض رجالها بشجـاعة على الأعـداء، وشوهد شرر النار وهو يتطاير، وسمعت الأصوات وكأنها رعود مخيفة، وهي صـادرة عن ضربات السيـوف على خـوذات الرؤوس، لكن الذي حدث أخيرا هوأنه بوساطة رمـاة القسي العقارة، الذين ببراعتهم عقرت الخيـول ورميـت أرضـاً وقتلت مثل خنازيـر، أخـذ حـزب البـــارونات يضعف كثيراً، لأنـه عندمـــا كبـت خيـــولهم وقتلت، وقـع المتطون لها أسرى، لأنه لم يكن هنـاك من ينقـــذهـم، ثم إنه أخيراً عندمـــا ضعف

الباورونات على هذه الصـورة، ووقعت أعداد كبيرة من جنودهم أسرى، وجرى وضعهم في أمـاكن أمينة، انقض فرسان الملك بصفـوف متراصة على كونت بيرشي، وطوقـوه تماماً، وبما أنه لم يعد بإمكانه الصمـود أمام اندفـاعهم القوي ضـده، دعـوه إلى الاستسلام حتـى ينجو بحيـاته لكنه أقسم أن لا يستسلم لانكليـزي، لأن الانكليـز خـونه لملكهم الشرعي، ولدى سماع ذلك انقض عليه فارس وطعنه بعينه،فخـرق دماغه، فسقط إثر ذلك دون التفـوه بكلمـة أخـرى، وعندما رأت الكتـائب الفـرنسيـة مقتل قائدها، شرعت بالفرار، وشـارك في ذلك الجنود الخيالة والرجالة، مع خسائـر كبيرة، لأنه مزلاج الباب الجنوبي ، الذي شرعـوا بالفرار من خلاله، كان قد وضع بشكل معكوس، مما أعاق فرارهم كثيراً، لأنه كان عندمـا أي واحد يصـل إليه، ويرغب بالخروج مـن خلال ذلك البـاب، كان يرغم على الترجل من على ظهـر حصانه، وبعد عبوره، كـان الباب ينغلق ثانيـــة، ويسقط المزلاج من جـديد عبر البـاب كما كـان من قبل، وهكذا شكـل هذا معيقـــاً كبيراً، وسبب اضطـراباً عظيماً للفـــارين، ولاحقت قوات الملـك الباورونات والفرنسيين الفـارين، ومع أن بعضهم وقعـوا أسرى، فـإن رجـال الملك تظاهـروا فقط بمطاردتهم، ولولا أنهم فعلوا ذلك بحكم العلاقات والقرابـات، ما من واحد منهم كان يمكن له النجـاة، ودون أن أطيـل الرواية من دون هدف، كـان من بين قـادة الباورونات الذين وقعـوا أسرى: سير ايرل وينكستر، وهنري دي بوهون Bohon إيرل أوف هيرفـورد، والكونت غيلبرت دي غـانت، الذي جعل منه لويس مؤخراً إيرل لنكولن، وكان كونت دي بيرشي ممددا ميتاً هناك، وكـــان مـن بين الذين اتخذوا أسرى من البـــارونـات: روبرت فتــز—وولتر،ورتشـــارد دي مـــونتفتشت Montfitchet ،ووليم دي مـاوبري Mowbray ووليم دي بوشـامب Beauchamp ووليم دي مودوت Maudut وأوليفر دي هينكورت Haencurt وروجردي كـــريسي Creisiووليم دي كـــولفيــــل، ووليم دي روز Roos

وروبــرت دي روبلي Roppele ورالف دي تشيندوت Choindut وآخرون كثر، أن تذكـرهم أمر متعب،وكان عدد الفـرسان الذي أسروا ثلاثمائـة، وذلك إلى جانب الجنود من خيـالة ورجـالة، وهؤلاء ليس من السهل تعـدادهـم، ودفن كـونت دي بيرشي في دير الاسبتـارية خـارج المدينة، أما رينالد الذي لقبه كروكوس Crocus وكان فارساً شجاعاً من حـاشية فـالكاسيوس، قـد قتل هناك، فقـد دفن في دير كروكستـون Croxton بشكل مشرف، وقـد قتل هناك في هذه المعركـة جنود من حزب البارونات، غير معـروفين من قبل أحد، ودفنوا خارج المدينة عند التقـاء أربعـة طرق مع بعضهـــا، وذلك بحكم كـونهم محرومين كنسيـاً، وفقط الثلاثة الذين تقـدم ذكرهم أعلاه، قـد ورد ذكرهم بأنهم قتلوا في هذه المعركة الكبيرة.

نهب المدينة وسلبها

وبعـد انتهاء المعـركة على هـذه الصورة، وجـد جنود الملك في المدينة عــربات البـارونات والفـــرنسيين مع خيـــول التحميل، وكلهم مثقلين بالأثقـال، وأواني الفضـة، ومختلـف أنواع الأثاث، وأدوات المنزل، وقـد أخـذوا ذلك كله بأيديهم مـن دون معـارضـة، ثم إنهم نهبـوا بعـد ذلك المدينة إلى آخـر أصغـر قطعة نقـد، ثم إنهم نهبـوا بعـد ذلك الكنائس في جميع أرجاء المدينة، وحطموا وفتحـوا الصناديق وغرف الخزن بالفؤوس والمطارق واستولـوا على الذهب والفضة التي كانـت فيهم، وعلى أقمشة من جميع الألوان، وعلى الزيـن النسـائيـة، وخـواتم الذهب، والأقـداح، والمجـوهرات، كما أن الكنيسـة الكاتدرائيـة لم تنج من هذا التـدمير، بل عانت مـن العقوبة نفسها مثل البقيـة، لأن النائب البابـوي أعطى أوامر إلى الفـرسان بمعـاملة جميع رجال الدين بمثـابة رجال محرومين كنسيـاً، وبالقـدر نفسـه بمثـابة أعـداء لكنيسـة رومـا وللملك انكلترا، منذ بداية الحرب،وخسر غيوفري دي دربنغ Drepinges قائد جوقة المرتلين في

هذه الكنيسة أحد عشر ألف مارك من الفضة، وبعدما استولوا هكذا على كل نوع من السلع، حتى إذا لم يبق أي شيء في أية زاوية من البيوت، عاد كل واحد منهم إلى مواليهم بمثابة رجال أثرياء، وجرى الاعلان عن السلم مع الملك هنري في جميع أرجاء المدينة، وقد أكلوا وشربوا وسط السرور والاحتفال، ووقعت هذه المعركة التي عرضت لويس والبارونات للسخرية، وأطلق عليها اسم «العادلة» في التاسع عشر من أيار، وكان ذلك يوم سبت في اسبوع أحد الشعانين، وقد بدأت فيها بين الساعة الأولى والساعة الثالثة، وانتهت من قبل الذين أداروها بشكل جيد قبل التاسعة، وكثير من نساء المدينة تعرضن للغرق في النهر، لأنهن—حتى يتجنبن الاهانة—أخذن قوارب صغيرة مع أولادهن وخدمهن من الاناث، والسلع الموجودة في بيوتهن، وقد هلكن وهن على طريق رحلتهن، وقد تم العثور فيها بعد في النهر من قبل الباحثين على أقداح من الفضة، وكثيراً من الأشياء كانت ذات فوائد كبيرة ومرابح للذين عثروا عليها، لأن القوارب كانت محملة أكثر مما ينبغي، ولم تعرف النساء كيف يتدبرن القوارب، فغرقن جميعاً لأن كل عمل، نفذ بسرعة كانت محصلته دوماً سيئة.

وبعد الفراغ من هذه الأعمال، أمر وليم المارشال جميع ولاة القلاع بالعودة إلى قلاعهم مع الأسرى، وأن يحتفظوا بهم هناك في سجون مضيقة، حتى يعلموا برغبة الملك حولهم، وعاد وليم المارشال المذكور في اليوم نفسه، قبل أن يتناول أي طعام، فقد عاد إلى الملك فأخبره بحضور النائب البابوي بالذي حصل، وهم بعدما صلوا إلى الرب وهم يبكون، ما لبثوا ان غيروا الدموع إلى ابتسامات، وفي الصباح وصل رسل إلى عند الملك، وأخبروه بأن الفرسان الذين كانوا في مونتسوريل قد غادروا القلعة وهربوا، وبناء عليه أمر الملك عمدة نوتنغهام بالذهاب شخصياً إلى القلعة وهدمها وتسويتها بالأرض.

فرار البارونات مع الفرنسيين من لنكولن

بعد مقتل كونت بيرشي— كما ذكرنا أعلاه— لجأ الجميع إلى الفرار خيالة ورجالة نحو مدينة لندن، وكان أبرز الشخصيات بينهم ناظر الجيش مع قسطلان أراس، وجميع الفرنسيين، وتعرض— على كل حال— كثير منهم للقتل، ولا سيما الرجالة، فقد قتلوا قبل وصولهم إلى لويس، لأن سكان البلدات التي عبروا منها أثناء فرارهم، خرجوا للتصدي لهم بالسيوف والهراوات، ونصبوا الكمائن لهم، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، ووصل حوالي المائتي فارس إلى لندن، ومثلوا أمام لويس، ليخبروه عن خسائرهم، وقد أخبرهم وهو موجه اللوم إليهم، أنه بسبب فرارهم، وقع أصحابهم بالأسر، لأنهم لو بقيوا للقتال لكان ربما من الممكن انقاذ أنفسهم، وكذلك انقاذ رفاقهم من الأسر ومن الموت، وينبغي أن نؤمن بأن هذه الهزيمة وقعت للويس ولبارونات انكلترا بمثابة جزاء من الرب، لأنهم كانوا قد أمضوا حتى الآن قرابة العامين تحت الحرمان الكنسي، ولولا أنه جرى تقويمهم بعقوبة ربانية، كان الناس سيقولون: «ليس هناك رب» ولن يكون هناك من يعمل بشكل صحيح، لا ولا واحد أبداً.

موت البابا انوسنت

وفي السادس عشر من تموز من العام نفسه، سدد البابا انوسنت دين الطبيعة البشرية، بعدما شغل كرسي الحبرية لمدة ثمانية عشر عاماً، وخمسة أشهر، وأربعة أيام، وقد خلفه هونوريوس، الذي كان معروفا من قبل باسم سينشو Cencio ، وهوالذي شغل الكرسي في الكنيسة الرومانية لمدة عشر سنوات، وسبعة أشهر وتسعة عشر يوماً.

كيف بعث لويس إلى أبيه يطلب منه عساكراً

وبعد سوء الحظ الذي ألم بلويس في لنكولن، بات يائساً من فعالية

قضيتـه، وبناء على نصيحـة تلقـاها، بعث رسـلاً إلى أبيـه، وإلى زوجتـه السيـدة بلانشي، يخبرهما بالخسـائـر المؤسفـة التـي ألمت به وبالبـارونات الانكليز في لنكولن، وهي خسائر حلت بهم - كما قال - من عند الرب أكثـر منهـا من عند الانسـان، وأن ملك الانكليـز قـد أصبح الآن قـوياً جداً، إلى حد أنه يستعرض قوة ضخمة خلال المدن والبلدات من حول لندن، ويمنعـه ويمنع أصحـابه من مغادرة المدينـة، وقال: «عـلاوة على ذلك، نحن بحاجة مع أتباعنا إلى جميع أنواع المؤن لتناقصها لدينا، ثم إنه لو توفـرت المؤن هنا نحن ليس لدينا وسـائط لشرائهـا، ولذلك إنني أخبرك ليس لدينا وسـائـل للمقـاومـة، أو لمغـادرة انكلترا، مـالم تزودني بعون عسكري قـوي»، وعندما وصلت هذه الأخبـار إلى الأب من ابنه، وإلى الزوجـة من زوجهـا، قلقـاً كثيراً لوجـوده في ذلك الوضع الصعب والضائقـة، وبما أن الملك كان خـائفاً من تقـديم العون إلى ابنـه المحروم كنسيا، ولأنه غالباً ماتعـرض إلى اللوم الشديد من قبل البابا، لأنه منحه موافقته ألقى بثقل المسؤولية عن الأعمال كلها على زوجة لويس، التي لم تكن بطيئة ولامتوانية في القيام بالواجب الذي فرض عليها، بل أرسلت إلى زوجها مساعدة مكونة من ثلاثمائة فارس شجاع مجهزين بشكل جيد بالعتاد من أجل الحرب، وتحيط بهم كتلة كبيرة من الجنود، لكن هذا كله لم يكـن مـن المكـن كتمانـه عـن ملـك انكلترا، الـذي استرد الآن شجـاعتـه،وتوفـر لديـه جيش كبير، كما أنه قـد تملك جميع السـواحل الجنوبيـة، لـذلك قـرر محاصرة مـدينة لندن، ومـن أجل ذلك وبناء على نصيحـة المارشال الأكبر أنـاب فليب دي ألبيني، وجون مـارسـاك، مع بحارة المواني الخمسـة، وكتلة كبرى من العسـاكر، للقيـام بمهمة مـراقبة البحاربكل دقة، وأن يعملوا على منع وصول الفرنسيين.

وفي يوم عيد القـديس بارثلميو، أوكلت قيـادة الاسطول الفرنسي إلى يوستاس الراهب وكـان رجلاً فـاسداً جداً، وقـرصاناً شريراً، وقـد أمر

بقيادة الأسطول سالماً إلى لندن، وأن يسلمه إلى لويس، ووقتها أقلعت سفن الجنود المذكورين بالبحر، مع ريح قوية مناسبة، ساقتهم بسرعة نحو انكلترا، لكنهم كانوا جاهلين تماماً بالاستعدادات التي عملت ضدهم، وبناء عليه بعدما قطعوا مسافة جيدة على طريقهم، قدم قادة اسطول ملك انكلترا بوساطة طريق التفافي مع ثمانين سفينة للتصدي لهم، ولذلك كان الفرنسيون خائفين من الاشتباك معهم في البحر، بوساطة سفنهم القليلة العدد، التي لم يتجاوز تعدادها الأربعين مابين غليون وسفينة عادية، ثم إن الحادثة التي وقعت في لنكولن والتي انتصر فيها عدد قليل على عدد كبير جداً، شجعت الانكليز، فهاجموا بجرأة مؤخرة العدو، وعندما اكتشف الفرنسيون هذا، هبوا إلى حمل سلاحهم، وعملوا مقاومة جريئة ضدهم، وأرسل فيليب دي ألبيني مع رجّالة رماة القسي الزيارة ورماته العاديين بنشابهم ونبالهم بين الفرنسيين، مما تسبب بمقتلة كبيرة بين الذين تصدوا لهم، وقد خرقوا سفن أعدائهم، وبلحظة واحدة أغرقوا كثيراً منها، كما أنهم ألقوا برماد كلس حامي فوق البحر، وقد حملت الرياح هذا الرماد، فأعمت عيون الفرنسيين، وقام اشتباك حاد بين الاسطولين، لكن اسطول الفرنسيين الذي لم يكن رجاله بارعين في القتال البحري، مالبث أن هزم، لأن ملاحية سقطوا أرضاً بوساطة أسلحة البحارة الانكليز ونشابهم، ذلك أنهم كانوا معتادين على القتال البحري، فطعنوهم بحرابهم ونشابهم، أو مزقوهم بسيوفهم ورماحهم، في حين تمكن آخرون من فتح ثغرات في قعر السفن، وأغرقوهم، ولذلك لم يعد لدى الفرنسيين أملاً بالنجاة، فرموا بأنفسهم طواعية بين الأمواج حتى لايؤخذوا أسرى من قبل أعدائهم، ذلك أنهم آثروا الموت على أن يقعوا أسرى بين أيدي الانكليز، أما النبلاء الفرنسيون الذين بقيوا أحياء فأخذوا أسرى، وقطر الانكليز المنتصرون خلفهم السفن المأسورة، وأبحروا بعد نصرهم الرائع نحو دوفر، ورأتهم الحامية العسكرية لذلك المكان، ورأت هذا الفضل

الرباني غير المتـــوقع، لذلـك خـرج رجـالها لاستقبـال أبناء وطنهم الواصلين، ووضعـوا الأسرى التعسـاء الفرنسيين في معتقـلات ضيقـة، وكـان بين الأسرى ذلـك الخائن لملك انكلترا، والقـرصـان الشرير، يوستـاس الراهـب، فبعـد بحث طويل عنه وجـدوه، وجـروه من مخبأ إحدى السفـن، وعندما وجـد نفسه أسيراً، عرض مبلغـاً كبيراً من المال مقابل حياته، وسلامة جسـده، ووعد في أن يقاتل في المستقبل باخلاص تحت قيادة ملك انكلترا، لكن قال له رتشارد الابن غير الشرعي للملك جـــون، وهو الـذي أسره: « إنك أيها الخائن الشرير، لـن تخدع في هذه الدنيـا أي انسـان بوعودك الـزائفة»، وبهذه الكلمات جـرد سيفـه وقطع رأسه، وجمع بعـد هذا أتباع الملك جميـع الأسلاب من السفن الفـرنسية، وتضمن ذلك: الذهب، والفضة، والأقمشة الحريرية، والأسلحة ،وعهد بالأسرى إلى سجـن أمين، وأخبر فيليب دي ألبيني الملـك بالـذي فعله، فقـدم على الفـور الشكر إلى المولى على هذا النصر الذي أرسلتـه السماء، والرب هو دائماً وفي كـل مكان مـدهـش بأعماله بين الناس، وعنـدمـا وصلت أخبـار هذه الحادثة إلى لويـس، كـان مـزعـوجـاً أكثـر من هذه الكارثة، مما شعر به إثر معركة لنكولن.

اتفاقية السلام التي عملت بين ملك انكلترا وبين لويس

وبعد هذا حشد المارشـال، الوصي على الملك والنائب له، جيشاً كبيراً من الفـرسـان والجنود، وزحف بعـزم شـديد إلى مـدينة لندن، حيث حـاصرها من جميع الجهات بـراً وبحراً، وبذلك قطع الامـدادات والمؤن عن الحاميـة العسكرية فيهـا، وفكـر أنه بذلك سيرغم أفـرادها على الاستسـلام، وعندمـا وجـد لويس نفسـه في هذا الوضع الحرج، أرسل رسالة إلى النـائب البابوي وإلى المارشال، أنه على استعـداد للتسليم وفق شروطهم جميعاً، على شرط أن يعملوا معه اتفاق سلام مناسب، يحفظون به كـرامته مع عـدم تعريـض أتباعـه للأذى، وبناء عليه، بما أن القضيـة

صارت بين أيديهم، ولأنهم رغبوا إلى أبعد الحدود بالتخلص من لويس، أرسلوا إليه شروطاً للسلام، دونت كتابة، وأخبروه أنه إذا ما وافق على الشروط، سوف يتعهدون بمنحه مخرجا حراً من انكلترا له شخصياً ولجميع أتباعه من المغامرين، لكنه إذا لم يوافق سوف يتدبرون تدميره، والحاق الأذى به من كل جانب، وعندما رأى لويس ومستشاروه هذه الشروط للسلام، كان مسروراً جداً بالسماح له بمغادرة انكلترا، حيث بدا له ولأتباعه أنه بلافائدة البقاء هناك أية مدة أطول، ولذلك أرسل رسالة إلى النائب البابوي، وإلى المارشال الأكبر، لتعيين مكان وموعد من أجل إبرام المعاهدة المذكورة وتنفيذها، ثم وافق الفرقاء على الشروط، واجتمعوا في مؤتمر قرب بلدة ستين Staines على نهر التيمز، لعقد السلام، وكان الملك هنري مع النائب البابوي والمارشال الأكبر، وآخرون كثر من الجانب الأول، ولويس مع الايرلات والبارونات والآخرون من أتباعه من الجانب الآخر، وكلهم هناك وافقوا بفضل النعمة الربانية على شروط السلام المدونة أدناه، وكان ذلك في الحادي عشر من ايلول.

صيغة السلام والعقوبات الثقيلة للمحرومين كنسيا بسبب الملك

وأقسم في المقام الأول لويس وجميع الذين كانوا محرومين كنسيا، وكل أتباعه من المغامرين، على الأناجيل المقدسة، أنهم سوف يلتزمون بقرار الكنيسة المقدسة، وأنهم سوف يكونون من الآن فصاعداً مخلصين لمولاهم البابا، ولكنيسة روما، وأقسم لويس أيضا أنه سوف يغادر على الفور انكلترا مع جميع أتباعه، وأنه لن يعود ثانية قط إليها مع نوايا شريرة، وأنه سوف يبذل أفضل جهوده لاقناع أبيه فيليب بأن يعيد إلى الملك الانكليزي هنري جميع حقوقه في مقاطعات ماوراء البحار، كما أنه أقسم أنه سوف يقوم على الفور بتسليم الملك وأتباعه جميع القلاع وكل الأراضي، التي احتلها هو وأتباعه في انكلترا أثناء الحرب، وأقسم ملك

انكلترا مع النائب البابوي والمارشال على الأناجيل المقدسة، أنهم سوف يعيدون إلى بارونات انكلترا وإلى الآخرين في المملكة جميع حقوقهم ومواريثهم مع جميع الامتيازات التي طلبوها من قبل، والتي هي متعلقة بالخلاف الذي تفجر بين جون ملك انكلترا والبارونات، أما بالنسبة للأسرى، والذين فدوا أنفسهم قبل إعداد ترتيبات السلام، وكذلك الذين تولوا دفع جزء من المال المتفق عليه من أجل فديتهم، هؤلاء جميعاً لايجوز استرداد الذي دفعوه، لكن بالنسبة للمتبقي فإنهم يحررون من دفعه تماما، وفيما يختص بالأسرى الذي أسروا في لنكولن، أو في القتال البحري قرب دوفر، سواء أكانوا من جانب الملك، أومن جانب لويس، هؤلاء من المتوجب اطلاق سراحهم في كل مكان، وعلى الفور، ومن دون أية صعوبات، ومن دون دفع أية فدية أو غرامة.

وبعد إقرار هذا كله جرى تحليل لويس مع أتباعه وفقاً لطريقة الكنيسة، وأعطى كل واحد منهم إلى الآخر قبلة السلام، لكن عدداً كبيراً منهم فعل ذلك مخادعة، وتظاهروا بالسرور تظاهراً، وعاد لويس بعد هذا إلى لندن، حيث تسلم خمسة آلاف باوند استرليني للانفاق على مااحتاج إليه، ثم قام تحت توجيه المارشال الأكبر، بالتوجه بكل سرعة إلى ساحل البحر، ومن هناك عبر - وهو يحمل وصمة عار أبدية -إلى فرنسا.

واستثني من الافادة من هذا التحليل وهذا السلام، جميع الأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والكهنة، والمدنيين، وعدد من رجال الدين، الذين قدموا نصيحة وأظهروا ميلاً نحو لويس والبارونات، وبشكل خاص المعلم سيمون دي لانغتون، والمعلم غيرفاس دي هوبيرج Hobregge اللذان اشتطا كثيراً في عنادهما، وكانا وراء تقديم الخدمات الدينية والقداسات إلى لويس وإلى البارونات المحرومين كنسيا، بوساطة كهنة محرومين كنسيا، ولذلك استثنيا من جميع المنافع،

وأرغما من قبل النائب البابوي على الذهاب إلى روما.

وفور مغادرة لويس لانكلترا، أرسل النائب البابوي مفتشين إلى جميع كونتيات انكلترا للبحث من أجل معرفة جميع الذين كانوا مجرمين، ولو بأقل المشاركات في العصيان، مهما كانت الطائفة الدينية التي انتموا إليها، ومهما كانت مراتبهم، وارسالهم إلى النائب البابوي بعد تعليقهم وتجريدهم من جميع المصالح، وقد قام بتوزيع مصالحهم بين كهنته، وهكذا أغنى أتباعه عن طريق افقار الآخرين، ووصل هيوج أسقف لنكولن إلى انكلترا أيضاً، ليسترد أسقفيته، وقد دفع ألف مارك استرليني نقداً لصالح البابا، ومائة إلى النائب البابوي، وحذا حذوه عدد من الآخرين من الكهنة ورجال الدين، حيث استردوا حظوة النائب البابوي مقابل تدمير الآخرين، وبمثل هذا الاستنزاف أفرغ حافظات نقود رجال الدين، والكهنة العلمانيين، وهكذا وحسب ما جاء في الانجيل، لقد جمع في مكان واحد، كل الذي كان متفرقاً في الخارج، وعمل من أجزاء متعددة كومة كبيرة.

كيف استعد سكان كولون وفريزلاند للزحف إلى الأرض المقدسة

وكان في هذه الآونة هناك حركة عظيمة لرجال شجعان ومقاتلين أشداء في مقاطعتي كولون،وفريزلاند، لأنهم قاموا منذ التبشير بالصليبية بعد المجمع المسكوني، بنشاط عظيم، فبنوا ثلاثمائة سفينة، وأقلعوا فيهن، للوفاء للرب بنذر الحج، ونشروا الأشرعة، ووصل الشطر الأعظم منهم مع أرتال كبيرة من الجنود إلى لشبونة، حيث تفجر خلاف شديد فيما بينهم، حول إلقاء الحصار على قلعة قوية اسمها القليعة Alchatia، فقد كان بعضهم متشوقاً لمتابعة الزحف، وأراد آخرون امضاء الشتاء حيث كانوا، وهكذا انقسم الاسطول، حيث أمضى القسم الأول منهم الشتاء

في غيطه Gaeta وسورنتو Sorrento ، وتولى القسم الآخر، وهو تحت قيادة قائدين هما: وليم دوق هولاندا، وجورج كونت ويز Weise إلقاء الحصار على القليعة، وأثناء انشغالهم بالحصار تجمعت قوة كبيرة من المسلمين ضدهم، واشتبك المسلمون معهم في القتال، وبوساطة العون الرباني غلبوا المسلمين، وجرى قتل ملك واحد من المسلمين، كما جرى قتل عدد آخر وأخذوا أسرى، وجرى أخيراً الاستيلاء على القلعة من قبل الألمان، واحتفظ بها الصليبيون.

حصار قلعة نيوآرك وروبرت دي غوغي

عام ١٢١٨م، فيه كان الملك هنري في أيام عيد الميلاد في نورثأمبتون، حيث قدم فالكاسيوس كل الضروريات من أجل الاحتفال الملكي، وكان في تلك الآونة في انكلترا كثير من النبلاء، كانت متعتهم الرئيسية أثناء الحرب الأخيرة، أن يعيشوا على النهب، والآن مع أنه أعلن عن السلام ومنح إلى الجميع، لم يكن بامكانهم منع أيديهم وإيقافها عن النهب، وكان رأس المثيرين لهذا العمل:

وليم ايرل أوف ألبيميرلي Albemerle ، وفالكاسيوس وولاة قلاعه، وروبرت دي فيبوت، وبرين دي آيل، وهيودي بالأويل Baliol، وفيليب مارسي، وروبرت غوغي، وعدد كبير آخر، الذين بتحد منهم لتحريم الملك، وضد موافقة الملاكين استأنفوا أعمال الاحتفاظ بين أيديهم بقلاع بعض الأساقفة والنبلاء مع أراضيهم وممتلكاتهم الأخرى، وكان بين هؤلاء روبرت دي غوغي، الذي رفض، بعد عدة انذارات من الملك تسليم هوغ أسقف لنكولن، قلعة نيوآرك مع البلدة ومتعلقاتها، مع أنها كانت حقاً لذلك الأسقف وأثارت هذه الظروف غضب المارشال الأكبر، فقام بناء على أوامر الملك فحشد جيشاً كبيراً، وزحف بصحبة الملك نفسه ضد القلعة المتقدمة الذكر، وعندما وصلا إلى أحوازها، أرسلا أمامهما بعض الجنود لمنع رجال الحامية من مغادرة

القلعـة، حتى لايتمكنوا من القيـام بهجـوم مفـاجىء ومن ثم يحرقـون البلدة، وعندمـا سمع روبرت وأصحـابـه بوصـول هذا الجيش، قـامـوا بانقضـاض عليه، لكنهـم أرغموا على التراجع ثانيـة بسبب قتـال جنود الملك، وقتل أثناء هذا القتال وليم دي ديفا Diva ، وكان فـارساً من حـاشيـة هوغ أسقف لنكولن، وجـاء قتله أثنـاء مطاردته للأعـداء وهم يتراجعون إلى القلعة، وقد جرح عـدد آخر، وقد انزعج الملك والمارشال الأكبر كثيراً تجاه هذا، وأمـرا بآلات حـربهما بالانتشـار والتمركـز حـول القلعـة ورمي الأسوار ومتـابعة القصف من المجـانيق، واستمر الحصـار لمدة ثمانية أيام تقريبا، خلاله تقدم أصدقاء روبرت المذكور بعرض سلام إلى أسقف لنكولن، وأخيراً توصل الفريقان مع مـوافقة الملك إلى اتفاق، قضى بوجوب أن يدفع الأسقف المذكور إلى روبرت غـوغي مائة باوند استرليني مقـابل المخـزونات في القلعـــة، وبمـوجب هذه الشروط رفع الحصار، وعاد كل واحد إلى بيته.

زحف القوات الصليبية من عكا إلى دمياط

وجـرى في هذا العـام تنفيـذ خطط البـابا انـوسنت، التي كـانت قـد تقررت في مجمع اللاتيران، أي جلب جيش المسيح إلى أرض مصر، ففي شهـر أيار، كـانت المراكب والغـلايين مـع عـدد من سفن التحميل قـد جـرى تحضيرها، وأبحر جـون ملك القدس والبطريرك من عكا برفقـة أسـاقفة نيقـوسيـا، وعكا، وبيت لحم، ودوق النمسـا، ومقدمـو الداوية واسبتـارية القـديس يوحنـا، والقـديسـة مـريم الألمان وحشـد كبير من الصليبيين، وبدأت الريح تهب قليلاً، وتمتع جيش الرب برحلة مـوائمة، ووصل في اليوم الثالث إلى دمياط، ونزل وقتها بعض الجنود إلى اليابسة، واستحوذوا على هذه الأرض العدوة من دون سفـك للدماء، وتصدى لهم عدد قليل من الفـرسان المسلمين، وعندما جثا واحـد من الفريزيين على ركبتـه اليمنى فـوق الأرض، وحمى نفسـه برمحه بيـده اليسرى وهز

حربته وسيفه بيـده اليمنى، رآه أحد المسلمين فخيل إليه أنه يلعب، لكنه مالبث أن تلقى فجأة الجراحه على يد الفـريزي، وسقط الفارس وفرسه نتيجة لذلك على الأرض، وهرب الباقون، وهكذا اختط جيش المؤمنون معسكره فيما بين الساحل وشواطىء النيل، ونصب آخرون خيمهم من دون عائق، وصنع الرب المعجـزة التاليـة لشعبه المؤمن، فقد كـانت مياه النهر قـرب البحر عند أول وصولهم حلوة المذاق، ولكنها صـارت بعد ذلك مـالحة، وصولاً حتى القلعـة، التي كـانت تبعـد ميلاً عن دميـاط، وعندما وصل الصليبيـون إلى هناك حدث خسوف كـامل للقمر، وفسر الصليبيون ذلك أنـه يشير إلى هزيمة المسلمين، لأنهم تنبأوا فعـزوا وقوع وقائع كبيرة إلى نقص أو زيادة تلك الظاهرة الفلكية.

حصار برج دمياط فوق نهر النيل

وشـاهد بعـد هذا أتبـاع المسيح في وسط نهر النيل، وليس بعيـداً عن دمياط برجاً عاليا ورشيقاً قد بني بشكل قوى من الحجارة، ومنه امتدت سلسلة ضخمـة جـداً من الحديد عبر النهـر إلى المدينة التي قـامت على الشاطـىء الآخر للنهر، وكـان رأي الجميع وجوب احتـلال ذلك البرج قبل إلقاء الحصار على دمياط، لكن قام الفريزلانديون، مع انعدام الصبر المعهـود لديهم، بعبـور النيل، واستـولوا على خيـول المسملين، وكـانوا يرغبـون بنصب معسكرهم على الطرف الأقصـى من النهـر، ووقفـوا يقـاتلون ضد المسلمين الذين خـرجوا للقتـال ضدهم، ولقـد استدعـوا -على كل حال -من قبل البطريرك، بمـوجب قسمهم بالطاعة، لأنه بدا بالنسبـة لقـادة الصليبيين أنه ليـس مفيـداً ترك البرج خلفهـم مملوءاً بالمسلمين، ورأى قادة جيش المسيح، أنهم وإن كـانوا متشوقين للسيطرة على ذلك البرج، من غير الممكن الاستيـلاء عليه بالتجويع، بسبـب قربه من المدينة، كما لايمكن لغمـه بسبب قوة جـريان الماء الذي يحيط به، كما لايمكنهم اخضاعه بالقصف من مجانيقهم وعـراداتهم، لأنهم قد حاولوا

ذلك لعدة أيام، فحصلوا على قليل من التقدم أو على لاشيء، وفي وسط هذه المعضلة توصلوا إلى القـــرار التـــالي، وهو وصل بعـض السفن والقـوارب مع بعضهـا، وأن يعدوا بعض السـلالم على قمم السـواري، ووضعـوا هناك بعض رماة القسي الزيارة والجنـود، وقد أملوا بوسـاطة هذه الخطة بتحقيق غـرضهم، ووقتهـا شيـد دوق النمسـا مع اسبتـارية القـديس يوحنا سلمين فـوق القوارب، وقـد رفعـا نحو الأعلى في عيـد القـــديس يوحنا (٢٤ حـزيران) وقـام المسلمـون طوال الـوقت بعمل مقاومة شجاعة، ومحزن أن نحكي بأن سلم الاسبتارية قد تحطم، وسقط جنودهم في النهر،، ومثل ذلك أيضاً حدث للسلم الثاني، أي سلم دوق النمسـا وسقط بالطريقـة نفسهـا مع سـارية السفينة، وغـرق الفـرسـان الشجعان والجنود في النيـل وقد أخذ المسيح أرواحهـم جميعاً إلى السماء، حيث تتوجـوا مع الشهداء الممجـدين، ولقد فـرح المصريون كثيراً جداً، وسخـروا من الصليبيين، وضربوا بأبواقهم استهـزاءاً بهم، في حين كـان الحال على العكس بالنسبة للصليبيين، حيث غلبهم الحزن واليأس، وقام الفـريزلانديون والألمان بقيـادة أدولفـوس دي مـونتي Adolphus de Monte ، وكان نبيلاً شجاعـاً ومقتدراً، وقتها بتحصين سفينة بسواتر وبقلعة صغيرة وضعوها على رأس السارية، وهوجمت هذه السفينة بشدة من قبل جنـود المدينة، والبرج، والجسر بالنفـــوط وبـالمجـــانيق، وأخيراً اشعلوا النار فيهـا، وعندما أصبح الصليبيـون خائفين أنها سـوف تحترق كليـاً، بذل الملاحـون في السفينة جهـــوداً كبيرة لإطفـاء النار، ووقتهـــا أحـــدث رمـــاة القسي العقـــارة من الداخل دمـــاراً كبيراً بين المسلمين، وكـانت سفن أخرى، أثناء ذلك الهجـوم، تابعـة للصليبيين، قد جـرى تحصينها بالسواتر الدفاعية، وقد بادرت مسرعة نحو البرج بكل احكام، فتكبدت خسائر كبيرة بالرجال والممتلكات.

الاستيلاء على البرج المتقدم الذكر والشجاعة المدهشة للصليبيين

وبين الرب القـدير أخيراً الخطة التـالية، وقـام المهندسـون بإلهام منه، بامتـلاك القـدرة على تنفيذها، حيث قـام الجيش الصليبي، على حسـاب الفرسـان الألمان والفريزلانديين، وبالتعاون بين هذين الفـريقين فوصلوا سفينتين مع بعضهما بالألواح الخشبيـة والحبال، وبـذلك امتلكوا قاعـدة ثابتة، فشيدوا أربع سواري، ووضعوا على رأسهم بريج على شكل سلة، وغطوه بالجلود لمنـع تأثير النفـوط، وشيـدوا تحت البريج سلماً عـاليـاً، وعلقوه بحبال قوية، فوصل إلى مسافة ثلاثين ذراعاً أمام قيدوم السفينة، وتم الفـراغ من هذا العمل في وقت قصير، واجتمع قـادة الصليبيـون وقتهـا، لفحصـه، ولمعـرفـة فيها إذا كـان هناك أي نقص بالنفقـات، أو بعبقـرية الرجـال، حتى يمكن تدارك ذلك، ولقد تلقـوا جـواباً أن مثل هذه الآلـة لم يكن لها مثيل مـن قبل قـد صنع مـن الخشب، واعتقـد الصليبيـون أنه يتـوجب عليهـم استخـدام هذه المنشأة على الفـور ضـد البرج، لأن الجسر الذي وصل المسلمون به البرج، كان قد تدمر إلى حد كبير، بسبب الرمايات المتواصلة من آلات الفـرنجة، وفي اليوم السادس قبل عيد القـديس بارثلميو (١٨ -آب) زحف الصليبيـون بشكل تقوي وبأقدام حافية، وبمسيرة مهيبـة إلى الصليب المقدس، وسار رجال الدين في الأمام وهم ينشـدون ويقرأون القداسـات، وبتواضع التمسـوا العون الرباني، وأن تكون القضيـة كلهـا محررة من جميع أنواع الغيرة والحسـد، وفارغة من كل تفاخر ورعونة من قبل أي أناس كانوا آنذاك في الجيش، واستـدعـوا عـدد اً من القـادة لرؤيـة نتيجـة هذا الهجـوم، مع أن الفريزلانديين والألمان كان فيهم كفاية لشغل السفن وادارتها.

وفي يوم عيد القديس بارثلميـو (٢٤ -آب) الذي كان اليوم السادس من الاسبـوع، مع أن النيل كان فـائضاً كثيراً، وقـوة التيار كانـت معيقة جـداً للعمل، سحبت الآلـة نحـو البرج، على الرغم مـن كثير من المصاعب والخطر، وسارت السفينـة التي ربطت إليها تحت الأشرعة، في

حين سار البطريرك، ورجال الدين على طول الشاطىء وهم يصلون إلى الرب، وعندما وصلوا إلى البرج لم يكن من الممكن جلب هذه الآلة المزدوجة إلى الجانب الغربي، ولذلك سارت بشكل مباشر إلى الجانب الشمالي، وأخيراً جرى تثبيتها، وبعد طويل وقت تم ضمان تثبيتها بالحبال والمراسي، مع أن قوة المياه الفائضة كانت تهدد بدفعها بعيداً، وعندما رأى المسلمون ذلك، أقاموا ست آلات رمي على أبراج المدينة لتدمير الآلة، لكن احدى هذه الآلات التي كانت أكثر فعالية بالتهديم من البقية، تحطمت بعد عدة رمايات، وباتت غير صالحة، ومع ذلك هم لم يوقفوا جهودهم بل أرسلوا رماياتهم وقذفوا بزخات من الحجارة المدمرة، ووضعت السفينة الأولى المربوطة إلى الآلة تحت سفح البرج، لكن وسط خطر عظيم، لأن النفوط التي قذفت منه سقطت عليها مثل البرق، وسببت رعباً شديداً للفرنجة، لكن تم اخضاع النيران باستخدام الخل والحصا ووسائل إطفاء أخرى، ثم قام الذين يديرون الآلة بهجوم حاد، ووقتها كان البطريرك ساجداً على الأرض أمام الصليب، ورجال الدين واقفون وهم حفاة، يصرخون بأصوات عالية نحو السماء، ومدّ أعداء الصليب والمدافعون عن البرج، رماحهم نحو الأمام، وصبوا الزيت على الجزء الأعظم من السلم، ثم استخدموا النفوط، وألقوا النيران عليه، واندفع الصليبيون الذين كانوا بالداخل وتقدموا لاطفاء النار، وضغط وزنهم على رأس السلم ضغطا شديداً، أدى إلى سقوط الجسر المستدير المتحرك الموضوع أمام واجهة البرج، وهبوطه نحو الأسفل، وسقط حامل راية دوق النمسا من عليه، واستولى المسلمون على راية الدوق وسط شماتة كبيرة، ووقتها اعتقدوا أنهم أنفسهم المنتصرون فرفعوا صراخهم حتى عنان السماء، وعندما شاهد الصليبيون ذلك سجدوا بأجسادهم على الأرض يصلون وتابعوا وهم يضربون أيديهم ويصفقون، الدعاء إلى الرب، وأثناء هذا التضرع ورفع رجال شعب المسيح أيديهم نحو السماء، رفعت العناية الربانية السلم، وأطفأت

دمـوع أهل الايمان النار، ثم استرد الصليبيـون شجاعتهم، فـاصطرعـوا بشجـاعـة مع المدافعين عـن البرج، بالرمـاح وبالسيـوف، والـدبابيس والنشـاب وأسلحـة الحرب الأخـرى، وكـان هناك شـاب شجـاع من أسقفيـة لييج، حيث كـان هو أول مـن تسلق إلى البرج، ثم صعـد إليـه شاب من فـريزلاند، وكان ممسكاً بيده عصا حـديدية تستخدم من أجل فصل حبات القمح، وقـد اتخذها سلاحاً للقتال، به مـزق أعداء الايمان خلف الشرافـات والسـواتر الـدفـاعيـة، وأطاح بهم ذات اليمين وذات الشمال، وكـان بين الذين قتلهم مسلم، هـو الذي حمل الراية الصفـراء للسلطان، وقد انتـزعها، ثم تبع واحد الآخـر في الصعود إلى البرج، مع أنهم ووجهوا بمقاومة عظيمة مـن الأعداء القساة والأشداء، وبعد لأي أمكن التغلـب على المسلمين، وجـاء بعـد بكـاء الصليبيين ونحيبهم، السرور والانتصار، لأنه لم يعد بامكان المسلمين تحمل ضغط الأعداد في البرج، ولذلك حاولوا النجاة بإلقاء أنفسهم من النوافذ، وقد غرق عدد كبير منهم، ذلك أن المياه كـانت كثيرة وعميقة بالنسبـة لهم، وجرى أسر حـوالي المائة منهم وهم أحيـاء وجـرى الاحتفاظ بهم من أجل ألفـدية، وقام المسلمون الذين تراجعوا إلى داخل البرج بإلقاء النار في سقفه، وبما أن الصليبيين المنتصرين وجدوا أنفسهم غير قـادرين على تحمل الحرارة، عـادوا إلى سلمهم، ثم إنهم أنزلوا الجسر، الذي كـان متوضعـا في الجزء الأسفل من الآلة، ووضعـوه فوق سفح البرج، الذي كـان ضيقاً بسبب الميـاه التي تدفقت من حـوله، وقـاموا - على كل حـال -بمهـاجمة باب البرج بمطارق حـديدية، وقد دافع المسلمـون عنه من الداخل، وكـانت الآلة المزدوجـة مـاتزال مثبتـة باحكام إلى البرج، لكـن أخشـاب السلم كانت قد تحطمت في أماكن كثيرة، ومـع أن جدران الآلة قد خرقت من أماكن كثيرة بوسـاطة مقذوفات آلات الأعداء، استمـرت ثابتة لايمكن تحريكهـا من السـاعـة التاسعـة من اليـوم السـادس من الاسبـوع حتى الساعة العاشرة من الأحد التالي، وأخيراً عجز المسلمون كلياً عن متابعة

الدفاع عن البرج، ولذلك طلبوا منحهم هدنة، وسلموا أنفسهم إلى دوق النمسا، على شرط ابقائهم أحياء، وهكذا تمت السيطرة على البرج، وإثر ذلك زود الصليبيون أنفسهم بالمؤن وبجنود جدد، آملين بأن يتمكنوا بعد ذلك من اخضاع المدينة طالما أنهم أخضعوا البرج.

موت سيف الدين وتدمير أسوار القدس

بعد الاستيلاء على البرج في نهر النيل، بات سيف الدين أكثر شيخوخة في أيام الشرور، وكان هو الذي حرم أبناء أخيه من ميراثهم، كما كان المغتصب الشرير لمملكة آسيا، وقد قهره -كما قيل -الحزن فمات ودفن في الجحيم، وقد خلفه ابنه المعظم عيسى، وكان رجلاً قاسياً وشديداً، حيث قام، انتقاما منه لحصار دمياط بتدمير مدينة القدس الشهيرة تدميراً كلياً، وحوّل أسوار تلك المدينة إلى أكوام من الخرائب، وذلك باستثناء المسجد الأقصى وبرج داوود، ثم إن المسلمين تشاوروا من أجل تهديم الضريح الجليل لمولانا، وبعثوا برسائل تهديد حول ذلك إلى أهالي دمياط، من أجل مواساتهم وتطمينهم، والذي حدث على كل حال، هو أن ما من واحد منهم وضع يده على ذلك، صدورا عن الاحترام الذي امتلكه ذلك المكان، لأنه كتب في كتابهم الذي هو القرآن، بأن مولانا يسوع المسيح قد حمل به وولد من قبل العذراء مريم، التي يعترفون بأنها عاشت بين الناس من دون ذنب، وأن المسيح كان نبياً، لابل أكثر من نبي، لأنهم يؤكدون أيضاً مضيفين بأنه أعاد النظر إلى الأعمى، وشفى المجذوم، وأعاد ميتاً إلى الحياة، كما أنهم يعتقدون بأن كلمة وروح الإله الحي قد صعدت إلى السماء، ولهذا السبب كان رجالهم العقلاء، يذهبون أثناء الهدنة إلى القدس، ويطلبون رؤية كتاب الأناجيل، فيحترمونها ويبدون اعجابهم بطهارة الشريعة التي بشر بها المسيح، ولاسيما بانجيل لوقا، قوله: «جرى ارسال ملاك الرب»، الأمر الذي غالبا ماناقشه المتعلمون منهم ورددوه، لكن شريعتهم جاءت عن طريق

اثارة الشيطان ومن خلال الراهب المرتد والمهرطق سرجيوس (كذا)، وقد كتبها محمد (صلى الله عليه وسلم) بالعربية، ونشرها وعلمها إلى المسلمين، وقد بدأت بالسيف، وحوفظ عليها بالسيف، ولسوف تنتهي بالسيف، وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) نفسه رجلاً أميا، كما برهن على ذلك من خلال القرآن، وقد بشر بالذي أملاه المهرطق المذكور أعلاه، ولأنه كان رجلاً قوياً، وسيداً للعرب، فقد تسبب عن طريق التهديد بالأخذ بشريعته...... (تكملة هذا الكلام حذفته لبشاعته القصوى ولعدم فائدته، ويرجح هنا أن مصدر مؤلفنا هنا هو المصدر نفسه في ج ٣٤ ص ٥٤ من موسوعتنا هذه).

وصول النائب البابوي بيلاغيوس وحجاج آخرون إلى دمياط

بعد اخضاع برج دمياط، كما تحدثنا أعلاه، وصل عدد كبير من الحجاج من مختلف الأصقاع لمساعدة الصليبيين، فيما كانوا يقومون به آنذاك، وكان بين الواصلين بيلاغيوس أسقف ألبانو، وهو نائب للكرسي الرسولي، ومعه المعلم روبرت دي كوركون Courcon، وعدد من الرومان، ووصل عدد من الأساقفة مع كونت نافار، ولدى تزايد المخاطر غادروا، مما سبب اضطراباً شديداً للصليبيين، ووصل في الوقت نفسه أيضاً إلى هناك من مملكة انكلترا رالف المشهور ايرل أوف شيستر، مع الايرل سير أوف وينكستر، ووليم ايرل أوف آرونديل، والبارونات:

روبرت فتز -وولتر، وجون قسطلان أوف شيستر، ووليم دي هاركورت Harcourt ، مع حاشية كبيرة، وأوليفر ابن ملك انكلترا، ووصل إلى هناك أيضاً إيرل أوف مارش، وايرل أوف بار Bar مع ابنه، وكذلك وليم دي كارنون، وايتيريوس دي توسي Iterius Tocce، وهيرفي دي أورسون Urson، وكثير آخرون.

الحملتان اللتان قام بها المسلمون على الصليبيين في دمياط

وبعد هذا وصل المسلمون بشكل مفاجىء في يوم عيد القديس ديونيسيوس Dionysius ، مع سفن وعساكر، وهاجموا أطراف المعسكر، حيث كان الرومان قد نصبوا خيامهم، وقد جرى -على كل حال -صدهم بوساطة قوة صغيرة من الصليبيين، وقاموا بانسحاب سريع إلى مراكبهم، لكنهم لم يستطيعوا النجاة من سيوف مطارديهم، ومن قوة تيار النهر، فقد علم الصليبيون فيما بعد من المسلمين، بأن خمسمائة من المهاجمين قد غرقوا في النيل، ومن جديد هاجم الأعداء في يوم عيد القديس ديميتريوس Demetrius، في الصباح الباكر، معسكر الداوية، لكنهم ألحقوا ضرراً صغيراً بالصليبيين، لأنهم أرغموا على الفرار من قبل قوة من الخيالة أرسلت ضدهم، ودفعوا حتى الجسر الذي كانوا قد بنوه على مسافة من هناك، وقد توفر حوالي الخمسمائة منهم هم الذين قتلوا من قبل الصليبيين.

فيضان نهر النيل الذي عانى الصليبيون منه خسائر كبيرة

وفي العيد التالي للقديس أندرو الرسول، حدث في منتصف الليل أن ارتفعت أمواج البحر، وعملت دوياً مرعباً، وصل حتى معسكر الصليبيين، وترافق ذلك مع فيضان مفاجىء للنهر، أخذهم من الجانب الآخر على حين غرة، وطافت الخيام هناك، وتمّ فقدان المؤن، وحملت الأسماك من البحر ومن النهر إلى خيم الصليبيين، ومع أنهم أمسكوهم بالأيدي، لقد كانوا بغنى عن التمتع بطعمهم، ولولا وجود الخندق، الذي جرى حفره من قبل بموجب خطة حكيمة، وعمله، وإن كان لغرض مختلف، لولا ذلك لكان بإمكان القوى المتحدة للبحر والنهر، أن تجرف بعيداً الناس والخيول والسفن المحملة بالمؤن والسلاح، ولتمكن الأعداء من الاستيلاء عليهم، ولم ينج - على كل حال - من هذا المصير المراكب الأربعة التي بنيت عليها السواتر الدفاعية، من أجل الهجوم على

البرج، فقد جرف هؤلاء مع سفينة خا مسة حصرت بينهم، وشكلوا كومة واحدة على الضفة المواجهة، وهناك جرى تدميرهم بالنفوط أمام أعين الصليبيين، وأنقذ عمل الرب آلة الفريزلانديين، والألمان، التي بوساطتها تمت السيطرة على البرج، لكن سفن النقل في الميناء قد تقطعت حبالهن وفقدن.

المرض الذي هاجم عدداً كبيراً من الجيش الصليبي

وفي هذه الآونة جرت مهاجمة الكثيرين من جيش الصليبيين بأشد الأمراض، وهو مرض عجز الأطباء بفنهم عن إيجاد علاج له، لأن الآلام هاجمت بشكل مفاجىء الأقدام والأرجل، حيث ظهر الجلد عليهما فاسداً وأسود، وفي اللثة والأسنان انتزع عنصر أسود القدرة على الأكل، وغادرت أعداد كبيرة، بعدما هوجمت بهذا المرض، وبعدما تألمت وقتاً طويلاً، إلى الرب، لكن -على كل حال -الذين صارعوا ضد المرض حتى الربيع، نجو بفضل منفعة الحرارة لذلك الفصل، وحفظوا من الموت.

وفي هذا العام نفسه، جرى بوساطة تدخل والو، نائب الكرسي الرسولي، تعيين رتشارد دي ماريسكو Marisco، وكان رجل دين من حاشية الملك جون وصديقاً مقرباً منه، أسقفاً لدرم، وتمت سيامته وتكريسه في الرابع والعشرين من تموز.

موت وليم المارشال

عام ١٢١٩م، فيه أمضى الملك هنري عيد ميلاد السنة الرابعة من حكمه في أسقفية وينكستر حيث وفر بطرس أسقف ذلك المكان وسائل الضيافة والتسلية له، وفي هذا العام أيضاً مات وليم المارشال، والوصي على الملك، ونائب المملكة، وبعد موته أبقى الملك هنري في منصب الوصاية بطرس أسقف وينكستر.

حصار دمياط وآلام الصليبيين

وفي هذه الآونة، كـان بيلاغيـوس، نائب الكرسي الرسـولي، قد عقـد العـزم على حصـار مـدينة دميـاط، ولشـدة رغبتـه بـذلك، طلب من الصليبيين بعـد الاستيـلاء على البرج، القيـام بعبـور النيل، وبناء عليـه، ساروا مع سفنهم، على الرغم من المخاطر العظيمـة، صعوداً فوق النهر، بين المدينة والبرج المستـولى عليـه، لكن كـانت هناك معيقـات كبيرة بوساطة مجانيق المدينة وبوساطـة النفوط، وأرغمت احدى سفن الداوية بقوة تيار الماء على التوجه إلى الضفة القريبة من المدينة، وهكذا ألقيت في مـدى أسلحـة العـدو، وقـد هاجمهـا الأعـداء لوقت طويـل بالمجـانيق وبالجروخ الحديدية، وألقـوا النفـوط عليهـا من أبراج المدينـة، وعندمـا وجدوا أنفسهم غير قادرين على انجاز ماأرادوه بسبب شجاعة المدافعين عنها، تسلق المسلمـون على ظهرها، وبجرأة هاجموا الداوية، وبعـد قتال طويل خـرقت السفينة، إمـا من قبـل المسلمين، أو من قبل الصليبيين أنفسهم -كما هو مـرجـح -ومضت نحـو قعـر النهـر، مع المسلمين والصليبيين سـواء، تاركـة رأس الصاري وحـده فـوق الماء، ومثلما فعل شمشوم الذي قتل من الأعداء عدداً أكبر أثناء موته مما قتله أثناء حياته، فعل هؤلاء الشهـداء من أجل المسيح،فقد أخذوا معهـم من الأعداء إلى أعماق المياه، أكثر مما أمكنهم تدميرهم بسيـوفهم، وقام المسلمـون وقتها بترميم الجسر، وتركـوا فتحـه ضيقـة فقط، وهكذا لم يعـد بامكان سفن الصليبيين السير صعوداً، من دون التعـرض للخطر من قوة تيـار النهر، واشتعل -تجاه هذا - الفـريزلانديون والألمان غضبـاً، وكـان ذلك من حقهم، فهاجموا الجسر بشجاعة بوساطة السفن الكبيرة جداً، وبوساطتها تم الاستيـلاء على الجسر، ولم يكن لديهم من عـون سوى عـون السماء، وبذلك تمكن أقل مـن عشرة رجـال من الشعبين المتقـدمي الذكـر، من التصدي لجميع قوى مصر، ووصلـوا إلى الجسر، ودمروه على مرأى من

جميع رجال الحشد الصليبي، الذين أعجبوا إلى أبعد الحدود بجرأتهم، ثم انهم استولوا على السفن الأربع التي عليهن وضعوا الجسر، وعادوا معهن منتصرين، وبذلك تركوا ممراً حراً مفتوحاً للصليبيين ليبحروا من خلاله، وبعدما جرى تنفيذ هذا، أدرك المسلمون الخطر الذي يتهددهم، فأقدموا على تحصين ضفة النهر المواجهة للصليبيين بخنادق، وبحواجز من طين الأرض، وسواتر دفاعية من الخشب، وبوسائل دفاعية أخرى، ثم إنهم مركزوا مجانيقهم هناك، وبذلك حرموا الصليبيين من كل أمل بالمرور من ذلك المكان، ومن القلعة التي هي على بعد حوالي ميل عن المدينة حيث وضعت الدفاعات الجديدة، وأغرقوا أيضاً سفنا عبر النهر، وغرسوا أيضاً تحت الماء في قعر النهر أعمدة، لكن عساكر المسيح ومراكبهم المحصنة والمقواة بالسواتر الدفاعية، والمشحونة بالرجال المسلحين، والتي سار خلفها الغلايين والسفن الاخرى تحت قيادة المسيح نجت كلياً من هذه المكامن والمصائد، ووضع عدو الايمان -على كل حال - كل خوف جانباً، وعبأ صفوفه، وصفها لمواجهة الحملة البحرية للصليبيين، وكان الصف الأول من قواتهم مكوناً من الجنود الرجالة، وقد اصطف على طول النهر، ومعه ترسة تشبه الدرابيء، وكان الصف الثاني خلفه مثل الاول ومن النوع نفسه، وكان الصف الثالث طويلاً ومشكلاً من الجنود الخيالة، الذين ضايقوا الصليبيين وهددوهم بزخات من الحجارة ومن الاسلحة الأخرى، لكن الرب الحقيقي، الذي لايسمح بامتحان شعبه أكثر مما يمكنه ان يحتمل، تجلى على معسكر عبيده، وحول أسى الصليبيين وحزنهم إلى سرور وفرح، لأنه في ليلة عيد القديسة أغاثا الشهيدة، وعندما كان جيش المسيح مصطفاً بنظام لعبور النهر في اليوم التالي، سببت الأمطار والرياح كثيراً من الضيق للصليبيين، لكن حدث في الليلة نفسها بفضل تدخل الرب، أن سلطان مصر وجيشه أصابهم الرعب، حتى أنهم تركوا خيامهم،دون أن يكون ذلك معلوماً من قبل المسلمين، الذين أمروهم بالتصدي

للصليبيين ومواجهتهم، فقد رأوا أن نجاتهم وسلامتهم هي بفرارهم، وبناء على ذلك، كان هناك رجلاً مرتداً، قد خرق الشريعة المسيحية لبعض الوقت، ولذلك قاتل لوقت طويل تحت إمرة السلطان، ولقد جاء هذا الرجل إلى ضفة النهر، وصرخ باللغة الفرنسية قائلاً: «لماذا أنتم متأخرون؟ مما أنتم خائفون؟ لقد هرب السلطان»، وبعدما قال هذا طلب أخذه إلى ظهر سفينة صليبية، وهكذا بث في الصليبيين روح الثقة، وحثهم على عبور النهر، وفي الفجر الباكر، وعند انتهاء قداس «دعونا جميعا نبتهج في الرب» والفراغ من أدائه، جرى إعلام الملك والنائب البابوي بهذا بوساطة صلوات الصليبيين، وبناء عليه عبر الصليبيون، لدى معرفتهم بفرار المسلمين، النهر من دون سفك للدماء، ومتحررين من كل أنواع المعارضة، لكن الوحول جعلت من الصعب الوصول إلى هذه الأرض المعادية، وذلك بسبب عمق المياه، ولذلك استطاعت الخيول بصعوبة بالغة تسلق الضفة، وكان الداوية أول من صعد إلى الضفة، ولذلك بادروا مسرعين نحو المدينة، وألقوا أرضاً المسلمين الذين تجرأوا فخرجوا من الأبواب للتصدي لهم وللصليبيين القادمين، وبطردهم الى المدينة وردهم إلى داخلها، استولى جيش المسيح على خيام السلطان، وعلى أسلاب المسلمين الفارين، كما أنهم نهبوا عدداً من الدرايىء، والغلايين والبراكيس، ومراكب أخرى، هي التي وجدوها تحت القلعة وذلك امتداداً حتى المدينة، وبسبب العبور غير المتوقع للصليبيين، كانت حشود من رجال المسلمين قد هربت من دمياط، تاركين زوجاتهم وأولادهم خلفهم، ووقتها حوصرت دمياط وطوقت من كل جانب، لأن الجنود قد انتشروا بوساطة جسر امتد على طرفي النهر.

الهجوم الأول الذي قام به المسلمون على الصليبيين بعد شروعهم بحصارها

وبعـد مـا تم تطويـق المدينة على هذه الصـورة، استرد أعـداء الايمان شجـاعتهم، وقامـوا مع السلطان وعساكـر حلب، فاستـولوا على المكان الذي عبر منه الصليبيـــون بشكل غير متـــوقع، ولولا أنـه بإلهام لاهوتي وعـون رباني، وبشكل رئيسي بفضل شجـاعــة الألمان، الذين تمكنوا من استرداد المعسكر الأول الـذي قـــام بين البحـــر والنهـــر، فلـولا ذلك لتعــرضت قضيـة المسيـح إلى خطر عظيم، وذلك أن المسلمين المملتئين بالخداع، أصبحوا الآن متهـورين ومندفعين كثيراً، ففي فجر يوم السبت قبل الأحـد الذي يغنى فيـه «عيناي دومـاً على الرب» ودون أن يعـرف الصليبيون، ألقـوا بأنفسهم على شكل كتلة هائلة ووصلوا حتى الخندق، لكن بفضل شجاعـة الجنود من كل من الخيالة والرجالة جـرى صدهـم، لأن الصليبيين كـانوا قـد عملوا خلفهم خندقاً واسعـاً وعميقـاً، وذلك كوقـاية، حتى إذا ما قام عـدو الايمان بهجوم عليهم، يمكنهم أن يكونوا سالمين.

الهجوم الثاني على الصليبيين

وفي أحد السعف (٣١—آذار)جمع العـدو جيشاً كبيراً وقـوياً، لمهاجمة خندق الصليبيين ثانيـة من جميع الجهات، وبشكل خـاص جسر الداوية ودوق النمسـا، الذي قام بالآونة الأخيرة بـالتعاون مع الألمان، بالدفـاع بشجاعـة، وترجل فـرسان المسلمون مـن على خيولهم مع نخبـة قواتهم، وقـاتلوا الصليبيين بشجـاعـة نـادرة، وتسـاقط القتلى والجرحى في جميع الاتجاهات، وبعد لأي كسب المسلمون الجولـة إلى حد أنهم استولوا على الجسر، وأحرقوا قسماً منـه، ووقتها أمر دوق النمسا أتباعـه بالانسحاب من الجسر، والسماح للعدو بعبوره، الأمر الذي لم يتجرأوا على القيام به، وخلال ذلك الوقت كله قامت النساء بشجاعة بتزويد الجنود الصليبيين بالماء، والخمـــرة، والخبـز، والنشـاب، وقـــدم الكهنة المسـاعـــدة أيضـاً بصلواتهم، وبمبـاركـة الرب، وبتضميـد جـراحـات الجرحى، وفي ذلك

اليـوم المقـــدس، لم يسمح للصليبيين بفـرصـة القيـــام بحمل أية سعف نخيل، غير القسي العقـارة، والأقـواس العـــادية، والحراب والسيـوف، والترسـة ، والسهام، لأن أعـداءهم ، كانـوا يرغبون بتحـرير المدينة من الحصـار والمحـاصرين لها، لذلك داومـوا هجماتهم بدون توقف، وفعلوا ذلك من شروق الشمس حتى الساعة العـاشرة من النهار، فلم يسمحوا للصليبيين بأية راحـة، وأخيراً تعبـوا فـانسحبـوا من ميـدان القتـال مع خســائــر كبيرة، ومجدداً هاجم المسلمـــون في يوم الصعـــود الصليبيين بطريقتهم المعتادة، براً وبحراً، وبعد حملات متوالية لم يتوصلوا إلى تحقيق غرضهم، لكنهم أ زعجـوهم قرب معسكرهم، وأوقع كـل فريق كثيراً من الجرحى بالفريق الآخر.

الحملة الشديدة الثالثة التي قام بها المسلمون على الصليبيين

وقـام الأعداء بعـد هذا في الحادي والثـلاثين من شهر تموز فجمعـوا جميع القـوات التي استطاعـــوا حشـدها، وبعـد حملات متـواليـة عبروا الخندق، بعـدما تغلبـوا على المقاومـة التي أبدتها قوات الداوية، وشقـوا بالقوة صفوفهم، وأرغمـوا الرجالة الصليبيين، على الفرار، وبذلك بات الجيش كله في خطر محيق قريب، وحاول الفرسان مع الخيالة العلمانيين، والجنود الرجـــالـة ثلاث مـــرات صـــدهم، لكن مـن دون تأثير، ورفع المسلمـــون وقتهـا أصـــواتهم، وتضـــاعف رعب الصليبيين، لكن روح الحكمـة والشجـاعـة ألهمت الداوية، لأن مقـدمهم مع المارشـال وبقيـة الفرسـان الرهبان قـاموا بهجوم من خـلال الفتحة الضيقـة وبشجاعتهم أرغموا الأعـداء على الفرار، وعندما رأى الفرسـان الألمان والفريزيون، والفـرسـان مـن مختلف الشعـوب أن عسـاكـر الداويـة كـانوا في خطر، اندفعوا من أماكنهم القـريبة لمساعدتهم، وفقد مـائة من رجالة المسلمين ترستهم وقتلوا، وذلك إلى جانب الذين سقطوا في الخندق وماتوا هناك، ثم قـام الجنود الرجـالة من الصليبيـون بالحملة، وتراجع العـدو لمسافـة

قصيرة، ووقف الجنود الصليبيين وقتها تحت السلاح، حتى وضع حلول الظلام حداً للقتال، وكان المسلمون قد انسحبوا قبل ذلك الوقت، وبقي عدد من الذين قتلوا إلى جانب الخندق، وكان إلى جانبهم كثير من الذين كانت اصاباتهم قاتلة، حيث حملوا إلى المعسكر، وبفضل نعمة الرب، وبسبب شجاعة الداوية كان الذين قتلوا من الصليبيين أووقعوا أسرى عددهم قليل، وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الوقائع ناشبة، جرى احراق جميع مجانيق الصليبيين وسلالمهم التي أقاموها في مواجهة المدينة، وكان الذين تولوا احراقها هم رجال حامية المكان، مما سبب ضرراً كبيراً للصليبيين، وبعدما قام السلطان بهذه الحملات، لم يتجرأ ثانية على الاشتباك مع الصليبيين، بل نصب معسكره قرب الجيش المحاصر للمدينة، ومكث هناك على شكل كمين.

الاشتباك في معركة بين الصليبيين والمسلمين

عندما بذل جيش المسيح جهوده لمدة طويلة لتدمير أسوار المدينة بمجانيقه وعراداته مع بقية أنواع آلات الحرب، من دون تأثير، رأى القسم الأعقل من رجاله واكتشفوا أنه من غير الممكن الاستيلاء على دمياط من دون إرادة الرب وتدخله، وبناء عليه وعلى تذمرهم استيقظ في الصباح جميع الذين كانوا في المعسكر من أجل انزال العقاب بذنوبهم وخلافاتهم، ذلك أن بعضهم رأى وجوب الإشتباك بالقتال في معركة مع السلطان الذي بقي في معسكره على مقربة من الصليبيين في مكمن هناك، وأنهم بغلبته من الممكن السيطرة على دمياط، هذا من جانب ومن جانب آخر، كان من رأي ملك القدس، ورأي آخرين كثر إلى جانبه، أنه طالما أن الحصار ما برح مستمراً منذ مدة طويلة، ينبغي الاستمرار به حتى ترغم حامية المدينة على الاستسلام إما بارغام الرب لها على ذلك، أو بضغط المجاعة، لأن جميع الذين نجوا إما عن طريق الباب الخلفي، أو قاموا بتدلية أنفسهم من أعلى الأسوار، قد تبين من

مظاهر تورمهم وأوضاع الجوع الواضحة عليهم أن أبناء مدينتهم كانوا يعانون من المجاعة، وسيطر بالأخير رأي الذين قرروا الاشتباك بالقتال مع المسلمين، وفي اليوم الذي تقدم على يوم عيد القديس يوحنا المعمدان زحفوا جميعاً على شكل كتلة واحدة —مع أنهم كانوا مختلفين بين بعضهم أنفسهم— ضد معسكر المصريين، وكانوا يضمون الجيش كله حتى أنه بصعوبة بقي هناك رجال يتابعون أعمال الحصار، وتابعوا زحفهم، واكتشفوا وجود أعداء الايمان في معسكرهم بين البحر والنهر، وذلك حيث لا يمكن العثور على مياه نقية للشرب، وقام الأعداء لدى اقترابهم بتقويض خيامهم وتظاهروا بالفرار، وبعد ما توغل الصليبيون بزحفهم ما فيه الكفاية، ورأوا أنهم لا يمكنهم الإشتباك مع الأعداء بمعركة مفتوحة، عقد قادة الجيش اجتماعاً طويلاً، تناقشوا فيه عما إذا كان عليهم متابعة الزحف أم العودة، وانقسمت الآراء بينهم بعمق إلى حد أن التشكيلات المختلفة انفصلت دون الوصول إلى أي قرار، وذلك باستثناء الذين حافظوا على طاعة أطول، وأظهر فرسان قبرص، الذين تمركزوا على الجناح الأيمن أولاً علامات الخوف، وكان ذلك عندما هاجم المسلمون الجناح، وكان جنود الرجالة الرومان أول من لجأ إلى الفرار، وجاء من بعدهم فرسان من مختلف البلدان مع بعض فرسان اسبتارية القديس يوحنا، مع أن النائب البابوي، والبطريرك الذي حمل الصليب التمسا منهم الصمود في وجه العدو، لكن من دون فائدة، وكانت حرارة الشمس عالية جداً، وقد غلب الجنود الرجالة وقهروا بوزن دروعهم وأسلحتهم، وزادت الحرارة من متاعب الزحف، وقام الذين جلبوا خمرة معهم بشربها صرفة من دون ماء بسبب آلام عطشهم، ولحاجتهم إلى الماء، وأما الذين هربوا بعد الهاربين الأوائل، فظلوا يركضون، حتى انقطعت أنفاسهم، وسقطوا أمواتاً ، دون أن يصابوا بجراحة، وصمد —على كل حال— ملك القدس، مع الداوية، وطائفة التيوتون ، واسبتارية القديس يوحنا ، وايرلات : هولاندا،

وويكي Wicke وســـالسبري وتشيستر، وولتر بيرتـولد Bertold، ورينالد دي بونت، والفرنسيون، والبيازنة، وفرسان من مختلف البلدان، صمـدوا في وجـه حملة المسلمين، وكانوا بمثـابة سـور للفـارين، وحيثما أظهـر الأعداء وجـوههم، وتعرض ملك القـدس إلى الدمار شبـه الكلي بنيران النفـوط، ووقع بالأسر أثناء هـذا القتـال من الصليبيين الأسقف المنتخب لبــوفيـاس، مع أخيـه أنـدرودي نانتي، عمـدة دي بومــونت Beaumont ،وولتر حـاجب ملك فــرنسـا وابنه جـون أوف آرك Arc وهنري أوف أولم Ulm ، وقتل ووقـع بالأسر ثلاثــة وثلاثين من فرسان الداوية، وذلك إلى جـانب مارشال فرسـان اسبتارية القديس يوحنا، مع بعض الفـرسان الرهبان من الطائفـة نفسها، ولم ينج فـرسان طائفة التيوتون من دون خسائـر، وإلى جانب هؤلاء جرى قتل الكثيرين وأخذهم أسرى، وكـان فرسـان الداوية دوماً أول من يهاجم وآخـر من ينسحب، وعلى هذا كــانوا آخـر الصليبيين وصـولاً إلى الخنـدق، فقـد تصدوا بشجـاعة إلى الأعداء، وتابعـوا صمودهم حتى تمكن جميع الذين كـانوا قـد دخلوا إلى تحصينـات المسلمين وقتـذاك من العـودة، ثم عـاد المسلمون وحملوا أسراهم ، وجمعوا الغنائم وعلم الصليبيون فيما بعد من المسلمين، أن رؤوس خمسمائـة من الصليبيين قدمت إلى السلطان، وكـان من الواضح أيضاً للصليبيين أن المسلمين عـانوا أيضاً من خسـائر كبيرة بين صفــوف عســاكــرهم الرئيسيين، لأن السلطان أرسل واحــداً من الصليبيين الأسرى لديـه للتفــاوض لعقـــد هـدنة أو ســـلام، وتمكن الصليبيــون خـلال مـدة المعـاهدة هذه من تـرميم خندقهم بشكل جيـد وذلك مع آلات الحرب.

كيف غادر عدد من الحجاج دمياط من دون إذن

وقـام في تلك الآونة بعض البحارة، وبعض الخونة للصليبيـة ومعهم عدد من الصليبيين، بالتخلي عن جيش المسيح، قبل موعد العبور المحدد

بالعـادة، وقـد تركـوه في أعظم حـالات خطره، وبمغـادرتهم زادوا من أحـزان الصليبيين ومن جـرأة المصريين، وبناء عليـه خـرق المسلمـون المعاهدة، وقـاموا عشيـة عيد القـديس كوسماس والقـديس داميان، وفي اليوم التالي(٢٦—ايلول)بمهـاجمة الصليبيين بحدتهم المعهودة، وبشدتهم وقسوتهم المشهودة، وذلك مع غلايين مسلحـة وبراكيس، وجاء الهجوم بالبر والبحـر، وتـرافق الهجـوم مع استخـدام المنجنيقــات، والدرابيء، وحزم من الأشيـاء لطم الخندق، وقتلوا بهذا الهجوم المفـاجيء عدداً من الصليبيين، غير أن الذي نصر اسرائيل، وهو الرب القـدير هيأ الأسباب لسلامـة المعسكر، لأن سافـاريك دي موليـون وصل وقتها مـع غلايين مسلحـة وعـدد كبير من الجنود، وعندمـا رأى الصليبيـون هذا وهـم في حالة خـوفهم العظيم رفعوا أصواتهم نحو السماء، وقـدموا شكرهـم إلى الرب، وأصبحوا أكثـر شجاعة، وبجرأة اشتبكوا مع الأعـداء، وأرغموا المسلمين على التراجع بفضل منه هو الذي يحفظ الذين يثقون به.

الموتان بين حامية دمياط

ولسـوف نتحدث الآن ونروي أخبـار بعض الوقـائع التي وقعت في المدينة، فقد عانى أهل دمياط أثناء حصار مدينتهم الطويل من الهجمات، ومن الجوع ومن الأمـراض أكثر مما يمكن وصفـه، وكـانوا قد وضعـوا ثقتهـم في أمل أن يتمكـن السلطان— كما وعـــــد— بـالتعجيل مـن أجلهم،بالتفــاوض مع الصليبيين والاتفــاق معهم، حتى يمكـن بذلك نجاتهم من الموت، وفي الحقيقـة كانت المجاعـة في تلك الآونة قد عمت في المدينة، وبات السكان المحاصرون من دون مؤن، لأن القمح المصري غير قابل للخـزن الطويل بسبب نعـومة الأرض التي ينمو فيهـا، وذلك باستثناء المنـاطق العــاليــة قـرب القــاهـرة، حيث كــان يحفظ بشكل [اصطناعي] لمدة سنة تقريباً، وأغلـق المسلمون وقتها أبواب المدينة حتى لا يتمكن أحـد من الخروج ليحـدث الصليبيين بما كــانوا يعـانون منه،

لأنهم تألموا في كـل يوم بشكـل مـــرعـب، كما بدأت المؤن لـدى جيش السلطان، الذي كان يحاصر الصليبيين في الخارج بالنقـص الشديد عنده، حتى أن تينة واحـدة بيعت باثني عشر دينارا، وكــان بين مختلف أنواع الآلام التي عانـى منها أولئك التعساء ليـلاً ونهاراً، أنهم هوجموا من قبل الأمـراض حتى أنهم لم يعـودوا قــادرين على رؤية شيء حتى ولو أنهم فتحـوا أعينهم على اتســاعهـا، وإلى جانـب هذا، فإن النيل الذي يفيض بالعادة ويغمـر السهول ويسقيها من عيد القـديس يوحنا المعمدان حتى عيد تمجيد الصليب، لم ترتفع مياهه في هذا العام كما هي العادة، بل ترك أجزاء واسعة من الأرض جافـة، ولم يكن من الممكن بذرها أو فلاحتها في ذلك الجزء، ولذلـك سعى السلطان، وهو خــائـف من المجـاعــة، ولرغبتـه بالحفاظ على دميـاط، وبذل جهده للإعـداد لاتفاق سـلام مع الصليبيين، وقويت عزيمته على الوصول إلى اتفاق بالاستيلاء الرائع على البرج، وبثبات الصليبيين أثناء القتال، فقد تمكن هؤلاء الذين كانوا مجرد قوة صغيرة من المؤمنين الحقيقيين، في أغلب الأحيان من مقاتلة القوات الاسلاميـة كلها بشجاعـة وأرغموها على الفـرار، وذلك إلى جانب قتل آلاف كثيرة منهم.

كيف عرض السلطان تسليم مملكة القدس إلى الصليبيين شريطة انسحابهم من دمياط

وعلى هذا استبـد القلـق بالسلطان كثيراً، فعقـد اجتماعـاً مع نبــلائـه ومستشاريـه المخلصين، وخاطبهم كما يلي قـائلاً:«إن رب الصليبيين رب قوي، ومخلص وحليف قوي في القتال، وقـد عرفنا ذلك جميعاً، وبشكل خاص في الحالة الطارئة حالياً، فقد قاتل بشكل واضح من أجل أعدائنا وضدنا، ومما لاشك فيه، أن كل مايمكننـا عمله سوف يكون بلا فائدة، مادامـوا يحصلون على عونه، والاستيـلاء على دمياط بات وشيكاً، وهي مفتـاح مصر، وإذا مـا سقطت سـوف ينجم عن ذلك خسـارة كبيرة لنا

ولشريعتنا، فصحيح أنها حـوصرت مـراراً مـن قبل الصليبيين، هي لم تخضع قط لهم، وبناء عليه أعتقد أنه سوف يكون لمصلحتنا، أن نعيد إلى رب الصليبيين، جميع ما هو عائد إليه، حتـى باسترداده ما هو عائد إليه، لن يقـوم بالاستيـلاء منا على مـا هو عـائـد إلينا، ذلك أنه رب عـادل، ولايشتهي الاستيلاء على أملاك الآخرين، وإذا مارفض الصليبيون هذه العـروض العـادلة من أجل السـلام، التي ستكون مشرفـة كثيراً إليهم، سـوف يثيرون بذلك غضب ربهم ضـدهم، إلى درجـة البغضـاء لهم، وذلك بسبب جشعهم الشرير، وهـو في كـراهيـة منه ومقت لعجـرفتهم سوف يبتعد عنهم، ولسوف يجدون فيـه عدواً لهم، مع أنه هو الذي قدم لهم من قبل مساعـدته الرحيمة، ومع أن هذا الرأي كـان غير مقبول من قبل الكثيريـن، أرسل رسـلاً إلى الصليبيين، وعـرض عليهم إعـادة الصليب الحقيقي، الذي كـان صلاح الدين قـد استولى عليـه قبل بعض الوقـت الذي مضـى، وأن يطلق سراح جميـع الأسرى أي الذيـن يمكن العثـور عليهم أحيـاء في جميع أرجـاء مملكة القـاهرة ودمشق، وأن يدفع النفقـات اللازمـة من أجل ترميم أسـوار القـدس، وأن يعيـد المدينة إلى حالتهـا السالفـة، كما أنه عرض التخلي عن جميع مملكة القـدس باستثناء الكرك والشـوبك، ومن أجل الاحتفاظ بهذين المكانين عـرض أن يدفع سنويا جـزية مقـدارها اثني عشر ألـف دينار مـادام محتفظاً بهما، وهاتان القلعتان موجودتان في العربيـة ولهما سبعة تحصينات قوية، وموجودتان على الطريق الذي يسافر عليه بالعادة تجار المسلمون وحجاجهم من مكة وإليهـا، كما أن الذي يتملك هذين الموقعين يمكنـه أن يلحق الكثير من الأذى بالقـدس، وبالكروم والحقـول، وقـرر ملك القـدس باصرار مع ايرل شيستر وجميع القـادة الفـرنسيين والألمان، بأنه يتـوجب قبـول هذه الشروط المعـروضـة، وأنها سـوف تكون مفيـدة للصليبيين، وعلينا أن لانعجب نحـو هذا، لأن الصليبيين كانـوا من قبل على استعداد للقبـول بشروط للسلام أقل نفعاً من هذه، هي الشروط التي كـانت قد عرضت

عليهم قبل هذه الشروط، لولا أن ذلك قد منع من قبل الآراء الحكيمة، وكـان النائب البابوي على كل حـال راغبـاً بالاستيلاء على دميـاط، وأن تصبح ملكـاً له، وأيده بذلـك البطريرك ورجـــال الدين، ولـذلك تمت معارضة هذه الشروط وأصروا على أنه ينبغي الاستيلاء على دمياط، قبل جميع الأمـاكن وفوقهـا، وسبب هذا الاختـلاف بالرأي شقـاقاً، وبسببـه غادر رسل السلطان وهم مسرورين جداً، وعندما جرى اخبار السلطان بهذا، أرسل بشكل سري قـــوة كبيرة من الجنود الرجـــالـة من خـــلال مستنقعـات دمياط، وقـام مائتـان وأربعون من هؤلاء بمهـاجمة معسكر الصليبيين، عندما كـانوا نائمين في ليلة الأحد بعد عيـد جميع القديسين، لكن الجيش استيقظ بوساطة أصوات الحراس، ولذلك وقعوا بالأسر أو قتلوا، وكان عدد الأسرى قد بلغ مائة أو أكثر.

الاستيلاء الاعجازي على مدينة دمياط

وبعد هذه الأحداث قام الجيش الصليبي بحملات شديدة على مدينة دميـاط، وأخيراً شاهدوا أن الشرافـات باتت خاليـة من المدافعين، وبناء عليه وضع الصليبيون بكـل سرعة سلالمهم على الأسوار وبرغبـة عارمة دخلوا إلى المدينة، وهكذا بمـوجب قـرار مخلص العـالم، جرى في اليـوم الخامس من شهـر تشرين الثـاني، الاستيلاء على مـدينة دميـاط من دون مقاومة، ومن دون صوت، ومن دون نهب، لذلك ينبغي أن نعزو النصر إلى ابن الرب وحـده، ومع أنه جـرى الاستيلاء على مـدينة دميـاط على مرأى ومشهد من ملك مصر، هو لم يتجرأ -كما هي العادة -على مهاجمة الصليبيين، بل هرب مضطربـاً وأحـرق معسكره، وتحت قيـــادة المسيح، دخلت عساكـره وقتها دمياط، ووجـدوا الشوارع مكتظة بجثث الموتى، وواجهوا رائحة نتانة لايمكن تحملها صادرة عنهم وعن أكثر المخلوقات البشرية بشاعة، فقد قتل الأموات الأحياء، وقتل الزوج زوجته، والأب ابنه، والسيـد خادمـه، فلقـد هلكوا من روائح بعضهم بعضـاً، ولم تكن

الشوارع فقط هي المليئة بالموتى، لأن الجثث كانت ممددة في البيوت وفي غرف النوم، وقد طلب الصبيان والأطفال الخبز، فلم يجدوا أحداً يقطعه لهم، وكان الأطفال الرضع معلقين على صدور أمهاتهم، وكانوا يتدحرجون فوق جثث الموتى، وقد مات الأغنياء المتخمين من الجوع مع أنهم كانوا محاطين بالقمح، فقد مات منذ بداية الحصار ثمانين ألفاً من الناس في تلك المدينة، وذلك باستثناء الذين وجدهم الصليبيون هناك أصحاء ومرضى، وقد بلغ تعداد هؤلاء ثلاثة آلاف أو أكثر، ومن هؤلاء وجد ثلاثمائة من ذوي المراتب العليا، وقد احتفظ بهم الصليبيون أحياء لمبادلتهم بأبناء جلدتهم ممن كانوا أسرى لدى المسلمين، وذلك باستثناء الذين يؤمنون بالمسيح وكانوا معمدين وكانت هذه المدينة قد حوصرت أولاً من قبل البيزنطيين، الذين أخفقوا بالاستيلاء عليها، ثم جرى حصارها من قبل اللاتين تحت قيادة عموري ملك القدس، لكن اللاتين لم ينجحوا، وفي هذه المرة التي هي المرة الثالثة، سلمها ملك الملوك، ومولى الموالي إلى عبيده، وكان مولانا يسوع المسيح هو الذي سيعيش وسيحكم إلى الأبد ثم إلى الأبد.

منهوبات دمياط الثمينة

وجد الصليبيون في المدينة كميات كبيرة من الذهب والفضة، والحرير، والأقمشة، والألبسة الثمينة، مع زين دنيوية، ومختلف أنواع السلع بكميات وافرة، ولقد أقسموا جميعاً على وجوب حمل الأسلاب إلى الخارج، ومن ثم تقسيمها بالتساوي بين المنتصرين، وقد صدر الأمر بهذا من قبل النائب البابوي تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي، وأخذوا من أجل الاستخدام العام شطراً كبيراً من ثروات مصر من ذهب وفضه ولآلىء، وفواكه، وعنبراً، وخيوطاً ذهبية، وشراريب، ومختلف أنواع الأقمشة الثمينة، وقد جرى توزيعها بين أفراد جيش الرب مع القمح الذي وجدوه في المدينة، وتولى أسقف عكا تعميد جميع الأطفال الذين

عشر عليهم أحياء في المدينة، واتخذ النائب البابوي أيضاً من المسجد الكبير للمدينة كنيسة كرسها تشريفاً للعذراء مريم المباركة مع جميع الرسل، ولمجد ورفعة شأن الايمان بالتثليث، وكانت مدينة دمياط، بالاضافة إلى ماتمتع به مكانها من وضع طبيعي أمن لها الحماية، محاطة بثلاثة أسوار، فقد كان هناك سور منخفض في الخارج لحماية الخندق الخارجي، ثم سور ثاني أعلى من الأول، ثم سور ثالث أعلى من الثاني، وكان في السور المتوسط ثمانية وعشرين برجاً رئيسيا مع متاريس مزدوجة أو ثلاثية، قد بقيت دون التعرض للأذى، وذلك باستثناء واحد كان قد تعرض للرمايات من مجانيق الداوية، لأن الرب رغب في تسليم تلك المدينة إلى عبيده سليمة لتكون مفتاحاً وممهداً لجميع بلاد مصر، وكانت المدينة قائمة فيما بين رعمسيس وسهل تنيس في أرض جيرسين Gersen، وقد قدر الصليبيون أنها المراعي التي هرب منها بنو اسرائيل من فرعون في أيام المجاعة، حسبما وردت الحكاية في العهد القديم (التكوين: ٤٧).

الاستيلاء على قلعة تنيس

وجرى بعد الاستيلاء على دمياط على هذه الصورة، إرسال حوالي الألف رجل في يوم عيد القديس كليمنت (٢٣ -تشرين ثاني) على شكل طلائع في قوارب أبحرت داخل نهر صغير اسمه نهر تنيس، من أجل الحصول على المؤن من القلعة والبلدة، وللقيام بتفحص المواقع بشكل دقيق، ولدى اقترابهم من القلعة التي حملت اسم النهر، ورؤية المسلمين الذين كانوا يتولون حراستها، الصليبيين، اعتقدوا أن الجيش الصليبي كله كان هو القادم، ولذلك أغلقوا الأبواب وهربوا، ودخل الصليبيون، والمسيح قائدهم الوحيد، بتشوق وحماس إلى القلعة، وأعلن الصليبيون بعد عودتهم أنهم لم يشاهدوا قط قلعة في سهل أكثر حصانة منها، ذلك أن السواتر الدفاعية فوقها كلها مستديرة، وكانت محاطة

بخندق مزدوج مسور من على الجانبين مع ستائر خارجية، وكانت هناك منتشرة حول القلعة إلى مسافة بعيدة، ولهذا السبب كان من الصعب الوصول إليها من قبل الجنود الخيالة في الشتاء، وهي منيعة جداً في الصيف ولايمكن الاستيلاء عليها بالحصار من قبل أي جيش، وكانت هذه البحيرة فيها وفرة كبيرة من السمك، وعنه يجري دفع أربعة آلاف مارك سنويا إلى السلطان، وفي المكان أيضاً وفرة عظيمة بالطيور وبالمالح، وكان هناك عدد من القلاع من حولها كلها خاضعة لهذه القلعة، لأن المدينة التي كانت قائمة قبل القلعة، كانت موقعاً معروفاً كثيراً، وأوسع من دمياط، لكنها تحولت فيما بعد إلى ركام من الخرائب، وهذه هي تنيس التي أشار إليها النبي داوود في المزامير، وكذلك أشار إليها اشعيا بقوله: «الرؤساء الحمقى لتنيس» الخ، ويحكى أن إرميا قد رجم في هذه المدينة، وذلك حسبما وصلنا الخبر في العهد القديم، وتقع تنيس على مسافة سفر يوم من دمياط، وهي على الطريق البحري نحو أرض الميعاد، ولذلك سوف يكون من السهل وضع حامية هناك، وارسال المؤن إما بالبر أو البحر من عكا أو من دمياط، وكانت قد ألحقت أضرار كبيرة بالصليبيين أثناء حصار دمياط، عندما كانت سفنهم تذهب إلى أو تأتي من عند الجيش الذي ذهب إلى قرب ذلك المكان، لأن الشاطىء أمام تنيس هو رملي، ولايوجد ميناء هناك، بل هناك خليج واسع، ولايمكن للسفن التي تدفع إلى داخله الخروج من دون ريح طيبة.

وحصل في هذا العام النبيل رالف ايرل شيستر على إذن من النائب البابوي، وجاء ذلك بعدما قاتل لقرابة العامين في خدمة الرب، وعاد إلى الوطن مع المباركة من النائب البابوي، والأماني الطيبة من الجيش كله.

كيف هاجم لويس طولوز وأرغم على التراجع باضطراب

وفي هذه الآونة، حشد لويس، الابن الأكبر لملك فرنسا، جيشاً كبيراً،

بناء على تحريض من أبيه، لمحاربة الألبينيين الهراطقة، وزحف مع قواته كلها لإلقاء الحصار على مدينة طولوز، التي كانت مسكونة من قبل الملوثين بالهرطقة، وبعدما مركز مجانيقه من حول المدينة، شرع الفرنسيون بمهاجمتها من دون توقف، لكن عندما رأى سكان المدينة هذا، استعدوا للدفاع، ونصبوا منجنيقا أمام منجنيق، وبعدما استمر الحصار لمدة طويلة دونما تأثير، وقعت مجاعة كبيرة بين صفوف الجيش الفرنسي، وهي مجاعة تبعها موتان مخيف بين كل من الناس والخيول، وأصيب سيمون أوف مونتفورت قائد الجيش المحاصر للمدينة بجراحة أمام باب المدينة، بوساطة حجر قذفت من عرادة، ولأن جسده قد سحق كليا، فقد توفي في مكانه، وأصيب أخوه أيضاً، أثناء حصار قلعة قرب طولوز، وفق الطريقة نفسها، بحجرة مقذوفة، ومات، مما سبب حزنا عظيماً لكثيرين، ولذلك قام لويس بعد الموتان الكبير الذي لحق بجيشه، وبعدما عانى من خسائر كبيرة في جميع سلعه وعتاده، بالعودة وهو مضطرب إلى فرنسا، مع البقية من عساكره.

التتويج الثاني للملك هنري

عام ١٢٢٠، فيه كان الملك هنري في عيد الميلاد في مارلبورا، وكان مايزال تحت وصاية بطرس، أسقف وينكستر، وفي هذا العام وفي يوم عيد أحد الشعانين الذي كان في السابع عشر من أيار، صار الملك المذكور في السنة الخامسة من حكمه، ولذلك جرى تتويجه ثانية في كانتربري من قبل ستيفن، رئيس أساقفة ذلك المكان، بحضور رجال الدين والناس من مختلف أجزاء المملكة، وفي يوم العيد المقبل للقديس برنابا الرسول اجتمع الملك هنري، ملك انكترا، مع الاسكندر ملك الاسكوتلنديين في يورك، حيث أبرمت معاهدة من أجل عقد زواج بين الاسكندر ملك الاسكوتلنديين واخت ملك انكلترا، وبعدما جرى تثبيت العقد، عاد ملك الاسكوتلنديين إلى وطنه.

تطويب القديس هيوج أسقف لنكولن

وجرى في هذا العام نفسه تطويب هيوج أسقف لنكولن من قبل البابا هونوريوس، وجرى قبوله في تعداد القديسين، وتم في البداية البحث في معجزاته من قبل ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، وجون راعي ديرة النبع، ووضعت محصلات ذلك في الشهادة التالية الصادرة عن مولانا البابا: «من هونوريوس الأسقف، عبد عبيد الرب، إلى جميع أولاده المحبوبين والمؤمنين بالمسيح، وإلى الذين سوف تأتي هذه الهدية إليهم بمثابة صحة ومباركة رسولية، فقد عينت الرحمة الربانية مكان هناءة في السماء إلى قديسيها ونخبتها، وفي وقت وجودهم على الأرض شرفتهم بالمعجزات، حتى يمكن إثارة خشوع المؤمنين بذلك من أجل التماس شفاعتهم، وبناء عليه، دوّنا بين أعداد القديسين، هيوج أسقف لنكولن، صاحب الذكرى المقدسة، التي هي واضحة وبينة بالنسبة إلينا، ولذلك حولتها الفضيلة الربانية مشهورة واضحة بوساطة عدد من معجزاته المجيدة، التي وقعت أثناء حياته، وبعدما لبس ثوب الموت، ونحن نأمر، وباسم الرب نحث جميع الرهبان لديكم لأن يلتمسوا بخشوع وساطته مع الرب، وبالاضافة إلى هذا نحن نأمر، أنه يتوجب اتخاذ يوم منذ تاريخ وفاته يكون عيداً له يحتفل به بشكل مهيب في كل سنة من الآن فصاعدا. صدر في فيتيربو في السابع عشر من شهر شباط، في السنة الرابعة من بابويتنا».

الاستيلاء على قلعتي ساني وروكنغهام

في هذا العام نفسه، وفي يوم عيد الرسولين بطرس وبولص (٢٩ -حزيران) استولى الملك هنري فجأة على قلعتي: روكنغهام Raching-ham وساني Sanney، على الرغم من ارادة وليم ايرل ألبيمارل Albe-marle وعندما وصل الملك المذكور إلى القلعتين لمهاجمتهما وجدهما فارغتين من جميع أنواع المؤن، حتى أنه لم يكن بهما معا ثلاثة أرغفة من

الخبز.

نقل القديس توماس رئيس أساقفة كانتربري

وفي العام نفسه، وفي اليوم التالي لثمانية القديسين بولص وبطرس، جرى اخراج جسد القديس توماس الشهيد ورئيس الأساقفة من ضريحه الرخامي، وتولى اخراجه ستيفن رئيس أساقفة كانتربري بحضور الملك، وتقريبا جميع الأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والايرلات، والبارونات في المملكة، ثم وضع بتشريف لائق في تابوت جرت صناعته بشكل متقن بالذهب والجواهر وكان حاضراً أيضاً أثناء عملية النقل: رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، وعدد كبير آخر من المملكة الفرنسية، ومن بلدان أخرى متعددة، لأنهم تشوقوا للاجتماع وحضور هذه المناسبة المهيبة كثيراً، لأنهم اعتقدوا أنه واجب عظيم القيام بتشريف وتبجيل هذا الشهيد المقدس في سبيل المسيح، وهو الذي سفك دمه من أجل الكنيسة المسكونية وقاتل دون توقف في سبيل ديمومتها.

حصار قلعة بيهام والاضطرابات في المملكة

عام ١٢٢١م، فيه عقد الملك هنري بلاطه في اكسفورد يوم عيد الميلاد، وقد شهد ذلك ايرلات وبارونات المملكة، وفي هذا المكان، بعد إقامة الطقوس والقداسات الملكية بنجاح وسلام، وزع بكرم على الجميع كل حسب استحقاقه، وفقاً للعادة القديمة للملكة، وقد رغب - على كل حال -وليم دي فوريت Foret [إيرل أوف ألبيارل Albe-marle] أن يعكر صفو الهدوء في المملكة، فغادر دون أن يستأذن، وفعل ذلك في الليلة التالية وزحف بكل سرعة إلى قلعة بيهام Biham، حيث حشد بعد عدة أيام بعض العساكر، وهاجم بلدة تينهام Ten-ham ونهبها، وأخذ معه القمح العائد إلى كهنة برايدلنغتون Bridling-

ton إلى قلعة بيهام، كما أنه نهب بلدة دينغ Deping وأماكن أخرى في الكونتية نفسها واتخذ السكان أسرى، وبعدما عذبهم بقسوة أرغمهم على افتداء أنفسهم، وكان الذي حرضه على القيام بهذه الأعمال هم -كما قيل - فالكاسيوس، وفيليب مارك، وبيتر دي موليون، واينغلارد دي آثي، وآخرون كثر، فهؤلاء بعثوا إليه بشكل سري جنوداً لإثارة الاضطراب في المملكة، وفي أثناء هذه الاضطرابات هرب سكان ذلك الجزء من الكونتية إلى الكنائس من أجل السلامة، وحملوا معهم سلعهم إلى المقابر، واحتشد في الوقت نفسه نبلاء انكلترا أمام الملك في ويستمنستر لمناقشة شؤون المملكة، لكن ذلك الايرل الذي استدعي للاجتماع مع البقية، تظاهر بأنه سوف يقدم إلى هناك، لكنه مثل مسافر ماكر غير هدفه، وذهب إلى قلعة فوثرنغيFotheringay، وكانت هذه القلعة آنذاك بعهدة رالف ايرل أوف شيستر، ولكنها كانت شبه خالية من الفرسان والجنود، وعندما عرف الايرل المذكور هذا الوضع وضع سلالمه عليها، وحصل على مدخل إليها مع جنوده، ومالبث أن أخضعها، واعتقل الحرس القليل العدد الذي وجده هناك، وعهد بها إلى بعض من جنوده ووضعهم فيها، وبادر بعد ذلك مسرعاً كل السرعة إلى بلدة بيهام، ثم قام بنهب جميع المنطقة المجاورة بوساطة جنوده، وزود قلعته وشحنها من أسلاب الآخرين، ولكن عندما وصل خبر هذا التمرد إلى الملك وإلى مستشاريه، حشد على الفور جيشاً، وفي اليوم السادس بعد طهارة القديسة مريم، نصب جنود جيشه مجانيقهم حول القلعة، ودمروا في وقت قصير الأسوار والأبنية، حتى أنه لم يعد لدى المحاصرين مكانا آمنا يخبئون رؤوسهم فيه، وبناء عليه غادروا خرائب القلعة، لأنه لم يبق أمامهم مجال آخر، وفي اليوم الثامن من شباط خرجوا ومثلوا أمام الملك، الذي أمر بوضعهم في السجن حتى تشاور حول الذي ينبغي فعله معهم، وجاء في الوقت نفسه ايرل أوف ألبيمارل إلى الملك تحت توجيه وولتر رئيس أساقفة يورك، وقد سامحه الملك بناء على

توصية والو النائب البابوي، وبحكم أنه كان قد خدم بشجاعة واخلاص الملك وأبيه في حروبهما، وجرى اطلاق سراح جميع الفرسان والجنود من دون عقوبة أو غرامة، وجاء اطلاق السراح من قبل الملك، الذي أعطى بذلك مثلاً سيئاً إلى المتمردين الآخرين ضده، وجعلهم يطمئنون في مثل هذه الحالة.

الخلاف الذي نشب بين رتشارد أسقف درم والرهبان

ونشب في هذه الآونة خلاف شديد بين رتشارد دي ماريسكو Ma-risco أسقف درم وبين رهبان تلك الكنيسة، حول بعض الامتيازات القديمة والأعراف، التي تمتع بها الرهبان مدة طويلة في الماضي، وأرسل الأسقف مخادعة رسالة إلى الرهبان المذكورين ليقدموا إليه مع امتيازاتهم وكتابات كنيستهم، حتى إذا كان بهم أي نقص، يمكنه تزويدهم به بقرار منه، ورفض رئيس الرهبان والرهبان رفضاً مطلقاً تمكينه من مشاهدة كتاباتهم، لأنهم توجسوا شراً من خداعه وخافوا من غشه،وبناء عليه، عندما وجد الأسقف نفسه غير قادر على رؤية كتاباتهم، أقسم أنه سوف ينقل جميع ممتلكاتهم ويحولها لاستخدامه الخاص، وأضاف إلى ذلك أنه إذا ما وجد أي واحد منهم خارج باب ديره، هو لن يقبل فدية له أقل من رأسه، وأقسم أيضاً أنه مادام حياً لن تعرف كنيسة درم الهدوء والسلام، وبعد مضي وقت قصير قام أتباع الأسقف بجر واحد من الرهبان وأخرجوه بالقوة من الكنيسة، وعندما قام هذا الراهب بعرض شكواه عن سوء معاملته إلى الأسقف، أجابه ذلك الأسقف بقوله بأن خدمه كانوا سيحسنون صنعاً لو أنهم قتلوه، وكان من ذلك الوقت، هذا الأسقف عدوانيا إلى أبعد الحدود نحو الرهبان المذكورين، وصار ينزل بهم أعظم الأذى، ولذلك اضطروا إلى الترافع والشكوى إلى البابا، ووضعوا أنفسهم وجميع ممتلكاتهم تحت حمايته، ثم إنهم بعثوا بعض رجال الدين والرهبان إلى روما حيث تقدموا بشكاوى كثيرة ضد

الأسقف، وجواباً على ماتقدم له حصلوا على الرسالة التالية من قداسته: «من هو نـوريوس الأسقـف، إلى أسقفي ســـالسبري وايـلاي، وإلى الآخرين، تحيـات، الخ، من الواضح تماماً أننـا نتمتع بسماع الآراء الطيبة لإخواننا ورفـاقنا، وأننا لن نتغاضى عن شرور آثام المعتـدين، ولن يخطر على بالنا، تقـديراً منا لقـانـوننا ونظامنا، تأييـد المذنبين، الذين تجعلهم ذنوبهم جـديريـن بالموت، وذلك انسجـامـاً مع مـاضربوه من أمثلة في اقتراف الذنـوب لشعــوبهم، التي تقلـد فقط مثـل هذه الجرائـم التي شاهدوها بأعينهم، وبما أنه عندمـا يجري في الغالب التقليد، فـاننا نشعر بالمسؤولية تجاه مايقوم به أخونا أسقف درم، ولأن أعماله متباينة تماما مع ماتقتضيه الكرامة الأسقفية جرت أخيراً اثارتنا بوساطة الالتماسات التي جـذبت انتباهنا، وبناء عليـه لن نسمح للأسقف المذكور الاستمـرار أية مـدة أطول من دون ضبطه وردعـه عن شناعاتـه، لأن شكاوى ساطعـة وتهما مكشوفة قـد قدمت ضده، من أنه منذ ارتقائـه إلى المرتبة الأسقفية صار مجرمـاً بسفك الدماء، والسيمـونية، والزنا، والتجـديف، والسرقة، والحنث باليمين، وكثيراً من الجرائم المضاعفـة في التهور في ظلم الرهبان وقمعهم، مع اليتامى، ورجال الدين، وبمنع تقديم القربان للناس وقت مـوتهم، وفي التـورط في الـدفـاع عن امتيـازات الملك مـراغمـه لولدنا المحبـوب بانـدولف الأسقف المنتخب لنورويك، ومع أنـه تحت عقـوبة الحرمان الكنسي، يتدخل بإقـامة الطقوس الدينية والقـداسات، وكذلك بالنسبـة للشكاوى والمرافعات المقـدمـة لنا والمعروضـة علينا، هو لم يقم تقـديراً لكنيسـة رومــا، ولم يلتـزم بقـرارات المجمع المسكوني، ولم يبشر بكلمة الـرب لشعبه، وبسلوكـه الفاسـد، وبممارسات حياتـه قد ضرب مثلاً سيئاً إلى الـذين هم تحت ادارته، فلقد أقسم بحضـور عدد كبير من الناس، بأن كنيسـة درم لن تعرف الهدوء والسـلام أثناء حياته، وعندمـا تشكى له واحـد مـن رهبـان درم بأنه جـرّ من الكنيســة من قبل خـدم الأسقف، وضرب حتى سالت الدماء منه، أجـابه بأنه كان يفضل لو أن

خدمه قد قتلوا الراهب، وعلاوة على هذا، لقد داس بقدميه في جميع المناسبات الأحكام الرسولية، التي حددت أي نوع من الأشخاص ينبغي أن يكون الأسقف، وبناء عليه، حتى لانضاعف أخطاء واحد آخر، الأمر الذي سنقترفه لو أننا مررنا مرور الكرام على الذنوب الكبيرة والآثام العظيمة للأسقف المذكور، لاسيما بعدما وصلتنا الصرخات حول هذه القضية، نحن الآن لايمكننا الاستمرار بالتغاضي عن هذه القضايا، ولذلك رأينا من الأفضل النزول من مقام منصبنا الرفيع، للبحث ولرؤية فيما إذا كانت هذه الشكاوى صحيحية أم لا، وبناء عليه نحن نأمركم بوساطة رسائلنا الرسولية هذه القيام بالبحث والتقصي حول هذه القضايا، وعندما تقفون على ما هو صحيح تماماً، ارسال محصلة أبحاثكم مغلقة تحت ختمكم، إلينا، وذلك حتى نتمكن بعون الرب من اتخاذ قرار حول مالذي يتوجب فعله في هذه القضية. صدر في فيتيربو، في السنة الخامسة من بابويتنا».

كيف ذهب أسقف درم إلى روما للاجابة على شكاوى الرهبان

عندما وصلت رسائل مولانا البابا إلى أيدي وكلائه، قاموا بموجب الواجب المفروض عليهم باستدعاء أسقف درم مع رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والشمامسة، والعمداء في مؤسسة البلاط والمحكمة في درم، وكذلك جميع الآخرين من العلمانيين ورجال الدين في تلك المقاطعة، الذين اعتقدوا ان لهم علاقة تنظيمية بهذه القضية، وعندما مثلوا جميعا في الموعد المحدد والمكان المقرر أمام هؤلاء الوكلاء، جرت قراءة رسائل البابا، على مسمع منهم جميعاً من أجل أن يحصل كل واحد منهم على معلومات واضحة عن القضية، وبعد الفراغ من القراءة وفهم المحتويات نهض رجال دين الأسقف وعرضوا بعض التعليلات الحمقاء الفاسدة، وجاء ذلك رداً على الوكلاء، وأنهم لا يمكنهم متابعة التقصي والبحث، لأنهم سوف يترافعون أمام البابا، وبعدما قدم إلتماس

استئنافه غـادر مع رجال دينه وذلك بعد تحديد موعـد من أجل متهميه للظهور ضـده في حضرة البابا، وبعدمـا قدم الأسقف المذكـور استئنافه، أخذ طريقـة إلى بلاط روما، وجـاء ذلك بعدمـا أرسل أمامـه بعضاً من رجال دينه ليحصلوا له على الحظوة عند البابا ضـد خصومه، وبناء عليه تمكن رجـال الدين المذكـوريـن، قبل وصـول رهبـان درم إلى رومـا من اضعـاف قضيتهم كثيراً، وبناء عليـه وبعـد كثير من المشـاحنات من على الجانبين في حضرة البابـا، وبعدما أنفق الأسقـف وكذلك الرهبـان مبلغاً كبيراً من المال، جـرى إرسالهم عـائـدين إلى انكلترا، إلى الوكلاء المتقـدم ذكـرهم، ليقـومـوا بتقـرير وتحديد مـا هو صحيح، ومنذ أن تفجـر هذا الخلاف فيما بينهم، استمر لوقت طويل، حتى وضع موت الأسقف حداً للنزاع، كما كان هو نفسه قد أعلن.

بناء قلعة جديدة في مونتغمري

وفي العـام نفسه، في حـوالي عيد مـيلاد القـديسة مـريم ألقى للويلن Llewellyn ملك ويلز الحصـــار على قلعـــة إسمهـــا بويت Buet (Builth) وكـانت بلدتها تابعـة لرينالد دي بروز Brause فالتمس بالحاح المساعدة من الملك، حتى يمكن بوسائله رفع الحصار، بحكم أنه كان غير قادر بوسائطه الخاصـة تدبر ذلك، وبناء عليه، ولأن الملك عليه عدم التخلي عن نبلائـه، زحف إلى هناك مع جيش كبير، ورفع الحصار، وعمد الويلزيون— كما هي عـاداتهم—إلى الفرا ر، وعندها زحف الملك نحو مونتغمري Montgomery مع جيشه، آمراً بجمع جميع سلع وممتلكات الويلزيين الذين قـابلوهم مع مـواشيهم من أجل دعم أتباعـه الذين كانوا معه، ولدى الوصول إلى مونتغمري وبعد الطواف في المنطقة كلهـا هناك، رأى قادة الجيش أن المكان مناسب لبناء قلعـة لأن موقعهـا بدا أنه لا يرام، وبناء عليـه أمـر الملـك ببناء قلعـة هناك من أجل ضمان تلك المنطقة، لأن من المعـروف قيام الويلزيين بغـارات من هناك، وبعد

هذا حصل الجميع على الإذن،وعـــاد وا إلى مـواطنهـم، وجـرى السماح للنبلاء بالمغادرة بعد دفع ماركين من الفضة عن كل محلجة.

أوضاع الأرض المقدسة بعد الاستيلاء على دمياط وتنيس

[وفي هذه الآونة بعث مقـدم فرسـان الداوية بالرسـالة التـالية حـول شـؤون الأرض المقدسـة:] «إلى أخينا المحترم في المسيح، يرسل إليكم تحيـاته ن.N بنعمـة الرب أسقف إليمنيـوم Elimenum وبطرس دي مونتأليـوت مقدم فـرسان الداوية، نعلم قـداستكم بالرسائل المعـروضة أمـامكم عن سير أمور مـولانا يسـوع المسيح منذ الاستيلاء على دميـاط وعلى قلعة تنيس، وليكـن معلوم لديكم بالمقام الأول أنه بعـد الاستيلاء المذكـور، وصل إلى دميـاط عـدد من الحجـاج، شكلوا مع بقيـة الجيش الذي بقي، مـا فيه كفاية لشحن دميـاط وللدفاع عن المعسكـر، ومولانا النائب البـابوي ورجـال الدين، يرغبون في تقـدم قضيـة جيش المسيح، ولذلك غـالبـاً مـا يقـومـون بحثّ الناس وتحريضهم للهجـوم على المسلمين، لكن نبـلاء الجيش، وكذلك الذيـن من مناطق ما وراء البحـر ومعهم الذين هم من جانبنا من المياه،يرون أن الجيش ليس كافياً للدفاع عن المدينتين المتقـدمتي الذكـر والقلعتين، وفي الوقت نفسـه لا يمكن المضي أبعـد في سبيل منفعـة المسيحيـة، ولذلـك هم لم يوافقـوا على هذه الخطة، لأن سلطان مصر مع حشـد لا يحصـى عـدده من المسلمين، قـد نصب معسكره قرب دمياط، وبنى على كل فرع من فروع النهر جسوراً ليعيق تقـدم الصليبيين، وهو هنـاك مع جيش عمـلاق، وأن يقـوم الصليبيـون بـالتقـدم أكثـر، فـإنهم وقتهـا سـوف يكـونون في خطر هو الأعظم، ومـع ذلك لقـد قمنـا بتحصين المدينة المذكـورة، والمعسكر، والسـاحل القـريب منا بخنادق من جميع الجهـات، متـوقعين أن تتم مواسـاتنا من قبل الرب بوساطة مسـاعدة الذين هم قادمين لمسـاعدتنا، ورأى المسلمون -على كل حال - عدم كفايتنا، فسلحوا جميع غلايينهم،

وبعثوا بهم إلى البحـر في شهر ايلول، وسبب هـؤلاء خسارة كبيرة ألمت بالصليبيين الذين كانوا قادمين لتقديم العـون إلى الأرض المقدسة، وكان هناك في جيشنا عجـز كبير بالمال إلى حد أنه لم يعد بإمكـاننا الحفاظ على سفننا لأية مـدة أطول، ولدى معـرفتنا بأن خسـائـر كبيرة تنزل بالجيش الصليبي، بوســاطة غــلايين المسلمين تلك، قمنـا على الفــور بتسليح غلاييننا، وسفننا ومـراكبنا الأخرى للتصـدي لهم، وليكن أيضاً معـروفاً لديكم بأن المعظم سلطان دمشق، قـد حشـد جيشـاً كبيراً من المسلمين، ولدى معرفتـه بأن مدينتي عكا، وصـور لم تكونا مزودتين بما يكفي من الفرسـان والجنود للتصدي له، قام بشكل مستمـر بالحاق الأذى الشديد بهذين المكانين، بشكل سري، وبشكل علني، وبالاضـافة إلى هذا، غـالبا ماجاء ونصب معسكره أمام معسكرنا، الذي اسمه «المحج» [عثليت]، ملحقاً بنا كل أنواع الأذى، كما أنه حـاصر قيسارية في فلسطين واستولى عليها مع أنه كان هناك عدد من الحجاج مقيمين في عكا، وعليّ أيضاً أن أخبركم بأن الأشرف ابن سيـف الدين، وأخــو سلطاني مصر ودمشق، يقاتل مع جيش قوي ضـد المسلمين في المناطق الشرقية، وقد انتصر على أعظم أعدائـه قوة، لكن ليس ضد الجميـع، لأنه بفضل الرب سوف لن يكون بإمكانـه بسهـولة قهــرهم جميعــاً، لأنه إذا مــااستطاع انهاء تلك الحرب، سوف يكون من الممكن أن يلتفت باهتمامه نحو كونتيه أنطاكية، أو نحـو طرابلس، أو عكا، أو مصر، ولسـوف نكون في الخطر الأعظم، إذا كـان سيتـولى حصـار أية واحـدة من قـلاعنا، لأننا لن نستطيع، بأي حال من الأحوال دفعه وابعـاده، هذا والحديث عن وجود خلافات بين المسلمين يمنحنا السرورة والراحـة، علاوة على ذلـك إننا متوقعـون منذ وقت طويل وصـول الامبراطور ونبــلاء آخـرين بهم نأمل أن نتحـرر، ونأمل بوصــولهم بانهاء هذه المسألة، التي بـدأت بأيدي كثيرة، إلى نهاية سعيدة، ولكن إذا خابت آمالنا بشأن هذه المساعدة، ولم تصل في الصيف المقبل -الأمــر الذي آمل أن لايحدث -ســوف يكون وضع البلـدين

اللذين هما مصر وسورية، وماتملكناه مؤخراً ، والذي نمتلكه منذ زمن طويل، في موضع شك، وبالاضافة إلى ما تقدم لقد ظلمنا نحن والناس الآخرين من جانبنا من الغرب بالنفقات العالية جداً في الاستمرار بهذه الصليبية،ووصل الحال والضيق بنا إلى درجة أننا سوف نكون غير قادرين على الانفاق على حاجتنا الضرورية، ما لم نتسلم، بفضل، الرحمة اللاهوتية، بأسرع وقت ممكن المساعدة من أبناء ديننا المسيحيين. صدر في عكا في العشرين من أيلول».

حج فيليب دي ألبيني إلى الأرض المقدسة

عام ١٢٢٢م، فيه أمضى الملك هنري عيد الميلاد في ويستنمستر، حيث زوده بطرس أسقف ذلك المكان بجميع الضروريات للاحتفال، وفي هذا العام أيضاً، انطلق فيليب دي ألبيني، الذي كان فارساً شجاعاً وأميناً وكان موجهاًمخلصاً لملك انكلترا، وأخذ طريقة نحو القدس، وقد وصل إلى هناك بعد رحلة موفقة، دون المعاناة من أية خسارة في الممتلكات والسلع، وما أن تعرف على شؤون الأرض المقدسة حتى بعث الرسالة التالية إلى رالف ايرل شيستر:

حول فقدان دمياط

«إلى صاحب القداسة والمولى والصديق رالف ايرل شيستر ولنكولن، يتمنى له صديقه المخلص فيليب دي ألبيني الصحة وخالص العواطف، عليّ أن أخبر معاليكم أنه في يوم صعود العذراء مريم أبحرنا من ميناء مرسيليا، وفي يوم الاثنين قبل ميلاد العذراء نفسها وصلنا إلى أمام دمياط، وهناك رأينا عدداً كبيراً من السفن تغادر البلدة، ولقد تحدثت مع واحد من المراكب وقدمت هدايا إلى الملاحين، وبناء عليه قدموا وتحدثوا إلينا، وجلبوا إلينا تقارير حزينة جداً، أفادت بأن شعبنا في دمياط، والنبلاء في تلك المدينة، وملك القدس، والنائب البابوي، ودوق

بافاريا، والداوية والاسبتارية ، مع آخرين كثر، بلغ عددهم إلى ألف صليبي وخمسة آلاف من الفرسان الآخرين، مع أربعين ألفاً من الجنود الرجالة، قد مضوا في حملة نحو القاهرة، وذلك على الرغم من معارضة الملك، حيث —كما قيل—قد غادروا في يوم عيد القديس بطرس في الأغلال، وهذا معناه أنه مضى على غيابهم في تلك الحملة ثلاثة أسابيع أو أكثر، وهم الآن في حوالي منتصف الطريق بين دمياط والقاهرة،وقدم وقتها سلطان القاهرة مع أخيه المعظم ومعهما جميع القوات التي تمكنا من حشدها، وغالباً ما هاجما قومنا، وكثيراً ما فقدا بعضاً من رجالهما، وعندما رغب شعبنا بالعودة إلى دمياط، أصبح النهر فائضاً، وطاف لعدة أيام على طرفيه، وانحصر شعبنا بين فروع النهر، ثم عمل المسلمون قناة من فرع إلى آخر على مقربة من جيشنا، وفي الوقت نفسه ازداد ارتفاع النهر بشكل كبير جداً، حتى أن شعبنا صار رجاله يخوضون في الماء حتى ركبهم وأوساطهم، مما سبب لهم شقاء عظيماً وآلاماً، وبذلك صاروا عرضة إما للقتل أو الوقوع أسرى بيد سلطان القاهرة، وذلك حسبما يرغب، وفي ظل هذه الأوضاع وافق شعبنا على هدنة لمدة ثمانية أعوام وأبرموها مع السلطان، على شرط تخليهم عن دمياط وتسليمهم لها مع جميع الأسرى الذين لديهم بالأسر، وفي سبيل مراعاة هذه الهدنة وتنفيذها، بقي ملك القدس، والنائب البابوي ودوق بافاريا والشخصيات الهامة الأخرى بمثابة رهائن، وقدم السلطان وأعطى عشرين رهينة من أجل مراعاة الهدنة من جانبه، وعندما سمعنا بهذه التقارير شعرنا بحزن عظيم، كما يتوجب على كل مسيحي أن يشعر، وبناء عليه رأينا أن من الأفضل أن نأخذ طريقنا إلى عكا، لأننا لم نرغب أن نكون حضوراً لدى تسليم دمياط، وقد وصلنا إلى عكا في اليوم التالي لميلاد العذراء مريم، وهو اليوم الذي أعقب يوم تسليم دمياط إلى السلطان، وقد قام السلطان نفسه بإطلاق سراح جميع الأسرى الذين كانوا لديه، وعليّ أيضاً أن أخبركم أن صاحب الجلالة

ملك القدس، على نية الذهاب إلى بلادكم، ولذلك أرجوكم أن تقدموا له العون، وفقاً للوعود التي عملت نحو الملك والنبلاء الآخرين، لأنه من الصعب وصف فضائله الكبرى التي هي موضع اعجاب».

رسالة أخرى حول القضايا نفسها

«من الراهب ب. pدي مونتأكيوت ، المقدم المتواضع لفرسان الداوية، إلى أخيه المحبوب في المسيح أ. A مارتل Martel الشاغل لمنصب مدرس في انكلترا، تحيات: لقد كنا من حين إلى آخر قد أخبرناكم عن تطور أحوال القضية التي نحن بشأنها والمتعلقة بشؤون يسوع المسيح، ونخبركم الآن بانتظام عن الانتكاسات التي واجهناها في أرض مصر، بسبب ذنوبنا، فلقد مكث الجيش الصليبي بعد الاستيلاء على دمياط وقتاً طويلاً، دونما حراك، في ذلك المكان، ولقد ألقى الناس الذين قدموا من مناطقنا في الغرب والذين جاءوا من مناطق ما وراء، البحر، الملامة والنقد علينا بسبب هذا السلوك، وقد وصل دوق بافاربا بمثابة قائد ممثل للامبراطور، وقد أوضح للناس بأنه قد جاء بغرض الحرب ضد أعداء الايمان المسيحي، وبناء عليه جرى عقد اجتماع ضم مولانا النائب البابوي، ودوق بافاربا، ومقدموا الداوية والاسبتارية وطائفة التيوتون، والايرلات والبارونات، فيه تقرر بالاجماع القيام بالتقدم، وبعدما جرى الارسال خلف ملك القدس المشهور، جاء مع باروناته ومعه اسطول من الغلايين والسفن المسلحة، ووصل إلى دمياط، ووجد جيش الصليبيين مقيماً في معسكره خارج الخطوط، وبعد عيد القديسين بطرس ، وبولص، استأنف وقتها صاحب الجلالة الملك والنائب البابوي ومعهما الجيش الصليبي كله، الزحف بشكل نظامي في كل من البر والماء، وقد اكتشفوا وجود السلطان مع حشد لا يحصى من أعداء الصليب، وقد هرب هؤلاء من أمامهم، وبناء عليه تابعوا زحفهم من دون خسائر حتى وصلوا إلى معسكر السلطان، وكان هذا المعسكر

محاطاً بنهر كانوا غير قادرين على عبوره، ولذلك أقام الجيش الصليبي معسكره على ضفة النهر، وشيد جسوراً للعبور إلى أمام معسكر السلطان الذي كنا مفصولين عنه بوساطة نهر تنيس، الذي هو فرع لنهر النيل العظيم، وبعدما أقمنا بعض الوقت هناك، غادر عدد كبير جيشنا، من دون الحصول على إذن، ولذلك نقص عدد الجيش بعشرة آلاف أو أكثر، وفي الوقت نفسه،عندما فاض النيل أرسل السلطان غلايين وبراكيس إلى داخل النهر لإعاقة سفننا، وفعل ذلك من خلال أقنية كان قد فتحها وأعدها من قبل، وبهذه الطريقة لم يكن من الممكن وصول مؤن إلينا من دمياط، وبذلك حرمنا من المؤن، لأن المؤن تعذر وصولها إلينا عبر البر، بسبب أن المسلمين منعوها من الوصول، وهكذا فإن الطريق بالبحر وبالبر الذي كان من الممكن عبره أن تصل المؤن الضرورية إلينا بات مغلقاً، وعقد الجيش اجتماعاً للتباحث من أجل العودة، لكن أخوا السلطان: الأشرف والمعظم، سلطانا:حلب ودمشق والسلاطين الآخرون، خاصة سلاطنة: حمص،وحماة، وقلعة جعبر مع ملوك مسلمين كثير آخرين، وجيش لا يحصى عدده من المسلمين، كانوا قد جاءوا لمساعدتهم، تولوا قطع طريق تراجعنا وغادر— على كل حال —جيشنا أثناء الليل وسار عبر البر والماء، لكنه فقد كل المؤن في النهر، وذلك إلى جانب عدد كبير من الرجال، لأنه عندما فاض النهر، وجه السلطان الماء في اتجاهات مختلفة من خلال مجاري خفية وأقنية وترع، كانت كلها قد أعدت قبل وقت مضى لإعاقة تراجع الصليبيين وبناء عليه تفرق جيش المسيح بين الأغواط، ولذلك فقد جميع حيوانات الحمولة لديه، ومخزوناته، وجميع حاجياته الضرورية تقريباً، وصار بذلك محروماً من المؤن، وبذلك لم يعد بإمكانه الإشتباك بالقتال مع السلطان بسبب أنه كان محاطاً بالنهر، وهكذا بات معتقلاً في وسط المياه مثل سمكة، وعندما وجد قادة الجيش أنفسهم في هذا المأزق، وافقوا مكرهين على تسليم مدينة دمياط إلى السلطان، مع جميع الأسرى الذين

يمكنهم العثـور عليهم في صـور وعكـا، مقـابل الصليب الحقيقي، والأسرى الصليبيين الموجـودين في مصر ودمشق، وبنـاء عليـه نبنا مع عدد آخـر من الرسل عن الجيش بشكل عام، وذهبنا إلى دميـاط لإخبار الناس في المدينة عن الشروط التي فـرضت علينا، مما أزعج كثيراً أسقف عكا، والمستشار، وهنري كـونت مالطا، الذي وجـدناه هناك، ذلك أنهم رغبوا بالدفـاع عن المدينة، وهو ما توجب علينا الموافقـة عليه، لو أمكن فعله والقيـام بـه مع أية منافع، لأننا كنا بالحري نـؤثر أن نوضع في أسر دائم على تسليم المدينة للمسلمين الذي هـو عـار للصليبيـة، وبناء عليـه قمنا بعملية بحث دقيقـة خلال المدينة، ومع الأفـراد والأوضاع المؤثرة، فلم نجـد مالاً ولا أنا سـاً يمكن بوساطتهم الدفـاع عن المدينة، ولذلك رضخنا لهذه الاتفـاقيـة وربطنا أنفسنا بالإيمان وبـاعطاء رهائن، ووافقنا على هدنة ثابتـة لمدة ثمانيـة أعوام، والتـزم السلطان -حتى الانتهـاء من الترتيبات—بدقة بما كان قد وعد به، وزود جيشنا الجائع بالخبز والدقيق لقرابة خمسة عشر يوماً، ولذلك تعاطف برحمة مع آلامنا، وساعدنا بقدر ما أنت تستطيع ووداعاً».

مباراة مصارعة واضطرابات في مدينة لندن

وفي العام نفسه التقى سكان مدينة لندن في يوم عيد القديس جيمس، في مشفى الملكة مـاتيلدا، خارج المدينة لـلانخراط بمبـاراة مصارعـة مع سكان المناطق القـائمـة حـول المدينـة، لمشـاهدة من منهم يمتلك القـوة الأكبر، وبعـدمـا تصـارعـوا لمدة طويلة وسط الصراخ من على الطرفين، تمكن سكان المدينـة من إحـداث اضطراب وسط خصـومهـم، ونالوا النصر، وكان بين الذين تعرضوا للهزيمة قهرمان راعي دير ويستمنستر، وقـد غـادر وهـو يفكر بعمق ويبحث عـن وسيلة ينتقم بها لنفسـه ولأصحابه، وبعد لأي اعتمـد الخطة التالية للانتقام، فقـد عرض تقديم جـائزة من أجل المصـارعـة، في ويستمنستر، والذي سوف يبرهن نفسـه

على أنه المصارع الأفضل، ينبغي أن يتسلم الكبش بمثابة جائزة، وجمع في الوقت نفسه عدداً من المصارعين البارعين والأقوياء، حتى يمكنه بذلك استحواذ النصر، لكن لكون سكان المدينة كانوا راغبين في نيل انتصار آخر، قدموا إلى المباراة في قوة كبيرة، وبدأت المباراة والاصطراع من على الجانبين، واستمروا لبعض الوقت يرمون بعضهم الآخر، وبما أن القهرمان وأتباعه من الضواحي ورفاقهم من الأرياف، أرادوا الانتقام وليس الرياضة، بادروا إلى حمل السلاح وضربوا بحدة سكان المدينة، الذين قدموا إلى هناك غير مسلحين، وسببوا سفك الدماء بينهم، وأصيب سكان المدينة بالجراحة بشكل مخجل، وتراجعوا إلى المدينة وسط اضطراب عظيم وفوضى كبيرة، وبعدما صاروا بالمدينة حدث هياج كبير بين السكان، وأعطيت اشارة إلى السكان من مختلف المراتب للاجتماع، وجرى إخبار الناس بملابسات ماحدث، ولذلك اقترحوا جميعاً طرقاً مختلفة وخططاً متباينة للانتقام، لكن سيرلو Serlo، عمدة المدينة، وكان رجلاً حكيماً ومحباً للسلام، ارتأى أنه ينبغي استدعاء راعي دير ويستمنتسر للإجابة على هذه الاهانة، وإذا ماقدم ترضية مناسبة عن نفسه وعن أتباعه، فسيكون في ذلك رضا لهم جميعاً، وفي جواب على هذا، وقف واحد من أعيان المدينة، واسمه قسطنطين، وسط هتاف جميع السكان وقال إنه يرى وجوب هدم جميع أبنية دير ويستمنستر، وبيت القهرمان المتقدم الذكر وتسويتها بالأرض، وعندما أنهى كلامه، صدر القرار بذلك، وأنه ينبغي تنفيذ خطة قسطنطين، وما الذي يمكن أن يقال أكثر من هذا؟ واندفع السكان الحمقى والطائشين مع الآخرين في المدينة، وتوجهوا بشكل فوضوي، وكان قسطنطين على رأسهم، وقد دخلوا في حرب أهلية، حيث دمروا عدداً كبيراً من الأبنية، وألحقوا ضرراً كبيراً براعي الدير، وبما أن هذه الأحوال كان من غير الممكن إبقاءها سرية لوقت طويل، فقد وصلت إلى مسامع هيوبرت دي بورغ، المسؤول عن العدالة في انكلترا، فحشد قوة، وزحف نحو برج لندن،

ومن هناك أرسل رسلاً إلى المدينة، وأمر شيوخ السكان بالقدوم إليه بأقصى سرعة ممكنة، ولدى مثولهم أمامه سألهم عن رؤساء فعلة هذا الاضطراب، وهذه الفوضى في مدينة الملك، ومن الذي تجرأ على خرق السلم الملكي، ومثلما كان قسطنطين الذي كان هو الأجرأ في هذا الاضطراب، كان الآن هو الأجرأ بالإجابة، حيث أعلن أنه على استعداد للإجابة عن كل ماحصل، ولدى سماعه جميع الشكاوى، قال بأنه فعل الذي هو أقل مما ينبغي فعله، وعندما سمع المسؤول عن العدالة هذا الاعتراف، اعتقله من دون صدور أي صوت مع اثنين آخرين إلى جانبه، وأرسل في الصباح فالكاسيوس مع قوة من الجند عن طريق التيمز، وقد حمل قسطنطين بعيدا لكي يشنق، وعندما وضع الحبل حول عنقه، وفقد كل أمل، عرض دفع خمسة عشر ألف مارك من الفضة مقابل الابقاء على حياته، لكن ذلك كان بلافائدة، وقد جرى شنقه وقتذاك مع حفيده قسطنطين، وواحداً آخر اسمه غيوفري، وهو الذي كان قد أعلن الحكم الذي أصدره قسطنطين في المدينة، وهكذا بما أن سكان المدينة لم يعرفوا ماحدث، فقد جرى تنفيذ القرار الذي صدر بحقه من دون هياج وفوضى، ومضى بعد هذا المسؤول عن العدالة يتجول في المدينة مع فالكاسيوس وقوة من الجند، وقد اعتقل جميع الذين اكتشف أنهم كانوا مجرمين في الفتنة المذكورة وألقى بهم في السجن، وبعدما قطع أقدام بعضهم، وأيدي بعضهم الآخر سمح لهم بالمغادرة، وبسبب هذه الحادثة هرب بعض الناس من المدينة، ولم يعودوا إليها بعد ذلك ثانية، ثم أوقع الملك عقوبة كبيرة، حيث خلع جميع رجال العدالة في المدينة، وعين رجالاً جدد عوضاً عنهم.

عواصف رعدية وأحوال مناخية سيئة

وسمعت في الثامن من شباط من العام نفسه أصوات رعود مرعبة، وكانت أسهم البرق لدى اصطدامها قد أشعلت النار في كنيسة غراهام

في كونتية لنكولن، ومنها صدرت روائح كريهة جداً إلى حد أن الذين كانوا في الكنيسة لم يتحملوها، لذلك هربوا، وبعد مضي بعض الوقت أمكن عن طريق اشعال فتيل الشمع المقدس، ورش الماء المقدس، أمكن بعد بعض الاضطراب إطفاء النار، لكن آثار بعض اللهب ماتزال موجودة في الكنيسة، وكان هناك في العام نفسه، في يوم عيد تمجيد الصليب (١٤ -ايلول) كثيراً من الرعود في جميع أرجاء انكلترا، وقد تبع هذا هطول أمطار غزيرة، مع زوابع شديدة، ورياح عنيفة، واستمرت هذه الأنواء العاصفة مع المناخ الذي لم يكن معتاداً آنذاك حتى عيد طهارة العذراء،محدثاً دماراً عظيماً لعدد من الناس، وبشكل خاص إلى المزارعين، وقد بيع في الصيف التالي عيار القمح بمبلغ اثني عشر شلنا، ومجدداً سمع الرعد في العام نفسه في يوم عيد القديس أندرو الرسول (٣٠ -تشرين الثاني) في جميع أرجاء انكلترا بشكل عام، مما سبب دمار الكنائس، وأبراج الكنائس، والبيوت والأبنية الأخرى، وأسوار القلاع وسواترها الدفاعية، وفي بلدة اسمها بيلاردستون Pi-lardeston في كونتية ووريك Warwickدمرت العاصفة بيت أحد الفرسان، ودفنت زوجته، وثمانية أشخاص من كلا الجنسين، مما أفجع كثيراً من الناس رأوا المأساة، وازدادت العاصفة بعد هذا قوة وغضباً، فسقطت في البلدة نفسها، على بقعة من الحلفاء، كانت محاطة ببحيرة ذات ماء عميق، فجفت على الفور، فلم تترك فيها لاعشب ولاتراب، والذي بقي مجرد حجارة جافة، ومرة أخرى في عشية عيد القديسة لوسي Lucy(١٣ -كانون أول) العذراء، هبت بشكل مفاجيء ريح عاصفة، وقد ثارت بقسوة أعظم مما ذكرناه من قبل من العواصف، ذلك أنها أسقطت خلال انكلترا بشكل عام أبنية كأنها تعرضت للنفخ عليها من قبل الشيطان، وسوت بالأرض كنائس وأبراج، واقتلعت أشجار الغابات من جذورها وكذلك أشجار الفواكه، وبذلك نادراً مانجا انسان دون التعرض للخسارة والمعاناة منها.

كيف طالب ستيفن رئيس أساقفة كانتربري بامتيازات صك الحريات من الملك

عـام ١٢٢٣م، فيـه عقـد الملك هنـري بلاطه في عيـد الميـلاد في أكسفورد، ووصل إلى لندن بعد ذلك في ثمانية عيد الغطاس، لعقد مؤتمر مع البارونات، وهناك سأله رئيس أسـاقفة كانتربري وكـذلك سأله بقية النبلاء أن يؤكـد لهم الامتيازات والأعـراف الحرة، حتى يحصلوا عليها، وهي التي كـانت السبب في دخـول الحرب ضـد والده، ونظرا لما برهن عليه رئيس الأسـاقفة بكل وضوح، لم يتمكـن الملك المذكور تجنب منح هذا المطلوب، لأنه عندمـا غـادر لويس من انكلترا، كـان قـد أقسم هو ونبلاء المملكة على مـراعاة الامتيازات المذكورة، وأن يتدبـروا مراعاتهم من قبل الجميع، ولدى سماع هذا الطلـب، قـام وليم بريوير Briwere، وكان واحداً من مستشاري الملك، فتـولى الرد باسم الملك قائلاً: «بما أن الامتيازات التي تطالب بها قـد استخرجت بالقوة، ينبغي بالحقيقـة عدم مراعاتها»، فأصبح رئيس الأساقفة غـاضباً بسبب هذا الرد، فوجه اللوم إليـه قـائـلاً: «إذا كنت ياوليم تحب الملك، عليك عـدم إفسـاد سـلام المملكة»، وعندمـا رأى الملك بأن رئيس الأساقفة قـد أثير حتى الغضب قال: «لقد أقسمنا على مراعاة جميع هذه الامتيازات، والذي أقسمنا عليه نحن ملتزمون به»، ثم قام على الفور فعقد مؤتمراً، وبعث رسائل إلى كل واحـد من عمد مناطق انكلترا، آمـراً إياهم القيام بعمليـة بحث وتقصي بموجب قسم يؤديه اثني عشر فـارساً أو اقطاعياً أو رجـلاً حراً من كل كـونتية، حتى يعـرفوا أية امتيـازات كانت مـوجودة في أيام جـده الملك هنري وأن يبعثـوا إليـه بنتيجة البحث الخاصـة، إلى لندن في إطار خمسـة عشر يوماً بعد عيد الفصح.

خلاف بين الويلزيين ووليم مارشال

في هذا العام نفسه، عندما كان وليم مارشال ايرل أوف بمبروك في ايرلندا قام للويلين ملك الويلزيين مع جيش قوي، بالاستيلاء على قلعتين كانتا ملكاً لوليم المذكور، وقتل صبراً جميع الذين وجدهم فيهما، ثم غادر مبتعداً، تاركاً أتباعه الويلزيين في هاتين القلعتين، ووصلت أخبار هذه الوقائع بعد عدة أيام إلى مسامع وليم مارشال، فعاد مسرعاً كل السرعة إلى انكلترا، حيث حشد قوة كبيرة، ثم إنه حاصر القلعتين واستولى عليهما، وبما أن جميع أتباعه قد جرى قتلهم صبراً بعد استيلاء للويلين على القلعتين، مثل هذا فعل وليم انتقاماً فقتل صبراً جميع الويلزيين الذين أسرهم، وقام بعد ذلك حتى يزيد من انتقامه لنفسه فغزا أراضي للويلين، وأحدث دماراً في المنطقة حيثما ذهب وتوجه بالسيف والنار، ولدى سماع للويلين بهذا قدم للتصدي للمارشال مع قوة كبيرة، لكن الحظ وقف إلى جانب المارشال، حيث قاتل الأعداء، وبعدما قتل عدداً من الويلزيين، أرغم البقية على الفرار، وطاردهم بحرارة، وقتلهم من دون رحمة، فلقد جرى تعداد تسعة آلاف على أنهم قتلوا ووقعوا بالأسر، وفقط عدد قليل هم الذين نجوا بالفرار.

وفي العام نفسه، في حوالي أيام عيد صعود ربنا، جرى تكريس وليم موكلير Mauclere أسقفاً كارآيل Carlisle ليورك، وفي تلك الآونة نفسها، تدفق سائل زيتي نقي في الكنيسة الكبرى في يورك، من ضريح القديس وليم، الذي كان من قبل رئيساً لأساقفة تلك الكنيسة، وأمطرت السماء في العام نفسه مطراً لونه لون الدم، وقد صبغ الأرض في روما، لمدة ثلاثة أيام، مما سبب الدهشة لكثير من الناس.

موت فيليب ملك فرنسا

وفي العام نفسه، في حوالي أيام عيد القديس بطرس في الأغلال، مات

فيليب ملك فرنسـا، وقد كان أشار إلى موته مـذنب له ذيل ناري، ظهر قبل أيام قليلة، ومـا أن بات خبر موته معلومـاً، حتى بعث هنري ملك انكلترا، رئيس أساقفـة كانتربري مع ثلاثة أساقفـة إلى ابنه لويس، وكان ذلك إثر تتويجه، وقد طلب منه إعادة نـورماندي، ومناطق ماوراء البحر الأخرى، إليـه، وهو ماكان قـد أقسم على فعله مع موافقة جميع نبـلائه، لدى مغـادرته لانكلترا، عنـدمـا أقيـم السـلام بينه وبين ملك انكلترا المذكور، وعلى هذا الطلب رد لويس بأنـه متملك لنورماندي وللأراضي الأخـرى كحق له، وهو على استعـداد للبرهنة على ذلـك في بلاطه إذا مارغب ملك انكلترا بالظهور به لتأييد دعواه هناك، وأضاف بأن اليمين الذي عمل من جانب ملك انكلترا قد خرق، وكـان ذلك بارغام أتباعه الذين أخذوا أسرى في لنكـولن، على دفع غرامة فـدية ثقيلة، كما أنه فيما يتعلق بامتيازات مملكة انكلترا، التي من أجل الحصـول عليها قد وقعت الحرب، وهي التي جـرى منحهـا أثناء مغـادرته، وجـرى الاقسـام على مراعـاتها من قبل الجميع، قد تصرف ملك انكلترا بالنسبـة لها بشكل أنه لم يكتف بوضع القـوانين السيئة مجدداً مـوضع التنفيـذ، وأعـادهم إلى أحوالهم، بل إنه عمل قوانين أخرى أسوأ مما كان موجوداً في جميع أنحاء انكلترا، ولما لم يكن بإمكان رئيس الأسـاقفـة والأسـاقفـة الحصـول على جواب آخر، عادوا إلى الوطن، وأخبروا الملك.

الألبينيون ينتخبون بابا مضاد

وفي هذه الآونة قام الألبينيون الهراطقة، في مناطق: بلغاريا، وكرواتيا، ودالماشيا، فاختاروا لأنفسهم بابا مضاد، وهو شخص اسمه بارثولوميو، كانت عقيدته الفاسـدة قد نالت تأييداً كبيراً في هذه المناطق، إلى حد أنها أثارت أسـاقفـة وآخـرين كثـر في هذه البـلاد وأغـرتهم للالتحـاق بهذا الانشقاق، وقـد وقف ضده وعـارضه أسقف بورتوس Portus الذي كان النائب البابوي في تلك المناطق، وقـد كتب كمايلي إلى رئيس أساقفة

روان: «إلى أخينا المبجل، الذي هو بنعمة الرب رئيس أساقفة روان، وإلى أساقفته المساعدين، التحيات في مولانا يسوع المسيح، عندما أرغمنا على طلب المساعدة منك في سبيل قرين المصلوب الحقيقي، فنحن نعاني من التنهدات والدموع، وكل مارأيناه سوف نخبرك به، ومثل ذلك سوف نفعل بالنسبة لكل ماسنكون شهوداً له، فذلك الرجل المفقود، الذي ارتفع إلى مافوق كل شيء، وهو الذي عبد أو الذي دعي باسم رب، له الآن ممثل في كفره ممثل بشخص رئيس الهراطقة، الذين يدعوه الألبينيون باسم باباهم، وهو الذي يسكن الآن ضمن حدود بلغاريا، وكرواتيا، ودلماشيا، على مقربة من سكان هنغاريا، وقد تدفق عليه الهراطقة الألبينيون، ليحصلوا منه على أجوبة لأسئلتهم، والنائب لهذا البابا المضاد، الذي اسمه بارثولوميو، هو أسقف للهراطقة، وكان قد ولد في كاركاسون Carcasson ، وهو يقدم أعظم اجلال غير تقوي إلى ذلك الرجل، وقد تخلى عن سكنه واقامته في البلدة التي اسمها بورلوس Porlos ، وحمل نفسه إلى منطقة قرب طولوز، وكتب بارثولوميو هذا في مطلع رسائله التي أرسلها إلى مختلف الجهات ألقابه كمايلي: «من بارثولوميو عبد عبيد الايمان المقدس، إلى فلان، تحيات»، وكان من بين آثامه أنه أوجد أساقفة، وأقدم بشكل شرير على تكريس كنائس، وبناء عليه، إننا بوساطة سلطات الكرسي الرسولي، الذي أنا نائبه في هذه المنطقة، نرجوك بالحاح، ونلتمس منك بحق دم يسوع المسيح أن تقدم في ثمانية الرسولين بطرس وبولص إلى السين Sens، وهو المكان الذي سوف يجتمع فيه بقية أساقفة فرنسا، في ظل فضل الرب، وذلك حتى تقدم نصيحتك حول القضية المذكورة أعلاه، ولتقوم مع الآخرين الذين سوف يكونون هناك، في اتخاذ الاجراءات المضادة والقمعية ضد هرطقة الألبينيين هذه، وإلاّ فإننا سوف نخبر البابا بعدم طاعتك، صدر في بلانيوم في الثاني من تموز»، ومالبث موت البابا المضاد المذكور أعلاه، أن وضع على الفور حداً لهذا العصيان والاضطراب.

كيف سعى بعض البارونات لاحداث خصام

وانتشرت في العـام نفسـه اشـاعــات كبيرة بين نبـلاء انكلترا، الذين رغبـوا في افسـاد السلام في المملكة، وكـانت حـول هيـوبرت دي بورغ المسؤول عن العدالة، حيث قـالوا بأنه أثار سخط الملك ضدهم، وعمل بشكل منحـاز في إدارتـه للمملكة، وبالاضـافـة إلى هذا ازدادت سـوء نواياهم لدى وصـول رسل الملك، الذين أرسلهم إلى رومـا، حيث أنهم جلبـوا معهم مـرسـومـاً من مـولانا البـابا إلى رؤسـاء أسـاقفـة انكلترا وأساقفتهم المساعدين، قضى فيـه قداسته بأن ملك انكلترا قد بلغ السن القانونية تماما، ليبـاشر شؤون المملكة وادارتها بشكل رئيسي مع مساعدة مستشاريه، وأمـر البابا أيضاً في هذه الـرسائل، الوكلاء المتقـدم ذكرهم، بموجب السلطات الـرسولية، أن يقـوموا بأمـر الايرلات، والبارونات، والفرسان، وجميع الآخرين، المتولين مسؤولية القلاع، والمناصب العالية، والبلدات، التـي هي تحت سلطان الملك، بـالقيـــام فـــور رؤيتهم لهذه الرسائل، بتسليمهم إلى الملك دونما تأخير، ولإرغـام جميع المغامرين على تقديم ترضيـات تحت طائلة العقوبات الكنسية، وبناء عليـه كانت هناك فئة كبيرة من البارونات، الذين كانـت قلوبهم مليئة بالجشع، قد شعرت بالغضب بسبب هذه الأوامر، وقد اجتمعوا مع بعضهم لإشعال حرب، وبما أن أخبـار مـؤامـرتهم قـد انتشرت بـالخارج ولم تعـد بالخفـاء، لقـد تمسكوا بالقضايا المذكورة كمسوغ لإفسـاد سلام المملكة، فرفضوا أوامر رؤساء الأسـاقفة والأساقفـة، وقدموا اتهامـات كما ورد أعلاه، مفضلين اللجـوء إلى السلاح، على تقـديم ترضيـة للملك حـول القضايا المتقـدم ذكرها، ولسوف نتحدث عن ذلك فيما سيأتي.

جلب صليب مولانا إلى برومهولم

وتكرر في هذا العـام وقوع معجـزات لاهوتية في برومهـــولم -Brom holm، وذلك من أجل تمجيـد وتشريـف الصليب المانح للحيـاة، الذي

عليه تألم المخلص من أجل انقاذ الجنس البشري، وبما أن بريطانيا هي مكان واقع في وسط المحيط، لقد ارتؤي أنها جديرة بالكرم اللاهوتي حتى تتبارك بمثل هذا الكنز، وإنه لمن الضروري والموائم، لابل من الموائم جداً، أن نغرس في أذهان أبنائنا معلومات توضح سلسلة الأحداث التي جلبت ذلك الصليب من مناطق بعيدة إلى بريطانيا: كان بلدوين كونت فلاندرز قد تحول من كونت ليكون امبراطورا للقسطنطينية، وقد حكم في ذلك المكان بنشاط وفعالية لكثير من السنوات، ولذلك جرت مضايقته والاعتداء عليه في وقت واحد بشكل مرعب من قبل الملوك الكفار، وقد زحف ضدهم دونما استعداد محكم، وأهمل في هذه المرة أن يحمل معه صليب الرب، والآثار المقدسة الأخرى التي جرت العادة بحملها أمامه من قبل البطريرك والأساقفة، كل مرة كان فيها على وشك الانخراط في القتال ضد أعداء الصليب، وواجه بسبب إهماله في ذلك اليوم محنة مرعبة، لأنه عندما انقض على الأعداء من دون تدبر مع جيشه الصغير، دون أن يقيم تقديراً إلى حشد أعدائه الذي تفوق على جيشه بعشر مرات، في وقت قصير جرى تطويقه مع رجاله من قبل أعداء المسيح، وقتلوا جميعا أو أخذوا أسرى، والعدد الضيئل الذي نجا من العدد العام لم يعرف شيئاً عما حدث للامبراطور أو إلى أين ذهب، وكان في تلك الآونة شماس من أصل انكليزي، تولى القيام بقداس لاهوتي مع كهنته في بيعة الامبراطور، وكان هو واحداً من الذين تولوا المسؤولية عن الآثار المقدسة للامبراطور وخواتمه والأشياء والمنافع الأخرى، وبناء عليه عندما سمع بوفاة مولاه الامبراطور (لأن الجميع أخبروه بأنه قتل) غادر مدينة القسطنطينية بشكل سري مع الآثار المقدسة المتقدم ذكرها، ومع أشياء أخرى كثيرة، ووصل إلى انكلترا، وبعد وصوله إلى هناك ذهب إلى سانت ألبان، وباع إلى أحد الرهبان هناك صليباً مكفتاً بالذهب والفضة، وذلك بالاضافة إلى اصبعين من أصابع القديسة مرغريت، وبعض

الخواتم الذهبية والمجوهرات، وهذه الأشياء كلها محفوظة بتبجيل عظيم في دير القديس ألبان، ثم أخرج الشماس المذكور من عباءته صليباً خشبياً وأراه إلى بعض الرهبان، وأعلن مقسماً، بأنه كان بلاشك قطعة من الصليب الذي عليه تمدد مخلص العالم وتعلق، من أجل انقاذ الجنس البشري، ولكن بما أن تأكيداته لم يتم تصديقها في ذلك المكان، غادر آخذاً معه الكنز الذي لايقدر بثمن، مع أنه لم يكن معروفاً، وكان لذلك الشماس ولدين صغيرين عن الانفاق عليهما وحفظهما كان مشغولا وقلقاً كثيراً، ولهذا السبب كان مقصده من عرض الصليب المذكور على عدد من الديرة، قد جاء مشروطاً، بأن يجري استقباله مع ولديه ليعيشوا مع رهبان الدير، وبعدما تحمل الرفض من الاغنياء في أماكن كثيرة، وصل أخيراً إلى بيعة في كونتية نورفولك، اسمها بروموولم -Brom holm وكانت بيعة فقيرة جداً، وكلها مجرد أبنية معدمة، وهناك بعث وراء رئيس الرهبان مع بعض الرهبان، وأراهم الصليب المتقدم الذكر، الذي كان معمولاً من قطعتين من الخشب وضعتا بشكل متعاكس احداهما عبر الأخرى، وكان عرضهما تقريباً بقدر يد الانسان، ثم إنه توسل إليهم بتواضع أن يستقبلوه في طائفتهم مع هذا الصليب والآثار المقدسة الأخرى التي كانت معه، وكذلك ولديه، وشعر رئيس الرهبان مع رهبانه بسرور عارم تجاه امتلاك مثل ذلك الكنز، وبوساطة من الرب، الذي يتولى دوماً حماية الفقراء المتواضعين، أودع الثقة في كلمات الراهب، ثم إنهم استقبلوا الصليب باحترام لائق، وهو صليب الرب، وحملوه إلى داخل قلايتهم، وحافظوا عليه هناك بكل تقوى وتشريف عظيم، وبدأت المعجزات اللاهوتية تحدث في هذا العام -حسبما تحدثنا من قبل -في ذلك الدير في سبيل مجد وحمد الصليب المانح للحياة، فهنا جرت إعادة الموتى إلى الحياة، واسترد الأعمى نظره، وامتلك العرجان القدرة على المشي، وشفيت جلود المصابين بالجذام وغدت نقية، وتحرر الذين تلبسهم الشياطين منهم، وكل شخص مريض اقترب من الصليب

المذكـور مع اليقين، غـادر المكان وهو سليم معـافى، ولقـد قيل بأن هذا الصليب قد جـرى تعبده مـراراً، ليس فقط من قبل الانكليز، بـل أيضاً من قبـل الناس الذيـن هم من منـاطق نائيـــة، ومن الذيـن سمعـــوا بالمعجـزات اللاهوتيـة التـي اقترنت به [وفي حـوالي ثمانيـة الرسـولين: بطرس وبولص، وصل جـون دي بريين ملك القـدس، والمقـدم الأعلى للاسبتاريـة في ذلك المكان، إلى انكلترا، لطلب المساعدة مـن أجل قضية الأرض المقدسة].

كيف وضع ملك انكلترا بين يديه قلاع التاج على الرغم من رغبات البارونات

عـــام ١٢٢٤م، فيـه عقــد الملك هنري بلاطـه أيام عيـد الميــلاد في نورثأمبتون، وكـان معه رئيس أساقفة كانتربري، وكـذلك عدد كبير من الفرسان، وأمـا إيرل شيستر فقد أقام احتفال العيد مع المتـآمرين معه في ليستر، حيث تبجح وتلفظ بتهـديدات ضـد الملك وضـد المسـؤول عن العـدالة، وجــاء ذلك بسبب طلب الملك منه التخلي عن الـوصـاية على قلاعـه وأراضيه، وفي اليوم نفسـه، بعد الفراغ من القـداس المهيب، قام رئيس أسـاقفة كـانتربري وأسـاقفته المسـاعـدون، وهـم يرتدون الأردية البيضاء، ومعهم شمـوع مضاءة، فأعلنوا عن الحرمـان الكنسي لكل من يخرق سلام المملكة، وكذلك للذين يغـزون الكنيسة المقدسة، وممتلكات الكنيسة، ثم أرسل رئيس الأسـاقفة المذكور رسالة خـاصة إلى ليستر إلى ايرل شيستر والمتعـاونين معه،مخبراً إياهم جميعـاً، وفـرداً فرداً، أنهم مـالم يقوموا في اليوم التالي، بوضع جميع القلاع والمراتب العالية العائدة للتاج بين يدي الملك، ســوف يقـوم هو مع جميع الأســاقفـة بشكل مـؤكـد بحـرمـانهم كنسياً بالاسم، وذلك حسبما تلقـوا الأوامـر من البـابا بفعل ذلك، وبناء على ذلك بات ايرل شيستر مع جميع المتعاونين معه في مأزق كبير، ولاسيما بعدما جرى اخبارهم من قبل جواسيسهم بأن الملك لديه

فرق عسكرية قوية أكبر من التي لديهم، لأنه لو توفرت لديهم الوسائل الكافيــة لعملوا حـرباً ضـد الملك بسبب المسـؤول عن العـدالة،لكن لإدراكهم لعجـزهم كانوا خـائفين من الدخول في صراع مشكوك فيـه، علاوة على ذلك كـانوا خائفين من أن يقـوم رئيس الأساقفة والأسـاقفة بحرمـانهم كنسيا، مـالم يقلعوا عن قصدهم، ولذلـك اتبعوا أحكم خطة وأعقلها، فـذهبوا جميعاً إلى الملك في نورثأمبتون، وقـام كل واحد منهم، شروعـاً بايرل شيستر فتخلوا إلى الملك عن القـلاع، والبلدات والمراتب العليـا وعن مسؤوليتهـا وعن كل مـا هو عـائد للتـاج، وبقيت على كل حـال، نواياهم السيئة تجاه الملك وضده لأنه رفض صرف المسـؤول عن العـدالـة، وكـان الذين أثـاروا هذه الاضطرابات ضـد الملك هم: ايرل شيستر، وايرل ألبيمارل، وجـون قسطلان سيشتر، وفـالكاسيــوس مع رجـال قـلاعـه، وروبرت دي فيبـونت، وبرين دي لآيل، وبطرس دي مـوليون، وفيليب مـارك، وانغلارد دي آثي، ووليم دي كـانتيلو، ووليم ابنه، وآخـرون كثر، كانوا يستخـدمـون غـاية جهودهـم لافساد سـلام المملكة واثارة الاضطراب فيها.

كيف أخضع لويس ملك فرنسا روشيل وبقية بواتو

قـاد في العام نفســه لويس ملك فـرنسا جيشـاً كبيراً إلى روشيل -Ro chelle للاستيـلاء عليها بالقـوة أو بالرشوة، ولدى وصــوله إلى هناك، عرض على السكان مبلغاً كبيراً من المال، مقـابل تسليمه المدينة، وتقديم الولاء له، ولإطـاعتــه في المستقبل، وفكـر هؤلاء، فـرأوا أنهم كــانوا مهجـوريـن من قبل ملك انكلترا، وأنهم مغلـوبين باغــراءات لـويس ورشـاويه، فتخلوا عنها لصـالحه، وعند ذلك وضع فرسـانه وجنوده في المدينة والقلعة، وبعـدما ضمن جميع منطقة بواتو عـاد إلى الوطن بسلام، من دون سفك للدمــاء، وروشيل هي مينـاء بواتو، حيث اعتـاد ملوك انكلترا وفـرسـانهم على الرسـو من أجل الدفـاع عن تلك المناطق، لكن

الطريق أغلق الآن ضد الملك، بسبب المؤامرات التي أعدت ضده من قبل البارونات في انكلترا.

حصار بدفورد ومؤتمر نورثأمبتون

وفي العام نفسه، في ثمانية الثالوث المقدس، اجتمع الملك، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، والايرلات والبارونات وعدد كبير آخر، في مؤتمر في نورثأمبتون للبحث في شؤون المملكة، لأن الملك رغب بالحصول على نصيحة نبلائه وآرائهم حول ممتلكات ماوراء البحر، التي استولى عليها لويس بدرجات، وكذلك المسائل الأخرى التي وقعت ولم تكن متوقعة، وكان موجوداً في ذلك الوقت في دنستيبل بعضاً من رجال العدالة لدى الملك الذين نسميهم «الجوالين»، وهم: مارتن دي بيتشول Pateshulle، وتوماس دي ميولتون Muleton، وهنري دي بريبروك Braibroc مع آخرين كانوا متسلمين هناك مرافعات الملك من أجل قضية العصيان الأخيرة، وهناك ارتمى فالكاسيوس مع آخرين، تولوا نهب كثير من الناس، على رحمة الملك، من أجل أكثر من ثلاثين زوجاً من الرسائل، في كل منها كان هو عليه أن يدفع غرامة إلى الملك مبلغاً قدره مائة باوند، وعندما جرى اخبار فالكاسيوس بهذا، غضب غضباً عظيماً، وقام بطريقة حمقاء، فأمر فرسانه الذين شكلوا حامية قلعة بدفورد بالزحف نحو دنستيبل مع كتلة من الجنود لاعتقال رجال العدالة المذكورين، وبعد ضمان اعتقالهم، احضارهم إلى قلعة بدفورد، ووضعهم في سجن محكم، وعرف رجال العدالة بهذا، فغادروا مسرعين إلى حيث قادهم الحظ،وكان من بين هؤلاء قد هرب هنري دي بريبروك من دون مايكفي من الاحتراز، لذلك جرى اعتقاله من قبل الفرسان المذكورين أعلاه، وبعدما عومل بوحشية كبيرة، سجن في قلعة بدفورد، وانتشر خبر ماحدث، فذهبت زوجة هنري المذكور إلى الملك في نورثأمبتون، وقدمت وهي تبكي شكوى حول اعتقال زوجها، وجاء

ذلك على مسمع من المجلس الملكي كله، وانفعل الملك وغضب كثيراً تجاه هذه الفعلة، وطلب نصحية الكهنة والناس الذين اجتمعوا هناك، حول ماالذي ينبغي القيام به لمعاقبة هذه الجريمة، وكان رأيهم كلهم بالاجماع هو تأجيل جميع الأعمال الأخرى، ووجوب الزحف من دون تأخير مع قوة مسلحة نحو القلعة المذكورة، لمعاقبة مثل هذه الجريمة، ولاقى هذا الرأي قبول الملك، واتفق مع آرائه، فأصدر أوامره، فطار الجميع إلى السلاح، وزحف رجال الدين والناس كذلك إلى قلعة بدفورد، ولدى وصول الملك إلى هناك أرسل رسلاً إلى شحن القلعة الرئيسيين، وطلب منهم الخضوع، وأمرهم بإعادة هنري دي بريبروك، رجل عدالته، وقام على كل حال وليم دي بروت Breaute وهو أخو فالكاسيوس مع آخرين من الحامية، باخبار الرسل جواباً على ماطلبه بأنهم سوف لن يسلموا القلعة، مالم يتلقوا أمراً بفعل ذلك من مولاهم فالكاسيوس، لاسيما وأنهم غير مرتبطين بيمين ولاء أو تابعية إلى الملك، الذي إليه حملوا هذا الجواب عند عودتهم، وبذلك كان الملك غاضباً جداً، وأمر وهو غاضب جنوده بتطويق القلعة، وأعد المحاصرون أنفسهم أيضاً لمقاومة جنود الملك، وللدفاع عن الأسوار وعن الشرافات في كل مكان، وعندها قام رئيس الأساقفة ومعه جميع الأساقفة بانزال عقوبة الحرمان الكنسي بفالكاسيوس وبجميع حامية القلعة، وفعلوا ذلك والشموع مشتعلة، ووضعت القلعة تحت الحصار في السادس عشر من حزيران، الذي وافق يوم الثلاثاء التالي بعد ثمانية الثالوث، وجرى بأمر من الملك، احضار آلات الحرب من أمثال المجانيق والعرادات، وجرى توزيعها من حول المدينة، وشرع الجيش المحاصر يقوم بحملات شديدة ومتوالية على القلعة، ودافع المحاصرون -على كل حال- عن الأسوار بشجاعة، وأرسلوا بمقذوفات مميتة على المحاصرين، ولكي أتحدث باختصار، لقد جرت اصابة الكثيرين بالجراحة وقتلوا من على الجانبين، وفي أثناء حصار القلعة، أرسل الملك مجموعة من الجنود

للبحث عن فالكاسيوس، ولدى العثور عليه، جلبه إلى حضرته، وجرى على كل حال انذار المذكور وتحذيره من قبل جواسيسه، فهرب إلى ويلز، وعاد رسل الملك إليه وأخبروه بأن جهودهم كانت بلاثمار، وغضب الملك كثيراً، فأقسم بروح والده أنه إذا جرى اعتقال رجال الحامية بالقوة، فلسوف يشنقهم جميعاً، وقد استثير هؤلاء أكثر لاقتراف المزيد من الخطأ،بموجب تهديد الملك، فمنعوا رسل الملك من الحديث معهم ثانية حول موضوع تسليم القلعة، وهكذا تضاعفت الكراهية والضغينة بسبب أعداد الذين قتلوا، وبذلك لم يوفر الإخوة اخوانهم ولا الآباء أولادهم، وأخيراً تمكن رجال الملك، بعد مذبحة كبيرة من على الجانبين، من بناء برج خشبي مرتفع، وفق مبادىء الهندسة، وقد وضعوا في البرج رماة قسي زيارة، يمكنهم منها مراقبة كل حركة في القلعة، ومنذ ذلك الحين لم يعد بإمكان أحد في القلعة خلع دروعه، مالم يكن قد تعرض لجراحة مميته، ولم يتوقف المحاصرون لهذا السبب عن قتل أعدائهم، ففي أثناء وجود بعض الفوضى داخل جيش الملك قتلوا فارسين من رجاله، كانا قد عرّضا بطيش كبير نفسيهما للموت، وبذلك أثاروا غضب أعدائهم ضدهم بكل الوسائل الممكنة.

الاستيلاء على القلعة وشنق الفرسان

وأمر الملك في تلك الأثناء بالاستيلاء على قمح فالكاسيوس ومواشيه في قراه وأراضيه في جميع أرجاء المملكة، ومصادرة ذلك كله، حتى يتمكن بهذه الوسائل لدى امتداد أعمال الحصار من الحصول على المؤن على حساب عدوه، وأخيراً أحضر جنود الملك، لكن ليس من دون خسائر كبيرة منجنيقين أطلق على أحدهما الفرنسيون اسم Bru-tesches، وهاجم القلعة من جميع الاتجاهات، وأرغم المحاصرين على التراجع، ودخل وقتها جنود الملك القلعة، فاستولوا على الخيول والدروع والمؤن، ثم هاجم المنتصرون البرج، ودمروا شطراً كبيراً من

الأسوار، ورأى المحاصرون وقتها أنفسهم أنه لم يعد بامكانهم الصمود أي وقت أطول، فقاموا في أمسية صعود القديسة مريم بإرسال بعض رجال الحامية من القلعة، يلتمسون رحمة الملك، لكن الملك أمر باعتقالهم والاحتفاظ بهم في مكان مضمون، وذلك حتى يتمكن من اخضاع البقية، وفي اليوم التالي خرج البقية، وهم مصابون بشكلٍ مرعب ومجروحون، وقد أخذوا إلى أمام الملك، الذي أمر بشنقهم جميعاً، وجرى شنق أربعة وعشرين من فرسان وجنود الحامية، وهؤلاء لم ينالوا الرحمة من الملك بسبب العدوانية التي أظهروها نحوه في الحصار الأخير، وعاد هنري دي بريبروك سالما وصحيحاً إلى الملك،وقدم له شكره، وكان قد خيل لفالكاسيوس بسوء تقديره أن أتباعه يمكنهم الدفاع عن القلعة والحيلولة دون سقوطها لمدة سنة كاملة، وعندما سمع بشكل مؤكد بأن أخاه والبقية من رفاقه قد شنقوا، قدم تحت كفالة الاسكندر أسقف أوف كوفنتري، ووصل إلى الملك في بدفورد، وترامى على قدمي الملك ورجاه اظهار الرحمة نحوه، تقديراً منه لخدماته الكبيرة والنفقات العظيمة الذي بذلها لصالحه ولصالح والده في أيام الحرب، وحصل الملك وقتها على المشورة حول هذا الموضوع، فجرده من قلاعه وأراضيه وأملاكه، وأودعه في السجن لدى يوستاس أسقف لندن، إلى أن يقرر الذي ينبغي عمله معه، وهكذا حدث في لحظة واحدة أن تحول فالكاسيوس من الرجل الأغنى، إلى الرجل الأفقر بين الناس، وهو بذلك قدم مثلاً جيداً لكثير من الناس، وخاصة إلى المجرمين، وفيما يتعلق بهذا التغيير بالحظ، كتب أحدهم هكذا:

«وهكذا في شهر شديد فقد فالكو
الذي كسبه خلال سنين من الصراع؛
جرده القدر الآن مما قد كلفه

إيّاه خلال جميع حياته الماضية».

ومثلت زوجه فالكاسيوس هذا أمام الملك وأمام رئيس الأساقفة، وقالت بأنها لم تتزوجه بموافقتها، ولهذا فانها لما كانت قد اعتقلت بالقوة في أيام الحرب، وتزوجت منه من دون موافقتها، طالبت بالطلاق منه،ولذلك عين رئيس الأساقفة يوماً لتأتي به إليه، حتى يقرر في الوقت نفسه الذي يتوجب عليه عمله، وعلى كل حال، منحها الملك جميع أراضيها وممتلكاتها في جميع أنحاء انكلترا، ووضعها تحت رعاية وليم ايرل وارني Warrenne وبسبب الجهد الكبير الذي بذله الملك والنفقات العالية التي دفعها، فرض ضريبة على الأراضي المفلوحة في جميع أرجاء انكلترا،وقدرها ماركين من الفضة على كل محراث، وفرض ضريبة بدل على النبلاء، وقدرها ماركين من النقود الاستيرلينية على كل محلجة، ثم إنهم عادوا جميعا إلى مواطنهم، وأمر الملك بتهديم القلعة،فتحولت إلى كومة من الحجارة، وأعطى البيوت والأبنية الأخرى إلى وليم بوشامب. Beauchamp

منح جزء من خمسة عشر جزءاً من جميع الأشياء المتحركة إلى الملك

عام ١٢٢٥م، فيه عقد الملك هنري بلاطه في عيد الميلاد في ويستمنستر، وفيه كان رجال الدين والناس بين الحضور، وكذلك نبلاء المنطقة، وبعد الاحتفال بالعيد بشكل مهيب، طرح هيوبرت دي بورغ، المسؤول عن العدالة الملكية، باسم الملك المذكور، وبيّن بحضور رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والايرلات، والبارونات وجميع البقية، الخسائر والأضرار التي عانى منها الملك في مقاطعات ماوراء البحر، وبذلك ليس فقط الملك، بل أيضاً كثيراً من الايرلات والبارونات، بالاضافة له، قد حرموا من مواريثهم، وبما أن كثيرين كانوا مهتمين بهذه الأمور ولهم

علاقة بها، فإن مساعدة الكثيرين سوف تكون ضرورية، ولذلك سأل نصحية ومساعدة الجميع، لتبيان الوسائل التي يمكن بها للتاج الانكليزي أن يسترد المراتب التي فقدها والامتيازات القديمة، ولكي يمكن تفعيل هذا كما ينبغي، اعتقد أنه سيكون كافياً لو أنه جرى منح جزء من خمسة عشر جزئا من الممتلكات المتحركة إلى الملك في جميع أنحاء انكلترا وأن يفعل ذلك رجال الدين والعلمانيين، وبعد طرح الاقتراح، قام رئيس الأساقفة مع جميع المحتشدين من الأساقفة والايرلات، والبارونات، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، بالتباحث حول الموضوع، وبعد شيء من النقاش قدموا جوابهم، بأنهم سوف يقبلون عن طواعية بمطالب الملك، إذا ما منحهم امتيازاتهم التي يطالبون بها منذ زمن طويل، وبناء عليه اقتنع الملك بسبب نهمه بالموافقة على طلبهم، وجرت كتابة صكوك ختمت بخاتم الملك، وجرى ارسال نسخة منها إلى كل كونتية في انكلترا، وأما الكونتيات التي كانت موجودة في داخل غابة، فقد أرسل إليها نسختين، نسخة حول الامتيازات العامة، والأخرى حول امتيازات الغابة، وقد جرت كتابة محتويات هذين الصكين من قبل في تاريخ حكم الملك جون، ولم تختلف صكوك الملكين عن بعضهما في أية نقطة، ثم تقرر تحديد يوم في شهر الفصح ليجري اختيار اثني عشر فارسا واقطاعيا، لكل كونتية في المملكة، الذي يتوجب عليهم بعد أداء اليمين تمييز الغابات الجديدة عن الغابات القديمة، من أجل اكتشاف الذي عمل غاباتاً منذ أيام تتويج الملك هنري جد الملك الحالي، حتى تتم على الفور نزع الصفة الغابية عنهم، وهكذا ارفض المؤتمر وأرسلت الصكوك كل واحد منها إلى كونتيته الخاصة، حيث جرى بناء على أمر الملك، ومن خلال قسم مكتوب، وجوب مراعاتها من قبل الجميع.

كيف أرسل الملك الانكليزي أخاه رتشارد إلى غاسكوني

وفي العام نفسه، وفي يوم عيد طهارة القديسة مريم، عمل من رتشارد أخي ملك انكلترا فارساً بنطاق، ومعه عشرة آخرين، جرى تعيينهم لخدمته ورعايته، وفي الربيع التالي، في يوم أحد السعف جرى ارسال رتشارد المذكور من قبل الملك إلى غاسكوني، يرافقه وليم ايرل أوف سالسبري، وفيليب دي ألبيني وأربعين فارساً، وبعد رحلة موفقة، وصلوا جميعاً سالمين إلى مدينة بوردوكس Bourdeaux، ولدى وصولهم أعلموا بذلك رئيس الأساقفة والسكان، فاستقبلوا بالتشريف من قبل الجميع، ثم قام رتشارد باستدعاء السكان للاجتماع مع رئيس الأساقفة وبحضوره، وبحضور رسل الملك، فأراهم رسائل أخيه، التي فيها رجا بتواضع جميع رعاياه المخلصين في تلك المناطق استقبال أخيه بشكل سلمي وودي، وتقديم النصحية له والمساعدة حتى يكون قادراً على استرداد أراضيه الضائعة، واستقبلته جميع الفئات بطرائق صديقة، وقدموا خضوعهم إلى ملك انكلترا من خلاله ، ثم وصل اليه عدد من الفرسان والجنود من تلك المناطق، وبقيوا في خدمته مقابل استلام عطاء كاف منه،لأن الملك كان قد أعطاه قبل ارساله الى مقاطعات ما وراء البحر كونتية كورنوول Cornwall مع جميع بواتو، ولهذا السبب عرف باسم كونت بواتو ،ووقتها زحف الكونت رتشارد مع عمه وليم ايرل— سالسبري وفيليب دي البيني ، يحيط بهم مجموعة كبيرة من الفرسان ، وساروا خلال البلدات وبين القلاع والمناطق ، وكانوا حيثما واجهوا مقاومة ممن لم يقدم الولاء ، ولم يعط الطاعة الى الملك، يتولون محاصرة قلاعهم وبلداتهم ، ويرغموهم على تقديم الطاعة بالقوة والسلاح، واستولى بعد حصار طويل على قلعة ريوكسRieuxمع البلدة، وتملك مدينة القديس ماكير Ma-caire وحاصر قلعة بريغيراك Bregerac وأعاد صاحبها إلى ولائه الى الملك ، لكن أثناء حصاره لقلعة ريوكس ، والهجوم عليها باستمرار ، أرسل لويس ملك فرنسا أوامر الى كونت أوف مارشي

والنبلاء الآخرين في بواتو، بالزحف الى تلك القلعة ، ورفع الحصار عنها ، واحضار الكونت رتشارد أسيراً ليمثل أمامه ، وبناء عليه قام كونت أوف مارشي بعدما التحق به بعض البارونات والفرسان المسلحين، بالزحف مع قوة كبيرة لرفع الحصار عن القلعة المذكورة أعلاه، وعلم بذلك الكونت رتشارد مع رفاقه ، وأخبره كشافته باقتراب وصول الأعداء ، فنصب كميناً لهم، وترك شطراً من قواته لمتابعة الحصار ، وسار هو ومعه كتلة من الجنود المجربين ، الى غابة كانت قريبة ، وانتظر هناك وصولهم ، وعندما كان هؤلاء يمرون عابرين للكمين ، قام الكونت وأتباعه بالانقضاض عليهم وسط زعقات الأبواق ، وهم مادين لرماحهم ومشرعين لها ، ونجم عن ذلك صراع عنيف بين الفئتين ، وأرغم العدو أخيراً على الفرار ، وقد طارد الكونت رتشارد بشدة فلول الأعداء ، وبعدما قتل عدداً من الفارين ، استولى على عرباتهم ، وعلى خيول تحميلهم ، وعلى أوانيهم الفضية وأسلاب أخرى ، وبذلك تمكن في وقت قصير من اخضاع غاسكوني كلها.

ومات في العام نفسه جون أسقف أوف إيلاي، وقد خلفه غيوفري دي بورغ ، رئيس شمامسة نورويك.

نفي فالكاسيوس الخائن

وفي هذه الآونة أي في شهر آذار ، اجتمع ملك انكلترا مع نبلائه في مؤتمر في ويستمنستر، فيه أمرهم الملك بالوصول الى قرار نهائي ، حول ما ينبغي فعله مع الخائن فالكاسيوس ،وقد اتفق النبلاء مع الملك ، أنه قد خدم الكثير من السنوات أباه بإخلاص ، وعلى هذا ينبغي عدم حرمانه من الحياة أو من واحد من الأطراف ، غير أنهم وافقوا بالاجماع على إدانته ، والحكم عليه بالنفي بشكل دائم من انكلترا ، وعندها أمر الملك وليم إيرل وارني warenne

بمصاحبته وهو سليم الى الساحل، وهناك وضعه على ظهر سفينة ، لإرساله على الفور الى عرض البحر ، وعندما وصلا الى الساحل ، وأثناء صعود فالكاسيوس على ظهر السفينة ، قدم رجاء الى الايرل وهو يبكي بأن يحمل تحياته الى مولاه الملك ، وأن يبين له، بناء على قسمه، بأن الاضطراب الذي تسببه في انكلترا، أثير على فعله بتحريض من نبلاء المملكة ، ثم اطلق الأشرعة ومعه خمسة من المرافقين فقط نحو نورماندي ، ولدى وصوله الى هناك اعتقل على الفورمن قبل وكلاء الملك الفرنسي وحمل الى أمام لويس ، ولكن بما أنه كان يحمل شارة الصليب ، فقد أطلق سراحه ، فذهب الى روما، حيث ظهر أمام البابا مع روبرت باسلوpaslew الذي كان كاهنه، وسوف نتحدث عن مثوله أمام البابا في المكان المناسب.

معاينة الغابات لمعرفة أيها ينبغي إعفاءه من قوانين الغابات

في حوالي شهر الفصح من العام نفسه، انطلق هوغ دي نيفيل وبرين دي لآيل مع الأشخاص المعينين الآخرين ، للتجول في جميع أرجاء انكلترا، بغرض اختيار في كل منطقة غابية اثني عشر فارساً ورجلاً حراً واقطاعيين للبحث عن حدود الغابات ، وللتقرير — بناء على أداء اليمين — أي الغابات ينبغي أن تبقى في وضعها الحالي، وأيها ينبغي نزع الصفة الغابية عنها، وجرى تنفيذ أوامر الملك على الفور لكن ليس من دون معارضة كبيرة من كثيرين ، وقام بعضهم أفراداً وجماعات بوضع هذه الامتيازات موضع التنفيذ ، فباعوا منتوجات أحراشهم، وعملوا حظائر ، ومناطق صيد ، وفلحوا الأرض التي كانت من قبل غير مزروعة ، وهكذا فعل الجميع ما اختاروه في الأحراش التي رفعت عنها الصفة الغابية ، ولم يتمتع البشر فقط بهذه الامتيازات ، بل تمتع بذلك الكلاب، الذين اعتادوا من قبل على لبس النعال، وباختصار استفاد من هذه الامتيازات، النبلاء،

والفـــرسان والاقطاعيـــون الأحـــرار، وهكـذا لم يجر حـــذف صك الملك.

جمع الجزء من خمسة عشر جزئاً من الممتلكات من أجل استخدامات الملك

وجرى في هذه الآونة جمع نصف جزء من خمسة عشر جزئاً من جميع الممتلكات المتحركـة من أجل استخدامات الملك ، وجرى منح ايصـال من أجل دفـــع الجزء المتبقي حتى عيد القـــديس ميكائيل، ودفع في هذا العـام أيضاً هوغ بيغود ايـرل انغليان الشرقيـة - East Anglians دين الطبيعة ، ووضع الملك جميع ممتلكاته ومـراتبه العليا تحت عهدة المسؤول عن العدالة

حول خليلات الكهنة

صـدرت في العـام نفسه مـذكـرة عـن رئيس أساقفـة كـانتربري وأساقفتـه المساعدين من أجل الغـاية التالية :سـوف لن تنال خليلات الكهنة ورجـــال الدين الـذين هم في الطوائف الدينيـــة ويتمتعـــون بالمنافع، دفناً كنسيـاً، ما لم يقمن بإصلاح حيـاتهن بشكل صحيح ، أو أن يبدين توبة كبيرة في أواخر أيام حياتهن تمكنهن من نيل التحليل ، علاوة على ذلك لن يسمح لهن بنيل قبلة السـلام،أو المشاركة في نيل الخبز المكرس في الكنيسـة ، طالما عشاقهن يحتفظـون بهن في بيوتهم، أو بشكل مكشوف في مكان آخـر،وكذلك إنهن إذا مـا أنجبن أطفالاً، لن يتطهرن، ما لم يقدمن سلفاً ضمانة الى رئيس الشمامسة، أو لموظفه ، تكون كـافيـة بـأنهن سـوف يصنعن توبـة مـوائمـة أثناء الاجتماع الكهنوتي بعـد طهـارتهن،عـلاوة على ذلك ، إن جميـع الكهنة الذين يسكن في أبرشيـاتهم خليلات من هذا النوع،سـوف يجري تعليقهم، مالم يقوموا بإخبـار رئيس الشمامسة أو موظفة بذلك ، وقبل تحليلهم

سوف يخضعون الى عقوبة قاسية، وكذلك يتوجب على كل امرأة ضبطت بوجود صلات جنسية مع أي كاهن، أن تقوم بتوبة مهيبه ومعلنة وكأنها أدينت بالزنا ، ومع ذلك من الممكن تحليلها، ولكن إذا ما أدينت إمرأة متزوجة بجريمة من هذا النوع سوف تعاقب وكأنها زنت بشكل مضاعف خشية أن الافلات من العقوبة على اقتراف مثل هذه العقوبة سوف يقود آخرين الى اقتراف تلك الجريمة.

كيف نجا ايرل أوف سالسبري من غرق السفينة

وفي هذه الآونة أقلع مبحراً وعائداً الى انكلترا ايرل أوف سالسبري ، الذي كان يقاتل مع الكونت رتشارد في مناطق ما وراء البحر،وقد تعرض الى خطر عظيم ، واقتيد في مختلف الاتجاهات بفعل عنف الرياح،واستمر ذلك لعدة أيام وليال بشكل عام مع بحارته وجميع الذين كانوا على ظهر السفينة، ولدى فقدانه كل أمل بالنجاة، عهد الى الأمواج بخواتمه الثمينة وبجميع ممتلكاته من الفضة والذهب، والملابس الغالية، التي كانت معه على ظهر السفينة، من أجل أنه كما دخل عارياً الى الحياة الفانية،بذلك يمكنه العبور الى مناطق الخلود وهو مجرد من جميع الأمجاد الأرضية، وأخيراً عندما كانوا في حالة اليأس الأخيرة ، شوهد ضوء عظيم مشع من على رأس السارية ، من قبل جميع الذين كانوا على ظهر السفينة ، ورأوا أيضاً واقفاً الى جانب الضوء سيدة ذات جمال عظيم ، حافظت على ضوء الشمعدان، الذي أنار ظلام الليل، حافظت عليه حياً على الرغم من قوة الرياح والمطر الذي تساقط عليه، ومن هذه الرؤيا السماوية للنور، شعر الكونت نفسه وكذلك البحارة بالأمل بالنجاة، وتصور بإطمئنان بأن المساعدة الربانية باتت موجودة، ومع أن بقية الناس في المركب كانوا جاهلين بها بشرت به هذ الرؤيا، فإن الايرل وليم

المتقدم الذكر كان في اليوم الأول الذي عمل فيه فارساً بنطاق ، قد كرس شمعداناً ليبقى مشتعلاً بشكل دائم أمام مذبح أم الرب المباركة، أثناء القداس الذي جرت العادة بأن يغنى به كل يوم في ساعة الصلاة، تشريفاً للعذراء المذكورة، وذلك من أجل أن يتلقى تعويضاً دائماً من أجل الضوء الدنيوي.

كيف نجا الايرل المذكور من مصائد أعدائه

وعند حلول صباح اليوم التالي سيق الايرل مع أصحابه، بقوة العاصفة نحو جزيرة رهي Rhe وذلك على بعد ثلاثة أميال عن روشلي Rochelle،وبما أنهم صاروا في قواربهم الصغيرة، أخذوا طريقهم الى الجزيرة ، وكان في تلك الجزيرة، دير للرهبان السسترشيان ، واليهم أرسل الايرل رسلاً طالباً السماح له ليخفي نفسه عن أعدائه، حتى تهب رياح موائمة ، وعن طواعية منحه راعي الدير ذلك ، واستقبله مع أتباعه المسافرين بكل ترحاب، وكانت هذه الجزيرة آنذاك ، في عهدة سافاريك دي موليون، الذي كان آنذاك يقاتل تحت قيادة لويس، ملك فرنسا، وكان يتولى حراسة عدة جزر مع قوة كبيرة من الجند ، وكان اثنان من أتباعه يعرفان الايرل معرفة جيدة، وكان قد جرى تعيينهما مع آخرين لحراسة الجزيرة ، فذهبا بطريقة صديقة الى الايرل، وبعدما استراح هناك لمدة ثلاثة أيام ، أخبراه أنه ما لم يغادر الجزيرة قبل صباح اليوم التالي، سوف يجري اعتقاله من قبل أصحابهما الذين كانوا يتولون حراسة الجزيرة والبحر من حولها ، وعندها قدم الايرل الى الجنديين هدية قوامها عشرين باوند من النقود الاستيرلينية ثم أقلع على الفور، وصار في وسط البحر، حيث مكث ثلاثة أشهر قبل أن يتمكن من الرسو في انكلترا.

كيف وصل المعلم أوتو الى انكلترا لقضاء أشغال قداسة البابا

ووصل الى انكلترا في العام نفسه المعلم أوتو، بمثابة نائب للبابا، وقدم رسائل الى الملك حول مسائل ملحة تتعلق بالكنيسة الرومانية، لكن الملك عندما علم بمقاصد الرسائل، أجاب أنه لا يستطيع شخصياً — ولا يجوز له — إعطاء جواب محدد حول القضية، لأن ذلك هو مسؤولية جميع رجال الدين والعلمانيين في المملكة بشكل عام، ولذلك، قام بناء على نصيحة ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، بتحديد يوم، يكون في ثمانية عيد الغطاس، من أجل اجتماع رجال الدين والعلمانيين في ويستمنستر، حتى يتمكنوا وقتها من البحث في القضية المتقدم ذكرها، ولسوف يقررون الذي سيبدو لهم صحيحاً

كيف سعى أوتو المذكور الى إقامة سلام بين فالكاسيوس والملك

وبعد ذلك بوقت قصير، قام أوتو باسم البابا، بتواضع بتقديم رجاء الى ملك انكلترا حتى يتصالح مع فالكاسيوس،وأن يعيد إليه زوجته،وجميع ممتلكاته التي فقدها،وأن يستقبله ثانية على شروط الصداقة،كما كان قد خدم والده باخلاص وخدمه شخصيا في أيام الحرب،وعلى هذا أجاب الملك بأنه بسبب خيانته المكشوفة،قام بنفيه من انكلترا،وأن ذلك جاء بموجب قرار بلاطه مع موافقة جميع رجال الدين والناس في المملكة،وصحيح أن العناية بالمملكة معهود بها بشكل خاص اليه،هو عليه مراعاة القوانين والأعراف المقررة للمملكة،وعندما سمع اوتو هذا،توقف عن طلب أي شيء آخر من الملك لصالح فالكاسيوس،ثم قام أوتو بأخذ ماركين من الفضة من كل كنيسة ديرية

في انكلترا،تحت عنوان مال الوكالة،وينبغي أن نعرف أيضاً أنه عندما جاء المعلم أوتو الى انكلترا، أرسل البابا رسلاً الى جميع أنحاء الدنيا،طالباً جبايات غير عادلة،كما سنتحدث فيها بعد.

حول احدى الفتيات التي تخلت عن الدنيا وانسحبت الى طائفة الفرنسيسكان

وكان هناك في هذه الآونة فتاة من أصل نبيل في مقاطعة بيرغندي،كان أبواها قد عينالها ميراثاً ممتلكاتاً واسعة،وقد رغبا في اعطائها زوجة الى رجل له أصل مشهور ،لكن الفتاة التي كانت قد تمثلت منذ صغرها التعليم الحر،قد كرست بالسر،من قلبها الطاهر، عذريتها الى الرب، وبناء عليه غادرت مسكن والديها متنكرة بثياب حاج،وكانت الوسيلة الأسهل للفرار من أمام نظرهما،وحملت نفسها الى دير لبعض الرهبان من طائفة الفرنسيسكان، وقامت هناك بناء على طلبها ، وتماشياً مع الأحكام القاسية لتلك الطائفة،فخلعت نعليها،وألبست نفسها المسوح، وبإزدراء قصت شعرها الجميل،وسعت بكل وسيلة في حدود امكاناتها، لأن تحول جمالها الطبيعي الشخصي الى كل نوع مشوه،وبعدما حاولت هذا،لكن من دون فائدة،لأنها لم تكن قادرة،ضد إرادة الرب على تشويه جمال تناسقها الجسدي،الذي كان لايقارن في جميع توزيعاته،صبت جهودها على تكريس نفسها الى القرين الدائم، الذي هو في السماء،حيث أن طهارة الجسد كانت دائمة،وأسهل لتنفيذ غايتها وجعلها مؤثرة،وبناء عليه اختارت عن طواعية حياة الفقر،واتخذت لنفسها عمل الوعظ المقدس،وألبست نفسها ثياباً خشنة،واتخذت حشية من القش لتتمدد عليها،ووسادة من الحجر،وعاقبت الجسد بالسهر الدائم والصوم المتواصل، وتولت في صلواتها الملحة شغل نفسها بالتأمل في الأشياء السماوية، وبعدما أمضت عدة سنوات في تقشفها وحياتها القدسية ، قامت بالدراسة،

ولكي ترضي الرب ، شرعت بالتبشير بانجيل السلام خلال المدن والقلاع، ولاسيما بين النساء، وبات عدو الجنس البشري مزعوجاً جداً من كمالها ، فطوقها لمدة سبعة أشهر بكثير من المغويات الكبيرة، ولولا أنها كانت مؤيدة بالعون الرباني، لفقدت كل فضائل ايحاءات حياتها الماضية، لأن الشيطان أعاد إلى ذاكرتها ليلاً ونهاراً، وفرة أملاك والديها التي تخلت عنها،ومنتجات الكروم المثمرة، والمروج الجميلة المزينة بمختلف أنواع الزهور، والأصوات الجميلة لاندفاع المياه، والجداول الجارية البديعة، والأشجار العالية في الغابات، والخصوبة في الأولاد، ومعانقة الزوج، والتمتع بالحب،والفراش الناعم للأغنياء،وحركات البهجة، والخواتم الفخمة والجواهر، والمذاق الطيب للسمك، والفروج،ولحم الطرائد، وفي وسط هذه المغويات وما يماثلها، كانت الفتاة شبه يائسة ، وغالباً ما انغمست تفكر حول آراء متشعبة، وعما إذا كان عليها العودة إلى تركته، أو المثابرة على العمل الديني، وقد أمضت في هذه الحالة من العذاب في كل من الجسد والتفكير أياماً وليالي، لكن الرب الرحيم الذي لا يسمح للذين يثقون به أن يتعرضوا للغواية فوق طاقة الاحتمال، أعاد الى الفتاة عين الصواب،حتى تمكنت من اكتشاف كم هي عظيمةالأشياء الدنيوية وكم تحتاج من عناية وتعب ، ومعها كذلك المسارّ التي تقدم ذكرها، وكم هو مخجل ومهين الاتصال الجنسي، وكم هو كبير الجهد الذي يبذل في سبيل نيل الثروة الدنيوية وكم هو محزن فقدانها، وكم هو عظيم وهام المحافظة على الطهارة العذراوية مع الرب، الذي رغب في أن تكون أمه منتجة ، وبالوقت نفسه أن تبقى عذراء، والسرور الذي يتبع الأعمال الصالحة،والمتعة المتوفرة في التأمل المقدس واللاهوتي ، ووحدة سكان السماء، وكم هو طيب وممتع سرور الأرواح المقدسة لدى حكمها مع المسيح، حيث لا يوجد تأثير للبرد، والجوع والعطش لا تأثير لهما على أي إنسان، وحيث ما من أحد

يتملكه الغضب أو يؤثر عليه،ولا الخصام ، ولا المجد العابث، ولا الحسد، ولا التكبر، ولا الحقد، ولا الشره ولا الحسد، ولا الغيرة وغالبا ما رعت هذه العذراء المباركة هذه الأفكار وما يماثلها، وفي وسط جميع زوابع الاغواءات ، استمرت بالمحافظة على فضائلها السالفة، ولكونها مسلحة بأسلحة الرب ، هزمت بسعادة جميع المؤامرات الخادعة للشيطان وأرسلت به مضطرباً الى الجحيم.

كيف تحررت هذه الفتاة بوساطة شيطان من مغتصب

وبعد عدة أيام ، عندما تحررت هذه الفتاة تماماً من هجمات الشيطان هذه ، عاد اليها وحياها قائلا:«البقاء لك يا سيدتي ،أيتها العذراء المحبوبة من رب السماء، أنا الشيطان، الذي اقتادك مؤخراً لمدة سبعة أشهر من دون غاية ولا محصلة، الى عدد كبير من المغويات، من أجل ابعادك عن نواياك ، وللايقاع بك في هذه المتاعب، لكن بما أنني هزمت من قبلك، وأخفقت في مساعي المخادعة، لقد فرضت عليّ عقوبة من رب السماء، وهي أنني لن يسمح لي من الآن فصاعداً إغواء أي جنس من المخلوقات أو إعاقة أي واحد عن القيام بالأعمال الصالحة ، علاوة على هذا لقد أمرت من قبل الرب، الذي علي طاعته، أن أقوم على الفور بتنفيذ كل الذي تأمريني به ، وكذلك تحمل أي عقوبة من الممكن أن تفرضيها عليّ، ولدى سماع الفتاة بهذا قالت للشيطان:«إن ربي يحميني من أي تداخل معك، ومن أي واحد من أتباعك، لأنه يعلم بأنني لم أحب قط أي خادم من هذا القبيل»، وحدث بعدما قالت الفتاة هذا ، أنها ذهبت الى إحدى المدن للحصول على مأوى ومبات ، فدخلت إلى بيت امرأة، وحصلت على مأوى منها لتبات فيه معها، وعاد في المساء رجل شاب، كان هو ابن السيدة المذكورة، عاد الى البيت من عمله المعتاد وعندما رأى المرأة الشابة ، التي منحتها والدته مأوى صدوراً عن

الاحسـان والصـدقـة، بـدأ يعجب من التكوين الطبيعـي والتـوزيع لأعضائها التي كانت مغطاة بثيـاب متواضعة جداً، وذلك على الرغم من أنها كانت شاحبـة ونحيفة،لأن فيها جاء تكوين الطبيعـة كاملا تمامـاً، لأنه لم يكن هناك من عيـب فيهـا من أخمص قـدمهـا حتى أعلى رأسهـا، بل إنها أظهرت بتـوزيع وتناسق جسـدها كله بوضوح نبـالة أصلهـا وعنصرها، واشتعل الرجل الشـاب بالرغبـة لنيل العـذراء، و اقترب منها طالبـاً منها تلبيـة رغبته، وقد رفضت بـردها بحزم، طلب الشـاب، وأعلنت أنها منذ صغـرها قـد كـرست عـذريتهـا الى الرب، وعلاوة على ذلك أعلنت أنه كفضيلة فـرضت عليها من قبل نذرها الديني ومن قبل طائفتهـا ، أن لا تقوم بخـرق ذلك التكريس، وبهذه الكلمات ابتعدت لتـأخذ مكان إقامتهـا الليلية في إحـدى زوايا البيت، حيث قـامت تماشيـاً مع أحكام طائفتهـا الدقيقـة بمـد حصير تحت جسدها لتكون فراشاً لها،وحجرة لتكون بمثابة وسادة لها تحت رأسها ، وكان الرجل الشـاب متحرقاً تمامـاً برغبته الجنسية ولذلك قـرر في قلبه أنه إذا لم يتمكن من الحصـول على مـوافقـة الفتـاة طواعيـة ، سـوف يحقق غرضـه بالقوة، ولذلك ذهب اليها وأخبرها بما قـرره، وشعرت المرأة المتـدينة وقتهـا بآلام عظيمـة في عقلهـا، وخشيت من تدمير عذريتها الطاهرة ، من قبل الشاب المتحرق رغبة، وهنا تذكرت ما كان الشيطان قـد أخبرهـا به ، وهو أنه سـوف يلبي على الفـور أية رغبـة تريدها، فـرفعت صوتها وقـالت:«أيها الشيطان ، أين أنت»؟ وأجـابها الشيطان على الفـور«يا سيـدة ، أنا هنا ، مـا الذي تريـدينه» ؟ وعندها قـالت الفتـاة:« حـررني من هـذا الشرير الذي أزعجني، ولا يسمح لي بالنوم »، وقـام على الفور، بسحب الرجل الشـاب بالقوة من قـدميه ورمـاه بعيـداً بعيداً ،جـداً عن المرأة الشـابة ، وفعل ذلك ثلاث مـرات خلال تلك الليلة ، وبذلك تحررت بوسـاطة الشيطان من عنف الرجل الشاب،وفي الصبـاح غادرت المدينة عذراء كما دخلتهـا ، لكن ما الذي

حدث للفتاة في النهاية غير معروف بالنسبة إليّ، وبناء عليه لا بد في الذي رويته كفاية ورضا للذين يحبون التقوى والصلاح.

حول إحدى الناسكات التي لم تتناول طعاماً لمدة سبع سنوات

وماتت في العام نفسه إحدى الناسكات في مدينة ليستر، وكانت لم تتناول طعاماً من أي نوع لمدة سبع سنوات قبل وفاتها ، باستثناء أنها في يوم الأحد شاركت في تناول قربان جسد ودم مولانا، وعندما وصلت أخبار هذه المعجزة الى مسامع هوغ أسقف لنكولن لم يضع ثقته في القصة، ورفض تصديقها كلية، وأمر بالناسكة المذكورة فوضعت في سجن محكم تحت حراسة كهنتها ورجال دينها لمدة خمسة عشر يوماً، وعندها برهنت خلال تلك المدة كلها أنها لم تتناول أيا من الأطعمة الجسدية ، وأن بشرتها كانت دوما بيضاء مثل الزنبق، مشربة باللون الأحمر الوردي ، كعلامة على الاحتشام والطهارة العذرية.

كيف رفضت كونتسة سالسبري الزواج

وصلت في هذه الآونة أخبار الى ملك انكلترا بأن عمه وليم ايرل أوف سالسبري قد غرق وهو عائد من مقاطعات ما وراء البحر،وعندما كان غارقاً في أحزان الحدث ، جاء اليه هيوبرت المسؤول عن العدالة في المملكة،وطلب منه اعطاء زوجة الايرل وليم المذكور لتكون زوجة لحفيده ريموند الذي آلت اليه رتبة تلك الايرليه بحق الوراثة ،وأعطى الملك الموافقة على هذا الطلب على شرط تمكنه من الحصول على موافقة تلك الكونتسة نفسها، وأرسل مسؤول العدالة على الفور ريموند المذكور في أبهة فروسيته الى الكونتسة ليسعى للحصول على موافقة تلك السيدة ، وعندما حاول ريموند المذكور بالكلام الناعم والوعود العظيمة أن يحصل على

موافقتها، ردت عليه بغضب عظيم أنها تسلمت مؤخراً رسائل تخبرها بأن زوجها كان سالماً وبحالة طيبة ، ثم أضافت بأنه لو كان زوجها بالفعل قد مات، فإنها لن تقبل به بأي حال من الأحوال زوجاً، لأن نبالة أسرتها تمنع مثل هذا الزواج، ثم قالت له:« ابحث عن زوجة في مكان آخر ، لأنك سوف تجد بالخبرة أنك قدمت الى هنا من دون غرض» ، ولدى تلقي ريموند هذا الرد غادر وذهب وهو مضطرب.

كيف طالب صاحب القداسة البابا بعطاء كهنوتي لاستخداماته

عام ١٢٢٦م،فيه احتفل الملك هنري بعيد الميلاد في وينكستر،بصحبة بعض الاساقفة وعدد من النبلاء،وبعد الاحتفال بهذا العيد بشكل لائق،ذهب الى مارلبورا،حيث أصابه مرض أقعده بالفراش لأيام كثيرة وهو في حالة ميئوس منها،وحل الآن في الوقت نفسه الموعد المحدد من أجل عقد مؤتمر في ويستمنستر في عيد القديسة هيلاري،حيث كان من المتوجب على الملك،ورجال الدين والنبلاء،العائدين لمملكة انكلترا الحضور لسماع رسالة البابا،وبناء عليه احتشد كثير من الاساقفة مع آخرين من رجال الدين والعلمانيين في المكان المذكور أعلاه،وتولى المعلم أوتو، رسول مولانا البابا، الذي تقدمت الاشارة اليه أعلاه،قراءة رسائل البابا، على مسمع من الجميع،وعرض البابا في هذه الرسائل الاساءات الكبيرة وسوء استخدام كنيسة روما المقدسة،وتولى بصورة خاصة إدانة الجشع،على أنه أصل جميع الشرور،وبشكل خاص أنه لايمكن لأي انسان تدبر أي عمل في بلاط روما،من دون اسراف بانفاق الأموال مع تقديم هدايا كبيرة، لكن بما أن فقر الكنيسة الرومانية هو السبب وراءجميع هذه الذنوب والشرور المسماة،فإن من واجب الجميع إزالة حاجة وفقر أمهم وأبيهم،بحكم أنهم أبناء طبيعين،ولأننا إذا لم نتسلم أعطيات منكم ومن الرجال الآخرين الصالحين والأشراف،سوف نكون

بحاجة للانفاق على ضروريات الحياة، وسوف يكون ذلك كله متنافراً مع كرامة ومكانة الكنيسة الرومانية،وبناء عليه إنه من أجل تدمير هذه الاساءات تدميراً كاملاً توصلنا مع نصيحة إخواننا كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة إلى وضع بعض القواعد، التي إذا ما وافقتم عليها سوف نحرر أمنا من الإهانة،ونحصل على العدل في بلاط روما من دون الحاجة الى تقديم هدايا،والقواعد التي وضعناها هي التالية : نحن نريد في المقام الأول الحصول على عطائين(أووقفين)كهنوتيين ليمنحا إلينا من جميع الكنائس الكاتدرائية ،يكون أولهما عطاء من حصة الأساقفة،والثاني من حصة هيئة الكهنة،ومن الديرة وفق الطريقة نفسها،هناك حصص متنوعة لراعي الدير وللدير ،ومن رهبان الديرة،حصة راهب واحد،على أساس توزيع متساوي يعمل على ممتلكاتهم،والشيء نفسه من راعي الدير».

وبعد تقديم هذه المقترحات،تولى المعلم أوتو بناء على تفويض من مولانا البابا،توجيه النصيحة الى أساقفة الكنيسة الذين كانوا حاضرين شخصيا بالموافقة،وأوضح المنافع المذكورة أعلاه في الرسائل،وعندها اعتزل الأساقفة الذين كانوا وقتها بين الحضور جانباً، للتشاور حول القضية، وبعدما تناقشوا حول الاقتراحات لبعض الوقت، أنابوا جون رئيس شمامسة بدفورد فذهب ووقف أمام المعلم أوتو، وأعطاه الجواب التالي على مطالبه قائلا:«سيدي ، إن الأشياء التي عرضتها علينا فيها إشارة الى الملك بشكل خاص، والى المسؤولين عن الكنائس بشكل عام، وفيها أيضاً إشارة الى رؤساءالأساقفة مع مساعديهم من الأساقفة والى أعداد من الكهنة ذوي المراتب في انكلترا، وبناء عليه ، إنه بسبب مرض الملك ، ولغياب بعض رؤساء الأساقفة والأساقفة والكهنة الآخرين من ذوي المراتب ، نحن لا يمكننا — كما انه لا يجوز لنا — بغيابها اعطاءك جواباً،لأننا إذا

مـا أقـدمنا على فعل ذلك ، سيكـون في ذلك الحاق الضرر بجميع الذين هم غيـاب»، وبعد هذا جـرى ارسال جون المارشـال ورسل الملك الآخـرين الى الكهنة ذوي المراتـب، المستحـوذين على مـراتب بارونيـة رئيسية مـن الملك، ليمنعوهم بكل دقـة من اشراك رسـومهم المدنية واخضـاعها لكنيسـة روما، فبـذلك سوف يكون حرمـاناً من الخدمـات المستحقـة له شخصيـاً، وعند سماع المعلم أوتو بهذا ، عين يوماً في منتصف الصوم الكبير من أجل الـذين كانوا آنذاك حضوراً للاجتماع ، وعندما يتم الحصول على حضور الملك والكهنة الغائبين، وبذلك يمكن وقتها إيصال هذه القضية إلى نهاية ، لكنهم لم يوافقوا على التـاريخ الذي حـدده من دون الحصول على مـوافقـة الملك مع الآخرين الذين كانوا غياباً، وبهذه الطريقة عادوا جميعاً الى الوطن.

الموت الرائع لوليم ايرل أوف سالسبري

وشفي في تلك الأثناء ملك انكلترا، تمامـاً من مـرضـه في مـالبـورا، وإليـه قـدم الى هناك وليم ايرل أوف سـالسبري ، الذي تمكن بعـد صعوبات جمة ، وبعـد تعرضه طويلاً للمخاطر في البحـر، من الرسو في كورنوول cornwall أيام عيـد الميلاد، وقـد استقبل بسرور عـارم من قبل الملك ، وعلى الفـور وضع أمامـه شكوى جادة ضـد المسؤول عن العـدالة ، بين فيها أنه عندمـا كان في المقـاطعات الأجنبيـة يعمل لصالح الملك ، أرسل مسؤول العدالة رجلاً من نسب منحط، سعى من أجل صنع اتصـال اجـرامـي مع زوجتـه، وهو مـا يزال على قيـد الحياة، وأن يعقـد معها عقد زواج زنى بالقوة، وأضـاف أنه ما لم يقم الملك بجعل مسـؤول العدالة يقـدم على إعطائـه ترضية كـاملة ، هو نفسـه سينتقـم لهذه الجريمـة العظيمـة ، ولهذا الافســاد الكبير لسـلام المملكة ، ولأن مسؤول العدالة كـان حاضراً، فقد اعترف بخطيئته، وتصالح مع الايرل بوساطة هدايا من الخيول الثمينة والهدايا الكبيرة

الأخـرى، وبذلك صـار صـديقـاً مع الايرل،وإثر ذلك قـام مسـؤول العـدالة هذا بدعوة الايرل الى مـائـدته، حيث يقال بأنه سمـه سراً، لأن الايرل ذهب الى قلعتـه في سـالسبري، فتمـدد في فـراشـه وهو مريض بشكل كبير، وإزداد المرض واستفحل، ولدى شعـوره بعلامات الموت ، بعث الى أسقف المدينـة ليأتي إليـه، حتى يتلقى الطقـوس المتعلقـة بالاعتراف، وليشـارك بقـربان الموت المسيحي ، وأيضـاً لكي يعمل وصية رسميـة فيها يتعلق بأملاكـه،وعندما دخل الأسقف الى الغرفة التي تمدد فيها الايرل، وهو ليس مرتدياً شيئاً سوى سراويله ، قفـز هذا الايرل مـن فـراشـه، ووقف أمـام الأسقـف ، الذي كـان حامـلاً لجسد ربنا ، وربط حبلاً خشناً حول رقبتـه ، وألقى بنفسه على الأرض، واعترف وهو ينوح بشكل متواصل بأنه كـان شخصياً خائناً للملك العظيم ، ولن يسمح لنفسه بالنهوض حتى يقوم بالاعتراف ، ويشارك في قـربان القداس المانح للحيـاة، ليبرهن عن نفسه بأنـه عبد لخالقه، وهكذا استمر في أعظم حالات التوبة لعدة أيام ، حتى أسلم روحه الى مخلصـه، وعندما جـرى حمل جسده من القلعـة الى الكنيسة الجديدة، التي كـانت على بعـد حـوالي الميل،ليـدفـن هناك، ظلت الشمـوع، التي جـرت العـادة بحملهـا مشتعلة مع الصليب وكـذلك المباخـر، وذلك على الرغم من زخات المطر والرياح العنيفـة، واستمرت الإضـاءة طوال الطريق، وبذلك ظهر بشكل واضح بأن الايرل قـد تاب توبة نصوحة، وأنه صار منتمياً الى تعداد أبناء الضياء.

كيف سعى المعلم أوتو الى مصالحة الملك مع فالكاسيوس

ووصل في تلك الآونة المعلم أوتو رسـول البـابا الى ملك انكلترا، وطلب منه باسم قداسة البـابا استقبال فالكاسيوس في الحظوة ، وأن يعيد إليـه زوجته، وأراضيـه، وأملاكـه، وجميع المقتنيات الأخـرى التي أخذت منه، لكن الملك رد عليـه، بأن فالكاسيوس، قـد حكم عليه ،

بسبب الخيانة المكشوفة بالنفي الأبدي، وصدر هذا الحكم من قبل جميع رجال الدين والناس، وهو حكم لا يمكن ايقافه من دون العمل بشكل معاكس لأعراف المملكة المؤسسة قديماً، ولدى تلقي المعلم أوتو لهذا الجواب، توقف عن القيام بأية مطالب أو مباحث أخرى حول القضية، ثم إنه بعث برسائله الى جميع الكنائس الكاتدرائية أو الديرية في جميع أرجاء انكلترا، طالبا منهن أموال الوكالة المستحقة لرسل الكنسية الرومانية ، وحدد مبلغ كل وكالة بأربعين شلناً.

مجمع بورجي الذي ترأسه رومانوس المندوب البابوي الى الفرنسيين

وفي حوالي هذا الوقت نفسه،جرى ارسال رومانوس من قبل مولانا البابا الى فرنسا ، ليمارس هناك أعمال المندوب البابوي، وبعد وصوله جمع الملك الفرنسي، رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورجال الدين الغاليين مع كونت طولوز، لعقد مجمع ، من أجله وغاياته جرى إرساله الى تلك البلاد، كما ستبين الرواية التالية ذلك: فقد عقد المجمع في بورجي Bourges وقد حضره رؤساء أساقفة: ليون، ورايمز، وروان، وتور، وبورجي ،وأوكسين، وكان رئيس أساقفة بوردوكس في روما، وكانت كنيسة نربونة من دون رئيس أساقفة، ولقد اجتمع حوالي مائة من الأساقفة المساعدين من تسع مقاطعات مع رعاة الديرة ورؤساء الرهبان، ومفوضين عن كل هيئة كهنة، وذلك من أجل حمل رسالة البابا، هذا وقد ادعى رئيس أساقفة ليون السيادة على رئيس أساقفة السين، ورئيس أساقفة روان السيادة على رؤساء أساقفة: بورجي، وأوكسين، ونربونة، وخاف أساقفتهم المساعدون من زيادة الخلافات برعايتها ، ولذلك لم يجلسوا كما لو أنهم في مجمع، بل وكأنهم في حالة تداول وتشار وبعد ما جلس الجميع ، وقرئت

رسائل البابا ، مثل أمامهم كونت طولوزمن جانب، وسيمون دي مونتفورت من الجانب الآخر، وقد طالب سيمون بتسليمه أراضي ريموند كونت طولوز ، وهي الأراضي التي كانت قد منحها له فيليب ملك فرنسا ، وكذلك أبوه، وقدم كتابات كل من البابا وفيليب، فيما يتعلق بهذه المنحة ، وعلاوة على ذلك أضاف بأن الكونت ريموند قد حرم في المجمع المسكوني في روما وجرد بسبب الهرطقة ، وشمل الحرمان على الأقل الشطر الأكبر من الأرض التي يمتلكها الآن، وأوضح الكونت ريموند في جوابه بأنه سوف يفعل كل ما ينبغي أن يفعله نحو الملك الفرنسي والكنيسة الرومانية حتى يحتفظ بميراثه ، وهنا طلبت منه الفئة المضادة الالتزام بحكم اثني عشر من نظرائه الاقطاعيين الفرنسيين ، وعلى هذا رد ريموند : « ليقم الملك أولاً بتلقي ولائي، وعندها سوف أكون جاهزاً للمقاضاة ، وبدون ذلك ربما لن يعترفوا بي نظيراً اقطاعياً لهم »وبعد كثير من الردود من على الجنبين، أمر النائب البابوي رؤساء الأساقفة والأساقفة الذين كانوا حضوراً، بأن يجتمع كل منهم مع أساقفته المساعدين على انفراد في مكان خاص للتباحث حول القضية المتقدم ذكرها ، ومن ثم أن يقدموا اليه نتيجة مداولاتهم، بشكل مكتوب، ثم إنه حرم كنسياً كل من يفشي خططه حول هذه القضية ، قائلاً بأنه يود أن يشرحها الى البابا، وأن يخبر بها الملك الفرنسي شخصياً.

كيف أعطى النائب البابوي خداعاً الإذن لمندوبي الكهنة بالمغادرة

وبعد هذا المجمع، أعطى النائب البابوي الإذن خداعاً إلى مندوبي هيئات الكهنة بالعودة الى مواطنهم، وأبقى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورجال الدين العاديين ، ولهذا السبب كان الأخيرون خائفين ، ولم يكن ذلك من دون سبب ، في غياب أولئك

الأكثــر براعــة وخبرة ، والذين بسبب عــددهم ، هم الأقــدر على معــارضــة النــائب البــابوي ســوف يتم لــذلك اتخاذ بعض القــرارات الملزمــة أثناء غيــاب رجــال الدين، وبناء عليــه قــام مندوبو الكهنة بالتداول، وبعد مباحثات طويلة، بعثوا مندوبين من الكنائس المطرانية الى النائب البــابوي، وقــد شرح له هؤلاء الوضع بقــولهم ما يلي:«لقــد سمعنا يا مــولانا بأن لديك رســائل من بلاط روما تتعلق بالحفــاظ على العطاءات الوقفية اللاهوتية في جميع الكنائس الديرية ، وأنت لم تقم في اجتماع التــداول الأخير بإعــلانها على مســامعنا ، نحن الذين في مــوضع المســؤوليــة الخاصــة تجاههــا ، ولذلــك نلتمس منك باسم الرب بأن لا تدع هذا النزاع يتفجر في الكنيسة الفرنسية بوسائطك، لأننا نعلم تمام المعرفة بأن مثل هــذه الخطة لا يمكن وضعها موضع التنفيـــذ من دون اقتراف آثــام كثيرة ، وإحـــداث ضرر لا يمكن تصوره، ولنفترض أن أي واحد ســوف يوافق على ذلك ، إن موافقته لن تكون جــائـزة في المسألة المتعلقــة بنا جميعــاً وذلك عندمــا جميع الشيــوخ والنــاس بشكل عــام، وكـــذلك الملك نفســه والنبــلاء على استعداد لنقد ذلك ومعارضته ، الى حد لو أن ذلك قاد الى تعريض حيــاتهم لخطر الموت، ولفقــدانهم مــراتبهم العــاليــة ، وخــاصــة أنه سيكون بالمطالبة العدوانية بهم دمار المملكة والكنيسة بشكل عام ، وشيكاً،والسبب الداعــي لخوفنا هو أنك لم تبحث هذه القضيـــة مع الممالك الأخــرى وأنك أمــرت بعض الأســاقفــة ورعــاة الديرة ، أنهم حيثما وجــدوا العطاءات الوقفية اللاهوتيــة شــاغرة ، الاحتفــاظ بها لصالح البابا».

كيف طالب المندوب البابوي بعطائين من الأساقفة لاستخدامات كنيسة روما

ولدى استلام المندوب البابوي للرسالة المذكورة أعلاه، وأثناء مسعاه

لاقناع الجميع بالموافقة على طلبه، قام آنذاك للمرة الأولى بعرض تفويض البابا ورسالته التي طالب فيها بعطائين وقفيين كهنوتيين من كل كنيسة من الكنائس الكاتدرائية، عطاء من الهيئة الكهنوتية والعطاء الآخر من الأسقف، وبالطريقة نفسها بالنسبة للأديرة، حيث هناك حصصاً متنوعة، أي حصص رعاة الديرة، وحصص الدير، هذا ولقد طالب بعطائين، واحد من راعي الدير، والثاني من الدير، وطلب من الدير حصة راهب واحد، أثناء التوزيع المتساوي للممتلكات، وذلك حسبما فسر النائب البابوي ذلك شخصياً، والشيء نفسه من راعي الدير، ثم أخذ يشرح ويبين المنافع التي ستحصل من ذلك، أي أن ذلك سوف يزيل من الكنيسة الرومانية، التي هي الأم لجميع الكنائس، ويرفع عنها تهمة الجشع، التي هي أصل جميع الشرور، فما من أحد سوف يرغم على تقديم أية هدية، من أجل تسهيل العمل في بلاط محكمة روما، وما من أحد سوف يتسلم هدايا عندما يجري تقديمها.

اعتراضات المشرفين المفوضين على المطالب المذكورة أعلاه

وقال مندوب رئيس أساقفة ليون في جواب على هذا الطلب: «نحن ياسيدي لانرغب مطلقاً أن نكون بلا أصدقاء في بلاطك، أو أن لانتمكن من منح الهدايا»، وبين المندوبون الآخرون بالطريقة نفسها انعدام المنافع والمحبطات التي سوف يعملون في ظلها، مثل خسارة الممتلكات، والمشورة، والمساعدة، وأنواع الرعاية الأخرى، فبهذه الطريقة: «سوف يكون هناك باستمرار في كل أسقفية، أو على الأقل في كل مقاطعة، رسولاً، أو وكيلاً رومانياً، هو لن يعيش اعتماداً على وسائله، بل سوف يفرض غرامات ثقيلة وبدلات ويجبيها من الكنائس الأكبر، وربما من الكنائس الأصغر، وبذلك لن يكون هناك أحداً يتمتع بالحصانة، والشخص الذي يسمى المندوب المشرف هو الذي سوف يفرض مكوس وضرائب الأساقفة»، كما أنهم قالوا بأن التوزيع بين

الهيئات الكهنوتية سوف يتبع ذلك، لأن من المحتمل أن يأمر البابا، إذا ما اختار، المشرف المفوض من قبله، أو شخصاً آخر أن يكون حاضراً ممثلاً له في الانتخابات، وهذا سوف يثير الاضطراب بينهم ويزعجهم، وهذا سوف يجعل مع مرور الأيام الانتخابات تتحول إلى الاعتماد على بلاط روما، الذي سوف يتولى تعيين رومان، أو أشخاصاً مكرسين لهم، في جميع الكنائس، أو على الأقل في معظمها، وبذلك لن تكون هناك فئة من رجال الدين المحليين أو من رؤساء رجال الدين، وذلك بقدر ماسيكون هناك رجال لاهوت سوف يقدمون المزيد من التقدير إلى بلاط روما، أكثر مما سيقدمونه إلى الملوك أو المملكة، وأضافوا أيضاً أنه إذا ماتم التوزيع الصحيح للممتلكات، فإن ذلك البلاط سوف يصبح كله غنيا، لأن رجاله سوف يتسلمون أكثر من الملك نفسه، وبذلك لن يصبح الشيوخ أغنياء فقط بل الأغنى بين الناس، وبما أن علة الغنى هي التكبر، فإن المتكبرين نادراً ماسيصغون إلى المتشكين، بل سوف يطردونهم بلاتوقف، والذين دونهم سوف يكتبونهم غير راغبين، والبرهان على هذا واضح، لأنه حتى في هذه الآونة نراهم يؤجلون الأعمال بعد تلقيهم هدايا واستلامهم لضمانات، وهكذا سوف تكون العدالة في خطر، وسوف يرغم الشكاة على الموت عند أبواب رؤسائهم المتحكمين بهم، أي الرومان، وكذلك بما أنه من الصعب لنبع الشره أن يجف، فإن الذي يفعلونه الآن سوف يفعلونه آنذاك بوسائل الآخرين، ولسوف يحصلون على هدايا أكبر بكثير لوكلائهم وقتها، منها الآن، لأن الهدايا الصغيرة توزن الآن مع الأغنياء الجشعين من الناس، وعلاوة على ذلك فإن الثروة الكبيرة سوف تسبب الاحتكاك بين المواطنين الرومان أنفسهم، وبذلك سوف تنشب خلافات كبيرة وخصومات بين مختلف الوكلاء، ويخشى من أن هذا سوف ينعش ويستغل من أجل تدمير المدينة كلها، الأمر الذي ليست متحررة منه حتى في هذه الآونة، كما أنهم أضافوا، بأنه من الممكن للذين هم موجودين الآن أن يصدقوا على

هذا ويتعهدوا به، لكن لايمكنهم ربط خلفائهم به، كما أنهم لن يمتلكوا الارغــام على الطاعـة كـأمـر مشروع، واختصروا الموضــوع كله أخيراً بقولهم : «من المحتمل يامـولاي أن تقوم العاطفة الغيـورة للكنيسة كلها وللكرسي الرومـاني المقـدس بعـزلك، وإذا مـا جـرى وضع هذا الظلم العـام مــوضع التنفيـذ، علينا أن نخشى أن سيكون الانفصـال العـام وشيكاً، نرجـو الرب أن يجنبنا ذلك»، ولدى سماع النائب البـابوي هذا، بدا وكأن مشاعـره الطيبة قد تحركت نحـوهم، فأجاب بأنه لم يوافق قط على هذا الطلب عندمـا كـان في البـلاط في رومـا، وأنه تلقى الرسـائل بعدما وصل إلى فرنسا، وأنه كان آسفاً كثيراً بسبب هذه الأشياء، كما أنه أضـاف بأنه يفهم بأن جميـع الأوامـر في هذه القضيـة قـائمـة على الفهم الضمني بأن الامبراطورية والممالك الأخرى سـوف توافق عليها، كما أنه قـال بأنه لن يقـوم بمحـاولات أخـرى حـول هذه القضيـة حتى يقـدم الأساقفة في أرجاء المملكة الأخـرى موافقتهم، الأمر الذي لم يعتقد بأنه سيحدث.

كيف عاد المعلم أوتو مرغماً إلى روما

وفي الصـــوم الكبير من العـــام نفســه، كـــان المعلم أوتو، رســـول الامبراطور، على طريقه إلى نورثأمبرلانـد لفرض ضريبة الوكـالة المتقدم ذكرها، وقد وصل إلى نورثأمبتـون، وفي ذلك المكان وصلت إليه رسائل من البـابا، منحت بناء على طلـب من رئيس أسـاقفـة كـانتربري، وقـد حـوت هذه الرسـائل أمـراً إلى أوتو المذكـور، بالعـودة فـور رؤيتهم إلى روما، لأن نفـوذه هناك كان قد تدمر تمامـا، وما أن ألقى نظرة على هذه الرســائل، حتى ألقى بهم بالنـار وهو مكتئب، وقـام على الفــور بتغيير خططه، وغــادر انكلترا وهـو مضطرب، حيث أنه أمــر ستيفن رئيس أساقفـة كانتربري، حسبما جـاء في رسائل البـابا، بأن يجمع الملك وجميع رجـال دين المملكة للتداول وأن يبعث إلى البـابا بجوابهم حـول المسألة

التي أرسل أوتو المذكور من أجلها إلى انكلترا، وبعدما أدار ظهره إلى انكلترا، جمع ستيفن، رئيس أساقفة كانتربري جميع المسؤولين عن هذه القضية، ليكونوا في مؤتمر في ويستمنستر بعد عيد الفصح، وهناك قام بحضور الملك وجميع رجال الدين في انكلترا الذين اجتمعوا بناء على دعوته، فقرأ الرسائل المذكورة أعلاه، فيما يتعلق بالهدايا إلى الكنيسة الرومانية، وبعدما سمعوا الرسائل، وفهموا مقاصدها، ضحكوا في قرارة أنفسهم تجاه جشع الرومان الذي لم يفهموا الحكمة الأخلاقية القائلة:

««إنها ليست الثروة بل الفضيلة هي التي سوف تجعل الانسان راضيا،

وليس المحتاج هو الانسان الفقير، بل المنصرف نحو تحصيل الربح»».

ثم دعا الملك بعض رجال الدين والنبلاء للاجتماع على انفراد، ثم إنهم أعطوا الجواب التالي إلى رئيس الأساقفة: «إن المنح التي ينصحنا البابا بالموافقة عليها، تتعلق بالجماعة المسيحية كلها، وبما أننا موجودين في أقصى زاوية من العالم، سوف ننظر كيف ستتصرف الممالك الأخرى تجاه هذه المطالب، وعندما نشاهد أمثولتهم سوف يجدنا مولانا البابا أكثر استعدادا في تعاملنا مع هذه المطالب من الآخرين»، وبالتفوه بهذه الكلمات سمح للجميع بالمغادرة.

الحركة الكبيرة التي عملت ضد كونت طولوز

وجرى التبشير في الوقت نفسه بصليبية في جميع مقاطعات فرنسا بشكل عام من قبل النائب البابوي، بأن على جميع الذين يمكنهم حمل السلاح، عليهم حمل شارة الصليب للحملة ضد كونت طولوز وأتباعه، الذين قيل بأنهم تلوثوا بلطخة الهرطقة القذرة، ونتيجة لهذا التبشير حمل عدد كبير من رجال الدين ومن العلمانيين الصليب، وقد اقتنعوا بفعل

ذلك لخوفهم من الملك الفرنسي، أو لنيل الحظوة من النائب البابوي، وكان هذا أكثر من غيرتهم على العدل، لأنه بدا للكثيرين أنه سيكون ذنباً القيام بمحاربة المسيحيين الحقيقيين، لاسيما وأنهم جميعاً كانوا على معرفة، أنه أثناء المجمع الذي انعقد مؤخراً في بورجي، عمل الكونت المذكور توسلات كثيرة ورجا النائب البابوي أن يذهب إلى أية واحدة من مدنه في أراضيه، للبحث في قواعد ايمانهم، وأعلن أنه إذا ما وجد النائب البابوي أيا من سكان أية مدينة يتبنون مواقف وآراء مضادة للإيمان الكاثولكي، هو نفسه سوف يفرض عليهم ترضية كاملة، وأنه إذا وجد أية مدينة في حالة عدم الطاعة، هو سيتولى، بقدر مايملك من طاقة، ارغام تلك المدينة وسكانها على عمل تكفير وتوبة، وبالنسبة له شخصياً، عرض أنه إذا كان قد أذنب بأي حال من الأحوال، الأمر الذي لايتذكر بأنه فعله، أن يقدم ترضية كاملة للرب، وللكنيسة المقدسة، كمسيحي مخلص، وإنه إذا مارغب النائب البابوي هو على استعداد حضور محاكمة من أجل عقيدته، وقد رفض النائب البابوي هذه العروض جميعاً، ولم يستطع هذا الكونت الكاثوليكي الحصول على أية حظوة لديه من دون التخلي عن ميراثه والتنازل عنه بالنسبة له شخصياً ولورثته من بعده، وحمل الملك الفرنسي، بناء على تبشير هذا النائب البابوي، الصليب، ولكنه رفض الذهاب في هذه الحملة، مالم يحصل أولاً على رسائل من البابا إلى ملك انكلترا، يمنعه تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي، إذا ماأزعج الملك الفرنسي، أو أثار حرباً ضده، بشأن أية منطقة هي الآن في حوزته، سواء أكان ذلك عادلاً أو غير عادل، وذلك طوال المدة التي سيكون خلالها في خدمة البابا وكنيسة روما، في العمل لاجتثاث الهراطقة الألبينيين ومحرضيهم ومشاركي كونت طولوز، وكل من يقدم له العون والمساعدة والنصيحة بالابتعاد عن طريق الايمان، وعين بعد هذا الملك والنائب البابوي يوم صعود ربنا من أجل جميع الذين حملوا الصليب للاجتماع في ليون، تحت طائلة

الحرمان الكنسي، وأن يكونوا مجهزين بالخيول والأسلحة، ليتبعوهما في الحملة المقترحة.

كيف غير ملك انكلترا نيته في عبور البحر

وجمع في الوقت نفسه ملك انكلترا، الذي كان متشوقاً بشدة لغزو مقاطعات ماوراء البحر، مستشاريه، وقرأ عليهم رسائل البابا، التي كان قد بعث بها إليه، وسألهم عن نصيحتهم عن الذي يتوجب عمله تجاه هذا الحظر، وكان الرأي الذي قدمه جميع رجال الدين مع النبلاء هو التعبير عن رغبتهم بتأجيل الحملة المرغوب بها حتى يروا نتيجة هذه المغامرة الصعبة والمكلفة التي تولاها الملك الفرنسي، وكان الملك الانكليزي في تلك الاثناء قلقاً جداً حول أخيه رتشارد الذي كان آنذاك في غاسكوني يتابع الحرب، وقد تشوق الى عودته الى الوطن، وعندما كان الملك هكذا قلقاً ومشغولاً حول أخيه، وكان يرغب بمساعدته، وصل رسل اليه من عند أخيه المذكور، أخبروه أنه كان سالماً معافى، وأن كل شيء كان يسير معه بشكل جيد وموافق، وكان بين مستشاري الملك آنذاك المعلم وليم، الذي كان لقبه بييربونت Pierepunt، وكان منجماً، وقد أعلن بجرأة أمام الملك، أنه إذا ما حاول الملك الفرنسي القيام بالحملة التي كان على وشك الشروع بها، هو إما لن يعود حياً، أو أنه سوف يعاني من خسائر كبيرة في الممتلكات والأتباع، وشعر الملك بسرور عارم لدى سماعه بهذا، ووافق على خطة مستشاريه.

وفاة رتشارد أسقف درم

وكان في العام نفسه رتشارد دي ماريسكو Marisco، أسقف درم يسير مسرعاً مع عدد كبير من المحامين الصاخبين، يريد أن يكون في لندن في اليوم المحدد، ليقوم بالدعوة المهينة ضد الرهبان، وقد نزل على

الطريق في دير بيتر- بورا peter-borough، حيث أوى الى فراشه ليلاً، بعد عشاء فاخر، وفي الصباح الباكر عندما كانت الشمس آخذة بالاشراق، دخل كهنته الى غرفته بهدف ايقاظه، ووجدوه وقتها ميتاً، وشعروا لهذا جميعاً بانقباض، وأبقوا خبر موته سراًحتى مساء ذلك اليوم، لأنه مات دون اعتراف وتناول القربان، ثم إنهم أخبروا رئيس الرهبان بالواقعة الرهيبة وكذلك رهبان الدير، وقاموا بعمل محفة، وحملوا جسده ونقلوه الى الكنيسة في درم من أجل الدفن،وقد مات هذا الأسقف في اليوم الأول من أيار، بعدما بقي شاغلاً للأسقفية لمدة تقارب التسعة أعوام، وهناك واقعة لها علاقة به، نعتقد أننا لايجوز المرور بها صامتين، وهي واقعة حدثت قبل حوالي العامين من موته، فقد ظهر في المنام في إحدى الليالي الملك جون الأخير، الى واحد من رهبان دير القديس ألبان، وكان آنذاك مقيماً في تاينماوث Tynemouth، وكان هذا الراهب صديقاً مقرباً من الملكين: رتشارد، وجون، وتنفيذاً لأشغالهما قد أرسل في بعض الأحيان الى روما، وبعض الأحيان الى سكوتلندا، والى أماكن أخرى كثيرة جداً، وبانجازه لخدماته كان قد كسب حظوة الملكين المذكورين وعندما كان الراهب آنذاك نائماً على حشيته، وقف الملك المتقدم ذكره أمامه في ملابسه الملكية التي اسمها الثياب الامبراطورية، وعرفه الراهب على الفور، وتذكرأنه كان ميتاً، فسأله كيف هي أحواله، فأجابه الملك قائلاً: «مامن أحد أسوأ مني أنا، لأن ثيابي هذه التي تراها هي محرقة وثقيلة الى درجة أن مامن انسان حي يمكنه أن يلمسهم بسبب حرارتهم، أو يلبسهم بسبب وزنهم، إلاّ ويتعرض للموت، ومع ذلك إنني آمل بوساطة الرحمة الربانية التي لايمكن وصفها، أن أحصل في وقت ما على الرحمة، ولذلك ألتمس بحرارة من أخوتك وأرجو أن تخبر رتشارد مارش، الذي هو الآن أسقف درم، أنه ما لم يقم قبل موته بتغيير اسلوب حياته الشريرة، ويقوّمها، بتوبة نصوحة، وبتكفير موائم، هناك مكان معدّ له في جهنم،

وإذا مـا رفض تصـديق كلماتك ورسـالتي، ليقم بـوضع جميع الشكوك جانباً بهذه الشـواهد، فليتذكر أننا عندما كنا معاً لوحـدنا في مكان يعرفه بشكل جيـد، اقترح عليّ خطة، راقت لي وله شخصيـاً، وهـي أن أقـوم بأخـذ محصول سنة من الصـوف من الرهبان السسترشيـان، ولقد اقترح عليّ أيضـاً خططاً أخرى شريـرة، أنا أعاني من أجلها عـذاباً لايوصف، وهو ماينتظره، وإذا مااستمر متردداً في تصديق رسالتي، عليه أن يتذكر، بأنه أعطاني في المكان نفسـه، وفي الوقت نفسـه حجرة كـريمـة كان قـد اشتراها بمبلـغ كبير»، وبهذه الكلمات اختفى الملـك، واستيقظ الـراهب مندهشاً.

وبعد وفاة رتشارد أسقف درم، طلب رئيس الرهبان مع رهبان الدير الاذن من الملك مـن أجل انتخـاب أسقف، وبنـاء عليـه اقترح عليهم الشماس لوقا، ورجاهم أن يستقبلوه بمثـابة أسقف لهم، وأجابه الرهبان — على كل حـال — بأنهم لن يستقبلوا أي واحـد مالم يكـن قد جـرى انتخـابه بشكل قانـوني، وبناء على هذا الرفض، أعلن لهم الملك، وأشفع اعـلانه بالقسم أنهم ينبغي أن يبقـوا من دون أسقف لمدة سبعـة أعـوام، مـالم يقبلوا لوقا المتقـدم الذكر ليحتل منصب الأسقفيـة، وكان الرهبـان -على كل حـال -قـد اعتقـدوا أنه شخص غير لائـق لمثل هذا المنصب الرفيع، فقـاموا بمـوافقـة جماعية من جماعتهـم، بانتخاب كـاهنهم وليم، الذي كـان رئيس شمامسـة ووركستر، وكـان رجـلاً متعلماً، ومستقيماً، وقـدموه إلى الملـك، وعمل الملك بعض الاعتراضات التـافهـة، ورفض استقباله، وبناء عليه أرسل الرهبان بعضاً منهم إلى روما، للحصول على تثبيت الانتخـاب، بمـوجب سلطة الحبر الأعظـم، وعندمـا سمع الملك بهذا، أرسل أسقف شيستر، ورئيـس رهبـان لانتـوني Lantony إلى رومـا، لمعـارضـة الرهبـان، ولإعاقـة مقـاصـدهم، ولأنهم استمـروا في الخلاف لمدة طويلة استمرت القضية من دون حسم.

حصار أفينون من قبل لويس ملك فرنسا

وحل في الوقت نفسه موعد عيد صعود ربنا، ففي ذلك اليوم صدرت الأوامر إلى جميع الصليبيين الفرنسيين الذين كانوا تحت قيادة الملك والنائب البابوي بالتجمع من دون تأخير، وكان الملك قد أنهى جميع إعداداته في ليون، فأخذ طريقه وارتحل مع قواته، وكانت هذه القوات جيشاً -كما بدت -عملاقاً لايقهر، وقد تبعها النائب البابوي، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورجال الدين الآخرون التابعون للكنيسة، وقدّر تعداد الجيش بأنه حوى حوالي الخمسين ألفاً من الفرسان، والجنود الخيالة، وذلك إلى جانب الجنود الرجالة، الذين كان من الصعب تعدادهم، ثم قام النائب البابوي فأعلن على الملأ الحرمان الكنسي لكونت طولوز ولجميع مشجعيه، ووضع جميع أراضيه تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وكما قلنا انطلق الملك مع الأعلام وهي تخفق والترسة وهي تلمع، وكان زحفه مرعباً حتى بدا وكأنه جيش من القلاع وهو يتحرك، وأخيراً دخل إلى مقاطعة كونت طولوز، وفي يوم أحد الشعانين وصلوا جميعاً إلى أفينون Avignon، التي كانت أول المدن في ممتلكات الكونت يصلون إليها، وقد قرروا على الفور أن يبدأوا هجومهم من هناك، وبالتالي اخضاع جميع أراضي الكونت مع سكانها من البداية حتى النهاية، ولدى وصول الملك والنائب البابوي طلب بشكل مخادع الاذن من السكان السماح لهم بالعبور من خلال المدينة، قائلين بأنهم قدموا إلى هناك بنوايا سليمة، وطلبوا معبراً من خلال المدينة حتى يتمكنوا فقط من تقصير مسافة زحفهم، وقام السكان بالتباحث حول هذا المطلب، وبعد ذلك لم يصدقوا تأكيداتهم، وقالوا إن مقصدهم الحصول داخل المدينة لنوايا عدوانية، وليس لاختصار المسافة، وهنا غضب الملك، وأقسم أنه لن يغادر المكان حتى يستولي على المدينة، وأمر على الفور بصف آلات قذفه حول المكان، وقام بهجوم

حاد، ونشب الآن قتال شديد استخدمت فيه بشكل متواصل: المجانيق، والقسي العقـارة، وجميع أنواع الأسلحـة الأخـرى، وكـانت المدينة -من جهة أخرى -لم تتعرض من قبل للهجوم عليها من قبل عساكر معادية، وكـانت مدافع عنهـا بشكل جيد، بوسـاطة: خنادق، وأسوار، وسـواتر دفاعية، وشرافات، وكانت من الداخـل مشحونة بشكل جيد بالفرسان، وبآلاف من الجنود، كما كـانت مزودة بشكل جيـد بالخيول، وبالسـلاح، وبأكـوام من الحجـارة من أجل المجـانيق، وتوفـرت فيهـا آلات رمي ومجانيق، كما كـانت المؤن فيهـا وافـرة، ولذلك لم يكن هناك خـوف من المهـاجمين، وقد قـام المدافعون عن المدينة بشجـاعـة برمي حجرة مقـابل حجرة، وسـلاح مقابل سلاح، ورمح مقـابل رمح، وسهم مقابل سهم، وأوقعوا جراحات مميتة بالقوات الفرنسية التي حاصرتهم.

الموتان والمجاعة بين المحاصرين

وبعدمـا استمر الحصار لوقت طـويل، نقصت المؤن لدى المحاصرين وكادت أن تنعدم، ومـاتت أعداد من العسـاكر، لأن كـونت طولوز، قام قبل وصـول الفـرنسيين بحكم كـونه عسكريـاً بارعـاً، بنقل جميع أنواع المؤن مع المسنين من الرجـال والنسـاء، وكـذلك الأطفـال، والخيـول والقطعـان، ولذلك حـرموا من جميع أنـواع المواد الأساسيـة والمؤن، ولم يتألم الناس فقط ويعـانون، بل أيضـاً خيـول ومـواشي الجيش، حيث هلكت من المجـاعة، فقـد كـان الكونت قد تدبـر من قبل فلاحـة جميع الحقول في أرجـاء المنطقة، ولذلك لم تتوفـر هناك أية مواد للأكل وعلف المواشي، غير ماكـانوا قد جلبـوه من المناطق الفرنسيـة، ولذلك أرغمت كتل كبيرة من العسـاكر على التخلي عن المعسكر، للبحث عن الأطعمـة من أجل الناس والأعـلاف من أجل الخيـول، واستـولوا بوسـاطة هذه الغـارات على كثير من البلدات التي وقفت ضدهـم، إنما غالبـا ماعـانوا من خسـائـر كبيرة من حملات كـونت طولوز، ومن كمائنه التي نصبهـا،

وكان الفرنسيون في هذا الحصار عرضة للموت بطرق كثيرة، منها كان من الموتان الذي انتشر بشكل مرعب بين الرجال والخيول، ومن الأسلحة المميتة، والحجارة القاتلة التي جاءت من عند المحاصرين، ومن المجاعة الشاملة التي استشرت بشكل رئيسي بين الطبقات الأشد فقراً، الذين لم يمتلكوا لا المال ولا الطعام، وذلك بالاضافة إلى التعاسات الأخرى، التي هاجمت الجيش من دون توقف، فقد صدر عن جثث الموتى من الناس والخيول، الذين كانوا يموتون في كل اتجاه روائح نتنه، وكانت بالاضافة إلى ذلك هناك أعداد هائلة من الذباب الأسود الكبير، وكانت تدخل إلى داخل الخيم، والسرادقات، والمقتنيات وتؤثر على المؤن والأشربة، وبما أنهم كانوا غير قادرين على ابعادهم عن كؤوسهم وصحونهم، سببوا موتاً مفاجئا بينهم، وكان الملك والنائب البابوي في وضع حرج جدا، لأنه إذا ماعادت هذه الحملة الكبيرة والقوية دون أن تنجز أهدافها، فلسوف يعاني الفرنسيون والرومان من وصمة عار، وعندما رأى قادة الجيش، أن التأخير صار طويلاً، بسبب أعداد الموتى، التمسوا ممن هم أدنى منهم رتبة وكذلك من رؤسائهم مهاجمة المدينة، ولدى قيام تلك الحشود الهائلة من الجنود بالزحف ضد المدينة، جاء ذلك الزحف فوق جسر كان قد بني فوق نهر الرون، فتدمر الجسر، إما من قبل سكان المدينة، أو بسبب ثقل الجنود الذين كانوا يقاتلون هناك،وقد غرق ثلاثة آلاف رجل في مجرى النهر السريع، ووقتها تصاعدت أصوات سرور من سكان المدينة، لكن ذلك أزعج الفرنسيين، وسيطر الاضطراب والقلق على الجيش الفرنسي، وكان سكان المدينة يترقبون فرصتهم، ولذلك أقلعوا بغارة شعواء من المدينة، وبقوة كبيرة، وجاء ذلك في أحد الأيام عندما كان الفرنسيون قد جلسوا وراء المائدة يأكلون ويشربون، ثم إنهم عادوا إلى المدينة دون المعاناة من خسارة بينهم أنفسهم، وقام سكان المدينة هؤلاء بغارات متواصلة ضدهم، وكان الملك الفرنسي يائساً، وقد أمر برمي جثث القتلى في نهر

الرون، من أجل تجنب روائح النتانة، لأنه بسبب كثرة عدد جثث القتلى لم يتوفر لديهم مكان آخر للدفن، ثم إنهم عملوا خندقاً عميقاً بينهم وبين المدينة، وتمت متابعة أعمال الحصار من على مسافة كبيرة عن المدينة، ولم يتوفر لدى النائب البابوي وحشد الأساقفة في ذلك الحين، من وسائل العقوبة غير انزال عقوبة الحرمان الكنسي بكونت طولوز، وبسكان المدينة، وبجميع سكان المنطقة.

وفاة الملك الفرنسي لويس

وقام في هذه الآونة الملك الفرنسي لويس، من أجل النجاة من الطاعون الذي كان يحدث دماراً هائلاً في المعسكر، باللجوء إلى دير اسمه مونتبنسير Montpensier ، على مقربة من البلدة المحاصرة، لينتظر سقوط المدينة، ووصل إليه إلى ذلك المكان كونت شامبين، وكان قد أمضى أربعين يوماً في الحصار، ووفقاً للعادة الفرنسية، طلب الإذن بالسماح بالعودة إلى الوطن، لكن الملك رفض السماح له، فقال بأنه خدم الأربعين يوماً المتوجبين عليه، وهو ليس مفروضاً عليه البقاء أكثر، ثم إنه لن يبقى أية مدة أطول، وثار غضب الملك، وأعلن مقسما بأنه إذا ماغادر الكونت، سوف يعيث فساداً في أراضيه بالسيف والنار، وكان الكونت -حسبما ذكرت بعض التقارير -واقعاً بالحب مع الملكة، فتدبر دس بعض السم إلى الملك، وتعجل بذلك، لأن الرغبة بالعودة قد استبدت به، وماعاد بإمكانه الانتظار أية مدة أطول، وقد قيل أنه بعدما غادر الكونت، وقع الملك مريضاً جداً، وسرى السم في عروقه، وأوصله إلى حافة الموت، هذا ويؤكد بعضهم أنه لم يمت بالسم بل بالاسهال الشديد، وعندما مات الملك أخفى النائب الروماني للكرسي الرسولي، الذي كان حاضراً أثناء الحصار، وكذلك الأساقفة الذين كانوا مستشاريه السريين، وكانوا أيضاً هناك، خبر موت الملك حتى تستسلم المدينة، لأنه لو رفع الحصار آنذاك،

لألقيت ملامة عظيمة عليهم، وبناء عليه تظاهر النائب البابوي ورجال الدين الذين كانوا هناك أثناء الحصار، بأن الملك محبوس بسبب مرض شديد، وقالوا بأن الأطباء يرون أنه سوف يتعافى على الفور، وبناء عليه حشوا قادة مختلف الوحدات على مهاجمة المدينة بكل مالديهم من قوة، وقد حفظوا جسد الملك بوساطة كميات كبيرة من الملح، ودفنوا أحشاءه في الدير، وقاموا بتغليف جسده بالشمع وبالكتان وبجلود الثيران، وحفظوه بعد ذلك في مكان أمين في الدير، ثم عاد النائب البابوي ورجال الدين إلى الحصار، وعندما وجد النائب البابوي أنهم لم يتقدموا بل كانوا يواجهون الاخفاق بشكل دائم، بسبب مختلف ألوان سوء الحظ، قام هذا النائب، بناء على نصيحة شيوخ المعسكر، فأرسل رسالة إلى داخل المدينة، وطلب من أهل المدينة ارسال اثني عشر شيخاً منها إليه بعد تسلمهم ضمانة وأمانا، وأن ينفذوا ذلك بأسرع وقت ممكن من أجل الاتفاق على السلام.

كيف تم الاستيلاء على أفينون من قبل الفرنسيين خيانة

وبعدما جرى تقديم رهائن إلى أهل المدينة ضمانة لوفد يأتي من عندهم، خرج من المدينة اثنى عشر رجلاً من سكانها لعقد مؤتمر مع النائب البابوي، وبعد نقاش طويل حول السلام، نصح أهل المدينة باخلاص أن يقوموا بتسليم أنفسهم، وبذلك يصونوا أنفسهم، وممتلكاتهم ومقتنياتهم، وامتيازاتهم إلى أقصى حد تمتعوا به في حياتهم، وعلى هذا رد الرسل بأنهم سوف لن يسلموا أنفسهم بأي شكل من الأشكال ليعيشوا تحت حكم الفرنسيين، الذين عانوا من عجرفتهم ورعونتهم القاسية في غالب الأحيان، وبعد نقاش طويل على الجانبين،طلب النائب البابوي الاذن له بالدخول الى المدينة مع رجال الدين الذين كانوا حاضرين، حتى يتفحصوا إيمان السكان،وأقسم بأنه أطال الحصار فقط من أجل تأمين النجاة والخلاص لأنفسهم،وأضاف

أيضـاً أن صرخـة الكفـر،التـي نالت القـوة في المدينة،قـدوصلت الى البـابا،ولذلك هو يرغب في معـرفة فيما إذا كـانوا يؤيدون هذه الصرخـة بأعمالهم، ووثق السكان هنا بوعـود المندوب البـابوي ، ولم تتوفـر لديهم شكوك بوجـود خيانة، وبعد تأديـة اليمين من على الجانبين حول الشرط المذكـور أعـلاه، أعطوا إلى المندوب البـابوي وإلى رجـال الدين الإذن بدخول المدينـة من دون الآخرين، وبصحبتهم، لكن كما جـرى الإعداد من قبل، قـام الفرنسيـون بشكل خياني، وخـارقين بشكل معيب لليمين الذي أداه المندوب البـابوي، فشقـوا طريقهم بالقـوة إلى داخل المدينة، وجعلوا من السكان أسرى، وبعـدمـا حصلوا هكذا بشكل خيـاني على النصر، دمـروا الأبراج والأسـوار الموجـودة في هذا المكان البهي، وقـام النائب البـابوي بعـد ذلك بـوضع المدينة تحت عهـدة الفـرنسيين، ورفع الحصـار، وأمـر بحمل جسـد الملك إلى باريس، وأن يتـولى ذلك الكهنة الذين كـانوا محتشـدين هنـاك، وذلك من أجل دفنه بين أجـداده، حسبما كانت العـادة مع الملوك، ولقد قـالوا بأن الملك قد مـات في شهر ايلول، وقد أخفوا نبأ موته لمدة شهر أو أكثر، وقد مات من بين الذين ذهبوا إلى الحصـار مع الملك اثنين وعشرين ألفـاً في ذلك المكان، بما في ذلك الذين قتلوا وغـرقـوا، وكـذلك الذين مـاتوا من الطـواعين، أو مـاتوا بشكل طبيعي، وبذلـك توفـر سبب عظيـم للبكاء عليهم وللحـزن من قبل أزواجهم وأولادهم، ومن هذا اتضح تماما بأن حرباً غير عادلة هي التي خيضت، كـانت دوافعهـا الحسـد والنهم أكثـر من الرغبـة في محق الهرطقة.

تتويج لويس ملكاً على فرنسا الذي هو ابن لويس الملك المتوفى

وبعد وفاة لويس الذي كان ملك فـرنسا، دعت زوجته السيدة الملكة بلانشي رؤساء الأساقفـة، والأساقفة، ورجال الدين الآخـرين العائدين لمختلف الكنائس، وكذلك النبلاء الذين يدينون بالولاء للتاج، للاجتماع

في باريس في الثـالث عشر من تشرين الثاني، من أجل تتـويج لويس ابن الملك لويس المتوفى، وطلبت جماعـة النبلاء الرئيسيون قبل اليـوم المحدد -تماشيـاً مع العـادة الفـرنسيـة -اطـلاق سراح جميع السجناء، وبشكل خاص فيراند كـونت فلاندرز، ورينالد كـونت أوف بولون، الذي أبقي في السجن -على الـرغم من امتيـازات المملكة -حتـى الآن اثني عشر عـامـاً، وطالب بعضهم -على كل حـال -بإعـادة أراضيهم إليهم، التي احتفظ بها لويس والد فيليب وجـدّ الملك الشاب، لمدة طويلة، وأبقـاها بحوزته بشكل غير عـادل، وأضافوا أيضاً أنه لايجوز حـرمان أي واحد في المملكة الفـرنسية من حقـوقه، مـالم يكن ذلك بقرار صـادر عن اثني عشر من نظرائـه، وينبغي أن لايعمل أحـد حرباً من دون اشعـار مسبق قبل سنة، وأعلنوا أنه فور تنفيذ هذه الاصلاحات، فإنهم سوف يقدمون من دون تأخير إلى التتويج، وخشيت الملكة أن التأخير قد يسبب خطراً، ولذلك قـامت بناء على نصيحة النائـب البابوي، باستـدعاء رجـال دين المملكة، مع قليل من النبلاء أمكنها جمعهم، وفي يوم عيد القديس أندرو الرسول، تدبرت أمر تتويج ابنها ملكاً، مع أنه كان طفلاً لم يبلغ العاشرة من عمـره، وغيب دوق بيرغندي نفسه، ولم يحضر التتـويج، ومثل ذلك فعل كونت شـامبين، وكونت دي بار، وكونـت سينت بولص، وكونت دي بريتاني، وتقريباً جميع النبلاء المتوجب عليهم طاعة التاج، واستعدوا للقتال أكثر من استعدادهم للسلام والتابعية الحسنة.

ولدى سماع الملك الانكليـزي بهذه الخلافـات بين النبـلاء المتقـدم ذكرهم، بعث وولتر رئيس أساقفة يورك والفارس فيليب دي ألبيني إلى مقاطعات ماوراء البحر، مع رسل آخرين خاصين، إلى نبلاء نورماندي، وأنجو، وبريتاني، وبواتو، الذين كانوا مرتبطين بولاء التابعية له، وطلب القبـول بينهم، وقدم إليهم بالوقت نفسـه وعوداً كبيرةً، إذا مـا استقبلوه باخلاص جيد.

موت فالكاسيوس ونبوءة منذرة بتلك الحادثة

وأنهى في هذا العام نفسه فالكاسيوس حياته الشريرة في سينت سير Cyr ، وجاء ذلك بعد نفيه من انكلترا، وأثناء عودته إلى هناك بعدما رتب الأمور في بلاط روما، وكان هذا اللص الظالم فالكاسيوس، قد قام أثناء حياته، بنهب بلدة سينت ألبان بشكل وحشي، وقتل بعض السكان، وسجن البقية، واستخرج مبلغا كبيراً من المال من راعي الدير، وكذلك من البلدة، وذلك من أجل ابقاء الدير، والبيعة، والبلدة، والحيلولة دون إحراقهم من قبله، وكان قد حدث بعد هذا أن ذهب إلى سينت ألبان ثانية ليلتقي مع باندولف أسقف نورويك، وسأله هذا الأسقف لدى رؤيته له، على مسمع من راعي الدير نفسه وعدد كبير آخر، عما إذا كان قد أساء إلى القديس ألبان بأية طريقة من الطرق، فأجابه فالكاسيوس بأنه لم يقترف شيئاً من هذا القبيل، وهنا أضاف الأسقف قائلاً: «لقد سألتك هذا السؤال، بسبب أنني رأيت في إحدى الليالي الأخيرة، عندما كنت نائماً على حشيتي، في المنام في كنيسة القديس ألبان، نفسي واقفاً أمام المذبح الكبير، ولدى التفاتي بعدما قدمت صلاتي، رأيتك واقفاً في سدة الرهبان، ولدى نظري نحو الأعلى، رأيت حجرة كبيرة وثقيلة تسقط من البرج على رأسك بقوة شديدة، وبذلك سحق جسدك كله ورأسك، واختفيت فجأة، وكأنك قد غرقت في الأرض، ولهذا إني أنصحك، إذا ماكنت قد قدمت أدنى اساءة إلى الشهيد، أن تقوم بتكفير صحيح له ولأتباعه، قبل أن تسقط الحجر على رأسك»، ولكن حدث أن هذا التعيس عندما طلب فيما بعد المسامحة من راعي الدير ومن الرهبان بسبب آثامه، أعلن بوضوح، بأنه سوف لن يعيد أياً من المقتنيات التي استولى عليها، وعلى هذا بات واضحاً أن التوبة التي عملها كانت من دون تأثير لأن: «الذنب لايجري العفو عنه وغفرانه مالم تتم إعادة الممتلكات المسروقة»، كما أنه شعر بسقوط الحجر

على رأسه، عندما حدث بعد ذلك بوقت قصير في بدفورد حيث جرى شنق أخيه مع رفاقه، وهو نفسه أرسل إلى المنفى رجلاً فقيراً، وقد أنهى الآن حياته بميتة تعيسة.

ومات في العام نفسه الأسقف بندكت أسقف روكستر، وباندولف أسقف نورويك، وخلف باندولف توماس دي بلندفيل Blundeville، وكان محاسباً لخزينة الملك، وقد جرى تكريسه من قبل ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، وكان ذلك يوم الأحد التالي قبل عيد الميلاد.

استخراج الملك الانكليزي للمال

عام ١٢٢٧م، فيه احتفل الملك هنري بعيد الميلاد في ردنغ، وفي اسبوع الميلاد نفسه مات وليم ايرل اسكس مما سبب الحزن للكثيرين، لأنه كان شاباً، وكان محبوباً وكريماً، ثم ذهب الملك إلى لندن، واتهم سكان المدينة، أنهم سببوا له الخسارة، عندما دفعوا خمسة آلاف مارك من الفضة، إلى لويس، الملك الفرنسي الذي توفي مؤخراً، وكان ذلك أثناء مغادرته لانكلترا، ولذلك قام الملك بناء على نصيحة مستشاريه مسببي الاضطرابات، بإرغام سكان المدينة على دفع مبلغ مماثل له، وعلاوة على ذلك أخذ منهم الجزء من الخمسة عشر جزءاً من ممتلكاتهم المتحركة، وكذلك من جميع مقتنياتهم الأساسية، وكان هذا الشيء نفسه قد منح إليه من قبل في جميع أرجاء انكلترا، ولقد أخذ أيضاً من سكان بيتربورا Peter borough ونورثأمبريان Northumbrians ألفاً ومائتي باوند، وذلك بالاضافة إلى الجزء من الخمسة عشر جزئا، الذي دفعه الجميع في جميع أنحاء المملكة بشكل عام، ولقد جرى إرغام حتى رجال الدين والكهنة ذوي الموارد على دفع الجزء من الخمسة عشر جزئاً من جميع مقتنياتهم، وكذلك من الممتلكات اللاهوتية والعلمانية، وجاء تقديم

التماس إلى البابا بلا فائدة، لأن نظم الأشياء والأمور، قد جرى تغييرها، وكذلك لحق التغيير رؤساء الأساقفة والأساقفة بموجب سلطات البابا، وتقريع الكنيسة، فقد أرغم هؤلاء على أن يدفعوا ما لاترغمهم السلطة العلمانية عليه، وهكذا حرموا من كل سبل التفريج.

كيف ألغى الملك صكوك الامتيازات في مجمع عقد في اكسفورد

وعقد الملك في شهر شباط من العام نفسه مجمعاً في اكسفورد، وقام أمام جميع الحضور باعلان نفسه بأنه قد وصل إلى السن القانوني، حتى يتحرر من الوصاية، ولكي يتسلم ممارسة شؤون المملكة والقيام بواجباتها، وهكذا تولى الملك الذي كان من قبل تلميذاً لوليم مارشال وتحت وصايته أثناء حياته، ثم بعد موته تحت وصاية بطرس أسقف وينكستر، تحرير نفسه تحريراً تاماً، بناء على نصيحة هيوبرت دي بورغ، المسؤول عن العدالة في انكلترا، من جميع آراء وقيود الأسقف المذكور ورفاقه الذين كانوا من قبل أساتذته، وصرفهم جميعاً من بلاطه، وقطع علاقاتهم كلها به، وقام الملك المذكور في المجمع نفسه أيضاً بإزالة جميع صكوك امتيازات الغابات في جميع كونتيات انكلترا، وذلك بعدما كانوا موضع التطبيق في جميع أنحاء انكلترا لمدة عامين، وأعطى سبباً علل فيه ذلك بأن تلك الصكوك قد منحت، وجرت كتابة الامتيازات، والتوقيع عليها، عندما كان تحت الوصاية، وليس لديه سلطة في ذاته أو في ختمه، وبما أنها اغتصاب غير معقول، لم يعد من المعقول استمرارها لعدم فائدتها، وبناء على هذا ثار عدد كبير بين الذين كانوا في المؤتمر، وقرروا جميعاً بأن هذا الظلم كان مقترفه المسؤول عن العدالة، وأنه هو صانع هذا الاضطراب، لأنه صار بعد ذلك مقرباً كثيراً من الملك، حتى بات جميع مستشاري المملكة وكأنهم بلاقيمة، ثم صدرت الأوامر إلى رجال الدين وإلى الآخرين، الذين كان بودهم التمتع بامتيازاتهم، أن يقوموا بتجديد صكوكهم تحت الختم الجديد للملك، لأنهم علموا بأنه بات

يرى بأن الصكوك القديمة باتت غير فاعلة، ولهذا جرى فرض ضرائب جديدة ليس وفقا لامكانات كل واحد منهم، بل إنهم أرغموا على دفع كل الذي قرره المسؤول عن العدالة وفرضه.

كيف عاد رسل الملك الذين بعثهم إلى فرنسا من دون تحقيق غرضهم

ومات في العام نفسه البابا هونوريوس في الثامن عشر من آذار، وقد خلفه غريغوري أسقف أوستيا، وفي العام نفسه، في حوالي عيد الفصح، عاد رئيس أساقفة يورك، وأسقف كارآيل، وفيليب دي ألبيني، وهم رسل الملك، من القارة، وكانوا قد أرسلوا إلى نبلاء تلك المناطق، التي كانت بموجب الحقوق القديمة تدين بالطاعة إلى ملك انكلترا، وكانوا قد أمروا من قبل الملك بمحاولة إقناعهم بحديث لطيف، وبوعود كبيرة لاستقبال الملك المذكور، وللاعتراف به بمثابة سيدهم الطبيعي، ولكن حتى لانطيل الحديث من دون فائدة، كان الملك الفرنسي، قد عمل سلاماً مع البارونات وتلقى الولاء منهم، وجاء ذلك بناء على تدخل أمه، وبعدما وزع بينهم بكرم زائد الأراضي والقلاع من الممتلكات الملكية، وهكذا اتخذ أصدقاء من «خلال الجشع غير العادل»، وكان هذا كله قد حدث، قبل وصول رسل الملك إلى تلك المناطق، وطلب الرسل المتقدم ذكرهم من كونت بريتاني إعطاء ابنته لتكون زوجة للملك الانكليزي، فرد بأنه قد عمل معاهدة سلام مع ملك فرنسا، وهو لن يقوم بخرقها بأي حال من الأحوال، ولذلك عاد الرسل، وأخبروا الملك بالذي عملوه، وفي شهر أيار من العام نفسه، وصل رتشارد أخو الملك إلى انكلترا، واستقبل بكثير من السرور من قبل الملك والنبلاء، وفي حوالي الوقت نفسه تلقى هنري دي سانفورت Sanfort، رئيس شمامسة شيستر، الذي جرى انتخابه بشكل قانوني أسقفاً لوركستر، السيامة والتكريس على يدي ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، وفي

الخامس من شباط من العام نفسه، جرى تقديم هيوبرت المسؤول عن العدالة في انكلترا مع سيف كونتيه كنت، من قبل الملك.

كيف ثار البارونات ضد الملك

في التاسع من تموز من العام نفسه، نشب خلاف بين ملك انكلترا وبين أخيه رتشارد إيرل أوف كورنوول، وكان سببه هو كمايلي: كان الملك جون، والد الملك الحالي، قد منح أثناء حياته إلى فاليران، وهو ألماني، كان آنذاك قسطلان بيركها مستد، إحدى العزب العائدة إلى ايرلية كورنوول، ولدى سماع الايرل رتشارد الذي كان قد وصل منذ أمد وجيز من القارة، بأن العزبة عائدة إلى ايرليته، أمر بالاستيلاء على البلدة لصالحة، حتى يتمكن من معرفة ما التي كانته حقوق فاليران فيها، وعندما سمع فاليران بهذا قدم مسرعاً كل السرعة إلى الملك، وقدم شكوى ضد أخيه رتشارد، وبناء عليه أرسل الملك رسائل إلى أخيه أن يقوم فور تسلمهم بإعادة العزبة إلى فاليران، وعندما قرأ رتشارد الرسائل بادر مسرعاً إلى الملك، وترافع من دون وجود محامي، بشكل بارع ومنطقي بأن العزبة عائدة له وحق له، ولذلك هو على استعداد للالتزام بقرار محكمة بلاط الملك وقرار نبلاء المملكة، ولقد غضب الملك غضباً كبيراً وشاركه في ذلك المسؤول عن العدالة، لدى سماعهما ذكره للنبلاء، وأمر الملك أخاه بلهجة ملكية قاسية وبطيش، أن يقوم على الفور بتسليم العزبة إلى فاليران، أو أن يغادر المملكة وأن لايعود مطلقاً، وعلى هذا رد الايرل قائلاً بأنه لن يتخلى عن حقه إلى فاليران، كما أنه لن يغادر المملكة، من دون قرار صادر عن نظرائه، وما أن فرغ من كلامه هذا حتى غادر وقصد بيته، وخشي المسؤول عن العدالة أن يعكر الايرل السلام في المملكة، فنصح الملك -كما قيل - أن يرسل بعض الفرسان لاعتقال أخيه أثناء نومه في الليلة التالية، وأن يودعه في سجن مضيق عليه، وبذلك يمكن للملك أن يتمتع بسلام دائم، وجرى

-على كل حال - إنذار رتشارد مسبقاً من قبـل صديق له، فبادر مسرعاً مع فارس واحـد برفقته، ولم يتوقف ويرخـي عنان حصانه حتى وصل إلى ردنغ، ولحقت به عسـاكره في الصبـاح، وقد وجـدوا مولاهم سـالماً ومعـافى في مكان كـان متفقا عليـه معهم، ثم أخـذ الايرل طريقـه نحـو مـارلبورا، والتقى في ذلك المكـان بوليم مارشـال، الذي كـان صديقـه، وحليفه المتعاهد معه، وقـد أخبره بكل الذي حدث معه، وعندها ذهب الاثنان إلى ايرل شيستر، وحدثاه تماما عما حدث من وقـائع، ثم أقسموا أن يكونوا أوفيـاء أحـدهم نحـو الآخـر، وأرسلـوا رسـائل إلى الخارج فحشـدوا جيشـاً كبيراً، وخـلال وقت قصير اجتمع في ستـامفـورد الايرلات مجهـزين بالخيـول، ومـزودين بالسـلاح، وهم: رالف أوف شيستر، ووليم مارشال، ورتشـارد أخو الملك، وغيلبرت أوف غلوستر، ووليم أوف وارين Warrenne وهنري أوف هيرفـورد، ووليم ايرل فيرير Ferrers، ووليم أوف ووريك Warwick وذلك إلى جـانب عدد كبير من البـارونات، وكتلة كبيرة من الجنود، ثم إنهم وجهوا إنذاراً شـديداً إلى الملك، بوجـوب أن يقـوم على الفـور باصـلاح الخطأ الذي اقترفه بحق أخيه، لكنهم لم يضعـوا الملامة حول هذا على الملك، بل على المسؤول عن العدالة، وعلاوة على ذلك طالبوا بجرأة أن يقوم الملك من دون تأخير، فيعيـد إليهـم تحت ختمـه صكوك الامتيـازات المتعلقـة بالغـابات التي قـام مـؤخـراً بالغـائهـا في اكسفـورد، وإلاّ فإنهم سـوف يرغمـونه بقـوة السـلاح على إعطـائهم ترضيـة كـافيـة حـول هذه القضـايا،ولدى تسلـم الملك لهذه الرسـالة، أمـرهـم بالالتقـاء به في نورثأمبتـون في الثـالث من آب، حتـى يتمكن وقتهـا من منحهم عـدالة مناسبـة، وبناء عليه اجتمع الفـرقاء في المدينة المذكـورة أعلاه في الموعـد المحدد، وقام الملك، بناء على طلب مستعجـل من النبلاء، بأعطاء أخيه، الايرل رتشـارد بائنة أمه كلهـا، مضافـاً إليها جميع الأراضي العـائدة إلى ملكيـة كـونت بريتـاني في انكلترا، وجميع ممتلكـات كـونت بولون الذي

توفي مؤخراً، وبعد هذا عاد الجميع بسلام إلى مواطنهم.

وفي العام نفسه، كان هناك ناسك يسكن في الألب وراء البحر، يقوم كما هي عادته فيقرأ في مزاميره، ولدى وصوله إلى المزمور الذي بدايته «ليقم الرب»، وجد ذلك المزمور محذوفاً، ووجد مكانه قد كتبت هذه الكلمات: «روماني سوف يثور ضد روماني، وروماني سوف يوضع مكان روماني، وعصي الرعاة سوف تضيء، ولسوف يكون هناك هدوء في راحة، ولسوف يتعكر صفو الساهر، وسوف يصلي، وسوف يكون في دموع الحشد راحة، وسوف يلعب القانوني مع المجنون، ولسوف تبرد الحمى المطفأة، وسوف يزحف قطيع جديد إلى القبر، والذين يتولون التنظيف بالأحراش سوف يتغذون بغذاء خفيف، وسوف تعاق ثقة المواسين وراحتهم في التأمين الذي عليه يعتمدون، والذين يسيرون في الظلام سوف يعودون إلى الضوء، والأشياء التي كانت مختلفة سوف تلقى المواساة بأشياء مختلفة، وما من سحابة صغيرة سوف تبدأ بالامطار، لأن مغير العمر قد ولد، وسوف تثور الحظوة ضد البساطة، والبساطة سوف تنفث وهناً، وسوف يتحول الشرف إلى لاشرف، وسرور الكثيرين إلى حزن»، ولسوف يظهر تأويل هذه النبوءة في الأحداث التالية واضحاً أكثر من الضوء، إذا ما جرى البحث فيها بدقة.

كيف جرت إثارة كبيرة في هذه الآونة للمساعدة في الصليبية

جرت في العام نفسه، في نهاية حزيران إثارة حركة كبيرة لمساعدة الصليب من قبل جميع الصليبيين في جميع أرجاء العالم، وكانت أعدادهم كبيرة جداً، حتى قيل بأن أربعين ألفاً من الرجال المجربين من انكلترا وحدها قد زحفوا وإلى جانبهم النساء والشيوخ، وقد أعلن عن هذا المعلم هيوبرت، الذين كان واحداً من المبشرين في انكلترا، وقد أكد أنه في الحقيقة قد دوّن في سجله قدر هذا العدد، وجميع هؤلاء، ولاسيما

الفقـراء الذين عليهم تنزل البهجــة اللاهوتيـه، قـد دخلوا للقيـام بهذه الصليبية بتقوى عـالية وايهان عظيم حتى أنهم قد حصلوا من دون شك على الحظوة والرضـا عند الرب القدير، كما ظهـر ذلك واضحاً في كثير من الاشـارات، ففي ليلة ميـلاد القديس يوحنـا المعمدان، أظهـر الرب نفسه في السماء، مثلما عندمـا صلب، فقد ظهـر صليب مشع كثيراً وعليه جسـد الرب مخروق بالمسامير، ومطعـون بالحربة، وملطخ بالدم، وهكذا أظهر مخلص العـالم بهذا إلى أتباعـه المخلصين في الدنيا، بأنه كـان راضياً بوساطة إيمان شعبـه، ورأى هذا المشهد عـدد كبير من الناس، وكان من بينهم تاجر، كـان يحمل سمكاً للبيع قرب أوكسبردج Uxbridge، فقد أصيب بالدهشة تجاه ذلك المشهـد الغريب، وخاف من لمعـانه، وقد قيل بأنه غـرق في الوجد، ووقف في حـالة دهشة، غير عـارف مالذي عليـه فعله، وكان ابنه رفيقه الوحيد قـد طمأن والده، وسأله أن يوقف عربته، ويقـدم الشكر للرب الذي تلطف بـأن أراهما مثل هذه الرؤيا، وقـام في اليوم التالي - لا بالواقع في كل يوم فيما بعـد عند عرض أسماكه للبيع - بإخبــار كل واحــد بشكل علنـي عن الرؤيا السماوية التـي شــاهدها، وأضاف ابنه شـاهداً عليه وصـدق كثيرون هذه الحكاية، لكن بعضهم لم يصدقـوها حتى اقتنعوا بتصديقها، بوسـاطة الرؤى الكثيرة التي ظهرت في الوقت نفســه لكثير من النـاس في أمـاكن مختلفـة، ففي هذه الحالات طلب المصلوب بفتح السماء ليري المتشككين مجده الرائـع، ببهـاء عظيم، وكان بين الذين ذهبوا من انكلترا للالتحاق بالحملة الصليبية الأسقفان: بطرس أوف وينكستر، ووليم أوف ايكستر، اللذان وفيـا بعهدهما بالحج منذ قرابة خمسة أعوام.

تطور أحوال الحملة الصليبية في هذه الآونة

سـوف تظهـر تطور شـؤون الصليب في هذه الحملة الصليبيـة بشكل واضح في الرسالة التـالية التي بعث بها البابا غريغـوري إلى جميع الأتباع

المؤمنين للمسيح: «من غريغوري الأسقف، عبد عبيد الرب، إلى جميع المؤمنين المسيحيين، التحيات، الخ، ليكن معلوماً لدى جماعتكم كلها بأننا قد تسلمنا رسائل من بلاد ماوراء البحر محتواها هو كمايلي: من جيرالد الذي هو برحمة الرب بطريرك القدس، ومن ب .P رئيس أساقفة قيسارية،، الذي هو النائب الحقير والمتواضع للكرسي الرسولي، ومن ن.N رئيس أساقفة نربونة، ومن ب. P أسقف أوف وينكستر، ومن و. Wأسقف أوف ايكستر، ومن مقدمي الاسبتارية، ومقدمي فرسان الداوية، ومن طائفة اسبتارية التيوتون، إلى جميع من سوف تصلهم هذه الرسائل، تمنيات الصحة في مولانا يسوع المسيح، نحن مرغمون على اخبار جماعتكم كلها عن حاجاتنا الأكثر إلحاحا وعجلة، وعن تقدمنا في العمل في سبيل قضية مولانا يسوع المسيح، الذي سفك دمه من أجل جميع المؤمنين الصادقين، وإنه مع كثير من القلق والانزعاج في العقل، ومع سفح للكثير من الدموع، تعلمون أن صاحب المقام السامي، الامبراطور لم يقدم إلى سورية، كما كنا جميعاً نأمل بوصوله في شهر آب المنصرم، كما كان قد وعد، ونتيجة لهذا فإن الحجاج من تلك المناطق، عندما سمعوا بأن الامبراطور لم يصل في العبور المتقدم، وكان تعدادهم أكثر من أربعين ألفاً من الرجال الأشداء، عادوا في السفن نفسها، كما جاءوا، واضعين ثقتهم في انسان بدلاً من وضعها في الرب، وبعد مغادرتهم، قد بقي هنا قرابة الثمانمائة فارس، هم الذين مابرحوا يصرخون بصوت واحد: «دعونا إما أن نخرق الهدنة، أو اتركونا نغادر مع بعضنا»، وهم قد أبقيوا هنا ليس من دون صعوبات كبيرة، لأن دوق أوف ليمبورغ Limburg، وهو رجل من أصل نبيل، قد جرى تعيينه قائداً للجيش، في مكان الامبراطور، وجرى لهذا عقد مؤتمر ضم بشكل خاص: الاسبتارية، والداوية، والاسبتارية الألمان، وفيه تم الاتفاق على أن يقوم الدوق المتقدم الذكر بالعمل حسبما يكون الأفضل لصالح المسألة الصليبية والأرض المقدسة، ثم إن الدوق سأل،

وتلقى النصيحة حول النقاط التالية، وظهر في اليوم المحدد بشكل خاص من أجل القضية المعروضة، أمامنا وأمام نبلاء تلك البلاد، وهناك أعلن بشكل واضح بأنه يرغب في خرق الهدنة، وسأل المساعدة والنصيحة من الحضور حول كيف يمكنه السير بشكل هو الأكثر منفعة في سبيل تنفيذ تلك النية، وعندما جرى إخبار الدوق ومستشاريه أنه سوف يكون من الخطورة بمكان خرق الهدنة، ولأنها مؤكدة بالأيمان، سوف يكون ذلك غير مشرف أيضاً، أجابوا بأن صاحب القداسة البابا قد حرم كنسيا جميع الصليبيين الذين لن يلتحقوا بهذه الحملة الصليبية، مع أنه يعلم بأن الهدنة ينبغي أن تستمر لمدة عامين أكثر، وبهذا فهموا بأنه لم يرغب بالحفاظ على هذه الهدنة، وبالاضافة إلى هذا لن يبقي الحجاج هنا من دون عمل، وكان هناك أيضاً كثير من الناس قد قالوا بأنه ما أن يغادر الحجاج، حتى سيقوم المسلمون بعد مغادرتهم بمهاجمتهم، دون إقامة تقدير للهدنة، وقال بعضهم بأن الملك الأشرف مشغول بحرب شديدة مع حكام حماه، وحمص، وحلب، ولهذا السبب كان خائفاً أكثر مما هو معتاد من قيام الصليبيين بخرق الهدنة، وإذا ماجرى خرق الهدنة، اعتقدوا بأن الملك الأشرف، عندما سيجد نفسه معرضاً للضغط عليه بالحرب من جميع الجهات، ربما سيقدم شروطاً للسلام، وأخيراً، وبعد مناقشات طويلة حول هذه القضايا، وافقوا كلهم بالاجماع على الزحف إلى المدينة المقدسة، التي كرسها يسوع المسيح بدمه شخصيا، ولكي يكون الوصول إليها سهلاً، تقرر بالاجماع القيام بالمقام الأول بتحصين قيسارية أولاً ثم يافا، الأمر الذي أملوا أن يكونوا قادرين على انجازه قبل العبور الذي سيكون في آب المقبل، وعندها سوف يكونون في الشتاء المقبل قادرين بسرور على الانطلاق نحو بيت الرب، تحت حمايته، وجرى الاعلان عن هذا القرار خارج مدينة عكا، في يوم عيد الرسولين سمعان وجود،وجاء ذلك بحضور جميع الحجاج، وهناك أمروا بشكل صارم ووقور أن يكونوا جاهزين في

اليوم التالي ليوم عيد جميع القديسين، للانطلاق نحو قيسارية، وبالنسبة للحجاج الذين لم يعرفوا الخطة التي قررها الجيش، لدى سماعهم بهذا، بعد تحصين القلعتين المتقدم ذكرهما، تملكتهم فجأة رغبة عظيمة بالزحف نحو القدس، حتى أنهم بكوا بكاء كثيراً، وشعروا بأنهم تمتنوا كثيراً بفضل نعمة الروح القدس، حتى أن كل واحد منهم شعر بأنه قادر على غلبة ألف من الأعداء، وأن اثنين يمكنهما قهر عشرة آلاف، ولذلك نحن لسنا بحاجة إلى استخدام كثير من المثيرات لحثكم وتحريضكم، لأن هذه الضرورات الملحة تتحدث عن نفسها، وتطالب بمساعدة فورية، لأن التأخير يجلب الخطر، والسرعة سوف تكون منتجة لأعظم المنافع، ويدعو دم المسيح من هذه البلاد كل واحد منكم، وهذا الجيش الصغير والمتواضع، لكن التقي، يلتمس منكم مساعدة سريعة، وهو يضع أمله وثقته بالرب، بأن هذا العمل الذي بدأ بكل تواضع، يمكن أن ينتهي بفضله نهاية سعيدة، وبناء عليه حثوا أنفسكم جميعا، وليقم كل واحد منكم ببذل غاية جهده لمساعدة الأرض المقدسة، لأن هذا يمكن عدّه القضية العامة لكم كمؤمنين ولجميع الشعب المسيحي، ونحن تحت عناية الرب وتوجيهه لن نتوقف عن رفع شأن هذه القضية، آملين بثقة بأنها سوف تتقدم على أيدي المؤمنين المحفوظين بثقة. صدر في اللاتيران في الثالث والعشرين من كانون الأول من السنة الأولى لبابويتنا».

كيف أعيقت الحملة الصليبية من خلال غياب الامبراطور

وفي الوقت نفسه عزم الامبراطور فردريك، الذي كان مع صليبيين آخرين تحت عقوبة الحرمان الكنسي من قبل البابا منذ العبور المتقدم الذكر، على الوفاء بعهده والقيام بالحج، ولذلك ذهب نحو البحر المتوسط، وأقلع مع حاشية صغيرة، وبعد التظاهر بالتوجه نحو الأرض المقدسة لمدة ثلاثة أيام، قال بأنه أصيب بمرض مفاجىء، ولذلك لم يعد بامكانه المخاطرة بحياته، ولا أن يتحمل قساوة البحر، والمناخ غير

الصحي، ولذلك غير اتجاهه،، وبعد ابحـار ثلاثة أيام، عاد وتوقف عند الميناء الذي أقلع منه، وعلى هذا فإن الحجاج من مختلف أجـزاء العـالم، الذين كانوا قد ذهبوا إلى الأرض المقدسـة، على أمل اتخاذه قائداً وحامياً في القتـال ضـد أعـداء الصليب، قـد أصيبـوا بالرعب والاحبـاط لدى سماعهم بأن الامبراطور ليس قـادماً في عبـور آب كما كـان قـد وعـد، ولذلك ركبـوا السفن التي جـاءوا بها إلى الأرض المقـدسة، وعـادوا إلى الوطن، وكـان تعـدادهم حـوالي الأربعين ألف رجل مسلح، وأدى هذا التصرف من قبل الامبراطور إلى الاساءة إلى سمعته كثيراً، وإلى الإضرار بجميع شـؤون الحملة الصليبيـة، وإنه بسبـب هذا الذي حـدث -برأي كثيرين -أظهر مخلص العالم نفسه، كما تحدثنا أعـلاه، فقد أظهر نفسه إلى المسيحيين، وهو معلق على الصليـب، مخروق بالمسـامير، وملطـخ بالدم، وكأنه كان متقدما بالشكوى إلى كل مسيحي، حول الأذى الذي لحق به من الامبراطور.

موت الراهب الذي أسس طائفة الفرنسيسكان

وفـارق الحيــاة في رومـا في هـذه الآونة، راهب من طائفــة رهبـان الفـرنسيسكان، اسمـه فـرنسيس، وقـد قيل بأنه كـان هو المؤسس لتلك الطائفة ومقـدمها، وكان فـرنسيس المذكور متميزاً بأصـالة مولده ونبله، وقـد شرع منذ أيام طفـولتـه يفكـر مليـا حـول الأشيـاء الجاذبة في هذه الحياة، وحول عدم استقـرار الأشياء الدنيوية، وقدر بشكل دائم كم هي فــارغـة الأشيــاء الدنيــوية كلهــا وزائلة، لأنه تعلم مـن الكتب ومن الدراسات اللاهوتية، التي تابعهـا وتولاها منذ صغره، حتى حصل على معلومات كاملة منهـا، والذي تعلمه هو ازدراء كنز كل ما هو زائل من أشياء، وأن يسعى لاهثاً وراء ملكوت السماء، ولكـي يتماشى مع ماقرره في عقله تمامــا، تخلى عن الميراث الواسع الـذي وصله من أبويـه، وعن جميع مباهج الحياة، ولبس قلنسوة راهب وثوباً من المسوح، وألقى نعليه

جانباً، وأمات جسده بالسهر والصوم، واختار الفقر التطوعي، وقرر أن لايمتلك شيئاً لنفسه، ولكي يبقي جسده تناول ماتلقاه من الآخرين عن طريق الصدقة، وكـان بعد المشاركة في وجبـة خفيفة، إذا مابقي شيء، لم يكن يحتفظ بشيء من أجل الغد، بل كـان يعطي ذلك إلى الفقراء، وكان ينام بثيـابه في الليل، وكـانت لـديه حصير لينام عليهـا، وحجـرة اتخذها وساده، واستخدم غطاء أثناء الليل القلنسـوة والرداء الذي كان يسير به أثناء النهـار، ووفق هذه الحالة كـان يسير حـافيـاً، تماشيـاً مع الانجيل، وباعتناقـه حياة رسـول ، قـام بواجبات الوعظ في أيام الآحـاد وفي أيام الأعيـاد في الكنائس الأبـرشيـة، وفي التجمعـات الأخـرى للمسيحيين، وكان كلما ازداد بالامتناع عن ارضاء رغبات الجسد، وعن الحياة الطيبة، كلما ازداد تأثيره على عقـول المستمعين إليه، ولكي يضع مقـاصده كلهـا مـوضـع التنفيـذ، قـام رجل الـرب فـرانسيس هذا، فأودع كتـابة جميع المبـادىء التي تقدم ذكـرها أعلاه، مع بعض من الآخـرين، وقد جـرت مراعـاتها بدقة متناهيـة من قبل رهبان تلك الطائفـة حتى الوقت الحالي، وقد قدمهم إلى البابا انوسنت، عندما كـان جالساً في محكمة بلاط روما، وسأل في الوقت نفسه تثبيت التماسه من قبل الكرسي الرسولي.

كيف ثبت البابا الطائفة المتقدم ذكرها بامتياز

وحدق البابا وثبت نظره على سحنة الراهب المذكور الشاحب، وعلى مظهره الحزين، وعلى لحيته الطويلة وعلى شعره غير المقصوص، والقذر، والمتـدلي فـوق جبينه، وبعـدمـا سمع قـراءة التماسـه الذي كـان صعبـاً، ولايمكن تطبيقه، ازدراه وقال له:

«إمض أيها الراهب، اذهـب إلى الخنازير، الذين أنت أكثـر مـواءمـة للمقـارنة بهم من الناس، وأن تدرج بينهم، وأن تبشر بينهـم بالأحكام التي استطعت أن تعـرضها»، ولدى سماع فـرانسيس هذا، طأطأ رأسـه، ومضى، ولدى رؤيتـه لبعض الخنازير اندرج بينهـم بالوحل حتى غطى

جسده وثيابه بالأوساخ من رأسه إلى قدميه، ثم عاد إلى محكمة البلاط، وعرض نفسه أمام البابا، وقال:

«لقد فعلت يامولاي الذي أمرتني به، أرجوك امنحني الذي التمسته منك»، واعترت البابا الدهشة لدى رؤيته للذي فعله، وشعر بالأسف لأنه عامله بازدراء، فأصدر بالوقت نفسه أوامره بوجوب غسل نفسه، والعودة إليه ثانية، وبناء عليه نظف نفسه من أوساخه وعاد مباشرة إلى البابا، وانفعل البابا كثيراً، وعندما وافق على التماسه، وبعدما ثبت تعيينه للتبشير وثبت أيضاً الطائفة التي طالب بتأسيسها، بامتياز من كنيسة روما، صرفه مع المباركة، وبنى عبد الرب فرانسيس هذا مصلى في مدينة روما، حيث يمكنه أن يجني ثمار تأملاته، ومثله مثل مقاتل نبيل، انشغل في المعركة ضد الأرواح الشريرة، وضد الآثام الجنسية.

وعظ الراهب المتقدم ذكره وموته الرائع

ثم إن فرانسيس أدى واجباته بتقوى، وذلك بالوعظ في جميع أرجاء ايطاليا، وممالك أخرى، وخاصة في مدينة روما، لكن الشعب الروماني، أعداء كل عمل صالح ومستقيم، استخفوا كثيرا ومقتوا وعظ رجل الرب هذا، الى حد أنهم كانوا لايرغبون بالاستماع إليه، ولايحضرون أعمال نصحه المقدسة، وبعد لأي، عندما تابعوا لوقت طويل الاستخفاف بوعظه، وجّه اللوم إليهم بشدة، وانتقد قسوة قلوبهم حيث قال:

«إنني حزين جداً من تعاستكم، ليس لأنكم فقط رفضتموني كعبد للمسيح، بل لأنكم ازدريتموه في شخصي، لأنني بشرت بينكم ووعظتكم بانجيل مخلص العالم، ولذلك إنني أدعوه ليكون شاهداً على هجرانكم، فهو شاهدي الأمين في السماء، وأنا ذاهب تارك مدينتكم ليكون ذلك عاراً عليكم، وسوف أذهب لأبشر بانجيل المسيح بين

الحيـوانات المفترسة، ولطيـور الهواء، حتى يستمعوا إلى الكلمات المانحـة للحياة، وهي كلمات الرب، وليكونوا مطيعين لهم»، ثم إنه غادر المدينة، ووجد في الضـواحي غربان بين جثث أمـوات، وطيور الحدأة، والعقعق مع طيور أخرى كلها كانت تطير في الهواء، وقال لهم:

«إنني آمركم بـاسم يسوع المسيح، الذي صلبه اليهـود، والذي رفض الرومان الاصغـاء إلى وعظه، أن تقدمـوا إليّ، وسماع كلمة الرب،وذلك باسمـه هو الذي خلقكم، وحفـظ نوح في السفينة من ميـاه الطوفـان»، ووقتهـا اقتربت منه جميع أسراب الطيـور، وأحاطت بـه، ووقتها صـدر الأمر إليهم بالصمت، وصمتت جميـع أنواع الطيور، فأصغت إلى كلمات رجل الـرب ذاك، لمدة نصف يوم دون أن تتحـــرك من تلك البقعــــة، وكـانـت طوال الوقت تنظر إلى وجــه الواعظ، وجـرى اكتشـــاف هذه الواقعـة الرائعة من قبل الـرومان الذين كـانوا ذاهبين إلى المدينة أو آيبين منها، وعندمـا تكرر الشيء نفسه من قبل رجل الرب إلى حشـد الطيور، خـرج رجال الدين مع جمع من الناس من المدينة، وأعـادوا معهم رجل الرب مع كثير مـن الاحترام، ثم تمكن بزيت وعظـه التضرعي من تليين قلوبهم غير المثمرة والقاسيـة وحـوّلهم نحو الأحسن، ثم بدأت شهـرته تنتشر في الخارج في جميع أرجاء ايطاليا، ولـذلك احتذى حذوه كثير من ذوي الأصل النبيل، وتخلوا عن العالم وعن شروره، ورغباته، وأخضعوا أنفسهم إلى رغباته، ومالبثت طائفة الرهبـان المذكورة أعلاه أن تضاعف انتشارها في جميع أنحاء العالم، وسكن رهبانها في المدن وفي القلاع، وهم يمضون في هـذه الأيام على شكل سبعة أو عشرة يبشرون بكلمـة الحياة في البلدات وفي كنائس الأبرشيات، لابل في حقول العمال، فهناك زرعوا جـذور الفضيلة، ومنحـوا إلى الرب كميـات وافـرة من الثمار حتى مع الربا، ولم ينشروا بين المسيحيين فقط بذور كلمـــة الرب، وندى العقيـدة السماوية، بل إنهم ذهبـوا إلى مقاطعـات الشعـوب والمسلمين، يقدمـون

العظة حول الصـدق، وبوسائلهم هذه حصلت كثير من هذه الأمم على مجد الشهادة.

احتشاد الناس عند موت الراهب المتقدم الذكر

وبعـد وقـت طويل، وبعـدمـا قـام فـرانسيس رفيـق الرب هذا، مع إخوانه، بالتبشير بانجيل السـلام لسنوات كثيرة في مدينة رومـا والمنطقة المجـاورة، وكمرابي جيـد أعاد المبلـغ الذي عهد به إليـه، إلى المعطي مع فوائد مضاعفة كثيراً، بعد هذا كلـه جاءت ساعته ليفارق هذا العالم إلى المسيح، وليتسلم نتيجة لجهوده تاج الحيـاة مع الرب، حسبما وعد الذين يحبـونه، وظهرت في اليـوم الخامس عشر قبل مـوته جـروح في يديه وفي قدميه،وكـانت هذه الجروح تنزف الدم باستمرار، مثلما ظهر على مخلص العـالم على الصليب عندمـا صلب مـن قبل اليهـود، وقـد انفتح جـانبـه الأيمن أيضـاً وتلطخ بالدم حتى ان الفجـوات الداخلية من قلبـه باتت مرئية بوضـوح، ولدى انتشار خبر هذا، تدفقت حشود كثيرة من الناس من الجنسين عليـه، ودهشت أمـام مثل هذه الحالة الغـريبـة، وكـان بين الذين قدمـوا كرادلة، وبحثوا عن معنـى هذا المشهد وسألوه عنه، وعلى هذا أجاب:

«لقـد ظهــر هذا المشهـد بي، حتىٰ تتمكنوا أنتـم الذين بشرت بينكم بأسرار الصليب، فتؤمنون به، وهو الذي من أجل الحفاظ على العالم تألم على الصليب من الجراحة التي ترونها الآن، ولكي تعـرفوا أنني عبد له، وهو الذي بشرت به بينكم، وقد صلب، ومات، وعاد إلى الحياة، ولكي تزول جميع الشكوك، وبـذلك يمكنكم أن تتمسكوا بهذه العقيــدة حتى النهـاية،وإن هذه الجراحـة التي ترونها بي مفتـوحة وتنزف دمـاً، سـوف تندمل لحظة وفـاتي، وتنغلق، وبذلك سـوف تظهـر مثل بقية جسـدي»، وعلى الفــور جـرى تحريره من الجســد من دون أية آلام جســدية، أو معاناة، وتخلى عن روحـه وسلمها إلى خـالقه، وبعد مـوته لم تبق أية آثار

جراحة سواء في طرفه أو في يديه أو في قدميه، ودفن رجل الرب هذا في صومعته، وقبله الحبر الروماني بين أعداد القديسين، وأمر باتخاذ يوم وفاته عيداً يحافظ عليه ويحتفل به بكل مهابة.

بعض القوانين الجديدة التي عملها ملك انكلترا

عام ١٢٢٨م، فيه احتفل الملك هنري بعيد الميلاد بكل وقار في يورك، وانطلق بعد ذلك عبر الطريق المستقيم مباشرة إلى لندن، ووجد أثناء هذه الرحلة نقصاً في مقاييس القمح، والخمرة، والبيرة، ولذلك كسر بعضها، وأحرق بعضها الآخر، وأبدلها بمقاييس أوسع، وأمر بعمل الخبز أثقل وزناً، وقضى أن الذين سوف يخرقون هذا القانون سوف يتعرضون لغرامات ثقيلة.

وفي شهر كانون الثاني من العام نفسه، أنهى روجر دي ثيونيTheoney حياته قرب ردنغ، وكان فارساً شجاعاًمن أصل نبيل، وكان رالف الأخ الأكبر لهذا النبيل، غائباً آنذاك وقد رغب بالتحادث معه قبل موته، وجاء مسرعاً ليراه، لكن قبل وصوله كان أخوه المحبوب قد مات، ولم يجد صوتاً فيه ولااحساس، وكان رالف حزيناً جداً لموت أخيه، وبدأ يصرخ وهو يبكي ويسستحلف أخاه، مع أنه كان ميتاً، ليكلمه صدوراً عن العاطفة الأخوية، وبعدما جدّد صراخه وتوسلاته بحضور جنوده مع آخرين كثر، قال بأنه لن يتناول الطعام ثانية، مالم يتمكن من الحديث معه، وبناء على ذلك جلس الرجل الميت في الفراش، ولام أخاه بحدة لإزعاجه روحه، باستدعائه ثانية إلى الجسد، وقال:

«لقد رأيت العذاب الذي أنزل على الشرير، وسرور المبارك، ورأيت أيضاً بعيني العذاب الشديد الذي قضي عليّ أنا الانسان التعيس، الويل ثم الويل لي، لماذا ورطت نفسي بالمبارزات وأحببتهم بشكل كبير»؟ ثم

سأله أخوه: «أولن بناء عليه تحفظ»؟ وعلى هذا أجابه:

«سوف أحفظ لأنني عملت عملاً واحداً لتشريف مريم المباركة والعذراء الدائمة، فبذلك سوف أحصل على الخلاص»، وعندها قال رالف:

«أوليس من الممكن تخفيف العذاب الذي قضي به عليك —كما أخبرتني— بالأعمال الصالحة، والقداسات، والصدقات»؟ وعلى هذا رد روجر قائلاً: «ذلك ممكن» وهنا قال له رالف:

«إنني أعدك باخلاص بأنني من أجل خلاصنا وخلاص أجدادنا، سوف أبني بيتاً دينياً، وعندما سوف أملأه بالرهبان، سوف يدعون الرب باستمرار لتخليص روحك، وكذلك أرواح أجدادنا»، ثم قال روجر:

«إنني بحاجة ماسة لما وعدت به، لكن لاأريدك أن تعد بشيء أنت غير عازم على الوفاء به»، ثم ودع أخاه مع الآخرين الذين وقفوا هناك، ومن ثم لفظ روحه، ثم قام أخوه رالف في السنة نفسها ببناء دير في غربي انكلترا، ووضع فيه بعض الرهبان من طائفة السسترشيان، وأوقف على المكان أملاكاً كثيرة مع موارد كبيرة.

نقل رتشارد أسقف سالسبري إلى درم

وفي العام نفسه، جرى إلغاء انتخاب المعلم وليم سكوت Scott الذي كان قد انتخب أسقفاً لدرم، وجرى انتخاب رتشارد أسقف أوف سالسبري، ومن ثم نقل إلى تلك الأسقفية، وإثر ترقيته، انتخب كهنة سالسبري المعلم روبرت بنغهام Bingeham وكان كاهناً من رفاقهم، لأن يكون أسقفهم، والمسؤول عن أرواحهم، ونشب في العام نفسه خلاف بين رهبان كوفنتري وكهنة لتشفيلد Lichfield حول انتخاب أسقف، وقد تقرر بوساطة مرسوم محدد من قبل كنيسة روما،

قضى أنه ينبغي منذ ذلك الحين انتخاب الأساقفة بالتبادل والتناوب، بحيث يقوم الرهبان بالانتخاب أولاً، ولدى وفاته يتولى الكهنة انتخاب الأسقف التالي، وبناء على هذا الشرط، كان رئيس رهبان كوفنتري يمتلك دوماً الصوت الأول في الانتخاب، وبدا هذا المرسوم أنه ينتقص كثيراً من امتيازات الرهبان، الذين كانوا حتى ذلك الحين ينتخبون الأساقفة دون طلب موافقة الكهنة.

ودفع في هذا العام أيضاً امبراطور القسطنطينية دين الطبيعة، تاركاً وريثاً له صبياً صغيراً، لم يكن لائقاً لتسلم المقام الامبراطوري.

القرار الذي صدر بحق الامبراطور

وفي هذه الآونة بدا للبابا غريغوري أنه سمح لعصيان الامبراطور، ومعاداته للمسيح بوقت أطول مما ينبغي من دون عقوبة، وأخيراً، ولكي لايبدو أنه مثل كلب غير قادر على النباح، قام بناء على نصيحة كرادلته بانزال عقوبة الحرمان الكنسي بحق الامبراطور المذكور، وأمر بوساطة رسائل رسولية بنشر هذا القرار في مختلف أنحاء العالم، وكان من بين الذين أمرهم بنشره ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، الذي كتب إليه كما يلي:

«من غريغوري، أسقف، إلى ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، تحيات، إلخ: لقد وضع مركب بطرس الكبير في البحر المحيط الواسع، أو بالحري تعرض للعواصف وللأمواج بشكل مستمر، إلى حد أنه في بعض الأحيان لم يمتلك قباطنته ولامجذفيه الوقت للتنفس وسط الأمطار العاصفة المتدفقة، وإذا ماحاول في بعض الأحيان التوجه إلى أحد الموانىء بأشرعة كلها ممدودة أمام رياح لطيفة، تندفع الريح فجأة عليه من الجهات المعاكسة، وتنقض عليه بوساطة الذي يلفظ لهب النار، ويجري حمل السفينة نحو المياه العميقة، وإلى البحر المحيط الشاسع،

حيث تحيط بها الأمـواج العـاتيـة، ومـع ذلك لم تُـقهر بعـد، لأن الرب، الجالس فيها، قد استيقظ بصراخ تلاميذه، فهزم الأرواح العاصفة، وأمر البحر والريح، فكان هناك هدوء، وأربـع عواصف هي التي تهاجم هذه السفينة، ذلك أن جنود الكفار غير الأتقياء محتفظون ومتملكون للأرض المشهورة، التي صارت مقدسة بوساطة دم المسيح، وغضب الطغاة يتولى نهب الممتلكات الدنيـوية، ويدمـر العـدالة، ويضع تحت قـدميـه حـرية الكنيسـة، ويسعى جنون الهراطقة إلى تمزيق ثوب المسيح، وللقضـاء على تكريس الإيمان، ويتـولى الضـلال المخـادع للرهبـان المزيفين والأبناء بهز أحشـاء أمهم وشق طرفهـا وتمزيقـه، وهكذا يوجـد في الخارج قتـال، ورعب في الداخـل، والسيف يقتل في الخارج، وفي البيـوت يهدد الموت بمثل ذلك، وهكذا غـالباً مـاحدث أن كنيسـة المسيح قد تغلبت عليهـا الاضطرابات، ففي الوقت الذي يخيل إليهـا أنها تربي الأولاد وتغـذيهم، هي بالفعل تغذي في صدرها ناراً، وأفاعي، وثعابين، تسعى بأنفاسها إلى تدمير كل شيء، وكذلك بنهشاتها ولهبها، ولكي يتولى تدمير التنينات من هذا النوع، ويهزم العصابات المعادية، ولكي يلطف الطبـاع الصعبة، قام الكرسي الرسـولي في هذه الآونة، وسـط عناية كبيرة، بتربيـة واحـد من التـلاميذ، اسمـه الامبراطور فردريك، الذي تسلم المسـؤولية كما كـانت من رحـم أمه، ورضع من صدرها، وحملتـه على كتفيها، وهي التي غالباً ماأنقـذته من أيدي الذين استهدفوا حياته، وهي التي ربتـه ورعته حتى وصل إلى كمال الشباب، مقـابل كثير من المتاعب والنفقـات، وارتقت به إلى مقـام الملكية، ودفعتـه أخيراً حتى أوصلته إلى القمـة، أي إلى المحطة الامبراطورية، وكـانت واثقة أنه سـوف يكون صـولجان الدفاع وعصـا الأيام الخوالي.

وعندما ذهب إلى ألمانيـا،ليتولى مقاليد الحكومة وضـع أمام عيني أمه، مااعتقد أنه بشارة سعيدة، لكن حتـى نكون صادقين أكثر، مايمكن عدّه

بشارة خطيرة، لأنه قام بمبادرة منه، وليس بناء على نصيحتنا، ومن دون معرفة الكرسي الرسولي، بتثبيت الصليب على كتفيه، وعمل تعهداً ونذراً ثابتاً، بأنه سوف يذهب لمساعدة الأرض المقدسة، وحصل بعد هذا على قرار بالحرمان الكنسي ضده شخصياً، وضد الآخرين الذين حملوا شارة الصليب، إذا لم ينطلقوا في وقت محدد، وطلب بعد هذا، وتلقى التحليل، لأنه أعطى أولاً يميناً بأن يلتزم بقرار الكنيسة حول هذه المسألة، وأضفى الكرسي الرسولي عليه كثيراً من النعم، ودعاه إلى التتويج، صدوراً عن هدف صحيح، حتى يتمكن بسرعة وبضمان، من الذهاب إلى الأرض المقدسة، وقام هو —ليس من دون رغبة— بناء على كثير من الوساطات، والرسائل الفخمة، باستخدام راية الصليب حتى هذه الآونة، وعندما تسلم التاج من يدي هونوريوس —سلفنا صاحب الذكرى الطيبة— في كنيسة القديس بطرس، جدد حمل الصليب من يدينا، حيث كنا آنذاك نشغل منصباً أدنى، وجدد بشكل معلن تعهده ونذره، وأقنع كثيرين بحمل الصليب، لأملهم بتأييده، وثبت موعداً من أجل عبور البحر، ثم إنه عقد بعد ذلك مؤتمراً مع الكنيسة الرومانية في فيرولي Veroli ووقتها أقسم بشكل علني أنه سوف ينطلق مع كل الأبهة وبما يليق به كامبراطور، وذلك في وقت محدد، تتولى كنيسة روما تثبيته، ثم انه قام بعد هذا في مؤتمر مماثل جرى عقده في فيرينتينو Ferentino فثبت تاريخاً لإقلاعه يكون بعد عامين من ذلك التاريخ، كما انه وعد أيضاً بقسم مهيب بأنه سوف يعبر البحر، وسيتزوج الابنة النبيلة لولدنا المحبوب كثيراً في المسيح، جون ملك القدس، وهي التي كانت أيضاً وريثة ذلك الملك المشهور، وقد أضاف أنه بهذه الوسائل سوف يربط نفسه بخدمة الأرض المقدسة، ليس مثل الحجاج الآخرين، بل مثل الداوية والاسبتارية، إلى الأبد.

وعندما —على كل حال— اقترب حلول الموعد المحدد، بدأ يعمل

تعليـلات كثيرة، وأعلن أنه غير مستعـد للذهاب وقـدم أعطيـات كثيرة ومنافع وهـدايا، حتى يحصل على تأخير لمدة ثـلاث سنوات، وبسبب أن الأمـور كلها باتت متعلقـة بهذا الأمير، بعـد الكنيسـة الرومانيـة، ولكي لايجري إلغاء المشروع، وتذهب الجهود التي بذلت من دون فـائدة، عقد الكرسي الرسولي مـؤتمراً مع عدد من الأساقفة ورجـال آخرين، وناقش القضيـة، دون أن يسقط أيـاً من اشكاليـاتها وظروفهـا، ثـم بعثنا بأخينا المبجل ب. P أسقف ألبانو، وغ. G الكاردينال الحامل للقب كـاهن القديس مـارتن، حتى يتوليـا تأكيد الوعود التـي عملها الامبراطور عن طواعية، بتقديم المساعدة الى الصليب، ثم انهما بناء عليه عقدا مؤتمراً مع عـدد من مقدمي وزعماء ألمانيـا في كنيسة القـديس جيرمين Germain وهناك قـام الامبراطور بمبـادرة منه فأقسم أنه خـلال عـامين من ذلك التـاريخ أي في عبـور آب الأخير، سـوف يزيل جميع الأعـذار بالتأخير، وسوف يقلع، وسوف يبقي هناك لمدة عامين، على حسابه الخاص، ألف فارس لتقـديم العون للأرض المقدسة، وأنه سـوف يرسل في العبورات الخمسـة المقبلـة مـائـة ألـف أونصـة Ounces من الذهب لتـــــــدفع لأشخـاص محددين هنـاك، ثم قـام الكاردينال الكاهن، فأعلن بناء على موافقة الامبراطور، وبوساطة سلطات الكرسي الرسولي، وأمام المقدمين الموجـودين، وعلى مـرأى مـن الناس المجتمعين، قرار الحرمان الكنسي، الذي سـوف ينزل بالامبراطور، إذا لم يف بواحد من الوعود المذكـورة أعلاه.

وعـلاوة على ذلك تعهـد الامبراطور بجلـب مـائــة سفينة وخمسين غليـون، والاحتفـاظ بهم فيها وراء البحـر، وأنـه إلى جـانب هذا سـوف يعطي في أوقـات محددة عبوراً لألفي فـارس، وأقسم بروحه أنه سـوف يفي بهذه الوعود التي ذكرناها، وأبدى رضاه وموافقته على تنفيذ الحكم الصـادر ضده وضـد مملكته، إذا لم يقم بـالوفاء بما وعـد به، وأنت تعلم

الآن كيف وفى بهذه الوعـود، لأنه تحت ضغوطه، وبسبب التماسـاته، توجّه عـدة آلاف من الصليبيين، تحت عقوبة الحرمـان الكنسي، قبل الموعد المحدد، إلى ميناء برنديزي، وسحب الامبراطور عطفه من جميع مدن الساحل تقريباً، ومع أنه غالباً ماأنذر من قبل سلفنا ومن قبلنا نحن حتى يقوم بجميع الاستعـدادات اللازمة، وأن يقوم باخلاص بالوفاء بكل ماوعد به، قام بعدم الاهتمام بهذه الوعود التي عملها بوساطة رسله ورسائله الشخصية، إلى الكرسي الرسولي وإلى الصليبيين، وذلك بإرسال الامدادات وبقية الأشياء المحتاجة، ولم يول أدنى اهتمام لخلاصه الشخصي، واحتفظ بالجيش الصليبي وأعاقه في أعلى حرارة الصيف، لمدة طويلة، في مناخ قذر ومميت، ولذلك هلك عدد كبير من عامة الجند، وليس منهم فقط، بل هلك عدد لابأس به من النبلاء وذوي المراتب، بسبب الأمراض، والعطش، والحرارة، ولأسباب أخرى كثيرة، ومات بينهم أسقفا: أنجو، وأوغسبورغ Augsburgh صاحبا الذكرى الطيبة، وحوّل الذين بقيوا من الجيش اتجاهاتهم للعودة، ومات عدد كبير منهم في الغابات وفي السهول، والجبال، والكهوف، والذين بقيوا مع الصعوبات، حصلوا على الاذن بالمغادرة، ومع أنه لم يكن هناك مايكفي من سفن لحمل امدادات الناس وخيولهم كما كان قد وعد، قاموا في يوم عيد العذراء المباركة، عندما حان موسم العودة، وأقلعوا مبحرين، معرضين أنفسهم للمخاطر، من أجل اسم المسيح، وكانوا يعتقدون بأن الامبراطور سوف يتبع خطواتهم، لكنه خرق وعوده، وقطع الروابط التي ربط نفسه بها، وألقى جانباً كل الخوف من الرب، ولم يقدم الاحترام إلى يسوع المسيح، ولم يهتم بلوم الكنيسة، وتخلى عن الجيش الصليبي، وترك الأرض المقدسة، عرضة أمام الكفار، واستخف بتقوى شعب المسيح، ولكي يسبب العار لنفسه وللمسيحية انصرف نحو مباهج مملكته، وغادر بعدما تعلل بأوهى الأسباب، مدعياً الضعف الجسدي، كما قال.

وتمعن الآن، وانظر هل هناك من حـزن مثل حزن الكرسي الرسـولي، وأمك، التي غـالبـاً مـاجـرى خداعهـا بوحشيـة وغشهـا بابنهـا، الذي أرضعته، والذي فيـه وضعت الثقة، بأنه سوف يتـولى تنفيذ هذه المسألة، والذي عليه حشدت كثيراً من الآمال والمنافع.

وأخفى في الوقت نفسه نيته بالتخلي عن قضية الأرض المقدسة عندما تتـوفـر الفـرصـة، مـركـزاً انتبـاهه على نفي الكهنة، والسلب، والأسر، وأعمال إيذاء مضاعفـة، أنزلها بالكنائس، وبالممتلكات الدينيـة، وبرجال الدين، ولم يستمع إلى كثير من شكاوى الفقراء، مع كل من سواد الناس والنبلاء، الذين صرخوا ضـده، والذين —كما نعتقد— دخلت أدعيتهم إلى أذني المولى رب السماء.

ومع أن كنيسـة روما قـد توجب عليهـا حماية ابن لها، نشأ وسط مثل هذه العناية، وجـرى الاهتمام به إلى مثل هـذا الحد، إنها الآن تبكي من أجله، وقد قهرت من دون قتال، وتداعت من دون وجود عدو، ولعاره الكلي، انحطـت بشكل مشين، وليـس أقـل من هـذا كلـه أسى، هـلاك الجيش الصليبي، الذي أخفق ليس بسبب سيـوف الأعـداء، أو لفقـدانه للشجاعـة، لكنه تبدد بسبب هذه المصيبة المرعبـة، وهي أيضاً تبكي لأن الجزء المتبقي من العساكر، هم عرضة لمخاطر البحر، وللأمواج الهائجة، من دون دليل، أو قائـد، أو مقدم، مساقين إلى حيث لايدرون، يقـدمون القليل من الفائدة إلى قضية الأرض المقـدسة، ونحن غير قادرين —تبعاً لتعهـدنا— أن نقدم لهم مـواساة أو مسـاعدة، بسبب الوضع العـاصف للبحر، وشدة وسوء أوضـاع الموسم، والكنيسة أكثر من هذا، إنها تبكي دمـار الأرض المقـدسـة، التي كنـا آملين أن تكون الآن قـد أنقـذت من أيدي الكفــار، وأن يكون الجيش الصليبي —كما قيل— قــد استردها، مبـادلة لـدميـاط، لولا أنه منع مــراراً أن يفعل ذلك بوسـاطـة رسـائل الامبراطور، ومـاكان هذا الجيـش نفسه أسيراً في أيدي الكفـار، لو تمت

أعمال تجهيز السفن وتزويده بها، كما كان قد وعد من قبله، وكان ذلك من الممكن صنيعه، لأن دمياط قد جرى تسليمها —كما قيل— إلى رسله ووضعت تحت عهدتهم، وتزينت بالنسور الامبراطورية، وقد جرى نهبها في اليوم نفسه بشكل وحشي، ثم بعدما جرى تدميرها بشكل مهين، تمت إعادتها من قبلهم إلى الكفار، وقد أضيف أيضاً إلى أسانا وخسائرنا المتقدم ذكرها الجهود والنفقات التي تكبدناها في دمياط، وذلك بالاضافة إلى المعنويات بين المسيحيين، وكذلك الوقت الذي بُدد، وقد جرى إنفاق هذا كله من دون محصلة، ولم يتوفر هناك بين أبناء الكنيسة ولا واحد من أبنائها يتولى مواساتها، أو ليمسح دموعها من على وجنتيها، وبما أنه بناء على ذلك قد سمع صوتها في رامه، وراحيل تندب مع حزنها الذي لايمكن شفائه، ليس فقط من أجل أولادها بل أيضاً من أجل جميع تلك المصائب، فكيف على هذا يمكن للمسيحيين التمنع عن البكاء والنحيب؟ وأي واحد من الأبناء، عندما يرى الدموع تتدفق من عيني الأم، سوف يتمنع عن سفح الدموع؟ وأي إنسان سوف لن يرحم أحزان الأم، ولن يشارك في حزنها العميق؟، وأي مسيحي سوف لن يتحرق، بناء على هذه الأحداث، بمزيد من الرغبة الأشد من أجل مساعدة الأرض المقدسة، حتى لايمكن ظهور الشباب المسيحيين، وقد انبطحوا تماماً وأصيبوا بالرعب بسبب هذه الأحداث غير المتوقعة؟ أوليس من المتوجب أن يكون الرجال الحكماء وأبناء يسوع المسيح، الأكثر اندفاعاً لمساعدة الأرض المقدسة، كلما رأوا أكثر الذي لايمكن رؤيته من المصائب والمآسي وقد تراكمت على الأب والابن، المخلص والمخلَص، وعلى المسيح وعلى شعب المسيح؟ وبناء عليه نظراً لازدياد تشوقنا لأن نأخذ هذا العمل ونضعه بين أيدينا ثانية، ولكي نقترح بوساطة خطط أكثر إحكاماً أن نجد سبلاً للخلاص وللعلاج، تتماشى مع حاجياتنا وتعوض الحزن الكبير الذي تحملناه، ويكون هذا عندما يري الرب نفسه غاضباً قليلاً

مع شعبـه، ولايتلقى القرابين من أيـديهم، ومع ذلك إن رحمة الرب لم ترفع بعـد، كما أن شفقته لم تضمحل كلياً، ذلك أننا نثق بشفقـة الرب، الذي سيرينا الطريق الذي يمكن أن نصل عبره إلى محصلـة ناجحـة في هذه القضيـة، وهو سـوف يرسل رجالاً يرتضيهم مـن قلبه، هم سـوف يقودون الجيش الصليبي بقلوب نقية وأيدي نظيفة.

وبناء عليه إننا نلتمس من أخـوتكم بوساطة هذه الرسائل الرسـولية، ونأمـر أخوتكم، أن تقـوموا باخـلاص بعرض هذه القضـايا على الناس وعلى رجـال الدين الذين تحت رعـايتكم، واقناعهم كيما يعـدّوا أنفسهم وعقــولهم للقيـام بهذه المهـام، وأن تحثهم بشكل دائم، وأن تدعــوهم للانتقـام لهذه الاهانة التي لحقت بيسـوع المسيح، وبذلك عندمـا سيرى الكرسي الرسـولي، بعــد المزيد من المناقشـات المتبــادلة أن الوقت بات مناسبـاً ليطلب منهم مسـاعــدتهم، يمكنه وقتهـا أن يجدهم جـاهزين ومستعـدين، وعلى كل حـال، لكي لانبدو مثل كلـب أخرس غير قـادر على النبــاح، وأن لانظهـر أننا غضضنـا النظر عن هذا الرجل في عــدم تقـديـره للرب، من دون معـاقبتــه، وهو الذي ألحق أذى عظيماً بشعب الرب، إننـا نعلن —مـع أننا مكرهين— أمــــام النـاس أن الامبراطور المذكـور فــردريك هو محروم كنسياً، طالما أنه لم يعبر البحـر في الوقت المحـدد، ولم يرسل إلى هناك مبلـغ المال الذي جـرى الاتفـاق عليـه من قبل، كما لم يحضر إلى هناك الألف جندي، للبقاء لمدة عـامين على حسابه من أجل مساعدة الأرض المقدسة، لكنه تقاعس عن تنفيذ هذه الشروط الثلاثة الواردة في اتفاقيته، حسبما كان قد ورّط نفسه عن طواعية ووضع نفسـه في شبكة الحرمـان الكنسي المتقدم ذكـره، ونحن نأمـره أن يتجنب بدقة جميع الناس، ونأمركم أن تعلنوا شخصياً هذا القرار على الملأ، وأن تتدبروا نشره مـن قبل أساقفة الكنـائس الآخرين، ولسـوف نتابع السير ضده بحدة أعظم، إذا ماستدعى تمرده ذلك.

ونحن، عــلاوة على هــذا، نثق برحمة أبينا المقــدس، الــذي لايرغب بهلاك أي إنسـان، حتى يمكن لعيني عقله المظلم، عندما يدهن بمـرهم الكنيسة سـوف —إذا لم يكن متمرداً في قلبـه— أن يستنير، حتى يمكنه بذلك أن يرى عـريه، ويمكنه أن يتجنب العار الذي سقط فيـه، وبذلك يمكنه العـودة إلى الطبيب الصحيح، ويمكنه الرجعـة إلى أمـه الكنيسـة، وبتـواضع مـوائم صحيـح، وبتكفير نقي، يمكنه وقتهـا تلقي الخلاص، لأننا لانرغب أن يكون خـلاصـه الأبدي في الرب معلقـاً، لأننا أحببناه من قبل باخـلاص عندمـا كنا في منصب أدنى. صـدر في اللاتيران، في السنة الثانية من حبريتنا».

كيف أعلن الامبراطور أنه حرم كنسياً بشكل غير عادل

عندما علم الامبراطور بأنـه قد حرم كنيسـاً ارتعب كثيراً، ولأن البابا كـان قد أمـر برسائله بنشر قـرار الحرمـان في جميع بلدان المسيحية، قـام الامبراطور المذكـور بالكتابة إلى جميع الملوك المسيحيين والمقـدمين يشكو إليهم بأن قرار الحكم قد صدر خطـأ بحقه، وأخبرهم واحداً واحداً بأنه لم يتخل عن الحج، ولم يفتعل ذلك بناء على تعليـلات تافهـة، كما اتهمـه البـابا بشكل كـاذب، بل جـاء ذلك بسبب خطير جـداً، وفي هذا المقـام يطلب شهادة الشاهد الصحيح الموجود في السماء، وعلاوة على هذا لقد أعلن أنه مـا ان يمنحـه الرب الصحة الجسـدية، حتى سيقـوم بتشريف مناسب بالوفـاء للرب بعهـد الحج، وبشكل يليق به كـامبراطور، وكـان من بين الملوك الكاثوليك الذين كتب رسائل إليهم مختـومة بخاتم ذهبي الملك الانكليـزي، وأعلن فيهم بأن الكنيسـة الرومـانيـة مصـابة بجنون الشره، ومن الشواهد على جشعها أنها لم تعـد راضية باستحواذ ممتلكات الكنائس بارادتها، بل إنها تجرأت حتـى على حـرمـان الأباطرة، والملوك، والأمـراء من مـواريثهم، وجعلهم يؤدون الجزية إليهـا، ويمكن للملك الانكليزي نفسه أن يجد مثلاً شاهداً على ماقاله في حالة أبيه الملك جون،

الذي أبقته الكنيسة المذكورة لمدة طويلة من الزمن حتى جعل نفسه ومملكته يؤدون الجزية إليها، ويمكنهم أيضاً أن يجدوا مثلاً آخر في قضية كونت طولوز، وكثيراً من المقدمين التي سعت لإبقاء أراضيهم وأشخاصهم تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، حتى أنزلتهم إلى وضع التابعية، ونصح في نهاية رسالته جميع أمراء الدنيا، بالاحتراز ضد مثل هذا الشره الظالم، بمثل هذه الكلمات:

«انتبه عندما تحترق بيوت الجيران

فلربما يكون دورك هو المقبل».

كيف أثار الامبراطور روح الاضطهاد ضدّ البابا

أثار الامبراطور بوسائل الاثارة هذه روح الاضطهاد ضد البابا، وميراث الكنيسة الرومانية، وهاجم المدن واستولى على القلاع العائدة إليها، وعن ذلك أخبر البابا مندوب الكنيسة الرومانية في فرنسا بالرسالة التالي نصها:

شكاوى البابا ضدّ الامبراطور

«من غريغوري الأسقف، إلى المندوب الروماني بين الفرنسيين، تحيات، الخ، نرجوك الانتباه، لتعرف هل هناك أسى مثل أسانا، لأننا وجدنا في الابن الذي ربته الكنيسة الرومانية، ورفعته إلى أعلى المراتب، على أمل أن تجد فيه بطلاً ضد الكفار، مضطهداً قاسيا، وعدواً فعالاً، وعلينا أن لانمر بصمت بالأذى الأثيم، والدمار المريع الذي أنزله فردريك الامبراطور المذكور بشكل مستمر بالكنيسة وباللاهوتيين، فهو الآن يقوم بوسائل المسلمين وآخرين، بمهاجمة ميراث الكرسي الرسولي، والذي هو أكثر مقتاً، أنه يبرم الآن معاهدات مع السلطان ومع مسلمين آخرين، ويظهر اللطف نحوهم، ويبدي الكراهية المكشوفة نحو المسيحيين، إلى حد العمل على محق طائفتي الاسبتارية والداوية، مع أن

الآثار المقدسة للأرض المقدسة، قد حميت من قبلها حتى الآن، لأنه بعدما خرقت المعاهدة بين المسلمين والصليبيين قد خرقت بناء على أوامره، قام المسلمون بغارة داخل أراضي الطائفتين المتقدمتي الذكر، وبعدما قتلوا عدداً كبيراً من أتباعهم أو أخذوهم أسرى، حملوا معهم كميات كبيرة من الغنائم، وبعد ذلك هاجمهم الداوية، وانتزعوا منهم بعضاً من الغنائم يصل ثمنها إلى ستة آلاف مارك، إنما الذي حدث هو أن توماس كونت أتري Aterrae وزير الامبراطور، هاجمهم بحدة عندما كانوا عائدين، وانتزع منهم بالقوة هذه الغنائم، وفي طاعة من الداوية لأحكام طائفتهم، لم يتجرأوا على رفع يد مسلحة ضد المسيحيين، وأعاد توماس المذكور هذه الغنائم إلى المسلمين، باستثناء بعض منها، قد قيل بأنه احتفظ بها من أجل استخداماته الشخصية، وإذا ماأخذ المسلمون أسلاباً من الصليبيين ليس فقط هو لايسعى لاستردادها، بل إنه لايسمح للصليبيين أن يأخذوا أسلاباً من المسلمين، وبهذه الوسائل صار المسلمون أكثر وقاحة وهاجموا بجرأة شعبنا، وخوفاً من شعبنا من الخيانة، كانوا أقل جرأة في مقاومتهم، وهكذا فإن إراقة الدم الصليبي تحولت في بعض الأحيان، لسوء الحظ لصالح كسب الامبراطور، ويقوم توماس المذكور —أو بالحري الامبراطور بحكم النيابة— الآن، باضطهاد الطائفتين المذكورتين أعلاه، وسلب منهما بالقوة بيوتهما وممتلكاتهما التي بين أيديهما، واظهاراً منه لاخضاعه لامتيازات الكنيسة، إنه يسعى الآن إلى حرمانهما من الامتيازات التي منحهما إياها الكرسي الرسولي، ومن ثم وضعهما تحت حكم الادارة الامبراطورية، كما أنه جمع مائة عبد كانوا لدى الاسبتارية والداوية في صقلية وأبوليا، وأعطاهم إلى المسلمين، دون أن يقدم أدنى تعويض عنهم إلى الطائفتين المذكورتين، وهكذا فإنه كما ظهر بشكل واضح من الظروف المتقدمة، هو يهتم أكثر، ويقدر عبيد محمد (صلى الله عليه وسلم) أكثر من تقديره لعبيد المسيح، وعليك أن تصدق حقيقة، أن

الامبراطور المذكور، كما قيل قد أنزل إلى البحر مع قلة من الفرسان، لقد أرسل جيشاً كبيراً من المسيحيين مع حشد من المسلمين، لمهاجمة ميراث الكنيسة، وبذلك قدم برهاناً واضحاً عن جميع آثامه، لكن كما قلت، لدينا الثقة، به، هو الذي أسس كنيسته على صخرة الإيمان، بأنه لن يسمح بالاطاحة بها، مهما كانت قوة الرياح وعنفها المرسلة ضدها، أو المياه التي تسعى لغلبتها، وبما أنه —بناء عليه— يتآمر بشكل شرير من أجل القضاء على الإيمان المسيحي، وعليه يصب جام غضبه، نحن محقون في أن نكون في أقصى حالات الرعب، ولكن مهما استمر ظلم هذا الرجل غير التقي وطال، لايمكنه السيطرة بذنبه، بل بالحري سوف يضيع فيه، وبناء عليه، إنه بموجب الواجب المفروض علينا —مع أننا غير جديرين بذلك— نحن مرغمون على منع نائب محمد (صلى الله عليه وسلم) هذا، من الاستمرار بصب جام غضبه على عبيد المسيح، لابل بالحري سينال الخزي في عدوانه، وسوف يرتفع شأن مجد الاسم المسيحي، ونحن نأمركم بهذه الرسائل الرسولية أن تذيعوا هذه القضايا في جميع أرجاء بلاد نيابتكم، وذلك من أجل أن يقف الشعب المؤمن بالمسيح بشجاعة في سبيل العقيدة، وتمسكاً بالدين الصحيح، ومراعاة له، وكأن كل واحد يعمل في سبيل الحفاظ على مصالحه، تماشياً مع التشجيع الذي سوف يستخدمه. صدر في اللاتيران، في الخامس من آب، في السنة الثانية من حبريتنا».

كيف ثار شعب روما بفتنة ضدّ الحبر الروماني

خلال الاحتفال بالفصح في السنة نفسها، ثار شعب روما بعصيان وتمرد ضد البابا غريغوري وطردوه من المدينة، ثم إنهم طاردوه إلى قلعة فيتربو، وهناك ازدادوا قوة فطردوه إلى بيروسيوم Perusium ولم يكن لدى البابا أية وسائل لمعاقبتهم، سوى حرمانهم كنسياً جميعاً.

وأرسل في العام نفسه ملك فرنسا حملة عسكرية كبيرة إلى بروفانس،

ضد كونت طولوز، لطرد ذلك النبيل من تلك المناطق، وقد سمعوا بأن الكونت كان وقتذاك في قلعة اسلامية، تابعة لمتلكاته، ولذلك قرروا محاصرته هناك، لكنه —على كل حال— أنذر مسبقاً بقدومهم واقترابهم، ولذلك أعدّ كميناً عند وصولهم، وخبأ نفسه مع قوة كبيرة في غابة، كان على الفرنسيين المرور بها، وهناك جلس ينتظر وصول أعدائه، وعندما وصل الفرنسيون إلى مكان الكمين، انقض الكونت مع قواته عليهم، ونشبت معركة شديدة فيها وقع بالأسر خمسمائة فارس فرنسي، وجرى أيضاً قتل عدد كبير، كما وقع بالأسر حوالي ألفي جندي، وبعدما جرى تجريدهم جميعاً وتعريتهم، أمر الكونت باقتلاع أعين بعضاً منهم، وبجدع آناف آخرين منهم، وببتر أقدام وأيدي بعضهم الآخر، وبعد ذلك سرحهم عائدين إلى مواطنهم، ليكونوا منظراً مشوهاً لبني جلدتهم من الفرنسيين، وأمر بالفرسان الأسرى فوضعوا في سجن مضيق عليهم، بعدما جرّدهم من جميع مقتنياتهم، ووقعت هذه المعركة في الثامن عشر من أيار قرب القلعة الاسلامية، وباختصار يمكن القول بأنه جرى ارسال حملات ثلاث خلال ذلك الصيف، وفي كل مرة جرت هزيمة الفرنسيين أو أسروا، وسجنوا من قبل الكونت المذكور.

موت ستيفن رئيس أساقفة كانتربري

في التاسع من تموز من العام نفسه، أنهى ستيفن رئيس أساقفة كانتربري حياته في عزبته في سلندون Slindon وقد دفن في كانتربري في السادس من الشهر نفسه «كذا»، وبعد دفنه حصل رهبان كانتربري على إذن الملك، وفي الثالث من آب انتخبوا المعلم وولتر دي هينزهام Heinesham وكان راهباً من كنيستهم، لكن عندما قدموه إلى الملك، وبعد مداولات طويلة، رفض استقباله على أسس محددة، وكان أول اعتراض ذكره إلى الرهبان هو أنهم قد اختاروا رجلاً كان بلا فائدة لنفسه وللمملكة، وكان الاعتراض الثاني هو أن والد المنتخب كان قد

أدين بالسرقة، وقد شنق بسبب ذلك، وكان الاعتراض الثالث هو أنه شارك —أي والده— بالعمل ضد الملك جون، في أيام التعليق من شراكة المؤمنين، علاوة على ذلك، اعترض الأساقفة المساعدون لكنيسة كانتربري، على انتخاب ولتر المذكور، لأنه كان من قبل قد اعتدى على راهبة، وأنجب منها أولاداً، وأضافوا إلى ذلك أن انتخاب رئيس أساقفة لايجوز أن يتم من دون حضورهم، وتمسك —على كل حال— رئيس الأساقفة المنتخب بالانتخاب، وعمل مرافعة، وأخذ معه بعضاً من رهبان كانتربري، ومثل بحضرة البابا، سائلاً إياه تثبيت انتخابه، وعند سماع البابا —على كل حال— بأن الانتخاب قد عارضه الملك والأساقفة، أجّل القضية، حتى يتمكن من معرفة الحقائق حول القضية، وعندما علم الملك مع الأساقفة بأن رئيس الأساقفة المنتخب قد ذهب إلى بلاط روما، وضعوا الاعتراضات المتقدم ذكرها كتابة، وأرسلوهم، ممهورين بخاتم الملك وبأختام الأساقفة إلى البابا، بعناية أسقفي روكستر وشيستر، وعيّنوا المعلم جون رئيس شمامسة بدفورد ليتولى معالجة هذه القضية، ثم ذهب هؤلاء الرسل إلى روما، وسلموا رسائل الملك والأساقفة إلى البابا، الذي قام بعد تفحص متمعن لهم، وبناء على نصيحة كرادلته، فحدد يوماً لظهور الفريقين أمامه، يكون اليوم التالي ليوم أربعاء الرماد، وذلك بغية التوصل إلى فض هذا الخلاف بشكل صحيح، وتقرير الأمر بشكل حاسم.

ووقعت خلال صيف هذا العام كله عواصف رعد وبرق مرعبة، حيث أشعلت النيران في عدد من الأبنية في أماكن متفرقة، وأهلكت الناس والماشية، وهطلت في الخريف التالي أمطار فيضان متواصلة، سببت كثيراً من الأذى في أيام الحصاد.

حول عصيان الويلزيين

وفي شهر آب من العام نفسه، قام الفرسان والجنود الذي تشكلت

منهم شحنة قلعة مونتغمري، الواقعة على الحدود الويلزية بغارات مع من كان من تلك المنطقة، في سبيل توسيع الطريق من القلعة، وتحويله إلى طريق أكثر أماناً، وذلك بسبب رجال العصابات الويلزية، الذين نهبوا وقتلوا المسافرين هناك، ولذلك زحفوا نحو المكان مع السيوف، والفؤوس، والهراوات، وأسلحة أخرى، وشرعوا بقطع الأشجار وإزالة الأسيجة والنباتات الشوكية، لجعل الطريق أعرض للمسافرين، ووصلت أخبار هذه الوقائع إلى مسامع الويلزيين، فقدموا في قوة كبيرة، وهاجموهم، وأرغموهم على التراجع إلى داخل القلعة، لكن ليس من دون وقوع قتلى من على لجانبين، ثم إنهم ألقوا الحصار على القلعة، لكن الحامية تمكنت على الفور من ارسال رسالة إلى هيوبرت، المسؤول عن العدالة، الذي كان الملك قد أعطاه مؤخراً تلك المرتبة مع القلعة، وبناء على ذلك زحف الملك شخصياً، نحو ذلك المكان، بكل سرعة، وأرغم الويلزيين على رفع الحصار، وكان الملك قد وصل مع قوة صغيرة، وكان متوقعاً التحاق نجدات به، وبالفعل مالبثت هذه النجدات أن التحقت به، وبناء عليه زحف مع كتلة كبيرة من الجنود نحو الغابة المتقدم ذكرها أعلاه، وقد قيل بأنها كانت واسعة جداً، تمتد نحو خمسة فراسخ، ومع أنها كانت واسعة، ومن الصعب كثيراً تدميرها بسبب كثافة الأشجار النامية فيها، لقد جرى تدميرها واحراقها بعد صعوبات جمة، ثم قاد الملك جيشه، وتوغل أكثر في البلاد، ووصل إلى مكان مسكون من قبل بعض الرهبان من طائفة الرهبان البيض، وكان اسم هذا المكان كريديا Cridia وقد أخبر الملك بأن ذلك المكان مستودع للأسلاب التي أخذت من قبل الويلزيين، وجرى، بناء على أوامر الملك، إلقاء النار في تلك الأبنية، فتحول إلى رماد، ونظر هيوبرت إلى الحصانة القصوى للموقع، فأمر —بناء على موافقة الملك— ببناء قلعة هناك، وقبل أن يكتمل هذا، جرى قتل أعداد من الطرفين، وعندما كان النبيل وليم دي براوس Braose يقوم بحملة جمع للأعلاف، اعتقل من قبل

الويلزيين، وحمل أسيراً، وحدث مثل هذا أيضاً إلى فارس، كان قد عمل مؤخراً فارساً بحزام من قبل الملك، فقد ذهب مع آخرين للاعتلاف، وعندما كان مع مرافقيه تمكن الأعداء من عزله وتطويقه، فانقض عليهم بشجاعة وصار في وسطهم، وبعدما قتل عدداً من الذين تصدوا له، سقط أخيراً قتيلاً، مع بعض الآخرين من جيش الملك، وكان عدد كبير من بين مقدمي جيش الملك متواطئين مع للويلين، مع أنهم تظاهروا بالوقوف إلى جانب الملك، ولهذا السبب، نقصت جميع أنواع الامدادات لدى الجيش، وقد أجبر الملك على عمل صلح مهين، وافق بموجبه على هدم القلعة، التي شارفت على الانتهاء، والتي احتاجت إلى جهد كبير، ونفقات عظيمة، وأن يجري الهدم على حساب الملك، وأن على للويلين أن يعطي إلى الملك مقابل أتعابه ونفقاته ثلاثة آلاف مارك، وما ان جرى التصديق على هذه المعاهدة، حتى عاد كل فريق إلى وطنه، وهكذا عاد ملك انكلترا مجللاً بالعار، فبعدما أمضى قرابة الثلاثة أشهر في بناء القلعة المذكورة، وبعدما بدّد مبلغاً لانهاية له من المال، عاد تاركاً النبيل وليم دي براوس أسيراً بين يدي للويلين، والسخرية التي ثارت من قبل كثيرين، صدرت بسبب أنه لدى الشروع ببناء القلعة، أعطاها المسؤول عن العدالة اسم «حماقة هيوبرت»، ولهذا عندما رأوها بعد كثير من المتاعب والنفقات قد هدمت إلى الأرض، قالوا جميعاً بأن المسؤول عن العدالة لم يكن فقط متنبئاً، لابل أكثر من متنبىء.

كيف وصل الامبراطور فردريك إلى الأرض المقدسة ورفع من شأن القضية الصليبية

وركب في العام نفسه الامبراطور الروماني فردريك سفينة عند البحر المتوسط، ووصل في عيد مريم العذراء إلى عكا، حيث خرج رجال الدين والشعب إلى استقباله، ورحبوا به بتشريف يليق برجل عظيم، لكن عندما اكتشفوا بأنه كان محروماً كنسياً، لم يمنحوه قبلة سلام، كما

أنهم لم يجلسوا على المائدة معه، بل نصحوه بأن يقدم ترضية إلى البابا، وأن يعود إلى جماعة الكنيسة المقدسة.

وكان الداوية والاسبتارية، لدى وصوله، قد حبوا على ركبهم، وبجّلوه، وقبّلوا ركبتيه، وأعطى أفراد الجيش الصليبي الذي كان حاضراً الحمد للرب على وصوله، وأملوا أنه بوصوله سوف يكون هناك خلاص بين أوساطهم، ثم اشتكى الامبراطور بمرارة، إلى الجيش كله، ضد الحبر الروماني، لأن هذا الحبر قد تفوه بشكل غير عادل بحكم أصدره ضده، وأكد أنه تأخر عن الزحف إلى مساعدة الأرض المقدسة، بسبب مرض شديد.

ولدى سماع سلطان القاهرة بوصول الامبراطور إلى سورية، بعث إليه بهدايا ثمينة من الذهب، والفضة، والحرير، والجواهر، والجمال، وعاج الفيلة، والحمير، وأشياء أخرى رائعة ليست موجودة في البلدان الغربية، وعند وصول الامبراطور إلى عكا، وجد الجيش الصليبي تحت قيادة: دوق ليمبورغ Limburgh وبطريرك القدس، ورؤساء أساقفة الناصرة، وقيسارية، ونربونه، والأسقفين الانكليزيين لوينكستر، واكستير، ومقدمي، الاسبتارية، والداوية، وطائفة اسبتارية التيوتون، الذين كان تحت قيادتهم الموحدة حوالي ثمانمائة فارس من الحجاج الحمر، وحوالي عشرة آلاف من الجنود الرجالة، تجمعوا من مختلف أجزاء العالم، وكلهم قاموا مدفوعين بشعور عام من التقوى، بالزحف الى قيسارية وقد شحنوا هناك بعض القلاع، وعلى هذا كان الذي بقي عليهم هو استرداد يافا، ومن ثم الزحف على المدينة المقدسة، ولدى معرفة الامبراطور بأوضاع الأرض المقدسة، وافق تماماً على خطة الحجاج، وبعدما عمل جميع الاستعدادات اللازمة للزحف نحو الأمام، انطلقوا خارجين يتقدمهم الامبراطور، ووصلوا في الخامس عشر من تشرين الثاني من دون إعاقة إلى يافا، ولكن بما أنه كان من غير الممكن بالنسبة

لكل إنسان أن يحمل براً من المؤن مافيه كفاية له شخصياً ولخيوله لعدة أيام، وذلك مع أثقاله، تمّ الحصول على سفن عند عكا من أجل حمل الإمدادات للجيش، ولكن هبّت عاصفة مفاجئة، وصار البحر هائجاً إلى حد أن الحجاج الصليبيين مكثوا لمدة سبعة أيام متواصلة من دون امدادات، وانتشر رعب هائل بين كثير منهم، وخيّل إليهم بأن الرب في غضبه سوف يدمّر شعبه، ويزيله من على وجه الأرض، لكن رحمة الرب التي لايمكن وصفها، والتي لاتسمح أن يمتحن أي إنسان أكثر من احتماله، قامت أخيراً بسبب شعبه المؤمن، وقد أمر الرياح والبحر، فكان هناك هدوء، ثم وصل عدد كبير من السفن إلى يافا، تحت قيادة الرب، وهي محملة بكميات هائلة من القمح، والشعير، والخمر، ومختلف أنواع الامدادات، ولذلك توفرت كميات وافرة من المؤن في الجيش، حتى كان الفراغ من إعادة بناء القلعة المذكورة.

اليهودي يوسف الذي مازال حياً ينتظر القدوم الأخير للمسيح

وفي هذا العام وصل إلى انكلترا، واحد من رؤساء الأساقفة في أرمينيا الكبرى، حاجّاً، ليرى الآثار المقدسة العائدة للقديسين، وليزور الأماكن المقدسة في تلك المملكة، وذلك مثلما فعل في ممالك أخرى، كما أنه قدم رسائل توصية، من صاحب القداسة البابا، إلى رجال الدين، وإلى أساقفة الكنائس، الذين كان مفروضاً عليهم استقباله، ومعاملته بالتقدير والاحترام المتوجبين، وبعد وصوله ذهب إلى دير القديس ألبان، حيث استقبل بكل الاحترام من قبل راعي الدير والرهبان، وفي هذا الدير، كان متعباً من جراء رحلته، ولذلك بقي هناك عدة أيام لإراحة نفسه مع أتباعه، وبدأت أحاديث بينه وبين سكان الدير، بوسائط تراجمتهم، وخلال ذلك تقصّى حول عدة أمور، تتعلق بالدين في تلك البلاد ومراعاتها للأمور الدينية، وروى أشياء كثيرة غريبة تتعلق بالبلدان الشرقية، وفي سياق الأحاديث سئل عما إذا كان قد رأى قط شيئاً أو

سمع عن يوسف، الذي كان موجوداً أثناء آلام ربنا، وتحدث إليه، والذي مايزال حياً، بمثابة برهان حول الإيمان المسيحي، وكجواب لذلك رد فارس كان في حاشيته، وكان هو ترجمانه، وقد تحدث بالفرنسية قائلاً:

«مولاي على معرفة جيدة بذلك الرجل، وقبل وقت قصير من أخذه طريقه إلى البلدان الغربية، تناول يوسف المذكور الطعام على مائدة مولاي رئيس الأساقفة في أرمينيا، وغالباً ماعقد أحاديث معه»، ثم سئل بعد ذلك عما دار بين المسيح وبين يوسف نفسه، وعلى ذلك ردّ قائلاً:

في أيام آلام يسوع المسيح، اعتقل من قبل اليهود، واقتيد إلى قاعة المحاكمة، إلى أمام بيلاطيوس الوالي، علّه يحكم عليه بناء على تهمة اليهود له، ولم يجد بيلاطيوس سبباً للحكم عليه بالموت، فقال لهم:

خذوه واحكموا عليه وفقاً لقانونكم، وازدادت صرخات اليهود، وبناء على طلبهم أطلق سراح بارأباس، وسلم يسوع إليهم لكي يصلب، وعندما كان اليهود —بناء على ذلك— يجرون يسوع، ووصلوا إلى الباب، قام كارتافيلوس Cartaphilus وكان بواباً للقاعة، ويعمل في خدمة بيلاطيوس، بضرب يسوع على ظهره وهو خارج من الباب، بيده بشكل غير تقوي، وقال له ساخراً: إذهب أسرع، يايسوع، اذهب أسرع لماذا أنت متباطىء؟ ونظر يسوع إليه بملامح حادة، وقال له: أنا ذاهب، وأنت سوف تنتظر حتى أعود، وبناء على ماقاله ربنا، فإن كارتافيلوس هذا، مابرح ينتظر عودته، وقد كان وقت آلام ربنا في الثلاثين من عمره، وهو كلما وصل إلى سن مائة سنة، يعود دوماً إلى العمر نفسه، كما كان عندما تألم ربنا، وبعد موت المسيح، وتأسس الإيمان الكاثوليكي، جرى تعميد كارتافيلوس هذا من قبل حنانيا «الذي عمّد أيضاً الرسول بولص»، ومنحه اسم يوسف، وغالباً ماسكن مابين قسمي أرمينيا، والبلدان الشرقية الأخرى، ممضياً وقته بين الأساقفة

والآخرين من رجال الكنيسة، وهو رجل له أحاديث قدسية، وهو متدين، وهو رجل قليل الكلام، ومتحرز في سلوكه، وذلك أنه لايتكلم مطلقاً، مالم يسئل من قبل الأساقفة ورجال الدين، ثم إنه روى بعض أخبار أحداث العصور القديمة، وبعض أخبار الأحداث أثناء آلام ربنا وقيامته، وحدثهم عن شهود القيامة، أي الذين قاموا مع المسيح، وذهبوا إلى المدينة المقدسة، وظهروا للناس، كما أنه تحدث عن عقيدة الرسل، وعن افتراقهم وتبشيرهم، وقد تحدث عن هذا كله دون ابتسامة، أو طيش في الحديث، وفعل ذلك مثله مثل رجل خبير بالحزن والخوف من الرب، ينظر دوماً بخوف إلى قدوم يسوع المسيح، خشية أن يجده يوم الحساب الأخير غاضباً منه، وهو الذي عندما كان على طريقه إلى الموت أثاره، لينتقم منه بشكل عادل، وتأتي إليه أعداد من الناس من مختلف أنحاء العالم لتتمتع بصحبته وبالحديث معه، وإليهم، إذا كانوا رجالاً موضع ثقة، كان يوضح جميع الشكوك حول القضايا التي كانوا يسألونه عنها، وهو يرفض جميع الهدايا التي كانت تقدم إليه، حيث كان راضياً بقليل الطعام وخفيف الثياب، وهو يضع أمله بالخلاص على أساس حقيقة أنه أذنب من خلال الجهل، لأن الرب قام أثناء آلامه بالدعاء لأعدائه بهذه الكلمات: «اغفر لهم ياأبي، لأنهم لايعرفون الذي يفعلونه».

كيف خلف المعلم روجر يوستاس أسقف لندن

وأنهى في هذا العام نفسه يوستاس أسقف لندن حياته، وانتخب الكهنة مكانه المعلم روجر، الذي كان لقبه الأسود، وكان كاهناً في كنيستهم، وقد قدم بعد ذلك إلى الملك، واستقبل منه من دون أية معارضة، وفي العام نفسه أيضاً، مات في شهر كانون الأول، غيوفري أسقف إيلاي، وقد دفن في الكنيسة الكاتدرائية في الثاني عشر من الشهر نفسه، وإثر موته اختار الرهبان باتفاق عام هيوج، راعي دير القديس

إدمـوند، الذي عندمـا قدّم إلى الملك، استقبل منه عـن طواعية، وجـرى منحه جميع ممتلكات الأسقفية.

كيف دعا نبلاء القارة ملك انكلترا للقدوم إليهم

عـام ١٢٩٩م، فيـه عقـد الملك هنري بلاطه في اكسفـورد، يوم عيـد الميلاد، وفيه كان نبلاء المملكة حضوراً، وإلى ذلك المكان قدم إليه رئيس أسـاقفـة بوردوكس، الذي كـان قـد أرسـل من قبل نبـلاء غـاسكوني، وأكوتين، وبواتو، وقد استقبل بتشريف مناسب من قبل الملك، واحتفل بعيـد الميلاد معـه، وقدم إليـه رسل خاصين أيضـاً من نورماندي، وقـد جاءوا جميعاً لقضاء العمل نفسه معه، وهو لصالح النبلاء المذكورة أسماء مقاطعـاتهم أعلاه، لدعوته للقدوم شخصيـاً إلى مناطقهم، ووعدوه أنهم جميعاً سوف يقـدمون إليه مع الخيول والسـلاح، ولسوف يتبعهم شعب المقاطعـات، ولسوف يقفـون إلى جانبه من دون إحجـام، وبذلك يمكنه استرداد مقـاطعــاته المفقـودة، وكــان هنري لبسـاطتـه لايعــرف كيف يتصرف، ولذلك تشـاورمع المسؤول عن العـدالة، الذي كان مستشـاره الوحيد، والذي نصحـه بتأجيل القضية حتى فرصة مناسبـة أكثر، ولما لم يكن بإمكان الرسل الحصول على أي جواب آخر عادوا إلى الوطن.

كيف كتب منجّمو طليطلة حول مايتعلق بالكواكب

وكتب في العام نفسه منجّمو طليطلة رسائل إلى جميع المسيحيين، كان محتواها كما يلي:

«إلى جميع الأتبـاع المخلصين للمسيح، الذين يمكـن أن تصلهم هذه الرسائل، من المعلم جـون داوود الطليطلي، ومن جميع الآخرين للمكان نفسه، أمـاني الصحة ومـواساة الروح القدس، إنه منذ سنـة مولانا ألف ومائتين وتسع وعشرين، سـوف تكون الشمس في شهر أيلول لمدة سبع سنوات في برج الميزان، وسوف تجتمع وقتها جميع الكواكب مع بعضها،

وسـوف تكون الشمس وقتها في ذيـل التنين، وسوف تكون هذه شـارة على حوادث هائلة ومـرعبة، ولسوف تكون هناك عـواصف ريح خلال زحل والمريخ، وسـوف يرتفع البحـر ويصبح عاليـاً بشكل غير معتـاد، وسيكون هناك تصـادم كبير للـرياح، وكأنها متـواجهـة مع بعضهـا، ولسـوف تحجب وتظلم الدنيا كلهـا، وسيصـدر عنها أصـوات مرعبـة، تسبب خفقـان قلوب الناس وتجعلهـا مضطربـة، وستـدمـر الأبنيـة والأشجار، وسوف ترتفع عدة وديان إلى مستـوى الجبال، وسوف تدمر عدة مدن وتسويها الأرض، خاصة القاهرة، وبغداد، وميتاس Methas وطرابلس، وبشكل رئيسي المدن القـائمـة في مناطق الحصبـاء والمناطق الرمليـة، وأثناء حـدوث هذه الأشيـاء سـوف يكون هناك كسـوف للشمس، ولسوف يكون لون الشمس من الساعة الثالثة من النهار حتى منتصف اليـوم أحمر نارياً، مما يشير إلى سفك كبير للدماء، ولسـوف يتبع هذا خسوف للقمر، له ألوان متمازجة، مما يشير إلى اضطراب بين الأمم، وسيكون بعـد هـذا معـارك ومـذابح في الشرق وفي الغـرب، وستكون هناك هزات أرضية وزلازل في جميع أنحاء الدنيا، وسيكون هناك موتان كبير وخلاف في الأمم والممالك، وبين واحـدة وأخرى، وسـوف يموت امبراطور كبير، وبعـد هـذه العـواصف سيبقى قليل مـن الناس أحيـاء، وسيتمتع الذين سيبقـون أحيـاء بوفـرة من الخيرات والثـروة، وسيثـور خـلاف بين المسلمين، وسيتركـون مساجـدهم وسيلتحقـون بالمسيحيين ويتحـدون معهم، وبناء عليـه عندمـا اكتشفنا نحن بشكل عـام هذه الحقـائق مع جميع القضـاة وأصحـابنا من المنجمين في طليطلة، رأينا من الموائم كشفهـا إليكم، ونفـرض عليكم في سبيـل التخلص من ذنوبكم، ومن أجل خـلاص أنفسكم، أن تقـومـوا بنشرهم إلى أناس ليسـوا على دراية بهم، وأن تعدّوا أماكن سليمة لأنفسكـم للبقاء فيها، مادامت هذه الرياح مستمرة، فهي سوف تهب في شهر أيلول، ووقته سوف يكون من الصعب أن تجدوا على الأرض أمـاكن آمنة للسكنى، ولذلـك أعـدّوا

كهوفاً قائمة على سهول محاطة بجبال، وليست مغطاة بالرمال أو الحصى، وعليكم تغطية الكهوف بالألواح، ووضع تراب عليها، ولاتتركوا أشجاراً قريبة منهم، حتى لاتنغلق أبواب الكهوف بهم، وضعوا في هذه الكهوف أطعمة لأنفسكم كافية لمدة أربعين يوماً، واعلموا أيضاً أنه حول هذا الأمر جميع الفلاسفة والمنجمين في اسبانيا، واليونان، والعربية، وأرمينيا، والعبرانيين، لديهم الموقف نفسه والرأي مثلنا نحن أنفسنا، وسمعنا أيضاً أن ملك Manichin يقوم ببناء برج من مواد فخمة، ويساعده في عمارته جميع الجيران، وسوف يكون البرج من الاتساع مثل جبل، وقد أعلمنا أيضاً ملك صقلية بالمخاطر التي بدت لنا قريبة الحلول، وبناء عليه لم يبق من شيء أمام المسيحيين في الأزمة الحالية، سوى أن يسعوا جميعاً لإعداد أنفسهم من أجل توبة مثمرة، بوساطة اعتراف خالص ومتواضع، وبتكفير موائم، من أجل أنه عندما يأتي العريس، لايقابلونه بمصابيح فارغة، مثل العذراوات الحمقى اللواتي ليس لديهن زيت، واللائي —لاسمح الرب— سيجدون الباب مغلقاً في وجوههن، بل أن يكن مثل العذراوات العاقلات، مع مصابيحهن المليئة، واللائي يمكن أن يسمح لهن بالدخول مع العريس إلى احتفال العرس»، ونحن نعتقد واثقين أننا سوف نرى خلال السنوات السبع المقبلات أشياء من هذا القبيل سوف تقع، وهي سوف تقع حقيقة أو بما يشبه ذلك، ومن الممكن أن نجد بعض مايتكيف مع رسائل المنجمين هذه، لكن هذا سوف يأتي فيما بعد.

كيف عمل البابا غريغوري حرباً ضدّ فردريك الامبراطور الروماني

كان في هذه الآونة البابا غريغوري غاضباً، لأن الامبراطور الروماني فردريك قد ذهب إلى الأرض المقدسة، وهو رجل محروم كنسياً ومتمرد، وصار يائساً بشكل مطلق من توبته، والقيام بعمل ترضية يعيد بها

الوحدة إلى الكنيسة، وبناء عليه قرر —بعدما رأى عصيانه وتمرده— أن يطرده من مقامه الامبراطوري، وأن يعين واحداً آخر مكانه يكون ابناً للسلام ومطيعاً، وبما أن معلوماتنا حول هذه القضية، يمكن أن تصلنا بوسائط الآخرين، سوف نقدم هنا رسالة، من واحد اسمه الكونت توماس، كان الامبراطور قد عيّنه لدى مغادرته، ليكون بالتعاون مع آخرين وصياً ونائباً على الامبراطورية، وقد أرسلت رسالة هذا النبيل إلى الامبراطور حول هذه القضية، وقد حصلنا عليها من واحد من الحجاج:

«إلى فردريك السامي والقدير، الذي هو بنعمة الرب أغسطس وامبراطور الرومان، والملك الأعظم قوة لصقلية، من توماس كونت أوف أتيري Atterae تابعه المخلص والمطيع في جميع المجالات، تمنيات الصحة والنصر على أعدائه، بعد مغادرة جلالتكم، حشد غريغوري، الحبر الروماني، والعدو المكشوف لمعاليكم، جيشاً كبيراً، بوساطة جون دي بريين، الملك الماضي للقدس، وبعض الرجال الجريئين الآخرين، الذين عيّنهم مقدمين على حملته، وغزا أراضيكم، وأراضي رعاياكم، دونما تقدير للشريعة المسيحية، وقد قرر اخضاعكم بسيف الفولاذ، ذلك أن جون المذكور قد جمع جيشاً كبيراً من مملكة فرنسا، ومن البلدان الأخرى المجاورة، على أمل الحصول على الامبراطورية، إذا ماتمكن من التغلب عليكم، وقد زود عساكره بعطاء من خزانة الكرسي الرسولي، ثم قام جون المذكور مع المقدمين الآخرين، بغزو أراضيكم وأراضي رعاياكم، وقد ألقى النيران في الأبنية والبلدات، واستولى على المواشي وعلى غنائم أخرى، وجعل السكان أسرى لديه، بعدما عذبهم بمختلف الطرق، وقد أرغمهم على دفع غرامات ثقيلة، وهم لم يوفروا لاعمراً ولاجنساً، ولم يظهروا رحمة إلى أي انسان خارج الكنائس أو المقابر، وهم يستولون الآن على البلدات وعلى القلاع، دون المبالاة

بحقيقـة أنك الآن في خدمـة يسوع المسيح، وإذا مـاأشار أي انسـان إلى الامبراطور، فإن جـون بريين هذا يعلـن أنه لايوجـد امبراطور آخـر إلى جـانبه نفسـه، وأصـدقـاؤك أيها الامبراطور، الأكثر قدرة، قـد اعترتهم الدهشـة تجاه هذه الأشياء، ولاسيما رجـال الدين، وهم يتسـاءلون، بأي نصيحة وبأي شعـور يمكن للحبر الروماني أن يفعل مثـل هذه الأشياء، ويشن حرباً ضـد المسيحيين، وخاصة أن الرب قد قـال لبطرس، عندما كان على وشك أن يضرب رجلاً بسيفه الفولاذي:

«ضع سيفك في غمده، لأن كل واحد يضرب بالسيف، سوف يهلك بالسيف»، ومثل هذا هـم أيضاً يتساءلون بأي حق يمكن للذي يقوم كل يوم بحـرمان اللصـوص كنسيـاً، والمحرقين، للمسيحيين والمعـذبين لهم، والذي يطردهم من حظيرة الكنيسة، يمكنه أن يفـوض، ويعطي موافقته على مثل هذه الإجـراءات، وبناء عليـه، ألتمـس منك أيها الامبراطور الأعظم قـدرة، أن تتخذ مـايلزم من إجراءات من أجل سـلامتك، وأن تحفظ كرامتك حتى لاتتـدنس بالمسائل المتقدم ذكرها، لأن عـدوك جون دي بريين المتقـدم ذكـره، قـد شحن جميع الموانىء الموجـودة على هذا الجانب من الماء، بعـدد كبير من الجواسيس المسلحين، مـن أجل أنه إذا ماحدث وعدت من حجّك، يقوموا باعتقالك، لاسمح الرب بذلك.

وفي العام نفسه، لدى اقتراب حلول أربعاء الـرماد، التي كانت اليوم الذي جـرى تحديده من أجـل رئيس الأسـاقفـة المنتخـب لكانتربري، ولرسل الملك، لسماع القـرار الحاسم للبـابا، حـول الذي ينبغي عمله بمـوجب الحق حول قضيـة الانتخـاب، وعمل الرسل المتقدم ذكـرهم، ولاسيما المعلم جـون دي هوتون Houton مـرافعات متـواليـة إلى البابا والكرادلة، لكنه وجد أنه من الصعب اقناعهم، فقـد كانوا خائفين جـداً من أن ينخدعـوا في توقعـاتهم، وبناء عليه عقـدوا اجتماعاً بغيضـاً حـول القضـايا المذكورة أعـلاه، وأخيراً وعـد ملك انكلترا البـابا بعشر

جميع الممتلكات المتحـركـة في جميع انكلترا وايرلاندا، وأن يسـاند حـربه ضد الامبراطور، على شرط أن يقف إلى جـانب رغبات الملك وخططه، وكان البابا راغباً فوق كل شيء باذلال الامبراطور المتمرد، ولذلك فرح كثيراً تجاه هذه الوعـود، واقتنع بالموافقة على شروطهـا، وبناء عليه أخـذ مقعده في المحكمة اللاهوتية، وأصدر قراره كما يلي:

إلغاء انتخاب وولتر الراهب لرئاسة أساقفة كانتربري

«علمنا مؤخراً بالانتخاب الذي جرى في كنيسة كانتربري، لواحد من الرهبان اسمه وولتر، وقد علمنا بعد ذلك بأن الراهب المذكور قد ترافع عن نفســه ولصـالحهــا من أجل انتخـــابه، كما سمعنا بالاعتراضـــات والاستثناءات التي عملت من قبل أساقفة انكلترا، ضد انتخابه المذكور، وضـد سمات المنتخب، الـذي مثل أمـامنا بوسـاطـة أسقفي كـوفنتري، ورروكستر، مع ابننا المحبوب كثيراً رئيس شمامسـة بدفورد، ولقـد عهدنا إلى إخـواننا المبجلين: اللـورد أسقف ألبـانو، والمعلم تومــاس دي ستـا سـابينا Sta sabina والمعلم ب .P كـاردينالنا، أن يقـومـوا بفحص لإمكانيـات رئيس الأسـاقفــة المذكـور، وعندمـا مثل المنتخب المذكور أمـامهم، وسئل عن نزول ربنا إلى الجحيم، أكان نـزوله بالجسد، أو أنه كان محرراً منه، أجاب بشكل غير مـرض، وأيضاً عندما سئل عن تكريس جســد المسيح عند المذبح، جــاء جـوابه غير صحيح، ومجدداً عندمـا سئـل عن راحيل، كيف بكت من أجل أولادهـا، أجـاب بشكل غير صحيح بأن ذلك «عنـدمـا مـاتـت أولاً»، وعندمـا سئل عـن قـرار الحرمان الكنسي إذا مـا جرى التفوه به مضاداً للشريعـة، فأجاب بشكل غير صحيح، وعندمــا سئـل عن زواج، إذا مـــات واحــد من الطرفين المتعـاقدين غير مـؤمن، فأعطى جواباً غير صحيح، وقـد جرى فحصـه حـول جميع هذه النقـاط بكل دقـة من قبل الكرادلة، ونحن نقـول إنه لم يجب فقط بـلا مبــالاة، ولكن بشكـل غير صحيح، وبما أن كنيســـة

كـانتربري هي كنيسـة جليلة، يلزمهـا رئيس أسـاقفـة جليل، وأن يكون انساناً مستقيماً ومتـواضعاً، وأن يكون واحداً مأخوذاً من صـدر الكنيسة الرومـانيـة، إنه بالنسبـة لهذا المنتخب الآن نحن نعلن أننا لانراه جـديراً بالمنصب، لابل أكثـر من هذا إذا مـاأردنا أن نتماشى مع العـدالة بدقـة، علينا أن نرغم على قول شيء أكثـر: إنه غير موائم تماماً لترقيته إلى مثل هذا المقـام العالي، ولـذلك نحن نلغي الانتخاب كليـاً، وهو الانتخـاب الذي عمل بـالنسبـة له، ونحتفـظ لأنفسنا بتـزويـد الكنيسـة المذكــورة [برئيس أساقفة]».

ترقية رتشارد إلى رئاسة أساقفة كانتربري

أما وقد جرى الآن إلغاء الانتخـاب المذكور أعلاه على هذه الصورة، قـام وكلاء ملك انكلترا مـع الأساقفـة المسـاعدين لكنيسـة كـانتربري، بحضـور البـابا، بابراز رسـائل معتمدة مـن الملك ومن الأساقفـة، فيهـا قدمـوا اقتراحاً لصالح المعلم رتشارد، مستشـار كنيسة لنكولن، وأعلنوا أنه انسان صـاحب حكمة عـالية، وثقافـة ممتازة، وأحـاديث طيبة، وأنه سـوف يكون مفيداً جـداً لصـالح كنيسـة روما، وكـذلك لصـالح ملك ومملكة انكلترا، وهكذا بعـدمـا أضفـوا جميع أنواع المديح على شخصـه، أقنعوا البـابا والكرادلة بالموافقـة على انتخابه، وبناء عليـه بما أن رتشارد المتقدم الذكر لم يجر انتخابه، بل أعطي لتولي رئاسة الأساقفة، قام قداسة البابا بإرسال رسائل إلى الأساقفـة المساعدين في كانتربري جاء نصها كما يلي:

«من غـريغـوري، أسقف، الخ، الخ، إنـه بمـوجب رعـايتنا بالمنصب الأسقفي الـذي عهـــد به إلينا، ومنـح إلينا من قبـل الرب —مـع أننا لانستحق ذلك— وبموجب وفـرة سلطاتنا الرسوليـة، وبسبب المشاكل الطارئـة التي تقوم يـومياً، نحن مـرغمـون على العناية بجميع الكنائس وبإدارتها جميعـاً، وعندمـا تقـوم الحاجـة، أن نزودها ونؤمن لها مـايلزم

صدوراً عن العدالة واللطف، وبالرعاية الأبوية، وإنه بين جميع الكنائس المقـدرة والكراسي المطرانيـة، نفتح أعين تقديرنا على كنيسـة كـانتربري، ونهتم بحـاجيـاتها، على أسـاس أنها العضو الأكثـر إجـلالاً بين أعضـاء الكرسي الرسـولي، وبحكم كـونها أم الكنائس، فإن الكـرسي الرسـولي ينبغي أن ينظر إليهـا بتقـدير أعظم وبمـزيد مـن الحظوة، وذلك مثلما سكبت الرحمة الربانيـة فـائضـاً من النعمـة، على الاهتمامـات الدنيـوية والروحيـة لذلك الكرسي، وبالنسبـة لهذه الكنيسـة قـام الأعظم سمـواً، لدى توزيعه للأشيـاء بزرعها مثل فردوس النعيم، وجنة الطيبـات، فيها أخرج شجرة معـرفة الأشياء الخيّـرة والشريرة، وذلك في إقـامته للمقام المطراني، وشجرة الحيـاة في الطائفة المنظمة للرهبان، وفي نظام مـراعاتهم لعقائـدهم، وهي شجرة حملـت ثمارها بأشخاص الأسـاقفة المساعـدين، الذين يعطون بأعمالهم الصـالحة بهجة للناظر، ويقـدمون بعقـائد الإيمان طعماً طيباً، وينعشون بالمواقف الطيبة الرائحة، ونبع من المكان نفسه نهر، تميز بدم توماس الشهيـد الرائع، وهو الذي انقسم أثناء جريانه إلى أربعة فـروع رئيسـة، حيث أنها تعيـد الحيـاة إلى الميت، والصحـة للمـريض، والحرية للعبـد، والشجـاعـة إلى الخانع، وعندمـا بحثنـا في تأمل دقيق معجزاته السـامية، وجدنا البهجـة غير العادية والنادرة للزرع اللاهوتي، وبما أن الوصي على هذا الفـردوس، ستيفن صـاحب الذكـرى الطيبـة، الذي كـان مؤخـراً رئيس أساقفـة كـانتربري، وكاردينالاً لدى الكنيسـة الرومانية، وكان رجلاً متميـزاً تماماً بمواهب العلم، مع النعمة السماوية، بما أنه أخذ من مشغل الجسـد، ونقل —كما نأمل— إلى المتعة والهدوء في الفـردوس السماوي، قـام أولادنـا المحبـوبين في التجمع الـديري في كانتربري بإعلامنا بانتخـاب عملوه لواحد اسمه وولتر، وهو راهب من رهبـان كـانتربري، وبعـدمـا بحثنا —بنـاء عليـه— في فضـائل ذلك الانتخاب، وعملنا فحصـاً لمعارف ذلك الشخص، قمنا بنـاء على تقدير صحيح للعـدل، بإلغـاء ذلك الانتخـاب، ورأينا من الموائم أن نضع في

ذلك الفردوس، لإدارته وحراسته، المعلم رتشارد مستشار لنكولن، وهو رجل صاحب كرامة، وواحد منفرد بحياته ومعارفه، وفهمه، وتكوينه، قد عمل وفق مثال الرب وشبيهاً له، وواحد متميز بصحة عقيدته، امتلك نفس الحياة، وذلك بناء على بينات إخواننا الذين عرفوه، أثناء متابعته لدراسته، واكتشفنا مما بيّنه إخواننا: أسقفا روكستر وكوفنتري، وعدد كبير آخر، أنه رجل صاحب تعليم متميز، وحديث طيب، وشهرة بدون شوائب، وحفاظ جيد، ومحافظ غيور على أرواح وامتيازات الكنيسة، ولقد قمنا بناء على نصيحة إخواننا، وبحضور الأسقفين المتقدم ذكرهما أعلاه، بتعيين رتشارد المذكور، رئيساً لأساقفة كانتربري ومديراً، وبناء عليه إننا في هذه الرسائل الرسولية نحذر ونحث اخوتكم، بحكم كونكم أبناء النعمة والتقوى، أن تستقبلوه، وتصغون إليه، في سبيل تشريف الرب، والكرسي الرسولي، وكنيسة كانتربري، وأن يكون ذلك بتواضع، وتقوى مخلصة، وأطيعوه بتواضع واخلاص بمثابة كونه أبيكم، ومدبر أرواحكم، ولأنه أسقفكم المطراني، ويتوجب عليكم بالحقيقة الابتهاج بالرب، لأنه بالتعاون مع نعمته التي وقت جهودنا وأعانتها، وهو تزويد محمود قد عمل لصالح تلك الكنيسة المترملة. صدر، الخ».

كيف أعيدت الأرض المقدسة إلى الامبراطور فردريك

وزار في العام نفسه ربنا يسوع المسيح، منقذ العالم ومواسيه، شعبه برحمته، وفي استجابة لصلوات الكنيسة العالمية، أعاد للشعب المسيحي بشكل عام، وإلى الامبراطور الروماني فردريك بشكل خاص، مدينة القدس، وجميع البلاد التي كرسها الرب مخلصنا، وابن الرب، بدمه، وهكذا كانت الارادة الطيبة لربنا نحو شعبه، الذي أعلى من شأن الرحمة ورفعها إلى الحياة السرمدية، ولعمله انتقاماً على الشعوب، ولاحداثه تمزقاً بين قبائل المسلمين، لأن سلطان مصر، كان في ذلك الوقت، يعيش

وسط لجّة من الحروب الداخلية الشديدة التي قامت ضده من جميع الاتجاهات، ولأنه لم يعد بإمكانه الصمود أمام حروب أخرى، كان مـــــرغماً على عمل هدنة لمدة عشر سنوات مع الامبراطور، وأعطى الأرض المقدسة إلى الصليبيين من دون سفك للدماء، وهكذا أمكن بحرب جيدة أرسلت من قبل الرب، خرق سلام سيء، وإذا ما أردنا فهم هذا اللطف للرحمة اللاهوتية، واظهاره بشكل أوضح للقارىء، علينا قراءة الرسالة التالية، التي هي إحدى رسائل الامبراطور الروماني، وكان قد أرسلها، مختومة بالذهب، إلى هنري ملك انكلترا.

رسالة الامبراطور إلى الملك الانكليزي حول القضية المذكورة أعلاه

«من فردريك، الذي هو بنعمة الرب، أغسطس امبراطور الرومان، وملك القدس، وصقلية، إلى صديقه المحبوب كثيراً، الملك هنري، ملك الانكليز، تمنيات الصحة، والعواطف المخلصة، ليفرح الجميع ويبتهجوا بالرب، وليقم الذين هم مستقيمون في القلب بتمجيده، الذي لكي يجعل قدرته معروفة، لم يتفاخر بالخيول والعربات، بل حصل الآن على مجد لنفسه بندرة في جنوده، حتى يعرف ويفهم أنه عظيم بجلالته، مرعب في عظمته، ورائع بخططه نحو أبناء الناس، يغير المواسم بإرادته، ويجمع قلوب الشعوب المختلفة مع بعضها، لأنه خلال أيام، وصل ذلك العمل الى نهاية، بوساطة معجزة، وليس بوساطة قوة، وهو عمل لم يستطع عدد كبير من الزعماء وحكّام العالم، وسط حشود من الأمم، إنجازه في الزمن الطويل الماضي حتى الآن بالقوة، مهما كانت كبيرة، ولابالرعب، ولكي لانبقيك معلقاً لوقت طويل بوساطة رواية طويلة، نحن نرغب في إعلام قداستكم، بأننا نضع ثقتنا بأن يسوع المسيح، هو ابنه، الذي بخدمته نحن معرضون أجسادنا بتقوى عظيمة جداً، وكذلك حياتنا، وهو لن يتخلى عنا في هذه البلدان النائية وغير المعروفة، وهو

سيقدم إلينـا على الأقل نصيحة صحيحة، ومسـاعدة من أجـل تشريفه، وحمده، ومجده، فبجرأة انطلقنا باسمه من عكا في اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الثـاني، وعبرنا أخيراً، ووصلنا سالمين إلى يافـا، عازمين على إعـادة بناء القلعة في ذلك المكان بحصـانة مناسبة، حتى يكون فيما بعـد الوصـول إلى مدينة القـدس المقـدسة ليس فقط أسهل، بل أيضـاً أسلم، وأكثـر أماناً بـالنسبة لنا ولجميع الصليبيين، وبعـدمـا صرنا هناك واثقين تماماً باعتمادنـا على الرب، انشغلنا في يافا، وانصرفنا نحـو الاشراف نحو بناء القلعـة، والاهتمام بقضية المسيح، حسبما تتطلب الضرورات، ووفقـاً لما تقتضيه واجباتنا، وفي أثناء انشغال حجاجنا بهذه المسائل، تكرر تبادل الرسل بيننا وبين سلطان مصر، لأنه كان مع السلطان سلطان آخر اسمه الأشرف Xaphat وهو أخوه، وكانا معـاً مع جيش كبير عند غزة، على مسافة سفر يوم واحد عنا، في اتجاه آخر لمدينة شكيم، التي تعرف بشكل عام باسم نابلس، وهي قائمة في سهل، وكان ابن أخوه، سلطان دمشق، مقيماً مع عدد كبير من الفرسان، والجنود على مسافة سفر يوم واحد عنا وعن الصليبيين، وأثناء سير المفـاوضـات من أجل عقـد معـاهدة بين الطرفين على كلا الجانبين، من أجل استرداد الأرض المقدسة، تجلى أخيراً يسـوع المسيـح ابن الرب من الأعلى على صبرنـا التقـوي، ومثـابرتنا الخاشعـة في سبيل قضيته، وفي عطفـه الرحيم علينا، جعل سلطان مصر يعيـد إلينا المدينة المقدسـة، وهي المكان الذي سـار فيـه المسيح بقدميـه، وحيث عبـد المؤمنون الصـادقـون الأب بـالروح وبالحقيقـة، وفي سبيل إخبـاركم عن كل واقعـة من وقـائع هذا التسليم كما حـدثت، ليكن معلومـاً من قبلكـم أنه ليست المدينة المتقـدم ذكـرها وحـدها هي التي سلمت إلينا، بل المنطقة كلهـا الممتدة من هناك إلى ساحل البحـر، قرب قلعـة يافـا، وذلك في سبيل أن يمتلـك حجـاج المستقبل ممراً حـراً وآمناً للذهاب إلى الضريح المقـدس والعـودة منه، على شرط أن مسلمي ذلك الجزء من البلاد —بما أنهم يقدرون الأقصى تقديراً عظيماً— يمكنهم أن

يأتوا إلى هناك ويترددوا عليه بقدر ما يختارون، على شكل زوار للتعبّد هناك، وفقاً لعاداتهم، هذا ولسوف نسمح إليهم بالقدوم من الآن فصاعداً بالعدد الذي نأذن به، من دون سلاح، كما أنهم لايمكنهم الإقامة بالمدينة، بل خارجها، وأن يغادروا فور تأديتهم لعباداتهم، وعلاوة على هذا أعيدت مدينة بيت لحم إلينا مع جميع المنطقة القائمة بين القدس وبين تلك المدينة، وكذلك مدينة الناصرة، والمنطقة كلها القائمة بين عكا وتلك المدينة، وجميع منطقة تورون، التي هي واسعة جداً، ومفيدة جداً للصليبيين، وأعطيت مدينة صيدا إلينا أيضاً مع جميع السهل وأحوازها، وسوف تكون أكثر قبولاً للصليبيين وأكثر منفعة، مثلما كانت حتى الآن بالنسبة للمسلمين، وخاصة أنه يوجد ميناء جيد هناك، ومن هناك من الممكن نقل كميات كبيرة من الأسلحة والحاجيات إلى مدينة دمشق، وفي الغالب من دمشق إلى القاهرة، ومع أنه مسموح لنا بموجب المعاهدة بإعادة بناء مدينة القدس، وأن نجعلها في أحسن حالة كانت عليها قط، وكذلك قلاع: يافا، وقيسارية، وصيدا، وقلعة القديسة مريم التابعة لطائفة التيوتون، والتي بدأ رهبان هذه الطائفة بعمارتها في المنطقة الجبلية لعكا، والتي لم يسمح للصليبيين قط بفعله أثناء أية هدنة سالفة، إنه مع ذلك، غير مسموح للسلطان، حتى نهاية الهدنة بينه وبيننا، والتي مدتها المتفق عليها عشر سنوات، بترميم أو إعادة بناء أياً من حصونه أو قلاعه، وهذا كان في يوم الأحد الثامن عشر من شباط الذي مضى مؤخراً، الذي هو اليوم الذي قام فيه المسيح ابن الرب من الموت، والذي هو بناء على قيامته يرعاه المسيحيون بوقار، ويحتفلون به ويعدونه مقدساً بشكل عام في جميع أرجاء العالم، وتأكدت هذه المعاهدة بتبادل الأيمان بيننا، وحقاً أشع هذا اليوم، على الجميع بشكل مفيد، وهو اليوم الذي فيه تغني الملائكة بحمد الرب:

«المجد للرب في الأعالي وعلى الأرض السلام، وحسن الارادة نحو

الناس»، وفي اعترافنا بمثل هذا اللطف العظيم، وهذا التشريف الجليل، الذي جاء فوق رغباتنا،وعلى عكس آراء كثيرين، والذي أضفاه الرب برحمته علينا، من أجل رحمته الدائمة المشهورة، ومن أجل أن نتمكن شخصياً أن نقدم إليه قرابين شفاهنا الملتهبة، ليكن معلوماً أننا في اليوم السابع عشر من شهر آذار من هذه الخمس عشرية الثانية، قمنا نحن برفقة جميع الحجاج الذين تبعوا معنا باخلاص المسيح ابن الرب، بالدخول إلى مدينة القدس المقدسة، وبعدما تعبدنا الضريح المقدس، جرى في اليوم التالي تتويجنا بحكم كوننا الامبراطور الكاثوليكي، وهو أمر منحنا إياه الرب القدير من عرش جلالته، عندما رقانا بنعمته الخاصة وجعلنا الأعلى بين أمراء العالم، وهكذا إنه أثناء دعمنا لشرف هذا المقام العالي، الذي عائد إلينا بموجب حق السيادة، بات واضحاً أكثر فأكثر إلى الجميع بأن يد الرب قد صنعت هذا كله، وبما أن رحمته فوق جميع أعماله، يتوجب على المؤمنين بالعقيدة السليمة، أن يعرفوا منذ الآن، وأن ينشروا في الطول والعرض في جميع أرجاء الدنيا، بأنه الذي هو المبارك دوماً قد زار شعبه وخلصه، وأنه رفع عالياً صوت الخلاص في بيت عبده داوود، وقبل أن نغادر مدينة القدس، قررنا بفخامة أن نعيد بناء أبراجها وأسوارها، ونوينا أيضاً أن نرتب الأمور بحيث تسير خلال غيابنا ليس بعناية أو رعاية أقل، أثناء سير الأمور كما لو كنا حاضرين شخصياً، ومن أجل أن تكون رسالتنا الحالية مبعث سرور كامل في جميع الأنحاء، وأن تكون نهايتها سعيدة مثل بدايتها، ولكي تبتهجوا بعقلكم الملكي، نرغب بأن يكون معلوماً لديكم، وأنتم حلفاء لنا، أن السلطان قد تعهد أن يعيد إلينا جميع الأسرى، الذين —بموجب المعاهدة المبرمة بينه وبين الصليبيين— لم يطلق سراحهم عند فقدان دمياط منذ بعض الوقت، وأيضاً الأسرى الآخرين الذين وقعوا بالأسر بعد ذلك. صدر في مدينة القدس المقدسة، في اليوم السابع عشر من شهر آذار، من عام تجسيد ربنا، ألف ومائتين وتسعة وعشرين».

العلامات التي تقدمت على استرداد الأرض المقدسة

يتوجب أن نلاحظ أنه فيما يتعلق بهذه الإعادة لأرض المعياد والقدس إلى الصليبيين، أن منجمي طليطلة قد كتبوا، قبل حدوث هذا الفرح العام والسرور بين الصليبيين، عن التقاء الكواكب، وعن عواصف مرعبة من الريح، وأن العواصف سوف تتصادم، وأنه سيكون في الوقت نفسه زلزال، وكسوف للشمس وخسوف أيضاً للقمر، وهذا ماتقدم ذكره في سياق أحداث هذا العام، وبالطريقة نفسها حدث أخذ الأرض المقدسة وصليب ربنا، من قبل صلاح الدين الرجل العنيف والشديد، فقد كتب آنذاك أيضاً بعض المنجمين، الذين كانوا يعيشون وقتها في المدينة نفسها، إلى البابا كليمنت كما يلي:

«إنه من العام الحالي، الذي هو عام ألف ومائة وتسعة وسبعين لتجسيد ربنا، حتى مضي سبعة أعوام، وفي شهر أيلول، سوف تكون الشمس في برج الميزان، وذيل التنين، وسوف إذا أذن الرب يكون اجتماع للكواكب في برج الميزان وذيل التنين، وهذه شارة لها أهميتها حول حوادث ثابتة، وسوف يلي ذلك زلزال مخيف، ولسوف تتدمر أماكن الدمار المعتادة، ويلحقها الخراب من قبل زحل والمريخ، الخ، ولسوف ينتج اتحاد الكواكب هذا، ريحاً قوية، سوف تجعل الهواء كثيفاً ومظلماً، ومشبعاً بالسم، وسيكون صوت هذه الريح مخيفاً، ترتجف منه قلوب الناس، وسوف تثور الرمال من المناطق الرملية، ولسوف تغمر المدن القائمة على مقربة منها في السهول، وسيطال ذلك في المقام الأول المدينتين الشرقيتين: مكة، والقاهرة، وجميع المدن الواقعة قرب أماكن رملية، ومامن أحد سوف ينجو من غمره بالرمال والتراب، هذا ولسوف تتقدم على هذه الحوادث علامات دالة عليها، وسوف يكون بالعام نفسه قبل اجتماع الكواكب في الميزان، كسوف كامل للشمس، وفي الصراع المتقدم سيكون هناك خسوف كامل للقمر، وسوف يكون

كسـوف الشمس نارياً، ولوناً غير مـرئي، مما يشير أنـه ستكون هناك حـرب بين الزعماء قرب نهر في الشرق، ومثل ذلـك في البلدان الغربيـة، وسوف يـدب الشك بين اليهود وبين المسلمين، إلى حد يصلـون فيه إلى التخلي عن كنسهم وعن مسـاجدهم، وسوف تتعـرض طائفتهم —بناء على أوامـر الرب— إلى الدمار الكلي، والمحق التـام، وبناء عليه، عندمـا سترى كسوفاً، اعلم أن عليك مغادرة تلك البلاد مع جميع أتباعك».

كيف أنه للذنوب إنسان ضاعت الأرض المقدسة

وكـان في ذلك الـوقت كثيراً من الشرور بين الناس على الأرض، إلى حـد أن «جميع الأجساد قـد أفسـدت طريقهـا أمام الرب»، لأن ممارسـة الذنب قـد تفجر بين الناس وانتشر، إلى حـد أن الجميع قد ألقـوا جانبـاً حجـاب الخجل، وكان الميل في كل مكان إلى الشرور بشكل مكشـوف، وسـوف يكون متعبـاً جـداً تعـداد جـرائم: القتـل، والسلب، والزنا، والفحش، والكذب، والخيانة، وجـرائم أخرى، خاصـة بالنسبة لنا نحن الذين ننوي أن نكتب عن الأحداث التي وقعت، وعلى كل حـال بعدما تمكن العدو القديم للانسان من نشر روح الفساد في الطول والعرض في العـالم، غزا سـورية بشكل خـاص، وهي المكان التي منهـا تلقت الأمم الأخـرى دينهـا في المقـام الأول، ثم إنها أخـذت مـن ذلك المكان المثل لجميع الدناسـات، ولهذا السبب —بناء عليـه— عندمـا شـاهد الرب مخلص العالم، بأن أرض ميـلاده، وآلامه، وقيامتـه، قد سقطت في أعماق الشرور، رفض ميراثه وازدراه، وسمح لعصـا غضبه، الذي هو صـلاح الدين، بصب جـام غضبـه، لمحق ذلك الجنس العنيـد، لأنه فضّل أن يجري استعبـاد تلك الأرض المقدسـة من قبل الطقوس المدنسـة للأمم، على أن يستمـر أولئك الناس بالازدهار أية مدة أطول، لأنهم كـانوا غير متمنعين عن اقتراف أي عمل غير شرعـي، بوسـاطة أي تقـدير لما هو صحيح، وأنذرت حـوادث متنوعـة باقتراب الدمـار الذي كـان سيقع،

وتجلى ذلك بمجاعة كبيرة، وبزلازل متوالية، وبكسوفات للشمس وخسوفات للقمر، أما بالنسبة لعاصفة الرياح، التي قال بوقوعها منجمو طليطلة من خلال مراقبة النجوم، وأنها سوف تأتي من اجتماع الكواكب، وأنها سوف تترافق مع موتان، وأجواء فاسدة، قد تغيرت بدون شك لتدلل على الحادثة التالية، لأنه كان في الربيع رياح قوية، هزت الأركان الأربعة للعالم، وهذه أنذرت بأن مختلف شعوب الدنيا، سوف تثور لإنشاب القتال، ولتدمير الأرض المقدسة، وقد بقيت مدينة القدس المقدسة مع جميع أرض الميعاد، وكذلك الصليب المانح للحياة، والعائد إلى ربنا، في أيدي أعداء المسيح لمدة اثنين وأربعين عاماً، حتى العام الحالي، وهو عام ألف ومائتين وتسعة وعشرين لتجسيد ربنا، عندما حان أخيراً الوقت لمولانا في رحمته، ليصغي إلى صلوات عبيده المتواضعين، وليعيد بناء صهيون، وليظهر بمجده في مكان ولادته المقدسة، وآلامه، وقيامته، وليستمع إلى نحيب شعبه المستعبد، وليحرر أبناء المدمرين، حقاً، وإنه لما لاشك فيه أن الرب سمع أنين شعبه المستعبد أثناء استعادة الأرض المقدسة، الأمر الذي تحقق في ذلك الوقت من خلال سهر الامبراطور فردريك، بالتعاون مع الرحمة اللاهوتية، ومثل هذا حدث إلى جميع الأسرى الذين كانوا تحت سلطة الكفار، وكانوا خاضعين إلى أسوأ أنواع العبودية، فقد تحرروا من نير العبودية، وقدموا إلى مدينة القدس المقدسة، حيث أظهروا أنفسهم إلى كثيرين، وبعدما فرغوا من عباداتهم في الأماكن المقدسة الموجودة في المدينة المقدسة، عادوا إلى بلدانهم في مختلف أنحاء العالم، يحمدون الرب، ويباركونه في جميع الأشياء، لأنهم سمعوا وشاهدوا الأعمال الرائعة التي عملها الرب من أجلهم، وأراهم إياها.

مصالحة مدينة القدس المقدسة والأماكن الأخرى

وكما سلف وقلنا، دخل الجيش الصليبي إلى مدينة القدس المقدسة،

وقـام البطريرك مع الأساقفـة المسـاعدين بتطهير هيكل الرب، وكنيسـة ضريحه المقـدس وقيـامته، وجميع الكنائـس الأخرى المقـدسـة في المدينة، وغسلوا البـلاط والجدران بالماء المقــدس، وعملوا مسيرات مع الترانيم والمزامير، وصـالحوا لأجل الرب جميع أماكنـه، التي تلوثت لزمن طويل بدنس الكفـار، لكن بحكم أن الامبراطور كان محرومـاً كنسياً، لم يتجـرأ رجل دين، طوال إقامتـه في داخل المدينة، على إقامة قداس فيهـا، وقام، على كل حال واحـد اسمه المعلم وولتر، وكان متـديناً، وحكيماً، ورجلاً مستقيماً، ومن أتباع طائفـة المبشرين، وكان قـد عهد إليه مـن قبل البابا، بواجب وعـظ جيش المسيح، وهو واجب قــام بـه على أحسن مــايرام لوقت طويل، قـام بعمل قـداسـات في كنائس الضـاحيـة، بها أثار كثيراً خشـوع الصليبيين، واستحـوذ بعد هذا جميع الأسـاقفـة من عـاليهم إلى دانيهم، وكــذلـك جميع رجــال الدين على كنائسهـم، وأعيــدت إليهم ممتلكاتهم القـديمة، وفـرحوا كثيراً بسبب هذه الأعطيـات السماوية التي أضفيت عليهم أكثر مما توقعوه، وانطلقوا جميعاً نحو العمل بالتعاون مع بقية الحجـاج، وبذلوا نفقات كبيرة وجهـوداً عظيمة لإعـادة بناء المدينة، ولإحـاطة الأسـوار بخنادق، ولترميم شرافـات الأبراج، ولم ينفـذ عمل هذا في مدينة القدس المقـدسة فقط، وإنما شمل ذلك جميع المدن والقلاع في تلك البلاد، التي سار فوقها يسوع المسيح بقدميه المقدستين، وكرسها بدمه المقدس.

أسباب شكوى البابا ضدّ الامبراطور

ووصل في العام نفسه المعلم ستيفن، الذي كـان قسيس ورسول البابا إلى انكلترا، إلى الملك، ليجمع العشور التي كـان رسل الملك المذكور قد وعدوا بها قداسته من أجل متابعـة حربه ضد الامبراطور الروماني، لأن البابا قد سمع عن جرائم كثيرة مقيتة اقترفت ضد الشريعة المسيحية من قبل الامبراطور المذكـور، وعنهـا قـد أمـر بكتـابـة رواية، وتدبر نشرها

برسـائل أرسلـت من قبل الكرسي الرسـولي، في مختلف أجـزاء العـالم، وكـانت أول التهم التـي صـدرت بحقـه، قيـامـه في يوم بشـارة مـريم المبـاركة، بالدخـول إلى كنيسة الضريح المقـدس في القدس، مع أنه كـان محرومـاً كنسيـاً، ووقف هناك أمـام المذبـح الكبير، فتـوّج نفسـه بيـديه، وبعدما تولى تتويج نفسه، جلس هناك في المقعد البطريركي، وألقى كلمة بالناس لطّف فيهـا شروره، واتهم الكنيسة الرومانيـة بأنها عملت بشكل غير عادل ضـده، ثم إنه خرج من الكنيسـة، يحيط به جمهور من أتبـاعه، ولم يكن معـه أياً من رجـال اللاهوت، وكان مـرتدياً تاجـه، ومضى إلى قصر الاسبتـارية، وقد قيل أيضـاً، أنه أكل في قصره في عكا وشرب مع مسلمين، وقـدم نسـاء راقصات مسيحيـات للرقص أمـامهم، وقـد قيل بأنهم بعـد ذلك تولوا الاتصـال بهن، وأيضـاً مـامن أحـد سـواه عـرف شروط المعاهدة التي أبرمها مع السلطان، وقد ظهر واضحاً —بقدر مايمكن للمـرء أن يحكم من المظاهر الخارجية— بأنه تـوافق مع شريعة المسلمين، أكثر من توافقـه مع شريعة إيماننا، إلى حـد أنه اتبع عاداتهم في عدة نقاط، وورد كذلك في الاتفـاقية المكتوبة بينه وبين السلطان، والتي تدعى باللغة العربية «مصافاه» شرط قضى أنه أثناء الهدنة سوف يساعد السلطان ضـد جميع النـاس من مسيحيين ومسلمين، سـواء، وفي الجهـة المقابلـة سوف يساعـده السلطان بالطريقـة نفسها، وأنه أيضاً انتـزع من كهنة الصليب المقدس في عكا، بعض مـواردهم، التي كانت حقاً لهم في ميناء عكا، وأنه أيضاً نهب رئيـس أساقفة نيقـوسيا في قبرص، كما أنه في معـاداة منه للبطريرك قـام بحماية أحـد الأسـاقفـة السـوريين، بوسـاطة السلطة المدنية، وكان هذا الأسقف قد رسـم من قبل واحد كان محروماً كنسياً، ومنشقاً، كما أنه قام أيضاً بنهب كهنة الضريح المقدس، وحرمهم من منح ذلـك الضريح، وسلب البطريـرك أيضـاً من المنـح التي يجري تقديمها عند الجمجمة والجلجلة، وسلب أيضاً كهنة الهيكل المقدس من منحهم، وقـد جمع كـل هذه المنح بوسـاطـة وكـلائـه، ولهذا السبب

الإجرامي حرمه كنسياً أخوه وولتر مع جميع أتباعه في مدينة القدس، وكذلك أمر في يوم أحد السعف بجر الوعاظ وانزالهم بالقوة من على المنابر، حيث كانوا يعظون، وأهانهم وسجنهم، كما أنه قام في حوالي أيام آلام ربنا بحصار البطريرك، وأسقفي وينكستر واكستير والداوية في بيوتهم، لكن عندما رأى أنه لن يحصل على مايريده غادر مضطرباً، ولهذه الأسباب —مع أنه ليست هناك حاجة لأسباب أخرى— لم يقدر قداسة البابا مطلقاً الذي فعله بالأرض المقدسة، وعمل حرباً ضده، مؤكداً أنها حرب عادلة وضرورية من أجل الإيمان المسيحي، وأن مسبب الاضطراب للكنائس ينبغي خلعه من المقام الامبراطوري، ويظل ماهو أعظم إثماً من جميع هذه الآثام، هو أنه أثار اضطهاداً مخيفاً ضد أمه كنيسة روما، واستولى على ممتلكات قلاعها وأراضيها، والمقتنيات العائدة إليها، وهو حتى الآن محتفظاً بهم، بمثابة عدو معلن.

العشور التي جمعت في انكلترا من أجل البابا غريغوري

وفي حوالي هذا الوقت، تولى المعلم ستيفن قسيس البابا ورسوله شرح أعمال البابا، وبيّن سبب قدومه إلى انكلترا إلى الملك، وبناء على ذلك، عقد الملك في الأحد الثاني بعد الفصح، اجتماعاً في ويستمنستر لرؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والداوية، والاسبتارية، والايرلات، والبارونات، وقساوسة الكنائس، وكل المتسلمين لوظائف عالية من قبله، لسماع الرسالة المتقدم ذكرها، وللتباحث حول القضايا الهامة بشكل عام، وعندما بناء عليه اجتمعوا جميعاً، علمانيين ورجال دين مع أتباعهم، قرأ المعلم ستيفن بحضورهم جميعاً رسائل البابا، المطالبة بجزء العشر من جميع الممتلكات المتحركة في جميع أنحاء انكلترا، وايرلاندا، وويلز، من رجال الدين، وكذلك من العلمانيين، حتى يتمكن من متابعة الحرب التي شرع بها ضد فردريك الامبراطور الروماني، كما أنه أعلن في هذه الرسائل أنه هو وحده تولى

القيام بهذه الحملة لصالح الكنيسة العالمية، التي يسعى الامبراطور المذكور إلى قهرها، مع أنه محروم كنيساً منذ وقت طويل ومتمرد، وبما أنه من الواضح أن الكرسي الرسولي لم يكن غنياً بما فيه الكفاية حتى يتمكن من تدميره، فهو قد أرغم على طلب المساعدة من جميع أبناء الكنيسة، فبوساطة هذه المساعدات قد يتمكن من ايصال الحملة المرغوب بها، التي بدأ بها، إلى نهاية، ذلك أنها الآن ببعض المعايير تتقدم، وأخيراً نصح البابا في نهاية رسالته الجميع أفراداً وجماعات، بتقديم مساعدة قوية إلى الكنيسة، لأنهم أطراف الكنيسة، مثلما هم الأولاد الطبيعيين لكنيسة روما، التي هي أم جميع الكنائس، ويخشى —لاسمح الرب— أنهم إذا ماعجزوا عن تقديم المساعدة، أن يستسلم الجسد كله وتتداعى الأطراف، وبمثل هذه المناقشات التي وردت في رسالة البابا، سعى المعلم ستيفن إلى اقناع الذين كانوا حضوراً بالموافقة على الطلب، عارضاً التشريف والمنفعة التي سوف يحصل عليها الذين سوف يكونوا مطيعين، وكان الجميع يأملون أن يقوم الملك بمعارضة هذه الجبايات، لكنه ماكان بإمكانه فعل ذلك، لأنه كان قد وعد بدفع هذه العشور في روما، بوساطة رسله، كما ذكرنا أعلاه، وبما أنه لم يقدم جواباً، بدا بصمته أنه موافق، لكن الإيرلات والبارونات وجميع العلمانيين، أعلنوا بشكل واضح، أنهم لن يوافقوا على هذه العشور، كما أنهم لايرغبون بوضع بارونياتهم، أو ممتلكاتهم المدنية تحت تصرف الكنيسة الرومانية، أما بالنسبة للأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، ورجال الدين الآخرين، فقد قاموا بالموافقة، بعد مناقشات صاخبة لمدة يومين أو ثلاثة، ذلك أنهم كانوا خائفين من نيل عقوبة الحرمان الكنسي أو الحرمان من شراكة المؤمنين، إذا ماعارضوا الأوامر الرسولية، ثم أظهر المعلم ستيفن أمام جميع رجال الدين رسائل توكيل من البابا، بها عيّنه وقداسته وكيلاً عنه لجمع العشور المذكورة، وأنه يتوجب جمع هذه العشور، ليس مثلما كان قد فعل في فرض ضريبة جزء العشرين، التي

قـد دفعت قبل وقت قصير إلى الملـك حتى يحصلوا على امتيـازاتهم، بل ينبغي جمعهـا، وفق أحسن طريقـة لصـالح البـابا ومنفعتـه، وبناء عليـه توجب فرض الضريبة على جميع السلع والمقتنيـات المتحركة لكل واحد، حتى يـدفع أقصـى مـــايمكن، أي العشر مـن جميع الموارد، والمرابـح السنوية، ومنتجات الأراضي المفلوحـة، والمنح، والعشور، والمؤن للناس وللدواب، وجميع مـــوارد الكنائس والممتلكات الأخـــرى، مهما كــان العنوان الذي دونت تحتـه، دون أن يقومـوا في أية مناسبة من المناسبـات بحـذف ديون أو نفقــات، وكـان بهذه الرســائل نفسهــا مخولاً بفـرض الحرمـان الكنسي على جميع المتـذمـرين، وأن يضع الكنائس تحت عقـوبة الحرمان من شراكة المؤمنين، وبناء عليه، بعدما عيّـن نوابه في كل كونتيه في انكلترا، حـرم كنسياً جميع الذين هم أنفسهـم، أو بوساطة الآخـرين، مارسوا أي تواطؤ، أو خداع، أو عملوا أية اتفاقات غير عادلة، أو قاموا بأي حــذف، فيما يتعلق بقضيـة دفع العشـــور المتقـدم ذكـرها، وبما أن المسـاعدة الفـورية كانت ضرورية بالنسبـة لهذه المسألة، أمر جميع رجـال الدين والآخـرين، تحت طائلة عقـوبة الحرمـان الكنسي، أن يقومـوا بين أنفسهم، أو بطرق أخرى أو بآخريـن، على الفور بتسليم المال الذي كان قـد طلبـه، حتى يتمكن من ارســاله مبـاشرة إلى البـابا، وأنهم فيما بعـد يمكنهم استرداد مادفعوه كامـلاً، من العشور التي سوف تؤخذ من كل واحـد، لأنه قـال بأن البـابا متـــورط بديون كثيرة، إلى حـد أنه هو غير عـــارف كيف يمكنه متـــابعـــة الحرب، التي بـدأها، ثم أنهى الاجتماع، ومضى كل منهم منصرفاً وهو يتمتم منزعجاً.

الفرض المؤلم للعشور المذكورة

وأرسل بعـد هذا المعلم ستيفن رسـائل إلى كل واحـد من الأساقفـة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، ورجال الدين، من مختلف الأوضاع، في جميع أرجـاء المملكة، آمـراً إياهم، تحت طائلة عقـوبة الحرمـان الكنسي،

والحرمـان من شراكـة المؤمنين، أن يرسـل إليهم، في يوم حـدده، مبلغـاً معيناً من المال الذي جـرت مؤخـراً الموافقة عليه، وأن يوزن بكـل دقة، حتى يتمكن من إرضـاء الذين أقـرضـوا البـابا، ولكي يتجنبـوا عقـوبة الحرمـان مـن شراكـة المؤمنين، وقـد مـارس في فـرض هـذه الضريبـة واستخراجها، جبايات كانت مؤلمة إلى حد أنه أرغم كل واحد أن يعطيه قيمة العشر، حتى من موسم الخريف المقبل، الذي لم يكن قد أثمر بعد، وعندما لم يجد الأسـاقفة أمامهم مـوارد للدفع، أخذوا كـؤوس القربان، والطوس، والأقـداح، والأواني المقـدسـة الأخـرى، من الكنائس، وقـد باعـوا بعضها، وبعضهـا الآخـر رهنوه مقابل فـائـدة، وامتلأت البـلاد، بشكاوى متـواصلة، وإن كـانت سرية، وصلى الجميـع من أجل أن لا تكون هذه الجبايات منتجة نفعاً للذين فرضوها، وكان رالف ايرل أوف شيستر هو الوحيد الذي رفض اخضاع أراضيه للتابعية، ولم يسمح لأي من رجال الدين والكهنة بتقديم هذه العشور وجبايتها من اقطاعيته، مع أن انكلترا، وويلز، وسكوتلندا، وايرلندا، كلهم أرغموا على دفعهم، وفي جبـاية هذه العشـور، توفـرت ناحيـة واحـدة أعطت شيئاً من المواسـاة والراحة، تمثلت بأن ممالك القارة، والممالك التي وقعت على بعد، لم تكن معفية من هذه الضريبـة، وعندما أخيراً وصل مبلغ المال الذي جمع بهذه الطريقة، إلى الحبر الأعظم، قـدمه بكرم إلى جـون دي بريين، وإلى القادة الآخـرين لجيشه، وسبب هذا أذى عظيماً للامبراطور، لأنهم دمّـروا أثناء غيابه بلداته وقلاعه.

وفي العـام نفسـه، في ٢٧- أيار، جـرت سيـامـة روبرت دي بنغهـام Bingeham الأسقف المنتخب لسـالسبري، من قبـل وليم أسقف ووركستر، وجـرت السيامـة في شيبتـون Shepton وساعـده في ذلك الأسقفان جوسلين أوف باث، والاسكندر أوف كوفنتري.

و في هذا العام أيضاً، في أحد الشعـانين، في الثالث من حزيران، منح

الملك هنري حزام الفروسية إلى جون بن هيوبرت، مسؤول العدالة في انكلترا.

تكريس رتشارد رئيس أساقفة كانتربري، إلخ

وفي العام نفسه، في أحد الثالوث المقدس، اجتمع الأساقفة المساعدون لكنيسة كانتربري، في تلك المدينة، وجرى في ذلك اليوم تكريس رتشارد، رئيس الأساقفة المنتخب، من قبل هنري أسقف روكستر من دون الطيلسان، وبناء عليه سمح له إما برسم الكنائس أو بتكريسها، ومعه جرى في اليوم نفسه، الذي كان العاشر من حزيران، تكريس روجر الأسقف المنتخب للندن، وهيوج أوف إيلاي، من قبل الأسقف نفسه، أمام المذبح الكبير، في كنيسة الثالوث المقدس.

الاستعدادات الكبيرة لملك انكلترا للعبور إلى فرنسا

وفي هذه الآونة نفسها، أيام عيد القديس ميكائيل، جمع الملك هنري في بورتماوث جميع نبلاء مملكة انكلترا، أي الايرلات، والبارونات، والفرسان، مع حشد كبير من الجنود من خيالة ورجالة، بعدد ليس معتقداً أن أياً من أسلافه قد جمع مثله مع بعضه بعضاً قط، لأن حشداً كبيراً من الفرسان والجنود قد وصل إليه من بلدان: إيرلاندا، وسكوتلندا، وويلز، وغالوي Galway وقد أصيب الجميع بالدهشة، لأن الملك عزم على عبور البحر مع هذه القوة الكبيرة، لاسترداد الملكية على الأراضي التي كان والده قد فقدها، لكن عندما أراد مقدمو جيش الملك وقادته نقل الامدادات والأسلحة ووضعها على ظهر السفن، وجدوا قليلاً منها لم تكن كافية لنقل نصف الجيش، وعندما حملت هذه الأخبار إلى الملك، غضب كثيراً، وألقى اللوم كله حول هذا، على هيوبرت دي بورغ مسؤول العدالة، ودعاه أمام الجميع باسم خائن قديم، واتهمه باستلام خمسة آلاف مارك من ملكة فرنسا، حتى سبب

هذا النقص من أجل إعاقة خططه، وأثناء غضبه جرد سيفه، وحاول أن يقتل المسؤول عن العدالة، لكن رالف ايرل اوف شيستر تدخل مع آخرين كانوا حاضرين، وأنقذوه من الموت، وقد سحب نفسه من أمام حضرة الملك، حتى يهدأ غضبه ضده ويبرد، وفي الوقت نفسه، في التاسع من تشرين الأول، وصل هنري كونت بريتاني إلى ذلك الميناء، ليقود الملك آمناً إلى أراضيه، حسبما كان متفقاً عليه، ومؤكداً بالأيمان فيما بينهما، لكنه بالاتفاق مع بعض الحكماء الآخرين في الجيش، نصحوا الملك ليؤجل الحملة حتى عيد الفصح المقبل، لأنه كان خطراً القيام بمثل هذه الرحلة الصعبة أثناء الشتاء، وبناء على هذا أعطى الملك الإذن إلى جميع الجيش بالعودة إلى الديار، وتصالح هو والمسؤول عن العدالة، ثم قدم كونت بريتاني الولاء إلى الملك ضد جميع الناس، من أجل بريتاني، وأعاد الملك إليه جميع حقوقه في انكلترا، وبعدما أعطاه خمسة آلاف مارك للدفاع عن أراضيه، أرسله عائداً إلى مقاطعته، وفي العام نفسه، في ٢٣ تشرين الثاني، استلم رتشارد رئيس أساقفة كانتربري الطيلسان الذي أرسل إليه من قبل البابا، وبحضور الملك والأساقفة المساعدين عمل قداساً وهو مرتدياً للطيلسان، في الكنيسة الكاتدرائية في كانتربري.

الموت الشرير لمرابي

وعاش في هذه الآونة في بريطانيا الدنيا واحد من المرابين، الذي كان يقرض ماله مقابل فائدة، ومن ذلك جمع ثروة كبيرة، ومع أنه غالباً ما أخبر من قبل أسقف ذلك المكان، أنه كان أمراً غير قانوني أن يزيد أمواله بوساطة الربا، لم يصغ للأسقف، وثابر في مسعاه لجمع الثروة، مع أن ذلك كان وفق هذه الطريقة غير الصحيحة، وبناء على ذلك عندما وجد الأسقف أن الرجل غير قابل للاصلاح حرمه كنسياً، وأبعده عن جماعة المسيحيين، غير أنه استخف بذلك، لكنه مالبث بعد

ذلك طويلاً حتى أنهى حياتـه بشكل تعيس، دون أن يتناول القربان، أو يقوم بالاعتراف، وقـد ذهبت زوجته وأولاده إلى كـاهن البلدة، وطلبوا منه دفن المتـوفى وفق طقـوس الكنيسـة، لكن الكـاهن رفض ذلك، لأنه مات وهو محروم كنيساً، وأمـرهم بدفنه خارج البلدة في مكان يلتقي فيه طريقـــــان، وبنـاء على هذا ذهبـت الأرملة مـع أولادها إلى الكـونت، وتقـدمت إليـه بشكوى بأن الكاهن رفض أن يدفنه دفناً كنسيـاً، لكنهـا أخفت السبب، وهو أنه مـات محروم كنسياً، وقـد غضب الكونت كثيراً من الكاهن، وأمـر خدمه بالذهـاب إليه، وأمره باسمـه أن يدفن الرجل الميت، وإذا مـارفـض الكاهن تنفيـذ ذلك، أن يربطـوه إلى الرجل الميت وأن يدفنوهما معـاً، وقـد جـرى تنفيـذ هذا الأمـر، وقـام جميع أسـاقفـة بريطانيـا بحرمـان الكونت، وبناء على ذلك جـرى نفي اثنين من الكهنة مع جميع الأساقفة من قبل الكونت، وبقي هو نفسه تحت عقوبة الحرمان الكنسي حتى يمكن تثبيت ذلك من قبل البابا.

عودة الامبراطور الروماني فردريك إلى بلاده

وفي العام نفسـه، بعدما استرد الامبراطور الرومـاني فردريك الأرض المقدسـة إلى الحكم الصليبي، وبعدما جـرى تبادل الأيمان على هدنة لمدة عشر سنوات مـع سلطان دمشق، صعـــد ظهـــر السفينة وأقلـع في يوم العثور على الصليب المقدس، ليعبر البحر المتوسط عائداً إلى بلاده، ولأنه سمع بأن جون دي بريين كان قد أقام له المصائد في موانىء هذا الجانب من الميـاه، لم يتجـرأ على النـزول إلى البر من دون حـذر، حتى لايحصل أعـداؤه على سرور إلقـاء القبض عليـه، وقـد نزل في مكان آمن، وبعث أمـامه جـواسيس اقتادوه إلى مكـان آمن، ووصل أخيراً آمناً مع حاشيـة صغيرة إلى صقلية، وهناك علم بأن أعـداءه قد أخضعـوا عدداً كبيراً من قـلاعه وبلداته، لابل أكثـر من هذا، إنهم كانوا يقـومون بغـارات داخل المناطق الامبراطورية، حيث مامن أحد كان يعترضهم، لكن عندما بات

خبر وصـوله معـروفاً من قبل رعـاياه الشرعيين، الذين كـانوا مـرتبطين بالولاء له، تدفقـوا عليه، مع أنهم أحيطـوا بهؤلاء، وعندما قـوي جانبـه بآخـرين قدمـوا إليه، انقض بشجاعـة على أعدائـه، وشرع خطوة خطوة يسترد أراضيه والقلاع التي كان قد فقدها.

كيف أمضى ملك انكلترا عيد الميلاد في يورك

عـام ١٢٣٠م، فيـه عقـد الملك هنري بلاطه في يورك، بـرفقـة ملك الاسكوتلنديين، الذي كان قد دعاه إلى العيد، وكان رئيس أساقفة المدينة حـاضراً هناك مع الايرلات، والبـارونـات، والفـرسـان، وكـانت هناك حـاشيـة كبيرة، وهناك أيضـاً وزع الملكـان كثيراً من مـلابس العيـد بين فـرسـانهم، وكـان الملك الانكليـزي مسرفـاً بكرمـه نحـو ملك الاسكوتلنديين، حيـث أتحفـه بخيـول ثمينـة، وخـواتم، وجـواهر، واستمـروا بالاحتفال لمدة ثلاثة أيام، مقيمين مـوائد فخمـة في كل يوم، وتفـرق الجمع في اليـوم الرابع، وعـاد الملك الاسكوتلندي الى وطنه، في حين أسرع الملك هنري إلى لندن.

وحدث في هذا العـام أيضاً، في يوم تحول القديس بولص واهتـدائه، انه عندمـا كان أسقف مدينـة لندن واقفاً أمام المذبـح الكبير في الكنيسة الكاتدرائيـة في تلك المدينة، مـرتدياً قلنسـوته، وكـان على وشك إقـامـة قداس بحضور سكان المدينة الذين كـانوا هناك، والذين اجتمعوا تكريماً للقـديس بولص، وقتهـا فجأة أصبحت السماء مغطـاة بغيـوم كثيفـة، وبذلك باتت الشمس محجـوبة، حتى بات بصعـوبة يمكن للانسـان أن يرى جاره في الكنيسـة، وبات الجميع في حالة دهشـة، ومتوقعين أن يوم الحسـاب قد حلّ، ووقتهـا انفجر صـوت تصـادم رهيب عاصف فـوق الكنيسة، حتى بدا البناء نفسه مع البرج العالي وكأنه على وشك السقوط على رؤوسهم، وصدر عن الغيوم الكثيفة برق هائل، بدت معه الكنيسة وكأنها مشتعلة بالنيران، وتصاعدت وسط هـذا كله رائحة نتانة لايمكن

تحملها، إلى حد أن جميع الحضور باتوا خائفين من الاختناق، وكان عدد الموجودين في الكنيسة حوالي الألف من الناس من الجنسين، وقد خافوا من موت من نوع ما، لذلك بادروا مسرعين بالفرار من الكنيسة، وأثناء خوفهم سقط بعضهم أرضاً، فبقيوا هناك لبعض الوقت من دون شعور أو حركة، ومن بين جميع الحضور الذين احتشدوا هناك، بقي فقط الأسقف وواحد من الشمامسة أمام المذبح الكبير، من دون اضطراب، ووقفا مرتديان ثيابهما المقدسة، وهما ينتظران رضا الرب، وبعد لأي عندما صحت الدنيا، واسترد جميع الحشد ثقتهم بالسلامة، دخلوا ثانية إلى الكنيسة، وأكمل الأسقف بخشوع الجزء المتبقي من القداس، وأحدثت هذه الواقعة دهشة عظيمة في جميع أرجاء المدينة، وخشي الجميع من أنها مقدمة لوقوع واقعة عظيمة ومرعبة.

وفي العام نفسه، كان الامبراطور الروماني، قد استرد أثناء الصوم الكبير، كثيراً من القوة ضد أعدائه، حيث أنه استرد بالقوة ملكية جميع القلاع والممتلكات العائدة إلى الامبراطورية، وكل الذين أخذهم أسرى في القلاع إما سلخهم أحياء، أو علقهم على المشانق، وخشي جون دي بريين، الذي كان خصمه المعلن من الوقوع بين يديه، فهرب إلى فرنسا، موطنه الأصلي، وبعد ذلك تمت بناء على وساطة أصدقاء ورجال دين، الموافقة على عقد هدنة بين البابا والامبراطور، وذلك حتى يتوصلا إلى وضع شروط سلام.

وفي شهر نيسان من العام نفسه جرى شنق وليم دي براوس من قبل للويلين الزعيم الويلزي، وكان قد ألقي القبض عليه، وهو —كما قيل— يزني بامرأة ذلك الأمير.

وفي العام نفسه، أعطى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الكهنة في جميع أرجاء انكلترا، إلى الملك، بناء على طلبه، مبلغاً كبيراً من المال، حتى يتمكن من استرداد المقاطعات في القارة، التي

انتـزعت من والده، وأرغم سكـان لندن أيضـاً على إنقـاذ أنفسهم بدفع مبلغ ثقيل من أجل الغاية نفسها، وأرغم اليهـود أيضاً، سواء أشاءوا أم رفضوا عل دفع الثلث من جميع ماكانوا يمتلكون.

كيف عبر ملك انكلترا مع جيشه إلى بريتاني

بعد عيد الفصح حشـد الملك هنري جيشاً كبيراً في ردنغ، يضم جميع نبلاء المملكة، الذين كانوا يدينون له بالخدمة العسكرية، مع أعداد كبيرة أخرى من مختلف البلدان، ثم إنه نقل معسكره من ذلك المكان، وزحف إلى بورتماوث، حيث صعد إلى ظهر السفن مع جيشه كله،وأقلع مبحراً، وبفضل جهـود الملاحين في سفنـه نزل إلى اليـابسـة في سينـت مـالو Malo في بريتاني، ولم يستطع جزء من جيشه السير وراء الملك مباشرة، فنزلوا في اليـابسة في أماكن متنـوعة، لكن بعون الـرب وصلوا جميعاً إلى الملك في بريتـاني من دون أذى أو خسارة في مقتنياتهم، واستقبـل كونت بريتـاني الملك باحترام لائق، وبتكـريم، وسلم إليـه بلدات وقـلاع تلك المقـاطعة، ووصل إليـه عدد كبير آخـر من نبـلاء المقاطعـة، وقدمـوا له الولاء، وأقسمـوا على التـابعيـــة له، ورفض أندرو دي فيتري Vitre وعـدد قليل آخر من النبـلاء، تقديم الولاء إلى الملك، وشحنوا قـلاعهم بالمؤن، واستعـدوا ببعض القـوة للمقـاومــة، ولدى سماع ملك فـرنسـا بوصــول ملك انكلترا، حشـد جيشـاً قـوياً، وزحف مع ترسـة تلمع ورايات تخفق إلى مــدينة أنجــو، حيث خـط معسكره، وتوقف وقفــة طويلة، لإعـاقة تقـدم الملك الانكليـزي نحو بواتو، وكـان الملك هنري آنذاك في مــدينة ناتي Nates ينتظر وصــول المزيد من نجـــدات العساكـر، الذين كانوا قـادمين إليه من مختلف الأنحـاء، وخلال إقـامته هناك ألقى الملك الفـرنسي مع جيشه الحصـار على قلعـة ضعيفة اسمهـا أودون Oudon وكـانت على بعـد حوالي الأربعـة فـراسخ عن ناتي، وبسهولة استحوذ عليها، وهدّمها، وعاد بعد ذلك إلى مدينة أنجو.

وحدث في العام نفسه، في اليوم الرابع عشر من أيار، الذي كان يوم ثلاثاء، في اسبوع الابتهال قبل عيد الصعود، كسوف غير اعتيادي، في الصباح الباكر، بعد اشراق الشمس مباشرة، وأصبحت الدنيا مظلمة إلى حد أن العمال الذي كانوا قد شرعوا بأعمالهم الصباحية، قد أرغموا على ترك أعمالهم، والعودة ثانية إلى النوم في فرشهم، لكن بعد ساعة من الزمان، حدث لدهشة الكثيرين أن الشمس استردت ثانية أشعتها.

وحدث في العام نفسه أيضاً، أن وصل إلى انكلترا، دوق سكسوني، وكان من أقرباء الملك، فاستقبل بكل تكريم من قبل سكان لندن، وكان هذا الدوق عظيم الطول والحجم، إلى حد أنه أثار اعجاب كل انسان، واحتشد الناس لينظرون إليه، وكأنهم ينظرون إلى مهرجان.

حول الخلافات التي نشبت بين البارونات الفرنسيين

وفي تلك الآونة نفسها، كان جميع النبلاء الفرنسيين مشغولين تقريباً بالحروب أحدهم ضد الآخر، وقد روي بأن دوق بيرغندي، وكونتات: بولون، ودروكس Dreux وماكون، وسينت بول، وبار، والنبيلين: انغوراند دي كورسي Enguerrand de Courcy وروبرت دي كورتايني Courtenaye وعدد كبير آخر، قد أقسموا على التحالف مع ملك انكلترا، وأعلن هنري كونت بريتاني الحرب ضد كونتي: شامبين، وفلاندرز، ولدى إكمالهم جميعاً خدماتهم لمدة أربعين يوماً في حصار أنجو، حصلوا على الاذن من الملك الفرنسي، وعادوا إلى مقاطعاتهم، وعندما وجد الملك نفسه غير قادر على ابقائهم لحق بهم من أجل إقامة صلح فيما بينهم، لكنه لم يستطع تحقيق هذا بأية وسيلة من الوسائل، لأن النبلاء الذين تقدم ذكرهم أعلاه غزوا أراضي كونت شامبين، وشرعوا بالعيث فساداً فيها بالنار والسيف، وجاء هذا الكونت للتصدي لهم مع قوة كبيرة، وأنشب معهم القتال، لكن النبلاء الذين تقدم ذكرهم أعلاه كانوا أقوياء جداً بالنسبة له، وقد أسروا مائتين من

فرسانه وقتلوا ثلاثة عشر، ورأى كونت شامبين، بأن قواته قد هزمت، فهرب من ميدان المعركة، وذلك بعدما فقد جميع أصحابه، وتولى الأعداء مطاردته، وجعلوا طعمة للسيف كل من قابلهم من مؤيديه، ولم يتوقفوا عن المطاردة حتى ساقوا الكونت، إلى داخل أبواب مدينة باريس، وهنا لم يختاروا متابعة مطاردته، فعادوا إلى شامبين، فنهبوا جميع المقاطعة، وهدموا القلاع والبلدات وسووها بالأرض، وأحرقوا القرى والمدن، وقطعوا الكروم وأشجار الفاكهة، ولم يوفروا شيئاً وجدوه خارج الكنائس، وقام هؤلاء النبلاء بمباشرة الحرب ضد الكونت لخيانته للملك، لأنهم قالوا بأنه قام أثناء حصار أفينون بدس السم إلى مولاهم الملك لويس، بسبب حبه للملكة، ومع أنهم غالباً ماتقدموا بعرض الاتهامات ضده في محكمة بلاط الملك الفرنسي بحضور الملك، ورغبوا في البرهنة على أن الكونت كان مجرماً بمبارزة فردية، قامت الملكة التي تولت ادارة جميع شؤون المملكة، بسبب صغر سن الملك، وانعدام الخبرة لديه، برفض الاصغاء له، ولهذا السبب سحب النبلاء المتقدم ذكرهم ولاءهم من الملك والملكة، وأحدثوا القلاقل في المملكة بوساطة الحرب، وقد رفضوا بإباء أن تكون سيدة مثل الملكة حاكمة لهم، التي —كما قيل— قد تدنست ليس فقط بعلاقتها بالكونت المذكور، لابل بعلاقتها أيضاً بالنائب البابوي.

مذبحة بين الايرلنديين واعتقال ملوكهم

وفي السنة نفسها، عندما علم في شهر تموز واحد من ملوك كونّوت Connaught الصغار في ايرلاندا بأن ملك انكلترا، ووليم مارشال كانا مشغولين بالحرب في القارة، وأن مملكة ايرلاندا كانت خاوية تماماً من القوات العسكرية، جمع جيشاً كبيراً من جميع أرجاء البلاد، وكان يأمل بأن يطرد جميع الانكليز إلى ماوراء الحدود الايرلندية، وبناء عليه غزا مقاطعات الملك الانكليزي، ونشر الدمار، بما في ذلك الاغتصاب

والنهب، وأخيراً وصلت أخبار هذه الغارات إلى غيوفري دي مارش، الذي مارس أعمال المسؤول عن العدالة في ظل الملك في تلك المناطق، وبناء عليه بعث وراء وولتر دي لاسي، ورتشارد دي بورغ للالتحاق به، ومعهما صار لديه قوة كبيرة، فزحف بجرأة ضد الأعداء، وقد قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام، وأعطى قيادة قسمين من هؤلاء الثلاثة إلى الكونتين، المذكورين: وولتر دي لاسي، ورتشارد دي بورغ، واحتفظ بقيادة القسم الثالث لنفسه، وأخفى القسمين اللذين كانا تحت قيادة وولتر، ورتشارد في الغابات التي كان على العدو العبور بها، وهكذا جعلهما كميناً للأعداء، وعبأ القسم الثالث الذي قاده بنفسه، وأعدّه لمواجهة الأعداء وجهاً لوجه، وليثيرهم للقتال، وعندما وصل الايرلنديون واقتربوا منهم، ورأوا فقط وحدة من الانكليز، انقضوا عليهم، وكأنهم كانوا ضامنين للنصر ومتأكدين منه، وتظاهر الانكليز بالفرار، وقد جرت مطاردتهم من قبل الايرلنديين حتى دخلوا إلى موضع الكمين، ووقتها اندفع الذين كانوا كامنين من مخبئهم، وملأوا الأجواء بصراخهم، وهاجموا الأعداء وقاتلوهم من الجناح ومن الساقه، أما القسم الأول الذي كان قد هرب من أمامهم، فعاد أيضاً نحو الايرلنديين، وأعقب ذلك مذبحة مرعبة، وقد قيل بأن عشرين ألفاً من جنود الايرلنديين قد قتلوا هناك، وأسر ملكهم وسجن.

وفي تلك الآونة، تخلى فولك بيزنل Paisnel وكان نبيلاً من نورماندي، مع أخيه وليم، عن قلاعهما وأراضيهما، ووصلا إلى بريتاني، حيث قدما الولاء، وأقسما على التبعية لملك انكلترا، ووصل معهما آنذاك ستين فارساً جريئاً وشديداً، وكلهم أشاروا على الملك بغزو نورماندي، وأخبروه أنه سوف يتمكن بشكل أكيد من اخضاع تلك المقاطعة، وقبل الملك بخططهم، لكن هيوبرت دي بورغ لم يسمح لهم بتنفيذ الخطط، قائلاً إنها ستكون محاولة خطيرة إلى أبعد الحدود، ولدى سماع الفرسان

هذا، طلبوا وقتها من الملك منحهم مائتي فارس من جيشه، للالتحاق بهم في غزو نورماندي، ووعدوه أنهم سوف يطردون جميع الفرنسيين من دون اخفاق من تلك المقاطعة، وهذا أيضاً رفض هيوبرت المسؤول عن العدالة السماح به، مؤكداً أنه سيكون عملاً ليس حكيماً أن يعرض الملك جنوده للموت فقط لتلبية رغبته ولسروره، وهكذا وجد هؤلاء النبلاء أنفسهم وقد خدعوا بشكل رهيب، لأن الملك الفرنسي، كان قد تولى على الفور حرمانهم من مواريثهم، وحوّل قلاعهم وممتلكاتهم إلى استخداماته الخاصة.

كيف زحف الملك الانكليزي إلى غاسكوني وتلقى الولاء هناك

وقام الملك بعد هذا، بناء على نصيحة هيوبرت دي بورغ، بالزحف من بريتاني مع جيشه خلال أنجو، ووصل إلى بواتو، وتابع زحفه من هذه المقاطعة إلى غاسكوني، حيث تلقى ولاء الناس، وبعدما قام ببعض الترتيبات من أجل أمان تلك المنطقة، عاد إلى بواتو، وهناك تلقى ولاء كثيراً من السكان، وفي هذه الحملة حاصر الملك قلعة ميربيل Mirebelle وبفضل الشجاعة العظيمة للانكليز، الذين استمروا بهجوماتهم الحادة عليها، أرغم الملك المحاصرين على الاستسلام، ثم غادر، آخذاً إياهم معه أسرى.

وفي شهر آب من هذا العام، توصل صاحب القداسة البابا غريغوري، والامبراطور الروماني فردريك، إلى اتفاق سلام، وجاء ذلك بوساطة تدخلات المسيحيين والحلفاء من على الجانبين، وذهب الامبراطور الروماني إلى روما، ونال هناك التحليل مع جميع الأماكن التي كانت تحت سلطان الامبراطورية، وأعادهم إليه بأحوالهم وأوضاعهم السالفة، ثم احتفل هذا الكاهن الأعظم مع ذلك الامبراطور الأعظم قدرة مع بعضهما لمدة ثلاثة أيام، في قصر الحبر الأعظم، وابتهج البابا والكرادلة والنبلاء العائدين للامبراطورية، بهذا

التثبيت المفاجىء للسلام، الذي كانوا قد فقدوا كل أمل بقيامه.

وفي العام نفسه، شحن رالف ايرل شيستر القلعة الموجودة في سينت جون دي بيفيرون Beveron وزودها بالامدادات والسلاح، وكانت هذه القلعة عائدة بموجب حق الوراثة إلى زوجته الكونتسة، لأن هنري كونت بريتاني قد تخلى عن القلعة إلى الايرل، عندما التحق بجانب ملك انكلترا، وتسلم من الملك جميع ممتلكاته وامتيازاته في انكلترا.

السلام الذي عمل بين الملك الفرنسي والبارونات

وفي هذا العام،حدث في شهر أيلول، أن الملك الفرنسي، وأمه الملكة، ونبلاء تلك المملكة، الذين كانوا منذ وفاة الملك لويس في حرب واحدهم ضد الآخر، كما ذكرنا أعلاه، أن التقوا في مؤتمر، لمعالجة إقامة سلام، وقد أعدّ وفق الشروط التالية: لقد تقرر بالاجماع من قبل النبلاء المتقدم ذكرهم، وجوب حمل كونت شامبين، الذي كان السبب الرئيسي في نشوب هذا الخلاف، الصليب، وأن يقوم مع مائة من الفرسان بالحج إلى الأرض المقدسة، ليقاتل هناك ضد أعداء المسيح، وأقسم الملك الفرنسي وأمه على الأناجيل المقدسة، بأنهما سوف يعيدا إلى كل واحد من النبلاء امتيازاتهم، وسوف يمارسان العدل نحو جميع رعايا تلك المملكة، تماشياً مع الأعراف التي كانت صحيحة ومحقة بالنسبة إلى الجميع.

عودة ملك انكلترا من بريتاني إلى انكلترا

كان الملك الانكليزي طوال هذا الوقت كله مقيماً مع جيشه في مدينة ناتي، ويفعل لاشيء سوى انفاق ماله، وكذلك فعل الايرلات والبارونات أيضاً، ولأن هيوبرت مسؤول العدالة لدى الملك ماكان ليسمح لهم بالاشتباك بالقتال ضد الأعداء، كان أحدهم يقوم بأعمال الضيافة لآخر، حسبما كانت عادة الانكليز، وأوقفوا أنفسهم على الأكل

والشرب كل بدوره، وكأنهم كانوا يحتفلون بعيد الميلاد، والذين كانوا فقراء بينهم فقدوا خيولهم وسلاحهم، وعاشوا من تلك اللحظة حياة غير سعيدة، وأخيراً بعدما أكمل الملك عمل جميع الترتيبات الضرورية للمنطقة، ترك هناك خمسمائة فارس، وألف من المرتزقة تحت قيادة رالف ايرل أوف شيستر، ووليم مارشال، ووليم ايرل ألبيمارل، مع نخبة من القادة الآخرين، وإثر هذا حمل نفسه وأخذ سفينة، وبعدما تعرض لمخاطر كثيرة، وصل في السادس والعشرين من تشرين الأول إلى بورتماوث، ونزل فيها، حيث قدم عدد كبير من رعاياه من مختلف المراتب لتقديم احترامهم له مع هدايا متنوعة.

ومات غيلبرت ايرل أوف غلوستر وكلير، أثناء عودته من القارة، وأسند الملك إلى هيوبرت المسؤول عن العدالة جميع أراضيه ومراتبه.

وبعد مغادرة ملكَ انكلترا للقارة، قام ايرل شيستر مع القادة الآخرين لجيش الملك هناك ومعهم كامل قواتهم بغارة داخل مقاطعة أنجو، وظلوا غائبين هناك في تلك المنطقة لمدة خمسة عشر يوماً، واستولوا في تلك الأثناء على قلعة غونورد Gonnord وهدموها حتى سووها بالأرض وأحرقوا البلدة، ثم استولوا على قلعة جديدة على السارت Sarte فدمّروها، وألقوا النار في البلدة في ذلك المكان، وعادوا بعد ذلك ثانية إلى بريتاني مع أسلاب كبيرة جداً، وليس بعد ذلك بوقت طويل نزلوا بهجوم على نورماندي، واستولوا على قلعة بونتويي Pontoise وقد دمروها بعدما أحرقوا البلدة، ثم عادوا إلى بريتاني دون المعاناة من خسائر بالنسبة لهم أنفسهم.

وفي العام نفسه، في الثاني والعشرين من تشرين الثاني، حدث خسوف بالقمر، استمر لمدة ثلاث ساعات، وكان جزء صغير جداً منه مرئياً، وكان عمره آنذاك ثلاثة عشر يوماً.

فرض ضريبة بدل عسكري من أجل حملة إلى القارة

عـام ١٢٣١م، فيـه عقـد الملـك هنري بلاطه أثناء عيـد الميـلاد، في لامبث، حيث احتفي به مـن قبل هيـوبرت المسـؤول عن العـدالة، وفي السادس والعشريـن من شهر كـانون الثاني التـالي، دعا الملك الأسـاقفة والنبـلاء الآخـرين العـائـدين للمملكة إلى اجتماع في ويستمنستر، وفيـه طالب الملك بضريبـة بدل عسكري مقـدارها ثلاثة مـاركـات عن كل رنك، مـن جميع العلمانيين وكــذلـك اللاهوتيين، ومـن الذين بـأيديهم بارونيات، وبجرأة عارض هذا الطلب رتشارد رئيس أساقفة كانتربري، وعـورض أيضـاً من قبل بعض الأسـاقفة إلى جـانبـه، الذين قـالوا بأن اللاهوتيين ليسـوا ملزمين بالخضوع إلى الأحكام العلمانيـة، مثلما منحت ضريبـة البـدل العسكري في القـارة عندما كـانوا غير حـاضرين، وبعـد الكثير من المناقشـات من على الجانبين، جرى تأجيل مـاتعلق بمعارضـة الأسـاقفة حتى مـابعـد عيد الفصح باسبـوعين، أمـا بالنسبة للبقيـة من رجال دين وعلمانيين، وأناس عاديين، فقد استجابوا لرغبة الملك.

الخلاف بين الملك ورئيس الأساقفة

وجاء في هذه الآونة رتشارد رئيس أساقفة كانتربري إلى الملك، وقدم إليه شكوى ضد هيـوبرت المسؤول عن العدالة، لأنه احتفظ بشكل غير عادل بقلعة تونبردج مع البلدة ومتعلقاتها، وأراض أخـرى كانت عائدة إلى غيلبرت ايرل أوف كلير المتـوفى، والتي هي عـائدة لمسـؤول العـدالة نفسه وكنيسة كانتربري، ومن أجلهـا كان الايرل المذكور —وأجداده— قـد قـدم اعترافـاً، وعمل ولاء له ولأسـلافـه، ولـذلك من أجل ذلك السبب طلب من الملك أن يعيـد إليـه الوصايـة على القلعة المذكـورة مع متعلقاتها، وللاحتفـاظ بامتيازات كنيسـة كانتربري سليمة غير متعـرضة للأذى، وعلى هذا الطلب رد الملـك قـائـلاً، بأن الايرل المذكـور كــان مستأجراً اقطاعياً بشكل رئيسي منه نفسـه، وأن الوصايات الفارغة لكل

من الايرلات والبارونات وورثتهم «حتى يصلوا إلى سن الرشـد» عائدة إلى التـاج، وللتـاج الحرية في بيعهـا أو منحها لمن يشـاء، وعندمـا وجـد رئيس الأساقفة نفسه غير قـادر على الحصول على أي جواب آخر، حرم كنسيـاً جميع الذين يعتدون على الممتلكات المتقـدم ذكـرها، وجميع الذين يقيمـون اتصـالات معهم باستثناء الملـك، ومن هذه القضيـة ومن أجل قضـايا أخـرى وأسبـاب، توجـه إلى رومـا للحصـول على امتيـازاته وامتيـازات الكنيسـة، ومن جـانب آخـر أرسل الملك المعلم روبرت دي كانتيلو، وبعض الرسل الآخرين إلى روما للمرافعة من أجل قضيته.

وفي شهر نيسان من هذا العام، بعد عيد الفصح، تزوج رتشارد أخو الملك من كونتسة غلوستر، التي كـانت أخت وليم مارشال، ايرل أوف بيمبروك، ومـاكادت أفـراح العـرس تنتهي حتى توفي الفارس الشجـاع وليم مـارشـال، وختم حيـاتـه، وقـد حـزن عليـه وبكاه الكثيرون، وفي الخامس عشر من نيسان دفن في المعبد الجديد، في لندن قرب والده.

أعمال العيث فساداً المرعبة التي اقترفت من قبل للويلين في ويلز

وفي شهـر أيار من هذا العام، خـرج الويلزيون من مخابئهم مندفعين، مثل جـــرذان من جحـــورهـا، ونشروا النار والخراب في الأراضي التي كـانت من قبل عـائـدة إلى وليـم دي براوس، ولدى زحف الملك نحـو هناك مع قـوة عسكرية صغيرة، تراجـع الويلزيون، كما هي عـادتهم، إلى أمـاكنهم النائية، ثم ذهب الملك إلى الأجـزاء الشماليـة من البلاد، تاركـاً هيوبرت المسـؤول عن العدالة في هذه المنطقة، ليصـدّ غارات الويلزيين، وكان هؤلاء ما ان سمعـوا بمغادرة الملك، حتى استأنفوا حملات نهبهم، وأغـاروا على المناطق القـريبـة من قلعة مـونتغمـري، وشرعـوا باقتراف أعمال عيثهم فسـاداً في تلك المنطقـة، وعندمـا وصلت هذه الأخبـار إلى مسـامع الحامية في القلعـة، نزلوا للاشتبـاك بالقتال ضـد الويلزيين، لمنع تحركـاتهم حـول المنطقـة من دون معـارضـة، ولقطـع الطريق عليهم

للانسحاب، وقد قتلوا عدداً كبيراً منهم كما أنهم أسروا الكثيرين، وقد سلموا جميع الذين أسروهم أحياء إلى المسؤول عن العدالة، الذي أمر بإعدامهم، وبارسال رؤوسهم إلى الملك، وغضب للويلين من هذه الفعلة غضباً شديداً، فجمع جيشاً كبيراً، وأحدث دماراً مريعاً في أراضي وممتلكات البارونات الذين عاشوا على حدود ويلز، ولم يوفر لا الكنائس ولا اللاهوتيين، وأحرق عدة كنائس، مع عدد من النساء النبيلات والفتيات اللائي هربن إلى هناك من أجل السلامة.

كيف حرم للويلين كنسياً وكيف هاجم الملك ويلز

وعندما تلقى الملك هنري خبراً عن هذه الجريمة العظمى، جمع جيشاً كبيراً في اكسفورد في الثالث عشر من تموز، وهناك عندما اجتمع جميع نبلاء المملكة، ورجال الدين والناس، قام الأساقفة مع القساوسة الآخرين للكنائس، بحضور الملك، بحرمان للويلين كنسياً وأتباعه الذين أحرقوا الكنائس، وقاد الملك بعد هذا جيشه وزحف بكل سرعة إلى هيرفورد، وكان للويلين مقيماً آنذاك قرب قلعة مونتغمري، في حقل قرب النهر، مغطى بالسبخ، حيث كان ينتظر في كمين ليقاتل فرسان حامية القلعة، وقد قيل بأنه أرسل من ذلك المكان إلى القلعة واحداً من رهبان دير لطائفة السسترشيان كان موجوداً في الجوار، واسمه كوميرا Cumira وعندما رآه فرسان القلعة قادماً نحوهم، خرجوا من القلعة للتحادث معه، وسألوه عما إذا كان قد سمع أي شيء عن الملك للويلين، وعلى هذا رد الراهب بأنه رآه مع حاشية صغيرة في حقل قريب، حيث كان ينتظر ورود قوة أكبر، ووقتها سأل الفرسان الراهب عما إذا كان بإمكان الخيالة عبور النهر والحقل سالمين، وعلى هذا أجاب:

«إن الجسر الذي يستخدمه المسافرون من أجل عبور النهر، قد جرى تدميره من قبل للويلين، لأنه خشي من هجوم من جانبكم، لكن يمكنكم بأمان عبور النهر والحقل على ظهور الخيل، عندما تريدون

وبوسـاطة عدد ضئيل من الخيـالة يمكنكم غلبة الويلزيين، أو ارغـامهم على الفرار»، وصـدق وولتر دي غودرفيل Godarville قائد حـامية القلعة المعلومات المزيفة التي قدمهـا الراهب، وأمر على الفور أتباعه من الفرسان والجنود بحمل أسلحتهم، وركبـوا خيولهم، ومالبثوا أن وصلوا إلى المكان، وعندمـا رآهم الويلـزيون يتقـدمـون مسرعين، تظاهروا على الفور بالفرار إلى الغـابة التي كانت قريبة، وطاردهم فـرسان القلعة بكل اندفـاع حتى غطِسـوا في النهـر المتقـدم الذكـر وفي السبـاخ حتى بطون خيـولهم، ولاسيما الطلائع بينهم، أمـا الذين ساروا خلفهـم فقد تنبهـوا بغطس رفاقهم، الذين أسفـوا كثيراً لسوء حظهم، ولدى رؤية الويلزيين لأوضـاع أعـدائهم، انقضـوا بكل سرعـة وحـرارة عليهم، وتسببـوا برماحهم بمذبحة قاسية بينهم، أثناء خوضهم في الوحول، وأعقب ذلك قتـال عنيف، وبعـد مقتلـة كبيرة من على الجانبين، كـان الـويلزيون هم المنتصرون، ووقع في هذه المعـركـة جـايل بن رتشـارد دي أرجنتـون Argeton وكان فارساً شجاعاً، بالأسر، ومعه بعض الآخرين، الذين لم أسمع بأسمائهم.

الانتقام الذي تولاه الملك بعد خيانة الراهب هذه، إلخ

عندمـا وصلت أخبـار الفـاجعـة التي نزلت بفـرسـانه إلى الملك الانكليـزي، زحف بكل سرعـة إلى الدير الذي انتمى الراهب إليـه، أي الراهب الذي خان الفرسان المتقدم ذكرهم، وكعقوبة على خيانته، أحرق مزرعة عـائدة للدير، وكان ذلك بعدمـا نهب كل شيء كان فيها، ثم إنه نهب الدير، وأمـر بحرقـه أيضاً، وقـام راعي الدير من أجل انقاذ المبـاني التي كلفت كثيراً جداً من المال والجهـد، فدفع إلى الملك ثلاثمائـة مارك، وهكذا هدأ غضبه لبعض الوقت، وأمر الملك بعـد هذا بإعادة بناء قلعة ماتيلدا في ويلز، بقـوة بالحجارة، وهي قلعة كانت قـد دمرت قبل بعض الوقت من قبل الويلـزيين، وعندما انتهـت مقابـل نفقات عـاليـة جـداً،

وضع فيها حامية من الفرسان والجنود، لمنع غارات الويلزيين.

إبرام معاهدة بين ملكي فرنسا وإنكلترا

في شهر حزيران من العام نفسـه، قاد الملك الفرنسي جيشاً كبيراً لغزو بريتـاني، لكن هنري كـونـت أوف بريتـاني، ورالف ايرل شيستر، أخبرا باقترابه، فكمنا له، وهاجما العربات ووسائل النقل التي كانت تتولى نقل الأسلحة والإمدادات في الساقة، واستوليـا على جميع أثقاله، وأحرقا بعد ذلك جميع آلات حربه، واستـوليا على ستين فرساً، وبدأ الفـرنسيون بعد هذا يعدّون بريتـاني بلداً لايرام، ويئسوا من الوصـول إلى محصلة مناسبة مع هذه البـداية الضعيفـة، لذلك شرعـوا بالتفـاوض من أجـل عقـد معاهدة، بوساطة رئيس أساقفة الرايم، وفيليب كونت بولون من جانب الفـرنسيين وملكهم، وكـونت بريتـاني، وايرل شيستر لصـالح الملك الانكليـزي، وفي الخامس من تموز جـرت الموافقـة على هدنة لمدة ثلاث سنوات بين الملكين، وجرى تثبيتها بالأيمان.

وفي شهر تموز نفسه، عـاد بطرس أسقف وينكستر إلى انكلترا، بعدما أمضى قرابة الخمسة أعوام في أرض الميعاد، وفاء بعهده بالحج، واستقبل في الأول من آب بمسيرة مهيبة في الكنيسة الكاتدرائية في وينكستر.

ووصل إلى انكلترا في العام نفسـه، بعد تثبيت الهدنة، كـونت بريتاني، وايرل شيستر، مع رتشـارد المارشـال من القارة، وانطلقـوا نحـو الملك، الذي كـان مايزال مشغـولاً في بناء قلعـة ماتيلدا في ويلز، وقـد استقبلوا بترحاب من قبله، وقدم رتشارد مارشال نفسه إلى الملك على أنه الوريث لأخيه وليم مـارشال، وعرض تقـديم الولاء للملك مقابل ميراثه ومن أجله، ومن أجل كل ماعليه فعله في سبيـل امتيازاته، وفي اجابة الملك له —بناء على نصيحة هيوبرت المسؤول عن العدالة— أخبره أنه سمع بأن زوجة أخاه المتوفى كـانت حاملاً، وبناء على ذلك هو لايمكنه الاستجابة

لطلبـه، حتى يمكن كشف حقيقـة هذه المسألة، واتهم الملك رتشـارد المذكور بالتعـامل والتعايش مع أعدائـه المعلنين في المقاطعات الفـرنسية، ولهذا أمره بمغادرة المملكة على الفـور وإلى الأبد، وأعلن أنه إذا ماوجد في المملكة خلال خمسـة عشر يوماً، فلسوف يحكـم عليه بالسجن المؤبد، وعندمـا وجد رتشـارد نفسه غير قـادر على الحصول على جـواب آخر، أبحر على الفـور إلى ايرلاندا، حيث استقبل ببهجة من قبل جميع فـرسان وأتباع أخيـه المتوفى، وإليه سلمـوا جميع القلاع العـائدة لأخيه، وقـدموا الولاء له وأعلنوا التـابعيـة لـه، ثم إنه استرد ملكيـة قلعـة بيمبروك، مع جميع الألقاب والمراتب العـائدة إليهـا، ثم جمع جيشاً، وعقـد العزم على استرداد الاستحواذ على ميراثه، حتى ولو كان ذلك ضـد موافقة الملك، إذا مـااقتضى الأمر، لكـن الملك غيّـر أخيراً رأيه، خشيـة منه بأن يقـوم رتشارد المذكور بإثارة الاضطراب، وافسـاد سلام المملكة، فتلقى الولاء منه مع التـابعيـة، ومنحـه جميع امتيـازاته، وأبقى فقط الغـرامـة المعتـادة المستحقة له شخصياً.

كيف ذهب رتشارد رئيس أساقفة كانتربري إلى روما ومات أثناء عودته

ذهب في هذا العام رتشـارد رئيس أساقفة كـانتربري إلى بلاط روما، وقدم الشكاوى التـالية إلى البابا، فقد اشتكى في المقـام الأول ضد ملك انكلترا، أنه أدار جميع شـؤون المملكة وفقـاً لنصيحة هيـوبرت المسـؤول عن العـدالة وحـده، مستخفاً بذلك بجميع النبـلاء الآخـرين، واشتكى أيضاً أن المسؤول عن العدالة قد تزوج من امرأة كانت قريبة من زوجته الماضية، وقـد أمسك متلبساً بذلك، وهو مـايزال محتجزاً بعض ممتلكات كنيسة كانتربري، كما أنه اشتكى ضد بعض أساقفته المساعدين، لإهمالهم واجبـاتهم الأسقفيـة، فهم يجلسـون في محكمـة خـزينة الملك، ويتـولون فحص قضـايا العلمانيين، ويصدرون الأحكـام في قضايا الحيـاة والموت،

واشتكى أيضاً أن المنتفعين من الكهنة مع رجال من الطوائف المقدسة يحتفظون بين أيديهم بعدد من الكنائس، التي إليها معهود بوظيفة العناية بالأرواح، ومثل ذلك الأساقفة، حيث حذوا حذوهم، فهؤلاء الناس يتدخلون بالأعمال العلمانية، ويتورطون بالأحكام القضائية العلمانية، وبعدما عرض هذه الشكاوى وأمثالها على البابا، سأل ذلك الحبر استخدام عصا التصحيح لتقويم مثل هذه الآثام، وبعد تقدير صحيح لهذه القضايا، رأى صاحب القداسة البابا، أن شكاوى رئيس الأساقفة كلها مدعومة بالحق والمنطق، فأعطى أوامره على الفور، بوجوب الاعتناء بقضايا شكوى ذلك الأسقف، وأن تنال العدالة المستحقة، وترافع كهنة الملك، وعرضوا أسباباً كثيرة رداً على الشكاوى، لصالح الملك، لكن ذلك جاء بلا تأثير، لأننا إذا ماأردنا الحديث بإيجاز، حصّل نفوذ رئيس الأساقفة له، كل ماطلبه، وبعدما أكمل أعماله حسبما يرضيه، انطلق عائداً، غير أنه مات أثناء سفره، في دير القديس جيمينا Gemina في الثالث من آب، وماتت معه جميع المنافع التي نالها بشأن الأعمال المذكورة أعلاه.

كيف أقلع هنري عن الزواج من أخت ملك اسكوتلندا

في العام نفسه، في شهر تشرين الأول، كان ملك انكلترا، قد أكمل بناء قلعة ماتيلدا في ويلز، ولذلك عاد إلى انكلترا، وكان قد قرر آنذاك الزواج من أخت ملك الاسكوتلنديين، على الرغم من معارضة جميع الايرلات والبارونات وغضبهم، لأنهم قالوا بأنه من غير اللائق أن يتزوج الملك من الابنة الصغرى، في حين تزوج هيوبرت، المسؤول عن العدالة، الأخت الكبرى، واقتنع أخيراً بالاقلاع عن هذه النية بوساطة كونت بريتاني، وأعطى إلى تلك النبيلة خمسة آلاف مارك من الفضة، ومن ثم عادت إلى بلادها.

انتخاب رالف رئيساً لأساقفة كانتربري وإلغاء ذلك الانتخاب

بعد وفاة رتشارد، رئيس أساقفة كانتربري، الذي قصصنا خبره أعلاه، قرر رهبان كانتربري المطالبة بأن يكون رئيساً عليهم، رالف دي نيفيل **Neville** أسقف شيستر، الذي كان مستشار الملك، وبناء عليه، بعدما عملوا الانتخاب، قاموا في الرابع والعشرين من أيلول بتقديمه إلى الملك، الذي رحب بذلك وقبله، من جانبه وفيما يتعلق به، وقام على الفور بمنحه المزارع والممتلكات الأخرى العائدة لرئاسة الأساقفة، وعندها ذهب الرهبان الذين كانوا على نية الذهاب إلى روما، إلى رئيس الأساقفة المنتخب وسألوه المساعدة في تغطية نفقات رحلتهم، لكنه أخبرهم بوضوح أنه لن يدفع إليهم ولاحتى دريهم من أجل هذه الغاية، ومع ذلك، ذهبوا إلى روما، وطلبوا من البابا أن يثبت بوساطة السلطات الرسولية الانتخاب، أو أن يأخذ بالاقتراح الذي تقدموا به، وهنا طلب البابا القيام بفحص للقضية يتولاه —كما قيل— المعلم سيمون لانغتون، وأن يتعرف إلى سمات رئيس الأساقفة المقترح، وبعد هذا ردّ بأن رئيس الأساقفة المقترح هو من رجال الحاشية الملكية وأمي، ولذلك تولى إلغاء ذلك الانتخاب، وأعطى أوامر إلى مجمع الرهبان في كانتربري للقيام بانتخاب رئيس أساقفة مفيد لأرواحهم وأن يعمل على رفع شأن كنيسة انكلترا وتقدمها، وبناء عليه عاد الرهبان، وأخبروا إخوانهم كيف أنهم أخفقوا في تحقيق رغباتهم.

صلف رجال الدين الرومان

ثارت في هذه الآونة في انكلترا انفعالات مع هياج كبير، من الممكن دعوتها عمل طائش قام على التوهم، بسبب صلف رجال الدين الرومان، الذي دفع نبلاء المملكة، وكذلك الذين هم من مرتبة أدنى نحو الانفعال لإنزال عقوبات، كما هو محكي في النص التالي:

«إلى الأسقف الفلاني، وإلى هيئة الكهنة الفلانية، وإلى الجماعة كلها من الذين يؤثرون أن يموتوا على أن يهانوا من قبل الرومان، تحيات:

نعتقد أنه ليس سراً بالنسبة لكم كيف تصرف الأحبار الرومان ونوابهم حتى الآن بأنفسهم نحونا ونحو اللاهوتيين الآخرين في انكلترا، وكيف أنهم أضفوا منافع المملكة على أتباعهم وعلى مباهجهم في سبيل انزال الأذى والمضار بكم أنفسكم وبجميع الآخرين في المملكة، وكذلك كيف أصدروا وطبقوا أحكام الحرمان الكنسي ضدكم وضد أتباعكم من الأساقفة واللاهوتيين الآخرين، الذين إليهم تعود جمع المنافع بشكل صحيح، من أجل عدم اضفائكم أية منفعة على واحد من أبناء بلدكم حتى ينال خمسة من الرومان ذلك، أسماؤهم غير معروفة بعد، أي ابن رومفرد Rumfred وأبناء فلان وفلان من الناس، فهؤلاء سوف يعينون محلكم في كل واحدة من كنائسكم في جميع أرجاء انكلترا، وكل واحد سوف يكون دخله مائة باوند، بالاضافة إلى اثقالات أخرى، فرضوها على كل من النبلاء والعلمانيين في المملكة، وأرادوا جبايتها من النذور والصدقات التي عينت من قبلهم ومن قبل أجدادهم من أجل الحفاظ على الفقراء، وكذلك على الكهنة، وعلى رجال الدين الآخرين، فيما يتعلق بممتلكاتهم ومنافعهم، وهم غير قانعين بهذا كله، بل يرغبون أن ينتزعوا من كهنة المملكة جميع المنافع التي بأيديهم حتى آخرها، من أجل منحها واضفائها على أتباعهم الرومان، أي ليس وفقاً للعدالة، بل تبعاً لأهوائهم ومسارهم، وهم يسعون بهذه الطريقة إلى تحقيق ماجاء في النبوءة:

«لقد نهبوا المصريين لإغناء العبرانيين، وأن يضاعفوا أناسهم، وأن لايزيدوا سرورهم»، وهكذا كدسوا الأحزان فوق الأحزان، حتى بات الحال بالنسبة لنا الأفضل أن نموت على أن نعيش هكذا ونحن مظلومين، وبناء عليه، مع أنه قد يكون صعباً بالنسبة لنا «الرفس ضد القراميد»، إنه أيضاً الذي يحك أنفه بقسوة كبيرة يسيل الدم، وبناء عليه، نحن نعدّ حدة هؤلاء الذين جاءوا إلى هنا أولاً كرومان غرباء، والذين

.ـم الآن لايستهدفـون فقط الحكم، بل إدانتنا، وأن يفرضـوا علينا أثقالاً لاتحتمل، وهم على غير استعـداد لرفع احدى أصـابعهم، بناء على ذلك قررنا بمـوافقة عامـة —مع أن ذلك جاء متأخـراً— أن نعارضهم، بدلاً من اخضـاع أنفسنا أية مـدة أطول لظلمهـم الذي لايحتمل، أو لتحمل عبـودية سيئة، وبناء عليـه إننا نمنعكم بكل دقة —أثنـاء مسعانا لانقـاذ الكنيسـة، وكـذلك الملك والمملكة من نير هذه العبـودية الظالمة— من التدخل في قضية هؤلاء المقحمين لأنفسهم في القضـايا المتعلقة بالرومان وبمواردهم، واستقـروا وكونوا متأكـدين أنكم إذا ماخـرقتم هذا الأمر، الذي يحرمه الرب، سـوف تكون ممتلكاتكم عرضة للحـرق، والعقوبات التي سوف ينالها الرومان بأشخاصهم، سوف تنالونها. وداعاً».

التحريم ضدّ بيع المزارع أو الموارد إلى الرومان

«إلى رجال الدين، وإلى الآخـرين الذين بأيديهم مـزارع مضمونة من الكهنة الرومان، تقـدم إليكم الجماعة المذكـورة أعلاه التحيـات، إنه بعد مظالم لاعدد لها ولاحصر وأضرار هائلة، تعرفـونها أنتم جميعاً، وتعلمون أيضاً كيف أنها أنزلت من قبل الرومان بمملكة انكلترا حتى هذا الحين، من أجل إلحاق الأذى بالملـك وبنبـلاء المملكة، في المجـال الذي يتعلق بنذورهم وصدقاتهم وبمنافعهم، وبما أنهم يسعون إلى حرمان رجال دين هذه المملكة من منـافعهم، لإضفـاء ذلك على الرومـان في سبيل إلحاق الأذى الأعظم والعار بالمملكة وبنا أنفسنا، لقـد قررنا بموافقة عـامة من النبلاء —مع أن ذلك جاء متأخراً— أن نعارضهم، بدلاً من أن نخضع لهم من الآن فصـــاعـــداً، وأن نـرضخ لظلمهم الـذي لايحتمل، وأن نضبطهم بأن نسحب منهم جميعاً منـافعهم في جميع أرجاء المملكة، حتى يتوقفوا عن متابعة ظلمهم مدة أطول، وبناء عليه نحن نأمركم بدقة، أن تتوقفوا من الآن فصاعـداً عن الدفع للرومان ضمان الكنائس، أو موارد الأراضي التي بين أيديكـم منهم، أو مـدانين لهم بها، بـل أن تجعلوا هذه

الايجارات والموارد جـــاهزة وأن تـرسلوا بها إلى وكيلنا المعين مـن قبلنا برسـالة، من أجل أنـه في يوم الأحـد الذي يغنى فيـه بمـزمـور «دعـوا القدس تبتهج»، سوف يؤكد رعـاة الديرة، ورؤساء الرهبان في كنائسهم والقسـاوسة الآخـرين ورجال الدين، والعلمانيين في كنائسهم، والبقيـة، بأنكم إذا لم تطيعوا هذا، فإن ممتلكـاتكم سوف تكون عرضـة للاحراق، ولسوف تجنون الخطر الذي الرومان معـرضون له بأشخاصهم، وداعاً»، ونشرت هذه الجماعـة المتقدم ذكرهـا، بوساطة فـرسانها ووكلائهـا، هذه الرسائل، وهي ممهورة بختم جديد، عليـه جرى حفر سيفين، وقد نقش النص التـالي بين السيفين: «انظر هاهنا سيفين»، حسبما جـرت العـادة بالاقتبـاس بـالنسبـة للكنائس الكاتدرائيـــة، مبينين أن كل من يجدوه معارضاً لهم، سوف يعاقبونه وفقاً لقوانينهم وأوامرهم.

المحكمة اللاهوتية التي عقدت في دير القديس ألبان والقاء القبض على سينشوس

وفي تلك الآونة نفسها، في السابع عشر من كـانون الأول جرى عقد محكمـة لاهوتيـة كبيرة في دير القـديس ألبـان، وضمت رعـاة الديرة، ورؤساء الـرهبان، ورؤساء الشمامسـة وجميع نبـلاء المملكة تقريبـاً، وقد اجتمعوا جميعاً بموجب أوامر البابا، من أجل احداث طلاق بين كونتسة اسكس وزوجهـا، إذا توفـر سبب جيـــد لذلك، وفي اليـوم التـالي بعـد انفضـاض المؤتمر، وعندما كـان الجميع عائـدون إلى مواطنهم المختلفـة، كان هناك رجل دين روماني، اسمه سينشوس Cincius وكان كاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، قد جـرى اعتقاله بوساطة توكيل من قبل الجمعيـة المتقـدم ذكـرها أعـلاه، وقـد نقله بعيـداً بعض الرجـال المسلحين، الذين كـــانت رؤوسهم مغطـاة، وقـد نجـا المعلـم جـــون الفلورنسي، الذي كـان رئيس شمامسة نورويك، فهـو كان حـاضراً أثناء المؤتمر، وقـد نجـا من القبض عليـه، وهـرب إلى لندن، حيث بقي هناك

متخفيـاً لعـدة أيام، وبعـد مـرور خمسة أسـابيع أعيـد سينشـوس سـالماً وصحيحاً إلى لندن، لكن —كما قيل— وحافظة نقوده فارغة.

مصادرة بالقوة للقمح في ونغهام

عام ١٢٣٢م، فيه عقد الملك هنري بلاطه في عيد الميلاد في وينكستر، حيث قـدم بطرس أسقف تلك المدينة الأشيـاء المحتـاجـة للاحتفـاء به، وقدم هدايا ملابس العيد إلى الملك، وكذللك إلى أتباعه، وخلال أسبوع عيـد الميـلاد كـانت هناك مخازن حبـوب مليئة في ونغهـام Wingham ملكاً لكاهن رومـاني وقـد جـرى نهبهـا من قبل مجمـوعـة صغيرة من الرجـال المسلحين، الـذين كـانت رؤوسهم مغطـاة، وقـد عملوا —كما قيل— بناء على أوامـر من الجمعيـة التي تقـدم ذكـرها أعـلاه، وعندمـا سمع المشرف والوصي على تلك الكنيسة بهذا العـدوان، ذهب إلى عمدة الكونتيـــة، وأخبره بهذا الخرق لســلام الملك، وعـن الأذى الذي أنزل بمـولاه، وماكـان من العمدة إلاّ أن أرسل وكـلاءه مع بعض الجنود إلى المكان، وأمـرهم أن يكتشفــوا مـاكـانتـه القضيــة، ولدى وصـولهم إلى المخـازن، رأى الجنود هناك أولئك الـرجـال المسلحين الذين كـانوا غير معروفين تمامـاً بالنسبة إليهم، وكـانوا آنذاك قد أفرغـوا المخازن تقـريباً، وباعـوا القمح وفق شروط جيـدة، لصالح جميع المنطقـة، وأعطوا أيضـاً من باب الصدقة شطراً منه إلى الفقراء الذين طلبوا ذلك، ولدى وصول الجنود إليهم سألوهـم من أين جـاءوا، وكيف تجرأوا على خـرق سـلام الملك، واقتراف مثل هذا العدوان، وبناء على ذلك أخـذوا الجنود جانباً، وأروهم على الفـور تراخيص من الملـك، تمنع أي انسـان من اعـاقتهم، ولدى رؤية الجنود بأنفسهم ذلـك، ومعهم بعض الآخـرين الذين أقبلوا إلى هناك، انصرفوا بهدوء، وتمكن هؤلاء الرجال المسلحون، خلال خمسة عشر يومـاً مـن بيع جميع القمح، ومن ثـم انصرفـوا وجيــوبهم مليئة، ونقلت أخبار هذه الواقعة إلى روجر أسقف لندن، وبناء عليه جمع عشرة

أساقفة، وقام في اليوم الذي أعقب عيد القديسة العذراء المباركة سكولا ستيكا Schola stica [١٠-شباط]، في كنيسة القديس بولص في لندن، فحرم كنسياً جميع مقترفي هذه العملية من جرائم العنف، وأدخل في هذا القرار جميع الذين ألقوا أيديهم بعنف على سينشوس، الكاهن في كنيسة لندن، وشمل ذلك أيضاً جميع أعضاء الجمعية المذكورة أعلاه، وكذلك جميع الذين كتبوا وختموا الرسائل التي تقدم ذكرها أعلاه.

كيف طلب الملك هنري مساعدة مالية

في السابع من آذار، في هذا العام، اجتمع نبلاء المملكة، والعلمانيين والأساقفة في مؤتمر جرى عقده في ويستمنستر، وذلك بناء على طلب من الملك، وحضوره، وهناك شرح لهم، أنه متورط بديون ثقيلة، بسبب الحرب التي قام بها مؤخراً في القارة، وهو مدفوع بسبب الحاجة ليطلب المساعدة منهم جميعاً وبشكل عام، وإثر سماع هذا، قام رالف ايرل أوف شيستر، فتحدث باسم بقية النبلاء، وعمل رداً على الملك أوضح فيه بأن الايرلات، والبارونات، والفرسان الذين كانوا مستأجرين اقطاعيين رئيسيين لدى الملك، والذين كانوا حاضرين أيضاً بأشخاصهم، بأنهم صرفوا أموالهم وبددوها من دون هدف وغاية، إلى حد أنهم عندما غادروا القارة، غادروها رجالاً فقراء، وبناء عليه، إنه بموجب الحق، ليس عليهم تقديم عون إلى الملك، وعند ذلك سأل العلمانيون جميعاً من النبلاء الإذن بالانصراف، وغادروا المؤتمر، أما الأساقفة فقد أجابوا على طلب الملك قائلين بأن هناك عدداً كبيراً من الأساقفة، ورعاة الديرة، الذين وجهت الدعوة إليهم، لكن لم يحضروا، ولذلك سألوا تأجيل القضية حتى يتمكنوا من الاجتماع ثانية في يوم يجري تحديده، وبناء على ذلك جرى تحديد يوم، وكان بعد مضي أربعة عشر يوماً، بعد عيد الفصح، ليجتمعوا فيه من أجل تقرير الذي ينبغي فعله بموجب الحق.

وفي العام نفسه، انتخب المجمع الديـري في كانتربري، رئيس الرهبان جـون، ليكـون رئيس أسـاقفتهـم، والمسـؤول عن أرواحهـم، ولدى تقديمهم إياه إلى الملك قبله، ثم إنه انطلق يريد روما ليحصل عل تثبيت صحيح لهذا الانتخاب من الكرسي الرسولي.

رؤيا مدهشة تتعلق بالملك رتشارد

وفي تلك الآونة، كـان هنري أسقف روكستر، يؤدي قداساً إلهيا، في يوم الأحـد، عندمـا يغنى المزمـور الذي فيـه (تعـالوا إلى الماء، أنتم أيها العطاشى جميعـاً)، وكـان ذلـك في مكان اسمـه ستينغبـورن Sit-tingbourn بحضـور رئيـس الأسـاقفـة المنتخـب لكانتربري، ومحاطاً برجال الدين وبالناس، عندما عمل بثقة وجرأة الاعلان التالي:

«اخـواني في الرب الذين أنتم هنـا حضـوراً، افـرحـوا جميعـاً، كـونوا متأكدين وواثقين أنه في اليوم الأخير نفسه، قد خرج رتشارد، الذي كان من قبل ملك انكلترا، وستيفـن، رئيس أسـاقفـة كـانتربري الأخير مع واحـد من قساوسـة رئيس الأساقفـة المذكـور، قد خـرجوا من مـوضع العذاب، وظهروا أمام الجلالة اللاهوتية، وهؤلاء الثلاثة فقط قد غادروا المطهرة في ذلك اليـوم، ويمكنكم أن تثقوا ثقـة مطلقة بكلماتي، لأن هذا قد أبيح لي برؤيا، أو لواحد آخر ثلاث مرات، بكل وضوح، إلى حد أن جميع الشكوك قد زالت من عقلي»، وبما أن الاشارة قد وردت هنا حول الملك النبيل رتشارد، سوف أقص خبر واقعة حدثت له، من أجل تنوير قرائي.

كيف رأى رتشارد تمثال المسيح حانياً رأسه نحو متعبد

كان هناك خلال حكم الملك رتشارد، أحـد الفرسان يعيش في الغابة الجديدة، وقد مـارس لمدة طويلة بشكل سري صيد غـزلان الملك، وقد ألقي القبض عليـه في احـدى المنـاسبـات، ومعـه لحم طرائـد مسروق،

وبقرار من محكمة بلاط الملك المذكور أدين بالنفي، وكان رتشارد الملك الرحيم قد لطف القانون المتعلق بلحوم الطرائد المسروقة، الذي كان لأسلافه قاسياً جداً، حيث كان الذي يقبض عليه متلبساً بهذا العدوان، كانت تقتلع عيناه، وتجتث أعضاؤه مع يديه ورجليه، لكن هذه العقوبات بدت إلى الملك التقي رتشارد أنها غير انسانية، في أن يحرم الانسان، الذي خلق على شكل الرب من حياته أو من أطرافه من أجل حيوان، فالحيوانات، قد أعطيوا —وفقاً لقانون الطبيعة للاستخدام العام من قبل الجميع— فبموجب تلك القوانين بدا الانسان وكأنه أقل أهمية من حيوانات البرية، وقد رأى على كل حال وقدّر، أن العقوبة الكافية تماماً بالنسبة إلى أي انسان أمسك متلبساً باقتراف تلك الجريمة، إما أن ينفى من انكلترا، أو أن يدخل السجن، محتفظاً بحياته وأطرافه، وأرسل الفارس المتقدم الذكر إلى المنفى، وهذا الرجل الذي كان قد تمتع من قبل بجميع مباهج الحياة مع زوجته وأولاده، قد أرغم الآن على التسول من أجل خبزه بين الأجانب، وقرر الفارس بعد تقليب لوجوه القضية، أن يلتمس أخيراً رحمة الملك، وأن يطلب إعادة ملكيته الأرضية له، وبناء عليه ذهب إلى الملك في نورماندي، حيث وجده في الصباح الباكر في كنيسة على وشك الإصغاء إلى قداس، ودخل الفارس الكنيسة وهو يرتجف، ولم يتجرأ على أن يرفع عينيه نحو الملك، الذي وإن كان أكثر الناس رشاقة وبهاء أن تنظر إليه، كان هناك فيه شيئاً مرعباً في نظرته، ولذلك ذهب إلى تمثال المسيح على الصليب، فبكى بدون توقف، والتمس وهو جاث على ركبتيه من المصلوب، من خلال نعمته التي لايمكن وصفها، أن يصنع سلاماً بينه وبين الملك، به يتمكن من استرداد ميراثه المفقود، ورأى الملك الفارس، وهو يصلي هكذا بحرارة، ويبكي بتقوى غير خفية، وهنا شاهد واقعة رائعة جديرة بالحديث عنها، لأنه كان كلما حنى الفارس —الذي لم يعرفه بين حاشيته— ركبتيه ليتعبد التمثال، قام التمثال بكل تواضع بحني رأسه وكتفيه، وكأن ذلك

كـان استجابة للفـارس، وأصيب الملك بالدهشـة والعجب لدى رؤيتـه هذا يتكرر مـراراً، ومـا أن انتهت أعمال القـداس حتـى أرسل خلف الفـارس ليتحدث إليـه، وسأله من كـان هو، ومن أين جاء، وردّ عليـه الفارس آنذاك وهو خـائف، وقال: «إنني يامـولاي من رعيتك التابعين لك، مثلما كان أجدادي أيضـاً»، ثم بدأ يقص عليه تاريخه، وأخبره كيف أنه حـرم من ميراثه، ونفي مع أسرته، لأنه ألقي القبض عليـه مع بعض لحم الطرائـد المسروقـة، ثم سأل الملـك الفـارس: «هـل فعلت قط في حيـاتـك عمـلاً جيـداً صـدوراً عن الاحترام والتشريـف للصليب المقدس؟»، ثم إن الفارس، بعدما تفكر حـول أحداث ماضيه بكل دقة، قص على الملك الحادثة التالية التي قام بها صدوراً عن احترامه للمسيح.

كيف أبقى الفارس على حياة عدوه صدورا عن احترامه للمسيح

ولقـد قال: «اقتسم أبي مع فـارس آخـر، بينهما بلدة، آلت إليهما بحق الميراث، وفي الوقت الذي كان فيه أبي محاطاً بجميع أنواع الثروات، كان الفارس الآخـر على العكس، دائماً فقيراً وبحاجـة، وصار حـاسداً لأبي، وقد قـام بشكل خياني بقتله، كنت آنذاك طفـلاً، لكن عندما وصلت إلى سن الرجولة ونصبت في ميراثي الأبوي، اتخذت قراراً الزامياً بقتل ذلك الفارس، انتقاماً لموت أبي، وقـد جرى تحذيره وانذاره مسبقاً بنيتي، وقد نجا لمدة سنوات ببراعته من المصائد التي نصبتها له، وبعد طويل وقت، كنت في يوم الاستعداد، الذي كان هو اليوم الذي حمل فيه يسوع المسيح صليبـه من أجل خـلاص العـالم، ذاهبـاً إلى الكنيسـة، لسماع القـداس، فرأيت عدوي أمامي أيضـاً وهو على طريقه إلى الكنيسة، فأسرعت أسير خلفه، وجـردت سيفي لأقتله، عندما نظر بالصدفـة نحو الخلف، ولدى رؤيتـه لي أنقض عليـه، هرب نحـو صليـب كـان واقفـاً قـرب الطريق، وحيث أنه كان منهكاً بسبب تقدمه بالسن، لم يكن قادراً على الدفاع عن نفســه، وعندما حـاولت سـاعياً لقتلـه بسيفي المشهور، ولتحطيم رأسـه

واخـراج ونثـر دمـاغـه، طوق الصليب بـذراعيـه، ورجـاني باسم ذلك المسيح، الذي علق في ذلك اليـوم على الصليب، لتخليص العالم كله، أن لا أقتله، ووعد مخلصاً ونذر، أنه سوف يعين قسيساً يؤدي قداساً اعتباراً من ذلك اليوم من أجل روح والدي الذي قتله، وأن يكون ذلك يومياً، وعندمـا رأيت الرجل العجوز وهـو يبكي أشفقت عليه، وصـدوراً عن حبي وتقديري للذي من أجـل خلاصي وخلاص الجميع قـد صعد إلى الصليب، وكرسـه بدمه الأعظم قداسة، فعفـوت عن ذلك الفارس من أجل مقتل أبي»، وعندها قـال الملك للفـارس: «لقـد تصرفت بحكمـة، لأن ذلك المصلوب قـد سدّد لك الآن حسنة إثر حسنة أخـرى»، ثم إنه استدعى الأسـاقفة والبارونات الذين كـانوا هناك معه، وعلى مسمع من الجميع قصّ عليهـم الرؤيا التي شـاهدها، وكيـف أنه كـان كلما عمل الفارس انحناءة بركبتيه، كان تمثـال المسيح يقوم بتواضع بانحناءة برأسه وبكتفيه، ثم إنه استـدعى مستشاره إليـه، وأمره أن يكتب رسالة مـوثقة يأمر بها العمـدة الذي سوف يسميـه الفارس إليـه، أن يقوم فـور رؤيته الوثيقة، بإعـادة جميع الممتلكات العائـدة إلى الفارس، إليـه، في الأحوال نفسها كما تسلمها أثناء القيام بنفيه.

صبر الملك أثناء مضايقته

في الوقت الذي نتحدث فيـه عن فضائل ذلك الملك النبيل، علينا أن لانحذف ذكر، أنه فور تتويجه، قدم دوماً عدالة دقيقة إلى كل واحد، ولم يسمح قط بحرفها بوساطـة الرشوى، ومنح على الفور جميع الأسقفيات ورعـاة الديرة الشاغـرة إلى من يشغلها، من دون شراء، وجـاء المنح إلى كهنة جرى انتخابهم بشكل قانوني، ولم يمنح هذه المناصب، ولم يعهد بها قط إلى رجـال علمانيين، ونظر إلى جميع رجـال الدين المكرسين، ولاسيما أتباع الطوائف الدينية منهم، نظرة احترام كبيرة، ونظراً لاحترامه ليسوع المسيح، كان يخاف كثيراً من ايذائهم، حتى أنه حـدث في إحدى المرات،

عندما كان أساقفة المملكة جميعاً مجتمعين أمام الملك بناء على أمر من البابا، حتى يعملوا منحة جزء من عشرين من جميع الممتلكات المتحركة لمساعدة الأرض المقدسة، وكانوا جالسين على انفراد يتباحثون حول القضية، قال الملك بصوت منخفض لغيوفري فتز— بيتر، وإلى وليم بريوير اللذان جلسا عند قدميه: «هل تريان أولئك الأساقفة الجالسين هناك؟»، فأجاباه: «نعم نحن نراهما يامولاي»، وعندها قال الملك لهما: «لو علموا إلى أي مدى أحترمهم بالرب، وأنا أخاف منهم، وكيف أنني لاأرغب بايذائهم، سوف يدوسون عليّ وكأنني حذاء قديم مهترىء»، وينبغي أيضاً أن نذكر باعجاب، كيف أنه تخلى عن مسار ومباهج المملكة التي حصل عليها حديثاً، حباً منه للملك الأبدي، وكيف أنه أنفق أمواله وأموال أبيه المتوفى في خدمة المسيح، ومن أجل تحرير الأرض المقدسة، وكيف استولى بشجاعة على جميع أرض الميعاد، إلى جانب مدينة القدس المقدسة، وانتزعها من أيدي أعداء الصليب، وعندما نقصت أمواله هناك، عمل هدنة لمدة ثلاثة أعوام، وحصل على إذن من صلاح الدين بالسماح للكهنة بإقامة قداس للصليب عند ضريح ربنا، وذلك كل يوم حتى انتهاء مدة الهدنة، وأن يكون ذلك على حسابه الخاص، ثم إنه غادر إلى بلاده، وجند قواته، وجمع مالاً، وعند نهاية الهدنة عاد، تاركاً المملكة وجميع الممتلكات التي كانت تحت سلطانه في البلدان الغربية، حتى يتمكن من التتويج ملكاً في مدينة القدس المقدسة، وتولى قيادة قواته، وقاتل في معارك رب السبت، وسعى لاخضاع أعداء الصليب مادام حياً، لكن عدو الجنس البشري الذي هو حسود بشكل دائم للأعمال الجيدة، ولتقدم المسيحية، أثار ضد هذا الملك التقي، دوق النمسا، والامبراطور الروماني، الذي نصب له المصائد، أثناء عودته من الأرض المقدسة، وعندما اعتقل من قبل أعدائه، بيع مثل ثور أو أتان إلى الامبراطور الروماني (١)، ثم سجن، وعومل بسوء بعيداً عما يليق

١- تتناقض هذه الرواية مع جميع الروايات المتداولة.

بشخص عظيم مثله، وأرغم على دفع مبلغ كبير فدية له، وفضلاً عن هذا أعاق الملك الفرنسي خططه بغزوه ممتلكاته، عندما كان مشغولاً في خدمة الصليب، ومع أنه أعيق هكذا من قبل أعدائه في جميع الجهات، ثابر في عقله العمل على نيل الشهادة، التي لم يكن قد نالها بعد بالجسد، وكان قد قرر أن يحصل عليها في أرض الميعاد، لأنه اشتاق إلى العودة ولأن يموت في خدمة الصليب، وبالاضافة إلى هذه المحن كلها، عندما كان الملك المذكور غائباً في الحملة الصليبية، تآمر أخوه الايرل جون لاخضاع انكلترا لحكمه، وحاصر القلاع، وعمل حرباً ضد أخاه، ولكن لإخلاص الانكليز في ولائهم، أحبطت خططه.

ولكم هو رائع ثبات هذا الملك النبيل، الذي لم ينحن قط أمام العدوان، ولم يستبد به العجب أثناء النجاحات، وبدا دوماً مشرقاً، ولم يظهر فيه قط أية اشارة على عدم الثقة بالنفس، ومنحت هذه السمات وماماثلها ملكنا رتشارد مجداً في نظر الرب العلي الأعلى، وعلى هذا عندما حان الوقت الآن، وعندما وصلت رحمة الرب، جرى نقله باستحقاق —كما نعتقد— من أماكن العقوبة، إلى المملكة السرمدية، حيث وضع المسيح، ملكه الذي خدمه باخلاص، هناك لجنوده تاج العدالة، الذي وعد به الرب إلى الذين يحبونه، وحيث يعيش بحبور برفقته أولئك القديسين الذي أنقذ آثارهم في أرض الميعاد، وخلصها من صلاح الدين، مقابل اثنتين وخمسين قطعة ذهبية، مع التقدير أن هؤلاء القديسين ينبغي أن يساعدوه وقت الشدائد بوساطتهم بالحصول على حظوة الرب، وكانت هذه الآثار المقدسة قد تولى جمعها المسلمون من أرجاء اليهودية والجليل، في أيام الاستيلاء على الأرض المقدسة، وعلى الصليب المبجل، ووضعت في أربعة صناديق من العاج، كان كل واحد منها ثقيلاً إلى حد أنه ما كان بامكان أربعة رجال أن يحملوه إلاّ بصعوبة، وقد جرت حكاية هذه الوقائع بشكل كامل وأكثر تفصيلاً، أثناء رواية وقائع حكم الملك رتشارد المذكور.

بيع حاصلات رجال الدين الرومان

وجرى في العام نفسه الاستيلاء على قمح رجال الدين الرومان، وبيعه من قبل بعض الناس الذين كانوا غير معروفين، وذلك وفق شروط جيدة لصالح كثيرين، وقد شرعوا بهذا العمل الجريء في أيام عيد الفصح، واستمروا به من دون أية معارضة، وكانوا كرماء في منح الصدقات إلى المحتاجين الذين جاءوا إليهم، ونثروا أحياناً المال بين الفقراء، وجلس رجال الدين الرومان متخفين في الديرة، ولم يتجرأوا على التذمر من الأذى الذي لحق بهم، ذلك أنهم فضلوا أن يفقدوا جميع ممتلكاتهم على أن يحكم عليهم بالموت.

وكان الذين قاموا بهذه الأعمال الجريئة حوالي الثمانين من حيث التعداد، وكانوا في بعض الأحيان أقل من ذلك،وكان مقدمهم واحد اسمه وليم، ولقبه ويزر Witherوقد أطاعوا تعليماته في كل شيء، ومالبثت أخبار هذه الوقائع أن وصلت إلى مسامع الحبر الأعظم، فغضب غضباً عظيماً، وبعث برسالة حادة إلى ملك انكلترا، لامه فيها للسماح لمثل هؤلاء اللصوص بالاعتداء على اللاهوتيين في مملكته، دون أن يقدم الاحترام إلى اليمين الذي أداه، عندما جرى تتويجه، الذي قضى ليس فقط بالحفاظ على السلام نحو الكنيسة، بل بالالتزام بتطبيق عدالة دقيقة نحو رجال الدين ومثل ذلك نحو العلمانيين، وأمره بالرسالة نفسها بأن يلتزم بدقة —تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي والحرمان من شراكة المؤمنين— بالأمر بالقيام ببحث دقيق عن مقترفي هذه الجريمة، ومعاقبة المجرمين بشدة، من أجل أنه بمعاقبتهم يمكن أن ينزل الخوف والرعب في قلوب الآخرين، كما أنه بعث رسالة إلى بطرس أسقف وينكستر، وإلى راعي دير القديس إدموند، بأن يقوما ببحث دقيق وأن يتقصيا في الأجزاء الجنوبية من انكلترا، وأن يتوليا إدانة جميع الذين يجدونهم مدانين بهذه الجريمة، وأن يعدوهم محرومين كنسياً، حتى

يأتوا إلى روما من أجل التحليل من قبل الكرسي الرسولي، ووفق الطريقة نفسها، عهد في شمالي انكلترا، القيام بالبحث نفسه إلى رئيس أساقفة يورك، وإلى أسقف درم، وإلى جون الذي كان كاهناً في يورك، ورومانيا من حيث المولد، وأمرهم بارسال الذين هم مجرمين مدانين بهذه الجريمة، دون الالتفات إلى أي مرافعة استئناف.

البحث الذي عمل في قضية السرقة المتقدم ذكرها

وبناء عليه أقيم بحث وتقصي حول هذه القضية من قبل الملك، والأساقفة، والوكلاء الذين تقدم ذكرهم أعلاه، وبوسائط الحرمان الكنسي بناء على يمين، وعن طريق تقديم الشهود جرى الكشف عن عدد من المعتدين، كان بعضهم رئيسيين، وبعضهم الآخر محرضين، وكان بعض هؤلاء من أساقفة الملك ومن رجال الدين، وكان بعضهم أيضاً من رؤساء الشمامسة والعمداء، مع عدد من الفرسان والعلمانيين، وكان هناك أيضاً بعضاً من عمد المناطق والرؤساء الإداريين لديهم، وقد اعتقلوا بناء على أوامر الملك وسجنوا بسبب هذه الجريمة، وأخذ آخرون حذرهم، ورأوا أن سلامتهم بالفرار، ولذلك هربوا ولم يعد بالامكان العثور عليهم، وقد قيل بأن هيوبرت دي بورغ المسؤول عن العدالة لدى الملك، كان هو المحرض الرئيسي في هذه القضية، بسبب أنه أعطى هؤلاء اللصوص تراخيص من الملك، ومنه شخصياً، لمنع أي انسان من اعتراضهم أثناء السرقات المذكورة، وكان بين البقية الذين وصلوا إلى الملك، روبرت دي توني Tuinge وكان رجلاً جريئاً، وكان قد اتخذ لنفسه اسم وليم ويزر، ومع الآخرين الذين حرضوه باع محاصيل رجال الدين الرومان، وقد استأجر خمسة مسلحين ليكونوا أعواناً له ومساعدين في اعتداءاته، وأعلن هذا الرجل بشكل مكشوف أنه خرق القانون كراهية منه للرومان، وفي سبيل انتقام عادل، لأن أولئك الرومان المذكورين، كانوا يسعون بموجب قرار من الحبر

الروماني، وبشكل غير شرعي، إلى حرمانه من الكنيسة الوحيدة التي امتلكها، وأضاف أيضاً يقول بأنه بالحري يفضل بأن يحرم كنسياً لبعض الوقت على أن يسلب من مصدر رزقه من دون محاكمة، وبناء عليه نصح الملك مع الوكلاء المذكورين هذا الفارس، بعدما حصل على القرار القاضي بحرمانه، بالاسراع بالذهاب إلى روما، وأن يعرض قضيته أمام صاحب القداسة البابا، وليبرهن أنه استحوذ على الكنيسة بشكل شرعي وقانوني، وأعطاه الملك رسائل تشهد له، ليسلمها إلى البابا، والتمس من ذلك الحبر، أن يوافق بلطفه على منح الفارس طلبه.

كيف جرى إلغاء انتخاب رئيس رهبان كانتربري في روما

في اسبوع أحد الشعانين من العام نفسه، ذهب رئيس الرهبان جون، الذي هو رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، إلى روما، وأظهر وثيقة انتخابه وأراها للبابا، الذي بناء عليه أمر المعلم جون دي كولونا Co-lonna وبعض الكرادلة الآخرين بفحصه، واكتشاف فيما إذا كان شخصاً مناسباً ولائقاً للترقية إلى ذلك المقام الرفيع، وبعد امتحان لمدة ثلاثة أيام، سألوه خلالها بدقة حول تسع عشرة نقطة، أعلنوا —كما قيل— إلى البابا أنهم لم يجدوا سبباً شرعياً لرفضه، لكن الذي بدا —على كل حال— للبابا هو أنه كان متقدماً بالسن كثيراً، وبسيطاً، وبالتالي غير لائق لمثل هذا المقام الرفيع، ولذلك نصحه بالاستقالة، وبتواضع قام رئيس الأساقفة المنتخب بالاستقالة من الانتخاب الذي عمل، وطلب الاذن ليعود إلى الوطن، وعندئذ منح البابا اذناً إلى الرهبان لانتخاب واحداً آخر، وأمرهم أن يختاروا واحداً يمكن أن يعهد إليه بواجبه، وبالمسؤولية الأسقفية.

كي صرف الملك الانكليزي بعض وزرائه من مناصبهم

وأغار في هذه الآونة للويلين الزعيم الويلزي على أراضي بعض

البارونات الانكليز، وشرع حسب طريقته المعتادة بالعيث فساداً في المنطقة بالسلب والنار، وبناء عليه ذهب بطرس أسقف وينكستر وبعض المستشارين الملكيين إلى الملك، وأعلنوا أنه عار كبير بالنسبة لتاجه أن يقوم هؤلاء اللصوص الذين لايساوون شيئاً، أي الويلزيين، بالجولان كما يريدون خلال أراضيهم وأراضي هؤلاء البارونات، وهم يعيثون فساداً في جميع المناطق بالنار، ولايتركون شيئاً دون أن يتعرض للأذى، وقال الملك في جوابه لهم:

«لقد أخبرني رجال المال لدي، أن جميع موارد خزينتي بالكاد تكفي لشراء طعام عام لي وملابس، ولدفع العطاءات المعتادة، وبناء عليه الفقر يمنعني من الدخول بالحرب»، ورد مستشارو الملك عليه قائلين:

«إذا كنت فقيراً، ماعليك إلاّ لوم نفسك لذلك، لأنك حولت جميع المناصب الشاغرة، والمسؤوليات، والوظائف السامية، وأبعدتها عن الخزانة، ولذلك لايمكن تسميتك ملكاً لثرواتك، بل فقط بالاسم، لأن أجدادك الذين كانوا نبلاء، وأغنياء بمجد ثرواتهم، قد جمعوا مبالغ من المال لاحد لها ولاحصر، من منتجات المملكة وتعويضاتها»، وقد أثير الملك من قبل هؤلاء الذين سيكون سيئاً أن نذكرهم بالأسماء، وغضب بسبب الاهانات التي تلقاها من مستشاريه، وطلب على الفور من عمد المناطق، ومن النواب، والوكلاء الآخرين التابعين له، تقديم حساب عن الموارد، وعن كل شيء له علاقة بالخزينة الملكية، وكل من وجده بينهم مجرماً بالغش، صرفه من وظيفته، وطالب المعزولين بالمال المستحق له، مع الفائدة، وأبقاهم في السجن حتى دفعوا الدين كله، وعزل رالف الذي لقبه بريتون Breton وكان المتسلم لخزينته الخاصة، من وظيفته، وأخذ منه ألف باوند من الفضة، وعيّن مكانه بطرس دي ريفوكس Rivaux وكان من أهل بواتو، وهكذا قام الملك في وقت قصير، فملأ ثانية وظائفه الشاغرة، لكن ليس اشغالاً كاملاً.

كيف طلب الملك جرد حساب من هيوبرت المسؤول عن العدالة

وفي تلك الآونة، صرف الملك —بناء على نصيحة بطرس أسقف وينكستر— هيوبرت دي بورغ المسؤول الرئيسي عن العدالة، وعزله من وظيفته، وفي التاسع والعشرين من تموز، عيّن ستيفن دي سيغريف —وكان فارساً— مكانه، وبعد مضي عدة أيام، غضب كثيراً من هيوبرت الذي عزل مؤخراً، فطالبه بأن يقدم على الفور جرد حساب عن جميع الأموال الذي دفعت إلى خزينته، وعن الديون المستحقة له، خلال أيام أبيه، وأيضاً خلال أيامه، ثم طالبه بتقديم حساب عن ممتلكاته، التي آلت إليه وتملكها يوم وفاة وليم إيرل بيمبروك، الذي كان وقتها المارشال والمسؤول عن العدالة، وكذلك بالنسبة لما استحوذ عليه في انكلترا، وويلز، وايرلاندا، وبواتو، وأيضاً فيما يتعلق بالامتيازات التي كانت آنذاك بين يديه في الغابات، والمطارد، والكونتيات وفي أماكن أخرى، وتبيان كيف أنه احتفظ بهم، وكيف جرى عزلهم، وكذلك فيما يتعلق بضرائب الجزء من خمسة عشر، ومن ستة عشر، والدخول الأخرى المتسحقة لخزينته، وكذلك الحال بالنسبة للمعبد الجديد في لندن وفي أماكن أخرى، وكذلك مايتعلق بالغرامات التي فرضت من أجل التخلي عن حقوقه في الأرض، وكذلك الحال بالنسبة للممتلكات المتحركة، وكذلك مايتعلق بالخسائر التي عانى —الملك— منها بسبب اهمال هيوبرت، ومثل هذه الأموال التي جرى تبديدها بالحرب أو في أي طريقة أخرى، من دون أية فائدة له شخصياً، ومثل ذلك مايتعلق بالامتيازات التي تمتع بها هيوبرت شخصياً في الأراضي، والأسقفيات، والوكالات التي عينت له من دون ترخيص، والتي هي عائدة إلى الملك نفسه، وكذلك ماتعلق بالأضرار وبالأذى الذي لحق بالرومان وبرجال الدين الطليان، وبرسل البابا، وذلك ضد رغبات الملك، من قبل هيوبرت المذكور، الذي لم يقدم أية نصيحة كان من الممكن بها انقاذهم،

وهو ماكان ملزماً بفعله بموجب واجبات مركزه كمسؤول عن العدالة، وكذلـك لمعرفة كيـف جرت المحافظة على سـلام الملك نحو رعـاياه في مملكة انكلترا، وفي ايرلاندا، وغاسكوني وبواتو، وكذلك نحو الأجانب، وكـذلك مـاتعلق بما عمل بضرائـب بدل الخدمـة، وضرائب الأرض المفلوحة، والأعطيات، والهدايا، أو مجريات التعهـدات العائدة إلى التاج، وكذلك ماتعلق بحصص الزواج التي تركت لعنايته من قبل الملك جون أثناء وقت مـوته، والأشيـاء الأخـرى التي عهـد بها إليـه في أيام الملك الحالي.

وجـواباً على هذا، أخبر هيـوبرت الملك، بأن لديه تفـويض من الملك أبيه، قد حرره بموجبـه من تقديم أي حساب عن الأموال التي تسلمها أو التي سيتسلمها في خزينته، ولأنه كان موثـوقاً جداً من اخلاصه نحو الملك، لم يرغـب هذا الملك بسماع أي حســاب منه، وهنا قــال بطرس أسقف وينكستر بأن ذلك التفويض قد فقـد قوته عند وفاة الملك جون، ولذلك لم يعرف هو ولم يصل إليه أن الملك الحالي ملتزم بتراخيص أبيه، بل إنه يطالب بحسـاب عن القضايا المذكـورة أعلاه، ولقد كـانت تلك بعض القضايا الخفيفة التي طالب الملك بجواب عنها من قبل هيوبرت، وتبع ذلك عدة اتهامـات جدية أخرى، فيها اتهم الملك هيـوبرت بالخيانة ضد شخصه الملكي، وهي كانت كما يلي:

وكـان أول اتهام جرى توجيهـه من قبل الملك ضـد هيـوبرت هو أنه عندمـا أرسل رسـائل، إلى دوق النمسـا يطلب منه ابنة الأمير للزواج، أرسل هيـوبرت في الوقت نفســه رسـائل إلى الدوق ضـد الملك وضـد المملكة، وأقنع الـدوق بالاقـلاع والامتنـاع عن اعطاء ابنتــه للزواج، وكـذلك عـندمـا قـاد جيشــه إلى القـارة، لاسترداد مناطقـه الضائعـة، أقنعـه هيـوبرت بالامتناع عن غـزو نـورمـاندي، أو المناطـق الأخـرى التـابعـة لسلطـانه، وبنـاء عليــه لقــد أنفــق أمــواله من دون محصلة،

وكـذلك فعل النبلاء الذين رافقـوه، واتهمـه الملك أيضاً بأنه كـانت له صـلات مع ابنة ملك الاسكـوتلنديين، التي عهـد الملك جـون بشأن العناية بها إليـه من أجـل أن يتـزوجها هو نفسـه، وقد حصل منهـا على ولد غير شرعي، وبذلك ضـاجـع سيـدة نبيلة، واحتفظ بها لنفسـه على أمل الحصـول على مملكة اسكوتلندا، إذا مـاعـاشـت هـي بعـد وفـاة أخيهـا، وكـذلك قـام هيـوبـرت فـاختلـس بشكـل سري من خـزينتـه احدى الجواهر، التي تجعل حاملها غير مرئي في المعركة، وقـد بعـث بها بشكل خيـاني إلى عـدوه للويلين الزعيم الويلزي، وأنه بسبـب رسـالة أرسلـت مـن قبـله إلى للـويلين، جـرى شنق النبيل وليم دي براوس مثل لص، وقـد اقترح خصـوم هيـوبرت المذكـور جميـع هـذه التهـم، سـواء أكـانت صحيحـة أو مـزيفـة للايذاء، اقترحـوها إلى الملك، الذي طلب بكل حماس الحصول على ترضية من هيوبرت المذكور، وفقاً لقرار محكمتـه، وفي هذه الضـائقـة طلب مسـؤول العـدالة منحـه فـرصـة للتفكير حول هـذه القضـايا، لأنه لم تكن أمامـه وسيلة أخرى، وأعلن أن الاتهامـات كـانت ثقيـلة، ومـن الصعب الاجابة عليهـا، أي التهم التي عملهـا الملك ضـده، وبنـاء عليـه، حصل بعـد صعـوبة بالغـة على فـرصـة حتى عيـد تمجيـد الصليـب المقـدس، وغـادر هيـوبرت لندن، وذهـب وهو مـرعوب كثيراً إلى ديـر ميرتون Merton وهكـذا فـإن هيوبـرت هذا الذي أثار من قبل حسـد جميع نبلاء انكلترا ضـده، بسبب تقـدير الملـك له، ولعنايتـه بالمملكـة، هـذا هو أصبح الآن من دون أصـدقـاء، ومهجـوراً من قبل الملـك، وبـات وحيـداً ومضطرباً، وكان لوقـا رئيس أساقفة دبلن الرجل الوحيـد الذي تكلم لصالحه عند الملك، وقـد فعل ذلك وهو يبكي وقـدم توسـلات كثيرة، لكن جـرائم المسـؤول عن العـدالة كـانـت كبيرة جـداً، ولذلك لم يمنح الموافقـة على طلبه.

بعض الاتهامات الكبيرة التي عملت ضدّ المسؤول عن العدالة

عندمـا رأى الناس أن تقـدير الملك الذي كـان يمنحـه فيما مضى لهيـوبرت، قـد تغير إلى كراهيـة شـديدة، نهض كثير من أعـدائه ضـده، واتهموه باقتراف أعداد هائلة من الجرائـم، فقد اتهمه بعضهم بأنه تسبب بموت نبيلين هما: وليم ايـرل سالسبري، ووليم مارشـال ايرل بيمبروك بالسم، وأنه قتل فالكاسيوس ورتشارد رئيس أساقفة كانتربري بالوسيلة الشريرة نفسهـا، وتقـدم سكان لندن بشكـوى إلى الملك ضـد هيـوبرت المذكـور، بأنه شنق ابن مـدينتهم قسطنطين بشكل غير عـادل ومن دون محاكمة، وطالبوا من أجل هذه الجريمة بانصافهم وتقديم العدالة إليهم، وبناء عليه أصدر الملك اعلاناً في جميع أرجـاء لندن، دعا فيه جميع الذين لديهم أية شكاوى ضد هيـوبرت، من أجل أي أذى مهما كان قـد صدر عنه، إذا كـانوا يطالبـون بالانصـاف والعـدالة من أجله، وعندمـا سمع هيوبرت بهذا، هرب مذعـوراً إلى الكنيسة في ميرتون، حيث أخفى نفسه بين الكهنة.

وفي خريف العام نفسه جرى انتخاب المعلم جون، الذي لقبه لى بلند Blund الذي كان رجل دين، وتلميذ لاهوت في اكسفـورد، إلى رئاسة أساقفة كـانتربري، وبعدما جرى قبـوله من قبل الملك، أخذ الطريق مع بعض الرهبـان إلى روما، للحصول على تثبيت انتخـابه من قبل الكرسي الرسولي.

المنحة التي أعطيت إلى الملك وتشمل جزئاً من أربعين من الممتلكات، إلخ

وفي الفصل نفسـه، في حـوالي أيام تمجيـد الصليب المقـدس، اجتمع الأساقفـة ورجال الدين الآخريـن من أصحاب الكنائس في المملكة، في مؤتمر أمام الملك في لامبث، عندمـا عملت منحة إلى الملك لوفاء الديون

التي عليه لكونت بريتاني، وكان مقدار هذه المنحة جزئاً من أربعين من جميع الممتلكات المتحركة، من الأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، ورجال الدين والعلمانيين، وفقاً لما كان لديهم عندما جرى جمع القمح في الخريف، في هذه السنة السادسة عشرة من حكمه، أما بالنسبة لهيوبرت دي بورغ، الذي عيّن له الملك وقتاً محدداً للظهور من أجل الاجابة على التهم المذكورة أعلاه، والمطالب التي صدرت ضده، خاف من غضب الملك، ولم يتجرأ على الظهور، لأنه قد ألمح إليه بأن الملك عازم على إدانته، والحكم عليه بموت مهين، ولذلك هرب إلى الكنيسة في ميرتون، حتى تتوفر لأموره فرصة تبدو أكثر مواءمة، وأخيراً أرسل الملك رسالة إليه للقدوم إلى محكمة بلاطه، ليجيب على التهم المثارة ضده، لكنه أخبر الملك، بوساطة رسوله ومن خلاله، أنه خوفاً منه من غضبه، قد التجأ إلى الكنيسة، التي هي الملجأ الأخير والملاذ لمن يعاني من الأذى، وأنه لن يغادر حتى يعلم أن مشاعر الملك نحوه قد تحولت نحو الأحسن، وغضب الملك تجاه هذا كثيراً، ومع أن الوقت كان مساء، أرسل أوامر إلى صاحب الحركة في لندن، ليأخذ معه جميع سكان المدينة القادرين على حمل السلاح لمهاجمة ميرتون، وأن يجلبوا هيوبرت إلى أمامه ميتاً أو حياً، وضرب صاحب الحركة عند ذلك الناقوس العام، وأمر سكان المدينة بالاجتماع، وقرأ عليهم رسالة الملك، وأمرهم أن يطيروا إلى السلاح لتنفيذ أوامر الملك، في صباح اليوم التالي الباكر، وفرح سكان المدينة، عندما فهموا مقاصد الرسالة، لأنهم كانوا يشعرون ببغض مميت نحو هيوبرت، وبناء عليه غادروا المدينة قبل صباح اليوم التالي، وقد بلغ تعدادهم عشرين ألف رجل، وزحفوا على شكل أرتال نحو ميرتون في سبيل تنفيذ أوامر الملك، وأثناء هذا، اقترح على الملك من قبل ايرل شيستر، أنه إذا ماثار مثل هذا الصراع بين السكان الحمقى وغير العقلانيين، لن تتوفر هناك فرصة، ما ان بدأ ذلك، إذا ما أراد تهدئة الاضطراب، ولذلك غير الملك رأيه، وبعث

بأوامر إلى صاحب الحركة، أن يعيد القوات التي أرسلها على الفور، وعلى هذا أعاد سكان المدينة في حالة دهشة، دون أن يكملوا تحقيق أهدافهم.

كيف أخرج هيوبرت من الكنيسة بالقوة وألقي به في البرج

وبعد هذه الحوادث، حصل رئيس أساقفة دبلن، بعد كثير من الالتماسات، لهيوبرت على مهلة حتى ثمانية عيد الغطاس، حتى يمتلك مايكفي من الوقت ليفكر حول المطالب المذكورة أعلاه، التي كانت ذات طبيعة مستعجلة جداً، ويمكنه وقتها أن يقدم جواباً معقولاً، مع ترضيات موائمة إلى الملك، وبعد تسلم هيوبرت كفالة تأمين له كما اعتقد، وذلك بوساطة رسائل مصدقة من الملك، ركب الطريق إلى كنيسة القديس إدموند، حيث كانت زوجته مقيمة، ومن هناك عبر خلال اسكس، ثم استقر في بيت أسقف نورويك، في بلدة كانت تحت سلطان الأسقف المذكور، ولقد أغضب هذا الملك كثيراً، الذي كان يخشى أنه إذا ما نجا هيوبرت منه سوف يكون سبباً لإثارة هيجان كبير في المملكة، ولذلك أسف للمهلة التي منحه إياها، وهنا بعث الملك الفارس غودفري دي كروكمب Kraucumbe خلفه مع ثلاثمائة جندي، وأمره، تحت طائلة عقوبة الشنق، أن يعيد هيوبرت معتقلاً، وأن يسجنه في برج لندن، وزحفت هذه الفئة وقتها بكل سرعة، ووجدت هيوبرت في كنيسة قرب مقر إقامته، يحمل صليب ربنا في يد، وجسد المسيح في اليد الأخرى، لأنه كان قد أنذر بوصول هؤلاء الذين يطلبون حياته، فنهض وقتها من فراشه حيث كان نائماً، وهرب عارياً إلى الكنيسة، ودخل غودفري المتقدم الذكر إلى البيعة مع أتباعه المسلحين، وأمره باسم الملك أن يغادر البيعة، وأن يأتي معه إلى لندن ليتحادث مع الملك، وأجابه هيوبرت بأنه لن يغادر البيعة بأية حال من الأحوال، وبناء على ذلك قام غيوفري وصحبه بانتزاع الصليب وجسد مولانا من

يديه، وبعدما أوثقوه، وضعوه على ظهر حصان، واقتادوه إلى برج لندن، حيث وضعوه في سجن مضيق عليه، وبعد الفراغ من هذا كله، أخبروا الملك الذي كان ينتظرهم بقلق، وقد أعلموه بوصولهم، وبالذي فعلوه، وبناء على ذلك عاد راضياً إلى فراشه.

كيف أعيد هيوبرت إلى البيعة

وفي صباح اليوم التالي باكراً، عندما سمع روجر أسقف لندن، بأن هيوبرت قد أخرج بالقوة من البيعة، بادر مسرعاً إلى الملك، وبجرأة لامه لقيامه بخرق حرمة الكنيسة، وأخبره أنه مالم يطلق سراح هيوبرت، ويعيده إلى البيعة، التي أخرج منها بالقوة، سوف يتولى الحرمان كنسياً جميع مقترفي هذه الفعلة من العنف، ثم قام الملك، وهو مرغم، ومع أنه كان يعرف أن هيوبرت كان مجرماً، فأعاده في السابع والعشرين من أيلول، إلى البيعة التي أخرج منها بالقوة من قبل الجنود، وأعطى بعد هذا أوامر إلى عمدتي: هيرفورد، واسكس، تحت طائلة عقوبة الموت لهما شخصياً مع جميع سكان الكونتيتين، أن يقوما بتطويق البيعة، ومراقبة هيوبرت حتى لايهرب، أو يتلقى إمدادات من أي واحد، ومضى عندها العمدتان لتنفيذ أوامرهما التي تلقياها من الملك، وشرعا بمحاصرة البيعة ومعها بيت الأسقف، الذي كان قريباً، وقررا متابعة الحراسة لمدة اسبوعين، وتحمل هيوبرت على كل حال هذه المضايقة، براحة نفس —كما قيل— وعهد بقضيته إلى الرب، وتابع باستمرار يسأل الرحمة اللاهوتية أن تحميه من كل خطر، لأنه شخصياً اهتم ذاتياً بشكل دائم بكرامة الملك وسلامته فوق كل شيء، وأولى الملك —على كل حال— اهتماماً قليلاً لتخليه عن شخص خدمه بغيرة كبيرة، وقد جعل شغله الشاغل والوحيد تلبية رغباته، وأصدر الملك حظراً عاماً إلى الجميع أن لايتكلموا إليه لصالح هيوبرت، أو أن يذكروه أو أن يشيروا إليه بحضوره، والتمس لوقا رئيس أساقفة دبلن، الذي كان صديقه الوحيد،

ورجا الملك بشكل متواصل وهو يبكي، أن يخبره على الأقل عما كان ينويه، فيما يتعلق بهيوبرت، وعلى هذا يقال بأن الملك قد أجابه، بأن هناك عدة خيارات أمامه يمكنه أن يختار واحداً منها، وهذه الخيارات هي:

إما أن يغادر انكلترا بشكل دائم، أو أن يدخل سجناً أبدياً، بعدما يعلن عن نفسه أمام الملأ أنه خائن، أو أن يلقي بنفسه على رحمة الملك، وعلى هذا رد هيوبرت بأنه لن يقبل بأي من هذه الخيارات، لأنه يشك بنوايا الملك، ثم إنه لايتذكر أنه عمل قط عملاً يستحق هذا النكران، ومع ذلك هو على استعداد لمغادرة المملكة لبعض الوقت، إرضاء للملك، لكنه لن يتخلى عنها ويغادرها بشكل دائم.

وأمضى بعد هذا عدة أيام وليالي محصوراً في هذه البيعة، مع اثنين من الخدم، اللذان زوداه بالمؤن حتى منعوا —بناء على أوامر الملك— من جميع أنواع الأطعمة، وهما شخصياً طردا من البيعة، واعتقد هيوبرت وهو في هذه الشدة، أن من العار أن يموت جوعاً، فغادر البيعة عن طواعية، وسلم نفسه إلى العمدتين، اللذان كانا يراقبانه، ذلك أنه قال بأنه سوف بالحري يؤثر الوثوق برحمة الملك على أن يموت من الجوع، وعند ذلك تدبر العمدتان اعتقاله بشكل مضمون، ثم وضعاه على ظهر حصان، وأخذاه إلى لندن، حيث أودع السجن بشكل محكم، وربط بالأغلال، في برج المدينة.

جمع الجزء من أربعين من الممتلكات الممنوح إلى انكلترا

«من هنري، بفضل نعمة الرب، ملك انكلترا، إلى بطرس دي ثانيو Thaneo ووليم كولوورث Culworth وآدم فتز— وليم، الذين يتولون جمع الجزء من أربعين، التحيات، ليكن معلوماً لديكم أن رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، ورجال الدين،

الذين بين أيديهم أراضي ليست ملكاً لكنائسهم، وأن الايرلات، والبارونات، والفرسان، والرجال الأحرار، والمزارعين في مملكتنا، قد عملوا منحة لنا، لمساعدتنا، ومقدارها جزئاً من أربعين من جميع ممتلكاتهم المتحركة، حسبما كانت بين أيديهم في اليوم التالي لعيد القديس متى، في السنة السادسة عشرة من حكمنا، وهذه الممتلكات هي:

القمح، والمحاريث، والأغنام، والعجول، والخنازير، وخيول التحميل، وخيول جر العربات، والأشياء الأخرى المستخدمة في عزبهم، باستثناء الممتلكات التي بين أيدي رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والأشخاص اللاهوتيين الآخرين الذين تقدم ذكرهم، لصالح الأسقفيات والكنائس الوقفية وكذلك الأوقاف، والأراضي العائدة للأوقاف، أو لها علاقة بالأوقاف، أو الكنائس الأسقفية، ولسوف تقدم بشكل عام من قبل رعايانا التابعين كما تقدم بشكل عام، وذلك بأن يتم تقدير الجزء من أربعين وجمعه كما يلي:

يجري اختيار أربعة أشخاص من أحسن الرجال في كل بلدة وأكثرهم براعة مع رؤساء الكنيسة في كل بلدة، الذين بموجب قسم منهم سوف يجري تقدير الجزء من أربعين من جميع الممتلكات المتحركة المتقدم ذكرها، وسوف يجري فرضه ضريبة على كل واحد، بحضور الفرسان المقومين المنتدبين لهذه الغاية، وبعد هذا، بناء على يمين رجلين تابعين اقطاعيين من البلدة نفسها، سوف يجري تقدير الجزء من الأربعين وفرضه ضريبة على الممتلكات المتحركة العائدة للرجال الأربعة المتقدم ذكرهم مع رؤساء الكنائس، وينبغي أن يدون بشكل دقيق وواضح ويدرج اسم البارونية العائدة إليها البلدة جزئياً أو كلياً، وبعد تسليم الجزء من أربعين، يتوجب كتابة ذلك بلائحة فيها جميع الخصوصيات المتعلقة بكل قرية، وبكل كونتيه، على أن ترسل تلك اللائحة إلى قهرمان كل بارونية، أو إلى وكيل كل قهرمان، أو إلى نائب الامتيازية، حيثما

هناك أية امتيــازيـة، أي حيث يمكن أن يكـون بارون الامتيـــازية أو صـاحبها لديه السلطة لجمع الجزء مـن أربعين المتقدم ذكـره واستيفائـه، لكن إذا لم يرغب بذلك، أو كـان غير قادر على فعل ذلك، سـوف يقوم العمـدة بالاستيفـاء المذكـور، وبذلك لن يتسلمـوا شيئـاً منه، بل ينبغي تسليم الجزء من أربعين كله إلى الفـرسـان المقومين المتقـدم ذكـرهم، في أوسع بلدة وأكثـرها أمـاناً في كل كـونتيـة، وسيكون هناك من كل بلدة حساب رئيسي متوفـر بين قهرمان البارون، أو وكيله، أو بين قهـرمانات صـاحب الامتيــازية، وبين المقـومين المتقـدم ذكـرهـم، ولسـوف يودع المقـومون المال في بعـض الأماكن الأمينة في البلـدة نفسها، وأن يضعـوا أختامهم وأقفالهم، ومفاتيحهم على المال المذكور، ومثل هذا سوف يضع عمد المناطق أختامهم، وأقفـالهم، ومفاتيحهم على هذا المال أيضاً، وفور الفـراغ من تقـدير الجزء من أربعين، على المقومين ارسـال قـوائمهم عن جميع الدائرة إلى الخزانة، ووفق الطريقة نفسهـا ما ان يكون المال المذكور قـد جمع، حتى يتـوجب عليهم إرسـال قـوائـم إيصـالاتهم إلى الخزينة، وينبغي حفظ المال المذكـور في المكان الذي أودع فيه، حتى يجرى جلبـه، بناء على أوامـرنا، إلى المعبد الجديد في لندن، ومـامن شيء سوف يؤخـذ من أي انسـان على سبيل الجزء مـن أربعين، إذا لم يكن يمتلك ممتلكات متحـركة تسـاوي بقيمتهـا أربعين بنساً على الأقل، وقـد عيناكم لتقـدير الجزء من أربعين في كونتيـه هارتفورد، وقـد أمرنا عمـدتنا في هارتفورد بأن يجمع كل القـرويين في كونتيتـه، وذلك بناء على أمـرنا، في أن يمثلوا أمامكم في موعـد محدد، ومكان معين، أنت سوف تتولى تعيينه له ليفعل ذلك، وأيضـاً ليسـاعـدك ويطيعـك في جميع المسـائل المتعلقـة بالعمل المذكور. وداعاً».

موت رالف ايرل أوف شيستر

في الثـامن والعشرين من تشرين أول، من العـام نفسـه، مـات رالف

ايرل أوف شيستر ولنكولن في وولنغفورد Wallingford وقد نقل جسده إلى شيستر للدفن، وقد خلفه بالايرلية ابن أخته جون بن داوود، أخو وليم ملك الاسكوتلنديين، واستحوذ ابن أخت له آخر من أخت ثانية على ايرلية لنكولن، وقد كان من قبل بارونا، وصار الآن ايرلاً، وكان ايرل آرونديل ابن أخت آخر له، وقد صار متملكاً لخمسمائة امتيازية.

وفي هذه الآونة، قبل عيد القديس مارتن [١١- تشرين ثاني]، أومي إلى الملك أن هيوبرت مسؤول العدالة المعزول لديه مبلغ كبير من المال في الهيكل الجديد في لندن، مودع بعناية الداوية هناك، وبناء عليه استدعى مقدم الداوية للاجتماع به، وسأله بشكل واضح عما إذا كانت القضية صحيحة، ولم يتجرأ هذا على إخفاء الحقيقة وانكارها أمام الملك، فاعترف له بأن مبلغاً من المال قد أودع لديه ولدى الرهبان، لكنهم لايعرفون مقداره، ولاكميته، وطلب الملك مع التهديد المال من الرهبان، معلناً بأنه قد سرق من قبل هيوبرت من الخزينة، ورد الداوية عليه، أنهم لن يسلموا إلى أي انسان المال الذي عهد به إليهم بثقة، من دون إذن من الشخص الذي أودع المال في الهيكل حفاظاً عليه، وبما أن ذلك المال كان معهوداً به إلى الكنيسة، لم ير الملك أنه عمل عقلاني اللجوء إلى العنف، وبناء عليه أرسل خازن بلاطه مع مسؤولي العدالة في خزينته إلى هيوبرت، الذي كان طوال الوقت مغلولاً في برج لندن، يأمره بتعيين المال المذكور إلى الملك، وعندما أخبر الرسل المتقدم ذكرهم هيوبرت بهذه الرسالة نيابة عن الملك، أجاب على الفور، أنه على استعداد أن يضع نفسه وكل مايملكه تحت إرادة الملك، وبناء عليه أعطى التعليمات إلى فرسان الداوية، أن يسلموا جميع المفاتيح التي هي باسمه إلى الملك، حيث يمكنه أن يفعل مايختاره بالممتلكات المودعة هناك، وجرى تنفيذ هذا، وأمر الملك بتعداد المال بشكل صحيح،

ووضعه في خزينته، وبكتابة لائحة بالممتلكات التي عثر عليها هناك، حتى تؤخذ وتعرض عليه، ووجد محاسبو الملك وخازنه هناك ثمانية آلاف باوند من الفضة، من أفضل النقود، ومائة وأربعين وعاء من الفضة وهي محلاة بالفضة والذهب، مع كمية كبيرة جداً من الجواهر، فاقت قيمتهم —كما قيل— جميع الممتلكات التي وجدت هناك، وعندما انتشر خبر هذه الحادثة وعمّ في الخارج، ذهب مضطهدو هيوبرت الذين لم يتعبوا، وقدموا شكاوى ضده، وقالوا اماوإنه الآن قد أدين بالسرقة والغش، فهو يستحق أن يعاني موتاً مهيناً، وعلى هذا ردّ الملك قائلاً:

«لقد خدم هيوبرت —كما أخبرت— منذ طفولته باخلاص، عمي الملك رتشارد، ثم أبي الملك جون، ومع أنه تصرف بشكل سيء نحوي، هو سوف لن يعاني بوسائطي من موت غير عادل، لأني سوف أعدّ بذلك أحمقاً، وملكاً ليناً، فضلاً عن نعتي بأنني ملك متوحش وطاغية»، وبهذه الكلمات منح إلى هيوبرت جميع الأراضي التي كانت بين يديه من قبل كهدية من أبيه، أو عن طريق الشراء، حتى يتمكن من تزويد نفسه ودعمها مع أتباعه بالحاجات الضرورية من ذلك الوقت فصاعداً، وعلى الفور أصبح بعد هذا الايرل رتشارد، أخو الملك، ووليم ايرل وارني، ورتشارد ايرل مارشال، ووليم ايرل فيرير Ferers كفلاء لهيوبرت، وقد أرسل إلى قلعة ديفزي Devites تحت عهدة الفرسان الأربعة المتقدم ذكرهم، حيث بقي سجيناً تحت الكفالة.

وفي العام نفسه، في اليوم التالي لعيد القديس مارتن سمعت أصوات رعد مخيفة، استمرت متقطعة لمدة خمس عشرة يوماً، الأمر الذي أرعب كثيراً من الناس، ولاسيما سكان لندن، الذين كانوا الآن معتادين تماماً عليهم، لأنهم كانوا كلما وقعوا في انكلترا، كانوا يسمعون في لندن، وقد تبع هذا خلاف محزن في المملكة بين الملك وبين نبلائه، كما سوف تظهر الرواية التالية:

الزيارة التفقدية لرجال الدين من كل طائفة في جميع أرجاء العالم

وفي هذا العام أيضاً عيّن البابا غريغوري مفتشين لزيارة رجال الدين في جميع أرجاء العالم المسيحي، بموجب التفويض التالي: «من الأسقف غريغوري إلى إخوانه الأساقفة المساعدين في كنيسة كانتربري، تمنيات الصحة، والمباركات الرسولية، ذهب الشيطان من أمام الحضرة الربانية، واضعاً يده في أعمال الوقاحة، وواثقاً ببراعته، وآماله للتوريط في الشرور الذين انتخبوا في ميراث الرب، وأعدّ مصائد أعظم ضد أولئك الذين أمل أن يجد فيهم الفساد الأعمق، ولهذا وقع تحت ملاحظتكم أنه غالباً ماوقعت كنائس مناطق كانتربري بشكل مرعب ونأت في قضايا روحية ودنيوية، وبسبب العقول الشريرة وإهمال الذين استخدموا فيهم، لم نختر المضي مدة أطول والمرور بأغلاطهم صامتين، خشية اننا إذا سمحنا لهم بالمضي غير مقومين أن نبدو وكأننا أخذناهم على عهدتنا، ولذلك عيّنا زواراً خاصين تفقديين، ومصلحين ومقومين، وكذلك على رأس بعض الأطراف الأخرى، لزيارة تفقدية لتلك الكنائس القائمة في تلك المنطقة، والمعروف أنها عائدة مباشرة إلى الكنيسة الرومانية، وقد أعطيناهم سلطة كاملة في زيارتهم التفقدية لتلك الكنائس لتقوّم وتصلح المخالفات، التي هم سيكونوا متأكدين أنها تحتاج التقويم والاصلاح، ولكن دون أن تحط من قدر أو تفسد المؤسسات، والاصلاحات التي عملت بشكل صحيح في الكنائس الاقليمية، ونحن —على كل حال— نحتفظ لأنفسنا، إلى أبعد الحدود، بالعناية القصوى بكل ماباشرناه، ومع ذلك إنه واجبكم، أنتم الذين دعيتم للمشاركة بما نعتني به، أن تكونوا معتنين ومتيقظين نحو الرعية التي أسندت الرعاية الخاصة بها إليكم، حتى لاتهلك الشاة المريضة، وإنه بناء على ذلك إنها نصيحتنا، لابل أمرنا الدقيق إلى أخوتكم، فرداً فرداً ولكم جميعاً، أن تجعلوا شغلكم، في كل من المجال الشخصي، وبوساطة رجال الدين الموجهين من أجل مقاصد

الزيارات التفقــدية، أن تقــومــوا بزيارة تفقــدية لمســاكن الرهبــان، والراهبــات، والكهنة النظاميين والعلمانيين، الخاضعين لكــم في كل من المدن والأسقفيـات، وأن تقـومـوا بوسـاطة سلطاتنا، وكـذلك بوسـاطة سلطاتكم بهذا الاصــلاح بشكل عــام والتقــويـم متناولين رؤوسهم والأطراف الأخرى، وذلك حيثما ترون أن مثل هذا الاصـلاح والتقويم ضروري، وضعوا جانباً كل إثرة وكـل رجاء، وتمسكوا بالأنظمة المتعلقة بالأشخاص الدينيين هناك، وفقـاً لقرارات المجامع المسكونيـة، وأوقفوا أعمال التـذمـر والأقـاويل بوسـاطـة العقـوبات الكنسيـة، وأجلوا جميع مـرافعات الاستئنافـات، وبتنفيذكـم هكذا لتوجيهـاتنا، يمكنكم في يوم الحساب العسير والعـذاب الشديد، الذي سيجازى فيه كل انسـان وفقاً لأعماله، أن لن تطالبــوا بدمــائهم على أيديكم، وأن لانكون محتــاجين لاستخدام عصا العقـوبات الرسولية. صـدر في سبوليتو Spoleto في هذا اليوم التاسع من حزيران، في السنة السادسة من حبريتنا».

الزيارات التفقدية التي سوف تعمل في الكنائس المستثناة

وبالنسبـة إلى الكنائـس الأخـرى ورجـال الدين، الذيـن كـانوا تحت السلطة المبـاشرة لكنيسة رومـا، هو لم يعين أساقفـة كزوار تفقـديين، بل رعــاة ديرة، وكــان هؤلاء بشكل خــاص من طائفــة السسترشيــان، والبرامونستر تنشيـان Praemonstratensians الذين كــانوا رجالاً أشـداء وغير قابلين للانحـراف، ويقومـون بواجبات زياراتهم التفقـدية بعنف ومن دون رحمة، وهم يتجـاوزون حدود واجباتهم في عـدة أديرة، حتى أن أعـداداً قـد أرغموا على اللجـوء إلى الشكوى ضـدهم، والذين فعلوا ذلك، قـد ذهبـوا إلى رومـا، ومـع كثير من النفقـات والجهـد قـد حصلوا على زائرين تفقـديين آخرين، وباختصـار، عملت هذه الزيارات التفقدية ونفـذت في جميع أنحاء العالم لافساد وليس لإصـلاح عدداً من الطوائف، وبشكل خاص بالنسبة للذين يتبعون نظام القديس بندكت في

مختلف أرجاء العـالم، ونتيجة لهذه الزيارات التفقـدية فإن هذه الطوائف هي الآن على خـلاف، إلى حـد أنه يصعـب أن تجد بين جميع هذه الديرة والبيوت الدينيـة ديران أو بيتان متفقـان في نظاميها حول الحيـاة، وكان هناك راعي دير في مونتبيلو Montebello قد سـاورته الشكوك حول مـا ينبغي عليه الاستمـرار به في هذه الزيارات التفقـدية، فسأل نصيحـة البابا حول بعض النقاط المشكوك فيها، وعلى ذلك تلقى الجواب التالي:

كيف استشير البابا حول الزيارات التفقدية المتقدم ذكرها

«إن هذه الواجبات التي رسمت بشكل عاقل من أجل كرامة الديانة، وسلامـة الجماعات الدينيـة، ينبغي تقويتهـا بالحماية الرسوليـة، وأن تنفذ بتقوى، وأن تراعى بيقظة، وبناء عليـه فإن أخانا المحبـوب جداً، راعي دير مونتبيلو، قـد عرض علينا بعض النقاط التـي بدت بالنسبة لكرامتنا ولحفظنا نقـاطاً جـديرة بالثناء من أجل تقـويم عـدداً من المخـالفـات والجرائم التي وجدت في بعض الديرة، وقد طلبنا فحص القضية ووفرنا ذلك، وأن يتم تقويمهـا، وأمرناكم بعدم انتهـاك الأنظمة، التي من أجل السـلامـة قـد ختمناها بأختـام إخـواننا المحترمين في أوستيـا Ostia وتوسكولوم Tusculum وإنها ارادتنا، وبوساطة السلطات الرسولية نأمركم، بأن تجمعـوا الزوار التفقديين في جلسة كهنوتية عـامة، ورؤساء الرهبـان حيث لايوجـد رعـاة ديرة بالذات، باستثناء وكـذلك بدون استثناء الذين لايعقدون بالعـادة هيئات كهنوتية، وسـوف يترأسون على هذا الاجتماع الكهنوتي، واضعين جانباً كل معوق قانوني، والذين سوف يرفضـون أو يهملون الحضـور سوف يرغمـون على فعل ذلك بوسـاطة العقوبات الكنسية، ولن يتوقفوا حتى يجعلونهم يقومون بتكفير صحيح، مثلما سيفرضون ذلك عليهم بشكل صحيح، وبوساطة العقوبات نفسها سوف يجعلون قـرارات الهيئة الكهنوتية نفسها تحظى بالتنفيـذ بكل دقة، وهم أنفسهم وكذلك الزوار المتفقدين وبعض الآخرين، سوف يقدمون

في يوم الحساب الأخير تقريراً عن عملهم إلى الرب، الذي لديه كل شيء واضح ومرئي، وأن يجعلوا اهتمامهم أثناء الزيارات التفقدية للديرة منصباً مع كل عناية، وحرصهم على اصلاح وتقويم الانتهاكات للطوائف المتعددة، وعلاوة على ذلك عندما سيقوم الزوار التفقديون —وفقاً لقرارات المجمع العام— بتنفيذ واجباتهم، في الاجتماع الكهنوتي العام لرعاة الديرة، المتعلقة بالزيارات التفقدية، عليهم أن يتفحصوا بكل دقة أوضاع الديرة، وكيفية المحافظة على الأنظمة،وسوف يتولون القيام بأعمال التقويم والاصلاح حسبما يبدو إليهم ضرورياً، في كل من القضايا الروحية والدنيوية، وعلى هذا سوف يجعلون الرهبان المذنبين يتلقون العقوبة على يدي راعي المكان، وأن تفرض عليهم عقوبة كاملة، وفقاً لأحكام القديس بندكت، ولأحكام المؤسسات الرسولية، وليس وفقاً للعادة الشريرة التي تطورت إلى قانون في بعض الكنائس، ويتوجب على الزوار المتفقدين أنفسهم، أن يقوموا بوساطة العقوبات النظامية، ومن دون تقدير لأي أشخاص، عوضاً عنا، بانزال العقوبة بأي راهب يجدونه متلبساً بالتمرد، وأن لايوفروا أحداً بسبب صلاته، أو سلطته، أو أصدقائه، بل عليهم طرد الشاة المريضة من القطيع حتى لاتصيب الشياه الصحيحة، وإذا ما اكتشف بأن رعاة الديرة كانوا مهملين في تقويم أنفسهم، ينبغي وفقاً لسلطات الزوار المتفقدين، أن يعلن عنهم، ويجري اعتقالهم، ومن ثم انزال العقوبة بهم في اجتماع هيئة الكهنوت، وبذلك تكون عقوبتهم مثلاً للآخرين، وإذا ماجرى اكتشاف أي راعي دير —إذا لم يكن مستثنى— من قبل الزوار المتفقدين أنه مهمل ومتقاعس، عليهم توبيخه والشكوى ضده إلى أسقف المكان، الذي عليه أن يعين له وصياً وشخصاً حكيماً ليتعاون معه حتى الاجتماع التالي لهيئة الكهنوت، ولكن إذا ماتبين أنه مذنب بالتخريب، أو يستحق العزل لأي سبب كان، يتوجب إبعاده —بعد اخباره بالقضية من قبل الزائر المتفقد— وعزله من قبل الأسقفية، ومن إدارة ووظيفة الرعية،

ومن الدير من دون ضجة أو محاكمة، وأن يجري في الوقت نفسه تعيين مدير مناسب ليتولى المسؤوليات الدنيوية للدير، وذلك حتى يجري تزويد هذا الدير براعي جديد، ولكن إذا ماصدف لسبب ما ورفض الأسقف أو أهمل القيام بهذا الواجب، سوف يقوم الزوار المتفقدون أنفسهم، أو الذين يترأسون الهيئة العامة للكهنة، بتزويد الكرسي الرسولي، من دون تأخير بخطيئة ذلك الأسقف، وإن أوامرنا تقضي بوجوب مراعاة هذه الأحكام باحترام، بالنسبة لرعاة الديرة المعفيين، محتفظين للكرسي الرسولي بشؤون عزلهم، وفي أي وقت أعتقد أن أي راعي دير يستحق العزل أو التعليق عن ممارسة وظيفته، ينبغي تعيين مدير مناسب للدير، إما من قبل الزوار التفقديين، أو من قبل الذين يترأسون هيئة الكهنة، وإذا لوحظ أن آثام هؤلاء الأشخاص وأشياء أخرى جديرة بالايصال إلى هيئة الكهنة، على رئيس الهيئة الاتصال بنا بوساطة رسل موثوقين وحكماء، سوف يجرى تحمل نفقاتهم بوساطة مساهمة عامة لرعاة الديرة، كل واحد منهم حسب امكاناته، وعلى الزوار التفقديين الذين يقدمون فيها بعد أن يبحثوا بكل دقة وأن يتفحصوا اجراءات الزوار التفقديين المتقدمين، وأن يوصلوا أخبار أية ذنوب أو اهمالات صدرت عنهم إلى اجتماع هيئة الكهنة التالي، من أجل أن ينالوا عقوبتهم وفقاً لذنوبهم، وهذه الأشياء المتعلقة بالزوار التفقديين فيها كفاية.

وفي هذا العام اتهم روجر أسقف لندن، بين الآخرين، بالتحريض على نهب محاصيل الكنيسة الرومانية، ولذلك ذهب إلى روما للبرهنة على براءته.

كيف صرف الملك بعضاً من وزرائه من بلاطه

عام ١٢٣٣م، فيه، وهو العام السابع عشر لحكم الملك هنري، عقد هذا الملك بلاطه أيام عيد الميلاد في ووركستر، حيث قام —كما قيل—

بناء على نصيحة بطرس أسقف وينكستر بصرف جميع الموظفين المحليين في بلاطه من وظائفهم، وعيّن في أماكنهم أجانب من بواتو، كما أنه صرف وليم دي رودون Rodune وكان فارساً قام بواجبات رتشارد المارشال الأكبر في بلاطه، وبناء على نصيحة الشخص نفسه صرف أيضاً وولتر أسقف كارآيل من وظيفته كخازن، ثم أخذ منه مائة باوند من الفضة، وانتزع أيضاً منه بالقوة بعض الودائع والوظائف التي منحه الملك إياها بصك منه مدى الحياة.

وصرف بشكل مفاجىء جميع مستشاريه السالفين، وأساقفته، وايرلاته، وباروناته، والنبلاء الآخرين، ولم يضع ثقته بأحد سوى أسقف وينكستر المتقدم ذكره، وابنه بطرس دي ريفول Rivaulx وبعد هذا طرد جميع قادة القلاع في جميع أرجاء انكلترا، ووضع مكانهم قادة قلاع تحت اشراف بطرس المذكور، ولكي يحصل الأسقف على الحظوة الكاملة لدى الملك، ضم إلى نفسه ستيفن سيغريف Segrave وهو رجل مطواع، وروبرت باسلوي Passelewe الذي تولى حفظ خزينة الملك تحت اشراف بطرس دي ريفول، وقد حكم المملكة كلها بمساعدة هذين الرجلين ونصيحتهما، ثم دعا الملك رجالاً من بواتو وبريتاني، كانوا فقراء وشرهين يسعون وراء الثروة، وقدم إليه حوالي ألفي فارس وجندي مزودين بالأسلحة والخيول، أدخلهم في خدمته، وجعلهم مسؤولين عن القلاع في مختلف أجزاء المملكة، وبذل هؤلاء غاية جهدهم لظلم الرعايا الانكليز الطبيعيين والنبلاء، فقد دعوهم باسم خونة، واتهموهم بالخيانة تجاه الملك، وصدق الملك، الذي كان رجلاً ساذجاً أكاذيبهم، وأسند إليهم المسؤولية عن جميع الكونتيات والبارونيات، وعن جميع الشباب من النبلاء من كل من النساء والرجال، الذين استدرجوا إلى زيجات قذرة ومدنسة، وعهد الملك إليهم أيضاً بأمر العناية بخزينته، مع إعادة فرض قوانين البلاد، وإدارة

العدالة، وباختصار لقد عهد بالقضاء إلى غير العادلين، وبالقوانين إلى الخارجين على القوانين، وبالحفاظ على السلام إلى مثيري الخصام، وبالعدالة إلى أولئك الذين هم أنفسهم امتلأوا بالأذى، وعندما قدم النبلاء شكاوى إلى الملك حول الظلم الذي تحملوه، تدخل الأسقف المذكور، ولم يكن هناك من يمنحهم العدل، وعمل بطرس المذكور اتهامات ضد بعض أساقفة المملكة الآخرين، ونصح الملك بتجنبهم على أنهم أعداء مكشوفين.

كيف احتج المارشال لدى الملك

عندما رأى الايرل رتشارد مارشال المملكة أعمال الأذى هذه وأمثالها التي ظلم بها الرفيع والوضيع سواء، وأن قوانين المملكة قد دمرت، أثير بسبب غيرته على قضية العدل، وذهب بجرأة بصحبة بعض النبلاء الآخرين إلى الملك، وقام على مسمع من عدد من الناس، بتوجيه الملامة له، وأنه نصح بشكل مضر بإدخال هؤلاء الأجانب من بواتو لظلم المملكة ورعاياه الطبيعيين ولإزالة الشرائع والامتيازات، ثم إنه بناء على ذلك توجه بتواضع بالرجاء إلى الملك أن يوقف على الفور هذه التجاوزات، التي نتيجة لها سوف يواجه التاج وتواجه المملكة خطراً عظيماً يقود إلى الدمار، وعلاوة على ذلك، أعلن أنه إذا مارفض تصحيح هذه القضية، سينسحب هو ونبلاء المملكة الآخرين من مجالسه مادام مقيماً للاتصالات بهؤلاء الأجانب، وعلى هذا ردّ رتشارد أسقف وينكستر بأن مولاه الملك، من المؤكد كان مسموحاً له أن يستدعي الأعداد التي يريدها من الأجانب من أجل حماية مملكته والتاج، وبقدر مايكون عدد هؤلاء كبيراً سوف يكون قادراً على اخضاع رعاياه المتشامخين والعصاة وانزالهم إلى طاعتهم الطبيعية، وعندما لم يستطع الايرل مارشال مع النبلاء الآخرين وكانوا غير قادرين على الحصول على جواب آخر، تركوا البلاط وهم في غاية الانزعاج، وقرروا بشكل

ثابت أحدهم مع الآخر القتال في سبيل هذه القضية، التي تتعلق بهم جميعاً حتى تغادر أرواحهم أجسادهم.

العواصف الرعدية

وفي العام نفسه، في الثالث والعشرين من آذار، سمعت أصوات رعد رهيبة، تبعتها أمطار متواصلة طوال الصيف، دمرت المطارد، وأزالت البرك والطواحين في جميع أنحاء انكلترا تقريباً، وفي الأراضي المفلوحة وحقول الحصاد، وفي الأماكن الأخرى غير الاعتيادية في مختلف المناطق جرت هنا وهناك على شكل جداول، وشكلت بحيرات في وسط الغلة المحصودة، التي فيها —لدهشة كثيرين— شوهدت أسماك الأنهار، والطواحين التي كانت واقفة في أماكن متنوعة لم تعد مرئية كما كانت من قبل.

وفي العام نفسه، في الثامن من نيسان، وفي حوالي الساعة الأولى من النهار، ظهر في أحواز هيرفورد، وووركستر أربع شموس زائفة حول الشمس الحقيقية بألوان مختلفة، وكان بعضها نصف دائري، وبعضها الآخر دائري، وشكلت هذه الشموس مشهداً رائعاً، وشوهدت من قبل أكثر من ألف شخص موثوقين، وقام بعضهم في ذكرى لهذه الظاهرة غير الطبيعية، ولكي لاتهرب هذه الظاهرة غير الاعتيادية من ذهن الانسان وذاكرته، فرسموا شموساً، ودوائر من مختلف الألوان على الكاغد، وتبع هذا في العام نفسه حرباً مرعبة، وسفكاً مخيفاً للدماء في هذه البلاد، وكان هناك اضطهاد عام في جميع أرجاء انكلترا، وويلز، وايرلاندا، وفي حوالي الوقت نفسه، في شهر حزيران، شوهد ثعبانين ضخمين جدا من قبل السكان، على مقربة ساحل البحر، في الجزء الجنوبي من انكلترا، وكانا يتقاتلان في الهواء، وبعد صراع عنيف تغلب أحدهما على الآخر، وجعله يهرب، وطارده إلى قلب البحر، حيث ضاعا، ولم يشاهدا بعد ذلك.

إلغاء انتخاب رئيس أساقفة كانتربري

وفي تلك الآونة، كان قد جرى انتخاب المعلم جون، الملقب لى بلند رئيساً لأساقفة كانتربري، وقد أذيع في روما، أنه تسلم بعد انتخابه ألف مارك من الفضة بمثابة هدية من بطرس أسقف أوف وينكستر، إلى جانب ألف أخرى أقرضه الأسقف إياها لمساعدته على الحصول على ترقيته، هكذا تبرهن بشكل جلي أن صداقات الأسقف المذكور كانت مؤذية أكثر منها نافعة له، وبالاضافة الى هذا، لقد روي بأن جون المذكور قد اعترف في روما، أنه مستحوذ على مرتبتين كنسيتين إليهما معهود العناية بالأرواح، وذلك على الرغم من قرارات المجمع العام، وبناء عليه استحق تهمة الوقاحة، لكن بما أن انتخاب ثلاثة أساقفة لكنيسة كانتربري، جرى إلغاؤه مؤخراً، فقد بقيت الكنيسة المذكورة مدة طويلة من دون رئيس لها، ولذلك أعطى البابا إذناً إلى الرهبان الذين قدموا مع رئيس الأساقفة المنتخب المرفوض باختيار المعلم ادموند، الذي كان كاهناً في كنيسة سالسبري ليكون أسقفاً مسؤولاً عن أرواحهم، من أجل عدم بقاء كرسي مطراني له مثل هذه الأهمية، مدة أطول من دون رئيس أساقفة، وأرسل له في الوقت نفسه الطيلسان، وقرر الرهبان —على كل حال— عدم قبوله أو قبول أي واحد آخر، إلاّ بموافقة عامة من جماعتهم كلها.

الخلاف الذي نشب بين الملك وبين نبلاء المملكة

وحقن طوال هذا الوقت بطرس أسقف وينكستر ورفاقه قلب الملك بالكراهية والبغضاء لرعاياه الانكليز، إلى حد أنه سعى بكل ما أوتي من قوة ومن وسائل إلى محقهم، واستدعى فرقاً من شعب بواتو حتى يملأوا انكلترا كلها، وكان حيثما ذهب الملك، كنت تراه محاطاً بحشود من هؤلاء الأجانب، ومامن شيء صنع في انكلترا، إلاّ ماكان أسقف وينكستر وحشده من الأجانب قد قرروه، ثم أرسل الملك رسائل،

واستدعى جميع الايرلات والبارونات التابعين للمملكة للقدوم إلى مؤتمر في اكسفورد، يوم عيد القديس يوحنا، لكنهم رفضوا القدوم إلى الاجتماع، لأنهم خافوا من خيانة من هؤلاء الأجانب، وكذلك بسبب الغضب الذي شعروا به نحو الملك لأنه حشد هؤلاء الأجانب مراغمة للبارونات المذكورين، ولدى حمل رفضهم إلى الملك من قبل مراسلين خاصين، غدا غاضباً جداً، وأمر بإصدار قرار يمكنه فيه إرغامهم على حضور اجتماع بلاطه، ثم إنه تقرر وجوب دعوتهم ثلاث مرات، من أجل معرفة هل سيأتون أم لا، وفي هذا المؤتمر قام واحد من الرهبان من طائفة المبشرين، كان يقوم بالتبشير بكلمة الرب بحضور الملك، و بعض الأساقفة، قام بوضوح باخبار الملك بصوت مرتفع، بأنه لن يتمتع قط بسلام دائم، ما لم يقم بصرف بطرس أسقف وينكستر، وبطرس دي ريفول ابنه من ادارته ومن مجالسه، وأخبر كثيرون كانوا حضوراً الملك بالشيء نفسه، وبناء عليه أرسل رسالة إلى النبلاء الذين تقدم ذكرهم للقدوم إلى مؤتمر يعقد في ويستمنستر في ١١- تموز، فوقتها سوف يتشاور معهم حول أي تقويم ينبغي عمله بموجب الحق، وكان النبلاء على كل حال قد سمعوا بأن أعداداً من هؤلاء اللصوص مزودين بالخيول والسلاح، تابعوا وصولهم من وقت إلى آخر بناء على دعوة الملك، ولدى عدم رؤيتهم أنه ليست هناك علامات تدل على الهدوء، رفضوا الحضور في اليوم المحدد، وطلبوا من الملك بوساطة رسل خاصين، أن يقوم على الفور بصرف بطرس أسقف وينكستر ومستشاريه النبلاء البواتيين، وإلاّ سوف يقومون بموافقة عامة بالاتحاد لطرده ولطرد المستشارين الأشرار من المملكة أيضاً، ومن ثم القيام بانتخاب ملك جديد.

كيف طرد الملك بعض نبلائه

أصيب الملك، وكذلك بلاطه كله بالانزعاج والغضب، وباتوا

خائفين جداً، من أن تكون غلطة الابن أكثر سوءاً من غلطة الأب، ذلك أن النبلاء قد قرروا خلعه من العرش وطرده من المملكة، وبناء عليه نصح الأسقف بطرس المتقدم ذكره بالقيام بالحرب ضد نبلائه المتمردين، وأن ينتزع قلاعهم منهم، ومن ثم أن يعطيها إلى النبلاء البواتيين، الذين سوف يدافعون عن المملكة ضد هؤلاء الخونة، وكان أول من ناله غضب الملك غيلبرت باسيت Bassett ,وكان نبيلاً وقد حرمه من احدى العزب، التي كان قد تسلمها كأعطية من الملك جون، وعندما طلب من الملك أن يعيد إليه امتيازاته، سماه الملك خائناً، وهدده أنه إذا لم يغادر بلاطه سوف يتعرض للشنق، كما أمر برتشارد سيوارد Siward وكان فارساً جريئاً، فأودع السجن، ثم أحضر إلى أمامه لأنه —كما قيل— قد تزوج من أخت غيلبرت المذكور، من دون إذنه، وبما أنه صار شاكاً بجميع النبلاء الآخرين وبالرجال ذوي المراتب في المملكة، طلب منهم تقديم رهائن، وأرسل رسائل إليهم بموجب مذكرات أن يسلموا إليه رهائن، قبل الأول من آب، أي كذا وكذا من الرهائن، وبذلك يمكنه أن يزيل من ذهنه كل ريبته نحوهم.

كيف أنذر المارشال بوجود مؤامرة ضدّه

وزحف الايرلات والبارونات في رتل عظيم من الفرسان إلى لندن في الأول من آب، لحضور المؤتمر المحدد، وكان من بينهم رتشارد الايرل مارشال، الذي سكن عند أخته، زوجة رتشارد أخو الملك، وقد سألته عن سبب قدومه، فأجابها بأنه قد جاء لحضور المؤتمر، وعندها قالت له:

«اعلم ياأخي العزيز، بأن أعداءك يتآمرون لاعتقالك، ولإعطائك إلى الملك وإلى أسقف وينكستر من أجل أن يخدموك وفق الطريقة نفسها التي خدموا بها ايرل كنت»، وكان من الصعب على المارشال أن يصدق هذه الكلمات التي صدرت عن أخته، حتى أرته برهاناً يشهد على طريقة اعتقاله، وبمن سوف يعتقل، ووقتها بدأ يصدقها، وعندما حل المساء

أخـذ الطريق، ولم يرخ عنانه حتى وصل إلى ويلز. هذا وقـدم إلى مـؤتمر لندن كل من ايرلي شيستر، ولنكولن، وايرل فيرار، وايرل رتشـارد، أخو الملك، مع ايرلات آخـرين وعدة بارونات، لكن مـامن شيء عُمل هناك بسبب غياب الايرل مارشال وغيلبرت باسيت، وبعض النبلاء الآخرين الذين لم يقـومـوا بالحضور، وبناء على ذلك قـام الملك بناء على نصيحـة بطرس أسقف وينكستر، وستيفن سيغريف Seagrave بإرسال رسـائل إلى جميع نبـلاء المملكة، الذيـن يدينون له بخـدمـة الفـروسيـة، فـدعـاهم إلى القدوم، مـزودين بالخيـول والسـلاح، إلى غلوستر في يوم الأحـد قبل صعـود مريم العـذراء المبـاركـة، ورفض رتشارد مـارشـال وبعض الآخـرين الذين كانوا متحـالفين الحضور في الوقت المحـدد، فما كـان من الملك إلاّ أن عـاملهم بمثـابـة خـونة، فأحـرق قـراهم، ودمـر حدائقهم ومطاردهم، وحاصر قلاعهم، وقـد قيل كان النبلاء المتحالفين مع بعضهم بعضاً هم:

الايرل مارشال، وغيلبرت باسيت مع أخيه، الذي كان جندياً متميزاً، ورتشـارد سيـوارد، وكـان رجـلاً قـد تدرب على السـلاح منذ صغـره، ووولتر دي كيلفورد Clifford وكان فارساً منتخباً مع عدد كبير آخر ممن التحقوا بقضيتهم، وأمر الملك بعدّ هؤلاء جميعاً، من دون أية محاكمة في بلاطه من قبل نظـرائهم، مطرودين، ورجـالاً محرومين من الحقـوق، وأعطى أراضيهم إلى خـدمه البـواتيين، آمـراً باعتقالهم شخصيـاً أينما تمّ العثور عليهم في المملكة.

كيف رشا أسقف وينكستر المتحالفين مع الإيرل مارشال

استطاع بطرس أسقـف وينكستر، الذي بذل كل مـــا توفـــر له من إمكانات ومالمتلكه من قدرة لاضعاف تيـار الايرل مارشال والمتحالفين معـه، أن يرشـــو ايرلي شيستر ولنكولن بأعطيـة مقـــدارها ألف مـارك، للتخلي عن المارشـال، وعن تيار العـدل، والالتحاق بحـزب الملك، لأن

رتشارد، أخو الملك، الذي وقف في البداية إلى جانب تيار المارشال، كان قد عاد قبل بعض الوقت إلى جانب الملك، وعندما اكتشف المارشال هذا، دخل بتحالف مع للويلين، أمير شمالي ويلز، ومع عدد آخر من مقدمي المقاطعة، وتبادلوا الأيمان، أن مامن أحد منهم سوف يعمل سلاماً مع الملك هنري، من دون موافقة الآخرين، وفي اليوم التالي ليوم صعود القديسة العذراء، وصل عدد كبير من الجنود من القارة إلى دوفر، وذهبوا إلى الملك في غلوستر، وبناء عليه قاد جيشه باتجاه مدينة هيرفورد، يحيط به حشد من هؤلاء ومن الآخرين.

الأذى الذي أنزل بوولتر أسقف أوف كارآيل

وفي هذه الآونة، عندما كان وولتر أسقف كارآيل جالساً، بعد بعض الأذى الذي لحق به من قبل الملك، صعد إلى ظهر سفينة في دوفر، ليعبر إلى القارة، لكن بعض عملاء الملك وصلوا، واعتقلوه مع جميع أصحابه، وأخرجوه معهم من السفينة، ومنعوه باسم الملك من مغادرة المملكة، من دون إذن ملكي، وأثناء وقوع هذه الحادثة نزل إلى اليابسة في ذلك المكان روجر أسقف لندن، لدى عودته من بلاط روما، وقد سمع بهذه الاهانة التي وجهت إلى الأسقف المذكور، فحرم كنسياً جميع الذين استخدموا العنف ضده، ثم انه ذهب إلى الملك، الذي وجده مع جيش كبير في مدينة هيرفورد في ويلز، وقام بحضور الملك ووجود بعض الأساقفة، فجدد قرار الحرمان الكنسي الذي تقدم ذكره أعلاه، بسبب العنف الذي تعرض له أسقف كارآيل، وذلك دون أن يعبأ بغضب الملك، الذي منعه من التفوه بالقرار، واتحد معه جميع الأساقفة الذين كانوا حاضرين، بحرمان جميع الذين شاركوا بذلك الاضطراب.

التحدي الذي أرسل إلى المارشال وحصار قلعة عائدة له

وأرسل الملك بعد هذا —بناء على نصيحة أسقف وينكستر—

أسقف القديس داوود إلى المارشال لتحديه، وأصدر الأوامر بشن الحرب ضده، وبحصار قلاعه، وبناء عليه، دخل الملك إلى أراضي الايرل مارشال، وألقى الحصار على احدى قلاعه، التي لاأتذكر اسمها، وبعد مهاجمتها بحدة لعدة أيام، بدأت الامدادات لدى الجيش المحاصر بالنقص، ورأى الملك أنه سيكون مرغماً على رفع الحصار، ولذلك شعر بالعار الدائم لقدومه إلى هنا، وبناء عليه أرسل بعض الأساقفة إلى الايرل مارشال، وسأله أن يقوم —صدوراً عن احترامه لشخصه الملكي، ولكي لايبدو الحصار أنه غير فعال— بتسليمه القلعة، على شرط أن يعيدها الملك إليه، خلال خمسة عشر يوماً غير معرضة للأذى، واشترط على نفسه، أنه سوف يقوم بالوقت نفسه، بناء على نصيحة الأساقفة الذين سوف يكونوا الضامنين لهذا، بالقيام بجميع الاصلاحات الموائمة في المملكة، وفي سبيل تنفيذ هذه الخطة، عيّن الملك يوم الأحد الذي سوف يحل بعد عيد القديس ميكائيل، من أجل المارشال وبقية النبلاء المجردين من الحقوق للاجتماع به في ويستمنستر، وعند ذلك أعطيت القلعة إلى الملك، ورفع الحصار.

نجاة هيوبرت دي بورغ

وفي هذه الآونة، كانت رغبة بطرس أسقف وينكستر الأولى، وفوق كل شيء، موت هيوبرت دي بورغ، الذي كان سجيناً في قلعة ديفزي، فالتمس من الملك بحرارة، ورجاه كثيراً، أن يعهد إليه بالمسؤولية عن تلك القلعة، وذلك دون أن يذكر اسم هيوبرت دي بورغ، وقد أمل بذلك أن يمتلك الفرصة لقتله، وقد أنذر هيوبرت بهذه الخطط من قبل أصدقائه الموجودين في بلاط الملك، وأباحوا بذلك إلى اثنين من خدم حامية القلعة، وكانوا يتوليان خدمته، واشفاقاً منهما على ما كان يعانيه، اخترعا خطة يمكنه فيها أن ينجو من الموت، وكذلك رصدا فرصتهما، وفي عشية عيد القديس ميكئيل، عندما كانت الحامية نائمة، أخذ واحد

منهما هيوبرت، واستمر الآخر بالمراقبة، وقد حمله كما هو مغلولاً على كتفيه، ونزل من البرج وهو حامل للصه التقي، وقد عبر به خلال القلعة كلها، دون أن تسمع الحامية به، وظل حاملاً له حتى وصل إلى الباب الكبير، حيث مرّ من خلاله، وعبر الخندق العميق، إنما بصعوبة كبيرة، وأخذ طريقه إلى الكنيسة الأسقفية، ولم ينزل حمله من على كتفيه حتى وصل إلى أمام المذبح الكبير، ورفض الرجلان اللذان أطلقا سراح هيوبرت أن يتركاه، عادين أنه سيكون مجداً عظيماً لهما إذا ما عانيا من الموت الدنيوي من أجل الحفاظ على حياة مثل هذا الرجل العظيم.

كيف سحب هيوبرت بعنف وأخرج من الكنيسة وسجن

وعندما استيقظت الحامية، ولم تجد هيوبرت في مكانه المعتاد، خافت خوفاً عظيماً، ونزلت بقوات حاملة للمشاعل وللأسلحة، ولم تترك مكاناً في المنطقة بحثاً عنه، وبعد بعض الوقت سمع رجال الحامية بأن هيوبرت كان في الكنيسة، وقد تحرر من أغلاله، وبناء عليه اندفعوا هائجين إلى هناك، فوجدوه أمام المذبح الكبير، والصليب المقدس بين يديه، وقاموا على الفور باعتقاله بالقوة، وضربوه وساقوه أمامهم بالسلاح وبقبضات الأيدي، وأعادوه إلى القلعة ومعه محرريه، حيث سجنوه بشدة أكبر من ذي قبل.

وعندما وصلت أخبار هذه الواقعة الى مسامع روبرت أسقف سالسبري، ذهب إلى الكنيسة وأمر أولئك الذين خرقوا حرمة الكنيسة، باطلاق سراح هيوبرت على الفور، وبإعادته إلى حرم الكنيسة في الوضعية نفسها التي وجدوه فيها، لكن قادة القلعة أخبروه وهم يصرخون بأن هيوبرت ينبغي شنقه وليس اطلاق سراحه، وبناء عليه رفضوا تسليمه إلى الأسقف، وقام الأسقف بموجب السلطات الممنوحة له، بانزال عقوبة الحرمان كنسياً بجميع الذين احتجزوه بالاسم، والذين استخدموا العنف معه، ثم ذهب الأسقف وبصحبته روجر أسقف

لندن، إلى الملك، وقدما شكوى إليه، حول الأذى الذي لحق بهيوبرت، ولم يتركا الملك حتى حصلا منه على اطلاق سراحه، وهكذا جرى في الثامن عشر من تشرين الأول ارساله عائداً إلى الكنيسة، على كراهية من الملك لذلك، وقام الملك فأرسل أوامر برسالة إلى عمدة تلك الكونتية، بأن يحاصر الكنيسة من أجل إجاعة هيوبرت حتى الموت.

كيف استرد المارشال القلعة التي كان قد سلمها إلى الملك

انقضت في هذه الآونة مدة الخمسة عشر يوماً، منذ تسليم المارشال قلعته إلى الملك على شرط أن يعيدها إليه ثانية، عندما يسأله ذلك، ونظراً لمضي المدة، أرسل إلى الملك يسأله أن يعيد إليه قلعته، وفقا لمعاهدتها، التي من أجلها عمل أسقف وينكستر، وستيفن سيغريف، الذي مارس أثناء ذلك أعمال المسؤول عن العدالة، كفيلين له، وكانا قد أكدا كفالتهما بقسم، ورد الملك على طلبه غاضباً، وقال بأنه لن يسلمه إياها، بل هو بالحري سوف يستولي على قلاعه الأخرى ويخضعها، وعندما رأى المارشال أنه لا اليمين ولاشروط السلام قد روعيت من قبل مستشاري الملك، جمع جيشاً كبيراً، وألقى الحصار على القلعة التي كانت من قبل قلعته، ووزع آلات حربه من حولها، وبسهولة أعاد الاستيلاء عليها.

وكان الملك في تلك الآونة في ويستمنستر، حيث كان حاضراً في مؤتمر التاسع من تشرين الأول، حسبما كان قد وعد النبلاء من أجل التشاور معهم في سبيل عمل الاصلاحات الضرورية في المملكة، لكن النصائح الشريرة التي اتبعها حالت دون تنفيذ ذلك، وقام عدد من الأساقفة الذين كانوا حاضرين بالتوسل إلى الملك بكل تواضع، وباسم الرب بأن يقيم سلاماً مع باروناته ومع النبلاء الآخرين الذين حكم عليهم بالنفي من دون أية محاكمة من قبل نظرائهم، وأحرق قراهم وأبنيتهم، وقطع أشجار غاباتهم وأشجارهم المثمرة، ودمر حدائقهم وبحيراتهم، وقال الملك —على كل حال— بأنهم كانوا خونة، مع أنه

بمساعدتهم كان من المتوجب إعداد خططه، وإدارة أعمال المملكة، وردّ أيضاً بطرس أسقف وينكستر بأن النظراء في انكلترا ليسوا مثل أولئك في فرنسا، ولذلك فإن ملك انكلترا يمتلك الحق، بوساطة رجال العدالة الذين عيّنهم، أن يقوم بنفي أية أشخاص مجرمين من المملكة، وأن يدينهم بعد المحاكمة، ولدى سماع الأساقفة هذه الكلمات، هددوا بصوت واحد، بأن يحرموا كنسياً بالاسم، الشخص الرئيس بين هؤلاء المستشارين الأشرار، وبين هؤلاء، سموا بشكل خاص:

بطرس أسقف وينكستر، وابنه بطرس دي ريفول، وستيفن سيغريف، المسؤول عن العدالة، وروبرت باسلوي المتسلم للخزينة، وعلى هؤلاء ردّ مهدداً، بطرس أسقف وينكستر، بأنه كرّس أسقفاً من قبل الحبر الأعظم في روما، ولذلك هو معفي من سلطتهم، وقد ترافع إلى الكرسي الرسولي ضد تفوههم بهذا القرار ضده، ثم قام الأساقفة المتقدم ذكرهم بالحرمان كنسياً جميع الذين أبعدوا عواطف الملك عن رعاياه الانكليز الطبيعيين، ومن ثم أفسدوا سلام المملكة.

كيف استدعى الملك جميع الذين يدينون بخدمة الفروسية له للمثول أمامه

أثناء هذا المؤتمر وصل رسل إلى الملك، أخبروه بأن الايرل مارشال، قد استرد قلعته في ويلز، وقد قتل بعض الفرسان الملكيين والموظفين هناك، وغضب الملك غضباً عظيماً لدى سماعه هذه الأخبار، وأمر الأساقفة بحرمان المارشال كنسياً بالاسم، لأنه استولى على القلعة المذكورة، لكن الأساقفة أجابوه بأنه لايستحق الحرمان الكنسي، لاسترداده فقط القلعة التي هي ملكه، وعند ذلك أرسل الملك الغاضب رسائل إلى جميع مناطق انكلترا، أمر فيها جميع الذين يدينون له بخدمة الفروسية، بالاجتماع في غلوستر في اليوم التالي لعيد جميع القديسين، وهم مجهزين بالخيول والسلاح، للزحف إلى حيث يرغب بقيادتهم.

وفي هذه الآونة نفسهـا، جـرى حمل هيـوبرت دي بورغ المسـؤول السـالف عن العدالة بعيـداً عن كنيسـة ديفزي، من قبل بعض الرجـال المسلحين، وبعدما ألبسوه بشكل صحيح بلباس فارس، حملوه إلى ويلز، حيث التحق بأعـداء الملك في حـوالي السـاعـة الأولى من يوم ثلاثين تشرين أول.

كيف حارب النبلاء المطرودون جيش الملك عند غروسمونت

وكان الملك قد جمع في هذه الآونة جيشاً قوياً في غلوستر، زحف معه نحو هيرفـورد في ويلز، حيث غـزا أراضي المارشال، وسعى، مستخـدماً جميع الطاقـات التي توفـرت لديه، لأن يحرمـه من ميراثه، ولأن يأسره شخصيـاً، لكن ذلك العسكري الحذر، قـام —على كل حـال— قبل وصـول الملـك بسحب جميع المواشي والامـدادات، ولـذلك لم يستطع الملك الاقـامـة هناك، لانعـدام المؤن لديـه، فـانتقل مع جيشـه إلى قلعـة غـروسمـونت Grosmont وبعـدمـا أقـام هناك عـدة أيام، علم المارشـال مع المطرودين المتحـدين، بـوسـاطة الجواسيس، بأن الملك قـد أمضى الليل داخل تلك القلعـة، في حين عسكر جيشه خـارج الأسوار، لذلك زحفت كتلتهم كلهـا، بـاستثناء المارشـال، الذي رفض أن يقـاتل الملك، إلى هناك مع الزعماء الـويلزيين وجيش كبير، وجـاء زحفهم بعـد حلول الظلام في يوم عيـد القديس مـارتن، وانقضوا على عساكـر الملك الذين كانوا نائمين متمددين في خيامهم، فاستولوا على أكثر من خمسمائة حصـان، مع جميع أثقـالهم وتجهيـزاتهم، وهـرب الرجـال أنفسهم، وهـم عـراة تقـريبـاً في جميع الاتجاهات، ولم يـرغب المنتصرون —على كل حال— بجرح أو بأسر أياً منهم، وقد عثر على فارسين قد قتلا من بين العـدد كله، ثـم انهم أخـذوا جميع العـربـات والعجـلات الحاوية للمال، والامـدادات والسـلاح، وبعـدمـا أودعـوا بعنايـة غنائمهم، انتقلوا إلى أماكنهم السليمـة للاختباء، وكان جميـع النبلاء التاليـة أسماؤهم شهوداً

على هذه الواقعة:

بطرس أسقف وينكستر، ورالف أسقف شيستر، وستيفن سيغريف المسؤول عن العدالة، وبطرس دي ريفول المسؤول عن الخزينة، وهيوج بيغود ايرل أوف نورفولك، ووليم ايرل أوف سالسبري، ووليم بوشامب Beauchamp ووليم دوبني Daubeney الأصغر، وعدد كبير آخر، شكلوا الذين هربوا وهم تقريباً عراة، وقد فقدوا جميع مقتنياتهم، وغادر إثر هذا عدد كبير من جنود الجيش، ولاسيما الذين فقدوا خيولهم وجميع أموالهم، وعادوا إلى مواطنهم وهم على درجة عالية من الاضطراب، أما الملك، الذي بقي هكذا وحيداً، في وسط أعدائه، عهد إلى قطاع الطرق من رجاله البواتيين بالمسؤولية عن قلاع ويلز، لصد هجمات أعدائه، وأعطى قيادة جيشه إلى النبيلين: جون أوف مونماوث Monmouth ورالف دي ثوني، وأعطى الأخير أيضاً قلعة ماتيلدا، العائدة إليه بموجب امتياز قديم، وبعدما أكمل الملك هذه الترتيبات، عاد هو شخصياً إلى غلوستر.

وسمعت في بداية شهر تشرين الثاني، من هذا العام نفسه، أصوات رعد، وقد ترافقت مع برق مخيف، واستمر ذلك لعدة أيام، وصار مثلاً عاماً بين العمال، بأن المرأة ينبغي أن لاتبكي لموت أبيها، أو أولادها، بل بسبب العواصف الرعدية، لأنهم يمنعون دوماً وصول المجاعة أو الموت، أو بعض مثل هذه الأشياء.

المعركة الحادة بين المارشال والبواتيين

وفي العام نفسه، وصل المارشال في احدى غاراته لجمع الأعلاف في مناطق أعدائه، إلى بلدة مونماوث، التي كانت معادية بالنسبة له، وفي الوقت الذي أمر فيه جيشه بمتابعة زحفه في حملته، تحول مع مائة من أتباعه الفرسان، وتوجه نحو قلعة ذلك المكان لفحص أوضاعها، ذلك

أنه كان يفكر بحصارها بعد عدة أيام، وعندما كان يتجول حول أسوار البلدة، شوهد من قبل بلدوين دي غوسني Guisnes الذي إليه كان الملك قد عهد بتلك القلعة مع عدد من البواتيين، وفهم بأن المارشال كان هناك مع عدد قليل من أتباعه فقط، من أجل القيام بفحص القلعة، فحمل مع ألف من الجنود الشجعان، والمجهزين بشكل جيد، وطارده بسرعة كاملة، ناوياً أن يأسره مع أتباعه، وأن يحملهم إلى داخل البلدة، وعندما شاهد رفاق المارشال الزحف الشديد للأعداء، نصحوه باللجوء إلى الفرار من أجل السلامة، وقالوا له إنها ستكون عملية تهور لعدد صغير مثلهم الاشتباك مع مثل ذلك العدد من الأعداء، وعلى هذا ردّ المارشال، أنه حتى الآن لم يدر ظهره إلى الأعداء في المعركة، ولن يفعل ذلك الآن، وشجعهم على الدفاع عن أنفسهم بشجاعة، وأن لايموتوا دون الانتقام لأنفسهم، وعند ذلك انقض أفراد العساكر الذين قدموا من القلعة، وحملوا عليهم بكل شدة، وأعقب ذلك قتال عنيف مع أن الفئتين لم تكونا متعادلتين، وكان هناك مئة فقط من جهة المارشال، كان عليها التصدي لألف من خصومهم، ولقد قاتلوا خلال الجزء الأكبر من النهار، وقام بلدوين دي غوسني مع اثني عشر من خيرة جنوده الأشداء والمسلحين بشكل جيد، بالحملة على المارشال شخصياً، وسعى إلى أسره وحمله معه إلى القلعة، وقد أبقاهم المارشال بعيداً عنه، وكان يضرب بسيفه ذات اليمين وذات الشمال، ورمى كل من اقترب منه إما بقتله أو بايقاعه بقوة ضرباته، ولقد استطاع بقوة ذراع ويد واحدة أن يصمد ضد اثني عشر من أعدائه وأن يدافع عن نفسه لمدة طويلة من الوقت، وبعد مضي وقت طويل لم يعد أعداؤه يتجرأون على الاقتراب منه، فقتلوا حصانه الذي كان يمتطيه برماحهم، لكن المارشال الذي كان واسع الخبرة بطرائق الفرنسيين بالقتال، أمسك واحداً من الفرسان الذين كانوا يقاتلونه من قدميه، وسحبه وألقاه أرضاً، ثم امتطى بكل سرعة فرس عدوه، وجدد القتال، وشعر الفارس بلدوين بالخجل، من

أن المارشال قد دافع عن نفسه بيد واحدة، ضد مثل ذلك العدد من أعدائه، وحمي غضبه فقام بحملة يائسة عليه، وأمسك خوذته وانتزعها بعنف من على رأسه حتى أن الدم اندفع من فمه ومن فتحتي أنفه، ثم أمسك حصان المارشال من لجامه، وسعى إلى جره مع راكبه نحو القلعة، في حين ساعده آخرون في ارغام المارشال ودفعه من الخلف، وتمكن المارشال باستخدام سيفه والضرب به نحو الخلف، من إلقاء اثنين من أعدائه أرضاً بعدما أصابهما بالجراحة، لكنه لم يستطع تخليص نفسه من قبضتيهما، وفي هذه اللحظة، شاهد واحد من رماة القسي العقارة من جماعة المارشال، بأن مولاه في خطر، فأطلق سهمه من قوسه، فأصاب بلدوين، الذي كان يجر المارشال، في صدره، وخرق درعه، فسقط أرضاً، معتقداً أنه أصيب بجراح مميتة، وعندما رأى رفاقه هذا، تركوا المارشال، وذهبوا لانهاض بلدوين ورفعه من على الأرض، لأنهم ظنوا أنه قد مات.

المذبحة التي أوقعها المارشال عند قلعة مونماوث

وأثناء وقوع هذه الحوادث، وصلت أخبار إلى جيش المارشال تحدثت عن الخطر الذي كان به، وبناء عليه زحف جنوده نحوه بكل سرعة لمساعدته، وعلى الفور أرغموا أعداءهم على الفرار، وكان هناك جسر في جوار القلعة، من فوقه كان الفارون يأملون بالنجاة، لكنهم وجدوه مدمراً، وبناء عليه رمى عدد كبير منهم بأنفسهم بالنهر، وقد غرقوا مع أسلحتهم وخيولهم، ولم يكن لدى آخرين وسائل للهرب، ولذلك قتلوا من قبل مطارديهم، واعتقل بعضهم وأخذوا أسرى، وعاد عدد قليل من الذين كانوا قد حملوا من القلعة، ووقع بالأسر من جانب المارشال توماس سيوورد Siward وكان فارساً شجاعاً مع اثنين من رفاقه، ونقلوا إلى القلعة، ووقع من عساكر الحامية بالأسر خمسة عشر فارساً مع عدد كبير من الجنود، وقد أخذهم المارشال مع خيولهم وأسلحتهم،

وأســلاب أخــرى، وبقيت أعــداد من الذين قتلـوا ممددين على أرض المعركة، وكـان من بين الذين شوهدوا منهم ويلزيين وبواتيين، وأجانب آخـرين، وحمل بلدوين دي غـوسني إلى القلعـة وهو مصـاب بجـراحـة كبيرة، ووقعت هذه المعـركـة قرب القلعـة المذكـورة أعلاه في يوم عيـد القديسة كاترين «٢٥- تشرين ثاني».

ونصب بعـد هذه المعـركـة المارشـال مع غيلبرت باسيت، ورتشـارد سيوورد، وآخـرين من المطرودين المتحدين، كمائن للبـواتيين الذي كانوا مســؤولين عن قـلاع الملـك، وبناء عليـه عندمـا كـان أياً منهم يخرج للاعتـلاف، كانوا يهاجمون، ولذلك لم يمنحـوا أية مكان، ونتيجـة لذلك أنتنت جميع الأجـواء في ذلك الجزء من المنطقـة وجـافت، بسبب أعـداد الأجانب الموتى الذين تمددوا هناك على الطرقات وفي الأماكن الأخرى.

حكمة المارشال العظيمة وتقديره للعدل

وفي حـوالي تلك الآونة نفسهـا، وفي يوم الخميس التـالي قبل الميـلاد، حدث أن كـان الايرل مارشال يمضي الليل في دير مــارغان Margan وفي ذلك المكان قـدم إليه راهب من رهبـان طائفة الفرنسيسكـان اسمه أغنل Agnell وكان تابعـاً للملك ومستشاراً، وقـد أخبره بالذي قيل حـوله في البـلاط من قبل الملك، ومـن قبل مستشـاريه، فقـد ذكـر بأنه «سمع الملك يقول:

إنه مع أن المارشال قـد حمل السلاح ضده بشكل خيـاني وغير عادل، إنه إذا مـا اختار —دون التقدم بشرط آخـر— أن يلقي بنفسـه كلياً على رحمة الملك، فالملك سوف يمنحه أمـاناً على حياته وعلى أطرافه، وسوف يسمح له بجـزء كاف من الأرض في هيرفـورد شـاير، يعيش منه بشكل مشرف، وسمع كـذلك من ستيفـن سيغـريف بأن شروط العفـو عن المارشـال، سوف يتعـرف المارشال عليهـا، بوساطة اثنين من أصـدقائه

الموثوقين، اللذان سوف يخبران المارشال بأنه يستطيع بأمان أن يثق برحمة الملك، إنما في الوقت نفسه هما لن يخبرا المارشال نفسه أو أي شخص آخر، لأن عليه أن يفعل ذلك، دون أن يعرف الشروط التي منحت له»، كما أنه سمع أيضاً من آخرين في البلاط، أنه سيكون من المفيد للمارشال أن يفعل كما ورد أعلاه، فذلك هو واجبه، وذلك سوف يكون مفيداً له ولصالحه، وسوف يكون سلبياً بالنسبة له أن يفعل ذلك، وأن ذلك كان واجبه، لأنه قد تسبب بإلحاق الأذى بمولاه، لأنه قد قام قبل أن يؤذي الملك ممتلكاته أو شخصه، بغزو أراضي الملك، فدمر وأحرق الحاصلات، وقتل الناس، وإذا ما ادعى المارشال وترافع بأنه قد فعل ذلك للدفاع عن ذاته، وعن ميراثه، فقد قالوا بأن الأمر لم يكن كذلك، لأنه لم تكن هناك أية نوايا شريرة ضده شخصياً أو ضد ممتلكاته، لذلك كان ينبغي عليه، عدم اللجوء إلى العنف ضد مولاه الملك حتى يكتشف بوساطة المشاهدة العينية بأن الملك كانت لديه مثل تلك النوايا الشريرة ضده، فوقتها كان مسوغاً له بأن يعمل الذي عمله».

وعلى هذا كله عمل المارشال الرد التالي إلى الراهب أغنل، حيث قال:

«إنه بالنسبة للحجة الأولى، وأن ذلك كان واجبي، لأنني غزوت أراضي الملك، هذا ليس صحيحاً، لأنني كنت دوماً جاهزاً للالتزام بالقانون، وبقرار نظرائي في بلاطه، وغالباً ماسألت الملك —بوساطة الرسل— أن يمنحني هذا، لكنه رفض دوماً منح ذلك لي، وقام هو نفسه بغزو أراضي، وقاتلني مراغمة لجميع شرائع العدل، وأملاً مني بإرضائه بخضوعي، دخلت بالمفاوضات معه عن طواعية وتقبلت شروط سلم معه، مع أنها كانت مؤذية جداً لي شخصياً، وبموجبها كان قد تم الاتفاق، أنه مالم يقم الملك من جانبه بمراعاة هذه الشروط وتطبيقها نحوي، ينبغي أن أبقى تماماً في الوضع نفسه، كما كنت من قبل الموافقة على السلم المذكور، أي أكون متحرراً من كل ولاء له، وفي حالة

رفض وتحد له، كما كنت من قبل أسقف القديس داوود، وبناء عليه، بما أنه أخفق في مراعاة شروط السلام في كل جانب من جوانبها، إنه كان مسوغاً بالنسبة لي، تبعاً لاتفاقي معه، أن أسعى لاسترداد ما كان ملكاً لي، وأن أضعف قدرته بكل وسيلة ممكنة، ولاسيما وأنه كان يسعى متشوقاً إلى تدميري، وإلى حرماني من ميراثي، ولاعتقالي شخصياً، وأنا من هذا كله متأكد تماماً، وإذا كان الأمر ضرورياً، يمكن أن أبرهن عليه، وزيادة على ماتقدم، أنه بعد هدنة الخمسة عشر يوماً، قبل دخولي إلى ويلز، أو بالحري، قبل اتخاذ أي إجراء للدفاع عن ذاتي ضد أي انسان، قام هو —من دون أية محاكمة— فحرمني من وظيفتي، وظيفة المارشالية، وجردني منها، مع أنها عائدة إليّ، ذلك أنني أحملها بموجب الحق الوراثي، ورفض بشكل قاطع ردها إليّ، عندما سألته ذلك، وبهذا اقتنعت بشكل واضح بأنه لاينوي التوصل معي إلى أية شروط سلام، لأنه هددني بعد الهدنة بشكل أسوأ من ذي قبل، ولذلك أنا لست خاضعاً له، بل متحرر من التابعية إليه، مع أنني سأعود إلى شروط أول حالة رفض، التي ذكرت أعلاه، وفقاً لهذه الاتفاقية، وبناء عليه، كنت مسوغاً ومازلت مسوغاً في الدفاع عن نفسي، وفي الوقوف ضد المؤامرات الشريرة لمستشاريه بكل وسيلة في مقدرتي»، وقال مستشار الملك أيضاً، بأنه سوف يكون لصالح المارشال ومنفعته أن يلقي بنفسه على رحمة الملك، لأن الملك كان أغنى، وأكثر قوة مما هو عليه، وإذا كان المارشال سيعتمد على عون الأجانب، يمكن للملك أن يجلب سبعة أشخاص مقابل كل واحد يمكن للمارشال أن يقنعه بمساعدته، لأن بعضاً من الأجانب أقرباء للملك، وقد عرضوا عليه تقديم مساعدتهم، وهؤلاء ليسوا اسكوتلنديين، ولافرنسيين، ولاويلزيين، ويمكن لهؤلاء أن يقدموا إلى انكلترا، وأن يجدوا عملاً من أجل جميع أعدائه، وهم يمكنهم أن يقدموا بحشود كبيرة كافية لتغطية وجه البلاد كلها، ورد المارشال على هذه الحجة قائلاً:

«صحيح أن الملك أغنى مني، وأكثر قوة، لكنه ليس أكثر قوة من الرب، الذي هو عادل بذاته، والذي فيه أضع آمالي بالسلامة، وفي الحصول على امتيازاتي في المملكة، وأنا لاأضع ثقتي في أجانب، ولاأنشد تحالفهم وعونهم، ولن أطلب مساعدتهم، مالم —لاسمح الرب— أرغم على فعل ذلك، بضرورات غير متوقعة، ولايمكن تجنبها، وأنا أعرف بشكل جيد أن بإمكان الملك أن يجلب سبعة مقابل واحد أجلبه، وأعتقد أنه سوف يجلب في أقرب وقت ممكن كثيراً منهم لمساعدته، إلى حد أنه لن يكون بامكانه، بأية وسيلة من الوسائل، تحرير نفسه والمملكة منهم، لأنني سمعت من أناس موثوقين، بأن أسقف وينكستر، قد صمم على اخضاع جميع انكلترا لإرادته، وأنه بات مشغولاً بذلك منذ الأيام التي كان فيها في القارة مع الامبراطور، ولذلك بدأ هذه الحرب، لكي يجد الفرصة من أجل طلب المساعدة من الامبراطور، ولكي يتمكن أيضاً من استدعاء الامبراطور للقدوم شخصياً، ويبدو أن هذا الذي سيكون، لأنه عندما نشب خلاف بينه وبين الملك، كان قد غادر انكلترا، وهاهو الآن قد أقسم بأنه سوف يرسل أعداد كبيرة من الأجانب إلى انكلترا، وسوف يتابع ذلك، حتى يغطي وجه البلاد كلها»، ومجدداً قال مستشار الملك أنه سوف يكون أميناً للمارشال وسليماً أن يلقي بنفسه على رحمة الملك، لأنه يمكنه أن يثق بالملك وبمستشاريه، وأن يثق بالملك، بسبب أنه كان رحيماً، وجديراً بالثقة، وأن يثق بمستشاريه لأنهم لم يتسببوا بأي أذى للمارشال، لأنهم بالفعل يحبونه بقلوبهم، وعلى هذا رد المارشال قائلاً:

«من الممكن أن يكون الملك رحيماً، لكنه مضلل بنصيحة هؤلاء الناس، الذين نشعر بقرارة أنفسنا أننا متأذين كثيراً منهم، وأن يكون الملك موضع ثقة، فهذا واضح بالنسبة له شخصياً، لكن بالنسبة لمستشاريه لدي هذا الذي سوف أقوله، إنه مامن وعد عمل لي قد

حوفظ عليه حتى الآن، والذي قـاله مستشاروه من أنهم لم يتسببوا بأذى قط لي، فهــذا زائف، ذلك أنهم جلبــوا جميع اضطراباتي وأنـزلوها إلي، وإليهم أعــزوها كلهــا بشكل رئيسي، كما انني لاأستطيع أن أصــدقهم عندمـا يقولون بأنهم يحبـونني، حتى أراهم يتصرفون بشكل مغـاير، لما رأيتهم دوماً يفعلونه لأنهم خرقوا عدة أيمان تعاون، أي فيما يتعلق بايرل أوف كنت، الذي إليه عملوا ثلاثة أنواع من الأيمان، التي لم يرعوها، بل حنثـوا بها وخرقـوها، وكذلـك فيما يتعلق بالشروط التي قدمهـا الايرل المتقـدم الذكر، التي حنثـوا بها وتخلوا عنهـا وفق الطريقة نفسهـا، ومثل هذا مـاتعلق باليمين الخاص بـالامتيـازات الموجـودة في الصك العظيم، الذي أيضـاً خـرقـوه، ومن أجل ذلك حـرموا كنسيـاً على أسـاس أنهم حــانثين باليمين، وقـد حنثــوا باليمين أنفسهم فيما يتعلق بالاستشــارة الصحيحــة التي أقسمـوا أنهم ســوف يعطونها إلى الملك، لأنهم دومــاً يشيرون عليه بما هـو معاكس للعدل، وستيفـن سيغريف الذي كـان قد أقسم على رعاية القـوانين العادلة، يقـوم الآن بافسادهم، ويقـدم قوانين ليست مستخدمة منذ زمن طويل، ولأسبـاب أخرى كثيرة، هو وكذلك المتعاونين معه جديرين بعدم الثقة من قبل الرب ومن قبل الانسان، لأنه أوليس هو، وأوليسوا هم محرومين كنسياً؟»، وكـانت الحجة التالية التي قدمها مستشار الملك ضد المارشال، هي أنه قاتل شخص مولاه الملك في غـروسمونت، قبل أن يدخل الملك إلى أراضيـه، وبذلك سبب أذى له، وبناء عليـه إن واجبـه يقضي عليــه أن يسلم نفســه ويضعهـا تحت رحمة الملك، كما ورد الذكـر أعلاه، في سبيل أن يشرفـه ويكرمه، وأن لايقـدم حجة للآخـرين للقيام بحمـلات معادية ضـده، وعلى هذا رد المارشال، بأنه بالنسبـة لما يتعلق به شخصيـاً، هو زيف وكـذب الإدعـاء بأنه كـان حاضراً أثناء ذلك القتال، وإذا مـاحدث وكان واحد من أتبـاعه حاضراً هناك، لقد قاتلوا أتباع الملك، وليس شخصه الملكي، ثم قال:

«وإنهم إذا مـافعلوا ذلك ينبغي أن لاتعجب منه، لأن الملك قد قـدم إلى أراضيّ مع جيشـــه لمهـاجمتي ولإلحاق الأذى بي بكل طريقـــة من الطرق، وهذا مبرهن عليه بكل وضوح بوسـاطة الرسائل التي استدعى بها الجميع مـن كل أنحــاء انكلترا لمســاعـدته على تدميري، وبما أن الاعتـداءات المذكورة أعـلاه قـد عـزيت إلي بشكل زائف، وأنه صحيح تماماً ان الملك قد تصرف نحوي بشكل سيء في الوقت الذي كنت أنظر فيه إلى رحمته أكثر من أي وقت مضى، وهو مايزال يمتلك النوايا نفسها نحـوي كما كـان من قبل، ومابـرح يعتمد على مشـورة هؤلاء الرجـال، الذين أعلـم أنه بسبب نصـائحهم له قـد حـدثت هذه الأضرار ولحق بي مـالحق من أذى، وكذلك بجماعتي، ولذلك ينبغي أن لانخضع لرحمتـه ولايمكننا فعـل ذلك، ثم إنه لـن يكون مشرفـاً للملك ولا لصـالح سمعته، إذا ما رضخت إلى رغبـاته، إذا لم تكن هذه الرغبات مؤيدة بأي منطق، لابل إن ذلك سيبـدو بالحري وكأنني أقدم إهانة له وإلى العـدل، العـدل الذي من واجب الملك ممارسته ورعـايته نحـو رعاياه، ولسـوف أضرب بذلك مثـلاً سيئاً إلى كل انسـان، هو التخلي عن قضية العـدل، والتجرد والتخلي عن جميع امتيازاتي، بسبب خطأ بالتقدير، معاكس لكل عـدل، ولالحاق الأذى برعيتـه، لأننا في تلـك الحالة، سـوف يظهـر أننا نحب مقتنيـاتنا الدنيـوية أكثـر من العـدل»، وعلى هذا أوضح المستشـار وذكر ضد المارشال مجدداً، أنه قد تحالف مع أعداء الملك الرئيسيين:

الفــرنسيين، والاسكوتلنديين، والويلزيين، وأنـه بذلك بدا بالنسبـة لمستشاري الملك أنه قد فعل ذلك من أجل اغضاب الملك وايذائه وايذاء المملكة، وعلى هذا رد المستشار قائلاً:

«أما بالنسبة للفرنسيين، فهذا زائف بكل وضوح، والحديث أيضاً عن الاسكـوتلنديين والـويلـزيين هو زائـف أيضـــاً، إلاّ بـاستثناء ملـك اسكوتلندا، وللويلين، الأمير الويلـزي، لأنهما لم يكونا أعـداء، بل تابعين

مخلصين له، وقد بقيا كذلك، حتى نزلت بهما الأضرار من قبل الملك ومن قبل مستشاريه، فأرغما مكرهين مثلي على سحب ولائهما منه، ولهذا السبب شكلت حلفاً مع هذين الأميرين، ذلك أننا نكون أحسن حالاً عندما نكون متحدين، وأفضل مما لو كنا ممزقين، نناضل في سبيل امتيازاتنا، وندافع عن حقوقنا التي حرمنا منها بشكل غير عادل، وسلبت منا بمعيار كبير»، ثم إن مستشار الملك أوضح من جديد بأن المارشال، لايحتاج أن يضع ثقة في حليفيه هذين، لأن الملك يستطيع —دون أن يعرض أراضيه للخطر— ابعادهما عنه عندما يشاء، وعلى هذا ردّ المارشال قائلاً:

«انه لما لاشك فيه أن هذه الواقعة تظهر بوضوح شرور مستشاريه، لأنهم يرغبون في أن يجعلوا الملك يتحمل كل نوع من الأذى، من هذين الذين دعوهما باسم عدويه الرئيسيين، من أجل ايذائي، مع أنهما كانا دوماً من رعاياه المخلصين، وطوال ماسمح لي، أنا سوف أكون كذلك، إذا ما أعاد لي وإلى أصدقائي حقوقهم الصحيحة»، وكانت الحجة الثانية التي قدمها مستشار الملك، بأن لدى البابا والكنيسة الرومانية تقدير خاص إلى الملك وإلى المملكة، والبابا على استعداد لإنزال عقوبة الحرمان الكنسي بجميع أعدائه، ويبدو أن هذا قريب وفي متناول اليد، لأن الملك والمستشارين قد أرسلوا وراء المندوب البابوي، وعلى هذا رد المارشال قائلاً:

«إنني مسرور لسماع مايقولونه حول مايتعلق بالبابا وبالكنيسة الرومانية ومن أجل التقدير العظيم الذي لديهم للملك وللمملكة، فذلك يعني أنهم يرغبون أكثر منه أن يحكم مملكته ورعاياه وفقاً لشرائع العدل، وأنا أيضاً مسرور لسماع بأن البابا سوف يحرم كنسياً أعداء المملكة، لأن الأعداء هم أولئك الذين يشيرون على الملك بما هو ضد العدل، حسبما تبرهن أعمالهم على ذلك، لأن العدل والسلام يسيران معاً

يداً بيد، وعندما يفسد العدل، يخرق السلم أيضاً، ومجدداً أنا مسرور لأن المندوب البابوي قادم، لأنه كلما ازداد الناس هنا الذين سيسمعون بعدالة قضيتنا، كلما ازداد العار الذي سوف يلحق أعداء العدل، والآن مع أنني مقيم بشكل خاص مع أحزاني، يمكنني قول الشيء نفسه فيما يتعلق بأصدقائي، وحلفائي، وباسمهم ولصالحهم أتقدم بالشكوى نفسها التي أتقدم بها باسمي ولصالحي، ومن دونهم لايمكنني أن أعمل أي شيء مطلقاً، في سبيل الوصول إلى ترتيبات دائمة».

كيف احتفل الملك هنري بعيد الميلاد في غلوستر

سنة ١٢٣٤م، التي كانت السنة الثامنة عشرة لحكم الملك هنري، فيها عقد الملك بلاطه في عيد الميلاد في غلوستر، مع حاشية صغيرة فقط —لأنه هجر من قبل عدد كبير من النبلاء، الذين كانوا قد جردوا قبل وقت قصير مضى من جميع ممتلكاتهم— في قلعة غروسمونت، كما تحدثنا من قبل، ونزل في الوقت نفسه الصقيع بحدة كبيرة، حتى أن الحاصلات في الحقل قد دمرت، وجذور الأشجار في الحدائق قد اهترأت، وتجمدت جذور أشجار التفاح حتى عمق أربعة أقدام وماتت، واستمر هذا من دون تساقط للثلوج حتى عيد طهارة القديسة مريم، وقد أعقب هذا في العام نفسه أجواء غير صحيحة تماماً، وأنواء ليست في مواسمها، وتبع ذلك ندرة كبيرة في جميع منتجات الأرض.

كيف أحدث المارشال مذبحة كبيرة بين أعدائه

بعد يوم عيد الميلاد جمع جون أوف مونماوث، وكان رجلاً نبيلاً، قد قاتل إلى جانب الملك في ويلز، جيشاً كبيراً، ليفاجىء الايرل مارشال، وكان هذا الأخير قد أخبر بما ينويه، فحمل نفسه مع جيشه إلى الغابة التي كان عدوه سيمر بها، من أجل أن يغرر بالذين فكروا بتضليله، وعندما وصل رجال العدو إلى مكان الكمين، انقض المارشال وجيشه

عليهم وسط زعقات الأبواق والنفر، وأخذوهم على حين غرة، وأرغموهم فوراً على الفرار، وطاردوهم عن قرب، وقتلوا أعداد كبيرة من البواتيين ومن الآخرين، ونجا جون نفسه بعد صعوبات جمة وكان ذلك عن طريق الفرار، وبعد ذلك تقدم المارشال زاحفاً مع جيشه، ونهب وأحرق القرى والبيوت، والممتلكات الأخرى العائدة إلى جون المذكور، وبذلك جعله فقيراً ومتسولاً بدلاً من رجل غني، كما كان، ثم عاد إلى مناطقه محملاً بغنائم وأسلاب ضخمة جداً، وهو يسوق قطعان كبيرة من المواشي.

كيف أثار النبلاء المطرودون معارضة كبيرة ضدّ مستشاري الملك

وأثناء عيد الميلاد نفسه، شنت حرب قاسية ومحزنة ضد الملك، وضد مستشاريه، لأن رتشارد سيوورد بالتعاون مع آخرين من النبلاء المطرودين، هاجموا ممتلكات الايرل رتشارد، أخي الملك، على مقربة من بريهل Brehull وأحرقت بيوته ومحاصيله، حتى لحق ذلك المواشي التي كانت واقفة في الاسطبلات، كما أنهم قاتلوا سيغريف، بلد ستيفن المسؤول عن العدالة، وغادروا ذاهبين آخذين معهم بعض الخيول الثمينة ومقتنيات أخرى، كما أنهم دمروا بالنار قرية عائدة لأسقف وينكستر، على مقربة من الموضع الآنف الذكر، وحملوا معهم كميات من الغنائم، وراعى هؤلاء الجنود حكماً واحداً بينهم بشكل عام، هو أنهم لم يلحقوا الأذى أو يهاجموا أي واحد، باستثناء مستشاري الملك غير العادلين، الذين بوسائلهم قد سيقوا إلى المنفى، غير أنهم دمروا كل الذي عاد إلى هؤلاء الرجال، ودمروا وأحرقوا غاباتهم، واقتلعوا أشجار فواكههم من الجذور.

الحملة ضدّ شروبري

وبعد هذا، أثناء ثمانية عيد الغطاس، جمع الايرل مارشال، وللويلين

الزعيم الويلزي كل القوات التي تمكّنا من حشدها، وتوغلا مسافة بعيدة داخل الأراضي الملكية، ناشرين للنار حيثما ذهبا، ولذلك لم يتوفر مكان من حدود ويلز حتى بلدة شروبري Shrewsbury قد نجا من أعمال عيثهما وافسادهما، ثم إنهما أحرقا بلدة شروبري، وعادا بعد ذلك إلى ديارهما مع أسلاب ثمينة، وكان الملك هنري أثناء جميع هذه الاجراءات التي قام بها أعداؤه، مقيماً بدون نشاط في غلوستر مع أسقف وينكستر، لأنه لم تكن لديه قوة عسكرية كافية للتصدي لهم، ولذلك تراجع مقهوراً مجللاً بالعار، إلى وينكستر، تاركاً جميع تلك المنطقة معرضة للنهب من قبل أعدائه، كما كان ذلك واضحاً، ولقد كان منظراً مرعباً للمسافرين لأن يروا جثث القتلى، الذين كانوا لايمكن تعدادهم تقريباً، ممددين على الطرقات، وهم غير مدفونين، وعراة، طعمة للحيوانات المفترسة، ولجوارح الطير، وقد أفسدت الروائح التي صدرت عنهم الهواء إلى حد أن الأموات قد قتلوا الأحياء، وهكذا صار قلب الملك قاسياً جداً ضد المارشال، بسبب النصائح الشريرة التي أصغى إليها، وكان غضبه شديداً إلى حد أنه مع أن الأساقفة نصحوه بأن يعمل سلاماً مع ذلك الرجل النبيل، الذي قاتل فقط في سبيل نيل العدل، أجابهم بأنه لن يتوصل إلى أية اتفاقات تصالح معه، ما لم يتوسل إليه طالباً رحمته، وطوق حول رقبته، وأن يعلن عن نفسه خائناً.

التدبير الخياني الذي خطط له مستشارو الملك ضدّ المارشال

وفي هذه الآونة وجد أسقف وينكستر، وبطرس دي ريفول ابنه، مع بعض الآخرين من مستشاري الملك الأشرار، وجدوا أنفسهم قد هزموا في كل مكان من قبل المارشال، ونظروا بأسى إلى بلداتهم وقد أحرقت فاخترعوا أخيراً خطة لقهره، بوساطة عمل خياني، بحكم أنهم كانوا عاجزين عن فعل ذلك في قتال مكشوف، ولذلك عندما أعيقوا برغباتهم، ورأوا الأعداد التي لاتحصى من القتلى البواتيين الذين لاقوا

مصرعهم في ويلز، كتبوا رسائل تحتوي على خطط للخيانة لم يسمع بمثلها، وأرغموا الملك، وهو جاهل بمقاصدهم، بأن يضع ختمه عليها، وإلى جانبه وضع أحد عشر منهم أختامهم وثبتوها، ثم إنهم أرسلوا هذه الرسالة الدموية الرسمية إلى ايرلاندا، فلقد بعثت هذه الرسالة الخيانية إلى النبلاء الايرلنديين، وإلى موريس فتز —جيرالد، الذي تولى ممارسة أعمال مسؤول العدالة الملكية في تلك المملكة، وإلى وولتر وهيوج دي لاسي، وإلى رتشارد دي بورغ، وإلى غيوفري دي ماريسكو Marisco وإلى آخرين، الذين كانوا آنذاك حلفاء بموجب القسم إلى المارشال المذكور، وكانوا مخلصين له، وكان مقصد هذه الرسائل كما يلي:

لقد ذكر مستشارو الملك في المقام الأول، وأخبروا النبلاء المذكورين، بأن رتشارد، الذي كان من قبل مارشال الملك الانكليزي، قد نفي من انكلترا، بموجب قرار صدر عن محكمة بلاط الملك المذكور، وذلك بسبب خيانة مكشوفة، وأن جميع ممتلكاته، يعني قراه وبيته قد أحرقت، وأن حدائقه وأشجاره المثمرة قد قطعت، وبركه وأسماكه قد أتلفت، وماهو أكثر من هذا كله هو أنه قد حرم بشكل أبدي من ميراثه الأبوي، وعلى الرغم من حرمانه من ممتلكاته على هذه الصورة، هو مايزال يغضب الملك، ومابرح يمارس اعتداءاته ضده:

«وبناء عليه نحن نأمركم، بحكم يمينكم كرعايا مخلصين لمولانا الملك، أن تعتقلوه إذا صدف وجاء إلى ايرلاندا، وأن تحضروه إلى أمام الملك حياً كان أم ميتاً، وإذا فعلتم هذا، فإن جميع ميراثه وممتلكاته في مملكة ايرلاندا، التي هي الآن تحت تصرف الملك، سوف توزع فيما بينكم، وسوف تتملكونها بموجب حق الوراثة، ومن أجل وفاء مخلص بهذا الوعد المقطوع إليكم من مولانا الملك، نحن جميعا، الذين بنصيحتنا تدار أمور الملك والمملكة، سوف نكون ضامنين، لتنفيذ الخطة المذكورة أعلاه، وداعا».

كيف وافق النبلاء الايرلنديون على عرض مستشاري الملك

عندما سمع النبلاء الايرلنديون محتويات رسائل الملك، استولى الشره على عقولهم جميعاً، فتآمروا جميعاً أحدهم مع الآخر، فبعثوا رسلاً مع رسائل إلى مستشاري الملك المتقدم ذكرهم، مع توصية بالسرية، وقد أخبروهم أنه إذا ماجرى تأكيد الوعود الواردة في صك الملك، فلسوف يتولون تنفيذ الخطة، وقام مستشارو الملك بعد هذا، فعملوا بموجب صك ملكي منحة لهم جميع امتيازات المارشال، بحيث يجري تقسيمها فيما بينهم، فوزعوا أولاً الأماكن، ثم المقتنيات، وبعد ذلك الامتيازات التي سوف توزع عليهم جميعاً، وعندما تسلم هؤلاء الخونة الايرلنديون هذه الوثيقة، قاموا على الفور بربط أنفسهم بيمين بأن يتولوا تنفيذ الخطة المقيتة، عندما تتوفر لديهم الفرصة، وهكذا تآمروا ضد حياة انسان بريء، وقاموا على الفور بغزو بلاد المارشال، واستولوا على بعض القلاع العائدة له، وتوازعوا الأسلاب فيما بينهم.

مقتل الهراطقة الألبينيين في معركة قتالية

وصار في هذا العام الهراطقة الألبينيين في اسبانيا وفي تلك المناطق جريئين جداً، إلى حد أنهم رسموا أساقفة هراطقة للتبشير بعقائدهم الشريرة، وأعلنوا أن الديانة المسيحية وبشكل خاص أسرار التجسيد هي زائفة، وينبغي ازالتها كلياً، كما أنهم حشدوا جيشاً وغزوا مناطق المسيحيين، وأحرقوا الكنائس، وذبحوا المسيحيين من كلا الجنسين ومن جميع الأعمار من دون رحمة، لكن عندما انتشرت أخبار هذه الواقعة في الخارج، جرى على الفور ضبط ادعاءاتهم الخرافية، من قبل الأتباع المخلصين للمسيح، الذين حملوا الصليب بناء على دعوة من البابا غريغوري، وقدموا من مناطق الغرب من أجل الدفاع عن الإيمان المسيحي، وفي معركة تصادمية جرت في الربيع، جرى ذبح هؤلاء الهراطقة مع أساقفتهم حتى آخر رجل منهم، ثم استولى الصليبيون على

مدنهم وتملكوها، ووضعوا أتباع المسيح فيها، ورسموا كذلك أساقفة كاثوليك فيهم، ثم عادوا منتصرين إلى بلدانهم، والذين كانوا قد قدموا إلى هناك رجالاً فقراء، عادوا إلى مواطنهم أغنياء.

نصيحة الأساقفة إلى الملك حول الاضطرابات في المملكة

عندما كانت هذه الأحداث تقع في اسبانيا، عقد الملك الانكليزي في يوم طهارة القديسة مريم مؤتمراً في ويستمنستر، فيه وجّه اللوم بحدة إلى بعض الأساقفة، وبشكل خاص إلى الاسكندر أسقف شيستر، لأنه كان صديقاً للمارشال، واتهمهم بالسعي لطرده من العرش ومن المملكة، وعلى كل حال، عندما سمع ذلك الأسقف نفسه قد أتهم على هذه الصورة، وضع على نفسه ثيابه الحبرية، وحرم كنسياً جميع الذين كانوا فعلة هذه الجريمة ومقترفيها ضد الملك، ثم إنه بناء على وساطات الأساقفة الآخرين، صار الملك راضياً عنه، وكان المعلم ادموند، رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، حاضراً مع عدد من أساقفته المساعدين، ولقد عبّروا جميعهم عن أسفهم تجاه عزلة الملك والمملكة، وأخبروا الملك، وهم يتحدثون من قلوبهم قائلين:

«مولانا الملك، إننا سوف نحدثك باسم الرب، ونخبرك أن النصيحة التي تلقيتها الآن وعملت بموجبها، أي نصيحة بطرس أسقف وينكستر، وبطرس دي ريفول، هي ليست حكيمة، وليست سليمة، بل هي على العكس وحشية، وخطرة عليك شخصياً وعلى المملكة كلها، فهما بالمقام الأول يكرهان الشعب الانكليزي، وكلاهما يدعوان أفراده خونة لهما نفسيهما، كما أنهما جعلا الآخرين يدعوانهما كذلك، ولقد نأيا بعواطفك عن شعبك، ونأوا بعواطف شعبك عنك، كما هو واضح من سلوك المارشال، الذي هو أفضل رعاياك في ممالكك، وبالكذب الشرير الذي يخبراك به حول شعبك قد أفسدا جميع أقوال رجال شعبك وأفعالهم، وانه بموجب العمل بناء على نصيحة هذا الرجل نفسه، أي

الأسقف المذكور، قد فقد والدك أولاً عـواطف شعبه، وخسر بعد ذلك نورماندي وبعض المناطق الأخـرى، وأخيراً ثروته، وتقريباً جميع السلطة على انكلترا، ولم يتمتع بعد ذلك بالهدوء، وانه بسبب نصائح هذا الرجل نفسه تشوشت المملكة، ووضعت تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وفي النهاية جلبت هذه الاضطرابات الموت إلى أبيك، وبموجب مشورة هذا الرجل نفسـه، في أيامنا هـذه، جـرى انتـزاع قلعـة بدفـورد منك، ولهذا السبب نفسـه خسرت بلدة روشيـل، ومجدداً إن هذا التمـرد الذي يهدد الآن مملكتك، كـانت أسبابه الآراء الاستشـارية الشريرة لهذين الرجلين، لأنه لو أن شعبك قـد حكم وفقاً لأحكام العـدل، وللشرائع الصحيحة العائـدة للبلاد، مـاكان لهذا الاضطراب أن يحدث، ولما كـانت ممتلكاتك قـد تعرضت للعيث فسـاداً فيها، ولما كـانت أموالك قـد أنفقت، ونحن نقـــول أيضــاً، بحكم الولاء الـذي ندين به إليك، بـأن خططك ليست الخطط التـي ســـوف تقـــدم الســـلام إلى مملكتك، بل فقـط ستسبب الاضطراب لأن هـذين الرجلين، بحكـم تكوينهما لايستطيعـــان زيادة ثرويتهما بوســـاطة الســـلام، وهما لذلك يسعيـــان لإثارة الاضطراب بتشـويش شعب المملكة، وبتجريد الآخـرين من ممتلكاتهم، وكـذلك بما أنهما يضعان بين أيديهما قلاعك وقـوة ممالكك، يظهرانك وكأنك لاتضع ثقة بشعبك، وكـذلك بما أن خزينتك بين أيديهما مع ايداعـاتك الرئيسية ومـواريثك مـــوجـودة تحت اشرافهما، فإن نوع الحســـاب الذي سـوف يقـدمانه لك سـوف تجده فيما بعـد، وكذلك أيضـاً من النادر أن تجد أي عمل له أهميـة في المملكة، موضـوع تحت ختمك ويعمل به بموجبـه أو بمـوجب تفــويضك، هو ليس أيضاً تحت ختـم وترخيص بطرس دي ريفــول، ومن ذلك واضح تمامــاً أنهما لايعـدانـك ملكاً على الاطلاق، ومجدداً، جـرى في المؤتمر نفسـه صرف جميع الـرعـايا الطبيعيين لمملكتك من بلاطك، ولذلك نحـن نشعـر بالخوف عليك وكـذلك على المملكة، وبقدر مـانعرف هو أنك تحت حكمهما أكثـر مما هما تحت حكمك، فهذا

واضح ومبرهن عليه بكثير جداً من الشواهد، وكذلك هما يضعان تحت اشرافهما أميرة بريتاني وأختك، ومثل ذلك عدداً من النساء النبيلات والفتيات، مع الوصاية عليهن ومع حصص الزواج، وقد حطّا من شأن هؤلاء بتزويجهن من أصدقائهما، وكذلك أساءا تطبيق العدالة وحرفاها، ومثل هذا فعلا بشريعة الأرض، التي أقسمت على الدفاع عنها تحت طائلة الحرمان الكنسي، ولذلك هما يستحقان الحرمان الكنسي، ونحن نخشى أن تنال العقوبة نفسها لتواصلك معهما، وأيضاً هما لم يفيا بوعودهما إلى أي انسان، وهما لايحافظان على الوفاء، ولا على أيمانهما، ولايلتزمان بأية اتفاقية مكتوبة، كما أنهما لايخافان من الحرمان الكنسي، ولذلك فإن الذين ابتعدوا عن الصدق سقطوا في حالة اليأس، أما الذين التزموا بالصدق فهم في حالة خوف وترقب، ونحن نقول هذا بإيمان صالح، ونحن ننصحك أمام الرب والبشر، ونرجوك ونحذرك كي تصرف مثل هذين المستشارين، ومثلما هي العادة في البلدان الأخرى أن تحكم بلدك أيضاً بوساطة مساعدة رعاياك المخلصين والذين أقسموا على الولاء لك من أهل مملكتك، هذا ويتوجب علينا أن نخبرك بحقيقة أنك مالم تقم بتقويم هذه المخالفات في وقت قصير، إننا سوف نسير للترافع بوساطة إجراءات العقوبات الكنسية ضدك وضد جميع الآخرين من المخالفين ونحن فقط ننتظر تكريس أبانا المحترم رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري»، وإثر سماع هذه الكلمات طلب الملك راجياً بكل تواضع منحه فرصة قصيرة من الوقت، قائلاً بأنه لايستطيع صرف مستشاريه هكذا فجأة، حتى يتسلم منهما حساباً عن المال المعهود به إليهما، وهكذا انتهى المؤتمر، وغادر الجميع وهم يحملون آمالاً مؤكدة بالحصول سريعاً على السلام في المملكة.

كيف خرج النبلاء المطرودين وباشروا أعمال الانتقام

وبعد انقضاء ذلك المؤتمر ذهب الملك إلى بروموهولم Bromholm

ليمارس تعبداته، وعبر وهو على طريقه بكنيسة بلدة القديس ادموند، وقد أثيرت شفقته، فمنح إلى زوجة هيوبرت دي بورغ ثماني عزب من أراضي زوجها، التي كانت آنذاك تحت عهدة روبرت باسلوي، وذلك بناء على أوامره، ثم إنه بعدما أدى تعبداته رجع إلى الجزء الغربي من المملكة، ووصل إلى بلدة هنتنغدون، وأثناء إقامته في هذا المكان الأخير، ذهب رتشارد سيوورد بصحبة غيلبرت باسيت وآخرين من النبلاء المطرودين إلى ألموندبري Almondbury وكانت بلدة عائدة إلى ستيفن سيغريف، وتبعد ميلين عن المكان الذي كان فيه الملك، وأحرقوا جميع الأبنية العائدة الى ستيفن المتقدم الذكر، ونهبوا المكان، وشاهد ذلك النبيل الذي كان مع الملك لهب النيران يتصاعد من بيوته لينير المنطقة كلها من حولها، فبادر على الفور مسرعاً مع قوة مسلحة كبيرة لحماية ممتلكاته، ولكنه عندما سمع بأن رتشارد سيوورد كان الفاعل لهذه العملية من العنف، أدار ظهره، ونكص على عقبيه وكأنه هارب من قوة معادية، ولم يوقف حث مطيته، بل فرّ بكل سرعة إلى الملك الذي أثير مع جلسائه للضحك عليه، وفي ذلك الوقت أيضاً، اعتقل رتشارد سيوورد هذا نفسه ومعه أتباعه بعض الفرسان الذين قاتلوهم في الأراضي الويلزية، واتخذهم أسرى، ثم أرغمهم بموجب قانون الحرب على دفع فدية ثقيلة.

وفي هذا العام، في يوم الأحد الذي يغنى فيه بمزمور «دعوا القدس تبتهج»، الذي وقع في الثاني من نيسان، جرى تكريس ادموند رئيس أساقفة كانتربري المنتخب، في كنيسة المسيح في ذلك المكان من قبل روجر أسقف لندن، وبحضور الملك، وثلاثة عشر أسقفاً، وأقام في ذلك اليوم قداساً مهيباً، وهو لابس للطيلسان.

كيف صرف الملك أسقف وينكستر والبواتيين

في هذه الآونة، وفي الأحد الرابع من الصوم الكبير، الذي وقع في

التاسع من نيسان، جرى عقد مؤتمر في ويستمنستر، حضره الملك، والايرلات، والبارونات، ورئيس الأساقفة الذي جرى تكريسه مؤخراً مع أساقفته المساعدين، ولقد اجتمعوا لإيجاد تراتيب موائمة لاحتواء الاضطرابات في المملكة، واقترب وقتها رئيس الأساقفة مع الأساقفة ورجال الدين الآخرين الذين كانوا حضوراً، من الملك، وقدم له نصيحته، وكذلك نصائح الأساقفة فيما يتعلق بالأوضاع السيئة للمملكة واقتراب المخاطر منها، وكرروا إليه وأعادوا على مسامعه ذكر الأضرار التي عرضت عليه في المؤتمر الذي عقد قبل وقت قصير، وبجرأة أخبره أيضاً أنه مالم يقلع حالاً عن أخطائه، ويعمل سلاماً مع رعاياه المخلصين في مملكته، هو، أي رئيس الأساقفة مع جميع الأساقفة الحضور، سوف يتفوه على الفور بقرار الحرمان الكنسي ضده، وضد الظلمة الآخرين كلهم مع مثيري الاضطراب ومفسدي السلام، وأصغى الملك بشكل لائق وأديب إلى نصيحة الأساقفة، وأجاب بتواضع بأنه سوف يستجيب لنصائحهم في كل جانب، ثم إنه قام بعد عدة أيام، عندما تبينت له أغلاطه، فأمر بطرس أسقف وينكستر بأن يذهب إلى أسقفيته، وأن يتولى معالجة الأرواح، وأن لايتدخل من الآن فصاعداً،بأي شكل من الأشكال بشؤون المملكة، كما أنه أمر بطرس ريفول، الذي كانت انكلترا كلها خاضعة لرغباته، أن يتخلى من دون تردد ولامراجعة ويسلمه القلاع الملكية، وأن يقدم له حساباً عن الأموال الملكية، وأن يغادر بلاطه على الفور، معلناً مع القسم، أنه إذا تبرهن أنه انسان غير مفيد، ولم يعترف بحقوق رجال الدين، سوف يأمر بقلع عينيه، كما أنه طرد جميع البواتيين، من بلاطه ومن المسؤولية عن قلاعه، وأرسلهم عائدين إلى بلدهم، آمراً إياهم أن لايروه وجوههم ثانية، ثم إنه لشدة رغبته في عمل سلام وتحقيق ذلك، أرسل ادموند رئيس أساقفة كانتربري مع أسقفي شيستر votوروكستر إلى ويلز لترتيب سلام مع للويلين ومع رتشارد المارشال، وبعدما طرد هكذا جميع المستشارين الأشرار لديه،

أعاد استدعاء رعاياه الطبيعيين إلى خدمته، وأخضع نفسه إلى نصائح رئيس الأساقفة والأساقفة، آملاً أن يتمكن بمساعدتهم من أن يعيد مملكته المضطربة إلى وضعها الطبيعي الصحيح.

كيف ذهب الايرل مارشال إلى ايرلاندا وتابع الحرب

وفي هذه الآونة وصل رسل إلى الايرل مارشال، وأخبروه كيف أن النبلاء الايرلنديين قد غزوا أراضيه، واستولوا على بعض قلاعه، وكانوا يتجولون خلال البلاد متورطين في أعمال النهب، وبما أن الملك، تخلى منذ عيد الميلاد عن حملته ضد ويلز، وذهب إلى الأجزاء الشمالية من المملكة، أقلع المارشال مبحراً إلى ايرلندا، في حوالي يوم عيد طهارة القديسة مريم، ومعه خمسة عشر فارساً، من أجل التصدي للنوايا العدوانية لأعدائه وضبطها، ولدى وصوله إلى هناك، وصل إلى عنده غيوفري دي ماريسكو، وكان تابعه المعتمد، لكنه تبرهن أنه غير مخلص، وأنه قد تحالف مع موريس المسؤول عن العدالة، وهيوج دي لاسي، ورتشارد دي بورغ، وآخرين من أعداء المارشال، وتظاهر هذا الرجل بالالتحاق بحزبه، ونصحه بشن الحرب على أعدائه النبلاء الذين تقدم ذكرهم أعلاه، ومن ثم اخضاع ايرلاندا، ثم سار المارشال خلال أراضيه، وجمع جيشاً، وهاجم أعداءه، واسترد بعضاً من القلاع التي كانوا قد استولوا عليها وانتزعوها منه، ثم إنه استولى بعد حصار أربعة أيام على لايمريك Limerick وهي مدينة، مشهورة في ايرلاندا، وأجبر السكان على تقديم الولاء له، ثم تابع زحفه فاستولى على بعض القلاع العائدة للملك، وكذلك على بعضها العائد إلى أعدائه، حيث أرغم قادتها على تأدية يمين بعدم إعاقته في أهدافه، ولم يتجرأ النبلاء الايرلنديون على مواجهته، بل هربوا من أمامه إلى أقصى مسافة من البلاد، حيث جمعوا فرساناً وجنوداً خيالة مع حشد لايحصى تعداده من الرجالة، وأعدوا أنفسهم إلى معركة تصادمية، وقد أثاروا أتباعهم

بتوزيع أموال الملك بينهم، وبوساطة وعود كبيرة، وذلك إذا قتلوا المارشال، لأنهم بذلك سوف يصبحون أغنياء، وأرسلوا بعد هذا بعضاً من رهبان الداوية إلى المارشال، ليخبروه بأنه كان يعمل بمثابة خائن لمولاهم الملك، الذي يشن الآن الحرب ضده، مثلما شنها من قبل وفعل في انكلترا، وأضافوا أيضاً، أنه إليهم قد عهد الملك بالمسؤولية عن المملكة في ايرلاندا، لأنهم رعايا مخلصين بموجب القسم للملك المذكور، ولايمكنهم تحمل هذه الإهانة، من دون جنيهم تهمة الخيانة، وبناء عليه طلبوا منه هدنة حتى يعرفوا فيما إذا كان الملك ينوي الدفاع عن ايرلاندا، وأنه إذا مارفض أن يفعل ذلك، وقرر أن يترك البلاد لأجلها، سوف يتخلون على الفور عن البلاد كلها إلى المارشال، من دون قتال وسفك للدماء.

عدالة الحرب التي أنشبها المارشال ضدّ الملك

ولدى تسلم المارشال هذه الرسالة، ردّ على اقتراحاتهم واحداً تلو الآخر كما يلي، حيث قال:

«أقول في المقام الأول وأرد بأنني لم أتصرف بمثابة خائن ضد الملك، لأنه جردني من وظيفتي كمارشال بشكل غير عادل، ومن دون أية محاكمة من قبل نظرائي، وأمر بالاعلان عني منفياً في جميع أنحاء انكلترا، وأحرق بيوتي، ودمر ممتلكاتي، ولقد عدّني مرتين متحد خارج على السلطة، مع أنني كنت دوماً على استعداد للظهور في بلاطه، والاجابة على الاتهامات التي أثيرت ضدي، ومن ثم الالتزام بقرار نظرائي، ولهذا السبب أنا لم أعد تابعاً له، بل متحلل من كل أنواع التابعية والولاء له، وهذا لم يحدث بوسائلي بل بوسائله»، وبالنسبة للعروض التي قدمت إليه، ومسألة الهدنة، فقد بعث المارشال رسالة إلى النبلاء بوساطة الرهبان الداوية المذكورين، بأن يقدموا للاجتماع به في مؤتمر في اليوم التالي في ميدان بينه لهم وحدده، فهناك يمكن القيام

بالترتيبات من أجل السلام، وقـد أعلن —على كل حال— بدون تردد، أنه يمتلك عدالة كـاملة، وتسويغاً في السعي لاسترداد ماهو عـائد إليه، والعمل على اضعاف الملك ومستشاريه بكل وسيلة ممكنة له.

مشورة غيوفري مارش الخيانية

وعندما سمع النبلاء الايرلنديون جـواب المارشال من الداوية، كانوا مسرورين جـداً وراضين بالاقتراح للقدوم إلى المؤتمر، لأنهم عـرفوا أنهم يمتلكون قوة أكبر من قوة المارشال، وكـانوا قد عزموا على أن لايعودوا من دون الاشتباك في معـركة، وطلب المارشال في الوقت نفسـه نصيحة فرسانه حول القضية التي تقدم ذكرها، وقال:

«يبدو لي أنه يتوجب علينا أن نمنح هؤلاء النبلاء الهدنة التي طلبوها، لأن طلبهم كما يبـدو لي عــادل ومنطقي، وأنا أخـاف أننـا إذا مـارفضنا منحهم ماهو عدل، فإن شيئاً سيئاً قد يقع لي، وهنا انفجر موجهاً الكلام إليه، ومجدفاً ضده غيوفـري ماريسكو، وهو حليفة المتظاهر، والذي كان على دراية بالخيـانة المتفـاوض عليهـا، ذلك أنه مشـاركاً فيهـا، ثم أخـذ يتكلم وكأنه كـلام المشفق، قائـلاً إنه ليس ابن لذلك العظيم الذي كـان وليم مـارشـال، الذي تفـوق على جميع فرسـان الامبراطورية الغـربيـة، حكمة وعقلانية، وكذلك في الشجاعة والإقدام، وقال:

«لقـد غـدوت رجلاً ضعيفـاً، فأنت الآن بفسـولتك ترفض فـرصـة الحصول على سيـادة ايرلاندا التي بمقدورك الآن اخضـاعها، والهدنة في الحقيقة، التي يطلبها أعداؤك، هي مخادعة لك، من أجل أن يتمكنوا من إعـاقة تقـدمك، لكن ينبغي عليك أن تكون متأكـداً، بأن جميع أعـداءك عندما سيرونك مسلحاً ومستعـداً للقتال، حتى ولو مع قليل من الأتباع سـوف يديرون ظهورهـم، ويشرعون بالفـرار»، وقـد كان هناك حـوالي ثمانين فارسـاً، أو أكثر، الذين لديهم أراضي من المارشـال، والذين كانوا

قد نالوا الرشوة من أعدائه، وقد أشاروا عليه بالخطة نفسها التي تقدم طرحها، فقد كانوا يسعون خيانياً لخداعه.

المؤتمر الذي عقد بين النبلاء الايرلنديين والايرل مارشال

وعند حلول الصباح، وصل لحضور المؤتمر:

موريس المسؤول عن العدالة، وهيوج دي لاسي، ورتشارد دي بورغ، في الحقل المحدد لهم، وكانوا محاطين بمائة وأربعين فارساً جريئاً وشديداً، كانوا قد انتخبوهم من جميع أرجاء ايرلاندا، منذ اللحظة التي بدأوا فيها بنواياهم الخيانية، بقصد قتل المارشال، وقد جلبوا لتنفيذ هذه الغايات بوساطة أعطيات كبيرة ووعود مغرية، ولذلك كانوا جميعاً يرغبون بالقتال، ويفضلون ذلك على المؤتمر، ووصل المارشال أيضاً مع فرسان مسلحين، كانوا —باستثناء الخمسة عشر، من خاصته— قد تشكلوا من حاشية خاصة كانت معه، وقد تظاهروا بأنهم أعوانه ومؤيديه، وقد أخذ موقعه على مسافة قرابة الميل عن أعدائه، ثم بدأت المفاوضات حول السلام، بوساطة الداوية الذين حملوا الرسائل من كل من الفئتين، وباختصار، عندما عرف النبلاء الايرلنديون أن المارشال قد قدم مع عدد قليل من الأتباع، أخبروه بوضوح، بأن قرارهم الثابت، هو أنه مالم يمنحهم الهدنة التي طلبوها، فإنهم يتحدونه، وسوف يجربون على الفور بوساطة قوة السلاح، أي الفريقين كان الأقوى، وجرى حث الايرل مارشال على القبول بذلك، بوساطة نصيحة غيوفري دي ماريسكو وجماعته الآخرين المتظاهرين بالصداقة، فرفض وهو مكره طلب الهدنة، وطالب مراراً بوساطة الرسل بأن عليهم أن يعيدوا إليه بعض قلاعه، التي استولوا عليها بشكل غير عادل، ومازالوا محتفظين بها، ذلك أن الأمر بدا بالنسبة له أن منح الهدنة مضاد للحق، في وقت هو مسلوب من أملاكه، ورفض النبلاء الايرلنديون أن يفعلوا ذلك، وصفوا قواتهم وعبأوها استعداداً للقتال، وزحفوا لمحاربة المارشال

وكأنهم واثقين من نيل النصر، وعندما شاهد غيوفري دي ماريسكو ذلك قال للمارشال:

«إنني أشير عليك باخلاص صحيح، أن تمنحهم الهدنة، لأن زوجتي هي أخت النبيل هيوج دي لاسي، ولذلك لايمكنني القتال إلى جانبك، ضد الذي أنا متحالف معه بالزواج»، وعلى هذا ردّ المارشال قائلاً:

«إنك خائن شرير، أولم أرفض الهدنة الآن بناء على نصيحتك، مع أن ذلك جاء ضد رغبتي؟، وأنا لاأريد أن أبدو في الحقيقة رجلاً ذا عقل متقلب، إذا ماأقدمت هكذا بسرعة على منحهم الذي كنت قد رفضته قبل وقت قليل مضى، وإنني وقتها سوف أبدو، قد أقدمت على فعل ذلك من خلال الخوف، أكثر من خلال تقديري لهم، هذا وانني مدرك تماماً أنه مقدّر لي أن أموت في هذا اليوم، وانه أفضل بالنسبة لي أن أموت بشرف في سبيل قضية العدل، وأن لاأهرب من الميدان، واتحمل مسبة أتباعي من الفرسان إلى الأبد»، ثم نظر فرأى أخاه وولتر وكان شاباً جميلاً، فقال لأتباعه:

«خذو أخي إلى قلعتي القريبة، ولاتدعو أسرتي كلها تهلك في هذه المعركة، ذلك انني أثق بشجاعته، وأنه عندما يصل إلى سن البلوغ، سوف يظهر نفسه فارساً شجاعاً»، وخشية من النبلاء الايرلنديين من شدة المارشال وبسالته، أعطوا دروعهم إلى الفرسان الذين كانوا قد حشدوهم لغاية قتل هذا الرجل البريء، ذلك أنهم، وإن رغبوا بقتله، لم يرغبوا في أن يظهروا بمثابة مشاركين بهذه الفعلة.

المعركة التي وقع فيها المارشال بالأسر

وعندما صفت العساكر، رأى الايرل مارشال هناك أعداد كبيرة، سوف تشتبك فقط مع عدد قليل، وقام هو —على كل حال— بتشجيع رجاله على القتال، مؤكداً أنه قام بحروبه من أجل العدل والقوانين في

انكلترا، وبسبب ظلم البواتيين، معتقداً بأنهم جميعاً كانوا مخلصين له، في حين كـانوا في الحقيقة خـونة، ثم اندفع بجرأة إلى وسط الأعـداء، وشق طريقـه بينهم بالقوة، وبذلك فتح طـريقاً لفـرسانه بسيفـه، لكن لحق به فقط خمسة عشر فارسـاً، الذين كانوا أتباعـه الشخصيين، وسعوا لتفريق أعدائهم، أما أتباعه الفرسان الذين ارتبطوا به بالقسم، والذين وثق بهم، فقد قـاموا بتسليم أنفسهم، وأخذوا أسرى من دون مقـاومة، وذلك كما تقـدم الاتفاق بين هؤلاء الخونة، فلقـد سلموا أنفسهم دون أن يجرحـوا لابرمح ولابسيف، وكأنهم كـانوا أصـدقـاء، مسرورين بـرؤية أحـدهم الآخر، وقد هرب بعضهم دون أن يضربوا ضربة واحدة، وجاء فرارهم إلى الكنائس والديرة، تاركين المارشـال مع خمسة عشر فارسـاً فقط، وقد دافع هؤلاء عن أنفسهم بشجاعـة، وكانوا غير معـادلين لخصومهم أثناء الصراع، لأنهم كـانوا يقـاتلون ضـد مائـة وأربعين، ووقع ثقل المعـركـة —على كل حال— على المارشـال، الذي عندما اكتشف الخطط الخيـانية ضد حياته، أخذ يقـاتل أعداءه من جميع الجوانب، وثابر على الدفاع عن نفسه، فقتل ستـة منهم، وكان هناك فارس صاحب حجم عمـلاق، إليه أعطى رتشارد دي بورغ دروعـه، ولقد غضب كثيراً عندمـا رأى مافعله المارشـال، فحمـل منقضـاً على المارشـال ليقتله على الفـور، وسعى إلى انتزاع خـوذته من على رأسه بالقوة، وعندمـا رأى المارشال هذا الرجل، اعتقد أنه كان رتشاد دي بورغ، فناداه متعجباً قائلاً:

«اهرب أيها الخائن الشرير حتى لاأقتلك»، وعلى هذا ردّ عليه قـائلاً: «إنني لن أفـر، بل سـوف أقترب منك»، ثم إنه رفع يده ليمسك خـوذة المارشـال، لكن المارشـال تمكن بضربة واحـدة مـن سيفـه من قطع يديه معاً، مع أنه كان مغطى بالدروع، وعندمـا رأى أحدهم رفيقه قد أصيب بالجراحة، اندفع بكل السرعة التي امتلكها حصانه نحو المارشال، وبذل كل طاقتـه لضربه على رأسـه، لكن بفضل الخوذة، جـاءت الضربة من

دون تأثير، ورد المارشال الضربة، فقطع عدوه إلى نصفين حتى الوسط، وبعد ذلك لم يعد أحد منهم يتجرأ على الاقتراب منه لبعض الوقت، وكان قادة الأعداء في حالة احباط، لكنهم مالبثوا أن حثوا رجال حشد الناس الذين قدموا إلى هناك، وهم يحملون الرماح، والمذاري، والفؤوس، والمطارد، أن يطوقوا المارشال، وأن يقتلوا فرسه، وينزلوه إلى الأرض، وقد طوقوه على الفور، وقهروه، وأصابوا حصانه بكثير من الجراحات، ومع ذلك لم يتمكنوا من ترجيله، ولذلك قطعوا قدمي الحصان بفؤوسهم، وعندها سقط المارشال مع حصانه، وقد غلبه التعب، ذلك أنه كان قد بدأ القتال من الساعة الأولى واستمر من دون توقف حتى الساعة الحادية عشرة، وهنا انقض عليه أعداؤه، ونزعوا عنه دروعه، وأصابوه بجراحة قاتلة في الظهر، وعندما علم النبلاء أنفسهم أنه أصيب بجراحة مميتة، وأنه كان متمدداً وكأنه بدون حياة، نقلوه —دون أن تظهر عليه علامات الحياة— إلى قلعته، التي استحوذ عليها موريس المسؤول عن العدالة قبل وقت قصير، وفي القلعة وضعوه في سجن محكم وشديد الاغلاق، ومعه فقط شاب واحد من أتباعه يتولى العناية به، وهناك بقي بين أيدي أعدائه، ووقع القتال في هذه المعركة يوم السبت في الأول من نيسان.

موت الايرل مارشال ودفنه

وبعد مضي عدة أيام بدأ المارشال يسترد قواه، حتى صار بإمكانه الأكل والشرب، ولعب النرد، وأن يمشي ذهاباً وإياباً في غرفته، وعندما شاهد أعداؤه هذا، سألوه باسم ملك انكلترا بأن يتخلى عن قلاعه وأراضيه في ايرلاندا، ذلك أن جسده كان الآن تحت سلطة الملك، وتحت رحمته ومن الممكن تعريضه لأبشع الميتات، حسبما يرضي الملك ويسره، لأن قرار البلاط الملكي، قد قضى أولاً بنفيه، ثم جرى وضعه في حالة التحدي، وهو الآن قد أخذ أسيراً في معركة قتالية جرت ضده،

وقالوا له:

«إنه سوف يكـون لصالحك أن تفعل هذا من دون معارضـة، وبذلك تحصل على رحمة منا»، ثم إنهم أروه ترخيص الملك، الذي أمـروا به، أنه إذا حدث وجاء إلى ايرلاندا، أن يعتقلوه ومن ثم أن يرسلوه ليمثل أمام الملك حياً أو ميتـاً، ولمعرفة المارشال أنه تحت سلطة أعـدائه وفي أيديهم، أعطى أوامـر، بوساطـة رسالة، من أجل تسليـم جميع قلاعـه إلى الملك، وكـان على غير دراية بأن تراخيـص الملك قـد منحت إلى هؤلاء النبـلاء حق توزيع ممتلكاته بين أنفسهم، وأن يتملكوها بموجب الحق الوراثي.

وأخـذت جـراحتـه الآن بالتـورم، وتسبب له آلامـاً مبرحـة، فطلب باحضـار طبيب، وبناء عليه قـام مـوريس المسؤول عن العـدالة، والذي كان تحت مسـؤوليته، باستدعـاء واحد، إنما مع نية قتله وليس معـالجته، وقـام المارشـــال —على كل حـــال— قبل تناولـه أي دواء جســدي، بالاستعداد للموت بالاعتراف، وبتناول القربـان، وعمل شهادة قانونية، ثم عهد إلى الرب بمسألة بقائه حياً، أو موته.

ثم جاء الطبيب إليه، وقام بفتح جراحاته بأداة طويلة محماة، وجرفهم عدة مرات، وبعمق بوساطة تلك الآلة، وأخرج الدم منهم، ولشدة آلام المارشال أصيب بحمى حادة، وفي السـادس عشر من نيسان، الذي كان اليوم السـادس عشر بعد اصابتـه في المعركـة، نام في الرب، وقد دفن في اليـوم التـالي في كيلكني Kilkenny في قـلاية تابعـه لبعض الرهبـــان الفرنسيسكان، حيث كان عندما كـان حياً شيد قبراً رشيقاً، وهكذا مات الايرل مارشال، وكان فارساً نبيلاً، وبارعاً في المعارف، ومتميزاً بأخلاقه وبفضائله، وقـد فارق هذه الحياة في أحـد السعف، ليتسلم من الرب في السماء سعفـة تكون جائـزة له، فقـد كـان بين أبناء البشر شخصاً جميـلاً جداً، إلى حد بدا فيه أن الطبيعة تصارعت مع الفضائل في تكوينه.

الانتقام الذي أخذه النبلاء المنفيين من مستشاري الملك

ولم يكن قد عرف بعد في انكلترا الذي وقع للمارشال في ايرلاندا، لكن عندما بات ذلك معروفاً، طلب رتشارد سيوورد وبعض الآخرين من النبلاء المنفيين، الانتقام من مستشاري الملك، الذين بوسائلهم قد طردوا، وقاموا في اليوم الرابع من اسبوع الفصح، فأحرقوا بعض الأبنية في سوينبورن Swainbourn كانت ملكاً لروبرت باسلوي، وطال ذلك حاصلات الحصيد، والمواشي، والمقتنيات الأخرى التى وجدوها هناك، وسببوا أذى عظيماً له، وأحرقوا بعد ذلك في السادس والعشرين من شهر نيسان بعض الهري قرب بلدة ستين Stains كانت ملكاً لروبرت المذكور، مع حاصلات الحصيد والمقتنيات التي وجدوها هناك، ومجدداً استولوا في الثاني من أيار، على ستة خيول محملة بالأثقال، كانت ملكاً لستيفن دي سيغريف، وذلك إلى جانب خيول ركب ثمينة، أما كل ماكان ملكاً للملك فقد تركوه يمر بسلام، وفي الثاني عشر من أيار أحرقوا آيفنغهو Ivinghoe وهي قرية كانت ملكاً لبطرس أسقف وينكستر، مع جميع البيوت والممتلكات الأخرى، مما سبب خسارة كبرى للأسقف، واستولى في العام نفسه النبلاء الايرلنديون على قلاع المارشال وعلى امتيازاته في ايرلندا، التي منحت إليهم بموجب ترخيص الملك، واقتسموها فيما بينهم.

كيف وصل جميع النبلاء المطرودين وعملوا سلاماً مع الملك

وفي هذه الآونة، بعد عيد الفصح مباشرة، ذهب الملك إلى غلوستر، بقصد مقابلة رئيس الأساقفة والأساقفة الذين كان قد أرسلهم إلى ويلز، كما روينا من قبل أعلاه، وعند وصوله إلى عزبته في وودستوك Woodstock أمضى الليلة هناك، وفي هذا المكان وصل إليه رسل من ايرلندا، جالبين له أخبار موت المارشال، ولدى سماعه ذلك انفجر بالنواح، مما سبب الدهشة إلى جميع الحضور، فقد بكى موت مثل ذلك

الفارس المتميز، وأعلن أنه عندما مات لم يخلف من يوازيه في المملكة، ثم إنه استدعى على الفور قساوسة بيعته، وأمرهم بغناء صلاة جنازة مهيبة من أجل روحه، وقام في اليوم التالي بعد حضوره القداس، فوزع كميات كبيرة من الصدقات على الفقراء، ولابد أن المباركة جديرة بمثل هذا الملك، الذي أمكنه أن يحب أعداءه، وأن يصلي بدموع إلى الرب من أجل مضطهديه، ثم إنه انطلق من وودستوك فوصل إلى غلوستر، حيث قابل ادموند رئيس أساقفة كانتربري، والأساقفة الذين رافقوه في مهمته إلى للويلين،وأخبر هؤلاء الرسل الملك بأنهم رتبوا من أجل سلام مع للويلين، على شرط، أنه قبل القيام بأي شيء، يتوجب على الملك أن يقوم على الفور، بتلقي النبلاء المنفيين، الذين كان للويلين متحالفاً معهم، والذين طردوا نتيجة للنصائح الشريرة لمستشاريه، وأن ينالوا حظوته، وعند تنفيذ هذا يكون السلم قد جرت الموافقة عليه تماماً، وعند ذلك، أصدر الملك الذي تشوق إلى السلام بأية وسيلة، رسائل دعا فيها النبلاء المطرودين للالتقاء به في مؤتمر في غلوستر، في يوم الأحد بعد وقوع عيد الصعود الذي سوف يكون في التاسع والعشرين من أيار، فهناك وقتها سوف يتلقون عفواً شاملاً وسوف يستردون مواريثهم، وأن بإمكانهم الوصول إلى هناك من دون أي توجس وريبة، تحت أمان رئيس الأساقفة والأساقفة، وبناء عليه وصلوا بناء على وساطات رئيس الأساقفة والأساقفة إلى اتفاق مصالحة مع الملك، وبناء عليه جرى قبول:

هيوبرت دي بورغ،، مسؤول العدالة السالف، وغيلبرت باسيت مع أخيه، ورتشارد سيوورد، وجميع الذين نفيوا معهم ومن أجلهم، بالحضرة الملكية، ونالوا منه قبلة السلام في الثامن والعشرين من أيار، وأعيدت إليهم جميع امتيازاتهم من قبله، وفي ذلك المؤتمر، وصل إلى عند الملك غيلبرت أخو الايرل مارشال، وأخبره بوفاة أخيه، وطلب منه أن

يوضع في ميراثه، وعرض تقديم الولاء إلى الملك، وأن يفعل كل ماعليه فعله نحـو مـولاه، ثم أعـاد الملـك إليـه —بناء على نصيحـة رئيس الأساقفة— جميع ممتلكاته الموروثة في انكلترا وكذلك في ايرلاندا، وتلقى الولاء منه، وفي يوم أحد الشعـانين التالي منح مرتبة الفـروسية مع نطاق إلى غيلبرت المذكـور، وسلم إليه عصـا المارشاليـة لبلاطه، ليحملهـا مع جميع المراتب والتشريفـات التي منحت إلى أجـداده، كما أنه قبـل أيضـاً هيـوبرت دي بورغ، وغيلبرت دي بـاسيت، ورتشـارد سيـوورد بين خاصته وأصدقائه المقربين، ومستشاريه، ثم اكتشف تماماً كيف أن ضلل ببراعـة مستشـاريه الماضين، الذيـن لأنهم كـانوا فـاسـدي الضمير، قـد انسحبوا من حضرة الملك.

الملك يطلب حساباً من بطرس ريفول، إلخ

وفي المؤتمر نفسه، قرأ ادموند رئيس أسـاقفة كانتربري، بحضور الملك ومجمع الأساقفة كلهم، والايرلات، والبارونات، الذين كانوا حاضرين، نسخة من الرسائل الحاوية للأوامـر الخيانية، فيما يتعلق برتشارد، الايرل مـارشـال، والتي أرسلت إلى نبـلاء ايـرلندا، من قبل مستشـاري الملك، ولدى سماع الملك نفســه لها، وكـذلك بقيــة الحضـور، حـزنوا بعمق، وانفعلوا حتى تساقطت دمـوعهم، واعترف الملك بحقيقة، بأنه بناء على اكراه من أسقـف وينكستر، وبطرس دي ريفول، ومستشاريـه الآخرين، قـد أمر بوضع ختمـه على بعض الرسـائل التي وضعت أمامـه، وأعلن مقسماً بأنه لم يعرف قط مقـاصدهم، وفي جواب من رئيس الأسـاقفة له قال:

«تفحص ضميرك يامليكـي، لأن جميع الذين تسببـوا بارسـال هذه الرسـائل كانوا على درايـة بالخيانة المنوية، وهـم بذلك مجرمون مـدانون بقتل المارشـال، وكأنهم قتلوه بـأيديهم»، ثم قـام الملك بعـدمـا تلقى نصيحـة، فـأصـدر رسـائل استـدعى فيهـا أسقف وينكستر، وبطرس

ريفول، وستيفن دي سيغريف، وروبرت باسلوي، للالتقاء به بمؤتمر في أيام عيد القديس يوحنا، ليقدموا له حساباً ليس فقط عن أمواله التي تسلموها وصرفت من قبلهم، بل عن سوء استخدام ختمه من دون معرفته، وأمرهم بالظهور في ذلك اليوم للاجابة على التهمة، ولقد وجدوا على كل حال، لدى عودتهم الى ضمائرهم أنهم مجرمون تجاه جميع التهم، وكانوا مرعوبين من غضب الملك من جهة أولى، ومن الجهة الثانية من غضب إخوان المارشال وأصدقائه، الذين تسببوا بموته، ولذلك هرب أسقف وينكستر، وبطرس دي ريفول إلى حرم الكنيسة، وأخفيا نفسيهما في الكنيسة الكاتدرائية في وينكستر، ونأيا بنفسيهما تماماً من أمام الناس، وأخفى ستيفن سيغريف نفسه في كنيسة القديسة مريم في ليستر، وهكذا فإن الذي هرب من قبل من كهنوتيته، وحمل السلاح، عاد الآن إلى واجباته الكهنوتية، واستأنف حمل سبحة صلواته، التي كان قد هجرها، من دون موافقة أسقفه، وطلب روبرت باسلوي الاختفاء في مكان ما من أحد يعرفه، ويؤكد بعضهم أنه ذهب إلى روما، ولم يتجرأوا بناء على دعوة الملك، أن يعبروا عتبة الكنيسة، لأنهم توجسوا من أن أعداءهم الذين أحرقوا قراهم وأبنيتهم ومخازنهم مع محاصيلهم ومع كل شيء آخر ثمين بالنسبة لهم، لن يوفروا حياتهم إذا ماامتلكوا الفرصة لانزال الأذى بهم.

كيف طالب الملك بحساب من بطرس ريفول

وأخيراً استطاع ادموند رئيس أساقفة كانتربري، الذي توسط بين الفئتين المتصارعتين، الحصول على إذن من الملك لهؤلاء الأشخاص بالظهور أمامه، تحت أمان منه شخصياً ومن الأساقفة، وجرى تحديد يوم لذلك، للاجابة على مطالبه، من أجل إنهاء هذا الشقاق في المملكة، والاستراحة منه، وبناء عليه حدد الملك يوم الرابع عشر من تموز من أجلهم، للظهور في ويستمنستر، وفي ذلك اليوم أحضروا أمام

الملك تحت كفالة رئيس الأساقفة المذكور والأساقفة، وكان أول من ظهر أمام الملك للاجابة على الاتهام بطرس دي ريفول، الذي قدم في ثياب كهنوتية، ورأسه محلوق وهو يرتدي اكليلاً عريضاً، وقدم التحية باحترام إلى الملك الذي كان جالساً على مقعد مع المسؤولين عن العدالة، ونظر الملك إليه نظرة ازدراء بسبب الملابس التي ارتداها، وقال:

«أيها الخائن، لقد وضعت دون أن أعرف، بموجب نصيحتك الشريرة، ختمي على رسائل تحتوي على خطط خيانية ضد المارشال، وإنه أيضاً بوساطة مشورتك الشريرة، قمت بنفيه وآخرين من رعاياي الطبيعيين من مملكتي، وبذلك أبعدت عواطفهم عني وتقديرهم لي، وبنصيحتك السيئة عملت حرباً ضدهم، وبددت أموالي وأموال رعيتي»، ثم طلب منه تقديم حساب حول خزينته، وعن التصرف بادارة الشباب الذين كانوا من أسر نبيلة وعهد إليه بالوصاية عليهم، وكذلك حول المواريث العائدة للدولة والموارد الأخرى التي كانت عائدة إلى التاج، وعندما اتهمه الملك بهذه التهم وبتهم جرائم أخرى كثيرة، واتهمه بالخيانة، هو لم ينكر أياً من هذه التهم ضده، بل سجد على الأرض أمام الملك، واستجدى رحمته، وقال: «مولاي الملك، لقد نشأت وأثريت بالمقتنيات الدنيوية بك، لذلك لاتدمر الرجل الذي عملت، بل أعطني الوقت للتفكر، حتى أتمكن من أن أعطيك حساباً صحيحاً فيما يتعلق بجميع الأشياء التي طلبتها مني»، وعلى هذا أجابه الملك: «إنني سوف أبعث بك إلى برج لندن، وهناك يمكن أن تفكر حول القضية، من أجل أن تقدم لي حساباً صحيحاً موائماً»، وعلى هذا ردّ بطرس قائلاً:

«مولاي إنني كاهن، ولاينبغي أن أسجن، أو أن احتجز في سجن للعلمانيين»، وعند ذلك قال الملك له:

«رئيس الأساقفة موجود هنا، وإذا رضي أن يأخذك تحت ضمانته، سأعهد بك إليه لتكون تحت عهدته، من أجل أن تعطيني جواباً صحيحاً لمطالبي»، وباختصار بعث به الملك إلى البرج، واستولى على ممتلكاته الدنيوية، لأنه كان مرتدياً تحت لباسه الكهنوتي سابغة مع دروع لم تكن موائمة لرجل دين ولانافعة له، وقد بقي في برج لندن يومي الخميس والجمعة بعد اعتقاله، ثم أطلق سراحه من قبل رئيس الأساقفة، الذي بعث به إلى الكنيسة الكاتدرائية في وينكستر، حيث بقي هناك.

كيف ظهر ستيفن سيغريف أمام الملك

ومثل في اليوم نفسه ستيفن دي سيغريف أمام الملك تحت حماية رئيس الأساقفة، للاجابة على التهم التي عملت ضده، ولدى ظهوره أمامه اتهمه الملك بأنه خائن شرير، ووجّه إليه الاتهامات نفسها، كالتي سلف ووجّهها إلى بطرس ريفول، وأضاف إلى ذلك أنه أشار عليه بصرف هيوبرت دي بورغ من وظيفة المسؤول عن العدالة، وبسجنه، وبشنقه، وبنفي النبلاء الآخرين من المملكة، وبعد اتهامه بهذه الجرائم وبجرائم أخرى كثيرة، طالبه الملك بحساب عن الذي تسلمه وعن الذي أنفقه في وظيفته المسؤول عند العدالة، وهي الوظيفة التي مارسها بعد صرف هيوبرت دي بورغ، وفيما يتعلق بهذه التهم، حصل رئيس الأساقفة وبعض الأساقفة على فرصة انتظار حتى عيد القديس ميكائيل من أجل اعطائه فرصة للتفكير، وبالنسبة لتهمة اعطاء نصائح شريرة إلى الملك، ردّ على ذلك، بأنه كان لدى الملك العديد من المستشارين، ولذلك فإن الشر الذي وقع لايجوز أن توضع المسؤولية عنه عليه وحده، وأما روبرت باسلوي، الذي شغل منصب الخازن بعد وولتر أسقف كارآيل، فقد أخفى نفسه، ولم يكن من الممكن العثور عليه من قبل الذين طلبوا حياته.

كيف تخلى كونت بريتاني عن ولائه

وفي ذلك العام نفسه، في يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، وهو الوقت الذي انتهت فيه الهدنة، المعمولة بين الملكين الفرنسي والانكليزي في بريتاني، أرسل الملك الانكليزي ستين فارساً وألفى ويلزي إلى كونت بريتاني من أجل حماية الأجزاء الضعيفة من أراضي ذلك النبيل، وعند انتهاء الهدنة، جمع الملك الفرنسي جيشاً كبيراً من جميع قوى مملكته، وألقى الحصار على قلعة كانت ملكاً لكونت بريتاني، وتصدى فرسان الملك الانكليزي مع أتباعهم الويلزيين للفرنسيين، وقتلوا عدداً من خيولهم، وبذلك غيّروا الجنود الخيالة إلى جنود رجالة، واستولوا على عرباتهم وعلى عجلاتهم الحاوية لمؤنهم وأسلحتهم، وحملوا معهم خيولهم وغنائمهم الأخرى، وبعدما أنزلوا جميع هذه الأضرار بأعدائهم، عادوا إلى أماكن استقرارهم دون أية خسارة لحقت بهم أنفسهم، وغضب الملك الفرنسي من هذه الأضرار التي لحقت به، فقسم جيشه، وهاجم بريتاني من جميع الاتجاهات، ووجد الكونت نفسه في هذه الضائقة فطلب منحه هدنة وحصل عليها حتى عيد جميع القديسين، من أجل أن يرى فيما إذا كان الملك الانكليزي الذي هو حليفه، سيأتي شخصياً لعونه، ولكي يحصل على هذه الهدنة سلم إلى الملك الفرنسي ثلاثة من خيرة قلاعه، مع تفاهم أنه إذا لم يقدم الملك الانكليزي شخصياً لانقاذ أراضيه خلال الوقت المحدد، هو سوف يتخلى عن جميع بريتاني مع القلاع والمدن التي فيها، إلى الملك الفرنسي كلياً.

وبعدما عمل هذه الهدنة أعاد دوق بريتاني إلى الملك الانكليزي فرسانه مع أتباعهم الويلزيين، وقد نصح هؤلاء الملك، بأن لايبدد المزيد من أموال المملكة من أجل حماية كونت بريتاني، لأنه قد دخل الآن بمعاهدة مع الملك الفرنسي، بقصد التخلي عنه، وإقامة سلام مع الملك

الفـرنسي، وهو ينتظر فقط تبديد جميع الأمـوال الانكليزية، وبعـد مضي وقت قصير، قـدم الكونت المذكـور نفسـه إلى انكلترا، وأخبر الملك بأنه أنفق جميع الأمـــوال التي امتلكهـا للحصـول على هـذه الهدنة من الملك الفـرنسي، وطلب إعـادة تزويده بخمســة عشر ألف مـارك، وهو مبلغ —كما قال— أنفقه في الدفاع عن أراضيه، من أجل شرف وكرامة ملك انكلترا، وفي إجابة على هذا الطلب قـال الملك بأنه هو الذي حصل على الهدنة وهو الذي أبرمها، وأضاف بأن خزينة انكلترا لم تكن كافية للدفاع عن بريتـاني، وذلك كما تبرهن بتجربة السنوات الثـلاث، وهو لايرغب بأن تتضـاعف نفقـاته أكثر بمثـل هذه المشاكل والنفقـات، وإذا مـارأى كـونت بريتاني أنه —على كل حـال— يكفي، فهـو سوف يرسل أربعـة ايرلات من انكلترا مع فـرسـان وجنود فيهم كفـاية للـدفـاع عن تلك المنطقـة ضد الملك الفـرنسي، ولدى سماع الكونت هذا، ترك الملك وهو مغضب، وعبر إلى بلاده، وهـرب إلى الملك الفـرنسي، ولكـي يخفف من وقع خيـانتـه ضد ذلـك الملك، ذهب إليـه وطوق حول رقبتـه، معترفـاً بخيانته مسلماً إليه جميع بريتاني، مع البلدات والقلاع التي فيها، وقد قيل بأن الملك الفرنسي قد أجابه كما يلي:

«مع أنك خـائن شرير، وتستحق موتاً مشيناً، إنني سـوف أحفظ لك حياتك احترامـاً لمرتبتك، وسوف أعطي ابنك بريتـاني لمدى حياته، وبناء عليـه إنه بعد مـوته سوف يرث ملوك فـرنسا تلك المقـاطعة»، وعندمـا وجـد الكونت نفسـه قـد حرم مـن جميع ممتلكاته، وكأنه خـائن، تلطف ثانية وعرض بوساطة الرسل على الملك الانكليزي الولاء الذي عمله له من قبل، غير أن الملك استــولى على جميع ممتلكات كــونت بريتــاني في انكلترا، وحرمه من جميع مراتبه الشرفية.

واقعة اعجازية تتعلق بأحد الأساقفة

في هذه السنة التي كانت السنة الثالثـة بلا ثمار، انتشر الموت والمجاعة

في كل مكان، ومما لاشك فيه أن هذه الطواعين قد جلبت بوساطة ذنوب السكان، وكذلك بوساطة الأوضاع المناخية المتقدمة التي جاءت في غير مواعيدها، فتغيرت الأجواء، وأصيبت الأرض بعقم عام، وأصيب المريض ومات من الجوع، ولم يواجه سامري طيب ليعطيه ضيافة ويطعمه، أو ليداوي جروحه المميتة، وكانت الصدقات التي كانت تقدم بالعادة من قبل الأغنياء، قد تلاشت الآن، أما الأغنياء الذين كانت لديهم وفرة من الممتلكات، فقد أصيبوا بالعمى إلى حد أن المسيحيين كانوا يعانون مع أنهم خلقوا على شكل الرب، وكانوا يموتون لعوزهم للطعام، ولقد كانوا بالفعل عميان، حيث أنهم تفاخروا بتكديس الثروات، ليس عطاء من الرب، بل بفضل جهودهم وأعمالهم، وحالة مخجلة كهذه كانت منتشرة بشكل عام بين المسيحيين، وكانت مهينة أكثر بين الأساقفة، وبين قساوسة الكنيسة، وبين الرجال الرئيسيين الذين كانوا مشهورين بشرههم، أذكر وولتر رئيس أساقفة يورك، كنموذج للبقية، لأنه عندما ذهب إليه رؤساء ووكلاء عدد من عزبه، وأخبروه بأنه كانت لديه كميات كبيرة من الحبوب، صارت عتيقة بعد مضي خمس سنوات عليها، وهم يتوجسون كثيراً أن هذه الحبوب إما قد أكلت من قبل الجراذين، أو أنها اهترأت بسبب العفونة، هو حتى في زمن مثل ذلك العوز، لم يظهر احتراماً للرب، أو تقديراً للفقير، وأعطى أوامر إلى وكلائه وإلى رؤساء العزب بإعطاء القمح القديم إلى العمال في عزبه، وقال بأنه يتوجب عليهم أن يعيدوا إليه مقابل القديم جديد بعد الخريف المقبل، وحدث أن واحداً من وكلاء رئيس الأساقفة المذكور كان يفحص القمح في بلدة ريبون Ripon وقد أخرج القمح إلى خارج المخازن لدرسه، ووقتها ظهرت بين السنابل رؤوس هوام مثل الأفاعي والعلاجيم وزواحف أخرى، وهرب الخدم الذين جاءوا مع الوكيل للنظر إلى القمح وهم في حالة من الرعب، خشية التعرض للأذى من الهوام، وعندما أخبر رئيس الأساقفة بهذا كله، شعر بالخزي،

فبعث قهرمانه ليرى ماالذي ينبغي فعله، وعندما قدم إلى المكان، ولدى وصوله إلى الموضع لم يهتم بحشود الزواحف، فوضع سلالم على الأكداس، وأرغم بعض العمال على الصعود وفحص القمح، ولدى وصولهم إلى القمة، صدر دخان أسود من الأكداس، ترافق بنتانة غير أرضية ولايمكن تحملها، لذلك نزلوا إلى الأسفل وابتعدوا عن الأكداس للنجاة من الاختناق، معلنين أنهم لم يشموا من قبل مثل هذه النتانة، كما أنهم سمعوا صوتاً بأن لايضعوا أيديهم على القمح، لأن رئيس الأساقفة وكل شيء عائد إليه كانوا ملكاً للشيطان، وعندما شاهد القهرمان والذين جاءوا معه الخطر الذي نجم عن أعداد الزواحف، بنى جداراً عالياً حول قمح الشيطان، وألقى النار في هذه الحبوب حتى احترقت كلها، من أجل أن لاتنجو، وتؤثر على المنطقة كلها.

وضع اعجازي آخر يتعلق بشراهة أحد الكهنة

كان يوجد في منطقة يورك نفسها أحد الكهنة الأغنياء، وقد تميز بقداسة موقعه بالوعظ، إنما مع كل الشره، وقد وقع في هذه الآونة مريضاً، واعتقد الأطباء أنه مصاب بمرض مميت، ونظراً لشهرته بالأفكار الدينية التي رعاها وتبناها، والتي كانت مضادة لآراء جميع المنطقة، تمت زيارته من قبل جيرانه من رعاة الديرة ورؤساء الرهبان، وهم غير عارفين أنه مثل ذئب في البهتان، ومثل ثعبان في الأعشاب، وبعدما رحب باحترام برجال الدين الذين جاءوا لرؤيته، لم يعط الرجل المريض الانتباه والتقدير إلى خلاص روحه، بل أخبرهم أنه صدوراً عن احترامه لهم قام بمنحهم كمية كبيرة من القمح موجودة في بلاطه غير مخزونة في مخازنه، وأن عليهم اقتسامها فيما بينهم حسبما يظهر هو الأفضل بالنسبة لهم، ثم خرج رعاة الديرة ورؤساء الرهبان بناء على أوامر الكاهن المريض، ليلقوا نظرة على القمح الممنوح إليهم، لكن لدى وصولهم إلى الأكداس، رأوا واقفاً على مقربة منهم رجلاً كأنه الكاهن

المريض الذي تركوه في البيت، يلبس مثله، وله المظهر الجسدي نفسه، وهو مشابه لـه من كل جانب من الجوانب، وخـاطبهم هذا الشخص بحدة وقال لهم:

«مـاالذي تريدونه هنا؟ أريدكم أن تعـرفـوا بأن هـذا القمح كله، وكذلك الشخص الذي هو في كـل مظهره مالك له، هو عـائد إلي، لأن الكاهن الذي منح القمح إليكـم هو خـاضع إلي، وكل مـا هو ملك له، هو ملك لي، لأنه قـدم الولاء إلي بيـدين مطبقتين، ويمكنكم أن تكونوا متأكدين بدون شك، أنه في اليوم الرابع من الآن سـوف يموت، ووقتها سوف أسترد كل ماهو عائد إلي، مع الرجل الذي عملته غنياً عندما كان فقيراً»، وعندمـا سمع رعـاة الديرة والذيـن كـانوا معـه هـذا، أصيبـوا بالرعب، وعـادوا إلى الكاهن فـوجـدوه بالـرمق الأخير، فأخبروه بكل الذين رأوه وسمعوه، وعندما أخبروه بأن الرجل ذاك عائد إلى الشيطان، أجابهم الكاهن بقوله:

«لقـد تحدث بما هو صحيح لأنه قـد مضى الآن عشرون عـامـاً من الوقت الذي كنت فيـه رجـلاً فقيراً، ووقتها قـدمت الولاء إلى الشيطان الذي تحدث الآن إليكم، وذلـك من أجل أن أتمكن مـن الحصـول على مكانة أرضيـة وعلى ثروة دنيـوية»، وعاد فـور ذلك إلى الاستغفـار وإلى الاعتراف، وتخلى عن الشيطان وعن جميع أعمال أبهتـه، ولقـد تخلص من هذا كله بفضل الرحمة الربانيـة، ومن الآلام الجسدية، ومنح وقتـاً كافيـاً للاستغفـار، ومن هذا كـان واضحـاً تمامـاً بأن الرب لم يرغب بمـوت المذنبين، بل بالحري هو يفضل هدايتهم وحياتهم.

معجزة مدهشة وقعت خلال هذا العام

ومع أن الفصلين الذيـن كتبـا أعـلاه يريان بشكـل واضح كيف أن جـريمـة الشره هي ممقـوتة وينبغي أن ينظر إليهـا هكـذا من قبل جميع

المسيحيين، سوف أضيف قضية ثالثة، كل كلمة فيها معتمدة على شهادة اثنين أو ثلاثة من الشهـود، فبعدمـا تقـدم العام الذي تحدثنا عنه أعـلاه حتى وصل إلى شهـر تموز، استمر يضغط بشدة على الفقير، الـذي عانى يومياً من العـوز، فقـد اندفع الفقـراء على شكل جماعات نحـو حقـول المحـاصيل، والتقطوا سنابل القمـح، مع أنها لم تكن قـد نضجت بعـد، وفركوها بأيديهم المرتجفة ساعين لدعم بريق الحياة غير السعيدة، الذي لم يكن ينبض في صدورهـم، وهذه الحقيقة من الصعب توجيـه اللوم إليها بين الفقـراء، لأننا نقـرأ في أعمال الرسل بأن حـواريي المسيح قـد فعلوا الشيء نفسه، وكان بعض عمال القرى، الذيـن لشدة شرههم كانوا دوماً يشكون بالفقـراء، قد شعروا بالغضـب الشديد لدى مـرورهم بحقولهم ومن ثم اكتشـافهم لهذه السرقـة التقـوية، وقـام سكان بلدة اسمهـا البولديسلي Alboldesly في منطقة كمبردج، بالـذهاب في الأحد التـالي، الذي وافق السـادس عشر من تموز، إلى كنيستهم وطلبـوا وهم هائجين من الكاهن أن يعلـن على الفـور عقـوبة الحرمـان الكنسي، على جميع الذين التقطوا سنابل القمح من حقولهم، وبينما كان جميع الفلاحين يلحون على هذه النقطـة، قام واحد من أهـل البلدة وكان رجلاً متـديناً وتقياً، عندمـا رأى بأن الكاهن كان جاهزاً للتفوه بالحكم، فـرجاه باسم الرب القدير وباسم جميع القديسين، بأن لايدخله هو وحبوبه في الحكم، ثم إنه أضـاف بأنه كان راضياً بما أخـذه كل واحد من فقـراء الناس من حبوب زرعه، وهم في حالة عـوزهم، وأنه قد عهد بالذي بقي إلى عناية الرب، وعندما كـانت البقية مصرة على متابعة غـاياتها المجنونة، وقد بدأ الكاهن تحت الضغط بالتفوه بالحكم، هبت فجأة عاصفة رعدية، وبروق وزوابع، ترافقت بأمطار غـزيرة غير معهـودة ومعه بـرد تساقط بشـدة، واقتلعت مـزروعـات القمح من الحقل بوسـاطة انفجـار من الجحيم، والمواشي والطيور مع كل شيء قد نما بالحقول قد تعرض للدمار، وكأنما قـد ديست المزروعـات بعـربـات وخيـول، وشـوهدت في الهواء العـالي

ملائكة الشيطان تطير هناك، وقد اعتقد أنهم وكلاء هذا العذاب، لكن بما أن الاحسان اللاهوتي مستمر نحو الناس الصالحين، إنه بعد توقف تلك العاصفة التي سببت الكثير من الأضرار لجيران ذلك الرجل الأمين والمستقيم، الذي زار حقله، فاكتشف أن مزارعه وأراضيه، وإن كانت في وسط ممتلكات الآخرين، أنها لاتحتوي على أي أثر من آثار أضرار العاصفة، وظهر من هذا واضحاً أكثر من النور، أنه مثلما أعطي المجد للرب في الأعالي من قبل ملائكته، هناك سلام ونوايا طيبة على الأرض نحو الناس، وبدأت هذه العاصفة على حدود بدفورد، وعبرت نحو الشرق خلال جزيرة إيلاي، ونورفولك، ووصلت إلى شاطىء البحر، وفي الحقيقة ثارت في هذا العام عدة عواصف من طبيعة مماثلة في أماكن متعددة، وكانت عواصف مرعبة، كما كانت مؤذية لكثيرين، وبدا مثل هذا وضعاً غريباً أن المزروعات التي بقيت بعد العاصفة، قد اكتشف أنها منتنة إلى حد أنه لاالخيول، أو الحمير، أو الثيران، أو الخنازير، أو البط، أو الدجاج، قبلوا أكلها، مع أنها قدمت إليهم للتغذي بها.

الخلاف الذي تفجر بين البابا وبين الرومان

نشب في هذا العام خلاف جدي بين شعب روما وسكانها من جهة وبين البابا من الجهة الأخرى، وكانت أصول أسبابه كما يلي: ادعى سكان المدينة لأنفسهم امتيازاً، هو أن الحبر الروماني لايمكنه لأي جريمة من الجرائم إنزال عقوبة الحرمان الكنسي بأي واحد من سكان المدينة، أو حرمان أي علماني من أهل المدينة من شراكة المؤمنين، وفي جواب على هذا قال الحبر الأعظم، أنه و إن كان أدنى من الرب، هو كان أعلى من أي انسان، وبذلك هو أعلى من سكان روما وسيداً عليهم، وبما أنه كان والدهم الروحي، هو ينبغي أن يعاقب أبناءه المذنبين، وهو أيضاً يمتلك الحق بفعل ذلك لأنهم رعيته في الايمان

بالمسيح، وبناء عليه هو بإمكانه قانونياً انزال عقوبة الحرمان الكنسي وأن يضع المدينة تحت عقوبة الحرمان من شراكة المؤمنين، وذلك عندما يتوفر سبب منطقي لفعل ذلك.

ومجدداً جبت سلطات روما ومجلس شيوخ المدينة من الكنيسة الرومانية جزية سنوية، وقد دفعها البابوات الرومان بموجب عادة موجودة حالياً وكانت قديمة، واستمرت سلطات المدينة ومجلس الشيوخ بقبضها حتى أيام البابا الحالي، وعلى المطالبة بذلك قال البابا، بإنه إذا كان قد حدث في أيام اضطهاد الكنيسة الرومانية، قد لجأت هذه الكنيسة في سبيل الدفاع عن نفسها، ومن أجل السلام، فأقدمت أحياناً على منح أعطيات كبيرة وهدايا إلى سلطات المدينة، فهذا ينبغي عدم تحويله إلى عادة، فالذي ينبغي عدّه عادة هو ماتأسس على الحق، وكان مؤيداً بالمنطق، والذي هو أكثر من هذا هو أن المسيح على صليبه قد جعلها محررة تماماً بوساطة دمه، حتى أن أبواب الجحيم سوف لن تفوز ضدها، ولهذه الأسباب ولأسباب أخرى نشب الخلاف بينه وبين الرومان، وقام البابا مع كرادلته بمغادرة المدينة، وذهب إلى بيروجيا Perugia للاقامة، طالما الخصام مستمر، وفي الوقت نفسه ازداد الرومان جرأة في معارضتهم له، فهدموا بعض أبنيته في المدينة، ولفعلهم هذا حرموا كنسياً من قبله، كما أنه جعل نفسه موضع حظوة عند الامبراطور، وحشد جيشاً كبيراً ليقاوم حملات الرومان، ثم قامت الجيوش المتحدة للامبراطور وللحبر الأعظم بتهديم حوالي ثمان عشرة قرية، كانت مسكونة من قبل هؤلاء الرومان، وقائمة حول المدينة، وقطعوا أشجارهم في بساتينهم، وغضب سكان المدينة تجاه هذا، وأقلعوا بهجوم من روما في الثامن من تشرين الأول، وقد بلغ تعدادهم مائة ألف رجل مسلح، وذلك من أجل نهب مدينة فيتربو واحراقها، لأنها كانت ملكاً للبابا، ولكن عندما خرج هذا الحشد الأحمق من

المدينة، وكـان أفراده يزحفـون دونما تقدير للنظام، بل كـانوا مجموعـات فوضـوية، انقضت عساكـر البابا والامبراطور المدربة عليهم مـن أماكن الكمائن، واندفعت نحو الـرومان، فأحدثت مـذبحة مـرعبة بينهم، لكن مع بعض الخسـائـر لأنفسهم، وسقط من الجانبين حـوالي الثلاثين ألفـاً، وجاءت الخسائر الأعظم، عندما عهدوا بأنفسهم إلى الفرار نحو المدينة، وفـرقوا أنفسهم في جميع الاتجاهـات، وامتلأت الآن قلوبهم بحقـد كبير ضـد البابا، لأن عـدداً كبيراً من ذوي المراتب العليـا من أهل المدينة قـد سقطوا في هـذا الصراع، واستمـر الخصـام بين الفئتين المتنازعتين لمدة طويلة، لكن الرومان وجدوا دوماً أن حظ الحرب كان دوماً ضدهم.

ومات في هذه السنة هيوج فوليوت Foliot أسقف هيرفورد، وقد خلفه المعلم رالف دي ميدستون Maidstone وكان رجلاً مـدهشاً بعلومه، وقد تلقى السيامة على يدي ادموند رئيس أساقفة كانتربري.

ختان صبي مسيحي من قبل اليهود

عـام ١٢٣٥م، الذي كان العـام التاسع عشر لحكم الملك هنري، فيـه عقـد الملك بلاطه في عيـد الميـلاد في ويستمنستر، وقـد حضره أسـاقفـة ونبـلاء المملكة، وفي الـوقت نفسـه، والمكان عينه جلـب إلى أمـام الملك سبعـة من اليهـود، الـذين كـانوا قـد سرقـوا طفـلاً من بلدة نورويك، واحتفظوا به كليـاً بعيـداً عن أنظار المسيحيين، وقـاموا بختـانه، وكـانوا عـازمين على صلبـه في الفصح، وقـد وجـدوا حـول هذه الحقيقـة بأنهم مجرمين، وفي حضرة الملك اعترفـوا بالحقيقـة، وقـد بقيـوا في السجن وحياتهم وأطرافهم قيد إرادة الملك.

وفي العام نفسـه، في السابع من شبـاط، مات هيـوج أسقف لنكولن، وعـدو كل الرهبـان، وقـد دفن في الكنيسـة الكاتدرائيـة في لنكولن في العـاشر من الشهـر نفسـه، وقـد خلفـه المعلم روبرت غـروستيست

Grosseteste وكـان رجـلاً صـالحاً ومتـديناً، وبارعـاً في العلوم المقدسـة، وجرت سيـامته من قبل ادمـوند رئيس أساقفـة كانتربري، في الثـالث من حـزيران في ردنغ، وأبدى رهبان كـانتربري اعتراضهم ضـد تكريسـه، في أي مكان غير بلدته، وأخيراً سمحـوا بذلك بهذه المناسبـة، شرط أن لايتحول ذلك إلى عادة بعد الآن.

وفي تلك الآونة، بعـد عيـد طهـارة القـديسـة مـريم، عمل ستيفن سيغـريف وروبرت بـاسلوي صلحهما مع الملك، بوسـاطـة دفع ألف مارك، لكنهما لم يرجعا إلى مكانتهما وحظوتهما لديه.

وفي حـوالي هذا الوقت أيضاً، في الـرابع والعشرين من شباط، مـات هنري دي سـاندفـورت Sandfort أسقف روكستر، وإثر مـوته انتخب رهبـان ذلك المكان المعلـم رتشـارد دي ويندين Wendene وكان رجلاً متمكناً من العلوم الحرة، لكن عندمـا جرى تقديمه من قبل الرهبان إلى ادمـوند رئيس أساقفـة كانتربري من أجل تثبيـت انتخابه، لم يجر استقبـاله من قبـل ذلك الأسقف، وبناء على ذلـك عمل الرهبـان مرافعة استئناف إلى البابا.

موت راعي الدير وليم وخلافة جون له

في اليوم التـالي لعيد الرسـول متى في السنة نفسها، مـات وليم راعي دير القديس ألبـان، بعدما أدار تلك الكنيسـة لمدة عشرين سنة، وحوالي الثـلاثة أشهـر، ودفن في السـابع والعشرين من شبـاط في بيت هيئة الرهبـان، ثم حصل المجمع الديري على إذن الملك لاختيـار راعي دير جديد، وفي اليـوم الذي أعقب عيد البشـارة إلى القديسة مـريم، انتخبوا وسط كل المهابة جون رئيس رهبان هيرفـورد، وكان واحداً من رهبانهم المحترفين، وقد اختـاروه مسؤولاً عن أرواحهم، وقد جرى تقـديمه إلى الملك في يوم أحـد السعف، وقـد استقبل بترحـاب مـن قبله، وجـرى

ارسـال بعض رهبان وكهنـة تلك الكنيسة إلى بلاط رومـا، وكـانوا ممن وظيفـة الخاصة وواجبـه ذلك، أي العمل في سبيل الحصـول على تثبيت للانتخـاب، الذي حصلوا عليه دون مصـاعب، وعـادوا إلى وطنهم مع المبـاركة الرسـولية، وفي اليـوم الذي أعقب عيـد ميلاد القـديسة مـريم، الذي كان يوم أحـد، تلقى راعي الدير المنتخب المذكور المباركـة كراعي دير من روجـر أسقف لندن، وخلال هذه المدة الفـاصلة، بقي الدير مع متعلقـــاته بلطف من الملـك تحت عهـــدة الـرهبـان، من دون تـوقف لامتيازات الضيافة.

وحصل اليهـود في هذا العـام من البـابا الرومـاني على امتيـاز عـدم تعـرضهم لسـوء المعـاملة من قبل الملـوك أو الأمـراء، وذلك عن طريق استخراج المال منهم، أو تعريضهم للسجن.

وفي الوقت نفســه لدى اقتراب عيـد الفصـح، ذهب بطرس أسقف أوف وينكستر إلى رومـا، بناء على استـدعاء من البـابا، لترتيب متـابعـة اجـراءات الحرب التي كان قـائماً بها ضد الرومـان، لأن ذلك الأسقف، عندما كان شاباً في خدمة المقـاتل المشهور رتشارد، وكذلك جون ملكي انكلترا، معهما تعلم قـــديماً استخـــدام الـدرع قبل أن يرتدي الثـــوب الكهنوتي، وكـان قـادراً على تعبئـة الجيش قبل أن يمارس التبشير بكلمـة الإيمان.

الدعوة إلى حملة صليبية

في هذه السنة التي كـانت السنة الثامنة عشرة التي جـاءت بعد السنة التي عملت فيهـا هدنة العشر سنوات في أرض الميعـاد، بين الامبراطور الرومـاني فـردريك وبين سلطان مصر، جرت الدعـوة إلى حملة صليبيـة خلال جميع أرجـاء المسيحية، بناء على مبادرة من البابا غـريغوري الذي بعث برسائل إلى مختلف أجزاء العالم، جاءت كمايلي:

مذكرة البابا

«من غريغوري، عبد عبيد الرب، إلى جميع العبيد المؤمنين لمولانا يسوع المسيح المقيمين في انكلترا، تمنيات الصحة مع المباركات الرسولية، مثل راحيل من قبل عندما رأت بداية أولئك الذين ترعرعوا في ظل المعركة الحقيقية لخلاصهم، هي أيضاً الكنيسة الرومانية، التي أسفها كبير من أجل الدمار المتبادل لأولادها، قد أصدرت التنهدات ومابرحت تصدر التنهدات مع الآهات والآلام، التي نأمل بأن تسمع في السماء، وأن يستمر المؤمنون بالنحيب وبالبكاء حتى يتولى الرب رحمتهم، والكنيسة تبكي لأن بيت الخبز اللاهوتي، وجبل صهيون، ومن حيث صدرت الشريعة ونشرت، ومن مدينة الملك العظيم التي جاءت عنها كثير من أحاديث المجد، ومن الأرض التي قدسها ابن الرب بسفكه لدمه، هناك من أجلنا ضاعت قوة المملكة وجمالها، وهي تبكي لأنها كانت مرة أرضاً حرة، وهي الآن تحت نير طغيان غير تقي، وهي تبكي، لأنه هناك حيث غنت الحشود السماوية الكثيرة أغاني السلام، ظلم الشعب الذي هو أكثر الناس عدم طهارة، فقد أثار أعمال العدوان، وخبأ الشرور، والانشقاقات، وهو يحرك الحرب ويثيرها، وقد مدّ يده، وطرد من هيكل الرب سيامة الأسقف، وشرائع الطبيعة نفسها من أجل إحلال تلك الدناسة والقذارة محلها، ولهذا تدنست القدس في سبتها، وتلوثت من قبل أعدائها، لأنه مع أن المدينة المذكورة، إلى جانب هيكل الرب، قد استردت منذ بعض الوقت الذي مضى، إلى ولدنا المحبوب جداً في المسيح، فردريك الامبراطور الروماني، وأوغسطس وملك صقلية المشهور، لكن بما أن الرب القدير لم يتلطف آنذاك بمنح المزيد من المجد للمسيحيين عمل الامبراطور المتقدم الذكر هدنة مع السلطان، نهايتها الآن قد اقتربت، إلى حد أن الوقت المتبقي من المعتقد أنه لم يعد كافياً من أجل الاستعدادات، مالم نسرع فنقوم بالاستعدادات الضرورية

بكل عجلة، وبثقة وبإيمان فيه حرارة، لذلك ينبغي أن لايتخلف أحداً عن القيام بالحج من أجل ضمان تلك الأرض، وفي سبيل القتال من أجل بلدهم، مع أمل أكيد بالنصر، أو بالموت في سبيل تاج المجد، ومن أجل الحياة، ومن أجل تحمل الشدائد والمصاعب لبعض الوقت في سبيله ولصالحه، وهو الذي كره الإغواء، وتحمل البصاق عليه، وضرب بقبضات مضطهدية، وجلد وتوج بالشوك، وأخيراً ضرب بالمسامير على الصليب، حيث أعطي المرارة ليشربها، وطعن بحربة، وسلم نسمة الحياة بصوت مرتفع، هكذا أنهى حياته الدنيوية، وهو مقهور بالإهانات، من أجل حفظ الجنس البشري، وهو الذي، إذا ما أردنا الحديث بشكل أكثر تفصيلاً، لم يرفض النزول من عرش مجد أبيه، طاوياً السموات بشكل رائع تحته، وهو الذي من أجل حالة موتنا، لم يرفض التحول من كونه رباً ليصبح انساناً، ومن كونه خالقاً لأن يكون مخلوقاً، ومع أن الرب أخذ شكل عبد، من أجل أننا نحن الذين لايمكن أن نأمل بالغفران بموجب صلاحنا، يمكن أن نحصل على نعمة لم يسمع بمثلها، حتى نصبح ورثة الرب، ونتحد بالوراثة مع المسيح، ونشارك باللاهوتية، وننال نصيبنا في السعادة الأبدية، ومع أنه جرى تبنينا من قبله من خلال نعمته، نحن نقدم يومياً براهين على نكراننا للمعروف، ومع ذلك منحنا وفرة من الأشياء الجيدة، مثلما، حتى يبرهن على إيمان أتباعه، جعل الأرض التي بإرادة منه ولد فيها، ومات، وقام ثانية، تعاني من الاستيلاء عليها مطولاً والاستحواذ عليها من قبل الكفار، مع أن يد الرب لم تضعف، كما أن فضائله لم تزل بأي شكل من الأشكال، لأنه وهو الذي عمل الأشياء كلها من لاشيء، يمكنه بلحظة واحدة أن يجعلها حرة، إنه يطلب من رجال نعمة الحب والرحمة، أن يظهروا الاستيعاب الكامل والتطبيق النهائي للشريعة، فهو أولاً تلطف بالشفقة على الانسان في حالته المدمرة، وهو لن يسمح بأي حال من الأحوال للأيدي غير التقية بأن تقوى كثيراً وتشتد ضد الأتقياء، إذا لم يهتم بأن

أذانا ينبغي الانتقام له من خلال فوضانا، وأن يتم الحصول على نظامنا من نصره، وهكذا فإن الغارقين بأعماق الذنوب، وغير القادرين بأي حال، على عمل تكفير، هؤلاء الناس كانوا سيغرقون أكثر في ذلك البحر من الآثام بشكل يائس لولا أنه مدّ لهم لوحاً، ومنحه إليهم على هذه الشاكلة، حيث صار بامكانهم عن طريق الموت في سبيل المسيح، بيسر الوصول إلى الكمال لسنين طوال، لأن كثيرين ممن رغبوا في رؤية الأراضي التي وقف عليها مولانا، قد وصلوا إلى هدفهم من دون التعب في السباق، ونالوا التاج من دون محنة السيف وذلك من خلاله وهو الذي يجازي عساكره المؤمنين المخلصين، وهو ينظر فقط إلى الإرادة الطيبة في خدمته، وهكذا نحن نثق برحمة الرب القدير، وبسلطة رسوليه:

القديس بطرس، والقديس بولص، وبالقدرة على الربط وعلى الحل التي أعطاها الرب إلينا، وبموجب ذلك إننا نمنح إلى جميع الذين سوف يشاركون بأشخاصهم، وعلى نفقتهم الشخصية، أو الذين سوف يجهزون رجالاً موائمين عوضاً عنهم، أو الذين سوف يذهبون على نفقة آخرين، أو الذين سيقدمون مالاً يمكن به تقديم المساعدة إلى الأرض المقدسة، أو الذين سوف يقدمون النصيحة أو المساعدة من أجل الغاية نفسها، هؤلاء جميعاً نحن نمنحهم غفراناً كاملاً عن ذنوبهم التي سوف يستغفرون منها في قلوبهم، وسوف يعترفون بأفواههم، ونحن نتكفل بأن يبقى كل الذين سوف يحملون الصليب من كل من رجال الدين والعلمانيين، بأشخاصهم وممتلكاتهم آمنين تحت حماية القديس بطرس ونحن أنفسنا، وحماية رؤساء الأساقفة والأساقفة وقساوسة الكنيسة، حتى الحصول على معلومات مؤكدة عن موتهم أو عودتهم، وخلال تلك الآونة، مامن جباية ربا أو فائدة سوف تؤخذ منهم أيضاً، أو تجبى سواء من قبل يهود أو مسيحيين. صدر في سبوليتو Spoleto في

الرابع من أيلول في السنة الثامنة من بابويتنا».

وعيّـن البـابا أيضاً رهباناً من طائفة الفـرنسيسكان والمبشرين للدعوة إلى الصليب في جميع أنحـاء العـالم، مع معلمين قـادرين في اللاهوت، الذين انطلقوا يعملون بالانجيـل، وتعاون الرب معهم، وثبت تبشيرهم في العلامات التالية:

فقد امتلكت كل منطقة بوساطة الوصـاية الرسولية رئيس شمامسة لها وعمداء تولوا جمع الناس في الأسقفيـة كلهم من نساء ورجـال مكفرين كل من يهمل حضور أعمال وعظهم.

معجزة تتعلق بامرأة كانت أطرافها متقلصة

في الحادي عشر من حـزيـران من العـام نفسـه، كـان روبرت لاوي Lawes وهو راهب من طائفة الفرنسيسكان، يبشر بالانجيل لصالح الحملة الصليبية في بلدة كلير Clare وكانت هناك احدى النساء، قد حـرمت من استخدام جميع أطرافهـا منذ ثلاث سنوات، وكـانت تخشى عقـوبـة الحرمـان الكنسي، وقـد أعطت المبلـغ الصغير من المال الذي امتلكته إلى أحد الجيران، ليحملها على كتفيه إلى المكان الذي كان روجر يبشر فيـه، واستلقـت هناك وهي تئـن وتنوح حتى أنهى رجـل الرب موعظتـه، وذلك عندما أثيرت عاطفة الرحمة لديه، لدى سماعـه نواحها، ورؤيتها وهي مستلقية هناك، فذهب إليهـا وسألها عن سبب قدومها إلى هناك، فأجابته بأنها من خلال الخوف من الحرمان الكنسي قد جلبت إلى مكان تبشيره، وبناء على ذلك أمـرها بالذهاب إلى بيتها، دون أن يعـرف بأنها قد فقدت استخدام أطرافها، ولدى اخباره من قبل الموظفين هناك، بأنها فقـدت استخـدام أطرافهـا تمامـاً منذ ثلاث سنوات، سألها عما إذا كـانت تعتقـد بأن الرب قـادر بما فيه الكفـاية، أنه إذا رغب بتحـويلهـا صحيحـة فعل، وقـد ردت على هذا: «إنني أؤمن بهذا ياسيـدي»، وعند

ذلك أخذ رجل الرب بذراعي المرأة، ورفعها نحو الأعلى بثقة، وهو يقول في الوقت نفسه: «أرجو الرب القدير، الذي تؤمنين به، أن يحوّلك إلى سليمة»، وعندما أمرها بالوقوف والنهوض، فعلت ذلك، واضعة ثقتها في الرب، ولدى محاولتها الوقوف بدأت عظامها وأعصابها فجأة تطقطق، حتى أن الواقفين هنا اعتقدوا أن أطرافها قد تكسرت إلى قطع، وقد عادت هكذا —على كل حال— إلى سلامتها الماضية، وعادت إلى بيتها مسرورة، تسبّح الرب وتمجده لإضفائه مثل تلك القدرة على عبده.

كيف طلب الامبراطور أخت ملك انكلترا للزواج منها

وصل في شهر شباط من هذا العام اثنان من الداوية، مع بعض الفرسان والرسل الخاصين، إلى الملك في ويستمنستر، مكلفين برسائل مختومة بالذهب من الامبراطور فردريك، يطلبون يد ايزابل أخت الملك الانكليزي للزواج، وقد وصلوا إلى الملك في الثالث والعشرين من شباط، ورجوه تقديم جواب للرسائل وللطلب، حتى يتمكنوا من إعلام مولاهم بكل سرعة بقرار الملك، وعندها عقد الملك مداولات دقيقة مع أساقفة ونبلاء مملكته لمدة ثلاث سنوات، وبعدما قلبوا جميعاً وجوه القضية، وفحصوها بكل دقة، وافقوا بالاجماع بأن السيدة ينبغي أن تعطى إلى الامبراطور، وفي السابع والعشرين من شباط، أعطى الملك جوابه بالموافقة على التحالف المطلوب، وعند ذلك طلب الرسل الإذن برؤية السيدة، وبعث الملك بعض الرسل الموثوقين لاحضار أخته من برج لندن حيث كانت محروسة بعناية، ورافقها الرسل مع كل التكريم إلى الملك في ويستمنستر، حيث ظهرت أمام رسل الامبراطور، و كانت سيدة في العشرين من عمرها، جميلة أن تنظر إليها، مزينة بعذراوية لطيفة، ومتميزة بملابسها الملكية وبأخلاقها، وبعدما أنعشوا نظرهم لبعض الوقت بالتحديق بالسيدة، قرروا أنها الأعظم جدارة من جميع

الجوانب للسرير الامبراطوري، وثبتوا الزواج عن نفس الامبراطور باليمين، وقدموا لها خاتم الزواج باسمه، وبعدما وضعوه باصبعها أعلنوها امبراطورة روما، وصرخوا «عاشت امبراطورتنا»، ثم إنهم أرسلوا رسلاً، بكل سرعة لإخبار الامبراطور بالذي عملوه، فقام بعد عيد الفصح مباشرة بارسال رئيس أساقفة كولون، ودوق لوفين Lou-vaine مع صف طويل من النبلاء إلى انكلترا، لإحضار الامبراطورة إليه، وسط التكريم المستحق، ولإكمال احتفالات الزواج، حتى يتمكن من الدخول بها.

زينة عرس الامبراطورة والتحضيرات الفخمة

كانت هناك وفرة عظيمة من الزينة في هذا الزواج، بدت أنها تفوق الثروة الملكية، لأن الامبراطورة نفسها عمل لها تاج وصنع بشكل دقيق من الذهب الخالص، وزين بالجواهر، وحفر عليه صوراً تشبه الشهداء الأربعة والملوك المعترفين لانكلترا، الذين إليهم عهد الملك بشكل خاص العناية بروح أخته، وقد أشرقت بهذه الوفرة العظيمة من الخواتم والأطواق الذهبية، وجواهر أخرى فخمة، مع ملابس من الحرير والسلك الناظم، مع زينة أخرى مماثلة، التي تجذب بالعادة الأنظار وتثير رغبة النساء إلى حد الحسد، حتى بدوا أنهم لايقدرون بثمن، مع ثياب للعرس من الحرير، والصوف، والسلك الناظم، وكانت مزودة بشكل جيد، حتى بات من الصعب القول أيها سوف يجذب أكثر اهتمام الامبراطور، وكان سريرها ثرياً جداً بأغطيته ووساداته، وبألوانه المتعددة، مع مختلف أنواع الأثاث، وكانت الملاءات مصنوعة من الكتان الناعم الممتاز، إلى حد أنهن بنعومتهن كن يغرين المتمدد عليهن بنوم رائع، وكانت جميع أقداح الشرب من الذهب الخالص ومن الفضة، والذي ظهر أنه متفوق على كل شيء، هو آنية الطبخ، كبيرها وصغيرها، حيث كانت من الفضة الخالصة، ومن أجل ادارة هذا كله، والاهتمام

بهذه الأشياء، جرت إنابة خدم البلاطات وندبهم لخدمة الامبراطورة وأسرتها بطريقة ملكية، وبعدما جرى تزويدها بهذا اكله وبهدايا أخرى من أخيها، وبعدما تسلمت بائنتها منه، بقيت السيدة ايزابل تحت عناية أسقف اكستير، ورالف فتز— نيقولا، قهرمان الملك، ونبلاء آخرين من آل بيته، وتولى العناية بها سيدات نبيلات وعقيلات كن جميعاً بارعات بالأخلاق الملكية، وكان فيهن كفاية لخدمة الامبراطورة ومرافقتها، وبعد ترتيب الأمور على هذه الصورة، عقد الملك في يوم عيد القديس يوحنا احتفالاً مهيباً أمام البوابة اللاتينية في ويستمنستر، برفقة رئيس أساقفة كولون، والرسل الآخرين للامبراطور، وفي اليوم التالي أخذ الجميع الطريق نحو منطقة دارتفورد مع مرافقة الملك الذي كان بصحبته قطار كبير من الايرلات والبارونات، واشترى الامبراطور للسيدات اللائي سرن في موكب الامبراطورة عدداً من الخيول المتميزة بألوانها المتنوعة، وخطواتها اللطيفة، والتي تحمل ركابها بمتعة ولطف، دون أن تزعجهم بأية حركة من حركات أقدامهم، وكانت الركابات والسرج مذهبة أيضاً ومحفورة ومن أنواع كثيرة، وكانت اللجم والمقاود محكمة الصنع ومذهبة، وهي مريحة للراكب وللمطية أيضاً، وساروا من خلال مدينة روكستر، ووصلوا إلى دير فيفرهام Feversham وشرعوا من هناك فوصلوا إلى كانتربري، ليهارسوا عباداتهم وليقدموا تعبداتهم إلى توماس، رئيس الأساقفة الشهيد، وبعد تأديتهم لواجباتهم الدينية تابعوا السير إلى ميناء ساندويش، وكانوا قد بلغ تعدادهم حوالي الثلاثة آلاف فارس، ومن ذلك الميناء أقلعت الامبراطورة ورئيس أساقفة كولون مع النبلاء والسيدات، الذين جرى تعيينهم في حاشيتها، وكان الإقلاع في الحادي عشر من أيار، والانطلاق في البحر تحت أشرعة كاملة، ولم يكن الفراق —على كل حال— من دون بكاء بين الأخ والأخت، أي بين الملك والامبراطورة.

وصول الامبراطورة إلى كولون

وبعد رحلة استمرت ثلاثة أيام وثلاث ليال، دخلوا إلى مصب نهر الراين، وبعدما ساروا لمدة يوم وليلة صاعدين في النهر، وصلوا إلى أنتويرب Antwerp وهي مدينة كانت تحت الحكم الامبراطوري، ولدى نزولهم إلى اليابسة هناك استقبلوا بحشد كبير جداً من الرجال المسلحين، كانوا قد أرسلوا من قبل الامبراطور، ليعملوا بمثابة حرس للامبراطورة، وليتولوا حراستها بيقظة نهاراً وليلاً، لأنه قيل بأن بعضاً من أعداء الامبراطور، الذين كانوا متحالفين مع الملك الفرنسي كانوا يخططون لخطف الامبراطورة ومنع الزواج، وقد قوبلوا من قبل جميع الكهنة ورجال الدين العائدين للمناطق المجاورة بمسيرات مهيبة، وهم يقرعون الأجراس ويغنون الأغاني المبهجة، وجاء معهم أفضل المعلمين بكل نوع من أنواع الموسيقى مع آلاتهم، وقد رافقوا الامبراطورة مع جميع أنواع الأغاني الزفافية المبهجة خلال رحلتها، التي استغرقت خمسة أيام إلى كولون، وعندما صار موعد اقترابها معروفاً في ذلك المكان، خرج إلى استقبالها، مع الورود، وسعف النخيل، وبثياب العيد، حوالي عشرة آلاف من سكان المدينة وهم يمتطون الخيول الاسبانية، وبرفقة هذه الحشود الفرحة، سارت الامبراطورة خلال الشوارع الرئيسية للمدينة، التي كانت مزينة بمختلف الطرق والأنواع من أجل وصولها، وعندما علمت بأن كل انسان، ولاسيما السيدات النبيلات من أهل المدينة اللائي جلسن في الشرفات، كن يرغبن برؤية وجهها، رفعت قبعتها والغطاء عن رأسها، من أجل أن يراها الجميع، وبعملها هذا نالت الاطراء من كل انسان، وبعدما نظروا إليها وحدقوا بها أعطوها ثناء كبيراً من أجل جمالها، ومن أجل تواضعها، ثم اتخذت مقراً لها خارج أسوار المدينة، بسبب الضجة التي كانت فيها، وانتظرت هناك تعليمات الامبراطور.

زواج الامبراطور والامبراطورة في وورم

في الوقت الذي وصلت فيه الامبراطورة إلى كولون، كان الامبراطور مشغولاً بالحرب ضد ابنه الذي تمرد ضده، وقد قاد والده جيشاً كبيراً جداً ضده، حتى أنه ألقى الحصار على عشرة من قلاعه في وقت واحد، وقد اتخذ ابنه موقف الدفاع في واحدة من هذه القلاع، كانت هي الأقوى، إنما لدى إلقاء أبيه الحصار عليها، ولخوفه من شدة أبيه، ترك القلعة، وألقى بنفسه عند قدميه، والتمس منه رحمته، وكان الأب —على كل حال— بلا رحمة، فأمر به فوضع بالأغلال، وحمله معه إلى وورم، ومن هناك أرسل رسالة إلى الامبراطورة بأن تأتي إليه إلى هناك، وبذلك كانت قد أقامت ستة أسابيع في كولون، وعند ذلك انطلق رئيس أساقفة كولون وأسقف اكستير، مع النبلاء الآخرين الذي كانوا في حاشيتها، وأخذوا طريقهم فوراً نحو الامبراطور، وبعد رحلة سبعة أيام، أحضروا الامبراطورة وسط جميع أنواع الأبهة الاحتفالية والفرح، وقد استقبلت لدى وصولها من قبل الامبراطور بسرور واحترام، وبفرح فاق جميع الحدود بسبب جمالها، وتم الزواج بشكل مهيب في ذلك المكان في يوم الأحد العشرين من تموز، ومع أن جمالها قد أفرح الامبراطور لدى نظرته الأولى إليها، هو ابتهج أكثر بعد الزواج، وبعد استمرار الاحتفالات البهيجة لمدة أربعة أيام متواصلة، حصل أسقف اكستير والبقية الذين رافقوا الامبراطورة إلى هناك، على الاذن من الامبراطور بالمغادرة، وعادوا مبتهجين إلى انكلترا، آخذين معهم منه هدايا إلى الملك الانكليزي ثلاثة فهود مع هدايا أخرى ثمينة كانت نادرة في بلدان الغرب، ووعده الامبراطور أيضاً بمساعدته ضد الملك الفرنسي.

النسب النبيل للامبراطورة

ولقد كان هناك —على كل حال— كثيرون، في الامبراطورية الرومانية، الذي اعتقدوا، أنه انزال من قدر الامبراطور، وحط من

شأنه، وهو الذي كان قوياً جداً، وغنياً، وكان بحكم وضعه سيد العالم وحاكمه أجمع، أن يتزوج من أخت ملك انكليزي، لكن كما يعلم كثيرون إن هناك المزيد من الفخار في أن يكون الانسان من أصل نبيل، أكثر منه أن يكون غنياً، وعلى القارىء أن يعرف أن والد هذه الامبراطورة كان جون ملك انكلترا، وأن الملك الحاكم الآن لانكلترا، هو هنري أخاها، وأن الملوك المشهورين:

هنري، ورتشارد، وغيوفري كونت بريتاني، كانوا أعمامها، وهؤلاء الملوك يتمتعون بالشهرة لنبالة أصلهم، وقد حكموا انكلترا وايرلاندا، منذ أن كانوا ملوكاً، وحكموا في نورماندي وأكوتين بمرتبة دوق، وفي بواتو وأنجو بمرتبة كونت، وبالاضافة إلى ذلك امتلاكهم الإدعاء بحق السيادة على: تورين، ومين، وبري، وأوفرين، وكان لديهم في جميع هذه المناطق سبعة رؤساء أساقفة خاضعين لهم، مع ملكي اسكوتلندا، وويلز، وجزيرتي ايرلاندا، ومان، وإلى جانب هؤلاء عدد لايحصى تقريباً من الأساقفة، والايرلات، والبارونات، والفرسان، وكانت أم الامبراطورة ملكة على جميع هذه البلدان، وبالنسبة لأختيها، كانت الأولى ملكة الاسكوتلنديين، وكانت الثانية كونتسة بيمبروك، وكان لها خمس عمات: كانت أولاهن زوجة ألفونسو ملك قشتالة، وأم بلانشي ملكة فرنسا (التي ابنها لويس يحكم الآن في تلك المملكة)، وقد تزوج روجر ملك صقلية بواحدة أخرى، وتزوجت الثالثة من هنري دوق سكسوني، وصارت أم أوتو، الذي صار فيها بعد امبراطور الرومان، والذي أخوه من هنري دوق سكسوني صار فيها بعد ملك القدس، وكانت الرابعة زوجة ريموند كونت طولوز، وقد تزوج روتروك Ro- troc كونت بيرشي Perche من الخامسة، وبهذا وبأشياء أخرى بدت الامبراطورة أنها «انحدرت من نسل الملوك»، لأن أبيها الملك جون المتقدم الذكر، كان ابن الملك هنري المشهور، وكان هنري هذا، هو

ابن الامبراطورة مـــاتيلدا، ابنـة هنري الأول، ملك انكلترا، من ملكتــه ماتيلدا، وكـانت ماتيلدا هذه ابنة مـالكوم ملك الاسكوتلنديين، وملكته القديسة مـرغريت، وكانت مرغـريت ابنة ادوارد من أغاثا، أخت هنري الامبراطور الرومـاني، وكـان ادوارد هذا ابن ادمـوند الملك الانكليـزي، الذي كان لقبـه «الأطراف الحديدية»، الذي كان ابن الملك إيثلرد Eth-elred وكـان والد إيثلـرد إدغـار Edgar «المسـالم»، وكـــــان والد الأخير هو ادموند، وكان والد ادموند هذا ادوارد الأول، الذي كان ابن ألفـرد Alfred الملك الواسع الشهــرة، وأعيـــد نسب هذا الملك في التـــواريخ الانكليـزية، إلى آدم، أبـانا الأول، وبهذا وضح أن امبراطورة انحـدرت من أجداد كـانوا محترمين في كل جانب من الجوانب، جـديرة بالزواج من الامبراطور.

وإلى ها هنا وصلت تواريخ المعلم روجر دي ويندوفر.

«وهكذا كان في هذه الصفحات تاريخ عصرنا،

وهناك مايزال في الغيب كتّـاباً سوف يتولون من بعـد الآن إخباركم بالمزيد».

النهاية

المحتوى

الصفحة	الموضوع
٥١٣	كيف جرى تتويج ملك وملكة الانكليز في كانتربري
٥١٣	كيف عبر الملك جون وملكته البحر إلى نورماندي
٥١٤	حول نشوب خلاف بين ملكي فرنسا وانكلترا
٥١٦	النصر الرائع الذي حصل عليه الملك جون في ميرابو
٥١٧	كيف انسحب الملك الفرنسي وهو مضطرب من حصار قلعة آركوي
٥١٧	موت آرثر كونت بريتاني
٥١٨	كيف تخلى النبلاء الانكليز عن الملك جون في انكلترا وهجروه
٥٢٠	كيف جاء الملك جون إلى انكلترا واستخرج مبالغ كبيرة من المال من النبلاء
٥٢١	ترقية وليم أسقفاً للنكولن
٥٢٢	كيف جرى منح المساعدات من أجل الحرب بشكل كبير إلى الملك
٥٢٢	كيف أصبح بشكل رائع زيت تمثال أم الرب لحماً
٥٢٣	حول أصل التمثال المذكور وبعض معجزاته
٥٢٥	كيف أخذ تمثال أم الرب يرشح زيتاً
٥٢٦	كيف أخرج ذلك التمثال نفسه حلمات من اللحم
٥٢٦	كيف استرد سلطان بصره بوساطة هذا التمثال
٥٢٧	كيف استسلمت نورماندي وممتلكات ماوراء البحر إلى حكم الملك الفرنسي
٥٢٨	موت غودفري أسقف وينكستر
٥٢٨	بعض الحوادث العجيبة
٥٢٩	موت هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري
٥٣٠	انتخاب جون أسقف نورويك
٥٣١	الخلاف بين الأساقفة المساعدين في كنيسة كانتربري
٥٣٢	كيف عبر الملك جون إلى بواتو
٥٣٣	النيابة الرسولية لجون أوف فيرنتنو في انكلترا
٥٣٤	القرار النهائي للبابا انوسنت فيما يتعلق برهبان كنيسة كانتربري
٥٣٥	رؤيا تتعلق بمطهرة وبعقوبة الأشرار وبمجد المباركين

الصفحة	الموضوع
٥٣٧	كيف أخذ الرجل بعدما تحرر من الجسد إلى كنيسة كان فيها اجتماع للأرواح
٥٣٨	العشارون الظالمون
٥٣٨	نار المطهرة والبحيرة والجسر، والكنيسة القائمة على جبل البهجة
٥٤٠	كيف تولى القديس ميكائيل مع الرسولين بطرس وبولص توزيع الأرواح
٥٤١	وزن الخير والشر
٥٤٢	حول أحد الأرواح الذي حوله الشيطان إلى شكل فرس
٥٤٣	المباريات المسرحية للشياطين
٥٤٤	رجل متشامخ وعذابه
٥٤٦	حول أحد الكهنة
٥٤٦	حول أحد الجنود
٥٤٧	حول أحد المرافعين
٥٤٨	حول زاني وزانية
٥٤٩	المستهزئون
٥٤٩	اللصوص والمحرقون
٥٤٩	الباعة
٥٥١	الكنيسة القائمة على جبل البهجة
٥٥٢	المراتب المتنوعة لتلك الكنيسة
٥٥٣	الجنة وآدم أبونا الأول
٥٥٣	كيف عاد الرجل إلى جسده
٥٥٤	كيف ذهب غيوفري رئيس أساقفة يورك إلى المنفى
٥٥٦	إلغاء انتخاب أسقف نورويك
٥٥٧	ترقية المعلم ستيفن لانغتون وتكريسه
٥٥٨	كيف بعث البابا انوسنت رسائل إلى ملك انكلترا حول ستيفن لانغتون
٥٦٠	كيف أرسل ملك انكلترا رسائل تهديد إلى البابا
٥٦١	جواب البابا للملك الانكليزي

الصفحة	الموضوع
٥٦٤	خسوف القمر
٥٦٤	تحذير ملك انكلترا من قبل البابا
٥٦٥	كيف وضعت انكلترا تحت حرمان كامل من شراكة المؤمنين
٥٦٦	كيف صادر الملك جون ممتلكات رجال الدين
٥٦٨	كيف تلقى الملك جون ولاء نبلاء انكلترا
٥٦٩	كيف أرسل ملك الانكليز مبلغاً من المال إلى ابن اخته أوتو
٥٦٩	كيف دخل ملك الانكليز بمعاهدة تحالف مع ملك الاسكوتلنديين
٥٧١	كيف جرى حرمان الملك جون كنسياً
٥٧٢	حول النصيحة الشريرة للاسكندر الشرير
٥٧٣	تكريس هيوج أسقفاً للنكولن
٥٧٤	كيف أرغم اليهود على دفع فدية كبيرة
٥٧٥	الحرمان الكنسي للامبراطور أوتو
٥٧٦	كيف قاد ملك انكلترا جيشاً إلى ايرلاندا
٥٧٧	كيف أخضع ملك انكلترا أمراء ويلز
٥٧٨	كيف نفى الملك الفرنسي رينالد كونت بولون
٥٧٨	موت وليم دي بروز
٥٨٠	كيف رسم ملك انكلترا الاسكندر ابن ملك الاسكوتلنديين فارساً
٥٨٠	كيف جرى تحذير ملك انكلترا بوجود خيانة ضده
٥٨١	بطرس الناسك ونبوءته
٥٨٢	كيف صدر قرار بالخلع ضد الملك جون
٥٨٤	عودة رئيس أساقفة كانتربري
٥٨٥	استعدادات الملك جون لمقاومة أعدائه القادمين
٥٨٧	قدوم باندولف إلى الملك
٥٨٨	كيف أثير الملك جون للاقدام على التوبة
٥٨٩	صك الملك جون الذي أعطاه إلى رئيس أساقفة كانتربري

الصفحة	الموضوع
٥٩٣	كيف تخلى الملك جون عن تاجه وعن المملكة
٥٩٥	تقديم الملك جون الولاء إلى البابا
٥٩٦	كيف عاد باندولف إلى فرنسا
٥٩٧	كيف قام الملك الفرنسي بهجوم على كونت فلاندرز
٥٩٩	تحليل الملك الانكليزي في وينكستر
٦٠١	إعلان القوانين والحقوق
٦٠٢	سبب هياج البارونات ضد الملك
٦٠٥	حول هرطقة الألبينيين
٦٠٦	زحف الصليبيين ضد الألبينيين
٦٠٨	الاستيلاء على مدينة كاركسون
٦٠٩	ارسال رسل إلى طولوز من الصليبيين
٦١٠	وفاة غيوفري فتز— بيتر
٦١١	ارسال الملك رسلاً إلى أمير المؤمنين
٦١٧	قرار جون بوضع انكلترا تحت الحكم البابوي
٦١٧	اهتمامات الملك جون بآرائه الشريرة حول الإيمان
٦١٨	غلبة أمير المؤمنين وفراره
٦١٨	موت ملك أراغون
٦٢١	وصول أسقف توسكولم إلى انكلترا
٦٢٢	كيف تخلى الملك جون عن تاجه للبابوية
٦٢٣	مراسلة البابا انوسنت إلى نيقولا أسقف توسكولم
٦٢٥	مرافعة رئيس أساقفة كانتربري
٦٢٦	كيف عبر الملك جون البحر إلى بواتو
٦٢٧	رسالة الملك جون حول زحفه في بواتو
٦٢٨	رسالة البابا انوسنت حول إلغاء الحرمان
٦٢٩	إعادة الممتلكات المصادرة

الصفحة	الموضوع
٦٣٠	إلغاء الحرمان
٦٣٠	كيف أجّل النائب البابوي التعويض عن الممتلكات المصادرة
٦٣١	كيف اقتاد الملك جون جيشه في بريتاني
٦٣٢	كيف زحف الملك الفرنسي ضد جيش الملك الانكليزي
٦٣٥	نهاية المعركة
٦٣٧	عقد هدنة بين ملكي فرنسا وانكلترا
٦٣٨	المؤتمر الذي عقده البارونات ضد الملك جون
٦٣٩	حول وليم راعي كنيسة القديس ألبان
٦٣٩	الطلب الذي عمله بارونات انكلترا
٦٤١	الأشخاص الرئيسيون الذين أرغموا الملك على منح القوانين والامتيازات
٦٤٢	حصار قلعة نورثأمبتون
٦٤٣	كيف أعطيت مدينة لندن إلى البارونات
٦٤٤	المؤتمر بين الملك وبين البارونات
٦٤٦	صك الملك جون حول الحقوق
٦٥٤	امتيازات الغابات
٦٥٨	حول الخمسة والعشرين بارون ومراجعة القوانين
٦٦١	أوامر الملك بوجوب رعاية الامتيازات
٦٦٢	انسحاب الملك جون إلى جزيرة وايت
٦٦٣	افادات رسل ملك انكلترا إلى البابا
٦٦٤	كيف جرى إلغاء الامتيازات
٦٦٨	البابا يلوم بارونات انكلترا
٦٧٠	استيلاء وليم دي ألبيني على إمرة قلعة روكستر
٦٧١	كيف حاصر الملك جون قلعة روكستر
٦٧٢	وفاة هيوج دي بوفز
٦٧٣	الاستيلاء على قلعة روكستر

الصفحة	الموضوع
٦٧٦	الحرمان الكنسي لبارونات انكلترا
٦٧٨	انتخاب المعلم سيمون لانغتون لكرسي يورك
٦٧٩	تعليق ستيفن رئيس أساقفة كانتربري
٦٨٠	المجمع العام الذي عقده البابا انوسنت في روما
٦٨٤	الاتهام الذي عمل في روما ضد ستيفن رئيس أساقفة كانتربري
٦٨٥	تثبيت تعليق رئيس الأساقفة المذكور
٦٨٧	كيف زحف الملك جون إلى الأجزاء الشمالية من انكلترا
٦٨٨	أعمال السلب والنهب التي اقترفها جيشه في الجزء الجنوبي من انكلترا
٦٨٩	استسلام قلعة بيلفيور إلى الملك
٦٩٠	أنواع العذاب التي عانى منها الشعب المسيحي
٦٩١	حول الذين جرى تعيينهم حكاماً للقلاع
٦٩٣	الحرمان الخاص للبارونات
٦٩٥	تطبيق قرار العقوبات المتقدم ذكره
٦٩٧	العيث فساداً في جزيرة إيلاي
٦٩٧	كيف اختار بارونات انكلترا لويس ليكون ملكهم
٦٩٩	تجديد القرار الصادر ضد البارونات
٧٠١	كيف أرسل لويس رسائل تطمين إلى البارونات
٧٠٢	كيف قدم والو ممثلاً للبابا عند الملك الفرنسي
٧٠٣	كيف منع المندوب البابوي لويس من الذهاب إلى انكلترا
٧٠٥	كيف حصل لويس على إذن أبيه وذهب إلى انكلترا
٧٠٧	النائب البابوي والو يتبع لويس إلى انكلترا
٧٠٧	كيف أخضع لويس المقاطعات الجنوبية لانكلترا
٧٠٨	نشاطات رسل لويس في روما
٧١٠	الاتهامات التي أثارها لويس ضد الملك جون
٧١١	التهمة الثانية ضد جون

الصفحة	الموضوع
٧١٣	الاعتراض الثالث ضد الملك جون
٧١٥	كيف عاث لويس فساداً في المقاطعات الشرقية لانكلترا
٧١٦	حصار قلعة دوفر من قبل لويس
٧١٧	الاستيلاء على قلعة كمبردج
٧١٧	حصار قلعة ويندسور
٧١٩	الكشف عن خيانة الفرنسي
٧٢١	موت الملك جون
٧٢٢	تتويج هنري الثالث
٧٢٣	مغادرة لويس دوفر
٧٢٤	حصار قلعة هارتفورد
٧٢٥	الاستيلاء على قلعة بيركهامبستد
٧٢٦	حوادث تتعلق بأرض الميعاد
٧٢٩	مراجعة بارونات انكلترا لأوضاعهم
٧٣٠	نهب فالكاسيوس بلدة سانت ألبان
٧٣٠	معاهدة بين ملك انكلترا وبين لويس
٧٣١	أحداث في أرض الميعاد
٧٣٢	العلامات في السماء التي ساعدت على الحملة الصليبية
٧٣٣	حصار قلعة ماونتسوريل
٧٣٤	معجزة صليب الرب
٧٣٥	رفع الحصار عن قلعة ماونتسوريل
٧٣٦	محاولة ملك انكلترا رفع الحصار عن قلعة لنكولن
٧٣٧	تشجيع النائب البابوي رجاله من أجل المعركة
٧٣٨	استطلاع البارونات لجيش الملك
٧٣٩	معركة لنكولن العادلة
٧٤٢	نهب لنكولن

الصفحة	الموضوع
٧٤٤	فرار البارونات مع الفرنسيين من لنكولن
٧٤٤	موت البابا انوسنت
٧٤٤	طلب لويس المساعدة من أبيه
٧٤٧	إتفاقية السلام بين لويس وبين ملك انكلترا
٧٤٨	صيغة السلام للمحرومين كنسياً
٧٥٠	استعداد سكان كولون وفريز لاند للزحف إلى الأرض المقدسة
٧٥١	حصار قلعة نيو آرل
٧٥٢	زحف القوات الصليبية من عكا إلى دمياط
٧٥٣	حصار برج دمياط
٧٥٤	الاستيلاء على برج دمياط
٧٥٨	موت سيف الدين وتدمير أسوار القدس
٧٥٩	وصول النائب البابوي بيلاغيوس إلى دمياط
٧٦٠	الحملتان اللتان قام بهما المسلمون على الصليبيين في دمياط
٧٦٠	فيضان نهر النيل
٧٦١	المرض الذي هاجم الصليبيين
٧٦١	موت وليم المارشال
٧٦٢	حصار دمياط
٧٦٤	الهجوم الاسلامي الأول على الصليبيين
٧٦٥	الهجوم الاسلامي الثاني على الصليبيين
٧٦٦	الحملة الثالثة للمسلمين على الصليبيين
٧٦٧	القتال بين المسلمين والصليبيين
٧٦٩	كيف غادر عدد من الحجاج دمياط من دون إذن
٧٧٠	الموتان بين حامية دمياط
٧٧١	كيف عرض السلطان تسليم مملكة القدس إلى الصليبيين
٧٧٣	الاستيلاء على مدينة دمياط

الصفحة	الموضوع
٧٧٤	منهوبات مدينة دمياط
٧٧٥	الاستيلاء على قلعة تنيس
٧٧٦	مهاجمة لويس طولوز وتراجعه
٧٧٧	التتويج الثاني للملك هنري
٧٧٨	تطويب القديس هيوج
٧٧٨	الاستيلاء على قلعتي ساني وروكنغهام
٧٧٩	نقل القديس توماس
٧٧٩	حصار قلعة بيهام
٧٨١	الخلاف بين أسقف درم والرهبان
٧٨٣	ذهاب أسقف درم إلى روما
٧٨٤	بناء قلعة جديدة في مونتغمري
٧٨٥	أوضاع الأرض المقدسة
٧٨٧	حج فيليب دي ألبيني إلى الأرض المقدسة
٧٨٧	فقدان دمياط
٧٨٩	رسالة أخرى حول القضايا نفسها
٧٩١	مباراة مصارعة واضطرابات في لندن
٧٩٣	عواصف رعدية
٧٩٥	مطالبة رئيس أساقفة كانتربري بامتيازات صك الحريات
٧٩٦	خلاف بين الويلزيين ووليم مارشال
٧٩٦	موت فيليب ملك فرنسا
٧٩٧	الألبينيون ينتخبون بابا
٧٩٩	كيف سعى بعض البارونات لاحداث خصام
٧٩٩	جلب صليب مولانا إلى برومهولم
٨٠٢	كيف وضع ملك انكلترا بين يديه قلاع التاج
٨٠٣	اخضاع لويس روشيل وبقية بواتو

الصفحة	الموضوع
٨٠٤	حصار بدفورد ومؤتمر نورثأمبتون
٨٠٦	الاستيلاء على القلعة
٨٠٨	منح جزء من خمسة عشر جزئاً إلى الملك
٨٠٩	كيف أرسل الملك الانكليزي أخاه رتشارد إلى غاسكوني
٨١١	نفي فالكاسيوس الخائن
٨١٢	معاينة الغابات
٨١٣	جمع الجزء من خمسة عشر جزئاً
٨١٣	حول خليلات الكهنة
٨١٤	كيف نجا ايرل أوف سالسبري من الغرق
٨١٥	كيف نجا الايرل المذكور من مصائد أعدائه
٨١٦	وصول المعلم أوتو إلى انكلترا
٨١٦	سعي أوتو إلى إقامة سلام بين فالكاسيوس والملك
٨١٧	حول احدى الفتيات التي تخلت عن الدنيا
٨١٩	كيف تحررت هذه الفتاة بوساطة شيطان من مغتصب
٨٢١	حول إحدى الناسكات
٨٢١	رفض كونتسة سالسبري الزواج
٨٢٢	مطالبة البابا بعطاء كهنوتي
٨٢٤	موت وليم ايرل سالسبري
٨٢٥	سعي المعلم أوتو إلى مصالحة الملك مع فالكاسيوس
٨٢٦	مجمع بورجي برئاسة المندوب البابوي
٨٢٧	اعطاء النائب البابوي الاذن لمندوبي الكهنة بالمغادرة
٨٢٨	مطالبة النائب البابوي بعطائين
٨٢٩	اعتراض المشرفين على المطالب
٨٣١	عودة المعلم أوتو إلى روما
٨٣٢	الحركة الكبيرة ضد كونت طولوز

الصفحة	الموضوع
٨٣٤	كيف غير ملك انكلترا نيته في عبور البحر
٨٣٤	وفاة رتشارد أسقف درم
٨٣٧	حصار أفينون من قبل لويس
٨٣٨	الموتان والمجاعة بين المحاصرين
٨٤٠	وفاة الملك الفرنسي لويس
٨٤١	الاستيلاء على أفينون
٨٤٢	تتويج لويس ملكاً على فرنسا
٨٤٤	موت فالكاسيوس
٨٤٥	استخراج الملك الانكليزي للمال
٨٤٦	إلغاء الملك صكوك الامتيازات
٨٤٧	عودة رسل الملك من فرنسا مخفقين
٨٤٨	ثورة البارونات ضد الملك
٨٥٠	حركة كبيرة لمساعدة الحملة الصليبية
٨٥١	تطور أحوال الحملة الصليبية
٨٥٤	إعاقة الحملة الصليبية من خلال غياب الامبراطور
٨٥٥	موت مؤسس طائفة الفرنسيسكان
٨٥٦	تثبيت البابا هذه الطائفة
٨٥٧	وعظ الراهب المتقدم ذكره
٨٥٩	احتشاد الناس عند موت الراهب المذكور
٨٦٠	بعض القوانين الجديدة التي عملها ملك انكلترا
٨٦١	نقل أسقف سالسبري إلى درم
٨٦٢	القرار الذي صدر بحق الامبراطور
٨٧٠	إعلان الامبراطور أنه حرم كنسياً ظلماً
٨٧١	إثارة الامبراطور الاضطهاد ضد البابا
٨٧١	شكاوى البابا ضد الامبراطور

الصفحة	الموضوع
٨٧٣	ثورة أهل روما ضد البابا
٨٧٤	موت ستيفن رئيس أساقفة كانتربري
٨٧٥	حول عصيان الويلزيين
٨٧٧	وصول الامبراطور فردريك إلى الأرض المقدسة
٨٧٩	اليهودي يوسف الذي مازال حياً
٨٨١	كيف خلف روجر يوستاس في أسقفية لندن
٨٨٢	دعوة نبلاء القارة ملك انكلترا للقدوم إليهم
٨٨٢	كتاب منجمو طليطلة حول الكواكب
٨٨٤	إثارة البابا الحرب ضد فردريك
٨٨٧	إلغاء انتخاب وولتر لرئاسة أساقفة كانتربري
٨٨٨	ترقية رتشارد إلى رئاسة أساقفة كانتربري
٨٩٠	إعادة الأرض المقدسة إلى الامبراطور فردريك
٨٩١	رسالة الامبراطور إلى الملك الانكليزي حول هذه المسألة
٨٩٥	العلامات التي تقدمت على استرداد الأرض المقدسة
٨٩٦	ضياع الأرض المقدسة
٨٩٧	مصالحة مدينة القدس
٨٩٨	أسباب شكوى البابا ضد الامبراطور
٩٠٠	العشور التي جمعت في انكلترا من أجل البابا
٩٠٢	الفرض المؤلم للعشور المذكورة
٩٠٤	تكريس رتشارد رئيس أساقفة كانتربري
٩٠٤	استعدادات ملك انكلترا للعبور إلى فرنسا
٩٠٥	الموت الشرير لمرابي
٩٠٦	عودة الامبراطور فردريك إلى بلاده
٩٠٧	امضاء ملك انكلترا عيد الميلاد في يورك
٩٠٩	عبور ملك انكلترا مع جيشه إلى بريتاني

الصفحة	الموضوع
٩١٠	خلافات بين البارونات الفرنسيين
٩١١	مذبحة بين الايرلنديين
٩١٣	زحف الملك الانكليزي إلى غاسكوني
٩١٤	المصالحة بين الملك الفرنسي والبارونات
٩١٤	عودة ملك انكلترا من بريتاني
٩١٦	فرض ضريبة بدل عسكري
٩١٦	الخلاف بين الملك ورئيس الأساقفة
٩١٧	أعمال العيث التي اقترفها للويلين الويلزي
٩١٨	حرمان للويلين كنسياً
٩١٩	انتقام الملك لخيانة الراهب
٩٢٠	إبرام معاهدة بين ملكي فرنسا وانكلترا
٩٢١	ذهاب رتشارد رئيس أساقفة كانتربري إلى روما وموته
٩٢٢	إقلاع هنري عن الزواج من أخت ملك اسكوتلندا
٩٢٢	انتخاب رالف رئيساً لأساقفة كانتربري ثم إلغاء ذلك الانتخاب
٩٢٣	صلف رجال الدين الرومان
٩٢٥	تحريم بيع المزارع إلى الرومان
٩٢٦	المحكمة اللاهوتية في دير القديس ألبان
٩٢٧	مصادرة القمح في ونغهام
٩٢٨	الملك يطلب مساعدة مالية
٩٢٩	رؤيا تتعلق بالملك رتشارد
٩٢٩	رؤية رتشارد لتمثال المسيح حانياً رأسه
٩٣١	إبقاء فارس على حياة عدوه
٩٣٢	صبر الملك أثناء مضايقته
٩٣٥	بيع حاصلات رجال الدين الرومان
٩٣٦	البحث حول قضية سرقة قمح الرومان

الصفحة	الموضوع
٩٣٧	إلغاء انتخاب رئيس رهبان كانتربري
٩٣٧	صرف الملك الانكليزي لبعض وزرائه
٩٣٩	مطالبة الملك بجرد حساب من هيوبرت مسؤول العدالة
٩٤٢	بعض الاتهامات ضد هيوبرت
٩٤٢	المنحة التي أعطيت إلى الملك
٩٤٤	كيف أخرج هيوبرت من الكنيسة بالقوة
٩٤٥	إعادة هيوبرت إلى القلعة
٩٤٦	جمع الجزء من أربعين من الممتلكات
٩٤٨	موت رالف ايرل شيستر
٩٥١	الزيارة التفقدية لرجال الدين
٩٥٢	الزيارات التفقدية للكنائس
٩٥٣	استشارة البابا حول الزيارات التفقدية
٩٥٥	كيف صرف الملك بعضاً من وزرائه
٩٥٧	احتجاج المارشال لدى الملك
٩٥٨	العواصف الرعدية
٩٥٩	إلغاء انتخاب رئيس أساقفة كانتربري
٩٥٩	الخلاف الذي نشب بين الملك وبين نبلاء المملكة
٩٦٠	كيف طرد الملك بعض نبلائه
٩٦١	انذار المارشال بوجود مؤامرة ضده
٩٦٢	رشوة أسقف وينكستر المتحالفين مع الايرل مارشال
٩٦٣	الأذى الذي أنزل بوولتر أسقف كارآيل
٩٦٣	التحدي الذي أرسل إلى المارشال
٩٦٤	نجاة هيوبرت دي بورغ
٩٦٥	إخراج هيوبرت من الكنيسة
٩٦٦	استرداد المارشال قلعته من الملك

الصفحة	الموضوع
٩٦٧	استدعاء الملك جميع الذين يدينون بخدمة الفروسية
٩٦٨	النبلاء يحاربون جيش الملك عند غروسمونت
٩٦٩	معركة حادة بين المارشال والبواتيين
٩٧١	المذبحة التي أوقعها المارشال عند قلعة مونماوث
٩٧٢	حكمة المارشال
٩٧٩	احتفال الملك بعيد الميلاد في غلوستر
٩٧٩	إحداث المارشال مذبحة بين أعدائه
٩٨٠	ثورة النبلاء ضد مستشاري الملك
٩٨٠	الحملة ضد ثروبري
٩٨١	خطط مستشاري الملك ضد المارشال
٩٨٣	موافقة النبلاء الايرلنديين على عرض مستشاري الملك
٩٨٣	مقتل الهراطقة الألبينيين
٩٨٤	نصيحة الأساقفة إلى الملك حول الاضطرابات
٩٨٦	خروج النبلاء وأعمال انتقاماتهم
٩٨٧	صرف الملك لأسقف وينكستر
٩٨٩	ذهاب المارشال إلى ايرلاندا ومتابعة الحرب
٩٩٠	عدالة حرب المارشال
٩٩١	مشورة غيوفري مارش الخيانية
٩٩٢	المؤتمر بين المارشال والنبلاء الايرلنديين
٩٩٣	وقوع المارشال بالأسر
٩٩٥	موت المارشال
٩٩٧	انتقام النبلاء من مستشاري الملك
٩٩٧	المصالحة بين النبلاء والملك
٩٩٩	الملك يطلب حساباً من بطرس ريفول
١٠٠٠	مطالبة الملك بحساب من بطرس ريفول

الصفحة	الموضوع
١٠٠٢	ظهور ستيفن سيغريف أمام الملك
١٠٠٣	تخلي كونت بريتاني عن ولائه
١٠٠٤	واقعة اعجازية تتعلق بأحد الأساقفة
١٠٠٦	وضع اعجازي يتعلق بشراهة أحد الكهنة
١٠٠٧	معجزة وقعت خلال هذا العام
١٠٠٩	خلاف بين البابا وبين الرومان
١٠١١	ختان صبي مسيحي من قبل اليهود
١٠١٢	موت راعي دير سينت ألبان
١٠١٣	الدعوة إلى حملة صليبية جديدة
١٠١٤	مذكرة البابا
١٠١٧	معجزة تتعلق بامرأة
١٠١٨	طلب الامبراطور أخت ملك انكلترا للزواج منها
١٠١٩	زينة عرس الامبراطورة
١٠٢١	وصول الامبراطور إلى كولون
١٠٢٢	زواج الامبراطور والامبراطورة في وورم
١٠٢٢	النسب النبيل للامبراطورة